# تشارلز ديكنز



# ديفيد كوبرفيلد

الجزء الأول

رواية

الترجمة الكاملة



ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

# ديفيد كوبرفيلد

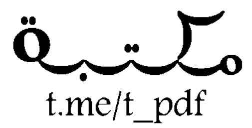
تشارلز ديكنز




- المؤلف: تشارلز ديكنز



- العنوان: ديفيد كوبرفيلد - الجزء الأول
- ترجمة: زينب محمد عبد الحميد
- طبعة آفاق الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ








رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 332 - 9





**Afaq Bookshop & Publishing House**

**1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb**
**CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787**
**E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com**

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

## الجزء الأول




آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**
**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**
**إدارة الشئون الفنية**

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد - الجزء الأول

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط١ القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - ٢٠٢٢

٥٤٤ ص، ٢١ سم.

رقم الإيداع ٢٩٢٦٩ / ٢٠٢١

الترقيم الدولي 9 - 332 - 977-765 - 978

١ - الأدباء (روايات)

٢ - ديكنز، تشارلز




# مقدمة المترجمة

لا أخفي على القارئ أنني أمام أصعب ما واجهته في هذا العمل، وهو مفارقته بعد عام وأربعة أشهر من المعايشة لا الترجمة، كما أن دربًا من الجنون قد يدفعني إلى كتابة مقدمة لعمل مثل الذي بين أيدينا، إذ أدرك استحالة أن أختزل هذا العمل بما فيه من زخم وإبداع في سطور تقتضب الحكاية، كما أن ما سبقني من دراسات ومقالات عن هذا العمل يجعلني عاجزة عن الإشارة إلى عالم ديكنز الممتد من الطفولة إلى النضج في سطور قلائل.

وهذه الرواية على انتشارها، لم تحظَ بعدد من الترجمات الكاملة لها، بل شاعت لها إصدارات مختصرة، وهي على جودتها وأهميتها للنشر، قد اختزلت عالم ديكنز الرحب، وقمعت شخصياته لصالح ما يسلط الضوء على الحكاية لا عالم الحكاية وشخصياته، فانتقصت من أدبيته.

في النهاية أود الإشارة إلى المشروع المهم الذي تبنته دار آفاق، إذ أخذت على عاتقها إحياء الكلاسيكيات، برؤية تشمل الموازنة بين طرح ترجمات جديدة لاكتشافات فكرية وأدبية لم تترجم من قبل، وتقديم ترجمات كاملة لأعمدة الأدب العالمي. أسعدني القدَر بالمشاركة في هذا المشروع بترجمة «ديفيد كوبرفيلد».



# مقدمة المؤلف

يصعب عليَّ الابتعاد عن هذا الكتاب، أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغًا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم، حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمَّنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طوال عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافًا هو عليَّ هينٌ، مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

لن ألتفت إلى الماضي، بل سأتطلع إلى المستقبل، حيث لا أستطيع أن أغلق هذا العمل من دون نظرة متفائلة متطلعة إلى الوقت الذي سأقوم فيه مرة أخرى بطرح أوراقه اليانعة بين دفتَي كتاب واحد، محتفظًا بذكرى مخلصة للشمس الحانية والندى الذي عبَّأ هذه الأوراق من نبتة «ديفيد كوبرفيلد»، وجعلتني سعيدًا.

لندن، أكتوبر ١٨٥٠



# تاريخ وخبرة الصغير

# ديفيد كوبرفيلد

# الفصل الأول

## مولدي

ستُظهر هذه الصفحات ما إذا كنت سأصير بطلًا في حياتي، أم سيحتل هذه البطولة إنسان غيري. سأسرد حكاية حياتي من بدايتها؛ فأُدَوِّن أنني وُلدت (على حد علمي وظني) في يوم الجمعة، في الساعة الثانية عشرة ليلًا. جدير بالملاحظة أنه ما إن بدأت الساعة تدق حتى أجهشت بالبكاء.

أما يوم وساعة مولدي، فقد أعلنت الممرضة عن بشارته، وكذلك قالت بعض النساء الحكيمات في الحي اللائي اهتممن بي بشدة، حتى قبل مولدي بعدة أشهر، ومن دون أي إمكانية لتعرفنا الشخصي. أولًا: قُدِّر لي أن أصير سيئ الحظ في الحياة؛ وثانيًا: سأمتاز بقدرتي على رؤية الأشباح والأرواح، وحسبما ظنن فقد تعلقت كلتا الهِبتين حتمًا بي، فهذا مصير جميع الأطفال قليلي الحظ من الجنسين، الذين يُولدون في الساعات الأولى من ليلة الجمعة.

لا أحتاج إلى قول أي شيء هنا عن النقطة الأولى، فليس ثمة ما يبرهن هذه النبوءة أو يدحضها أفضل من تاريخي وما تبعه من مغبّات. أما النقطة الثانية، فسأُعقِّب فقط بأنني إن لم أكن قد واجهت هذا الجزء من الميراث وأنا لم أزل طفلًا، فإنني لم أصل إليه بعد. إلا أنني لا أشتكي على الإطلاق من حرماني من هذه الهبات؛ وإن كان ثمة إنسان آخر يتمتع بها حاليًّا، فإني آمل مخلِصًا أن يتمسك بها.

وُلدت محاطًا بكيس جنيني، وقد أُعلن عن بيعه في الصحف بسعر زهيد يبلغ خمسة عشر جنيهًا[1]. ويبدو أن البحارة الرُّحل كانوا يفتقرون إلى المال في ذلك الوقت، أو أنهم قد تخلوا عن هذا الاعتقاد وصاروا يفضلون سترة الفلين، لست متأكدًا من الأمر؛ كل ما أعرفه أنه لم يقبل سوى مشترٍ واحد، كان المتقدم محاميًا يعمل لحساب بعض السماسرة لتحصيل الفواتير. عرض المشتري جنيهين نقدًا، على أن يسدد باقي ثمنه خمرًا، لكنه استنكر أن يضمن له الكيس النجاة من الغرق إن دفع مبلغًا أعلى. سُحب الإعلان نتيجة لذلك، وتكبدنا الخسارة – الخمر لم يكن مرضيًا، إذ كان الخمر الذي تصنعه أمي العزيزة المسكينة قد أتيح في السوق في ذلك الوقت. حُفِظ هذا الكيس بعد عشر سنوات في لعبة اليانصيب في بلدتنا، من بين خمسين عضوًا يقامر عليها بتذكرة ثمنها نصف كروان، وكان على الفائز أن يدفع خمسة شلنات لاستلام جائزته.

---

(١) اعتقدت بعض الشعوب أن ولادة طفل يغطي رأسه كيسًا جنينيًا يكسبه حظًّا أو مواهب خاصة، كما ظن البحارة أن الاحتفاظ بكيس جنيني بمثابة تميمة ومنجاة من الغرق. صورت عدد من الأعمال الدرامية عدة شخصيات نسجت حولها الحكايات بسبب ولادتها بهذا الكيس الجنيني فوق رؤوسها.

كنت حاضرًا بنفسي، وأتذكر شعوري الغامر بالانزعاج والارتباك، من جرَّاء التصرف في جزء من جسمي بهذه الطريقة. أذكر أن هذه القطعة قد فازت بها سيدة عجوز تحمل سلة يد، وأخرجت منها خمسة شلنات على مضض، جميعها من فئة نصف البنس. كان المبلغ الذي دفعته ينقص عن المبلغ الكلي ببنسين ونصف - وقد استغرق الأمر وقتًا هائلًا وجملة كبيرة من الحسابات، للسعي من دون جدوى لإثبات ذلك لها. أما الحقيقة التي سوف نتذكرها لفترة طويلة على أنها واحدة من العجائب؛ هي أن السيدة لم تمتْ غرقًا قَطُّ، لكنها ماتت منتصرة على فراشها في الثانية والتسعين من عمرها. عرفت أنها ظلت تفتخر حتى نهاية حياتها، وأنها لم تركب الماء ولو مرة في حياتها، باستثناء سيرها على جسر. كانت تصرح دومًا حتى أيامها الأخيرة بينما تحتسي الشاي (الذي كانت تحبذه بشدة وتنحاز له)، باستيائها من ضعف إيمان البحارة وغيرهم، الذين كانوا يتجرأون «بالتسكع» حول العالم. حاول الناس عبثًا إقناعها أن بعض وسائل الراحة، بما في ذلك الشاي، نتجت عن هذه الممارسة التي تستهجنها. إلا أنها كانت تجيب دائمًا، بتأكيد أكبر ويقين فطري بقوة اعتراضها وقولها: «دعونا لا نهيم مع الهائمين».

وحتى لا أهيم بنفسي في الوقت الحاضر، فإنني سأعود إلى قصة مولدي.

وُلدت في بلدة بلندرستون، في إقليم سافوك، أو كما يقولون في اسكتلندا، وُلدت في هذه «الناحية». وُلدت يتيمًا. أغمض أبي عينيه عن نور هذا العالم قبل أن أفتح عينيَّ عليه بستة أشهر. لم أزل أستشعر غرابة

حتى الآن، في التفكير أنه لم يرني قَطُّ، ولم تزل تراودني إلى الآن غرابة، حيث الذكريات الغامضة التي أحملها من ارتباطات طفولتي المبكرة، بحجر قبره الأبيض في باحة الكنيسة، وكيف استشعرت شفقة لا تُوصف تجاهها، حيث كان مستلقيًا وحيدًا بقبره في ليل معتم، بينما كان منزلنا دافئًا ومضاءً بالنار والشموع، وقد أغلقت أبوابه وأحكمت علينا. بدا لي ذلك أحيانًا دربًا من دروب القسوة.

كانت لوالدي عمة، وبالتالي فهي عمتي الكبيرة، والتي سأحكي لكم قصتها في موضعها، وستربطني بها علاقات كثيرة فيما بعد. كانت عمتي القطب الرئيسي لعائلتنا. إنها الآنسة تروتوود، أو الآنسة بيتسي، كما كانت تدعوها أمي المسكينة دائمًا، بعدما تغلبت على خوفها العارم من هذه الشخصية صعبة المراس، فكانت لا تذكرها إلا فيما ندر. تزوجت عمتي من رجل أصغر منها، وكان في غاية الجمال، من دون أن ينطبق عليه المثل القائل «إن الجمال جمال الأخلاق» - لقد تردد القول أنه ضرب الآنسة بيتسي، إلى درجة أن وقع نزاع بينهما ذات مرة بشأن مخزون البيت، فأوشك بتصرف أهوج ولكنه صارم، على رميها من شباك يعلو درجتين من السلم. كانت هذه الأدلة تدعم تباين الأهواء بين الزوجين، مما دفع الآنسة بيتسي إلى مقايضته ودفع المال له وإجراء الانفصال بينهما بالتراضي. سافر بعدها إلى الهند بما معه من مال، وهناك، وفقًا لحكاية تُشاع في عائلتنا، شوهد ذات مرة يركب فيلًا بصحبة «بابون»(١)، لكنني أظن أنه كان بصحبة «بابو أو بيجوم»(٢).

---

(١) قرد أفريقي قصير الذيل.

(٢) رجل هندي أو سيدة من سيدات الهند. نوع من التلاعب بالألفاظ المتشابهة للسخرية.

على أي حال، وصلت أخبار وفاته من الهند إلى الوطن، في غضون عشر سنوات. لم يعرف أحد مدى تأثير الخبر على عمتي. لقد استعادت على الفور بعد الانفصال، اسمها قبل الزواج مرة أخرى، واشترت كوخًا في قرية صغيرة بعيدًا جدًّا على ساحل البحر، واستقلت بنفسها هناك كامرأة عزباء مع خادم واحد، وصار من المعروف أنها تعيش حياة نائية، وقد اعتزلت بعد ذلك كل شيء من دون رجعة.

أظن أن أبي كان فيما قبل ذا مكانة عندها؛ إلا أنها استشعرت إهانة قاتلة بعد زواجه بحجة أن أمي لم تكن سوى «دمية من الشمع». لم تكن قد رأت أمي من قبل، لكنها عرفت أنها لم تكن قد بلغت العشرين بعد. لم يلتقِ أبي والآنسة بيتسي مرة أخرى. كان عمر أبي يعادل ضعف عمر أمي عندما تزوج، وكانت له هيئة ضعيفة. مات بعد زواجهما بعام، وكما قلت قبلًا، فإنه مات قبل ستة أشهر من مجيئي إلى العالم.

كانت هذه حالتنا في فترة ما بعد الظهيرة، في يوم أرجو عذرًا أن أطلق عليه، تلك الجمعة التاريخية والعظيمة. لا أستطيع أن أدَّعي أنني كنت أدرك كيف سارت الأمور في ذلك الوقت، أو أنني أتذكر أشياء مبنية بالأساس على حواسي، أو نتيجة لما يلي من وقائع.

كانت أمي جالسة إلى جانب النار، واهنة القوى مريضة، وقد انخفضت معنوياتها للغاية. كانت تنظر نحو النار وقد ترقرقت دموعها، متفكرة في يأس بالغ في حالها وفي حال هذا الغريب الصغير اليتيم، الذي رحب بقدومه إلى العالم ببعض الدبابيس والتمائم، التي استقرت في درج في الطابق العلوي. حل إلى عالم لم يتحمس على الإطلاق

لفكرة مجيئه. كانت أمي، على حد قولي، جالسة إلى جانب النار، في ظهيرة يوم مشرق وذات رياح، من أيام شهر مارس، بائسة وفي غاية الحزن، غير متيقنة من قدرتها على مواصلة الحياة من جراء المحنة التي تعانيها. رفعت عينيها بينما تجفف دمعها، ناظرة نحو النافذة المقابلة، فإذا بها تبصر سيدة غريبة قادمة من ناحية الحديقة.

أحست أمي بوازع من شؤم بعد نظرتها الثانية، حيث كانت القادمة هي الآنسة بيتسي. لاحت أشعة شمس الغروب تتلألأ على السيدة الغريبة من فوق سور الحديقة، بينما تقترب إلى الباب في هيئة متصلبة وموحشة، ورباطة جأش لا بد أن تكون لملك لا لأي شخص آخر.

وما لبثت أن وصلت إلى المنزل، حتى أظهرت إثباتًا آخر لهويتها. طالما ألمح أبي إلى أنها نادرًا ما تتصرف مثل أي مسيحي عادي. أما الآن، فقد اقتربت وأخذت تنظر من تلك النافذة نفسها بدلًا من أن تدق الجرس. راحت تضغط أرنبة أنفها على الزجاج إلى الحد الذي عود أمي العزيزة المسكينة القول بأن أنفها صار في لحظة مسطحًا وأبيض تمامًا.

التفتت نحو أمي وقد أبدت لها نظرة أفزعتها، إلى الحد الذي أقنعني دومًا أنني مدين للآنسة بيتسي بمولدي في يوم الجمعة.

تركت أمي مقعدها في فزع، وقد توارت وراءه في زاوية الغرفة. أما الآنسة بيتسي، التي جالت نظراتها في أرجاء الغرفة في بطء، قد راحت تبحث عن أمي في الجانب الآخر من البيت، وعيناها تجولان مثل رأس

أعرابي يطل من ساعة هولندية، حتى وصلتا إلى أمي. عبست ثم أدلت بإشارة إلى أمي لتدنو وتفتح الباب، وكما اعتادت على طاعتها فقد فعلت أمي ذلك.

قالت الآنسة بيتسي: «أنتِ السيدة كوبرفيلد، على ما أظن». كان ظنها ربما يشير إلى ملبس الحداد لأمي، وحالتها التي تبدو عليها.

أجابت أمي بصوت خافت: «نعم».

قالت الزائرة: «الآنسة تروتوود. هل أجرؤ على القول بأنكِ سمعت عنها؟».

أجابت أمي أنها سعدت بالسماع عنها. ويبدو أنها اغتاظت من أنها لم تظهر عليها سعادة وارفة من جراء هذه المعرفة.

قالت الآنسة بيتسي: «ها أنتِ الآن تبصرينها». أحنت أمي رأسها وطلبت منها أن تتفضل بالدخول.

توجهتا إلى الصالون الذي أتت منه أمي، حيث لم تكن النار قد أوقدت في أفضل الغرف على الجانب الآخر من الممر - إذ لم توقد النار بالفعل منذ تشييع جنازة أبي. جلستا معًا من دون أن تتفوه الآنسة بيتسي بكلمة واحدة، فبدأت أمي في البكاء بعد أن حاولت عبثًا كبح جماح انفعالها. قالت الآنسة بيتسي على عجل: «آه تُت، تُت، تُت![1] لا تفعلي هذا. هيًا كُفي عنه».




---

(١) صوت يوحي بالاعتراض.

لم تستطع أمي السيطرة على الأمر على الرغم من محاولتها، فبكت حتى أفرغت نحيبها.

قالت الآنسة بيتسي: «اخلعي قبعتك يا طفلتي، ودعيني أراكِ».

كانت أمي تخشاها للغاية، فلم ترفض الامتثال لهذا الطلب الغريب، مهما كان لديها من عدم استعداد للقيام بالأمر. لذلك امتثلت لما قيل لها، وفعلت ذلك بأيدٍ مرتعشة إلى الحد الذي جعل شعرها (الذي كان ناعمًا وجميلًا) يتدلى على وجهها.

صاحت الآنسة بيتسي قائلة: «ما هذا؟ يا الله! إنكِ تبدين مجرد طفلة!».

كانت أمي، بلا شك، تبدو في ريعان الشباب بشكل غير عادي حتى في سنواتها الأخيرة. إلا أن أمي المسكينة أخفضت رأسها، كما لو أنها مذنبة، وراحت تقول بينما تبكي إنها خائفة في الواقع من أن تبدو كطفلة أرملة، ولن تصبح سوى أم طفلة إن هي بقيت على قيد الحياة. خيل إليها بعد برهة، أنها شعرت بالآنسة بيتسي تلمس شعرها، لكن يدها لم تكن حانية. حولت نظرها إليها في خجل وتطلُّع، فوجدت تلك السيدة جالسة وقد لملمت إليها تنورة فستانها، متشابكة الأيدي، منضمة إلى ركبة واحدة، وقد أسندت قدميها إلى سياج المدفأة، تنظر نحو النيران بوجه عابس.

قالت الآنسة بيتسي فجأة: «بحق السماء، لماذا أسميتموه عش الطيور؟».

سألت أمي: «هل تقصدين المنزل، يا سيدتي؟».

قالت الآنسة بيتسي: «لماذا عش الطيور؟ إن كانت لدى أي منكما خبرة عملية في الحياة، فإن اسمًا من فنون الطهي كان سيَفي أكثر بالغرض».

أجابتها أمي قائلة: «كان الاسم من اختيار السيد كوبرفيلد، فقد أحب أن يتخيل طيرًا يحوم حول البيت عندما اشتراه».

أحدثت رياح المساء نوعًا من الاضطراب بين بعض أشجار الدردار القديمة القابعة في الحديقة، بحيث لم تستطع أمي ولا الآنسة بيتسي في هذه اللحظة أن تتغاضيا عن إلقاء نظرة خاطفة نحو هذه الجلبة. كانت أفرع أشجار الدردار تنحني نحو بعضها البعض، مثل عمالقة يتهامسون بالأسرار، وبعد بضع ثوانٍ من هذه الإفضاء، سقطوا في موجة عارمة من العنف، فألقوا بأذرعهم الجامحة، كما لو أن أسرارهم المتأخرة كانت شريرة جدًّا فعكرت صفوهم. بدت بعض أعشاش الطيور القديمة الممزقة التي أفسدها الطقس، كما لو أنها تثقل كاهل أغصانها العُليا، فراحت تتأرجح مثل حطام البحر على صفحة موج عاصف.

سألت الآنسة بيتسي: «أين الطيور؟».

كانت أمي تفكر في شيء آخر، فرددت: «أين...؟».

سألت الآنسة بيتسي مرة أخرى: «أين الطيور؟ ماذا حل بها؟».

قالت أمي: «لم تكن ثمة طيور منذ أن عشنا هنا. ظننا - تصور السيد كوبرفيلد - أن الحديقة ستصير محلًّا للطيور، ولكن الأعشاش كانت قديمة جدًّا، وقد هجرتها الطيور لفترة طويلة».

صاحت الآنسة بيتسي: «إنه ديفيد كوبرفيلد نفسه! إنه ديفيد كوبرفيلد من منبت رأسه حتى أخمصي قدميه! يطلق على المنزل عشًّا

للطيور بينما ليس ثمة طائر واحد بالقرب منه، ويتصور بثقة أن الطيور ستأتي، لأنه يرى الأعشاش!».

راحت أمي تقول: «إنني في حداد على السيد كوبرفيلد، وإذا بكِ تجرؤين على التحدث إليَّ بهذا الجفاء...».

أتصور أن أمي العزيزة المسكينة كانت على وشك الاعتداء على عمتي ومهاجمتها. أما عمتي فكان من الممكن أن تخرسها بسهولة بإيماءة يد واحدة، حتى لو كانت أمي قد تدربت بشكل أفضل على مثل هذا اللقاء في ذلك المساء. ما لبثت أن نهضت من كرسيها، حتى جلست مرة أخرى في خنوع تام قد فقدت وعيها.

عادت أمي إلى وعيها، أو أعادتها الآنسة بيتسي إلى يقظتها، أيًّا كان الأمر، فقد وجدت الأخيرة واقفة جوار النافذة. كاد الشفق في هذه اللحظة أن ينجلي نحو ظلام الليل، ولم يكن بإمكان كل منهما أن تبصر الأخرى في صورة خافتة، من دون هذا الضوء الساري من النيران المشتعلة.

تحدثت الآنسة بيتسي، بينما عادت إلى كرسيها، كما لو أنها قد ألقت بنظرة عابرة على المشهد، فقالت: «حسنًا، وماذا تنتظرين...؟».

تلعثمت أمي قائلة: «إن جسدي بأكمله يرتجف. لا أعرف ماذا ينتظرني. سأموت، إنني موقنة بذلك!».

قالت الآنسة بيتسي: «لا، لا، لا. فلتشربي القليل من الشاي».

صرخت أمي في عجز قائلة: «يا عزيزتي، يا عزيزتي، هل تظنين أنه سيجلب لي الخير؟».

قالت الآنسة بيتسي: «بالطبع سيفعل. إن الأمر لا يتعدى كونه دربًا من الأوهام. ما اسم فتاتك؟».

قالت أمي ببراءة: «لا أعرف حتى هذه اللحظة إن كانت فتاة أم صبيًّا يا سيدتي».

صاحت الآنسة بيتسي، مستشهدة بلا وعي بالأمنية الثانية المرتبطة بوسادة الدبابيس القابعة في درج في الطابق العلوي، ولكن أمي كانت قد أساءت فهمها هذه اللحظة، فأجابت بأنها لم تكن تقصدني، قائلة: «فليبارك الله الطفلة! لم أقصد السؤال عن اسمها. أعني ما اسم خادمتك؟».

قالت أمي: «اسمها بيجوتي؟».

كررت الآنسة بيتسي قولها ممزوجًا ببعض السخط، فقالت: «بيجوتي! هل تقصدين أيتها الفتاة، أن ثمة إنسانًا قد ذهب إلى كنيسة مسيحية، وقد أُطلق عليه اسم بيجوتي؟». أجابت أمي بصوت خافت: «إنه لقبها. لقد أطلق عليها السيد كوبرفيلد هذا الاسم، لأن اسمها المسيحي هو اسمي نفسه».

فتحت الآنسة بيتسي باب الصالون ثم صاحت: «يا بيجوتي، أحضري شايًا. إن سيدتك مريضة قليلًا. لا تتأخري».

أصدرت هذا الأمر بكل ما أوتيت من قوة كما لو أنها صاحبة سلطة معترف بها في هذا المنزل منذ أن وجد. تطلعت نحو وجه بيجوتي المندهش وهي قادمة من الممر حاملة شمعة نحو هذا الصوت الغريب، فما لبثت أن أغلقت الآنسة بيتسي الباب مرة أخرى، ثم جلست كما

كانت من قبل. أسندت قدميها على حاجز المدفأة، أما تنورة فستانها فمطوية تحتها وقد شبكت يديها على ركبة واحدة.

قالت الآنسة بيتسي: «كنت تحدثين عن كون المولود فتاة. لا يخامرني شك في أنها ستكون فتاة. يراودني شعور بأنها يجب أن تكون فتاة. أما الآن يا طفلتي، فمنذ لحظة ولادة هذه الفتاة...».

تجرأت أمي وراحت تقول بحرية: «ربما... صبيًّا».

أردفت الآنسة بيتسي تقول: «إنني أخبرك بما يختلجني من شعور بأنها فتاة. لا تعارضي شعوري. وإنني أنتوي منذ لحظة ولادة هذه الفتاة، أيتها الطفلة، أن أصير صديقتها. أتطلع أن أصبح أمًّا روحية لها، وأرجو أن تسميها بيتسي تروتوود كوبرفيلد. يجب ألا تقع أي أخطاء في حياة بيتسي تروتوود. ينبغي ألا يحط أي شيء تافه من مشاعر هذه المسكينة العزيزة. يجب أن تنشأ نشأة حسنة، وأن نحسن حمايتها وصيانة مشاعرها من أي خفايا حمقاء لا تستحق مشقة التفاتها إليها. سأوليها رعايتي واهتمامي».

كانت الآنسة بيتسي تعقب كل جملة من هذه الجمل بإيماءة من رأسها، كما لو أن ذاكرتها استدعت أخطاءها السالفة، وقد راحت تكبت أي إشارة واضحة إلى هذه الأخطاء بإصرار شديد. كانت أمي قد راودتها الشكوك نفسها، بينما كانت تراقبها عبر بصيص شذرات النيران الخافتة، فقد لفها خوف عارم من الآنسة بيتسي. صارت أمي في حالة من الاضطراب الحاد، وقد استولى عليها الارتباك كاملًا، إلى الحد الذي جعلها تستطيع بالكاد أن تلاحظ أي شيء بوضوح، أو تعرف ما عليها قوله.

ساد صمت من جانب الآنسة بيتسي لبعض الوقت في محاولة منها لإيقاف حركات رأسها هذه تدريجيًّا، ثم سألت: «وهل كان ديفيد جيدًا معكِ، يا طفلتي؟ هل كنتما على وفاق معًا؟».

قالت أمي: «كنا سعيدين للغاية. كان السيد كوبرفيلد طيبًا جدًّا في معاملته لي».

راحت الآنسة بيتسي تسأل: «ماذا، هل أفسدك بتدليله على ما أظن؟».

بكت أمي قائلة: «نعم، أخشى أنه أفسدني بالفعل، بعد أن تركني وحيدة تمامًا أعتمد على نفسي في هذا العالم القاسي مرة أخرى».

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، لا تبكي. لم تكونا متكافئين أيتها الطفلة - إذا كنا نفترض إمكانية تكافؤ أي شخصين بشكل ما - ولذا طرحت عليكِ هذا السؤال. كنت يتيمة حينما تزوجك، أليس كذلك؟».

«نعم».

«وكنت تعملين مربية؟».

فأجابت أمي ببساطة: «كنت مربية أطفال، أعمل لدى عائلة كان السيد كوبرفيلد يزورها. كان السيد كوبرفيلد لطيفًا جدًّا معي، وقد التفت إليَّ وأحاطني بالرعاية، وأعارني قدرًا كبيرًا من الاهتمام، وفي النهاية تقدم إليَّ بالزواج، ثم قبلته. وهكذا تزوجنا».

أطرقت الآنسة بيتسي، ولم تزل عابسة الوجه متأملة في النيران ثم قالت: «ها! أيتها الطفلة المسكينة! هل تعلمين أي شيء؟».

تلعثمت أمي قائلة: «أستميحك عذرًا يا سيدتي، ماذا قلتِ؟».

قالت الآنسة بيتسي: «هل تعلمين شيئًا عن رعاية المنزل، على سبيل المثال؟».

أجابتها أمي قائلة: «أخشى أنني لا أعرف الكثير، فمعرفتي لا ترقى إلى ما كنت أتمنى. لكن السيد كوبرفيلد كان يُعلِّمني...».

قالت الآنسة بيتسي على سبيل الاعتراض: «أكان يعرف الكثير عن هذه الأمور بنفسه؟!».

أكملت أمي: «وآمل أن أكون قد تحسنت، فقد كنت حريصة جدًّا على التعلم. كان في غاية الصبر لتعليمي، لولا فاجعة موته الكبرى».

انهارت أمي في هذه اللحظة مرة أخرى، ولم تستطع الاستمرار في الحديث.

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، على مهلك».

أكملت أمي: «لقد احتفظت بدفتر لتدوين حسابات المنزل بانتظام، وكنت أراجعه كل ليلة مع السيد كوبرفيلد».

بكت أمي في موجة ثانية من النحيب، ثم انهارت مرة أخرى.

قالت الآنسة بيتسي: «حسنًا، كفى! لا تبكي مرة أخرى».

استأنفت أمي حديثها في نوبة أخرى من البكاء، بعد أن انهارت من جديد قائلة: «إنني على يقين من أننا لم نُبدِ قَطُّ أي اختلاف حول هذا الأمر، إلا اعتراض السيد كوبرفيلد على تشابه كتابتي لرقم ثلاثة ورقم خمسة إلى حد كبير، أو اعتراضه على كتابة ذيول متعرجة لرقم سبعة ورقم تسعة».

قالت الآنسة بيتسي: «سترهقين نفسك بهذا الشكل، وأنتِ تعلمين أن هذا البكاء ليس في صالحك أو صالح ابنتي الروحية. على مهلك، كُفي عن هذا النحيب».

كان لهذه الحجة بعض الأثر في تهدئة أمي، وإن كان لتوترها المتزايد الأثر الأكبر في خفوتها. ساد فاصل من الصمت، لم يقطعه إلا صوت الآنسة بيتسي وهي تُردد بين الحين والآخر قولها: «ها!». بينما كانت تجلس وقد أسندت قدميها على حاجز المدفأة.

تحدثت بعد فترة قائلة: «أعرف أن ديفيد قد أمَّن لنفسه معاشًا سنويًا اقتطعه من ماله، فماذا فعل لكِ؟».

تحدثت أمي على الرغم مما تجده من صعوبة في الحديث قائلة: «كان السيد كوبرفيلد حريصًا جدًّا وكثير الكرم بحيث أمَّن عودة جزء من المعاش إليَّ».

سألت الآنسة بيتسي: «كم المبلغ؟».

قالت أمي: «مئة وخمسة جنيهات في السنة».

قالت عمتي: «كان من الممكن أن يفعل ما هو أسوأ من ذلك».

كانت هذه الكلمات مناسبة لهذه اللحظة. صارت أمي في حالة أسوأ، للحد الذي جعل بيجوتي تلحظ في لمحة بصر كيف اكتنفها المرض، بينما تتوجه نحوها حاملة شايًا وشموعًا، وسرعان ما قامت بيجوتي بنقل أمي إلى الطابق العلوي حيث غرفتها الخاصة، الأمر الذي كانت لتفعله الآنسة بيتسي عاجلًا إذا توفر لها ضوء كافٍ. ما

لبثت بيجوتي أن استدعت هام بيجوتي، ابن أخيها، الذي ظل مختبئًا في المنزل عدة أيام من دون معرفة أمي. أرسلته بوجه خاص في حالة الطوارئ هذه، ليستدعي الممرضة والطبيب.

انتابت كل منهما دهشة بالغة فور وصول كل منهما عقب الآخر في غضون بضع دقائق، ليجدا سيدة يجهلانها يبدو من مظهرها الوقار، وقد جلست أمام النار، رابطة قبعتها حول ذراعها اليسرى، بينما تسد أذنيها بقطع من القطن. لم تكن بيجوتي تعرف شيئًا عنها، ولم تقل أمي شيئًا عنها. ظلت لغزًا قابعًا في الحجرة، ولم ينتقص من جلال حضورها ما حملته في جيبها من قطن يستخدمه الصاغة، بينما كانت تحشو أذنيها به.

صعد الطبيب إلى الطابق العلوي ثم نزل مرة أخرى بعد أن فحص مريضته، وعلى ما أظن، فقد أقنع نفسه بمقابلة هذه السيدة المجهولة والجلوس معها هناك لبضع ساعات، بدافع نوع من اللباقة الاجتماعية. كان أكثر الرجال لطفًا وأرقهم طبعًا. ظل يدخل ويخرج من الغرفة ليشغل مساحة أقل على الرغم من ضآلته. راح يمشي بهدوء كما لو أنه شبح مسرحية هاملت، بل كان أكثر خفة وبطئًا. أشاح برأسه جانبًا بعض الشيء بتواضع ووقار، استرضاء للآخرين واستعطافًا لهم. ليس بوسعي قول شيء سوى أنه لم يكن ليؤذي كلبًا ولو بكلمة واحدة. لم يكن بإمكانه أن ينهر كلبًا ضالًّا ولو بكلمة. كان يتكلم بروية تشبه مشيته تمامًا، فربما يقدم كلمة لطيفة، أو نصف كلمة، أو جزءًا من جملة رقيقة، لكنه لم يكن ليتفوه بكلام وقح، أو يتسرع في الحديث، لأي اعتبارات دنيوية.

تحدث السيد تشيليب، بينما ينظر بلطف نحو عمتي وقد أمال رأسه جانبًا، ليشكل قوسًا صغيرًا، إذ راح يشير إلى قطن حفظ الجواهر، ملامسًا أذنه اليسرى بلطف وقائلًا:

«هل تعانين من بعض الالتهاب الموضعي، يا سيدتي؟».

أجابته عمتي وهي تسحب القطن من أذن واحدة كما لو أنه سدادة من فلين قائلة: «ماذا تقول؟!».

كان السيد تشيليب منزعجًا جدًّا مما أظهرته من اندهاش -كما قال لأمي فيما بعد- وإنه لمحظوظ إذ لم يفقد عقله. لكنه كرر سؤاله بلطف:

«هل تعانين من بعض الالتهاب الموضعي، يا سيدتي؟».

ردت عمتي قائلة: «هراء»، ثم أعادت سدادة أذنها مرة أخرى بحركة واحدة.

لم يستطع السيد تشيليب فعل أي شيء بعد ذلك، بل جلس وأخذ ينظر نحوها بوهن، بينما كانت قابعة تنظر نحو النار، حتى نودي مرة أخرى إلى الطابق العلوي. عاد بعدها بربع ساعة.

سألته عمتي بينما تخرج القطن من أذنها الأقرب إليه: «حسنًا، ما الأمر؟».

رد السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، إننا... إننا نتقدم ببطء يا سيدتي».

أجابته عمتي بتعليق ساخر متقطع الصوت، قائلة: «آ - آ - آه!»، ثم سدت أذنها كما كانت من قبل.

نعم - هذا حقًّا ما حدث - كما أخبر السيد تشيليب أمي، إذ تملكه شعور أقرب إلى الصدمة تقريبًا. كان يتحدث من وجهة نظر مهنية لا غير، وقد صدم تقريبًا. لكنه جلس وأخذ ينظر إليها، برغم ما حدث، لما يقرب من ساعتين، بينما كانت جالسة تنظر نحو النار، حتى نودي مرة أخرى. عاد مرة أخرى بعد غياب جديد.

سألته عمتي بينما تخرج القطن من أذنها الأقرب إليه مرة أخرى: «حسنًا، ما الأمر؟».

رد السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، إننا... إننا نتقدم ببطء يا سيدتي».

قالت عمتي: «يا - ا - اه!». تحدثت بازدراء لا يحتمل في وجه السيد تشيليب. قال فيما بعد إن المقصد من هذه الطريقة هو التقليل من مكانته أمامها. فضل بعدها الذهاب والجلوس على الدرج في ظلام وقد ثبت في مهب الهواء، حتى نودي مرة أخرى.

أما هام بيجوتي، الذي تعلم في المدرسة الأهلية، وكان متمسكًا بتعاليم المسيحية وحريصًا عليها، ومن ثَم يمكن اعتباره شاهدًا موثوقًا به على الأحداث؛ فقد حكى في اليوم التالي، أنه قد لاحت له نظرة خاطفة عبر فتحة عند باب الحجرة، بعد ساعة مما حدث، فإذا بالآنسة بيتسي وقد لمحته فورًا، بينما كانت تمشي جيئة وذهابًا في حالة من الإثارة؛ فانقضت عليه قبل أن يتمكن من الهرب. علت في هذه اللحظة أصوات أقدام في الفضاء، ولم يكن للقطن أن يحجب ضجيجها. كان هام هو مصدر هذا الصوت، إذ أمسكت به السيدة كضحية تغدق عليه غضبها الزائد بينما

تعلو الأصوات أكثر فأكثر. كانت تسحبه من ياقته وتشده إليها ثم تبعده (كما لو أنه أفرط في سكره). راحت في هذه اللحظة تهزه ثم شدته من شعره، ومزقت قميصه، ثم أخذت تنخر أذنيه كما لو أنها أرادت إصابتهما كما هي حال أذنيها، من دون أن تتوانى في إذلاله وسوء معاملته. أكدت عمته ما حدث، فقد رأته في الساعة الثانية عشرة والنصف، بعد وقت قصير من إطلاق سراحه، وأشارت أنه كان محمر اللون مثلي تمامًا.

لم يكن السيد تشيليب ليكن حقدًا لأحد؛ لا في مثل هذا الوقت، ولا في أي وقت آخر. ما لبث أن دخل إلى الحجرة بمجرد أن أطلق سراحه، وقال لعمتي بأسلوب وديع:

«حسنًا يا سيدتي، يسعدني أن أهنئك».

قالت عمتي بحدة: «على أي شيء؟».

ارتعش السيد تشيليب مرة أخرى بسبب لهجة عمتي شديدة القسوة، ولذلك فقد انحنى قليلًا أمامها وأرسل إليها ابتسامة صغيرة لتهدئتها.

صرخت عمتي في نفاد صبر قائلة: «ليرحم الله هذا الرجل، ما الذي يفعله؟! ألا يستطيع الكلام؟».

قال السيد تشيليب بلهجته اللطيفة: «اهدئي يا سيدتي العزيزة. لا داعي للقلق يا سيدتي. اطمئني».

اعتقدوا منذ ذلك الحين أن معجزة حالت بينه وبين عمتي، فلم تقبض عليه وتشده لتنتزع منه حديثه. لقد اكتفت بأن هزت رأسها، ولكن بطريقة جعلته يرتجف خوفًا.

استأنف السيد تشيليب حديثه، بمجرد أن تحلى بالشجاعة قائلًا: «حسنًا يا سيدتي، يسعدني أن أهنئك. انتهى الآن كل شيء يا سيدتي، وقد مرَّ بسلام».

أخذ السيد تشيليب يلقي كلماته مستغرقًا نحو خمس دقائق أو يزيد، وقد راحت عمتي تتمعن فيه بنظراتها.

تحدثت عمتي بينما تطوي ذراعيها ولم تزل قبعتها معقودة حول إحداهما قائلة: «كيف حالها؟».

أجابها السيد تشيليب: «حسنًا يا سيدتي، آمل أنها سترتاح تمامًا قريبًا، فتحظى براحة كاملة ينبغي أن تتوافر لأم شابة في ظل هذه الظروف المنزلية الكئيبة. ولا تعارض بين ذلك ورؤيتك لها الآن، يا سيدتي، بل قد يصير وجودك مفيدًا لها».

قالت عمتي بحدة: «وما حالتها؟».

أطرق السيد تشيليب برأسه جانبًا أكثر قليلًا من ذي قبل، ونظر إلى عمتي مثل طائر وديع.

قالت عمتي: «الطفلة، كيف حالها؟».

أجاب السيد تشيليب: «يا سيدتي، ظننت أنكِ تعرفين. إنه ولد».

لم تنبس عمتي ببنت شفة، لكنها تناولت قبعتها من بين الأربطة كما لو أنها تمسك بسلاح، ووجهت بها ضربة إلى رأس السيد تشيليب، ثم لبستها بحنق، وخرجت ولم تعد قَطُّ. اختفت كما الجنية الساخطة،

أو تلاشت كواحد من تلك الكائنات الخارقة للطبيعة، بعد أن كان من المفترض أن أراها بشكل عام، ولكني لم أستطع.

لم تعد قَطُّ، وقد استلقيت في سلتي ومكثت أمي في سريرها. أما بيتسي تروتوود كوبرفيلد فقد باتت إلى الأبد في أرض الأحلام والظلال، تلك المنطقة الهائلة التي جئت منها مؤخرًا؛ وأنار الضوء فوق نافذة غرفتنا نحو نفق أرضي يسلكه المسافرون جميعًا، وفوق مقبرة تعلو رماد ورفات ذلك الرجل الذي عاش يومًا ما، ولولاه لم أكن.



# الفصل الثاني

## إنني ألاحظ

أنظر إلى الماضي، فأجد أول الأشياء التي تحضر أمامي في بهاء مميز، من فراغ طفولتي تلك، هو صورة أمي بشعرها الجميل وهيئتها الشابة، وكذلك صورة بيجوتي التي لا يميزها شيء على الإطلاق، فعيناها داكنتان؛ فاض سوادهما على ملامح وجهها بالكامل، أما خداها وذراعاها الصلبتان، فتصبغها حمرة فائقة، إلى حد أنني كنت أعجب من عدم إيثار الطيور لها لتنقرها عوضًا عن التفاح.

أتصور أنني أستطيع أن أتذكر هاتين المرأتين بينما تدنوان مني، إذ تتقزمان أمام بصري بعد انحناء أو ركوع على الأرض، بينما أتنقل من إحداهما إلى الأخرى بثبات. يراود عقلي انطباع لا يمكنني إبعاده عن ذكرياتي الحقيقية؛ وهو لمسة سبابة بيجوتي كما اعتادت أن تمسكني بها، وقد أثَّر فيها شغلها بالإبرة فأحالها خشنة مثل مبشرة جوزة الطيب.

قد يكون هذا خياليًّا، على الرغم من أنني أظن أن ذاكرة معظمنا يمكن أن تعود إلى أوقات أبعد مما يتصور الكثير منا، كما أظن أن قوة الملاحظة في عدد كبير من الأطفال الصغار، تكون رائعة جدًّا لقربها ودقتها. أحسب

في حقيقة الأمر أن معظم الرجال الراشدين الذين تميزوا فيما قبل بهذه الملكة، قد يقال إنهم لم يفقدوها بالكامل، بل اكتسبوها باستحقاق أكبر. كما ألاحظ عمومًا أن هؤلاء الرجال بالأحرى، يتميزون برقة ووداعة وقدرة على الشعور بالرضا، وهو أيضًا ميراث قد احتفظوا به منذ طفولتهم.

لا يراودني شك في أنني «أستطرد» بالتوقف عند هذا الرأي، ولكن الأمر يقودني إلى ملاحظة أنني أبني بعضًا من هذه الاستنتاجات على تجربتي الخاصة ومراقبتي لنفسي، فإذا أظهر ما أسجله في هذه الرواية شيئًا من أنني كنت طفلًا ذا ملاحظة دقيقة، أو أنني رجل يتمتع بذاكرة قوية لطفولتي، فأنا بلا شك أحظى بكلتا الميزتين.

أعود إلى الماضي، كما كنت أحكي، حيث فراغ طفولتي، فأتذكر الأشياء الأولى التي تبرز من تلقاء نفسها في ذاكرتي وسط غيرها من الذكريات المرتبكة، فأجد أمي وبيجوتي. ماذا أتذكر أيضًا؟ لنرَ.

يظهر منزلنا من بين سحابة الذكريات، لا تبدو صورته جديدة لي، بل مألوفة تمامًا كما عهدته في أقرب صورة له. يقبع المطبخ في الطابق الأرضي، حيث كانت بيجوتي مسؤولة عنه. كان باب المطبخ يفتح على الفناء الخلفي، يعلوه عش للحَمَام محمولًا على عمود في وسطه، من دون أن تسكنه أي طيور. ينتصب في الزاوية بيت للكلاب، من دون أن يسكنه كلب واحد. تلوح لذاكرتي أعداد من دجاجات تبدو لي طويلة بشكل مخيف. تتجول في هيئة خطيرة وشرسة. ثمة ديك وحيد كان قد وقف على عمود ليصيح، وكان يبدو أنه يراقبني بشكل خاص عندما أنظر إليه من نافذة المطبخ، مما جعلني أرتجف، قد كان في غاية

الشراسة. أحلم في ليلي بالإوز القابع خارج البوابة الجانبية؛ يسير ورائي برقابه الطويلة الممتدة بينما أعبر هذا الطريق. أحلم به كإنسان محاط بالوحوش البرية والأسود.

يمتد ممر طويل يصل بين مطبخ بيجوتي والباب الأمامي، ويا له من مشهد عظيم أهاب تذكره! ينبثق منه مخزن مظلم، لا يمكن العبور من خلاله إذا جن الليل، لأنني لا أعرف ما يكمن بين تلك الأحواض وخلف الجرار وصناديق الشاي القديمة، خاصة عندما لا يوجد إنسان يحمل ضوءًا منيرًا ولو بشكل خافت، أو من دون أن نسمح للهواء المتعفن بالخروج من الباب، حيث تنبعث رائحة الصابون والمخللات والفلفل والشموع والقهوة، حين تهب جميعها في نفحة واحدة... ثم ثمة صالتان: نجلس في إحداهما حين يحل المساء، أنا وأمي وبيجوتي - لأن بيجوتي ترافقنا دائمًا بعد الانتهاء من عملها، فنجلس معًا من دون أن يسامرنا أحد. أما الصالون الأفخم فنجلس فيه يوم الأحد في هيئة جليلة، ولكنها ليست مريحة تمامًا. يلف هذه الغرفة طيف خاطف كما أتذكرها. حكت لي بيجوتي عن جنازة أبي، ولا أذكر متى ولكن على ما يبدو أنها منذ زمن طويل، فأخبرتني عن المُعزين الذين تلحفوا بعباءات سوداء وجلسوا فيها. راحت أمي تقرأ لي ولبيجوتي في إحدى ليالي الأحد في هذه الغرفة، كيف أقيم لعازر من الموت[١]. تملكني الخوف بعدها لدرجة أنهم اضطروا بعد ذلك إلى حملي من السرير، وإطلاعي

---

(١) إحياء لعازر هو إحدى معجزات المسيح المذكورة في إنجيل يوحنا، حيث قام المسيح الشاب لعازر من الموت بعد أربعة أيام من دفنه.

على فناء الكنيسة الهادئ عبر نافذة غرفة النوم، حيث يرقد الموتى جميعًا في قبورهم في سكون، تحت أضواء القمر المهيب.

لا أعرف شيئًا أكثر اخضرارًا ونضرة في أي مكان، أكثر من حشائش فناء الكنيسة، ولا شيء يضاهي ظلال أشجاره الباسقة، ولا شيء يعادل سكون شواهد هذه القبور. أما الخراف فأراقبها ترعى هناك، بينما أجلس في الصباح الباكر في سريري الصغير القابع داخل غرفة أمي لأراقبها، فأرى الضوء الأحمر منعكسًا فوق الساعة الشمسية[1]، وأناجي أفكاري متسائلًا: «هل صارت الساعة الشمسية سعيدة، بعد أن عادت إليها قدرتها على تحديد الوقت مرة أخرى؟».

أما هنا فيقبع مقعدنا من الكنيسة. يا له من مقعد عالي الظهر! كانت بجانبه نافذة، يمكن من خلالها رؤية منزلنا، وقد كانت بيجوتي تُطل منها عدة مرات في أثناء خدمتها الصباحية، حيث تحب أن تتأكد بقدر استطاعتها من عدم تعرض البيت للسرقة، أو أن النيران لم تشتعل فيه بعد. كانت عين بيجوتي تجول بين الكنيسة والبيت، إلا أنها تشعر بالإهانة إذا فعلتُ الشيء نفسه، فتوبخني حين أقف على المقعد، وتطلب مني أن أنظر نحو القسيس. لم أكن أستطيع النظر إليه دائمًا - فقد كنت أعرفه من دون ذلك الشيء الأبيض الذي يرتديه، وأخشى أن يتساءل لماذا أحدق به، وربما أوقف الخدمة للاستفسار عن نظراتي إليه - فماذا أفعل؟ أما

---

(١) ساعة شمسية عُرفت باسم المزولة. تتكون من عدة نقاط وخطوط، رسمت على صفيحة عريضة، وفي وسطها عصا مستقيمة أفقية يتحدد الوقت من طول ظلها الناتج عن وقوع أشعة الشمس عليها، حيث تترك ظلًا متحركًا على النقاط والخطوط. تعد من أقدم آلات قياس الوقت، وهي أداة توقيت نهاري فقط.

التثاؤب فأمر مروع، ومن ثمَّ كان عليَّ أن أفعل شيئًا لأنتبه. نظرت إلى أمي، لكنها تظاهرت بعدم رؤيتي. ألقيت نظرة على صبي في الممر بينما يلهو، فظهرت على وجهه تعبيرات مختلفة. نظرت إلى ضوء الشمس المسترسل عبر الباب المفتوح عابرًا نحو الشرفة، وهناك أبصرت خروفًا ضالًّا - ولا أعني هنا إنسانًا مذنبًا[1]، بل إحدى الخراف - قرر نصف جسده أن يدخل إلى الكنيسة. أشعر أنني إذا نظرت إليه بعد الآن، فقد أميل إلى قول شيء ما بصوت عالٍ، فما عاقبة ذلك عليَّ؟! أشحت نظري حيث اللوحات الضخمة المعلقة على الحائط، وحاولت التفكير في السيد بودجرز الذي كان تابعًا لهذه الأبرشية، وفكرت في مشاعر السيدة بودجرز، بعدما تحمل السيد بودجرز آلامه لوقت طويل قبل موته، وكان وجود الأطباء معه بلا فائدة. أتساءل عما إذا كانوا قد استدعوا السيد تشيليب، وقد كان قليل الحيلة معه. وإذا كان الأمر كذلك، فهل عليه أن يتذكر ما حدث ولو لمرة في الأسبوع؟ أنظر نحو السيد تشيليب، فأراه في سترته ذات الياقة التي يرتديها يوم الأحد. أحوِّل نظري إلى المنبر وأفكر في أنه مكان جيد للعب، وأنه يصلح أن يكون قلعة سأبنيها، وأتخيل أني ألاعب صبيًّا يصعد الدرج لمهاجمة قلعتي، فألقي بوسادة مخملية ذات ذيول وزخارف فوق رأسه. أغمض عيني تدريجيًّا مع مرور الوقت، بعد أن يُهيَّأ لي أنني أستمع إلى القسيس بينما يرتل أغنية للنوم في فتور، إلى أن يسكن من حولي كل شيء فلا أسمع شيئًا، حتى أسقط عن مقعدي مرتطمًا بالأرض، فتخرجني بيجوتي، وأنا أقرب للموت من الحياة.

---

(١) يشار إلى الإنسان المذنب في الثقافة المسيحية بالخروف الضال الذي لم يهدِه الإيمان بعد إلى الطريق الصحيح.

أبصر الآن الجزء الخارجي من منزلنا، فأرى نوافذ غرفة النوم وقد انفتحت شبابيكها للسماح بدخول الهواء المنعش طيب الرائحة، بينما لم تزل أعشاش الطيور القديمة الممزقة تتدلى فوق أشجار الدردار في جزء بعيد من الحديقة الأمامية. أتصور الآن الحديقة الخلفية، التي تترامى وراء الفناء، حيث عش الحمام وبيت الكلاب الفارغين - فأتذكرها محفوفة بالفراشات، وبسياج عالٍ وبوابة وقفل، وكذلك تنبثق ثلة من الفاكهة فوق الأشجار ربما أكثر نضجًا وثراءً من الفاكهة التي كانت عليها منذ ذلك الحين، بل وأوفر من أي حديقة أخرى. تجمع أمي بعض الثمار في سلة، بينما أقف متفرجًا، أبتلع عنب الثعلب خلسة، وأحاول ألا أُبدي أي تأثر. أتذكر كيف هبت رياح عظيمة ثم انجلى الصيف في لحظة. كنا نلعب في شفق أيام الشتاء، ونرقص حول الردهة. تنقطع أنفاس أمي وتذهب لتستريح فوق كرسي ذي مسند، فأراقبها بينما تلف خصلات شعرها اللامع حول أصابعها، وتشد خصرها، وأنا على تمام المعرفة أكثر من أي إنسان آخر، بمدى حبها للاعتناء بمظهرها، ومدى فخرها بكونها جميلة للغاية.

كانت هذه اللحظات من بين انطباعاتي المبكرة للغاية. أذكر كذلك الشعور بأننا كنا خائفين قليلًا من بيجوتي، وقد استسلمنا لأوامرها في أغلب الأمور. كانت هذه الفكرة من بين الأفكار الأولى - إذا كان من الممكن تسميتها بهذا الاسم - التي استنتجتها مما رأيته وعايشته.

كنت أنا وبيجوتي جالسين في إحدى الليالي بجوار المدفأة في الصالون. كنت أقرأ لبيجوتي عن التماسيح. لا بد أنني قرأت بوضوح

شديد، أو ربما كانت المسكينة مهتمة بما أقول، لأني أتذكر كيف تكوَّن لديها انطباع غائم، بعد أن أنهيت القراءة، مفاده أن التماسيح نوع من الخُضر. كنت قد تعبت من القراءة وشعرت بنعاس مطبق، فقد سمحوا بالسهر كنوع من الترفيه بعد أن ذهبت أمي لقضاء إحدى الأمسيات مع أحد الجيران. كنت أفضل أن أموت في مكاني (بالطبع) على أن أذهب إلى الفراش. كنت قد وصلت إلى مرحلة من النعاس لدرجة بدأت بيجوتي معها في التضخم والنمو بشكل كبير للغاية أمامي. فتحت جفني بإصبعَي، ورحت أنظر إليها بإصرار، بينما تجلس منشغلة في عملها. كانت قد احتفظت بشمعة صغيرة تعينها على إتمام عملها بالإبرة. كم كانت تبدو لي عجوزًا، وقد تجلت لي كامل ملامحها. أمعنت النظر في المنزل الصغير المسقوف بالقش، حيث تضع المقياس في صندوق بغطاء منزلق، وقد ارتسمت عليه صورة لكاتدرائية القديس بولس تعلوها قبة وردية، حتى أبصرت الكشتبان النحاسي بإصبعها. تراءت لعيني ذات جمال وحسن. شعرت بنعاس شديد، للحد الذي أدركت فيه أنني إذا فقدت رؤية أي شيء للحظة، فقد أغفو من دون صحوة.

تكلمت فجأة قائلًا: «يا بيجوتي، هل تزوجتِ من قبل؟».

أجابت بيجوتي: «يا الله، يا سيد ديفي، ما الذي يجلب فكرة الزواج إلى رأسك؟».

أجابت بهذه البداية التي أيقظتني تمامًا. توقفت بعدها عن عملها، ونظرت إليَّ، وقد مدت إبرتها بطول خيطها أمامي.

قلت: «لكن هل تزوجتِ في يوم من الأيام يا بيجوتي؟ إنكِ امرأة جميلة جدًّا، أليس كذلك؟».

أتصور أنها جميلة بصورة تختلف عن أمي بالتأكيد، لأنها تنتمي إلى مدرسة أخرى للجمال، وقد اعتبرتها مثالًا ممتازًا لهذا النوع. كان ثمة مسند للأقدام لونه أحمر مخملي في الصالون، كانت أمي قد رسمت عليه صحبة من زهور. بدا لي أن أرضية هذا المسند تتناغم مع بشرة بيجوتي. كان المسند أملس، وكانت بيجوتي خشنة، لكن ذلك التباين لم يؤثر على نظرتي.

قالت بيجوتي: «أنا جميلة يا ديفي؟! لا، لا يا عزيزي! ولكن ما الذي جلب فكرة الزواج إلى رأسك؟».

«لا أعرف! - لكن إذا تزوجتِ فلا يجب أن تتزوجي أكثر من شخص واحد في وقت واحد، أليس كذلك يا بيجوتي؟».

تقول بيجوتي في إقرار سريع: «بلى بالتأكيد».

«ولكن إذا تزوجتِ شخصًا ثم مات، قد تتزوجين شخصًا آخر، أليس كذلك يا بيجوتي؟».

تقول بيجوتي: «ربما، إذا أردت يا عزيزي. وهذه مسألة تحمل آراء مختلفة».

قلت: «ولكن ما رأيك يا بيجوتي؟».

سألتها ونظرت إليها بفضول لأنها نظرت إليَّ بالطريقة نفسها.

أجابت بيجوتي بعد قليل من التردد وقد استمرت في عملها: «رأيي

هو... رأيي هو أنني لم أتزوج من قبل يا سيد ديفي، وأنني لا أتوقع أن أصير زوجة. هذا كل ما أعرفه عن الموضوع».

قلت، بعد أن جلست صامتًا لدقيقة: «إنكِ لستِ غاضبة مني، على ما أظن يا بيجوتي، أليس كذلك؟».

ظننت أنها غاضبة مني حقًّا، لكنني كنت مخطئًا تمامًا، لأنها ما لبثت أن تركت عملها - فقد كانت تخيط جوربًا لها - ثم فتحت ذراعيها على مصراعيها، وأخذت برأسي المجعد فاحتضنتني، وقد ضمتني إليها بشدة. أعلم أنه كان عناقًا محببًا، لأنها كانت ممتلئة بعض الشيء. كانت كلما بذلت أي مجهود بسيط لارتداء ملابسها، لا تلبث أن تتطاير بعض الأزرار الموجودة على ظهر ثوبها. ولم أزل أذكر أن زرين قد انفجرا في الجانب الآخر من الردهة، بينما كانت تعانقني.

قالت بيجوتي، والتي لم تكن تنطق الكلمة بشكل صحيح حتى هذه اللحظة: «أما الآن فدعني أسمع المزيد عن «التناسيح» لأنني لم أسمع عنها ما يكفي».

لم أستطع أن أفهم تمامًا لماذا بدت بيجوتي غريبة جدًّا، أو لماذا كانت في غاية الاستعداد للعودة إلى التماسيح. ومع ذلك، عدنا إلى الحديث عن تلك الوحوش، بعد أن انتابتني يقظة جديدة. تركنا بيض التماسيح في الرمال حتى تفقسه الشمس، وهربنا منها، وتركناها حائرة باستمرار، فلم تتمكن من الجري بسرعة لصعوبة عملها وحركتها، فغصنا في الماء من بعدها مثل باقي أهالي البلدة، بعد أن ألقينا بقطع حادة من الأخشاب في حناجرها، وباختصار سخرنا من التماسيح كلها

وأنهينا حكايتها، أو هكذا انتهيت أنا منها على الأقل، لكن ساورتني شكوك حول فهم بيجوتي، التي راحت تغرس إبرتها بعناية في أجزاء مختلفة من وجهها وذراعيها طوال الوقت.

لقد أنهكنا التماسيح، وبدأنا نخصص حديثنا عن التماسيح الأمريكية، وإذا بجرس الحديقة يدق، فانطلقنا نحو الباب. لاحت أمي لعيني فاتنة في صورة لم أعهدها، وقد صحبها رجل نبيل ذو شعر أسود وسوالف سوداء منمقة، كان قد سار معنا من الكنيسة إلى المنزل يوم الأحد الماضي.

راحت أمي تنحني على عتبة الباب لتأخذني بين ذراعيها وتُقبلني، فقال السيد إنني كنت صغيرًا ورقيقًا أتمتع بامتيازات كبيرة تفوق براءة الملائكة - أو شيئًا من هذا القبيل، لأن إدراكي للتعبيرات فيما بعد قاد عقلي وساعدني في صياغة مثل هذه المواقف.

سألته من فوق كتف أمي: «ما معنى ذلك؟».

ربَّت على رأسي، لكن لم أحبه ولم أحب صوته الأجش على نحو ما، وكنت أشعر بالغيرة من أن تلمس يده أمي بينما تلمسني - وهو ما حدث. كنت أبعد يدي قدر استطاعتي.

قالت أمي: «آهٍ يا ديفي!».

قال الرجل: «يا له من صبي ودود! لا أستطيع أن ألومه على إخلاصه».

لم أرَ في حياتي هذا اللون الجميل الذي كسا وجه أمي. وبَّختني

بلطف على وقاحتي، وقد أبقتني على مقربة من شالها، بعد أن استدارت لتشكر الرجل المحترم على بذل كثير من الجهد لإعادتها إلى المنزل. مدت يدها إليه وهي تتكلم وتلقفها بيده، ثم حوَّلت إليَّ نظرتها على ما أذكر.

أبصرت الرجل المحترم بعد أن أحنى رأسه فوق قفاز أمي الصغير، قائلًا: «دعونا نقول ليلة سعيدة، يا طفلي الجميل».

قلت: «ليلة سعيدة».

قال الرجل وهو يضحك: «هيَّا، لنكن أفضل الأصدقاء في هذا العالم، هيَّا صافحني».

كانت يدي اليمنى في يسار أمي، لذلك مددت يدي الأخرى.

ضحك الرجل المحترم قائلًا: «لماذا هذه اليد، إنها ليست للمصافحة يا ديفي».

سحبت أمي يدي اليمنى نحو الأمام، لكنني كنت مصممًا – لسبب ذكرته من قبل – على عدم إعطائها له، ولم أفعل. ناولته يدي الأخرى، فهزها مصافحًا في حرارة، وقال إنني كنت صديقًا شجاعًا، ثم ذهب بعيدًا.

أبصرته في هذه اللحظة بينما يستدير في الحديقة، وقد ألقى نظرة أخيرة نحونا بعينيه السوداوين المشؤومتين، قبل أن يُغلق الباب.

لم تقل بيجوتي كلمة واحدة، ولم تحرك ساكنًا. قامت بغلق الأبواب على الفور، وذهبنا جميعًا إلى الصالون. لم تجلس أمي، خلافًا

لعادتها، على الكرسي بجوار المدفأة، وبدلًا من ذلك ظلت في الطرف الآخر من الغرفة، وجلست تغني لنفسها.

تحدثت بيجوتي، بينما تقف متيبسة مثل برميل في وسط الغرفة، وفي يدها شمعدان، قائلة: «أرجو أن تكوني قد قضيت أمسية ممتعة يا سيدتي».

ردت أمي بصوت مبتهج: «ممتنة لكِ كثيرًا يا بيجوتي. لقد أمضيت أمسية ممتعة جدًّا».

علقت بيجوتي بقولها: «إن معرفة شخص جديد أو نحو ذلك هي نوع من التغيير المقبول».

ردت أمي: «حقًّا، تغيير مقبول للغاية».

ظلت بيجوتي واقفة في منتصف الغرفة من دون حراك، بينما استأنفت أمي الغناء، أما أنا فانتابني النعاس. لم أكن نائمًا تمامًا فرحت أسمع أصواتًا لحديث، من دون تمييز ما يُقال. استيقظت من هذه الغفوة المزعجة، فوجدت بيجوتي وأمي تتحدثان معًا وقد انهمرتا في البكاء.

قالت بيجوتي: «لم يكن السيد كوبرفيلد ليحب رجلًا بمثل هذه الصفات. وإن هذا لقولي، وإنني لأقسم عليه».

صرخت أمي قائلة: «يا إلهي! هل ثمة فتاة مسكينة تستغلها خادمتها مثلي أنا؟! لماذا أظلم نفسي وأطلق على نفسي لفظة «فتاة»؟ ألم أتزوج من قبل يا بيجوتي؟».

أجابت بيجوتي: «يعلم الله أنكِ فعلت يا سيدتي».

قالت أمي: «إذن، كيف تجرؤين على ذلك؟ إنكِ تعلمين أنني لا أقصد أنك تتجرئين عليَّ يا بيجوتي، ولكن كيف يمكنكِ أن تعتصري قلبي - لتجعليني غير مرتاحة ومرتبكة فتقولين لي مثل هذه الأشياء القاسية؟ إنكِ تعلمين جيدًا أنني لا أملك خارج هذا المكان صديقًا واحدًا ألجأ إليه».

أجابت بيجوتي: «إن قولك هذا سبب دامغ لتأكيد قولي بأن أمرك هذا لن ينجح. لا، هذا لن يحدث. لا، لا شيء يبرر ما يمكن أن تفعليه. لا».

ظننت أن بيجوتي على وشك أن تلقي بالشمعدان بعيدًا عن يدها، فقد كانت شديدة الصرامة معها.

قالت أمي بينما تذرف دموعًا أكثر من ذي قبل: «كيف يمكنكِ أن تثوري إلى هذا الحد، وتتحدثين بهذه اللهجة الظالمة؟! كيف يمكنكِ الاستمرار في قولكِ كما لو أن كل الأمور قد حدثت أو تمت وصارت قيدًا للتنفيذ يا بيجوتي؟ إنني أخبركِ مرارًا وتكرارًا، أيتها الفظة القاسية، أن الأمر لم يتجاوز بعض المجاملات المتحضرة الشائعة، أما أنتِ فتتحدثين عن إعجاب، فهل بيدي شيء لأفعله؟ إذا كان الناس سخفاء بالانغماس في التعبير عن مشاعرهم، فهل هذا خطئي؟ فإني أوجه إليكِ سؤالًا: ماذا أفعل؟ هل تتمنين أن أحلق رأسي وأُسوِّد وجهي، أو أُشوِّه نفسي بحروق، أو لسعات، أو شيء من هذا القبيل؟ وإني لأجرؤ على القول إنكِ ستريدين ذلك يا بيجوتي. أجزم أنكِ ستستمتعين به تمامًا».

أحسست أن بيجوتي قد تأثرت بهذا الطرح أشد تأثر.

انحنت أمي نحو الكرسي الذي جلستُ عليه وراحت تقول: «ولدي العزيز، يا حبيبي ديفي الصغير، هل يكون المقصد أن يُلمح أحد إليَّ أنني لا أعشق كنزي الثمين هذا؟ يا أعز رفيق صغير على الإطلاق».

قالت بيجوتي: «لم يلمح أحد لمثل هذا المعنى».

أجابتها أمي: «لقد فعلتِ، بيجوتي، إنكِ تعلمين أنكِ قد ألمحتِ إلى ذلك. ماذا أستنتج مما قلتِه، أيتها الإنسانة القاسية؟ إنكِ تعرفين جيدًا أنني آثرته عليَّ، فلم أشترِ لنفسي مظلة جديدة في فصل الشتاء على الرغم من أن تلك المظلة الخضراء صارت قديمة مهترئة بأكملها، كما صار هيكلها باليًا تمامًا. إنكِ تعرفين ذلك يا بيجوتي. لا يمكنكِ إنكار الأمر».

ما لبثت أمي أن التفتت نحوي في حنان، ثم ألصقت خدي بخدها، قائلة: «هل أنا أم قاسية عليك يا ديفي؟ هل أنا أم سيئة، أم قاسية، أو أنانية، أو شريرة؟ قل إنني كذلك يا طفلي. فلتقل نعم يا ولدي الغالي، وسوف تحبك بيجوتي، وسيكون حب بيجوتي أفضل بكثير من حبي لك يا ديفي. إنني لا أحبك على الإطلاق، أليس كذلك؟».

بكينا جميعًا في هذه اللحظات. أظن أن صوت نحيبي كان الأعلى بينهم، لكنني على يقين من أننا كنا جميعًا مخلصين في هذا البكاء. انكسر قلبي عن كامله حزنًا، وأخشى أنه في أول تأثري وانكساري، قد أطلقت على بيجوتي اسم «الوحش». كان هذا المخلوق الصادق في مأزق عميق، كما أتذكر، ولا بد أن أزرار ثوبها قد طارت كلها في هذه المناسبة، لأني سمعت وابلًا صغيرًا من هذه الانفجارات، فبعد أن تشاجرت مع أمي، راحت تجثو على ركبتيها بجوار الكرسي ذي المسند لتصالحها بي.

ذهب كل منا إلى فراشه في غاية الأسى. أبقاني بكائي يقظًا لوقت طويل. رفعني أحدهم بقوة من الفراش، فوجدتها أمي وقد جلست فوق الأغطية، وراحت تميل فوقي. نمت بين ذراعيها بعد ذلك ورحت في نوم هادئ.

لا أستطيع أن أتذكر هل رأيت ذاك الرجل في يوم الأحد التالي مرة أخرى، أم طال الوقت قبل ظهوره من جديد؟ إنني لا أدعي أنني أذكر التواريخ بدقة، ولكني أبصرته هناك في الكنيسة، ثم عاد معنا إلى المنزل بعد ذلك. لقد دخل أيضًا ليلقي نظرة من نافذة الصالون على شجرة إبرة الراعي الشهيرة التي لدينا. لم يبدُ لي أنه اهتم لأمرها كثيرًا، ولكنه قبل أن يغادر كان قد طلب من أمي أن تعطيه القليل من الأزهار. توسلت إليه أن يختار بنفسه ما يحب من أزهارها، لكنه رفض أن يفعل ذلك - لم أستطع أن أفهم السبب - لذا قطفت أمي له بعضها ووضعتها في يده. قال إنه لن يفرط فيها أبدًا، وظننت أنه أحمق بلا شك، فلا يعرف أنها ستذبل في غضون يوم أو يومين.

بدأت بيجوتي تنسحب من مشاركتنا في المساء عن الحد الذي كانت تقضيه معنا دائمًا. كانت أمي تهتم بها كثيرًا، وقد خطر لي ذلك أكثر من المعتاد، فكنا جميعًا أصدقاء ممتازون، لكننا لم نزل مختلفين عما اعتدنا أن نكونه، ولم نعد مرتاحين فيما بيننا. كنت أتخيل أحيانًا أن بيجوتي ربما اعترضت على ارتداء أمي لأي فساتين جميلة تحويها أدراجها، أو تعترض كثيرًا على ذهابها المتكرر لزيارة جارها. أما أنا فلم أستطع أن أتفهم كيف تسير الأمور بالشكل الذي يرضي تفكيري.

اعتدت تدريجيًّا رؤية الرجل ذي سوالف الشعر السوداء. لم يزِد حبي له شيئًا عن البداية، وظلت تراودني الغيرة المزعجة نفسها منه، ولكن إذا كان لديَّ أي سبب وراء ذلك الشعور يتجاوز كره الطفل الغريزي، فيبدو أنها فكرتي العامة عن أنني مع بيجوتي يمكننا أن نمثل الكثير لمشاعر أمي من دون أي مساعدة من أحد. ويبدو أن هذا السبب كان من الممكن أن أتفهمه لو كنت أكبر سنًّا. لم يخطر ببالي في هذه السن شيء من هذا القبيل أو بالقرب منه. كان بإمكاني أن ألاحظ عددًا من التفصيلات الصغيرة كما هي؛ أما صنع شبكة من علاقات تجمع عددًا من هذه القطع، والتقاط دور أي شخص فيها، فقد كان ذلك بعيدًا عني في هذا العمر.

كنت مع أمي في الحديقة الأمامية في صباح أحد أيام الخريف، بينما مر السيد مردستون - كنت في هذا الوقت أعرفه بهذا الاسم - ممتطيًا جواده. كبح جواده لتحية أمي، وقال إنه ذاهب إلى لويستوفت لرؤية بعض الأصدقاء الذين يعيشون هناك ويملكون يختًا، واقترح بفكاهة أن يأخذني على السرج أمامه إذا كنت أرغب في الركوب معه.

كان الهواء نقيًّا ولطيفًا، وبدا أن الجواد نفسه يحبذ فكرة الركوب كثيرًا، فقد وقف يصهل ويخدش بحافره الأرض عند بوابة الحديقة، للحد الذي أثار رغبة كبيرة عندي في الذهاب. صعدت إلى الطابق العلوي لتعد بيجوتي ثيابي استعدادًا للذهاب؛ وفي هذه الأثناء، كان السيد مردستون قد ترجل عن ظهر الحصان، وقد تناول لجام حصانه بذراعه وسار ببطء جيئة وذهابًا على الجانب الخارجي من سياج

الحديقة. راحت أمي تمشي ببطء جيئة وذهابًا هي الأخرى داخل الحديقة بمحاذاته للحفاظ على مرافقته. أتذكر أنني وبيجوتي اختلسنا النظر إليهما من نافذتي الصغيرة، وأتذكر كيف لاحا متناغمين يفحصان أشجار اللبلاب عن كثب بينما يتجولان، ومن ثَم انقلب مزاج بيجوتي تمامًا في لحظة وتحول عنها الوجه الملائكي إلى سخط، وراحت تمشط شعري بطريقة خاطئة وبقوة مفرطة.

سرعان ما خرجت أنا والسيد مردستون، لنسير فوق العشب الأخضر الممتد بجانب الطريق. حملني في سهولة بذراع واحدة، ولا أظن أنني كنت كثير الحركة في العادة، لكنني لم أستطع أن أتمالك نفسي وأن أجلس أمامه من دون أن أدير رأسي أحيانًا لأنظر إلى وجهه. كان يحظى بعين سوداء ضحلة - أريد كلمة أفضل للتعبير عن عين لا تفضي إلى عمق بمجرد النظر إليها - تبدو مشوهة عند انعكاس بعض الضوء عليها، بسبب حولٍ فيها قد ظهر حين شرد للحظة. لاحظت عندما نظرت إليه عدة مرات ذاك المظهر برهبة، وتساءلت عن الشيء الذي يفكر فيه عن كثب. بدا لي شعره وسوالفه أكثر سوادًا وسمكًا من ذي قبل، بعد أن أبصرته من قرب، حتى إنني منحتهما الفضل في الاحتفاظ بوسامته في ذاكرتي. ذكرتني استدارة ذقنه ولحيته السوداء الفاحمة، التي يحرص على حلاقتها كل يوم؛ بمتحف الشمع الذي حلَّ ببلدتنا قبل نحو نصف عام. أما حاجباه المألوفان، وبياض بشرته الناصعة، مع سواد شعره وبعض البقع البنية في بشرته - يا لها من ملامح لم أزل أذكرها! - فأحسبه رجلًا وسيمًا للغاية على الرغم من نفوري

منه. لا يراودني أدنى شك في أن أمي العزيزة المسكينة كانت ترى فيه الوسامة نفسها.

ذهبنا إلى فندق بجانب البحر، حيث وجدنا رجلين يدخنان السيجار في غرفة بمفردهما. كان كل واحد منهما مستلقيًا على أربعة كراسي على الأقل، مرتديًا سترة كبيرة خشنة. تجتمع في الزاوية كومة من المعاطف وأغطية القوارب والأعلام، وقد تكدست معًا.

دخلنا عليهما، فتدحرج الرجلان وانتصبا على أقدامهما في عشوائية، وراحا يقولان: «أهلًا يا مردستون، ظننا أنك ميت».

قال السيد مردستون: «ليس بعد».

قال أحد السادة، وقد أمسك بي: «ومن يكون هذا الصبي؟».

أجاب السيد مردستون: «إنه ديفي».

قال الرجل: «من ديفي؟ هل هو ديفي جونز؟».

أجاب السيد مردستون: «إنه ديفي كوبرفيلد».

صاح الرجل قائلًا: «ماذا؟! هل هذا ابن السيدة كوبرفيلد الساحرة؟ الأرملة الصغيرة الجميلة؟».

قال السيد مردستون: «يا كوينون، لتأخذ حذرك إذا سمحت. إن ثمة شخصًا ذكيًّا بيننا».

سأل الرجل ضاحكًا: «من يكون؟». التفتُّ نحوه بسرعة في فضول لمعرفة من يكون.

قال السيد مردستون: «إنه بروكس أوف شيفيلد، لا غيره».

لقد شعرت بالارتياح عندما اكتشفت أنه لم يكن سوى بروكس أوف شيفيلد، لأنني ظننت في البداية أن الحديث عني حقًّا.

يبدو أن ثمة شيئًا هزليًّا للغاية يصيب سمعة السيد بروكس أوف شيفيلد، فقد أثار ضحك كل السادة بحرارة عندما ذكروه، وقد كان السيد مردستون مسرورًا أيضًا. قال الرجل الذي كان يُسمَّى كوينون بعد انتهاء الضحك:

«وما رأي بروكس أوف شيفيلد في المسألة المتوقع حدوثها؟».

أجاب السيد مردستون: «لماذا تسألني؟ إنني لا أعرف إن كان بروكس يعرف شيئًا عنها في الوقت الحالي أم لا. لكنه ليس راضيًا عنها بشكل عام، على ما أظن».

انتابهم مزيد من الضحك إثر هذا القول، وقال السيد كوينون إنه سيقرع الجرس طلبًا لبعض الخمر ليشرب نخب بروكس، وقد قام بالأمر. جاء النبيذ، فأعطاني قليلًا منه مع البسكويت، وقبل أن أشربه وقف وراح يقول: «في نخب الجاهل بروكس أوف شيفيلد!». استُقبل هذا النخب بتصفيق حار، وضحك شديد جعلني أضحك أيضًا، مما جعلهم يزدادون ضحكًا. باختصار، لقد استمتعنا بأوقاتنا غاية الاستمتاع.

تمشينا أعلى الجرف بعد ذلك، وجلسنا على العشب، ونظرنا إلى المكان عبر التلسكوب - لم أستطع، عن نفسي، رؤية أي شيء عندما وضعت عيني في عدسة التلسكوب، لكنني تظاهرت بأنني أبصرها جيدًا. عدنا بعد ذلك إلى فندق لتناول العشاء مبكرًا. ظل السيدان

يدخنان باستمرار طوال الوقت الذي كنا فيه بالخارج. أظن أنني أستطيع أن أخمن من رائحة معطفيهما الخشنين؛ أنهما يدخنان بلا توقف منذ أن جلباهما أول مرة من الخياط إلى المنزل. يجب ألا أنسى أننا صعدنا إلى متن اليخت، حيث نزل ثلاثتهم إلى الكابينة، وقد انشغلوا بمطالعة بعض الأوراق. رأيتهم منهمكين يعملون بجد، عندما نظرت إليهم عبر النافذة العلوية المفتوحة. تركوني في هذا الوقت مع رجل لطيف للغاية ذي رأس كبير جدًّا من الشعر الأحمر تعلوه قبعة صغيرة لامعة للغاية. كان يرتدي قميصًا أو صدرية بقضبان متقاطعة، مكتوبة عليها كلمة «قُبَّرة» بأحرف كبيرة، حتى ظننت أنها اسمه، وأنه كتبه على صدره لأنه يعيش على متن السفينة، إذ لم يكن لديه باب للشارع ليضع عليه اسمه، فقد آثر وضعه على صدره بهذا الشكل، ولكني حين دعوته باسم السيد قُبَّرة، قال لي إنه اسم السفينة.

لاحظت طوال اليوم أن السيد مردستون كان أهدأ وأكثر ثباتًا من صاحبيه. كانا في غاية المرح والمجون. كان كل منهما يمزح مع الآخر من دون حياء، لكنهما نادرًا ما يمزحان معه. بدا لي أنه أكثر ذكاءً وبرودة مما كانا عليه، وأنهما ينظران إليه بشكل أقرب إلى انطباعي نفسه. لاحظت مرة أو مرتين، أنه عندما يتحدث السيد كوينون، لا يلبث أن ينظر نحو السيد مردستون بطرف عينه، كما لو أنه يتأكد من عدم استيائه. كان السيد باسندج (الرجل الآخر) في حالة مبالغة من اللهو في إحدى المرات، فما لبث أن داس السيد كوينون على قدمه، ورمقه بتحذير خفي بعينيه محذرًا إياه من السيد مردستون، الذي ظل جالسًا جادًّا وصامتًا.

ولا أتذكر أن السيد مردستون ضحك طوال ذلك اليوم، باستثناء نكتة شيفيلد - وأنه ضحك على كلامه هو لا أحد غيره.

عدنا إلى المنزل في أول المساء. كانت أمسية رائعة جدًّا، وقد راحت أمي تتنزه معه مرة أخرى بجوار السياج، بينما ذهبت للحصول على بعض الشاي. رحل الرجل فسألتني أمي عن كل شيء دار في هذا اليوم الذي قضيته، وسألتني عما قالوه وفعلوه. ذكرت لها ما قالوه عنها، فضحكت ومن ثَم أخبرتني أنهم رفقاء وقحون يتحدثون عن توافه الأمور، لكنني علمت أن ذلك يسعدها. أدركت ذلك تمامًا كما أدركه الآن. انتهزت الفرصة لسؤالها عما إذا كانت على دراية بالسيد بروكس أوف شيفيلد، لكنها أجابت بالنفي، إلا أنها افترضت أنه قد يكون صانعًا للسكاكين والشوك.

هل يمكنني أن أسترسل في الحديث عن وجهها - الذي تغير كما أسلفت الذكر، ثم توارى كما عهدته؟ لقد تلاشى من أمامي، لكنني حين أتذكره يتمثل أمامي في هذه اللحظة، متميزًا مثل وجه قد ألتفت إليه لأتفحصه في شارع مزدحم. هل أستطيع أن أخبركم عن جمالها الأنثوي والبريء؟ لقد تلاشى جمالها ولم يعد له وجود. أما الآن فقد حلَّت أنفاسها تهفهف فوق وجنتي كما حدث تلك الليلة. هل يمكنني أن أبوح لكم بأن ملامحها لم تتغير مع الأيام، في كل مرة أعيدها بذاكرتي فأتمثلها على نحو ما على قيد الحياة، فيبدو شبابها الرائق المحبب أكثر صفاء مما كانت عليه، ولم تزل متمسكة بكل ما كانت تعتز به في حياتها؟

أكتب عن هيئتها تمامًا كما كانت قبل أن تذهب إلى الفراش بعد هذا الحديث، وقد جاءت إليَّ لتتمنى لي ليلة سعيدة. ركعت على ركبتيها بجانب السرير، وأسندت ذقنها على يديها، ثم قالت ضاحكة:

«ماذا قالوا يا ديفي؟ أخبرني مرة أخرى. لا أستطيع أن أصدق ذلك».

بدأت أقول لها: «قالوا الساحرة...».

وضعت أمي يديها على شفتي لإيقافي عن الحديث.

قالت وهي تضحك: «لم يكن الأمر ساحرًا قَطُّ. لم يكن من الممكن قَطُّ أن يكون ساحرًا يا ديفي. أعرف الآن أنه لم يكن كذلك».

كررتُ حديثي في تأكيد قائلًا: «نعم، لقد كانت هذه الكلمة: سحر السيدة كوبرفيلد، وقالوا: جميلة».

قاطعتني أمي بوضع أصابعها على شفتي مرة أخرى.

«لا، لا، لم تكن جميلة قَطُّ. ليست جميلة».

«نعم، لقد كانت هذه الكلمات: أرملة صغيرة جميلة».

صرخت أمي ضاحكة وقد غطت وجهها: «يا لها من مخلوقات غبية وقحة! يا لهم من رجال سخفاء! أليس كذلك يا ديفي عزيزي؟».

«حسنًا، أماه».

«لا تخبر بيجوتي؛ قد تكون غاضبة منهم. إنني غاضبة منهم بشدة، لكنني أفضل ألا تعرف بيجوتي هذا الحديث».

وعدتها بالطبع ألا أفعل. وقبّلتني ثم قبّلتها مرارًا وتكرارًا، وسرعان ما غصت في النوم.

يبدو لي، بعد هذا الزمن البعيد، وكأن بيجوتي قد تطرقت في اليوم التالي إلى الأمر المذهل والعجيب الذي سأذكره لكم بعد قليل، ولكن في الحقيقة ربما وقع هذا الأمر بعد شهرين تقريبًا من حديث أمي.

كنا نجلس في إحدى الأمسيات كما اعتدنا من قبل - بينما كانت أمي في الخارج كعادتها في ذاك الوقت، وقد جلسنا بصحبة الجورب والمقياس وقليل من الشمع، وصندوق نُقش على غطائه كنيسة سانت بول، وكتاب عن التمساح. تلفتت بيجوتي إليَّ عدة مرات، وفتحت فمها كما لو أنها ستتحدث، من دون أن تتفوه بكلمة - الأمر الذي ظننت أنه مجرد تثاؤب، ولو أنني لم أتصور ذلك التفسير لأرعبني شكلها - ثم قالت بنوع من التنغيم:

«يا سيد ديفي، هل تحب أن نخرج معًا وتقضي أسبوعين معي عند أخي في يارموث؟ ألن يكون ذلك ممتعًا؟».

سألتها مشترطًا: «هل أخوك رجل طيب يا بيجوتي؟».

صاحت بيجوتي بينما تشيح بيديها: «آهٍ، يا له من رجل طيب! وثمة بحر هناك، وقوارب وسفن، وصيادين، وشاطئ وآم سيلعب مع...».

تقصد بيجوتي ابن أخيها هام المذكور في فصلي الأول، لكنها تحدثت عنه باعتباره «آم» لفظة «أكون» من قواعد اللغة الإنجليزية.

شعرت ببهجة من حديثها الذي ذكرته عن هذه المسرات، وأجبت أنني سأحظى بمتعة بالفعل، ولكن ماذا سيكون رأي أمي؟

قالت بيجوتي بينما تحملق في وجهي: «سأراهن إذن على جنيه بأنها ستسمح لنا بالرحيل. سوف أسألها، إذا أردت، بمجرد أن تعود إلى المنزل. ما رأيك الآن؟».

تحدثت بينما أضع مرفقي الصغير على الطاولة لمناقشة هذه النقطة، قائلًا: «ولكن ماذا ستفعل عندما نصير بعيدين؟ إنها لا تستطيع أن تعيش بمفردها».

إذا كانت بيجوتي تبحث عن ثقب فجأة في كعب هذا الجورب، فلا بد أنه كان صغيرًا جدًّا لدرجة لا تستحق الرتق.

«إنني أتحدث، يا بيجوتي، إنها لا تستطيع أن تعيش بمفردها، كما تعلمين».

قالت بيجوتي، وقد نظرت إليَّ أخيرًا مرة أخرى: «آه، فليبارك الله فيك! ألا تعرف؟ ستمكث لأسبوعين مع السيدة جرايبر. سيكون عند السيدة جرايبر كثير من الرفقة».

حقًّا! إذا كان الأمر كذلك، فإنني كنت مستعدًّا تمامًا للذهاب. انتظرت بصبر نافد حتى عادت أمي من منزل السيدة جرايبر (لأنها كانت تلك الجارة محل موضوعنا)، للتأكد من إمكانية السماح لنا بتنفيذ هذه الفكرة الرائعة أم لا. تقبلت أمي الأمر في سلاسة من دون أن تتفاجأ كثيرًا على عكس ما كنت أتصور، ورتبنا كل الأمور في تلك الليلة، وتم الأمر بالاتفاق على أن تدفع أمي أجرة الطعام والسكن في أثناء الزيارة.

جاء يوم سفرنا سريعًا. لقد كان هذا اليوم قريبًا لدرجة أنه حلَّ باكرًا، حتى بالنسبة لي، حيث كنت في انتظاره بشدة وخائفًا في الآن ذاته بعض الشيء من أن زلزالًا أو جبلًا ناريًا، أو أي كارثة أخرى كبيرة من كوارث الطبيعة، قد تتدخل لإيقاف هذه الرحلة. كان علينا السفر في عربة نقل، والتي غادرت في الصباح بعد الإفطار. كنت سأفعل أي شيء ليُسمح لي بالنوم مرتديًا قبعتي وحذائي طوال الليل؛ شوقًا لهذا السفر.

إن حالتي تلك لم تزل تلامس قلبي حتى هذه اللحظة، على الرغم من أنني أحكي عنها باستخفاف، فأتذكر مدى حرصي على مغادرة منزلي السعيد، وتعتصرني مدى ضآلة ظنوني في ما تركته من وقتها وإلى الأبد.

يسعدني أن أتذكر حين وصلت العربة عند البوابة. وقفت أمي عندها تقبلني، فأحسست ساعتها أني مولع بها وبالمكان القديم الذي لم أدِر له ظهري من قبل، وبكيت. يسعدني أن أتذكر أن أمي بكت أيضًا، وأنني شعرت أن قلبها ينبض محبة لقلبي.

يسعدني أن أتذكر وقت أن بدأت العربة في التحرك، فركضت أمي نحو البوابة منادية بالتوقف، حتى تقبِّلني مرة أخرى. يسعدني أن أسهب في الحديث عن الاشتياق والحب اللذين رفعت بهما وجهها ناظرة نحو وجهي، وقد فعلت الأمر نفسه.

تركناها واقفة على قارعة الطريق، فجاء السيد مردستون ودنا منها، وبدا أنه يجادلها لأنها كانت متأثرة للغاية. كنت أنظر إلى الوراء متجاوزًا بنظراتي مظلة العربة، بينما رحت أتساءل عن طبيعة موقفه بيننا. أما

بيجوتي، فقد كانت تنظر إلى الوراء أيضًا من الجانب الآخر. بدت غير راضية، بحيث فضحها وجهها حين أعادته داخل العربة.

جلست أنظر إلى بيجوتي لبعض الوقت، متأملًا هذه الحالة التي أفترضها: ماذا سيحدث لو أضاعتني مثل الصبي في الحكايات الخيالية، إذ يجب أن أتمكن من تتبع طريقي نحو المنزل مرة أخرى من خلال الأزرار التي ستلقيها على الطريق.



# الفصل الثالث



## تغيير في حياتي

كان جواد العربة أكثر الجياد كسلًا في العالم، على ما أظن، فقد راح يتنقل مطأطئ الرأس، كما لو أنه أحب إبقاء الناس في انتظار طرودهم بفارغ الصبر. لقد تخيلت في الواقع أنه أخذ يضحك أحيانًا بصوت مسموع لتفكيره في هذا التأخير، أما الحوذي فقد قال إنه لا يعاني إلا من سعال. كان للحوذي وسيلة لإبقاء رأسه مطأطئًا مثل حصانه، وقد كان رأسه يتدلى إلى الأمام من النعاس في أثناء اقتياده، بينما أسند ذراعيه على ركبتيه. أقول كلمة «اقتياده» لظني أن العربة ستصل إلى يارموث من دونه أيضًا، فقد كان الجواد هو مَن يوجه نفسه إلى الطريق؛ أما الحوذي فمجمل القول إنه لم يكن يفعل شيئًا سوى الصفير.

حملت بيجوتي على ركبتها سلة من وجبات الطعام الخفيفة، وقد كانت كافية لإطعامنا طوال الطريق، بل كانت لتكفينا إن سافرنا إلى لندن بنفس وسيلة النقل هذه. أكلنا حتى شبعنا، ونمنا لوقت طويل. كانت بيجوتي تنام مسندة ذقنها على مقبض السلة دائمًا من دون أن ترخي قبضتها عنها أبدًا. لم أكُن لأصدق أن امرأة واحدة لا حول لها ولا قوة تستطيع أن تشخر بهذا القدر المبالغ، لولا أنني سمعتها تفعل هذا.

رحنا نجول بين كثير من المنعطفات صعودًا وهبوطًا عبر الممرات، وقضينا وقتًا طويلًا في توصيل عدد من البرقيات إلى بعض المنازل، وأخذنا نتنقل من مكان لآخر، فصرت متعبًا للغاية حتى رأينا يارموث فسعدت أيما سعادة. بدت لي إسفنجية ورشيقة إلى حد ما، على حد ظني، بينما مددت بصري نحو الفضاء الرحب الباهت الذي يمتد عبر النهر، ولا يسعني إلا أن أتساءل، إذا كان العالم حقًّا مستديرًا كما ذكر لي كتاب الجغرافيا، فكيف صار أي جزء منه مسطحًا لهذه الدرجة؟ لكنني فكرت في أن يارموث قد تكون واقعة في أحد القطبين؛ وهذا من شأنه أن يفسر الأمر.

اقتربنا قليلًا، فأبصرنا المشهد المجاور لنا بأكمله، وإذا به يقع على خط مستقيم تظلله السماء. ألمحتُ إلى بيجوتي أن تلًّا أو نحو ذلك ربما يحسِّن ذلك المشهد، وأن الأرض لو كانت منفصلة عن البحر قليلًا لكان المشهد أفضل كذلك، ولو لم يكن المد واليابس مختلطين كثيرًا، مثل اختلاط الخبز المحمص بالماء، لكان الأمر أجمل. لكن بيجوتي قالت في تركيز أكبر من المعتاد، إنه يجب علينا أن نأخذ الأشياء كما وجدناها، وإنها من جانبها، فخورة بأن تطلق على نفسها اسم سمكة يارموث.

وصلنا إلى الشارع الذي بدا لي غريبًا، فهبَّت إلينا روائح السمك، والقار، والبلوط، والقطران، ورأينا البحارة يتجولون، والعربات تجول ذهابًا وإيابًا فوق الحجارة. شعرت أنني أسأت الحكم على مكان مثل هذا مزدحمًا بهذا القدر، وقد قلت الكثير مما كان يشغلني لبيجوتي، وردت بعبارات مبهجة تدل على شعورها بالرضا عن هذا الانطباع،

ثم أخبرتني أنه من المعروف -وأفترض أن قولها معروف يقتصر على أولئك المحظوظين الذين ولدوا في المكان- أن يارموث بشكل عام، هي أفضل مكان في الكون.

صرخت بيجوتي قائلة: «ها هو آم، لقد كبر حتى إنني لم أعرفه».

كان ينتظرنا في واقع الأمر في حانة البلدة. راح يسألني عن أحوالي كما لو أنني أحد معارفه القدامى. لم أشعر، في البداية، أنني أعرفه كما عرفني هو، لأنه لم يأتِ إلى منزلنا منذ الليلة التي ولدت فيها، ومن الطبيعي أنه كان يتمتع بذاكرة أفضل مني. أما صداقتنا فقد تقدمت كثيرًا بعدما حملني فوق ظهره وصحبني إلى المنزل. لقد صار الآن رجلًا ضخمًا وقويًّا، يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، طويلًا نسبيًّا وذا كتفين مستديرتين، ولكنه ظل بوجه فتى بسيط وشعر فاتح مجعد مما أكسبه مظهرًا خجولًا. كان يرتدي سترة من قماش ذي نسيج غليظ، وبنطلونًا شديد الصلابة للدرجة التي قد تقيمه منتصبًا بمفرده تمامًا من دون حاجة لأي أرجل. ولا يمكنك القول بشكل حاسم إنه كان يرتدي قبعة، لأنه كان يغطي رأسه بشيء فاحم مثل مبنى قديم.

حملني هام فوق ظهره وحمل صندوقًا صغيرًا لنا تحت ذراعه، أما بيجوتي فقد حملت صندوقًا صغيرًا آخر لنا. سرنا في الممرات المكتظة بعدد من البقايا وتلال صغيرة من الرمال، وتجاوزنا مصانع الغاز، ومعامل الحبال، وساحات بناء القوارب، وساحات نجار السفن، وساحات تكسير السفن، وساحات الجلفنة، ومحال علوية لعمال الحفر، ومحال الحدادين، ومواضع شتى من هذه الأماكن، حتى وصلنا

إلى فضاء رحب وقد أبصرته بالفعل من مسافة كافية، وعندها قال هام:

«ها هو ذا بيتنا يا سيد ديفي».

نظرت في كل الاتجاهات، بقدر ما استطعت محدقًا في البرية، وفي البحر الممتد، ثم متلفتًا إلى النهر البعيد، لكنني لم أستطع تبين المنزل. كان ثمة سفينة سوداء، أو نوع آخر من السفن القديمة، لا تبعد عنا كثيرًا، وقد انتصبت على الأرض جافة، بمدخنة حديدية بارزة تبعث دخانها في رفق بالغ، ولكن لا شيء آخر بدا لي في الطريق يصلح أن يكون منزلًا.

قلت: «هذا ليس منزلًا، ألا يشبه هذا الشيء السفينة؟».

أجاب هام قائلًا: «بلى، إنه كذلك يا سيد ديفي».

لو ظهر أمامي قصر علاء الدين وبيضة الرُّخ وكل شيء خرافي، فإنني أظن أنها لا يمكن أن تبدو أكثر سحرًا من الفكرة الرومانسية للعيش في هذه السفينة. كان ثمة باب جميل مقطوع من الجانب، وكانت مسقوفة، وبداخلها نوافذ صغيرة؛ أما سحرها الخلاب فيكمن في كونها سفينة حقيقية، وأنها بلا شك حُملت على الماء مئات المرات، ولم يكن من المفترض قَطُّ العيش فيها على اليابسة. كان هذا سر جاذبيتها بالنسبة لي. إذا كان من المفترض أن يعيش الناس فيها، فربما تصورت أنها ضيقة أو غير مريحة، أو موحشة، ولكنها لم تصمم مطلقًا لأي استخدام من هذا القبيل، لذا فقد صارت مسكنًا مثاليًّا.

كانت نظيفة وجميلة من الداخل، ومرتبة قدر الإمكان. احتوت على طاولة، وساعة هولندية، وخزانة ذات أدراج تعلوها صينية للشاي قد ارتسمت عليها لوحة لسيدة تحمل مظلة، تمشي مع طفل يبدو

عسكريًّا كان يلعب بطوق. وضعت هذه الصينية وقد ثبتت فوقها نسخة من الكتاب المقدس لتمنع الدرج من الانهيار، فإذا سقطت تحطمت كمية من الأكواب والصحون وكذلك إبريق الشاي الذي نثر مع أكوابه حول الكتاب. تعلو الجدران بعض الصور الملونة الشائعة، ذات الأطر والأغلفة الزجاجية، والتي تحكي قصصًا من الكتاب المقدس. لم أرَ مثلها في أيدي الباعة الجائلين منذ ذلك الحين إلا واستدعى أمامي هذا المنظر الداخلي الكامل لمنزل شقيق بيجوتي مرة أخرى، في مشهد واحد. كانت إحدى اللوحات لإبراهيم وقد ارتدى ملابس تميل إلى الحمرة في مشهد تضحيته بإسحاق، وقد رسم بلون يميل إلى الزرقة، أما دانيال فرسم بلون أصفر بعد أن ألقي في جب مع الأسود خضراء اللون، وقد كانت لوحته هي الأبرز من بين هذه اللوحات. وضعت فوق الرف الصغير صورة للمركب بشراع يسمى «سارة جين»، والذي تم بناؤه في سندرلاند، مع جزء خشبي صغير وحقيقي من سفينة، قد التصق باللوحة. إنه عمل فني يجمع بين التكوين الفني والنجارة، وقد اعتبرته من أكثر الممتلكات جمالًا في العالم. وجدت أيضًا بعض الخطافات في عوارض السقف، والتي لم أكن أتوقع استخدامها في ذلك الوقت، وبعض الخزائن والصناديق ووسائل الراحة من هذا النوع، والتي تستخدم في تجهيز المقاعد بأنواعها.

رأيت كل هذا منذ النظرة الأولى بعد أن تجاوزت العتبة – مثل الأطفال، وفقًا لنظريتي – ثم فتحت بيجوتي بابًا صغيرًا وأطلعتني على غرفة نومي. كانت غرفة النوم الأكثر اكتمالًا والأكثر راحة على

الإطلاق - تقع في مؤخرة السفينة، وهي غرفة ذات نافذة صغيرة، حيث كانت الدفة تمر خلالها. احتوت الغرفة مرآة صغيرة مسمرة على الحائط، ومؤطرة بقطع من محار، مناسبة بالكاد لطول قامتي، وسريرًا صغيرًا بمساحة صغيرة كافية للوصول إليه، وباقة من الأعشاب البحرية مجموعة في كوب أزرق على الطاولة. كانت الجدران ناصعة البياض كما الحليب، أما الجزء المرقَّع منها فقد جعل عينيَّ تتألمان تمامًا بسبب لمعانها. لاحظت شيئًا واحدًا بشكل خاص في هذا المنزل الرائع، وهو رائحة السمك. كانت الرائحة عبقة، بحيث أخرجت منديلي لأمسح أنفي، فوجدت رائحته تفوح كما لو أنه ملفوف بسرطان البحر. نقلت اكتشافي هذا سرًّا إلى بيجوتي، فأخبرتني أن شقيقها يعمل في بيع السلطعون والكابوريا وجراد البحر، وقد أبصرت بعد ذلك كومة من هذه المخلوقات مجتمعة في تكتل رائع مع بعضها البعض، ولا تترك أبدًا أي شيء من دون أن تمسك به، وكانت عادة ما توضع في صندوق خشبي صغير كانت تحفظ به الأواني والغلايات.

رحبت بنا امرأة بأدب فائق، كانت ترتدي مئزرًا أبيض، كنت قد أبصرتها من قبل واقفة عند الباب عندما كنت على ظهر هام، على بُعد نحو ربع ميل. وبالمثل رحبت بنا أجمل فتاة صغيرة (أو هكذا أحسبها) ذات عقد من الخرز الأزرق، ولم تسمح لي بتقبيلها عندما عرضت عليها ذلك، بل هربت واختبأت. تناولنا العشاء بعد ذلك وقد كان فاخرًا يحوي سمكًا مسلوقًا وزبدًا مذابًا وبطاطا، مع بعض الشرائح المُقطَّعة لي. جاء رجل ذو شعر غزير ووجه لطيف إلى المنزل. راح ينادي بيجوتي بقول

«يا حبيبتي»، وقد أخذ يربت على خديها بقوة، لم يخامرني شك أنه شقيقها بسبب سلوكه معها بشكل عام؛ وهكذا اتضح الأمر - فسرعان ما قدموه لي بصفته السيد بيجوتي، رب المنزل.

قال السيد بيجوتي: «إنني مسرور لرؤيتك يا سيدي. ستجدنا أناسًا خشنين، لكنك ستجدنا في خدمتك يا سيدي».

شكرته، وأجبته بتأكيد أنني سأكون سعيدًا في مثل هذا المكان المبهج.

قال السيد بيجوتي: «كيف حال والدتك يا سيدي؟ هل تركتها في خير حال؟».

أفهمت السيد بيجوتي أنها كانت في حال جيدة بقدر ما أتمنى، وأنها ترسل تحياتها إليهم - وكان ذلك استرسالًا خياليًّا مهذبًا مني.

قال السيد بيجوتي: «إنني بالتأكيد ممتن لها كثيرًا. حسنًا يا سيدي، إذا كنت تستطيع أن تلبث هنا على مدار أربعة عشر يومًا معهم، فإننا سنسعد باستضافتك». وقد أومأ هنا برأسه مشيرًا لأخته، وهام، وإيميلي الصغيرة.

بعد أن رحَّب السيد بيجوتي بي في منزله بهذه الطريقة المضيافة، خرج ليغتسل مع غلاية من الماء الساخن، مشيرًا إلى أن «البرد لن يُزيل الوحل أبدًا». سرعان ما عاد وقد تحسن مظهره بشكل كبير، ولكنه كان شديد الحمرة حتى لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن وجهه قد اشترك في حمرته مع السلطعون والكابوريا وجراد البحر، فقد ذهب إلى الماء الساخن شديد السواد وخرج منه في غاية الحمرة.

أغلق الباب بعدما احتسينا الشاي، وصار كل شيء دافئًا، بعد أن كانت الليالي باردة وضبابية في تلك اللحظة. بدا لي المكان ملاذًا بديعًا، أجمل ما يمكن أن يبدعه خيال إنسان. كان سماع صرير الريح بينما تتصاعد حول البحر تنبئ أن الضباب كان يزحف فوق السهول المهجورة بالخارج. أما النظر إلى النار، فكان يجعلك تفكر في هذا المنزل القائم وحده دون غيره، وأن هذه السفينة تشبه السحر. لقد تغلبت إيميلي الصغيرة على خجلها، فجلست بجانبي على صندوق أقل ارتفاعًا من غيره، مثبت عند زاوية المدخنة، يتسع بما يكفي لجلوسنا نحن الاثنين. كانت السيدة بيجوتي ترتدي المئزر الأبيض، تحوك على الجانب الآخر من النار. بدت بيجوتي في انشغالها بأعمال الإبرة كما لو كانت في منزلي مع لوحة كنيسة سانت بول مع قليل من الشمع، كما لو أنهما لم يعرفا أي سقف آخر. كان هام يعطيني درسي الأول في اللعب بالأوراق، وقد كان يحاول أن يتذكر مخططًا لجمع الثروات بطريقة البطاقات القذرة، وكان يطبع بصمات مريبة بإبهامه على جميع البطاقات التي يقلبها. كان السيد بيجوتي يدخن غليونه، وقد شعرت أنه قد حان وقت المحادثة وتبادل الثقة.

قلت: «يا سيد بيجوتي».

أجاب: «نعم، سيدي».

«هل منحت ابنك اسم هام، لأنك عشت في مكان يشبه فلك نوح؟».

بدا أن السيد بيجوتي يعتقد أنها فكرة عميقة، لكنه أجاب:

«لا سيدي، إنني لم أُسمِّه على الإطلاق».

كان سؤالي الثاني الذي وجهته إلى السيد بيجوتي هو: «مَن أطلق عليه هذا الاسم إذن؟».

قال السيد بيجوتي: «ما العجيب يا سيدي؟ لقد أطلق عليه والده هذا الاسم».

«ظننت أنك والده».

قال السيد بيجوتي: «كان أخي جو هو والده».

ألمحت، بعد وقفة محترمة قائلًا: «هل هو ميت يا سيد بيجوتي؟».

قال السيد بيجوتي: «مات غرقًا».

فوجئت للغاية بأن السيد بيجوتي لم يكن والد هام، وبدأت أتساءل عما إذا كنت مخطئًا بشأن علاقته بأي شخص آخر هنا. كنت فضوليًّا جدًّا لتبين الأمر، لدرجة أنني قررت معرفة حقيقة الأمر من السيد بيجوتي.

رحت أنظر إلى إيميلي الصغيرة سائلًا: «هل هي ابنتك يا سيد بيجوتي؟».

«لا يا سيدي، إنها ابنة شقيق زوجتي، توم».

لم أستطع تبين الأمر فسألت بعد صمت آخر: «هل مات يا سيد بيجوتي؟».

قال السيد بيجوتي: «مات غرقًا».

شعرت بصعوبة استئناف الموضوع، لكنني لم أصل إلى نهايته بعد، ويجب أن أمضي إلى سبيلي بطريقة ما، ومن ثَم قلت: «أليس لديك أطفال يا سيد بيجوتي؟».

أجاب بضحكة قصيرة: «لا يا سيد، إنني أعزب».

قلت، مندهشًا: «أعزب! لماذا؟ ومَن تكون هذه يا سيد بيجوتي؟». مشيرًا إلى هذه التي ترتدي المريلة وتخيط.

قال السيد بيجوتي: «هذه السيدة جامدج».

«ومَن تكون جامدج يا سيد بيجوتي؟».

جاءت بيجوتي في هذه اللحظة - أعني بيجوتي التي أعرفها - مشيرة إليَّ ببعض الإشارات ألا أطرح المزيد من الأسئلة، بحيث لم يعد بإمكاني سوى الجلوس والنظر إلى جميع الحاضرين في صمت حتى يحين وقت النوم. ما إن وصلت إلى مقصورتي الصغيرة، حتى أبلغتني بيجوتي في خصوصية أن هام وإيميلي يتيمان، وأنهما ابن أخ، وابنة أخت رب المنزل، الذي تبناهما في أعمار متفاوتة من طفولتهما، بعدما تُركا معدومين، وأن السيدة جامدج هي أرملة شريكه في القارب، وقد مات فقيرًا جدًّا. قالت بيجوتي إن السيد بيجوتي لم يكن سوى رجل فقير، لكنه طيب الأصل مثل الذهب، وحقيقي مثل الفولاذ - كانت تلك تشبيهاتها. أخبرتني أن الموضوع الوحيد الذي أبدى فيه عنفًا أو أقسم اليمين عليه يتعلق بكرمه. إذا أشاد أحدهم بكرمه ضرب الطاولة بقوة بيده اليمنى (شقها في أحد هذه المواقف)، وأقسم يمينًا مخيفًا ودعا على نفسه «بهلاك الجحيم» إذا فعل أحدهم ذلك، بل سينقشع هاربًا إلى الأبد إذا ذكر أمر كرمه مرة أخرى. اتضح لي عندما سألتهم عن معنى بعض إجاباتهم، أن لا أحد منهم عنده أدنى فكرة عن أصل هذه الأفعال الرهيبة، بل هي مبنية للمجهول فلا فاعل، لكنهم جميعًا اعتبروا الأمر تافهًا لا يستحق الالتفات.

أدرك قيمة الرجل وطيبته الفائقة إلى حد بعيد، وأنصت إلى خطوات النساء بينما يتوجهن للنوم في سرير صغير آخر مثل سريري في الطرف الآخر من السفينة، وأنصت إلى السيد بيجوتي وهام بينما يعلقان أرجوحتين لأنفسهما على الخطافات التي لاحظتها في السقف. كنت في حالة حالمة للغاية، يعززها شعوري بالنعاس. سرقني النوم تدريجيًّا، إلى أن سمعت صوت الرياح تعوي حول البحر ثم تهب على اليابسة في غاية الشراسة، لدرجة أن انتابني خوف - على الرغم مما أنا فيه من تراخٍ - من ارتفاع ذالك البحر العميق العظيم في الليل. لكنني تذكرت أنني في سفينة في نهاية الأمر، وأن رجلًا صالحًا مثل السيد بيجوتي يقبع على ظهرها ليدافع عنها إذا حدث أي شيء.

ومع ذلك، لم يقع سوء حتى الصباح. أشرق النور على المحار المزين لإطار مرآتي، فنزلت عن السرير، وخرجت مع إيميلي الصغيرة، نلتقط الحجارة المنثورة على الشاطئ.

قلت لإيميلي: «أظن أنكِ تشبهين البحارة، أليس كذلك؟». لم أتصور شيئًا من هذا القبيل، لكنني شعرت أنه من الشجاعة أن أقول شيئًا. كان ظهور شراع لامع قريبًا منا قد ألقى أمامي هذا التصور، إذ انعكس ظله في هذه اللحظة بصورة صغيرة جدًّا في عينيها اللامعتين، مما ألقى بهذا السؤال في رأسي.

أجابت إيميلي وهي تهز رأسها قائلة: «لا، إنني أخاف البحر».

قلت بجرأة بينما أنظر نحو المحيط الهائل: «خائفة؟! إنني لا أخاف».

قالت إيميلي: «آهٍ، لكنه قاسٍ. لقد رأيته بالغ القسوة على بعض رجالنا. لقد رأيته يمزق قاربًا بحجم منزلنا، لقد ترك كل شيء محطمًا».

«آمل ألا تكون هذه هي السفينة».

قالت إيميلي: «التي غرق فيها أبي؟ لا، ليست هذه، فأنا لم أرَ هذه السفينة قَطُّ».

سألتها: «ولا هو؟».

هزت إيميلي رأسها قائلة: «لا أتذكر».

يا لها من مصادفة! رحت أشرح لها على الفور كيف أنني لم أرَ أبي قَطُّ، وكيف عشت أنا وأمي بمفردنا دومًا في أسعد حالة يمكن تخيلها، نعيش هكذا في الوقت الحالي، ونخطط أن نستمر في حياتنا على هذا النحو. رويت لها كيف يقبع قبر أبي في باحة الكنيسة بالقرب من منزلنا، مظللًا بشجرة تحت الأغصان التي مشيت في ظلها، وكم سمعت العصافير تغني كثيرًا في صباحات جميلة. ولكن على ما يبدو كانت ثمة اختلافات بين يُتم إيميلي ويُتمي. كانت قد فقدت والدتها قبل والدها، ولم يكن أحد يعرف قبرًا لوالدها، إلا إن كان في مكان ما في أعماق البحار.

قالت إيميلي وهي تبحث عن المحار والحصى: «كان والدك رجلًا نبيلًا وبالإضافة إلى ذلك فإن أمك سيدة نبيلة، أما أبي فكان صيادًا وكانت أمي ابنة صياد، وكان خالي «دان» صيادًا كذلك».

قلت: «إن دان هو السيد بيجوتي، أليس كذلك؟».

أجابت إيميلي بعد أن أومأت برأسها إماءة نحو السفينة قائلة: «إن العم دان، هناك».

«نعم، إنه مَن أقصده، إنه رجل طيب جدًّا، على ما أظن؟».

قالت إيميلي: «أهو طيب وحسب؟ إنه أكثر من ذلك، لو قُدِّر لي في يوم من الأيام أن أصير سيدة، فإني سأهبه معطفًا أزرق سماويًّا بأزرار ماسية، وسروالًا من الصوف، وصدرية حمراء مخملية، وقبعة، وساعة ذهبية كبيرة، وغليونًا فضيًّا، وصندوقًا من النقود».

قلت إنني لا يخامرني شك في أن السيد بيجوتي يستحق كل هذه الكنوز. يجب أن أعترف بأنني شعرت بصعوبة تخيله بسهولة في مثل هذه الملابس التي اقترحتها له ابنة أخته الصغيرة الممتنة، وأنني كنت متشككًا بشكل خاص بشأن فكرة القبعة الجاهزة، لكني احتفظت بهذه المشاعر لنفسي.

توقفت إيميلي الصغيرة ناظرة إلى السماء بينما تحصي هذه الأشياء، كما لو أنها رؤيا مقدسة. ذهبنا مرة أخرى لنلتقط المحار والحصى.

قلت: «هل تحبين أن تصيري سيدة؟».

نظرت إيميلي إليَّ وضحكت وأومأت قائلة: «نعم، أحب أن أصير سيدة بالتأكيد. سنصير جميعًا إذن سادة معًا؛ أنا وخالي، وهام، والسيدة جامدج. لن نبالي إذن، حين يحل طقس عاصف... لا... أقصد لن نخاف على أنفسنا. سنخاف على الصيادين الفقراء من عواقبه، وسنساعدهم بالمال عندما يتعرضون لأي أذى».

بدت لي تصوراتها بأكملها مُرضِية للغاية، وبالتالي لم تكن صورة غير محتملة الحدوث على الإطلاق. لقد أعربت عن سعادتي في التفكير في الأمر، فتشجعت إيميلي الصغيرة على الحديث بخجل قائلة:

«ألا تظن أنك خائف من البحر الآن؟».

كانت هادئة بما يكفي لطمأنتي، لكن لم يخامرني أدنى شك في أنني لو رأيت موجة كبيرة إلى حد ما قادمة نحوي لهرعت مهرولًا، محملًا بتلك الذكرى المؤلمة للغرقى، ومع ذلك كانت إجابتي: «لا»، وقد أضفت بعدها قائلًا: «لا يبدو أنكِ خائفة أيضًا، على الرغم من أنكِ تقولين إنكِ كذلك» - حيث إنها كانت تمشي بالقرب من حافة رصيف الميناء القديم، أو شيء يشبه الجسر الخشبي الذي كنا نمشي عليه، وكنت خائفًا من سقوطها في البحر.

قالت إيميلي الصغيرة: «إنني لست خائفة من هذه الطريقة التي أسير بها، لكنني أستيقظ عندما تهب الرياح، وأرتجف عندما أفكر في العم دان وهام، وأتصور أنني أسمع صراخهما طلبًا للمساعدة. أود أن أصير سيدة لهذا السبب، لكنني لست خائفة ولو بشكل يسير من الطريقة التي أسير بها هنا. انظر!».

انطلقت من جانبي، وركضت على طول الأخشاب الخشنة البارزة من المكان الذي وقفنا عنده، والذي غطته المياه العميقة على نحو ما، فراحت تركض فوقه من دون أدنى حماية. لقد حُفرت هذه الواقعة في ذاكرتي، حتى إنني إذا كنت رسامًا لتمكنت من رسمها، بل أجرؤ على القول بأني سأرسمها بدقة كما وقعت تمامًا في ذلك اليوم، بينما كانت

إيميلي الصغيرة تقف نحو هلاكها - كما ظننت ساعتها - بنظرة لم أنسَها قَطُّ، بينما تطرق بعيدًا نحو البحر.

استدارت ترفرف بهيئتها الصغيرة الخفيفة والجريئة حتى عادت إليَّ بأمان، وسرعان ما ضحكت على ما انتابني من مخاوف، وسخرت من صراخي الذي أطلقته؛ على أي حال كان صراخي بلا جدوى، فلم يكن ثمة إنسان قريب منا.

كم مرت عليَّ أوقات منذ ذلك الحين، وحتى بلوغ رجولتي، رحت أفكر فيها مرارًا وتكرارًا قائلًا: هل كان من الممكن أن يحدث شيء خفي فتندفع الطفلة بشكل مفاجئ مع نظرتها الجامحة بعيدًا جدًّا؟ هل كان في خيالها أي انجذاب يدفعها إلى الخطر، أو إغراء من قِبل والدها الميت يدفعها تجاهه، حتى تقتنص الفرصة لإنهاء حياتها في ذاك اليوم؟ مر وقت طويل منذ أن تساءلت عما إذا كان من الممكن أن تكشف الحياة لي أقدارها في لمحة من البصر، وقد كُشف لي، لأن الطفل يمكن أن يدرك هذه اللحظات تمامًا، وما إذا كانت نجاتها قد اعتمدت على حركة يدي، فهل كان عليَّ أن أمدها لأنقذها؟ لقد مرت أوقات منذ ذلك الحين -لا أقول إنها استمرت لفترة طويلة، ولكنها ولَّت بما فيها- رحت خلالها أطرح على نفسي سؤالًا: هل كان من الأفضل لإيميلي الصغيرة أن تغمر المياه رأسها في ذلك الصباح أمام ناظري؟ وعندما أجبت كان قولي: «نعم».

قد يكون هذا سابقًا لأوانه، وربما ذكرت ذلك في وقت مبكر جدًّا، لكن سأدع هذا الكلام هنا من دون حذف.

مشينا مسافة طويلة، وحملنا معنا أشياء حسبنا أنها غريبة، وأعدنا إلى المياه بعناية عددًا من نجمات البحر وعددًا من السمكات التائهة - بالكاد أعرف القليل عن الأسماك في هذه اللحظة، فلست متأكدًا تمامًا إن كان عند الأسماك من الأسباب ما يدفعها إلى شكرنا على معروفنا، أو العكس - شققنا بعد ذلك طريقنا إلى منزل السيد بيجوتي. توقفنا عند صناديق جراد البحر وتبادلنا قبلة بريئة، ثم ذهبنا لتناول الإفطار متوهجًا بالصحة ومفعمًا بالمتعة.

قال السيد بيجوتي: «يا لكما من نافشتين صغيرتين». كنت أعلم أن هذا يعني في لهجتنا المحلية، أننا مثل «سمَّانتين صغيرتين»، وقد تلقيت هذه المجاملة برحابة صدر.

كنت بالطبع في حالة حب مع إيميلي الصغيرة. إنني متأكد من أنني أحببت هذه الطفلة حقًّا، حبًّا رقيقًا للغاية، مع قدر كبير من البراءة تخلو من أي أغراض، مما يجعل هذا الحب يندرج في وقت لاحق تحت مسمى أنقى وأنبل وأطهر حب في الحياة. إنني متأكد من أن وجداني قد أحاط تلك الطفلة ذات العينين الزرقاوين بشيء من الرفعة، جعلها تتحول إلى أثير، أو جعلت منها شيئًا ملائكيًّا. لو حلَّ وقت مشمس، ونشرت إيميلي جناحيها الصغيرين وطارت بعيدًا أمام عيني، فما أحسبها جاوزت كثيرًا ما كنت أتوقعه.

اعتدنا أن نتجول في ذلك المنزل القديم المعتم في يارموث بمحبة لساعات طويلة. كانت الأيام التي نعيشها تبدو لنا كما الطفل الذي لم يكبر بعد، بل أخذ يلعب معنا دائمًا. أخبرت إيميلي أنني أعشقها، وأنها

إن لم تعترف بأنها تحبني، فإنني سأضطر إلى قتل نفسي بالسيف. فقالت إنها تحبني بالفعل، وليس لديَّ أدنى شك في ذلك.

لم أواجه أنا وإيميلي أي عقبات مثل الشعور بعدم المساواة، أو فارق العمر، أو أي صعوبة أخرى في طريقنا، لأننا لم نفكر في المستقبل. لم نكن لندخر شيئًا حين نكبر، فقد بذلنا أنفسنا لننمو كشابين. كنا محط إعجاب من السيدة جامدج وبيجوتي، التي اعتادت أن تهمس في إحدى الأمسيات بعدما جلسنا بمحبة على خزانة ملابسنا الصغيرة جنبًا إلى جنب، فراحت تقول: «رباه! أليس هذا الأمر جميلًا؟!». ابتسم لنا السيد بيجوتي من وراء غليونه، وابتسم هام ناظرًا نحونا طوال المساء من دون أن يفعل شيئًا آخر. لقد انتابهم شيء من الفرح بنا، على ما أظن، كما لو أنهم يملكون لعبة جميلة، أو صورة تذكارية من الكولوسيوم[1].

اكتشفت سريعًا أن السيدة جامدج لم تكن لطيفة دائمًا، كما كان من المتوقع أن تفعل في ظل ظروف إقامتها مع السيد بيجوتي. كان تصرف السيدة جامدج مزعجًا إلى حد ما، فقد كانت كثيرة التذمر في كثير من الأحيان إلى الحد الذي لا يتحمله الآخرون في مثل هذا البيت الصغير جدًّا. كنت أرثي جدًّا لحالها. فكرت في بعض اللحظات أنه من الأفضل، على حد ظني، لو أن للسيدة جامدج شقة مريحة خاصة بها لتتقاعد فيها، أو ربما تمكث فيها حتى تستعيد صفاءها.

كان السيد بيجوتي يذهب بين الحين والآخر إلى حانة تسمى «العقل المدبر». اكتشفت ذلك بعد خروجه في المساء الثاني أو الثالث

---

(١) مدرج روماني شهير من أهم المعالم التاريخية، يقع في روما بإيطاليا.

من زيارتي، وحين رأيت نظرات السيدة جامدج المتجهة نحو الساعة الهولندية، بين الثامنة والتاسعة، قائلة إنه كان هناك، والأكثر من ذلك أن قالت إنها تعرف منذ الصباح أنه سيذهب إلى هناك.

كانت السيدة جامدج في مزاج سيئ طوال اليوم، وما لبثت أن انهمرت دموعها منذ الضحى، بعدما أوقدت النيران قائلة: «إنني إنسانة وحيدة، وكل شيء يعارضني». كانت هذه هي كلمات السيدة جامدج، حين يصادفها أي حدث لا يروقها.

أما بيجوتي -أعني بيجوتي التي أعرفها- فراحت تقول: «آه، سنسافر قريبًا، كما أنكِ تعلمين أننا نعتبر الأمر على أي حال ليس أكثر سوءًا بالنسبة لكِ منا».

قالت السيدة جامدج: «إنني أشعر به أكثر».

كان يومًا شديد البرودة وقد صحبته ريح هادرة. بدا لي أن الزاوية التي اعتادت السيدة جامدج الجلوس بها جانب المدفأة هي الأكثر دفئًا في المكان. كان مقعدها ألين المقاعد بالتأكيد، لكنها لم تكن لترضى عن أي شيء في ذاك اليوم على الإطلاق. كانت تشكو باستمرار من البرد، ومن ثَم أخذت تتأفف من شيء يسري في ظهرها تسميه «قشعريرة». أخذت في نهاية الأمر تذرف الدموع وتردد مرة أخرى قولها إنها «امرأة وحيدة»، وإن كل شيء يعارضها.

قالت بيجوتي: «إن الجو بارد بالتأكيد. يمكن لكل إنسان أن يستشعر الأمر نفسه».

قالت السيدة جامدج: «إنني أشعر به أكثر من الآخرين».

أما في العشاء، كان الطعام يُقدم دائمًا إلى السيدة جامدج بعدي مباشرة، فقد أُعطيتُ الأفضلية كزائر متميز. كانت الأسماك صغيرة وكثيرة الشوك، وكانت البطاطس محترقة قليلًا. اعترفنا جميعًا بأننا شعرنا بالاستياء من هذا الطعام، أما السيدة جامدج فقالت إنها شعرت بالأمر أكثر مما شعرنا به، وذرفت الدموع مرة أخرى، وقد ألقت بهذه الكلمات السابقة بمرارة شديدة.

عاد السيد بيجوتي إلى المنزل قرابة الساعة التاسعة صباحًا، بينما كانت السيدة جامدج المتألمة تحوك ثيابًا في زاويتها، وقد بدت في حالة بائسة وفي غاية التعاسة. أما بيجوتي فقد كانت تعمل بمرح. وكان هام يُرمِّم زوجًا عظيمًا من الأحذية المائية، وكنتُ أنا وإيميلي الصغيرة بجانبي نقرأ لهم. لم تتفوه السيدة جامدج قَطُّ بأي تعليق آخر سوى تنهيدة حزينة، ولم ترفع عينيها قَطُّ منذ أن احتسينا الشاي.

قال السيد بيجوتي وهو جالس في مقعده: «حسنًا يا رفاق، وكيف حالكم؟».

قال كل منا شيئًا، أو عقَّبنا بشيء ما للترحيب به، باستثناء السيدة جامدج التي اكتفت بأن هزت رأسها فقط في أثناء حياكتها.

تحدث السيد بيجوتي وهو يصفق بيديه قائلًا: «ماذا حدث؟ ابتهجي أيتها الأم العجوز!». (كان السيد بيجوتي يعني الفتاة العجوز).

يبدو أن السيدة جامدج لم تكن قادرة على الابتهاج. أخرجتْ منديلًا قديمًا من الحرير الأسود ومسحتْ عينيها. ولكن بدلًا من وضعه في جيبها، احتفظ به بالخارج، وأخذت تمسح عينيها مرة أخرى، وأبقته هكذا للاستخدام التالي.

قال السيد بيجوتي: «ما الخطب يا سيدة؟».

أجابت السيدة جامدج قائلة: «لا شيء. هل أتيت من حانة «العقل المدبر» يا دان؟».

قال السيد بيجوتي: «وماذا في الأمر؟ نعم، لقد قضيت فترة قصيرة من الليل في حانة «العقل المدبر»».

قالت السيدة جامدج: «إنني آسفة إذ إنني أدفعك للذهاب إلى هناك».

أجاب السيد بيجوتي وهو يضحك ضحكة صادقة: «تدفعينني! لست بحاجة إلى دفع. إنني على أتم استعداد للذهاب إليها وحدي».

قالت السيدة جامدج وهي تهز رأسها وتمسح دموع عينيها: «مستعدٌّ جدًّا. نعم، نعم، جاهزٌ جدًّا. إنني آسفة كذلك لأنك على استعداد للذهاب إليها بسببي».

رد السيد بيجوتي: «بسببكِ! لم يكن الأمر بسببكِ! لا تظني ذلك أبدًا».

صرخت السيدة جامدج: «نعم، نعم، إن الأمر كما أوضحت لك. أعرف ما أنا عليه. إنني أعلم أنني إنسانة وحيدة، وكل الأشياء تعارضني، وليس ذلك وحسب بل إنني ثقيلة كذلك على الجميع. نعم، حقًّا. إنني أشعر بأكثر مما يشعر به الآخرون، وأُظهر ذلك أكثر من غيري. إنه قدري التعس».

لم أستطع التفكُّر حقًّا، فجلست لبرهة أستوعب هذا الحديث بأكمله،

إلى أن فهمت أن مقصد السيدة جامدج هو أن محنتها قد امتدت إلى أفراد آخرين من تلك العائلة. لكن السيد بيجوتي لم يرد على هذه النقطة، بل أجاب فقط بمناشدة أخرى للسيدة جامدج يدعوها للابتهاج والفرح.

قالت السيدة جامدج: «إنني لست كما أتمنى أن أكون. إنني بعيدة عن صورتي التي أردتها. أعرف تمامًا ما أنا عليه. لقد حولتني مشكلاتي إلى ما لا أرجوه. أتمنى ألا أشعر بها، لكني أدرك وقعها. أتمنى أن أصير أشد صلابة تجاهها، لكنني لست كذلك. إنني أجعل المنزل مكانًا غير مريح. لا عجب من ذلك، فقد جعلت أختك لا تشعر بالراحة أيضًا، وكذلك فعلت بالسيد ديفي».

وهنا كان قلبي قد رق لحالها فجأة. شعرت بكرب كدرني، فصرخت بصوت عالٍ قائلًا: «لا، إنكِ لم تفعلي ذلك يا سيدة جامدج».

قالت السيدة جامدج: «ليس من الصواب أن أفعل ذلك. إنها ليست النهاية المناسبة. كان من الأفضل أن أذهب إلى المنزل وأنتظر الموت. إنني إنسانة وحيدة، وكان من الأفضل ألا أجعل من نفسي عقبة لغيري هنا. إذا كانت الأشياء تعارض ظنوني، كان يجب أن أعارضها بنفسي أيضًا، فدعني أذهب إلى كنيستي يا دان، من الأفضل أن أعود إلى بيتي، وأموت وأهلك مع الهالكين».

انصرفت السيدة جامدج بعد هذه الكلمات، وتوجهت إلى الفراش. رحلت من دون أن يبدي لها السيد بيجوتي أي انفعال سوى شعور بالتعاطف البالغ. استدار السيد بيجوتي حولنا، وأومأ برأسه بتعبير صارخ عن تلك المشاعر التي لم تزل تحيا على وجهه، ثم قال هامسًا:

«لقد كانت تفكر في الراحل».

لم أفهم تمامًا من يكون الراحل الذي ظلت السيدة جامدج تفكر فيه، حتى جاءتني بيجوتي لتطمئن عليَّ في الفراش، فأوضحت لي أنه قصد السيد جامدج الراحل، وأن شقيقها كان دائمًا يعتبر أن تفكيرها فيه هو سبب حالتها في مثل هذه المناسبات، وأنه ظل دائمًا متأثرًا بها ومشفقًا على حالها. سمعته بنفسي بعد فترة من ذهابه إلى الأرجوحة المعلقة في تلك الليلة، وقد أخذ يكرر لهام قائلًا: «مسكينة! كانت تفكر في زوجها الراحل». كلما تغلبت على السيدة جامدج هذه الحالة بطريقة مماثلة خلال الفترة المتبقية من إقامتنا (والتي لم تفارقها سوى مرات معدودات)، كان دائمًا يردد الشيء نفسه تخفيفًا للظروف، مبديًا أرق الرثاء.

انقضى الأسبوعان على هذا النحو، ولم يتغير شيء سوى اختلاف المد والجزر، الأمر الذي جعل السيد بيجوتي يغير أوقات خروجه وعودته، وغيَّر ارتباطات هام أيضًا. كان الأخير يجد نفسه عاطلًا عن العمل، فيسير معنا أحيانًا ليرينا القوارب والسفن، ويصحبنا مرة أو مرتين للتجديف. لا أعرف لماذا ترتبط مجموعة قليلة من الذكريات ارتباطًا وثيقًا بمكان ما أكثر من غيرها، على الرغم من أنني أتصور أن هذا الأمر ينطبق على معظم الناس، خاصة في الأمور التي ارتبطت بذكريات طفولتهم. لم أعد أسمع اسم يارموث أو أقرأ اسم البلدة بأي مكان على الإطلاق، لكنني أتذكر صباح أحد أيام الأحد على الشاطئ، ودقات أجراس الكنيسة ترن، وإيميلي الصغيرة متكئة على كتفي، بينما يقذف هام بالحجارة في الماء، أما الشمس فتغدو بعيدة فوق البحر

تخترق الضباب الكثيف، وتلوح لنا السفن مثل ظلالها.

حان وقت العودة إلى المنزل في النهاية. لقد تحملت الانفصال عن السيد بيجوتي والسيدة جامدج، لكن ألمي النفسي لترك إيميلي الصغيرة كان ثقيلًا وقاسيًا. مشينا متشابكي الأذرع حتى وصلنا الحانة حيث ينتظر الحوذي، ووعدتها في الطريق أن أراسلها. (لقد أوفيت بهذا الوعد بعد ذلك، في خطاب كتبته بأحرف أكبر وأعرض من التي تُكتب للإعلان عن منازل للإيجار). إن كان ثمة حدث في حياتي كاد أن يفجع قلبي، فقد وقع في ذلك اليوم.

كنت حتى هذه اللحظة وطوال الوقت الذي قضيته في زيارتي، لم أشعر باشتياق إلى العودة لبيتي مرة أخرى، ولم أفكر في ذلك كثيرًا أو قليلًا. لكنني لم أكد ألتفت نحوه، حتى راح ضميري يعاتبني مشيرًا إلى هذا الطريق بإصبع الاتهام، وشعرت بألم مضاعف حين ذكرت أنه عُشي الذي كبرت فيه، وأن أمي هي عزائي ورفقتي.

حاوطني هذا الشعور أكثر كلما تقدمنا واقتربنا، حين صارت الأشياء مألوفة أكثر عندما مررنا بها. زاد حماسي للوصول إلى المنزل وزاد اشتياقي للارتماء بين ذراعيها. أما بيجوتي، فلم تشاركني هذه المشاعر، لكنها بدلًا من ذلك حاولت التقليل من انفعالي (على الرغم من كونها مشاعر طيبة للغاية)، وبدت مرتبكة وغير مرتاحة.

أما منزلنا «عش الطيور» الذي يقع في بلدة بلندرستون، فآتٍ لا محالة، على الرغم من جواد الحوذي، وقد فعل. أتذكر هذا اليوم جيدًا، في ظهيرة رمادية باردة وسماء ضبابية، منذرة بهطول المطر.

انفتح الباب. رحت أتلفت بين الضحك والبكاء بانفعال رقيق، باحثًا عن أمي. لم تكن هي من فتحت الباب، بل خادمة غريبة.

قلت بشجن: «ما هذا يا بيجوتي؟! ألم تعد أمي إلى المنزل؟».

ردت بيجوتي قائلة: «بلى، بلى يا سيد ديفي. لقد عادت إلى المنزل. انتظر قليلًا يا سيد ديفي، وسأقول لك شيئًا».

بدت بيجوتي بين انفعالها وإحراجها الطبيعي في أثناء خروجها من العربة، وقد دفعاها إلى الالتفاف حول نفسها كما لو أنها مقيدة بحبل، لكنني لم أستطع أن أخبرها بذلك لما شعرت به من دهشة وذهول. نزلت عن العربة، وأمسكت بيدي. قادتني إلى المطبخ ولم أزل مندهشًا، ثم أغلقت الباب.

قلت بينما أرتجف خوفًا: «يا بيجوتي، ما الأمر؟».

أجابت متظاهرة بالبهجة: «لا شيء، بارك الله فيك، يا سيد ديفي العزيز».

«ثمة شيء ما، إنني متأكد. أين ماما؟».

كررت بيجوتي قائلة: «أين ماما يا سيد ديفي؟».

«نعم. لماذا لم تخرج إلى البوابة، ولماذا أتينا إلى هنا؟ آهٍ، يا بيجوتي».

اغرورقت عيناي بالدموع، وشعرت أنني على وشك الانهيار.

صرخت بيجوتي، ممسكة بي: «حفظك الله يا ولدي الغالي، ماذا بك؟ تكلم يا أليفي الصغير».

«لم تمُت هي أيضًا! آه، إنها لم تمُت يا بيجوتي؟».

صرخت بيجوتي في صوت مذهول قائلة: «لا»، ثم جلست، وبدأت تلهث، وقالت إنني أفزعتها أشد الفزع.

عانقتها لأخفف عنها فزعها، أو لأمنحها منعطفًا آخر صوب الاتجاه الصحيح من الحديث، ثم وقفت أمامها ناظرًا إليها في توجس.

قالت بيجوتي: «انظر يا عزيزي، كان يجب أن أخبرك بالأمر قبل الآن، لكن لم تُتَح لي الفرصة. كان يجب أن أتيح الوقت بنفسي، لكنني لم أستطع فعل ذلك بالظبط -كانت كلمة بالظبط هي البديل الدائم لكلمة بالضبط، في معجم كلمات بيجوتي- لم أستطع إقناع نفسي بالحديث إليك».

قلت بينما ازداد خوفي عن ذي قبل: «هيا يا بيجوتي».

راحت بيجوتي تفك أربطة قبعتها بيد مرتعشة وتكلمت لاهثة فقالت: «يا سيد ديفي. ما رأيك؟ لقد صار لك أب!».

ارتجفت وقد صرت شاحب الوجه. يبدو أن شيئًا ما - لا أعرف ماهيته، أو حاله - مرتبطًا بالمقبرة في باحة الكنيسة، وإقامة الموتى، قد صدمني مثل ريح عاصفة.

قالت بيجوتي: «أبٌ جديد».

كررت: «واحدٌ جديد؟».

شهقت بيجوتي، كأنها تبتلع شيئًا صعبًا للغاية، ثم مدت يدها وقالت:

«تعالَ لرؤيته».

«لا أريد أن أراه...».

قالت بيجوتي: «وأمك؟».

توقفت عن التراجع، وذهبنا مباشرة إلى أفضل صالون، حيث تركتني. أبصرت أمي جالسة على جانب من المدفأة، من ناحية أخرى جلس السيد مردستون. تركت أمي ما يشغلها، وقامت على عجل، لكنني ظننت أنها فعلت ذلك بخجل.

قال السيد مردستون: «الآن، يا عزيزتي كلارا، تذكري! السيطرة على نفسكِ دائمًا، السيطرة على نفسكِ! يا ولد يا ديفي، كيف حالك؟».

مددت يدي نحوه، ثم توجهت بعد لحظةٍ من تشتت نحو أمي وقبلتها، فقبلتني بدورها، وربتت على كتفي في رفق، ثم جلست مرة أخرى إلى عملها. لم أستطع النظر إليها، ولم أستطع النظر إليه، كنت أعرف جيدًا أنه كان ينظر نحونا على حد سواء، فاستدرت نحو النافذة وأشحت ببصري هناك، حيث بعض الشجيرات التي تدلَّت رؤوسها في البرد.

ما إن استطعت التسلل خارج الغرفة، حتى صعدت إلى الطابق العلوي. لقد تغير مكان غرفة نومي العزيزة، وصار عليَّ أن أنام بعيدًا. تجولت في الطابق السفلي لأعثر على أي شيء بقي كما كان فلم أجد. لقد تغير كل شيء. ذهبت أتجول في الفناء، ولكن سرعان ما عدت منه، لأن بيت الكلب الفارغ صار مشغولًا بكلب ضخم - ذي فم عميق وشعر أسود/ مثله - وقد كان غاضبًا جدًّا لرؤيتي، فاندفع منقضًّا عليَّ.

# الفصل الرابع

## وقعت في المحظور

إذا كانت الغرفة التي نقل سريري إليها تملك حواسَّ تُمكِّنها من أن تُقدم شهادتها عن حالي، للجأت إليها في هذا اليوم - يا ترى مَن ينام هناك الآن؟ إنني أتساءل. كنت سأطلب منها أن تشهد كيف حملت بين جوانحي قلبًا مثقلًا. لقد صعدت إليها، بعد أن سمعت الكلب ينبح في الفناء راكضًا ورائي طوال الطريق، وحينها صعدت الأدراج هربًا. بدت لي الغرفة جوفاء وغير مألوفة بينما بادلتني الغرفة النظرات، فجلست وقد تشابكت يداي الصغيرتان، مشدوهًا مفكرًا.

فكرت في أغرب الأشياء. فكرت في شكل الغرفة وما بها من شقوق في السقف، وورق على الجدران، وما تخللها من عيوب في زجاج النافذة التي تعكس مشهدًا من التموجات والتعاريج. انتبهت لمنشر الغسيل المتهالك منصوبًا على أرجله الثلاث، وقد بدا لي هذا الشيء ساخطًا على حاله تلك، كما ذكرني بالسيدة جامدج في حال تأثرها بالراحل. كنت أبكي طوال الوقت، وباستثناء أنني كنت مدركًا للطقس

البارد والمقبض، إلا أنني على يقين من أنني لم أفكر قَطُّ في سبب بكائي. بدأت في نهاية الأمر أفكر في أنني كنت في حالة حب مروعة مع إيميلي الصغيرة، وقد تم انتزاعي منها للمجيء إلى هنا حيث لا يبدو أن أحدًا يريدني أو يهتم لحالي، بل لا يُقدَّم لي حتى نصف العناية التي أولتها هي لي. حملتني هذه الأفكار إلى حالة من الغم، حتى إنني احتضنت نفسي في زاوية عند اللحاف المقابل، ورحت أبكي حتى غلبني النوم.

استيقظت على صوت شخص ما يقول: «ها هو». وقد كشف الغطاء عن رأسي المحموم. جاءت أمي وبيجوتي للبحث عني، وكانت إحداهما من فعلت ذلك.

قالت أمي: «يا ديفي، ما الأمر؟».

حسبت أنه من الغريب جدًّا أن تسألني، فأجبت: «لا شيء». انكفأت على وجهي، على ما أذكر، لإخفاء شفتي المرتجفة، حتى لا تبوح لها بمزيد من الحقيقة. قالت أمي: «ديفي، يا ديفي يا بُني».

أستطيع أن أقول إن أي كلمة كانت ستلفظ بها ما كانت لتؤثر عليَّ وتأسرني بعد ذلك، أكثر من أن تناديني بقولها بُني. أخفيت دموعي في ملاءات السرير، وضغطت عليها بيدي لأبعدها، بينما كانت ترفعني إليها.

قالت أمي: «أهذا ما تفعلينه يا بيجوتي؟! يا لكِ من قاسية! لا يراودني شك في أنكِ قاسية. أتساءل كيف سمح لكِ ضميرك أن تؤلبي ابني ضدي أو ضد أي شخص عزيز عليَّ؟ ماذا تقصدين بذلك يا بيجوتي؟».

رفعت بيجوتي يديها وعينيها، لم تجب إلا بنوع من إعادة صياغة لكلمات الصلوات التي كنت أكررها عادةً بعد العشاء، فقالت: «سامحكِ الله يا سيدة كوبرفيلد، وغفر لكِ ما قلتِه هذه اللحظة، وأبعد عنكِ الحزن إلى الأبد».

صرخت أمي قائلة: «يكفي أنكِ تشتتين انتباهي في شهر العسل أيضًا، بينما يرق قلب أعدائي الأكثر شرًّا، على حسب ظني، فلا يحسدونني على قليل من راحة البال والسعادة. يا ديفي، يا لك من شقي! بيجوتي، إنكِ مخلوق متوحش! آهٍ، يا عزيزي». كانت أمي تصرخ، بينما تنتقل من أحدنا إلى الآخر، بطريقة متعمدة، وأكملت تقول: «يا له من عالم مزعج، عندما يصير أقصى ما يأمله الإنسان أن يكون مقبولًا قدر الإمكان».

شعرت بلمسة يد كنت أعرف أنها ليست يدها ولا يد بيجوتي، فانزلقت واقفًا على قدمي بجانب السرير. كانت يد السيد مردستون، وقد احتفظ بها فوق ذراعي بينما راح يقول:

«ما هذا؟ كلارا يا حبيبتي، هل نسيتِ؟ - الحزم يا عزيزتي».

قالت أمي: «أنا آسفة جدًّا يا إدوارد. قصدت أن أكون طيبة جدًّا، لكنني في غاية التعب».

فأجاب: «حقًّا! إنني سمعت كلامًا سيئًا، منذ وقت قريب يا كلارا».

أجابت أمي عابسة: «من الصعب جدًّا أن أضطر إلى قول مثل هذا الكلام الآن. إنه شيء في غاية الصعوبة، أليس كذلك؟».

جذبها إليه وهمس في أذنها، ثم قبَّلها. فهمت الأمر أنا أيضًا، فعندما رأيت رأس أمي متكئًا على كتفه، وقد لامست ذراعها عنقه، أدركت بدوري كيف يمكن تشكيل طبيعتها المرنة بأي شكل يختاره، كما أفهم الآن أن هذا ما حققه بالفعل.

قال السيد مردستون: «انزلي يا حبيبتي. سآتي إليكم أنا وديفيد معًا. وأنتِ يا صديقتي...». نظر إلى وجه بيجوتي بوجه محتقن، بعدما أبصر أمي وقد خرجت من الغرفة، فطردها بإيماءة وابتسامة قائلًا: «هل تعرفين اسم سيدتك؟».

أجابت بيجوتي: «إنها ولية نعمتي منذ وقت طويل يا سيدي، يجب أن أكون على علم به».

رد قائلًا: «هذا صحيح، لكنني ظننت أنني سمعتكِ، عندما صعدت إلى الطابق العلوي، تخاطبينها باسم لم يعد اسمها. لقد أخذت مني لقبي كما تعلمين. هل تتذكرين ذلك؟».

تلفتت بيجوتي نحوي ببعض النظرات المضطربة متفحصة وجهي، ثم خرجت من الغرفة من دون رد، وعلى ما أظن أنها فهمت أن المقصود هو أن تذهب، فلم يبقَ لديها عذر للبقاء. صرنا وحدنا نحن الاثنين، فأغلق الباب، وجلس على كرسي، وأمسك بي وأنا واقف أمامه، ونظر بثبات إلى عيني. شعرت بنفسي منجذبًا على النحو ذاته للنظر إلى عينيه. أتذكر المشهد بينما أقف مقابلًا له وجهًا لوجه، فيخيل لي أنني أسمع مرة أخرى دقات قلبي تسارع الخفقان وتعلو.

أخذ يتحدث مُشَكِّلًا شفتيه لتصيرا نحيفتين بالضغط عليهما معًا،

وقال: «يا ديفيد، إذا كان لديَّ حصان أو كلب عنيد أتعامل معه، فبرأيك ماذا أفعل؟».

«لا أدري، لا أعرف».

«أضربه».

كنت قد أجبت بنوع من الهمس، لكنني شعرت بعد صمتي أن أنفاسي صارت أقصر في هذه اللحظة.

«سأجعله عظة وعبرة، فأقول لنفسي: «سأنتصر على هذا المخلوق»، ولن يمنعني شيء عن الأمر حتى لو كلفه هذا كل ما في عروقه من دماء. ما هذا الذي على وجهك؟».

قلت: «إنه وسخ».

لقد كان يعلم أنها آثار البكاء وكذلك أعرف بدوري ماذا تكون، ولكن إن طرح السؤال عشرين مرة، وضربني في كل مرة عشرين ضربة، لانشق قلبي الصغير قبل أن يخبره بذلك.

قال بابتسامته الشرسة المعروفة عنه: «إنك تتمتع بقدر من الذكاء أكبر من صغير في مثل سنك، وقد فهمتني جيدًا، على ما أظن. اغسل هذا الوجه يا سيد وانزل معي».

أشار إلى حوض الغسيل بإيماءة من رأسه لأطيعه مباشرة. تراءى الحوض أمامي في صنيعه مثل السيدة جامدج. لم يكن يخامرني أدنى شك في ذلك الوقت، وليس لديَّ شك إلى الآن، في أنه كان سيضربني من دون أدنى قدر من الندم، إذا ترددت في تنفيذ أوامره.

نفذت أوامره، ثم اقتادني إلى الصالون ويده لم تزل فوق ذراعي، وراح يقول: «يا كلارا، يا عزيزتي، انعمي بالراحة وكفي عن التعب بعد الآن. آمل أن نعدل قريبًا سلوك هذا الشاب ومزاجه».

كان الله في عوني. كان من الممكن أن أتحسن بقية حياتي، وربما صرت مخلوقًا جديدًا مدى الحياة، بكلمة طيبة في تلك السن، أو كلمة تشجيع وتفسير، شفقة على جهلي الطفولي البريء، مع الترحيب بي في المنزل، وطمأنتي بأنه كان منزلي حقًّا ولم يزل. كنت لأصير مطيعًا له من كل قلبي من هذه اللحظة وإلى الأبد، من دون أن أتزلفه وأنافقه، وربما كنت لأبجله احترامًا بدلًا من أن أكرهه. ظننت أن أمي حزينة لرؤيتي في الغرفة وقد وقفت أمامها خائفًا وفي غاية الذهول، فقد رحت في هذه اللحظة أتسلل للجلوس على مقعدي، فأخذت تتبعني وعيناها لا تزالان مغمومتين لحالي -ربما لأنني كنت قد فقدت بعض خطوات طفولتي البريئة الحرة- ولكن هذه الكلمات لم تُلفظ أمامي، وقد ضاع عهدها.

تناولنا العشاء وحدنا، وقد اجتمع ثلاثتنا معًا. بدا مغرمًا بأمي للغاية - أخشى أن حبه لها لم يقلل من كراهيتي له - وكانت مغرمة ومولعة به. فهمت مما قالاه، أن أخته الكبرى كانت ستأتي للمكوث معهما، وكان من المتوقع أن تأتي في ذلك المساء. لست متأكدًا مما إذا كنت قد اكتشفت في ذلك الوقت أو بعده؛ أنه لم يكن له أي دور في أي نشاط أو عمل تجاري، لكنه حاز بعض الأسهم، أو بعض الرسوم السنوية على أرباح محل تاجر نبيذ في لندن، حيث كانت عائلته على علاقة به منذ جده، وكان لأخته

نصيب مماثل؛ ها أنا أذكر هذا الأمر هنا وإن لم أكن على تمام التيقن منه.

جلسنا بعد العشاء إلى جوار المدفأة. رحت أفكر في الهروب إلى بيجوتي من دون أن أتجرأ على الفعل، خشية أن أسيء إلى رب البيت. جاءت عربة واقتربت من بوابة الحديقة فخرج لاستقبال الزائرة. تبعته أمي. كنتُ أتبعها بخجل، فما لبثت أن استدارت عند باب الصالون، في هذا الضوء الخافت وأخذتني في أحضانها كما اعتادت أن تفعل، همست لي بأن أحب أبي الجديد وأن أطيعه. قامت بذلك بسرعة خاطفة وسرية، وكأنها اقترفت خطأ خامره الحنان. مدَّت يدها خلفها، وأمسكت بيدي، حتى اقتربنا من المكان الذي كان يقف فيه في الحديقة، وحينها تركت يدي، وخللت يدها عبر ذراعه.

وصلت الآنسة مردستون. كانت سيدة ذات مظهر مُقبض؛ مكفهرة الوجه مثل أخيها، بل كانت تشبهه في ملامحها وصوتها، لها حاجبان كثيفان للغاية، وقد كادا أن يلتقيا فوق أنفها الكبير، ومنعها كونها امرأة أن تطلق شاربًا، فحملت خصلاته على حاجبيها. أحضرت معها صندوقين أسودين صنعا من صُلب لا يلين، وقد حُفِرت على غطاءيهما الأحرف الأولى من اسمها بمسامير نحاسية صلبة. دفعت إلى الحوذي أجرته، وقد أخرجت نقودها من محفظة فولاذية صلبة، ثم أعادت المحفظة إلى مكانها المحكم للغاية حيث كانت حقيبتها معلقة على ذراعها بسلسلة معدنية ثقيلة، وما لبثت أن أغلقتها بإحكام. لم أرَ منذ ذلك الحين سيدة معدنية صلبة تشبه الآنسة مردستون.

أدخلوها إلى الصالون مع العديد من مظاهر الترحيب، وهناك اعترفت رسميًّا بمكانة أمي كفرد جديد وقريب من أفراد عائلتها. ثم نظرت نحوي وقالت:

«هل هذا ابنكِ يا زوجة أخي؟».

أجابت أمي بالموافقة.

قالت الآنسة مردستون: «إنني لا أحب الأولاد بشكل عام. كيف حالك يا فتى؟».

أجبت، في ظل هذه الظروف المشجعة، بأنني في حالة جيدة جدًّا، وأنني آمل أن تكون في حالة جيدة كذلك. أجبت بنغمة لا مبالية خالية من الاحترام، فما لبثت أن حكمت عليَّ الآنسة مردستون بكلمتين قائلة: «غير مهذب».

ما لبثت أن تفوهت بهذه الكلمات الواضحة حتى استأذنت بالذهاب إلى غرفتها، والتي صارت بالنسبة لي منذ ذلك الوقت مصدرًا للرعب والهلع، حيث لم يُرَ الصندوقان الأسودان مفتوحين مطلقًا ولم يُتركا مفتوحين قَطُّ، وحيث إنني كنت قد اختلست النظر مرة أو مرتين بينما كانت بالخارج، فقد أبصرتُ العديد من الأصفاد والمسامير الفولاذية الصغيرة، والتي كانت الآنسة مردستون تزين نفسها بها عندما ترتدي ملابسها، معلقة على المرآة في نظام حتى لتبدو كما لو أنها معروضات تراثية.

وبقدر ما أسعفني ذهني، فقد فهمت أنها جاءت لتستقر، ولم تكن لديها نية للعودة مرة أخرى. بدأت في «مساعدة» أمي في صباح اليوم

التالي، وكانت تدخل وتخرج من المخزن طوال اليوم، وتضع الأمور في نصابها الصحيح، وتُغيِّر الكثير من نظام ترتيبنا القديم. كان أول ما لاحظته في الآنسة مردستون أنها دائمة الشك، فتظن باستمرار أن الخدم يخبئون رجلًا في مكان ما في البيت. غاصت في قبو الفحم تحت تأثير هذا الوهم، لأكثر من ساعة في الصباح الباكر، وقلما كانت تفتح باب الخزانة المظلمة وتقفله من دون أن تتبعه بحركة أخرى مفاجئة، ظنًّا منها أنها قد أوقعت بالرجل المُخبأ.

لم تكن الآنسة مردستون تتمتع بأي نوع من الخفة، إلا أنها كانت مثل قبَّرة[١] مثالية في مسألة الاستيقاظ مبكرًا. كانت تستيقظ قبل أن يتحرك أي شخص في المنزل (وإنني لأظن حتى هذه الساعة أنها كانت تستيقظ لتبحث عن ذاك الرجل المُخبأ). كان رأي بيجوتي أنها تنام فتُبقي عينًا مفتوحة، لكنني لم أستطع الموافقة على هذه الفكرة، لأنني جربت ذلك بنفسي بعد سماع اقتراحها هذا، ومن ثَم وجدت استحالة تنفيذه.

استيقظت في صباح اليوم الأول بعد وصولها مع صياح الديك، ثم قرعت جرسها. نزلت أمي بعد سماعه لتناول الإفطار وكانت بصدد تحضير الشاي، حينها أعطتها الآنسة مردستون نقرة على خدها، والتي كانت أقرب ما تفهمه عن القبلة، ثم قالت:

«الآن، يا كلارا، يا عزيزتي، لقد جئت إلى هنا، كما تعلمين، لأريحك من كل المتاعب بالقدر الذي أستطيعه. إنكِ جميلة للغاية

---

(١) طائر من رتبة العصفوريات.

وقليلة الحيلة -وهنا احمرت أمي خجلًا لكنها ضحكت، وبدا أنها لا تكره هذه السمات- إلى حد أنه لا يمكن أن تُفرض عليكِ أي واجبات يمكنني أن أقوم بها. إذا ناسبكِ الأمر يمكنك تسليم مفاتيحك لي، يا عزيزتي، لأدبر كل هذه الأمور في المستقبل».

احتفظت الآنسة مردستون منذ ذلك الوقت بالمفاتيح في محفظتها الصغيرة طوال اليوم، وتحت وسادتها طوال الليل، ولم يعد لأمي أي علاقة بها مثلي تمامًا.

لم تتحمل أمي زوال سلطتها من دون أدنى قدر من الاحتجاج. كانت الآنسة مردستون في إحدى الليالي تضع خططًا لإدارة المنزل وتَعرضها على أخيها، والذي أبدى بدوره استحسانًا لها؛ شرعت أمي بالبكاء فجأة، وقالت إنها ظنت أن عليهما استشارتها.

قال السيد مردستون في حزم وصرامة: «كلارا، يا كلارا، ما أعجبك!».

انفجرت أمي باكية تقول: «آهٍ، من السهل جدًّا أن تقول إنك تتعجب لأمري يا إدوارد! وكم من السهل أن تتحدث عن الحزم، لكنك لن تحب أن ينطبق الأمر نفسه عليك».

يمكنني أن ألاحظ أن الصلابة هي الصفة العظيمة التي ميزت السيد مردستون والآنسة أخته على حد سواء. كان من الممكن أن أُعبر عن فهمي لهذه الصفة فيهما في ذلك الوقت، إذا ما طلب مني الرأي، فقد فهمت بوضوح وبطريقتي الخاصة، أنها كانت وجهًا آخر للاستبداد ولبعض من الروح الشيطانية الكئيبة والمتغطرسة، وقد حمل كلاهما

هذه الصفات. أستطيع الآن أن ألخص ما كانوا يعتقدونه، وهو أن السيد مردستون حازم، ولا أحد في عالمه سيكون أكثر حزمًا منه، أو لم يكن لأي إنسان آخر في العالم أن يتصف بكونه حازمًا على الإطلاق، بل على الجميع الانصياع أمام حزمه. كانت الآنسة مردستون استثناءً، فقد تكون حازمة، ولكنها بالمقارنة به أدنى منزلة، وهي تابعة له. كانت أمي استثناء آخر، فقد تصير حازمة، ويجب أن تكون كذلك، ولكنها ليست كذلك إلا في تحمل حزمهما، واعتقادها الراسخ بأنه ليس ثمة صلابة أخرى على الأرض تضاهي حزمهما.

قالت أمي: «إنه صعب للغاية، أن يحدث في منزلي...».

كرر السيد مردستون: «منزلي؟ كلارا!».

تلعثمت أمي وبدا عليها الخوف بشكل واضح وراحت تقول: «منزلنا، أعني منزلنا. آمل أن تعرف ما أعنيه، يا إدوارد - من الصعب جدًّا ألا يكون لي رأي في منزلك بشأن الأمور المنزلية. إنني متأكدة من أنني أحسنت التصرف بصورة لائقة جدًّا قبل الزواج». أكملت أمي وهي تبكي: «وإن ثمة دليلًا. اسأل بيجوتي إذا لم أكن قد أحسنت التصرف من دون أن يتدخل أحد في الأمر».

قالت الآنسة مردستون: «يا إدوارد، سأضع حدًّا لهذا الأمر. سأرحل غدًا».

قال شقيقها: «يا جين مردستون، اصمتي! كيف تجرؤين على التلميح بأنكِ لا تعرفين شخصيتي بمثل ما توحي به كلماتك؟».

واصلت أمي المسكينة حديثها في وضع صعب للغاية، وقد

انهمرت منها الدموع، قائلة: «إنني متأكدة، لا أريد أن يرحل أحد. سأصير في غاية الحزن والكآبة إذا رحل أي شخص. لا أطلب الكثير. أنا لا أبالغ في أمنياتي. أريد فقط أن يؤخذ برأيي في بعض الأحيان. إنني في غاية الامتنان لأي إنسان يساعدني، وأريد أن يؤخذ برأيي فقط في بعض الأحيان. أحسب أنك كنت مسرورًا ذات مرة، لكوني قليلة الخبرة وساذجة يا إدوارد - إنني متأكدة من أنك قلت ذلك - لكن يبدو أنك تكرهني لنفس السبب الآن، إنك بالغ القسوة».

كررت الآنسة مردستون كلماتها مرة أخرى قائلة: «يا إدوارد، فليكن هذا نهاية الأمر. سأرحل غدًا».

صاح السيد مردستون متوعدًا: «يا جين مردستون هلا تصمتين؟ كيف تجرؤين على هذا القول؟».

أعتقت الآنسة مردستون منديلا من حوذتها، ثم رفعته أمام عينيها.

تابع السيد مردستون حديثه وهو ينظر نحو أمي: «يا كلارا، لقد فاجأتني! أذهلتني! نعم، لقد شعرت بالرضا من فكرة الزواج من امرأة عديمة الخبرة والمهارة، لتشكيل شخصيتها، وإدخال قدر من الحزم والصرامة بالقدر الذي تحتاجه. ولكن عندما تكون جين مردستون كريمة بما يكفي لتقديم مساعدتها لي في هذا المسعى، وتقبل هذا العمل من أجلي، في حالة تشبه كونها مدبرة لشؤون المنزل، فإذا بها تلقى جزاء منحطًّا».

صرخت أمي: «آهٍ، أرجوك، أتوسل إليك يا إدوارد، لا تتهموني بأنني جاحدة. إنني على يقين من أنني لست امرأة جاحدة. لم يقل أحد من قبل إنني أتصف بهذه الصفة. عندي كثير من العيوب، باستثناء هذا

العيب. آهٍ يا عزيزي لا تقل هذا».

تابع حديثه بعد أن انتظر حتى سكتت أمي عن الكلام، وراح يقول: «أقول عندما تلقى جين مردستون جزاء منحطًّا، فإن شعوري هذا سيزول ويتبدل».

ناشدته أمي وتوسلت قائلة: «لا، يا حبيبي، لا تقل هذا. آهٍ، لا يا إدوارد. لا أستطيع تحمل سماع ما تقول. مهما كان من أمر فأنا عطوفة. أعلم أنني عطوفة. لن أقول ذلك، إذا لم أكن متأكدة. اسأل بيجوتي. إنني متأكدة من أنها ستخبرك بأنني عطوفة».

أجاب السيد مردستون: «ليس ثمة شيء أحط من هذا يا كلارا، إنني لا أقيم وزنًا لمثل هذه المذلات. إنكِ تفقدين أنفاسك».

قالت أمي: «أستحلفك أن نصير أصدقاء. إنني لا أستطيع العيش في جفاء أو قسوة. إنني في غاية الأسف. أتسم بكثير من العيوب، وإني لعلى علم بها، وإنها لطيبة خالصة منك أن تحاول تقويم شخصيتي يا إدوارد، إنك بحكمة عقلك، ستحاول تصحيح عيوبي من أجلي. يا جين، إنني لا أعترض على أي شيء. إنني سأصبح في غاية الحزن إذا فكرتِ في المغادرة».

صارت أمي في حالة متعبة جدًّا إلى الحد الذي منعها من الاستمرار في الحديث.

قال السيد مردستون لأخته: «يا جين مردستون، إن أي كلمات قاسية بيننا أمر غير شائع على ما أظن. ما حدث الليلة من حديث غير معتاد ليس لخطأ مني. لقد خذلني شخص ما، كما أن الذنب ليس ذنبك،

فقد خذلك هذا الشخص كذلك. دعونا نحاول أن ننسى ما حدث. إن هذا...». أضاف، بعد هذه الكلمات المشجعة قائلًا: «إن هذا المشهد ليس لائقًا أمام الصبي. يا ديفيد، اذهب إلى فراشك».

استطعت بالكاد أن أتبين ملامح الباب، من خلال الدموع التي انحشرت في عيني. كنت في غاية الحزن على مصاب أمي. لكنني تلمست طريقي للخروج، وشققت الطريق إلى غرفتي في الظلام، من دون أن يطاوعني قلبي على قول «ليلة سعيدة» لبيجوتي، ومن دون القدرة على الذهاب إليها للحصول على شمعة. جاءت لتتفقدني، بعد ساعة أو نحو ذلك، فأيقظتني، ثم قالت إن أمي قد أوت إلى فراشها في حالة سيئة، وإن السيد مردستون والآنسة أخته جالسان منفردين.

نزلت في صباح اليوم التالي في وقت أبكر من المعتاد، ووقفت خارج باب الصالون عندما سمعت صوت أمي. كانت تتوسل وتتذلل بطلب العفو من الآنسة مردستون، وقد منحتها تلك السيدة عفوها، وتمت المصالحة على أكمل وجه. لم أعرف أن أمي قد أبدت رأيها بعد ذلك في أي مسألة، ولم تتصرف في شيء من دون استشارة الآنسة مردستون، أو من دون التأكد أولًا عبر بعض الأمور المؤكدة من رأي الآنسة مردستون في المسألة. كلما رأيت بعدها الآنسة مردستون خارجة عن أعصابها في نوبة غضب (وقد كان هذا الغضب داءها) تأخذ في التلويح بيدها نحو حقيبتها، كما لو أنها ستخرج المفاتيح وتعرض على أمي التنازل عنها، وإذا بي أبصر أمي وقد انتابتها حالة من الفزع الرهيب.

طغت الصبغة القاتمة التي سرت في دماء السيد مردستون والآنسة أخته على ممارسات الدين، فراحا يتعبدان في صرامة وتجهم. لقد تصورت منذ ذلك الحين، أن ظهورهما بهذه الشخصية كان نتيجة ضرورية لحزم السيد مردستون، تلك الصفة التي لن تسمح له بإبعاد أي شخص عن تحمل العبء الأكبر من العقوبات القاسية، وإن وجد له ما يعذره. قد أكون محقًّا أو مخطئًا فيما أقول، لكني أتذكر جيدًا الهيئة المتجهمة التي اعتدنا أن نذهب بها إلى الكنيسة، والهواء القاتم الذي يحاوطنا. يحل مرة أخرى[1] يوم الأحد المخيف، بينما ألتزم مكاني من الصحن القديم، أتقدمهم ماشيًا كما الأسير الخاضع للحراسة، والذي أُحضر إلى عقوبته بعد أن صدر الحكم عليه. أرى الآنسة مردستون، مرة أخرى، في ثوب أسود مخملي، يبدو كما لو كان مصنوعًا من غطاء لنعش، تتبعني على مقربة مني، ثم تتبعها أمي ثم زوجها. أما بيجوتي فقد اختفت الآن، ولم يعد الأمر كما كان في سالف عهده. أستمع إلى الآنسة مردستون مرة أخرى، بينما تتمتم بالردود، وتؤكد كل الكلمات المروعة باستمتاع قاسٍ. أرى عينيها الداكنتين مرة أخرى زائغتين تلفان الكنيسة وهي تقول: «خطاة مذنبون»، كما لو أنها تلعن جميع المصلين بأسمائهم. ألحظ لمحات نادرة من أمي مرة أخرى، بينما تحرك شفتيها بخجل بين الاثنين، وقد أخذ كل منهما يتمتم في أذن الآخر بتمتمات تشبه الرعد الخافت. أتساءل مرة أخرى في خوف مفاجئ عن احتمالية أن يكون هذا القسيس العجوز الطيب مخطئًا، ويكون السيد مردستون

(١) ستتكرر «مرة أخرى» عدة مرات في الفقرات التالية عمدًا.

والآنسة أخته على حق، وأن جميع الملائكة في الجنة يمكن أن يدمروا ملائكة أخر. إذا حركت مرة أخرى إصبعًا أو أرخيت إحدى عضلات وجهي المتجهم، فلا تلبث الآنسة مردستون أن توخزني بكتاب صلاتها، فتحدث ألمًا في جانبي.

حقًّا، كنا في طريق عودتنا إلى المنزل، لاحظت مرة أخرى أن بعض الجيران ينظرون إليَّ وإلى أمي ويتهامسون. يسير ثلاثتهم مرة أخرى، متشابكي الأذرع، وأبقى وحيدًا، أتابع بعضًا من هذه النظرات، وأتساءل عما إذا كانت خطوة أمي لم تعد خفيفة حقًّا كما عهدتها، وإذا كانت صاحبة هذا الجمال تخاف جدًّا من زواله. أتساءل مرة أخرى، عما إذا كان أي من الجيران يتذكرني، كما أتذكر، كيف اعتدنا أن نسير إلى المنزل معًا، هي وأنا، وأظل أتساءل في غباء عن كل ذلك طوال اليوم القاتم الكئيب.

تناثرت الأحاديث في بعض المناسبات حول ذهابي إلى المدرسة الداخلية. كان السيد مردستون والآنسة أخته قد اقترحا الفكرة، ومن ثَم وافقت أمي عليها بالطبع. ومع ذلك، لم يتم التوصل إلى أي قرار بشأن هذا الموضوع حتى هذه اللحظة. رحت أتلقى دروسي في هذا الوقت في المنزل. فهل أنسى هذه الدروس! كانت أمي تترأس وتشرف على دروسي صوريًّا، أما السيد مردستون وشقيقته، فقد كانا في الحقيقة حاضرين دائمًا، وكان حضورهما فرصة مناسبة لإعطاء أمي دروسًا في هذا الحزم الظالم، والذي لم يكن سوى لعنة حلت بحياتنا. أحسب أنني أبقيت في المنزل لهذا الغرض. لقد كنت مؤهلًا بما يكفي للتعلم،

وأبديت رغبة في تحصيله، عندما كنت أعيش أنا وأمي معًا. أستطيع أن أتذكر كيف تعلمت حروف الهجاء جالسًا على ركبتيها. أنظر في يومنا هذا إلى الأحرف ذات الخطوط الكبيرة سوداء اللون في كتاب الأطفال التمهيدي، فأتأمل أشكالها المحيرة، وانسيابية كتابة أحرف مثل (و - ق - ص)، حتى ليبدو أنها تقدم نفسها أمامي مرة أخرى كما كانت تفعل، من دون أن تُذكرني بأي شعور بالاشمئزاز أو التردد، بل على العكس، يبدو لي أنني سرت على درب من الزهور حتى وصلت إلى كتاب التمساح، وقد استمتعت بصوت أمي العذب وصبرها على مشقة تعليمي طوال الوقت. أما الدروس الجليلة التي تلت دروسي الأولى، فلا أتذكر إلا أنها ضربة قاتلة أطاحت بسكوني، وليست سوى كدح وبؤس يومي مؤلم. كانت طويلة للغاية، كثيرة جدًّا، وفي غاية الصعوبة - لم تكن مفهومة على الإطلاق، أو على الأقل بعضها - وظللت متحيرًا بشكل عام، مهمومًا وأتصور أن أمي المسكينة كانت على الحال نفسه.

اسمحوا لي أن أتذكر كيف كانت تسير هذه الدروس، وأعيد مرة أخرى حكاية صباح أحد الأيام.

جلست في الصالون الأقل رونقًا بعد الإفطار، وقد اصطحبت كتبي بما فيها كتاب التدريبات، وسبورة. تأهبت أمي وجلست على مكتبها، ولكنها لم تكن تضاهي نصف استعداد السيد مردستون في كرسيه المريح بجوار النافذة (على الرغم من أنه كان يتظاهر بأنه يقرأ كتابًا)، ولا تشبه على الإطلاق تأهُّب الآنسة مردستون، الجالسة بالقرب من أمي؛ تلضم حبات عقد صلبة. كان لمرأى هذين الشخصين تأثير كبير

حتى إنني شعرت بثقل الكلمات لا تكف عن إيلامي بلا توقف من دون أن تصل إلى رأسي، ولا تلبث أن تنزلق كلها بعيدًا، ولا أعرف إلى أين تبتعد. كنت دومًا أتساءل إلى أين تذهب؟

أعطيت أمي الكتاب الأول، ربما كان كتاب نحو، أو ربما تاريخ، أو جغرافيا. ألقيت نظرة أخيرة على الصفحة وهي تتوارى بينما أضعه بين يديها، وأبدأ في الترديد بصوت عالٍ ووتيرة مسرعة قبل أن أنسى ما رأيته لتوِّي. أتعثر في كلمة، فيُحوِّل السيد مردستون نظراته نحوي. أتلعثم في كلمة أخرى، فترمقني الآنسة مردستون. يحمر وجهي، وأتعثر في أكثر من ست كلمات، ثم أتوقف. أحسب أن أمي كانت لتناولني الكتاب لأتذكر الكلمات، لكنها لا تجرؤ على فعل ذلك، وراحت تقول بهدوء:

«آهٍ يا ديفي، ديفي!».

أخذ السيد مردستون يقول: «أما الآن يا كلارا، فلتكوني حازمة مع الصبي. لا تقولي: «آهٍ، يا ديفي، ديفي!» إنه تصرف صبياني، بل هل يعرف درسه أم لا؟».

تتدخل الآنسة مردستون بصوت فظ قائلة: «إنه لا يعرف».

تقول أمي: «أخشى حقًّا أنه لا يعرفه».

ترد الآنسة مردستون قائلة: «إذن، كما ترين يا كلارا، عليكِ أن تعيدي إليه الكتاب، فيستذكر دروسه».

قالت أمي: «نعم، بالتأكيد. هذا ما أنوي القيام به يا عزيزتي جين. الآن، يا ديفي، حاول مرة أخرى، ولا تكن غبيًّا».

أطيع البند الأول من الأمر من خلال المحاولة مرة أخرى، لكنني لم أنجح في البند الثاني، لأنني لست غبيًّا. لقد تعثرت قبل أن أصل إلى النقطة القديمة، فأتلعثم في موضع كنت فيه جيدًا من قبل، ثم أتوقف محاولًا التذكر، لكنني لا أستطيع التفكير في الدرس. أفكر في طول الشِّباك التي تلتف حول قبعة الآنسة مردستون، أو سعر رداء السيد مردستون، أو أي مشكلة سخيفة لا علاقة لي بها، فلا أريد أن أفعل شيئًا على الإطلاق. يقوم السيد مردستون بحركة تشي بنفاد صبره، وقد كنت أتوقعها منذ فترة طويلة. وتفعل الآنسة مردستون الشيء نفسه. تنظر أمي إليهما بخنوع، ثم تغلق الكتاب، وتنحيه جانبًا كشيء ثانوي سنعود إليه بعد الانتهاء من مهام أخرى.

ستتراكم كومة من هذه المتأخرات في القريب العاجل، وستتضخم مثل كرة ثلج متدحرجة؛ كلما زاد حجمها، زاد غبائي. صارت القضية ميؤوسًا منها، وصرت أشعر أنني غارق في مستنقع من الهراء، لدرجة تدفعني إلى أن أتخلى عن كل فكرة عن النجاة، وأترك نفسي غارقًا في مصيري. أتبادل نظرات يائسة مع أمي. أتخبط، فتزداد حزنًا، لكن العاقبة الأكبر في هذه الدروس البائسة تحل عندما تحاول أمي التي تحسب ألا أحد يراقبها؛ أن تذكرني بإشارة من خلال حركة شفتيها. فلا تلبث الآنسة مردستون التي لم تشغل نفسها بأي شيء طوال الوقت سوى التربص لهذه اللحظة، فتقول بصوت تحذير عميق:

«يا كلارا!».

يتحول وجه أمي فتعلوه حمرة، وتبتسم ابتسامة باهتة. ينهض السيد مردستون من كرسيه، ويأخذ الكتاب، ويصفعه في وجهي أو يشد أذني نحوه، ثم يخرجني من الغرفة بينما يدفع كتفي.

قد تنتهي الدروس، من دون أن ينقضي الأسوأ الذي لم يقع بعد، فيحل في هيئة عملية حسابية مروعة يخترعها السيد مردستون من أجل أن أحسبها، فيتلوها على مسامعي لأتمها. يبدأ في القول: «إذا ذهبت إلى متجر لبيع الجبن، واشتريت خمسة آلاف قطعة جبن من نوع جلوستر ذات القشدة المضافة، مقابل أربعة بنسات ونصف، فكم تدفع؟». هنا أرى الفرحة تستولي على الآنسة مردستون سرًّا. أفكر في مسألة الأجبان هذه من دون أن أصل إلى أي نتيجة أو فهم حتى وقت العشاء. أكون ساعتها قد لطخت نفسي ببعض من جير السبورة، وقد تبعثرت وغطت مسام بشرتي، فلا يكون جزائي سوى شريحة من الخبز وقطعة من جبن على أمل مساعدتي للتوصل إلى نتيجة، كما يلازمني العار لبقية المساء.

يخيل إليَّ، بعد مرور هذه الفترة الزمنية، كما لو أن دراساتي السيئة قد سلكت هذا الدرب بشكل عام. كان بإمكاني أن أتفوق في أدائي لو أنني بعيد عن عائلة مردستون. لكن تأثير مردستون كان يبدو لي مثل شبح ثعبان شرس على فرخ صغير بائس. لم أكن لأحصل على أكثر من نصيب من العشاء، لو أنني قضيت دروس فترة الصباح باستذكار مقبول، حيث كانت الآنسة مردستون لا تستطيع أبدًا تحمل رؤيتي من دون إسناد مزيد من الواجبات لي. أما إذا عرضت عليهم بتهور فكرة أنني عاطل عن العمل، فلا تلبث الآنسة مردستون أن تلفت انتباه أخيها إليَّ بقوله:

«يا كلارا، يا عزيزتي، لا يوجد شيء أفضل من العمل - أعطِ ابنك تمرينًا». مما يجعلني أتورط في عمل جديد بعد قولها بلحظات. أما بالنسبة للترفيه مع أطفال آخرين في مثل سني، فلم يكن لي سوى نصيب ضئيل، لأن شريعة آل مردستون الكئيبة جعلت من جميع الأطفال سربًا من الأفاعي الصغيرة (على الرغم من وجود طفل في وسط التلاميذ)[١]، فلا يجدون فيهم إلا عدوى تستشري بينهم ويتداولونها.

كانت النتيجة الطبيعية لهذا المسلك الذي استمر، على حسب ظني لمدة تزيد على ستة أشهر، أن صرت متجهمًا وملولًا، ومتعنتًا. تعمق شعوري بالحرمان من أمي أكثر فأكثر، وقد صرت منزويًا ومنفصلًا عنها. أحسب أنني كنت على وشك الجنون لولا ظرف واحد.

كان هذا ما وقع... كان أبي قد ترك مجموعة صغيرة من الكتب في غرفة صغيرة بالطابق العلوي، وكنت أستطيع الوصول إليها (لأنها كانت ملاصقة لحجرتي) ولم ينشغل بأمرها أي إنسان آخر في منزلنا. خرج من هذه الغرفة الصغيرة المباركة، رودريك راندوم[٢]، وبيريجرين

---

(١) يقصد تلاميذ السيد المسيح في إحالة إلى الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متى: فدعا المسيح إليه ولدًا وأقامه في وسطهم، وَقَالَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَطْفَالِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ».

(٢) بطل رواية «مغامرات رودريك راندوم» للكاتب توبياس سمولِت، وهي تقدم عرضًا تفصيليًّا لحياة البحارة البريطانيين.

بيكل[١]، وهمفري كلينكر[٢]، وتوم جونز[٣]، ونائب ويكفيلد[٤]، ودون كيشوت[٥]، وجيل بلاس[٦]، وروبنسون كروزو[٧]، وقد كانوا أعظم صحبة، وأفضل رفقة. أبقوا ذهني يقظًا ينبض بالحياة، وصار أملي يتجاوز ذلك المكان والزمان، بالإضافة إلى الليالي العربية[٨]، وحكايات الجان، من دون أن يمسوني بضرر، فكل ما أوتوا من حيل ما كانت لتمسسني، ولم أكن أعلم شيئًا عنهم من قبل. وإني لأعجب من حالي الآن، فأتساءل كيف وجدت الوقت لقراءة هذه الكتب الشيقة، في خضم التساؤلات والتخبطات في موضوعات دراسية ثقيلة، ولكني قد فعلت. أندهش حين أتخيل كيف كان بإمكاني مواساة نفسي في ظل مشكلاتي الصغيرة (التي كانت مشكلات كبيرة في نظري)، من خلال تخيل شخصياتي المفضلة وتقمص أدوارها - فعلت هذا مرارًا - بينما وضعت السيد مردستون والآنسة أخته في محل كل الشخصيات

---

(١) بطل رواية «مغامرات وبيريجرين بيكل»، وهي أيضًا لتوبياس سمولِت، تستعرض شخصية ضابط بحار متقاعد، يتصرف على اليابسة حسب شروط وقوانين البحر، وكأنه على متن إحدى السفن الحربية البريطانية.

(٢) بطل رواية «بعثة همفري كلينكر»، وتعد أهم روايات سمولِت، وآخرها.

(٣) بطل رواية تحمل الاسم نفسه للكاتب هنري فيلدنج.

(٤) رواية للكاتب أوليفر جولدسميث. إحدى أشهر روايات القرن الثامن عشر، وأكثرها قراءة في العصر الفيكتوري.

(٥) رواية للأديب الإسباني ثيربانتس.

(٦) بطل رواية «مغامرات جيل بلاس دي سانتللاني» للكاتب ألان رينيه لساج. كانت من أكثر الروايات تأثيرًا في فرنسا.

(٧) رواية للكاتب دانيال ديفو؛ تحكي عن فتى متهور، فر من أهله ليعيش حياة البحَّارة.

(٨) يقصد ألف ليلة وليلة.

الشريرة - وهو ما راق لي أيضًا. لقد تقمصت شخصية توم جونز - ذلك الطفل توم البريء الساذج - لأسبوع متواصل. احتفظت في مخيلتي بانطباعاتي الخاصة عن رودريك راندوم لشهر كامل. أحسب أنني تقمصت الشخصيات على أكمل وجه. راقت لي بضعة مجلدات من كتب الرحلات والأسفار، وقد نسيت الآن أسماء الكتب التي كانت موجودة على تلك الرفوف. أذكر أنني رحت أتجول لأيام عدة في منطقتي الآمنة في منزلنا، مسلحًا بقطعة معدنية قديمة كانت تتوسط قالب الأحذية - فصرت على هيئة تشبه أحد ضباط البحرية الملكية البريطانية، بينما يلوح في خطر من حصار المتوحشين، وقد عزم على دفع ثمن الحرية وبذل حياته بثمن غالٍ. ولم يفقد القبطان كرامته قَطُّ، وإن قُرصت أذنه بسبب عدم إتقانه للقواعد اللاتينية. هكذا تمت الحكاية؛ أما القبطان فقد كان قائدًا وبطلًا، على الرغم من كل القواعد النحوية لجميع لغات العالم الموجودة أو المندثرة.

وجدت في هذه الكتب راحتي الوحيدة والدائمة. أفكر في الأمر، فتتجلى دائمًا صورة ما في ذهني، لإحدى الأمسيات الصيفية، حيث يلعب الأطفال في فناء الكنيسة، بينما أجلس على سريري، كما لو أنني سأقرأ مدى الحياة. كانت كل حظيرة في الحي، وكل حجر في الكنيسة، وكل قدم في فناء الكنيسة، لها ذكرى مميزة تلوح في خاطري، ترتبط فيما بينها بهذه الكتب، وتتوثق ذكراها ببعض الأماكن التي اشتهرت بها. لقد تمثل أمامي توم بايبس يتسلق برج الكنيسة. أبصرت ستراب، يحمل حقيبته على ظهره، وقد توقف ليستريح على بوابة الويكيت؛ وأدركت أن الكومودور ترونيون

قد أقام اجتماعه مع السيد بيكل، في ردهة حانة قريتنا الصغيرة[1].

يفهم القارئ الآن، كما أدركت بدوري الأمر نفسه، حالي التي وصلت إليها في هذه المرحلة من شبابي، الذي استرجعته في هذه اللحظة مرة أخرى.

توجهت ذات صباح إلى الصالون مصطحبًا كتبي، فإذا بي أجد أمي وقد بدا عليها القلق، ولاحت الآنسة مردستون حازمة، أما السيد مردستون فكان يربط شيئًا حول قاع قصبة - عصا رفيعة ورشيقة، وما لبث أن تركها عندما دخلت وأخذ يلوح بها في الهواء.

قال السيد مردستون: «أقول لكِ يا كلارا، لقد تعرضت للجلد في كثير من الأحيان».

قالت الآنسة مردستون: «بكل تأكيد».

تلعثمت أمي وقالت في خنوع: «بالتأكيد، يا عزيزتي جين، لكن - ولكن هل تعتقدين أن الأمر أفاد إدوارد؟».

سأل السيد مردستون بجدية: «هل تعتقدين أن الأمر أضر بإدوارد يا كلارا؟».

قالت أخته: «هذا بيت القصيد».

أجابت أمي بدورها: «بالتأكيد، يا عزيزتي جين». ولم تزد كلمة واحدة.

شعرت بخوف من أن أكون الشخص المعني بهذا الكلام، وقد ثبتُّ

---

(١) أبطال وأحداث من «مغامرات وبيريجرين بيكل».

عينيَّ في عين السيد مردستون بينما لاحت لناظري تتوهج.

راح يتحدث وهو يسدد نحوي هذه النظرة مرة أخرى قائلًا: «الآن يا ديفيد؛ عليك أن تصير منذ اليوم أكثر حرصًا من المعتاد». أخذ يلوح بالعصا مرة أخرى، وبعد أن انتهى من تحضيرها وضعها بجانبه في مشهد مثير للعجب ثم تناول كتابه.

كان هذا المشهد منعشًا جيدًا لذاكرتي في البداية. شعرت أن كلمات دروسي تنزلق، ليست واحدة تلو الأخرى، أو سطرًا تلو الآخر، ولكنها تنزلق في صفحات كاملة. حاولت أن أمسك بها، لكن يبدو أنها، إن جاز لي التعبير، قد ارتدت زلاجات، وراحت تبتعد عني بسلاسة من دون سبيل إلى إيقافها.

كانت بدايتنا سيئة، ثم انزلقنا نحو الأسوأ. خطرت لي فكرة أن أظهر تميزي لا فشلي، وتصورت أنني في غاية الاستعداد لذلك، لكن اتضح أنني كنت مخطئًا تمامًا. ألقى كل كتاب تلو الآخر كومة من الإخفاقات على كاهلي. كانت الآنسة مردستون تتربص بنا طوال الوقت. وصلنا أخيرًا إلى مسألة الأجبان الحسابية ذات الخمسة آلاف (لكنه جعل المسألة تدور حول ضربات العصا التي صنعها في ذلك اليوم، على ما أذكر)، ومن ثَم انفجرت أمي في البكاء.

قالت الآنسة مردستون بنبرة تحذيرية: «يا كلارا!».

قالت أمي: «أظن أنني لست على ما يرام يا عزيزتي جين».

رأيته يغمز لأخته في هيئة مخيفة بينما ينهض حاملًا عصاه، وراح يقول:

«لماذا يا جين تتوقعين أن تتحمل كلارا، في حزم تام، مثل هذا القلق والعذاب الذي سببه لها ديفيد اليوم؟ سيكون الأمر فوق الاحتمال. لقد تحسنت كلارا وتطورت بشكل كبير، لكننا لا نستطيع أن نتوقع منها المزيد. يا ديفيد، سنصعد أنت وأنا يا فتى».

أخرجني من الباب، فركضت أمي نحونا. تدخلت الآنسة مردستون قائلة: «يا كلارا! هل أنتِ حمقاء؟»، ثم رأيت أمي تسد أذنيها، وسمعتها تبكي.

أخذني إلى غرفتي ببطء وحزم - إنني متأكد من أنه شعر بالسرور من هذا العرض الرسمي لتنفيذ العدالة - وعندما وصلنا إلى هناك، لف رأسي فجأة تحت ذراعه.

صرخت قائلًا: «يا سيد مردستون، يا سيدي، لا تفعل، ارحمني، لا تضربني. لقد حاولت أن أتعلم يا سيدي، لكنني لا أستطيع أن أتعلم بينما تجلس أنت والآنسة مردستون بجانبك تراقباني. لا أستطيع حقًّا».

قال: «ألا يمكنك حقًّا يا ديفيد؟ سنجرب هذه الطريقة إذن».

صار رأسي يشبه المنجل، لكنني قمت بالالتواء حوله بطريقة ما، وأوقفته للحظة، وناشدته ألا يضربني. أوقفته لحظة واحدة فقط، لكنه ما لبث أن جرحني بشدة بعد ذلك بوقت قصير. قبضت على يده في نفس اللحظة التي أطبقها على فمي، ورحت أعضها بين أسناني. وإني لم أزل أذكر وقع أسناني عليه.

أخذ يزيد في ضربي كما لو أنه أراد أن يطرحني هالكًا. ارتفعت أصوات الضجيج الذي أحدثناه، فسمعت وقع أقدام صعودهم وهم

يصرخون. سمعت صراخ أمي وصراخ بيجوتي كذلك. رحل بعدها، ثم أغلق الباب من الخارج. كنت مستلقيًا، محمومًا وساخنًا، وممزقًا ومتوجعًا وساخطًا، أصرخ في وهنٍ، وأنا منطرح فوق الأرض.

أتذكر جيدًا، سكوني بعد ذلك، وكيف بدا غير معتاد، ثم أخذ يسود ويعم أرجاء المنزل! كم أتذكر جيدًا، شعوري بعد أن هدأ غضبي وطابت أوجاعي، وكيف راودني مشاعر خبيثة.

جلست ساكنًا أنصت لفترة طويلة من دون أن أسمع صوتًا. زحفت حتى نهضت من فوق الأرض، وأبصرت وجهي في المرآة منتفخًا، محمر اللون، وقبيحًا إلى حد كاد يخيفني. كانت مواضع الضرب مؤلمة ويابسة، مما جعلني أبكي من جديد كلما تحركت. أما هم فلم يراودهم أي شعور بذنب. إني لأجرؤ على القول بأن الأمر أثقل صدري بذنب أعظم من لو كنت مجرمًا عاتيًا.

حل الظلام، فأغلقت النافذة. كنت مستلقيًا أغلب الوقت، مسندًا رأسي على العتبة، أتناوب البكاء والنعاس، وأنظر بين الحين والآخر حولي في فتور. سمعت صوت دوران المفتاح، وإذا بالآنسة مردستون قد جاءت ببعض الخبز واللحم واللبن. وضعت هذه الأطعمة فوق المنضدة من دون أن تنبس ببنت شفة، بينما ظلت تحدق في وجهي بصرامة مفرطة، ثم تراجعت وأغلقت الباب وراءها.

جلست بعد أن ساد الظلام قابعًا في مكاني لوقت طويل، أتساءل هل سيأتي أي شخص آخر لرؤيتي؟ بدا الأمر غير محتمل في هذه الليلة، فخلعت ملابسي وأويت إلى الفراش، وهناك رحت أتساءل في خوف

عما سيحدث لي. هل قمت بعمل إجرامي؟ هل ثمة شيء يستدعي احتجازي ودفعي إلى سجن؟ هل سأتعرض بطريقة ما لخطر الإعدام؟

لن أنسى لحظة استيقاظي في صباح اليوم التالي، حين كنت مبتهجًا ومنتعشًا في اللحظات الأولى، ثم صرت كئيبًا مغمومًا مع ثقل ما تذكرته من أحداث سالفة. ظهرت الآنسة مردستون أمامي مرة أخرى قبل أن أنهض من الفراش. أخبرتني، في كلمات كثيرة، أنني حر، أستطيع السير في الحديقة لمدة نصف ساعة ليس أكثر، ثم مشت وقد تركت لي الباب مفتوحًا حتى أستفيد من هذا الإذن وأنفذه.

كان هذا ما قمت به، وكررته كل صباح طوال سجني الذي دام خمسة أيام. لو كان بإمكاني رؤية أمي على انفراد، لجثوت على ركبتي عندها طالبًا منها المغفرة والعفو، لكنني لم أرَ أحدًا طوال الوقت باستثناء الآنسة مردستون، وباستثناء اجتماعنا لصلاة المساء في الصالون. كانت الآنسة مردستون ترافقني بعد أن يجلس الجميع في أماكنهم، فأجلس في مكان بعيد، كما لو أنني شاب خارج عن القانون، فأقبع وحيدًا شريدًا بالقرب من الباب. يقودني سجاني الخاص بهيئة رسمية لأعود أدراجي، قبل أن ينهض أحد من ركوعه. لم ألحظ سوى أن أمي كانت بعيدة عني بقدر المستطاع، وقد حافظت على وجهها بعيدًا عني حتى لا أراه أبدًا، بينما كانت يد السيد مردستون مربوطة بلفافة عريضة من الكتان.

لا أستطيع أن أنقل إليكم مشاعري طوال تلك الأيام الخمسة. إنها تحتل في ذاكرتي مكانًا لسنوات لا لأيام. لقد أنصت إلى كل وقائع المنزل، بالإضافة إلى صوتي وهمساتي. سمعت رنين الأجراس،

وأصوات فتح وإغلاق الأبواب، غمغمة الأصوات، وخطى الدرج، بالإضافة إلى الضحكات أو الصفير أو الغناء في الخارج، والذي بدا لي أكثر كآبة من أي شيء آخر في وحدتي وسجني. كان صوت عقارب الساعات مضللًا، خاصة في الليل، فقد رحت أستيقظ متوهمًا أنه قد حلَّ الصباح، بينما لم تأوَ العائلة إلى الفراش بعد، ولم ينقضِ الليل ولم تبدأ ساعاته الأولى بعد. ظلت تراودني أحلام وكوابيس كئيبة. يحل نهار تلو الآخر، تبدأ الظهيرة وتنتهي، فيحل المساء، ويبدأ الأولاد في اللعب في فناء الكنيسة. أراقبهم من مسافة بعيدة داخل الغرفة، لخجلي من إظهار نفسي عند النافذة؛ خشية أن يعرفوا أنني صرت سجينًا. راودني إحساس غريب بأنني لم أعد أسمع صوتي أبدًا عندما أتكلم، كما تلاشت مع صوتي أي فواصل عابرة من البهجة، التي كانت تحل بين حين وآخر مع الأكل والشرب. هطل المطر في إحدى الأمسيات، فحلَّ برائحته المنعشة في الهواء. أخذ يتسارع حتى حال بيني والكنيسة. بدا الليل لي وقد اتحد بقطرات المطر ليزيد من كآبتي وخوفي وندمي. مرت أمامي هذه الحوادث بأسرها في دوائر متتالية، كما لو كانت سنوات لا أيامًا. صار أثرها مطبوعًا في صورة واضحة وقوية في ذاكرتي. استيقظت في الليلة الأخيرة من سجني، وقد سمعت اسمي يُنادى بصوت هامس. استويت في الفراش، وبسطت ذراعي في الظلام قائلًا:

«هل هذه أنتِ يا بيجوتي؟».

لم أسمع إجابة في الحال، لكنني سمعت في هذه اللحظة اسمي مرة أخرى، بنبرة شديدة الغموض والبشاعة، لدرجة أنني أحسست أنني

على وشك فقدان وعيي، لولا أن خطر ببالي أن الصوت يجب أن يكون قد جاء من ثقب المفتاح.

تلمست طريقي نحو الباب، ووضعت شفتي على ثقب المفتاح، وهمست: «هل هذه أنتِ يا بيجوتي العزيزة؟».

فأجابت: «نعم، يا عزيزي ديفي. كن خافتًا مثل الفأر، وإلا سوف تسمعنا القطة».

لقد فهمت أن هذا التعبير يعني الآنسة مردستون، وأدركت أهمية الأمر، فقد كانت غرفتها قريبة.

«كيف حال ماما يا عزيزتي بيجوتي؟ هل هي غاضبة جدًّا مني؟».

كنت أسمع بيجوتي تبكي في هدوء من ثقب المفتاح، كما كنت أفعل الأمر ذاته من جانبي، قبل أن تجيب: «لا، ليست غاضبة جدًّا».

«ما الذي سيفعلونه معي يا عزيزتي بيجوتي؟ هل تعرفين؟».

«كان جواب بيجوتي أن قالت: «مدرسة، بالقرب من لندن».

اضطررت إلى أن أطلب منها تكرارها، لأنها حين قالتها في المرة الأولى، كنت قد نسيت أن أرفع فمي عن ثقب المفتاح وأضع أذني لأسمع، وعلى الرغم من أن كلماتها كانت تدغدغني للغاية، فإنني لم أسمعها في المرة الأولى.

«متى يا بيجوتي؟».

«غدًا».

«هل هذا هو سبب إخراج الآنسة مردستون للملابس من أدراجي؟»، هذا ما فعلته، على الرغم من أنني نسيت أن أذكر ذلك.

قالت بيجوتي: «نعم، في صندوق».

«ألن أرى ماما؟».

قالت بيجوتي: «بلى، في الصباح».

ثبتت بيجوتي فمها بالقرب من ثقب المفتاح، وألقت هذه الكلمات من خلاله بقدر من الإحساس والجدية، كما لو أن ثقب المفتاح كان وسيلة التواصل دائمًا، وإنني لأجرؤ على تأكيد أنها توهجت في كل جملة صغيرة مقتضبة، وأحدثت انفجارًا صغيرًا متشنجًا من جراء مشاعرها.

«ديفي، يا عزيزي، إذا لم أكن على تواصل حميم معك في الآونة الأخيرة، كما اعتدت أن أكون، فليس لأنني لا أحبك. إن حبي لك يزداد يا صغيري الجميل. لكنني منعت نفسي عن التواصل معك لأنني ظننت أن ذلك أفضل لك، وأنفع لشخص في حالتك. يا ديفي، يا حبيبي، هل تسمعني؟ هل تستطيع سماعي؟».

رحت أبكي مجيبًا: «نع... نع... نع... نعم، يا بيجوتي».

قالت بيجوتي بتعاطف لا حدود له: «حبيبي، إن ما أريد قوله هو ألا تنساني أبدًا، لأنني لن أنساك أبدًا. وسأعتني بأمك يا ديفي، كما اعتنيت بك، بل أكثر من أي وقت مضى، ولن أتركها. قد يأتي اليوم الذي تسعد فيه بوضع رأسها المسكين فوق ذراع بيجوتي الحمقاء مرة أخرى. وسأراسلك يا عزيزي، على الرغم من أنني لست متعلمة. وسأفعل الكثير... سوف أفعل».

راحت بيجوتي تقبل ثقب المفتاح، لأنها لم تستطع تقبيلي.

قلت: «شكرًا لكِ عزيزتي بيجوتي، شكرًا لكِ، هلا وعدتني بشيء واحد يا بيجوتي؟ هل ستكتبين رسالة إلى السيد بيجوتي والصغيرة إيميلي والسيدة جامدج وهام، فتخبريهم أنني لست سيئًا للغاية كما قد يفترضون، وأنني أبعث إليهم بوافر حبي - وخاصةً إلى الصغيرة إيميلي؟ هل يمكنكِ فعل ذلك، إذا سمحتِ، يا بيجوتي؟».

وعدتني هذه الروح الطيبة بتنفيذ الأمر، وقد قبَّل كلانا ثقب المفتاح بأكبر قدر من المودة. أذكر أنني أخذت أربت عليه، كما لو أنني أربت على وجهها الصادق، ثم افترقنا. نشب في صدري منذ تلك الليلة شعور لا يمكنني تحديده جيدًا تجاه بيجوتي. لم تكن لتحل مكان أمي، فلا أحد يستطيع فعل ذلك، لكنها احتلت مكانًا شاغرًا في قلبي، وأحكمت عليه، وشعرت تجاهها بشيء لم أشعر به قَطُّ تجاه أي إنسان سواها. لقد كان نوعًا من المودة ممزوجًا بالفكاهة أيضًا، فماذا أصنع إذا ماتت، لا يمكنني التفكير في الأمر، أو كيف سأتصرف في المأساة التي ستحل عليَّ حينها؟

ظهرت الآنسة مردستون في الصباح كعادتها، وأخبرتني أنني سأذهب إلى المدرسة. لم يكن هذا الخبر جديدًا بالكامل على مسامعي كما كان من المفترض أن يكون. كنت أرتدي ملابسي، فأخبرتني أيضًا أن عليَّ النزول إلى غرفة الطعام في الطابق السفلي، لأتناول وجبة إفطاري. وجدت أمي هناك، تجلس شاحبة للغاية وقد احمرت عيناها. ركضت نحو ذراعيها، وطلبت منها العفو من أعماق روحي المعذبة.

قالت: «آهٍ، ديفي، كيف استطعت أن تؤذي إنسانًا أحبه؟! حاوِل أن تصير أفضل، صلِّ داعيًا أن تكون أفضل. إنني أسامحك، لكنني حزينة للغاية يا ديفي، على مثل هذه المشاعر السيئة التي تكمن في قلبك».

لقد أقنعوها بأنني غلام شرير، إلى الحد الذي جعلني أشعر أنها حزينة من هذا الأمر أكثر من حزنها على رحيلي. حاولت أن أتناول فطور الفراق، لكن دموعي سقطت على الخبز والزبدة، وتقطرت في فنجان الشاي. رأيت أمي تتلفت نحوي أحيانًا، ثم تلقي نظرة إلى الآنسة مردستون المتربصة، ثم تنظر إلى الأسفل أو تشيح ببصرها بعيدًا.

سمعت صوت عجلات العربة عند البوابة، وصوت الآنسة مردستون تقول: «ضع صندوق السيد كوبرفيلد هنا».

رحت أبحث عن بيجوتي، لكنني لم أجدها؛ لم تظهر هي ولا السيد مردستون. كان الحوذي الذي عرفته فيما سبق واقفًا بالباب، وقد حمل الصندوق إلى عربته وثبته بها.

قالت الآنسة مردستون بنبرة تحذيرية: «كلارا!».

أجابتها أمي قائلة: «إنه جاهز يا عزيزتي جين. وداعًا يا ديفي. إنك ذاهب إلى مصلحتك. وداعًا يا طفلي. ستعود إلى المنزل في الإجازات، وستصير ولدًا صالحًا».

كررت الآنسة مردستون قولها: «كلارا!».

ردت أمي وهي تحتجزني: «بالتأكيد، يا عزيزتي. إنني أسامحك يا ولدي الغالي. حفظك الله».

كررت الآنسة مردستون قائلة: «كلارا!».

كانت الآنسة مردستون طيبة بما يكفي لتصحبني إلى العربة، بينما تقول لي في الطريق إنها تأمل أن أتوب، قبل أن أهوي إلى نهاية سيئة، ثم صعدت إلى العربة، وسار الحصان الكسول مبتعدًا.



# الفصل الخامس

## بعيدًا عن البيت

ما إن قطعنا مسافة نصف ميل تقريبًا، حتى صار منديلي بعدها مبتلًّا تمامًا. أوقف الحوذي العربة، فرحت أتلفت لأتأكد مما أبصرته وأدهشني، فقد هرعت بيجوتي نحونا وصعدت إلى العربة. أخذتني بين ذراعيها، وضغطتني بين أحضانها حتى آلمني أنفي للغاية من شدة الضغط، على الرغم من أنني لم أفكر في أمر هذا الألم إلا فيما بعد، حينما اكتشفت أن أنفي حساس للغاية. لم تتفوه بيجوتي بكلمة واحدة. أطلقت إحدى ذراعيها، ودسته في جيبها حتى مرفقها، ثم أخرجت أكياسًا ورقية مملوءة بالكعك، فوضعته في جيبي، وأخرجت محفظة ووضعتها في يدي، لكنها لم تقل كلمة واحدة. نزلت من العربة بعد عناق آخر وضغط أخير بكلتا ذراعيها حولي، ثم هربت. أحسب أن ثوبها لم يبقَ فيه ولو زر وحيد. التقطت زرًّا من بين العديد من الأزرار التي تدحرجت حولي، واحتفظت به كتذكار عزيز إلى الأبد.

نظر لي الحوذي، كما لو كان يستفسر عما إذا كانت ستعود أم لا. أومأت برأسي وقلت إنني لا أظن أنها ستعود. قال الحوذي للحصان الكسول: «هيا انطلق». وقد نفذ الأمر.

بكيت في هذه الأوقات أشد البكاء، ثم بدأت التفكير في أن البكاء لم يعد مجديًا، خاصة وأن رودريك راندوم، وقائد البحرية البريطانية الملكية، لم يبكيا قَطُّ، وهذا ما يمكنني تذكره، في مواقفهما العصيبة. لاحظ الحوذي القرار الذي اعتزمته بالكف عن البكاء، فاقترح أن أنشر منديلي على ظهر الحصان حتى يجف. شكرته ووافقت على ذلك، وقد بدا منديلي صغيرًا بصورة مميزة في ظل هذه الظروف.

صار لديَّ وقت فراغ كافٍ في هذه اللحظة لأفحص المحفظة. لقد كانت حقيبة جلدية صلبة، بها ثلاثة شلنات لامعة، وكان من الواضح أن بيجوتي قد صقلتها بمُلمِّع أبيض، لأبتهج بها أكثر. أما أثمن ما حوته المحفظة فكان نصفَي كروان مطويان معًا داخل قطعة من ورق، كتب عليهما بخط أمي: «من أجل ديفي. مع حبي». لقد غلبني هذا الأمر لدرجة أنني طلبت من الحوذي أن يتعطف عليَّ بطيبته ويناولني منديلي مرة أخرى، لكنه قال إنه يظن أنه من الأفضل الاستغناء عنه، وأحسب أنني فعلت ذلك حقًّا، لذلك مسحت عيني في كمي ومنعت نفسي عن البكاء.

كان الكف عن البكاء لمصلحتي، إلا أنني على الرغم من إدراكي للأمر لم تلبث مشاعري السالفة تراودني بين حين وآخر، ولم أزل أتألم في نوبة بكاء عاصفة. سرنا لبعض الوقت، فإذا بي أسأل الحوذي عما إذا كان سيمضي على طول الطريق.

استفسر الحوذي عن مقصدي: «على طول الطريق إلى أين؟».

قلت: «هناك».

تساءل الحوذي: «أين هناك؟».

قلت: «بالقرب من لندن».

قال الحوذي وهو يهز اللجام مشيرًا إلى حصانه: «إن هذا الحصان سيصير أثقل من لحم خنزير سمين قبل أن نصل إلى نصف المسافة».

سألته: «هل ستذهب إلى يارموث فقط؟».

قال الحوذي: «هذا كل ما أستطيع. وهناك سآخذك إلى حوذي العربة المستطيلة، والذي سينقلك بعربته إلى... أينما تريد».

مضى الأمر على مضض نظرًا لأن الحوذي (الذي يدعى السيد باركس) اجتهد ليتحدث هذا الحديث؛ إنه كما لاحظت في فصل سابق، من أصحاب المزاج البلغمي[1]، وليس متحدثًا على الإطلاق - قدمت له كعكة دليلًا على تقديري له، وقد ازدردها مرة واحدة تمامًا مثل فيل، من دون أن يبدي أي انطباع على وجهه الكبير، بل أقل مما قد يبدو على وجه الفيل.

تحدث السيد باركس وهو يميل بجسده إلى الأمام بتراخٍ كعادته، وقد أسند ذراعيه على ركبتيه، فأخذ يقول: «هل طهوتها لتوِّها؟».

«هل تقصد بيجوتي يا سيدي؟».

قال السيد باركس: «آه! أقصدها».

«نعم، إنها تخبز كل معجناتنا، وتقوم بكل أعمال الطبخ لنا».

(١) يقصد أنه لا يحب إجراء المحادثات، ويجد صعوبة في الكلام.

قال السيد باركس: «حقًّا، تفعل؟». لوى فمه كأنه يُصفر، لكنه لم يُصفر. جلس ينظر إلى أذني الحصان وكأنه رأى شيئًا جديدًا هناك، وظل على هذه الحال لفترة طويلة. ثم قال:

«ليس لها أحباء، أليس كذلك؟».

«هل قلت حلواء يا سيد باركس؟».

لقد ظننت أنه يريد شيئًا آخر ليأكله، وربما ألمح بهذا الوصف بينما يقصد الحلوى.

قال السيد باركس: «قلوب عاشقة. قلوب حلوة، ألا يحبها أحد ويتقابل معها؟!».

«مع بيجوتي؟».

قال: «آه، معها».

«آهٍ، لا. لم يكن لديها حبيب قَطُّ».

قال السيد باركس: «أليس كذلك!».

لوى فمه مرة أخرى للصفير، من دون أن يصفر، بل جلس ينظر إلى أذني الحصان.

قال السيد باركس، بعد فترة طويلة من التفكير: «إنها تصنع كل قطع حلوى التفاح، وتطبخ كل شيء، أليس كذلك؟».

أجبته أن هذا حقًّا ما تفعله.

قال السيد باركس: «حسنًا، سأخبرك بأمر. ربما ستراسلها وتكتب لها؟».

فقلت: «سأكتب لها بالتأكيد».

قال وهو يدير عينيه في بطء نحوي: «آه، حسنًا، إذا كتبت لها، فلتذكر لها أن باركس راغب؛ هل بامكانك كتابة هذا لها؟».

كررت في براءة قوله: «إن باركس راغب. هل هذه هي كل الرسالة؟».

قال بعد تروٍّ وتفكير: «نعم، باركس راغب».

راودتني فكرة وجودي بعيدًا عنها في ذلك الوقت، فتلعثمت قليلًا ورحت أقول: «لكنك ستعود غدًا إلى بلندرستون مرة أخرى يا سيد باركس، ويمكن أن تبلغ رسالتك الخاصة بصورة أفضل مني بكثير».

لكنه رفض هذا الاقتراح بهزة من رأسه، وأكد طلبه السابق مرة أخرى قائلًا بجدية بالغة: «باركس راغب. هذه هي الرسالة». وعدته بالفعل بنقل رسالته. رحت أنتظر الحافلة في فندق في يارموث بعد ظهر ذلك اليوم. اشتريت ورقة ومحبرة، وكتبت رسالة صغيرة إلى بيجوتي، والتي كان نصها: «عزيزتي بيجوتي. لقد وصلت إلى هنا بأمان. إن باركس راغب. خالص حبي لماما. تفضلوا بقبول فائق الاحترام. ملاحظة. يقول إنه يريدك تحديدًا أن تعرفي أن باركس راغب».

أخذت على عاتقي تنفيذ هذه المهمة فيما بعد. عاد السيد باركس إلى صمته التام، وكنت قد شعرت بالإرهاق الشديد بسبب كل ما حدث مؤخرًا، فاستلقيت على حاوية في العربة ونمت. رحت في نوم هادئ حتى وصلنا إلى يارموث. بدت جديدة تمامًا وغريبة عني بينما نتجه نحو ساحة النزل الذي وصلنا إليه، لدرجة أنني تخليت في الحال عن أمل

كامن في قلبي، من أنني قد أقابل بعض أفراد عائلة السيد بيجوتي هناك، وربما كنت لأصادف إيميلي الصغيرة نفسها.

كانت العربة تقف في الفناء، يلمع كل جزء فيها غاية اللمعان. كانت من دون خيول تتقدمها حتى هذه اللحظة. كان من المستحيل أن تبدو العربة في هذه الحالة قادرة على السفر إلى لندن. كنت أفكر في هذا الأمر، وأتساءل كذلك عن مصير صندوقي، بعد أن وضعه السيد باركس على رصيف الفناء بجانب العمود - لقد قاد السيد باركس العربة حتى نهاية الفناء ليستدير بها - وأتساءل أيضًا عن مصيري في النهاية. التفت ساعتها إلى سيدة تطل من نافذة وقد برزت منها بعض الطيور وعناقيد من لحم معلقة، وما لبثت أن قالت:

«هل هذا هو الرجل المحترم الصغير من بلندرستون؟».

أجبت: «نعم يا سيدتي».



سألت السيدة: «ما اسمك؟».

قلت: «كوبرفيلد يا سيدتي».

ردت السيدة: «هذا الاسم لن يكفي لإثبات الأمر. لم يدفع أحد ثمن الغداء هنا لشخص بهذا الاسم».

قلت: «هل الاسم المدون هو مردستون يا سيدتي؟».

قالت السيدة: «إذا كنت تعرف أنه باسم السيد مردستون، فلماذا تعطي اسمًا آخر من البداية؟».

شرحت للسيدة حقيقة الأمر، ومن ثَم قرعت جرسًا، ثم صرخت قائلة: «يا ويليام، اصطحب الضيف إلى غرفة القهوة»، لبى النادل النداء، وظهر قادمًا من المطبخ على الجانب الآخر من الفناء ليريني الغرفة، وبدا أنه مندهش جدًّا عندما عرضها عليَّ بمفردي.

كانت الغرفة كبيرة وطويلة، تحوي بعض خرائط كبيرة. أشك في أنني كنت سأشعر بغرابة أكبر لو كانت هذه الخرائط دولًا حقيقية، وقد ألقيت وسطها. أحسست أنني في غاية الجرأة، إذ جلست على زاوية الكرسي القريب من الباب، حاملًا القبعة في يدي. بسط النادل أمامي مفرشًا فوق المائدة، ووضع مجموعة من الحاويات عليها، وأحسب أن لوني تحول إلى الأحمر من شدة الخجل.

أحضر لي بعض قطع اللحم والخضراوات، وراح يرفع الأغطية عن الطعام بطريقة مفاجئة، للحد الذي جعلني أخشى أن أكون قد أسأت إليه بصورة ما. لكنه خفف شرودي كثيرًا بعد أن وضع لي كرسيًّا عند المنضدة، وقال بحنان شديد: «الآن، هيا يا من يزيد طوله على ستة أقدام!».

شكرته وجلست على مقعدي المخصص. لكنني وجدت صعوبة بالغة في التعامل مع السكين والشوكة ببراعة، ولم أستطع تجنب إغراق نفسي بالمرق، بينما كان يقف في الجهة المقابلة يحدق إليَّ بشدة، مما جعلني أحمرُّ خجلًا إلى أقصى حد في كل مرة لفتُّ انتباهه. رمقني بينما أتناول قطعة اللحم الثانية، وأخذ يقول:

«ثمة نصف لتر من البيرة لك. هل ستحصل عليه الآن؟».

شكرته وقلت: «نعم». سكبها من إبريق في كأس كبيرة، ورفعها أمام الضوء، فبدت لي جميلة.

قال: «ما أحلاها! تبدو رائقة وكميتها كبيرة، أليس كذلك؟».

أجبت بابتسامة: «تبدو الكمية كبيرة». لقد سرَّني أن وجدته لطيفًا جدًّا معي. كان رجلًا متلألئ العينين، تملأ البثور وجهه، وينتصب شعره على مقدمة رأسه. وقف وقد ثنى إحدى ذراعيه، ورفع الزجاج باليد الأخرى نحو الضوء، وقد بدا ودودًا للغاية.

تحدث قائلًا: «كان عندنا رجل نبيل هنا بالأمس؛ رجل شجاع، يدعى توبساوير - ألا تعرفه؟».

أجبت: «لا، لا أظن أنني أعرفه».

قال النادل: «ارتدى بنطالًا قصيرًا وحذاءً خاصًّا، مع قبعة عريضة الحواف، ومعطفًا رماديًّا، وقلادة منقطة».

أجبت على استحياء: «لا، لم أتشرف بمعرفته من قبل».

قال النادل بينما ينظر إلى الضوء من خلال الكأس: «لقد جاء إلى هنا، وطلب كأسًا من هذه البيرة - كان قد طلبها لتوِّه ونصحته ألا يحتسيها - لكنه شربها، ثم سقط ميتًا. كانت معتقة جدًّا وثقيلة فلم يتحملها. لم يكن عليه شربها... هذه هي الحقيقة».

لقد صُدمت كثيرًا وهالني سماع هذا الحادث الكئيب، وقلت إنني أظن أنه من الأفضل أن أحصل على بعض الماء بدلًا من شرب البيرة.

قال النادل بينما لم يزل ناظرًا إلى الضوء من خلال الكأس، وقد أغمض إحدى عينيه: «كما ترى، إن أصحاب الفندق لا يحبون أن تجهز

الأشياء ثم تترك كما هي. إن هذا الأمر يسيء إليهم، لكنني سأشرب البيرة بدلًا عنك، إذا أردت. لقد اعتدت شربها، والاعتياد هو أصل كل شيء. لا أظن أنها ستؤذيني، إذا أطحت برأسي إلى الخلف وتجرعتها بسرعة. فهل يمكنني أن أشربها؟».

أجبته أنني سأكون ممتنًّا إذا شربها، ما دام أنه يستطيع فعل ذلك بأمان من دون أن تؤثر عليه بأي حال من الأحوال. أشاح برأسه إلى الوراء، وتجرعها بسرعة. أعترف أن خوفًا شديدًا قد تملكني، فربما يقابل مصير السيد توبساوير المنكوب، ومن ثَم سيسقط ميتًا على السجادة. لكن ذلك لم يؤذِه، بل على العكس، أحسب أن وجهه قد بدا أكثر نضارة.

قال: «ماذا لدينا هنا؟»، ثم وضع شوكة في طبقي. وأكمل قائلًا: «أليست هذه قطعًا من اللحم؟».

قلت: «بلى، إنها قطع من اللحم».

صاح قائلًا: «ليغفر الله لي! لم أكن أعرف أنها قطع اللحم. إن اللحم هو الشيء الذي يزيل الآثار السيئة لتلك الجعة! ألستُ محظوظًا؟».

تناول قطعة من اللحم وأمسك عظمها في يده، وأخذ شرائح البطاطس باليد الأخرى، وأكلها بشهية ونهم، في مشهد أسعدني للغاية. تناول بعد ذلك قطعة بطاطس أخرى، وتبعها بقطعة ثانية فثالثة. انتهينا، ثم أحضر لي حلوى، ووضعها أمامي. إلا أنه بدا كما لو أنه يتأرجح، ويغيب عن الانتباه لبعض اللحظات.

قال منتبهًا بعد ذلك: «كيف حال الفطيرة؟».

أجبت: «إنها حلوى».

صاح قائلًا: «حلوى! صحيح، يا الله؛ حقًّا إنها كذلك! ماذا!».

نظر إليها عن قرب ثم قال: «هل تقصد أن تقول إنها حلوى «البودينج»؟!».

قلت: «نعم، إنها هي بالفعل».

تناول مقدار ملعقة منها، وأخذ يقول: «ما هذا؟ إنها حلوى البودينج، إنها حلواي المفضلة! ألستُ محظوظًا؟ هيا أيها الرجل الصغير، فلنرَ من منا سيحصل على المقدار الأكبر منها».

بالتأكيد حصل النادل على معظم الحلوى. لقد ناشدني أكثر من مرة لمحاولة التقدم عليه والفوز، ولكن ما فائدة التشجيع أمام حجم ملعقة المائدة التي أكل بها بالمقارنة بملعقة الشاي التي استخدمتها. وكيف أقارن أكله السريع بأكلي المتباطئ، وشهيته المفتوحة بشهيتي. خسرت جولتي أمامه منذ الملعقة الأولى، فلم تسنح لي فرصة الفوز أمامه. أحسب أنني لم أرَ أي إنسان يستمتع بأكل الحلوى بهذا القدر؛ وما لبث أن ضحك بعدما انتهت، كما لو أن استمتاعه بها لم يزل مستمرًّا.

وجدته ودودًا للغاية ورفيقًا بي، فطلبت منه قلمًا وحبرًا وورقًا لأكتب إلى بيجوتي. لم يحضرها على الفور فحسب، بل كان طيبًا جدًّا للحد الذي جعله يشرف عليَّ في أثناء كتابتي للرسالة. ما إن انتهيت من كتابتها، حتى سألني عن المدرسة التي سأذهب إليها.

قلت: «بالقرب من لندن». كان ذلك كل ما أعرفه.

بدا أنه منكسر ومتعاطف، وقد قال: «يااااه! يا للأسف! كم يؤسفني سماع ذلك».

سألته: «لماذا؟».

قال وهو يهز رأسه: «آهٍ، يا رب! هذه هي المدرسة التي كسروا فيها ضلوع الصبي - ضلعين - كان طفلًا صغيرًا. دعني أقول إنه كان في سن - دعني أتذكر - كم عمرك، بالتقريب؟».

أخبرته أنني بين الثامنة والتاسعة من العمر.

قال: «كان هذا هو عمره بالضبط. كان عمره ثماني سنوات وستة أشهر عندما كسروا ضلعه الأول، ثم ثماني سنوات وثمانية أشهر عندما كسروا الثاني، ومن ثَم قضوا عليه».

لم أستطع أن أخفي عن نفسي أو عن النادل أن هذه صدفة مزعجة، واستفسرت كيف وقع هذا الأمر. لم تكن إجابته تروق لي، لأنها لم تتكون إلا من كلمتين كئيبتين، هما: «من الضرب».

سمعت نفخ بوق في الفناء وكان بمثابة تحول لحالي، فقد دفعني إلى النهوض. كنت في حال من التردد واختلطت مشاعري بين الكبرياء والخوف بينما أخرج المحفظة التي أحوذها من جيبي، وأسأل عما إذا كان ثمة شيء لأدفعه.

أجاب: «إنها ورقة من ورق الرسائل. هل اشتريت من قبل ورقة من ورق البريد؟».

لم أستطع تذكر ما إذا كنت فعلت الأمر قبل ذلك أم لا.

قال: «إنه غالٍ، بسبب الجمارك. ثمن الورقة ثلاثة بنسات. هذه هي الطريقة التي يتم بها فرض الضرائب علينا في هذا البلد. لم يتبقَّ شيء من دون ضرائب سوى النادل. لا تهتم بثمن الحبر، فسأترك لك ثمنه».

تلعثمت خجلًا، وقلت: «ماذا يجب أن – ما الذي يجب أن أفعله – كم أدفع – ما الذي يجب أن أدفعه للنادل، إذا سمحت؟».

قال النادل: «لولا أنني رب عائلة، وهذه العائلة مصابة بداء الجدري، لما أخذت منك البنسات الستة. لولا أنني أعول أمًّا مسنة، وأختًا جميلة – هنا صار النادل مضطربًا للغاية – لن آخذ الكثير. إذا كنت أعيش في مكان جيد، وعاملوني هنا بصورة لائقة، لكنت قد توسلت إليك لقبول هذا الشيء البسيط مني، بدلًا من أخذ ثمنه. إلا أنني أعيش على الفتات، وأنام على فحم مكسور». وهنا انفجر النادل في البكاء.

صرت مهمومًا راثيًا لحاله الصعبة، وشعرت أن إعطاءه أقل من تسعة بنسات سيكون نوعًا من الوحشية وقسوة القلب. من ثَم أعطيته واحدًا من شلناتي الثلاثة اللامعة، فتناولها بتواضع جم وتبجيل عظيم، ولفها وأطبق عليها إبهامه بعد ذلك مباشرة، ليتأكد من أنها ليست مزيفة.

صرت في دهشة من أمري؛ بعدما اكتشفت بينما أتلقى المساعدة للجلوس خلف سائق المركبة، أن أناس الفندق ظنوا أني تناولت الغداء كامله من دون أي مساعدة من أحد. اكتشفت الأمر، بعد سماع السيدة التي تطل من النافذة وهي تقول للحارس: «اعتنِ بهذا الطفل يا جورج، وإلا فسوف ينفجر من كثرة الأكل». لاحظت أن الخادمات اللواتي كن في المكان خرجن لإلقاء نظرة عليَّ وضحكن على هذه الظاهرة

الفريدة. أما صديقي النادل الكئيب، فقد استعاد معنوياته تمامًا، ولم يبدُ أنه منزعج من هذا الأمر، بل انضم بنظراته إلى هذه الدهشة العامة من دون أن يبدو عليه أي نوع من الارتباك على الإطلاق. لم أشعر بأدنى شك تجاهه، إلا أنني أحسب أن تصرفه هذا أثار ظنوني، لكنني أميل إلى الاعتقاد - بثقة طفل ساذج، واعتماده الفطري في سنواته الأولى على غيره (وهي صفات أشعر بالأسف الشديد على أن أجد طفلًا لا يتحلى بها ويفتقدها قبل الأوان من أجل حكمة دنيوية تبعد براءته)، أنه ليس هناك ما يجعل الشك يخامرني في أمره كله، حتى هذه اللحظة.

شعرت بقسوة بالغة، يجب أن أعترف بذلك، فقد جعلوني محلًّا للسخرية من دون أن أستحق ذلك. سخر مني سائق المركبة والحارس، فقد أخذ السائق يشير إلى العربة التي صارت تتأرجح بشدة بعد جلوسي، وأن توازنها قد اختل بوجودي، بل كان من الأفضل لي السفر في عربة نقل البضائع. راحت قصة شهيتي المفترضة تسري بين الركاب في الخارج، وأخذوا يتضاحكون عليها أيضًا، وسألوني عما إذا كنت سأحصل في المدرسة على نصيب أخوين أو ثلاثة إخوة، وما إذا كنت متعاقدًا مع المدرسة بشكل استثنائي، أم أتبع الشروط العادية، بالإضافة إلى أسئلة أخرى مضحكة. كان أسوأ ما في الأمر هو أنني صرت خجلًا من تناول أي شيء، ولم أفعل ذلك حتى عندما أتيحت لي الفرصة. سأغدو بعد هذا الغداء الخفيف إلى حد ما، جائعًا طوال الليل، خاصة بعد أن تركت كعكاتي ورائي في الفندق، لأنني كنت في عجلة من أمري. تحققت مخاوفي. عندما توقفنا لتناول العشاء لم أستطع التجرؤ

على تناول أي منه، على الرغم من أنني كنت لأقدم عليه جدًّا، لكنني بدلًا من ذلك جلست بجانب النار وقلت إنني لا أريد شيئًا. لم ينقذني ما فعلته من مزيد من النكات أيضًا. ظل رجل ذو صوت أجش ووجه متجهم، يأكل من صندوق الشطائر طوال الطريق تقريبًا، ولا يكف عنه إلا عندما يشرب من الزجاجة. راح الرجل يقول إنني مثل الحية، تأكل ما يكفيها في وجبة واحدة وتبقى عليه لفترة طويلة. جلب الرجل لنفسه بعدها نوعًا من الطفح الجلدي من جراء إكثاره من تناول لحم البقر المسلوق.

كنا قد بدأنا المسير من يارموث في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان من المقرر أن نصل إلى لندن في نحو الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. كنا في منتصف فصل الصيف، وكان المساء لطيفًا للغاية. مررنا بقرية، فشرد ذهني متخيلًا هيئتها من الداخل وكيف تبدو منازلها، وما حال سكانها. ظهر بعض الغلمان يركضون خلف العربة، وراحوا يتأرجحون على مؤخرتها قليلًا. تساءلت عما إذا كان آباؤهم على قيد الحياة، وهل هم سعداء في منازلهم؟ كان لديَّ الكثير لأفكر فيه، إلى جانب التفكير الدائم الذي يجول بخاطري عن طبيعة المكان الذي كنت في طريقي إليه - وقد كانت خواطري موحشة. أتذكر أنني استسلمت أحيانًا لذكريات الوطن وبيجوتي، وسعيت بطريقة مشوشة لأتذكر حقيقة مشاعري تجاههما، وأي نوع من الصبية كنته قبل أن أعض السيد مردستون، وهو فعل لم أستطع أن أرضى عنه بأي وسيلة، فلم يكن ثمة شيء يشي بهذه الفعلة في مثل هذه الأوقات القديمة البعيدة.

لم يكن الليل لطيفًا جدًّا مثلما كانت فترة المساء، فقد كان باردًا عليلًا. جلست بين سيدين؛ أحدهما الرجل الخشن ورجل آخر. وقد جلست بينهما لمنع سقوطي من العربة. كنت على وشك النوم بينهما، لكن نومهما الثقيل منعني من النعاس تمامًا. كانا يضغطان عليَّ بشدة في بعض الأحيان، لدرجة أنني لم أستطع منع نفسي من الصراخ قائلًا: «آهٍ! إذا سمحتما!». لم يعجبهما صراخي على الإطلاق، لأنه أيقظهما. كانت أمامي سيدة مسنة ترتدي عباءة كبيرة من الفرو، بدت في الظلام أشبه بكومة قش لا سيدة، لكثرة الألحفة التي التفت بها. احتفظت هذه السيدة بسلة، ولم تكن تعرف ماذا تفعل بها لفترة طويلة، حتى اكتشفت أن ساقي قصيرة، ومن ثَم يمكنها أن تدسها تحتي. كانت السلة تزعجني وتؤلم ساقي لدرجة أنني صرت في غاية البؤس. كنت إذا تحركت ولو بصورة هينة، أو صدر صوت من اصطدام كوب في السلة بشيء آخر (الأمر الذي كان له أن يحدث بلا شك)، راحت السيدة تلكزني بقدمها لكزات قاسية، وأخذت تقول: «صه، لا تتحرك بهذه الطريقة. إن عظامك لم تزل صغيرة جدًّا، إنني متأكدة!».

أشرقت الشمس أخيرًا، وبدا أن رفاقي قد استساغوا النوم واستسلموا له. لا يمكن تصور الصعوبات التي عانوا منها تحت وطأة الليل، فقد أطلقوا أفظع الشهقات وأعلى أصوات الشخير. أصبح نومهم أخف وطأة مع طلوع الشمس، وبالتالي استيقظوا واحدًا تلو الآخر. أتذكر أنني كنت في غاية الدهشة من التظاهر الخادع من الجميع، إذ إنهم تظاهروا بعدم النوم على الإطلاق، وصدوا جميعًا تهمة النوم بسخط غير مألوف. لم أزل تحت وطأة الدهشة نفسها منذ ذاك اليوم حتى يومنا هذا، بعد

أن لاحظت أنه من بين جميع نقاط الضعف البشرية، فإن هذا النوع من الاعتراف بطبيعتنا المشتركة، هو أقل ما نسعى للاعتراف به - لا أستطيع أن أتعرف على الأسباب - ألا وهو ضعف الاستسلام للنوم في عربة.

أبصرت لندن عن بُعد. كم بدت رائعة خلابة، وقد حسبت أن جميع مغامرات أبطالي المفضلين كلهم قد تجسدت أمامي وأعادوا تمثيلها طوال الوقت. لا داعي لأن أتوقف هنا لأصف كيف خيلت إليَّ لندن مليئة بالعجائب والمكر دونًا عن مدن الأرض بأسرها. اقتربنا منها خطوة وراء خطوة حتى وصلنا في الوقت المناسب، إلى النزل حيث وجهتنا في منطقة وايت تشابل. لقد نسيت اسم الفندق ربما كان الثور الأزرق أو الخنزير الأزرق، لكنني أعلم أنه كان يدعى شيئًا أزرق، وقد رُسمت صورته على ظهر العربة.

لمعت عين الحارس واستقرت نحوي بينما يسير، وراح يقول عند باب مكتب الحجز:

«هل هناك أي شخص هنا من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك، ينتظر طفلًا يُدعى مردستون؟ سنتركه هنا حتى يستدعيه أحد».

لم يجب أحد.

رحت أنظر بلا حول ولا قوة قائلًا: «جرِّب اسم كوبرفيلد، إذا سمحت يا سيدي».

قال الحارس: «هل هناك أي شخص هنا من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك، ينتظر طفلًا يدعى مردستون، لكنه ينادى باسم كوبرفيلد؟ هيا! هل من أحد بانتظاره؟».

لا، لم يظهر أحد. نظرت حولي في قلق. لم يترك السؤال أي انطباع عند المارة، إلا عند رجل أعور، يرتدي جُرموقًا، قال إنه من الأفضل وضع طوق نحاسي حول رقبتي، وربطي في الإسطبل.

أحضروا سلمًا، ونزلت عليه وراء السيدة التي كانت مثل كومة قش، ولم أجرؤ على التحرك إلا بعد أن أزاحت سلتها. صارت الحافلة بحلول ذلك الوقت خالية من الركاب، وسرعان ما أخرجت منها الأمتعة، وفُكّت الخيول قبل الأمتعة، ثم نقلت الحافلة نفسها في هذه اللحظة وأزاحها بعض المضيفين بعيدًا عن الطريق. لم يظهر أحد على الرغم من مرور هذا الوقت ليسأل عن شاب من بلدة بلندرستون بإقليم سافوك.

ذهبت إلى مكتب حجز التذاكر في شعور بالوحدة يفوق وحدة روبنسون كروزو الذي لم يلتفت إليه أحد في عزلته وانفراده. لبيت دعوة من الموظف المناوب، فمررت خلف المنضدة، وجلست على الميزان الذي يزن الأمتعة. كنت جالسًا أنظر إلى الطرود والحزم والكتب، وأستنشق رائحة الإسطبلات، وقد ظلت رائحتها عالقة بذهني منذ ذلك الحين تذكرني بصباح ذلك اليوم. أخذت سلسلة من الهواجس الهائلة تسري في ذهني، فافترضت أنه لن يأتي أحد ليصطحبني، وتساءلت إلى متى سيوافقون على إبقائي على هذه الحال؟ هل سيبقوني حتى أنفق سبعة شلنات؟ هل يجب أن أنام ليلًا في أحد الصناديق الخشبية مع باقي الأمتعة؟ هل سأغتسل من صنبور مضخة الفناء في الصباح؟ أم سأطرد من المكان كل ليلة، ثم أعود مرة أخرى لأُترك حتى يتم استدعائي، حين يفتح

المكتب في اليوم التالي؟ لنفترض أن ما حدث لي ليس خطأ، وأن السيد مردستون ابتكر هذه الخطة للتخلص مني، فماذا أفعل؟ إذا سمحوا لي بالبقاء هناك حتى أنفق الشلنات السبعة، فلن أتمنى أن أظل في المكان ذاته عندما أتضور جوعًا. سأصير متعبًا وبائسًا ولن تسر العملاء رؤيتي على هذه الحال، إلى جانب أنهم لن يستطيعوا تحمل نفقات جنازتي مهما كان الأمر. إذا انطلقت في الحال، وحاولت العودة إلى المنزل، فكيف أستطيع أن أهتدي إلى طريقي نحوه؟ كيف يمكنني أن أستمر في المسير، وكيف أتأكد من أنني لن أقابل أي إنسان سوى بيجوتي، إن وصلت إلى البيت؟ لنفترض أنني وصلت إلى أقرب سلطة مختصة، وعرضت عليها التطوع لأصير جنديًا أو بحارًا، فإنني لم أزل غضًّا صغيرًا ومن المرجح أنهم لن يقبلوني بينهم. جعلتني مثل هذه الأفكار، ومئات من الأفكار الأخرى على شاكلتها، أشعر بالحرارة الشديدة، وزادت من إحساسي بالخوف والفزع. صرت في ذروة الحمى عندما دخل رجل وهمس إلى الموظف، فما لبث أن أزاحني بعيدًا عن الميزان، ودفعني إلى الرجل، كما لو كان قد وزن شيئًا، وابتاعه، فسلمني بعد أن قبض الثمن.

خرجت من المكتب، جنبًا إلى جنب مع هذا الشخص الجديد. ألقيت نظرة عليه، فإذا به شاب هزيل شاحب، نحيف مجوف الوجنتين، لديه ذقن سوداء تشبه لون شعيرات السيد مردستون، ولكن يختلف الشبه فيما سوى ذلك، لأن هذا الرجل يحلق سوالف ذقنه، أما شعره فكان خشنًا بلون الصدأ، بدلًا من أن يكون لامعًا. كان يرتدي بذلة سوداء وخشنة وبلون الصدأ أيضًا، قصيرة الأكمام والأرجل. ارتدى

ربطة عنق بيضاء متسخة. لم أفترض ولن أفترض حتى هذه اللحظة؛ أن ربطة عنقه تلك كانت كل ما يرتديه من الكتان، لكنها كانت كل ما ظهر منه، أو أعطت تلميحًا عن حالة ملابسه الكتانية التي يرتديها تحت بذلته.

سأل قائلًا: «هل أنت الولد الجديد؟».

أجبت: «نعم يا سيدي».

ظننت أنني الولد الجديد على الرغم من أنني لم أكن متيقنًا من الأمر.

قال: «إنني أحد أساتذة مدرسة سالم هاوس».

انحنيت له احترامًا وبجلته للغاية. شعرت بخجل شديد من أن أُذكره بشيء بديهي أفتقده مثل صندوقي، فهو معلم وأستاذ في سالم هاوس. كنت خجلًا إلى الحد الذي جعلنا نبتعد قليلًا عن الفناء قبل أن أستطيع التلميح بالأمر. عدنا أدراجنا، وشعور يتسلل إليَّ على استحياء بأنه قد يصير مفيدًا لي فيما بعد. وقد ذهب فأخبر الموظف أن الحمَّال لديه تعليمات للتواصل معه ظهرًا لأخذ الصندوق.

تحدثت بعد أن سرنا مسافة مساوية لما أنجزناه من قبل تقريبًا، قائلًا: «إذا سمحت يا سيدي؛ هل المكان بعيد؟».

قال: «إنه قريب من بلاكهيث».

سألته متململًا: «هل هذا المكان بعيد يا سيدي؟».

قال: «إنه على بُعد خطوات. سنصل إلى المكان بعربة. إنها تبعد نحو ستة أميال».

كنت ضعيفًا ومتعبًا للحد الذي كانت معه فكرة الصمود لمسافة ستة أميال أخرى أمرًا شاقًّا لا يحتمل بالنسبة لي. تشجعت لأخبره أنني لم أتناول أي شيء طوال الليل، وأنني سأكون في غاية الامتنان لو أنه سمح لي بشراء شيء لآكله. بدا متفاجئًا من قولي - أذكر حتى هذه اللحظة وقفته ونظراته نحوي- وبعد تفكير لبضع لحظات، قال إنه يريد التحدث لشخص مسن يعيش في مكان قريب من هنا، وإن أفضل شيء لي هو شراء خبز، أو أي شيء أحب تناوله. وإنه من الأفضل لو تناولت إفطاري في منزل العجوز، حيث يمكننا الحصول منها على بعض الحليب.

توجهنا إلى دكان الخباز وفقًا لهذا الاتفاق، وبعد أن قدمت سلسلة من المقترحات لشراء كل المخبوزات الدسمة من المحل، راح يرفضها واحدة تلو الأخرى، ثم قررنا شراء رغيف صغير لطيف من الخبز البني كلفني ثلاثة بنسات. اشترينا من متجر بقالة بعد ذلك بيضة وشريحة من لحم الخنزير المقدد المخطط الذي ترك لي من باقي ثمنه مبلغًا لا بأس به من أصل الشلن الرابع اللامع، مما جعلني أعتبر لندن مكانًا رخيصًا للغاية. وضعت هذه الأطعمة في لفافة، ثم مررنا بضجة كبيرة أربكت رأسي المرهق بما يفوق الوصف. مررنا بعدها بجسر كان بلا شك هو جسر لندن (في الواقع أتصور أنه أخبرني بذلك، لكنني كنت شبه نائم)، حتى وصلنا إلى بيت العجوز المسكينة، والذي كان جزءًا من بعض بيوت الصدقات، فقد عرفته من مظهره، ومن نقش على حجر عند البوابة يقول إنها أقيمت لخمس وعشرين امرأة فقيرة.

رفع معلم سالم هاوس مزلاج أحد الأبواب السوداء الصغيرة، والتي كانت جميعها متشابهة، وكانت لكل منها نافذة زجاجية صغيرة على جانب واحد، ونافذة صغيرة أخرى من الزجاج تعلو هذه المنازل. كنا قد توجهنا إلى منزل صغير لإحدى هؤلاء العجائز المسنات، ووجدناها تشعل نارًا لتغلي فوقها قدرًا صغيرًا. ما إن أبصرت المرأة العجوز هذا السيد يدخل، حتى توقفت عن منفاخها القابع فوق ركبتها، وقالت شيئًا أظن أنه يشبه: «شارلي الصغير!». ما إن أبصرتني قادمًا أيضًا معه، حتى قامت وفركت يديها وبدا عليها الارتباك وانحنت نصف انحناءة.

قال معلم سالم هاوس: «هل يمكنكِ تحضير فطور لهذا الشاب، إذا سمحتِ؟».

قالت المرأة العجوز: «هل يمكنني ذلك؟ نعم يمكنني بالتأكيد».

نظر المعلم نحو امرأة عجوز أخرى تجلس فوق كرسي كبير بجوار المدفأة، والتي بدت مثل حزمة من الملابس؛ وإنني لأشعر بالامتنان حتى هذه الساعة لأنني لم أخطئ فأجلس عليها. راح السيد يقول: «كيف حال السيدة فيبتسون اليوم؟».

أجابت المرأة العجوز الأولى: «آه، إنها مسكينة. إن اليوم لهو أحد أيامها السيئة. لو انطفأت النيران في أي حادث طارئ، أحسب حقًّا أنها ستنطفئ هي أيضًا، ولن تعود للحياة مرة أخرى».

ظلا ينظران نحوها، فنظرت إليها أنا أيضًا. بدا أنها لم تفكر في شيء سوى النار على الرغم من أنه كان يومًا دافئًا. تخيلت أنها كانت تغار من القدر الموضوع فوق النيران، بل أحسب أنها تضايقت من سلق

بيضتي وشواء لحم الخنزير المقدد الذي اشتريته، لأنني رأيت عينيها المنزعجتين، وقد هزت قبضتها في وجهي مرة، بينما كانت عملية الطهي هذه مستمرة، ولم يكن أحد آخر ينظر نحوها. كانت الشمس تتدفق من النافذة الصغيرة، لكنها جلست وقد حجبت بظهرها وظهر الكرسي الكبير ضوءها. كانت تحجب النار كما لو كانت تحافظ على دفئها من الهرب، بدلًا من أن تبقيها الشمس دافئة، وتراقبها في طريقة مريبة للغاية. ما إن تمت كل الاستعدادات لتناول إفطاري، ورُفع من فوق النار، حتى انتابتها فرحة عارمة لدرجة أنها ضحكت بصوت عالٍ - ولا بد لي من أن أشير إلى أن ضحكتها كانت مزعجة وغير لائقة.

جلستُ أمام رغيفي البني وبيضتي، وطبق لحم الخنزير المقدد مع وعاء من الحليب بجانبه، وأقدمت على تناول وجبتي اللذيذة. كنت أستمتع بها كاملة، وإذا بسيدة المنزل العجوز تقول للسيد:

«هل معك الناي؟».

أجاب: «نعم».

قالت المرأة العجوز بتنغيم: «اعزف عليه لنا. أسمعنا!».

استجاب السيد لهذه الدعوة، فدس يده داخل طيات معطفه، وأخرج نايًا مكونًا من ثلاث قطع وربطها معًا، وبدأ على الفور بالعزف. أما انطباعي، والذي ظل نفسه بعد سنوات عديدة من التفكير، أنه لا يمكن أن يعزف أي شخص في العالم بشكل أكثر كآبة منه. لقد أصدر أكثر الأصوات حزنًا، فلم أسمع على الإطلاق ما يضاهيها بأي وسيلة طبيعية أو اصطناعية. لا أعرف مسمى الألحان - وإذا كانت ثمة نغمات تشبه

هذا الأداء بأي صورة على وجه العموم، وأنا أشك في أن يشابهه شيء - أما تأثيرها عليَّ فكان موجعًا منذ البداية. جعلتني هذه الألحان أفكر في كل أحزاني، حتى إنني لم أستطع أن أمنع دموعي من الانهمار، وانطفأت شهيتي عن تناول الطعام. جعلتني في النهاية أشعر بالنعاس لدرجة أنني لم أستطع إبقاء عيني مفتوحتين، بل راحتا تنغلقان مرة أخرى، وبدأ رأسي ينزلق، وقد غلبني النوم. جالت الذكريات في خاطري كلما تفكرت[٤] في تلك اللحظة، فأتذكر الغرفة الصغيرة ذاتها، والخزانة المفتوحة القابعة في ركن من أركانها، وكراسيها ذات الظهر المربع، وسلمها الصغير في الزاوية المؤدي إلى غرفة في طابق علوي، وريشات الطاووس الثلاث المعلقة فوق رف الموقد؛ وأتذكر أنني تساءلت عندما دخلت لأول مرة، عن حال ذاك الطاووس لو عرف ما وصلت إليه ريشاته التي زينت مظهره الأنيق. راحت كل المظاهر تتلاشى من أمامي، وأطرقت برأسي، ورحت في النوم. تلاشى صوت الناي، وقد حلت على مسامعي أصوات عجلات العربة بدلًا منه، بينما أسير في رحلتي، تهتز العربة، فأستيقظ وأعود لما كنت عليه سابقًا، وتعود أصوات الناي مرة أخرى، بينما يجلس المعلم في سالم هاوس وساقاه متقاطعتان، يعزف في هدوء، بينما تبدو المرأة العجوز في المنزل سعيدة. تتلاشى المرأة بدورها من جديد، ويتلاشى كل شيء، فلا ناي، ولا معلم، ولا سالم هاوس، ولا ديفيد كوبرفيلد، ولا شيء سوى نوم ثقيل.

أظن أنني حلمت أن المرأة العجوز التي في المنزل راحت تقترب من المعلم في إحدى المرات أكثر فأكثر، وقد كان ينفخ في هذا الناي

الحزين، حتى انحنت على ظهر كرسيه مبدية نوعًا من الإعجاب والنشوة، فعانقته من رقبته عناقًا حنونًا حتى توقف عزفه للحظة. كنت في حالة بين النوم واليقظة، إما في هذه اللحظة أو بعدها مباشرة، لأنه عندما استأنف عزفه - كانت حقيقة أنه توقف عن العزف - رأيت وسمعت المرأة العجوز نفسها تسأل السيدة فيبتسون: «أليست رائعة؟» (تقصد أنغام الناي)، فأجابت السيدة فيبتسون قائلة: «بلى، بلى، بلى!» وأومأت برأسها مطرقة نحو النار، وإني أظن أنها ترجع الفضل في هذا الأداء الرائع بكامله إلى النار ذاتها.

بدا لي أني غفوت لفترة طويلة، فقام المعلم في سالم هاوس بفك الناي إلى قطعه الثلاث، ووضعها كما كانت من قبل، وأخذني بعيدًا. وجدنا عربة قريبة جدًّا منا، فصعدنا إلى متنها. كاد النعاس أن يرديني قتيلًا إلى الحد الذي جعلهم يحملوني نحو الداخل حين توقفنا على الطريق لاصطحاب راكب آخر. كانت الحافلة غير مزدحمة بالركاب، فرحت في نوم عميق، حتى شعرت بها تسير فوق تل شديد الانحدار وسط أفرع الأشجار. توقفت بعد وقت، وقد وصلت إلى وجهتها.

مشينا في نزهة قصيرة - أقصد أنا والمعلم - حتى وصلنا إلى مدرسة سالم هاوس، التي كانت محاطة بجدار مرتفع من الطوب، وقد بدت باهتة للغاية. تعلو باب هذا الجدار لوحة كتب عليها «سالم هاوس». نظر شخص إلينا عبر شبكة في هذا الباب، بعدما قرعنا الجرس. استقبلنا عندما انفتح الباب رجل ذو ملامح خشنة، قوي البنية برقبة ثور، ورجل خشبية، بصدغين متدليين، وقد قص شعر رأسه عن كامله.

قال المعلم: «إنه الولد الجديد».

رمقني الرجل ذو الساق الخشبية وأحاطني بنظراته - لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، لأن جسمي لم يكن كبير الحجم - ثم أغلق البوابة خلفنا، وأخرج منها المفتاح. مشينا بين بعض الأشجار الكثيفة الداكنة، وكنا في طريقنا للصعود، فإذا بصوت الرجل ينادي رفيقي المعلم قائلًا: «مرحبًا!».

نظرنا إلى الوراء، فإذا به يقف عند بوابة كوخ صغير حيث يعيش، بينما يحمل زوجًا من الأحذية بين يديه.

قال: «انتبه! جاء الإسكافي بعد أن خرجت يا سيد ميل، وهو يقول إنه لا يستطيع إصلاحهما بعد الآن. يقول إنه لم يتبقَّ شيء من الحذاء الأصلي، ويتساءل لماذا تطلب إصلاحهما؟».

ألقى الحذاء تجاه السيد ميل بعد هذه الكلمات، وقد تراجع المعلم بضع خطوات لالتقاطهما، ونظر إليهما بقلق شديد جعلني أشعر بالخوف، بينما أكملنا طريقنا معًا. لاحظت بعد ذلك ولأول مرة، أن الأحذية التي يرتديها كانت سيئة جدًّا، وأن جوربه كاد ينفجر من مكان ما مثل برعم خرج من زهرته.

كانت سالم هاوس مبنى مربعًا من طوب ذي أجنحة تحمل مظهرًا مكشوفًا يخلو من الأثاث. بدا كل شيء بها هادئًا جدًّا، حتى إنني قلت للسيد ميل إنني ظننت أن الأولاد قد انصرفوا، لكنه بدا متفاجئًا لجهلي أنه وقت الإجازة السنوية. عاد جميع الأولاد إلى منازلهم. أما مالك المدرسة السيد كلارك فيقضي إجازته على البحر مع زوجته وابنته، وأنا

أُرسلت في وقت الإجازة كعقوبة على سوء تصرفاتي، وقد أوضح لي الأمر كله في أثناء سيرنا.

حدقت في قاعة الدرس التي أخذني إليها، وقد رأيت أنها أكثر الأماكن بؤسًا وقفرًا على الإطلاق. لم أزل أذكر تفاصيلها حتى هذه اللحظة. إنها غرفة طويلة بها ثلاثة صفوف طويلة من المكاتب، مقسمة إلى ستة فصول، وكلها مليئة بحوامل القبعات والسبورات. تتناثر على الأرض المتسخة قصاصات من كتب قديمة وأوراق عمل. تتبعثر في أرجائها وفوق المكاتب بعض بيوت دود القز مصنوعة من المواد نفسها. ترك شخص ما وراءه فأرين صغيرين أبيضين، راحا يركضان جيئة وذهابًا في قلعة قذرة مصنوعة من الألواح والأسلاك؛ يبحثان في جميع الزوايا بأعين حمراء عن أي شيء يأكلانه. أبصرت طائرًا في قفص أكبر منه بقليل، يصدر حشرجة حزينة بين الحين والآخر، قافزًا فوق غصن بارتفاع بوصتين، أو هابطًا منه من دون أن يغني أو يغرد كالطيور. انبعثت رائحة غريبة كريهة من الغرفة، تبدو كرائحة سروال قصير متعفن، أو تفاح عطن لافتقار الهواء، وكتب فاحت منها رائحة عطنة. لو كان المبنى بلا سقف منذ بنائه الأول، أو لو كانت السماء تمطر وتتساقط الثلوج أو تنضح حبرًا متطايرًا خلال مواسم السنة المختلفة، لما كان المبنى متسخًا بالأحبار إلى هذا الحد الذي لم أعهده من قبل.

تركني السيد ميل بينما أخذ حذاءه الذي لا يمكن إصلاحه إلى الطابق العلوي. سرت بهدوء إلى طرف بعيد من الغرفة، ملاحظًا كل هذا بينما كنت أتسلل في أرجائها. عثرت فجأة على لافتة مكتوب عليها

بخط جميل على لوح لاصق. كانت ملقاة على المكتب، وقد كتبت عليها هذه الكلمات: «احترس منه. إنه يعض».

صعدت فوق المكتب في الحال، خوفًا من أن يكون تحته كلب ضخم. رحت أتلفت حولي بعينين قلقتين، إلا أنني لم أرَ شيئًا ولم ألحظ وجوده. كنت ما زلت منخرطًا في التحديق، حتى عاد السيد ميل، وسألني ماذا أفعل هناك؟

قلت له: «أستميحك عذرًا يا سيدي، إذا تفضلت، فإنني أبحث عن الكلب».

سأل: «كلب؟ أي كلب؟».

«أليس كلبًا يا سيدي؟».

«ما الشيء الذي تسأل إن كان كلبًا أم لا؟».

«يجب علينا الحذر يا سيدي من هذا الشيء الذي يعض».

أجاب بجدية قائلًا: «لا، يا كوبرفيلد. إنه ليس كلبًا. إنه ولد. إن التعليمات يا كوبرفيلد تقول أن تضع هذه اللافتة على ظهرك. يؤسفني أن أبدأ بهذا معك، لكن يجب أن أنفذ بالأمر». أنزلني وربط اللافتة التي تم إنشاؤها بدقة لهذا الغرض، على كتفي مثل حقيبة الظهر، وكنت أينما ذهبت بعد ذلك، أحملها وأدرك وجودها.

لا يستطيع إنسان أن يتخيل الألم الذي عانيته من جراء هذه اللافتة. رحت دومًا أتخيل أن إنسانًا ما كان يقرأها؛ سواء كان من الممكن أن يراني الناس أم لا. لم يكن الالتفاف وعدم العثور على أحد يراقبني

يخفف عني هذا الألم. صرت أتخيل إنسانًا يتأملني دومًا أينما أوليت ظهري. لقد فاقم ذاك الرجل القاسي ذو الساق الخشبية معاناتي، إذ كان صاحب سلطة في المدرسة. أما إذا رآني متكئًا على شجرة أو جدار أو مبنى، فإذا به يخرج من باب مسكنه صارخًا بصوت جهور: «أهلًا يا سيدي، أنت كوبرفيلد! أظهر تلك اللافتة بشكل واضح، وإلا سأبلغ عنك». كان الملعب ساحة خالية مفروشة بالحصى، مفتوحًا على جزء خلفي من المبنى والمكاتب، وعلمت أن الخدم قد قرأوا لافتتي وقرأها كذلك الجزار والخباز. خلاصة القول أن جميع من ذهبوا أو جاءوا ومروا بالمبنى، وأينما مررت في أي صباح وسرت عبر الفناء، قد قرأوا أنه يجب الاحتراس مني. أذكر أنني تأثرت وانتابني شعور بالخوف الحقيقي من نفسي لأنني نوع من الصبية المتوحشين الذين يعضون.

كان في هذا الفناء باب قديم، وكان من عادة الأولاد نحت أسمائهم عليه، حتى صار مغطى بالكامل بهذه النقوش. كنت أخشى نهاية الإجازة وعودتهم، لم أقرأ اسمًا من أسماء الصبية المنقوشة، من دون أن أتساءل عن النغمة التي سيقرأ بها جملة اللافتة: «احترس منه. إنه يعض». كان ثمة ولد - يُدعى ج. ستيرفورث - نقش اسمه وحفره بعمق بالغ، فإذا بي أتخيله يقرأ بصوت قوي إلى حد ما، ثم يشد شعري بعد ذلك. كان ثمة اسم لفتى آخر يدعى تومي ترادلز، وقد خشيت أن يلعب باللافتة، ويتظاهر بأنه في شدة الخوف والفزع مني. أما الاسم الثالث فكان جورج ديمبل، وقد تخيلت أنه سيغني ما كُتب على اللافتة. رحت أنظر إلى هذا الباب كمخلوق يتقلص أمامه خوفًا، إلى أن حضر أصحاب

هذه الأسماء جميعهم - كانوا خمسة وأربعين طالبًا في المدرسة آنذاك كما أخبرني السيد ميل. اتنفقوا جميعًا فيما بينهم على أن يقاطعوني، وقد أخذ كل منهم يصرخ على طريقته، قائلًا: «احترس منه. إنه يعض».

لقد قاطعني كل شيء، فكان الأمر نفسه مع المكاتب والأدوات. كان الأمر نفسه مع فراش الأسرة المهجورة التي أتطلع إليها وأنا في طريقي إلى السرير أو في عزلتي فوقه. أذكر أنني كنت أحلم ليلة بعد ليلة، بأنني مع أمي كسابق عهدنا، أو أنني ذاهب إلى حفلة في منزل السيد بيجوتي، أو أنني سأسافر تنتظرني العربة، أو أنني أتناول الطعام مرة أخرى مع صديقي النادل النهم. كنت في كل هذه الأحلام أجد أناسًا يصرخون ويحدقون، وقد كشف حظي التعس أنني لم أرتدِ شيئًا سوى قميصي الليلي الصغير ولم تزل ترافقني تلك اللافتة.

صار كل شيء في حياتي رتيبًا، وفي ظل تخوفي المستمر من إعادة فتح المدرسة، بات مثل هذا البلاء لا يُطاق! كنت أؤدي واجبات كثيرة كل يوم مع السيد ميل، لكنني أديتها جميعها، إذ لم يكن ثمة السيد مردستون والآنسة أخته هنا، وقد أديتها وتخطيتها من دون وصمة عار. رحت أتجول أحيانًا قبل العمل في الواجبات أو بعدها، تحت إشراف الرجل ذي الساق الخشبية الذي سلف ذكره. لم أزل أذكر بوضوح رطوبة المبنى، والأحجار المكسوة بالعشب الأخضر المتشققة في الفناء، وبرميل الماء القديم الذي يتسرب منه ماؤه، وجذوع بعض الأشجار القاتمة، التي يبدو أنها تقطر متدلية في المطر أكثر من غيرها، بينما تصبح أقل تأهبًا تحت أشعة الشمس! تناولنا الغداء في إحدى

المرات، أنا والسيد ميل، في طرف بعيد عن غرفة طعام طويلة مكشوفة، مليئة بالطاولات الخالية من المقاعد، تفوح منها رائحة الدهون. ما لبثنا أن عكفنا على مزيد من الواجبات حتى يحين وقت احتساء الشاي، الذي شربه السيد ميل في فنجان أزرق، بينما شربته في وعاء من الصفيح. راح السيد ميل طوال اليوم، وحتى الساعة السابعة أو الثامنة مساءً، يعمل بجد في مكتبه المنفصل في حجرة الدراسة ممسكًا بقلمه والمحبرة والمسطرة والكتب وورق الكتابة، وقد أعد - كما فهمت - قوائم رسوم النصف الثاني من الدراسة حتى آخر العام. كان كلما أنهى أعماله، أخرج نايه، وأخذ ينفخ فيه طوال الليل، حتى ظننت أنه سيلفظ كل أنفاسه تدريجيًّا في الثقب الكبير أعلى الناي، إلى أن تخرج روحه من المفاتيح.

أتخيل جسدي الصغير تحويه غرفة ذات إضاءة خافتة، جالسًا مسندًا رأسي فوق يدي، أستمع إلى النغمات مكتظة الأنفاس من السيد ميل، بينما أستذكر دروس الغد. أتذكر نفسي مصطحبًا كتبي الصامتة، بينما لم أزل مصغيًا إلى الأداء المسلي للسيد ميل، متذكرًا من خلاله أصواتًا كانت تدوي في منزلي، ومستمتعًا بصوت هبوب الرياح على بيوت يارموث، بينما أشعر بحزن بالغ ووحدة مفزعة. أتمثلني آويًا إلى الفراش بين الغرف غير الفارغة، بينما أجلس منزويًا إلى جانب سريري، أبكي راجيًا كلمة حانية من بيجوتي. أتذكر نفسي هابطًا إلى الطابق السفلي في الصباح، بينما أتطلع من خلال كسر مروِّع طويل في نافذة الدرج، ناظرًا إلى جرس المدرسة المعلق على الجزء العلوي من مبنى خارجي يعلوه

عمود. يختلجني خوف من الوقت الذي سيصل فيه ج. ستيرفورث وباقي الأولاد لبداية الدراسة، وقد كان هذا الجزء الأخير من مخاوفي منذرًا بالخطر. كانت أقصى مخاوفي هو الوقت الذي سيفتح فيه الرجل ذو الساق الخشبية البوابة الصدئة؛ سامحًا بدخول السيد كريكل. لا أستطيع أن أحسب أنني كنت شخصية في غاية الخطورة بأي صورة من الصور، لكني صرت أحمل التحذير نفسه ووصمته على ظهري.

لم يتحدث السيد ميل إليَّ كثيرًا، لكنه لم يكن قاسيًا معي قَطُّ. أفترض أننا كنا صحبة يؤنس كل منا الآخر من دون حديث. نسيت أن أذكر أنه كان يتحدث إلى نفسه أحيانًا، ويبتسم، ويقبض يده، أو يطحن أسنانه، أو ينتف شعره بطريقة غير مألوفة. كان يملك هذه الخصائص الغريبة، وقد أخافتني في البداية، لكني سرعان ما اعتدت عليها.



# الفصل السادس

## أزيد من دائرة معارفي

عشت على هذا المنوال لشهر تقريبًا، حتى بدأ الرجل ذو الساق الخشبية يتجول بممسحة ودلو به ماء. استنتجت من أفعاله أن الاستعدادات تجري لاستقبال السيد كريكل والتلاميذ. لم أكن مخطئًا، لأن الممسحة وصلت إلى حجرة الدراسة أخيرًا وبعد فترة طويلة، فخرجت أنا والسيد ميل، بعد أن كنا نتجول أينما أردنا، وكنا نعيش على النحو الذي نريده لعدة أيام. صرنا خلال هذه الأيام نقابل في الطريق شابتين أو ثلاث شابات، كن نادرًا ما يظهرن أمامنا قبل ذلك، وكن دائمًا ينظفن وسط غبار غزير لدرجة أنني عطست مرات عديدة كما لو كانت سالم هاوس عبارة عن صندوق سعوط[١] هائل.

أبلغني السيد ميل ذات يوم أن السيد كريكل سيعود إلى المبنى هذا المساء. سمعت أنه جاء بعد أن شربت الشاي هذه الليلة. اصطحبني الرجل ذو الساق الخشبية قبل موعد النوم للمثول أمامه.

---

(١) مسحوق يتم استنشاقه يحث على العطس، وقد استُخدم لأغراض علاجية قديمًا.

كان الجزء المخصص من المبنى للسيد كريكل أكثر راحة من الجزء المخصص لنا. كانت لديه حديقة دافئة تبدو ممتعة، بعد الملعب المغبر بالتراب كأنه صحراء صغيرة الحجم، لدرجة أنني لم أفكر أنه لا يمكن أن يناسب أحدًا أو يشعر فيه بالارتياح سوى جمل أو ناقة عربية. بدا لي أنني أتجرأ بالحملقة في الردهة المريحة، بينما كنت أسير في طريقي مرتعشًا، نحو ملاقاة السيد كريكل. انتابتني حيرة شديدة بعد أن دخلت إليه، لدرجة أنني لم أنتبه إلى وجود السيدة كريكل أو الآنسة كريكل، على الرغم من أنهما كانتا حاضرتين في الصالون، لم أنتبه إلى وجود أي شيء سوى السيد كريكل. بدا رجلًا نبيلًا يحمل مجموعة من سلاسل الساعات المكتظة بالأختام. يجلس على كرسي كبير بذراعين، وبجانبه كوب وزجاجة.

قال السيد كريكل: «إذن! هذا هو الشاب النبيل الذي ستبرد أسنانه! أدر ظهره».

أدارني الرجل ذو الأرجل الخشبية ليعرض اللافتة التي أحملها، وبعد أن أتاح له الوقت رؤية محتواها كاملًا، أدارني مرة أخرى، ووجهني إلى السيد كريكل، وتوجه إلى جانبه. كان وجه السيد كريكل محمرًّا كالنار، وعيناه صغيرتان وغائرتان في رأسه، تلوح عروق غليظة في جبهته، وأنفه صغير، وذقنه كبيرة. كانت مقدمة رأسه صلعاء، إلا من بعض الشعر الرقيق المبلل يتخلله اللون الرمادي، وقد مشطه وأرسله لأعلى من صدغيه إلى جبينه حتى التقى طرفاه. كان أكثر ما أثار إعجابي أنه بدا لي بلا صوت، فقد كان يتحدث همسًا، وقد بذل جهدًا ليتحدث

بصوت خافت، مما جعل وجهه الغاضب يبدو أكثر غضبًا، وعروقه السميكة تبدو أكثر غلظة كلما أقدم على الحديث. إنني لست متفاجئًا من سيطرة هذه التفاصيل الرئيسة على رأسي كلما عدت بذاكرتي إلى الوراء. قال السيد كريكل: «الآن. ماذا عن تقرير هذا الصبي؟».

رد الرجل ذو الساق الخشبية: «لا يوجد شيء ضده بعد. لم تسنح له فرصة».

أحسب أن السيد كريكل قد أُصيب بخيبة أمل. أظن أن السيدة كريكل والآنسة كريكل لم تشعرا بخيبة أمل، إذ ألقيت نظرة خاطفة عليهما في هذه اللحظة للمرة الأولى، وقد كانتا نحيفتين وهادئتين على حد سواء.

قال السيد كريكل، مشيرًا إليَّ: «تعالَ إلى هنا يا سيد».

قال الرجل ذو الساق الخشبية مكررًا الكلام في إيماءة: «تعالَ إلى هنا».

همس السيد كريكل وقد جذبني من أذني قائلًا: «يسعدني أنني أعرف زوج أمك. إنه رجل محترم ذو شخصية قوية. إنه يعرفني وأنا أعرفه حق المعرفة. فهل تعرفني أنت؟». كان حديث السيد كريكل مقرونًا بقرص لأذني في صورة دعابة شرسة.

أجبته بينما أرتعش من الألم: «لم أعرفك بعد يا سيدي».

كرر السيد كريكل قولي: «لم تعرفني بعد؟ ياااا، لكنك ستعرفني قريبًا يا هذا».

كرر الرجل ذو الساق الخشبية الحديث قائلًا: «إنك قريبًا سوف تعرف يا هذا».

أدركت بعد ذلك أنه يعمل بشكل عام بصوته العالي كمترجم للسيد كريكل أمام الأولاد.

صرت خائفًا جدًّا، فقلت إنني أتمنى أن أعرفه لو كان الأمر يرضيه، بينما استمر شعوري بحرقة أذني طوال هذا الوقت كما لو أنها مشتعلة، لأن قرصته كانت قوية.

همس السيد كريكل، بعد أن ترك أذني أخيرًا، وقد اغرورقت عيناي بالدموع: «سأخبرك من أنا. إنني تتري».

ردد الرجل ذو الساق الخشبية: «تتري».

قال السيد كريكل: «حين أقول إني سأفعل شيئًا ما، فإني أفعله. وعندما أقول إنني سأقوم بشيء ما، فإنني أقوم به».

كرر الرجل ذو الساق الخشبية: «... سأفعل شيئًا، فأفعله».

قال السيد كريكل: «إنني شخصية حازمة. هذه طبيعتي الآن. إنني أؤدي واجبي، وهذا ما أقوم به. إذا رأيت لحمي ودمي - نظر إلى السيدة كريكل بينما يقول هذا الكلام - يعصيان قولي، لا يعودان لحمي ودمي، بل أنبذهما». راح يكمل حديثه إلى الرجل ذي الساق الخشبية قائلًا: «هل عاد إلى هنا مرة أخرى؟».

كان جواب الرجل: «لا».

قال السيد كريكل: «لا. إنه يعرف طبيعة عمله. إنه يعرفني. دعه يبتعد».

راح السيد كريكل يتحدث بينما يضرب بيده فوق الطاولة وينظر إلى السيدة كريكل، قائلًا: «دعه يبتعد، لأنه يعرفني. لقد بدأت أيضًا تعرفني الآن يا صديقي الصغير، هيا فلتذهب. انصرف بعيدًا».

صرت سعيدًا جدًّا بعد أن أمرني بالانصراف، لأن السيدة كريكل والآنسة كريكل كانتا تمسحان أعينهما من أثر الدموع، وقد شعرت برثاء لهما ولحالي. دار في خاطري شيء أثار قلقي إلى حد ما، ولم أستطع كبح جماح نفسي عن قوله، لكنني على الرغم من قلقي رحت أقول بشجاعة:

«إذا سمحت يا سيدي».

همس السيد كريكل قائلًا: «ها! ما هذا؟»، ثم ثبَّت عينيه نحوي، كما لو أنه يود أن يحرقني بنظراته.

تلعثمت قائلًا: «إذا سمحت يا سيدي. إذا كنت تسمح لي، فإنني آسف جدًّا يا سيدي، لما فعلته، وأطلب إلغاء هذه اللافتة قبل عودة الأولاد».

لا أعرف هل كان السيد كريكل جادًّا، أم أنه قد سلك مسلكه هذا فقط لإخافتي. لقد هبَّ من مقعده، ومن ثَم تراجعت على عجل من الخوف. لم أنتظر مرافقة الرجل ذي الساق الخشبية، واندفعت منطلقًا من دون أن أتوقف ولو لمرة واحدة، حتى وصلت إلى غرفة نومي. أدركت أن أحدًا لا يلاحقني، فأويت إلى الفراش، فقد حان وقت النوم، واستلقيت مرتجفًا لبضع ساعات.

عاد السيد شارب في صباح اليوم التالي. كان السيد شارب المعلم الأول والذي يرأس السيد ميل. كان السيد ميل يؤدي مهمات عمله مع الأولاد، أما السيد شارب فكان يتناول الغداء ثم العشاء على طاولة السيد كريكل. لقد كان رجلًا ضعيف البنية، رقيق المظهر، كما أنني أحسب أن له أنفًا كبيرًا، وطريقة خاصة يلوي بها رأسه على جانب واحد، كأنه ثقيل جدًّا يصعب حمله. كان شعره ناعمًا ومموجًا للغاية. أبلغني أول الصبية العائدين أن شعر السيد شارب كان مستعارًا، وأن السيد شارب يصلح بعد ظهر كل سبت تجعيداته.

كان تومي ترادلز هو مَن نبهني إلى هذه الملاحظة الفطنة. لقد كان أول الصبية العائدين. قدم نفسه إليَّ فأخبرني أنني سأجد اسمه في الزاوية اليمنى للبوابة، فوق القفل العلوي، فقلت له: «ترادلز؟»، فأجاب: «نعم، بالفعل»، ثم طلب مني سردًا كاملًا عن نفسي وعائلتي.

لقد كان من دواعي سروري أن عاد ترادلز أولًا. لقد ألقى نكاته المثيرة على لافتتي، مما أنقذني من الإحراج والارتباك بين الإفصاح والإخفاء. تولى تقديمي إلى كل صبي جديد عائد إلى الدراسة فور وصوله، كبيرًا كان أم صغيرًا. راح ترادلز يقدمني بهذا الشكل: «انظر هنا! يا لها من لعبة!». عاد جزء كبير من الأولاد بروح منخفضة، ومن حسن حظي أنهم لم يتندروا على حسابي كما توقعت. راح بعضهم بالطبع يتراقص حولي مثل هنود شرسة، أما الجزء الأكبر فلم يستطع مقاومة إغراء التظاهر بأنني كلب، فأخذوا يربتون عليَّ لتهدئتي حتى لا أعض، وراحوا يقولون: «استلقِ يا سيدي!»، كما راحوا يدعونني

باسم الكلب تاوزر. كان من الطبيعي أن تصير هذه التصرفات محفزة لارتباكي أمام العديد من الغرباء، وقد كلفتني بعض الدموع، لكن الأمر بشكل عام كان أفضل بكثير مما توقعت.

مضت كل هذه الأحداث من دون أن يتم استقبالي رسميًّا في المدرسة، حتى وصل ج. ستيرفورث. اشتهر هذا الصبي بكونه على علم عظيم، وكان مظهره جميلًا للغاية، وكان يكبرني بستة عشر عامًا على الأقل. قدموني إليه بعد أن حُمِلت كما لو أنني أساق إلى قاضٍ للتحقيق. سألني، تحت سقيفة في الملعب، عن تفاصيل عقابي، ثم تكرم وأبدى رأيه عن الأمر قائلًا: «إنه عقاب شنيع»، ثم صرت مرتبطًا به بعد ذلك الحين.

كان يتمشى معي بعد أن تكرم عليَّ بهذا الرأى فقال: «كم من المال معك يا كوبرفيلد؟». أخبرته أنه سبعة شلنات.

قال: «إنه من الأفضل أن تعطيني إياها لأحافظ عليها. إذا أردت بنفسك. أما إذا كنت لا تحتاج إلى هذا فكما تحب».

سارعت إلى الامتثال لاقتراحه الودي، وفتحت محفظة بيجوتي، وقلبتها رأسًا على عقب في يده.

سألني: «هل تريد أن تنفق أي شيء الآن؟».

أجبته: «لا، شكرًا».

قال ستيرفورث: «يمكنك، إذا أردت، كما تعلم فقط قل إنك تريدها».

كررت إجابتي: «لا، شكرًا لك يا سيدي».

قال ستيرفورث: «ربما ترغب في إنفاق بضعة شلنات أو نحو ذلك، فتشتري زجاجة من النبيذ اليوم أو غدًا وتأخذها إلى غرفة النوم. إنك من أعضاء غرفة نومي، على حد معرفتي».

بالتأكيد لم يخطر ببالي الأمر من قبل، لكنني قلت: نعم، أحب ذلك.

قال ستيرفورث: «جيد جدًّا. سيكون من دواعي سروري أن تنفق ما يقارب شلنًا آخر، في شراء كعك اللوز، هل أجرؤ على هذا الاقتراح؟».

قلت: «نعم، أود ذلك أيضًا».

قال ستيرفورث: «وشلن آخر أو نحو ذلك لشراء البسكويت، وآخر للفاكهة، ما رأيك؟ أقول لك أيها الشاب كوبرفيلد إنك ستشتري كل هذا!».

ابتسمت لأنه ابتسم، لكنني أيضًا كنت مضطربًا ومشوشًا بعض الشيء.

قال ستيرفورث: «حسنًا! يجب أن نبقي على هذه النقود لأطول فترة ممكنة؛ هذا كل ما تملك. سأبذل قصارى جهدي من أجلك. إنني أستطيع الخروج وقتما رغبت، وسأهرب ما اتفقنا عليه».

وضع المال في جيبه بعد أن أتم هذه الكلمات، وطلب مني ألا أشعر بالقلق، لأنه سوف يحرص على أن تسير الأمور على ما يرام. أوفى بوعده، إذا كان ما قاله هو أحسن حالًا، لأنني شعرت بشك خفي من أن

كل الأمور خاطئة تقريبًا. كنت أخشى أن تكون مضيعة لنصف الكروان الذي منحته أمي لي، إلا أنني احتفظت بقطعة الورق التي غلفت الأموال إذ كانت مدخرًا ثمينًا بالنسبة لي. صعدنا إلى الطابق العلوي لننام، أخرج ستيرفورث كل ما اشتراه بالشلنات السبعة كاملة، ووضعها فوق سريري في ضوء القمر، قائلًا:

«ها أنت ذا أيها الشاب كوبرفيلد. إنك تحوز طعامًا ملكيًّا».

لم أستطع أن أتخيل أنني سأجهز على هذه الوليمة بمفردي في مثل هذه السن الصغيرة. وقف بجانبي ينتظر، بينما راحت يداي ترتعشان من جراء التفكير في الأمر. توسلت إليه أن يتفضل بقبول الإشراف على الأمر، وقد أيد الأولاد الآخرون الذين كانوا في هذه الغرفة رأيي، ثم وافق على الأمر. جلس على وسادتي، وراح يوزع الأنصبة من الطعام - عليَّ أن أقول إنه كان في غاية الإنصاف - وأخذ يوزع النبيذ في كأسه الصغيرة التي كانت بلا قاعدة. أما أنا فقد جلست بجانب يده اليسرى، والتف الباقي حولنا مجتمعين على أقرب الأسِرَّة وعلى الأرض.

أتذكر جلوسنا هناك، وكيف كنا نتحدث في همسات. لا بد أن أقول إنني لم أزل أتذكر كلامهم، وإنصاتي لهم باحترام. كان القليل من ضوء القمر يتخلل الغرفة عبر النافذة، فيرسم خيالًا لنافذة شاحبة على الأرض. يبقى الجزء الأكبر منا في الظل، إلا عندما يغمس ستيرفورث عود ثقاب في صندوق فوسفور، كلما أراد البحث عن أي شيء على السبورة، فإذا به يلقي وهجًا أزرق فوقنا، ما يلبث أن ينطفئ مباشرة! يا له من شعور غامض وخفي، ينتابني حين أتذكر جلوسنا في الظلام

وتهامسنا الذي قيل فيه كل شيء. تأسرني الذكريات حين أتذكر أنني أصغيت إلى كل ما أخبروني به بوقار ورهبة، وقد سرني أنهم جميعًا صاروا قريبين مني جدًّا، وقد راودني الذعر (على الرغم من أنني تظاهرت بالضحك) عندما تظاهر ترادلز أنه رأى شبحًا في الزاوية.

سمعت كل شيء عن المدرسة وعرفت كل ما يتعلق بها. سمعت أن السيد كريكل لم يفضل وصف نفسه بأنه من التتار من دون سبب، بل لأنه كان أشد المعلمين قسوة وأشدهم حزمًا على الأولاد، فقد راح في كل يوم من أيام حياته، يندفع بين الأولاد، فيضربهم يمينًا ويسارًا كما لو أنه جندي يهشهم بلا رحمة. إنه لا يعلم شيئًا سوى فن الضرب، فقد كان أكثر جهلًا من أدنى فتى في المدرسة (على حد تعبير ج. ستيرفورث). كان يعمل منذ سنوات عديدة، تاجرًا لحشيشة الدينار[١] في «بورو»، ثم اتجه للعمل في مجال التعليم بعد إفلاسه في تجارته، واستولى على أموال السيدة كريكل. قيل الكثير من الأخبار على غرار هذا النوع، ورحت أتساءل كيف عرفوا كل هذه الأشياء.

سمعت أن الرجل ذا الساق الخشبية، الذي يدعى تانجاي، كان بربريًّا عنيدًا ساعد قبل ذلك في العمل بتجارة حشيشة الدينار، لكنه دخل عملًا في مجال التعليم مع السيد كريكل بعد خسارته. شاع بين الأولاد أن ساقه كسرت في خدمة السيد كريكل، بعد أن أدى عملًا

(١) عشبة الدينار أو حشيشة الدينار، وتُعرف أيضًا باسمها الإنجليزي هوب أو هووبس، هي الزهور لجنجل شائع. يتم استخدامها بشكل أساسي كعامل مرير، منكه، ومثبت في الجعة، والتي، بالإضافة إلى المرارة، تعطي نكهات ورائحة الأزهار والحمضيات للبيرة. تستخدم أيضًا لأغراض مختلفة في المشروبات الأخرى والأدوية العشبية.

مشبوهًا من أجله، وقد أذيعت أسراره. سمعت أنه باستثناء العمل مع السيد كريكل، فإن تانجاي يعتبر المؤسسة بأكملها بمن فيها من معلمين وتلاميذ، أعداءً له، وأن البهجة الوحيدة في حياته هي أن يصير مؤذيًا لهم وحاقدًا عليهم. سمعت أن السيد كريكل كان لديه ابن لم يكن صديقًا لتانجاي، لكنه كان يساعد أباه في المدرسة. أظهر بعض الاحتجاجات على معاملة والده في إحدى المرات التي عامله فيها بقسوة بالغة، كما قيل إنه ربما احتج أيضًا على الطريقة التي يعامل بها والدته. سمعت أن السيد كريكل طرده لهذه الأسباب، وأن السيدة كريكل والآنسة كريكل صارتا في حالة حزن عميق منذ ذلك الحين.

أما أغرب ما سمعته عن السيد كريكل؛ أن ثمة صبيًّا واحدًا في المدرسة لم يجرؤ على مد يده عليه بأذى. كان الصبي هو ج. ستيرفورث. أكد ستيرفورث نفسه هذا عندما ذكر الأمر، وقال إنه يود لو أُقدم أمامه على فعل أي شيء. سأله صبي لطيف (وليس أنا) كيف سيتصرف إذا أقدم السيد كريكل على فعل شيء من هذا القبيل؟ فما كان منه إلا أن غمس عود ثقاب في صندوق الفوسفور عن قصد لإلقاء نظرة على رد فعله، وقد قال إنه سيبدأ بضربه وطرحه أرضًا بضربة على جبهته بزجاجة الحبر الموجودة دائمًا على رف الموقد، والتي تساوي سبعة شلنات وستة بنسات. جلسنا بعد هذا الكلام لاهثي الأنفاس في الظلام لبعض الوقت.

سمعت أن السيد شارب والسيد ميل يتقاضيان أجورًا هزيلة، وأن اللحوم الساخنة والباردة لا تُقدَّم في العشاء إلا على طاولة السيد

كريكل، وقد كان من المتوقع دائمًا أن يقول السيد شارب إنه يفضل اللحم البارد. أكد ج. ستيرفورث هذه الأمور مرة أخرى، حيث كان الوحيد الذي يأكل على هذه المائدة. سمعت أن «باروكة» السيد شارب لا تناسبه، وأنه لا يحتاج إلى أن يتباهى بها بغروره - على حد تعبير شخص ما عن هذا الأمر - لأن خصلات شعره الحمراء كانت واضحة جدًّا أسفل «باروكته».

سمعت أن أحد الصبية، كان ابنًا لتاجر فحم، وقد جاء ليتعلم في المدرسة كنوع من المقايضة مقابل فاتورة الفحم. أطلق على الصبي اسم «الحساب» أو «المقايضة» - وقد اختير اسمه من كتاب الحساب للتعبير عن هذه العملية. سمعت أن البيرة لم تكن سوى عملية سطو على أموال الآباء، إذ كانت لا تقدم للأولاد على المائدة، وكذلك كانت الحلوى المزعومة. سمعت أن المدرسة كانت تعتبر الآنسة كريكل مغرمة بستيرفورث. كنت على يقين من أن الأمر ليس ببعيد، إذ رحت أفكر وأنا جالس في الظلام في صوته الجميل، ووجهه الناعم، وطريقته العذبة، وشعره المموج، فحسبت أن الأمر صحيح. سمعت أن السيد ميل لم يكن رجلًا سيئًا، لكنه لا يملك أقل القليل من المال ليصلح حاله، وأن والدته العجوز السيدة ميل العجوز، كانت بلا شك فقيرة كفقر وظيفته. تذكرت وقتها إفطاري الذي تناولته عندهم، وقولها الذي كنت أحبه «شارلي يا بني!». أسعدني أن أتذكر ما حدث، لكني لم أقل شيئًا عنه أمام الأولاد فكنت أخرس كالفأرة.

رحت أسمع كل هذه الأحاديث، بل أكثر منها بكثير، حتى نهاية المأدبة وما بعدها لبعض الوقت. ذهب الجزء الأكبر من الأولاد إلى أسرتهم بمجرد الانتهاء من الأكل والشرب، أما نحن فقد بقينا نتهامس ونستمع إلى الأحاديث بينما نرتدي أنصاف ملابسنا، إلى أن أوينا أخيرًا إلى أسرتنا أيضًا.

قال ستيرفورث: «ليلة سعيدة أيها الشاب كوبرفيلد. سأعتني بك».

أجبته بامتنان بالغ: «إنك لطيف للغاية، وإنني ممتن جدًّا لك».

قال ستيرفورث وهو يتثاءب: «ألديك أخت؟».

أجبته: «لا».

قال ستيرفورث: «إنه أمر مؤسف. لو كانت لديك أخت، فإني أحسب أنها ستكون فتاة جميلة، وخجولة، صغيرة وتتمتع بعينين مشرقتين. كنت سأحب التعرف عليها. ليلة سعيدة يا أيها الشاب كوبرفيلد».

أجبته: «ليلة سعيدة يا سيدي».

فكرت فيه كثيرًا بعد أن أويت إلى الفراش، وأذكر أنني نهضت بجسدي متطلعًا إلى حيث يرقد في ضوء القمر، وقد ارتفع أمامي وجهه الوسيم، ورأسه يتكئ على ذراعه بليونة. بدا لي شخصًا شديد القوة؛ كان هذا بالطبع، سبب انشغالي بأمره. أبصرته من دون أن يبعد شعاع القمر حجاب الغيب عن وجهه. لم أتنبأ بخطواته المستقبلية بل ظلت في طي الغموض، يخطو في الحديقة التي رحت أحلم بالسير فيها طوال الليل.

# الفصل السابع

## «النصف الدراسي الأول»

## في مدرسة سالم هاوس

بدأت الدراسة بجدية بداية من اليوم التالي. أتذكر شعورًا عميقًا انتابني بعد أن تأثرت بصخب الأصوات في قاعة الدراسة، التي صارت فجأة هامدة كالموت بعد أن دخلها السيد كريكل عقب الإفطار، وقد وقف في المدخل يتطلع إلينا مثل عملاق حكايات خرج من كتاب ليباشر أسراه.

وقف تانجاي محاذيًا لمرفق السيد كريكل. لم تُتح له فرصة، بحسب ظني، ليصرخ بشراسة قائلًا: «الزموا الصمت»، فقد كان الأولاد جميعهم صامتين بلا حراك.

راح السيد كريكل يتحدث، وأخذ تانجاي يردد حديثه من خلفه.

«الآن، يا شباب، إنه نصف عام جديد. فلتنتبهوا لما أنتم بصدده في هذا النصف الجديد. أقبلوا على دروسكم بجدية، هذه نصيحتي إليكم، لأني سأجازي بالعقاب. لن أتوانى في عملي. لن يجدي ساعتها إن فركتم جلودكم بأنفسكم، فلن تنمحي علامات الضرب إن نزلت بكم. فليذهب الآن كل منكم إلى عمله، ليجتهد كل فتى».

انتهى هذا البيان المخيف، وانتهى ما ردده تانجاي مرة أخرى. اقترب السيد كريكل من مجلسي، وأخبرني أنني إذا كنت مشهورًا بالعض، فقد اشتهر هو بالعض أيضًا. ثم أراني العصا، وسألني عن رأيي فيها... هل تشبه الأسنان؟ وهل لها أسنان حادة؟ هل تملك هي الأخرى فكًّا يا هذا؟ هل هي ذات جوف عميق يا هذا؟ هل تعض يا هذا؟ هل تقضم؟ كان يهوي عليَّ بضربة منها بين كل سؤال يطرحه مما جعلني أعاني متألمًا، ولكن سرعان ما تحررت من مدرسة سالم هاوس (كما قال ستيرفورث)، وسرعان ما انخرطت في البكاء أيضًا.

لا أقصد أنني اشتهرت بهذه العلامات المميزة الخاصة، والتي حظيت بها دون سواها، بل على العكس من ذلك، فقد حصلت الغالبية العظمى من الأولاد (خاصة الصغار) على حوادث وإشعارات مماثلة، حين قام السيد كريكل بجولة في قاعة الدراسة. أخذ نصف تلاميذ الصف يتلوون ويبكون قبل أن يبدأ اليوم الدراسي؛ وكم من صبي ظل يتلوى ويبكي حتى نهاية اليوم الدراسي، لكني أخشى حقًّا أن أذكرهم، خوفًا من أن أبدو مبالغًا.

لا أحسب أن هناك أي رجل يستمتع بمهنته أكثر من السيد كريكل. كان يسعد بضرب الأولاد، كما لو أنه يُقدِم على إشباع شهية شغوفة متلذذة بالطعام. إنني على ثقة من أنه لم يستطع مقاومة ضرب الصبي السمين، خاصة أنه بدا مغريًا له كما لو أن ثمة سحرًا في أمره. ظل منشغلًا لا يهدأ له بال حتى يهوي عليه ويبرحه ضربًا، تاركًا أثره كل يوم. كنت بدينًا، وكان عليَّ أن أختبر الأمر ذاته بنفسي. إنني على يقين

من أنني حين أفكر في هذا الرجل في هذه الأيام، فإن دمائي تغلي في عروقي ساخطًا، وأكن له غضبًا خالصًا كان من الممكن أن أشعر به حتى لو أنني لم أقع تحت رحمته. أدركت أنه لم يكن سوى وحش ضارٍ، ولم يكن ليستحق تلك الثقة الكبيرة التي خُولت إليه، بل إن اللورد صاحب السمو، والقائد العام، أو أيًا منهما كان أقل ضررًا من أذاه المتخطي كل الحدود.

لم نكن في نظره سوى حفنة من العبيد المهانين أمام سيدهم الذي لا يرحم، كم كنا أذلاء أمامه! أحسب أنني بعد انطلاقي في الحياة الآن، وبعد تذكر هذا الماضي المنصرم، فإني أعجب من هذه المذلة والخنوع لرجل بمثل هذه المكانة التي يشغلها وهذه الادعاءات التي تحيطه!

هنا أعود لتذكر جلوسي أمام المكتب مرة أخرى، وإذا بي أراقب عينيه - أراقب عينيه في مذلة، بينما يضرب بعصاه كتابًا كان لضحية أخرى، بعد أن تورمت يده منذ لحظات من أثر هذه العصا بعد أن هوت عليه، فإذا به يحاول مسح أثر الضربة بمنديل. كان أمامي الكثير من العمل. لم أكن أراقب عينيه خاملًا، بل لأنني كنت منجذبًا إليهما في بلادة، ورغبة مخيفة في توقع ما سيفعله بعد ذلك، وما إذا كان دوري في المعاناة قد حان أم أنه دور شخص آخر. صار عدد من الأولاد الصغار خلفي، يراقبون عينيه كذلك بالاهتمام والترقب أنفسهما. أحسب أنه يدرك ذلك، على الرغم من أنه يتظاهر بتجاهل أمرهم. يلوي فمه بحركات مهيبة بينما يشير بعصاه إلى هذا الكتاب، ثم يلقي نظراته بعدها نحو صفنا، فإذا بنا ننكب على كتبنا بخوف ورعدة. ما نلبث أن نتطلع

إليه مرة أخرى بعدها بلحظة واحدة، فيظهر صبي تعس الحظ، لم يؤدِّ واجباته على أكمل وجه، فيأمره بالاقتراب. يقدم المجني عليه الأعذار ويعلن عزمه على القيام بعمل أفضل في الغد. يلقي السيد كريكل نكتة قبل أن يضربه، ونضحك عليها، نضحك نحن الكلاب الصغيرة، وقد علا وجوهنا بياض كما الرماد، بينما تغرق قلوبنا في أحذيتنا رهبة.

هنا أعود وأتذكر جلستي على مكتب الدراسة مرة أخرى، بعد ظهر يوم صيفي مثير للنعاس، يعلو فيه الأزيز وتتصاعد الهمهمات من حولي، كما لو أن الأولاد نحلات تطير حول الورود. ينتابني إحساس بالثقل بسبب دهن اللحم الفاتر (إذ كنا قد تناولنا الغداء قبل ساعة أو ساعتين). صار رأسي ثقيلًا كما لو أنه معبأ برصاص. أود أن أبذل العالم كله ثمنًا للنوم. أجلس وعيني مثبتة نحو السيد كريكل، وأومض بعيني مثل بومة صغيرة، إلى أن يغلبني النوم لدقيقة. لم تزل صورته تلوح أمامي في الأفق خلال سباتي، بينما يشير بعصاه نحو هذه الكتب المشفرة، إلى أن يأتي ورائي بهدوء، ثم يوقظني فأنتبه أكثر وأدرك وجوده، مع وجود أثر ضربة حمراء على ظهري.

هنا أتذكرني في الملعب، بينما لم تزل عيني مفتونة بالنظر إليه، حتى وإن لم أستطع رؤيته. كانت النافذة التي أعلم أنه يتناول الغداء عندها، تقع على مسافة قريبة مني. وقفت بجانبها، بينما أتطلع نحوها بدلًا من أن أنظر إليه. أما إذا لاح وجهه بالقرب منه، فإنني أبدي ملامح التوسل والخضوع. كان إذا أطل عبر الزجاج، فإن أكثر الصبية جرأة (باستثناء ستيرفورث) لا يلبث أن يتوقف عن الصراخ أو الصياح، ويصير واجمًا.

حدث في يوم من الأيام، أن كسر ترادلز (الفتى الأسوأ حظًّا في العالم) هذه النافذة بالكرة عن طريق الخطأ. تسري فيَّ رجفة في هذه اللحظة كلما تذكرت رهبتي الهائلة حين أبصرت ما حدث، وتخيُّلي أن الكرة قد ارتطمت برأس السيد كريكل المقدس.

يا لترادلز المسكين! كان يرتدي بدلة ضيقة باللون الأزرق السماوي كانت تجعل ذراعيه وساقيه يبدون مثل النقانق الألمانية، أو حلوى البودينج الممتلئة بكراميل، كان أكثر الأولاد مرحًا وبؤسًا على الإطلاق. كان يُضرب بالعصا دومًا -أظن أنه كان يُضرب كل يوم بالعصا في هذا النصف من العام، باستثناء يوم واحد من أيام الاثنين عندما أحكم يديه- وكان دائمًا يقول إنه سيكتب إلى عمه عن هذا الأمر، لكنه لم يفعل ذلك قَطُّ. كان يضع رأسه على المنضدة لفترة قصيرة بعد أن يُضرب، ثم يعود مرحًا بطريقة ما، ويبدأ في الضحك مرة أخرى، ويشرع في رسم الهياكل العظمية في كل مكان، قبل أن تجف عيناه. اعتدت في البداية أن أتساءل عن الراحة التي يجدها ترادلز في رسم الهياكل العظمية. رحت أنظر إليه لبعض الوقت كما لو كان ناسكًا، يذكر نفسه برموز الفناء، وأن العصا فانية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. إلا أنني أحسب أنه لا يرسمها إلا لأنها سهلة، ولم تحمل أي ملامح.

لقد كان ترادلز في غاية النبل، وكان يرى أن من واجب الأولاد أن يدعم كل منهم الآخر. عانى ترادلز في مناسبات عديدة من جراء فكرته هذه، ففي ذات مرة على وجه الخصوص؛ ضحك ستيرفورث في الكنيسة، وظن الكاهن أن من ضحك هو ترادلز، فطرده خارجًا. أتذكره

في هذه اللحظة، في طريقه إلى حجرة العقاب بعيدًا، وقد أظهر المصلون له احتقارًا لأفعاله. لم يقُل قَطُّ مَن الجاني الحقيقي، على الرغم من أنه ضُرب في اليوم التالي ضربًا قاسيًا، وسُجن لساعات عديدة رسم خلالها ساحة كنيسة واسعة تتكدس بالهياكل العظمية داخل صفحات قاموسه اللاتيني بأسرها. حصل بعد ذلك على مكافأته، حين قال ستيرفورث إن نفس ترادلز تخلو من روح المذلة والخنوع، وشعرنا جميعًا أن هذا القول أعظم ثناء يقال. أما من ناحيتي، فكان بإمكاني الفوز بمثل هذا المديح (على الرغم من أنني أقل شجاعة من ترادلز، ولا أتصف بشيء كهذا في مثل هذا العمر) ومن ثَم أنال مثل هذه المكافأة.

كانت رؤية ستيرفورث متقدمًا نحو الكنيسة أمامنا، جنبًا إلى جنب مع الآنسة كريكل، واحدة من أعظم المشاهد في حياتي. لم أكن أحسب أن الآنسة كريكل تضاهي إيميلي الصغيرة جمالًا، ولم أحبها (لم أجرؤ على ذلك)، لكنني ظننت أنها فتاة شابة تتمتع بجاذبية استثنائية لا تفوقها فتاة في الرقة واللطف. كنت أشاهد ستيرفورث يحمل لها المظلة، مرتديًا بنطاله الأبيض، فينتابني نوع من التباهي والفخر بمعرفته. وأحسب أنها لا تستطيع أن تتجاوز معرفته من دون أن تتخذه عشيقًا فتحبه من كل قلبها. كان السيد شارب والسيد ميل من الشخصيات البارزة في نظري كذلك، أما ستيرفورث فكان بالنسبة إليهما في منزلة الشمس بين نجمين.

واصل ستيرفورث رعايته لي، وأثبت أنه صديق نافع للغاية، إذ لم يجرؤ أحد على مضايقتي بعدما عرفوا مكانتي عنده. لم يستطع أن يدافع

عني أمام السيد كريكل، أو لم يدافع عني على الإطلاق، بينما كان السيد كريكل شديد القسوة عليَّ، ولكنه ظل يخبرني كلما تلقيت معاملة أسوأ من المعتاد، أنني في حاجة دائمة إلى مزيد من الشجاعة، وأنه إن كان في موقفي فلن يتحمل الأمر. أحسست أنه يقصد تشجيعي وقد اعتبرت الأمر لطفًا لا بأس به منه. كانت ثمة ميزة واحدة وحيدة فقط أدركتها من جراء شدة السيد كريكل. كانت اللافتة المعلقة على ظهري تحول دونه دومًا إذا ما أقدم على ضربي من ورائي من وقت لآخر، فما لبثت أن تخلخلت وانخلعت من ورائي، ثم لم أرَها منذ ذلك الحين.

توثقت علاقتي بستيرفورث وصارت أكثر حميمية بعد أن وقع حادث ما، وقد ألهمني مزيدًا من الفخر والاعتزاز والرضا، على الرغم من أنه أدى في بعض الأحيان إلى بعض الإزعاج. تكرم عليَّ بحديث في إحدى المرات، حين كنا نسير في الفناء، فأبديت ملاحظة بأن شيئًا ما أو شخصًا ما - نسيت ما هو الآن - كان يشبه شيئًا ما أو شخصًا ما في قصة بيريجرين بيكل[1]. لم يعلق ستيرفورث بشيء في ذلك الوقت، ولكن عندما كنت في طريقي للنوم ليلًا، سألني إذا كان هذا الكتاب بحوزتي أم لا؟

أجبته بالنفي، ورحت أشرح له كيف قرأته، وحدثته عن الكتب الأخرى التي ذكرتها سالفًا.

---

(١) مغامرات «*Peregrine Pickle*» هي رواية خيالية للكاتب الاسكتلندي توبياس سموليت، نُشرت لأول مرة عام ١٧٥١ وتم تنقيحها ونشرها مرة أخرى عام ١٧٥٨. تحكي قصة رجل أناني يعاني من الحظ والمآسي في ذروة المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر.

سألني ستيرفورث: «وهل تتذكرها؟».

أجبته: «آهٍ نعم». أتمتع بذاكرة جيدة، وأحسب أنني تذكرتها على أكمل وجه.

قال ستيرفورث: «انتبه لما أقول أيها الشاب كوبرفيلد، عليك أن تقصها عليَّ. إنني لا أستطيع النوم في وقت مبكر جدًّا من الليل، على الرغم من أنني أستيقظ مبكرًا في الصباح. ستحكيها لي واحدة تلو الأخرى. سنجعل منها حكايات تشبه الحكايات العربية مثل ألف ليلة وليلة».

شعرت بإطراء شديد نتيجة لهذا الترتيب، وبدأنا تنفيذه في هذا المساء نفسه. لست في موضع يسمح لي بقص تفاصيل ما أضفيته على أحداث قصص المؤلفين المفضلين عندي في أثناء حكايتي عنهم، ولا أرغب الآن في إدراك ما فعلته آنذاك، لكني كنت على إيمان عميق بهم، وعلى حد ظني فإني كنت أتمتع بطريقة سلسة وميسرة في سرد ما قصصته عنهم؛ وهي مميزات سرت على نهجها لأجل طويل.

أما العيب الذي عرقلني فكان أنني شعرت بالنعاس في كثير من الأحيان في أثناء الليل، أو تراجعت رغبتي أحيانًا في استئناف القصة، لذلك كنت أجد هذا العمل شاقًّا إلى حد ما. لم أجد مفرًّا من مواصلة ما أقوم به، إذ كنت لا أقوى على إغضاب ستيرفورث، كما أن عدم إرضائه بالطبع أمر غير وارد. صرت أشعر بالإرهاق في الصباح أيضًا، وكنت في أشد الحاجة إلى أن أتمتع بساعة أخرى من الراحة. كان الأمر مرهقًا إذ أستيقظ، مثل السلطانة شهرزاد، وأجبر على الانتهاء من قص حكاية

طويلة قبل أن يدق جرس الاستيقاظ. كان ستيرفورث مصرًّا على سماع الحكايات، وفي المقابل صار يشرح لي ما يستعصي عليَّ من المسائل الحسابية وأي شيء في واجباتي، ولم أكن لأخسر هذه الصفقة. سأنصف نفسي، وأقول إنني لم أتأثر بأي دافع أناني أو مصلحة خاصة، ولم تكن دوافعي هي الخوف منه. لقد أعجبت به وأحببته، وكانت موافقته على مبادلتي هذا الإعجاب شفيعًا كافيًا. كان الأمر ثمينًا للغاية بالنسبة لي حتى إنني أتذكر ما وقع من هذه الأشياء الصغيرة الآن، بقلب متأثر موجع.

كان ستيرفورث مراعيًا لخاطري أيضًا، وقد بيَّن هذا الأمر في واقعة معينة، بطريقة قاطعة وجريئة بعض الشيء، حتى إنني أظن أن ذلك أثَّر على ترادلز المسكين وبقية الأولاد. وصلت رسالة بيجوتي الموعودة -يا لها من رسالة رائعة!- بعد بضعة أسابيع من بداية «النصف الدراسي»، وقد أرسلت معها كعكة في سلة ممتازة من البرتقال، وزجاجتين من نبيذ نباتات الربيع. كان هذا بمثابة كنز، وكما هي الحال في مثل هذه الأمور، وضعته عند قدمَي ستيرفورث، وتوسلت إليه أن يتصرف فيه.

قال: «الآن، سأخبرك بما سنفعله أيها الشاب كوبرفيلد. يجب الاحتفاظ بالنبيذ حتى يبلل حلقك بينما تحكي القصص».

خجلت من هذه الفكرة، وتوسلت إليه بتواضع أن يستبعدها. لكنه قال إنه لاحظ أن صوتي كان أجش في بعض الأحيان -قال تحديدًا إن صوتي كان يبدو أحيانًا مبحوحًا- ويجب أن تُخصص كل قطرة من النبيذ للغرض الذي ذكره. وفقًا لذلك، أغلق عليه صندوقه، وحفظه

بنفسه في قنينة، وكان يعطيني ما أشربه في قطعة من فلين أو غطاء، عندما كان من المفترض أن أكون بحاجة إلى شيء يقويني. كان في بعض الأحيان يجعله أكثر رونقًا، فإذا به يضيف إليه عصير البرتقال، أو يقلبه مع الزنجبيل، أو يُذوِّب قطرة من النعناع فيه، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع أن أؤكد أن الطعم قد تحسن بإضافة هذه النكهات، أو أنه صار بالضبط المزيج الذي كان يمكن للمرء أن يختاره لراحة المعدة، فإن هذا النبيذ كان آخر شيء أتجرعه في الليل وأول شيء أتجرعه في الصباح. شربته بامتنان وكنت في غاية الامتنان لرعايته لي.

أحسب أننا قضينا شهورًا في حكاية بيريجرين على حد ظني. وقضينا شهورًا أخرى في باقي القصص الأخرى. إنني على يقين من أن أسمارنا لم تخلُ قَطُّ من حكاية، بينما استمر تقديم النبيذ بالقدر ذاته تقريبًا. أما ترادلز المسكين - فإنني لم أتذكر هذا الفتى قَطُّ إلا وانتابتني نزعة غريبة إلى الضحك بينما تغزو الدموع عيني - كان مثل الجوقة التابعة بشكل عام، فيتظاهر بالمرح في الأجواء الهزلية، أو يتغلب عليه الخوف عندما يظهر أي مقطع لشخصية مقلقة في سرد مسرحي. كان هذا بالأحرى يغيظني كثيرًا. أتذكر مزحة غاية في المجون له، أتذكر تظاهره بأنه لا يستطيع منع أسنانه من الصرير، كلما ورد ذكر الوزراء في مغامرات جيل بلاس، وأتذكر مشهدًا في القصة التقى فيه جيل بلاس بقبطان اللصوص في مدريد؛ هذا الجوكر الزائف التعيس المثير لقشعريرة الرعب، وحينها سمعه السيد كريكل بينما كان يتجول في الممر، فما لبث أن جلده بقسوة بالغة بسبب هذا السلوك غير المنضبط

في غرفة النوم. تحفزت داخلي كل الأحاسيس الرومانسية والحالمة، إذ كانت كثرة سرد القصص مشجعة لاستثارتها في الظلام؛ وفي هذا الصدد، ربما لم تكن متابعة مثل هذه الأحاسيس شيئًا مجديًا بالنسبة إليَّ. أما كوني محبوبًا أبدو في غرفتي مثل نوع من الألعاب، وإدراكي أن هذا إنجاز كبير جعل الألسنة تتحدث عني بين الأولاد، وجذب انتباه الكثيرين لي على الرغم من أنني كنت أصغر الأولاد هناك، وقد حفزني هذا الأمر على بذل مجهود أكبر. في مدرسة تعتصرها القسوة المطلقة، سواء كان يرأسها غبي أم لا، ليس من المحتمل أن ننال فيها تعليمًا ذا قيمة. أظن أن أولادنا لم يكونوا بشكل عام سوى مجموعة من الجهلاء مثل سائر التلاميذ في أي مكان. كان الأولاد في غاية الاضطراب ومنصرفين بخوفهم عن التعلم؛ لم يعد بإمكانهم تحصيل الاستفادة من أي شخص، كما أنهم لن يسهموا بشيء مفيد في الحياة نتيجة للضرب والعذاب والقلق المستمر الذي تعرضوا له. أما الغرور الغض الذي انتابني ومساعدة ستيرفورث لي، فقد حثاني بطريقة ما للمضي قدمًا، وإن لم يساعداني في كل الأمور أو في التخلي عن العقاب دومًا، إلا أنني صرت في الوقت الذي قضيته في المدرسة استثناءً للحالة العامة، لدرجة أنني التقطت بعض فتات العلم بشكل مطرد.

ساعدني السيد ميل كثيرًا في تحصيل الدروس، فقد أحبني وصار يسعدني تذكره. لطالما شعرت بألم من ملاحظة سوء معاملة ستيرفورث له وإصراره على التقليل من شأنه، ونادرًا ما كان يُفوِّت الفرصة لإيذاء مشاعره، أو حث الآخرين على القيام بذلك. أزعجني

هذا الأمر كثيرًا لوقت طويل، لأنني سرعان ما أخبرت ستيرفورث بالأمر، إذ لم يعد بإمكاني الاحتفاظ بمثل هذا السر أكثر من ذلك، كما لا يمكنني الاحتفاظ بكعكة أو أي شيء ملموس آخر. كنت قد أخبرته عن المرأتين العجوزين اللتين أخذني السيد ميل إليهما، وكنت أخشى دومًا أن يبوح ستيرفورث بهذا السر ويعيره به.

إني لأجرؤ على القول، إنه لم يفكر أي منا كثيرًا، بعدما تناولت إفطاري في ذاك الصباح الأول لي في المدرسة، وبعد أن ذهبت للنوم تحت ظلال ريش الطاووس على صوت الناي. لم نفكر في العواقب التي ستترتب على دخول شخص تافه مثلي في هذه الملاجئ الخيرية. أما تلك الزيارة فقد كانت لها نتائج غير متوقعة، بل نتائج جادة أيضًا.

لزم السيد كريكل منزله في أحد الأيام لإعياء ألم به. أدى الأمر بطبيعة الحال إلى نشر السعادة المفعمة بالحيوية في جميع أنحاء المدرسة، وسادت ضوضاء عارمة في أثناء فترة العمل الصباحي. أما الارتياح والرضا الذي شعر به الأولاد، فقد جعل من الصعوبة السيطرة عليهم، على الرغم من أن تانجاي اللعين قد أخذ يجر ساقه الخشبية مرتين أو ثلاث مرات، ودوَّن ملاحظات بأسماء الجناة الرئيسيين، فإنه لم يترك أثرًا يُذكَر، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم واقعون في مشكلاتهم غدًا، ولذا فقد وجدوا أنه من الحكمة أن يفعلوا ما يريدونه الآن ويستمتعوا بوقتهم اليوم.

وقع الأمر في يوم سبت حيث كان نصف اليوم الدراسي. كانت ضوضاء الملعب من شأنها أن تزعج السيد كريكل، ولم يكن الطقس

مناسبًا للخروج للتمشية في الفناء، لذلك فقد بقينا داخل فصول المدرسة حتى فترة ما بعد الظهر، وقمنا بأداء بعض التدريبات الأخف من المعتاد، والتي أُعِدت لمثل هذه الظروف. كان هذا اليوم من الأسبوع هو اليوم الذي يخرج فيه السيد شارب ليهذب شعره المستعار، لذا فقد تولى السيد ميل العمل بدلًا منه. كان السيد ميل يتولى أي عمل كان، لذلك تولى بنفسه الإشراف على المدرسة. لو أنني استطعت أن أربط بين صورة الثور أو الدب مع أي شخص وديع مثل السيد ميل، لما فكرت في سواه بعد ظهيرة ذاك اليوم عندما كانت الضجة في أوجها. تصورته كما لو أنه مثل أحد هذه الحيوانات، التي مزقها ألف كلب. أتذكره بينما يحني رأسه المتألم فيسنده إلى يده ذات العروق البارزة، وينحني فوق الكتاب الموجود على مكتبه، ويحاول عبثًا متابعة عمله الممل، وسط ضجة ربما أصابت رئيس مجلس العموم نفسه بالصداع. راح الأولاد يدخلون ويخرجون من أماكنهم، يلعبون لعبة القط والفأر في الزاوية مع غيرهم. كان هناك أولاد يضحكون، وآخرون يغنون، وأولاد يتحدثون، وآخرون يرقصون، وغيرهم يزمجرون. راح الأولاد يضربون الأرض بأقدامهم، وآخرون يدورون حول السيد ميل مبتسمين، يعبثون بوجوههم، ويقلدونه خلف ظهره وأمام عينيه؛ يقلدون فقره، وحذاءه، ومعطفه، ووالدته، وكل شيء يخصه مما جذب انتباههم وأخذوه بعين الاعتبار.

نهض السيد ميل فجأة وضرب مكتبه بالكتاب، ثم صرخ قائلًا: «الزموا الصمت، ما معنى هذا؟! يستحيل تحمله. إنه جنون. كيف يمكنكم أن تفعلوا هذا بي يا أولاد؟».

كان كتابي هو الذي ضرب به مكتبه، بينما كنت أقف بجانبه، وأتابع عينيه تدوران في أرجاء الغرفة. أبصرت الأولاد جميعًا يتوقفون عن أفعالهم؛ تفاجأ بعض منهم، وصار البعض الآخر خائفًا، وربما شعر البعض بالأسف.

كان مكان ستيرفورث في أقصى المدرسة، حيث الطرف المقابل من الغرفة الطويلة. كان يتسكع مسندًا ظهره إلى الحائط ويداه في جيبيه، أخذ ينظر إلى السيد ميل وقد أغلق فمه كما لو أنه يصفر، إلى أن نظر إليه السيد ميل كذلك.

قال السيد ميل: «التزم الصمت يا سيد ستيرفورث».

قال ستيرفورث وقد احمر وجهه: «اصمت أنت. مع من تتحدث؟».

قال السيد ميل: «اجلس».

قال ستيرفورث: «اجلس أنت، واعتنِ بعملك».

ارتفعت الصيحات وتعالى بعض التصفيق. لكن وجه السيد ميل كان شديد البياض من الغضب، ونجح ذلك في إسكات الأولاد على الفور. انطلق غلام وراءه ليبدأ في تقليد والدته مرة أخرى، إلا أنه غير رأيه وتظاهر بأنه يريد إصلاح قلمٍ.

قال السيد ميل: «إذا كنت تحسب يا ستيرفورث أنني لست على دراية بالسلطة التي يمكنك التأثير بها على أي عقل هنا - وضع يده على رأسي، من دون التفكير في ما يفعله على حسب ظني - أو أنني لم

ألحظك، في غضون بضع دقائق، تحث صغارك على إبداء كل نوع من الأذى ضدي، فإنك مخطئ».

قال ستيرفورث في هدوء: «إنني لا أعطي نفسي عناء التفكير بك على الإطلاق. لذلك فإنني في الواقع لم أكن مخطئًا».

تابع السيد ميل حديثه بشفة ترتجف بشدة قائلًا: «وعندما تستغل مكانتك هنا يا سيدي لإهانة رجل نبيل».

قال ستيرفورث: «ماذا؟ أين هو؟».

هنا صرخ أحدهم قائلًا: «عار عليك يا ج. ستيرفورث، إنه لأمر مشين».

كان المتحدث هو ترادلز، لكن السيد ميل قاطعه على الفور وطالبه بأن يمسك لسانه. راح السيد ميل يتحدث بشفتيه المرتعشتين: «إنك كبير وعاقل كفاية لفهم الأسباب العديدة التي تمنعك عن إهانة شخص بائس في الحياة، لم يسبق أن أساء إليك بشيء ولو هين». أخذ يرتجف أكثر فأكثر قائلًا: «إنك ترتكب فعلًا وضيعًا. يمكنك الجلوس أو الوقوف كما يحلو لك يا سيدي. هيا يا كوبرفيلد».

قال ستيرفورث وهو يتقدم إلى مكانه في الغرفة: «يا كوبرفيلد الصغير، توقف قليلًا. اسمع قولي يا سيد ميل، لمرة واحدة إلى الأبد. عندما تأخذ حريتك في مناداتي بالوضاعة أو الدناءة، أو أي شيء من هذا القبيل، فإنك متسول وقح. إنك كما تعلم متسول دائمًا، ولكن عندما تقدم على هذا القول، فإنك متسول وقح».

لست متأكدًا ما إذا كان سيضرب السيد ميل، أم أن السيد ميل هو من أبدى نية لضربه، أم أنه لم تكن ثمة نية من هذا القبيل لدى أي من الجانبين. رأيت جمودًا ساد المدرسة بأسرها، كما لو أنهم تحولوا إلى صخور جامدة، ووجدت السيد كريكل في وسطنا، مصطحبًا تانجاي. أطلت السيدة كريكل والآنسة كريكل تنظران من الباب وقد انتابهما ذعر. جلس السيد ميل، وقد أسند مرفقيه إلى مكتبه ممسكًا بوجهه في يديه، ساكنًا تمامًا لبعض اللحظات.

تحدث السيد كريكل وهو يهزه من ذراعه، وقد صار همسه مسموعًا نقيًّا في هذه اللحظة، ولم يكن تانجاي في حاجة إلى تكرار كلماته، حين قال: «يا سيد ميل. هل آمل ألا تكون قد نسيت نفسك؟».

أجاب السيد ميل، بعد أن أظهر وجهه، وهز رأسه، وفرك يديه في هياج شديد، قائلًا: «لا يا سيدي، لا. لا سيدي، لا. إنني عارف بحدودي، لا، يا سيد كريكل، لم أنسَ نفسي، لم أنسَ. لقد تذكرت نفسي يا سيدي. كنت... كنت أتمنى لو كنت تذكرني قبل هذا بقليل يا سيد كريكل. كان من الممكن أن يصير الأمر أكثر رحمة يا سيدي، أكثر عدلًا يا سيدي. كان سيوفر عليَّ العناء بعض الشيء يا سيدي».

نظر السيد كريكل بجدية إلى السيد ميل، ووضع يده على كتف تانجاي، وأسند قدميه إلى المنصة القريبة منه، ثم جلس على المكتب. وبعد أن أطال النظر بجدية نحو السيد ميل من فوق عرشه هذا، أخذ يهز رأسه ويفرك يديه، وظل في نفس حالة الانفعال هذه. التفت السيد كريكل إلى ستيرفورث، ثم قال:

«أما الآن يا سيدي، وعلى أنه لن يتنازل ليحكي لي، فلتقل أنت ما الخطب؟».

تهرب ستيرفورث من إجابة السؤال لبعض الوقت. أخذ ينظر بازدراء وغضب إلى خصمه، والتزم الصمت. لا أستطيع منع نفسي من التفكير حين أتذكر هذا المشهد، فأندهش كيف كان مظهر ستيرفورث رفيعًا نبيلًا، وكيف بدا السيد ميل بسيطًا وساذجًا لا يقدر على مواجهته.

قال ستيرفورث في النهاية: «ماذا كان يقصد بالحديث عن المفضلين بالوساطة إذن؟».

كرر السيد كريكل وقد تورمت عروق جبهته بسرعة، قائلًا: «المفضلين؟ من تحدث عن مفضلين؟».

قال ستيرفورث: «هو من قالها».

استدار السيد كريكل في غضب نحو مساعده، وأردف يقول: «رحماك يا ربي، ماذا قصدت بهذا القول يا سيدي؟».

أجاب بصوت منخفض: «لقد قصدت مما قلته يا سيد كريكل، أنه لا يحق لأي تلميذ أن يستغل مكانته عن طريق المحسوبية ليهينني».

قال السيد كريكل: «ليهينك؟ يا للعجب! ولكن اسمح لي أن أسألك يا سيد؛ ما اسمك؟».

وهنا طوى السيد كريكل ذراعيه وعصاه وكل شيء فوق صدره، وعقد حاجبيه مما جعل عينيه الصغيرتين بالكاد تظهران تحتهما، ثم أكمل يقول: «اسمح لي بسؤال؛ هل عندما تتحدث عن المفضلين، تكون قد أظهرت لي أنا الاحترام المناسب؟». وهنا دفع السيد كريكل

برأسه مشرئبًّا إليه فجأة، ثم طأطأه مرة أخرى قائلًا: «إنني مدير هذه المؤسسة، ومدير عملك هذا».

قال السيد ميل: «إنني على استعداد للاعتراف بأن الأمر لم يكن حكيمًا من جهتي يا سيدي. ما كان يجب لأتصرف بهذه الطريقة لو كنت هادئًا».

تدخل ستيرفورث في هذه اللحظة، قائلًا: «ثم إنه قال إنني لئيم، ثم قال إنني حقير، ثم دعوته متسولًا. لو كنت هادئًا، ربما لم أكن لأصفه بالمتسول. إلا أنني قد فعلت، وإنني على استعداد لتحمل عواقب الأمور».

شعرت بتوهج شديد إثر هذا الخطاب الشجاع، ربما من دون تفكير فيما إذا كانت ثمة عواقب يجب تحملها أم لا. ترك موقفه أثرًا على الأولاد أيضًا، حيث سرى فيهم انفعال بسيط، من دون أن ينبس أي منهم ببنت شفة.

قال السيد كريكل: «إنني مندهش يا ستيرفورث - على الرغم من صراحتك التي تُحترم عليها. وإنك تستحق التقدير بالطبع عليها - وإنني لأعجب منك يا ستيرفورث، إذ إنك تنسب مثل هذه الصفة لأي شخص يعمل لصالح مدرسة سالم هاوس يا سيدي».



أطلق ستيرفورث ضحكة قصيرة.

قال السيد كريكل: «هذه ليست إجابة ملاحظتي يا سيدي. أتوقع منك أكثر من هذا يا ستيرفورث».

بدا السيد ميل ساذجًا في عيني، أمام هذا الصبي الوسيم. ولم يكن من السهل القول بأن السيد كريكل قد بدا ساذجًا كذلك. قال ستيرفورث: «دعه ينكر ذلك».

صرخ السيد كريكل: «أينكر أنه متسول يا ستيرفورث؟ لماذا تراه متسولًا، أين تراه يتسول؟».

قال ستيرفورث: «إذا لم يكن متسولًا، فإن أحد أقربائه متسول، والأمر سيان إذن».

رمقني بنظرة من عينيه، ثم ربتت يد السيد ميل بلطف على كتفي. تطلعت إليه وحمرة تعلو وجهي وندم يمزق قلبي، لكن عينَي السيد ميل كانتا ثابتتين على ستيرفورث. استمر في التربيت على كتفي بلطف، لكنه ظل ناظرًا إليه.

قال ستيرفورث: «بما أنك تتوقع مني يا سيد كريكل أن أبرر موقفي، فإنني سأصرح بما أعنيه، فما أردت قوله هو أن والدته تعيش في ملجأ في بيت قائم على الصدقات».

كان السيد ميل لم يزل ينظر إليه، ولم يزل يربت على كتفي بلطف، وقد قال في نفسه هامسًا، ما قد سمعته جيدًا: «نعم، صدقت ظنوني».

التفت السيد كريكل إلى مساعده بعبوس شديد وأدب مصطنع قائلًا:

«الآن، سمعت ما قاله هذا الرجل يا سيد ميل. فهلا تكرمت إذا سمحت، لترد على ما قاله مباشرة أمام المدرسة مجتمعة».

أجاب السيد ميل، وسط صمت مميت، قائلًا: «إنه على حق يا سيدي، لا داعي لتصحيح كلامه. إن ما قاله صحيح تمامًا».

قال السيد كريكل، مطرقًا رأسه إلى أحد جانبيه، وقد أدار نظرات عينيه في أرجاء المدرسة: «كن صالحًا وأعلن أمام الملأ، إذا تمكنت من ذلك، هل كنتُ على علم بهذا الأمر حتى هذه اللحظة؟».

أجاب: «لا أظن أنك على علم به بشكل مباشر».

قال السيد كريكل: «لماذا تقول إنك لا تظن. أليس الأمر كذلك يا رجل؟».

أجاب المساعد: «أفهم أنك لم تفترض قَطُّ أن ظروفي الحياتية جيدة جدًّا. إنك تعرف حالي، وكيف كنت دائمًا وأنا أعمل هنا».

قال السيد كريكل وقد انتفخت عروقه مرة أخرى أكثر من أي وقت مضى: «ما أفهمه، طالما وصلنا إلى هذه النقطة، أنك كنت في مركز خاطئ تمامًا، وقد أخطأت حين تصورت أن هذا المكان مدرسة خيرية. إذا سمحت يا سيد ميل، سوف نفترق هنا، ومن الأفضل أن يتم ذلك في أقرب وقت».

أجاب السيد ميل بينما ينهض: «لا يوجد وقت أنسب من هذه اللحظة».

قال السيد كريكل: «لك ما أردت يا سيدي».

قال السيد ميل بينما يلقي نظرة خاطفة إلى أرجاء الغرفة، وقد أخذ يربت على كتفي برفق مرة أخرى: «إنني أستأذنك يا سيد كريكل،

وأستأذنكم جميعًا. أما أنت يا جيمس ستيرفورث، فأفضل ما يمكنني أن أتمناه لك هو أن تشعر يومًا بالخجل مما فعلته. أما في الوقت الحالي، فأفضِّل أن أراك أي شيء سوى أن تصير صديقًا لي أو لأي شخص أهتم بأمره».

وضع يده على كتفي مرة أخرى، ثم أخذ الناي وبعض الكتب من مكتبه، وترك المفتاح في الدرج لمن سيخلفه، ثم خرج من المدرسة متأبطًا ممتلكاته. ألقى السيد كريكل خطابًا، من خلال تانجاي، شكر فيه ستيرفورث (وإن كان قد بالغ في الأمر) على ما أكده من استقلالية مدرسة سالم هاوس واحترامها؛ وانتهى به الأمر بمصافحة ستيرفورث، بينما صحنا بثلاثة هتافات - لم أكن أعرف تمامًا ماذا كان هذا الهتاف، ولكنني أحسب أنه لستيرفورث، وانضممت إليهم بحماس، على الرغم من أنني شعرت ببؤس وغم. ضرب السيد كريكل تومي ترادلز بالعصا لأنه اكتشف أنه يبكي، بدلًا من أن يهتف، بسبب رحيل السيد ميل، ثم ما لبث أن عاد ترادلز إلى أريكته أو سريره أو أي مكان أتى منه.

لقد تُركنا وحدنا الآن، وعلى ما أتذكر فقد بدأ كل منا ينظر إلى الآخر بدهشة بالغة. أما أنا، فقد شعرت بتوبيخ وندم عارمين على ما حدث. ما كان لشيء أن يحبس دموعي، لولا الخوف من أن يظن ستيرفورث، الذي غالبًا ما كان ينظر نحوي، أنني مستاء - أو عليَّ القول بدلًا من ذلك، إنني آخذ في الاعتبار تباين الأعمار بيننا، وأخاف أن يشعر أنني ناقم - إذا ما أظهرت العواطف التي تعتصرني. صار ستيرفورث غاضبًا جدًّا من ترادلز، وقال إنه سعيد لأنه اكتشف أمره.

أما ترادلز المسكين، الذي تجاوز مرحلة أن يستلقي مسندًا رأسه إلى المنضدة، فقد كان يتغلب على حالته كالمعتاد برسم مجموعة من الهياكل العظمية، ثم قال إنه لا يهتم بما أصابه، وإن ظل يؤكد أن السيد ميل قد أسيء إليه.

قال ستيرفورث: «من الذي أساء إليه أيتها الفتاة؟».

أجاب ترادلز: «أنتَ، فماذا لديك؟».

سأل ستيرفورث: «ما الذي فعلته؟».

رد ترادلز: «أتسأل ماذا فعلت؟ لقد جرحت مشاعره، وأفقدته وظيفته».

كرر ستيرفورث بازدراء: «مشاعره؟ سوف تتحسن مشاعره قريبًا، سأكون ملازمًا لتحسن مشاعره. إن مشاعره ليست مثل مشاعرك يا آنسة ترادلز. أما وظيفته - أكانت ثمينة، أليس كذلك؟ - هل تفترض أنني لن أكتب إلى عائلتي، وأحرص على حصوله على بعض المال؟ أليس كذلك يا بولي[١]؟».

لقد حسبنا أن ما ينتوي ستيرفورث فعله كان ناتجًا عن شعور نبيل للغاية، كانت والدته أرملة وغنية، وستفعل أي شيء يطلبه منها تقريبًا؛ هكذا قيل لي. صرنا جميعًا سعداء للغاية بعد أن رأينا ترادلز قد انهار. أما ستيرفورث فقد ارتفعت مكانته إلى السماء، خاصة عندما أخبرنا، أو تفضل علينا بأن أخبرنا، أن ما فعله كان لمصلحتنا ومن أجل قضيتنا،

---

(١) اسم يُطلق على الفتيات.

وأنه منحنا نعمة عظيمة بفعله هذا من دون أي أنانية منه. يجب أن أبوح أنني كنت أحكي قصة في الظلام تلك الليلة، فإذا بناي السيد ميل القديم قد بدا لي يشدو حزينًا في أذني أكثر من مرة، وأنه عندما شعر ستيرفورث بالتعب أخيرًا استلقيت على سريري، ورحت أتخيله يعزف بحزن بالغ في مكان ما، للحد الذي جعلني أشعر بأسى شديد.

نسيت أمر السيد ميل سريعًا بعد أن استغرقني التفكير في ستيرفورث الذي راح يُدرس، كما الهواة في سهولة، من دون أن يستعين بأي كتاب. بدا لي أنه يعرف كل شيء عن ظهر قلب. أخذ يُدرس لبعض الفصول إلى حين العثور على معلم جديد. جاء المعلم الجديد من إحدى المدارس الابتدائية، وقبل أن يبدأ مهامه التعليمية، راح يتناول الغداء في صالة الاستقبال ذات يوم، ليتم تقديمه إلى ستيرفورث. أشاد ستيرفورث به، وأخبرنا أنه كان ذا مظهر جيد. لم أفهم بالضبط ما المقصود من التعليق على مظهره وعلاقة ذلك بتعليمه. إلا أنني احترمته كثيرًا، ولم يكن لديَّ أدنى شك في علمه الفائق، على الرغم من أنه لم يعتنِ بي العناية نفسها التي كانت من السيد ميل، وإن لم أكن من الشخصيات ذات الشأن في المدرسة.

لم يقع سوى حدث واحد آخر في هذا النصف من العام من الحياة المدرسية اليومية، وقد أثر فيَّ تأثيرًا لم يزل قائمًا حتى الآن. ظل هذا الحدث مؤثرًا في حياتي لأسباب عديدة.

كنا جميعًا نعمل تحت وابل من المضايقات، بعد ظهر أحد الأيام، صرنا في حالة من الارتباك الشديد، وكان السيد كريكل يتجول

في الأرجاء ناشرًا الذعر، إلى أن جاء تانجاي وصرخ بطريقته القوية المعتادة، قائلًا: «زوار لك يا كوبرفيلد».

تبادل بضع كلمات مع السيد كريكل، ربما عن الزوار، والغرفة التي سيصطحبهم إليها. وقفت بعد ذلك، كما هو العرف في هذه الحالة، مستجيبًا للخبر الذي أعلن عنه، فإذا بي أشعر بالإغماء والإعياء الشديد من فرط دهشتي. قالوا لي أن أذهب من السلالم الخلفية وأرتدي ملابس نظيفة، قبل أن أتوجه إلى غرفة الطعام. أطعت هذه الأوامر، في اضطراب وعجلة يناسبان صغر سني وقلة خبرتي حيال شيء لم أعرفه من قبل. وصلت إلى باب غرفة الاستقبال، وخطر ببالي أنها قد تكون أمي، ولم أكد أتذكر السيد مردستون أو الآنسة مردستون في ذلك الحين، حتى سحبت يدي من مقبض الباب، وتوقفت لأمنع انتحابي قليلًا قبل أن أدخل.

لم أرَ أحدًا في البداية. شعرت بضغط على الباب، فتلفتُّ ناظرًا حولي، وهنا كانت دهشتي، فقد رأيت السيد بيجوتي وهام يلوحان أمام وجهي بقبعتيهما، ويضغط كل منهما الآخر نحو الحائط. لم يسعني إلا الضحك. كنت في غاية السعادة والمرح لرؤيتهما أكثر من سعادتي بالمشهد الذي صنعاه. تصافحنا بود بالغ. ازدادت ضحكاتي حتى أخرجت منديلًا ومسحت دموعي عن عيني.

أظهر السيد بيجوتي (الذي لم يغلق فمه ولو لمرة واحدة في أثناء الزيارة، على ما أذكر) قلقًا بالغًا عندما رآني أكفكف دموعي، ودفع هام ليقول شيئًا.

قال هام بطريقته الساخرة: «ابتهج يا سيد ديفي الكبير، ما هذا؟! لقد كبرت!».

تحدثت بينما أجفف عيني قائلًا: «هل تراني كبرت حقًّا؟». لم أكن أبكي على أي شيء أعرفه على وجه الخصوص، ولكنني رحت أبكي بطريقة ما لرؤية أصدقائي القدامى.

قال هام: «لقد كبرت يا سيد ديفي، ألم يكبر؟!».

قال السيد بيجوتي: «ألم يكبر؟!».

جعلاني أضحك مرة أخرى بعد أن رأيت كلًّا منهما يضحك على الآخر، ثم ضحكنا جميعًا حتى أصبحت في خطر البكاء مرة أخرى.

قلت: «هل تعرف شيئًا عن أحوال ماما يا سيد بيجوتي؟ وكيف حال عزيزتي، غاليتي بيجوتي العجوز؟».

أجاب السيد بيجوتي: «في أتم صحة وحال».

«وكيف حال الصغيرة إيميلي والسيدة جامدج؟».

أجاب السيد بيجوتي: «في أتم صحة وخير حال».

ساد صمت. أخذ السيد بيجوتي يخفف من حدة هذا السكون، فأخرج من جيوبه اثنين من سلطان البحر الضخم، مع سلطعون هائل، وحقيبة قماشية كبيرة تحمل الجمبري، وراكمها بين ذراعي هام.

قال السيد بيجوتي: «كما ترى، إننا علمنا إقبالك على «المُشهِّيات» عندما كنت معنا، فسمحنا لأنفسنا أن نجلب لك منها. طهته السيدة جامدج. نعم هي من قامت بطهوه». قال السيد بيجوتي هذه الكلمات في بطء،

وأحسب أنه تمسك بالحديث عن هذا الموضوع لأنه لم يجد كلامًا غيره يقال. عاد يقول مرة أخرى: «أؤكد لك أن السيدة جامدج هي التي طهته».

أعربت عن شكري. أخذ السيد بيجوتي ينظر إلى هام، الذي وقف مبتسمًا في خجل محاولًا عدم إفلات المحار، من دون أن يحاول مساعدته، ثم قال:

«لقد جئنا كما تعرف، بينما كانت الرياح وحركة المد والجزر في صالحنا. ركبنا في أحد المراكب من يارموث إلى «جرافسند». كتبت لي أختي اسم هذا المكان، وقالت لي إنه لو صادفت المجيء إلى جرافسند، فإن عليَّ أن آتي وأستفسر عن السيد ديفي، فأبلغه سلامًا، وأتمنى له بكل تواضع التوفيق، وأطمئنه أن الأسرة كلها بخير، مجتمعين كأصابع اليد الواحدة. سوف تكتب إيميلي الصغيرة، كما تعرف، إلى أختي عندما أعود، لتخبرها برؤيتي لك، وأنك بدوت بصحة جيدة، وهكذا قمنا بهذه الرحلة الممتعة تمامًا».

اضطررت إلى التمهل في التفكير قليلًا قبل أن أفهم ما يعنيه السيد بيجوتي بهذا التعبير، الذي يعبر عن دائرة كاملة من الأخبار. شكرته بعد ذلك بحرارة. وقلت بعد أن احمر وجهي خجلًا؛ إنني افترضت أن إيميلي الصغيرة قد تغيرت أيضًا، حيث كنا قد اعتدنا على التقاط القذائف والحصى من الشاطئ.

قال السيد بيجوتي: «ستصير امرأة، هذا ما ستؤول إليه. اسأله». كان يقصد هام، الذي ابتسم ببهجة موافقًا بينما يحمل كيس الجمبري.

قال السيد بيجوتي، وقد لمعت عيناه ببريق: «كم يبدو وجهها جميلًا!».

قال هام: «وعلمها!».

قال السيد بيجوتي: «كتابتها! وخط يدها الأسود الذي يبدو مثل الطائرات! كبير جدًّا، حتى إنك تراه من على بعد أي مكان».

كان من دواعي سروري أن أرى هذا الحماس الذي استولى على السيد بيجوتي بعدما فكر في صغيرته المدللة. أتذكره واقفًا أمامي مرة أخرى، بوجهه المزهو المشعر الذي يشع حبًّا وافتخارًا وبهجة، فلا أجد له وصفًا. تشتعل عيناه الصادقتان وتتألقان، وكأنهما يحركان في أعماقي شيئًا مشرقًا. كان صدره العريض يتنفس في سرور. كان يعتصر قبضتيه القويتين في جدية، وقد أخذ يؤكد ما يقوله بذراعه اليمنى التي لاحت أمام ناظري مثل مطرقة.

كان هام جادًّا تمامًا مثله. أجرؤ على القول إنهم كانوا على وشك قول الكثير عنها، لولا أنهم شعروا بالحرج بعد دخول ستيرفورث غير المتوقع، فقد رآني في الزاوية أتحدث مع اثنين من الغرباء. توقف ستيرفورث عن أغنية كان يغنيها، وراح يقول: «لم أكن أعلم أنك هنا، يا أيها الشاب كوبرفيلد». (لأنها لم تكن غرفة الزيارة المعتادة) وقد عبرناها في طريقنا للخروج.

لست متأكدًا مما إذا كنت أفتخر بصداقة ستيرفورث، أم أنني رغبت في أن أشرح له كيف صرت صديقًا لإنسان مثل السيد بيجوتي، لذلك قمت ناديته حين همَّ بالذهاب بعيدًا. لكني أقول، بتواضع الآن- يا إلهي، كيف أتذكر كل هذا بعد هذا الوقت الطويل!

«لا تذهب يا ستيرفورث، إذا سمحت. هذان اثنان من رجال المراكب في يارموث -شخصان طيبان للغاية- تربطهما صلة قرابة بمربيتي، وقد أتيا من جرافسند لرؤيتي».

قال ستيرفورث ملتفتًا نحونا: «آه، نعم، إنني سعيد برؤيتهما. كيف حالكما؟».

كان أسلوبه بسيطًا - كان أسلوبه ناعمًا وخفيفًا، ولكنه لم يكن مبتهجًا - ولم أزل أحسبه متسمًا بنوع من السحر. ما زلت أصدقه، بحكم هذه السمات وبما يتمتع به من حيوية ونشاط. كان صوته مبهجًا، تضفي عليه سمات وجهه بما فيها من ملامح وسيمة - على حد علمي - نوعًا من الجاذبية الفطرية (والتي أظن أن قلة من الناس يمتلكونها). لقد حمل سحرًا كان من الطبيعي الخضوع له، دون أن يستطيع أي إنسان الانفلات من أسره. لم يسعني إلا أن أرى مدى سعادتهما به، وكيف بدا أنهما فتحا له قلباهما في لحظة.

قلت: «يجب أن تخبرهم في المنزل، إذا سمحت، يا سيد بيجوتي، عندما ترسل هذه الرسالة، أن السيد ستيرفورث لطيف جدًّا معي، وأنني لا أعرف ماذا كنت لأفعل هنا من دونه».

قال ستيرفورث ضاحكًا: «هراء! يجب ألا تخبرهم بأي شيء من هذا القبيل».

فقلت: «أما يا سيد بيجوتي؛ إذا جاء السيد ستيرفورث إلى نورفك أو سافوك في أثناء وجودي هناك، فيمكنك الاعتماد عليَّ، لأنني سأحضره إلى يارموث -إذا سمحت لي- لرؤية منزلك. إنك لم ترَ مثل هذا المنزل

الرائع من قبل يا ستيرفورث. إنه منزل مصنوع من قارب!».

قال ستيرفورث: «مصنوع من قارب، أليس كذلك؟ إنه نوع المنازل المناسبة لملاح ماهر».

قال هام مبتسمًا: «حسنًا يا سيدي، إنه كذلك يا سيدي. إنك على حق أيها الجنرال الشاب! يا سيد ديفي الصغير، إن الجنرال على حق. إنه لملاح ماهر، مهارته واضحة كالشمس، هذا ما هو عليه بالفعل».

لم يكن السيد بيجوتي أقل سعادة من ابن أخيه، على الرغم من أن تواضعه منعه من الرد على مجاملة شخصية بصوت عالٍ، فقال بينما ينحني ثم يضحك، وقد أخذ يفرك نهايات منديل رقبته المنسدل على صدره: «حسنًا يا سيدي. أشكرك يا سيدي، شكرًا. إنني أبذل جهدي في دروب الحياة يا سيدي».

قال ستيرفورث: «إن أمهر الرجال لا يستطيعون فعل ما هو أكثر يا سيد بيجوتي». كان ستيرفورث قد عرف اسمه بالفعل.

قال السيد بيجوتي بينما يهز رأسه: «سأكمل دربي، وقد أدركت أنك تفعل الشيء نفسه يا سيدي، لقد أدركت أنك تقوم بعمل جيد - حسنًا! شكرًا يا سيدي. إنني مدين لك يا سيدي بهذا الترحيب. إنني رجل غليظ يا سيدي، لكنني مستعد - أو على أقل تقدير أتمنى أن أكون جاهزًا كما تعرف، لاستقبالك. إن منزلي ليس بالكبير لتفقده يا سيدي، لكنه ممتع وسنكون في خدمتك إذا جئت إلينا مع السيد ديفي لزيارته. إنني حلزون، نعم إنني كذلك». كان يقصد بالحلزون إشارة إلى كونه بطيئًا في التحرك بين الجمل، لأنه حاول متابعة كل جملة، وكانت لديه

طريقة ما يكمل بها الحديث مرة أخرى. استطرد قائلًا: «ولكني أتمنى لكما التوفيق، وأتمنى لكما السعادة».

ردد هام هذه المجاملة، وودعناهما بأحرّ ما يكون الوداع. كدت أميل للغاية في هذا المساء إلى التكلم مع ستيرفورث عن إيميلي الصغيرة، لكنني كنت خجولًا جدًّا من ذكر اسمها، وخائفًا جدًّا من ضحكه وسخريته. أتذكر أنني فكرت بقلق عارم واضطراب حول قول السيد بيجوتي إنها ستصير امرأة، لكنني قررت أن هذا القول لم يكن سوى محض كلام فارغ.

نقلنا المحار، أو «المُشهِّيات» كما تواضع وأسماها السيد بيجوتي، إلى غرفتنا من دون أن يلاحظنا أحد، وأعددنا عشاءً رائعًا في المساء. أما ترادلز، فلم يكن سعيدًا ليظفر به. لقد كان بالغ الأسى حتى أنه لم يُقبل على تناول العشاء بشهية مثل أي شخص آخر. أعياه سلطعون البحر وظهر مرضه في الليل، فصار ملازمًا لفراشه تمامًا. أخذ يتناول سوائل سوداء وحبوبًا زرقاء، إلى الحد الذي قال فيه ديمبل (كان والده طبيبًا) إنه يكفي لتقويض بنية الحصان. إلا أنه تلقى ضربًا بالعصا وعوقب بكتابة ستة فصول من العهد القديم لرفضه الاعتراف بما حدث.

أما ما تبقى من نصف العام فلم يزل خليطًا من ذكرياتي عن الصراع اليومي والنضال في حياتنا. ذكريات عن انقضاء الصيف وتغير الموسم، وما في كل صباح بارد نهب فيه من الفراش، ثم الرائحة الباردة والمنعشة في الليالي المظلمة عندما نغوص في الفراش مرة أخرى. ذكريات عن حجرة الدراسة المسائية المضاءة بشكل خافت من دون أن يتخللها دفء،

ثم قاعة الدراسة الصباحية التي لم تكن سوى آلة ترتجف. تناوب رائحة اللحم البقري المسلوق مع لحم البقر المشوي، وتناوب رائحة لحم الضأن المسلوق مع لحم الضأن المشوي، وروائح كتل الخبز والزبدة. ذكريات عن هيئة الكتب ذات الثنيات، والألواح المتشققة، وكتب النسخ الممزقة بالدموع، والعصا، والمسطرة، وقصاصات الشعر، وأيام الآحاد الممطرة، والحلوى، والمحيط القذر ملطخ بالحبر، يحيط بكل شيء.

أتذكر جيدًا؛ كيف بدأت فكرة الإجازات تغدو بعيدة، بعد أن بدت لي لفترة طويلة كما لو أنها بذرة جامدة، إلى أن أخذت تنمو وتقترب منا. كيف انتقلنا من حساب الشهور إلى عد الأسابيع ثم الأيام، وكيف بدأت أشعر بالخوف بعد ذلك من عدم إرسالي للبيت. علمت من ستيرفورث أنهم دعوني بالفعل، وأنه من المؤكد أنني سأعود إلى المنزل، إلا أنني شعرت بنذير شؤم لدرجة أنني تخيلت أنه قد تكسر ساقي قبل أن أعود. أتذكر كيف انقضى يوم الرجوع بسرعة، فصار أخيرًا، من الأسبوع بعد القادم إلى الأسبوع التالي، ثم من هذا الأسبوع إلى بعد الغد، ثم إلى الغد، ثم صار اليوم والليلة - فإذا بي داخل عربة يارموث، في طريقي إلى المنزل.

لقد غفوت كثيرًا داخل عربة يارموث، وقد انتابتني أحلام كثيرة غير متسقة تضمنت أشياء متنوعة. إلا أنني استيقظت على فترات متقطعة، وانتبهت أن الأرض خارج نافذة العربة لم تكن هي ملعب مدرسة سالم هاوس، والصوت الذي يتناهى إلى أذني لم يكن صوت السيد كريكل بينما يضرب ترادلز، ولكنه صوت الحوذي يضرب الخيول.

# الفصل الثامن

## عطلتي

## ذات أصيل خاص سعيد

وصلنا قبل انقضاء النهار إلى الفندق حيث توقفت العربة، ولم يكن الفندق نفسه الذي يعيش فيه صديقي النادل. نزلت في غرفة نوم صغيرة لطيفة، تعلو بابها رسمة دولفين. أعلم أنني كنت أشعر ببرودة بالغة؛ على الرغم من الشاي الساخن الذي قدموه لي، وجلوسي قبالة المدفأة في الطابق السفلي. كنت سعيدًا للغاية حين توجهت إلى سريري الذي يرتسم الدولفين على بابه، وسحبت بطانيات فندق الدولفين فوق رأسي، ورحت في سبات.

كان المتفق عليه أن يأتي السيد باركس الحمَّال، في الساعة التاسعة صباحًا. استيقظت في الثامنة، بينما أشعر بالدوار نتيجة قصر فترة نومي ليلًا، إلا أنني كنت على أتم الاستعداد قبل الموعد المحدد. استقبلني السيد باركس كما لو لم يمضِ على فراقنا آخر مرة سوى خمس دقائق لا غير، وكما لو أنني لم أغب عنه إلا بدخولي الفندق فقط للحصول على فكة لستة بنسات، أو شيء من هذا القبيل.

استقللت أنا وصندوقي العربة، فاتخذ الحوذي مجلسه، ثم سار الحصان الكسول بنا جميعًا بوتيرته المعتادة.

تحدثت إليه بعد أن حسبت أنه يريد محادثتي، قائلًا: «إنك تبدو في حالة جيدة جدًّا يا سيد باركس».

فرك السيد باركس خده بسواره، ثم نظر إلى طرف السوار كما لو كان يتوقع أن يجد بعض الاحمرار كأثر لهذه الحال الجيدة عليه، لكنه لم يقدم أي رد سوى هذا الفعل على هذه المجاملة.

قلت: «لقد أرسلت رسالتك يا سيد باركس، لقد كتبت إلى بيجوتي».

قال السيد باركس: «آه!».

بدا السيد باركس عابسًا، وقد أجاب في جمود.

سألته بعد قليل من التردد: «أليس هذا الفعل جيدًا يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس: «لماذا يكون جيدًا، نعم».

«هل الرسالة ليست جيدة؟».

قال السيد باركس: «الرسالة كانت صحيحة بما فيه الكفاية، ربما، لكنها تنتهي عند هذا الحد».

لم أفهم ما كان يقصده، كررت سؤالي بفضول: «هل وصلت إلى النهاية يا سيد باركس؟».

أوضح بينما ينظر إليَّ بطرف عينه: «لم تؤثر بشيء. لم تأتِ الإجابة».

كانت هذه الإجابة جديدة بالنسبة إليَّ، فاتسعت عيناي ورحت أقول: «هل ثمة إجابة متوقعة يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس بينما يوجه نظره ناحيتي ببطء مرة أخرى: «عندما يقول الرجل إنه راغب، فنقول، ونتوقع بقدر ما، أن هذا الرجل ينتظر الحصول على إجابة».

«حسنًا يا سيد باركس».

قال السيد باركس بينما يحول نظرات عينيه إلى أذني حصانه: «حسنًا؛ إن هذا الرجل ظل ينتظر إجابة منذ ذلك الحين».

«هل أخبرتها بذلك يا سيد باركس؟».

راح يفكر في الأمر السيد باركس بينما أخذ يتمتم قائلًا: «لا... لا، لم تقع بيننا أي محادثة لأذهب إليها وأخبرها بذلك. لم أتحدث معها ولو بست كلمات كاملة، ولن أقول لها ذلك الآن».

قلت له في تردد: «هل تريدني أن أقوم بالأمر يا سيد باركس؟».

قال السيد باركس بينما ينظر نحوي نظرة أخرى بطيئة: «قد تخبرها، إذا أردت ذلك، فتقول إن باركس كان ينتظر منكِ الإجابة. يقول لكِ يا... ما اسمها؟».

«أتسأل عن اسمها؟».

قال السيد باركس بإيماءة من رأسه: «نعم!».

«بيجوتي».

قال السيد باركس: «هل هو لقبها المسيحي؟ أم أنه اسمها الطبيعي؟».

«آهٍ، إنه ليس اسمها المسيحي. إن اسمها المسيحي هو كلارا».

قال السيد باركس: «هل هذا صحيح؟».

بدا أنه وجد مصدرًا هائلًا للتفكير في هذا الأمر، فجلس يفكر ويصفر لبعض الوقت.

استطرد بعدها قائلًا: «حسنًا! إنه يقول لكِ يا بيجوتي إن باركس ينتظر إجابة. ربما تقول لك «عن أي شيء أجيب؟». ستقول لها: «على ما قلته لكِ». ستسألك: «ما هو؟». ستقول لها: «إن باركس راغب»».

كان هذا الاقتراح شديد البراعة من السيد باركس مصحوبًا بنكزة أوجعتني من مرفقه إلى جانبي. انحنى بعد ذلك فوق حصانه بطريقته المعتادة، ولم يعاود الحديث في الأمر. إلا أنه تناول بعد نصف ساعة، قطعة من الطباشير من جيبه، وأخذ يكتب داخل مظلة العربة، «كلارا بيجوتي» - كتب اسمها على ما يبدو كملاحظة خاصة.

آهٍ، يا له من شعور غريب أن أعود إلى المنزل بعد غياب طويل عنه. رحت أنظر إلى كل شيء أمر به، فأتذكر المنزل القديم السعيد، الذي كان بمثابة حلم لا يسعني أن أحلم به مرة أخرى. أذكر أيامًا كنت فيها أنا وأمي وبيجوتي مجتمعين، دون أن يُفرِّق بيننا دخيل. لاحت هذه الأيام أمامي وقد أحزنتني ذكراها طوال الطريق، إلى الحد الذي جعلني غير متأكد من أنني سأسعد بالرجوع - بالتأكيد ليس لأنني أُفضِّل أن

أبقى بعيدًا، أو أنني سأنسى الأمر في صحبة ستيرفورث - فها أنا في طريق العودة إلى منزلي. وصلت إلى المنزل سريعًا، حيث تتدلى أشجار الدردار القديمة العارية تطوح أياديها في الهواء الشتوي القاتم، بينما تلاشت أعشاش الطيور القديمة مع الريح.

وضع الحوذي صندوقي عند بوابة الحديقة وتركني. مشيت على طول الطريق المؤدي إلى المنزل، وألقيت نظرة خاطفة على النوافذ، بينما أرتعب في كل خطوة من رؤية السيد مردستون أو الآنسة مردستون يطلان من إحداها. لم يظهر أي وجه. وصلت إلى البيت، بعد أن عرفت كيفية فتح الباب قبل حلول الظلام، فلم أطرق الباب، ودخلت بخطوات هادئة على مهل.

يعلم الله كيف استيقظت داخلي ذاكرة الطفولة، حين سمعت صوت أمي في الصالون القديم، عندما وطأت قدماي القاعة. كانت تغني بنبرة منخفضة. يخيل لي أنني استلقيت بين ذراعيها، وسمعتها تغني لي حين كنت طفلًا. كانت هذه النغمات جديدة على مسامعي، ومع ذلك كان وقعها قديمًا جدًّا حتى إنها ملأت قلبي وأسرته، كما لو كانت صديقًا حميمًا عاد بعد طول غياب.

كنت على يقين، من الطريقة الموحشة والبائسة التي تتمتم أمي بها أغنيتها؛ إنها تجلس وحيدة. دخلت الغرفة في هدوء. أبصرتها جالسة إلى جانب النار، تُرضع طفلًا صغيرًا بينما تضع يده الصغيرة على عنقها. كانت عيناها تنظران إلى وجهه، وقد راحت تغني له. تأكدت أنني على حق حتى الآن، فلم يكن لديها رفيق آخر.

ناديتها، فهمَّت واقفة، ثم صرخت، لكنها عندما أبصرتني نادتني قائلة: «عزيزي ديفي، يا ولدي!». تجاوزت منتصف الغرفة واقتربت لمقابلتي، ثم ركعت على الأرض وأخذت تُقبِّلني، ووضعت رأسي بالقرب من هذا المخلوق الصغير الذي كان يعشش على صدرها، وقد وضع يده على شفتي.

تمنيت الموت. كنت أتمنى لو أنني متُّ حينها، بعد هذا الشعور الذي اجتاح قلبي! لم أتمنَّ يومًا أن تُطلق روحي إلى السماء أكثر مما تمنيته ذاك الحين.

قالت أمي وهي تداعبني: «إنه أخوك يا ديفي، يا بني الجميل، يا طفلي المسكين»، ثم أخذت تزيد من تقبيلي، وتعانقني. كانت على هذه الحال حتى جاءت بيجوتي مهرولة، وانبطحت جانبنا أرضًا، حتى كادت تجن، وقد بقينا على هذه الحال لربع ساعة كاملة.

يبدو أنهم لم يتوقعوا وصولي قريبًا، حيث أوصلني الحوذي قبل وقت عودتي المعتاد. وبدا أيضًا أن السيد مردستون والآنسة أخته كانا قد خرجا في زيارة للحي، وأنهما لن يعودا قبل حلول الليل. لم أكن أتمنى شيئًا كهذا قَطُّ. إذ لم أكن أحسب قَطُّ أنه من الممكن أن يكون ثلاثتنا معًا من دون إزعاج مرة أخرى، ولذا فقد شعرت في ذاك الوقت أن الأيام الخوالي قد عادت إلينا.

تناولنا الغداء معًا بجانب المدفأة. كانت بيجوتي حاضرة لخدمتنا، لكن أمي لم تسمح لها بالقيام بذلك، وجعلتها تتناول الغداء معنا. وُضِع أمامي طبقي القديم، الذي ترتسم عليه سفينة ناشرة شراعها كاملًا. كانت

بيجوتي قد حفظته طوال الوقت الذي كنت فيه بعيدًا في مكان ما. قالت إنها لم تكن لترضى أن تكسر الطبق أو تُفرِّط فيه ولو مقابل مائة جنيه. وضعت أمامي كذلك كوبًا قديمًا يعلوه اسم ديفيد، وسكيني وشوكتي الصغيرة القديمة والتي صارت لا تقطع شيئًا.

جلسنا على الطاولة، فحسبت أنها لحظة مناسبة لإخبار بيجوتي عن السيد باركس، لكنها راحت تضحك قبل أن أنتهي مما يجب أن أقوله لها، وألقت بمئزرها على وجهها تخفيه.

قالت أمي: «ما الأمر يا بيجوتي؟».

زادت بيجوتي من ضحكاتها أكثر، وأمسكت مئزرها بإحكام على وجهها بينما حاولت أمي إزاحته بعيدًا، بينما ظلت جالسة كما لو أن رأسها محشورًا في كيس.

قالت أمي ضاحكة: «ماذا تفعلين أيتها المخلوقة الحمقاء؟».

صاحت بيجوتي: «آهٍ، يا لهذا الرجل! إنه يريد الزواج مني».

قالت أمي: «سيكون مناسبًا لكِ للغاية، أليس كذلك؟».

أجابت بيجوتي: «ياااا! لا أعرف. لا تسأليني. لن أريده ولو كان مصنوعًا من الذهب. ولن أريد أى شخص آخر».

قالت أمي: «إذن، لماذا لا تخبرينه بذلك، أيتها السخيفة؟».

ردت بيجوتي بينما تتطلع إلينا من مئزرها: «أخبره بذلك! إنه لم يقل لي كلمة واحدة عن الأمر، ومن الأفضل أنه لم يقل. فإذا تجرأ بقول مثل هذه العبارات لي، فإنني سأصفعه على وجهه».

كان وجهها -على حد ظني- أكثر حمرة من أي وقت مضى، لكنها غطته مرة أخرى. لم تكن تظهر وجهها سوى بضع لحظات في كل مرة، بينما غرقت في نوبة ضحك شديدة، وبعد نوبتين أو ثلاث من تلك النوبات، واصلت تناول الغداء.

لاحظت أن أمي، على الرغم من ابتسامتها حين نظرت إلى بيجوتي، صارت أكثر جدية ووقارًا. لاحظت تغيرها منذ البداية. كان وجهها في غاية السكينة، لكنه بدا شاحبًا ومهمومًا للغاية. أما يدها فصارت رفيعة وبيضاء لدرجة أنها بدت لي شفافة. أما التغير الأكبر الذي أشير إليه الآن بالإضافة إلى ما سبق، فكان في طريقتها، التي صارت أكثر قلقًا واضطرابًا. تحدثت أخيرًا بعد أن بسطت يدها إلى يد خادمتها العجوز في حنان، قائلة:

«يا عزيزتي بيجوتي، هل ستتزوجين؟».

ردت بيجوتي محدقة فيها قائلة: «أنا يا سيدتي؟ باركك الله، لا!».

قالت أمي برقة: «ليس بعد الآن؟».

صرخت بيجوتي: «أبدًا».

أمسكت أمي بيدها وقالت:

«لا تتركيني يا بيجوتي. ابقي معي. ربما لن يدوم الأمر طويلًا. كيف سأتصرف من دونك؟!».

صرخت بيجوتي: «أنا أتركك يا عزيزتي! أنتِ أغلى عندي من العالم كله. لماذا تفكرين هكذا؟ ما الذي وضع في رأسك الصغير هذا

الكلام السخيف؟» - كانت بيجوتي، تتحدث إلى أمي في بعض الأحيان كما لو أنها طفلة صغيرة.

لكن أمي لم تجب إلا بشكرها، ثم واصلت بيجوتي حديثها بهذه الطريقة الخاصة التي تعودتها.

«أنا أتركك؟ أحسب أنني أكثر الناس معرفة بحالي. بيجوتي لن تذهب بعيدًا عنكِ. أود أن أقبض عليها لو فعلت ذلك!». أكملت بيجوتي بينما تهز رأسها وتطوي ذراعيها: «لا، لا، لا. ليست هي من تفعل ذلك يا عزيزتي. لا يعني ذلك أنه لا توجد بعض القطط التي ستسعد للغاية إن رحلت عنكِ بيجوتي، لكنها لن تتركها تنعم بذلك. يجب أن تتكبد العناء. سأبقى معكِ حتى أصير امرأة عجوزًا غريبة الأطوار، بل حتى أصير صماء، وشديدة العرج، وفي كامل العماء، ثم أصير متلعثمة للغاية بسبب سقوط أسناني، بحيث لا أصير ذات فائدة على الإطلاق، فإن لم أجد نفعًا من وجودي، فإني سأذهب إلى ديفي، وأطلب منه أن يأخذني معه».

قلت: «وإنني يا بيجوتي، سأسعد برؤيتك، وسأرحب بكِ كملكة».

صرخت بيجوتي قائلة: «بارك الله قلبك الغالي، أعلم أنك ستفعل ذلك».

كانت بيجوتي قد قبَّلتني قبل إجابتها؛ تقديرًا لما أكننته من حسن استقبالي لها. غطت بعد ذلك رأسها بمئزرها مرة أخرى، ثم عاودت الضحك على عرض السيد باركس. حملت بعدها الطفل من مهده الصغير وأخذت تهدهده. نظفت طاولة العشاء، ثم دخلت مرتدية

طاقيتها، ومصطحبة صندوق عملها، ومازورة القياس، وقليلًا من الشمع، وكل أدواتها التي اعتدت دومًا رؤيتها.

جلسنا حول نار المدفأة ورحنا نتحدث في سعادة. أخبرتهم كم كان السيد كريكل قاسيًا، فأشفقوا عليَّ جدًّا. أخبرتهم عن ستيرفورث الرائع، وكيف كان رفيقًا بي ومراعيًا لحالي، ثم قالت بيجوتي إنها تتمنى لو تمشي عشرات الأميال لرؤيته. حملت الطفل الصغير بين ذراعي عندما استيقظ، وأخذت أدلـله بمحبة. عاد إلى نومه مرة أخرى، فتسللت بالقرب من أمي كما هي عادتي القديمة التي انقطعت قبل هذه اللحظة لفترة طويلة. جلست وقد طويت ذراعي ليحتضن خصرها، بينما أسندت وجنتي الصغيرة الحمراء على كتفها، وشعرت مرة أخرى بشعرها الجميل يتدلى فوقي -كان كما أتذكره مثل جناح الملائكة- وصرت في غاية السعادة حقًّا.

مكثت جالسًا على هذا النحو، أنظر إلى نار المدفأة، فأتخيل صورًا تتشكل من الفحم الملتهب. رحت أظنني لم أسافر بعيدًا، وأن السيد مردستون والآنسة أخته كانا يتمثلان لي في هذه الصور، وأنهما سوف يختفيان حالما تخبو النار، وأن لا شيء حقيقي في كل ما تخيلته، سوى أمي، وبيجوتي، وأنا.

كانت بيجوتي معتكفة بعيدًا على إصلاح جورب، ما دامت تستطيع رؤيته. جلست وبسطته على يدها اليسرى مثل القفاز، بينما تناولت إبرتها بيدها اليمنى، تستعد لحياكة غرزة أخرى كلما توقدت النيران بضوئها.

لا أستطيع أن أتخيل صاحب هذه الجوارب التي كانت بيجوتي تحوكها دائمًا، أو من أين يمكن أن يأتي مثل هذا الإمداد الثابت من الجوارب الذي يحتاج إلى رتق. يبدو أنها ظلت تعمل دائمًا منذ طفولتي المبكرة في هذا النوع من الحياكة بالإبرة، ولم تكن قَطُّ تسنح لها الفرصة لحياكة أي أنواع أخرى.

قالت بيجوتي التي كانت تتساءل أحيانًا عن بعض الموضوعات غير المتوقعة: «أتساءل، ما الذي حدث لعمة ديفي الكبرى؟».

قالت أمي وقد انتبهت من غفلتها: «يا الله، يا بيجوتي! ما هذا الهراء الذي تتحدثين عنه؟!».

قالت بيجوتي: «حسنًا، لكنني أتساءل حقًّا يا سيدتي».

سألتها أمي قائلة: «ما الذي يستدعي مثل هذه المرأة في رأسكِ؟ ألا يوجد أي شخص آخر في العالم لتفكري فيه؟».

قالت بيجوتي: «لا أعرف كيف تخطر بذهني، إلا إذا كان غبائي هو السبب، فرأسي لا يمكنه أبدًا انتقاء واختيار من يفكر فيه. يأتون ويذهبون، أو لا يأتون ولا يذهبون كما يحلو لهم. أتساءل عن مصيرها».

عادت أمي تقول: «كم أنتِ سخيفة يا بيجوتي! قد يحسب المرء أنكِ تريدين زيارة ثانية منها».

صرخت بيجوتي قائلة: «معاذ الله!».

قالت أمي: «حسنًا، لا تتحدثي عن مثل هذه الأشياء المقلقة، فليحفظنا الله. إن الآنسة بيتسي تعيش منعزلة في كوخها بجوار البحر،

وستبقى بلا شك هناك. ليس من المحتمل في جميع الأحوال أن تزعجنا مرة أخرى».

عقَّبت بيجوتي وهي ساهمة تقول: «لا! لا، هذا غير محتمل على الإطلاق... إني أتساءل، إذا ماتت، فهل ستترك لديفي أي شيء؟».

ردت أمي: «ارحمني يا الله! يا لكِ من امرأة تخرف يا بيجوتي، تعلمين أنها كانت مستاءة من ولادته، كما لو أنها لم ترد لهذا العزيز المسكين القدوم على الإطلاق».

ألمحت بيجوتي قائلة: «أفترض أنها لن تميل إلى مسامحته الآن».

قالت أمي في حدة: «لماذا تميل إلى مسامحته الآن؟».

قالت بيجوتي: «أعني أنه الآن قد صار لديه أخ».

بدأت أمي في البكاء على الفور، واندهشت لجرأة بيجوتي على قول شيء من هذا القبيل.

قالت: «كما لو أن هذا المسكين الصغير البريء قد تسبب في مهده في أي ضرر لكِ أو لأي شخص آخر، يا لكِ من غيورة! كان من الأفضل لكِ أن تذهبي فتتزوجي من السيد باركس، تزوجي هذا الحوذي. لمَ لا؟».

قالت بيجوتي: «لو فعلت ذلك لأسعدت الآنسة مردستون بزواجي هذا».

أثنت أمي تقول: «يا له من تصرف سيئ يا بيجوتي! إنكِ تغارين من الآنسة مردستون كما يفعل أي مخلوق سخيف. لا تريدين سوى

الاحتفاظ بالمفاتيح، وامتلاك زمام كل الأشياء، على ما أظن؟ يجب ألا أتفاجأ إذا كننتِ هذه الغيرة. إنكِ تعلمين أنها لا تفعل ذلك إلا بدافع من الود والنيات الطيبة! إنكِ تعرفين أنها تقوم بالأمر يا بيجوتي - إنكِ تعرفين الأمر جيدًا».

تمتمت بيجوتي شيئًا ما فهمت منه أنها تقول: «يا لها من أسوأ النيات!». وشيء آخر يشير إلى وجود الكثير من النيات غير الطيبة.

قالت أمي: «إنني أفهم ما تعنينه، إنكِ تخطئين في تقدير كل شيء. إنني أفهمك تمامًا يا بيجوتي. تعرفين أنني أفهمك، وأتساءل كيف لا يحمر وجهك خجلًا مما تقولين! لنفند الأمر نقطة نقطة: إن الآنسة مردستون هي النقطة الرئيسة الآن يا بيجوتي، ولن تهربي من أمرها. ألم تسمعيها تقول، أكثر من مرة، إنها تظن أنني لا أستطيع تدبر الأمور، وإنني أيضًا... أ... أ...».

أضافت بيجوتي قائلة: «جميلة».

أكملت أمي حديثها نصف ضاحكة وراحت تقول: «حسنًا، وإن كانت سخيفة حقًّا للحد الذي يجعلها تقول ذلك، فهل يمكن أن أُلام على ذلك؟».

قالت بيجوتي: «لم يقل أحد إنكِ ستُلامين».

راحت أمي تقول: «لا، آمل ألا يلومني أحد في الواقع! ألم تسمعيها تقول أكثر من مرة، إنها كانت ترغب لهذا السبب في تخفيف قدر كبير من المتاعب؟ إنها تظن أنني لست مناسبة لإدارة الحسابات، وإنني

أعرف حقًّا أنني لست مناسبة لهذا الأمر. ألا تستيقظ مبكرًا وتذهب للنوم متأخرًا، وتظل تتجول ذهابًا وعودة باستمرار - فتتفقد جميع الأشياء، وتراقب كافة الأماكن، فتطمئن على الفحم وعلى المخازن وعلى أماكن أخرى لا أعرفها؟ ما تقولينه لن يصير مقبولًا أبدًا... وهل تقصدين التلميح بأن هذا العمل كله لا يشي بنوع من الإخلاص؟».

قالت بيجوتي: «إنني لا ألمح إلى شيء على الإطلاق».

عادت أمي تقول: «إنكِ تلمحين يا بيجوتي. إنكِ لا تفعلين أي شيء آخر، باستثناء هذا الشيء. إنكِ تلمحين دائمًا. إنكِ تستمتعين بهذا الأمر. وإذا تحدثت عن نيات السيد مردستون الطيبة».

قالت بيجوتي: «لم أتحدث عنها قَطُّ».

أردفت أمي قائلة: «لا يا بيجوتي؛ إنكِ تلمحين. هذا ما قلته لكِ الآن. إن هذا أسوأ ما فيكِ. سوف تلمحين. إن هذا ما قلته لكِ منذ لحظات، إنني أفهمك، وأنتِ تدركين أنني فهمتك. تتحدثين عن النيات الحسنة للسيد مردستون، وتتظاهرين بالاستخفاف بها -لأنني لا أحسب أنكِ تستخفين بها حقًّا من أعماق قلبك يا بيجوتي- يجب أن تقتنعي تمامًا بمدى روعتها مثلما أقتنع بها تمامًا، وكيف أنها المحرك لكل شيء يفعله. أما إذا بدا صارمًا مع شخص معين على وجه العموم يا بيجوتي - إنكِ تفهمين مقصدي، وإنني متأكدة من أن ديفي يفهمني، فأنا لا ألمح إلى أي شخص من الحاضرين - فذلك فقط لأنه مقتنع بأن الأمر سيعم بالفائدة على شخص بعينه. وإنه من الطبيعي أن يحب شخصًا معينًا لأجلي؛ ولا يعمل شيئًا سوى لمصلحة هذا الشخص. إنه أفضل

مني في الحكم على الأمور، لأني أعلم جيدًا أنني مخلوقة ضعيفة، واهنة وساذجة، أما هو فرجل قوي ورزين وجاد».

راحت أمي تقول، بينما تذرف الدموع، وتنسال على وجهها كما هي طبيعتها الحنونة: «إنه يقسو على نفسه كثيرًا من أجلي؛ وليس عليَّ سوى أن أصير شاكرة جدًّا له ومنصاعة تمامًا له ولو في أفكاري. إذا لم أكن على هذه الحال يا بيجوتي، فإنني سأشعر بالقلق وسأدين نفسي، وستراود الشكوك قلبي، فلا أعرف ماذا أفعل».

جلست بيجوتي وقد أسندت ذقنها على قدم الجورب بينما تنظر نحو النار في صمت.

تحدثت أمي بعد أن غيرت نبرتها قائلة: «هيا يا بيجوتي، دعينا لا نتشاجر معًا، لأنني لا أستطيع تحمل الشجار. إنني متأكدة من أنكِ صديقتي الصدوقة، إذا كانت لي أي صديقة في هذا العالم. إنني حين أدعوكِ مخلوقة سخيفة، أو شيئًا مزعجًا، أو أي شيء من هذا القبيل يا بيجوتي، فإنني لا أعني به سوى أنكِ صديقتي المفضلة. هكذا كنتِ دائمًا، منذ الليلة التي اصطحبني فيها السيد كوبرفيلد إلى المنزل لأول مرة، وخرجتِ إلى البوابة لاستقبالي».

لم تكن بيجوتي بطيئة الاستجابة، فأكدت عهد الصداقة بأن منحتني واحدة من أفضل معانقاتها. أحسب أنني أدركت بعض اللمحات عن الوجه الحقيقي لهذه المحادثة في ذلك الوقت. إذ إنني على يقين الآن، أن هذه المخلوقة الطيبة قد استدعت هذا الحديث واشتركت فيه، لتتيح لأمي قدرًا تُنفِّس فيه عن نفسها عبر هذا الحوار الملخص الصغير

المتناقض الذي انغمست فيه. كان الأمر فعالًا، فإنني أتذكر كيف بدت أمي مرتاحة أكثر بقية المساء، وقد صارت بيجوتي تراقبها بدرجة أقل.

تناولنا الشاي، وأبعدنا الرماد عن المدفأة، ثم أوقدنا الشموع. قرأت بيجوتي فصلًا من كتاب التماسيح، على غرار الأيام الخوالي - كانت قد أخرجته من جيبها؛ لا أعرف ما إذا كانت قد احتفظت به في جيبها منذ ذلك الحين أم لا - ثم تحدثنا عن مدرسة سالم هاوس، مما أعادني مرة أخرى للحديث عن ستيرفورث، الذي كان أعظم مجال لحديثي. كنا سعداء أيما سعادة. أما ذاك المساء، فلن أنساه أبدًا إذ كان الأخير، قبل أن تنمحي هذه السعادة من حياتي.

كادت الساعة تقترب من العاشرة حين سمعنا صوت عجلات العربة، فنهضنا جميعًا، ثم قالت أمي على عجل إن الوقت صار متأخرًا جدًّا، وإن السيد مردستون والآنسة أخته يفضلان نوم الأولاد في ساعات مبكرة، فربما من الأفضل أن آوي للفراش حتى أنام. قبَّلتُها، ثم صعدت مباشرة إلى الطابق العلوي مهتديًا بشمعتي، قبل أن يصلا. خيل إليَّ خيالي الطفولي، بينما أصعد إلى غرفة النوم أنني في طريق سجني، وأن مجيئهما قد جلب إلى المنزل هبة باردة من الهواء وقد طيَّر شعورنا القديم المألوف مثل ريشة في مهب الريح.

شعرت بقلق من فكرة نزولي لتناول الإفطار في الصباح، لأنني لم أرفع عيني إلى السيد مردستون منذ اليوم الذي ارتكبت فيه جرمي الذي لا يُنسى. نزلت على الرغم من ذلك، كان الأمر واجبًا على كل

الأحوال، وقد نزلت بعد أن تراجعت مرتين أو ثلاث مرات من منتصف الطريق، فقد ركضت عائدًا على أطراف أصابعي إلى غرفتي كثيرًا، إلى أن تجرأت على الدخول إلى الصالون.

كان السيد مردستون يقف أمام النار مديرًا ظهره إليها، بينما كانت الآنسة مردستون تعد الشاي. نظر إليَّ في ثبات عندما دخلت، لكنه لم يظهر أي علامة على أنه عرفني على الإطلاق. اقتربت منه بعد لحظة من الارتباك وقلت: «أستميحك عذرًا يا سيدي. إنني آسف جدًّا على ما فعلته، وآمل أن تسامحني».

أجاب قائلًا: «إنني سعيد لسماع أسفك يا ديفيد».

كانت اليد التي ناولني إياها هي اليد التي عضضتها. لم أستطع منع عيني من التركيز للحظة على بقعة حمراء عليها، لكنها لم تظل متوهجة كما كانت من قبل، ما لبثت بعدها أن رأيت تعبيرًا شريرًا يرتسم على وجهه.

قلت للآنسة مردستون: «كيف حالك يا سيدتي؟».

تنهدت الآنسة مردستون، وناولتني ملعقة لعلبة الشاي بدلًا من أن تبسط إليَّ أصابعها، وراحت تقول: «آه، يا عزيزي! ما مدة العطلة؟».

«شهر يا سيدتي».

«متى يبدأ احتسابه؟».

«من اليوم سيدتي».

قالت الآنسة مردستون: «آهٍ! إذن ها قد مر يوم من أيام العطلة».

ظلت تحسب أيام الإجازة على هذا النحو، وأخذت تتحقق كل صباح من انقضاء يوم من أيام العطلة بالطريقة نفسها تمامًا. راحت تعد الأيام بعبوس حتى وصلت إلى اليوم العاشر. صارت الأيام المتبقية للعطلة تتكون من رقمين، فكانت أكثر تفاؤلًا، ومع مرور الوقت ازدادت مرحًا.

أما يومي الأول فلم ينقضِ إلا بعد أن اتهمتني بسوء الطالع. على الرغم من أنها لم تكن ممن ينتبه لمثل هذا التشاؤم بشكل عام، فإنها كانت في حالة من الذعر البالغ. كنت قد دخلت الغرفة حيث جلست؛ هي وأمي والطفل (الذي كان عمره لم يتجاوز بضعة أسابيع فقط). كان الطفل مستلقيًا في حجر أمي، فحملته بحذر شديد بين ذراعي. فإذا بالآنسة مردستون وقد أطلقت صرخة مدوية؛ جعلتني أوشك على إسقاط الطفل من بين يدي.

صرخت أمي: «عزيزتي جين».

صاحت الآنسة مردستون: «يا إلهي يا كلارا، هل ترين؟».

قالت أمي: «ماذا أرى يا عزيزتي جين؟ أين؟».

صرخت الآنسة مردستون: «لقد أخذه. الصبي أخذ الطفل».

صارت متصلبة من شدة الفزع. لكنها مطت نفسها لتقترب من وجهي، وتنتزع الطفل من بين ذراعي، ثم فقدت وعيها. اشتد بها الإعياء للحد الذي اضطرهم إلى إعطائها كأسًا من نبيذ الكرز. لقد منعتني تمامًا، بعدما أفاقت، من لمس أخي بعد هذه اللحظة، لأي ذريعة مهما كانت. أما أمي المسكينة، فلم تستطع إلا أن تؤيدها، وإن كانت تتمنى

خلاف ذلك، إلا أنها أكدت بخنوع، قائلة: «لا شك إنكِ على حق يا عزيزتي جين».

صار ثلاثتنا معًا في مناسبة أخرى، وقد كان هذا الطفل العزيز نفسه معنا - لقد كان عزيزًا حقًّا عليَّ، من أجل والدتنا. تسبب الطفل البريء في دخول الآنسة مردستون في حالة من الهياج. كانت أمي قد قالت، بعدما أخذت تنظر إلى عيني الوليد الملقى في حجرها:

«ديفي، تعالَ إلى هنا» وراحت أمي تنظر إليَّ.

رأيت الآنسة مردستون تضع حبات عقدها على الأرض، بينما راحت أمي تقول بلطف: «إنني متأكدة من أنهما متشابهان تمامًا. أظن أنهما يشبهاني. أحسب أن لون أعينهما قد ورثاه مني. إنهما متشابهان بشكل رائع».

قالت الآنسة مردستون: «ما الذي تتحدثين عنه يا كلارا؟».

تراجعت أمي عن حديثها، بعد أن اندهشت قليلًا من النغمة القاسية لهذا الاستفسار، وراحت تقول: «عزيزتي جين، إنني أجد أن عيني الطفل وعيني ديفي متماثلتان تمامًا».

قالت الآنسة مردستون بينما تنهض من مجلسها غاضبة: «يا كلارا، إنكِ أحيانًا تبدين مغفلة بلا شك».

اعترضت أمي قائلة: «عزيزتي جين».

قالت الآنسة مردستون: «مغفلة بلا شك. مَن غيرك يمكن أن يقارن ابن أخي بطفلك؟ إنهما ليسا متشابهين على الإطلاق. إنهما على عكس

ذلك بالضبط. إنهما مختلفان تمامًا من جميع النواحي. آمل أن يظلا مختلفين. لن أجلس هنا، وأستمع إلى مثل هذه المقارنات». خرجت بعدها، ودفعت الباب من وراءها.

باختصار، لم أكن مقبولًا عند الآنسة مردستون. باختصار، لم أكن مقبولًا هناك عند أي شخص، ولم أكن راضيًا عن نفسي كذلك. لم يتمكن الذين أحبوني من إظهار محبتهم لي، أما الكارهون فقد أظهروا بغضهم بوضوح شديد للحد الذي جعلني أشعر أنني أبدو دائمًا مقيدًا وبائسًا ومملًّا.

شعرت أنني أضايقهم بالمثل كما يفعلون. كنت أدخل إلى الغرفة التي يتواجدون بها، حيث يتحدثون معًا وقد بدت أمي مبتهجة، فإذا بسحابة من القلق تغزو وجهها منذ لحظة دخولي. أما إذا كان السيد مردستون في أفضل حالات الدعابة، فإن دخولي كان يغير من حالته. إذا كانت الآنسة مردستون في أسوأ حالاتها، فإن قدومي يضاعف من استيائها. صارت عندي رؤية واضحة لأدرك أن أمي هي الضحية دائمًا، فقد كانت تخشى التحدث معي أو إبداء الود لي؛ خشية أن تسبب لهم إساءة من جراء طريقتها الودودة معي، وخشية أن تتلقى محاضرة بعد ذلك عن دورها. كما أن مخاوفها من أفعالي التي قد تتسبب في إهانتهما -لا من إهانتي وحسب- لم تنقطع قَطُّ. فلم تلبث تراقب مظهرهما بقلق إذا تحركت. عقدت العزم على إبقاء نفسي بعيدًا عن طريقهما قدر المستطاع. قضيت العديد من ساعات الشتاء أستمع إلى صوت دقات ساعة الكنيسة، بينما أجلس وحيدًا في غرفة نومي البائسة، ملتحفًا

بمعطفي الصغير، منكفئًا على كتاب.

كنت أذهب في المساء إلى بيجوتي، فأجلس أحيانًا معها في المطبخ. طاب لي المكان هناك، ولم يراودني خوف من التصرف على سجيتي. إلا أن هذا التصرف لم يوافق عليه أعضاء الصالون. لم يلبث أن دفعهما شعورهما بالسخط إلى منعي. صرت محتجزًا بعد أن أكدا ضرورة ملازمتي لأمي، لتقوِّم سلوكي وتربيتي، فلم يعد من المسموح لي أن أتغيب أو أخلو بنفسي.

قال السيد مردستون بعد انتهاء غداء أحد الأيام بينما كنت في طريقي إلى مغادرة الغرفة كالمعتاد: «يا ديفيد، يؤسفني أن ألاحظ أنك متجهم كئيب في تصرفاتك».

قالت الآنسة مردستون: «إنه عابس كالدب».

وقفت بلا حراك، مطأطأ الرأس.

قال السيد مردستون: «الآن يا ديفيد، إن الطبع العنيد المتجهم هو الأسوأ من بين جميع الطباع».

قالت أخته: «أما هذا الصبي، فإن سلوكه العنيد هو الأكثر سوءًا من بين جميع السلوكيات التي رأيتها على الإطلاق. أحسب أنكِ لاحظت سلوكه يا عزيزتي كلارا، أليس كذلك؟».

قالت أمي: «أستميحكِ عذرًا يا عزيزتي جين، ولكن هل أنتِ متأكدة تمامًا من أمره -إنني متأكدة من أنكِ ستعذرينني يا عزيزتي جين- هل تفهمين ديفي؟».

عادت الآنسة مردستون تقول: «إنني أشعر بخجل من نفسي إلى حد ما يا كلارا، إذ لم أستطع فهم الصبي أو أي صبي غيره. إنني لا أصرح بأنني عميقة الفهم، لكني أفهم ما تمليه الفطرة السليمة».

أردفت أمي قائلة: «لا شك في ذلك يا عزيزتي؛ إن فهمك قوي جدًّا».

قاطعتها الآنسة مردستون غاضبة: «آهٍ يا عزيزتي، لا! أرجوكِ لا تقولي ذلك يا كلارا».

استأنفت أمي كلامها: «لكنني متأكدة مما قلت. يدرك الجميع ذلك. إنني أستفيد للغاية من تفكيرك بنفسي، بطرق شتى - على الأقل يجب أن أستفيد من تفكيرك - بحيث لا يمكن لأحد أن يقتنع بكلامك أكثر مني، ولذلك فإنني أتحدث على استحياء بالغ يا عزيزتي جين، أؤكد لكِ ذلك».

ردت الآنسة مردستون، بينما تنسق الأساور حول معصميها، قائلة: «لنفترض أنني لا أفهم الصبي يا كلارا، بل لنتفق، إذا سمحتِ، أنني لا أفهمه على الإطلاق. وأنه أعمق بكثير من أن أفهمه بنفسي. أما بصيرة أخي فقد تخترق أسبار شخصيته وطباعه. وأحسب أن أخي كان يتحدث بشأن هذا الموضوع عندما قاطعته - بشكل لم يكن لائقًا».

قال السيد مردستون بصوت منخفض ونبرة جادة: «أظن يا كلارا، أن ثمة من يحكمون في هذا الأمر بصورة أفضل منكِ وبانفعال أقل».

ردت أمي متلعثمة: «يا إدوارد، إنك أفضل من يحكم على الأمور جميعها. أنت وجين كلاكما سيحكمان أفضل مني. إنني لم أقل سوى...».

أجاب: «إنكِ لم تقولي سوى أقوال واهية ومن دون مراعاة لوضعك. حاولي ألا تسلكي هذا الدرب مرة أخرى يا عزيزتي كلارا، وتحكَّمي في نفسك».

تحركت شفتا أمي كما لو أنها أجابت بقولها: «حاضر، يا عزيزي إدوارد»، لكنها لم تقل شيئًا بصوت مسموع.

قال السيد مردستون بعد أن أدار رأسه وحول عينيه نحوي في حركة عنيفة: «كنت أقول لك إنه يؤسفني يا ديفيد أن ألاحظ أنك متجهم. لا أستطيع أن أجد هذا الطبع يتطور أمام ناظري من دون بذل جهد في تغييره. يجب أن تسعى يا سيدي، لتغيير طبعك. وعلينا أن نسعى لتغييره من أجلك».

تلعثمت قائلًا: «أستميحك عذرًا يا سيدي، إنني لم أقصد قَطُّ أن أكون متجهمًا منذ عودتي».

أجابني في غضب بالغ، لدرجة أنني لمحت أمي بينما تمد يدها المرتجفة عنوة كما لو أنها تريد التدخل بيننا، راح يقول: «لا تلجأ إلى الكذب يا سيدي! لقد خلوت بنفسك في حزنك في غرفتك الخاصة. مكثتَ في غرفتك بينما كان من المفترض أن تكون هنا. إنك ستتعلم الآن، لمرة واحدة وأخيرة، أنني أريد منك أن تجلس هنا لا هناك. أريد منك، علاوة على ذلك، أن تمثل أمامي طائعًا هنا. إنك تعرفني يا ديفيد. سأجعلك تمتثل لما أريد».

أطلقت الآنسة مردستون ضحكة مكتومة خشنة.

تابع بعدها السيد مردستون قوله: «سأحظى منك بتقديم الاحترام

لي، وبسرعة تنفيذ ما أريده منك؛ هذا بالنسبة لي، وبالنسبة لجين مردستون، ولوالدتك أيضًا. لن أتجنب هذه الغرفة كما لو أنها مصدر لوباء، من أجل لهو طفل. فلتجلس».

أمرني كما يأمر كلبًا، وأنا أطعته طاعة الكلاب.

قال: «ثمة شيء آخر. إنني ألاحظ أنك تحب مخالطة المنحطين والعامة. لا ترتبط بالخدم بعد الآن. لن يربيك المطبخ، ولن يهذبك في العديد من النواحي التي تحتاج فيها إلى تهذيب. أما المرأة التي تحرضك، فإنني لا أقول شيئًا عنها، لأنكِ يا كلارا...». راح هنا يخاطب أمي بصوت خفيض قائلًا: «لم تستطيعي التخلص من روابطك القديمة بها وأوهامك الراسخة عنها، بما لديك من ضعف أمامها، من دون أن تتغلبي عليه بعد».

صاحت الآنسة مردستون: «إنه الوهم الذي يخلو من المنطق».

استأنف مخاطبتي قائلًا: «ما أود قوله هو أنني لا أوافق على تفضيلك هذا بمجالسة بيجوتي الخادمة، ويجب عليك عدم مرافقتها. إنك تفهمني الآن يا ديفيد، وتدرك العاقبة إذا ما فشلت في طاعة أي حرف مما أقول».

كنت أعرف جيدًا - ربما أدرك بصورة أفضل مما ظنَّ، خاصة فيما يتعلق بأمي المسكينة - لذا فقد أطعته تمامًا. لم أعد إلى غرفتي، ولم أعد ألجأ إلى بيجوتي، لكنني رحت أجلس في الردهة هامدًا يومًا بعد يوم، متطلعًا إلى حلول الليل وموعد النوم.

أي قيد كريه شعرت به، بينما كنت أمكث في المكان نفسه لساعات

وساعات، خائفًا من تحريك ذراع أو ساق، لئلا تشكو الآنسة مردستون من إزعاجي لها - كعادة شكواها من أقل همهمة. كنت أتحاشى أن تتحول عيني نحوها خشية أن تفضحني نظرة كراهية أو تمحيص، فتجد سببًا جديدًا للشكوى. يا له من ملل لا يحتمل! كنت أجلس مستمعًا إلى دقات الساعة المتتالية ومراقبة الآنسة مردستون بينما تلضم حبات الخرز اللامع. رحت أتساءل عما إذا كانت ستتزوج يومًا ما، وإذا كان الأمر على هذا النحو، فأي رجل تعس هذا الذي سيتزوجها. رحت أحسب أعداد القوالب المرصوصة حول المدخنة، كما رحت أتجول بعيني ساهمًا نحو السقف، ومحملقًا في ثنيات الورق المنبسط على الحائط.

كم تمشيت وحيدًا في الممرات الموحلة، تحت وطأة برد الشتاء، أعاني ثقل تحمل الجلوس في هذا الصالون الذي يحوي السيد مردستون والآنسة أخته. كنت أحمل همومي معي في كل مكان. يا لها من حمولة قاسية كنت مضطرًا إلى تحملها! يا لها من حمولة أثقلت كاهلي وأخذت تضعفني من دون أمل في انزياحها من على كاهلي!

كم من الواجبات رحت أؤديها في صمت وارتباك، بينما لازمني شعور دائم أن ثمة مبالغة واتهامًا يصحبان أي شيء يخصني. إن كان ثمة صوت لسكينة أو شوكة، فإنهما لي، وإن كان ثمة شهية نهمة أكثر من الطبيعي، فهي لي، وإن كان ثمة طبق أو كرسي غير ملائمين، فهما لي، وإن كان ثمة إنسان غير مألوف، فإنه أنا!

كم من أمسيات، جيء إليَّ فيها بالشموع لأعمل على إنجاز عملي، من دون أن أتجرأ على قراءة كتاب ترفيهي. لم أكن لأطالع سوى بعض

الموضوعات الجافة والمسائل الرياضية المجحفة، بينما أردد جدول الضرب وأتغنى بأسماء الأوزان والمقاييس، كما لو أنني أنشد «احكمي يا بريطانيا» أو «ابتعد أيها الحزن». لا يثبت حفظي لها على الرغم من ذلك ولا أتعلمها، كما لو أنها تعبر من إبرة جدتي تاركة رأسي المسكين. يدخلون من أذن ويخرجون من أخرى! كم من تثاؤب ونعاس رحت أسقط فيه! على الرغم من مقاومتي للنوم، رحت أنتفض بين غفوة وأخرى. كم من إجابات ضلت طريقها، فلم أحصل على أي منها إلا فيما ندر! كم كنت مجرد مساحة من فراغ قد أغفله الجميع، وكنت على الرغم من ذلك عقبة في طريق الجميع! كم أخذ يلفني ارتياح بالغ حين سماع الآنسة مردستون تنطق معلنة مع دقات الساعة الأولى أنها التاسعة ليلًا، فتأمرني بالنوم!

وهكذا انقضت العطلة ببطء، حتى الصباح الذي قالت فيه الآنسة مردستون: «إنه آخر أيام الإجازة»، ثم ناولتني كوب الشاي الأخير الذي سيختم الإجازة.

لم أكن آسفًا على الرحيل. كنت قد سقطت في دوائر حمقاء، لكنني على وشك أن أتعافى قليلًا وأتطلع إلى لقاء ستيرفورث، وإن كان السيد كريكل يلوح لي خلفه في الأفق. ظهر أمامي السيد باركس من جديد عند البوابة، وإذا بالآنسة مردستون ترد بنبرتها التحذيرية، عندما انحنت أمي فوقي لتودعني قائلة: «يا كلارا».

قبَّلتها وقبَّلت أخي الصغير، صرت في غاية الأسى حينها، لكنني لم أكن آسفًا للذهاب بعيدًا الآن، لأن الفجوة بيننا كانت متعمقة، وقد

لاح بيننا الفراق كل يوم. لم يكن العناق الذي منحته لي هو الماثل في خاطري إلى اليوم، على الرغم مما كان فيه من حرارة وصدق، إلا أن ما أعقب هذا العناق ظل ماثلًا أمامي.

كنت قد جلست في العربة حين سمعتها تنادي. نظرت إلى الخارج فإذا بها واقفة عند بوابة الحديقة وحدها، وقد حملت طفلها بين ذراعيها حتى أستطيع أن أراه. كان الجو باردًا ساكنًا، فلم تتحرك شعرة من رأسها، ولم تهفهف ثنية من ثنيات ملابسها، بينما تنظر نحوي باهتمام وتحمل طفلها.

هكذا فقدتها. وهكذا رحت أراها بعد ذلك، في نومي في المدرسة -بهذا الحضور الصامت بالقرب من سريري- تنظر إليَّ النظرة نفسها - بينما تحمل طفلها بين ذراعيها.






# الفصل التاسع

## عيد ميلاد لا يُنسى

تجاوزت عن كل ما حدث في المدرسة، إلى أن حل عيد ميلادي في شهر مارس. أما ستيرفورث فقد صرت معجبًا به أكثر من أي وقت مضى، وباستثناء ذلك الإعجاب فإني لا أتذكر شيئًا آخر. كان من المفترض أن يرحل مع نهاية نصف العام الدراسي، إن لم يكن قبل ذلك، وقد لاح في عيني حينها أكثر نشاطًا ومرحًا من ذي قبل، لكنني لا أتذكر شيئًا بعد هذا اليوم. يبدو أن الذكريات العظيمة التي تميز هذا الوقت تحديدًا في ذهني من دون غيره، قد ابتلعت ما عداها من الذكريات وبقيت وحدها.

إنه من الصعب أن أصدق أن فجوة قد امتدت طوال شهرين كاملين بين عودتي إلى سالم هاوس وصولًا إلى يوم عيد ميلادي من دون أن أتذكر وقائعها. إلا أنني لا أستطيع سوى الإقرار بهذه الحقيقة. أعلم أن ثمة زمنًا عشته تعاقبت فيه الأحداث واحدًا تلو الآخر لا أذكره؛ وإلا فإنني سأقتنع بأن فاصلًا زمنيًّا قد تلاشى.

كيف أحتفظ في ذاكرتي بأحداث ذاك اليوم! لم أزل أشم رائحة الضباب العالق في المكان. أبصر أمامي غيوم الصقيع الشبحي الهائج، فأشعر بشعري المموج ينسدل فوق خدي. أمد بصري نحو نهاية القاعة الدراسية المعتمة، فإذا بشمعة يتلألأ ضوؤها من مكان لآخر لتنير هذا الصباح الضبابي، أما أنفاس الأولاد فتتردد بينما تتداخل كقرع الكؤوس في البرد القارس فينفخون سخونتها بين أصابعهم، وينقرون بأقدامهم على الأرض طلبًا للدفء. كانت هذه الوقائع تمضي بعد الإفطار، ثم ما لبثنا أن نودينا إلى الملعب، حينها دخل السيد شارب وأخذ يقول:

«إن ديفيد كوبرفيلد سيذهب إلى الردهة».

توقعت أن أتلقى سلة طعام من بيجوتي، فابتسمت ممتثلًا لهذا الأمر. التف بعض الأولاد من حولي راجين ألا أنسى نصيبهم من الأشياء الجيدة، لأنني كنت قد فارقت مقعدي بحماسة كبيرة.

قال السيد شارب: «لا تستعجل يا ديفيد. أمامك وقت كافٍ يا ولدي، لا تستعجل».

كنت لأفاجأ بهذه النبرة المشحونة بالعاطفة التي تحدث بها، إلا أنني لم أهتم بالتفكير في الأمر إلا فيما بعد. أسرعت متجهًا إلى الردهة. وجدت السيد كريكل جالسًا على مائدة الإفطار، أمامه عصاه وصحيفة، ووجدت السيدة كريكل تحمل بين يديها خطابًا مفتوحًا. لكني لم أجد السلة التي أملت أن أتلقاها.

تحدثت السيدة كريكل بعد أن قادتني إلى الأريكة وجلست بجانبي، قائلة: «يا ديفيد كوبرفيلد، أريد أن أتحدث إليك حديثًا خاصًا

للغاية. أريد أن أقول لك شيئًا يا طفلي».

أومأ السيد كريكل برأسه من دون أن يلتفت نحوي، كنت بالطبع قد نظرت إليه، وما لبث أن أوقف تنهيدة أراد أن يطلقها بابتلاع قطعة كبيرة جدًّا من الخبز المحمص بالزبدة.

قالت السيدة كريكل: «إنك أصغر من أن تعرف كيف يتغير العالم كل يوم، وكيف يحيا أو يموت الناس فيه. لكن علينا جميعًا أن نتعلم يا ديفيد؛ البعض منا يتعلم دروب العيش صغيرًا، والبعض منا يتعلم حين يصير كبيرًا، والبعض منا يستمر في التعلم مدى الحياة».

نظرت إليها في جدية.

قالت السيدة كريكل، بعد لحظات من صمت: «هل كانوا جميعًا على ما يرام عندما خرجت من المنزل في نهاية الإجازة؟ هل كانت والدتك بخير؟».

ارتجفت من دون أن أدرك السبب بوضوح، ولم أزل أنظر إليها بجدية واهتمام، من دون أن أحاول الإجابة.

قالت: «إنني حزينة جدًّا لإخبارك أنني سمعت هذا الصباح أن والدتك مريضة جدًّا».

لاح ضباب بيني والسيدة كريكل، وبدت أن صورتها تنمحي من أمامي للحظة. شعرت بالدموع المحترقة تنهمر على وجهي، ثم توقفت الدموع مرة أخرى.

استطردت قائلة: «إنها مريضة للغاية».

بت أعرف كل شيء الآن.

«لقد ماتت».

لم تكن ثمة حاجة لإخباري بالأمر. لقد انفجرت في صرخة بائسة، وشعرت أنني صرت يتيمًا في هذا العالم الواسع.

كانت لطيفة جدًّا معي وقد أبقتني بصحبتها طوال اليوم، وأحيانًا كانت تتركني لأخلو بنفسي. بكيت، ثم نمت واستيقظت، ثم عاودت البكاء مرة ثانية. لم أستطع البكاء أكثر من ذلك، ومن ثَم بدأت أفكر. أطبقت الفجيعة على صدري بدرجة أعنف، وصار حزني ألمًا ثقيلًا لا سبيل للخلاص منه.

ظلت أفكاري على الرغم من كل شيء خاملة، غير مدركة لحجم البلاء الذي حلَّ بقلبي بل هائمة شاردة قربه. رحت أفكر في منزلنا الذي ستغلق أبوابه ويلفه السكون. فكرت في الطفل الصغير، الذي، كما قالت السيدة كريكل، كان يتلهف لمزيد من الوقت ليحيا، فقد ظنوا أنه سيموت أيضًا. فكرت في قبر أبي القابع في باحة الكنيسة بجوار منزلنا، وفي أمي التي سترقد هناك تحت الشجرة التي أعرفها جيدًا. وقفت على كرسي عندما تركوني وحدي، ورحت أنظر إلى المرآة لأرى مدى احمرار عيني، وكم ساد وجهي الحزن. فكرت، بعد مرور بضع ساعات، إذا كان من الصعب حقًّا أن تتدفق دموعي كما هي الحال الآن، ورحت أمعن التفكير في مدى تأثير الأمر عليَّ عند اقترابي من المنزل؛ هل سأشعر بالخسارة، لأنني كنت على وشك العودة إلى المنزل لحضور الجنازة؟ أتذكر أنني شعرت بنوع من الرفعة بين بقية الأولاد، وأنني صرت مهمًّا ومحل وقار في محنتي.

إذا كان ثمة طفل عاني من حزن صادق، فإن هذا الطفل هو أنا. إنني أتذكر أن هذه الأهمية مثلت نوعًا من الارتياح لي. كنت أتمشى في الملعب عصر ذلك اليوم حين أبصرت الأولاد في المدرسة يلقون نظراتهم الخاطفة من النوافذ نحوي، بينما يصعدون إلى فصولهم. شعرت أنني مميز، وقد بدوت أكثر حزنًا، وسرت متباطئًا. انتهى اليوم الدراسي، فخرج الأولاد وأقبلوا ليتحدثوا معي. شعرت أنه من الجيد ألا أتكبر على أي منهم، وأن أهتم بهم جميعًا على أكمل وجه، كما كنت أفعل من ذي قبل.

كان من المقرر أن أعود إلى المنزل في الليلة التالية. وألا أسافر عن طريق العربة، بل عن طريق الحافلة الكبيرة التي ستتحرك ليلًا. كانت الحافلة تسمى «الفلاح»، وكان سكان الريف قد اعتادوا على السفر بها لمسافات قصيرة أو السفر إلى قرى مجاورة على الطريق. لم نملك أي حكايات لنقصها في ذاك المساء، وقد أصر ترادلز على إقراضي وسادته ليلتها. لا أعرف ما الفائدة التي ظن أنها ستواتيني بنومي على وسادته، فقد كانت عندي واحدة، ولكنها كانت كل ما يستطيع هذا المسكين أن يقرضني إياه، باستثناء ورقة من ورق الرسائل مليئة برسومات من الهياكل العظمية، وقد منحها لي عند توديعي، كهدية تصلح لأحزاني ومساهمة تبث بداخلي راحة البال.

غادرت مدرسة سالم هاوس بعد ظهر اليوم التالي. لم يخطر ببالي وقتها أنني غادرتها بلا رجعة، وأنني لن أعود إليها أبدًا. تحركنا في سفرنا في بطء شديد انقضى فيه الليل، ولم نصل إلى يارموث قبل الساعة

التاسعة أو العاشرة في صباح اليوم التالي. بحثت عن السيد باركس، لكنني لم أجده. جاءني بدلًا منه رجل عجوز سمين، قصير القامة، مرح، ضئيل الحجم يرتدي ثيابًا سوداء، مع أربطة صغيرة صدئة من الشرائط عند ركبتيه، وجوارب سوداء، وقبعة عريضة الحواف، وقد أسرع لاهثًا إلى نافذة العربة، وراح يقول:

«هل أنت السيد كوبرفيلد؟».

«نعم يا سيدي».

قال بينما يفتح الباب: «هل ستأتي معي يا سيدي الشاب، وسأكون سعيدًا إذا سمحت بإيصالك إلى المنزل».

وضعت يدي في يده، متسائلًا من يكون. ما لبثنا أن سرنا نحو متجر في شارع ضيق، كتب عليه لافتة تقول: «عمر، تاجر وخياط، بائع ملابس، ولوازم جنازات». كان دكانًا صغيرًا وخانقًا مليئًا بجميع أنواع الملابس، المفصلة وغير المفصلة، يحوي المحل واجهة زجاجية واحدة مليئة بقبعات وأغطية للرأس. توجهنا إلى صالون صغير خلف المتجر، حيث التقينا ثلاث شابات يعملن على تفصيل ثلاثة أقمشة سوداء، مكدسة على الطاولة، بينما تناثرت قطع صغيرة من فوائض الأقمشة على الأرض. أبصرت مدفأة جيدة في الغرفة، وقد امتلأت الغرفة برائحة قماش الكريب - لم أكن أعرف تلك الرائحة آنذاك، لكنني عرفتها الآن.

أخذت الشابات الثلاث، اللواتي ظهرن مجتهدات ومنشغلات بعملهن، يرفعن رؤوسهن لينظرن إليَّ، ثم يواصلن عملهن. يعملن

بحياكة غرزة تلو الغرزة، تلو الأخرى. عبر إلى آذاننا في الوقت نفسه، من ورشة عمل عبر ساحة صغيرة خارج النافذة، صوت منتظم للطرق قد احتفظ بنوع من التلحين من دون أدنى خروج عن الإيقاع: «تا تا – رت، تا تا – رت، تا تا – رت».

قال مرشد طريقي لإحدى الفتيات الثلاث: «حسنًا، كيف يسير العمل يا ميني؟».

أجابت في مرح من دون أن ترفع نظراتها إلى الأعلى: «سنكون على استعداد وقت الاختبار. لا تخف يا أبي».

خلع السيد عمر قبعته عريضة الحواف وجلس لاهثًا. كان سمينًا لدرجة أنه اضطر إلى الاستمرار في اللهاث لبعض الوقت قبل أن يبدأ حديثه فيقول:

«هذا صحيح».

قالت ميني مازحة: «يا أبي، كم رحت تنمو مثل الدولفين!».

أجاب بينما يفكر في الأمر بجدية: «حسنًا، لا أعرف كيف استمر الأمر يا عزيزتي، إنني حقًّا أبدو مثل الدولفين».

قالت ميني: «إنك رجل مرتاح، كما ترى. تأخذ الأمور بسهولة».

قال السيد عمر: «لا فائدة من أخذها إلا بهذه الطريقة يا عزيزتي».

راحت ابنته تقول: «لا فائدة حقًّا. إننا جميعًا هانئون هنا، شكرًا لله! أليس كذلك يا أبي؟».

قال السيد عمر: «أرجو ذلك يا عزيزتي. لقد تلقفت أنفاسي الآن، وأحسب أنني سآخذ مقاسات هذا التلميذ الشاب. هلا دخلت إلى المتجر يا سيد كوبرفيلد؟».

تقدمتُ استجابةً لطلب السيد عمر. عرض أمامي لفافة من القماش قائلًا إنها ممتازة جدًّا، وإنها مناسبة جدًّا للحداد على الوالدين. أخذ مقاساتي المختلفة ودونها في دفتر، وبينما كان يكتبها أخذ يلفت انتباهي إلى بضاعته التي يتاجر فيها، وإلى بعض صيحات الأزياء التي قال إنها «ظهرت للتوِّ»، وإلى بعض صيحات الأزياء الأخرى التي قال إنها «خرجت للتوِّ».

قال السيد عمر: «إننا بهذه الطريقة، غالبًا ما نخسر بعضًا من المال. إن صيحات الأزياء مثل البشر؛ تظهر من دون أن يعرف أحد متى أو لماذا أو كيف، ثم ترحل من دون أن يعرف أحد متى أو لماذا أو كيف. إن كل شيء يشبه الحياة، في رأيي، إذا نظرت إليه من وجهة النظر هذه».

كنت حزينًا جدًّا فلم أستطع مناقشة هذه المسألة، وربما كانت أكبر من نطاق إدراكي تحت أي ظرف من الظروف. أعادني السيد عمر إلى الردهة، بينما يتنفس بصعوبة طوال الطريق.

نادى بعد ذلك عبر فتحة درجات صغيرة للسلم القابع خلف الباب قائلًا: «أحضر الشاي والخبز والزبدة». جلست بعد فترة، أراقب وأفكر، بينما أستمع إلى أصوات أعمال الخياطة في الغرفة ويتناهى كذلك إلى أذني اللحن الذي يضرب عبر الفناء، إلى أن ظهرت صينية الفطور، واتضح أنه قد أُعدَّ لي.

أخذ السيد عمر يتحدث إليَّ بعد أن راقبني لبضع دقائق، ولم أكن قد تركت أثرًا كبيرًا خلالها على الإفطار، لأن الأقمشة السوداء كانت قد سدت شهيتي. راح السيد عمر يقول: «لقد تعرفت عليك... تعرفت عليك منذ فترة طويلة يا صديقي الشاب».

«هل فعلت يا سيدي؟».

قال السيد عمر: «عرفتك منذ ولادتك. قد أقول إنني عرفتك قبل مولدك. كنت أعرف والدك قبلك. كان طوله خمسة أقدام وتسع بوصات ونصف، وقد دفن في مساحة خمسة وعشرين قدمًا من الأرض».

تعبر الأصوات من الساحة معلنة: «تا تا - رت، تا تا - رت، تا تا - رت».

قال السيد عمر في مرح: «إنه يرقد في خمسة وعشرين قدمًا من الأرض، إذا وُضع في جزء أصغر، فإنه إما طلب ذلك بنفسه أو كان بأمر من امرأته، وقد نسيت التفاصيل».

فسألت: «هل تعرف كيف حال أخي الصغير يا سيدي؟».

هز السيد عمر رأسه.

تأتي الأصوات: «تا تا - رت، تا تا - رت، تا تا - رت».

قال: «إنه بين ذراعي والدته».

«آهٍ، يا للصغير المسكين، هل مات؟».

قال السيد عمر: «لا تُحمل نفسك في هذه الأمور أكثر من طاقتك. نعم. لقد مات الطفل».

توقدت جراحي من جديد عند سماع هذه الأخبار. تركت الإفطار الذي لم أذق منه إلا اليسير. ابتعدت متجهًا إلى طاولة أخرى في زاوية من الغرفة الصغيرة، ثم أسندت رأسي عليها. كانت ميني قد أزاحت ما عليها على عجل، حتى لا أبللها بدموع الفراق التي تتراءى في عيني. كانت فتاة جميلة وطيبة. أبعدت شعري عن عيني بلمسة ناعمة ولطيفة، لكنها كانت مبتهجة للغاية لأنها أوشكت على الانتهاء من عملها وقضاء وقت ممتع بعده. كانت حالتها مختلفة تمامًا عن حالتي.

توقفت نغمات المطرقة في ذاك الوقت. جاء شاب حسن المظهر وقد عبر الفناء متجهًا إلى الغرفة. كان يحمل مطرقة في يده، وكان فمه مليئًا بالمسامير الصغيرة التي اضطر إلى إخراجها قبل أن يتكلم.

قال السيد عمر: «حسنًا يا جورام، كيف يسير العمل؟».

قال جورام: «حسنًا، لقد أنهيته يا سيدي».

تحول لون وجه ميني قليلًا، وراحت الفتاتان الأخريان تتبادلان الابتسام.

تكلم السيد عمر، وقد أغمض عينيه قائلًا: «ماذا تقول؟! هل بدأت إذن في عملك على ضوء الشموع في الليلة الماضية بينما كنتُ في الملهى؟».

قال جورام: «نعم، لقد فعلت كما قلت، حتى يمكننا القيام بجولة صغيرة والذهاب معًا، إذا ما أنهيت عملي. أذهب أنا وميني - وأنت».

أخذ السيد عمر يتحدث ضاحكًا حتى سعل من كثرة الضحك،

قائلًا: «يااه! لقد ظننت أنكما ستتركاني تمامًا».

استأنف الشاب قائلًا: «كان من الجميل أن تقترح ذلك، فقد كان قولك مشجعًا فأقبلت على العمل، كما ترى. هل أدليت برأيك فيه؟».

أجاب السيد عمر: «سأفعل يا عزيزي»، ثم توقف واستدار نحوي قائلًا: «هل تود أن ترى...؟».

قاطعته ميني قائلة: «لا يا أبي».

قال السيد عمر: «ظننت أنه أمر مقبول يا عزيزتي، لكن ربما تكونين على حق».

لا أستطيع أن أجزم كيف عرفت أنهم ذهبوا لإلقاء نظرة على نعش أمي الغالية. لم أسمع قَطُّ عن صنع النعش، ولم أرَ واحدًا قَطُّ. ولكن كان هذا ما خطر ببالي بعد سماع الضجيج، وبعدما دخل علينا الشاب، صرت متأكدًا من معرفتي بطبيعة العمل الذي أنهاه.

انتهت الفتاتان اللتان لم أسمع أسماءهما، وراحتا تمشطان الخيوط وتزيحان آثارها من فستانيهما، ثم توجهتا إلى داخل المحل لتعدلا مظهريهما، وراحتا تنتظران الزبائن. بقيت ميني في الخلف تلون ما صنعتاه، وتعبئه في سلتين. كانت تقوم بعملها وهي راكعة على ركبتيها، بينما تدندن لحنًا حماسيًّا بسيطًا. جاء جورام - لم يراودني أدنى شك في أنه حبيبها - ثم استرق منها قبلة بينما كانت مشغولة (لم يبدُ أنه اهتم بوجودي على الإطلاق)، وقال إن والدها ذهب ليحضر العربة، ويجب عليه أن يسرع ويستعد للذهاب هو الآخر، ثم خرج بعدها مرة أخرى. وضعت ميني كشتبانها ومقصها في جيبها، وغرست إبرتها بخيطها

الأسود بدقة في حضن ثوبها، ثم لبست معطفها الخارجي في رشاقة، مستعينة بمرآة صغيرة خلف الباب، وقد انعكست فيها صورتها الجميلة ذات الوجه السعيد.

لاحظت هذا كله، بينما أجلس على الطاولة في الزاوية ورأسي متكئ فوق يدي، بينما تدور في رأسي أفكار عن أشياء مختلفة عن بعضها تمامًا. اقتربت العربة سريعًا من باب المتجر، فوضعت السلال فيها أولًا، ثم صعدت متخذًا مكاني بعد ذلك، ثم تبعني هؤلاء الثلاثة. أتذكر هذه العربة التي كان نصفها يشبه العجلة ونصفها الآخر يشبه عربة نقل. كانت مطلية بلون كئيب، يجرها حصان أسود بذيل طويل. كانت كبيرة وقد اتسعت لنا جميعًا.

لا أظن أنني اختبرت هذا الشعور الغريب الذي انتابني وأنا بصحبتهم قبل ذلك طوال حياتي السابقة - ربما أتفهمه لأنني الآن أكثر حكمة. أتذكر كيف كانوا يعملون، وأتذكر منظرهم بينما يستمتعون بالرحلة. لم أغضب منهم، لكنني كنت خائفًا، كما لو أنني أُلقيت بعيدًا بين مخلوقات لا يجمعني بها أي تشابه في مشاعرنا وطباعنا. كانوا مبتهجين للغاية، وكنت على عكسهم تمامًا. جلس الرجل العجوز في المقدمة للقيادة، بينما جلس الشاب والفتاة خلفه. كان كلما تحدث إليهما مال أحدهما إلى الأمام. أخذ أحدهما يميل إلى جانب من وجهه السمين والآخر يميل نحو الجانب الآخر منه، وظلوا هكذا طوال الوقت. حاولوا الحديث معي أيضًا، لكنني تراجعت وانكفأت في زاويتي. كنت منزعجًا من حبهم ومرحهم، على الرغم من أنهم لم يكونوا صاخبين،

لكنني رحت أتساءل كيف لم تحل عليهم اللعنة بسبب قساوة قلوبهم.

توقفوا لإطعام الحصان، ثم أكلوا وشربوا واستمتعوا بأوقاتهم، لكنني لم أتمكن من لمس أي شيء لمسوه. أبقيت على صومي من دون انقطاع. ما إن وصلنا إلى المنزل، حتى تركت الكرسي الخلفي مهرولًا في أسرع وقت ممكن، حتى لا أكون بصحبتهم أمام النوافذ المهيبة، التي تطل عليَّ كما يطل أعمى من أعين صارت مغلقة إلى الأبد. آهٍ، كم كنت بحاجة إلى التفكير فيما قد يدفعني إلى البكاء عندما أعود! كانت دموعي تنهمر إثر رؤية نافذة غرفة أمي، وبجانبها نافذة كانت في أفضل الأوقات، ملكي.

وجدتني بين ذراعي بيجوتي قبل وصولي إلى الباب، وقد اصطحبتني إلى داخل المنزل. انفجر حزنها عندما رأتني لأول مرة، لكنها سرعان ما سيطرت عليه، وأخذت تتحدث في همس، وتسير في هدوء كما لو أنها قد تزعج الموتى. علمت أنها لم تذهب إلى فراشها لفترة طويلة، بل ظلت مستيقظة طوال الليل تنتظر. قالت إنها لن تتخلى أبدًا عن عزيزتها الجميلة المسكينة ما دامت فوق الأرض.

لم يهتم السيد مردستون بي عندما دخلت إلى الصالون الجالس فيه، بل جلس بجانب المدفأة، يبكي في صمت، محملقًا في كرسي ذي مرفقين. أما الآنسة مردستون فكانت مشغولة منكبة فوق مكتبها، الذي صار مغطى بالرسائل والأوراق. أشارت إليَّ بأظافر أصابعها الباردة، وسألتني بصوت هامس وبارد، إذا كنت قد أخذت قياس ملابسي للحداد أم لا.

أجبت قائلًا: «نعم».

قالت الآنسة مردستون: «وهل أحضرت قمصانك معك إلى المنزل؟».

«نعم يا سيدتي. لقد أحضرت إلى المنزل كل ملابسي».

كان هذا الحديث هو كل العزاء الذي منحني الحزم إياه. لا أشك في أنها كانت مستمتعة بما أظهرته من ضبط النفس، وحزمها، وقوة عقلها، وحسها السليم، والوصفة الشيطانية الكاملة لكل صفاتها القميئة التي أظهرتها في هذه الظروف. كانت فخورة بشكل خاص بدورها في العمل؛ وقد أظهرت كل ذلك الآن في اختزال كل شيء وتدوينه بقلم وحبر، من دون أن تكترث لأي شيء. لقد قضت كل ما تبقى من ذاك اليوم، من الصباح حتى المساء وما بعده، وهي جالسة على هذا المكتب، تدون بقلم صلب، وتتحدث بالهمس الجامد نفسه إلى الجميع؛ من دون أن ترخي عضلات وجهها أبدًا، ومن دون أن تلين نبرة صوتها، ومن دون أن تتحرك ثنية واحدة من ثنايا ثوبها.

أخذ شقيقها يتناول بين يديه كتابًا في بعض الأحيان، لكنني رأيت أنه لم يقرأ قَطُّ كلمة منه. كان يفتحه وينظر إليه ويتظاهر أنه يقرأ، لكنه يظل لساعة كاملة من دون أن يُقلب ورقة واحدة، ثم يضعه جانبًا ويمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة. اعتدت أن أجلس طاويًا يدي بينما أراقبه، وأعد خطواته ساعة بعد ساعة. كان نادرًا ما يتحدث إليها، لكنه لم يتحدث معي قَطُّ. بدا أنه الشيء الوحيد الذي لا يهدأ، بينما حل السكون على كل أرجاء المنزل باستثناء دقات الساعات.

لم أرَ بيجوتي إلا فيما ندر خلال هذه الأيام التي سبقت الجنازة. كنت ألمحها في أثناء صعود أو نزول السلالم. أجدها دائمًا قريبة من الغرفة التي ترقد فيها أمي وطفلها، غير أنها كانت تأتي إليَّ كل ليلة، فتجلس بجانب رأس سريري حتى أغط في النوم - أحسب أنه كان يومًا أو يومين قبل الدفن، لكنني أدرك مدى ارتباك وتشوش عقلي فيما يخص ذاك الوقت الثقيل، مع عدم وجود ما ينبهني إلى مرور الزمن وانقضائه. قادتني بيجوتي، ربما قبل يوم أو يومين من الدفن، إلى غرفة أمي. لا أتذكر سوى أنه جسد تحت بعض الأغطية البيضاء على السرير، تحاوطه نظافة بديعة ونضارة من كل مكان. بدا لي وكأنه مشهد يجسد السكون المهيب الذي لفَّ المنزل. أشاحت بيجوتي الغطاء بلطف، بينما صرخت قائلًا: «آهٍ لا! آهٍ لا!»، ثم أمسكت بيدها.

لو كانت الجنازة بالأمس لما استطعت تذكرها بشكل أفضل مما أتذكرها به الآن. لف صالة الاستقبال هواء أنقى. وقفت عند باب الغرفة، فإذا بنيران المدفأة ساطعة النور، وإذا بالنبيذ يتلألأ في الدورق، وتتجلى الأكواب والأطباق، وتفوح الرائحة الحلوة العبقة من الكعك، تمتزج برائحة فستان ملكة جمال مردستون، وكذلك برائحة ملابسنا السوداء. كان السيد تشيليب موجودًا في الغرفة فأقبل إليَّ ليتحدث معي.

راح يقول في لطف: «وكيف حال السيد ديفيد؟».

لم أستطع أن أجيبه بقولي إنني بخير، وبدلًا من ذلك ناولته يدي وصافحته.

راح السيد تشيليب يتحدث مبتسمًا بشيء من خنوع، وقد لمعت عيناه قائلًا: «آه يا عزيزي! كم يكبر أصدقاؤنا الصغار من حولنا. إنهم يترعرعون من دون معرفتنا يا سيدتي؟».

كان يُوجِّه عبارته الأخيرة إلى الآنسة مردستون من دون أن تجيبه بشيء.

استطرد السيد تشيليب قائلًا: «ألاحظ تحسنًا كبيرًا هنا يا سيدتي».

لم ترد الآنسة مردستون إلا بعبوس وجهها وانحناءة رسمية برأسها. انزعج السيد تشيليب، ثم ابتعد إلى الزاوية، وقد أبقاني برفقته، ولم ينبس ببنت شفة بعدها.

ألاحظ هذه الأشياء، لأنني كنت أراقب كل ما يدور من حولي، ليس لأنني أهتم بنفسي أو بأفعالي منذ عودتي إلى المنزل. بدأ الجرس بالدق في هذه اللحظة، فأقبل السيد عمر ومعه رجل آخر لينبه الجميع إلى الاستعداد. عرفت من بيجوتي، منذ فترة طويلة، أن مشيعي أبي كانوا قد مكثوا جاهزين في الغرفة نفسها.

كان يجلس بالغرفة السيد مردستون، وجارنا السيد جرايبر، والسيد تشيليب، وأنا. اتجهنا نحو الباب، بعدما ظهر حمَّالو النعش في الحديقة، وأخذوا يتحركون أمامنا على الطريق، عبر أشجار الدردار، وعبر البوابة حتى فناء الكنيسة، حيث تناهت إلى أذني كثيرًا أصوات الطيور تصدح في صباح أحد أيام الصيف.

وقفنا حول القبر. بدا اليوم مختلفًا عن كل الأيام بالنسبة لي، وقد انعكس ضوء لا يبدو لونه معتادًا بل خالطته ألوان الحزن. ساد صمت

مهيب، صاحَبَنا من المنزل مع هذا الشيء الذي يمكث في جوف الأرض. وقفنا مكشوفي الرؤوس، ورحت أستمع إلى صوت القس، يأتيني من بعيد عبر لفحات الهواء الطلق، لكنه واضح كل الوضوح، وإذا به يقول: «أنا هو القيامة والحياة، يقول الرب!»[١] ثم سمعت تنهدات. كنت أقف بعيدًا بين المتفرجين، أرى هذه الخادمة الصالحة والمخلصة، التي أحبها وأفضلها أكثر من سواها ممن يحيون على هذه الأرض، وإنني متأكد بكل ما يحمله قلبي الطفولي من يقين أن الرب سيقول لي يومًا ما: «قد أحسنت»[٢].

هناك العديد من الوجوه التي أعرفها بين الحشد الصغير، وهي الوجوه نفسها التي كنت أعرفها في الكنيسة، فقد كنت أتأملها دائمًا. كان من هذه الوجوه من رأى أمي لأول مرة، عندما جاءت إلى القرية في زهرة شبابها. إنني لا أهتم بهم - لا أهتم إلا بحزني - ومع ذلك فإنني أراقب هذه الوجوه وأعرفها جميعًا، حتى إنني رحت أنظر إلى ميني القابعة بعيدًا، بينما ألمح عينها التي تراقب حبيبها القريب مني.

انتهى الأمر، وتساوت الأرض، ثم التفقنا للانصراف. ينتصب منزلنا أمامنا، جميلًا للغاية من دون أن يتغير، مرتبطًا في ذهني أشد الارتباط بكل ما مضى من ذكريات الطفولة. كانت كل أحزاني تبدو هينة أمام ما لفني من حزن هذه الذكريات. أبعدوني سريعًا، وقد راح

---

(١) آية من إنجيل يوحنا (١١-٢٥).

(٢) «مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ بِعَمَلِ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيَّ» آية من الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني (١٠-٣٠).

السيد تشيليب يتحدث معي. عدنا إلى المنزل، فراح يبلل شفتي بقليل من الماء، وعندما طلبت الإذن بالانصراف إلى غرفتي، وافقني بحنو لا يكون إلا لامرأة.

يدور كل ما أقصة في ذاكرتي كما لو أنه قد حدث بالأمس فقط. لقد تلاشت أحداث من تاريخي اللاحق حيث شاطئ ستظهر فيه كل الأشياء المنسية مرة أخرى، أما هذا الحدث فيقف شامخًا مثل صخرة عالية ثابتة في قلب المحيط.

كنت أعلم أن بيجوتي ستأتي إليَّ في غرفتي. ما أشبه سكون هذا السبت بسكون أوقات يوم الأحد! لقد تشابهت الأيام، وكان هذا السكون مناسبًا لكلينا. جلست بجانبي على سريري الصغير ممسكة بيدي. كانت أحيانًا تقربها نحو شفتيها، وأحيانًا تلاطفها بكفيها، ربما بالطريقة نفسها التي كانت تهدهد بها أخي الصغير. راحت تحدثني بطريقتها، فتخبرني بكل ما كان عليها أن تسرده لي بشأن ما حدث.

قالت بيجوتي: «لم تكن بكامل صحتها قَطُّ لفترة طويلة. كانت مشتتة الذهن ولم تكن سعيدة. ظننت في البداية عندما ولدت طفلها أنها ستتحسن، لكنها صارت أكثر حساسية، وراحت تبللها دموع البكاء كل يوم. كانت تحب الجلوس بمفردها قبل أن يأتي طفلها، ثم تبكي، لكنها بعد ذلك اعتادت أن تغني له. كان صوتها ناعمًا جدًّا، لدرجة أنني ظننت ذات مرة عندما سمعتها، كما لو أن صوتها ممتد في الهواء، آتٍ من فراغ بعيد».

«أحسب أنها باتت أكثر خوفًا، وأكثر فزعًا في أيامها الأخيرة. كانت أي كلمة قاسية تبدو لها بمثابة لكمة، لكنها على الرغم من ذلك بقيت

كما كانت. لم تتغير فتاتي الحلوة قَطُّ أمام بيجوتي الحمقاء».

توقفت بيجوتي هنا، وربتت على يدي بهدوء نسبي.

«أما آخر مرة رأيتها فيها كسابق عهدها، فقد كانت تلك الليلة التي عدتَ فيها إلى المنزل، يا عزيزي، ثم قالت لي في اليوم الذي غادرت فيه: «لن أرى حبيبي الجميل مرة أخرى. ثمة شيء يخبرني بذلك، وهذا الشيء يبوح لي بالحقيقة، وإنني لا يخامرني شك فيه»».

«حاولتْ الصمود بعد ذلك. كانوا يخبرونها في كثير من الأحيان أنها طائشة وخفيفة القلب، لقد ظنوا أنها كذلك حقًّا، أما كل شيء فقد مضى وقته. لم تخبر زوجها قَطُّ بما قالته لي - كانت تخشى أن تقوله لأي شخص آخر سواي - إلى أن راحت في ليلة، قبل أكثر من أسبوع من موتها، فقالت له: «يا عزيزي، أظن أنني أموت»».

«قالت لي عندما أسندتها إلى سريرها تلك الليلة: «لقد ارتاح عقلي الآن يا بيجوتي. سيزداد يقينه أكثر فأكثر في كل يوم يأتي حتى بضعة أيام قادمة، وبعد ذلك سيستريح. أيتها المسكينة، إنني في غاية التعب. إذا حل وقت النوم، فاجلسي بجانبي في أثناء نومي، لا تتركيني. بارك الله في أطفالي! وليحفظ رضيعي وابني اليتيم»».

قالت بيجوتي: «لم أفارقها من بعدها. كانت غالبًا ما تتحدث إليهما من الطابق السفلي، لأنها أحبتهما، ولم تستطع ألا تحب أي شخص ممن حولها. أما عندما كانا يبتعدان عن سريرها، كانت دائمًا تلتفت نحوي، كما لو أن الراحة قابعة حيث تجلس بيجوتي. تطمئن لوجودي فتغفو، ولم تكن لتنام قَطُّ بأي طريقة أخرى».

«قبّلتني في الليلة الأخيرة، ثم قالت: «إذا مات طفلي أيضًا يا بيجوتي، من فضلك اجعليه بين ذراعي، وقولي لهما أن يدفنانا معًا». كان هذا ما حدث، لأن الحمل المسكين لم يعش سوى يوم بعدها. ثم قالت: «اتركوا ابني العزيز يرافقنا حتى مرقدنا الأخير، وأخبريه أن والدته، عندما كانت مستلقية هنا، راحت تدعو له ليس مرة واحدة، بل ألف مرة»».

ساد صمت آخر، وربتت برفق على يدي مرة أخرى.

أكملت بيجوتي قائلة: «كنا في جوف الليل، حينما طلبت مني شربة ماء، بعدما تجرعته، لاحت لي ابتسامة حانية، ويا لجمالها يا عزيزي! يا لروعة جمالها!».

«حل الفجر، وبدت الشمس في طريقها للبزوغ، حين قالت لي، كيف كان السيد كوبرفيلد لطيفًا ومراعيًا لها دائمًا، وكيف تحملها، وطالما أخبرها عندما كانت تتشكك في صواب أفعالها، أن القلب المحب أفضل وأقوى من الحكمة، وأنه سعيد بها. قالت بعد ذلك: «يا بيجوتي، يا عزيزتي، قربيني منكِ»، لأنها كانت ضعيفة جدًّا لا تقوى على الكلام. راحت تقول: «ضعي ذراعك الطيبة تحت عنقي، وأديري وجهي إليكِ، لأن وجهك بعيد جدًّا، وأريده أن يكون قريبًا». قرَّبتها كما طلبت، وآه يا ديفي! لقد حان الوقت عندما كانت أول كلمات فراق لها صحيحة - كانت سعيدة بوضع رأسها المسكين على صليبها حيث ذراع بيجوتي الحمقاء العجوز - وماتت مثل طفلة نائمة!».

وهكذا انتهت رواية بيجوتي، ومنذ لحظة معرفتي بوفاة أمي، تلاشت فكرتي المتأخِرة عنها. صرت أتذكرها، منذ تلك اللحظة، بصفتها الأم الشابة بصورتها المبكرة المنطبعة في مخيلتي، والتي اعتادت على لف خصلاتها اللامعة حول إصبعها، والرقص معي عند الشفق في الصالون. ما كان كل ما أخبرتني به بيجوتي حتى هذه اللحظة ليبعد عن خاطري الفترات اللاحقة لذكرياتها، بل إنها رسخت الصورة الأولى لها في ذهني. قد يكون الأمر غريبًا، إلا أن هذا حقًّا ما وقع. كأنها قد شقت طريقها بعد وفاتها، عائدة إلى شبابها الهادئ المرح، وقد محت من ذاكرتي كل ما سواه.

كانت الأم التي رقدت في القبر هي أم طفولتي، والمخلوق الصغير القابع بين ذراعيها، لم يكن سواي، كما كنت من قبل، صامتًا في حضنها إلى الأبد.



# الفصل العاشر

## صرتُ مُهمَلًا، ثم مَحلًّا للرعاية

كان أول عمل قامت به الآنسة مردستون بعد انتهاء يوم العزاء، وبعد أن سرى أول شعاع من الضوء إلى المنزل في حرية؛ أن هددت بيجوتي بالفصل لمدة شهر. كانت بيجوتي تكره البقاء في الخدمة، أظن أنها أبقت على عملها لأجلي لا غير، هكذا فضَّلتني عن أفضل عمل قد تجده على وجه الأرض. قالت لي إننا سنفترق لا محالة، وقد أخبرتني بالأسباب. قدَّم كل منا العزاء للآخر بكل إخلاص.

أما بالنسبة لموقفي أو لمستقبلي، فلم يقل أحد كلمة واحدة ولم يفكر في خطوة مستقبلية. أجرؤ على القول بأنهم كانوا ليسعدوا لو تمكنوا من طردي أيضًا بعد تحذير مدته شهر. استجمعت شجاعتي ذات مرة، ورحت أسأل الآنسة مردستون عن موعد عودتي إلى المدرسة، فما كان منها إلا أن أجابت بجفاء، وقالت إنها تظن أنني لن أعود إليها على الإطلاق. لم يخبراني بأي شيء آخر. كنت فضوليًّا للغاية، ورغبت في معرفة ما سيفعلانه معي، وكذلك كانت بيجوتي، لكنني لم أستطع اكتشاف أي معلومات عن مصيري، ولم تستطع بدورها معرفة أي شيء.

لم يقع سوى تغيير واحد في حالتي، وعلى الرغم من أنه قد خفَّف عني قدرًا كبيرًا من التوتر ذلك الوقت، إلا أنني لو كنت قادرًا على التفكير في الأمر عن كثب، لشعرت بعدم الاطمئنان حيال مستقبلي. كان هذا التغير هو التخلي عن القيد الذي فُرِض عليَّ تمامًا. صرت بعيدًا كل البعد عن مطالبتهما إياي بالمكوث في مكاني الباهت من الصالون، حتى إنني إذا مكثت في عدة مناسبات فوق مقعدي في الصالون، فإذا بالآنسة مردستون تعبس أمامي طالبة مني المغادرة. صرت لا أتعرض لأدنى لوم إذا ما جالست بيجوتي، إذ لم يكن ثمة من يبحث عني أو يسأل عن أحوالي، ما دمت أبتعد عن مرأى ومجلس السيد مردستون. كنت في البداية أشعر بخوف يومي من توليه تعليمي مرة أخرى، أو من تكريس الآنسة مردستون نفسها للقيام بالأمر، لكن سرعان ما أدركت أن مثل هذه المخاوف لا أساس لها من الصحة، وأن كل ما كان عليَّ توقعه بعد الآن ليس سوى الإهمال.

لا أحسب أن هذا الاكتشاف قد جلب لي الكثير من الألم في ذلك الوقت. كنت لم أزل أشعر بالضياع إثر صدمتي في وفاة أمي، ولم ألبث في حالة ذهولي من دون أن أنتبه إلى أي شيء تافه. أستطيع في الواقع أن أتذكر، أنني توقعت في أوقات غريبة، أنني لن أتعلم بعد الآن، ولن أنال أي نوع من العناية، وأنني سأكبر حتى أصير رجلًا كبيرًا رث المظهر، شديد الفقر، منطلقًا بعيدًا عن البلدة. رحت بلا جدوى أحاول التخلص من هذه الصورة، فأتخيل أنني سأرحل بعيدًا إلى مكان ما، مثل بطل في قصة، فأبحث عن ثروتي. كانت هذه رؤى وتخيلات عابرة، ليست سوى أحلام يقظة جلست أتخيلها أحيانًا، كما لو أنها مرسومة بشكل

خافت وباهت أو مكتوبة على جدار غرفتي، ما لبثت أن ذابت تاركة الجدار فارغًا مرة أخرى.

رحت أُحدِّث بيجوتي ذات مساء بصوت منخفض، بينما أحاول تدفئة يدي فوق نار الموقد، قلت: «يا بيجوتي، إن السيد مردستون يهتم بي بشكل أقل مما كان عليه في السابق. تعرفين يا بيجوتي أنه لم يكن يحبني كثيرًا، لكنه يكره الآن رؤيتي، إذا ما سمحت له الظروف».

قالت بيجوتي بينما تمشِّط شعري: «لعل حزنه هو السبب».

«إنني متأكد من ذلك يا بيجوتي، وإنني لحزين أيضًا. إذا كنت أحسب أن الأمر متعلق بحزنه، فما كنت لأفكر في الأمر على الإطلاق، لكن الأمر ليس كذلك. آهٍ، لا، ليس الأمر على هذا النحو».

قالت بيجوتي بعد صمت: «كيف تعرف أن الأمر ليس على هذا النحو؟».

«آهٍ، إن حزنه شيء آخر مختلف تمامًا عن أحزاننا. إنه قد يشعر بالحزن في لحظة ما، بينما يجلس بجانب المدفأة مع الآنسة مردستون؛ أما إذا دخلت عليه يا بيجوتي، فسيتحول إلى شيء آخر».

قالت بيجوتي: «ما هذا الشيء؟».

أجبتها بعد أن قلدت عبوسه القاتم من دون أن أتعمد ذلك، قائلًا: «غاضب. إذا كانت حالته ليست سوى الحزن، فإنه لن ينظر إليَّ كما يفعل. إنني حزين فقط، وهذا يجعلني أشعر بنوع من اللين».

لم تقل بيجوتي شيئًا لبعض الوقت، ورحت أدفئ يدي وأنا صامت مثلها تمامًا.

قالت بعد صمت طويل: «اسمع يا ديفي».

«نعم يا بيجوتي».

«لقد جربت، يا عزيزي، بكل الطرق التي يمكنني التفكير فيها - بكل الطرق المتاحة، وكل الطرق المستطاعة، باختصار - حاولت الحصول على عمل مناسب هنا، في بلندرستون، ولكنني لم أحصل على أي وظيفة من أي نوع يا حبيبي».

قلت في حزن: «وما الذي تريدينه يا بيجوتي؟ هل تقصدين الرحيل والبحث عن عمل تجنين منه مالًا؟».

أجابت بيجوتي: «أتوقع أنني سأضطر للذهاب إلى يارموث والعيش بها».

أشرق وجهي قليلًا، ورحت أقول: «ربما لو ذهبت إلى أبعد من ذلك، كنت سأشقى بفقدانك كثيرًا. سأراك هناك بين الحين والآخر يا عزيزتي العجوز بيجوتي. لن تكوني في الطرف الآخر من العالم، أليس كذلك؟».

صرخت بيجوتي في إيماءات هائجة فقالت: «معاذ الله أن تفرقنا طرق مختلفة! ما دمت تمكث هنا يا صغيري، فسوف آتي كل أسبوع لرؤيتك ما دمت حية. سأداوم على زيارتك يوم واحد، كل أسبوع طوال حياتي».

أزاح هذا الوعد ثقلًا كبيرًا يهيمن على عقلي، لكن هذا الوعد لم يكن كل شيء، فقد راحت بيجوتي تقول:

«إنني ذاهبة يا ديفي، كما ترى. سأذهب لأخي، أولًا لزيارة مدتها أسبوعان - فقط حتى يتاح لي الوقت للتفكير في أموري، وأعود إلى حالتي مرة أخرى. أما الآن، فإنني أحسب أنهما لا يريدانك هنا في الوقت الحالي، وربما يسمحان لك بالذهاب معي».

ما كان لشيء مهما كان، أو لأي علاقة بأي إنسان مهما كانت علاقته بي، أن يمنحني إحساسًا بالمتعة في ذلك الوقت، باستثناء ما عرضته عليَّ بيجوتي حينها. رحت أفكر كيف سأصير محاطًا مرة أخرى بتلك الوجوه الصادقة المرحبة بوجودي، رحت أفكر كيف سيتجدد ذلك الهدوء في صباح يوم الأحد العذب، حيث ستدق الأجراس، وتترامى الحجارة في الماء، وتلوح لي السفن الغامضة تخترق الضباب، كيف سأتجول ذهابًا وإيابًا مع إيميلي الصغيرة فأخبرها بمشكلاتي، بينما تلقي إليَّ سحرًا ورجمًا من وابل القذائف والحصى المتراصة على الشاطئ. لقد هدأ قلبي وسكن بعد هذا التفكير. ارتددت منزعجًا بعدها بلحظات بسبب تشككي في منح الآنسة مردستون موافقتها لي، لكن سرعان ما انزاح عني هذا الهم، فقد جاءت الآنسة مردستون في المساء تتفقد الخزانة، وكنا نتحدث، فإذا ببيجوتي تدهشني بجرأتها بعد أن طرحت أمامها الأمر على الفور.

قالت الآنسة مردستون بينما تنظر في جرة مخلل: «سيصير الصبي عاطلًا هناك، والكسل هو أصل كل الشرور. لكن في رأيي من المؤكد أنه سيصير عاطلًا عن العمل هنا أيضًا أو في أي مكان».

استطعت أن ألاحظ أن بيجوتي قد جهزت إجابة غاضبة، لكنها ابتلعتها من أجلي وسكتت.

قالت الآنسة مردستون، ولم تزل تراقب المخللات: «أُفٍّ! لا شيء عندي ذو أهمية غير عدم إزعاج أخي أو تعكير مزاجه. أحسب أنه يجدر بي أن أوافق».

شكرتها من دون أن أبدي أي فرح لئلا يدفعها ذلك إلى سحب موافقتها. لا يمكنني أن أتصور سوى أنني كنت قد سلكت مسارًا حكيمًا، لأنها أخذت تنظر نحوي عبر جرة المخلل، بعد أن فاضت نظراتها بمرارة فجة كما لو أن عينيها السوداوين قد امتصتا محتويات الجرة. كانت قد أعطتني إذنها على الرغم من ذلك ولم تتراجع عنه. انقضى الشهر، وكنت أنا وبيجوتي مستعدين للرحيل.

جاء السيد باركس إلى المنزل ليحمل صناديق بيجوتي. لم أعهده قَطُّ يمر من بوابة الحديقة من قبل، ولكنني رأيته في هذه المناسبة وقد دخل إلى المنزل. ألقى بنظرة خاطفة نحوي بينما يحمل أكبر صندوق ويخرج من المنزل. أحسب أن نظرته كانت ذات معنى، فإن كان لكل معنى إيماءة لوجدت المعاني سبيلًا إلى وجه السيد باركس.

لفت بيجوتي بطبيعة الحال حالة من الغم، بينما كانت تغادر مكانًا كان بمثابة منزلها لسنوات عديدة، حيث أنشأت أقوى علاقتين في حياتها - أمي وأنا. كانت قد تمشت في ساحة الكنيسة في وقت مبكر للغاية، ثم ما لبثت أن ركبت العربة وجلست داخلها تحمل منديلها تمسح به دموع عينيها.

ظلت على هذه الحالة، فلم يحرك السيد باركس ساكنًا على الإطلاق. جلس في مكانه المعتاد وقد بدا مثل شخصية عظيمة لها

مهابة. بدأت بيجوتي تتلفت وتتحدث معي، فإذا به قد أومأ برأسه وابتسم ابتسامة عريضة، أخذ يكررها عدة مرات. ليست لديَّ أدنى فكرة لم كان يبتسم، أو ماذا قصد بأفعاله هذه.

تحدثت بنوع من التهذيب قائلًا: «يا له من يوم جميل يا سيد باركس!».

قال السيد باركس، بطريقته المتحفظة في الكلام بشكل عام، كما هي عادته دومًا: «لا بأس به».

ألمحت إليه كي أرضيه، فقلت: «إن بيجوتي مرتاحة تمامًا الآن يا سيد باركس».

قال السيد باركس: «هل صارت مرتاحة حقًّا؟».

التفت إليها السيد باركس بعد تفكير في الأمر وأخذ يقول في رشاقة: «هل أنتِ مرتاحة الآن؟».

ضحكت بيجوتي وأجابت بالإيجاب.

دمدم السيد باركس، وقد انزلق من مقعده ليقترب منها، وقد نكزها بمرفقه، قائلًا: «هل أنتِ مستريحة؟ حقًّا وصدقًا، كما تعلمين. هل أنتِ كذلك؟ إنكِ حقًّا وصدقًا مستريحة جدًّا؟ أليس كذلك؟ آه صحيح؟».

اقترب منها السيد باركس مع كل سؤال من هذه الاستفسارات، وأخذ يدفع كتفها مرة بعد الأخرى، حتى تزاحم ثلاثتنا في النهاية في الزاوية اليسرى من العربة، وصرت مضغوطًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد استطعت تحمل الأمر.

نبهته بيجوتي إلى معاناتي، فأعطاني السيد باركس مساحة أكبر قليلًا في الحال، وأخذ يتراجع درجة تلو الأخرى. إلا أنني انتبهت إلى أنه قد توصل إلى طريقة رائعة للتعبير عن نفسه في هيئة أنيقة ومقبولة وموجهة لهدفه، من دون تعب في اختراع محادثة واهية. كان من الواضح أنه استمر في الضحك لبعض الوقت، إلى أن استدار إلى بيجوتي مرة أخرى، وكرر قوله: «هل أنتِ مرتاحة جدًّا على الرغم من ذلك؟». تحمَّلنا ما حدث من قبل، حتى كادت أنفاسي تفارق جسدي. ظل يدنو بنفسه من جديد، ويسأل السؤال نفسه وينتهي إلى النتيجة نفسها. رحت في النهاية، أنهض واقفًا عند مسند الأقدام كلما رأيته مقتربًا، متظاهرًا بالنظر إلى الفضاء، وقد كان لعملي هذا أثر جيد جدًّا.

كان في غاية اللطف، إذ توقف عند حانة - لتوجيه التفاتة كريمة إلينا بشكل خاص - وأحضر إلينا قطعًا من لحم الضأن المشوي ومشروبًا من البيرة. كانت بيجوتي تشرب، فإذا به يتقرب منها منقضًّا عليها بأحد طرقه التي كادت أن تخنقها. اقتربنا من نهاية رحلتنا، فوجد أمامه مزيدًا من العمل ووقتًا أقل لمثل هذه الأفعال الجريئة. كنا قد صعدنا إلى رصيف يارموث، وشعرنا جميعًا بإعياء تكرار الاهتزاز والصدمات، وفهمت أن إعياءنا منعنا من استغلال أي وقت فراغ في أي شيء آخر.

انتظَرَنا السيد بيجوتي بصحبة هام في المكان القديم. استقبلاني واستقبلا بيجوتي بترحاب حنون، وصافحا السيد باركس، الذي انزاحت قبعته حتى نهاية رأسه، وقد أخذ يهز ساقيه. أحسب أن مظهره كان دالًّا على حالته. أخذ كل منهما إحدى حقائب بيجوتي، وكنا على

وشك الانطلاق، حينما أشار إليَّ السيد باركس بإصبعه حتى أمر من مكان تحت الباب.

راح السيد باركس يتمتم قائلًا: «أقول؛ لقد كان كل شيء على ما يرام».

نظرت إلى وجهه وأجبته، في محاولة لأكون عميقًا جدًّا قائلًا: «آهٍ!».

قال السيد باركس بينما يهز رأسه في ثقة: «لم ينتهِ الأمر بعد. كان كل شيء على ما يرام».

أجبته مرة أخرى: «آهٍ!».

قال صديقي: «إنك تعرف من كان راغبًا، إنه باركس، ولا أحد سوى باركس».

أومأت بالموافقة.

قال السيد باركس بينما يصافحني: «لا بأس. إنني صديقك. لقد جعلت كل شيء على ما يرام من البداية. كل شيء يسير على أفضل حال».

كانت هذه هي محاولاته لأن يصير واضحًا بشكل خاص، إلا أن السيد باركس لم يزل غامضًا للغاية، لدرجة أنني وقفت أدقق النظر إلى وجهه لمدة ساعة، وبالتأكيد لم أحصل على قدر أكبر من المعلومات منه كما لو أنه ساعة معلقة متوقفة عن الحركة. راحت بيجوتي تناديني فسرت مبتعدًا عنه. سرنا معًا، فأخذت تسألني عما قاله لي، فقلت لها إنه قال إن كل شيء على ما يرام.

قالت بيجوتي: «يا لوقاحته، لكنني لست مستاءة! يا ديفي عزيزي، ما رأيك إذا كنت سأفكر في الزواج؟».

أجبتها بعد قليل من التفكير: «لم تسألين؟ أفترض أنكِ ستبقين على حبكِ لي كثيرًا يا بيجوتي، كما تفعلين الآن».

اندهش مارة الشارع، وكذلك اعترى الذهول من كانا يسيران خلفنا، حين اضطرت هذه الروح الطيبة وتوقفت وعانقتني على الفور، كدليل قاطع على حبها الذي لن يتحول.

سألتني مرة أخرى بعدما انتهت من معانقتي وتأهبنا للمسير: «قل لي ما رأيك يا عزيزي؟».

«هل تقصدين رأيي في فكرة الزواج من السيد باركس يا بيجوتي؟».

قالت بيجوتي: «نعم».

«أظن أنه سيكون أمرًا جيدًا جدًّا. كما تعلمين يا بيجوتي، سيكون بحوزتكِ الحصان والعربة دائمًا، فتستطيعين المجيء لرؤيتي، ويمكن أن تتحركي بهما من دون مقابل، وتتأكدين من سهولة الحضور».

صاحت بيجوتي قائلة: «يا له من شعور ثمين! ما كنت أفكر فيه قَطُّ طوال هذا الشهر! نعم يا غالي. وأحسب أنني سأصير أكثر استقلالية تمامًا. تعلم أنني سأعمل بشكل أفضل في منزلي، يفوق ما سأعمله لأي شخص آخر الآن. إنني لا أعرف هل يناسبني العمل في بيت غريب بعد الآن».

أردفت بيجوتي قائلة بعد أن تفكرت قليلًا: «وسأكون دومًا بالقرب من مكان استراحة الجميلة، وسأصبح قادرة على زيارتها وقتما أحب،

وعندما أستلقي لأرتاح في مرقدي الأخير، فإنني لن أصير بعيدة عن فتاتي العزيزة».

لم يقل أي منا أي شيء لبرهة قصيرة بعد هذا الكلام.

تحدثت بيجوتي في مرح قائلة: «لكنني لن أفكر في الأمر مرة أخرى، إذا كان ديفي معترضًا على الأمر - حتى وإن سُئلت أمام الكنيسة ثلاثين مرة أو ثلاثة أضعاف ذلك، أو حتى إن كنت أحمل خاتم الزواج في جيبي».

أجبتها: «انظري إليَّ يا بيجوتي، وراقبي وجهي السعيد حقًّا، فإنني لا أتمنى إلا أن يتم هذا الأمر حقًّا»، كان هذا ما تمنيته بالفعل من كل قلبي.

قالت بيجوتي: «حسنًا، يا أغلى ما في حياتي، لقد فكرت في الأمر ليلًا ونهارًا، بمختلف الطرق الممكنة، وآمل أن أكون في المسار الصحيح، لكنني سأفكر في الأمر مرة أخرى، وأتحدث مع أخي بشأنه، وخلال هذه المدة سنُبقي الأمر سرًّا بيننا يا ديفي، أنت وأنا. إن باركس إنسان طيب وملتزم، وإذا أديت واجبي سأستريح، وإن لم أسترح فسيكون مرد الخطأ إليَّ أنا». قالت بيجوتي جملتها الأخيرة هذه ضاحكة من كل قلبها. كان هذا الاقتباس من السيد باركس وكان مناسبًا للغاية، وأثار قلقنا كثيرًا، لدرجة أننا ضحكنا لمرات عديدة، وقد لفتنا روح الدعابة والابتهاج حتى وصلنا إلى بيت السيد بيجوتي.

ظهر أمامي البيت كسابق عهدي به، إلا أنه ربما تقلص قليلًا في عيني. كانت السيدة جامدج تنتظر عند الباب كما لو كانت تقف مكانها

منذ ذاك الحين. كان كل ما في الداخل كما هو، وصولًا إلى الأعشاب البحرية في الكوب الأزرق في غرفة نومي. خرجت نحو ساحة البيت لأملِّي عيني بالمكان، فأبصرت السلطعون وسرطان البحر والكابوريا أنفسهم الذين تتملكهم الرغبة ذاتها في عض أي شيء في هذا العالم بشكل عام، وقد بدوا في الحال نفسها في الزاوية القديمة نفسها.

لم أبصر أي أثر لإيميلي ولم أتمكن من رؤيتها، لذلك سألت السيد بيجوتي عنها.

قال السيد بيجوتي وهو يمسح العرق المتصبب فوق جبهته الناتج عن حمل صندوق بيجوتي: «إنها في المدرسة يا سيدي. ستعود إلى المنزل...». أخذ ينظر إلى الساعة الهولندية، ثم أكمل: «في غضون عشرين دقيقة إلى نصف ساعة. كلنا نشعر بفقدانها، بارككم الله».

تنهدت السيدة جامدج.

صرخ السيد بيجوتي قائلًا: «ابتهجي أيتها الأم».

قالت السيدة جامدج: «أشعر أكثر من أي شخص آخر أنني مخلوقة وحيدة، وقد كانت إيميلي في الغالب المخلوقة الوحيدة التي لا تضايقني».

راحت السيدة جامدج تزمجر وتهز رأسها، واتجهت نحو النار لتطفئها. قال السيد بيجوتي بصوت منخفض وهو يدير نظراته حولنا بينما كانت السيدة جامدج مشغولة للغاية، بعد أن أخفى شفتيه بكفه: «الراحل». توقعت مما حدث أنه لم يقع أي تحسن في مزاج السيدة جامدج منذ زيارتي الأخيرة.

كان المكان بأكمله في هذه اللحظة، أو كان ينبغي أن يكون، مكانًا ممتعًا تمامًا كما كان دائمًا، ومع ذلك لم يُثِر إعجابي بالدرجة ذاتها كما كان سابقًا. شعرت بخيبة أمل إلى حد ما. ربما أحسست بذلك لأن إيميلي الصغيرة لم تكن في المنزل. كنت أعرف الطريق الذي ستعود منه، فوجدت نفسي في هذه اللحظة أسير على طول هذا الطريق متطلعًا لمقابلتها.

بدا لي شبح شخص قادم من مسافة بعيدة، سرعان ما تبين لي أنها إيميلي. لم تزل ذات هيئة ضئيلة، على الرغم من أنها صارت أكبر سنًّا. اقتربت أكثر، فإذا بي أبصر عينيها وقد استحالت أكثر زرقة، وبدا وجهها الغامض أكثر إشراقًا. كانت بالملامح نفسها لكنها أكثر جمالًا. شعرت بنوع من الفضول جعلني أتظاهر بعدم معرفتها، ومررت من أمامها كما لو أنني أبحث عن شيء بعيد المنال. لقد تصرفت بالطريقة نفسها في وقت لاحق في حياتي، وأحسب أنني كنت مخطئًا.

لم تهتم «إيميلي الصغيرة» بي على الإطلاق. أبصرتني بوضوح جلي، ولكنها بدلًا من الالتفات لمناداتي، هربت ضاحكة. أجبرني هذا التصرف على الركض وراءها، فركضت هي الأخرى بسرعة حتى أننا كدنا نصل إلى البيت قبل أن أمسك بها.

قالت إيميلي الصغيرة: «آهٍ، إنه أنت، أليس كذلك؟».

قلت: «ولم لا، لقد عرفتِ من أكون يا إيميلي».

قالت إيميلي: «ألم تعرفني أنت كذلك؟»، كنت على وشك تقبيلها، لكنها غطت شفتيها بيديها، وقالت إنها ليست طفلة الآن، ثم هربت وقد زادت ضحكاتها أكثر من أي وقت مضى، ودخلت إلى المنزل.

كانت تبدو سعيدة بإغاظتي، وهو تغيير رحت أسائل نفسي كثيرًا عنه. كانت طاولة الشاي جاهزة، وقد وضعت خزانتنا الصغيرة في مكانها القديم، ولكنها لم تقترب للجلوس بجانبي، بل ذهبت بدلًا من ذلك لتجلس بجوار السيدة جامدج، هذه المرأة المتذمرة. سألها السيد بيجوتي عن سبب عدم جلوسها في مكانها الأثير، فراحت تعبث بخصلات شعرها لتغطي وجهها بالكامل لإخفائه، ولم تتمكن من فعل شيء سوى الضحك.

قال السيد بيجوتي وهو يربت عليها بيده الكبيرة: «كم أنتِ جميلة كقطة!».

صرخ هام قائلًا: «حقًّا إنها كذلك. إنها كذلك حقًّا. يا سيد ديفي إنها كذلك».

جلس وراح يضحك عليها لبعض الوقت في حالة تمزج بين الإعجاب والبهجة، مما جعل وجهه خجلًا وقد توقدت منه حمرة ملتهبة.

كان الجميع في الواقع يدلل إيميلي الصغيرة، ولم يكن أحد منهم يفوق السيد بيجوتي نفسه في تدليله لها، فقد كانت تستطيع إقناعه بأي شيء، ليس عليها سوى التوجه نحوه ووضع خدها الناعم فوق سوالف وجنتيه الخشنة. كان هذا رأيي على الأقل، عندما رأيتها تفعل ذلك. أحسب أن السيد بيجوتي كان محقًّا تمامًا في تدليله لها. كانت حنونة للغاية ولطيفة، تتمتع بأسلوب عذب يجعلها ماكرة وخجولة في الوقت نفسه، حتى إنها أسرتني أكثر من أي وقت مضى.

كانت رقيقة القلب أيضًا. جلسنا نستدفئ حول نيران المدفأة بعد احتساء الشاي، فأشار السيد بيجوتي إلى الخسارة التي تعرضتُ لها بينما يدخن غليونه. احتبست الدموع في عيني إيميلي، ونظرت ناحيتي عبر الطاولة نظرة حنونة، حتى إنني شعرت بامتنان بالغ لها.

تكلم السيد بيجوتي بينما أخذ يمشط جدائل شعرها، فانساب بين يديه كما ينساب الماء، قائلًا: «آه!، ها هي يتيمة أخرى، كما ترى يا سيدي». وهنا، نكز السيد بيجوتي هام في صدره، وراح يقول: «وهذا يتيم آخر، على الرغم من أنه لا يشبه الأيتام كثيرًا».

قلت بينما أهز رأسي: «إذا كنت وليًّا لأمري يا سيد بيجوتي، فلا أحسب أنني سأشعر بهذا اليتم أبدًا».

صاح هام بنوع من نشوة: «حسنًا أيها الشاب السيد ديفي، مرحى! أحسنت قولًا، ولا أكثر من ذلك. مرحى! مرحى!». هنا أعاد اللكزة إلى السيد بيجوتي، ثم نهضت إيميلي الصغيرة وقبّلت السيد بيجوتي.

سألني السيد بيجوتي: «وكيف حال صديقك يا سيدي؟».

قلت: «أتقصد ستيرفورث؟».

صرخ السيد بيجوتي بعد أن التفت إلى هام قائلًا: «هذا هو الاسم! كنت أعلم أنه يشبه هذا الاسم بطريقة ما».

عقّب هام على كلامه بينما يضحك قائلًا: «لقد قلت إنه يدعى رودرفورد».

ورد السيد بيجوتي قائلًا: «حسنًا، أليست «ستير» و«رود» تحملان

معنى قيادة الدفة، أليس كذلك؟ إنني لم أبتعد عن الاسم كثيرًا. كيف حاله على أي حال يا سيدي؟».

«لقد كان بصحة جيدة جدًّا حقًّا عندما رجعت إليه يا سيد بيجوتي».

قال السيد بيجوتي بينما يمد غليونه مشيرًا به: «يا له من صديق مخلص! سنذكره إذا تحدثنا عن الأصدقاء. يا إلهي؛ كم أَحَب قلبي رؤيته، فكان من الممتع التعرف عليه».

أردفت قائلًا، وقد سر قلبي بهذا الثناء: «إنه وسيم للغاية، أليس كذلك؟».

صرخ السيد بيجوتي قائلًا: «وسيم! إنه مقارنة بك يبدو مثل... مثل... لا أعرف ما وجه الشبه أو المقارنة بك. إنه جريء جدًّا».

قلت: «نعم! هذه شخصيته. إنه شجاع مثل الأسد، ولا يمكنك تصور مدى صراحته يا سيد بيجوتي».

قال السيد بيجوتي بينما ينظر إليَّ من خلال دخان غليونه: «أفترض الآن أنه ذكي، يلمح ما يطير في الهواء أو يلتقط أي معلومة تقريبًا تظهر أمامه في أي كتاب».

قلت بسرور بالغ: «نعم. إنه شديد الذكاء بشكل مذهل».

غمغم السيد بيجوتي بعد أن أومأ برأسه إيماءة قوية قائلًا: «يا له من صديق رائع!».

قلت: «لا يمكن لأي شيء مهما كان أن يصير عقبة أمامه، إنه يعرف ما ينبغي فعله بمجرد النظر إلى الأمور. إنه أفضل لاعب كريكيت رأيته

على الإطلاق. سوف يمنحك عدد الضربات التي تريدها تقريبًا، ثم يغلبك بكل سهولة».

طوح السيد بيجوتي رأسه مرة أخرى بقوة كما لو أنه يريد أن يقول «بالطبع سيغلبني».

تابعت قائلًا: «إنه متحدث لبق، بحيث يمكنه التغلب على أي شخص بحجته، ولا أعرف ماذا ستقول إذا سمعته وهو يغني يا سيد بيجوتي».

طوح السيد بيجوتي رأسه مرة أخرى بقوة كما لو أنه يريد أن يقول «ليس لديَّ شك في ذلك».

رحت أتحدث متحمسًا تمامًا لموضوعي المفضل قائلًا: «وفوق كل هذا، إنه زميل كريم، ورائع، ونبيل. يصير من الصعب منحه كل الثناء الذي يستحقه. إنني متأكد من أنني لا أستطيع أبدًا أن أقدم له شكرًا وافيًا أمام الكرم الذي حماني به، فأنا أصغر منه بكثير وأضعف منه قدرًا في المدرسة».

كنت أتابع حديثي المتلاحق في غاية السرعة والحماس، إلى أن استقرت عيني على وجه إيميلي الصغيرة، الذي كان منحنيًا للأمام فوق الطاولة، مستمعة لحديثي باهتمام عميق، وقد حبست أنفاسها، وأخذت عيناها الزرقاوان تتألقان مثل الجواهر، وقد كسا اللون الوردي خديها. بدت جادة وفي غاية الجمال، حتى إنني توقفت عن الحديث بنوع من الدهشة، ثم أخذوا يراقبونها جميعًا في الوقت نفسه. كنت قد توقفت عن الحديث، فضحكوا جميعًا وأخذوا ينظرون إليها.

قالت بيجوتي: «إن إيميلي مثلي تمامًا؛ تود رؤيته».

صارت إيميلي في حيرة من أمرها بعد أن صار الجميع يراقبونها. طأطأت رأسها، وقد كست حمرة الخجل وجهها. ألقتْ نظرة خاطفة نحونا عبر خصلات شعرها المبعثرة في هذه اللحظة، فإذا بها تبصرنا جميعًا وقد أطلنا النظر إليها (إنني متأكد من أنني، على سبيل المثال، كان من الممكن أن أبقي نظراتي نحوها لساعات). هربت من أمامنا، وابتعدت مختبئة حتى حان وقت النوم.

استلقيت على السرير الصغير القديم القابع في نهاية السفينة. سرت الريح تئن عبر الشاطئ كما كانت من قبل. لم يسعني إلا أن أتخيل في هذه اللحظة، أن الريح تئن من أولئك الذين رحلوا، وبدلًا من التفكير في أن البحر قد يرتفع في الليل ويطفو القارب بعيدًا، فكرت في البحر الذي ارتفع موجه، منذ أن سمعت هذه الأصوات آخر مرة، ثم أغرق بيتي السعيد. أتذكر حالي مع سماع أول صوت للريح والماء يخفت في أذني، لقد رحت أدعو في صلاتي وألتمس أن أكبر وأتزوج من إيميلي الصغيرة، وهكذا غلبني النوم وأنا واقع في الحب.

مرت الأيام مشابهة إلى حد كبير الأيام التي مرت من قبل، باستثناء شيء واحد - كان استثناءً فارقًا - حيث صار من النادر الآن أن أتجول أنا وإيميلي الصغيرة على الشاطئ. لقد باتت تؤدي واجبات ما تتعلمه، كما صارت تقوم بأعمال الخياطة، وهكذا كانت غائبة منشغلة خلال جزء كبير من النهار. إلا أنني شعرت أننا ما كنا لننعم بلحظات مميزة لو أننا كررنا جولاتنا القديمة، فعلى الرغم مما يراود إيميلي من

خيالات وأهواء طفولية، فإنها صارت امرأة صغيرة ذات أنوثة تفوق ما كنت أتوقعه. بدت وكأنها ابتعدت عني مسافة كبيرة، خلال عام أو أكثر بقليل. كانت تحبني لكنها ضحكت عليَّ وعذَّبتني. كنت أذهب لمقابلتها، إلا أنها سلكت طريقًا مختلفًا إلى المنزل، ثم وقفت تضحك عند الباب بعدما عدت محملًا بخيبة أملي. كانت أفضل الأوقات عندي عندما تجلس للعمل في هدوء على أعتاب المنزل، حينها أجلس على السلم الخشبي عند قدميها، ثم أقرأ لها. يخيل إليَّ في هذه الساعة، أنني لم أرَ قَطُّ مثل هذه الشمس الساطعة بضوئها - كما هي الحال في فترة ما بعد الظهيرة في شهر أبريل - لم أرَ في حياتي قَطُّ مشهدًا صغيرًا رائقًا للشمس كما كنت أراه بينما أجلس عند مدخل القارب القديم. لم أرَ مثل هذه السماء طوال حياتي، ولم أرَ مثيلًا لهذه المياه، ولم أبصر مثل هذه السفن البديعة تبحر بعيدًا في رحاب الهواء الذهبي.

ظهر السيد باركس في الليلة الأولى بعد وصولنا، وقد بانت عليه حالة غريبة ومربكة للغاية. جاء مصطحبًا حزمة من البرتقال مربوطة في منديل، ونظرًا لأنه لم يُشر بأي شيء إلى هذه الحزمة، فقد افترضنا بعدما غادر أنه قد نسيها أو جاء بها عن طريق الصدفة. ركض هام وراءه ليرد حزمته إليه، ثم عاد ليخبرنا أنها هدية لبيجوتي. ظل بعد هذه المناسبة يظهر كل مساء في الساعة نفسها بالضبط، ومعه حزمة صغيرة دائمًا، من دون أن يشير إليها قَطُّ. يضعها بانتظام خلف الباب ثم يغادر. كانت هذه الحزمة متنوعة الأصناف وغريبة في تنوعها. أتذكر أنها ضمت في بعض الأوقات زوجًا من كوارع الخنازير، ووسادة دبابيس ضخمة، ونصف

مكيال من بقوليات أو مقدارًا من التفاح أو نحو ذلك من الأشياء، كما ضمت أحيانًا زوجًا من الأقراط، وبعض البصل الإسباني، وعلبة من الدومينو، أو طائر كناري وقفصًا، وأصابع مخللة من لحم الخنزير.

أتذكر أن غزل السيد باركس كان غريبًا تمامًا. كان من النادر أن يتكلم بشيء. لا يجلس إلا بجانب نيران المدفأة في الهيئة نفسها التي يجلس بها في عربته، ثم يحدق بشدة في وجه بيجوتي، التي تجلس عادة أمامه. أحسب أن الحب قد ألهمه ذات ليلة فعلًا غريبًا، فقد تناول الشمعة التي احتفظت بها بيجوتي للاستعانة بها في الخياطة، ثم وضعها في جيب صدريته وحملها معه. كان من دواعي سروره بعد ذلك إخراجها من جيبه كلما احتاجت إليها بيجوتي، ثم يرجعها إلى بطانة جيبه في حالة ذائبة جزئيًا، هكذا يعاود إخراجها ثم وضعها في الجيب مرة أخرى عند الانتهاء من استخدامها. بدا أنه يستمتع بهذا الفعل للغاية، من دون أن يشعر أنه بحاجة إلى الحديث مطلقًا. أخذ بيجوتي في نزهة في الهواء الطلق، لم يساور رأسه أي قلق بشأن الحديث معها على ما أظن. كان كل ما اكتفى به هو سؤالها بين الحين والآخر عما إذا كانت مرتاحة للغاية أم لا. أتذكر أنه في بعض الأحيان، بعد رحيله عنا، كانت بيجوتي تطوح مئزرها فوق وجهها ثم تضحك طوال نصف ساعة كاملة. كنا جميعًا في الواقع مستمتعين إلى حد ما بمرافقته، باستثناء السيدة جامدج البائسة، التي كان من الواضح أن الغزل بهذه الطريقة راح باستمرار يذكرها بزوجها الراحل تمامًا، والذي عاملها بمثل هذه المعاملات القديمة نفسها.

أوشكت مدة زيارتي على الانتهاء. أعلنت بيجوتي أنها ستقضي مع السيد باركس عطلة ليوم واحد معًا، وكان علينا مرافقتها؛ أنا وإيميلي الصغيرة. لم أستسغ النوم في الليلة السابقة، كنت متأهبًا لقضاء يوم كامل من السعادة مع إيميلي الصغيرة. صحونا جميعًا في الصباح الباكر، وجلسنا نتناول الإفطار، فإذا بالسيد باركس يظهر من بعيد، يقود عربة باتجاه هدفه ومحبوبته.

كانت بيجوتي كعادتها ترتدي ثوب الحداد الأنيق والهادئ. أما السيد باركس فقد ارتدى معطفًا جديدًا أزرق، قد أحسن الخياط تفصيله لأبعد حد، بحيث كانت الأكمام تغني عن القفازات حتى في أبرد الأجواء. كانت الياقة مرتفعة جدًّا للحد الذي دفعت فيه شعره ليظهر كما لو أنه مصفف إلى أعلى رأسه. كانت أزراره البراقة أيضًا كبيرة الحجم. صار السيد باركس في بنطاله الداكن وسترته البرتقالية، يبدو في هيئة غاية في الوقار والهيبة.

صرنا جميعًا مستعدين نقف في صخب على أعتاب الباب، فإذا بالسيد بيجوتي قد أعد حذاءً قديمًا، كان من المقرر أن يرميه وراءنا طلبًا لطيب الحظ، وقد عرض على السيدة جامدج القيام بهذا الأمر.

قالت السيدة جامدج: «لا، إن من الأفضل أن يقوم بهذا الأمر شخص آخر يا دانيال. إنني إنسانة وحيدة وبائسة، وأي شيء لا يُذكرني بالمخلوقات الوحيدة واليائسة لا يناسبني».

صاح السيد بيجوتي قائلًا: «تعالي أيتها الأم العجوز، خذي الحذاء واقذفيه خلفهم».

قالت السيدة جامدج بينما تئن وتهز رأسها بالرفض: «لا يا دان، إذا لم أكن مرهفة المشاعر، لاستطعت فعل المزيد من الأشياء. إنك لا تشعر بما أحس به يا دان. الأحداث لا تخالف ظنونك. إنه من الأفضل أن تقذف الحذاء بنفسك».

صارت بيجوتي في هذه اللحظة تتنقل من واحد إلى آخر بطريقة سريعة، وقد أخذت تُقبل الجميع، بعد أن أخذت موقعها من العربة، وكذلك كنا جميعًا داخلها في هذا الوقت (أنا وإيميلي على كرسيين صغيرين جنبًا إلى جنب). راحت بيجوتي تتوسل إلى السيدة جامدج أن تفعل الأمر، لذلك استجابت السيدة جامدج وألقت بالحذاء القديم خلفنا.

يؤسفني أن أتحدث عما فعلته السيدة جامدج، لقد ألقت بوابل من النحيب لمغادرتنا، فقد انغمست في البكاء على الفور، ثم اندست بين ذراعي هام، مع إعلانها أنها تعلم أنها عبء، ومن الأفضل حملها إلى المنزل في الحال، وقد ظننتُ أنها حقًّا فكرة منطقية، وربما كان من الأفضل لهام أن ينفذها.

انقضى ذلك كله، وانطلقنا بعيدًا في رحلتنا، وكان أول شيء فعلناه هو التوقف عند الكنيسة، حيث قام السيد باركس بربط الحصان ببعض القضبان ودخل مع بيجوتي، تاركًا إيميلي الصغيرة معي، جالسين وحدنا في العربة. انتهزت هذه الفرصة لأضع ذراعي حول خصر إيميلي، واقترحت عليها أن نقرر أن نصير رقيقين للغاية معًا، وأن نسعد ونمرح طوال اليوم؛ نظرًا لأنني سأغادر قريبًا جدًّا. وافقت إيميلي الصغيرة، وسمحت لي بتقبيلها. صرت في غاية الحماس، فأتذكر أني أخبرتها

أنني لن أستطيع أن أحب إنسانًا آخر أبدًا، وأنني على استعداد لقتل أي شخص يتطلع إلى نيل حبها.

يا للفرحة التي انتابت إيميلي الصغيرة بعد قولي هذا! راحت تتحدث بوقار امرأة قائلة إنها تكبرني سنًّا وأكثر حكمة مني، ثم قالت المرأة الصغيرة الملائكية؛ إنني: «فتى سخيف»، ثم ضحكت بشكل ساحر لدرجة أنني نسيت ألم نعتي بهذا الاسم المهين، بل صار من دواعي سروري أن أنظر إليها.

مكث السيد باركس وبيجوتي في الكنيسة مدة لا بأس بها، لكنهما خرجا في النهاية، ثم انطلقنا بالعربة بعيدًا نحو الريف. سرنا معًا، فإذا بالسيد باركس يلتفت إليَّ، ثم غمز بعينيه - التي ما كنت لأفكر أنه يستطيع أن يغمز بها - قائلًا:

«ما الاسم الذي كتبته على العربة؟».

أجبته قائلًا: «كلارا بيجوتي».

«وما الاسم الذي يجب أن أكتبه الآن، إذا كان هناك ثمة مكان للكتابة على هذه العربة؟».

أجبته: «هل ستكتب كلارا بيجوتي مرة أخرى؟».

قال: «بل كلارا بيجوتي باركس»، ثم انطلق في هدير من الضحك حتى اهتز الكرسي من تحته.

باختصار، لقد تزوجا، ولم يذهبا إلى الكنيسة إلا لهذا الغرض. قررت بيجوتي أن يتم ذلك بهدوء. كان الكاتب قد أتم الزواج من دون

شهود على المراسم. كانت مرتبكة بعض الشيء بعدما صرَّح السيد باركس بهذا الإعلان المفاجئ عن زواجهما. عانقتني أكثر من المعتاد كإشارة إلى عاطفتها التي لم تتأثر بزواجها، لكنها سرعان ما هدأت مرة أخرى، وقالت إنها سعيدة للغاية لإتمام الأمر.

اتجهنا نحو نزل صغير على الطريق، حيث وجدنا من استقبلنا، ثم تناولنا غداء شهيًّا للغاية، وقضينا يومًا بهيجًا سلسًا. لو أن بيجوتي قد تزوجت منذ عشر سنوات ماضية، لما كانت أكثر راحة من الآن، ولما حدث أي فارق في روحها وسلوكها. ظلت بيجوتي كما كانت دائمًا من دون أن تتغير. خرجت في نزهة مع إيميلي الصغيرة، ومعي كذلك، قبل احتساء الشاي. جلس السيد باركس يدخن غليونه في هيئة أشبه بالفيلسوف، وراح يستمتع بوقته، متأملًا -على ما أظن- في مدى سعادته، وقد أثر الأمر عليه، فشحذ شهيته وأقبل على الطعام. وإنني لأذكر بوضوح أنه أكل قدرًا كبيرًا من لحم الخنزير والخضراوات على الغداء، ثم انتهى من تناول دجاجة أو اثنتين، إلا أنه زاد على ما أكله أن تناول لحم الخنزير المقدد المسلوق حين كنا نحتسي الشاي، وقد ابتلع كمية كبيرة منه من دون أي مشقة.

فكرت كثيرًا، منذ ذلك الحين، في غرابة هذا الزفاف، فيا له من زواج بريء وبسيط، بعيد المنال! صعدنا إلى العربة مرة أخرى بعد حلول الظلام بقليل، وعدنا إلى المنزل مرتاحين. أخذنا ننظر إلى النجوم، ونتحدث عنها. كنت أكثر المتحدثين عن النجوم، وقد أثرت بحديثي لُب السيد باركس إلى حد مذهل. حدثته بكل ما أعرفه، لكنه كان سيصدق أي شيء

قد يدور في رأسي وأحدثه به، لأنه كان يكن تبجيلًا عميقًا لقدراتي، حتى إنه قال لزوجته على مرأى ومسمع مني في تلك اللحظة بالذات؛ إنني «شاب معجوز»، وحسب ظني أنه قصد بقوله إنني «معجزة».

استنفدنا الحديث عن أمر النجوم، أو بالأحرى نفدت القدرات العقلية للسيد باركس، فصنعت أنا وإيميلي الصغيرة عباءة من قماش قديم، وجلسنا تحته بقية الرحلة. آهٍ، كم أحببتها! يا لسعادتنا (هكذا ظننت) لو أننا صرنا متزوجين، فنذهب بعيدًا إلى أي مكان لنعيش بين الأشجار أو في الحقول، ولا نكبر أبدًا، ولا تزداد حكمتها أبدًا، بل نبقى طفلين إلى الأبد، يجولان جنبًا إلى جنب مع أشعة الشمس السارية وبين المروج المنمقة، متكئين برأسينا فوق الطحالب ليلًا، غارقين في نوم حلو لا يحاوطه سوى النقاء والسلام، ثم تدفننا الطيور حين نموت! كانت هذه الصور، التي تخلو من العالم الحقيقي، ساطعة بنور براءتنا، وغامضة مثل النجوم البعيدة، قد ثبتت في ذهني طوال الطريق. يسعدني أن أتذكر أن زواج قلبين بريئين مثل زواج بيجوتي والسيد باركس كان ماثلًا بحضوري مع إيميلي الصغيرة. يسعدني أن أتصور أن آلهة الجمال والحب قد حاوطت هذا العرس بأرواحها الشفافة.

وصلنا إلى السفينة القديمة مرة أخرى في وقت مناسب من الليل، وهناك ودعنا السيد باركس والسيدة زوجته، ثم رحلا بهدوء إلى منزلهما. شعرت حينها، ولأول مرة، بأنني فقدت بيجوتي. كان من الممكن أن أخلد إلى الفراش الآن بقلب مثقل بالهموم لو أنني تحت أي سقف آخر، أما هذا السقف فيعلو هو الآخر رأس إيميلي الصغيرة.

عرف السيد بيجوتي وهام ما يدور في خاطري، وكانا قد أعدا العشاء بوجه مضياف لإبعاد هذه الأفكار عني. جاءت إيميلي الصغيرة وجلست بجانبي على الخزانة للمرة الوحيدة طوال تلك الزيارة. وقد كان يومًا رائعًا يختتم أحداثًا رائعة.

بت في ليلة من ليالي المد. ما إن توجهنا إلى الأسرة حتى خرج السيد بيجوتي وهام بعد وقت قصير، فذهبا للصيد. انتابني شعور بشجاعة كبيرة لأنني وحدي في هذا المنزل المنعزل، وقد صرت حاميًا لإيميلي وللسيدة جامدج. لم أتمنى سوى أن يهجم علينا أسد أو ثعبان، أو أي وحش مفترس، فلو هجم علينا، لأرديته قتيلًا وحظيت بوسام المجد. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل في تلك الليلة في أثناء تجولي في المنزل في يارموث، لذلك قدمت إلى نفسي بديلًا أفضل، فرحت أحلم بمهاجمة التنانين حتى بزوغ الصباح.

جاءت بيجوتي مع الصباح، وقد نادتني كعادتها من تحت نافذتي، كما لو أن السيد باركس الحوذي لم يكن سوى حلم من البداية إلى النهاية. اصطحبتني بعد الإفطار إلى منزلها، وقد كان منزلًا صغيرًا وجميلًا. كان أكثر ما أعجبني من بين جميع الأجهزة الموجودة فيه، مكتبًا قديمًا مصنوعًا من الخشب الداكن يقبع في الصالون - كان المطبخ المكسو بالبلاط هو غرفة الجلوس العامة. كان للمكتب سطح متحرك يُفتح ويغلق ليصير مكتبًا، كانت بداخله طبعة لأجزاء رباعية

ضخمة من كتاب فوكس للشهداء[1]. اكتشفت هذا المجلد الثمين الذي لا أتذكر منه كلمة واحدة الآن. رحت أنهال عليه وألتهمه على الفور. لم أفوت فرصة لزيارة المنزل مطلقًا بعد ذلك، إلا وانحنيت فوق الكرسي، لأفتح هذا النعش حيث تم إخفاء هذه الجوهرة الثمينة، ثم ما ألبث أن أبسط ذراعي فوق المكتب، فأغوص في الأعماق لألتهم هذا الكتاب من جديد. أخشى أن تكون صوره الكثيرة التي مثَّلت كل أنواع الرعب والهلع، هي ما جذبتني إليه بشكل رئيسي. صار كتاب الشهداء ومنزل بيجوتي لا ينفصلان في ذهني منذ ذلك الحين، ولم يزالا على هذا النحو حتى الآن.

استأذنت للاستعداد للسفر، وودعت السيد بيجوتي، وهام، والسيدة جامدج، والصغيرة إيميلي، في ذلك اليوم. قضيت ليلتي في بيت بيجوتي، في غرفة صغيرة تقبع في السطح (كان كتاب التمساح على رف بجانب رأس السرير) وكان من المفترض أن تصير هذه الحجرة دومًا لي، هكذا قالت بيجوتي لي، كما أنها ستحافظ عليها دومًا بنفس هيئتها الأولى تمامًا.

قالت بيجوتي: «أيًا ما كنت صغيرًا أو كبيرًا يا عزيزي ديفي، وما دمت أنا على قيد الحياة ولديَّ هذا المنزل يعلو سقفه فوق رأسي، فإنك ستجد حجرتك كما لو أنك تركتها لتوِّك منذ دقيقة واحدة. سأعتني بها

---

(١) اشتهر جون فوكس بتسجيله لتاريخ شهداء المسيحية، وبالأخص معاناة الإنجليز البروتستانت من القرن الرابع عشر، حتى عهد الملكة ماري الأولى. أثَّر الكتاب في تشكيل الرأي العام الإنجليزي المعادي للكاثوليكية لعدة قرون.

كل يوم، كما اعتدت أن أعتني بغرفتك الصغيرة القديمة يا حبيبي. إذا سافرت إلى الصين، فلتبقَ ذكراها في قلبك كما هي، ولتتمثلها طوال الوقت الذي تصير فيه بعيدًا».

شعرت بصدق مربيتي العجوز التي أكن لها معزة خالصة من كل قلبي. شكرتها بقدر استطاعتي، لكن شكري لم يكن وافيًا. كانت تتحدث معي مطوقة عنقي بذراعيها، وقد كنت أهيئ نفسي للسفر والعودة إلى المنزل في الصباح. وصلت إلى بيتي صباحًا بالفعل، وقد اصطحبتني بيجوتي والسيد باركس في العربة. لم يتركاني عند البوابة في وداع سهل، بل كم كان شاقًّا مؤثرًا! كم كان مشهدًا غريبًا يتراءى أمامي بينما أرى العربة تسير، تأخذ بيجوتي بعيدًا عني، وتتركني تحت أشجار الدردار القديمة التي تنظر إلى المنزل، من دون أن يلتفت إليها وجه إنسان ليبادلها نظرات من الحب أو الإعجاب بعد الآن!

ها أنا الآن في حالة إهمال لا أستطيع أن ألتفت إلى حالتي من دون أن أرثي لحالي وأشفق على نفسي. وقعت في هوة من الوحدة – بعيدًا عن أي عناية أو محبة، نائيًا عن صحبة جميع الأولاد الآخرين الذين في مثل عمري، بعيدًا كل البعد عن كل الرفقة. لا رفيق سوى أفكاري الواهنة – التي يبدو أنها تلقي بظلالها على هذه الورقة بينما أكتب هذه الكلمات.

لم أكن لأُقبل على الحياة ولو ليوم واحد، ما لم أُرسَل إلى مدرسة مهما كانت صعبة أو لا يمكن أن تطاق على الإطلاق. ربما أتعلم شيئًا ما، على أي حال، في أي مكان. لم يبدُ لخاطري أي أمل. لقد كانوا

يكرهونني، ويتجاهلونني فلا ينظرون نحوي إلا بعبوس وحزم. أظن أن السيد مردستون كان يمر بضائقة مادية في هذا الوقت، بسبب قلة الدخل تقريبًا. لم يستطع أن يتحملني، وصار يحاول إبعادي عنه. كان يريد على حد ظني، أن يبعد عن تفكيره ما لديَّ من حقوق مستحقة، وقد نجح فيما أراد.

لم تُوجَّه نحوي أي إساءة. لم أتعرض للضرب أو التجويع. أما الظلم الذي وقع عليَّ، فلم تتخلله فترات من التأنيب أو المراجعة، وقد تم تنفيذه بطريقة منهجية بلا هوادة أو عاطفة. لم يلتفت أحد لأمري يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر. أتساءل أحيانًا حين أفكر في الأمر؛ ماذا سيفعلون لو أنني أصبت بمرض؛ هل كنت سأستلقي في غرفتي المنعزلة، فأنزلق في مرضي بطريقتي الانفرادية المعتادة، أم ما إذا كان أي إنسان سيمد إليَّ يد العون؟

كنت أتناول وجباتي مع السيد مردستون والسيدة أخته في المنزل، وكذلك اعتدت في غيابهما أن آكل وأشرب وحدي. صرت أتسكع في جميع الأوقات في أرجاء المنزل كاملًا مع تجاهلي التام. صار لي مطلق الحرية باستثناء أنهما يشعران بالغيرة من تكوين أي صداقات. ظنا أنني لو جالست الأصدقاء، فسأشتكي إليهم حالي وأحكي لهم أمري. طلب مني السيد تشيليب كثيرًا أن أزوره، فقد كان أرمل، فقدَ زوجة منذ بضع سنوات. كانت ضئيلة الهيئة ذات شعر فاتح، لا يمكنني سوى تذكرها بهيئة تشبه قطة شاحبة لونها مثل السلحفاة. كنت نادرًا ما أستمتع بقضاء فترة ما بعد الظهيرة في عيادته، فأقرأ بعض الكتب التي أراها جديدة

ومناسبة لي، تخالطها رائحة الأدوية التي يسيطر عبقها على أنفي تمامًا، أو أسحق شيئًا في الهاون تحت توجيهاته اللطيفة.

كانا يخافان من شكواي فلم يسمحا لي بزيارة بيجوتي إلا فيما ندر، بالإضافة إلى كرههما القديم لها. أما هي فكانت تفي بوعدها، فتأتي لزيارتي، أو مقابلتي في مكان قريب، مرة في كل أسبوع، ولم تكن خاوية الوفاض قَطُّ. كم لفتني خيبات الأمل بمرارة على كثرتها، حين لم يسمحا لي بزيارتها في منزلها، لكنهما سمحا لي بزيارتها في بعض المرات، وعلى فترات طويلة. اكتشفت بعد ذلك أن السيد باركس كان بخيلًا بعض الشيء، أو كما عبَّرت بيجوتي بدقة حين وصفته قائلة: «إنه أقرب إلى البخل بعض الشيء». كان يحتفظ بكومة من المال في صندوق تحت سريره، لكنه تظاهر بأن الصندوق لا يحوي سوى بعض المعاطف والسراويل. خبأ ثروته المتواضعة في هذا الصندوق بحرص بالغ، ومن دون أن يغريه أي شيء لإخراج أي مبلغ ضئيل منه إلا بالحيلة، إلى الحد الذي جعل بيجوتي تعدُّ مخططًا طويلًا ومفصلًا، في مؤامرة تشبه مؤامرة البارود[1]، حتى تستطيع الحصول على نفقات الأسبوع في كل يوم سبت.

صرت مدركًا طوال هذا الوقت أنني أفارق كل ما توقعته من أحلام، بعد إهمالي الكامل. كان من الممكن أن يتملكني الحزن تمامًا،

---

(١) تنسب مؤامرة البارود إلى جاي فوكس الذي خطط عام (١٦٠٥م) لاغتيال الملك جيمس الأول، واستعادة الكاثوليكيين للعرش. فأجر فوكس مع زملائه غرفة في قبو أسفل مجلس اللوردات، وملأوها بالبارود استعدادًا لتفجيرها، غير أن معلومات المؤامرة تسربت للسلطات. تم القبض على المتآمرين وأعدموا. يحتفل البريطانيون في يوم ٥ نوفمبر بنجاة الملك من مؤامرة البارود.

إلا أن الكتب القديمة أنقذتني بلا شك. صارت الكتب ملاذي وراحتي الوحيدة، وأخلصتُ لها كما أخلصتْ لي، فرحت أعيد قراءتها مرارًا وتكرارًا من دون أن أعرف عدد مرات قراءتي لها.

اقتربت في تلك الفترة من حياتي من شيء لا أستطيع أن أنساه أبدًا، بل أتذكره كثيرًا حين تراودني الذكريات من دون استدعائي له، كما لو أنه شبح، يطاردني في أكثر الأوقات سعادة.

خرجت ذات يوم، متسكعًا في مكان ما، هائمًا على وجهي بعد أن صارت هذه الطريقة هي دربي في الحياة. انعطفت عند زاوية ممر بالقرب من منزلنا، فإذا بي أصادف السيد مردستون يسير مع رجل نبيل لا أعرفه. ارتبكت، فحاولت مواصلة السير ابتعادًا عنه، وإذا بالرجل يصيح قائلًا:

«مَن؟! أنتَ بروكس!».

قلت: «لا يا سيدي، إنني ديفيد كوبرفيلد».

قال الرجل المحترم: «لا تقل لي هذا. إنك بروكس. نعم، أنت بروكس أوف شيفيلد. هذا اسمك».

انتبهت عند هذه الكلمات، ووقفت أتأمل السيد النبيل باهتمام أكبر. جاءت ضحكته فأنعشت ذاكرتي أيضًا. عرفت أنه السيد كوينون الذي ذهبت إليه مع السيد مردستون لزيارته في لوستوفت -لا يهم- لا أحتاج إلى تذكر متى قمت بهذه الزيارة.

قال السيد كوينون: «كيف تسير أمورك، وأين تتعلم يا بروكس؟».

وضع يده على كتفي وأدارني لأمشي معهما. لم أعرف كيف أجيب، ورحت أتلفت بنظرات مرتابة إلى السيد مردستون.

قال الأخير: «إنه يمكث في المنزل في الوقت الحاضر. لا يتلقى تعليمه في أي مكان. لا أعرف ماذا أفعل به. إنه موضوع صعب».

بدت على ملامحه تلك النظرة القديمة المزدوجة واستقرت على وجهي للحظة، ثم أظلمت عيناه في عبوس قاتم، واستدار في نفوره ناظرًا إلى مكان آخر.

أحسب أنني سمعت السيد كوينون يتحدث بينما ينظر إلينا على حد سواء، قائلًا: «يااه، يا له من طقس جميل!».

ساد صمت، ورحت أفكر في أفضل طريقة لتحرير كتفي من يده، لأذهب بعيدًا، لكنه راح يقول:

«أحسب أنك لم تزل رفيقًا ذكيًا، أليس كذلك يا بروكس؟».

قال السيد مردستون بعد نفاد صبره: «نعم، إنه ذكي بما فيه الكفاية. من الأفضل أن تتركه يذهب. لن يشكرك على مضايقته».

تركني السيد كوينون بناءً على هذا التلميح، وشققت أسرع الطرق متجهًا نحو المنزل. تلفتُّ إلى الوراء عندما وصلت إلى الحديقة الأمامية، فإذا بي أبصر السيد مردستون متكئًا على باب فناء الكنيسة، والسيد كوينون يتحدث معه. كان كلاهما يراقباني، كما شعرت أنهما يتحدثان عني.

بات السيد كوينون في منزلنا في تلك الليلة. تناولنا الإفطار في صباح اليوم التالي، وحين انتهينا أزحت الكرسي الذي جلست عليه بعيدًا، وهممت بالانصراف والخروج من الغرفة، فإذا بالسيد مردستون يناديني. كان قد جلس على طاولة أخرى، بينما جلست أخته على مكتبها. وقف السيد كوينون، ويداه في جيبيه، ينظر من خلال النافذة، ووقفت أنظر إليهم جميعًا.

قال السيد مردستون: «يا ديفيد، إن هذا العالم قد خُلق للعمل والكد، لم يخلق من أجل التعطل والكسل».

أضافت أخته قائلة: «كما هي حالك الآن».

عاد السيد مردستون يقول: «يا جين مردستون، فلتتركي هذا الأمر لي إذا سمحتِ. إنني أقول يا ديفيد، إن هذا عالم خلق للعمل، وليس للتعطل والكسل. يجب أن تسير الحياة على هذا الدرب، وبشكل خاص لصبي صغير في مثل شخصيتك، يتطلب قدرًا كبيرًا من التقويم والإصلاح، ولا يمكن تقديم خدمة أعظم من إجبارك على الامتثال لأساليب عالم العمل، فتخوض معترك الحياة وتخضع لعملك».

قالت أخته: «لأن العناد لا يفيد في هذه الحياة، بل القضاء على هذا العناد هو المطلوب. وهذا ما يجب أن يكون. وبالطبع سيكون».

ألقى إليها نظرة، يبدو نصفها في حالة من الاحتجاج، ويبدو نصفها الآخر استحسانًا، ومضى يقول:

«أفترض أنك تعلم يا ديفيد أنني لست غنيًّا. ها أنت تعرف ذلك الآن على أي حال. لقد تلقيت بعض التعليم الجيد بالفعل، وقد صار

التعليم مكلفًا الآن. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، أو كنت أستطيع تحمله، فإنني أرى أنه لن يكون من المفيد لك على الإطلاق البقاء في المدرسة. لقد صرت في معركة مع هذا العالم. وكلما بدأت مبكرًا، كان الأمر أفضل لك».

أحسب أنه قد جال في خاطري في هذه اللحظة أنني قد بدأت خوض غمار الحياة بالفعل، بخبرتي الواهنة، لكن هكذا تسير الأمور الآن، شئتُ ذلك أم أبيت.

قال السيد مردستون: «لقد سمعتَ في بعض الأحيان أمر مكتب المحاسبة».

كررت قائلًا: «أتقول مكتب المحاسبة يا سيدي؟».

أجاب: «نعم، مكتب مردستون وجرينبي لتجارة النبيذ».

أظن أنني ارتبكت ولم أفهم قوله، لأنه مضى يقول على عجل:

«لقد سمعت عن مكتب المحاسبة سالف الذكر، أو الشركة، أو الأقبية، أو رصيف الميناء، أو شيء من هذا القبيل».

قلت: «أظن أنني سمعت عن العمل المذكور يا سيدي». كنت قد تذكرت ما عرفته بشكل غامض عن موارد دخله وموارد أخته، أكملت قائلًا: «لكنني لا أعرف متى سمعت عنه».

أجابني قائلًا: «لا يهم متى. إن السيد كوينون يدير هذا العمل».

ألقيت نظرة خاطفة على الأخير باحترام بينما يقف ناظرًا من خلال النافذة.

«يقترح السيد كوينون أن يوفر فرص عمل لبعض الأولاد الجدد، ولا يرى أي سبب يمنعه من منحك وظيفة، وفقًا لشروط العمل نفسها».

قال السيد كوينون بصوت منخفض، بعد أن استدار قليلًا نحونا: «لا يوجد حل آخر يا مردستون».

استأنف السيد مردستون، بإيماءة غاضبة ونفاد صبر، من دون أن يلتفت لما قاله السيد كوينون:

«هذه الشروط هي أنك ستكسب ما يكفي لتوفير ما يسد طعامك وشرابك، ومصروف جيبك. سوف أقوم بدفع تكاليف إقامتك، وقد رتبتها بالفعل، وكذلك مصروفات غسيل ملابسك...».

قالت أخته: «التي ستكون بحسب تقديري».

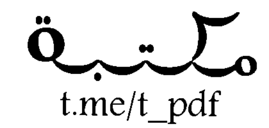
عاد السيد مردستون يقول: «سنأخذ بعين الاعتبار أمر ملابسك أيضًا. لأنك لن تكون قادرًا على تولي مسؤوليتها بنفسك حالًا. إنك ستسافر الآن يا ديفيد إلى لندن، مع السيد كوينون، لتبدأ حياتك على نفقتك الخاصة».

علقت أخته قائلة: «باختصار، لقد وفرنا لك سبل العيش. وها قد حان الدور لتقوم بواجبك من فضلك».

أدركت أن الغرض من هذا الإعلان هو التخلص مني من دون أدنى شك، إلا أنني لا أتذكر إن كان ذلك سرني أم أخافني. أما ما أذكره هو أنني صرت في حالة ارتباك، ورحت أتأرجح بين الأمرين، من دون أن

تسيطر عليَّ حالة منهما. لم يكن عندي من الوقت ما أستطيع فيه التفكير بروية، فقد كان على السيد كوينون أن يسافر في اليوم التالي.

يا لهيئتي التي ظهرت بها في صباح اليوم التالي! لقد كنت مرتديًا قبعة صغيرة بيضاء متهالكة، تحاوطها شريطة سوداء دلالة على الحداد لرحيل أمي، وسترة سوداء، وبنطلونًا قصيرًا خشنًا - اعتبرته الآنسة مردستون أفضل درع للساقين في هذه المعركة مع العالم، بينما أنا على وشك الدخول بها الآن. أتمثلني مرتديًا هذه الثياب، وقد حزمت كل ما لديَّ من متاع الدنيا أمامي في صندوق صغير. أجلس، أنا الطفل الوحيد (على حد تعبير السيدة جامدج)، فوق كرسي في عربة، بعد أن أقلتني مع السيد كوينون متجهين إلى يارموث لنستقل حافلة إلى لندن. أنظر كيف يتضاءل بيتنا وكنيستنا وتبعد بيننا المسافة. ينمحي من أمامي القبر القابع تحت الشجرة وتحجبه مشاهد أخرى، ثم تتلاشى المنارة الشامخة المطلة على ملعبي القديم، ثم تنجلي أمامي السماء فارغة من كل شيء.






# الفصل الحادي عشر

## أخوض معترك الحياة رغمًا عني

صرت أعرف الكثير عن هذا العالم الآن، مما أفقدني القدرة على الدهشة من أي شيء تقريبًا. وقعت أحيانًا بعض الأحدث التي أثارت دهشتي في تلك الأيام، فقد كان من السهل جدًّا التخلص مني وتركي في مثل هذا العمر الغض. نشأت طفلًا يتمتع بمواهب ممتازة، وقدرة قوية على الملاحظة ، وكنت سريع البديهة، شغوفًا وحسَّاسًا، لكن سرعان ما التهمني جسديًّا ونفسيًّا. كان من المدهش على ما يبدو لي ألا يتفضل أحد بالانتباه لأمري، على أي حال لم يقدم لي أحد يد العون. صرت في العاشرة، وفي ذاك العمر الصغير، في خدمة تجارة مردستون وجرينبي.

كان متجر مردستون وجرينبي يقبع على جانب النهر في بلاكفرايرز. غيرت التعديلات الحديثة هذا المكان، لكنه كان قائمًا في مبنى بنهاية شارع ضيق، منحنيًا أسفل التل، متجهًا إلى النهر، له سلم في نهايته، حيث يستقل الناس القوارب. كان مبنى قديمًا متهالكًا له رصيف خاص به، يصير متاخمًا للمياه حين يقترب المد، ويطل على وحل بعد انحسار الماء، كما تكتسح أرجاءه الفئران. أستطيع القول إن غرفه المغطاة بالألواح قد تراكمت عليها أوساخ ودخان مائة عام، وكذلك كانت

أرضياته المتدهورة ودرجاته في غاية القذارة. أما صرير وشجار الفئران الرمادية الكبيرة المتناثرة في السراديب، وقذارة المكان وتعفنه، فلم تلبث عالقة في ذهني منذ سنواتها العديدة حتى وقتنا الراهن. أتمثلهم جميعًا أمام عيني تمامًا كما كانوا في تلك الساعة الشريرة حين التقيت بهم لأول مرة؛ خائفًا مرتجف اليدين بصحبة السيد كوينون.

انصبت تجارة مردستون وجرينبي مع أنواع كثيرة متباينة من البشر، وكان فرعًا مهمًّا من تجارتها هو توريد النبيذ والمشروبات الكحولية إلى سفن بعينها تشحن هذه البضائع للخارج. أما الآن فقد نسيت إلى أين كانت تنقل هذه البضائع بشكل رئيسي، لكني أظن أن بعضها قامت برحلات إلى كل جزر الهند الشرقية والغربية. علمت أن إحدى مهام هذه المهنة الحصول على الكثير من الزجاجات الفارغة، وأن بعض الرجال والفتيان قد وُظِّفوا لفحصها في النور، ورفض المعيبة منها، ثم شطفها وغسلها. ينتهي فحص الزجاجات الفارغة، ثم تلصق العلامة التجارية على العبوات الممتلئة، أو يجهز الفلين لغلق الزجاجات، أو تطبع الأختام التي توضع على الفلين، أو تعبأ الزجاجات الجاهزة في براميل. كانت كل هذه المهام من صميم عملي، وكنت واحدًا من هؤلاء الفتيان العاملين.

كنا ثلاثة أو أربعة صبية عاملين. صار مكان عملي في زاوية المستودع، حتى يتمكن السيد كوينون من رؤيتي، فإذا أراد ملاحظتي ليس عليه سوى الوقوف على عتبة أسفل مقعده من مكتب الحسابات، ومن ثَم يتسنى له النظر إليَّ من خلال نافذة فوق المكتب. استدعى أقدم

الأولاد العاملين حتى يطلعني على عملي، في صباح اليوم الأول من بداية حياتي الميمونة التي سأعتمد فيها على نفسي. كان يدعى مِك ووكر، وكان يرتدي مريلة ممزقة وقبعة من الورق. أخبرني أن والده يعمل على سطح إحدى السفن، وأنه يسير في موكب محافظ البلدة مرتديًا قبعة سوداء مخملية. حدثني أيضًا عن صبي آخر كان زميلنا في العمل، وقد قدمه لي باسمه «ميلي بوتيتوز»[(١)]، وقد كان اسمه استثنائيًّا بالنسبة إليَّ. اكتشفت بعد ذلك، أن هذا الشاب لم يطلق عليه هذا الاسم منذ ولادته، ولكنه اكتسبه من عمله في المتجر بسبب بشرته الشاحبة وهيئته الضعيفة. كان والد ميلي يعمل على أسطح السفن، إلى جانب عمله الإضافي كرجل إطفاء، وقد كان يعمل تحت هذا المسمى الوظيفي في أحد المسارح الكبيرة؛ حيث مثَّلت شابة من أقرباء ميلي - أحسب أنها أخته الصغيرة - أدوار العفاريت في عروض البانتومايم[(٢)].

لا توجد كلمات يمكن أن تعبر عن الألم الخفي الذي شعرت به في روحي حين وجدتني أغرق منغمسًا في هذه الرفقة. رحت أقارن بين هؤلاء الصبية الذين سيرافقونني يوميًّا من الآن فصاعدًا، والأولاد الذين عرفتهم في طفولتي المبكرة - ناهيك عن مقارنتهم بستيرفورث أو ترادلز أو بقية هؤلاء الأولاد. شعرت أن آمالي في أن أنمو وأصير رجلًا مثقفًا ومتميزًا قد انقضت وتحطمت بين ضلوعي. أذكر بدقة المشاعر التي انتابتني، بعد أن صرت أحيا بلا أمل منذ تلك اللحظات، محاطًا

---

(١) اسم لنوع من البطاطس المغبرة بالدقيق.

(٢) فن الحركات الإيحائية، أحد الفنون المسرحية.

بالخزي من هذا الوضع. تملك اليأس من قلبي الغض بعد أن أيقنت أن ما رحت أتعلمه يومًا بعد يوم، وكل ما جال بخاطري أو سعدت به، وكل ما تطلعت إليه أو سعيت له، سوف يزول شيئًا فشيئًا، وينمحي من ذاكرتي إلى الأبد، ولا يمكنني إلى الآن وصف هذا الشعور بدقة. يبتعد مِك ووكر في كثير من الأحيان في ساعات الصباح الأولى، فإذا بدموعي تنهمر لتختلط أمامي بالماء الذي كنت أغسل فيه الزجاجات، فأبكي كما لو أن ثمة سقمًا في صدري، أو كأنني في خطر وعلى وشك الانفجار.

أعلنت ساعة الحائط عن تمام الساعة الثانية عشرة والنصف، وقد استعد الجميع للذهاب لتناول الغداء، حينما طرق السيد كوينون فوق نافذة مكتب الحسابات، مشيرًا إليَّ بالدخول. دخلت مكتبه، ووجدت معه شخصًا في منتصف العمر يميل إلى البدانة، وقد ارتدى سترة بنية وبنطالًا ضيقًا وحذاءً أسود. كان أصلع الرأس لا تعلوه شعرة واحدة، منزلقًا كملمس بيضة، وقد بدا رأسه كبيرًا، وفي غاية اللمعان. كان وجهه ذا ملامح عريضة، وقد التفت نحوي بالكامل. كانت ملابسه رثة، لكنه حرص على ارتداء ياقة خاصة لقميصه. يحمل عصا من نوع راقٍ، تزينها حلقتان كبيرتان وصدئتان. علَّق نظارة فوق معطفه كنوع من الزينة، وقد علمت بعد ذلك أنه نادرًا ما يستخدم النظارة، بل إنه لا يرى أي شيء عندما يستخدمها.

قال السيد كوينون مشيرًا نحوي: «ها هو ذا».

قال الغريب بصوت متواضع، وبأسلوب لا أستطيع وصفه، متظاهرًا برقة أثارت إعجابي كثيرًا: «هذا هو السيد كوبرفيلد؟ أتمنى أن تكون بخير يا سيدي».

قلت إنني بصحة جيدة، وآمل أن يكون هو الآخر كذلك. يعلم الله أنني كنت مريضًا بما فيه الكفاية، لكن لم يكن من طبيعتي أن أشتكي كثيرًا في ذلك الوقت من حياتي، لذلك قلت إنني بصحة جيدة، وأتمنى أن يكون هو الآخر كذلك.

قال الغريب: «إنني بخير، أحمد الله، في أحسن حال. لقد تلقيت رسالة من السيد مردستون، يذكر فيها أنه يرغب في الحصول على شقة في الجزء الخلفي من منزلي، وهي غير مأهولة حاليًّا - وباختصار، صارت متاحة للتأجير...».

استطرد الغريب بابتسامة واثقة معلنًا: «باختصار، كغرفة نوم - لهذا الشاب المبتدئ الذي يسعدني الآن أن أتشرف به». ثم لوح الغريب بيده، واستقر ذقنه فوق ياقة قميصه.

تحدث إليَّ السيد كوينون قائلًا: «إنه السيد ميكوبر».

قال الغريب: «إحم، نعم».

راح السيد كوينون يقول: «إن السيد ميكوبر أحد معارف السيد مردستون. يأخذ طلبات من عندنا مقابل عمولة، كلما أمكنه الحصول على أي منها. كتب إليه السيد مردستون عن موضوع مسكنك، وسوف يستقبلك عنده كمستأجر».

قال السيد ميكوبر: «أما عنواني فهو: وندسور تيراس في شارع سيتي». ثم عاد هنا إلى طريقته اللطيفة الرقيقة، وبنوع من الثقة الفائقة يقول: «باختصار، إنني أعيش هناك».

انحنيت له احترامًا.

أكمل السيد ميكوبر حديثه قائلًا: «أحسب أن جولاتك في هذه المدينة لم تكن على نطاق واسع حتى الآن، وأنك قد تواجه بعض الصعوبة في اختراق أركان بابل الجديدة، حتى تصل إلى شارع سيتي». لم يلبث السيد ميكوبر أن عاد إلى موجة أخرى من الثقة مسترسلًا: «باختصار قد تتوه، لذا سأكون ممتنًّا بالعودة إليك هذا المساء، فأرشدك للتعرف على أقرب طريق للوصول إلى المنزل».

شكرته من كل قلبي، لأنه كان ودودًا كريمًا بعرضه تحمُّل هذه المتاعب لإرشادي.

قال السيد ميكوبر: «في أي ساعة، يمكنني أن...؟».

قال السيد كوينون: «نحو الساعة الثامنة».

قال السيد ميكوبر: «نحو الساعة الثامنة. أستأذنك في الانصراف إذن، وأتمنى لك يومًا سعيدًا يا سيد كوينون. لا أريد أن أزعجك أكثر من ذلك».

ارتدى قبعته وخرج متأبطًا عكازه تحت ذراعه؛ منتصب القامة، وأخذ يدندن بعض النغمات بعدما ابتعد عن مكتب الحسابات.

وظفني السيد كوينون رسميًّا بعدها لأكون عاملًا مفيدًا بقدر ما أستطيع في مستودع مردستون وجرينبي، ومن ثَم أنال أجرًا؛ كان على حد ظني ستة شلنات في الأسبوع. لا أتذكر تحديدًا ما إذا كان ستة أم سبعة شلنات. إلا أنني أرجح، على الرغم من عدم اليقين بشأن تذكري

للأمر بشكل دقيق، أن أجري كان ستة شلنات في البداية ثم ازداد إلى سبعة شلنات بعد ذلك. تقاضيت أجر أسبوع كامل – من جيب السيد كوينون الخاص، على ما أظن. أعطيت ميلي ستة بنسات مقابل حمله لأمتعتي إلى وندسور تيراس في تلك الليلة. كانت أمتعتي ثقيلة جدًّا لا أقوى على حملها بنفسي على الرغم من صغر حجمها. دفعت ستة بنسات إضافية مقابل الغداء في مطعم مجاور، وكان عبارة عن فطيرة ممزوجة باللحم، ثم أمضيت باقي الساعة المسموح بها لتناول وجبة الغداء متجولًا في الشوارع.

عاد السيد ميكوبر إلى الظهور في الوقت المحدد من المساء. غسلت يدي ووجهي لأبدو في هيئة أفضل تضاهي وداعته. سرنا إلى منزلنا، كما أفترض أنني سأدعوه منزلنا من الآن فصاعدًا. نبهني السيد ميكوبر إلى أسماء الشوارع، وأشكال الزوايا على جانبي الطريق، بينما نسير على طول الطريق، حتى أجد طريق عودتي إلى العمل بسهولة في صباح اليوم التالي.

وصلنا إلى ذاك المنزل في وندسور تيراس – الذي لاحظت أنه رث مثله، ولكنه نظيف مثله أيضًا؛ وقد اعتنى بكل تفصيلة يمكن العناية بها. قدمني السيد ميكوبر إلى السيدة زوجته، وكانت سيدة نحيفة شاحبة الوجه قد جاوزت عمر الشباب. كانت السيدة ميكوبر جالسة في الردهة، فقد كان الطابق الأول خاليًا تمامًا من الأثاث، وقد انسدلت الستائر مظللة على هذا الخواء لخداع الجيران، وكانت تحمل طفلًا فوق صدرها. كان هذا الطفل واحدًا ضمن توأم. ويمكنني أن أشير هنا بعد

تجربتي الكاملة مع العائلة، إلى أنني نادرًا ما رأيت التوأم منفصلين عن السيدة ميكوبر في الوقت نفسه، إلا وكان أحدهما يحتسي المشروبات دائمًا.

كان ثمة طفلان آخران. أحدهما يدعى السيد ميكوبر، يبلغ من العمر أربع سنوات، وأخرى تدعى الآنسة ميكوبر تبلغ من العمر ثلاث سنوات. كانت في خدمة هؤلاء شابة ذات بشرة داكنة، كان من عادتها الشخير، وقد أخبرتني، قبل انقضاء نصف ساعة من معرفتي بها، أنها يتيمة جاءت من حي القديس لوقا المجاور للمنزل. كانت غرفتي على سطح المنزل مطلة على جانبه الخلفي، وقد كانت حجرة مغلقة، تعلو جدرانها النقوش في كل مكان، وقد تمثلت لي زخارفها في هيئة كعكة زرقاء، كما كانت الغرفة قليلة الأثاث.

صعدت السيدة ميكوبر مع أطفالها جميعًا لتريني الغرفة، ثم راحت تقول بعد أن التقطت أنفاسها: «لم أفكر قَطُّ قبل أن أتزوج، عندما كنت أعيش مع أبي وأمي، أنني سأضطر في يوم من الأيام إلى التأجير. ولكن السيد ميكوبر يواجه صعوبات مالية، وما علينا سوى أن نجنب أي اعتبارات للمشاعر الخاصة».

قلت: «صحيح يا سيدتي».

راحت السيدة ميكوبر تقول: «إن الصعوبات التي يواجهها السيد ميكوبر تكاد تكون ساحقة في الوقت الحالي. لا أعرف هل من الممكن أن يتجاوز هذه الأزمات أم لا. كنت أعيش في المنزل مع أبي وأمي، ولم أكن حقًّا أفهم ما تعنيه هذه الكلمات، بالمعاني التي أستخدمها الآن،

لكن «الخبرة تعلمك»، كما اعتاد أبي أن يقول ذلك».

لا أستطيع أن أجزم أمام نفسي هل أخبرتني أن السيد ميكوبر ضابط في مشاة البحرية، أم أنني تخيلت ذلك. لا أعرف سوى أنني أحسب حتى هذه الساعة أنه كان في مشاة البحرية ذات مرة، من دون أن أعرف سببًا لهذا التصور. كان مندوبًا يتنقل عبر المدينة لعدد من المنازل المتنوعة، لكنني أخشى أنه لم يكن يُحصِّل أي مبالغ له في هذه الأوقات.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا لم يمنح الدائنون السيد ميكوبر مزيدًا من الوقت، يجب عليهم تحمل العواقب، وإلا فإن أسرعوا في طرح المشكلة، كان ذلك أفضل. لا يمكنك الحصول على دماء من حجر، ولا يمكنهم كذلك الحصول على أي مبلغ من حسابهم في الوقت الحالي من السيد ميكوبر، ناهيك عن النفقات القانونية إن أقبلوا على مقاضاته».

لم أستطع قَطُّ فهم ما إذا كان اعتمادي المبكر على نفسي قد أربك السيدة ميكوبر تمامًا بعد إشارتي إلى عمري، أم أنها كانت منشغلة بهذا الموضوع لدرجة أنها كانت ستتحدث عنه مع التوأم إذا لم يكن ثمة إنسان آخر تتحدث معه. كان هذا الموضوع هو ما بدأت الحديث عنه، وقد استمرت طوال الوقت الذي عرفتها فيه تعاود ذكره.

مسكينة السيدة ميكوبر. قالت إنها حاولت جاهدة أن تنقذ الموقف بنفسها، وليس لديَّ أدنى شك في ذلك. رأيت وسط الباب المؤدي إلى الشارع لافتة نحاسية كبيرة مغطاة تمامًا بالغبار، وقد حفر عليها «مؤسسة ميكوبر الداخلية للسيدات الشابات»، لكنني لم أجد قَطُّ

أي سيدة شابة ذاهبة إلى هذه المدرسة، أو أي سيدة شابة جاءت أو اقترحت المجيء، أو أي استعدادات أُجريت لاستقبال أي سيدة شابة على الإطلاق. أما الزوار الوحيدون الذين رأيتهم أو سمعت عنهم لم يكونوا سوى الدائنين. ظلوا يتوافدون في جميع الأوقات، وقد كان بعضهم في غاية الشراسة. بدا أحد الرجال الدائنين ذا وجه قذر، أحسب أنه كان صانع الأحذية، وقد اعتاد الدخول إلى الممر في وقت مبكر من الساعة السابعة صباحًا، بل اعتاد مناداة السيد ميكوبر من بين السلالم قائلًا: «تعالَ إلى هنا. إنك لم تخرج لأي عمل بعد، كما تعلم. ادفع لنا ما عليك، أليس هذا أفضل لك؟ لا تختبئ كما تفعل الآن. إنك تفهم كلامي جيدًا. لن أتظاهر بهذا المكر لو أنني كنت مكانك. ادفع لنا أموالنا، أليس هذا أجدر بك؟ لا عليك سوى أن تسدد لنا ما عليك من دين، هل تسمعني؟ تعالَ إلى هنا». وإذا لم يتلقَّ أي إجابة على هذه الاستهزاءات، فإن غضبه قد يتصاعد فيهتف بكلمات مثل: «النصابين» و«اللصوص»، ولأن هذه الأشياء غير فعَّالة أيضًا، فإنه في بعض الأحيان يصل إلى أقصى الشارع، ويزمجر صارخًا بالشتائم بالقرب من نوافذ الطابق الثاني، حيث كان يعرف أن السيد ميكوبر يجلس في هذا المكان. كان السيد ميكوبر في مثل هذه الأوقات، يتحرك بكامل الحزن والمهانة. بلغ الأمر بالسيد ميكوبر - علمت ذلك ذات مرة من صراخ زوجته - أن استولى عليه اليأس فآذى نفسه بشفرة الحلاقة، ولكن في غضون نصف ساعة بعد ذلك، ظل عاكفًا على صقل حذائه بآلام غير عادية، وأخذ يدندن بصوت رقيق أكثر من أي وقت مضى. مكثت السيدة ميكوبر

تدندن هي الأخرى. عرفت أنها تعرضت لنوبات من الإغماء بسبب حضور مُحصِّل الضرائب في الساعة الثالثة صباحًا، لكن ما إن حانت الساعة الرابعة حتى أخذت تأكل شرائح لحم الضأن، والمخبوزات، وتشرب بيرة خفيفة، كان قد دفع ثمنها مقابل رهن ملعقتَي شاي. عدت في إحدى المرات في الساعة السادسة مصادفة على غير عادتي، وقد كان الموعد يتزامن مع مجيء منفذ أحكام الغارمين، فإذا بي أبصرها مستلقية -مع توأمها بالطبع- تحت الموقد في حالة أشبه بالإغماء، وقد غطى شعرها وجهها بالكامل، إلا أنني لم أعهدها قَطُّ أكثر بهجة مما كانت عليه في هذه الليلة. جلستْ تتناول قطعة من لحم عجل تم شواؤه في المطبخ، لتخبرني قصصًا عن أبيها وأمها، والأصدقاء والرفقة الذين اعتادوا مخالطتها.

أمضيت وقت فراغي في هذا المنزل، ومع هذه العائلة. كنت أشتري إفطاري بنفسي، وكان مكونًا من رغيف صغير ببنس واحد وحليب ببنس آخر. احتفظت برغيف صغير آخر، وقليل من الجبن، على رف في خزانة خاصة، لأعد الغداء عندما أعود ليلًا. كانت هذه المشتريات تحدث فجوة في أجري من الشلنات الستة أو السبعة التي أتقاضاها في الأسبوع. أقضي وقتي طوال اليوم في المستودع، وكان عليَّ أن أعول نفسي بهذه الأموال طوال الأسبوع؛ من صباح الاثنين حتى مساء السبت، ولم أجد ناصحًا، أو مشيرًا، أو مشجعًا، أو معزيًا، ولم أتلقَّ مساعدة، أو دعمًا من أي نوع، من أي شخص يمكن أن أذكره بدعاء، كما أذكر نفسي بطيب الجزاء من الله.

كنت طفلًا غضًا، ولم أكن مؤهلًا لتحمل المسؤولية الكاملة عن معيشتي، وكيف يمكنني أن أكون خلاف ذلك؟ كنت في كثير من الأحيان، في طريقي إلى متجر مردستون وجرينبي في الصباح، فإذا بي لا أستطيع مقاومة إغراء تلك المعجنات التي لا معنى لها وقد عرضت للبيع بنصف السعر وعرضت على أبواب المخابز والمطاعم، فأبدد عليها النقود التي كان من المفترض أن أحتفظ بها لتناول الغداء. أعود إلى المنزل من دون غداء، أو أشتري لفافة أو شريحة من الحلوى. أتذكر متجرين للحلوى، قسمت مشترياتي بينهما بحسب مقدار ما أملك من نقود. كان أحدهما في ساحة قريبة من كنيسة القديس مارتن - في الجزء الخلفي من الكنيسة - والتي تمت إزالتها تمامًا الآن. كانت حلوى البودينج في هذا المتجر مصنوعة من الزبيب. كان نوعًا من الحلوى باهظة الثمن، على الرغم من أن ما يقابله من الحلوى العادية لا يتجاوز ثمنه بنسًا واحدًا. كان هذا أفضل متاجر هذا النوع من الحلوى، وكان يقع في شارع ستراند - أو في مكان ما في ذلك الشارع، وقد أعيد بناؤه بعد هذه الأحداث بوقت قليل. كانت حلوى البودينج هذه شديدة الاصفرار، ثقيلة ودسمة، تعلو سطحها حبات الزبيب الكبيرة، وقد تناثرت على مسافات بعيدة على كامل الحلوى. كانت حلوى البودينج تخرج ساخنة قرابة الوقت الذي أمر فيه كل يوم بالمتجر، وقد كنت في كثير من الأيام أتناولها بدلًا من غدائي. أما حين أتناول الغداء بشكل منضبط ومنظم، فكان عبارة عن قطعة نقانق صغيرة ورغيف صغير، أو طبق بأربعة بنسات من اللحم البقري الأحمر من متجر للطبخ، أو طبق

من الخبز والجبن وكوب من البيرة أبتاعها من حانة بائسة قديمة تقع أمام مكان عملنا. كانت الحانة تدعى الأسد، أو الأسد وشيئًا آخر قد نسيته. أتذكر أنني كنت أحمل ذات مرة رغيف خبز أحضرته من المنزل في الصباح، وقد تأبطته ملفوفًا في قطعة من الورق مثل كتاب تحت ذراعي، وذهبت به إلى مطعم شهير ببيع اللحم البقري الطازج، يقع بالقرب من دروري لين، وقد طلبت طبقًا صغيرًا من تلك الأطعمة الشهية لأتناولها مع رغيفي. لا أعرف ما الذي كان يجول بذهن النادل حين ظهر أمامه صغير غريب قادم بمفرده، لكنني أستطيع أن أتمثله أمامي الآن، بينما يحدق في وجهي حين بدأت في تناول الغداء، وقد نادى النادل الآخر ليراقبني هو الآخر. أعطيته نصف بنس بقشيشًا، لكني تمنيت لو لم يأخذه.

كنا نُمنح نصف ساعة، على ما أظن، لاحتساء الشاي. إذا ما توافر لديَّ ما يكفي من المال، فإنني كنت أشتري قدحًا من القهوة الجاهزة وشريحة من الخبز والزبدة. أما إذا لم أمتلك نقودًا، فإنني أذهب إلى مشاهدة متجر بيع لحم الغزال في شارع فليت، أو ربما تمشيت في هذا الوقت حتى سوق كوفنت جاردن محدقًا في ثمار الأناناس. كنت مغرمًا بالتجول في شارع أديلفي، لأنه كان مكانًا غامضًا محاطًا بأقواس النصر المظلمة. أتمثل نفسي الآن خارجًا في إحدى الأمسيات أعبر بعض تلك الأقواس، متجهًا نحو حانة صغيرة بالقرب من النهر، تطل على ساحة مفتوحة أمامها، وأمامي مشهد لبعض حمالي الفحم يرقصون. أجلس لأراقبهم من فوق مقعدي، وأتساءل عن رأيهم عني.

كنت طفلًا ضئيلًا للغاية، حتى إنني حين ذهابي إلى حانة غريبة لاحتساء كأس من البيرة الخفيفة، لترطيب فمي مما تناولته في أثناء الغداء، كان النادل يخشى تقديمه لي، وقد تكرر الأمر كثيرًا. أتذكر إحدى الأمسيات الحارة التي ذهبت فيها إلى حانة عامة، وقلت للمالك: «ما أفضل ما لديك؟ أعطني أفضل ما لديك من البيرة». كنت أحتفل بمناسبة خاصة. لا أذكر ماذا كانت، ربما كنت أحتفل بعيد ميلادي.

إذا بالمالك يقول: «لدينا البيرة الأصلية المذهلة، وثمنها بنسان ونصف».

أجبته بينما أخرج له نقودي قائلًا: «ائتني بقدح من البيرة الأصلية المذهلة هذه إذا سمحت، واجعل لها طبقة عالية من الرغوة».

نظر إليَّ مالك الحانة من فوق البار، وأخذ يتفحصني من الرأس إلى القدم، وابتسامة غريبة ترتسم على وجهه، وبدلًا من أن يصب لي البيرة، نظر حوله ولفَّ بعنقه يهمس بشيء إلى زوجته. خرجت من بعدها تحمل رقعة قماش تخيطها في يدها، وانضمت إليه في الحملقة نحوي. ها أنا أتمثل ثلاثتنا حاضرين أمامي الآن. يتكئ صاحب الحانة على إطار نافذة البار حاسرًا عنه أكمام قميصه، وتنظر زوجته نحوي عبر الباب القصير، بينما يتملكني الارتباك، فأنظر إليهم من خارج الحاجز الذي يفصل بيننا. طرحوا عليَّ الكثير من الأسئلة. ما اسمي، وكم عمري، وأين أعيش، وكيف أعمل، وكيف أتيت إلى هناك. رحت أجيب عن كل هذه الأسئلة، بما يدور في مخيلتي ورحت أبتكر الإجابات، أرجو لو كانت مناسبة. جاءوني بالبيرة، على الرغم من أنني أشك أنها لم تكن

من النوع المذهل الأصلي. فتحت زوجة مالك الحانة نصف باب البار الصغير، وانحنت إلى أسفل فأعطتني باقي النقود، وقبلتني قبلة نصفها إعجاب ونصفها الآخر رثاء، ولكنها في النهاية قبلة أنثوية حنونة بكل تأكيد.

أعلم أنني لا أبالغ، بقصد أو من دون قصد، حين أبوح بندرة موارد دخلي أو حياتي الشاقة. أعلم أنه لو كان السيد كوينون قد أعطاني شلنًا في وقت ما، فقد أنفقته في تناول غداء أو احتساء الشاي. أعلم أنني عملت من مطلع الصباح حتى حلول الليل، مع الرجال والفتيان من عامة الناس، بل وكنت طفلًا رث الملابس. أعلم أنني تسكعت في الشوارع، ولم أحصل على طعام كافٍ أو مُرضٍ. أعلم ذلك، ولكن لولا رحمة الله، لكان من السهل أن أصير لصًّا صغيرًا أو متشردًا هالكًا في ظل انعدام الرعاية أو الاهتمام بحالي.

شغلت مكانة ما -على الرغم من كل شيء- في متجر مردستون وجرينبي. راح السيد كوينون يتصرف كرجل مهمل، يتعامل مع الأمور بطريقة شاذة، وعاملني كواحد مختلف عن بقية العاملين. لم أقل لرجل أو صبي، كيف سارت بي الأمور لأجيء إلى هنا، ولم أظهر مؤشرًا ولو ضئيلًا على شعوري بالأسف لوجودي هناك. لقد عانيت في الخفاء، وتألمت أشد ما يكون الألم، من دون أن يعرف أحد سواي كم عانيت، وكما قلت بالفعل لقد تحملت ما يفوق قدرتي على الإطلاق. لكنني احتفظت بأشجاني الخاصة لنفسي، وقمت بعملي على أكمل وجه. عرفت من البداية، أنني لو لم أتمكن من القيام بعملي على أكمل

وجه، فلن أتمكن من رفع نفسي مخافة الاستخفاف والاحتقار اللذين سأتلقاهما. سرعان ما صرت سريعًا وذا مهارة مثل بقية الصبية الآخرين. كان سلوكي وأسلوبي مختلفين بما يكفي لوضع فارق كبير بيني وبقية الصبية على الرغم من ثقتي الكاملة بهم. راح الرجال العاملون والصبية ينادونني عمومًا باسم «الرجل الصغير»، أو الصبي من مدينة «سافوك». كان ثمة رجل معين يدعى جريجوري، وهو رئيس عمال التعبئة، وآخر اسمه تيب، الذي عمل سائقًا، وكان يرتدي سترة حمراء، قد راحا يخاطباني أحيانًا باسم «ديفيد»، لكنني أظن أنهما في الغالب كانا يناديانى بهذا الاسم سرًّا فيما بيننا. بذلت بعض الجهود للترفيه عنهما، بسبب عملنا الشاق، فرحت أستجمع بعضًا من القراءات القديمة التي كانت في طريقها للتلاشي من ذاكرتي. تمرد ذات يوم الغلام الذي يشبه البطاطس المغبرة بالدقيق، لكوني متميزًا إلى حد ما، إلا أن مِك ووكر أخمد ثورته وقمعه سريعًا.

استولى عليَّ اليأس كاملًا، فلا سبيل لإنقاذي من هذه الحياة، وقد هجرت كل آمالي على هذا النحو. صرت مقتنعًا تمامًا أنني لن أتصالح مع هذه الحياة أبدًا ولو لساعة واحدة، أو أنني سأحيا تعسًا بائسًا، وسأحتمل مشقة العيش في كبد. لم أكتب إلى بيجوتي ما أعانيه، لأسباب منها حبي لها وشعوري بالخزي، لم أكشف قَطُّ عن حقيقة معيشتي في أي خطاب، على الرغم من كثرة ما تبادلناه من رسائل.

كانت الصعوبات التي واجهها السيد ميكوبر تضيف حزنًا إلى ذهني المثقل بالهموم. صرت مرتبطًا تمامًا بالعائلة وقد زادت من بؤسي.

رحت أتجول مشغول الذهن بحسابات مصادر دخل السيدة ميكوبر، بل صرت مثقلًا بعبء ديون السيد ميكوبر نفسه. كانت ليالي السبت بمثابة مكافأة كبيرة لي جزئيًا، وذلك لأنني كنت أنتشي حين عودتي إلى المنزل وقد حصلت على ستة أو سبعة شلنات في جيبي، فأبحث في المتاجر وأفكر فيما سأشتريه بهذا المبلغ، ولكن عندما كنت أعود إلى المنزل مبكرًا، اعتادت السيدة ميكوبر على أن تقص عليَّ من الأحاديث ما يدمي القلب ويوجعه. كنت في صباح يوم الأحد، أمزج القليل من الشاي أو القهوة التي اشتريتها في الليلة الماضية، في قدر صغير كان يستخدم في الحلاقة، وأجلس وأتناول إفطاري متأخرًا. كان من غير المدهش على الإطلاق أن يبكي السيد ميكوبر بلوعة مع بداية إحدى محادثات ليلة السبت هذه، ثم لا يلبث أن يغني في النهاية أغنية عن «فرحة جاك بعد أن نال محبوبته الفاتنة»[1] في نهاية ليلتنا. رأيته مرارًا عائدًا إلى المنزل لتناول الغداء بفيض من الدموع، وقد أعلن أنه لم يبقَ أمامه سوى السجن، ثم يذهب إلى غرفة نومه ليقوم ببعض الحسابات الخاصة بمصروفات البيت أو مصروفات وضع أسلاك للنوافذ في المنزل - «خوفًا من ظهور أي شيء مفاجئ»، على حسب تعبيره المفضل. كانت السيدة ميكوبر تردد الشيء نفسه.

نشأت صداقة غريبة، تعود على حسب ظني إلى الظروف الخاصة التي مررنا بها، وعلى الرغم من فارق العمر المضحك بيني وهؤلاء الناس. لم أسمح لنفسي قَطُّ أن أقبل أي دعوة لتناول الطعام أو الشراب

---

(١) أغنية إنجليزية قديمة.

معهم مهما كان إصرارهم، حتى لا أنتقص من مؤونتهم - مع العلم أنهم تشاجروا مع كل من الجزار والخباز، وغالبًا لم يكن لديهم ما يكفي لسد حاجتهم من الطعام - حتى أسرت إليَّ السيدة ميكوبر بشيء، وهذا ما قالته ذات مساء، ووقع على النحو التالي:

قالت السيدة ميكوبر: «يا سيد كوبرفيلد، إنك لست غريبًا بيننا، وبالتالي لا تتردد في القول إن الصعوبات التي يواجهها السيد ميكوبر صارت في طريقها إلى التأزم».

تملكني يأس مضنٍ لسماع ذلك منها، ونظرت إلى عيني السيدة ميكوبر الحمراوين بأقصى ما يمكن من التعاطف والرثاء.

قالت السيدة ميكوبر: «لم يتبقَّ في الحقيقة فتات أي شيء في مخزن الطعام، باستثناء مكعب من الجبن الهولندي، والذي لا يتلاءم مع احتياجات أسرتنا الشابة. كنت معتادة على التحدث عن مخزن الطعام عندما كنت أعيش مع بابا وماما، وأستخدم هذه الكلمة تقريبًا من دون وعي. مقصدي من القول هو أنه لم يتبقَّ شيء للأكل في المنزل».

قلت بقلق بالغ: «يا عذابي!».

تبقى في جيبي شلن أو ثلاثة شلنات من أجري الأسبوعي - وأفترض من ذلك أن هذه المحادثة لا بد أن تكون قد وقعت بيننا ليلة الأربعاء - وقد أخرجت نقودي على عجل، متوسلًا بعاطفة صادقة إلى السيدة ميكوبر لقبولها مني كقرض. قبَّلتني، وطلبت مني أن أعيدها إلى جيبي، وردت بأنها لا تستطيع التفكير في الاقتراض مني.

قالت: «لا يا سيدي العزيز كوبرفيلد، هذه الفكرة بعيدة كل البعد

عن مخيلتي، لكنك تتمتع بذكاء يتجاوز عمرك الحقيقي، ويمكنك أن تقدم لي نوعًا آخر من الخدمة إذا أردت، وهي خدمة سأقبلها منك بامتنان».

توسلت إلى السيدة ميكوبر أن تقول لي ماذا تكون هذه الخدمة.

قالت السيدة ميكوبر: «لقد رهنت طاقم الخزف بنفسي. كان ستة أقداح للشاي، وملاحتين، وزوجًا من حافظات السكر. اقترضت أموالًا بيدي في أوقات مختلفة سرًّا. أما الآن فإن التوأم يطوقان عنقي دومًا، وتتملكني ذكرياتي مع أبي وأمي، وقد صار هذا النوع من المعاملات ذا وقع مؤلم للغاية. لم نزل نحتفظ بعدد قليل من الأشياء التافهة، والتي يمكننا التخلي عنها. إن مشاعر السيد ميكوبر لن تسمح له بالتخلص منها. أما كليكيت - كان هذا اسم الفتاة الخادمة - فإنها ذات عقلية مبتذلة، ستبوح بالأسرار المؤلمة إذا وثقنا فيها كل الثقة. فإذا طلبت منك يا سيد كوبرفيلد أن...».

لقد فهمت السيدة ميكوبر الآن، ورجوتها أن تستفيد مني إلى أقصى حد ممكن. بدأت في التخلص من أخف ممتلكاتها في ذلك المساء بالذات، ثم خرجت في رحلة استكشافية مماثلة في كل صباح تقريبًا، قبل أن أذهب إلى عملي في متجر مردستون وجرينبي.

كان السيد ميكوبر يمتلك عددًا قليلًا من الكتب فوق رف صغير، أطلق عليها اسم المكتبة، وقد رهنت هذه الكتب أولًا. حملتها، كتابًا تلو الآخر، إلى مكتبة في طريق المدينة - كان أحد منافذها يقع بالقرب من منزلنا، وهي عبارة عن أكشاك لبيع الكتب، كما كانت تقريبًا متاجر لبيع

الطيور آنذاك - وقد بعت هذه الكتب مقابل أي ثمن زهيد. اعتاد أمين المكتبة، الذي كان يعيش في منزل صغير خلف منفذ البيع، أن يسكر كل ليلة، فتوبخه زوجته بشدة كل صباح. ذهبت إليه مبكرًا أكثر من مرة، فدخلت حتى أحدثه في غرفة نومه، وإذا بجبينه يعلوه جرحًا أو تبدو عيناه متورمتين، لتشهدا على تجاوزاته وعربدته طوال الليل. أخشى أنه كان كثير الشجار حالما يسكر. حاول البحث بيده المرتعشة عن الشلنات المطلوبة في جيوبه أو في جيوب ملابسه الملقاة على الأرض، بينما تحمل زوجته طفلًا بين ذراعيها، وتمسك بحذائها من الكعب من دون أن تتوقف عن شتمه وسبه. كان يفقد ماله في بعض الأحيان، ثم يطلب مني الرجوع إليه مرة أخرى. أما زوجته فكانت تملك نقودًا على الدوام، أجرؤ على القول إنها ربما سرقتها منه بينما كان مخمورًا. كانت زوجته تبتاع الكتب مني سرًّا، وتتم الأمر عند السلم حين ننزل معًا. صرت معروفًا جدًّا في متجر الرهن أيضًا. أما الرجل الذي يعمل خلف حاجز الحسابات، فقد اهتم بي اهتمامًا بالغًا. أتذكر أنه استوقفني كثيرًا ليسألني عن اسم لاتيني أو صفة، أو تصريف فعل لاتيني ويطلب مني أن أمليه عليه، بينما يقضي لي عملي. كانت السيدة ميكوبر تقدم لي بعض الحلوى بعد كل مناسبة من هذه المناسبات. كانت هذه الحلوى تأتي كوجبة عشاء بشكل عام، وقد كانت هذه الوجبات تحوي مذاقًا غريبًا، لم أزل أتذكره جيدًا.

أخيرًا، تسببت الصعوبات التي واجهها السيد ميكوبر في وقوع أزمة كبيرة، فقُبض عليه في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ونقل إلى سجن

يدعى «حجز الملك» في المنطقة الإدارية. أخبرني في أثناء خروجه من المنزل، أن الرحمة قد فارقته الآن، وأحسب أن قلبه كان منفطرًا حقًّا وقد كان قلبي محطمًا أيضًا. إلا أنني سمعت بعد ذلك، أنه شوهد بينما يلعب في لياقة مفعمًا بالحيوية لعبة البولينج قبيل الظهيرة.

قررت الذهاب لزيارته في يوم الأحد الأول بعد دخوله السجن، للاطمئنان عليه وتناول الغداء معه. رحت أسأل عن الطريق الذي سأسلكه للوصول إلى هذا المكان. أخبرني الناس أنني على مقربة من ذاك المكان، فإذا ما وصلت إلى مكان ما؛ أشاروا لي بأنني يجب أن أصل إلى مكان آخر بعده. قالوا بعدها إن عليَّ تجاوز ذلك المكان بقليل حتى أجد ساحة، ومن ثَم عليَّ عبورها، ثم أستمر في السير مباشرة حتى أرى باب هذا السجن. فعلت كل ما سبق، حتى رأيت أخيرًا بابًا منتصبًا (كم كنت صغيرًا مسكينًا!). فكرت في قصة رودريك راندوم حينما كان في سجن المدينين، وتخيلت أمامي رجلًا لا يرتدي أي شيء سوى خرقة بالية، ثم غاص السجن المنصب أمام عيني الخافتتين وراح قلبي يسرع نبضاته.

كان السيد ميكوبر ينتظرني وراء البوابة، فصعدنا إلى غرفته - التي تقع في الدور الأول- ورحنا نبكي أشد البكاء. أذكر أنه راح يحذرني بجدية من أن أسلك مسلكه، وقد أضاف أن الرجل إذا كان يملك من دخله عشرين جنيهًا في السنة، فأنفق تسعة عشر جنيهًا وتسعة عشر شلنًا وستة بنسات، فسيصير رجلًا سعيدًا. أما إذا أنفق عشرين جنيهًا وبنسًا واحدًا فسيصير رجلًا بائسًا تعسًا. اقترض مني شلنًا بعد ذلك ليدفعه ثمنًا

لخمرته، ثم أعطاني إذنًا كتابيًّا للسيدة ميكوبر بالمبلغ، وأبعد منديله جانبًا، ثم تبدلت حالته فصار مبتهجًا.

جلسنا أمام نيران ضئيلة، محاطة بقالبين من الطوب داخل شبكة صدئة، وقد وُضِع قالب على كل جانب لمنع احتراق الكثير من الفحم. جاء إلى السجن مدين آخر يعمل في متجر المخبوزات، فشارك السيد ميكوبر في غرفته. كان السجين قد جلب معه قطعة من لحم الضأن فتشاركنا أكلها فيما بيننا. أرسلوني إلى سجين يدعى «الكابتن هوبكنز» في الغرفة التي تعلونا، وقد أبلغته تحيات السيد ميكوبر، وعرفته بنفسي بأنني صديقه الصغير، وطلبت من الكابتن هوبكنز أن يقرضني سكينًا وشوكة.

أعارني الكابتن هوبكنز السكين والشوكة، وأرسل تحياته إلى السيد ميكوبر. رأيت سيدة تبدو عليها القذارة تجلس في غرفته الصغيرة، ومعها فتاتان صغيرتان، أحسب أنهما ابنتاه. كانوا يجلسون برؤوس شعثاء، فحمدت الله على استعارة سكين وشوكة من الكابتن هوبكنز، لأن ذلك أفضل من استعارة مشط منه. كان الكابتن نفسه رث الهيئة إلى أقصى حد، تعلو وجهه شوارب ضخمة، ويرتدي معطفًا بنيًّا قديمًا من دون أن يرتدي قميصًا تحته. رأيت سريره ملفوفًا في الزاوية، وقد وضعت الأطباق والصحون والأواني على رف عنده، وتكهنت (والله أعلم كيف توصلت إلى هذا) أن الفتاتين صاحبتا الرأسين الأشعثين المغبرين، هما ابنتا الكابتن هوبكنز، أما السيدة القذرة فلم تكن زوجة الكابتن. لم يستمر وقوفي الخجول على أعتابه أكثر من دقيقتين على الأكثر، لكنني

نزلت محملًا بكل هذه المعلومات، كما نزلت حاملًا السكين والشوكة في قبضة يدي.

كان الطعام أشبه بطعام الغجر إلا أنه في النهاية كان مقبولًا في وجبة الغداء. أرجعت إلى الكابتن هوبكنز السكين والشوكة في وقت مبكر بعد الظهيرة، ثم انطلقت إلى المنزل لأريح خاطر السيدة ميكوبر فأحكي لها عن زيارتي. فقدت وعيها عندما رأتني عائدًا، ثم أفاقت وأعدت قدرًا صغيرًا من البيض الساخن بعدها ليواسينا بينما أخذنا نتحدث عن الأمر.

لا أعرف كيف بِيع أثاث المنزل لتستفيد بثمنه هذه الأسرة. لا أعرف من باعه، إلا أنني لم أفعل ذلك بنفسي. بِيع الأثاث على كل حال، وحُمل في شاحنة باستثناء السرير وعدد قليل من الكراسي وطاولة المطبخ. أقمنا بصحبة هذه الممتلكات الباقية، في حجرتين من هذا المنزل الفارغ في شارع وندسور تيراس. مكثت السيدة ميكوبر مع أطفالها، ومكثت أنا والخادمة اليتيمة في تلك الغرف ليلًا ونهارًا. لست أذكر كم من الوقت مكثنا فيها، على الرغم من شعوري أننا بقينا على حالنا لفترة طويلة. قررت السيدة ميكوبر في النهاية الانتقال إلى السجن، حيث قام السيد ميكوبر بتأمين غرفة منفردة لنفسه. أعادت مفتاح المنزل إلى المالك الذي كان سعيدًا جدًّا بالحصول عليه، وأرسلت الأسرة ما تبقى من أثاثها إلى السجن، باستثناء أثاث غرفتي. استأجرت غرفة صغيرة خارج أسوار هذا السجن. كنت راضيًا سعيدًا بالغرفة لأبعد حد، حيث صرت على ألفة بأسرة ميكوبر وقد اعتاد كل منا على الآخر، بعد أن جمعنا الأحزان وحالت دون فراقنا. استأجرت الخادمة اليتيمة هي

الأخرى سكنًا رخيصًا في الحي نفسه. كانت غرفتي عبارة عن حجرة خلفية هادئة ذات سقف مائل، تطل على منظر جيد لساحة مخزن للأخشاب، وبعد أن حصلت عليها، وأمعنت التفكير في أن مشكلات السيد ميكوبر قد وصلت إلى أزمتها الأخيرة وانتهت، شعرت بهذه الغرفة كما لو أنها جنة النعيم.

عملت طوال هذا الوقت في متجر مردستون وجرينبي بالطريقة المعهودة ذاتها، ومع الزملاء المعروفين أنفسهم، وبإحساس مماثل بدونية لا أستحقها من البداية. أحسب أنه من حسن حظي أنني لم أقم مطلقًا باتخاذ واحد من هؤلاء الزملاء صديقًا، ولم أتحدث إلى أي من الأولاد الكثيرين الذين أراهم يوميًا في ذهابي إلى المستودع، أو في خروجي منه، بل ورحت أتجول في الشوارع في الأوقات المخصصة لتناول الوجبات. عشت هذه الحياة التعيسة سرًّا، ورحت أقضي أيامها بالطريقة المنعزلة نفسها معتمدًا على ذاتي. كانت التغييرات الوحيدة التي أدركها هي؛ أولًا: أنني صرت أكثر هشاشة وقد صارت هيئتي رثة، وثانيًا: أنني صرت الآن مرتاحًا من ثقل هموم كثيرة ألقاها عليَّ السيد ميكوبر والسيدة زوجته، لأن بعض الأقارب والأصدقاء قد مدوا إليهم يد العون في محنتهم الحالية، فصاروا يعيشون في السجن حياة أكثر راحة مما عاشوها خارجه لفترة طويلة. رحت أتناول الإفطار معهم تلك الأيام، بعد اتخاذ بعض الترتيبات التي نسيت تفاصيلها الآن. نسيت أيضًا ما يتعلق بالوقت الذي تفتح فيه بوابات السجن في الصباح كي يُسمح لي بالدخول، لكنني أذكر أنني غالبًا ما استيقظت في الساعة

السادسة صباحًا، وأن مكان استرخائي المفضل بين وقت وآخر كان جسر لندن القديم، حيث أجلس على إحدى الاستراحات الحجرية، أو أراقب العابرين، أو أتأمل من فوق السور الشمس الساطعة فوق صفحة الماء، بينما تضيء الشعلة الذهبية أعلى النصب التذكاري هناك. كنت أحيانًا أقابل الخادمة اليتيمة هناك، فأخبرها ببعض القصص المذهلة عن الأرصفة والبرج، لا أستطيع أن أقول أكثر من أنني آمل أن أصدق هذه القصص. أعود في المساء إلى السجن، وأتجول في الساحة مع السيد ميكوبر، أو ألعب الكازينو[1] مع السيدة ميكوبر بينما أستمع إلى ذكرياتها عن أمها وأبيها. لا أستطيع أن أجزم ما إذا كان السيد مردستون يعرف شيئًا عن مكان وجودي. لم أتحدث قَطُّ عن الأمر في متجر مردستون وجرينبي.

بدا أن مصاعب السيد ميكوبر قد انقضت، إلا أنه ظل متورطًا إلى حد كبير بسبب «صك» معين، سمعت عنه كثيرًا. أفهم الآن أنه كان عبارة عن تعهد كتابي سابق مع دائنيه. لم أتفهم هذه الوثيقة وقتها وكان الأمر بعيدًا عن الوضوح حينها، إلا أنني أدرك الآن أنني خلطت بين هذه الوثيقة ووثائق الرق الشيطانية التي أظن أنها انتهت من عالمنا، بعد أن كانت منتشرة على نطاق واسع في يوم من الأيام في ألمانيا. فهمت في النهاية أن هذه الوثيقة قد أُزيحت من التعاملات بطريقة ما، ولم تعد في جميع الأحوال صخرة يُستَنَد إليها. أبلغتني السيدة ميكوبر أن «عائلتها» قررت أن السيد ميكوبر يجب أن يتقدم بطلب لإطلاق سراحه بموجب

---

(١) لعبة من ألعاب الحظ القديمة، وتعد من ألعاب المقامرة.

قانون المدينين المعسرين، وقد توقعت أنه سيُطلق سراحه في غضون ستة أسابيع أو نحو ذلك.

قال السيد ميكوبر الذي حضر هذا الحديث: «لا يراودني أدنى شك في أنني سأبدأ بعد ذلك - داعيًا الله أن أفعل - في سباق جديد مع العالم، فأعيش بطريقة جديدة تمامًا، إذا تغيرت الأمور».

وبمناسبة تغير الأمور، فإنني أتذكر أن السيد ميكوبر قد قدم التماسًا إلى مجلس العموم في هذا الوقت تقريبًا، يدعو فيه إلى تعديل قانون العقوبات المتعلق بالديون. أدون هذه الذكرى هنا، لأنها نموذج أضعه أمام عيني، يعرض الطريقة التي استطعت من خلالها تكييف فحوى كتبي القديمة في مسيرة حياتي المتغيرة، وكيف صنعت منها قصصًا لنفسي، بما فيها من شوارع، ورجال ونساء، وكيف أن بعض النقاط الرئيسية في الشخصية التي أفترض أنني سأطورها من دون وعي فيما بعد في كتابتي لحياتي، كانت تتشكل تدريجيًّا طوال هذا الوقت.

اشتمل السجن على نادٍ، وقد ظهر فيه السيد ميكوبر كرجل نبيل ذي سلطة كبيرة. وقد صرح السيد ميكوبر بفكرته عن هذا الالتماس أمام المجتمعين في النادي، ووافق الناس عليه وأيدوه بشدة. أما السيد ميكوبر ذلك الرجل حسن الطباع، والمخلوق النشط في كل شيء عدا شؤونه الخاصة، كما هي حاله دومًا في أي وقت مضى، والذي لم يكن ليسعد بشيء قَطُّ كسعادته عندما يصير مشغولًا بأمر لا يحقق له أي ربح، فقد بدأ العمل في الالتماس، وانكب على صياغته داخل جدار سجنه، وأخذ ينسقه على فرخ كبير من الورقة، وبسطه فوق طاولة، وحدد وقتًا

لكل أعضاء النادي، للصعود إلى غرفته، والتوقيع عليه ما داموا وافقوا على ذلك.

سمعت عن اقتراب هذا الاحتفال، فتلهفت للغاية لرؤيتهم جميعًا يتوافدون واحدًا تلو الآخر، على الرغم من أنني كنت بالفعل أعرف الجزء الأكبر منهم، كما كانوا يعرفونني كذلك. حصلت على إذن بالغياب لمدة ساعة من مستودع مردستون وجرينبي، واتخذت لنفسي مكانًا في إحدى الزوايا لهذا الغرض. حضر أكبر عدد ممكن من الأعضاء الرئيسيين للنادي، فدخلوا الغرفة الصغيرة من دون أن يملأوها، وراحوا يؤيدون ما أيده السيد ميكوبر في هذا الالتماس. أما صديقي القديم الكابتن هوبكنز فقد اغتسل احترامًا لهذه المناسبة، واستقر بالقرب من الالتماس ليقرأه على كل من لم يكن على دراية بمحتوياته. فُتح الباب بعد ذلك، وبدأ عامة الناس في الدخول في طابور طويل، بينما ظل عدد منهم منتظرًا في الخارج. يدخل أحدهم فيدلي بتوقيعه ثم يخرج، ثم يدخل الجميع على التوالي. ظل الكابتن هوبكنز يسأل: «هل قرأتها؟». تأتي الإجابة: «لا». فيسأل: «هل ترغب في سماعها؟». إذا لم يُظهر الرجل استعدادًا كبيرًا لسماعها، فما يلبث الكابتن هوبكنز إلا أن يلقيها بصوت عالٍ ورنان، فيُسمعه كل كلمة فيها. كان الكابتن سيقرأ كلماتها عشرين ألف مرة، لو أن المستمعين عشرين ألف شخص، ليؤكد كلماته كلمة تلو الأخرى. أتذكر بعض الكلمات الهامة التي كرَّرها في مثل هذه العبارات: «ممثلو الشعب في البرلمان مجتمعون»، «لذلك يتفضل مقدمو الالتماس بتواضع نحو مجلسك الموقر»، «رعايا الكريم صاحب

الجلالة الذين يشعرون بالبأس»، كما لو كانت الكلمات شيئًا حقيقيًّا في فمه يتجرع حلوه مستلذًّا به. كان السيد ميكوبر يستمع بقليل من غرور الكاتب وسط كل ما يحدث، بينما أخذ يتأمل -من دون أن يحملق- في الأسياخ المعلقة على الجدار المقابل.

كنت أسير كل يوم بين شارع ساوثوارك وشارع بلاكفريارز ذهابًا وإيابًا، وأتسكع في أوقات الوجبات بين أزقة الشوارع الغامضة، والتي قد تكون أحجارها قد بلت في هذه اللحظة، لسبب ما ربما هو من تأثير خطو أقدامي الصغيرة. أتساءل كم من هؤلاء الناس الذين حضروا هذا الحشد لم تزل ذاكرتي محتفظة بهيئتهم، أو أستطيع تذكرهم مرة أخرى مع صدى صوت الكابتن هوبكنز! تعود إلى ذاكرتي الآن تلك الآلام المضنية التي قضيتها في شبابي، فأتساءل كم من الأحداث الثانوية التي اخترعتها لمثل هؤلاء الأشخاص لم تزل معلقة مثل ضباب هش فوق حقائق الأحداث التي أتذكرها جيدًا! أخطو فوق تلك الأرض القديمة، فلا أتعجب من أنني ألاحظ وأرثي ما جرى أمامي من نوائب؛ أرثي فتى رومانسيًّا بريئًا، يصنع عالمه الخيالي من مثل هذه التجارب الغريبة والوقائع الدنيئة!



# الفصل الثاني عشر

## أخوض معترك الحياة معتمدًا على نفسي متخذًا قراري العظيم

صار التماس السيد ميكوبر جاهزًا للعرض والقراءة في الوقت المناسب، وقد صدرت الأوامر بالإفراج عن هذا الرجل بموجب القانون الجديد. ففرحت أشد الفرح. أدركت أن دائنيه لم يكونوا متعنتين. أبلغتني السيدة ميكوبر أن صانع الأحذية المنتقم، قد صرح في جلسة علنية أنه لم يكن أي حقد تجاهه، وأن الأمر ينحصر في أنه كان مدينًا له بالمال، فطلب منه أن يدفع له. قال إنه يحسب أن المطالبة بالحق من الطبيعة البشرية.

عاد السيد ميكوبر إلى سجنه بعدما انتهت قضيته، إذ كان من المقرر تسوية بعض الرسوم، مع مراعاة بعض الإجراءات الشكلية قبل الإفراج عنه فعليًّا. استقبله أعضاء النادي بحفاوة وعقدوا مساء ذلك اليوم اجتماعًا مرتبًا تكريمًا له. أما أنا والسيدة ميكوبر فقد جلسنا نتناول لحم الضأن معًا، محاطين بباقي أفراد الأسرة النائمة.

قالت السيدة ميكوبر: «في مثل هذه المناسبة سأقص عليك يا سيد كوبرفيلد المزيد عن ذكرى أبي وأمي». وقد كان بيننا بعض القصص المعروفة بالفعل.

سألتها بعد أن شربت كأسًا من النبيذ قائلًا: «هل ماتا يا سيدتي؟».

قالت السيدة ميكوبر: «لقد رحلت أمي عن هذه الحياة قبل أن تبدأ صعوبات السيد ميكوبر، أو على الأقل قبل أن تتأزم بشكل صارخ. أما والدي فقد عاصر كثيرًا من أزمات السيد ميكوبر لعدة مرات، ثم فارق الحياة، وقد نعاه عدد كبير من الناس».

أومأت السيدة ميكوبر برأسها، وذرفت دمعة وقعت على التوأم اللذين كانا في هذا الوقت بين يديها.

لم أجد فرصة أكثر ملاءمة من هذه لأطرح سؤالًا شغلني وهمَّني أن أحصل على إجابته، فقلت للسيدة ميكوبر:

«هل لي أن أسأل يا سيدتي، ما الذي تنويان فعله أنت والسيد ميكوبر الآن، بعد أن خرج السيد ميكوبر من الأزمات التي كان يواجهها وأطلق سراحه؟ هل استقر به الأمر على فعل شيء ما؟».

راحت السيدة ميكوبر تتحدث بصوت عالٍ كما هي عادتها حين تذكر كلمة «عائلتي»، على الرغم من أنني لم أتمكن قَطُّ من اكتشاف من ينتمي إلى هذه الفئة، فقالت: «ترى عائلتي أن السيد ميكوبر يجب أن يترك لندن، ليمارس مواهبه في القرية. إن السيد ميكوبر رجل يتمتع بموهبة كبيرة يا سيد كوبرفيلد».

قلت إنني متأكد من ذلك.

كررت السيدة ميكوبر قولها: «إنه ذو موهبة عظيمة. إن عائلتي تظن أنه بقليل من الاهتمام، يستطيع القيام بشيء ما عظيم؛ فهو رجل يتمتع بقدرات عالية في مجال الجمارك. إن عائلتي ذات نفوذ على المستوى المحلي، لذلك فإنهم يرغبون في ذهاب السيد ميكوبر إلى بليموث. ويحسبون أنه لا غنى عن وجوده هناك على الفور».

عقبت مستفهمًا: «ليصير جاهزًا؟».

أجابت السيدة ميكوبر قائلة: «بالضبط، حتى يصير جاهزًا في حالة ظهور أي شيء».

قلت: «وهل ستذهبين أيضًا يا سيدتي؟».

أثرت الأحداث التي وقعت في ذاك اليوم، بالإضافة إلى وجود التوأم تأثيرًا كبيرًا، فجعلت السيدة ميكوبر في حالة هستيرية، كما أن الشراب لم يخلُ من تأثير أيضًا، فذرفت الدموع وهي تجيب قائلة:

«لن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا. ربما يكون السيد ميكوبر قد أخفى عني أزماته في بداية الأمر، لكن ذلك كان بسبب أن طبعه المتفائل ربما دفعه إلى توقع أنه سيتغلب عليها. بعنا عقد اللؤلؤ والأساور التي ورثتها عن أمي بأقل من نصف قيمتها، ثم بعنا مجموعة المرجان التي كانت هدية من أبي في يوم زفافي، فلم ننل منها سوى ثمن زهيد بالفعل. إلا أنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر. لا». ثم صرخت السيدة ميكوبر، وظهر تأثرها أكثر من ذي قبل قائلة: «لن أفعل ذلك أبدًا. لا فائدة من أن تسألني هذا السؤال».

شعرت بعدم الارتياح - كما لو أن السيدة ميكوبر افترضت أنني طلبت منها أن تفعل أي شيء من هذا القبيل! - فجلست ناظرًا إليها في حالة من القلق.

راحت تقول: «إن السيد ميكوبر له أخطاؤه. إنني لا أنكر أنه متهور. إنني لا أنكر أنه أبقاني في ظلام الجهل فيما يتعلق بمصادر دخله ومسؤولياته على حد سواء»، ثم تابعت حديثها بينما تنظر نحو الحائط فقالت: «إلا أنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر».

كانت السيدة ميكوبر قد رفعت صوتها في هذه اللحظات إلى حد الصراخ تمامًا. شعرت بذعر شديد إلى الحد الذي دفعني إلى الهروب إلى غرفة النادي، فأزعجت السيد ميكوبر في أثناء جلوسه على رأس الطاولة الطويلة التي تقود المجلس، وقد كان يغني قائلًا:

«أسرعي يا دوبين...

أسرعي يا دوبين...

أسرعي يا دوبين...

هيا انطلقي، وأسرعي... آهٍ!»[١].

وأخبرته أن السيدة ميكوبر في حالة تدعو للقلق. هرول إليها على الفور بعد أن استدعاه صوت البكاء، وكان قد خرج من الحجرة معي، وقد ملأ صدريته برؤوس وذيول الجمبري، الذي كان يشارك أكله مع أعضاء النادي.

---

(١) أغنية قديمة من الريف الإنجليزي. كانت تُغنى للتشجيع على الحركة، أو الازدراء أحيانًا.

صرخ السيد ميكوبر بينما يركض نحو الغرفة قائلًا: «إيما يا ملاكي! ما الأمر؟».

صرخت: «لن أتخلى عنك أبدًا يا ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «يا حياتي وعمري، إنني على يقين تام من ذلك».

صرخت السيدة ميكوبر، في حالة هياج عاطفي بينما تتلوى قائلة: «إنه والد أطفالي، إنه والد توأمي، إنني لن أفعل ذلك... لن أهجر السيد ميكوبر».

لقد تأثر السيد ميكوبر بشدة بهذا الدليل على إخلاصها - أما أنا فقد ذُبت في بكاء حار - حتى إنه احتضنها على وجه حنون، ثم ناشدها راجيًا أن تنظر نحوه وأن تهدأ. كلما طلب من السيدة ميكوبر أن تنظر نحوه، ركزت عينيها على لا شيء، وكلما طلب منها السيطرة على نفسها، ازدادت انفعالًا. أثر هذا على السيد ميكوبر سريعًا، ونتيجة لذلك فقد اختلطت دموعه بدموعها ودموعي أيضًا. توسل السيد ميكوبر إليَّ لأن أقدم له خدمة بأن آخذ كرسيًّا وأجلس عند السلم، إلى أن يحثها على النوم. كنت على وشك أن أستأذن للرحيل، إلا أنه لم يسمح لي بالانصراف حتى يرن الجرس إيذانًا برحيل الزائرين. جلست عند نافذة السلم حتى خرج ومعه كرسي آخر وانضم إلى مجلسي.

قلت: «كيف حال السيدة ميكوبر الآن يا سيدي؟».

أجابني السيد ميكوبر بينما يهز رأسه قائلًا: «إنها في حالة سيئة للغاية. إنها متأثرة. آه، لقد كان هذا يومًا مروعًا. إننا نقف في محنتنا وحدنا الآن... لقد ذهب كل شيء من بين أيدينا».

ضغط السيد ميكوبر على يدي ثم تأوه، وذرف دموعًا بعد لحظات. لقد تأثرت وشعرت كذلك بخيبة أمل كبيرة، لأنني كنت أتوقع أننا سنكون في غاية المرح والسعادة في هذه المناسبة السعيدة التي طال انتظارها. أما السيد ميكوبر وزوجته، فقد كانا معتادين على الأزمات القديمة التي واجهتها، على حد ظني، لدرجة أنهما شعرا كما لو أن سفينتهما قد تحطمت بعد أن فكرا في أنهما قد خرجا من سجنهما طليقين. لقد تلاشت مرونتهما تمامًا، ولم أرَهما قَطُّ في حالة من اليأس كما عهدتهما في هذه الليلة، إلى الحد الذي صرت أشعر فيه بخوف شديد من أن أترك السيد ميكوبر بمفرده بعد أن رن جرس الانصراف. مشى معي نحو الباب مودعًا وداعيًا، إلا أنني خشيت تركه بسبب ما رأيته فيه من بؤس عارم.

ساد جو من الارتباك والتشتت وقد شمل الجميع، بشكل غير متوقع على الإطلاق - على الأقل بالنسبة لي. أدركت يقينًا أن السيد ميكوبر والسيدة زوجته وأفراد أسرتهما، كانوا في طريقهم للذهاب بعيدًا عن لندن، وأن موعد فراقنا سيحين قريبًا. خطرت لي فكرة في أثناء سيري إلى المنزل في تلك الليلة، ورحت أفكر فيها كذلك في ساعات الأرق التي تلت هذا اليوم، بينما كنت مستلقيًا على سريري. إلا أنني لم أعرف كيف وصلت إلى رأسي هذه الأفكار، والتي تحولت بعد ذلك إلى فكرة أكثر دقة وتجسيدًا.

لقد عشت واعتدت على ألفة أهل السيد ميكوبر، وكنت شديد الحميمية معهم في محنتهم، بل وصرت بلا أصدقاء تمامًا من دونهم،

إلى الحد الذي كانت فيه احتمالية تغيير السكن إلى آخر جديد، والذهاب مرة أخرى بين أناس أجهلهم، أمرًا صعبًا وواجبًا. كان إدراكي لهذه اللحظة التي تحولت على غير هدى إلى حياتي الحالية بمثابة استبصار، منحتني إياه التجربة التي أحياها. أُصيبت مشاعري الحساسة بقسوة عارمة، حتى تملكني الخزي والبؤس، من دون أن يهجرا صدري ما دمت حيًّا، بل صارت مشاعري أكثر رهافة حين رحت أفكر في الأمر، ثم أيقنت أن الحياة صارت لا تحتمل.

تأكدت أنه ليس هناك أمل في الهروب من الأمر، إلا إذا هربت بنفسي من عملي، وقد صرت متيقنًا من ذلك. كنت نادرًا ما أتلقى خطابًا من الآنسة مردستون، ولم أسمع شيئًا قَطُّ عن أخبار السيد مردستون، ولكن وصل إليَّ طردان أو ثلاثة طرود من الملابس المفصلة لي أو التي أصلحت، وقد تلقيتها عن طريق السيد كوينون. كان كل طرد يحوي قصاصة من الورق تشير إلى أن «ج.م - والتي تعني السيد مردستون - يرجو أن يكون د.ك - والتي تعني ديفيد كوبرفيلد - يعمل باجتهاد، ويكرس نفسه بالكامل لأداء واجباته». من دون أقل تلميح إلى أنني أي شيء آخر غير هذا الكادح الملقى في الدرك السفلي الذي استقر فيه بسرعة.

تبين لي في اليوم التالي، بينما كان ذهني منشغلًا بالفكرة الجديدة التي تصورتها، أن حديث السيدة ميكوبر لم يكن مجرد حديث عابر. لقد استأجروا مسكنًا في المنزل نفسه الذي أسكن فيه، ليمكثوا فيه لأسبوع، إلى حين انتهاء الوقت الذي يستعدون فيه للسفر إلى بليموث. توجه

السيد ميكوبر بنفسه - في فترة ما بعد الظهيرة - إلى مكتب الحسابات، ليخبر السيد كوينون أن عليه أن يتركني في يوم مغادرته، وأنه يشيد بأنني شخصية مهذبة، وأنا متأكد من أنني أستحق هذه الإشادة. أما السيد كوينون، فقد استدعى «تيب» السائق، وكان رجلًا متزوجًا، يمتلك غرفة للإيجار. توجهت إليه بعد موافقة متبادلة بينهما، وقد كان لديه كل الحق في التفكير على هذا النحو، لأنني لم أكن لأقول شيئًا، على الرغم من أنني كنت قد اتخذت قراري في هذه اللحظة.

قضيت أمسياتي مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، خلال الفترة المتبقية من إقامتنا تحت سقف واحد، وأحسب أننا صرنا أكثر ودًّا ومحبة مع مرور الوقت. دعواني لتناول الغداء في يوم الأحد الذي يسبق رحيلهم، وقد قدما فخذًا من لحم الخنزير وعصير التفاح والحلوى. كنت قد اشتريت حصانًا خشبيًّا مرقطًا في الليلة السابقة، ليكون هدية وداع للصغير الذي يدعى ويلكنز ميكوبر، واشتريت دمية لإيما الصغيرة. وأعطيت الخادمة اليتيمة شلنًا أيضًا، التي صارت على وشك الاستغناء عنها.

لقد قضينا يومًا ممتعًا للغاية، على الرغم من أننا كنا جميعًا في حالة تأثر بسبب اقتراب موعد فراقنا.

قالت السيدة ميكوبر: «لن أعاود التفكير أبدًا يا سيد كوبرفيلد، في الفترة التي كان فيها السيد ميكوبر يواجه أزمات، من دون أن أفكر فيك. لطالما كنت من أرق الناس طبعًا وأحسنهم أدبًا. إنك لم تكن بمثابة مستأجر قَطُّ. لقد كنت صديقًا صادقًا».

كان السيد ميكوبر قد اعتاد على مناداتي مؤخرًا باسم كوبرفيلد، فأخذ يقول: «يا عزيزتي إن كوبرفيلد يملك قلبًا حساسًا يشعر بأزمات الناس ويتأثر بها حتى لو احتجبوا من وراء سحابة، ولديه عقل للتخطيط والتدبر، وباختصار فإنه يملك قدرة عامة على التخلص من الممتلكات المتاحة التي يمكن التخلص منها وبيعها».

أعربت عن امتناني لهذا الثناء، وقلت إنني آسف جدًّا لأننا على وشك أن يخسر كل منا الآخر.

قال السيد ميكوبر: «يا صديقي، أيها الشاب العزيز، إنني أكبر منك، فأنا رجل يحوز بعض الخبرة في الحياة، وباختصار أحوز بعض الخبرة في الأزمات بشكل عام. لا أملك في الوقت الحاضر، وحتى يظهر شيء ما جديد (وهو ما قد أصرح أنني أنتظره في كل ساعة)، لا أملك ما أقدمه لك سوى النصيحة. لم تزل نصيحتي تستحق حتى هذه اللحظة أن تؤخذ بعين الاعتبار، وإن كنت باختصار، لم آخذ بها عن نفسي مطلقًا. الحقيقة أنني لم أفعل...» – في هذه اللحظة تحول السيد ميكوبر، الذي كان يداوم عل رسم الابتسام مرات على وجهه، إلى وجه عابس بعد أن تفكر في حاله – «بل وصرت البائس المسكين الذي تراه».

قاطعته زوجته قائلة: «آه يا ميكوبر يا عزيزي!».

راح السيد ميكوبر يتحدث، بعد أن تبدلت حالته تمامًا، فابتسم مرة أخرى، قائلًا: «أقول البائس المسكين الذي تراه. أما نصيحتي فهي، ألا تؤجل عمل اليوم إلى الغد. إن التسويف هو السارق الحقيقي للوقت، فطوِّقه».

عقبت السيدة ميكوبر قائلة: «إنها مقولة أبي المسكين».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، لقد كان والدك طيبًا جدًّا في أسلوبه، وأنا والعياذ بالله لا أجرؤ على الاستخفاف به. إننا لا نستطيع أن نأخذ كل أقواله في المجمل، وإلا فلن نتمكن من - باختصار، أن نعرف أحدًا سواه، ولن ننتبه على الأرجح إلى أي شخص آخر امتلك في زمنه، ساقين قد خطا بهما وتعلم، أو غيره ممن استطاع قراءة الكتب نفسها بمنظار غير منظاره. لقد طبَّق هذه المقولة على زواجنا يا عزيزتي، ونفذنا هذا الأمر قبل الأوان، ونتيجة لذلك فإنني لم أسلم من العواقب مطلقًا». رمق السيد ميكوبر زوجته بنظرة من طرف عينيه، ثم أضاف قائلًا: «لا أقصد أنني آسف على زواجنا السريع، بل على العكس تمامًا يا حبيبتي». وبعد ذلك، ساد السكون لدقيقة أو نحو ذلك.

قال السيد ميكوبر: «أما نصيحتي الأخرى يا كوبرفيلد، فإنك تعلمها. إن كان الدخل السنوي عشرين جنيهًا، فالإنفاق السنوي تسعة عشر جنيهًا وتسعة شلنات، ثم النتيجة هي السعادة. أما إذا كان الدخل السنوي عشرين جنيهًا والنفقات السنوية عشرين جنيهًا وستة بنسات، فالنتيجة هي الشقاء. ستصبح الزهرة المتفتحة ذابلة، وتسقط أوراقها، فيهبط إله النهار على ذاك المشهد الكئيب، ويحوله عذابًا. وباختصار ستجد نفسك مربوطًا بالأرض إلى الأبد. كما هي حالي أنا».

أراد أن يجعل مثاله عن نفسه مثيرًا لمزيد من الإعجاب، فراح

يشرب كأسًا من النبيذ بسعادة ورضا، ثم أطلق صفيرًا على أنغام رقصة مجموعة المزمار[١].

لم أتردد في طمأنته بأنني سأحفظ هذه المبادئ في ذهني، على الرغم من أنني في الواقع لم أكن بحاجة إلى القيام بذلك، لأنها كانت بالفعل قد أثَّرت عليَّ بشكل واضح في ذلك الوقت. التقيت في صباح اليوم التالي بالأسرة بأكملها في مكتب تذاكر الحافلات، ورحت أراقبهم بقلب مقفر بينما يتخذون أماكنهم في نهاية الحافة.

قالت السيدة ميكوبر: «بارك الله فيك يا سيد كوبرفيلد، لن أنسى كل ما دار بيننا أبدًا، كما تعلم، ولن أقدر على التناسي أبدًا وإن راودتني نفسي».

قال السيد ميكوبر: «وداعًا يا كوبرفيلد، أتمنى لك كل السعادة وطيب العيش. إذا استطعت بعد مرور العمر والسنوات، أن أقنع نفسي بأن مصيري البائس كان بمثابة عبرة لك، فلن أشعر أنني قد عشت حياتي في هذا الوجود عبثًا. أما في حالة ظهور أي شيء (وأنا واثق منه إلى حد ما)، فسأسعد غاية السعادة، إذا صار في وسعي تحسين مستقبلك».

أحسب أن السيدة ميكوبر بعدما جلست في مؤخرة المركبة مع الأطفال، بينما وقفتُ أنا في الطريق أنظر إليهم بحزن، أن ضبابًا قد انقشع من فوق عينيها، وإذا بها تراني على حقيقتي؛ مخلوقًا صغيرًا حقًّا. راودني هذا الظن، لأنها طلبت مني أن أتسلق فأدنو منها، وقد

(١) رقصة شائعة تقلد حياة البحارة وواجباتهم على ظهر السفينة. تتطلب مساحة صغيرة للرقص، ولا تحتاج إلى شريك. كان أول تدوين للحن هذه الرقصة في عام ١٧٧٠.

اعتلى وجهها تعبير جديد تمامًا تغلب عليه سمات الأمومة، فما لبثت أن طوقت عنقي بذراعها، وطبعت على وجنتي قبلة مثل التي تمنحها لوليدها. استطعت بالكاد النزول مرة أخرى قبل أن تبدأ الحافلة في التحرك، وبالكاد استطعت تمييز أفراد الأسرة بينما يلوحون بالمناديل توديعًا لي. تلاشت الحافلة من أمامي بعد دقيقة واحدة. وقفت بعدها أنا والخادمة اليتيمة ينظر كل منا إلى الآخر حتى منتصف الطريق، ثم تصافحنا وافترقنا. أحسب أنها عادت إلى ورشة القديس لوقا، بينما ذهبتُ لأبدأ يومي المرهق في متجر مردستون وجرينبي.

توجهت إلى المتجر وقد انعقدت نيتي على ألا أضيع العديد من الأيام المرهقة في هذا المكان. لا، بل لقد عقدت العزم على الهرب. اعتزمت الذهاب بطريقة أو بأخرى إلى الريف، إلى القريبة الوحيدة التي لي في هذا العالم؛ فأروي قصتي لعمتي الآنسة بيتسي. لقد اعترفت بالفعل بأنني لم أعرف كيف راودتني هذه الفكرة اليائسة واخترقت ذهني، إلا أنها استقرت بعقلي بمجرد التفكير فيها. راحت هذه الفكرة تتأكد حتى صارت هدفًا، من دون أن أرى في حياتي أبدًا هدفًا أكثر تحددًا منه. أحسب أنني لم أكن متأكدًا من أن هناك أي علامة تبعث على الأمل، وعلى الرغم من ذلك اعتزم عقلي أن ينفذ فكرته تمامًا.

راحت هذه الفكرة تعاودني مرة تلو الأخرى، بل راودتني لمئات المرات منذ الليلة التي خطرت فيها لأول مرة فأبعدت عني النوم. كنت قد تجاوزت تلك القصة القديمة التي قصتها أمي المسكينة لي عن ولادتي، وقد كانت واحدة من أعظم مسراتي القديمة حين أسمعها

تحكيها، وحفظتها عن ظهر قلب. ظهرت عمتي في تلك القصة ثم خرجت منها، كانت ذات شخصية مرعبة ومروعة، إلا أن سمة واحدة صغيرة في سلوكها كنت قد أحببت التركيز عليها، وشجَّعتني بدرجة طفيفة على الأمر. لم أستطع أن أنسى كيف شعرت أمي عندما لمست عمتي شعرها الجميل بيد قاسية خشنة. ربما كان تصور والدتي خياليًّا تمامًا، أو لم يكن له أي أساس من الصحة على الإطلاق، فقد رسمت في مخيلتي صورة صغيرة لعمتي المرعبة من هذا الموقف، فإذا بي أتخيلها مندمجة مع هذا الجمال الأنثوي الذي طالما أحببته كثيرًا وأتذكره جيدًا، مما أضفى نعومة على الحكاية بأسرها. يظهر أنه من المحتمل جدًّا أن هذه الفكرة كانت عالقة في ذهني منذ فترة طويلة، ثم ترعرع العزم داخلي بشكل تدريجي.

لم أكن أعرف مكان إقامة الآنسة بيتسي، لذلك فإنني كتبت رسالة طويلة إلى بيجوتي، ثم سألتها فيها مصادفةً عما إذا كانت تتذكر مكانها. تظاهرت بأنني سمعت عن سيدة تعيش في مكان معين، وقد أطلقت اسمًا عشوائيًّا لمكان، وأن الفضول يدفعني لمعرفة ما إذا كان هو نفسه المكان الذي تسكن فيه عمتي أم لا. أخبرت بيجوتي في سياق هذه الرسالة أن لديَّ مناسبة خاصة، وأنني سأحتاج إلى نصف جنيه، وأنني سأكون ممتنًّا لها للغاية إذا استطاعت إقراضي هذا المبلغ إلى حين أتمكن من سداده، وأنني سأخبرها بعد ذلك عن سبب احتياجي لهذا المبلغ.

وصلت إجابة بيجوتي سريعًا، وكانت كعادتها، مُحمَّلة بكل معاني الإخلاص والتفاني والحب. لقد أرفقت نصف جنيه - أخشى أنها

واجهت صعوبات جمة لإخراج هذه النقود من صندوق السيد باركس - ثم أخبرتني أن الآنسة بيتسي تعيش بالقرب من دوفر، ولكنها لا تعرف يقينًا إن كانت تسكن في دوفر نفسها، أم في هايث، أو ساندجيت، أو فولكستون. أبلغني أحد رجالنا العاملين بعد سؤالي عن هذه الأماكن، أنها جميعًا كل منها يجاور الآخر، واعتبرت هذه الإجابة كافية، ثم عقدت العزم على الانطلاق في نهاية ذلك الأسبوع.

كنت مخلوقًا صغيرًا للغاية تربى على الأمانة، ولا أرغب في أن أترك ذكرى سيئة ورائي بعد أن أرحل عن متجر مردستون وجرينبي، لذلك فقد اعتبرت نفسي ملزمًا بالبقاء حتى ليلة السبت، ولأنني تلقيت أجر أسبوع مقدمًا عندما أتيت إلى هناك لأول مرة، فلن أتوجه إلى مكتب الحسابات في الموعد المحدد لتلقي راتبي. كان هذا السبب الصريح هو ما دفعني إلى اقتراض نصف جنيه، حتى لا أصير بلا نقود تعينني على نفقات سفري. حلت ليلة السبت، وكنا جميعًا ننتظر في المستودع حتى يتم دفع الأجور، وقد أقبل تيب سائق العربة، والذي كانت له الأسبقية دائمًا في الحضور. ذهب تيب أولًا لاستلام راتبه. أما أنا فأخذت بيد مك ووكر، وطلبت منه أن يبلغ السيد كوينون عندما يحين دوره في أخذ أجره، أنني قد ذهبت لنقل متاعي إلى غرفة تيب، ثم ودَّعت ميلي الذي يشبه البطاطس المغبرة بالدقيق وداعًا أخيرًا، وانطلقت هاربًا.

كان صندوق أمتعتي في مسكني القديم المشرف على النهر، وقد ألصقت توجيهًا له على ظهر إحدى بطاقات العناوين الخاصة بنا، والتي كنا نُثبتها على البراميل، فكتبت: «خاص بالسيد ديفيد، يُترك حتى يتم

طلبه في مكتب المدرب دوفر». كانت هذه البطاقة في جيبي، وقد جهزتها للصق على الصندوق بعد أن أخرجته من المنزل، وبينما كنت أسير نحو مسكني، رحت أبحث عن شخص يساعدني في نقله إلى مكتب البريد.

رأيت شابًّا طويل الساقين يجر عربة بحمار فارغة تمامًا من أي حمولة، ويقف بالقرب من المسلة في طريق بلاكفرايرز. لمحته بينما أمضي أمامه في طريقي، وقد راح ينعتني قائلًا: «يا ستة بنسات مزورة»[(١)]، ثم راح يتوعدني قائلًا: «يجب أن أتعرف عليه قبل أن أُدلي بالقَسم»[(٢)]، في إشارة إلى التحديق فيه من دون أدنى شك. توقفت لأؤكد له أنني لم أفعل ذلك لسوء أدب، بل لأنني غير متأكد ما إذا كان سيرغب في الحصول على عمل مؤقت أم لا.

قال الشاب طويل الساقين: «أهو عمل جيد؟».

أجبته: «إن المهمة هي نقل صندوق».

قال الشاب طويل الساقين: «أي صندوق؟».

أخبرته بأنه صندوق يخصني، وأنه موجود في هذا الشارع، وأنني أردت أن ينقله إلى مكتب حافلات دوفر مقابل ستة بنسات.

قال الشاب طويل الساقين: «اتفاق مقبول»، ثم صعد مباشرة إلى عربته، التي لم تكن سوى صينية خشبية كبيرة مرتكزة إلى عجلات، وقد

(١) يضرب المثل بشيء لا يمكن التخلص منه.

(٢) عبارة تشير إلى تقليد قديم شائع، وهو ضرورة تحديق المرء والتعرف على خصمه أو نصيره، قبل القسم على صحة أقواله في قضية ما في المحاكم القديمة.

راحت تهتز حين انطلق مسرعًا، لدرجة أنني بذلت جهدًا شاقًّا لمواكبة الحمار.

لم تعجبني طريقة هذا الشاب التي لا تخلو من التحدي، وخاصة الطريقة التي يمضغ بها القش بينما يتحدث إليَّ. اصطحبته بعد إبرام الصفقة إلى الطابق العلوي حيث الغرفة التي سأغادرها، وأنزلنا الصندوق ووضعناه على عربته. لم أرغب في هذه اللحظة في لصق بطاقة التوجيه على الصندوق، خشية أن يفهم أي من أفراد عائلة المالك ما أنتوي فعله، فيمنعني من المغادرة، لذلك فإنني طلبت من الشاب التكرم للوقوف لمدة دقيقة، بعدما يصل إلى الجدار الخلفي من سجن حجز الملك. لم تكد الكلمات تخرج من فمي، حتى هرول مسرعًا كما لو أنه وصندوقي والعربة والحمار جميعهم يحملون مقدارًا متساويًا من الغضب، إلى أن انقطعت أنفاسي تمامًا مع الجري بعده ومناداته، حتى لحقت به في المكان المحدد.

أُنهكت بشدة، حتى إنني أسقطت من جيبي نصف جنيه بينما أخرج البطاقة. التقطته ثم وضعته بين شفتي من أجل الحفاظ عليه، وعلى الرغم من ارتجافة يدي، فإنني ثبت البطاقة على الصندوق بإحكام. شعرت بعدها بضربة من الشاب طويل الساقين تحت ذقني، ورأيت نصف الجنيه يطير من فمي إلى يده.

قال الشاب: «ما هذا؟!». ثم أمسك بي من ياقة سترتي مبتسمًا ابتسامة مخيفة قائلًا: «هذا أمر تفصل فيه الشرطة، أليس كذلك؟ إنك تتهرب من السجن، أليس كذلك؟ تعالَ معي أيها الشاب اللعين إلى

مركز الشرطة، هيا تعالَ إلى مركز الشرطة».

قلت بينما تملكني الخوف: «فلتُعد إليَّ أموالي، إذا سمحت، ثم اتركني وشأني».

قال الشاب: «تعالَ إلى الشرطة، يجب أن تثبت أنها ملكك أمام مركز الشرطة».

صرخت وأنا غارق في البكاء: «هلا أعطيتني صندوقي ومالي من فضلك».

إلا أن الشاب ظل يردد: «تعالَ إلى مركز الشرطة». وأخذ يسحبني نحو الحمار في عنف، كما لو أن ثمة قرابة بين ذلك الحيوان والقاضي، ثم ما لبث أن غير موقفه، فقفز إلى العربة، ثم جلس فوق صندوق أمتعتي، أخذ يصيح قائلًا إنه سيتوجه بعربته إلى الشرطة مباشرة، وهرول مسرعًا أكثر من أي وقت مضى.

ركضت خلفه بأقصى سرعتي، لكن أنفاسي المقطوعة لم تسعفني للصراخ أو لمناداته، ولم أكن لأتجرأ على الصراخ في هذه اللحظة، حتى لو استطعت ذلك. لقد نجوت بأعجوبة من التعرض للدهس لأكثر من عشرين مرة على الأقل، حين ركضت لمسافة نصف ميل تقريبًا. لم أستطع رؤيته في هذه اللحظات، إلى أن أبصرته من جديد، ثم اختفى عن ناظري مرة أخرى حتى فاجأني لهيب السوط. أخذ يصرخ فيَّ في هذه اللحظة، وإذا بي منطرح في الوحل تارة، أو ملقى بين يدي أحد الأشخاص مرة، أو هارب متخبط في مكان ما تارة أخرى. تملكني اليأس والإعياء في النهاية، وحسبت أن نصف سكان لندن قد أقبلوا

للقبض عليَّ وإرهابي بحلول هذا الوقت، فتركت الشاب يرحل إلى حيث يريد مع صندوقي وأموالي، ورحت ألهث وأنتحب باكيًا، من دون أن أتوقف عن المسير نحو جرينتش التي عرفت أنها كانت تقع على طريق دوفر. لم أنل من هذا العالم سوى القليل، بل لقد تجاوزت ما أحست به عمتي الآنسة بيتسي من يأس في الليلة التي علمت فيها بقدومي إلى هذه الحياة، بكثير من الاستياء.



# الفصل الثالث عشر

## عاقبة قراري

أدركت شيئًا ما، وربما دفعني إلى فكرة جامحة مفادها الركض طوال الطريق وصولًا إلى دوفر، بعدما يأست من ملاحقة الشاب صاحب العربة وحمارها، ومن ثَم بدأت في طريقي نحو جرينتش. استجمعت حواسي المشتتة سريعًا بعد التفكير في هذه النقطة التي تملكتني، فإذا بي أقف عند طريق كينت، عند مشارف رقعة من الماء تمتد أمامي، يتوسطها تمثال كبير ينفخ في صدفة جافة. جلست هنا على عتبة بابي، بعد أن تعبت تمامًا وتملكني الإنهاك من جراء الجهود التي بذلتها، لا أكاد ألفظ أنفاسي فلا أستطيع أن أبكي على فقدان صندوقي ونصف الجنيه الذي حُزته.

حلَّ الظلام. سمعت دقات الساعة تعلن حلول العاشرة، بينما جلست مستريحًا. كانت ليلة صيفية لحسن الحظ، وقد صار الطقس جميلًا بحلول الظلام. استعدت أنفاسي وتخلصت من الشعور بغصة في حلقي، ثم نهضت لأمضي قدمًا في طريقي. لم تراودني أدنى فكرة عن العودة في خضم محنتي. أكاد أجزم أن أيًّا من هذه الأفكار لم تراودني، على الرغم من العاصفة الثلجية التي تشبه عواصف سويسرا التي لفتني في طريقي إلى كينت.

لم أملك من متاع العالم سوى ثلاثة بنسات - وإنني على يقين أنني رحت أتساءل في وقفتي هذه كيف بقيت في جيبي منذ ليلة السبت! - أما ما زاد من دهشتي هو أنني واصلت ما اعتزمته من أمري. رحت أتخيل نفسي، وقد أمسيت خبرًا من أخبار الصحف، وأنني قد وُجِدت ميتًا بعد يوم أو يومين تحت سياج من أشجار. مشيت وقد تملكني اليأس، على الرغم من أنني رحت أسرع من خطواتي بكل ما أوتيت من قوة، إلى أن مررت بمتجر صغير، وقد كتب عليه أنه على استعداد لشراء ملابس السيدات والسادة وتقديم أفضل سعر للخزف والعظام وأدوات المطبخ وغيرها من الأشياء. كان صاحب هذا المحل جالسًا عند الباب يرتدي قميصًا ذا أكمام قصيرة، وقد أخذ يدخن. لاح لعيني الكثير من المعاطف والسراويل المتدلية من السقف المنخفض، ولم تظهر لي سوى شمعتين ضعيفتين تنيران داخل المتجر حتى تُظهرا ما بداخله. تخيلت صاحب المتجر كما لو أنه رجل ذو نزعة انتقامية، قد فرغ من أعدائه جميعًا ثم علقهم أمامه، وقد أخذ يستمتع بوقته بعد ذلك.

كانت تجربتي الأخيرة مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته قد ألهمتني طريقة ربما تحميني شر الذئب لفترة قصيرة. توجهت إلى شارع مجاور وخلعت صدريتي، ثم لففتها بإحكام تحت ذراعي، وعدت بها حيث باب المتجر.

قلت: «إذا سمحت يا سيدي، إنني أرغب في بيع هذه بسعر مناسب».

أخذ السيد دولوبي الصدرية - كان اسم دولوبي مكتوبًا على باب

المتجر بشكل لافت، ثم أزاح غليونه نحو رأسه عند عمود الباب، وتوجه إلى داخل المتجر بينما تبعته. قرب إليه الشمعتين بأصابعه، ثم بسط الصدرية على المنضدة، وأخذ يتفحصها في مقابل الضوء، وأخذ يُقلِّب فيها هناك، وفي النهاية راح يقول:

«أي سعر تريده الآن، مقابل هذه الصدرية الصغيرة؟».

أجبته في تواضع قائلًا: «آهٍ! إنك أعلم يا سيدي».

قال السيد دولوبي: «لا يمكنني أن أكون مشتريًا وبائعًا أيضًا. ضع سعرًا مقابل هذه الصدرية الصغيرة».

أجبته بعد بعض التردد قائلًا: «هل سيكون ثمنها ثمانية عشر بنسًا؟».

قام السيد دولوبي بلفها مرة أخرى، ثم أعادها إليَّ قائلًا: «يجب أن أسرق عائلتي إذا عرضت عليك تسعة بنسات في مقابلها».

كانت هذه الطريقة غير مُرضية لإتمام الأمر، لأنها تفرض عليَّ - أنا الغريب هنا - ألا أرضى أن يسرق السيد دولوبي عائلته على حسابي. كانت ظروفي ملحة للغاية، مما اضطرني للاستفادة من ذلك، فقلت إنني أوافق على ذلك. أعارني السيد دولوبي البنسات التسعة من دون أن يخلو وجهه من بعض التذمر. تمنيت له ليلة سعيدة، ثم خرجت من المتجر أكثر ثراءً بعد أن حزت هذا المبلغ، ولكنني صرت بلا صدرية تحميني، إلا أنني رحت أحكم أزرار معطفي، فلم أشعر بفقدان الكثير. في الواقع، لقد توقعت أنني سأبيع معطفي بعد ذلك، وأنه يجب عليَّ أن أبذل قصارى جهدي للوصول إلى دوفر مرتديًا قميصًا وبنطالًا، وقد أعتبر نفسي محظوظًا إذا وصلت إلى هذا المكان محافظًا على ملابسي. لم ينشغل عقلي كثيرًا بهذا الأمر كما

كان يُفترض. لم تراودني أي مشاعر بعد أن أزحت عن عقلي التفكير في المسافة المتبقية أمامي، وما حدث من هذا الشاب صاحب العربة والحمار والذي آلمني بقسوة، بل رحت أُنحِّي كل الصعوبات التي واجهتني جانبًا، ثم انطلقت مرة أخرى وفي جيبي تسعة بنسات.

خطرت لي فكرة لقضاء الليلة، وقد قررت تنفيذها. كانت هذه الفكرة هي أن أرقد بجانب الحائط الخلفي لمدرستي القديمة، فأستكين في ركن حيث كومة قش هناك. حسبت أن هذه الفكرة ستمنحني شعورًا بالصحبة حيث أصير بالقرب من الأولاد، فآنس بالقرب من غرفة النوم حيث رحت أروي القصص، على الرغم من أن الأولاد لن يعرفوا شيئًا عن وجودي هناك، ولن توفر لي ذكريات غرفة النوم أي مأوى.

كان يومي شاقًّا، وقد صرت في غاية التعب، إلى أن وصلت أخيرًا إلى مرتفع بلاكهيث. تكبدت المشقة للعثور على مدرسة سالم هاوس، إلا أنني وجدتها في النهاية، ووجدت كومة قش في الزاوية، فاستلقيت بجانبها بعد أن أخذت جولة حول الحائط أولًا، ورحت أنظر إلى النوافذ، فوجدت أن كل شيء مظلم وصامت من الداخل. لن أنسى أبدًا الإحساس بالوحدة الذي راودني عندما استلقيت لأول مرة من دون سقف يظلل رأسي.

استولى عليَّ النوم كما يحدث مع العديد من المشردين والمنبوذين ممن أُغلِقت أبواب المنزل في وجوههم، بينما يدوي نباح الكلاب في المنازل في تلك الليلة. حلمت أنني لم أزل مستلقيًا على سريري القديم في المدرسة، وأنني أتحدث إلى الأولاد في غرفتي، ثم أحسست بنفسي

جالسًا مستقيمًا وقد أخذ اسم ستيرفورث يتردد على شفتي، بينما أحملق في ذهول نحو النجوم التي تتلألأ وتلمع فوق رأسي. تذكرت المكان الذي كنت فيه في هذه الساعة غير الملائمة، فاستولى عليَّ شعور نبهني لأستيقظ خائفًا من شيء ما لا أدركه. تضاءل اللمعان الخافت للنجوم، وراح الضوء الباهت الذي يلوح في السماء يعلن عن قدوم النهار فطمأنني. استلقيت مرة أخرى بعد أن أثقل النعاس عيني، وغصت في نوم مرة أخرى - على الرغم من إدراكي لبرودة الجو في أثناء نومي - حتى أيقظتني أشعة الشمس الدافئة، ورنين جرس الاستيقاظ في مدرسة سالم هاوس. وكم كنت أتمنى أن يكون ستيرفورث في المدرسة، كنت لأتوارى حتى يخرج بمفرده، إلا أنني أعرف أنه قد غادر منذ فترة طويلة. ربما ظل ترادلز بالمدرسة، ولكنني لم أكن على يقين من الأمر، ولم أكن واثقًا بما فيه الكفاية في حسن تقديره أو حسن حظه، ولذلك لم أستطع أن أثق به في الإفصاح عن وضعي هذا، مهما كان اعتمادي على فطرته الطيبة. تسللت بعيدًا عن الحائط بعدما بدأ أولاد مدرسة السيد كريكل يستيقظون. انطلقت نحو الطريق الطويل الترابي الذي عرفت من قبل أنه الطريق إلى دوفر، حين كنت واحدًا من أولاد هذه المدرسة، وعندما لم أكن أتوقع أن أيًا من الأعين ستراقبني بينما أسير في دربي هائمًا كما هي الحال التي أنا عليها الآن.

يا له من صباح مختلف عن صباحات أيام الآحاد القديمة في يارموث! سمعت دقات أجراس الكنيسة تدق في وقتها بينما أسير على وتيرتها ونغماتها، وقد التقيت بأناس في طريقهم للذهاب إلى الكنيسة، ثم مررت بكنيسة أو اثنتين حيث كان المصلون يتضرعون بالداخل، وقد

علت أصوات الترانيم مجلجلة في ضوء الشمس، بينما جلس الشَّماس يطلب دفء الشمس تحت ظل السقيفة، أو وقف تحت ظلال شجرة السدر، مسندًا يده إلى جبينه بينما يحدق في وجهي. كان هذا الهدوء الذي يغمر صباحات الأحد القديم يشمل كل شيء سواي، وكان هذا هو الفارق بيني والناس. شعرت أنني أبدو ملحفًا بالشر والأوساخ والغبار، بينما ألوح بشعري الأشعث الأغبر. إلا أنني استحضرت صورة هادئة لأمي في شبابها وجمالها، بينما تبكي عند نار المدفأة بينما تلين عمتي أمامها. أحسب أنني كنت بالكاد أمتلك الشجاعة للاستمرار في المسير حتى اليوم التالي، إلا أن صورة أمي ظلت تلوح أمامي دائمًا فأتبعها سيرًا.

قطعت في يوم الأحد مسافة ثلاثة وعشرين ميلًا في هذا الطريق المستقيم، وإن لم يكن ذلك سهلًا، لأنني لم أكن لأجيد هذا النوع من الكدح والعناء في المسير. أتذكر نفسي مع اقتراب المساء، قادمًا عبر الجسر في روتشستر، قريح القدمين ومنهكًا، بينما أتناول الخبز الذي اشتريته للعشاء. لقد أغراني نزل أو نزلان صغيران في الطريق وقد علق عليهما «مساكن للمسافرين»، لكنني كنت خائفًا من إنفاق البنسات القليلة التي أملكها، وكنت أكثر خوفًا من نظرات العابرين القاسية من الذين قابلتهم أو تجاوزتهم في طريقي. فلم أطلب ملجأ سوى السماء. عانيت حتى وصولي إلى تشاتام، والتي لم أحسبها في تلك الليلة سوى حلم مرسوم بالطباشير فتلوح لي الجسور المتحركة والسفن الخالية من الصواري منتصبة في نهر موحل، ومسقوفة مثل سفن نوح. تسللت في النهاية نحو هضبة مزروعة بالأعشاب ممتدة عبر ممر منبسط، يسير

أمامها حارس ذهابًا وإيابًا. استلقيت هناك بالقرب من وحدة مدفعية، بينما آنست لخطى ذلك الحارس على الرغم من أنه لم يعرف عن وجودي كما لم يعرف الأولاد في مدرسة سالم هاوس عن نومي بجوار الحائط، لذلك فقد رحت في سبات عميق حتى مطلع الصباح.

استيقظت في الصباح متيبس الجسد وقد شعرت ألمًا في قدمي، كما صرت في غاية الذهول حين سمعت قرع الطبول وخطى سير الجنود على وقعها، والتي بدت وكأنها تحيطني من كل جانب بعدما هبطت متجهًا نحو الممر الضيق الطويل. شعرت أنني لن أتمكن من المسير إلا لمسافة قصيرة جدًّا في ذلك اليوم، إذا أردت أن أحتفظ بقوتي حتى أستطيع المواصلة إلى نهاية رحلتي. عقدت العزم على بيع صدريتي، وصار هذا هو العمل الرئيسي الذي يشغلني. وبناءً على قراري هذا، فقد خلعت معطفي، حتى أعتاد الاستغناء عنه، وتأبطته تحت ذراعي، ثم بدأت في جولة تفقدية لمختلف متاجر الملابس المستعملة.

توصلت إلى مكان محتمل لبيع معطفي، فقد كان تجار الملابس المستعملة كثيرين، وكانوا يبحثون بشكل عام عن الزبائن عند أبواب متاجرهم. إلا أن معظمهم كان يعلق بضاعته التي كانت بين معطف لضابط أو معطفين أو كتافة عسكرية أو أي شيء من هذا القبيل. كنت خجلًا من الطبيعة المبالغة في معاملاتهم، ولذلك فقد سرت أتفقد المتاجر لفترة طويلة من دون أن أعرض بضاعتي على أي منها.

استرعى هذا التواضع انتباهي إلى بعض المتاجر التجارية الخاصة ببيع الملابس البحرية، فقد كانت متاجر تشبه متجر السيد دولوبي،

وتختلف عن التجار العاديين. عثرت أخيرًا على متجر مناسب، حيث ظننت أنه يبدو واعدًا بالخير. كان المتجر في زاوية ممر متسخ، ينتهي بسور مليء بالأشواك والحشائش ذات الرائحة الكريهة، تنتشر على حوافها ملابس بعض البحارة المستعملة التي تبدو أنها قد فاقت سعة المتجر. رفرفت الملابس بين بعض أسرة الأطفال، والبنادق الصدئة، والقبعات المصنوعة من الجلد الزيتي، وبعض الصواني المليئة بالعديد من المفاتيح القديمة الصدئة ذات الأحجام المتعددة، حتى إنها بدت متنوعة بما يكفي لفتح جميع الأبواب في هذا العالم.

كان هذا المتجر صغيرًا ومنخفضًا في مستواه عن الأرض، كما كان مظلمًا بدلًا من أن تضيئه نافذة صغيرة، مليئًا بالملابس. نزلت إليه ببعض الخطوات، ودخلت إليه بقلب ينبض من الخوف. لم تهدأ نبضات قلبي حتى بعد أن خرج إليَّ من عرين قذر رجل عجوز قبيح المظهر، كان الجزء السفلي من وجهه قد اكتسى بالكامل بلحية رمادية كثيفة، وقد أمسك بشعر رأسي. كان رجلًا عجوزًا مخيفًا للناظرين، يرتدي صدرية قطنية قذرة، وتفوح منه رائحة خمر كريهة. أما سريره الذي لاح في جوف هذا العرين الذي جاء منه، فقد كان مغطى بقطعة ممزقة بالية من القماش المرقع، كما أظهرت لي نافذة أخرى صغيرة احتمالية وجود المزيد من الأشواك والحشائش كريهة الرائحة، وحمار أعرج.

ابتسم هذا الرجل العجوز ابتسامة عريضة، وراح يقول في أنين رتيب يشبه العواء: «آهٍ، ماذا تريد؟ آهٍ يا عيني وآه يا أطرافي، ماذا تريد؟ آهٍ يا رئتي ويا كبدي؛ ماذا تريد؟ آهٍ يا جورو، آهٍ يا جورو!».

شعرت بفزع شديد من هذه الكلمات، ولا سيما من تكرار آخر كلمة والتي لم أكن أفهم معناها، والتي كانت تشبه نوعًا من الخشخشة في حلقه، حتى إنني لم أستطع الإجابة عن سؤاله. كرَّر الرجل العجوز سؤاله، بينما لم يزل ممسكًا بشعري:

«آهٍ، ماذا تريد؟ آهٍ يا عيني وآه يا أطرافي، ماذا تريد؟ آهٍ يا رئتي ويا كبدي، ماذا تريد؟ آهٍ يا جورو!». أخرج هذه الكلمات من فمه مكرهًا، وقد تكلف الكلام حتى لاحت عيناه على وشك الخروج من رأسه.

قلت مرتجفًا: «أردت أن أعرف هل ترغب في شراء معطف؟».

صرخ الرجل العجوز قائلًا: «آهٍ، لنرَ المعطف! آهٍ، يا قلبي المتقد، أرِني المعطف. آهٍ، يا عيني ويا أطرافي، هيا أرني المعطف».

أزاح عن شعري يديه المرتعشتين الشبيهتين بمخالب ضخمة لطائر، ورفع إليه نظارته، من دون أن تزين عينيه المتورمتين أو تحجبهما على الإطلاق.

صاح الرجل العجوز بعد فحصه للمعطف: «آهٍ، كم ثمن المعطف؟ آهٍ يا جورو! كم ثمن المعطف؟».

أجبت بينما أتمالك نفسي: «هل يساوي نصف كروان؟».

صاح الرجل العجوز: «آهٍ، يا رئتي ويا كبدي، لا. آهٍ، يا عيني، لا. آهٍ، يا أطرافي، لا. لا يساوي سوى ثمانية عشر بنسًا. يا جورو!».

كادت عيناه تبدوان في خطر، فما إن يبدأ كل مرة في النطق بهذه التأوهات حتى توشكان على الانفلات من مكانهما. كان يقول كل

جملة على وتيرة واحدة، يرددها دائمًا بالأسلوب نفسه تمامًا، وكانت كلماته أشبه بعاصفة من الرياح؛ تبدأ منخفضة، ثم ما تلبث أن تتصاعد عالية، إلى أن تنخفض مرة أخرى، وهذا تشبيه أدق من أي صورة أخرى أستطيع أن أتذكرها.

قلت: «حسنًا، إنني سعيد لإتمام الصفقة، سآخذ في مقابله ثمانية عشر بنسًا».

صرخ الرجل العجوز بينما يطوح بالمعطف على الرف: «آهٍ، يا كبدي. هيا اخرج من المتجر. آهٍ يا رئتي، اخرج من المتجر. آهٍ، يا عيني ويا أطرافي، آه جورو! لا تطلب المال؛ فلتجعل الصفقة مقايضة». لم أشعر بالخوف مطلقًا في حياتي كما أحسسته في هذه اللحظة، إلا أنني أخبرته بتوسل أنني أريد المال، وأنه لا شيء سواه سيفيدني، وأنني سأنتظره إلى ما يشاء في الخارج، وأنني لا أرغب في حثه على الاستعجال، ثم خرجت وجلست في الظل في الزاوية. جلست هناك لساعات طويلة، إلى أن أزاح ضوء الشمس الظل الذي يلفني، ثم استحال ضوء الشمس ظلًّا مرة أخرى، وما زلت جالسًا هناك في انتظار المال.

آمل ألا يعمل في هذا المجال يومًا رجل مجنون أو مخمور مثل هذا النوع من الرجال. لقد عرفت أنه مشهور بين أهل الحي، وأنه يتمتع بسمعة سيئة، وأنه قد باع نفسه للشيطان. أدركت سريعًا من الصبية الذين ترددوا عليه، والذين راحوا يناوشونه باستمرار صارخين حول المتجر، وقد راحوا يصيحون فاضحين حكايته، داعين إياه ليُخرِج ما اكتنزه، قائلين: «إنك لست فقيرًا كما تتظاهر يا شارلي، وإنك تدرك الحقيقة.

أخرج الذهب الذي تكنزه. أخرج بعض الذهب الذي بعت نفسك للشيطان من أجله. هيا، إن كنزك في بطانة المرتبة يا شارلي. افتحها ودعنا نحصل على بعض منه». هذا بالإضافة إلى العديد من العروض لإعارته سكينًا للاستعانة بها في هذا الغرض. أثاروا غضبه، وصار اليوم بأكمله سلسلة من ملاحقاته لهؤلاء الصبية، وهروبهم من أمامه. كان يحسبني أحيانًا من شدة غيظه واحدًا منهم، ثم يأتي إليَّ فيتكلم متوعدًا كما لو أنه سيمزقني إربًا، ثم يتذكرني في الوقت المناسب، فيغوص في المتجر ويستلقي على سريره - هذا ما أحسبه من الصوت الذي يصدره بينما يصرخ بطريقة محمومة، على وتيرة لحنه الأشبه بالعواصف، بينما يدندن بأغنية «موت نيلسون»[١]، وقد مزج كلماتها بتأوه قبل كل سطر، وخللها بقوله «جورو» بعدد لا حصر له من المرات. وكما لو أن ما جرى لي من سوء لم يكن كافيًا، فقد أخذ الصبية يشكون في أمري وعلاقتي بالمتجر، بسبب صبري ومثابرتي على الجلوس بالخارج بينما أنا نصف عارٍ. راحوا يرشقونني بالحجارة، وأخذوا يسيئون إليَّ طوال النهار.

تكررت محاولات الرجل كثيرًا لحثي على الموافقة على المقايضة، فراح يخرج تارة بصنارة صيد، وأخرى بآلة كمان، وفي مرة جديدة يخرج بحوزته قبعة مصبوبة، ثم مزمار في مرة أخرى. إلا أنني رفضت كل هذه العروض، وجلست محاطًا باليأس. رحت أسأله في كل مرة والدموع تملأ عيني، عن أموالي أو معطفي. بدأ يدفع لي في النهاية نصف بنس

---

(١) أغنية عن بطل البحرية البريطانية الأدميرال اللورد نيلسون، الذي انتصر على الفرنسيين والإسبان في اليوم نفسه الذي مات فيه برصاص الفرنسيين عام ١٨٠٥م.

في المرة الواحدة، إلى أن وصلت على مدار ساعتين كاملتين إلى شلن واحد.

أخذ يصرخ، بعدما أطل من المتجر في هيئة بشعة للعيان بعد فترة انقطاع طويلة، قائلا: «آهٍ، يا عيني ويا أطرافي. هل تأخذ بنسين إضافيين وتذهب من هنا؟».

قلت: «لا أستطيع. إنني سوف أتضور جوعًا».

قال: «آهٍ، يا رئتي ويا كبدي، هل ستذهب إذا أخذت ثلاثة بنسات؟».

قلت: «سأرحل عنك من دون مقابل إن كان الأمر بإمكاني، إلا أنني في حاجة ماسة إلى المال».

«آهٍ، يا جورو!» (من المستحيل حقًّا التعبير عن كيفية لفظه لهذه الكلمات من بين أنفاسه، بينما كان يحدِّق فيَّ من خلال درفة الباب، من دون أن يظهر أي شيء سوى رأسه العجوز الماكر). سأل: «هل ستذهب إن أعطيتك أربعة بنسات؟».

صرت واهنًا ومتعبًا إلى الحد الذي دفعني إلى قبول هذا العرض، فأخذت المال من مخلبه من دون أن أكف عن الارتجاف، ثم رحلت عنه جائعًا وعطشًا أكثر مما كنت في أي وقت مضى. كنت قد رحلت عنه قبل غروب الشمس بقليل، إلا أنني أنفقت نحو ثلاثة بنسات، وسرعان ما أنعشت نفسي تمامًا، وصرت في حالة معنوية أفضل بعد ذلك، مما دفعني للمسير لسبعة أميال نحو طريقي.

كان سريري كومة قش أخرى افترشتها حين جنَّ عليَّ الليل، حيث نعمت بالراحة، بعد أن غسلت قدمي المتقرحتين في ماء أحد الجداول، ثم ضمدتهما بقدر ما استطعت ببعض من الأوراق الرطبة. سلكت طريقي مرة أخرى في صباح اليوم التالي، فوجدته ممتدًّا عبر سلسلة من حدائق تكتسي بحشيشة الدينار وتعم بالبساتين. كنا في وقت متأخر من العام إلى الحد الذي يسمح بأن تبدو البساتين ملونة مع نضوج التفاح على الأغصان، وقد تناثر بعض العمال في أماكن قليلة وأخذوا يجمعون الثمار بالفعل. تراءى لي كل شيء جميلًا للغاية، وقررت أن أنام بين رقع الحشائش في تلك الليلة، بينما رحت أتخيل رفقة مبتهجة تحاوطني بين أفرع الحشائش الطويلة ممتزجة بالأوراق الرشيقة المتراصة من حولها.

لاح المتشردون في ذاك اليوم أسوأ حالًا من أي وقت مضى، فألقوا في قلبي فزعًا لم يزل حاضرًا في ذهني. كان بعضهم من أشرس الناس شرًّا، وقد راحوا يحدقون بي كلما مررت بهم، بل أخذوا يتوقفون أحيانًا لمناداتي ومطالبتي بالعودة إليهم والحديث معهم، وحين تراجعت خطوات عن طريقي راحوا يرجمونني بالحجارة. أتذكر صبيًّا شابًّا -يعمل سمكريًّا متجولًا في أغلب الظن، فقد استنبطت ذلك من حقيبته وموقده النحاسي- وكان بصحبة امرأة، وقد واجهني وأخذ يحدق في وجهي، ثم زأر بصوت أجشّ مناديًا عليَّ ومطالبًا بأن أعود إليه. فإذا بي أتوقف وأتلفت حولي.

قال السمكري: «تعالَ إلى هنا، أقبِل حين تُنادى، وإلا سأشق جسدك الشاب يا هذا».

رأيت أنه من الأفضل أن أعود إليه. اقتربت منهما، في محاولة لإرضاء السمكري ببعض من نظرات الاستعطاف، وقد لاحظت أن المرأة ذات عين سوداء.

سألني السمكري ممسكًا صدر قميصي بيده الملطخة بالسواد: «إلى أين تتجه؟».

قلت: «إنني ذاهب إلى دوفر».

سأل السمكري، بينما يعتصر بيده مكانًا آخر من قميصي، حتى يحكم قبضته أكثر: «من أين أتيت؟».

قلت: «لقد جئت من لندن».

سأل السمكري: «أي شيء تتستر عليه؟ هل أنت لص؟».

قلت: «ل... لا».

قال السمكري: «ألستَ لصًّا، أقسمت بالـ...؟ إذا تباهيت بصدقك معي، فسوف أهشم رأسك».

هدد بضربي بيده الأخرى الحرة، ثم أخذ يحملق فيَّ من رأسي إلى أخمصي قدمي.

قال السمكري: «هل تملك ثمن نصف لتر من البيرة؟ إن كان معك فلتخرج نقودك قبل أن أخرجها أنا».

كان يجب أن أخرج نقودي بالتأكيد، إلا أنني تلفت إلى وجه المرأة، فرأيتها تهز رأسها قليلًا، وتشير بشفتيها سمات كلمة «لا!».

قلت محاولًا الابتسام: «إنني فقير جدًّا، ولا أملك مالًا».

راح السمكري ينظر إليَّ متوعدًا، حتى إنني خشيت من أن يفتش جيبي بحثًا عن النقود، وراح يسأل: «ماذا تقول، ماذا تقصد؟».

تلعثمت قائلًا: «يا سيدي».

قال السمكري: «ماذا تقصد بارتداء منديل أخي الحريري؟! هيا أعطني إياه»، ثم أزاحه عن رقبتي في لحظة، وألقاه إلى المرأة.

انفجرت المرأة في نوبة من الضحك، كما لو أنها تحسب أن ما يحدث مزحة، ثم أعادت المنديل إليَّ مرة أخرى، ثم أومأت برأسها مرة أخرى، كما حدث من قبل، وحركت شفتيها بكلمة «انطلق»، ولكن قبل أن أطيع كلمتها، جذب السمكري المنديل من يدي في خشونة ثم أزاحني بعيدًا مثل ريشة طائرة، ولفه بشكل غير محكم حول رقبته، وانقلب نحو المرأة لاعنًا ثم طرحها أرضًا. لن أنسى أبدًا رؤيتها تسقط إلى الوراء نحو الطريق الوعرة، حيث استلقت في مكانها وقد انزاحت قبعتها فكشفت عن شعرها الذي تخضب كله بالتراب. ولن أنسى أنني حين ابتعدت ثم التفت ورائي، رأيتها جالسة على رصيف الطريق، تمسح الدم من وجهها بطرف شالها، بينما يمضي السمكري في طريقه قدمًا.

لقد أخافتني هذه الوقائع، حتى إنني صرت بعدها أرى أيًّا ممن على شاكلة هؤلاء الأشخاص قادمًا، أتراجع إلى الوراء حتى أجد مكانًا للاختباء، ومن ثَم أمكث فيه حتى أغيب عن الأنظار، وقد تكرر الأمر كثيرًا إلى الحد الذي أخرني لفترة طويلة. إلا أنني في ظل هذه العقبة - كما هي الحال في ظل العراقيل الأخرى التي واجهتني في رحلتي - قد بدا لي أنني مثابر وماضٍ نحو هدفي مسترشدًا بصورتي الخيالية

التي رسمتها لأمي في شبابها قبل مجيئي إلى هذا العالم. ظلت صورتها ترافقني دومًا؛ تلبث أمامي بين قفزات الحقول، وحين أستلقي للنوم، كما كانت ترافقني حين يقظتي في الصباح. لقد مكثت أمام ناظري على مدار اليوم. لقد ربطت منذ ذلك الحين بين هذه الصورة وشارع كانتربري المشمس، كما لو كان غائمًا يحجب الأشعة الملتهبة، كما ربطت بينها ومشهد منازله المتراصة وبواباته القديمة وكاتدرائيته الرمادية الفخمة التي تحلق الطيور حول أبراجها المنتصبة. وصلت أخيرًا إلى منحدرات واسعة جرداء بالقرب من دوفر، راح الأمل حينها يخفف من وحشة المشهد. وما إن وصلت إلى الهدف الأول العظيم من رحلتي، ووضعت قدمًا في المدينة نفسها، في اليوم السادس من رحلتي، حتى تساءلت هل ستهجرني صورتها. من الغريب أن أقول، إنني بعدما وقفت بحذائي الممزق، وهيئتي المتربة، ووجهي المحترق الذي لفحته أشعة الشمس، وقد صرت نصف عارٍ، وبعد أن وطأت قدماي المكان الذي طالما رغبت فيه؛ بدا لي أن الصورة تتلاشى مثل حلم، وإذا بها تتركني عاجزًا ومحطمًا.

رحت أسأل عن عمتي بين البحارة أولًا، وإذا بي أتلقى إجابات متباينة. قال أحدهم إنها تعيش في منارة الغابة الجنوبية، وقد أحرقت شاربها بوجودها هناك[1]. قال آخر إنها صعدت إلى العوامة الكبيرة خارج الميناء، ولا يمكن زيارتها إلا بعد انحسار المد. أما الثالث فقال

---

(١) إجابة تحمل تهكمًا، إذ يشبه البحار عمة ديفيد بالقطة التي تتسلل للمنارة حيث يجذبها الضوء المشتعل فتحرق شاربها على إثر اقترابها من النار.

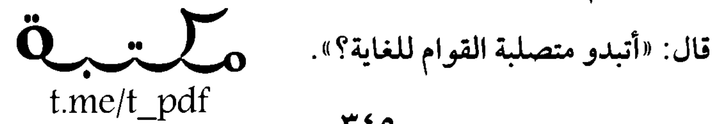
إنها سجينة في سجن «ميدستون» بعد اتهامها بسرقة الأطفال. قال رابع إنها شوهدت بينما تركب مكنسة مع حلول آخر رياح شديدة وقد توجهت نحو «كاليه». أما سائقو المركبات الذين سألتهم بعد ذلك، فقد أبدوا القدر نفسه من التهكم وعدم الاحترام. كانت إجابات أصحاب المتاجر فارغة، كما أنهم لم يعجبهم مظهري بشكل عام، ولم يستمعوا إلى قولي. شعرت ببؤس وعوز أكثر مما شعرت به في أي فترة في فترات هروبي. لقد ضاعت أموالي بالكامل، ولم يتبقَّ لديَّ شيء لأتصرف فيه؛ صرت جائعًا وعطشًا ومتعبًا، وبدا هدفي بعيد المنال، كما لو أنني لم أغادر لندن.

كاد الصباح ينقضي بينما أتحرى بهذه الاستفسارات، وقد جلست فوق درج أحد المتاجر الفارغة في زاوية شارع بالقرب من السوق، ورحت أفكر في التجول في اتجاه هذه الأماكن التي ذكرتها من قبل. مر أمامي سائق مركبة بينما كنت أتدبر أمري، وقد سقطت عنه قطعة من قماش. جذبني شيء ودود في سمات الرجل عندما ناولته ما سقط عنه، وإذا بي أتشجع فأسأله عما إذا كان بإمكانه إرشادي للمكان الذي تسكن فيه الآنسة تروتوود؛ على الرغم من أنني كنت قد طرحت هذا السؤال كثيرًا، حتى إنه كاد يموت على شفتي.

قال: «تروتوود. لنرَ؛ حقًّا إنني أعرف هذا الاسم. أهي سيدة عجوز؟ ».

قلت: «نعم، إنها أقرب لأن تكون عجوزًا».

قال: «أتبدو متصلبة القوام للغاية؟ ».



قلت: «نعم. أظن أنه من المحتمل جدًّا أن تكون بهذه الهيئة».

سألني: «هل تحمل حقيبة؟ أقصد تحمل حقيبة كبيرة قاسية، فتنزل عليك بضربة مبرحة وهي حادة الطباع؟».

اقشعر قلبي بين جوانحي بينما اعترفت بدقة هذا الوصف الذي لا شك فيه.

أخذ يشير بسوطه نحو المرتفعات قائلًا: «إذن، انتبه لما سأقوله لك. إذا صعدت إلى هناك، ثم واصلت المسير حتى تصل إلى بعض المنازل المواجهة للبحر، فإنني أظن أنك ستسمع عنها. أحسب أنها لن تمنحك أي شيء، ولذلك خذ هذا البنس».

قبلت هذه المنحة شاكرًا له كرمه، واشتريت بها رغيفًا. أكلت لأستعيد قواي في طريقي، ثم انطلقت في الاتجاه الذي أشار إليه صديقي، فسرت لمسافة طويلة من دون أن أصل إلى المنازل التي ذكرها لي، إلى أن لاح لي في النهاية بعض منها. اقتربت من هذه المنازل، ثم توجهت إلى متجر صغير (اعتدنا أن نطلق في بلدتنا على مثل هذا المتجر اسم متجر عام) ورحت أطلب التفضل عليَّ بكرمهم لإخباري عن المكان الذي تعيش فيه الآنسة تروتوود. كنت أتحدث إلى رجل يقف خلف المنضدة، وقد كان يزن أرزًا لامرأة شابة، أما الأخيرة فقد حسبت سؤالي موجهًا إليها، فاستدارت بسرعة.

قالت: «أتقصد سيدتي؟ ماذا تريد منها يا فتى؟».

أجبتها قائلًا: «أريد أن أتحدث إليها، إذا سمحت».

ردت الفتاة قائلة: «تسألها عطاءً، أهذا ما تقصده؟».

قلت: «لا، أبدًا».

إلا أنني تذكرت بغتة أنني في الحقيقة لم أتِ لأي غرض آخر، فلفني صمت خانق، وشعرت بوجهي يحترق خجلًا.

أما خادمة عمتي، التي استنبطت أنها كذلك مما قالته لي، فقد وضعت الأرز الذي ابتاعته في سلة صغيرة ثم خرجت من المتجر، بعد أن أخبرتني أنني أستطيع أن أتبعها، إذا أردت أن أعرف المكان الذي تعيش فيه الآنسة تروتوود، هكذا لم أصبح في حاجة إلى إذن ثانٍ لمتابعتها. انتابني في هذه اللحظة نوع من الخوف واضطرابات من الرهبة، حتى راحت ساقي ترتعش من تحتي بينما أتابع خطوات الخادمة الشابة، وسرعان ما وصلنا إلى بيت صغير أنيق للغاية، له نوافذ مقوسة مبهجة، وأمامه ساحة صغيرة مربعة أو هي حديقة مليئة بالورود، وقد عني بها عناية فائقة؛ ففاحت منها رائحة عطرة.

قالت الشابة: «هذه هي الآنسة تروتوود. أما الآن، فكما تعرف فقد قلت كل ما عندي».

أنهت كلماتها ثم سارعت بالدخول إلى البيت، وكأنها تتخلص من مسؤولية ظهوري هنا، فما لبثت أن تركتني واقفًا عند بوابة الحديقة، التي رحت أنظر إليها ساهمًا نحو الجزء العلوي منها باتجاه نافذة الصالون، حيث لاحت ستارة حريرية مضمومة جزئيًّا من المنتصف، تشف عن لوحة مستديرة كبيرة خضراء اللون أو تبدو مثل مروحة مثبتة عند حافة النافذة، وطاولة صغيرة، ومقعد ضخم. حسبت أن عمتي قد تكون جالسة في هذه اللحظة على هذا المقعد بزهو وجلال.

صار حذائي في هذا الوقت في حالة يرثى لها. لقد تلاشى النعل شيئًا فشيئًا، ورق الجلد العلوي حتى تفتت، ثم انفصل عن النعل وصار الحذاء بلا ملامح. أما قبعتي التي استخدمتها كغطاء ليلي أيضًا، فقد صارت مهشمة ومطبقة ومعوجة، إلى الحد الذي جعلها لا تختلف عن أي قدر قديم مكسور اليد ملقى فوق مزبلة، بل قد يخجل قدر المزبلة من التنافس معها. أما قميصي وسروالي الملطخ بالعرق والماء والعشب وأثر أكوام الأتربة التي نمت عليها، بالإضافة إلى كونهما ممزقين، فربما أخافا الطيور في حديقة عمتي فهاجرت حين وقفت عند البوابة. لم يعرف شعري أي مشط أو فرشاة منذ أن غادرت لندن. احترق وجهي وعنقي ويدي، من كثرة التعرض غير المعتاد للهواء والشمس، فصرت أقرب إلى لون التوت البني، ثم اكتسيت من رأسي إلى قدمي، بذراتٍ مطحونة من بودرة بيضاء تكونت تقريبًا من الطباشير والغبار، فبدوت كما لو أنني قد خرجت من فرن يصنع الجير. رحت في هذه المحنة، وبوعيي القوي بها، أنتظر أن أقدم نفسي لعمتي المزهوة ومن ثَم أترك انطباعي الأول بهذه الهيئة.

كان السكون الذي يُطل من نافذة الصالون قد قادني بعد فترة من الوقت إلى استنتاج أنها ليست هناك. رفعت عيني نحو النافذة التي تعلو نافذة الصالون، فإذا بي أبصر رجلًا محمر الوجه، لطيف المظهر، ذا رأس أشيب، وقد ظل يغلق أحد عينيه بطريقة غريبة، ثم أومأ برأسه أمام وجهي عدة مرات، وأخذ يشير ناحيتي كثيرًا، ثم ضحك، ثم انصرف من أمامي.

كنت مرتبكًا بما فيه الكفاية، إلا أنني صرت أكثر انزعاجًا من هذا

السلوك غير المتوقع، حتى إنني كنت على وشك أن أنسل متراجعًا، لأفكر في أفضل طريقة للمضي قدمًا في أمري، إلى أن خرجت من المنزل سيدة تربط منديلًا فوق قبعتها، تحمل بين يديها زوجًا من القفازات التي تستعمل في أعمال الزراعة، وترتدي مريلة خاصة تبدو مثل مريلة جامعي الضرائب، وتحمل سكينًا ضخمًا. عرفتها على الفور؛ إنها الآنسة بيتسي. كانت قد خرجت من المنزل في الهيئة نفسها التي وصفتها بها والدتي المسكينة في كثير من الأحيان، عندما كانت ترعى حديقتنا في عش بلندرستون.

قالت الآنسة بيتسي وهي تهز رأسها وتلوح في الهواء بسكينها: «اذهب بعيدًا، ابتعد، لا صبيان هنا».

راقبتها وقلبي يكاد يطير من بين جوانحي، بينما كانت تسير متجهة نحو زاوية من زوايا حديقتها، وتنحني لتنقب عن بعض الجذور الصغيرة. دخلت بهدوء من دون أي قدر من الشجاعة، بل بجرعة كبيرة من اليأس، ثم وقفت بجانبها، ولمستها بإصبعي.

قلت: «إذا سمحتِ يا سيدتي».

أهملتني وأشاحت بنظرها بعيدًا.

قلت: «إذا سمحتِ أيتها العمة».

هتفت الآنسة بيتسي، بنبرة من الذهول لم أسمع أي شيء يضاهيها من قبل، فقالت: «آه؟».

«إذا سمحتِ أيتها العمة، إنني ابن أخيكِ».

قالت عمتي: «آهٍ، يا ربي!»، ثم جلست منبسطة فوق ممر الحديقة.

«إنني ديفيد كوبرفيلد، من بلندرستون في سافوك، حيثما أتيتِ في الليلة التي ولدت فيها، ورأيتِ أمي العزيزة. لقد صرت مفطور الفؤاد منذ وفاتها. تعرضت للإهانة ولم أتعلم شيئًا، فحملت همي على عاتقي، ورحت أعمل في أشغال لا تناسبني، فهربت إليكِ. تعرضت للسرقة في البداية، وقطعت الطريق سيرًا على الأقدام، ولم أَنم في سرير قَطُّ منذ أن بدأت الرحلة».

حركت يدي لأبدي لها حالتي المشردة، وأسترعي انتباهها فأشهدها أنني عانيت من كل شيء. انفجرت في بكاء مرير، وأحسب أنه ظل مكبوتًا بداخلي طوال الأسبوع.

جلست عمتي فوق الحصى وقد خلا وجهها من أي تعبيرات سوى ملامح الدهشة، وأخذت تحدق في وجهي، حتى بدأت في البكاء. نهضتْ بعد قليل في عجلة، ثم أمسكتني من قميصي، واقتادتني إلى الصالون. كان أول ما فعلته أن فتحت خزانة طويلة، وأخرجت عدة زجاجات، ثم سقتني بعضًا مما فيها. أحسب أنها أخرجتها بشكل عشوائي، لأنني متأكد من أنني تذوقت ماء الينسون وصلصة الأنشوجة وتتبيلة السلطة ممتزجة معًا. تجرعت هذه المواد المنعشة، إلا أنني كنت لم أزل في حالة تامة من الإعياء، ولم أكن قادرًا على التحكم في إيقاف بكائي، ومن ثَم أسندتني إلى الأريكة بعد أن وضعت شالًا تحت رأسي، وبسطت منديل رأسها تحت قدمي؛ خشية أن ألطخها باتساخي. جلست بعد ذلك خلف المروحة الخضراء أو اللوحة التي ذكرتها سالفًا، حتى

لا أتمكن من رؤية وجهها، ثم راحت تقول بين فترة وأخرى: «ليشملنا الله برحمته!». راحت هذه التأوهات تنطلق مثل البنادق الصغيرة من حين لآخر.

دقت الجرس بعد فترة، ثم نادت: «يا جانيت». فجاءت خادمتها. قالت عمتي: «اصعدي إلى الطابق العلوي، وأبلغي تحياتي إلى السيد دك، وأخبريه أنني أرغب في التحدث إليه».

بدت جانيت مندهشة قليلًا لرؤيتي مستلقيًا على الأريكة بثبات - وقد كنت أخشى أن أتحرك حتى لا أتسبب في مضايقة عمتي - إلا أن الخادمة انطلقت إلى مهمتها. راحت عمتي تجوب الحجرة ذهابًا وإيابًا وقد ضمت يديها خلفها، حتى جاء الرجل الذي حدق قبل ذلك في وجهي من النافذة العلوية ضاحكًا.

قالت عمتي: «يا سيد دك، لا تكن أحمق، فلا أحد يمكنه أن يكون أكثر فطنة منك عندما تتعقل الأمور إذا شئت. إننا جميعًا نعلم أمرك، لذلك لا تكن أحمق، مهما كان من أمرك».

صار السيد جادًّا على الفور، ثم نظر إليَّ، وبدا - على ما أظن - كما لو أنه يطلب مني ألا أقول شيئًا عن أمر النافذة.

قالت عمتي: «يا سيد دك، هل سمعتني أذكر اسم ديفيد كوبرفيلد؟ لا تتظاهر الآن بفقدان الذاكرة، لأنك تعرف كما أعرف حقيقة الأمر».

قال السيد دك، الذي بدا لي أنه لا يتذكر الكثير عن الأمر: «ديفيد كوبرفيلد؟ ديفيد كوبرفيلد؟ آهٍ نعم، بلا شك. ديفيد، أذكره بالتأكيد».

قالت عمتي: «حسنًا، هذا هو ابنه... إنه ابنه. سيكون مثل والده بقدر الإمكان، إذا لم يصِر مثل والدته أيضًا».

قال السيد دك: «هل هو ابنه؟ ابن ديفيد؟ حقًّا!».

تابعت عمتي قائلة: «نعم، وقد قام بعمل رائع. لقد هرب. آه! ما كان لأخته، بيتسي تروتوود، أن تهرب أبدًا». أومأت عمتي برأسها بقوة، واثقة في شخصية وسلوك الفتاة التي لم تولد قَطُّ.

قال السيد دك: «آهٍ! أكنتِ تظنين أنها لن تهرب؟».

صاحت عمتي في حدة قائلة: «ارحمني يا رب وارحم هذا الرجل! كيف تتحدث بهذه الطريقة؟ كيف أعلم أنها لن تهرب؟ كانت ستعيش مع أمها في المعمودية، وكان كل منا سيكرس نفسه لخدمة الآخر. فإلى أين ستهرب؟ يا للعجب! كيف لأخته بيتسي تروتوود أن تهرب؟ من أي شيء ستهرب، أو إلى من ستتوجه؟».

قال السيد دك: «إلى لا مكان».

ردت عمتي بعد أن خفف هذا الرد من حدتها: «حسنًا. كيف يمكنك أن تتظاهر بالبلاهة يا دك، بينما أنت حاد الملاحظة والدقة مثل مشرط الجراح؟ هيا الآن، ها أنت تبصر الشاب ديفيد كوبرفيلد، والسؤال الذي أطرحه عليك هو: ماذا يجب أن أفعل له؟».

قال السيد دك في وهن بينما يحك رأسه: «ماذا ستفعلين له؟ آهٍ! ماذا تفعلين به؟».

قالت عمتي في نظرة جادة وقد رفعت إصبعها: «نعم. هيا! أريد بعض النصائح المنضبطة؛ نصائح في محلها».

أجاب السيد دك بعدما أخذ يفكر في الأمر، ناظرًا إليَّ بشرود، قائلًا: «ماذا كنت سأفعل لو كنتُ في مكانك... يجب أن أقوم بـ...». ثم بدا أن تأمله في مظهري قد ألهمه بفكرة مفاجئة، فأضاف قائلًا في سرعة مذهلة: «يجب أن أجعله يستحم!».

استدارت عمتي وقد أبدت ملامح انتصار هادئ لم أفهم باعثه، ثم قالت: «يا جانيت، إن السيد دك يضعنا على الطريق الصحيح. هيا أعدي الحمام!».

كنت مهتمًّا بهذا الحوار غاية الاهتمام، إلا أنني لم أستطع منع مراقبة عمتي والسيد دك، وجانيت، في أثناء تقدم الأمر، بينما رحت أستكمل تأملي الذي كنت قد بدأته بالفعل في اكتشاف تفاصيل الغرفة ومحتوياتها.

كانت عمتي سيدة طويلة ذات ملامح حادة، لكنها لم تكن سيئة المظهر بأي حال من الأحوال. لم تبدُ على وجهها أي ملامح مرنة، وكذلك كان صوتها، ومشيتها، وخطواتها. كانت صلابتها كافية لتفسر التأثير الذي أحدثته على مخلوق لطيف مثل أمي، وعلى الرغم من صرامة وقسوة هيئتها، فإن ملامحها كانت جميلة إلى حد ما باستثناء هذه الصلابة. لقد لاحظت أنها تتمتع بشكل خاص بعين سريعة الالتفات وفي غاية الإشراق. كان شعرها رماديًّا، قد انقسمت خصلاته إلى فلقتين متساويتين، وظهر مفرقه تحت غطاء أحسب أننا نطلق عليه قلنسوة؛ أعني غطاء للرأس

كان شائعًا في ذلك الوقت أكثر منه الآن، تحكمه أربطة جانبية مثبتة أسفل الذقن. أما فستانها فلونه أقرب إلى الخزامى، كما كان في غاية الأناقة، لكن تفصيله بسيط، كما لو أنها لا ترغب في أن تكون مبهرجة المظهر بقدر الإمكان. أتذكر أنني حسبت أنه يبدو من مظهره كما لو أنه أشبه بثوب الفروسية مع قصة زائدة للتنورة، وأن هذا التشبيه أقرب ما يكون إليه. كانت تحتفظ بساعة ذهبية تشبه ساعات الرجال، وقد حددت نوعها من حجمها وشكلها، كما أنها علقتها إلى جانبها بسلسلة وأختام مناسبة. كانت تغطي رقبتها بقماش من الكتان لا يختلف في مظهره عن طوق القميص، وكذلك تدنو من معصمها الصغير أشياء على هيئة أربطة.

أما السيد دك، فكان أشيب الرأس، أحمر الوجه، كما قلت من قبل. كان هذا القول كافيًا لوصف كل ما فيه، لولا انحناءة رأسه الغريبة التي لم تكن على هذه الهيئة بسبب عمره - لقد ذكرني برأس أحد الأولاد بعد ضرب السيد كريكل له - أما عيناه فواسعتان ورماديتان وبارزتان، يتخللهما نوع غريب من السطوع المائي. أما أسلوبه الساهم وخضوعه لعمتي، وابتهاجه الطفولي بامتداحها له، جعلني أشتبه في أنه يتمتع بمسحة ضئيلة من الجنون، على الرغم من أنني كنت في حيرة من أمري؛ فكيف مكث في هذا المكان لو كان مجنونًا. كان مظهره مثل أي رجل عادي، يرتدي معطفًا فضفاضًا وقميصًا، وبنطالًا أبيض، يحتفظ بساعته في حافظتها المخصصة، ويحمل ماله في جيوبه ويهزها كما لو أنه فخور جدًّا بحيازته لهذا المال.

أما جانيت، فكانت فتاة جميلة مشرقة، تبلغ من العمر ما يقرب من

تسعة عشر أو عشرين عامًا، وكانت صورة مثالية للنظافة. لم أتأملها مرة أخرى في ذلك الوقت، إلا أنني قد أذكر هنا ما لم أكتشفه إلا بعد ذلك، ألا وهو أنها كانت واحدة من الأخوات اللاتي اتخذتهن عمتي لخدمتها لتربيهن على التخلي عن فكرة الزواج، وقد انتهى ارتدادهن عن ذلك بالزواج من الخباز.

بدت الغرفة نظيفة مثل نظافة جانيت أو عمتي. وضعت قلمي للحظة، ورحت أستعيد ذكراها، فإذا بنسيم البحر يتدفق في خاطري مرة أخرى ممزوجًا برائحة الزهور، وقد خيَّل لذاكرتي الأثاث القديم يشع ببريقه ولمعانه، وكذلك كرسي عمتي القابع عند المروحة الخضراء المستديرة بجوار النافذة المقوسة، والسجادة المنبسطة، والقطة، وحامل الغلاية، وعصفوران، وأواني الخزف الصينية القديمة، وحاوية الشراب المليئة بأوراق الورد المجففة، والخزانة الطويلة التي تحفظ الكؤوس والأواني المختلفة. أما المشهد العجيب الذي يبعد كل البعد عن باقي الصورة ويشذ عنها، فلم يكن سوى هيئتي المتربة ممددًا على الأريكة، بينما أراقب كل شيء من حولي.

انصرفت جانيت بعيدًا لتحضير الحمام، وإذا بعمتي قد تحولت في لحظة واحدة، ومن دون سابق إنذار، تملكتها حالة من غضب عارم، من دون أن يسعفها صوتها على الصراخ، فإذا بها تقول: «يا جانيت! إنها الحمير!».

صعدت جانيت بعدها إلى الدرج، كما لو أن النيران قد شبت لتحرق المنزل، ثم اندفعت نحو قطعة صغيرة من الأرض المفترشة بالحشائش

الخضراء أمامها، وقد أزاحت عنها بصراخها حمارين تقودهما سيدة، وأحسب أن الحمارين قد وطئت أقدامهما الحشائش، بينما اندفعت عمتي خارج المنزل، فأخذت بلجام حمار ثالث يمتطيه طفل صغير، ثم قادته إلى خارج هذه البقعة النقية، ثم قرصت آذان الغلام سيئ الحظ جزاء للذين تجرأوا على تدنيس هذه الأرض المقدسة.

لا أعرف حتى هذه الساعة ما إذا كان لعمتي أي حق قانوني في منع المرور فوق هذه الرقعة الخضراء أم لا. إلا أن الأمر كان قد استقر في عقلها على هذا النحو واقتنعت أنه حق من حقوقها. كان أكثر ما يغضبها في حياتها، ويتطلب الانتقام المستمر، هو مرور حمار فوق تلك البقعة النقية. لم يكن ليشغلها أي عمل، ومهما كانت المحادثة التي كانت تشارك فيها مثيرة للاهتمام، فقد كان مرور حمار كافيًا لقطع تيار أفكارها في لحظة، وإذا بها تتجه نحوه وتنقض عليه مباشرة. كما أنها احتفظت بأباريق الماء وأواني السقاية في أماكن سرية، وجهزتها لسكبها على الأولاد المخالفين لقواعد عدم المرور، وكذلك أخفت العصي خلف الباب للغرض نفسه. كانت مثل هذه الهجمات تدور في جميع الأوقات، وقد اندلعت حربًا لا تنقطع. ربما كانت هذه المناوشات لعبة لطيفة تثير الأولاد الذين يمتطون الحمير، أو ربما فهمت الحمير بحكمتها ما يدور، فراحت تسير عبر هذا الطريق بسرور بما جُبِلت عليه من عناد. أذكر فقط أنني أبصرت ثلاثة إنذارات من هذا القبيل، قبل أن يصير الحمام جاهزًا، وأنني قد أبصرت عمتي في المرة الأخيرة - وهي الأسوأ على الإطلاق - قد انخرطت في شجار بمفردها، مع فتى أشقر يبلغ من العمر خمسة

عشر عامًا، وقد اصطدم رأسه الأصفر ببوابة منزلها، قبل أن يفهم ويدرك ما يدور من حوله. كانت هذه المقاطعات الأكثر سخافة وغرابة لي، فقد كانت تسقيني مرقًا بملعقة في ذلك الوقت (بعد أن أيقنت من دون شك أنني أتضور جوعًا، ويجب أن أتناول الطعام في البداية بكميات صغيرة جدًّا)، وبينما كان فمي مفتوحًا لاستقبال الملعقة، إذا بها تعيدها إلى الطبق، وتصرخ: «يا جانيت! إنها الحمير!»، ثم تنطلقان إلى الهجوم.

وجدت في الحمام راحة كبيرة، لأنني بدأت أدرك الآلام الحادة التي انتابت أطرافي إثر الاستلقاء في الحقول، وقد كنت متعبًا وهشًّا في هذه اللحظة، حتى إنني بالكاد أستطيع أن أبقى مستيقظًا لمدة خمس دقائق متتالية. اغتسلت ثم تولت عمتي وجانيت إلباسي قميصًا وبنطالًا من ملابس السيد دك، ثم لفتاني بشالين كبيرين أو ثلاثة. لا أعرف ما شكل الحزمة التي بدوت عليها، إلا أنني شعرت بدفء بالغ يسري في جسدي، وأحسست كذلك بالنعاس، وسرعان ما استلقيت على الأريكة مرة أخرى وغصت في النوم.

راودني شيء ربما كان حلمًا، خلقه الوهم الذي شغل عقلي لفترة طويلة، إلا أنني استيقظت متصورًا أن عمتي جاءت إليَّ وانحنت فوقي، ثم أزاحت شعري عن وجهي، وعدَّلت موضع رأسي ليصير أكثر راحة، ثم وقفت تنظر إليَّ. وتخيلت أنني سمعت هذه الكلمات: «رفيق جميل» أو «رفيق فقير»، وكأنها تتردد على مسامعي أيضًا، إلا أنني من دون شك لم أجد بعد يقظتي أي شيء يؤكد ظني بأن عمتي قالت هذه الكلمات، فقد كانت تجلس عند النافذة المقوسة، تحدق في البحر من خلف

المروحة الخضراء، والتي كانت مثبتة على نوع من المفصلات حتى تتمكن من إدارتها في أي اتجاه.

تناولنا الغداء بعد استيقاظي بفترة وجيزة، فكان يحوي أصنافًا من الطيور المشوية والحلوى. جلست إلى المائدة كما لو أنني طائر مقيد، لا أقوى على تحريك ذراعي إلا بصعوبة بالغة. كانت عمتي قد قامت بإحكام لفات شالها حولي، فلم أقوَ على الشكوى مما يحيق بي. لبثت طوال هذا الوقت متشوقًا للغاية لمعرفة ما ستفعله معي، إلا أنها تناولت غداءها في صمت عميق، غير أنها راحت تنظر نحوي من حين لآخر بينما أنا جالس مقابلها، وهي تقول: «رحماك يا رب!». ولم يخفف هذا القول من قلقي بأي حال من الأحوال.

رفعت الطاولة، ثم وضع بعضًا من نبيذ الشيري عليها، وقد احتسيت كوبًا منه، ثم نادت عمتي على السيد دك مرة أخرى، فانضم إلينا، وقد بدا حكيمًا قدر استطاعته بعد أن طلبت عمتي منه أن ينصت إلى قصتي. استخلصت القصة مني تدريجيًّا من خلال طرحها لمجموعة من الأسئلة. رحت أروي حكايتي، بينما أبقت عمتي عينيها على السيد دك، الذي حسبت أنه على وشك الانغماس في النوم لولا نظرات عمتي إليه، أما إذا صار وجهه مبتسمًا، فسرعان ما تتفحصه عمتي بوجه عابس يعيده إلى حالته.

تحدثت عمتي بعد أن انتهيت من حكايتي، فقالت: «لست أدري أي شيء قد دفع بهذه الطفلة المسكينة حتى تذهب وتتزوج مرة أخرى، لا أستطيع أن أتصور الأمر».

علل السيد دك ذلك قائلًا: «ربما وقعت في حب زوجها الثاني».

رددت عمتي قائلة: «وقعت في الحب! ماذا تقصد بهذا القول؟ أي عمل هذا الذي أقدمت على فعله؟».

قال السيد دك بعد تفكير يسير: «ربما، أقدمت على هذا الزواج طلبًا للمتعة».

أجابت عمتي: «يا لها من متعة حقًّا! يا لها من متعة بالغة أن تثق هذه الطفلة المسكينة الساذجة في أي كلب من هؤلاء الكلاب، من المؤكد أنه سيسيء إليها بطريقة أو أخرى. ما الذي دار بخلدها؟ أود لو أعرف! لقد كان لديها زوج. لقد عاشت مع ديفيد كوبرفيلد قبل أن يغادر هذه الحياة، ورأت كيف كان يركض دائمًا وراء عرائس من شمع منذ أن كان في مهده. لقد أنجبت طفلًا - آهٍ، كان لديها طفلان بعدما أنجبت هذا الطفل الجالس هنا في ليلة الجمعة الخالية! - فماذا تريد أكثر من ذلك؟».

هز السيد دك رأسه سرًّا في وجهي، كما لو أنه يظن أنه لن يتجاوز هذا الأمر.

قالت عمتي: «لم تستطع حتى إنجاب طفلة مثل أي امرأة أخرى. أين أخت هذا الطفل، أين بيتسي تروتوود؟ إنها لم تشق طريقها إلى هذه الحياة. لا تتحدث إليَّ!».

بدا السيد دك خائفًا للغاية.

راحت عمتي تقول: «أما ذاك الدكتور القصير، الذي يميل رأسه إلى جانب واحد، فيُدعى جيلبس، أو أيًّا كان اسمه، ما الذي أراد أن يفعله؟

لم يستطع سوى أن يتحدث إليَّ بصدر ديك أحمر منفوش، فراح يقول: «إنه ولد. إنه صبي»، آه، ما الصبية إلا مجموعة من الأغبياء والحمقى».

ارتعب السيد دك للغاية من هذا الانفعال المفعم بالسخط. والحق يُقال إنني خفت بدوري أيضًا.

استطردت عمتي: «وبعد كل ما حدث، كما لو أن هذا لم يكن كافيًا، فلم تسعَ بشكل كافٍ لتأتي بأخت لهذا الطفل، بيتسي تروتوود، ثم تزوجت مرة ثانية - بل ذهبت لتتزوج من قاتل - أو رجل يحمل اسم هذا الوصف - فتنجب منه طفلًا آخر! أما النتيجة الطبيعية، كما قد يتوقعها أي شخص باستثناء رضيع ساذج، هي أن يهرب الغلام ويجول في الطرقات. إنه يشبه قابيل قبل أن يكبر، وهو أمر متوقع».

نظر السيد دك إليَّ في إمعان، كما لو أنه يتعرف على ملامح شخصية قابيل فيَّ.

قالت عمتي: «ثم تلك المرأة التي تحمل اسمًا وثنيًّا، تلك التي تُدعى بيجوتي، إذا بها تذهب وتتزوج بعد هذا كله، كما لو أنها لم تشهد ما يكفي من شرور هذه الزيجات، بل تذهب وتتزوج بعد كل ما حدث، كما حكى لنا هذا الصبي». ثم راحت عمتي تهز رأسها بينما تقول: «أتمنى فقط أن يكون زوجها أحد هؤلاء الأزواج المقامرين الذين يكثر حديث الصحف عنهم، فيضربها ضربًا مبرحًا مثل أي زوج مقامر».

لم أستطع تحمل سماع إهانة مربيتي العجوز، وهذه الأمنية السيئة لحياتها. فأخبرت عمتي أنها مخطئة في تصورها، وأن بيجوتي من أفضل الناس وأصدقهم، وأكثرهم إخلاصًا وودًّا، بل إنها أكثر الناس

تضحية بالنفس، وأنها أوفى خادمة في هذا العالم. لقد أحبتني حبًّا جمًّا، كما أحب أمي للغاية، وأنها هي من حملت رأس أمي المحتضرة بين ذراعيها، ثم طبعت أمي قبلة على وجهها امتنانًا لها في لحظاتها الأخيرة. أثارت ذكراهما شجوني، فاختنقت حزنًا، وانهارت دموعي بينما أحاول أن أقول إن منزلها بمثابة بيتي، وإن كل ما تملكه بمثابة أملاكي، وإنني كنت سأذهب إليها بحثًا عن مأوى، لولا حالتها المادية المتواضعة التي جعلتني أخشى أن أجلب إليها المتاعب. لقد انهرت، كما قلت، حين حاولت أن أقول ذلك، فخبأت وجهي بين يدي فوق الطاولة.

قالت عمتي: «حسنًا، حسنًا. للصبي الحق في الوقوف بجانب أولئك الذين وقفوا إلى جانبه... يا جانيت! إنها الحمير!».

إنني على يقين تام أنه لولا هذه الحمير التعسة، لتوصلنا إلى تفاهم معقول فيما بيننا، لأن عمتي كانت قد وضعت يدها على كتفي، وصار فعلها هذا دافعًا لي حتى تشجعت لاحتضانها وطلب رعايتها. إلا أن المقاطعة والاضطراب اللذين أزاحاها عني إثر صراع في الخارج وضعا حدًّا لجميع سبل الوفاق في اللحظة الراهنة، بل راحت عمتي تتحدث بسخط إلى السيد دك وتخبره عن عزمها على المطالبة بتطبيق قوانين بلادها، ورفع دعاوى التعدي على جميع أصحاب الحمير في دوفر، حتى إنها ظلت تتحدث في الأمر إلى أن حان وقت احتساء الشاي.

جلسنا بعد احتساء الشاي بالقرب من النافذة، وقد بدا لي وجه عمتي حادًّا عابسًا ومتطلعًا إلى مزيد من الغزاة، حتى حلَّ الغسق،

فأضاءت جانيت الشموع، ووضعت لوحًا من الزهر فوق الطاولة، ثم أسدلت الستائر.

راحت عمتي تحملق بنظراتها الخطرة، وتشير بسبابتها كما في السابق، وأثنت تقول: «والآن يا سيد دك، سأطرح عليك سؤالًا آخر. انظر إلى هذا الطفل».

قال السيد دك، بوجه منتبه ومرتبك: «ابن ديفيد؟».

أجابته عمتي: «بالضبط، ماذا ستفعل به الآن؟».

قال السيد دك: «ماذا سأفعل مع ابن ديفيد؟».

أجابت عمتي: «مع ابن ديفيد».

قال السيد دك: «آهٍ! نعم. ما سأفعله معه هو... يجب أن أوصله إلى الفراش».

صرخت عمتي، بالانتصار والرضا ذاتهما اللذين أشرت إليهما من قبل قائلة: «يا جانيت! إن السيد دك يرشدنا إلى التصرف السليم. إذا كان السرير جاهزًا، فلنأخذه إليه».

أخبرت جانيت أن الفراش قد صار جاهزًا، ومن ثَم أخذوني إليه بلطف، إلا أنني كنت أشبه بالسجين، إذ كانت عمتي تسير في المقدمة وتحاصرني جانيت من خلفي. أما الموقف الوحيد الذي بث داخلي أملًا جديدًا؛ هو وقوف عمتي على الدرج للاستفسار عن رائحة شيء يحترق عبَّأت المكان. أجابت جانيت بأنها أشعلت النار في قميصي القديم في المطبخ. لم تتوفر ملابس أخرى في غرفتي سوى كومة الأشياء

الغريبة التي كنت أرتديها. تركتاني في الغرفة مع فتيل صغير مشتعل وقد حذرتني عمتي من أنه سينير لمدة خمس دقائق بالضبط ثم ينطفئ. سمعتهما تغلقان باب الغرفة من الخارج. رحت أفكر في هذه الأشياء وأتمعنها في ذهني، وقد ظننت أنه من الممكن أن تكون عمتي، التي لا تعرف شيئًا عني، يراودها شك في اعتيادي على الهرب، فاتخذت هذه الاحتياطات لمنع هذا الأمر، لئلا أفكر في الهروب من جديد.

كانت الغرفة جميلة، تقع أعلى المنزل وتطل على البحر، وقد بدا القمر منيرًا زاهيًا. انتهيت من صلاتي، واحترق فتيل الشمعة عن آخره، وها أنا لم أزل أتذكر كيف كنت جالسًا أنظر إلى ضوء القمر المنطبع على صفحة الماء، كما لو كنت أتمنى أن أقرأ مصيري بين أنواره، ككتاب ناصع الأوراق، أو أن أرى أمي مع طفلها قادمين من السماء على طول هذا الطريق المشرق، لتنظر إليَّ كما فعلت قبل ذلك فأرى وجهها الجميل للمرة الأخيرة. أتذكر كيف استولى عليَّ هذا الشعور المهيب إلى أن أشحت بوجهي بعيدًا عنه، ثم إحساسي بالامتنان والراحة الذي بثه داخلي مشهد السرير المغطى بستائر بيضاء. كان هذا ما بثه الاستلقاء في سكينة فوق هذا الفراش الوثير، متدثرًا بملاءاته البيضاء. وكم كان الأمر ملهمًا! أتذكر كيف رحت أفكر في جميع الأماكن الموحشة التي بت فيها تحت غطاء من سماء هذا الليل، وكيف تضرعت إلى الله متوسلًا ألا أكون بلا مأوى بعد الآن، وأنني لن أنسى أبدًا من لا مأوى لهم. أتذكر كيف أحسست بأنني أطفو، فوق هذا النور الكئيب المنطبع فوق صفحة البحر، هاربًا بعيدًا إلى عالم الأحلام.

# الفصل الرابع عشر

## عمتي تتدبر أمري

نزلت في الصباح إلى عمتي، فإذا بها تجلس إلى مائدة الإفطار ساهمة تفكر، مسندة مرفقها إلى الصينية، إلى الحد الذي فاض فيه فنجان الشاي، فسال مُبلِّلًا مفرش المائدة بالكامل، وقد دخلتُ في هذا الوقت فقطعت حبل أفكارها، وشعرت أنها بلا شك تتدبر أمري. صرت حريصًا على معرفة نياتها تجاهي أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك لم أجرؤ على التعبير عن هواجسي؛ خشية أن أسيء إليها.

أما عيني فلم أستطع السيطرة على نظراتها، على عكس إمساكي لساني، فأخذت أنظر نحو عمتي معظم الوقت في أثناء الإفطار. لم أتمكن قَطُّ من إطالة النظر إليها لأكثر من بضع لحظات مجتمعة، إلا أنني لاحظت نظراتها نحوي. كانت نظراتها متأملة وغريبة، توحي بأنني أقف على مسافة بعيدًا جدًّا عنها، على الرغم من أنني لم ألبث جالسًا على الجانب الآخر من المائدة الصغيرة المستديرة. ما إن انتهت عمتي من تناول الإفطار، حتى مالت إلى الخلف بكرسيها، وقد عقدت حاجبيها، ولفت ذراعيها، وراحت تتأملني باهتمام بالغ، مما جعلني تحت وطأة بالغة من الارتباك. لم أكن قد انتهيت من إفطاري بعد، فحاولت إخفاء

ارتباكي بالمضي في تناول الطعام، لكن سكيني اصطدم بالشوكة، وتعثرت الشوكة بالسكين، فتناثرت قطعة من لحم الخنزير المقدد بارتفاع مفاجئ في الهواء بدلًا من تقطيعها وإحكامها حتى أكلها، ثم إنني حبست أنفاسي على قدر من الشاي في حلقي، والذي ضل سبيله بدلًا من الانزلاق في جوفي، حتى استسلمت لارتباكي تمامًا، فجلست خجلًا تحت رقابة عمتي.

قالت عمتي بعد وقت طويل: «أهلًا».

رفعت عيني إليها، فالتقت نظراتي بنظرتها الحادة اللامعة في وقار.

قالت عمتي: «لقد كتبت إليه».

قلت: «إلى...؟».

قالت عمتي: «إلى زوج والدتك. لقد بعثت إليه برسالة ستجبره على الحضور، وإلا سنصير أعداء، ويمكنني حينها أن أعلن له خصومتي».

سألتها بعد أن لفني الفزع: «هل يعرف مكاني يا عمة؟».

قالت عمتي بعد إيماءة: «لقد أخبرته مكانك».

تلعثمت قائلًا: «هل سأعود إليه؟».

قالت عمتي: «لا أعرف. سوف نرى».

صرخت قائلًا: «آهٍ! لا أستطيع التفكير في أمري، إذا عدت إلى السيد مردستون».

قالت عمتي بينما تهز رأسها نافية: «لا أعرف شيئًا عن الأمر. لا أستطيع أن أجزم بما سيحدث. سنرى».

خارت قواي تحت وطأة هذه الكلمات، وصرت حزينًا مثقل القلب. راحت عمتي، من دون أن تظهر أي اهتمام ولو ضئيل بحالتي، تلبس مئزرًا خشنًا مع مريلة، كانت قد أخرجته من الخزانة، وأخذت تغسل فناجين الشاي بيديها، وما إن أتمت غسل كل شيء حتى أعادته إلى الدرج مرة أخرى، ثم لفت غطاء من قماش وبسطته فوق كل شيء، ثم قامت جانيت بإزاحة كل شيء إلى موضعه. راحت بعد ذلك تنظف فتات متناثرًا فتجمعه بمكنسة صغيرة، بعد أن ارتدت القفازات أولًا، حتى لم يتبقَّ فوق السجادة ذرة واحدة تُرى بالعين، ثم راحت بعد ذلك تنظف الغرفة وترتبها، على الرغم من أنها نفضتها من الغبار ورتبتها بدقة قبل ذلك. انتهت من كل هذه المهام على نحو يرضيها، ثم خلعت القفازات والمئزر، وطوتهما، ووضعتهما في زاوية معينة من الخزانة التي أخذتهما منها من قبل، ثم أخرجت صندوق الحياكة، وأخذته إلى طاولتها الخاصة بعد أن فتحت النافذة، وجلست أمام المروحة الخضراء في مقابل الضوء لتبدأ في عملها.

قالت عمتي وهي تحكم الخيط في إبرتها: «أرجو أن تصعد إلى الطابق العلوي، وتُبلِّغ تحياتي إلى السيد دك، ويسعدني أن أعرف كيف يتعامل مع المذكرات».

نهضت في سرور لأتم هذه المهمة التي أوكلتها لي.

راحت عمتي تنظر إليَّ بعين مدققة كما كانت تنظر إلى الإبرة في إحكام خيطها، ثم قالت: «أتصور أنك تفهم أن السيد دك اسم مختصر، أليس كذلك؟».

أجبتها: «حسبت أمس أنه اسم مختصر».

قالت عمتي بلهجة متعالية: «لا يظن أنه لا يدعى باسم أطول، ربما إن شاء لاختار أن ينادى به. هذا الاسم هو بابلي... إنه السيد. ريتشارد بابلي، هذا هو اسم السيد الحقيقي».

كنت على وشك أن أبدي اقتراحًا، نابعًا من شعور ساذج لصغر سني، ومحاولًا إتمام ألفة قد لفتني، بأنه من الأفضل لو نودي بهذا الاسم كاملًا، إلا أن عمتي راحت تقول:

«لكن لا تنادِه به، مهما حدث. إنه لا يتحمل سماع هذا الاسم. إن هذا هو طبعه الخاص، على الرغم من أنني لا أرى فيه خصوصية أو غرابة أيضًا، فقد أسيء استخدام هذا الاسم لأبعد الحدود، من قِبل بعض الذين يحملونه، وليشهد الله أن هذا ما جعله يكرهه إلى هذا الحد. إنه يدعى السيد دك هنا، وكذلك يحمل الاسم نفسه في أي مكان آخر. إن ذهب الآن إلى أي مكان آخر، على الرغم من أنه لن يفعل، فسيبقى هذا اسمه. حذارِ يا غلام أن تناديه بأي اسم سوى السيد دك».

وعدتها بطاعة قولها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي لأبلغ رسالتي، بينما رحت أفكر في طريقي، أنه إذا كان السيد دك يعمل في مذكراته منذ فترة طويلة، بالمعدل نفسه الذي رأيته يعمل به، حين رمقته وأنا نازل في الصباح عبر بابه المفتوح، لربما قطع فيه شوطًا لا بأس به. وجدته لم يزل ماضيًا يسطر فيه بقلمه، بل يكاد رأسه يسقط على الورق. لقد كان شديد التركيز في عمله، مما أتاح لي وقتًا طويلًا، فرحت أتأمل الطائرة الورقية الكبيرة المنتصبة في زاوية الغرفة، كما لاحظت حِزمًا

مبعثرة من الأوراق والمخطوطات، وعددًا من الأقلام، وفوق كل هذا كمية كبيرة من الحبر، التي بدا أنه يحتفظ بها في عبوات تتسع لأكثر من نصف جالون، وكانت تملأ العشرات من الجالونات. لاحظت كل هذا قبل أن ينتبه إلى وجودي.

قال السيد دك بينما يضع قلمه جانبًا: «ها! يا فويبوس[1]! كيف تسير الأمور؟ سأخبرك كيف تسير...». ثم أكمل حديثه بنبرة منخفضة، قائلًا: «لا أحب أن أذكر هذا الأمر، لكن...»، وهنا أشار إليَّ لأدنو منه، ثم وضع شفتيه بالقرب من أذني، وقال: «إنه عالم مجنون. يا له من جنون يشبه مشفى للمجاذيب يا فتى». ثم تناول السعوط من صندوق دائري فوق الطاولة، وراح يضحك بشدة.

لم أُبدِ رأيي في هذا الأمر، ولم أقُم إلا بنقل رسالتي.

أجاب السيد دك قائلًا: «حسنًا، تحياتي لها، وأحسب أنني قد بدأت». ثم أخذ يمرر يده بين خصلات شعره الرمادية، بعدما ألقى بنظره على مخطوطه من دون أن توحي نظراته بشيء من الثقة، قائلًا: «أظن أنني بدأت. هل ذهبت إلى المدرسة؟».

أجبت: «نعم سيدي، لمدة قصيرة».

سألني السيد دك، بينما ينظر نحوي بجدية، ويمسك بقلمه لتدوين ما قلته: «هل تتذكر التاريخ الذي قطع فيه رأس الملك تشارلز الأول؟». أحسب أن ذلك حدث في عام ستمائة وتسعة وأربعين.

---

(١) أحد أسماء أبولو؛ وهو إله الشمس والموسيقى عند الإغريق.

أخذ السيد دك يحك أذنه بقلمه، وينظر نحوي بريبة، وراح يقول: «حسنًا، هكذا تقول الكتب، لكني لا أدرك كيف يمكن أن يكون الأمر صحيحًا. فإذا كان هذا ما حدث منذ فترة طويلة، فكيف يمكن للأشخاص المحيطين به أن يرتكبوا هذا الخطأ المتمثل في إخراج بعض المشكلات من رأسه بعد خلعه، ثم وضعها في رأسي؟».

لقد فاجأني هذا السؤال أشد مفاجأة. إلا أنني لم أتمكن من الإدلاء بأي معلومات حول هذه النقطة.

قال السيد دك بعد نظرة يائسة على أوراقه، وقد خلَّل يده بين شعره مرة أخرى: «إنه أمر غريب للغاية، لا يمكنني فهمه بالشكل الصحيح أبدًا. لا أستطيع أن أوضح الأمر تمامًا». ثم راح يكمل حديثه بمرح، بعد أن انتبه لكلامه قائلًا: «لكن لا يهم. أمامي ما يكفي من الوقت. أرسل تحياتي إلى الآنسة تروتوود، فإنني أسير على خطى لا بأس بها في العمل».

كنت على وشك الانصراف، فإذا بالسيد دك ينبهني مشيرًا إلى الطائرة الورقية، قائلًا: «ما رأيك في هذه مقارنة بطائرة ورقية؟».

أجبت بأنها جميلة، وأنني أتصور أنها تستطيع أن تُحلِّق لارتفاع قد يصل إلى سبعة أقدام.

قال السيد دك: «لقد صنعتها بنفسي. سنذهب أنا وأنت لنطلقها تحلق. هل لاحظت هذه؟».

أظهر لي عبارة مخطوطة عليها بخط اليد كتبت بإحكام وإتقان، أما وقد أمعنت النظر إلى هذه العبارة، حتى ظننت أنني رأيت بعض

الإشارات إلى رأس الملك تشارلز الأول، وقد تجلت لي مرة أخرى في مكان أو مكانين.

قال السيد دك: «إنها مربوطة بخيط طويل، وعندما تطير عاليًا، فإنها تأخذ الوقائع إلى فضاء بعيد. إنه أسلوبي في النشر بنزع الفتيل. لا أعرف إلى أين تتجه؛ كلٌّ حسب ظروفه، وحسب اتجاه الرياح وما إلى ذلك، إلا أنني أغتنم فرصتي في نشرها».

بدا وجهه لطيفًا وأنيقًا للغاية، يرتسم عليه تعبير ما مبجل للغاية، وعلى الرغم من هذا اللطف وهذه الحيوية، فإنني ظننت أنه يمزح معي. ضحكت، ثم عاودت الضحك، وافترقنا كما لو أننا صديقان حميمان.

قالت عمتي بعدما نزلت إلى الطابق السفلي: «حسنًا يا طفلي. كيف حال السيد دك هذا الصباح؟».

أخبرتها أنه يرسل تحياته إليها، وأنه يسير على خطى لا بأس بها في العمل.

قالت عمتي: «وما رأيك فيه؟».

سيطرت عليَّ فكرة غامضة في محاولة للتهرب من إجابة السؤال، وأن أكتفي بالرد بقولي إنني أحسب أنه رجل نبيل، لطيف للغاية، إلا أن عمتي لم تكن من الشخصيات التي يمكن للمرء أن يتهرب منها. لقد أبعدت عنها ما كانت تعمله، ووضعته في حجرها، ثم قالت وهي تطوي يديها فوقه: «هيا! إن أختك بيتسي تروتوود كانت لتخبرني مباشرة برأيها في أي شخص. كن مثل أختك بالقدر الذي تستطيعه، وتحدث إليَّ».

رحت أتلعثم لأنني شعرت أنني أخوض منطقة خطيرة، فقلت: «هل هو - أقصد السيد دك - وإنني أسأل لأنني لا أعرف يا عمتي - هل فقد عقله تمامًا، إذن؟».

قالت عمتي: «الأمر ليس كذلك ولو بمثقال ذرة».

عقبت قائلًا بصوت خافت: «آهٍ، حقًّا!».

قالت عمتي في يقين بالغ وأسلوب مؤكد: «إذا كان ثمة شيء في العالم يبعد عن السيد دك، فإنه هذا الوصف».

لم أستطع أن أتفوه بشيء أفضل من هذا القول الخجول: «آهٍ، حقًّا!».

قالت عمتي: «لقد أسموه مجنونًا. يسعدني أن أقول إنه قد وُصِف بالجنون، ولولا هذا الوصف لما استطعت أن أحصل على خبرته ونصائحه خلال السنوات العشر الماضية أو يزيد، أو لنقُل في الحقيقة منذ أن خيَّبت أختك، بيتسي تروتوود، ظني».

قلت: «ألهذا الحد؟».

تابعت عمتي حديثها قائلة: «أما الناس اللطفاء، فهم الذين دفعتهم الجرأة إلى وصفه بالجنون. يربطني مع السيد دك نوع من صلة القرابة البعيدة؛ لا يهم كيف، فلست بحاجة إلى الدخول في التفاصيل. لولا وجودي معه، لحبسه شقيقه مدى الحياة. وهذا كل شيء».

أخشى أن أقول إنني شعرت بنفاق عميق، حين تظاهرت أمام عمتي بمؤازرتي القوية لهذا الأمر، وقد حاولت أن أبدو كما لو أنني أشعر بقوته أيضًا.

قالت عمتي: «يا له من أحمق متكبر! فلنفترض أن شقيقه كان غريب الأطوار بعض الشيء - على الرغم من أنه لا يضاهي غرابة كثير من الناس - فهل يحق له أن يرفض أن يلاحظه أحد في محيط منزله، ومن ثَم يرسله بعيدًا إلى ملجأ خاص، على الرغم من أن والده المتوفى كان قد أوصى برعايته من قبل، وكان يحسبه أقرب إلى الرجال الأسوياء؟ لا بد أنه كان رجلًا حكيمًا في ظنه هذا، بل كان هو نفسه مجنونًا، بلا شك».

حاولت مرة أخرى أن أبدو مقتنعًا تمامًا، نظرًا لأن عمتي بدت مقتنعة بكلامها كلية.

ثم قالت عمتي: «لذلك تدخلت وقدمت له عرضًا. قلت له: أخوك عاقل - بل أتصور أنه أكثر عقلًا منك الآن، بل أعقل منك على الإطلاق. دعه يحصل على نصيبه القليل، ثم يأتي ويعيش معي. إنني لست خائفة منه، ولست متعالية، بل إنني مستعدة لرعايته، ولن أسيء معاملته كما فعل بعض الأشخاص (عوضًا عن الذين طالبوا بإرساله إلى الملجأ)». أكملت عمتي قائلة: «تمكنت منه بعد فترة طويلة من الشجار، ومنذ ذلك الحين وهو يقيم هنا. إنه أكثر المخلوقات مودة وطيبة، أما عن نصائحه، فلا أحد غيري يدرك رجاحة عقل هذا الرجل».

أخذت عمتي تهذب ثوبها ثم هزت رأسها، كما لو أنها تتحدى العالم كله بتهذيب ثوبها من جانب، ثم تنتصر عليه بإيماءة من رأسها من جانب آخر.

استطردت عمتي قائلة: «كانت له أخت يفضلونها عليه، وقد كانت مخلوقة طيبة، تعامله بكل لطف. إلا أنها فعلت ما يفعله الجميع، فقد

تزوجت، وفعل هذا الزوج ما يفعله غيره إذ جعل حياتها تعيسة. أثَّر كل ما حدث على عقل السيد دك (وآمل ألا يكون هذا التأثير جنونًا). تضافر هذا مع خوفه من أخيه، وإحساسه بكراهيته له، فإذا به يصاب بالحمى. حدث ذلك قبل أن يأتي إليَّ، إلا أن هذه الذكرى الظالمة له لم تزل تؤثر فيه حتى هذه اللحظة. هل قال لك أي شيء عن الملك تشارلز الأول، يا صغير؟».

«نعم يا عمة».

قالت عمتي بينما تفرك أنفها كما لو كانت منزعجة قليلًا: «آه! هذه هي طريقته المجازية للتعبير عن ألمه. إنه يربط مرضه بما فيه من اضطراب عارم وانفعالات، بهذه الوقائع. هذا هو المعادل، أو المجاز، أو أيًا كان ما يُطلق عليه، الذي يختار استخدامه للتعبير عن موضوعه. ولماذا لا يفعل ما أراد، ما دام قد ظن أنه صحيح!».

قلت: «بالتأكيد يا عمة».

قالت عمتي: «إنها ليست طريقة متداولة لتبادل الحديث، ولا هي طريقة معروفة في هذا العالم. وإنني على علم بذلك، وهذا هو سبب إصراري على ألا تَرِد كلمة واحدة عن هذا الأمر في مذكراته».

«هل هي مذكرات مستمدة من قصة حياته، أهذا ما يكتبه يا عمتي؟».

قالت عمتي وهي تفرك أنفها مرة أخرى: «نعم يا صغيري. إنه يخلد ذكرى السيد وزير العدل، أو اللورد فلان أو أحد اللوردات - أي شخص من هؤلاء، ممن يدفعون الأموال ليخلدوا سيرتهم في جميع المناسبات - ليدون منجزاته. أفترض أنه سينتهي من عمله هذا في يوم من الأيام. لم يستطع إلى الآن رسم ملامح عمله، من دون اللجوء إلى هذه الطريقة

للتعبير عن نفسه، لكن هذا لا يهم ما دام يُبقيه منشغلًا على الدوام».

اكتشفت فيما بعد أن السيد دك كان يسعى في حقيقة الأمر منذ ما يزيد على عشر سنوات لإبقاء الملك تشارلز الأول خارج المذكرات، لكنه كان يقحمه باستمرار، وظل موجودًا إلى الآن.

قالت عمتي: «أؤكد لك مرة أخرى، لا أحد يعرف خبايا عقل هذا الرجل سواي، فهو أكثر المخلوقات رقة وودًّا في هذا الوجود. أما إذا كان يحب أن يطير طائرة ورقية أحيانًا، فما الغريب في ذلك؟! لقد اعتاد فرانكلين على إطلاق طائرة ورقية لتطييرها[1]، وكان - إذا لم أكن مخطئة - من الكويكرز[2]، أو شيئًا من هذا القبيل. ولا شيء يضاهي سخافة أن يقوم أحد الكويكرز بتطيير طائرة ورقية عوضًا عن أي إنسان آخر».

لو أنني أستطيع أن أفترض أن عمتي قد سردت هذه التفاصيل لإرضاء فضولي الخاص، أو كنوع من الثقة بي، لكان من الأجدر بي أن أستشعر تميزًا ومكانة عالية، أو كنت استبشرت خيرًا لما تبديه من علامات رأيها الصائب. إلا أنني استطعت أن ألاحظ أن ما أقدمت عليه بشكل عام لم يكن إلا تعبيرًا رئيسيًّا عن إجابة لسؤال قد أُثير في عقلها، على الرغم من إشارتها إليَّ على نحو ضئيل، وإن كانت قد وجَّهت حديثها إليَّ في ظل غياب أي إنسان آخر.

---

(١) تجربة قام بها الفيزيائي والسياسي الأمريكي بنجامين فرانكلين بمساعدة ابنه ويليام، وكان هدفه اكتشاف طبيعة البرق والكهرباء.

(٢) مجموعة من المسيحيين البروتستانت نشأت في القرن السابع عشر في إنجلترا على يد جورج فوكس.

يجب أن أعترف أنها في الوقت ذاته كانت قد أبدت كرمًا في دفاعها عن السيد دك المسكين الوديع، فلم يلهمني موقفها بعض الأمل الذي جال في صدري بدافع من الأنانية فحسب، بل دفعني إلى التفكير فيها بعيدًا عن أي غرض أناني آخر. أتصور أنني بدأت في التعرف على جانب من عمتي، إذ إنها على الرغم مما تبديه من غرابة أطوار وروح دعابة غريبة، فإنها يجب أن تحظى بشيء من التقدير والثقة. كانت - على الرغم من موقفها الذي يستحق التقدير - حادة الطبع في هذا اليوم، كحالها في اليوم السابق، فمكثت تهاجم الحمير كما هي الحال في كثير من الأحيان، ثم باتت في حالة سخط صاخب، بعدما مر شاب، وراح يغمز بعينه إلى جانيت عند النافذة - كانت هذه الفعلة واحدة من أخطر المآثم التي يمكن اقترافها في حق كرامة عمتي - إلا أنها راحت تحظى في نفسي بمزيد من الاحترام، إن لم تكن قد أزاحت خوفًا كذلك.

مررت بنوبة قلق شديد في الفترة التي انقضت قبل تلقي الرد على رسالتها الموجهة إلى السيد مردستون، إلا أنني بذلت جهدًا لقمع هذا القلق، وحاولت أن أبدو مقبولًا وهادئًا بقدر ما أستطيع، سواء مع عمتي أو السيد دك. كنت أنا والأخير نخرج لتطيير الطائرة الورقية الكبيرة، ولكنني لم أحُز أي ملابس أخرى سوى الملابس المزخرفة التي ألبسوها لي في يومي الأول، مما جعلني حبيسًا في المنزل، إلا لمدة ساعة بعد حلول الظلام، عندما كانت عمتي تتمشى معي حرصًا على صحتي صعودًا وهبوطًا فوق الربوة بالخارج، قبل أن أخلد إلى النوم. وصل في النهاية الرد من السيد مردستون، وكم كنت مرتعبًا إلى أقصى

مدى حين أبلغتني عمتي أنه سيأتي إليها في اليوم التالي للتحدث معها بنفسه. لبثت في اليوم التالي في ملابسي الغريبة، وقد رحت أحصر الوقت، متوهجًا ومحمومًا بين صراع الآمال الغارقة ومخاوفي المتزايدة في أعماقي، أنتظر أن يداهمني منظر هذا الوجه العبوس وقد صار تَرَقُّبه يرعبني في كل دقيقة.

بدت عمتي أكثر تكبرًا وصرامة من المعتاد، إلا أنني لم ألحظ أي إشارة أخرى توحي باستعدادها لاستقبال الزائر الذي أخافه كثيرًا. جلست تعمل في حياكتها بجوار النافذة، فجلست بجانبها، بينما راحت أفكاري تتشتت أمام كل النتائج الممكنة أو المستحيلة لزيارة السيد مردستون، حتى وقت متأخر جدًّا امتد إلى ما بعد الظهيرة. كنا قد أجلنا تناول الغداء إلى أجل غير مسمى، لكن الوقت كان قد تأخر للغاية، فأمرت عمتي بتحضيره. صرخت عمتي وقد أطلقت إنذارًا مفاجئًا للحمير، مما أصابني بذعر وذهول، وقد أبصرت الآنسة مردستون فوق سرج جانبي[1]، تقتحم بحمارها بروية الرقعة الخضراء المقدسة، ثم توقفت أمام المنزل، وأخذت تتلفت حولها.

صرخت عمتي وهي تهز رأسها وتلوح بقبضتها من النافذة، قائلة: «اذهبي من هنا! ليس لكِ شأن يخصكِ هناك. كيف تجرؤين على هذا التعدي؟ هيا انصرفي! آهٍ! يا لكِ من حقيرة وقحة!».

ظلت عمتي في قمة غضبها من البرودة التي نظرت بها الآنسة مردستون إليها، بل أحسب أنها مكثت ساكنة بلا حراك، من دون أن

---

(١) سرج مخصص للنساء تجلس المرأة فوقه وقدماها في الاتجاه ذاته بعكس الرجال.

تستطيع الانطلاق خارجًا في الوقت الحالي وفقًا لعادتها. انتهزتُ الفرصة لأبلغها من تكون هذه السيدة، وقلت لها إن السيد مردستون أخذ يقترب الآن من السيدة الجانية - لأن الطريق كان شديد الانحدار وكان قد تأخر في صعوده وراءها - وظهر السيد مردستون بنفسه.

ظلت عمتي تهز رأسها وتومئ بمختلف الإشارات الممكنة عدا إيماءة الترحيب من النافذة ذات القوس، وصاحت: «لا يهمني مَن تكون! لن أسمح بهذا التعدي. لن أسمح بذلك. فلتبتعد! يا جانيت، أديرى الحمار. هيا قوديه بعيدًا». ثم أدركت من وقوفي خلف عمتي، أن معركة على وشك أن تنشب سريعًا. وقف الحمار يقاوم الجميع، وقد انزرعت أرجله الأربع بمختلف الطرق وأخذت تنغرز في الأرض. حاولت جانيت سحبه من اللجام للخلف، بينما حاول السيد مردستون قيادته للمضي قدمًا، وإذا بالآنسة مردستون تضرب جانيت بمظلتها، فصاح العديد من الأولاد، الذين جاءوا لمشاهدة هذا الشجار وراحوا يصرخون بشدة. أما عمتي فقد انقضت فجأة على شاب آثم بحوزته حمارًا، وقد ميزته من بين الصبية إذ كان أكثرهم تطاولًا وعندًا، على الرغم من أنه لم يتجاوز سن المراهقة. ما لبثت عمتي أن هرعت إلى مكان الحادث، وانقضت على الغلام، ثم قبضت عليه وجرته، بعد أن صارت سترته تعلو رأسه، وكعبه يطحن الأرض طحنًا. ساقته إلى الحديقة، ثم نادت جانيت وأمرتها باستدعاء الشرطة والقضاة، حتى يقبضوا عليه، فتتم محاكمته وتنفيذ الحكم على الفور في موقع الحادث. أما هذا الجزء من الموضوع،

لم يدُم طويلًا، إذ كان الغلام خبيرًا وعلى دراية بمجموعة متنوعة من الخدع والمراوغات، والتي لم يكن لعمتي أي تصور عنها، وسرعان ما تملص هاربًا، تاركًا آثارًا عميقة لحذائه المدبب داخل أحواض الزهور، ثم أخذ حماره معه منتصرًا.

كانت الآنسة مردستون، خلال الجزء الأخير من المعركة، قد ترجلت، وراحت تنتظر في هذه اللحظة مع شقيقها أسفل الدرج، حتى تتفرغ عمتي لاستقبالهما. أما عمتي فقد أزعجها الشجار إلى حد ما، فأشارت لهما بالدخول إلى المنزل بزهو جم، من دون أن تلتفت إليهما، إلى أن أعلنت جانيت عن وجودهما.

سألت مرتجفًا: «هل أذهب بعيدًا يا عمتي؟».

قالت عمتي: «لا يا سيدي. بالتأكيد لا تنصرف». ومن ثَم دفعتني إلى المكوث في ركن بالقرب منها، واحتجزتني بكرسي، كما لو أنني سجين أو أمام منصة قضاء. مكثت في هذا الموضع خلال المقابلة بأكملها، ومنه رأيت السيد مردستون وأخته بينما يدخلان في هذه اللحظة إلى الغرفة.

قالت عمتي: «آهٍ! لم أعرف في البداية مَن هم الأشخاص الذين اعترضتهم بكل سرور، لكنني لا أسمح لأي شخص بالمرور فوق هذا العشب، وإنني لا أستثني أحدًا. لا أسمح لأي شخص - أيًّا كان - أن يقوم بذلك».

قالت الآنسة مردستون: «إن نظامك محرج إلى حد ما أمام الغرباء».

قالت عمتي: «هل هو كذلك؟!».

بدا السيد مردستون خائفًا من تجدد المناوشات، ومن ثَم بدأ في التدخل قائلًا: «يا آنسة تروتوود».

رمقته عمتي بنظرة ثاقبة قائلة: «أستميحك عذرًا. هل أنت السيد مردستون الذي تزوج أرملة ابن أخي الراحل، ديفيد كوبرفيلد، في بلندرستون في منزل عش الطيور؟! - على الرغم من أنني لا أعرف سبب تسميته بعش الطيور، حقًّا لا أفهم السبب!».

قال السيد مردستون: «إنني هو».

عادت عمتي تقول: «اسمح لي يا سيدي بقول إنني أحسب أنه كان من الأفضل والأكثر راحة وسعادة لو أنك تركت هذه الطفلة المسكينة لحالها».

عقبت الآنسة مردستون، وراحت تتحدث متشدقة: «إنني أتفق إلى الآن مع ما قالته الآنسة تروتوود، فأنا أعتبر كلارا التي نرثي لحالها من جميع النواحي لم تكن سوى طفلة».

قالت عمتي: «إن رثاءنا مصدر راحة لأمثالنا أنا وأنتِ يا سيدتي، ممن يواصلون الحياة، ومن غير المحتمل أن نشعر بشقاء بسبب جمالنا، حيث لا يمكن لإنسان أن يصفنا بهذا».

استكملت الآنسة مردستون كلامها، على الرغم من أنني أحسب أنها لم توافقها بطيب نية أو حسن رأي: «لا شك في هذا! وبالتأكيد كما قلتِ، كان من الأفضل والأسعد لأخي لو لم يكن قد أقبل على مثل هذا الزواج. لقد كنت دائمًا عند هذا الرأي».

قالت عمتي: «ليس لديَّ أدني شك في هذا». ثم دقت عمتي الجرس قائلة: «يا جانيت. أبلغي تحياتي إلى السيد دك، واطلبي منه أن يتفضل بالنزول».

مكثت عمتي جالسة في وضع مستقيم تمامًا ومتجمد، عابسة تنظر نحو الحائط، إلى أن جاء السيد دك فقدَّمت عمتي الموجودين كل إلى الآخر.

راحت عمتي تتحدث بلهجة تأكيد، تنبه إليها السيد دك، حيث راح يعض على سبابته وقد بدا أحمق إلى حد ما، فقالت: «هذا هو السيد دك. إنه صديق حميم قديم. إنني أعتمد على رأيه».

أخرج السيد دك إصبعه من فمه إثر هذا التلميح، ثم وقف بين الجميع بعد أن أظهر علامات الجدية ويقظة الوجه.

أمالت عمتي رأسها نحو السيد مردستون، فراح يتحدث قائلًا:

«يا آنسة تروتوود. لقد وجدت بعد استلام رسالتك، أنه من الإنصاف لي، وربما احترامًا أكبر لكِ أن...».

ظلت عمتي ترمقه متطلعة إليه باهتمام، ثم قاطعته قائلة: «شكرًا لك. لا داعي لأن تُقحمني في الأمر».

تابع السيد مردستون قائلًا: «أردت الإجابة عن سؤالكِ بنفسي، مهما كان من صعوبة الرحلة، بدلًا من إرسال الرد عبر البريد. إن هذا الغلام الشقي الذي هرب من أصدقائه وعمله...».

قاطعته أخته بعد أن لفتت انتباه الجميع إلى الزي الغريب الذي

أرتديه ولا يمكن تسميته، فراحت تقول: «ومظهره، إنه فاضح تمامًا ومخزٍ».

قال شقيقها: «يا جين مردستون، من الأفضل ألا تقاطعيني. إن هذا الفتى الشقي يا آنسة تروتوود، كان سببًا للكثير من المشكلات والاضطرابات الأسرية؛ منذ حياة زوجتي العزيزة الراحلة، حتى يومنا هذا. إنه يتمتع بروح عابثة متمردة، ومزاج عنيف، كما أن سلوكه خشن بدرجة يتعذر إصلاحها. لقد سعيت أنا وأختي إلى تقويم رذائله، إلا أننا لم ننجح في الأمر. لقد شعرت - أو أحرى بي أن أقول إن كلينا قد شعر؛ فأختي تتفق معي تمامًا - أنه من الصواب أن تتلقي هذا التأكيد الجاد والخالي من العواطف الشخصية من شفاهنا».

قالت الآنسة مردستون: «لست في حاجة إلى تأكيد أي شيء قد صرح به أخي. إلا أنني ألاحظ أنه مقارنة بسائر أطفال العالم، فإنني أحسب أن هذا الغلام هو الأسوأ».

قالت عمتي، بعد صمت قليل: «هذا كثير!».

عادت الآنسة مردستون تقول: «لكن ليس الأسوأ بكثير على الإطلاق، هذا إذا لم نغفل بعض الحقائق».

قالت عمتي: «ها! حسنًا أهذا كل شيء يا سيدي؟».

استأنف السيد مردستون حديثه، بعد أن أخذ وجهه في الاحتقان أكثر فأكثر، كلما تبادل هو وعمتي نظراتهما الحادة، وهو الأمر الذي قاما به في حدود ضيقة للغاية: «إنني أقنع بوجهة نظر خاصة، فيما يتعلق بأفضل طريقة لتربيته، لأنني اعتمد فيها جزئيًّا على معرفتي به، وأعتمد

في جزء آخر منها على معرفتي بوسائل التربية ومصادري المعرفية الخاصة بي. إنني مسؤول عنها أمام نفسي، وأسير على خطاها، ولا أريد أن أقول عنها أكثر مما قلته. يكفي أنني وضعت هذا الصبي تحت عين صديق لي في عمل محترم، ولم يرضَ به، بل هرب من عمله. جعل من نفسه متشردًا هائمًا في البلاد إلى أن جاء إلى هنا، في أسماله البالية ليتوسل إليكِ يا آنسة تروتوود. وإني أود أن أعرض عليكم، بشرفي، العواقب الدقيقة - على قدر معرفتي - المترتبة على تحريضه في هذا الأمر».

قالت عمتي: «لنتطرق إلى موضوع العمل المحترم أولًا. لو أن هذا الغلام ولدك؛ فما كنت لترسله إلى هذا العمل على ما أظن، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة مردستون قائلة: «لو كان الغلام ابن أخي، فإنني على ثقة من أن أخلاقه كانت لتختلف تمامًا عن أخلاقه».

قالت عمتي: «أو لنقُل إذا كانت والدة هذا الطفل المسكين، لم تزل على قيد الحياة، فهل كان سيُرسل إلى مثل هذا العمل المحترم كذلك؟».

قال السيد مردستون، بعد أن أمال رأسه: «أتصور أن كلارا لم تكن لتناقش أي شيء قد نتفق عليه أنا وأختي جين مردستون بعد أن نراه الأنسب».

أكدت الآنسة مردستون قوله بصوت مسموع.

قالت عمتي: «همم. يا لها من طفلة بائسة!».

أما السيد دك، فكان يقرع بنقوده المعدنية طوال هذا الوقت، وقد راح يصلصل بها بصوت عالٍ في هذه اللحظة، حتى إن عمتي شعرت بضرورة تنبيهه فرمقته بنظرة تحذير، قبل أن تستأنف حديثها قائلة:

«هل مات معاش الطفل المسكين بعد موتها؟».

أجاب السيد مردستون: «نعم، مات معها».

«ألم تسوِّ الممتلكات الصغيرة من منزل وحديقة - لهذا المكان الذي يدعى عش الطيور من دون أي طائر - ليعود إلى طفلها؟».

أجاب السيد مردستون قائلًا: «لقد تركها لها زوجها الأول من دون قيد أو شرط...».

هنا قاطعته عمتي بقدر كبير من السخط بعد نفاد صبرها، فقالت: «يا إلهي، أي شيء هذا يا رجل، لا داعي لهذا القول. تركه لها من دون قيد أو شرط! أتصور أنني أرى أمامي ديفيد كوبرفيلد يتطلع إلى هذا القيد أو الشرط، على الرغم من أنه ماثل أمام وجهه! بالطبع ترك لها هذا الإرث من دون قيد أو شرط بعد موته. أما عندما تزوجت مرة أخرى - لأكون واضحة أي عندما أقبلت على هذه الخطوة الكارثية بالزواج منك - ألم يقُل أحد كلمة تخص هذا الصبي في ذاك الوقت؟».

قال السيد مردستون: «لقد أحبت زوجتي الراحلة زوجها الثاني يا سيدتي، ووثقت به كل الثقة».

راحت عمتي تتحدث بينما تهز رأسها في وجهه قائلة: «إن زوجتك الراحلة يا سيدي، كانت طفلة لا تفقه سبل الحياة، بل كانت أكثر الناس

تعاسة، وأسوأهم حظًّا. هذا ما كانت عليه. أما الآن فماذا تريد قوله بعد هذا كله؟».

عاد يقول: «ليس هذا كل ما أود قوله يا آنسة تروتوود. إنني هنا لاستعادة ديفيد - لإعادته من دون قيد أو شرط - ومن ثَم التصرف في شأنه بالطريقة التي أحسب أنها مناسبة، والتعامل معه بالصورة التي أظن أنها صحيحة. إنني لست هنا لتقديم أي وعد أو تقديم تعهد لأي شخص. قد تكون لديكِ فكرة، يا آنسة تروتوود، عن تحريضه على الهروب، أو عن شكواه إليكِ. إن طريقتكِ في التعامل معه، والتي يجب أن أقول إنها لا تبدو أنها تهدف إلى الاسترضاء، تدفعني إلى التفكير في أنكِ تحرضينه على فعلته. يجب أن أحذركِ الآن من أنكِ إذا حرضتِهِ مرة أخرى، فإن ذلك يعني أنكِ تحرضينه على هذه الأفعال دائمًا وأبدًا. كما أنكِ إذا تدخلتِ بيننا الآن، فعليكِ أن تتدخلي يا آنسة تروتوود في أمورنا إلى الأبد. وإنني لا أقبل أن يستهان بي أو أن يعبث أحد معي. إنني قد جئت إلى هنا، للمرة الأولى والأخيرة، لآخذه بعيدًا. هل هو مستعد للذهاب؟ إذا لم يكن مستعدًّا -أو قلتِ لي إنه ليس كذلك لأي ذريعة ممكنة، فإنني أبالي بالسبب- فستكون أبوابي مغلقة في وجهه من الآن فصاعدًا، وسأعتبر أن أبوابكِ هي التي ستفتح له، وسيكون ذلك أمرًا مفروغًا منه».

استمعت عمتي إلى هذه الخطبة بانتباه، وهي جالسة مستقيمة القامة تمامًا، ويداها مطويتان على إحدى ركبتيها، وقد بدت عابسة في نظرتها نحو محدثها. ما لبث أن أنهى حديثه حتى أدارت عينيها نحو الآنسة

مردستون، من دون أن تتزحزح عن موقفها بأي طريقة، ثم قالت: «حسنًا يا سيدتي، هل لديكِ أي شيء لتضيفيه؟».

قالت الآنسة مردستون: «يا آنسة تروتوود، إن كل ما أريد قوله قد قاله أخي على أكمل وجه، وكل ما أدرك حقيقته قد أوضحه أخي بجلاء تام، وليس لديَّ ما أضيفه سوى شكري لأدبكم الفائق».

لم تكن مفارقة الآنسة مردستون الساخرة لتؤثر على عمتي بل لم تزد على كونها قد أزعجت المدفع الذي كنت أنام بجانبه في تشاتام.

قالت عمتي: «وماذا سيقول الصبي؟ هل أنت مستعد للذهاب يا ديفيد؟».

أجبتها بالنفي، وناشدتها ألا تدعني أذهب. قلت إن السيد مردستون والآنسة أخته لم يحباني قَطُّ، ولم يكونا طيبين معي في أي وقت مضى. لقد جعلا أمي، التي كانت تغمرني حبًّا جمًّا دائمًا، غير سعيدة بسببي، وأنني قد تأكدت من هذا الأمر، وكذلك عرفت بيجوتي هذه الحقيقة أيضًا. قلت إنني كنت أكثر بؤسًا مما قد يظنه أي شخص أو أن يصدقه، خاصة لمن يعرف فقط كم كنت صغيرًا أمام هذه المعاناة. ثم توسلت إلى عمتي ودعوتها - نسيت الكلمات التي توسلت بها الآن، لكني أتذكر أنني كنت في غاية التأثر في ذلك الوقت - فتضرعت إليها لتحميني وتصد عني هذا البؤس، من أجل والدي.

تحدثت عمتي فقالت: «يا سيد دك، ماذا أفعل مع هذا الطفل؟».

فكر السيد دك، بعد أن تردد، ثم أشرق وجهه منتبهًا مرة أخرى،

وراح يقول: «خذي مقاسات جسده لتفصيل بدلة له مباشرة».

قالت عمتي منتصرة: «يا سيد دك أعطني يدك، لأن الفطرة السليمة التي تتمتع بها لا تُقدر بثمن». صافحته بود بالغ، ثم جذبتني نحوها وقالت للسيد مردستون:

«يمكنك الذهاب وقتما تريد؛ سأجرب حظي مع الصبي. إذا كان يتصف بكل ما تقوله، فعلى الأقل يمكنني أن أتصرف معه بطرق شتى بعد ذلك، كما فعلتَ. إلا إنني لا أصدق كلمة واحدة مما قلته».

أجاب السيد مردستون بصوت عال وهو يهز كتفيه: «يا آنسة تروتوود، لو أنكِ رجل محترم...».

قاطعته عمتي قائلة: «هه! كلام هراء! لا تتحدث إليَّ».

صاحت الآنسة مردستون: «كم هي في غاية الأدب! يا لقوة هذا الأدب حقًّا!».

قالت عمتي: «هل تظنين أنني لا أدرك الأمر؟ ألا أفهم كيف أحطتما هذه الطفلة المسكينة بحياة تعسة مضنية؟ هل تحسبين أنني لا أدرك طبيعة هذا اليوم المشؤوم الذي جئتِ فيه إلى هذه المخلوقة الصغيرة الرقيقة فاقتحمتِ طريقها لأول مرة. رحتِ تبتسمين متطلعة بعينين طامعتين نحوها، سأتجاهل حديثكِ، كما لو أنكِ أتفه من أن تقولي صه لإوزة!».

قالت الآنسة مردستون: «لم أسمع قَطُّ أي كلمات في مثل هذه الأناقة!».

تابعت عمتي قائلة: «هل تحسبين أنني لا أستطيع أن أفهمكِ كما لو لم أكشف أمركِ، بعد ما رأيته وسمعته منكِ الآن - الأمر الذي لم يمثل لي، بكل صراحة، سوى المتعة والتسلية؟ آهٍ حقًّا، فليحفظنا الله! فليحفظنا ممن على شاكلة السيد مردستون الذي يبدو لينًا وناعمًا في البداية! لم ترَ المسكينة الساذجة مثل هذا الرجل من قبل. كان شديد الجمال والعذوبة وأحبها حب عبادة. كان شغوفًا بصبيها - غمره بفيض من الحنان! كان من المفترض أن يكون أبًا آخر له، وليعيشوا جميعًا في حديقة حالمة من الورود، أليس كذلك؟ يا لهذا القرف! انسجموا معك جميعًا، ألم تفعل ذلك!».

صاحت الآنسة مردستون قائلة: «لم أسمع كلامًا مثل ما تتحدث به هذه المرأة في حياتي!».

قالت عمتي: «بعدما تأكدت من سيطرتك على هذه الحمقاء الصغيرة المسكينة - فليسامحني الله على وصفي لها بهذه الأوصاف، وقد ذهبت إلى مكان لن تذهب أنت إليه عاجلًا - لأنك لم تسئ إليها ولا إلى ولدها الإساءة الكافية، أليس كذلك؟ لقد بدأت في السيطرة عليها ثم ترويضها والتحكم في تصرفاتها، أليس كذلك؟ ثم بدأت في تحطيمها، مثل طائر مسكين بين قضبان القفص، فراحت المخدوعة تفني حياتها في الترنم بتعليماتك وأوامرك؟».

قالت الآنسة مردستون، بينما تتألم تمامًا لعدم قدرتها على تحويل مسار خطاب عمتي إليها: «هذا إما جنون أو عربدة، وأشك في أنه سكر وتيه».

واصلت الآنسة بيتسي حديثها إلى السيد مردستون، من دون الانتباه إلى هذه المقاطعات، كما لو لم يكن هناك شيء من هذا القبيل.

تحدثت إليه بينما تهز إصبعها في وجهه قائلة: «يا سيد مردستون، لقد كنت مجحفًا في حق الطفلة الساذجة، وقد كسرت قلبها. كانت طفلة مُحبة - أعرف ذلك، لقد أدركت الأمر، منذ رؤيتها قبل سنوات. لقد رحت تلوك جراحها في أحلك أيامها وأضعفها حتى ماتت. إنها الحقيقة التي أواجهك بها لتستريح؛ شئت أم أبيت. ولك أن تفهمها أنت وآلاتك بأقصى ما تستطيع إدراكه».

عقبت الآنسة مردستون قائلة: «اسمحي لي يا آنسة تروتوود أن أستفسر عن مقصدك من هذه الأوصاف، فإنني لست من ذوي الخبرة في اختيار مثل هذه الكلمات؛ فماذا تقصدين بآلات أخي؟».

مضت عمتي تقول: «كان الأمر واضحًا وجليًّا، كما أخبرتك، قبل أن تراها أنت بسنوات. أما السبب الذي جعلك تقابلها، فإنه من تدابير الله الغامضة، وحكمة أعمق من أن تدركها عقول البشر. كان من الواضح من دون شك أن هذه المسكينة التي لا حول لها ولا قوة ستتزوج برجل ما عاجلًا أو آجلًا، لكنني كنت أتمنى ألا يكون الأمر سيئًا إلى هذا الحد. كان هذا الوقت العثر يا سيد مردستون، عندما أنجبت ولدها الذي يقبع هنا، والذي جعلته سببًا لعذاب هذه الطفلة المسكينة بعد ذلك، ويا لها من ذكرى بغيضة تجعل من رؤيته لك مأساة الآن. نعم نعم! أعلم أن قولي صحيح من دون حاجتي إلى تأييد منك».

مكث واقفًا بجانب الباب، طوال هذا الوقت، مبديًا لها ابتسامة

ترتسم على وجهه، على الرغم من أن حاجبيه السوداوين كانا مقطبين. وإني لأصرح أنه في هذه اللحظة وعلى الرغم من أن الابتسامة كانت لم تزل مرتسمة على وجهه، فإن روحه كادت أن تتلاشى في لحظة، وبدا لاهثًا كما لو أنه يجري.

ثم أردفت عمتي قائلة: «أرجو لك يومًا سعيدًا يا سيدي، وداعًا!». ثم انقلبت فجأة نحو أخته قائلة: «يومًا سعيدًا لكِ أيضًا. ولو رأيتكِ تركبين حمارًا فوق أرضي الخضراء مرة أخرى، فإنني سوف أطوح بقبعتك من فوق رأسك فأدوسها بحق هذا الرأس المنتصب فوق كتفيكِ».

سيتطلب الأمر رسامًا، بل ليس رسامًا عاديًا، ليصور ملامح وجه عمتي بينما تحاول التخلص من هذا الانفعال غير المتوقع على الإطلاق، وكذلك وجه الآنسة مردستون كما عهدته في هذه اللحظة. أما أسلوب هذا الحديث، فليس هين الشأن، لقد كان ناريًا إلى الحد الذي جعل الآنسة مردستون لا تقوى على التفوه بكلمة واحدة، ومن ثَم تأبطت ذراع أخيها بصمت، وسارت خارج المنزل بغطرسة، وقد تتبعتهما عمتي بنظراتها عبر النافذة. كانت مستعدة، ولا شك لديَّ في الأمر، لتجديد تهديدها على الفور في حالة عودة ظهور الحمار.

لم يُقبل أي شخص على محاولة التحدي، ومن ثَم استرخى وجهها تدريجيًا، وصارت في غاية اللين، إلى الحد الذي جعلني أتجرأ على تقبيلها وشكرها، وهو ما فعلته بقلب مفعم بالمشاعر، ثم شبكت ذراعيَّ حول عنقها. صافحت السيد دك، وقد صافحني هو مرات عديدة، وأخذ يحيي هذه النهاية السعيدة للأحداث مع نوبات ضحك متكررة.

قالت عمتي: «اعتبر نفسك وصيًّا، بالاشتراك معي، على هذا الطفل يا سيد دك».

قال السيد دك: «سأكون سعيدًا بوصايتي على ابن ديفيد».

أجابته عمتي: «حسنًا. ها قد استقر الأمر. هل تعرف يا سيد دك أنني كنت أفكر في أن أسميه تروتوود؟».

قال السيد دك: «بالتأكيد، بلا شك، فلتطلقي عليه اسم تروتوود، بالتأكيد. تروتوود ابن ديفيد».

راحت عمتي تقول: «تقصد تروتوود كوبرفيلد».

قال السيد دك، بعد أن ظهر عليه الحرج بعض الشيء: «نعم، بالتأكيد. نعم. تروتوود كوبرفيلد».

لقد تعاملت عمتي بكرم شديد مع فكرة شراء بعض الملابس الجاهزة، وقد ابتاعتها لي بالفعل بعد ظهر ذلك اليوم، وكتبت عليها قبل أن أرتديها اسم «تروتوود كوبرفيلد» بخط يدها وبحبر لا يمحى، واتفقت على أن يكتب اسمي بالطريقة نفسها على جميع الملابس الأخرى التي أمرت بتفصيلها لي - كان الزي الكامل قد خصص لي بعد ظهر ذلك اليوم، وكذلك ما تلاه من ملابس خصصت بالطريقة نفسها.

وهكذا بدأت حياتي الجديدة باسم جديد، وبكل ما هو جديد من أجلي. أما منذ هذه اللحظات فقد انتهت حالة الشك التي كانت تخامرني، وشعرت لعدة أيام، كما لو أنني في حلم. لم أفكر قَطُّ في وجود أي نوع من الوصاية المتجبرة عند عمتي أو السيد دك. لم أفكر في أي شيء

يخصني بشكل واضح. أما الأمران الأكثر وضوحًا في ذهني هما: أن بونًا شاسعًا قد فارق بيني وحياة بلندرستون القديمة، والتي بدت وكأنها تخفت خلف ضباب تفصله مسافة لا نهاية لها، وأن ستارة قد سقطت إلى الأبد على حياتي في مستودع مردستون وجرينبي. لم يرفع أحد هذا الستار منذ ذلك الحين. أما أنا فقد رفعت عنها النقاب للحظة في هذه الرواية، فدونتها بيدٍ مرتعشة ومن ثَم أنهيتها بكل سرور. إن إحياء ذكرى تلك الحياة محفوف بالكثير من الألم، مع ثلة من المعاناة الذهنية وخيبة للأمل، حتى إنني لم أمتلك من الشجاعة ما يعينني على التدقيق في المدة التي حُكم عليَّ فيها بخوض غمار هذه الحياة. لا أدري هل دامت لعام أو أكثر، أم أقل من هذا وذاك. أدرك فقط أنها انقضت، ولم يعد لها وجود، وأنني دونتها وهنا أفرغ من الحديث عنها.



# الفصل الخامس عشر

## أخوض بداية جديدة

صرت أنا والسيد دك من أفضل الأصدقاء سريعًا. كان ينهي عمله اليومي، ثم نخرج معًا في كثير من الأحيان ليطلق الطائرة الورقية الرائعة. ظل يجلس في كل يوم من أيام حياته، لمدة طويلة أمام مذكراته، والتي لم يكن يحرز فيها أدنى تقدم قَطُّ، مهما يكن من جهده المبذول، ذلك لأن الملك تشارلز الأول كان يضلله دائمًا، عاجلًا أم آجلًا، ومن ثَم يحاول تنحيته جانبًا، ليبدأ مرة أخرى. راح يتأرجح بين الصبر والأمل اللذين تحمَّل بهما خيبات الأمل الدائمة التي تداهمه، وظل يحمل تصورًا بأن ثمة شيئًا خاطئًا يخص الملك تشارلز الأول، وهذا ما يجعل من الجهود الضعيفة التي بذلها لإبعاده، وهذا اليقين الذي جاء به، سببًا أدى إلى تعثره. تركتْ المذكرات بكل ما أحاط بها من كواليس انطباعًا عميقًا في داخلي. رحت أفكر في الهدف الذي يفترضه السيد دك من كتابته لهذه المذكرات، في حالة الانتهاء منها؛ ما هي تصوراته عن فرص انتشارها بين الناس، أو ماذا سيفعل بها بعد ذلك، وأكبر الظن أنه لا يعرف أي شيء عنها مثله مثل أي إنسان آخر. ولم يكن من الضروري على الإطلاق أن يزعج نفسه بطرح مثل هذه الأسئلة، فإذا كان ثمة شيء مؤكد تحت هذه

الشمس، فهو أن هذه المذكرات لن تنتهي أبدًا. اعتدت التفكير في مشهد مؤثر للغاية، وذلك عندما أراه يراقب الطائرة الورقية بينما تحلق مرتفعة في الهواء، والتفكير فيما قاله لي في غرفته عن تصوراته عن العبارات المنقوشة عليها، والتي لم تكن سوى صفحات قديمة من مذكرات لم تكتمل بنجاح، ربما لم تكن أفكاره تلك سوى أوهام تراوده أحيانًا. أما عندما يصير بالخارج، فإنه يطيل النظر إلى الطائرة الورقية المحلقة في السماء، فإذا به يشعر بها تسحبه فيجرها في يده. كان يبدو هادئًا بصورة لم أعهدها فيه قَطُّ. كنت أنخرط في تخيلاتي، وأنا جالس بجانبه فوق منحدر أخضر في إحدى الأمسيات، ورحت أراقبه بينما يتابع بنظراته الطائرة الورقية المحلقة عاليًا في الفضاء الساكن، وكأنها ترفع عن ذهنه كل ما أربكه، فتحمله معها - هكذا كان تفكيري الطفولي - في السماء. كان يلف الخيط ويسحبه فتنخفض إلى أسفل هذا الضوء الجميل، حتى ترفرف فوق الأرض، ثم تستلقي عليها مثل شيء هامد. أما هو فقد بدا وكأنه يستيقظ تدريجيًّا فيفيق من هذا الحلم، بل أتذكر أنني رأيته يتناول الطائرة، ثم ينظر إليها ساهمًا، كما لو أن كليهما قد هبطا معًا، وحينها أشفقت عليه من أعماق قلبي.

كنت أتقدم في صداقتي وأوتد علاقتي بالسيد دك، من دون أن أتخلى عن استرضاء صديقته المخلصة؛ عمتي. لقد تعاملت معي بلطف بالغ، فقد قامت في غضون أسابيع قليلة باختصار اسمي الجديد المعتمد من تروتوود إلى تروت، وكذلك شجعتني على عدم فقدان الأمل في مواصلة العمل من أجل نيل درجة متساوية من محبتها لأختي بيتسي تروتوود.

قالت عمتي ذات مساء بعدما جهزت لعبة الطاولة كالمعتاد لها وللسيد دك: «يا تروت، يجب ألا ننسى أمر تعليمك».

كان هذا الأمر هو مبعث قلقي الوحيد، وقد شعرت بسعادة غامرة لإشارتها إليه.

قالت عمتي: «هل ترغب في الذهاب إلى المدرسة في كانتربري؟».

أجبتها بأنني أحب ذلك كثيرًا، لأنها قريبة جدًّا منها.

قالت عمتي: «جيد. هل ترغب في الذهاب إليها غدًا؟».

لم أُفاجأ بسرعة هذا الاقتراح؛ نظرًا لأنني قد اعتدت من عمتي السرعة في اتخاذ القرارات بشكل عام، ومن ثَم قلت: «نعم».

راحت عمتي تقول: «حسنًا. يا جانيت، فلتستأجري المهر الرمادي والمركبة في صباح الغد في الساعة العاشرة، واحزمي ملابس السيد تروتوود الليلة».

لفتني بهجة عارمة فور سماعي لهذه الأوامر. إلا أنني شعرت ألمًا داخل قلبي بعد أن صُدمت بأنانيتي، عندما شاهدت تأثير هذا القرار على السيد دك، والذي أحزنه احتمال فراقنا أشد الحزن، إلى الحد الذي جعله يلعب بشكل سيئ جدًّا نتيجة لذلك. أخذت عمتي تبدي له عدة علامات تحذيرية عن طريق النقر بعقل أصابعها فوق صندوق النرد في الجهة الخاصة بها، ثم أغلقت لوحة اللعب، ورفضت اللعب معه بعد ذلك. إلا أنه سمع أن عمتي تبلغني أن عليَّ القدوم في أيام السبت من وقت لآخر، كما أنه يستطيع أحيانًا أن يأتي لزيارتي في أيام الأربعاء، ولذلك

تهلل فرحًا، ثم وعدني بعمل طائرة ورقية أخرى بهذه المناسبة، تفوق بكثير الطائرة الحالية حجمًا. انقلب في الصباح حزينًا مرة أخرى، وكاد لا يتمالك نفسه أمام رغبته في إعطائي كل ما يملك من أموال، وكذلك كل ما لديه من ذهب أو فضة، لولا تدخل عمتي، وتحديدها أن تقتصر الهدية على خمسة شلنات، والتي تمت مضاعفتها بعد التماسه ورجائه. افترقنا عند بوابة الحديقة في ود بالغ، ولم يستطع السيد دك الدخول إلى المنزل إلا بعد أن دفعتني عمتي للمضي بعيدًا عن أنظاره.

لم تكن عمتي لتبالي بالأقاويل بشكل عام، ومن ثَم قادت المهر الرمادي عبر دوفر بطريقة بارعة، حيث جلست مشدودة الظهر في مظهر منضبط لتبدو مثل حوذي العربة، ومراقبة خطوات المهر في ثبات أينما توجه، حازمة في سيطرتها من دون السماح له بالحياد عن مسارها بأي صورة من الصور. وصلنا إلى طريق الريف، فسمحت للمهر بالاسترخاء قليلًا، ثم نظرت إليَّ بينما أستند إلى عددٍ من الوسائد بجانبها، فأخذت تسألني عما إذا ما كنت سعيدًا أم لا.

قلت: «إنني حقًّا سعيد للغاية، شكرًا لكِ يا عمة».

لفتها سعادة عارمة. وقد كانت كلتا يديها مشغولتين، ومن ثَم ربتت على رأسي بسوطها.

سألتها: «هل هي مدرسة كبيرة يا عمتي؟».

قالت عمتي: «لا أعرف حقيقة. إننا ذاهبان في البداية إلى السيد ويكفيلد».

سألتها: «هل يملك مدرسة؟».

قالت عمتي: «لا يا تروت، إنه يملك مكتبًا».

لم أسأل عن المزيد من المعلومات عن السيد ويكفيلد، لأنها لم تبُح بشيء آخر عنه، بل رحنا نتحدث عن موضوعات أخرى حتى وصلنا إلى كانتربري. صادف وصولنا يوم السوق، وقد انتهزت عمتي هذه الفرصة العظيمة وراحت تتجول بمهرها الرمادي بين العربات والسلال والخضراوات وسلع الباعة الجائلين. أما المنعطفات والالتواءات التي مررنا بها على نطاق واسع، فقد جلبت إلينا مجموعة متنوعة من الأوصاف أطلقها الواقفون، ولم تكن دائمًا مرحبة بنا، إلا أن عمتي قادت العربة بلا مبالاة تامة. أجرؤ على القول إنها كانت ستسلك الطريق نفسه بالقدر ذاته من الهدوء لو أنها كانت تعبر أرض العدو.

توقفنا في نهاية المطاف أمام منزل قديم للغاية، يقف بشموخ على قارعة الطريق. كان المنزل ذا نوافذ شبكية منخفضة وطويلة تطل جلية ظاهرة من على بعد، وعوارض ذات رؤوس منحوتة في نهاياتها وبارزة أيضًا، لذلك فقد خُيل لي أن المنزل بأكمله يميل إلى الأمام، محاولًا معرفة الشخص الذي يمر على الرصيف الضيق أسفله. كان المنزل نظيفًا تمامًا وبرَّاقًا. تدلَّت المطرقة النحاسية القديمة فوق الباب المقوس المنخفض ذي الزخارف المكونة من أكاليل منحوتة في باقة من الفاكهة والزهور، مما جعلها تتلألأ كما لو أنها نجمة لامعة. كانت درجتا السلم المنحوتتان من الحجر منبسطتين تحت الباب وقد لاح منهما البياض كما لو أنهما مغطتان بقماش جميل ناصع البياض. أما الزوايا والأركان، والمنحوتات والقوالب، وألواح الزجاج الصغيرة الجذابة، والنوافذ

الصغيرة الرقيقة، فقد بدت جميعها نقية على الرغم من أنها قديمة قدم التلال. بدا كل شيء صافيًا مثل ثلج سقط لتوِّه فوق سفوح التلال.

توقفت العربة عند باب ذاك البيت، وقد كانت عيناي مثبتتين على المنزل، فإذا بي أبصر وجهًا شاحبًا شحوب الموتى، يظهر عند نافذة صغيرة في الطابق الأرضي (عند مدخل دائري صغير مستقل يقبع عند أحد جانبي المنزل)، ثم اختفى بسرعة. ما لبث أن انفتح هذا الباب المقوس المنخفض حتى أطل منه هذا الوجه ذاته، وقد بدا كجثة هامدة، يشبه تمامًا الوجه نفسه الذي أطل من النافذة، على الرغم من أنه لم يخلُ من مسحة من اللون الأحمر الذي يمكن ملاحظته أحيانًا يكسو جلود ذوي الشعر الأحمر. كان صاحب هذا الوجه شابًّا في الخامسة عشرة من عمره، على حد ما أتذكره الآن، إلا أنه يبدو أكبر من هذا السن بكثير - كان حليق الرأس فلا يظهر من شعره إلا منابته، وبالكاد تبدو شعيرات حاجبيه، كما أنه يبدو بلا رموش، أما عيناه فبنيتان قريبتان إلى اللون الأحمر، لا تعلوهما أهداب وغير مظللتين بشيء يحميهما، حتى إنني أتذكر أنني رحت أتساءل كيف يخلد هذا الشاب إلى النوم. كانت عظام كتفيه بارزة، وقد ارتدى ثوبًا أسود حسن المظهر، مع قماشة بيضاء تلتف حول عنقه، وقد زرر قميصه حتى حلقه. أما يداه فطويلتان نحيفتان يكاد يبرز منهما العظم، وقد جذبتا انتباهي بشكل خاص، حين وقف على رأس المهر، وأخذ يفرك ذقنه بهما، وينظر نحونا ونحن جالسان في العربة.

قالت عمتي: «هل السيد ويكفيلد في المنزل يا يورايا هيب؟».

قال يورايا هيب: «نعم، إن السيد ويكفيلد في المنزل يا سيدتي، هلا تتفضلين بالدخول إلى هناك». مشيرًا بيده الطويلة إلى الغرفة التي قصدها.

نزلنا، وتركناه ليمسك بالمهر، ثم دخل إلى مدخل طويل منخفض السقف يطل على الشارع، وقد ألقيت النظر عبر النافذة في أثناء دخولي، فإذا بي ألمح يورايا هيب ينفث أنفاسه أمام خياشيم المهر، ثم يغطيها على الفور بيده وكأنه كان يلقي عليه تعويذة ما. ظهرت صورتان في مقابل المدخنة الطويلة القديمة، كانت إحداهما لرجل ذي شعر رمادي (وإن لم يكن رجلًا عجوزًا بأي حال من الأحوال) وذي حاجبين أسودين، ينظر نحو بعض الأوراق المربوطة ببعضها بشريط أحمر، أما الأخرى فلسيدة، ذات ملامح وجه هادئة ولطيفة للغاية، وقد كانت تنظر إليَّ.

أحسب أنني كنت على وشك أن أستدير بحثًا عن صورة يورايا، فإذا برجل يفتح بابًا من أقصى مكان في الغرفة، وإذا بي أستدير مرة أخرى نحو الصورة التي أسلفت ذكرها في البداية، حتى أتأكد من أنها لم تخرج من إطارها. لبثت الصورة ثابتة تِمامًا. تقدم الرجل بخطوات نحو النور، فإذا بي أبصره وقد بدا أكبر مما بدا عندما رسم صورته ببضع سنوات.

قال الرجل المحترم: «يا آنسة بيتسي تروتوود، تفضلوا بالدخول. لقد كنت مشغولًا للحظة، لكنكِ ستعذرين انشغالي هذا. إنكِ تدركين دوافعي؛ فليس لديَّ سوى دافع وحيد يبقيني على قيد الحياة».

شكرته الآنسة بيتسي، ثم توجهنا إلى غرفته، والتي كانت مفروشة بأثاث مكتبي، وتحوي كتبًا وأوراقًا وصناديق من الصفيح وما إلى ذلك. تطل الغرفة على حديقة، كما ظهرت بها خزانة حديدية مثبتة إلى الحائط فوق رف الموقد مباشرة. رحت أتساءل في أثناء جلوسي، كيف تدور عمليات المسح والتنظيف حول هذه الخزانة عندما يحين وقت تنظيف المدخنة.

قال السيد ويكفيلد - وكنت قد اكتشفت سريعًا أنه هو هذا الشخص، وأنه يعمل محاميًا ووكيلًا على ممتلكات رجل نبيل ثري في هذه المقاطعة: «حسنا، يا آنسة تروتوود. أي ريح أتت بكِ إلينا؟ أرجو ألا تكون ريحًا خبيثة، أليس كذلك؟».

أجابت عمتي: «نعم. لم آتِ لأي مسألة قانونية».

قال السيد ويكفيلد: «رائع يا سيدتي. من الأفضل أن تأتي من أجل أي شيء عدا ذلك». بدا أن الشيب قد غزا شعره تمامًا في ذلك الوقت، على الرغم من أن حاجبيه لم يزالا على سوادهما. كان وجه محببًا للغاية، بل أحسبه وسيمًا. بدا نوع من الصحة على بشرته، وهو نوع اعتدت منذ فترة طويلة أن أميزه في ظل تعليم بيجوتي لي، وأدركت أنه يعود إلى احتساء النبيذ، وقد تخيلت أنه يظهر في صوته أيضًا، وقد أحلْت بدانته المفرطة إلى السبب نفسه. كان يرتدي ملابس أنيقة للغاية، حيث معطفه الأزرق، وصدرية مخططة، وبنطال من القماش الفاخر. أما قميصه؛ فخفيف مزركش، وقد بدا مع وشاحه المخمري ناعمين وناصعي البياض بصورة غير معهودة، مما جعلني أجول بخيالي الواسع

الفضفاض فأتذكر الريش الذي يعلو صدر بجعة.

قالت عمتي: «هذا ابن أخي».

قال السيد ويكفيلد: «لم أكن أعلمَ أن لديكِ ابن أخ يا آنسة تروتوود».

عقبت عمتي قائلة: «أقصد أنه ابن شقيقي».

قال السيد ويكفيلد: «أؤكد لكِ قولي؛ إنني لم أكن أعلم أن لديكِ ابن أخ».

قالت عمتي، بعد أن أبدت حركة من يدها قصدت بها أن علمه أو جهله سيان بالنسبة لها: «لقد أحضرته إلى هنا لإلحاقه بمدرسة يتحصل من خلالها على مستوى جيد تمامًا من التدريس وحسن المعاملة. هلا أخبرتني الآن أين أجد مثل هذه المدرسة، وما اسمها، وكذلك كل شيء عنها؟».

قال السيد ويكفيلد: «قبل أن أدلي إليكِ بنصيحتي السديدة، فإنني سأطرح عليكِ السؤال القديم، كما تعلمين. ما الذي يدفعكِ إلى ذلك؟».

صاحت عمتي: «فلتقبض اللعنة على روح هذا الرجل! يصطاد دائمًا الدوافع، بينما تطفو أمامه على السطح! لماذا أفعل ذلك؟ لأجعل هذا الطفل سعيدًا وأحوله إلى إنسان نافع».

قال السيد ويكفيلد وهو يهز رأسه ويبتسم ابتسامة من لا يصدق هذا الكلام: «أظن أن الدافع مختلط متنوع».

راحت عمتي تقول: «ترهات مختلطة. إنك تدعي أنك تحظى

بدافع وحيد واضح في كل ما تفعله بنفسك. ألا تفترض -وإني أرجو ذلك- أنك لست التاجر البسيط الوحيد في هذا العالم؟».

عادت ابتسامته وراح يقول: «حقًّا، لكن لديَّ دافع واحد فقط في هذه الحياة يا آنسة تروتوود. أما الآخرون فلديهم العشرات والعشرات بل المئات من الدوافع. إن دافعي واحد وحيد، وهذا هو الفرق. إن كل ما قلناه فوق هذا خارج سؤالكِ. تسألين ما هي أفضل مدرسة؟ أتريدين معرفة الأفضل مهما كان الدافع؟».

أومأت عمتي بالموافقة.

قال السيد ويكفيلد: «إن أفضل الأحوال التي بين أيدينا لا تسمح لابن أخيكِ بالالتحاق بكافة خدمات الإقامة في المدرسة الآن».

اقترحت عمتي حلًّا قائلة: «إلا أنه يستطيع الحصول على ما أراد من خدمات المأكل وتنظيف الثياب والمبيت من مكان آخر، على حسب ظني؟».

حسب السيد ويكفيلد أنني أستطيع تنفيذ هذا الأمر. اقترح على عمتي بعد نقاش قصير أن يصطحبها إلى المدرسة، كي تراها وتحكم عليها بنفسها، وليأخذها أيضًا لتفقد منزلين أو ثلاثة منازل، لإتمام الأمر نفسه، حيث يتصور أنني أستطيع المكوث في أحدها. قبلت عمتي الاقتراح، وكنا جميعًا في طريقنا للخروج معًا، فإذا به توقف ثم راح يقول:

«قد يكون لدى صديقنا الصغير بعض الدوافع - ربما - للاعتراض على هذه الترتيبات. أظن أنه كان من الأفضل أن نتركه ونذهب نحن، أليس كذلك؟».

بدت عمتي على استعداد للاعتراض على هذا الأمر، ولكني حاولت تسهيل الأمور فقلت إنني سأبقى هنا بكل سرور، إن رغبا في ذلك. عدت بعد ذلك إلى مكتب السيد ويكفيلد، وجلست مرة أخرى على المقعد الذي كنت أشغله في بداية الأمر في انتظار عودتهما.

كان هذا الكرسي ينتصب في مقابل ممر ضيق، حيث ينتهي إلى غرفة دائرية صغيرة في المكان الذي رأيت فيه وجه يورايا هيب الشاحب بينما ينظر من النافذة. أخذ يورايا يعمل في مكتب في هذه الغرفة، بعد أن أخذ المهر إلى إسطبل مجاور. كان يعلو مجلسه إطار نحاسي لتعليق الورق، أما الورقة التي يكتب منها لينسخها فكانت معلقة أمامه. ظهر وجهه مقابل وجهي مباشرة، إلا أنني كنت أظن لبعض الوقت، أن أوراق الكتابة المعلقة بيننا تجعله لا يستطيع رؤيتي. راحت نظراتي في هذا الاتجاه باهتمام متزايد تجعلني أشعر بعدم الارتياح، إذ لاحظت أنه بين الحين والآخر، تظهر عينه الطائشة أمامي من بين أوراق الكتابة، فتبدو لي مثل شمس متوهجة، وقد أخذ يحدق بي خلسة - بل أجرؤ على القول إنه كان يحدق بي طوال دقيقة كاملة في كل مرة - إلا أن قلمه لم يكف عن الكتابة طوال الوقت، أو ربما كان يتظاهر بالمضي في الكتابة بذكاء لم أشهده من إنسان في أي وقت مضى. بذلت عدة محاولات للتهرب من نظراته - مثل الوقوف على كرسي لإلقاء نظرة على خريطة معلقة على الجانب الآخر من الغرفة، أو التأمل في أعمدة صحيفة تُدعى «كنتيش» - إلا أن نظراته ظلت تجذبني إليه مرة أخرى، وكلما نظرت

نحو هذين الشمسين المتوهجتين، كنت أتيقن من أنني سأقابلهما إما مرتفعتين لأعلى أو تنظران إلى الأمام.

أخيرًا، عادت عمتي وعاد السيد ويكفيلد، بعد غياب طويل، مما بث في داخلي نوعًا من الارتياح. لم يحرزا التوفيق الذي كنت أرجوه، فقد كانت مزايا المدرسة لا يمكن إغفالها، إلا أن عمتي لم توافق على أي من المساكن الداخلية المقترحة لإقامتي بها.

قالت عمتي: «إنه أمر مؤسف للغاية. إنني لا أعرف ماذا أفعل يا تروت».

قال السيد ويكفيلد: «هذا يحدث لسوء الحظ. إلا أنني سأخبركِ بما يمكنكِ فعله يا آنسة تروتوود».

سألته عمتي: «ما العمل؟».

أجاب قائلًا: «فلتتركي ابن أخيكِ هنا، في الوقت الحاضر. إنه صبي هادئ. لن يزعجني على الإطلاق. أما المنزل فكبير بما يسمح بالدراسة، وهادئ كالدير، بل يكاد يكون في اتساعه. فلتتركيه هنا».

كان من الواضح لي أن عمتي قد أعجبت بهذا العرض، على الرغم من أنها كانت محرجة من قبوله، وكنت بالمثل محرجًا. قال السيد ويكفيلد: «هيا يا آنسة تروتوود. إنه المخرج المتاح لهذه المشكلة. سيكون ترتيبًا مؤقتًا فقط، كما تعلمين. إذا لم يتم على أكمل وجه، أو لم يتوافق تمامًا مع راحتنا المتبادلة، فيمكننا بسهولة الانتقال إلى مسار آخر صحيح. سيتاح أمامنا الوقت للعثور على مكان أفضل له في هذه المدة.

من الأفضل لكِ أن تتركيه هنا في الوقت الحاضر».

قالت عمتي: «إنني في غاية الامتنان لصنيعك، وإنه لممتن كذلك، كما أرى، لكن...».

صاح السيد ويكفيلد قائلًا: «لا عليكِ. إنني أعرف ما تقصدين قوله. لن أثقل عليكِ بقبول مزيد من الخدمات يا آنسة تروتوود، بل يمكنكِ - إذا أردتِ - أن تدفعي له مقابل احتياجاته. لن نختلف على هذه الشروط، لكن عليكِ أن تدفعي له إذا أردتِ ذلك».

قالت عمتي: «بناءً على هذا التفاهم، وعلى الرغم من أن هذا الأمر لن يقلل من معروفك الحقيقي، فإنني سأكون ممتنة جدًّا لتركه عندكم».

قال السيد ويكفيلد: «هيا تعالي لتتعرفي على مدبرة منزلي الصغيرة».

استجبنا للنداء وبناءً عليه صعدنا سلمًا قديمًا فاخرًا، يحوطه درابزين واسع للغاية، حتى إننا ربما نستطيع صعوده عوضًا عن درجات السلم بالسهولة نفسها تقريبًا. وصلنا إلى غرفة استقبال قديمة مظللة، يتسلل إليها الضوء عبر ثلاث أو أربع نوافذ جذابة، تلك النوافذ التي أبصرتها حين مررت بالشارع. احتوت الغرفة على مقاعد قديمة من خشب البلوط، ويبدو أنها أتت من الأشجار نفسها التي صنعت منها أرضية البلوط اللامعة، وكذلك العوارض العظيمة التي تقيم السقف. كانت الغرفة مؤثثة بكل جميل، كما ضمت بيانو وبعض الأثاث النابض بالحياة المزين باللونين الأحمر والأخضر، وكذلك زينتها بعض الزهور. بدت كل الزوايا والأركان عتيقة، وقد احتوت كل زاوية وكل ركن على طاولة صغيرة، أو خزانة، أو حاوية، أو مقعد، أو أي شيء آخر. رحت

أحسب مع كل ركن من أركان الغرفة أنه بلا مثيل يضاهيه جمالًا، حتى تلتفت عيني إلى ركن آخر، فإذا بي أجده مساويًا له في الجمال، إن لم يكن أجمل. لاح كل شيء تلفه روح السكون والنظافة نفسها، والتي ميزت المنزل وبدت عليه من الخارج.

نقر السيد ويكفيلد فوق أحد الأبواب القابع في ركن من الأركان، وقد كان مغطى بألواح خشبية، فإذا بفتاة في مثل سني تقريبًا تجري مسرعة، ومن ثَم قبَّلته. لاحظت على الفور سمات وجهها، فإذا بها تحمل التعبير الهادئ والعذب نفسه للسيدة التي أبصرت صورتها في الطابق السفلي. بدا لخيالي كما لو أن الصورة قد نمت، أما أصل الصورة فلم ينمُ بل أبقى الفتاة على طفولتها. لاح وجهها مشرقًا وسعيدًا، وقد لفته وزينته روح هدوء وسكينة وطيبة، لم أنسَها قَطُّ، بل ولن أنساها أبدًا. قال السيد ويكفيلد، إن هذه هي ربة منزله الصغيرة، إنها ابنته أجنيس. سمعت الطريقة التي قال بها إنها ابنته، ورأيت كيف أمسك بيدها، وبذلك أدركت الدافع الوحيد في حياته.

كانت تحمل سلة صغيرة معلقة إلى جانبها، تحوي مفاتيح، وقد بدت هادئة ووقورة مثل ربة منزل تليق بمثل هذا المنزل العتيق. أنصتت إلى والدها بينما يخبرها عني بوجه لطيف. اقترح على عمتي بعد أن أنهى حديثه أن نصعد إلى الطابق العلوي لنتفقد غرفتي. ذهبنا معًا - بينما كانت هي من يتقدمنا - وإذا بالغرفة قديمة وفاخرة، تحوي الكثير من عوارض البلوط وألواح الزان، بعد أن اتصل بها الدرابزين العريض الذي يؤدي إليها.

لا أستطيع أن أتذكر أين ومتى رأيت نافذة زجاجية ملونة في الكنيسة فيّ طفولتي. ولا أتذكر المناسبة التي رأيتها فيها، لكنني أعلم أنني عندما رأيتها تستدير في ضوء الدرج القديم، بعد أن انتظرتنا في الأعلى، فإنني قد رحت أفكر في تلك النافذة، وربطت بينها وسطوع النور الهادئ الذي يحيط بأجنيس ويكفليد، ثم مكثت هذه الصورة في خاطري عنها إلى الأبد.

كانت عمتي سعيدة بهذا الترتيب الذي أعد لي، وكنت بدوري سعيدًا أيضًا. نزلنا إلى غرفة الاستقبال مرة أخرى، ونحن في غاية السعادة والامتنان. إلا أنها لم توافق على البقاء حتى تناول الغداء؛ خشية أن تُفوت فرصة الوصول إلى المنزل بالمهر الرمادي قبل حلول الظلام. فهمت بدوري أن السيد ويكفيلد يعرفها حق المعرفة، ويدرك جيدًا أنه لا حاجة له لمجادلتها في أي موضوع، ولذلك فقد وفر لها بعض الطعام لتتناوله في طريقها. عادت أجنيس إلى مربيتها، وعاد السيد ويكفيلد إلى مكتبه، وتركانا معًا ليودع كل منا الآخر من دون خجل من وجودهما.

أخبرتني عمتي أن السيد ويكفيلد هو الذي سيرتب كل أموري، وأنني لن أحتاج إلى شيء هنا، ثم شجعتني بأفضل العبارات ومنحتني أثمن النصائح.

قالت عمتي في الختام: «يا تروت. أحسِن إلى نفسك، وكن فخرًا لي وللسيد دك، وليكن الله معك!».

تأثرت إلى أبعد مدى، ولم أستطع إلا أن أشكرها، ثم عاودت شكري لها عدة مرات، وأرسلت محبتي إلى السيد دك.

قالت عمتي: «إياك أن تصير لئيمًا في أي شيء، وإياك أن تصير كاذبًا أبدًا، وإياك أن تجعل قلبك قاسيًا. تجنب هذه الرذائل الثلاث يا تروت، وساعتها سأصير فخورة بك دومًا».

وعدتها، قدر استطاعتي، بألا أخيب ما منحته لي من لطف وألا أنسى نصائحها.

قالت عمتي: «إن المهر عند الباب، سأنصرف! ابقَ هنا». احتضنتني على عجل بعد هذه الكلمات، ثم خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب وراءها. شعرت في البداية بالذهول إثر هذا الرحيل المفاجئ، بل كدت أخشى أن أكون قد أغضبتها في شيء، ولكن عندما نظرت إلى الشارع، رأيت كيف لفها الأسى حين صعدت إلى الكرسي، ثم انطلقت بعيدًا من دون أن ترفع نظراتها إلى أعلى، ففهمتُ موقفها ونحَّيت عن عقلي هذا الظلم.

حانت ساعة غداء السيد ويكفيلد بحلول الساعة الخامسة، وكنت قد استجمعت قواي مرة أخرى، وصرت مستعدًّا لالتقاط السكين والشوكة. بسطت أقمشة المائدة أمامنا نحن الاثنين فقط؛ أما أجنيس فقد كانت تنتظر في غرفة الاستقبال قبل الغداء، ثم نزلت مع والدها وجلست أمامه على المائدة. أغلب الظن أن السيد ويكفيلد لن يقدم على تناول الغداء من دون ابنته.

لم نجلس في الغرفة نفسها بعد الغداء، بل عدنا إلى غرفة الاستقبال في الطابق العلوي مرة أخرى. كانت أجنيس قد جهَّزت في إحدى الزوايا الدافئة كؤوسًا لوالدها، ودورقًا من نبيذ البورت. أحسب أنه كان

ليفوِّت على نفسه الاستمتاع بنكهة النبيذ المعتادة، لو قُدِّم له بيد أخرى غير يد ابنته.

جلس هناك، يحتسي نبيذه، وقد أخذ يستزيد منه لمدة ساعتين، بينما كانت أجنيس تعزف على البيانو، وكذلك حاكت قليلًا، وتحدثت إلينا. كان السيد ويكفيلد لطيفًا ومبتهجًا معنا في معظم الأوقات، إلا أن عينيه كانتا تقعان عليها في بعض الأحيان، فيغوص في حالة من الحزن، ويصمت. أتصور أنها كانت دومًا تلاحظ الأمر بسرعة، فتهم بطرح سؤال أو إلقاء مداعبة، ومن ثَم يخرج من شروده ويعاود شرب المزيد من النبيذ.

أعدت أجنيس الشاي وترأست طاولته، ثم مضى الوقت كما مضى بعد الغداء حتى خلدت إلى النوم. ضمها والدها بين أحضانه وقبَّلها، وقبل أن تذهب طلب منها بعض الشموع في مكتبه، ثم أويت أنا كذلك إلى الفراش.

إلا أنني رحت أتجول في المساء نحو الباب، ثم مشيت قليلًا على امتداد هذا الطريق، حتى أتمكن من إلقاء نظرة أخرى على المنازل القديمة، والكاتدرائية الرمادية، وقد رحت أفكر في مجيئي ومروري بهذه المدينة القديمة في رحلتي، وكذلك احتمال مروري بالمنزل الذي عشت فيه من دون أن أتعرف عليه. عدت مرة أخرى، فإذا بي أبصر يورايا هيب يغلق المكتب، وقد كنت أشعر بالود تجاه الجميع، فأقبلت عليه وتحدثت معه، وقبل مفارقته مددت إليه يدي لمصافحته، ولكن يا لها

من يد رطبة! شبحية الملمس كما كان شبحي الهيئة! ومن ثَم فركت يدي بعد سلامي لتدفئتها، وإزاحة عرقه البارد منها.

ضايقني ملمس يده. ذهبت إلى غرفتي، بينما لم تزل يدي باردة ومبللة، وقد علق هذا الشعور بمخيلتي، حتى إنني حين اتكأت على النافذة، رحت أتخيل أحد الوجوه المرتسمة فوق طرف العارضة الخشبية، وقد أخذ ينظر إليَّ بجانب عينيه، بل تخيلت أنه يورايا هيب، وأنه قد تمثَّل هناك بطريقة ما، ومن ثَم أغلقت النافذة على عجل.



# الفصل السادس عشر

## إنني صبي جديد على أكثر من مستوى

ما إن حل صباح اليوم التالي، وانقضى الفطور، حتى بدأت الحياة الدراسية من جديد. ذهبت، برفقة السيد ويكفيلد، إلى معهد دراساتي المستقبلية؛ وهو مبنى شامخ ينتصب وسط فناء واسع، يحفه جو من وقار العلم، حتى ليبدو مناسبًا تمامًا كمحطة للطيور الضالة والغربان التي تهبط من أبراج الكاتدرائية لتتمشى على رقعة الأرض الخضراء، بعد أن لفحها وقار العلم. تعرفت إلى أستاذي الجديد الذي يدعى دكتور سترونج.

لاح الدكتور سترونج أمام ناظري صدئًا إلى حد ما، مثل القضبان الحديدية الطويلة والبوابات خارج المنزل، بل بدا صلبًا وثقيلًا مثل الجرار الحجرية الكبيرة التي أحاطت بالبوابات العتيقة، والتي توضع على قمة جدار من الطوب الأحمر، على مسافات منتظمة في جميع أنحاء الفناء، أو مثل جرار لعبة البولنج، التي تراصت استعدادًا للعب فأنهكها الزمان. كان في مكتبه (أقصد مكتب دكتور سترونج، ولا أقصد الزمان)، يرتدي ملابس غير مهندمة على وجه مقبول، أما شعره فغير ممشط، وضمادات ركبته الصغيرة غير مربوطة بإحكام، وكذلك جواربه

السوداء الطويلة متدلية فوق حذائه، أما زوج حذائه فيتثاءبان مثل كهفين فوق سجادة المدفأة. لفتت عينه الباهتة انتباهي؛ فذكَّرتني بفرس عجوز أعمى منسي منذ زمن طويل، كان قد اعتاد يومًا أن يمضغ العشب، ويتخبط فوق شواهد القبور في باحة كنيسة بلندرستون. تحدث إليَّ دكتور سترونج وقال إنه سعيد برؤيتي، ثم مد إليَّ يده فلم أعرف ماذا أفعل بها، لأن هذه اليد لم تستطع أن تقدم شيئًا لنفسها.

جلست سيدة شابة فاتنة للغاية على مقربة من الدكتور سترونج - كان يدعوها آني، وأغلب الظن أنها ابنته - وهي من أخرجني من ارتباكي بعد أن انحنت لتُلبس دكتور سترونج حذاءه، وتُحكم جواربه، وهو ما فعلته ببهجة وسرعة واضحتين. ما إن انتهت من ذلك، حتى توجهنا إلى قاعة الدراسة. انتابتني الدهشة حين سمعت السيد ويكفيلد يلقي عليها تحية الصباح بينما يخاطبها بقوله «السيدة سترونج»، ورحت أتساءل هل يمكن أن تكون زوجة لابن الدكتور سترونج؟ أم إنها يمكن أن تكون زوجة الدكتور سترونج؟ إلى أن قام دكتور سترونج نفسه بتوضيح مَن تكون، من دون قصد منه، حين توقف في وسط الممر بينما يسند يده فوق كتفي، وراح يقول: «بالمناسبة يا ويكفيلد، ألم تجد عملًا يناسب ابن عم زوجتي إلى الآن؟».

قال السيد ويكفيلد: «لا. لا. لم أجد ما يناسبه إلى الآن».

قال الدكتور سترونج: «أتمنى أن تجد له عملًا في أقرب وقت ممكن يا ويكفيلد، لأن جاك مالدون متكاسل وعاطل، ومن هذين الأمرين السيئين تتأتَّى كل الشرور في أغلب الأحيان». استطرد حديثه

بعد ذلك، بينما ينظر إليَّ ثم يحرك رأسه في الوقت الذي يتلو فيه قولًا مقتبسًا، فراح يقول: «إن الشيطان لا يجد طريقًا لأذى أسهل من طريق الأيدي العاطلة».

أجاب السيد ويكفيلد قائلًا: «أقسم بالله يا دكتور، إنه إذا كان الدكتور واطس قد عرف البشرية بأكملها، لكتب ما يحمل الكثير من وجه الحقيقة، فيقول: «إن الشيطان لا يجد طريقًا لأذى، أسهل من طريق الأيدي العاملة لتقوم به». إن الأشخاص المشغولين يحققون نصيبًا كاملًا من الأذى في هذا العالم. ثق في كلامي؛ أليس الهدف الذي كان يدور حوله الناس، ممن هم أكثر انشغالًا، هو الحصول على المال، أو الحصول على السلطة، في هذا القرن أو القرنين الآخرين من الزمان؟ ألم يقترفوا بذلك شرًّا؟».

قال الدكتور سترونج بينما يفرك ذقنه على مهل: «لن يكون جاك مالدون مشغولًا أبدًا إلى هذا الحد فيحصل على أي منهما، وهذا ما أتوقعه».

قال السيد ويكفيلد: «حقًّا ربما، ها أنت تعيدني إلى موضوعنا، وأعتذر لك عن الاستطراد في أمره بهذا الشكل. إنني لم أتمكن من الوصول إلى حل في أمر السيد جاك مالدون حتى الآن». تردد هنا للحظات ثم أكمل حديثه قائلًا: «إنني أتعمق أكثر في دافعك، وهذا ما يجعل الأمر أكثر صعوبة».

راح دكتور سترونج يقول: «إن دافعي هو توفير عمل مناسب لابن عم آني، وزميل لعبها وطفولتها القديم».

قال السيد ويكفيلد: «نعم، أدرك ذلك. إنك تسعى له في طلب العمل في الداخل أو في الخارج».

رد الدكتور بلهجة تبدو متسائلة عن مغزى تشديده على هذه الكلمات كثيرًا، فقال: «في الداخل أو في الخارج».

قال السيد ويكفيلد: «إنه تعبيرك الخاص، كما تعلم، فقد قلتَ: أو في الخارج».

أجاب الدكتور: «حقًّا بكل تأكيد. هنا أو أي مكان آخر».

سأل السيد ويكفيلد: «هنا أو أي مكان آخر، أليس لديك اختيار منهما؟».

أجاب الدكتور قائلًا: «لا».

رد في دهشة مرددًا: «لا!».

«لا، على الإطلاق».

قال السيد ويكفيلد: «ألديك دوافع تجعلك تقول في الخارج وليس داخل حدود الوطن؟».

أجابه الدكتور قائلًا: «لا».

قال السيد ويكفيلد: «لا مفر أمامي من تصديقك، وبالطبع أنا أصدقك. لو أدركت الأمر قبل الآن، لربما باتت مهمتي أيسر بكثير. إلا أنني أعترف أنني فهمت شيئًا آخر».

نظر إليه الدكتور سترونج نظرة تحمل ارتباكًا وريبة، لكنها سرعان ما هدأت على الفور وتحولت إلى ابتسامة أراحت خاطري إلى أبعد

مدى، لأنها كانت مفعمة بالود والجمال، وتحمل زخمًا من البساطة والتواضع شملتَ كل تصرفاته وحركاته، كما لو أنها أزاحت برودة الصقيع الذي حاوطها. كانت هذه النظرة مشجعة لشاب مثلي مقدم على التعلم، وباعثة على الأمل. ظل دكتور ستروج يُكرِّر بعض الكلمات قائلًا: «لا، كلا، على الإطلاق»، وما على شاكلتها من عبارات التأكيد القصيرة التي تحمل المعنى ذاته، بينما يسير أمامنا بخطوات متخبطة. وقد تبعنا السيد ويكفيلد، وقد بدا جادًّا، بل لاحظت أنه أخذ يهز رأسه لنفسه، من دون أن يدرك أنني رأيته.

كانت قاعة الدراسة كبيرة جدًّا متسعة الأرجاء، تقع في أحد أكثر الجوانب هدوءًا في المنزل، في مواجهة عدد من الجرار الكبيرة الفخمة، والتي تطل على حديقة قديمة مستقلة يملكها الدكتور. تبدو ثمار الخوخ في الحديقة وهي على وشك النضوج، كما تدلت الأوراق الخضراء فوق حائط جنوبي تتعامد عليه أشعة الشمس. لاحت صبارتان عظيمتان في حوض مزروع بجوار العشب المنبسط خارج النوافذ، وقد تجلت أوراق الصبار العريضة الصلبة كما لو أنها مصنوعة من القصدير الملون، بل ظلت منذ تلك اللحظة منطبعة في خيالي، فترمز لي إلى الهدوء والسكينة. ظهر عند دخولنا ما يقارب خمسة وعشرين فتى مشدوهين بجد إلى كتبهم، إلا أنهم نهضوا لإلقاء تحية الصباح على الدكتور، وظلوا واقفين بعدما أبصروني كذلك بصحبة السيد ويكفيلد.

قال الدكتور: «إنه فتى جديد، أيها السادة اليافعون. إنه تروتوود كوبرفيلد».

تقدم أحدهم من مكانه، ويدعى آدمز، وهو أول دفعته، ورحب بي. كان يبدو بربطة عنقه البيضاء مثل رجل دين شاب، إلا أنه كان ودودًا ومرحًا. أرشدني الشاب إلى مكاني، وقدمني إلى المعلمين، بطريقة مهذبة من شأنها أن تجعلني أشعر بالراحة، وإذا هو أهم أثر يمكن تركه.

شعرت أن زمانًا سحيقًا يفرق بيني وآخر مرة كنت فيه بين أولاد مثل هؤلاء، أو بين أي رفاق في عمري بشكل عام، باستثناء مك ووكر وميلي بوتيتوز، إلى الحد الذي جعلني أشعر بنوع من الغرابة لم أشعر بها طوال حياتي. أدركت أنني قد خضت تجارب لم يخوضوا مثلها في حياتهم، بل اكتسبت خبرات من مواقف غريبة تتجاوز عمري ومظهري، وتفوق كوني شابًّا في مثل سنهم، حتى إنني حسبت أن المجيء إلى هنا بصفتي تلميذًا صغيرًا عاديًّا، نوع من الاحتيال. مكثت طوال الوقت الذي عملت فيه في متجر مردستون وجرينبي - مهما طالت المدة أو قصرت - من دون أن أفهم ألاعيب الصبية وتساليهم، حتى إنني أجدني محرجًا وعديم الخبرة في أكثر الأشياء شيوعًا بينهم. كان كل ما تعلمته قد هجرني وفارقني وسط ما شغلت به من هموم حياتي القاسية من مطلع النهار إلى انقضاء الليل. أما الآن، وبعد اختباري فيما تعلمته تبين أنني لم أعد أذكر شيئًا، ولذلك ألحقوني بأدنى فصل دراسي من فصول المدرسة. كنت مرتبكًا إلى أبعد مدى، بسبب قلة خبرتي بالمهارات الصبيانية وضآلة معرفتي بعلوم الكتب أيضًا، مما جعلني أشعر بضيق بالغ بسبب التفكير في أن معارفي أبعد ما تكون عن معارف رفاقي. جال بخاطري ما قد يفكرون به، إذا ما علموا عن معارفي بأحوال سجن

الملك، وهل ثمة شيء يكشف عن تصرفاتي المتعلقة بأمور عائلة ميكوبر؟ هل سأفعل شيئًا رغمًا عني سيجعلهم يعرفون شيئًا مما فعلت من رهون وبيع وطريقة الغداء؟ لنفترض أن أحدًا من هؤلاء الأولاد قد رآني قادمًا من كانتربري، في ثيابي البالية الخشنة، فهل سيفضح أمري؟ أي شيء سيقوله أهل المال الوفير، ممن لا يعبأون بصرف بعض منه، لو عرفوا كيف كنت أتحصل على القليل من المال، فأحرص على ألا أبدده إلا لأشتري قوتي اليومي وشرابي أو قطعة صغيرة من البودينج؟ كيف سيفهمني من لم يجرب أسرار الحياة في لندن، بالأخص في شوارعها؟ ما ردهم لو اكتشفوا معرفتي (وإن كنت خجلًا من هذه المعرفة) للوجه القبيح البائس لها؟ لقد راحت كل هذه الأفكار تجول في رأسي طوال الوقت، منذ هذا اليوم الأول الذي التحقت فيه بمدرسة دكتور سترونج، حتى إنني أحسست بخجل وعدم ثقة من أدنى نظرة أو إيماءة، فإذا بي أنكمش على نفسي كلما اقترب مني أحد زملائي الجدد في المدرسة، بل رحت أسرع مبتعدًا عن المدرسة بعد انتهاء الدراسة في التوِّ واللحظة، خائفًا من إلزام نفسي بالرد على أي سؤال أو مجاملة أو ملاحظة من أي إنسان.

إلا أنني وجدت في منزل السيد ويكفيلد العتيق أثرًا طيبًا جعلني حين أطرق بابه متأبطًا كتبي المدرسية الجديدة تحت ذراعي، يغمرني الارتياح ويزول عني اضطرابي. أصعد إلى غرفتي القديمة خفيفة الريح فيتراءى لي أن هذا السلم الساكن يرمي بظلاله فوق هواجسي ومخاوفي، فخفي عني ذلك الماضي الملتبس. أجلس هناك، متأملًا

كتبي في سكون، حتى وقت الغداء - كنا نخرج من المدرسة في الساعة الثالثة دومًا - فأنزل على أمل أن أصير غلامًا نافعًا في يوم من الأيام.

كانت أجنيس تجلس في الصالون في انتظار والدها، بعد أن احتجزه شخص ما في مكتبه. قابلتني بابتسامتها الجميلة، وسألتني عما إذا كنت قد أحببت المدرسة. قلت لها إنني أرجو أن أتأقلم معها وأحبها، إلا أنني لم أزل غريبًا عنها بعض الشيء في بداية الأمر.




قلت لها: «ألم تذهبي إلى المدرسة قَطُّ؟».

أجابت: «بلى، أذهب كل يوم».

«آه، ولكن هل تقصدين أنكِ تتعلمين هنا، في منزلك؟».

أجابت بعدما ابتسمت وأومأت برأسها، قائلة: «لم يستطع أبي أن يتركني لأذهب إلى أي مكان. فكما تعلم، يجب أن تكون ربة منزله متواجدة في البيت».

قلت لها: «إنه مغرم بكِ للغاية، إنني على يقين من ذلك».

أومأت برأسها قائلة: «نعم»، ثم توجهت نحو الباب لتسمع صوت أقدامه حتى تقابله على السلم. إلا أنه لم يكن قد جاء بعد، فعادت مرة أخرى.

تحدثت بطريقتها الهادئة قائلة: «لقد ماتت أمي بعد ولادتي. إنني لا أعرف سوى صورتها الموجودة في الطابق السفلي. رأيتك تنظر إليها بالأمس. هل فكرت من هي صاحبة هذه الصورة؟».

قلت لها نعم، لقد توقعت أنها والدتها، لأن الصورة تشبهها تمامًا.

قالت أجنيس في سعادة: «إن أبي يقول هذا الكلام أيضًا. أصغِ! ها هو بابا قادم الآن!».

أشرق وجهها الوضَّاء الهادئ وتهلل بالسرور حين ذهبت لمقابلته، وقد أقبلا متشابكين يدًا بيد. استقبلني والدها بحرارة، وأخبرني أنه سعيد بلا شك لأنني تحت إشراف الدكتور سترونج الذي كان أحد أرق الرجال طبعًا.

قال السيد ويكفيلد: «ربما ترى بعض الناس يسيئون إليه أو يستغلونه، وإن كنت لا أعرف أحدًا يقوم بهذا الأمر. لا تكن أبدًا واحدًا من هؤلاء المسيئين يا تروتوود، على أي مستوى. إنه أقل الناس ريبة في أي شيء، وسواء كانت هذه ميزة أو كانت عيبًا، فإن الدكتور يستحق الاحترام في جميع التعاملات؛ كبيرة كانت أم صغيرة».

كان يتكلم كما لو أنه متعب أو غير راضٍ عن شيء ما. إلا أنني لم أتابع هذا الفكرة ولم أشغل بها ذهني، فقد أعلن عن الغداء في هذا الوقت، فنزلنا وشغلنا المقاعد نفسها، كما جلسنا من قبل.

ما إن جلسنا حول المائدة، حتى ظهر يورايا هيب برأسه الأحمر ويده النحيلة المبللة، مستندًا إلى الباب، وراح يقول:

«إن السيد مالدون هنا، ويستأذن في التحدث إليك يا سيدي».

قال سيده: «لقد أنهيت حديثي مع السيد مالدون توًّا».

أجاب يورايا قائلًا: «نعم يا سيدي، لكن السيد مالدون عاد ثانية، ويستأذن في التحدث إليك».

كان يورايا ممسكًا بالباب ليبقيه مفتوحًا، وقد راح ينظر إليَّ، وينظر إلى أجنيس، وينظر إلى الأطباق، وينظر إلى الصحون، وينظر إلى كل شيء في الغرفة، وإن كنت أظن أنه لم يكن قد نظر إلى شيء؛ بدا طوال الوقت أنه يركز عينيه الحمراوين على سيده بإخلاص. لاحظ تدخل صوت من وراء يورايا، بعد أن أزيح رأسه بعيدًا، وحل المتحدث محله، وأخذ يقول: «أستميحك عذرًا. أريد فقط أن أقول، إنني بعد تفكير... فلتعذرني على هذا التطفل. يبدو أنني لا أملك حرية الاختيار في هذا الأمر، ومن الأفضل أن أسرع بالسفر إلى الخارج. لقد قالت ابنة عمي آني، عندما تحدثنا عنها، إنها تحب أن يكون أصدقاؤها على مقربة منها بدلًا من إبعادهم، أما الدكتور العجوز...».

قاطعه السيد ويكفيلد في حزم وقال: «تقصد دكتور سترونج، أليس كذلك؟».

استطرد الآخر قائلًا: «إنه دكتور سترونج بالطبع، وإنني أسميه الدكتور العجوز. إنك تعلم أن كليهما سيان».

رد السيد ويكفيلد قائلًا: «لا أعرف أنهما سيان».

قال الرجل الآخر: «حسنًا، إنه دكتور سترونج. إن دكتور سترونج يفكر بالمنطق نفسه، في أغلب الظن. ولكن يبدو من الطريقة التي سلك بها معي أنه قد غيَّر رأيه، فلم يعد ثمة شيء يُقال، غير أنه كلما أسرعت إلى السفر، صارت الأمور أفضل. أحسب أنني قد عدت إليك لأقول ذلك، فكلما أسرعت في العمل على سفري، كان ذلك أفضل. لو حان وقت الغطس في الماء، فلا فائدة من البقاء على الضفة».

قال السيد ويكفيلد: «لن نتباطأ ولو بقدر يسير في أمرك يا سيد مالدون. ثق في ذلك».

قال الآخر: «شكرًا. إنني ممتن لك غاية الامتنان. لا أريد أن أبدو ناكرًا للجميل، لأن الجحود ليس بالشيء الذي يُحمد عليه الإنسان، وعوضًا عن هذا، فإنني أثق أن ابنة عمي آني تستطيع أن ترتب الأمر بسهولة بطريقتها الخاصة. أحسب أن آني ستقول للدكتور العجوز فقط...».

قاطعه السيد ويكفيلد قائلًا: «تقصد أن السيدة سترونج ليس عليها سوى أن تقول لزوجها إن... هل هذا ما تقصده؟».

أجاب الآخر قائلًا: «تمامًا، ليس عليها سوى أن تقول، إنها تريد أن يحدث كذا وكذا، وسيفعل ما أرادت من كذا وكذا، بالطبع».

سأل السيد ويكفيلد بينما يتناول غداءه في هدوء: «ولماذا بالطبع يا سيد مالدون؟».

أجاب السيد جاك مالدون ضاحكًا: «لماذا؟ لأن آني فتاة ساحرة، والدكتور العجوز - أعني دكتور سترونج - ليس بالفتى الساحر إلى حد ما. إنني لا أقصد إهانة أحد يا سيد ويكفيلد. لا أقصد سوى أنني أفترض أن بعض التعويضات ستكون عادلة ومعقولة مقابل مثل هذا النوع من الزواج».

سأل السيد ويكفيلد بجدية: «أتقصد أن التعويض يُقدم إلى الزوجة، يا سيدي؟».

أجاب السيد جاك مالدون ضاحكًا: «نعم، يُقدم إلى الزوجة

يا سيدي». يبدو أن الرجل لاحظ أن السيد ويكفيلد ظل يتناول الغداء بالطريقة الهادئة والثابتة ذاتها، وأنه لا أمل في أن يحرك فيه ساكنًا أو أن يرخي إحدى عضلات وجهه، ومن ثَم أضاف قائلًا: «على أي حال، لقد قلت ما جئت لأقوله، وإنني أقدم اعتذاري مرة أخرى على هذا التطفل، وسأنسحب. سألتزم بالطبع بتوجيهاتك، وسأراعي أن يبقى ترتيب الأمر بيننا فقط، من دون الإشارة إليه أمام الدكتور».

سأله السيد ويكفيلد، مع حركة من يده مشيرًا نحو الطاولة: «هل تناولت الغداء؟».

قال السيد مالدون: «شكرًا لك. إنني ذاهب لتناول الغداء مع ابنة عمي آني. مع السلامة!».

مكث السيد ويكفيلد في مكانه، إلا أنه تابعه بعناية في أثناء خروجه. كان الرجل بلا شك يلوح أمامي شابًّا ضحلًا تافهًا في أغلب الظن، وإن كانت ملامحه وسيمة، وقد أخذ يتحدث بكلمات سريعة، وبنوع من الثقة في النفس، بل وجرأة. كانت هذه أول مرة أرى فيها السيد جاك مالدون، ولم أكن أتوقع رؤيته بهذه السرعة، بعدما سمعت الدكتور يتحدث عنه في هذا الصباح.

تناولنا الغداء، ثم صعدنا مرة أخرى إلى الطابق العلوي، وقد سارت الأمور على ما يرام، تمامًا كما هي الحال في يومنا السابق. أعدت أجنيس الأكواب والأوعية في الزاوية ذاتها، ومن ثَم جلس السيد ويكفيلد للشراب، وقد شرب كمية لا بأس بها. عزفت أجنيس على البيانو وجلست بجانبه، وكذلك اشتغلت بالإبرة، وتحدثت

إلينا، ولعبت قليلًا معي لعبة الدومينو، ثم جهزت الشاي في موعده المحدد. أحضرت كتبي بعد ذلك، فنظرت فيها وقلبتها، وقالت لي ما تعرفه عنها (لم يكن علمها طفيفًا، على الرغم من أنها قالت إنها لا تعرف سوى اليسير)، بل أوضحت لي أفضل طريقة لتعلمها وفهمها. أتذكرها وأستحضر صورتها بأسلوبها المتواضع والمنظم والهادئ، فأسمع صوتها الجميل الهادر بينما أكتب هذه الكلمات. أتذكرها فأشعر أن أثرها الخير النبيل -وما أسدته إليَّ من معروف فيما بعد- لم يزل يتسلل إلى صدري. إنني أحب إيميلي الصغيرة، ولا أحب أجنيس -أقصد لا أحبها بالطريقة نفسها على الإطلاق- إلا أنني أشعر أن الخير والسلام والصدق، يحل أينما توجد أجنيس، وأن الضوء الناعم النافذ من النافذة الملونة في الكنيسة والذي شاهدته منذ زمن بعيد، لا يزال يسقط عليها دائمًا، ويغمرني كلما اقتربت من مجلسها، بل يغمر كل شيء من حولها.

حان وقت انصرافها عنا ليلًا فغادرتنا. ناولت السيد ويكفيلد يدي، استعدادًا للمغادرة كذلك، إلا أنه أمسكني قائلًا: «هل ترغب في البقاء معنا يا تروتوود، أم تريد الذهاب إلى مكان آخر؟».

أجبت بسرعة قائلًا: «أريد أن أبقى».

سألني: «هل أنت متأكد؟».

«أبقني إذا سمحت. إذا جاز لي البقاء!».

قال: «لماذا تريد البقاء؟ إنني أخشى أن أقول إننا نعيش حياة مملة هنا، يا فتى».

«ليست مملة لي أكثر من كونها مملة لأجنيس يا سيدي. ليست مملة على الإطلاق!».

كرر كلماتي بينما راح يمشي ببطء نحو المدخنة الكبيرة ثم اتكأ عليها قائلًا: «مملة لأجنيس! مملة لأجنيس!».

كان قد أكثر من شرب النبيذ في ذاك المساء (أو هكذا تخيلت)، حتى صارت عيناه متوقدتين بالدماء من أثره. لم أستطع في الحقيقة أن ألاحظهما في هذه اللحظة تحديدًا، فقد أشاح بوجهه وظلل عينيه بيده، إلا أنني كنت قد لاحظتهما قبل أن يفعل ذلك بفترة قصيرة.

تمتم قائلًا: «أتساءل الآن هل أرهقت أجنيس وملت مني؟ متى سأتعب وأملُّ منها! لكن الأمر مختلف، هذا شيء مختلف تمامًا».

ظل يفكر من دون أن يتحدث معي، لذلك بقيت ساكنًا.

قال: «إنه بيت قديم ممل، وحياة رتيبة، لكن يجب أن تبقى بالقرب مني. يجب أن أبقيها بالقرب مني. إن تفكيري في أنني قد أموت وأترك ابنتي الحبيبة، أو أن ابنتي الحبيبة قد تموت وتتركني، يحل أمامي مثل شبح، ينقض عليَّ فيحول أسعد ساعاتي إلى أتعسها، فلا أجد ما يغرق تعاستي سوى الـ...».

لم يكمل الكلمة، إلا أنه تمشى ببطء نحو المكان الذي كان يجلس فيه، وعاود صب النبيذ من الدورق الفارغ بطريقة آلية، ثم أعاده كما كان ثم رجع إلى المشي مرة أخرى.

قال: «إذا كانت الحياة بائسة وهي هنا معي، فكيف ستصير حين تبتعد عني؟ لا، كلا، لا. لا أستطيع أن أختبر هذا الشعور».

اتكأ على حافة المدخنة، وظل على هذه الهيئة لفترة طويلة، حتى إنني لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت سأخاطر بإزعاجه لو أنني انصرفت، أم من الأفضل أن أبقى ساكنًا في مكاني، إلى أن يفيق من خيالاته. عاد أخيرًا إلى رشده ثم جال بنظره في الغرفة حتى واجهت عيناه عيني.

قال بطريقته المعتادة، وكأنه يجيب عن شيء قد قلتُه للتوِّ: «ابقَ معنا يا تروتوود، ما رأيك؟ إنني سعيد بمقامك معنا. إنك أنيس لكلينا على حد سواء. مقامك هنا خير لنا. إنه خير لي، وخير لأجنيس، وربما هو خير لنا جميعًا».

قلت: «إنني متأكد من أنه خير لي يا سيدي. أنا سعيد بوجودي هنا».

قال السيد ويكفيلد: «يا لك من فتى طيب! ما دمت مسرورًا بوجودك هنا، فستبقى هنا». صافحني بعد هذا الحديث، ثم ربت على ظهري، وأخبرني أنه إذا احتجت أن أقوم بأي شيء في الليل بعد مغادرة أجنيس لنا، أو لو أنني رغبتُ في القراءة من أجل التسلية، فإن لي مطلق الحرية في النزول إلى غرفته إذا كان هو فيها، وكذلك إذا رغبتُ في مؤانسته أو الجلوس معه. شكرته على تفكيره في أمري. لم أكن متعبًا، فما إن نزل بوقت قصير، حتى نزلت بعده أيضًا، مصطحبًا كتابًا في يدي، لأستفيد من هذا الإذن لمدة نصف ساعة.

إلا أنني رأيت ضوءًا منبعثًا من المكتب الصغير المستدير، فشعرت على الفور بأنني منجذب نحو يورايا هيب، وقد كنت أشعر بنوع من السحر يجذبني إليه. توجهت إلى هناك بدلًا من المضي في سبيلي. وجدت يورايا يقرأ كتابًا ضخمًا باهتمام بالغ لا يخفى، حتى راحت

سبابته النحيلة تتبع كل سطر في أثناء قراءته، وقد طبعت آثارًا رطبة على الصفحة كلها (أو هكذا ظننت) كما لو أن أصابعه مثل الحلزون.

تحدثت قائلًا: «إنك تعمل حتى وقت متأخر هذه الليلة يا يورايا».

قال يورايا: «نعم، يا سيد كوبرفيلد».

كنت أستعد للصعود على المقعد المقابل له، حتى أتمكن من الحديث معه بصورة مريحة، إلا أنني لاحظت أنه لم يرسم على وجهه أدنى أثر لابتسامة، وأنه لا يستطيع سوى أن يبسط فمه فيرسم تجعيدتين قاسيتين على جانبي خديه، لتحلا محل الابتسامة.

قال يورايا: «إنني لا أقوم بعمل مكتبي يا سيد كوبرفيلد».

سألته «ماذا تفعل إذن؟».

قال يورايا: «إنني أُنمي معرفتي القانونية يا سيد كوبرفيلد. أطلع على كتاب «تيد»[1]. آهٍ، يا له من كاتب رائع يا سيد كوبرفيلد!».

كان الكرسي الذي جلست فوقه بمثابة برج للمراقبة، حيث استطعت مشاهدة أن يورايا قد بدأ في القراءة مرة أخرى، بعد أن أبدى إعجابه الواضح. راح يتابع السطور بإصبعه، وقد لاحظت أن أنفه الرفيع المدبب راح يتمدد وينكمش بصورة حادة، متخذًا هيئة فريدة وغير معتادة بين توسيعه وتقليصه، إلى الحد الذي جعل فتحتاه تلمعان عوضًا عن تلألؤ عينيه اللتين لم تتلألآ على الإطلاق إلا فيما ندر.

---

(١) وليام تيد (١٧٦٠ - ١٨٤٧م) محامٍ اشتهر بكتاب عن الإجراءات القضائية. صدر للكتاب العديد من الطبعات، ودُرس على نطاق واسع في أوروبا وأمريكا.

قلت بعد أن أطلت إليه النظر لبعض الوقت: «أظن أنك محامٍ عظيم».

قال يورايا: «أتقصدني أنا يا سيد كوبرفيلد؟ آهٍ، لا! إنني إنسان حقير للغاية».

لاحظت أنني لم أكن مخطئًا بشأن يديه، إذ أبصرته يفرك راحتيه معًا، ويكثر من هذه الحركة كما لو أنه يريد أن يجففهما ويزيل ما بهما من عرق، كما أنه أخذ يمسحهما خلسة في كثير من الأحيان بمنديله.

تحدث يورايا هيب بتواضع قائلًا: «إنني أدرك جيدًا أنني أحقر إنسان يحيا على هذه الأرض. ليحفظ كل إنسان مقامه. وكذلك فإن والدتي امرأة متواضعة الشأن. إننا نعيش في منزل حقير يا سيد كوبرفيلد، لكننا نملك الكثير لنحمد الله عليه. كانت وظيفة والدي السابقة حقيرة أيضًا. لقد كان قندلفت[1]».

سألته: «أين هو الآن؟».

أجاب يورايا هيب: «إنه يلبث في جوار ربه في الوقت الحاضر يا سيد كوبرفيلد. نملك الكثير من النعم التي نحمد الله عليها. كم يسعدني أن أكون شاكرًا ممتنًّا للعيش مع السيد ويكفيلد!».

سألت يورايا عما إذا كان يعمل مع السيد ويكفيلد منذ مدة طويلة؟

قال يورايا: «لقد عملت معه منذ أربع سنوات يا سيد كوبرفيلد».

---

(١) رتبة كنسية، تخول لصاحبها القيام ببعض الأعمال الكنسية البسيطة، مثل إنارتها ودق أجراسها، وكذلك يصير مسؤولًا عن المقابر التابعة لها.

ثم أغلق كتابه، بعد أن وضع علامات دقيقة عند الموضع الذي انتهى من قراءته، وأكمل قائلًا: «عملت معه بعد وفاة والدي بعام. كم أنا شاكر لجميل صنعه منذ ذاك اليوم! كم أكن للسيد ويكفيلد من امتنان لنيته الطيبة وإعطائي الفرصة للتمرن في مكتبه، والذي لولاه لما كانت استطعت إلى ذلك سبيلًا لقلة حيلتي، وضآلة مقدرة أمي، وقلة موارد دخلنا، فلم أكن لأتحمل هذه الأعباء!».

«ماذا بعد ذلك، أقصد عندما ينتهي وقت تدريبك، هل ستصير محاميًا عاديًّا، على ما أظن؟».

أجابني يورايا قائلًا: «بمشيئة الله يا سيد كوبرفيلد».

قلت محاولًا إرضاءه: «ربما تصير شريكًا في أعمال السيد ويكفيلد، في يوم من الأيام. وسيكون المكتب لويكفيلد وهيب، أو يصير مكتب هيب بدلًا من ويكفيلد».

راح يورايا يهز رأسه قائلًا: «آهٍ... لا يا سيد كوبرفيلد. إنني لا أستطيع فعل ذلك أبدًا!».

لاح لي غريبًا - بلا شك - وقد تشابه وجهه بوجه منحوت فوق عارضة تبرز خارج نافذتي، حيث هو جالس في تواضعه المألوف، ينظر نحوي بطرف عينيه، فاغرًا فمه، وقد انكمشت تجاعيد خديه.

قال يورايا: «إن السيد ويكفيلد رجل ممتاز يا سيد كوبرفيلد. إذا كنت تعرفه منذ فترة طويلة، فستدرك ذلك بنفسك، بل إنني متأكد من أنك كنت ستعرفه بصورة تفوق ما أستطيع إبلاغك به».

أجبته بأنني متأكد من ذلك. إلا أنني لم أكن أعرفه منذ فترة طويلة، على الرغم من أنه كان صديقًا لعمتي.

قال يورايا: «آهٍ، في الواقع يا سيد كوبرفيلد، إن عمتك سيدة رائعة يا سيد كوبرفيلد[1]!».

كانت لديه طريقة مميزة في الالتفات كلما أراد أن يعبر عن شيء في حماس، إلا أن طريقته كانت قبيحة للغاية، مما جعلني لا أنتبه إلى الإطراء الذي قدمه لقريبتي، بل رحت ألتفت إلى التقلبات السريعة التي يتصنعها بعنقه وجسده.

قال يورايا هيب: «إنها سيدة رائعة يا سيد كوبرفيلد! أحسب أنها تكن إعجابًا فائقًا بالآنسة أجنيس يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

تجرأت بأن أجبته قائلًا: «نعم». ولم أكن على علم بأي شيء عنها، فليسامحني الله على قولي!

قال يورايا: «أتمنى أن تكون معجبًا بها كذلك يا سيد كوبرفيلد. إنني متأكد من أنك يجب أن تكون معجبًا بها أيضًا».

أجبته قائلًا: «يجب أن يعجب بها جميع البشر».

قال يورايا هيب: «آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد على هذه الملاحظة. قولك صحيح جدًّا، وإنني أدرك صحة هذا القول. آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد». أخذ يتلوى بجسده كاملًا فوق كرسيه تعبيرًا عن حماسته، ثم تهيأ للقيام بعد ذلك، وهمَّ بالعودة إلى منزله.

---

(١) تكرار «سيد كوبرفيلد» وارد في النص الأصلي.

أشار إلى ساعة مغبرة الوجه غير واضحة المعالم كان قد أخرجها من جيبه، وأخذ يقول: «إن أمي تنتظرني. وإنها تصاب بالقلق لتأخري، وعلى الرغم من أننا حقراء للغاية يا سيد كوبرفيلد، فإن كلًّا منا مرتبط بالآخر. إذا جئت لزيارتنا ذات نهار، وشربت كوبًا من الشاي في مسكننا المتواضع، فستكون والدتي فخورة بصحبتك كما هي حالي معك».

قلت إنني سأكون سعيدًا بزيارتهم.

أعاد يورايا كتابه إلى موضعه على الرف، وراح يقول: «شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. أظن أنك ستمكث هنا لبعض الوقت يا سيد كوبرفيلد؟».

قلت إنني أتصور أنني سأبقى هنا، ما دمت بقيت في المدرسة.

صاح يورايا: «آهٍ، حقًّا! أحسب أنك ستلتحق بالعمل نفسه في النهاية يا سيد كوبرفيلد».

لقد اعترضت على كلامه قائلًا إنني لم أقرر أي شيء من هذا النوع، وإن هذا الاقتراح لم يقترحه أي شخص أمامي من قبل، لكن يورايا أصر على الرد بلطف على جميع تأكيداتي، قائلًا: «آهٍ، نعم، يا سيد كوبرفيلد، إنني أتصور أنك ستمتهن الوظيفة ذاتها، حقًّا!». ثم أخذ يكرر حديثه مرارًا، قائلًا: «آهٍ، في الواقع، يا سيد كوبرفيلد، إنني أتصور أنك ستفعل ذلك بالتأكيد». بات في النهاية مستعدًّا لمغادرة المكتب في آخر الليل، ومن ثَم طلب مني الإذن لإطفاء الضوء، وما إن أجبته بـ«نعم»، حتى أخمد الضوء على الفور. صافحني، فإذا بيده تبدو لي كما لو أنها سمكة في الظلام. فتح الباب المؤدي إلى الشارع فتحة صغيرة، ثم تسلل خارجًا وأغلقه، تاركًا لي أن أتلمس طريقي للعودة إلى هدفي،

مما أرهقني وعرقلني إذ سقطت إثر ارتطامي بمقعده. أظن أن سقوطي كان سببًا مباشرًا جعلني أحلم به، حتى بدت لي أحلامي وقد طالت فجاوزت نصف الليل، أو ما يزيد. حلمت أنه أطلق منزل السيد بيجوتي في رحلة استكشافية، بعد أن رفع علمًا أسود على رأس الصاري، يحمل نقشًا يقول «إجراءات تيد القضائية»، وقد حملني أنا وإيميلي الصغيرة تحت هذه الراية الشيطانية إلى ساحل الإسبان[١]، حتى غرقنا.

تحسنت قليلًا ونفضت عني اضطرابي، بعدما ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي، ثم تحسنت حالتي في اليوم الذي تلاه، حتى تخلصت من انزعاجي تدريجيًا، وبعد أقل من أسبوعين كان مقامي استقر في المنزل تمامًا، وصرت سعيدًا بين رفاقي الجدد. إلا أني كنت محرجًا طوال وقت لهوهم، ومتخلفًا إلى حد كبير في دراستي، لكنني تطلعت إلى أن أتحسن في الأمر الأول بعد أن أعتاد طريقتهم في المزاح، وأتحسن في الأمر الثاني بالعمل الجاد. بناءً على ما قررته رحت أجتهد في مسعاي؛ في اللعب والجد على حد سواء، وقد حصلت على إشادة طيبة لجهدي. صارت بعد فترة قصيرة جدًّا، حياة متجر مردستون وجرينبي غريبة جدًّا بالنسبة لي، حتى إنني لا أكاد أصدق أنني خضتها، بينما استطابت حياتي الحالية وألفتها خير ألفة، حتى ليبدو أنني خضت غمارها لفترة طويلة.

كانت مدرسة دكتور سترونج مدرسة ممتازة، تختلف عن مدرسة السيد كريكل كما يختلف الخير عن الشر. كانت فائقة التنظيم ولها

---

(١) يقصد الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية، وهي منطقة كانت ذات يوم تحت السيطرة الإسبانية، وامتدت تقريبًا بين برزخ بنما ودلتا نهر أورينكو.

مظهر مهيب، وعلى طراز متسق قائم على أساس سليم في كل شيء. تعتمد على كرامة الأولاد وسيرتهم المنضبطة ، وحرصهم الواضح على الاعتماد على التحلي بهذه الصفات، وما عدا ذلك، فلن يثبتوا جدارتهم بهذا المكان، وكان لهذا المسلك أثر في صنع العجائب. لقد شعرنا جميعًا أن لكل منا دورًا في إدارة المكان، وفي الحفاظ على طابعه وكرامته، ومن ثَم تعلقنا به أشد تعلق - إنني على يقين تام من أنني شعرت بهذا الانتماء، ولم أكن أعرف قَطُّ طوال حياتي أي فتى آخر لم يشعر بهذا الانتماء ذاته. رحنا نتعلم بكرامة، رغبة في تحصيل أعلى درجات الفضل. كنا نمارس بعض الألعاب الراقية خلال ساعات الراحة، في رحابة من الحرية، إلا أنني أذكر حتى ذلك الحين، أن الناس طالما تحدثوا في المدينة عنا بكل خير، وقلما وقع منا أي أفعال مخزية سواء في مظهرنا أو سلوكياتنا؛ خوفًا من أن نسيء إلى سمعة طلاب مدرسة دكتور سترونج أو إلى دكتور سترونج نفسه.

استقر بعض طلاب الأقسام العليا في منزل الدكتور، وقد تعلمت منهم بطريقة أو بأخرى بعضًا من التفاصيل عن تاريخ حياة الدكتور. عرفت كيف أنه لم يمر أكثر من اثني عشر شهرًا على زواجه من تلك الشابة الجميلة التي رأيت صورتها في المكتبة. عرفت كيف أنه تزوجها عن حب، لأنها لم تملك أقل القليل من المال، كما أنها لم تكن ذات حسب بل من عائلة شديدة الفقر، بل على استعداد لإخراج الدكتور من منزله وتجريده من كل ما يملك (على حد تعبير الزملاء). فهمت أيضًا، كيف يعزى تأمل الدكتور وشروده إلى بحثه الدائم عن الجذور

اليونانية، وقد حسبت بسذاجتي وجهلي أنها قد تكون جذورًا نباتية، خاصة أن الدكتور كان دائمًا ينظر مطرقًا نحو الأرض في أثناء سيره، إلى أن فهمت أن الجذور تعني أصول الكلمات، وأنه يبحث عنها بهدف إنشاء قاموس جديد، وهذا ما يجذبه إلى التأمل. كان آدمز الفتى الأول، وكان بارعًا في الرياضيات، وقد عرفت أنه أجرى عملية حسابية ليبلغنا عن الوقت الذي سيستغرقه اكتمال هذا القاموس، وفقًا لخطة الدكتور، وطبقًا لمعدل عمله به. وقد توصل إلى أنه يمكن أن يكتمل في ألف وستمائة وتسعة وأربعين عامًا، بدءًا من عيد ميلاد الدكتور الأخير أو الثاني والستين.

أما الدكتور نفسه فقد كان أيقونة للمدرسة بأكملها، ولولا أنه كان محبوبًا من الجميع، لصارت المدرسة سيئة التكوين. كان الدكتور من ألطف الرجال وأرقهم، بإيمان بسيط ربما لامس الجرات الحجرية المنتصبة عند الحائط فأذاب قلوبها. اعتاد أن يمشي ذهابًا وإيابًا في ذاك الجزء من الفناء الذي يجاور المنزل، حيث تنتشر الغربان الضالة مطلة برؤوسها المنحنية ناظرة إليه في مكر، كما لو أنها تعرف مدى تفوق خبراتها في شؤون العيش الدنيوية أكثر من معرفته بها. لو تصادف لأي كائن من المشردين أن يقترب فقط من حذائه الذي يئن تحت وطأته، لجذبت انتباهه جملة واحدة من قصته المأساوية، فلا يلبث هذا المتشرد ألا يقوى على الحياة في اليومين التاليين؛ تأثرًا بهذه المأساة. لقد ترددت الأقاويل بين الأرجاء حول ما بذله المعلمون والأولاد من جهد لملاحقة هؤلاء المتسللين من الزوايا، وتتبعهم من النوافذ، وكذلك إبعادهم عن

الفناء، قبل أن يتمكنوا من لفت أنظار الدكتور إلى وجودهم. لحسن الحظ كانت هذه الأمور تحدث أحيانًا على بُعد بضع خطوات منه، من دون أن يعرف عن الأمر شيئًا، بينما يستمر في سيره ذهابًا وإيابًا. أما حين يخطو خارج نطاق منزله الخاص فإنه يصير غير محمي، فيغدو كما الشاة الوحيدة المنساقة إلى جزازين الصوف. كان سيضطر إلى التخلي عن جواربه فينزعها من ساقيه ليبعدهم عنه. أما القصة التالية، فقد ظلت في الواقع من الحكايات الأثيرة فيما بيننا (ليست لديَّ أي فكرة على الإطلاق عن حقيقتها، ولا أي مصدر يثبت صحتها، إلا أنني مكثت مقتنعًا بها لسنوات عديدة، حتى إنني كنت على يقين تام من صحتها). تقول القصة: إنه في يوم بارد من أيام فصل الشتاء، أعطى جوارب ساقيه لامرأة متسولة، وقد جلب ذلك الفعل نوعًا من الفضيحة في الحي، بعد أن ألبسته المرأة لرضيع وظلت تجول به من باب إلى باب ملفوفًا في هذه الملابس نفسها، والتي كانت معروفة على نطاق واسع، لأنها مشهورة جيدًا في المنطقة المجاورة مثل شهرة الكاتدرائية تمامًا. أضافت الحكاية أن الشخص الوحيد الذي لم يتعرف على هذه الملابس هو الدكتور نفسه، فقد عرضت الجوارب الطويلة بعد ذلك بوقت قصير على أحد أبواب المتاجر الصغيرة سيئة السمعة في بيع الأشياء المستعملة، حيث يشتهر بشراء مثل هذه الأشياء المستعملة مقابل خمر «الجن». شوهد الدكتور أكثر من مرة يراقب ملابسه المعروضة باستحسان، كما لو كان معجبًا ببعض التفاصيل الغريبة في صنعه، أو أنه يبدي استحسانًا له بطريقته الخاصة.

كان من دواعي سروري رؤية الدكتور مع زوجته الشابة الجميلة. إذ أظهر تمتعه بطريقة أبوية حميدة في إظهار ولعه بها. كانت طريقته في حد ذاتها تُعبر عن كونه رجلًا طيبًا، ولقد رأيتهم يسيرون في أغلب الأوقات في الحديقة، حيث تنتصب أشجار الخوخ، ورحت أراقبهم أحيانًا من مكان قريب في المكتب أو في الصالون. أحسست أنها تهتم بالدكتور إلى حد كبير، وتحبه كثيرًا، على الرغم من أنني لم أتصور قَطُّ أنها مهتمة بشكل حيوي بمسألة القاموس، فإنه كان يحمل دائمًا بعض الأجزاء من مادته المتراكمة في جيوبه، وفي بطانة ملابسه، بل وتحت قبعته، وقد بدا بشكل عام أنه يشرح لها في أثناء تجوالهم ما يدور بخلده عن هذا القاموس.

كنت أرى السيدة سترونج كثيرًا، وذلك لأنها أحبتني منذ ذلك الصباح الذي تعرفت فيه على الدكتور، وقد ظلت بعدها لطيفة معي ومهتمة بأمري، ولأنها كانت مغرمة جدًّا بأجنيس، وكانت تأتي لزيارتها أو السؤال عنها في منزلنا في أغلب الأوقات. كنت أحسب أنها تختلف كثيرًا عن السيد ويكفيلد، وأظن أن هذه الفكرة لم تقل، ولم تتلاشَ قَطُّ. أتصور أن دافعها هو الخوف. كانت تأتي للزيارة في إحدى الأمسيات، فتتجنب دائمًا قبول مرافقته وهي عائدة إلى منزلها، وبدلًا من ذلك تطلب أن أصطحبها أنا. كنا نركض بمرح عبر ساحة الكاتدرائية معًا، ونتوقع ألا نلتقي بأحد، إلا أننا كنا نلتقي في بعض الأحيان بالسيد جاك مالدون، وإذا به يتفاجأ دائمًا من رؤيتنا.

كانت والدة السيدة سترونج من السيدات اللاتي أسعدتني رؤيتهن كثيرًا. كان اسمها السيدة ماركلهام، لكن أولاد المدرسة اعتادوا على

تسميتها بالجندي العجوز، بسبب طابعها القيادي بشكل عام، ومهارتها التي حشدت بها عددًا عظيمًا من الأقرباء ضد الدكتور. كانت امرأة قصيرة، حادة العينين، اعتادت أن ترتدي مع ملابسها، قبعة واحدة بعينها غير قابلة للتغيير، مزينة ببعض الزهور الاصطناعية، وفراشتين صناعيتين من المفترض أنهما تحومان فوق الزهور. كانت هناك خرافة بيننا مفادها أن هذه القبعة جاءت من فرنسا، وأنها لا يمكن أن تُصنع إلا من أبناء هذه الأمة العبقرية. أما كل ما أعرفه بالتأكيد عن الأمر، هو أنها كانت دائمًا تظهر في كل مساء، أينما تحل السيدة ماركلهام، وأنها كانت تتجول في بعض جلسات الأصدقاء الودية في سلة هندية، وأن الفراشتين فوقها كانتا ترتجفان باستمرار، وأنهما ظلتا تتألقان لساعات على حساب دكتور سترونج، مثل النحل المشغول.

لاحظت الجندي العجوز - لا أقصد أن أتبنى الاسم بطريقة غير محترمة - للتأكد من حركاتها جيدًا، في ليلة لم أزل أذكر بها شيئًا ما سأكتب عنه لاحقًا. كانت ليلة حفلة صغيرة في منزل الدكتور، وقد أقيمت بمناسبة سفر السيد جاك مالدون إلى الهند، حيث كان من المقرر له أن يسافر بصفته طالبًا أو شيئًا من هذا القبيل. رتَّب السيد ويكفيلد أموره على أكمل وجه. صادف هذا اليوم عيد ميلاد الدكتور أيضًا. منحنا الإجازة في هذا اليوم، وقدمنا له الهدايا في الصباح، وألقينا خطابًا له، وقد تلاه فتى الفصل الأول، وهتفنا له إلى أن بُحَّت أصواتنا، وانهمرت دموعه. ذهبت أنا والسيد ويكفيلد وأجنيس في المساء لتناول الشاي معه على وجه خاص.

كان السيد جاك مالدون قد سبقنا إلى هناك. ظهرت السيدة سترونج بينما ترتدي ثوبًا أبيض مع شرائط بلون الكرز، وراحت تعزف على البيانو بعدما دخلنا. ظل يميل نحوها ليقلب لها صفحات النوتة الموسيقية. لم تكن حمرة وجهها ولا بياض بشرتها الصافي مزهرَين، أو شبيهَين بالزهور كالعادة، هذا ما أحسسته عندما استدارت، إلا أنها بدت جميلة جدًّا، فاتنة بصورة رائعة.

تحدثت والدة السيدة سترونج بعدما جلسنا، وراحت تقول: «لقد نسيت يا دكتور أن أقدم لك تهنئة اليوم - على الرغم من أنني أفترض، أنها بعيدة كل البعد عن كونها مجاملات في حالتي. اسمح لي أن أتمنى لك كل خير».

أجاب الدكتور: «أشكرك يا سيدتي».

قالت الجندي العجوز: «أتمنى لك العديد، والكثير، والكثير، من السنوات السعيدة. ليس ذلك من أجلك فقط، ولكن من أجل آني وجاك مالدون والعديد من الأشخاص غيرهم. يبدو لي أنه بالأمس فقط يا جون، كنت لم تزل مخلوقًا صغيرًا، أطول قليلًا من السيد كوبرفيلد، بينما كنت طفلًا مغرمًا بآني، فتعاكسها خلف أشجار التوت في الحديقة الخلفية».

قالت السيدة سترونج: «أمي العزيزة، لا داعي لهذا الكلام الآن».

راحت والدتها تقول: «يا آني، لا تكوني سخيفة. إذا كنتِ تحمرين خجلًا لسماع مثل هذه الأشياء الآن وأنتِ امرأة عجوز متزوجة، فمتى إذن لا تخجلين لسماعها؟».

صاح السيد جاك مالدون قائلًا: «عجوز؟ تقولين هذا عن آني؟ أي كلام هذا!».

أجابته الجندي العجوز قائلة: «نعم يا جون. إنها عمليًّا امرأة عجوز متزوجة. إنها عجوز على الرغم من عدم تقدمها في العمر - متى سمعتني أقول، أو مَن سمعني أقول، إن فتاة في العشرين قد أصفها بالعجوز! - أما ابنة عمك زوجة للدكتور، وعلى هذا النحو يحق لي أن أصفها بالعجوز. من الخير لك يا جون أن تكون ابنة عمك زوجة للدكتور. لقد وجدت فيه صديقًا كريمًا وطيبًا، وإني لأتجرأ على القول بأنه سيصير من الأكرم والألطف أن تثبت أنك جدير بذلك الشرف. لست ممن يتمتعون بكبرياء زائفة، ولا أتردد أبدًا في الاعتراف صراحة، أن بعض أفراد عائلتنا كانوا في حاجة إلى مثل هذا الصديق. لقد كنت أنت نفسك يا جون واحدًا من هؤلاء، قبل أن تسدي إليك وساطة ابنة عمك معروفًا».

لوح الدكتور بيده في طيبة من القلب كأنما يسلط الضوء عليها، وينقذ السيد جاك مالدون من أي كلام جديد. إلا أن السيدة ماركلهام غيرت مقعدها، فجلست إلى مقعد بجانب الدكتور، ثم وضعت مروحة يدها فوق معطفه، وراحت تقول:

«لا، حقًّا، يا عزيزي الدكتور، يجب أن تعذرني إذا كنت أتحدث عن هذا الأمر من دون سواه، ذلك لأنني أشعر بتأثيره بقوة شديدة. إنني أسميه «حديثي الأوحد» بالضبط، لأنه قضيتي الخاصة. إنك نعمة لنا. أنت حقًّا، كما تعلم، نعمة كبيرة».

قال الدكتور: «هراء، لا داعي لهذا الكلام».

وردت الجندي العجوز: «لا، لا، أستميحك عذرًا. ليس بيننا الآن سوى صديقنا العزيز وكاتم أسرارنا السيد ويكفيلد، ولا يمكنني موافقتك على إهمال قولي بهذه الطريقة. سأبدأ في استغلال موقفي بصفتي حماتك، فأوبخك إذا ظللت على هذا المنوال. إنني صريحة، بل صريحة للغاية. لم أقل ما قلته الآن إلا بعدما أخذتني الدهشة لأول مرة عند طلبك للزواج من آني؛ فهل تتذكر مدى دهشتي؟ لم تكن دهشتي تعني أن ثمة شيئًا غير مألوف في الأمر، أو زواجًا شاذًّا - سيكون من السخف قول ذلك! - ولكن لأنك عرفت والدها المسكين، وعرفتها منذ أن كانت طفلة لم يتجاوز عمرها ستة أشهر، وعلى هذا النحو فإنني لم أفكر فيك على الإطلاق، لم أفكر في الواقع في أن تصير زوجًا لها بأي شكل من الأشكال - هذا هو الأمر ببساطة، كما تعلم».

رد الدكتور بنوع من الدعابة: «نعم، آه. لا تهتمي بالتبرير».

رفعت الجندي العجوز مروحتها إلى شفتيها وراحت تقول: «إلا أنني أهتم. إنني أهتم للغاية. وإني لأتذكر هذه الأشياء حتى يحاججني أحد إذا كنت مخطئة في تقديرها. حسنًا. ثم تحدثت إلى آني وأخبرتها بما وقع. قلت لها: «عزيزتي، لقد كان دكتور سترونج واضحًا إذ فكر في خطبتك وعرض طلبه بالزواج منكِ». هل ضغطت عليها ولو بقدر هين؟ كلا. قلت لها: «أما الآن يا آني، فلتخبريني بحقيقة مشاعرك في هذه اللحظة؛ هل قلبكِ خالٍ؟». قالت وهي تبكي: «يا أمي، إنني صغيرة للغاية» - وهذا أمر صحيح تمامًا - «وأنا بالكاد أختبر ما إذا

كان لديَّ قلب أم لا». قلت لها: «إذن يا عزيزتي، يمكنكِ الوثوق في أنه خالٍ. وعلى أي حال يا حبيبتي، إن دكتور سترونج في حالة من القلق والاضطراب، ويجب الرد عليه. لا يمكن أن يظل في حالة ترقبه القلقة هذه». قالت آني وهي لم تزل تبكي: «يا ماما، هل سيحزن من دوني؟ إن كان سيحزن، فإنني أحترمه بل أبجله كثيرًا، وأحسب أنني سأحظى به». وهنا حُسم الأمر. وبعد ذلك، وليس قبل ذلك الحين، قلت لآني: «يا آني إن دكتور سترونج لن يصير زوجكِ فقط، بل سيكون بمنزلة والدكِ الراحل، سيصير رب عائلتنا، سيمثل لنا الحكمة وسيكون صاحب الكلمة، ويمكنني أن أقول إنه سيصير مورد الرزق لعائلتنا. باختصار، سيصير نعمة لها». لقد استخدمت كلمة «نعمة» في ذاك الوقت، وها أنا أستخدمها مرة أخرى اليوم. إن كنت أتمتع بأي فضيلة فهي ميزة الاتساق».

جلست الابنة صامتة وساكنة طوال هذا الحديث، أما عيناها فمثبتتان على الأرض، بينما يقف ابن عمها بالقرب منها مطرقًا إلى الأرض كذلك، إلى أن قالت في هدوء شديد وصوت يرتجف: «يا أمي، أتمنى أن تكوني قد انتهيتِ من حديثك».

أجابتها الجندي العجوز قائلة: «لا، يا عزيزتي آني. لم أنتهِ تمامًا. إن كنتِ تسألين يا حبيبتي، فإنني لم أنتهِ بعد. آسفة حقًّا من أنكِ غير طبيعية في معاملتك لعائلتك، ولا أرى جدوى من الشكوى إليكِ. أقصد أنني سأشتكي لزوجكِ. الآن، يا عزيزي الدكتور، انظر إلى زوجتك السخيفة».

أدار الدكتور وجهه اللطيف تجاهها، بابتسامته التي تتسم بالبساطة والوداعة، فتدلَّى رأسها مطرقًا إلى الأرض أكثر. وقد لاحظت أن السيد ويكفيلد ينظر إليها في ثبات.

راحت أمها تهز رأسها ومروحتها مداعبة لها، ثم قالت: «عندما تصادف أن قلت ذات يوم لهذه المخلوقة المشاغبة إن هناك ظرفًا عائليًّا عليها أن تذكره لك - بل تصورت في الواقع أنها لا بد أن تقوله لك - أجابتني قائلة إن ذكرها لهذا الموقف يعني طلب خدمة، وهذا لأنك كريم جدًّا، وبالغ الكرم عليها، بل دائمًا ما تلبي لها طلبها، فلهذا لن تفعل ذلك».

قال الدكتور: «يا آني يا عزيزتي. كان ذلك خاطئًا منكِ. لقد منعتِ عني سرورًا».

صرخت والدتها قائلة: «إنها الكلمات نفسها التي قلتها لها! أما الآن فإنني إذا ما عرفت أنها لن تخبرك بشيء ما لهذا السبب، فإنني اعتزمت أن أخبرك به بنفسي يا عزيزي الدكتور».

قال الدكتور: «سأكون في غاية السعادة إذا صح التعبير».

«هل أستطيع قول هذا حقًّا؟».

«بكل تأكيد».

قالت الجندي العجوز: «حسنًا، سأفعل ذلك. هكذا اتفقنا». أفترض أنها آلت إلى مرادها، ثم قررت بعد ذلك أن تنفذه. نقرت على يد الدكتور عدة مرات بمروحة يدها (بعد أن قبَّلتها أولًا)، ثم عادت منتصرة إلى مقعدها السابق.

أقبل علينا المزيد من الحضور، وكان من بينهم معلمون وكذلك آدامز، فأخذ الحديث منحى عامًّا، ثم انقلب بعد ذلك بطبيعة الحال إلى الحديث حول السيد جاك مالدون ورحلته، والبلد الذي سيسافر إليه، وخططه وتطلعاته المختلفة. كان من المقرر أن يغادر بعد العشاء في تلك الليلة، مستقلًّا الحافلة إلى جرايفزاند، حيث ترسو السفينة التي كان من المقرر أن يسافر على متنها، وكان من المقرر أن يستقر في سفره لعدة سنوات بحسب ما أعرفه، إلا إذا عاد إلى المنزل في إجازة أو أعادته أسباب صحية. أتذكر أن جميع الموجودين قد استقروا على أن الهند دولة ذات صورة مشوهة تمامًا عند الناس، وأنه ليس بها أي شيء غير مقبول سوى وجود نمر أو نمرين، وقدر ضئيل من الحرارة في أثناء النهار. أما أنا، فقد اعتبرت السيد جاك مالدون سندبادًا معاصرًا، وتخيلته صديقًا مقربًا لكل أفراد عائلة المهراجا في الشرق، وتصورته جالسًا تحت الستائر، ينفث دخان الأرجيلة عبر أنابيبها الذهبية المتعرجة، والتي قد تمتد بطول ميل، لو أنها انبسطت من دون اعوجاج.

كانت السيدة سترونج مغنية فاتنة للغاية، وقد أدركت هذا بعدما سمعتها تغني كثيرًا لنفسها. إلا أنها كانت خائفة من الغناء أمام الناس، أو لم تطاوعها أنفاسها للغناء في ذاك المساء، على أي حال كان من المؤكد أنها لم تستطع الغناء على الإطلاق. لقد حاولت أن تغني مرة في ثنائي مع ابن عمها مالدون، لكنها لم تستطع البدء. حاولت بعد ذلك الغناء بمفردها، وقد بدأت تغني بسلاسة، إلا أن صوتها ما لبث أن تلاشى فجأة، وتركها في غاية الأسى، فأطرقت برأسها مطأطأ فوق

مفاتيح البيانو. قال الدكتور بوداعة إنها متوترة، وللتخفيف من حدة انفعالها اقترح الالتفاف لبدء اللعب بالورق الذي لم يكن يعرف عنه شيئًا، تمامًا مثل معرفته بفن النفخ في البوق. إلا أنني أتذكر أن الجندي العجوز اقتادته فاحتجزته مباشرة من أجل أن يشاركها في اللعب، وأمرته - ابتداءً - أن يعطيها كل الفضة التي في جيبه.

أمضينا وقتنا نلعب لعبة مرحة، لم تقلل من بهجتها أخطاء الدكتور في اللعب، والتي ارتكب منها عددًا لا حصر له، على الرغم من يقظة فراشات قبعة الجندي العجوز، وحالة غضبهما الحادة. أما السيدة سترونج فقد امتنعت عن اللعب، وقد اعتذرت بسبب عدم شعورها بالارتياح، وكذلك اعتذر ابن عمها مالدون لأن لديه بعض التجهيزات التي عليه القيام بها. ما لبث أن انتهى من عمله حتى عاد وجلس إلى جوار السيدة سترونج، وأخذا يتحدثان على الأريكة. كانت تنهض من وقت لآخر، فتنظر إلى يد الدكتور، وتقول له أي ورقة يلعبها. أبصرت وجهها المنحني فوق كتف الدكتور شاحبًا للغاية، بل ظننت أن إصبعها يرتجف وهي تشير إلى البطاقات، إلا أن الدكتور كان سعيدًا جدًّا باهتمامها، ولم ينتبه إلى ارتجافها وشحوبها، إن صح ما لاحظته.

لم يستمر مرحنا هذا في العشاء، فقد بدا أن الجميع يستشعر أن فراقًا من هذا النوع يُعد أمرًا محرجًا، وأنه كلما اقترب موعده صار الأمر أكثر صعوبة. حاول السيد جاك مالدون أن يثرثر بكثير من الكلام، إلا أنه بدا مضطربًا، فازدادت الأمور سوءًا. وأحسب أن الموقف لم يتحسن بعد أن ظلت الجندي العجوز تروي أحاديث لا تنقطع عن شباب السيد جاك مالدون.

كان الدكتور على الرغم مما يحدث يُبدي سرورًا بالغًا، ولا أشك في أن شعوره هذا قد أضفى سعادة على جميع الحضور. لقد كان سعيدًا للغاية، ولم تراوده أدنى شكوك في أننا جميعًا نستمتع بأقصى درجات المتعة.

قال الدكتور بعد أن نظر إلى ساعته وملأ كأسه بالشراب: «يا عزيزتي آني، لقد حان موعد تحرك ابن عمك جاك، ويجب ألا نحتجزه بيننا - إن الوقت مد وجزر، وكلاهما مؤثران في حالته هذه - علينا ألا نؤخر الرجل. يا سيد جاك مالدون، إن أمامك رحلة طويلة، وينتظرك بلد غريب، لكن الكثير من الناس واجهوا الأمرين قبلك، والكثير سيعانون من الأمرين، حتى نهاية الزمان. أما الرياح التي ستنساق إليها، فقد وهبت الآلاف والآلاف ثروة، وجلبت السعادة إلى آلاف البشر أيضًا».

قالت السيدة ماركلهام: «إنه أمر مؤثر - بغض النظر عن الطريقة التي ننظر بها إلى الأمر - إنه من المؤلم، أن ترى شابًّا رائعًا قد عرفه المرء منذ أن كان رضيعًا، في طريقه للسفر بعيدًا إلى الطرف الآخر من العالم، تاركًا كل من يعرفه وراءه، من دون أن يدري ما هو مقبل عليه». التفتت السيدة ماركهام إلى الدكتور وأكملت حديثها قائلة: «إن شابًّا مثله يقوم بمثل هذه التضحيات يستحق الدعم والرعاية المستمرين».

أكمل الدكتور كلامه قائلًا: «إن الوقت سيمضي سريعًا بك يا سيد جاك مالدون، وسيمضي بنا جميعًا. لا ندري، ربما لا يتوقع بعضنا المسار الطبيعي للأمور، سيرحب بك البعض عند عودتك، وسيتلاشى

آخرون. إن أفضل شيء هو أن آمل أن يستوعب الجميع الأمر، وأرجو أن أدركه بدوري. لن أتعبك بنصائحي ما دمت حظيتَ بقدوة صالحة متمثلة في ابنة عمك آني. فاقتدِ بها بقدر ما تستطيع».

حركت السيدة ماركلهام مروحتها وأومأت برأسها بالموافقة.

أكمل الدكتور حديثه بينما ينهض من مكانه: «وداعًا يا سيد جاك». وقفنا جميعًا إثر وقفته، بينما أكمل قائلًا: «نرجو لك رحلة موفقة، وحياة مهنية مزدهرة في الخارج، وعودة سعيدة إلى الوطن».

شربنا نخب السيد جاك مالدون وصافحناه مودعين. استأذن بعدها على عجل من السيدات المتواجدات، ثم هرع نحو الباب، حيث استقبلوه حين صعد إلى الحافلة، بعدد هائل من الهتافات التي أطلقها صبية المدرسة، بعد أن تجمعوا على العشب من أجل هذا الهدف تحديدًا. ركضت لأنضم لهم وأزيد عدد المشاركين في الصفوف، كنت قريبًا جدًّا من الحافلة حين تدحرجت عجلاتها منطلقة. أحسست انطباعًا حيويًّا، وسط هذه الضوضاء وذرات الغبار، أثارت هذا الانطباع رؤية السيد جاك مالدون، فقد أحسست اضطرابه حين مر من أمامي بوجهه المنفعل، وفي يده شيء بلون الكرز.

تفرق الصبية بعد هتاف آخر للدكتور وآخر لزوجته، وعدت بدوري إلى المنزل، حيث وجدتِ الضيوف جميعهم يحيطون بالدكتور، ويناقشون كيف غادر السيد جاك مالدون، وكيف تحمل ألم الفراق وكيف أبدى مشاعر اللحظات الأخيرة. صرخت السيدة ماركلهام وسط هذه التعليقات قائلة: «أين آني؟».

لم تكن «آني» موجودة. راحوا ينادون عليها، لكنها لم ترد. خرجت من الغرفة، وسط حشد من الناس، لنفهم ماذا يدور، فإذا بنا نجدها منطرحة أرضًا في قاعة الاستقبال. انتاب الجميع الفزع في البداية، حتى تبين أنها في حالة إغماء، وأن إغماءها راح ينجلي بوسائل الشفاء المعتادة، بعدما رفع الدكتور رأسها ليسنده إلى ركبته، وأزاح عن وجهها خصل شعرها بيده، ثم قال، بينما يتلفت حوله:

«يا لآني المسكينة! يا لها من مخلصة وذات قلب حنون! أثَّر عليها فراق زميلها القديم ورفيق ألعاب طفولتها وصديقها - ابن عمها المفضل - فوقع لها ما وقع. آه! يا له من أمر مؤسف! إنني متألم جدًّا لها!».

فتحت عينيها، وانتبهت إلى مكانها، ورأت أننا جميعًا نقف ملتفين حولها، فقامت بمساعدة الآخرين، ثم أدارت رأسها، لتستند إلى كتف الدكتور، ربما فعلت ذلك لتخفي وجهها، لا أعرف السبب. ذهبنا إلى غرفة الاستقبال، وتركناها مع الدكتور ووالدتها، لكن يبدو أنها قالت شيئًا من قبيل أنها صارت أفضل حالًا مما كانت عليه في الصباح، وأنها تفضل أن تجلس بيننا، ومن ثَم أجلسوها معنا. كان وجهها يبدو شاحبًا للغاية وقد لاحت في نظري واهنة، بعد أن أجلسوها إلى أريكة.

قالت والدتها وهي تهندم شيئًا بملابسها: «يا آني، يا عزيزتي. انظري! لقد فقدتِ الشريط. هل يتفضل أحد بالبحث عن شريط مفقود؟ إنه شريط بلون الكرز».

كانت ترتدي هذا الشريط مثبتًا فوق صدرها قبل ذلك. رحنا جميعًا نبحث عنه. بحثت عنه بنفسي، وتفقدته في كل مكان لأتأكد من أمره - لكن لم يتمكن أحد من العثور عليه.

قالت والدتها: «هل تتذكرين أين رأيته آخر مرة يا آني؟».

تساءلت كيف كان بإمكاني أن أظن أنها بدت بيضاء شاحبة، أو أي شيء آخر غير أن تشتعل بحمرة الخجل، حين أجابت أمها بأنها كانت تحمله منذ فترة قصيرة، على حد قولها، ولكنه لا يستحق البحث عنه.

راحوا يبحثون عنه مرة أخرى، من دون أن يعثر عليه أحد مجددًا. ناشدتهم بعدم الاستمرار في البحث، إلا أنهم استمروا فيه على فترات متقطعة، حتى صارت زوجة الدكتور في حالة جيدة، وبدأت الجماعة في المغادرة.

مشينا ببطء شديد عائدين إلى المنزل، السيد ويكفيلد، وأجنيس وأنا. كنت أنا وأجنيس معجبين بضوء القمر، أما السيد ويكفيلد فكان من النادر أن يرفع عينيه عن الأرض. ما إن وصلنا أخيرًا إلى باب المنزل حتى اكتشفت أجنيس أنها نسيت حقيبتها الصغيرة هناك. ركضت مسرعًا لإحضارها وقد تملكتني سعادة بالغة لأن أسدي لها أي خدمة.

ذهبت إلى قاعة الطعام حيث تناولنا العشاء وتركت الحقيبة، وكانت خاوية ومظلمة. إلا أنني أبصرت بابًا يوصل بينها ومكتب الدكتور، حيث لاح ضوء به وبدا مفتوحًا، فاتجهت إلى هناك، لأحكي له عن سبب رجوعي، وكذلك لأحصل على شمعة أستضيء بها.

كان الدكتور جالسًا على كرسيه المريح بجانب المدفأة، وكانت زوجته الشابة تجلس على كرسي عند قدميه. مكث الدكتور يقرأ بابتسامة راضية وصوت عالٍ بعض الشروح المخطوطة أو بيانًا لنظرية ما من هذا القاموس - الذي لا يبدو له نهاية - بينما راحت تنظر إليه. لاح وجهها في غاية من الجمال والحسن لم أشهدهما قَطُّ؛ كان صافيًا للغاية، شاردًا شاحبًا للغاية في ذهول، يملأه الرعب كما لو أنه لحالم يسير نائمًا، ولا أعرف لماذا طغى عليَّ هذا التشبيه. كانت عيناها مفتوحتين على مصراعيهما، وقد انسدلت خصلات شعرها البنية في حزمتين كثيفتين فوق كتفيها، متدليتين على ثوبها الأبيض، فعوضها عن نقص شريطها المفقود. أتذكر مظهرها بصورة جلية مميزة، إلا أنني لا أستطيع أن أجد وصفًا معبرًا عن ذاك المشهد، ولا يمكنني إلى الآن أن أعبر بكلمات عن طلتها على الرغم من أن وجهها يمتثل أمامي مرة أخرى، وأمتلك من الحكمة ما لم أمتلكها وأنا صغير. أستجمع معاني الندم والإذلال والعار والكبرياء والمحبة والثقة؛ أراهم جميعًا أمامي، فقد لاحوا جميعًا داخلها، وقد تجلوا أمامي برعب لا أعرف سببه.

أزعجها دخولي، بعد أن تحدثت بما أريد. أزعج وجودي الدكتور أيضًا. عدت لاستبدال الشمعة التي أخذتها من فوق الطاولة، فإذا به يربت على رأسها بطريقته الأبوية، ويقول لها إنه حلَّق بعيدًا متماديًا من دون انتباه، وكان قاسيًا إذ استغل سماحها له فأغرته بمواصلة القراءة، وأنه يطلب منها أن تتجه إلى الفراش للنوم.

إلا أنها طلبت منه، بطريقة سريعة وعاجلة، أن يسمح لها بالبقاء معه - حتى تشعر بالاطمئنان وأنها لا تزال في كنفه هذه الليلة (سمعت تمتمتها ببعض الكلمات الذليلة التي تحمل هذا المعنى). استدارت نحوه مرة أخرى، بعد أن نظرت إليَّ بينما أغادر الغرفة وأخرج من الباب، فإذا بي أراها تضع يديها على ركبته، وتنظر إليه بالوجه السالف نفسه، بعد أن هدأ بعض الشيء، ومن ثَم استأنف قراءته.

لقد ترك هذا المشهد تأثيرًا بالغًا داخلي، فرحت أتذكر هيئتها لفترة طويلة بعد ذلك، كما سأحكي فيما بعد عندما يحين الوقت.



# الفصل السابع عشر

## شخص يظهر فجأة

لم يخطر ببالي أن أذكر بيجوتي منذ أن هربت، إلا أنني كنت بالطبع قد كتبت لها خطابًا فور استقراري في دوفر، وكتبت خطابًا آخر أطول تقريبًا، يتضمن كافة التفاصيل عن الأمر، بعدما شملتني عمتي رسميًّا برعايتها. كتبت إليها مرة أخرى، بعد استقراري في مدرسة دكتور سترونج، ورحت أشرح لها بالتفصيل تصوراتي عن سعادتي وآمالي المستقبلية. لم أكن لأشعر بأي نوع من المتعة على الإطلاق في إنفاق الأموال التي منحها لي السيد دك، مثل التي شعرت بها حين أرسلت نصف جنيه من الذهب إلى بيجوتي، وقد أرفقته في هذه الرسالة الأخيرة، وأرسلته بالبريد، لتسديد المبلغ الذي اقترضته منها. قصصت لها في رسالتي هذه - وليس سواها - حكاية الشاب صاحب العربة والحمار.

ردت بيجوتي على هذه الخطابات بسرعة فائقة، إن لم يكن بإيجاز شديد، كما لو أنها ردود من تاجر. استنفدت قواها إلى أقصى حد ممكن في استدعاء هذه التعبيرات (والتي لم تكن تعبيرات طويلة في كتابتها

بالتأكيد) في محاولة لكتابة ما شعرت به حول موضوع رحلتي. دوَّنت أربع صفحات تبدأ بجمل غير متماسكة ومتداخلة، من دون نهاية لأي جملة، سوى علامات من لطخات الحبر لم تكن كافية لمنح الجملة أي معنى. إلا أن هذه البقع كانت أكثر العبارات بلاغة وأفضلها تركيبًا، لأنها أظهرت لي بكاء بيجوتي ودموعها التي غطت أنحاء الورقة، فأي شيء كنت أتمناه أكثر مما فعلت؟

فهمت من رسائلها، من دون عناء يذكر، أنها غير راضية عن عمتي حتى تلك اللحظة. لم تلبث فترة قصيرة جدًّا تفصل بين مشاعرها السالفة تجاهها والتي استمرت لفترة طويلة. كتبت تقول: «لم نعرف أي إنسان قَطُّ يستطيع أن يتصور أن الآنسة بيتسي قد تبدو مختلفة تمامًا عن طباعها في الماضي؛ كانت تبدو أخلاقية!». كانت كلمة «أخلاقية» هي ما عبرت به عن قصدها. كان من الواضح أنها كانت لم تزل تخشى الآنسة بيتسي، لأنها أرسلت لها التحية والامتنان ولكن برهبة، ومن الواضح أنها كانت تخاف مني أيضًا، بل وترجح احتمالية هروبي مرة أخرى قريبًا، إذا كان بإمكاني استنباط حكمي على هذا الأمر من التلميحات المتكررة التي بعثتها، إذ قالت إن أجرة السفر إلى يارموث بالحافلة متاحة دائمًا وتحت الطلب.

أبلغتني بيجوتي بمعلومة كان لها بالغ الأثر في نفسي، وهي أن أثاث منزلنا القديم قد بيع، وأن السيد مردستون والآنسة أخته قد اختفيا، فأُغلِق المنزل، وعُرِض للإيجار أو البيع. يعلم الله أنني لم أشارك بأي دور خلال بقائهما فيه، لكن يؤلمني أن أفكر في المكان القديم الغالي

وقد صار مهجورًا خاويًا، تنمو في حديقته الحشائش، وتتساقط فيه الأوراق الكثيفة والمبللة فتسد الممرات. تخيلت كيف ستعوي رياح الشتاء حوله، وكيف سيضرب المطر البارد زجاج النافذة، وكيف سيدلي القمر بأشباح ضوئه فوق جدران الغرف الفارغة، فيراقب عزلتها طوال الليل. فكرت من جديد في القبر القابع تحت الشجرة في باحة الكنيسة، وخُيِّل لي في هذه اللحظة كما لو أن المنزل قد مات أيضًا. أما كل شيء مرتبط بأبي وأمي، فقد تلاشى إلى فناء.

لم تُعلمني بيجوتي بأي أخبار أخرى في رسائلها. قالت إن السيد باركس زوج ممتاز، على الرغم من أنه لم يزل حريصًا بعض الشيء، لكننا جميعًا نتسم بعيوب، وأنها لا تخلو من كثير منها (على الرغم من أنني متأكد من أنني لا أعرف لبيجوتي عيبًا). قالت إن السيد باركس يبعث إليَّ بتحياته، وإن غرفة نومي الصغيرة جاهزة دائمًا تحت خدمتي. أبلغتني أن السيد بيجوتي على ما يرام، وأن هام في خير حال، وأن السيدة جامدج على حالها البائسة ذاتها، ولكن إيميلي الصغيرة لا ترسل تحياتها، لكنها قالت لبيجوتي أن ترسلها إذا شاءت.

نقلت كل هذه الأخبار إلى عمتي بدقة، واحتفظت فقط بما ذكرته بيجوتي عن إيميلي الصغيرة، لأنني شعرت غريزيًّا أن عمتي لن تميل إليها أو ترفق بها. قامت عمتي بعدد من الزيارات إلى كانتربري لملاقاتي. كنت لم أزل حديث العهد بمدرسة دكتور سترونج، وكانت زيارتها تتم في أوقات غير مناسبة دومًا. أحسب أنها أرادت أن تأخذني على حين غرة في أغلب الظن. إلا أنها وجدتني مواظبًا مجدًّا، وأتمتع بسلوك حسن،

وسمعت من كل النواحي أنني تطورت سريعًا في المدرسة، فتوقفت عن هذه الزيارات المباغتة. صرت أراها في أيام السبت، مرة كل ثلاثة أو أربعة أسابيع، كلما ذهبت إلى دوفر طلبًا للعلاج، أما السيد دك فأراه يوم الأربعاء بالتناوب كل أسبوعين، بينما تصل عربته في الظهيرة، ويبقى حتى صباح اليوم التالي.

لم يكن السيد دك يسافر قَطُّ في مثل هذه المناسبات من دون أن يصطحب مستلزماته الكتابية من مخزون الأقلام والأوراق والمذكرات كذلك، فقد بات يحسب أن الوقت قد حان، وعليه أن ينجز عمله في أقرب فرصة ممكنة.

كان السيد دك محبًّا لكعك الزنجبيل. طلبت مني عمتي فتح حساب له في متجر الكعك، حتى تجعل زيارته ممتعة، بشرط عدم إنفاق أكثر من شلن واحد على مدار اليوم. صرت أبعث بجميع فواتيره الصغيرة من الفندق الصغير الذي كان يبيت فيه إلى عمتي. رحت أرسل الفواتير قبل دفعها، وقد دفعني هذا إلى الشك في أنها لا تسمح له إلا بالصلصلة بأمواله، وليس بإنفاقها. تأكدت بعد المزيد من التحقق أن الأمر على هذا النحو الذي توقعته، أو على الأقل إن ثمة اتفاقًا بينه وعمتي يفضي إلى أن يُحاسبها على جميع مدفوعاته. لم يفكر مطلقًا في خداعها، وكان يرغب في إرضائها دومًا، وقد دفعه هذا الشعور إلى الحرص على نفقاته. أما فيما يخص هذه النقطة، وفي غيرها من التدابير المحتملة الأخرى، فإن السيد دك ظل مقتنعًا أن عمتي هي أحكم وأروع النساء. باح لي أكثر من مرة بهذا الأمر بسرية وبصوت هامس، كما لو أنه بات سرًّا لا يذاع.

تحدث إليَّ السيد دك في يوم من أيام الأربعاء بنوع من الغموض، بعد أن منحني هذه الثقة في كتم الأسرار، فراح يقول: «يا تروتوود، مَن هذا الرجل الذي يختبئ بالقرب من منزلنا ويخيفها؟».

«يخيف عمتي يا سيدي؟».

أومأ السيد دك، وراح يقول: «كنت أظن أنه ما من شيء قد يخيفها، لأنها...». وهنا راح يهمس بهدوء مستطردًا: «لا تذكر ذلك لأحد - أحكم وأروع النساء». ثم تراجع بعد أن أنهى قوله هذا، حتى يتمكن من ملاحظة الأثر الذي تركه هذا الوصف في نفسي.

قال السيد دك: «كانت المرة الأولى التي جاء فيها - دعني أتذكر - في عام ألف وستمائة وتسعة وأربعين، وهو تاريخ إعدام الملك تشارلز. أحسب أنك قلت لي إنه في عام ألف وستمائة وتسعة وأربعين، أليس كذلك؟».

«بلى يا سيدي».

قال السيد دك وهو في حيرة شديدة بينما يهز رأسه: «لا أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا الأمر. لا أظن أنني عجوز في مثل هذا العمر».

سألته: «هل ظهر الرجل في ذاك العام يا سيدي؟».

قال السيد دك: «الحقيقة، إنني لا أعرف كيف يمكن أن يصح ظهوره في ذلك العام يا تروتوود. هل تأكدت من هذا التاريخ؟».

«نعم يا سيدي».

قال السيد دك ببصيص من الأمل: «أفترض أن التاريخ لا يكذب أبدًا، أليس كذلك؟».

أجبته بثقة ويقين: «بلى يا سيدي العزيز!». وقد كنت شابًّا يافعًا غضًّا، وقد ظننت أن الأمر كذلك.

تكلم السيد دك بينما يهز رأسه قائلًا: «لا أدري كيف يصح هذا التاريخ. إن ثمة شيئًا خاطئًا في موضع ما. ومع ذلك، فقد جاء الرجل بعد وقت قصير جدًّا من الخطأ الذي وقع، وقد نقل بعض المشكلات من رأس الملك تشارلز إلى رأسي. كنت أسير مع الآنسة تروتوود بعد احتساء الشاي وقت الغروب، فإذا بي أبصره على مقربة من منزلنا».

سألته: «هل كان يتجول حول المنزل؟».

كرر السيد دك قائلًا: «أكان يتجول حوله؟ دعني أفكر، لعلي أتذكر قليلًا. لا، لا، لم يكن يتجول حوله».

سألته، بأقصر الطرق لفهم الأمر، عن الشيء الذي كان يفعله.

قال السيد دك: «حسنًا، لم يكن يفعل شيئًا على الإطلاق، حتى أقبل من ورائها، ثم همس إليها بشيء. ثم استدارت وأغمي عليها. وقفتُ أنا وتلفتُّ إليه، إلا أنه مضى بعيدًا، لكنه ظل مختبئًا منذ ذلك الحين (تحت الأرض أو في مكان ما)، وهو الشيء الأكثر غرابة».

سألته: «هل ظل مختبئًا منذ ذلك الحين؟».

أجابني السيد دك، بعد أن أومأ برأسه بجدية، قائلًا: «بالتأكيد، لقد اختفى ساعتها، ولم يظهر قَطُّ حتى ليلة أمس! كنا نسير في الليلة الماضية، إلى أن ظهر من ورائها مرة أخرى، وقد عرفته بدوري من جديد».

«وهل أخاف عمتي مرة أخرى؟».

قال السيد دك: «ظلت ترتجف». راح يقلد ارتجافتها، وأخذ يجز على أسنانه لتطقطق، وقال: «أمسكت بالسور، وأخذت تبكي». وهنا اقترب مني وراح يهمس بهدوء شديد قائلًا: «لكن يا تروتوود، تعالَ إلى هنا، لماذا أعطته المال يا فتى، وقد أبصرت ذلك في ضوء القمر؟».

«ربما كان متسولًا».

أشاح السيد دك برأسه، رافضًا هذا التفسير تمامًا، وراح يكرر إجابته عدة مرات، بثقة بالغة، قائلًا: «لا ليس متسولًا، ليس متسولًا، ليس متسولًا يا سيدي»، ثم راح يحدثني قائلًا إنه أبصر عمتي من نافذته في وقت متأخر من الليل، وإذا بها تعطي هذا الشخص مالًا في الحديقة الخارجية تحت ضوء القمر، ثم تسلل الرجل بعيدًا -متواريًا تحت الأرض مرة أخرى، بحسب ظنه- ولم يرَه مرة أخرى، بينما عادت عمتي بسرعة وسرية إلى المنزل. مكثت طوال صباح اليوم التالي مختلفة تمامًا، على غير عادتها، مما أقلق السيد دك وشغل باله.

لم يراودني شك عند بداية هذه القصة في أن المجهول الذي قصده السيد دك، لم يكن سوى وهم من خياله، وواحد من سلالة أوهام ذلك الأمير المشؤوم التي سببت له الكثير من العراقيل. إلا أنني بعد التروي رحت أفكر في تعرض عمتي للتهديد، أو محاولة التهديد لمرة أو مرتين، بأخذ السيد دك المسكين من رعايتها، وأن عمتي -تلك القوية التي أعرف بنفسي مدى اللطف البالغ الذي تشعر به تجاهه- قد اضطرت إلى دفع ثمن سلامته وسكينته غاليًا. كنت مرتبطًا بالسيد دك بعاطفة قوية، وكنت

حريصًا على سلامته كل الحرص، لذلك دفعتني مخاوفي إلى ترجيح ظنوني هذه، ولفترة طويلة لم يمر يوم من أيام الأربعاء من دون أن أشك في أنه لن يكون في العربة القادمة لزيارتي كالمعتاد. إلا أنني رحت أراه دائمًا، برأسه الأشيب، يضحك في سعادة، ولم يكن لديه أي شيء آخر ليقوله عن الرجل الذي تسبب في إخافة عمتي.

كانت أيام الأربعاء أسعد أيام حياة السيد دك، وأبعد عن أن تكون أقل سعادة من جانبي. صار معروفًا لكل صبي في المدرسة في وقت قصير، على الرغم من أنه لم يشارك قَطُّ في أي لعبة من ألعابنا سوى تحليق الطائرات الورقية، فإنه أبدى اهتمامًا بالغًا بألعابنا كلها مثل أي واحد منا. كم من مرة رأيته، متابعًا لمباراة ألعاب «البلي» أو «الدوامة»، وإذا باهتمام لا يوصف يرتسم على وجهه، بل صار يحبس أنفاسه في الأوقات الحرجة! كم من مرة أبصرته في جولات لعبة «الأرنب وكلاب الصيد»، وقد صعد إلى ربوة صغيرة، وأخذ يهتف للمتحلقين مشجعًا لكل منهم في دوره، وملوحًا بقبعته التي تعلو رأسه الأشيب، غافلًا عن رأس الملك تشارلز الشهيد، وكأن كل شيء قد صار ينتمي إليه! كم من ساعة في الصيف عرفت أنها لم تمضِ إلا كدقائق سعيدة في حياته بينما يتابعنا في ملعب الكريكيت! كم من يوم من أيام الشتاء رأيته فيها واقفًا بأنف أزرق، في ثلج قارص ورياح باردة، ناظرًا نحو الأولاد في تزحلقهم على المنحدر الطويل، بينما يصفق بقفازاته الصوفية في نشوة وسرور!

لقد كان محبوبًا عند الجميع، وكانت براعته التي يبديها في تفاصيل

الأشياء الصغيرة فائقة. يمكنه تقطيع البرتقال إلى أجزاء وأشكال لم يكن لأحد منا أن يتصور شيئًا عنها. يصنع قاربًا من أي شيء؛ بداية من صنعه من سيخ إلى أي شيء غيره. يمكنه تحويل عظام القفص الصدري للحيوانات إلى قطع من الشطرنج، ويُشكِّل العربات الرومانية من بطاقات وأوراق قديمة، ويصنع من كرات القطن مكابح، ويُشكِّل من الأسلاك القديمة أقفاصًا للطيور. أما أكثر ما برع فيه أكثر من أي شيء سواه، فكان كل ما يتعلق بأصناف الخيوط والقش، فقد اقتنعنا جميعًا أنه يستطيع تشكيل أي شيء منه بيده.

لم تقل شهرة السيد دك بيننا، بل راحت بعد بضعة أيام من زيارات أيام الأربعاء، أن انتشرت، حتى أجرى الدكتور سترونج بعض الاستفسارات عنه بنفسه، وأخبرته بكل ما قالته لي عمتي عنه، مما أثار اهتمام الدكتور، حتى إنه طلب مني أن أقابله به في زيارته القادمة، وقد قمت بدوري فقدمته له. طلب الدكتور من السيد دك أن يأتي إلى المدرسة مباشرة - إذا لم يجدني في انتظاره عند مكان وصول الحافلة - فيستريح حتى ينتهي يومنا الدراسي في الصباح، وسرعان ما تحول الأمر إلى عادة، فصار السيد دك يأتي إلى المدرسة مباشرة، وإذا تأخرت قليلًا - كما كان يحدث غالبًا في أيام الأربعاء - فإنه يتجول في فناء المدرسة في انتظاري. تعرَّف في هذا الوقت على زوجة الدكتور الشابة الجميلة (بعد أن صارت أكثر شحوبًا مما كانت عليه سابقًا، كنت نادرًا ما أراها أو يراها أي شخص آخر، وعلى ما أظن لم تكن في أحسن حال، وإن لم يقلل شيء من جمالها المعهود)، وهكذا بات أكثر قربًا وأوسع

دراية بهم من قبل، حتى اعتاد أن يأتي في النهاية إلى المدرسة مبكرًا ومن ثَم ينتظرني. كان يجلس دائمًا في زاوية معينة، على كرسي خاص، صار يسمى باسمه «دك»، وقد أحنى رأسه الأشيب إلى الأمام، فيستمع باهتمام إلى كل ما يدور حوله، في تبجيل عميق للتعلم الذي لم يستطع اكتسابه يومًا.

امتد هذا التبجيل من السيد دك إلى الدكتور، وقد كان يتصور أنه الفيلسوف الأكثر دقة ومهارة على مدار أي عصر من العصور. مر وقت طويل قبل أن يتجرأ السيد دك على أن يتحدث إليه من دون أن يصير «حاسر الرأس»، وعندما تعمقت الصداقة بينه والدكتور، صارا يمشيان معًا لساعة كاملة، على جانب من الفناء كان معروفًا بيننا باسم ممشى الدكتور، كان السيد دك يخلع قبعته عن رأسه على فترات، لإظهار احترامه للحكمة والمعرفة المتمثلتين في الدكتور. لم أعرف قط كيف بدأ الدكتور في قراءة قصاصات من القاموس الشهير في هذه الممرات. ربما شعر في وجوده في البداية كأنه يقرأ لنفسه. ومع ذلك، تحول الأمر إلى عادة أيضًا، وكان السيد دك وهو يستمع بوجه يلمع بالفخر والسرور، يعتقد في أعماق قلبه أن القاموس هو الكتاب الأكثر بهجة في العالم.

أتذكر سيرهما معًا في غدوهما ورواحهما أمام نوافذ قاعات المدرسة، حيث كان الدكتور يقرأ بابتسامته الراضية أجزاء من هذه المخطوطة من حين لآخر، أو يومئ برأسه المبجل، بينما يستمع السيد دك مشدوهًا إليه باهتمام بالغ، على الرغم من ذكائه الضئيل الذي يحوم في فراغ هادئ، لا يعلمه سوى الله، فيحلق بأجنحة هذه الكلمات

الصعبة التي تُتلى عليه. حسبت أنه أحد أجمل المشاهد التي رأيتها في حياتي في سكونها. أحسست أنهما سيقضيان حياتيهما في غدوهما ورواحهما إلى الأبد، وقد يصير العالم أفضل على نحو ما بطريقتهما هذه، بل إن ألف حدث يثير ضجيجًا لم يكن ليُحدِث نصف الأثر الطيب والنافع الذي أحدثاه لي.

صارت أجنيس واحدة من أصدقاء السيد دك، بل وصارت مقربة منه للغاية، وقد تعرف كذلك على يورايا بعد أن كثرت زيارته للمنزل. راحت صداقتنا تزدهر باستمرار، بل ظلت راسخة على أساس غريب؛ وهو أن السيد دك قد جاء معلنًا الاعتناء بأمري بصفته ولي أمري، إلا أنه كان يستشيرني دائمًا في أي مسألة يغلب عليها الشك، فيأخذ دومًا برأيي، ويتبع نصيحتي، من دون أن يكتفي بأن أحظى باحترام كبير لحصافة عقلي وذكائي وحسب، بل كان يأخذ في الاعتبار أيضًا أنني ورثت الكثير من براعة عمتي.

كنت على وشك السير مع السيد دك من الفندق إلى موقف الحافلة قبل العودة إلى المدرسة في صباح أحد أيام الخميس - لأننا كنا سندرس لمدة ساعة في المدرسة قبل الإفطار - فإذا بي ألتقي بيورايا في الشارع، الذي راح يذكرني بوعدي له باحتساء الشاي معه ومع والدته، مضيفًا بلطف: «إلا أنني لم أتوقع منك أن تفي بالوعد يا سيد كوبرفيلد، فنحن حقراء للغاية».

لم أتمكن بعدها من أن أهتدي إلى قرار بشأنه، لم أجزم إذا ما كنت أحببت يورايا أم أنني كرهته، بل لم أزل متشككًا جدًّا في مشاعري

تجاهه. وقفت أتطلع إلى وجهه على قارعة الطريق، لكنني شعرت أنه من الإهانة أن أتعالى عليه، فأجبته قائلًا إنني لم أُرِد سوى المجيء في موعد متفق عليه سابقًا.

قال يورايا: «آهٍ، إذا كان هذا كل شيء يا سيد كوبرفيلد، ولم يكن تواضع حالتنا هو السبب الذي منعك، فهل ستأتي لزيارتنا هذا المساء؟ وإذا كان تواضع حالتنا وحقارتنا هما المانع، فأرجو ألا تتردد في الاعتراف بالأمر يا سيد كوبرفيلد، لأننا ندرك حالتنا جيدًا».

قلت إنني سأذكر أمر هذه الزيارة للسيد ويكفيلد، وإنه إذا وافق -كما لم يكن لديَّ أدنى شك في أنه سيوافق على طلبي- فإنني سأحضر بكل سرور. بناء على اتفاقي، فإنني في تمام الساعة السادسة من ذلك المساء -والتي كانت إحدى أمسيات انتهاء العمل في المكتب مبكرًا- أعلمت يورايا باستعدادي للذهاب إلى منزله.

قال لي يورايا بينما كنا نواصل السير معًا في الطريق: «ستسعد أمي وتفخر حقًّا، أو أنها ستشعر بالزهو، إذا لم يكن الزهو خطيئة يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «ومع ذلك، فقد افترضتَّ أنني مزهو هذا الصباح».

راح يورايا يقول: «آهٍ يا عزيزي، لا يا سيد كوبرفيلد! آهٍ، صدقني، لم أقصد! إن هذه الفكرة لم تخطر ببالي! لم أكن لأتصور أن الأمر يرجع إلى الزهو على الإطلاق، بل ربما يعود إلى ظنك أننا حقراء بما لا يتلاءم مع مكانتك، لأننا وضعاء للغاية».

سألته كي أغير موضوع كلامنا: «هل رحت تدرس الكثير من القوانين في الآونة الأخيرة؟».

قال بنوع من إنكار الذات: «آهٍ يا سيد كوبرفيلد، لا يمكن تسمية قراءتي دراسة إلا بصعوبة بالغة. لقد قضيت ساعة أو ساعتين في المساء، في بعض الأحيان، مع السيد تيد».

قلت: «إنني أتصور أنه صعب إلى حد ما، أليس كذلك؟».

قال يورايا: «إنه صعب عليَّ في بعض الأحيان. إلا أنني لا أعرف كيف يستقبله شخص موهوب».

أخذ يضرب ذقنه بضع ضربات بينما يمشي، محدثًا صوتًا بأصابع يده اليمنى التي تشبه الهيكل العظمي، ومن ثَم أضاف قائلًا:

«إن ثمة تعبيرات، كما تعرف يا سيد كوبرفيلد -كلمات ومصطلحات لاتينية- في كتاب السيد تيد، يصعب على إنسان حقير مثلي فهمها».

قلت بحماسة: «هل ترغب في تعلم اللاتينية؟ سوف أُعلِّمك بكل سرور، فأنا أتعلمها كذلك».

أجاب بينما يهز رأسه: «آهٍ، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. إنني على يقين من كرمك الذي دفعك إلى تقديم هذا العرض، لكنني أحقر من أن أقبله».

«يا له من هراء يا يورايا!».

قال: «آهٍ، عليك أن تعذرني حقًّا يا سيد كوبرفيلد! إنني ممتن للغاية لك، وأود أن أؤكد لك أنني أحلم أن يتحقق هذا الأمر أكثر من غيره

من الأمور، لكني بالغ الحقارة. إن ثمة أناسًا يودون لو يدهسوني إذلالًا واحتقارًا من دون أن أمس مشاعرهم بسوء لمجرد رغبتي في تحصيل العلم. إن التعلم لم يُخلق لأمثالي، ومن الأفضل لشخص مثلي ألا يطمح إليه. وإذا كان يريد أن يستمر في الحياة، فعليه أن يتعامل بخنوع يا سيد كوبرفيلد».

لم أرَ فمه بهذا الاتساع قَطُّ، ولم أبصر هذه التجاعيد في خديه عميقة جدًّا لهذا الحد من قبل، كما رأيتها حين أفضى إليَّ بهذه المشاعر المكنونة في نفسه. لقد راح يهز رأسه طوال الوقت، ويتلوى بذل.

قلت: «أظن أنك مخطئ يا يورايا. إنني أجرؤ على القول إن ثمة الكثير من الأمور التي يمكنني أن أعلمك إياها، إذا كنت ترغب في تعلمها».

أجاب: «آهٍ، إنني لا أشك في ذلك مطلقًا يا سيد كوبرفيلد. لكن لأنك لست حقيرًا، فإنك لا تستطيع أن تحكم على الأمر جيدًا على من هم كذلك. لن أستفز مشاعر من هم أفضل مني بالرغبة في التعلم، شكرًا لك. إني مثقل بالكثير من المتاعب. ها هنا مسكني المتواضع يا سيد كوبرفيلد».

دخلنا إلى غرفة منخفضة السقف ذات طراز قديم، وكانت مطلة مباشرة على الشارع. وجدنا السيدة هيب، التي كانت صورة ميتة مشابهة ليورايا، لم تختلف عنه سوى أنها كانت قصيرة القامة. استقبلتني بأقصى درجات التواضع، واعتذرت لي عن تقبيل ابنها أمامي، مشيرة إلى أنهما حقيران، إلا أنهما يكنان عواطف طبيعية، وقد كانا يأملان ألا يسيئا

بعواطفهما لأحد. كانت الغرفة نظيفة كليةً، مقسمة إلى نصف صالون، ونصف مطبخ، إلا أنها ليست مريحة على الإطلاق.

وضعت أكواب الشاي فوق الطاولة، بينما أبصرت الغلاية تغلي فوق الموقد. لاحت خزانة ذات أدراج يعلوها سطح مستوٍ، ليقرأ يورايا أو يكتب عليها في المساء. تمددت أمامي على الأرض حافظة يورايا الزرقاء، وقد انسكبت منها بعض الأوراق. أبصرت مجموعة من كتب يورايا يعلوها كتاب السيد تيد، وكذلك رأيت خزانة منتصبة في إحدى الزوايا، وبعضًا من قطع الأثاث التقليدية. لا أتذكر أن أي قطعة أثاث بعينها كانت تبدو حقيرة، أو رثة، أو يمكن الاستغناء عنها، لكني أتذكر أن المكان بأكمله قد بدا على هذه الهيئة.

لاح شيء من تواضع السيدة هيب في أنها لم تزل ترتدي زي الحداد، على الرغم من مرور وقت طويل على وفاة زوجها السيد هيب. أتصور أن ثمة اختلافًا يكمن في تنازلها عن ارتداء قبعة الحداد، أما دون ذلك فقد احتفظت بثوب حدادها كما لو أنها لم تزل في الأيام الأولى من حزنها على وفاته.

قالت السيدة هيب وهي تعد الشاي: «أنا متيقنة من أنه يجب أن تُخلِّد ذاكرتنا هذا اليوم يا يورايا؛ اليوم الذي زارنا فيه السيد كوبرفيلد».

قال يورايا: «قلتِ إنكِ ستفخرين بذلك يا أمي».

قالت السيدة هيب: «لو أنني تمنيت أن يبقى أبوك حيًّا بيننا لأي سبب من الأسباب، لتمنيت أن يكون بيننا ليشهد هذه الصحبة في هذا المساء».

شعرت بالحرج من هذه المجاملات. إلا أنني كنت مدركًا أيضًا أنني أحظى بالتبجيل كضيف شرف، وظننت أن السيدة هيب امرأة تبدي لي لطفها.

قالت السيدة هيب: «لقد تطلع يورايا إلى هذه الزيارة يا سيدي منذ فترة طويلة. كان يخشى من أن تمنعك حالنا المتواضعة عن زيارتنا، وقد راودتني التطلعات والمخاوف نفسها. إننا حقراء، كنا كذلك، وبقينا على النحو ذاته، وسنظل هكذا حتى آخر الزمان».

قلت: «إنني على يقين يا سيدتي أنكما تستطيعان انتهاز الفرص فتغيران هذا الوضع، ما لم تكن هي رغبتكما في استمراره».

ردت السيدة هيب قائلة: «شكرًا لك يا سيدي. إننا ندرك وضعنا ونحن شاكران وممتنان».

لاحظت أن السيدة هيب قد اقتربت مني تدريجيًّا، وأن يورايا تقرب إليَّ كذلك، وأنهما عاملاني باحترام فائق في تقديم أطيب الأطعمة من أجود ما وضع فوق الطاولة. لم يكن هناك في الواقع مجال للاختيار على نحو خاص، إلا أنني انتبهت إلى أفعالهما، وأحسست بحرصهما البالغ على إرضائي. راحا يتحدثان بعد ذلك عن العمات، ومن ثَم أخبرتهما عن عمتي، ثم تحدثنا عن الآباء والأمهات ثم أخبرتهما عن أبي وأمي. ثم بدأت السيدة هيب في التحدث عن أزواج الأمهات، ومن ثَم شرعت في إخبارها عن زوج أمي - لكنني توقفت حين انتبهت لحديثي، فقد تذكرت أن عمتي نصحتني بالتزام الصمت بشأن هذا الموضوع. إلا أن سدادة الفلين الصغيرة الرقيقة لا تستطيع أن تقاوم زوجًا من مقبض

مفتاح معدني، والسن الصغيرة الهشة لا تستطيع أن تقاوم زوجًا من أطباء الأسنان، وكرة الريش الصغيرة لا تظل ثابتة بين اثنين من اللاعبين، كذلك كان موقفي بين يورايا والسيدة هيب. لقد راحا يفعلان معي ما يحلو لهما تمامًا، واستخرجا مني ما لم أكن راغبًا في قوله مطلقًا، وبكل تأكيد فإنني حين أتذكر ما قلته فإنني أحمر خجلًا، وعلى وجه الخصوص حين أتذكر خوضي في تفاصيل، وكما هي الحال في أحاديث المصارحة، فإنني أحسست بعض التفضل كما لو أنني الخبير بالأسرار، بل شعرت كما لو أنني راعٍ أترأس مضيفيَّ المحترمين.

كان من المؤكد أن كلًّا منهما مغرم بالآخر إلى حد كبير. أحسست أن شعورهما طبيعي من دون تصنع، وقد كان لذلك عظيم الأثر على نفسي، أما المهارة التي تابع بها كل منهما الآخر فيما يقوله، فقد كانت تحظى بلمسة فنية بينما لم أزل غضًّا لا أقوى على استيعابها. لمَّا لم يبقَ شيء آخر في نفسي لأخرجه (لأنني لم أكن لأتفوه بشيء عن حياتي خلال عملي في متجر مردستون وجرينبي، أو عن رحلتي للهروب منه)، راحا يتحدثان حول السيد ويكفيلد وأجنيس. ألقى يورايا الكرة إلى السيدة هيب، فأمسكتها السيدة هيب وألقتها مرة أخرى إلى يورايا، احتفظ بها يورايا لبعض الوقت، ثم أعادها إلى السيدة هيب، واستمرا في رميها إلى أن فقدت القدرة على تمييز الشخص الذي حصل عليها، وقد صارت الأمور محيرة إلى أبعد مدى، بل راحت الكرة نفسها تتغير دائمًا. بدأ الحديث في لحظة ما عن السيد ويكفيلد، ثم تحول الآن إلى أجنيس، ثم عاد بعد لحظة إلى فضائل السيد ويكفيلد، أما الآن فقد تحول

نحو إعجابي بأجنيس، ثم -في اللحظة ذاتها- إلى حجم أعمال السيد ويكفيلد وموارد دخله، وفي لحظة تحول إلى حياتنا المنزلية ومشاغلنا بعد الغداء. آلت بنا اللحظة ذاتها إلى شراب النبيذ الذي يحتسيه السيد ويكفيلد، ودوافع احتسائه للخمر، ثم الشفقة عليه لأنه يكثر منه. يبدأ في لحظةٍ الحديثُ عن أمر، ثم يتحول إلى آخر، ثم تجتمع الأحاديث في كل الأمور دفعة واحدة. لم يبادرا طوال الوقت بحديث كثير أو فعل أي شيء سوى تشجعيهما على المضي في حديثي في بعض الأحيان، خوفًا من أن تتغلب عليهما حقارتهما، واحترامًا لتشريفي لهما بزيارتي، لذا وجدت نفسي أفضي بشيء تلو الآخر عن أمور لم أكن أنوي الحديث عنها أو البوح بها، وقد أبصرت أثر حديثي في اهتزاز فتحتي أنف يورايا.

بدأت أشعر بنوع من الانزعاج، ورحت أتمنى لو أنني أنهي هذه الزيارة، فإذا برجل قادم من الشارع يمر بباب المنزل - وكان مفتوحًا لتهوية الغرفة، لأنها كانت حارة، ولم يكن الطقس لطيفًا في ذلك الوقت من العام - ما لبث أن عاد مرة أخرى، وراح ينظر إلى الداخل، ثم دخل صارخًا بصوت عالٍ قائلًا: «كوبرفيلد! هل من الممكن أن يكون هو؟».

كان القادم هو السيد ميكوبر، حقًّا كان السيد ميكوبر، بنظارته، وعصاه، وياقة قميصه، وطلته البهية، ونبرات صوته المزهوة، كان هو بتفاصيله الكاملة.

بسط السيد ميكوبر كفه قائلًا: «عزيزي كوبرفيلد، هذا اللقاء يُحسب بالفعل ضمن ما يثير دهشة العقل، لأن ثمة أمورًا تقع لم تكن بالحسبان ولا تخطر على ذهن البشر... باختصار، إنه لقاء استثنائي إلى

أبعد حد. لقد كنت أسير في الشارع، بينما أفكر في احتمال ظهور شيء ما (وإني الآن لمتفائل إلى حد بعد)، فإذا بي أجد صديقًا يافعًا - ولكنه كبير المقام - يحضر أمامي، وهو الذي يرتبط بأكثر فترات حياتي زخمًا بالأحداث، بل قد أقول إنه رفيق نقاط التحول في حياتي. يا كوبرفيلد، يا صديقي العزيز، كيف حالك؟».

لا أستطيع أن أقول - لا أقدر حقًّا على هذا القول - إنني كنت ممتنًّا لرؤية السيد ميكوبر هناك، إلا أنني سعدت برؤيته أيضًا، وقد صافحته بحماس مستفسرًا عن حال السيدة ميكوبر.

أخذ السيد ميكوبر يلوح بيده كعادته، مسندًا ذقنه إلى ياقة قميصه قائلًا: «شكرًا لك. إنها تتماثل للشفاء بصورة معقولة. لم يعد التوأم يحتاجان إلى أن يستمدا قوتهما من ينابيع الطبيعة...». ثم قال السيد ميكوبر في دفعة من دفعات الثقة للبوح: «باختصار، إنهما صارا مفطومين... أما السيدة ميكوبر، في الوقت الحاضر، فقد صارت رفيقتي في السفر. ستفرح يا كوبرفيلد إن جددت معرفتها بإنسان مثلك أثبت نفسه من جميع النواحي، ممثلًا فاضلًا جديرًا بالثقة في محراب الصداقة المقدس».

قلت إنني سأسعد برؤيتها.

قال السيد ميكوبر: «إنك في غاية الطيبة».

ثم ابتسم السيد ميكوبر، واستقر ذقنه مرة أخرى على قميصه، وأخذ يتلفت حوله.

قال السيد ميكوبر بلطف من دون أن يُوجِّه حديثه إلى شخص

بعينه: «لقد اكتشفت صديقي كوبرفيلد - ليس في عزلة، ولكن في أثناء وجوده في محفل اجتماعي بصحبة سيدة أرملة، يبدو أنه من ذريتها...».
استطرد بعدها السيد ميكوبر، في صورة أخرى من مظاهر الثقة، قائلًا: «يبدو أنه ابنها. وقد شرفني أن أقترب إليهما».

لم أستطع فعل شيء في ظل هذه الظروف، سوى أن أقدم السيد ميكوبر إلى يورايا هيب ووالدته، وهذا ما فعلته. ظلا يذلان أنفسهما أمامه، بينما جلس السيد ميكوبر ولوح بيده بأسلوبه المهذب المعهود. ثم راح السيد ميكوبر يقول: «يتمتع أي صديق لصديقي كوبرفيلد بمكانة ومنزلة خاصة عندي».

قالت السيدة هيب: «إننا منحطان جدًّا يا سيدي. أنا وابني أدنى من أن نصير صديقَين للسيد كوبرفيلد. لقد تكرم وتواضع باحتساء الشاي معنا، وإننا لممتنَّين لمشاركته لنا، وكذلك ممتنان لك على هذا الكرم يا سيدي».

رد السيد ميكوبر بانحناءة قائلًا: «يا سيدتي، إنكِ في غاية الكرم. ما الذي تقوم به الآن يا كوبرفيلد؟ أما زلت تعمل في تجارة النبيذ؟».

انتابني قلق بالغ ورغبة في إبعاد السيد ميكوبر عن هذا النقاش، ومن ثَم أجبته وقد قبضت على قبعتي في يدي، وراح وجهي بلا شك يتوهج خجلًا، فقلت إنني تلميذ في مدرسة دكتور سترونج.

قال السيد ميكوبر: «أأنت تلميذ؟». ثم راح يوجه كلامه إلى يورايا والسيدة هيب، قائلًا: «إنني في غاية السعادة لسماع ذلك. على الرغم من أن عقلًا مثل عقل صديقي كوبرفيلد لا يحتاج إلى هذا التلقين الذي

يحتاجه من هو دونه، ممن في حاجة إلى معرفة أنواع البشر وصنوف الحياة، فلم تزل تربته غنية تعج بالنباتات الكامنة النامية...». ثم استطرد السيد ميكوبر حديثه مبتسمًا، في موجة أخرى من الثقة بالنفس، قائلًا: «باختصار، إنه عقل قادر على فهم الخبرات والعلوم إلى حد بعيد».

أخذ يورايا يطوق إحدى يديه الطويلتين بالأخرى بعد أن كانتا تتأرجحان ببطء، ثم راح يتلوى بشكل مروع بنصف جسده العلوي؛ تعبيرًا منه عن موافقته على هذا التقدير.

تحدثت لأُبعد السيد ميكوبر عن هذا الموضوع، فرحت أقول: «هلا ذهبنا لرؤية السيدة ميكوبر يا سيدي؟».

أجاب السيد ميكوبر بينما ينهض من مجلسه: «هيا بنا، إذا كنت ستقدم لها هذه الخدمة يا كوبرفيلد. لا أتردد أبدًا في البوح أمام حضور أصدقائنا هنا، أنني رجل راح يناضل لعدة سنوات، محاولًا تجاوز ضغوط الأزمات المالية».

كنت على يقين من أنه سيقول شيئًا من هذا النوع بلا شك، فقد كان دائم التفاخر بالأزمات التي واجهها.

استطرد قائلًا: «استطعت أحيانًا أن أتجاوز الأزمات، وفي أوقات أخرى، كانت الأزمات التي أواجهها... باختصار، لقد أرهقتني. مرت بي بعض الأوقات كنت قد تدربت فيها على أن أسدد سلسلة متوالية من الصفعات لها، كما مر بي كثير من الأوقات العصيبة التي استسلمت فيها، وقلت للسيدة ميكوبر، على حد تعبير كاتو: «لقد أصبت يا أفلاطون.

ها قد انتهى كل شيء الآن. لا أستطيع مواصلة القتال أكثر من ذلك»[1].
إلا أنني لم أستمتع طوال حياتي أكثر مما استمتعت في رضا بسكب أحزاني (إذا كان من الممكن أن أصف أزماتي، التي نشأت عن إعلان المحضرين وسندات الدفع بعد شهرين أو أربعة أشهر، بهذه الكلمات)، فأفضيت بها إلى حضن صديقي كوبرفيلد».

ختم السيد ميكوبر هذا المدح الرائق بقوله: «ليلة سعيدة يا سيد هيب! ليلة سعيدة يا سيدة هيب! إنني في خدمتكما». ثم خرج معي بطريقته بالغة الأناقة، وراح يقرع رصيفه بالحذاء محدثًا جلبة، كما راح يدندن بنغمات في أثناء مشينا.

أقام السيد ميكوبر في نزل صغير، وقد استأجر غرفة صغيرة، منعزلة عن الغرفة التجارية، وكانت تفوح منها رائحة التبغ بشدة. أحسب أن الغرفة كانت تقع فوق المطبخ، حيث تسللت رائحة دافئة للسمن وقد ظهرت أبخرتها من خلال بعض الفتحات الموجودة في الأرض، كما غطت الجدران طبقة سميكة من الدهون. عرفت أنها قريبة من الحانة أيضًا، بسبب رائحة المشروبات الكحولية التي فاحت مع جلجلة قرع الكؤوس. استلقت السيدة ميكوبر على أريكة صغيرة، منبسطة تحت صورة لخيول السباق، وقد اقترب رأسها من النار، أما قدماها فراحتا تدفعان آنية الخردل بعيدًا حيث الطرف الآخر من الغرفة، وقد كانت

---

(١) مأساة كاتو: من مسرحيات الإنجليزي جوزيف أديسون. عرضت عام ١٧١٣. تحمل المسرحية أفكارًا رواقية في مواجهة يوليوس قيصر. ربما يستشهد «ميكوبر» بهذه المقولة للتلميح إلى هول محنته ويأسه.

تستخدم بدلًا من النادل. دخل السيد ميكوبر موجهًا حديثه إليها أولًا، فقال: «يا عزيزتي، اسمحي لي أن أقدم لكِ تلميذًا من مدرسة دكتور سترونج».

لاحظت أن السيد ميكوبر لم يزل مرتبكًا - كعادته التي أعرفها دائمًا - بشأن عمري وصفي الدراسي، إلا أنه ظل يتذكر دائمًا، في لمحة لطيفة منه، أنني تلميذ في مدرسة الدكتور سترونج.

لفت الدهشة السيدة ميكوبر، إلا أنها سعدت لرؤيتي. كنت في غاية السعادة لرؤيتها أيضًا. جلست على الأريكة الصغيرة بالقرب منها، بعد أن ألقى كل منا إلى الآخر تحية طيبة.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، هلا تكرمتِ بذكر موقفنا الحالي لكوبرفيلد، فلا يراودني أدنى شك في أنه يود أن يعرفه. أما أنا فسوف أذهب وألقي نظرة على الجرائد الآن، وأرى ما إذا كان أي شيء قد تغير بين الإعلانات المنشورة».

قلت للسيدة ميكوبر بعدما خرج: «لقد ظننت أنكم في بليموث يا سيدتي».

أجابت: «حقًّا يا عزيزي، لقد ذهبنا إلى بليموث يا سيد كوبرفيلد».

ألمحت قائلًا: «حتى تكونوا في قلب الحدث».

قالت السيدة ميكوبر: «حقًّا حتى نكون على مقربة من قلب الحدث. إلا أنه في الحقيقة لم يبقَ للموهبة مكان في الجمارك. كان النفوذ المحلي لعائلتي غير مجدٍ تمامًا، ومن ثَم لم نستطع الحصول على أي فرصة

عمل في هذا القسم، خاصة مع رجل يتمتع بقدرات مثل مواهب السيد ميكوبر. إنهم لا يفضلون توظيف رجل يتمتع بمواهب السيد ميكوبر، لأنه سيُظهر نقص قدرات الآخرين. وبصرف النظر عن هذا الأمر، فإنني لن أخفي عنك يا سيدي العزيز كوبرفيلد، أنه عندما أدرك ذلك الفرع من عائلتي الذي استقر في بليموث أن السيد ميكوبر سيأتي برفقتي، مع ابني ويلكنز الصغير وأخته والتوأم، فإنهم لم يستقبلوهم بالحماسة التي كان يتوقعها، نظرًا لأنه أُطلق سراحه من السجن لتوِّه». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة منخفضة قائلة: «في الواقع... هذا الحديث بيننا فقط - لقد استقبلونا استقبالًا باردًا».

قلت: «آه، يا للعجب!».

قالت السيدة ميكوبر: «نعم. إنه لأمر مؤلم حقًّا أن نتأمل هذا الجانب من البشرية يا سيد كوبرفيلد، لكن استقبالهم لنا كان باردًا بلا ريب. إنني لا أشك في بشاعته. لقد راح هذا الفرع من عائلتي في الواقع، ممن استقروا في بليموث، يتبادلون القيل والقال عن شخصية السيد ميكوبر، قبل أن يمضي على وصولنا إلى هناك أسبوع واحد».

قلت بعد إمعان في التفكير إن الأجدر بهم أن يخجلوا من أنفسهم.

تابعت السيدة ميكوبر: «ومع ذلك، فقد سارت الأمور على هذا النحو، فماذا يمكن لرجل مثل السيد ميكوبر أن يفعل في ظل هذه الظروف؟ لم يتبقَّ سوى مسار وحيد وواضح أمامنا. وهو أن أقترض، من هذا الفرع من عائلتي، مالًا للعودة إلى لندن، بل العودة بأي تضحية».

قلت: «ثم عدتم جميعًا مرة أخرى يا سيدتي، أليس كذلك؟».

أجابت السيدة ميكوبر: «لقد عدنا جميعًا مرة أخرى. استشرتُ فروعًا أخرى من عائلتي منذ ذلك الحين عن المسار الأنسب للسيد ميكوبر - لأني أصر على أنه يجب أن يتخذ مسارًا وظيفيًّا يا سيد كوبرفيلد»، ثم تحدثت السيدة ميكوبر بلهجة منطقية وأكملت قائلة: «من الواضح أن أسرة مكونة من ستة أفراد، باستثناء خادم لها، لا يمكنها العيش معتمدة على لا شيء».

أجبتها قائلًا: «بالتأكيد يا سيدتي».

تابعت السيدة ميكوبر حديثها قائلة: «كان رأي هذه الفروع الأخرى من عائلتي أنه يجب على السيد ميكوبر أن يولي اهتمامه إلى الفحم على الفور».

«إلى ماذا سيدتي؟».

قالت السيدة ميكوبر: «إلى الفحم. أقصد إلى تجارة الفحم. تشجع السيد ميكوبر إلى التفكير في الأمر، وبعد الاستفسار عن الأمر، وجد أنه قد تتاح فرصة لرجل في مثل موهبته في تجارة الفحم في «مدواي». ثم كانت الخطوة الأولى الواضحة - كما قال السيد ميكوبر تمامًا، التي يجب اتخاذها، هي المجيء في زيارة إلى مدواي. وقد جئنا إليها بالفعل ورأيناها». ثم قالت السيدة ميكوبر بنبرة عاطفية: «أقول «نحن» يا سيد كوبرفيلد، لأنني لن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا».

تمتمت بإعجابي وتقديري لها.

عادت السيدة ميكوبر تقول: «لقد جئنا ورأينا مدواي. أما رأيي في تجارة الفحم على ذلك النهر، فإنها مهارة تتطلب موهبة، لكنها بالتأكيد

تتطلب رأس مال كذلك. أما الموهبة فقد حازها السيد ميكوبر من دون أن يمتلك رأس المال. لقد رأينا، على حسب ظني، الجزء الأكبر من مدواي. وما أقوله هو استنتاجي الخاص. كنا على مقربة من هنا، فرأى السيد ميكوبر أنه من العجلة إفلات فرصة رؤية الكاتدرائية. أولًا، نظرًا لأنها تستحق المشاهدة، كما أننا لم نزُرها من قبل؛ وثانيًا، لأنه ثمة احتمال كبير بظهور شيء ما في مدينة الكاتدرائية هذه. لقد جئنا هنا منذ ثلاثة أيام. لم يظهر شيء حتى الآن. وقد لا يفاجئك يا عزيزي السيد كوبرفيلد، بقدر ما قد يدهش الغريب، أن تعرف أننا في الوقت الحالي ننتظر نقودًا محولة من لندن، حتى نستطيع الوفاء بالتزاماتنا المالية في هذا الفندق». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بتأثر بالغ: «وإلى أن يصل هذا التحويل، فإنني معزولة عن منزلي (أقصد بعيدة عن منزل الإقامة في بنتونفيل)، وعن ابني وفتاتي، وعن توأمي».

شعرت بأقصى قدر من التعاطف مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، إزاء هذا الموقف الحرج، وقد بحت بهذا الأمر للسيد ميكوبر، بعد أن عاد في هذه اللحظة، مضيفًا أنني كنت أتمنى لو أن لديَّ ما يكفي من المال لإقراضهما المبلغ الذي يحتاجان إليه. لم يكن جواب السيد ميكوبر سوى تعبير عن انزعاجه وقلقه، ثم قال بينما يصافحني: «يا كوبرفيلد، إنك صديق حقيقي صادق، ولكن عندما تسوء الأمور وتزداد تعقيدًا، فليس أجمل من أن يحوز المرء صديقًا يمتلك أدوات الحلاقة». ما إن انتبهت السيدة ميكوبر إلى هذا التلميح المروِّع، حتى ألقت بذراعيها حول عنق السيد ميكوبر وحثته على الهدوء، فبكى. إلا

أنه تمالك نفسه بعد ذلك بلحظات، بل قرع الجرس للنادل على الفور تقريبًا، وراح يتحدث عن طبق من الكلى المطبوخة الساخنة مع طبق من الجمبري للإفطار في الصباح.

طلبت منهما الإذن بالانصراف، إلا أنهما ضغطا عليَّ كثيرًا للمجيء لتناول الطعام معهما قبل مغادرتهما، حتى إنني لم أستطع رفض هذه الدعوة. إلا أنني كنت أعرف أنني لن أتمكن من الحضور في اليوم التالي، إذ يجب أن أقوم بتحضير درس جديد في المساء. اتفق السيد ميكوبر معي أن يأتي إلى مدرسة الدكتور سترونج في الصباح (حيث شعر بأن التحويلات المالية سوف تصل بالبريد)، ثم اقترح أن تؤجل دعوتي للطعام إلى اليوم الذي يليه، إذا كان الأمر يناسبني. بناءً على الاتفاق، استدعيت للخروج من المدرسة في اليوم التالي، ووجدت السيد ميكوبر في الردهة، وقد جاء ليبلغني أن موعد الغداء سيكون في اليوم المتفق عليه. سألته عما إذا كانت الحوالة قد وصلت أم لا، فما كان منه إلا أن ضغط على يدي ثم غادر.

كنت أنظر من النافذة في المساء نفسه، فإذا بأمر يفاجئني، بل ويثير قلقي على نحو ما، فقد رأيت السيد ميكوبر ويورايا هيب يمشيان معًا، يتأبط كل منهما الآخر. لاح يورايا شاعرًا بالشرف الذي حظي به في تواضعه الجلي. بينما بدا السيد ميكوبر مسرورًا بهذا اللطف وهذه الرعاية التي شمله بها يورايا. إلا أنني تفاجأت إلى أبعد حد، حين ذهبت إلى النزل الصغير في اليوم التالي في ساعة الغداء المحددة، وهي الساعة الرابعة عصرًا، لأعرف -مما قاله السيد ميكوبر- أنه ذهب إلى منزل يورايا، واحتسى معه شراب البراندي بالماء عند السيدة هيب.

قال السيد ميكوبر: «سأخبرك أمرًا يا عزيزي كوبرفيلد. إن صديقك الشاب هيب قد يصير المدعي العام يومًا. آه لو كنت أعرف هذا الشاب، في الفترة التي وصلت فيها الأزمات إلى الاحتقان، كل ما يمكنني قوله هو أنني أظن أنني كنت سأتصرف مع الدائنين بصورة أفضل بكثير مما فعلت».

لم أفهم كيف كان هذا ممكنًا، لأنني أعرف أن السيد ميكوبر لم يسدد إلى دائنيه شيئًا على الإطلاق، إلا أنني لم أرغب في سؤاله عن مقصده. كما أنني لم أرغب في القول إنني آمل ألا يكون قد استفاض في الحديث مع يورايا، أو للاستفسار عما إذا كانا قد تحدثا كثيرًا عني. كنت أخاف من أن أتسبب في إيذاء مشاعر السيد ميكوبر، أو مشاعر السيدة ميكوبر بأي حال من الأحوال، فقد كانت حساسة للغاية. إلا أنني لم أشعر بالراحة حيال هذا السلوك أيضًا، ورحت بعد ذلك أفكر كثيرًا في الأمر.

كان الغداء بسيطًا شهيًّا. يتكون من طبق رائع من السمك، وقطعة مقلية من لحم العجول، وسجق مقلي، ودجاج، وحلوى البودينج. كما شربنا النبيذ والبيرة قوية التأثير. أعدت لنا السيدة ميكوبر بعد الغداء وعاءً ساخنًا من شراب البانش بيديها.

بدا السيد ميكوبر لطيفًا بشكل غير مألوف. إنني لم أعهده من قبل في مثل هذه الصحبة اللطيفة. أثَّر شراب البانش في وجهه فراح يتورد لامعًا، كما لو أنه اكتسى بطلاء لامع عن كامله. كان مفعمًا بالبهجة بعد أن تأثر بأجواء المدينة، واقترح علينا أن نشرب نخب النجاح، مشيرًا إلى أنها صنعت له وللسيدة ميكوبر جوًّا دافئًا ومريحًا للغاية، وأنه لن ينسى أبدًا الأوقات الممتعة التي مروا بها في كانتربري. عرض عليَّ بعد ذلك

شرب نخب صحتي. وقد قام هو والسيدة ميكوبر وأنا نتذكر ذكرياتنا السابقة، وحينها رحنا نبيع المتاع في مخيلاتنا مرة أخرى. طلبتُ بعدها نخب السيدة ميكوبر -أو أنني عرضتُ ذلك على استحياء- فقلت: «إذا سمحتِ لي يا سيدة ميكوبر، سأكون سعيدًا الآن بشرب نخبك يا سيدتي». راح السيد ميكوبر يمتدح شخصية زوجته، وقال إنها ظلت مرشدته وفيلسوفة ناصحة له وصديقته المقربة، وأنه سيوصيني، إن حان وقت زواجي في هذه الحياة، بأن أتزوج من امرأة تشبهها، إذا استطعت أن أجد امرأة أخرى تشبهها.

انتهى شراب البانش، إلا أن السيد ميكوبر ظل في حالة اللطف والحيوية ذاتها. بل ارتفعت معنويات السيدة ميكوبر أيضًا، فبدأنا بالغناء وأنشدنا «نشيد الوداع»[١]. وصلنا إلى مقطع «هذي يدي، يا صديقي الوفي»، وقد تشابكت أيدينا حول المائدة، ثم علت أصواتنا حين غنينا «لنقتدي بأيام ويلي ووت»، ولم تكن لدينا أدنى فكرة عما تعنيه تلك الكلمات، إلا أنها تركت أثرها علينا.

خلاصة القول، إنني لم أرَ إنسانًا مقبلًا على الحياة بكاملها كما كان السيد ميكوبر، حتى لحظات المساء الأخيرة، إلى أن ودعته بخالص الود له ولزوجته الحبيبة. لم أكن مستعدًّا بعد لتلقي الرسالة التالية في

---

(١) نشيد الوداع من تأليف الشاعر الاسكتلندي روبرت برنز. يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الثامن عشر، يؤدَّى النشيد في مناسبات الفراق ويعبر عن الصداقة والوفاء. ترجم النشيد إلى معظم اللغات، ويمتاز بلحن موحد في جميع أنحاء العالم.

الساعة السابعة صباحًا من اليوم التالي، والمؤرخة في التاسعة والنصف مساءً؛ أي بعد ربع ساعة من مغادرتي، ونصها:

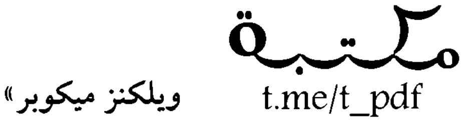
«صديقي الشاب العزيز،

شاءت الأقدار وقضي الأمر... لقد انتهى كل شيء، وبروح تخفي ويلات الخيبات تحت قناع من المرح لم أخبرك في ذاك المساء، أنه لا أمل في وصول الحوالة. وفي ظل هذه الظروف التي من المهين تحملها، ومن المذل التفكير فيها على حد سواء، بل ومن المخزي الكشف عنها، أنهيت حساباتي المالية المستحقة لهذا النزل، عن طريق كتابة إيصالات مستحقة الدفع بعد أربعة عشر يومًا من تاريخ مغادرتي، حيث إنني سأسدد من مقر إقامتي في بنتونفيل في لندن. وحين يأتي موعد استحقاق الإيصال، فإنني لن أستطيع السداد. وتصير النتيجة هي الدمار. إن العاصفة وشيكة، ويجب أن تسقط الشجرة.

فلتتخذ من الرجل البائس الذي يخاطبك الآن يا عزيزي كوبرفيلد، عبرة لك في هذه الحياة. إنه لا يكتب إليك إلا بهذه النية، وتمسكًا بهذا الأمل. فإذا استطاع هذا الرجل أن يفكر في نفسه على هذا النحو من الفائدة، فقد أنارت أمامه ومضة واحدة من اليوم حتى آخر العمر، ربما تنير عليه زنزانته البائسة الذي سيقضي فيها بقية عمره - على الرغم من أن بقاءه على قيد الحياة في الوقت الحالي قد صار أمرًا مشكوكًا فيه على الأرجح.

إنه آخر خطاب سوف تتلقاه يا عزيزي كوبرفيلد.

من المتسول المنبوذ؛




ويلكنز ميكوبر»

اعترتني صدمة عارمة من فحوى هذه الرسالة التي تدمي القلب، حتى إنني هرولت مباشرة نحو الفندق الصغير، وقد نويت أن آخذها في طريقي إلى مدرسة دكتور سترونج، حتى أحاول تهدئة السيد ميكوبر بكلمة تبعث على الارتياح. إلا أنني في منتصف طريقي إلى هناك التقيت بحافلة لندن، وقد أبصرت السيد ميكوبر والسيدة زوجته يركبان في الخلف. كان السيد ميكوبر، في صورته الهادئة، يبتسم في أثناء محادثته للسيدة ميكوبر، بينما يأكل الجوز من كيس ورقي، وقد لاحت زجاجة تخرج من جيب قميصه. إلا أنهما لم يرياني، فقد اعتقدت أنه من الأفضل، بعد أخذ كل الأشياء في الاعتبار، عدم رؤيتهما. لذلك شعرت بثقل كبير في ذهني، وتحولت إلى شارع فرعي كان أقرب طريق إلى المدرسة، وشعرت، بشكل عام، بالارتياح لرحيلهما، على الرغم من أنني ما زلت أحبهما كثيرًا، وعلى الرغم من كل شيء.



# الفصل الثامن عشر

## عودة إلى الماضي

يا لأيامي المنقضية في المدرسة! ها قد عدت إلى الانغماس في حياتي بهدوء... إن عمري ظل يتقدم من دون أن يراه أو يلحظه أحد - من الطفولة حتى الشباب! دعوني أتذكر، حين أعود بمخيلتي إلى الوراء، حيث تلك المياه المتدفقة في جدولها، ها هي الآن تلوح قناة جافة، مكتظة بأوراق الأشجار. إنني لا أبصر أي علامات على ضفافه، حتى أتذكر كيف كانت تجري به المياه.

ما هي إلا لحظة، حتى أعود فأشغل مكاني في الكاتدرائية، حيث كنا نذهب جميعًا في صباح كل أحد، بعد أن نتجمع أولًا في المدرسة للانطلاق إلى هذا الغرض. إن رائحة الغبار، ولفحات الهواء الخالي من دفء الشمس، والشعور بأن العالم صار منغلقًا، ونغمات الأرغن المنبعثة عبر الساحات والممرات المقوسة المكسوة بالأبيض والأسود، لم تلبث أن تُلحق بي أجنحة تعيدني إلى الوراء، فتحملني فوق تلك الأيام، كما لو أنني في حالة بين الحلم واليقظة.

إنني لست الفتى الأخير في المدرسة. لقد استطعت في غضون بضعة أشهر أن أتفوق على الكثير من الطلبة. إلا أن الصبي الأول كان قد بدا لي مخلوقًا جبارًا، بل يقطن بعيدًا ولا يمكن الوصول إلى مكانته هائلة الارتفاع. أما أجنيس فكانت تنفي ذلك وتقول: «لا»، لكنني أقول: «نعم»، وأخبرها أنها لا تدرك حجم مخزون المعرفة التي أتقنها هذا المخلوق الرائع، الذي تظن أنني الضعيف المتطلع قد أصل في يوم ما إلى مستواه من التحصيل. لم يكن الصبي الأول صديقًا لي أو الراعي العام للأولاد، كما كان ستيرفورث، إلا أنني كنت أكن له احترامًا كبيرًا. رحت أتساءل بجد واهتمام عن المركز الذي يصل إليه بعدما يتخرج من مدرسة دكتور سترونج، وماذا يمكن أن تفعل بقية البشر للحفاظ على أي مكانة لهم في وجوده.

ولكن من تكون هذه التي اقتحمت ذاكرتي؟ إنها الآنسة شيبرد التي أحبها.

كانت الآنسة شيبرد طالبة في مدرسة نتنجول للبنات، ملتحقة بالقسم الداخلي. كنت أكن عشقًا للآنسة شيبرد. إنها فتاة صغيرة، ترتدي معطفًا صغيرًا، ذات وجه مستدير وشعر كتاني اللون مجعد. كانت فتيات مدرسة نتنجول يأتين إلى الكاتدرائية أيضًا. كنت لا أستطيع النظر إلى كتابي، لأنني أولي نظراتي إلى الآنسة شيبرد. كانت الراهبات يرنمن، فأنصت إلى صوت الآنسة شيبرد من بين أصواتهن، وأشرد بذهني، وأدرجها ضمن أفراد العائلة المالكة، وأتخيلها في المنزل، وفي غرفتي الخاصة. أتأثر بالفكرة أحيانًا فأصرخ قائلًا: «آهٍ، يا آنسة شيبرد!»، كما لو أنني في سَكرة الحب.

كنت أشك أحيانًا في حقيقة مشاعر الآنسة شيبرد، إلا أن القدر المحتوم، لم يلبث أن رتَّب لنا أن نلتقي في مدرسة الرقص، بل وصارت الآنسة شيبرد شريكتي في الرقص. ألمس قفاز الآنسة شيبرد، وأشعر بإثارة تسري في ذراعي اليمنى عبر سترتي، حتى تخترق منبت شعري. لا أقول شيئًا يُذكَر للآنسة شيبرد، إلا أننا كنا متفاهمين، فأنا والآنسة شيبرد لا نحيا إلا ليربطنا رباط مقدس.

وإني أتساءل لماذا أعطيت الآنسة شيبرد اثنتي عشرة حبة بندق برازيلية سرًّا على سبيل الهدية؟ إنها هدية لا تُعبِّر عن الحب، ومن الصعب وضع حبات البندق في طرد معتاد، ومن الصعب كسرها، حتى إن ضغطت عليها أبواب الغرف، بل تصير دهنية بعد كسرها، ومع ذلك كنت أشعر أنها هدية مناسبة للآنسة شيبرد. أهديت الآنسة شيبرد أيضًا بسكويتًا ناعمًا مشكلًا، كما أعطيتها عددًا لا يحصى من حبات البرتقال. قبَّلتُ الآنسة شيبرد ذات مرة في غرفة حفظ العباءات. يا لها من نشوة! ويا لعذابي وسخطي في اليوم التالي، بعدما سمعت إشاعة متطايرة بأن مدرسة نتنجول للبنات قد عاقبت الآنسة شيبرد في المخزن لأنها تجاوزت حدودها!

لقد باتت الآنسة شيبرد ملاذي وشغف حياتي، كيف يمكنني أن أنهي علاقتي بها؟ لا أستطيع تحمل الأمر. وعلى الرغم من ظني هذا، فإن فتورًا بيني والآنسة شيبرد راح ينمو ويزداد. تناهت إلى أذني همسات الآنسة شيبرد تقول إنها ترجو ألا أحدق فيها، خاصة بعد أن أعلنت أنها تفضل السيد جونز عليَّ... حقًّا قالت جونز! ويا له من فتى

تافه! هنا اتسعت الهوة بيني وبين الآنسة شيبرد. قابلت أخيرًا ذات يوم طالبات مؤسسة مدرسة نتنجول بينما كن في طريقهن للتنزه سيرًا على الأقدام. راحت الآنسة شيبرد تتغامز وتبدي حركات بوجهها وتضحك لرفيقتها. لقد انتهى كل شيء؛ انتهى حب عمري، وقد كان يخيل إليَّ أنها الحياة كاملة. إلا أن الآنسة شيبرد لم يعد لها مكان في الخدمة الكنسية الصباحية، ولم تعد تنتمي إلى العائلة المالكة.

أعود بكل طاقتي إلى نظامي المدرسي، من دون أن يستطيع أحد أن يُكدِّر صفوي. منذ ذلك الوقت صرت في غاية التأدب مع السيدات الشابات من مدرسة نتنجول، ولم ألتفت أو أهتم بأي واحدة منهن، حتى إذا كانت ذات جمال يفوق جمال الآنسة شيبرد أضعافًا وأضعافًا. وجدت أن تعلم الرقص أمر مرهق، ورحت أتساءل لماذا لا تستطيع الفتيات الرقص وحدهن ويتركننا لحالنا. برعت في الأشعار اللاتينية، وصرت أهمل إحكام أربطة حذائي. بات الدكتور سترونج يشير أمام الجميع مجاهرًا بأنني شاب واعد. مما جعل الفرحة تستولي على السيد دك، بل وحوَّلت عمتي إليَّ جنيهًا كاملًا في بريدها التالي.

لاح لذاكرتي شاب يعمل جزارًا، كان يطل برأس يشبه الرأس المسلح في ماكبث. فمن يكون هذا الشاب الجزار؟ كان غلامًا يثير الرعب بين شباب كانتربري. ترامى اعتقاد غامض المصدر، بأن شحم البقر الذي يدهن به شعره يمنحه قوة خارقة، وأنه في قوة رجل بالغ. كان الشاب جزارًا ذا وجه عريض، ورقبة أشبه برقبة الثور، يعلو وجهه صدغان حمراوان غليظان، ويتسم بتفكير واهن، سليط اللسان. لم يكن

يستخدم لسانه إلا في التقليل من شأن السادة المتعلمين من الشباب في مدرسة دكتور سترونج. يقول علنًا إنهم إذا ما اعترضوا على شيء فسيرد بعنف. كان يذكر أسماء بعينهم - بمن فيهم أنا - فيقول إنه يستطيع أن يتكفل وحده بكبحهم وتقييدهم بيد واحدة، وتظل يده الأخرى معقودة خلف ظهره. ظل يقطع الطريق على الأولاد الصغار ليضرب رؤوسهم الهشة، وينادي من ورائي في الشوارع المفتوحة طالبًا قبول التحدي والقتال. ولهذه الأسباب الطائلة عقدت العزم على التعارك مع الجزار.

وقع شجارنا في إحدى الأمسيات الصيفية، عند منحدر أخضر حيث زاوية جدار. التقيت الجزار عند الطريق الذي حددناه. أحضرت معي مجموعة مختارة من صبية مدرستي، أما الجزار فقد جاء مع جزارين آخرين، ونادل، وشاب يعمل كناسًا. استعددنا للقتال، ووقفتُ أنا والجزار وجهًا لوجه. في لحظة واحدة يلكمني الجزار، فيضيء عشر آلاف شمعة أمام حاجبي الأيسر. وبعد لحظة أخرى، لا أستطيع تمييز مكان الجدار، ولا أعرف أين أنا، أو أين يقف أي شخص آخر. صرت بالكاد أميز من أكون أنا ومن الجزار، فقد كنا في حالة من التشابك والصراع الدائم، ورحنا ندهس العشب الأخضر. أبصر الجزار داميًا أحيانًا إلا أنه يظل متماسكًا، ولا أرى شيئًا في أوقات أخرى، بل أجلس لألهث على إحدى ركبتي، ثم أعاود التوجه إلى الجزار بجموح، فأدمي مفاصل أصابعي بعد لكمة على وجهه، من دون أن يبدو أنها أزعجته على الإطلاق. أنتبه أخيرًا، كما لو أنني أستيقظ من نوم ثقيل شاعرًا بغرابة بالغة، فإذا بي أبصر الجزار يسير بعيدًا، وسط تهاني الجزارين

الآخرين والنادل والكناس، بعد أن ارتدى معطفه في أثناء سيره، في خطى تبشر -بحق- أنه المنتصر.

يعيدونني إلى المنزل حزينًا مكروبًا، وتوضع شرائح من اللحم البقري على عيني للتعافي، ثم يُفرَك جسدي بالخل وشراب البراندي، وإذا بي أجد تورمًا هائلًا يعلو شفتي العليا، أخذ يتضخم بصورة مبالغة. مكثت في المنزل لثلاثة أو أربعة أيام، في مظهر سيئ للغاية، بعد أن لاح ظل أخضر يعلو عيني. كنت لأشعر بملل عظيم، لولا أن أجنيس ظلت إلى جانبي كمل لو كانت أختًا لي، وراحت تواسيني، وتقرأ لي، فتجعل الوقت يمر خفيفًا ومرحًا. حازت أجنيس ثقتي الكاملة كما هي حالها معي دائمًا، فرحت أخبرها كل شيء عن الجزار وعن الإساءات التي ألحقها بي. رأت أن شيئًا لم يكن بإمكاني فعله سوى الشجار مع الجزار، وراحت ترتعش وترتجف عند تخيلها صراعي معه.

يسرقنا الوقت كلص من دون أن يلاحظه أحد، فلا يظل آدامز أول طلاب المدرسة في الأيام التالية، بل تمر الأيام أسرع فأسرع من دون أن يعود إلى مكانته السابقة. لقد ترك آدمز المدرسة لفترة طويلة، حتى إنه عاد ذات يوم في زيارة للدكتور سترونج، فلم يجد من يتعرف عليه سواي. يعمل آدمز بعد ذلك في مجال المحاماة بشكل مباشر، وسيكون من المفترض أن يصير محاميًا، ويرتدي باروكة الشعر المستعار مثلهم. أندهش عندما أجده رجلًا أكثر خنوعًا مما تصورت، بل وأقل مهابة في مظهره مما تخيلته. لم يذهل العالم بمهاراته، لأن الحياة تمضي - على حد ظني وخبرتي - في سبيلها، كما لو أن آدمز لم ينتمِ إليها يومًا.

يمر الزمن مثل فراغ، لا يبرز فيه إلا فطاحل الشعراء وأبطال التاريخ في حشد تلو الآخر حتى تبدو الحشود بلا نهاية - وماذا بعد انقضاء الزمن! أجدني الفتى الأول الآن! أراقب صفوف الأولاد الذين في منزلة أدنى مني، فأغدو راعيًا لمثل هؤلاء الفتيان الأقل شأنًا، حيث أجد بينهم فتيانًا يذكرونني بما كنت عليه، عندما أتيت إلى هنا لأول مرة. يبدو أن هذا الرفيق الصغير الذي كنته لم يعد جزءًا مني، بل أتذكره كشيء تركته ورائي في طريق الحياة - كشيء مررت به مرورًا عابرًا، ولم أكنه في الواقع - بل حسبت تقريبًا أنه إنسان غيري.

أما الفتاة الصغيرة التي رأيتها في اليوم الأول من قدومي إلى منزل السيد ويكفيلد، فأين هي؟ لقد رحلت أيضًا، بل حل بدلًا منها تطابق مثالي للصورة، فلم تعد تبدو طفلة تتحرك بين أرجاء المنزل. صارت أجنيس، أختي اللطيفة -رحت أدعوها في أفكاري بناصحتي وصديقي، والملاك الحارس في حياة كل من يتعرض لتأثيرها الهادئ وخيرها الإيثاري- الآن امرأة كاملة.

ما طبيعة التغييرات الأخرى التي طرأت عليَّ، إلى جانب التغييرات في نموي ومظهري، وفي المعرفة التي اكتسبتها كل هذا الوقت؟ صرت أرتدي ساعة وسلسلة ذهبية، وخاتمًا حول إصبعي الصغيرة، ومعطفًا طويل الذيل، وأستخدم قدرًا كبيرًا من الدهان لشعري، والذي يبدو بشعًا إذا ما اقترن بارتداء الخاتم. فهل وقعت في الحب مرة أخرى؟ نعم. إنني هائم في عشق الآنسة لاركنز الكبيرة.

لم تكن الآنسة لاركنز فتاة صغيرة، بل امرأة فارعة، داكنة البشرة

وذات عينين سوداوين، ذات مظهر نسائي أنيق. لم تكن الآنسة لاركنز مثل الدجاجات الصغيرات بل ولم تكن أختها الصغرى كذلك، ويبدو أن أختها الكبرى كانت تكبرها بثلاث أو أربع سنوات. ربما الآنسة لاركنز الكبيرة تبلغ من العمر ما يتجاوز الثلاثين عامًا. وقد تخطى شغفي بها كل الحدود.

كانت الآنسة لاركنز الكبيرة تعرف ضباطًا. وإنه لأمر مروع أن أتحمله، إذ أراهم يتحدثون إليها في الشارع، وأراهم يعبرون الطريق لمقابلتها، بمجرد أن تظهر أمامهم قبعتها -كانت تتمتع بذوق مميز في اختيار قبعاتها- بينما تنزل من الرصيف المقابل، برفقة أختها. كانت تضحك في حديثها معهم، ويبدو أنها تحب حديثهم إليها. رحت أقضي قدرًا كبيرًا من وقت فراغي أغدو وأروح مرات لمقابلتها. فإن استطعت الانحناء لها مرة واحدة في اليوم (كان من المسموح لي أن ألقي عليها تحية وأنحني لها، لسابق معرفتي بالسيد لاركنز)، فإني أشعر بالسعادة تغمرني. أجدني أستحق منها إيماءة ردًّا على التحية بين الحين والآخر. استولت عليَّ عذابات مستعرة، ورحت أعاني لوعة في الليلة التي تسبق محفل الرقص، حيث أعلم أن الآنسة لاركنز الكبيرة سترقص مع الضباط. كان يجب أن أتحصل على نوع من التعويض إزاء هذا الشعور القاسي، إذا كانت ثمة عدالة منصفة في هذا العالم.

راحت لوعتي تزيل شهيتي وإقبالي على الطعام، وجعلتني دومًا أرتدي منديلي الحريري الجديد. لا أشعر بالراحة إلا بارتداء أفضل ملابسي، وتنظيف حذائي مرة تلو أخرى. إذن يبدو لي أنني الأجدر

باستحقاق قلب الآنسة لاركنز الكبيرة. صار كل ما يخصها أو يرتبط بها ثمينًا عندي. أما السيد لاركنز، فرجل عجوز خشن، ذو ذقن مزدوج، وقد كانت إحدى عينيه ثابتة في رأسه، وقد صار بدوره محفوفًا باهتمامي. إذا لم أستطع مقابلة ابنته، فإني أذهب إلى لقائه فأقول له: «كيف حالك يا سيد لاركنز؟ هل الشابات وجميع أفراد الأسرة بخير؟»، تنفضح نياتي إلى الحد الذي يجعلني أحمرُّ خجلًا.

أفكر باستمرار في سني، فأدرك أنني في السابعة عشرة من عمري، وأن عمر السابعة عشرة يبدو صغيرًا أمام عمر الآنسة لاركنز الكبيرة، وماذا يهم في ذلك؟ بالإضافة إلى أنني سأكمل الواحدة والعشرين في وقت قريب جدًّا. أتجول حول منزل السيد لاركنز في المساء بانتظام، على الرغم من انفطار قلبي لرؤية الضباط يدخلون إليه، أو حين سماع أصواتهم في غرفة المعيشة، حيث كانت تعزف الآنسة لاركنز الكبيرة على قيثارتها. كنت أغار حتى أمشي هائمًا في جولتين أو ثلاث جولات، بطريقة مريضة وسريعة، حول المنزل، بل أدور حوله بعد أن تأوي العائلة إلى الفراش متسائلًا عن مكان غرفة الآنسة لاركنز الكبيرة. أعترف الآن أنني كنت أبالغ في محاولتي لمعرفتها، وأنني حسبت غرفتها هي غرفة السيد لاركنز. رحت أتمنى أن يشتعل بها حريق، فيهرول الجميع إلى الخارج مرعوبين، فأندفع بينهم لأقتلع سلمًا، وأثبته على نافذتها، فأنقذها بين ذراعي، ثم أعود للحريق لشيء تركتْه وراءها، فأهلك بين النيران لأنني عمومًا لا أكترث إلا للحب من أجل الحب، وأحسب أنني سأكون راضيًا عن مظهري البطولي أمام الآنسة لاركنز، ثم أفنى.

بشكل عام كانت أحيانًا تظهر أمامي رؤى أكثر إشراقًا. أراني مرتديًا ثيابي عن كاملها لمدة ساعتين، لحضور حفل راقص ضخم يُقام عند السيد لاركنز (من المتوقع أن يقام في غضون ثلاثة أسابيع)، فأشبع خيالي بصور مبهجة. أتخيل نفسي وقد تشجعت لطلب الرقص مع الآنسة لاركنز. أتخيل الآنسة لاركنز بينما تغرق رأسها فوق كتفي، وتقول: «آهٍ يا سيد كوبرفيلد، هل يمكنني أن أصدق أذني!». أتخيل السيد لاركنز ينتظرني في صباح اليوم التالي، ثم يقول لي: «يا عزيزي كوبرفيلد، لقد قالت لي ابنتي كل شيء. ولا أجد مانعًا يعترض سن الشباب. ها هي عشرون ألف جنيه. فلتعِش سعيدًا!». تخيلت أن قلب عمتي قد لان، وراحت تباركنا. وكذلك حضر السيد دك والدكتور سترونج حفل الزواج. إنني إنسان عاقل على حسب ظني؛ أقصد أنني أتصور، عند النظر إلى الماضي، أنني كذلك، وأنني بلا شك لفي خجل حين أتذكر هذه الأخيلة، إلا أن هذا ما وقع على الرغم من أي شيء.

أستحضر توجهي إلى ذاك المنزل المسحور، حيث الأضواء، والثرثرة العالية، والموسيقى، والزهور، وكذلك الضباط – ممن يؤسفني رؤيتهم – والآنسة لاركنز الكبيرة، تشتعل في زهو من الجمال. كانت ترتدي ملابس زرقاء، وقد زينت شعرها بأزهار زرقاء كذلك – لا تنسني[1] – كما لو كانت بحاجة إلى ارتداء ملابس تشي بألاَّ أنسى. إنه أول حفل للكبار أدعى إليه على الإطلاق، وقد كنت غير مرتاح إلى

---

(١) نوع من الأزهار زرقاء اللون التي تنمو في الغابات البرية، والسهول المعتدلة. يطلق عليها العلماء اسم «ميوسوتيس»، وتعرف بالعربية باسم «أذن الفأر»، وكذلك يطلق عليها في بعض البلدان اسم «لا تنسني».

حد ما، لأنه على ما يبدو لا تربطني علاقة بأي شخص فيه، ولا يُظهر أي إنسان حاجته إلى التحدث إليَّ، باستثناء السيد لاركنز، الذي راح يسألني عن حال زملائي في المدرسة، وهو سؤال لم يكن هناك داعٍ لطرحه، لأنني لم آتِ إلى الحفل حتى أتعرض للإهانة.

وقفت في مدخل القاعة لبعض الوقت، ونظرت إلى معشوقة قلبي، فإذا بها تقترب مني - هي بذاتها، الآنسة لاركنز الكبيرة - وتسألني بمرح: هل ترقص؟

أتلعثم مع انحنائي أمامها، قائلًا: «معكِ يا آنسة لاركنز؟».

تسأل الآنسة لاركنز: «هل سترقص مع أي شخص آخر؟».

«لن أسعد بالرقص مع أي شخص آخر».

تضحك الآنسة لاركنز وتحمر خجلًا (أو أتصور أنها تحمر خجلًا)، ثم تقول: «في المرة بعد القادمة، سأكون سعيدة جدًّا».

يحين الوقت المحدد. تقول الآنسة لاركنز، بعدما أقدم نفسي للرقص: «إنها رقصة الفالس، على ما أظن، هل ترقص الفالس؟ إذا لم تكن تعرفها، فإن الكابتن بيلي...».

إلا أنني أرقص الفالس (بل إنني أجيد رقصها، وهذا ما فعلته)، فأجذب الآنسة لاركنز. آخذها بحزم من جانب النقيب بيلي. إنه يتألم، لا يخامرني شك في تألمه. إلا أنني لا أهتم لأمره. لقد عانيت أنا أيضًا. وإنني لأرقص مع الآنسة لاركنز الكبيرة، فلا أعرف أين أنا، ولا بين مَن، أو إلى متى. لا أعرف سوى أنني أهيم سابحًا في الفضاء، مع ملاك

أزرق، في حالة من السكْر المبهج، حتى أجد نفسي وحيدًا معها في غرفة صغيرة، مستلقيًا على أريكة. تبدو معجبة بزهرة (كاميليا جابونيكا وردية اللون، سعرها نصف كروان)، في عروة سترتي. أعطيها لها وأقول:

«أطلب مقابلًا لا يقدر بثمن أمامها يا آنسة لاركنز».

قالت الآنسة لاركنز: «حقًّا! ماذا يكون؟».

«زهرة منكِ، لكي أعتز بها كما يحرص البخيل على الذهب».

تقول الآنسة لاركنز: «يا لك من فتى جريء. ها هي لك».

تعطيني إياها، من دون أن تبدي استياء، فأضعها على شفتي، ثم أقربها من صدري. تضحك الآنسة لاركنز، ثم تمد يدها نحو ذراعي، وتقول: «أما الآن فأعدني إلى الكابتن بيلي».

أهيم حين أتذكر هذه المقابلة العذبة، وخطوات رقصة الفالس. أذكر بعدما عادت إليَّ مرة أخرى، مع رجل عجوز، كان يقامر بالأوراق طوال الليل، وقد استندت إلى ذراعه، وأخذت تقول:

«آهٍ! ها هو صديقي الجريء! إن السيد شيستل يريد أن يتعرف عليك يا سيد كوبرفيلد».

شعرت على الفور أنه صديق للعائلة، فصرت ممتنًّا لمعرفته.

يقول السيد شيستل: «إنني معجب بذوقك يا سيدي. يا له من ذوق خلَّاق. أظن أنك لا تهتم كثيرًا بزراعة حشيشة الدينار، إلا أنني مزارع كبير جدًّا، وإذا رغبت في القدوم إلى منطقتنا - في حي آشفورد - أو كنت مارًّا بالقرب من مكاننا، فسوف يسعدنا أن تحل ضيفًا بيننا لو أردت».

أشكر السيد شيستل بحرارة، وأصافحه. أحسب أنني في حلم سعيد. أرقص مع الآنسة لاركنز الكبيرة مرة أخرى. تقول إنني أرقص الفالس بشكل جيد! أعود إلى المنزل محاطًا بنعيم لا يوصف، وأستمر في الرقص في خيالي طوال الليل، بينما تلتف ذراعي حول الخصر الأزرق لمعشوقتي الآسرة. تضيع عدة أيام بعد ذلك، وأنا هائم في تأملات حماسية. لكنني لا أراها في الشارع، ولا ألمحها حين أزورهم. لا أجد ما يضمد خيبة أملي غير ذاك الوعد المقدس الذي يكمن في الزهرة الذابلة.

تقول أجنيس ذات يوم بعد الغداء: «يا تروتوود، من برأيك سيتزوج غدًا؟ إنه شخص تحبه».

«لستِ أنتِ العروس على ما أظن يا أجنيس».

ترفع وجهها المبتهج من أثر النوتة الموسيقية التي تنسخها، فتقول: «ليس أنا! هل تسمعه يا أبي؟ إن العروس هي الآنسة لاركنز الكبيرة».

فإذا بي أحوز ما يكفي من القوة لأسألها: «أتتزوج الكابتن بيلي؟».

«لا، ليس الكابتن. ستتزوج السيد شيستل المزارع».

أشعر بالاكتئاب الشديد لمدة أسبوع أو أسبوعين. أخلع خاتمي، وأرتدي أسوأ ملابسي، ولا أستخدم دهان الشعر، وأتحسر على زهرة الآنسة لاركنز الذابلة. أتذكر أنني بحلول ذاك الوقت، انتابني شعور بالتعب من هذه الطريقة في الحياة. تلقيت استفزازًا جديدًا من الجزار، فإذا بي أرمي بالزهرة بعيدًا، وأخرج لقتال الجزار، فألحق به الهزيمة.

ما ألبث أن أستأنف ارتداء خاتمي من جديد، وأستخدم كذلك دهان شعري باعتدال. كانت هاتان العلامتان آخر ما استطعت تمييزهما، أما الآن فأتقدم في عمري نحو السابعة عشرة.



# الفصل التاسع عشر

## أنظر حولي، فأكتشف أمرًا

لا أعرف ما إذا كنت سعيدًا أم حزينًا. انتهت أيام دراستي، وقد حان وقت تخرجي في مدرسة دكتور سترونج. كنت سعيدًا للغاية في مدرستي، وقد ارتبطت بالدكتور برابط قوي، وكنت مرموقًا ومميزًا في ذلك العالم الصغير. صرت آسفًا على رحيلي للأسباب السالفة، إلا أنني كنت سعيدًا إلى حد ما، ولكن لأسباب أخرى. شغلت خاطري أفكار ضبابية عن أنني صرت شابًّا حرًّا في تصرفاته، وأنني سأغدو ذا شأن لكوني شابًّا مسؤولًا عن تصرفاته. راحت تتمثل لذهني أمور رائعة قد وجب أن يشهدها هذا المخلوق الرائع ويقوم بها، والأفعال المميزة التي لا يمكن أن يفشل في تحقيقها. كما جذبتني فكرة تحقيق نفسي في المجتمع أشد الانجذاب. كانت لهذه الاعتبارات الحكيمة سلطة قوية للغاية على ذهني الصبياني، حتى إنني، وفقًا لطريقة تفكيري آنذاك، تركت المدرسة من دون ندم حقيقي على مغادرتها. لم تترك مغادرتها أثرًا يُذكَر مقارنة بأثر فراقي عن الآخرين. أحاول عبثًا أن أتذكر ما شعرت به حينها، أو تذكر الملابسات التي دارت، لكنها ليست بالأهمية التي تشغل ذاكرتي. أحسب أن الانفتاح على عالمي الجديد قد أربكني.

أعلم أن خبرتي مع أحداث سالفة لم تزل قليلة أو أقل من أن تُذكَر، بل كانت الحياة أشبه بقصة خرافية رائعة، كنت على وشك قراءتها، لأبدأها قبل أي شيء آخر.

لقد أجريت أنا وعمتي مناقشات جادة عديدة حول العمل الذي يجب أن أشغله. رحت أسعى لمدة عام أو أكثر، إلى العثور على إجابة مُرضية لسؤالها المتكرر: «ماذا أريد أن أكون؟»، لكنني لم أمِل إلى شيء على نحو خاص، أتصور نفسي أعمل به. لو كانت معرفتي بالملاحة قد ألهمتني يومًا أن أقود مراكب لرحلة استكشافية سريعة، فتجولت حول العالم في رحلة استكشافية ظافرة، لحسبت أنني مناسب تمامًا لهذا العمل. إلا أنني لم أتلقَّ أي مهارة إبداعية في هذا الشأن، ومن ثَم كانت رغبتي هي أن أسلك عملًا لا يكلف عمتي تكلفة باهظة، وأن أقوم بواجبي فيه مهما كانت طبيعته.

كان السيد دك يساهم بانتظام في حضوره لمجالسنا، بسلوكه التأملي والحكيم. لم يقدم اقتراحًا إلا مرة واحدة (لا أعرف ما الذي ألهمه إياه أو ألقى به في رأسه). اقترح فجأة أن أعمل «نحاسًا». استقبلت عمتي هذا الاقتراح استقبالًا سيئًا للغاية، حتى إنه لم يجرؤ على المغامرة بطرح أي اقتراح بعده قَطُّ، ولكنه اقتصر على النظر إليها باهتمام لمعرفة اقتراحاتها، وقد راح يهز نقوده المعدنية مصلصلًا.

قالت عمتي، ذات صباح في موسم احتفالات عيد الميلاد بعد أن تركت المدرسة: «أنصت يا تروت يا عزيزي لما أقوله لك، لأن هذه النقطة المعقدة لم تزل غير مستقرة، ويجب ألا نخطئ في قرارنا قدر

استطاعتنا، ولتساعدني على ذلك. أظن أنه من الأفضل أن نستريح لبعض الوقت حتى نلتقط أنفاسنا، وفي غضون هذه الهدنة، عليك أن تحاول النظر إلى الأمور من وجهة نظر جديدة، لا من منظور طالب في المدرسة».

«سأفعل يا عمتي».

تابعت عمتي تقول: «لقد خطر لي أن نجري تغييرًا بسيطًا، أن نلقي نظرة عابرة على الحياة خارج الديار، فقد يصير الأمر مفيدًا ويساعدك على التوصل إلى رأي، وتكوين حكم أفضل على أمورك. فما رأيك على سبيل المثال في أن تقوم برحلة إلى الجزء القديم من القرية مرة أخرى، فتزور هذه الـ... - تلك المرأة القاطنة بعيدًا والتي تحمل أكثر الأسماء غرابة ووحشة؟». تحدثت إليَّ عمتي بينما تفرك أنفها لأنها لم تستطع أبدًا أن تغفر تمامًا لبيجوتي لقبها هذا.

«هذا أحب شيء إليَّ من بين كل الأشياء في العالم يا عمتي».

قالت عمتي: «حسنًا، إنه رأي صائب، لأنني أرجحه أيضًا. لكن من الطبيعي أن يكون اختيارك موافقًا لعقلك. وإنني مقتنعة جيدًا أن كل ما تفعله، يا تروت، سيكون دائمًا منضبطًا وعقلانيًّا».

«آمل هذا يا عمتي».

قالت عمتي: «إن أختك، بيتسي تروتوود، كانت لتصير فتاة منضبطة وعقلانية أكثر من أي فتاة أخرى في مثل هذا الوقت. ستصير أنت جديرًا بها، أليس كذلك؟».

«أتمنى أن أكون جديرًا بحسن ظنكِ يا عمتي. وهذا كل ما أرجوه وأسعى إليه».

قالت عمتي بينما تنظر إليَّ باستحسان: «من رحمة الله أن أمك الطفلة المسكينة لم تعِش حتى هذا اليوم، وإلا صارت مدللة مزهوة بولدها بحلول هذا الوقت، حتى ينقلب رأسها الصغير الناعم بالكامل، إذا كان ثمة شيء فيها لينقلب». (بررت عمتي دائمًا أي ضعف منها أمامي، عن طريق انتقالها للحديث بهذه الطريقة إلى أمي المسكينة)، أكملت: «يا إلهي يا تروتوود، كم تُذكِّرني بها!».

قلت: «أرجو أن أكون كذلك بكل سرور يا عمتي».

قالت عمتي بشكل قاطع: «إنه يشبهها يا دك، إنه يشبهها للغاية، كما كانت تبدو تمامًا في ذلك اليوم قبل أن تبدأ في الولادة - يا الله، كم يشبهها، بينما يطل بنظراته نحوي. يا لهاتين العينين!».

قال السيد دك: «هل يشبهها بالفعل؟».

قالت عمتي بحزم: «وإنه يشبه ديفيد أيضًا».

قال السيد دك: «إنه يشبه ديفيد جدًّا».

استأنفت عمتي تقول: «ما أريدك أن تكونه يا تروت - لا أعني جسديًّا، لكن أخلاقيًّا، حيث إنك تتمتع بالفعل بهيئة جيدة جسديًّا - هو أن تصير رفيقًا حازمًا؛ أن تصير إنسانًا ناضجًا طيبًا، يتمتع بإرادة خاصة مميزة». راحت عمتي تهز قبعتها أمام وجهي، وتقبض على يدها، ثم أكملت قائلة: «تصير ذا عزم يا تروت، وتتمتع بشخصية...

بقوة شخصية لا تتأثر بأي شخص، أو أي شيء إلا لسبب وجيه. هذا ما أريدك أن تكونه، وإنه الأمر نفسه الذي كان من الممكن أن يتمتع به كل من والدك ووالدتك، يعلم الله، إن ذلك لكان أفضل لهما».

أشرت إلى أنني أرجو أن أصير ما وصفته.

قالت عمتي: «لكي تبدأ، بطريقة بسيطة، في الاعتماد على نفسك، والتصرف بنفسك، فإنني سأرسلك إلى هذه الرحلة بمفردك. لقد فكرت ذات مرة في أن يسافر السيد دك معك، ولكنني أمعنت التفكير لمرة ثانية، ورأيت أن أبقيه هنا ليعتني بي».

بدا السيد دك محبطًا بعض الشيء للحظة، إلا أن شرف وكرامة الاضطرار إلى رعاية أروع امرأة في العالم، قد أعاد الإشراق إلى وجهه.

قالت عمتي: «بالإضافة إلى ذلك، لا بد أن تكمل المذكرات».

قال السيد دك على عجل: «آهٍ، بالتأكيد. إنني أعتزم يا تروتوود على إتمامها على الفور - يجب أن يتم ذلك على الفور! وبعد ذلك سيدخل، كما تعلم - وبعد ذلك سيـ...». توقف السيد دك لفترة طويلة ليضبط نفسه، ثم أكمل حديثه قائلًا: «ستتوفر مجموعة جميلة من الأسماك!».

تتبعنا مخطط عمتي السخي، فجهزوا أموري في فترة وجيزة، وزودوني بالنقود وحقيبة ضخمة للسفر، وأرسلوني بحنان ورعاية إلى بعثتي. زودتني عمتي ببعض النصائح الطيبة وقت رحيلي، وأمطرتني بوابل من القبلات، وقالت إن هدفها هو أن أتأمل ما حولي، فأهتدي إلى التفكير، لذلك فإنها تنصحني بالبقاء بضعة أيام في لندن -إن أحببت البقاء- إما في طريقي إلى سافوك، أو في طريق عودتي. باختصار،

صرت حرًّا فيما أفعله، لمدة ثلاثة أسابيع أو ما يقرب من شهر، ولم تُفرض على حريتي أي شروط أخرى غير التفكير سالف الذكر والتأمل فيما حولي، والتعهد بالكتابة ثلاث مرات في الأسبوع، والإبلاغ عن حقيقة أموري بأمانة.

ذهبت إلى كانتربري أولًا، لأستأذن من أجنيس والسيد ويكفيلد (لم أترك غرفتي القديمة في منزلها بعد)، وكذلك حتى أودع الدكتور الطيب. كانت أجنيس سعيدة برؤيتي أيما سعادة، وأخبرتني أن المنزل قد تبدلت حاله منذ أن غادرته.

قلت: «إنني متأكد من أنني أجد نفسي غريبًا عندما أكون بعيدًا عن المنزل، حتى يخيل لي أنني أحتاج إلى عون يدي اليمنى عندما أفتقدك. إلا أن هذه العبارة لا تعني الكثير لأن يدي اليمنى لا تحمل عقلًا أو قلبًا. إن كل من يعرفكِ يسعي إلى أن يستشيركِ ويطلب نصحكِ يا أجنيس».

أجابت مبتسمة: «إن كل من يعرفني يُدللني، على ما أظن».

«ليس تدليلًا. إنكِ لا تشبهين أي إنسان. أنتِ بارعة للغاية، وذات روح لطيفة جدًّا. كما أنكِ تتمتعين بأخلاق محببة، وأنتِ دائمًا على حق».

قالت أجنيس بعد أن أطلقت ضحكة ساحرة وعادت للعمل في التطريز: «إنك تتحدث، كما لو أنني الآنسة لاركنز السابقة».

أجبتها وقد احمر وجهي خجلًا بعد أن تذكرت الوردة الزرقاء: «على مهلكِ! ليس من العدل أن تسيئي إلى ثقتي بكِ، إلا أنني سأثق بكِ دومًا، تمامًا كما أنتِ دومًا يا أجنيس. لا أستطيع أن أبتعد عن ثقتي

بكِ أبدًا. سأخبركِ دائمًا كلما وقعت في مشكلة أو وقعت في الحب، إذا سمحتِ لي - إلى أن أقع في حب جاد».

قالت أجنيس بينما تضحك مرة أخرى: «حقًّا، لقد كنت دائمًا جادًّا في حبك!».

قلت ضاحكًا بدوري، من دون أن يحمر وجهي خجلًا: «آهٍ! كان ذلك عندما كنت طفلًا أو تلميذًا. إن الزمن يتغير الآن، وأحسب أنني سأصير جديًّا للغاية في يوم من الأيام. وإني أعجب من أنكِ لستِ جادة حتى يومنا هذا يا أجنيس».

ضحكت أجنيس مرة أخرى وهزت رأسها موافقة.

قلت: «آهٍ، أعلم أنكِ لستِ جادة! لأنكِ لو كنتِ جادة لأخبرتِني بأمركِ، أو على الأقل...». لاحظت هنا لونًا من حمرة خافتة تعلو وجهها وتشي بالخجل، فأكملت: «كنتِ لتتركي لي أن أكتشف ذلك بنفسي. لا أعرف أحدًا يستحق حبكِ يا أجنيس. يجب أن يولد إنسان يتمتع بنبل فائق، ليصير أجدر بكِ من أي شخص رأيته من قبل هنا، ومن ثَم أُدلي بموافقتي أولًا. سأحرص في الوقت القادم على الحذر من كل المعجبين بكِ. وسأوفَّق في الأمر وأنجح في ملاحظتي، أؤكد لكِ».

واصلنا حديثنا حتى هذه اللحظة بمزيج من الدعابة والجدية، والتي نمت بشكل طبيعي نتيجة لعلاقاتنا المألوفة منذ فترة طويلة، والتي بدأت منذ أن كنا أطفالًا. إلا أن أجنيس، رفعت عينيها فجأة نحو وجهي، وقد راحت تتحدث بلهجة مختلفة، فقالت:

«يا تروتوود، إن ثمة شيئًا أريد أن أسألك عنه، وقد لا تتاح فرصة

أخرى لمعرفتي حتى وقت طويل، ربما هو شيء لم أكن لأطلبه، على ما أظن، من أي إنسان آخر. فهل لاحظت أي تغيير تدريجي يظهر على أبي؟».

كنت قد لاحظت تغيره بالفعل، وكثيرًا ما رحت أتساءل عما إذا كانت قد لاحظت الأمر أيضًا. يبدو أن الإجابة قد ظهرت هذه اللحظة على ملامحي، لأنها أشاحت بعينيها بعد لحظات وقد رأيتهما محملتين بالدموع.

قالت بصوت منخفض: «قل لي ما الأمر».

«أظن - هل أكون واضحًا تمامًا يا أجنيس، إذا قلت إنني أحبه كثيرًا؟».

قالت: «نعم».

«أتصور أنه يؤذي نفسه بتلك العادة التي ازدادت منذ أن جئت إلى هنا لأول مرة. وأنه غالبًا ما يكون مضطربًا للغاية - أو هكذا خيل إليَّ».

قالت أجنيس وهي تهز رأسها: «إن الأمر ليس خيالًا».

«إن يده ترتجف، وكلامه ليس واضحًا، وعيناه تبدوان جامحتين. لقد لاحظت أنه في مثل تلك الأوقات، وعندما يصير في مثل هذا الاضطراب، فإنه يطلب مني أن أقوم له ببعض الأعمال».

قالت أجنيس: «عن طريق يورايا».

«نعم، ويبدو أنه يشعر بعدم لياقته للقيام بالعمل، أو عدم فهمه، أو أنه يظهر شيئًا من حالته رغمًا عنه، مما يجعله في حالة من الغضب تدفعه

إلى الأسوأ في اليوم التالي، ثم تزداد حالته سوءًا في اليوم الذي يليه، وهكذا يغدو منهكًا خائر العزم. لا تنزعجي مما قلته يا أجنيس. إنني رأيته في مثل هذه الحالة، في مساء يوم ليس ببعيد، وقد أسند رأسه إلى مكتبه، وأخذ يذرف الدموع مثل طفل».

مررت يدها بهدوء أمام شفتي حين كنت أتحدث، وما هي إلا لحظة حتى أدركت والدها واقفًا عند باب الغرفة، وإذا بها تستقبله وقد تعلقت بكتفه. أحسست من تعبير وجهها، بينما كانا يتطلعان نحوي، بتأثير بالغ. كانت هذه النظرات تشي بولع عميق، وامتنان له على كل حبه واعتنائه، وكل مظاهر رعايته الطيبة، كما حملت توسلًا حارًّا لي بأن أعامله بلين، حتى في أعماق أفكاري، وألا أسمح لاستنتاجات قاسية أن تجد مكانًا في أعماقي ضده. لقد لاحت على الفور فخورة به، ومُكرِّسة حياتها لحبه، ومع ذلك كانت متعاطفة تمامًا وراثية متألمة لحاله، وكانت تعتمد على أن أصير مثلها إلى حد بعيد. لم يكن من الممكن لأي كلمات تتفوه بها أن تُعبِّر عن مثل هذا الشعور الذي انساب داخلي وزلزلني.

كان من المفترض أن نستعد لشرب الشاي في منزل الدكتور. ذهبنا إلى منزله في الوقت المحدد، فوجدنا الدكتور وزوجته الشابة ووالدتها يجلسون ملتفين حول المدفأة. استقبلني الدكتور كضيف شرف، بعدما تأثر بخبر سفري لو أنني مسافر للصين، وطلب إلقاء قطعة من خشب إلى النار حتى يرى وجه تلميذه الأثير بينما يحمر متوهجًا من أثر النيران.

تحدث الدكتور وهو يدفئ يديه قائلًا: «لن أرى يا ويكفيلد مزيدًا من الوجوه الجديدة تعوضني عن وجه تروتوود. لقد صرت كسولًا

أسعى إلى الراحة. سوف أتخلى عن الصبية جميعهم في غضون ستة أشهر أخرى، ومن ثَم أعيش حياة أهدأ».

أجاب السيد ويكفيلد: «كنت تقول الأمر نفسه طوال السنوات العشر الماضية يا دكتور».

رد الدكتور قائلًا: «ولكني الآن أقصد تنفيذ قولي. سيخلفني المعلم الأول - وإنني جاد أخيرًا - لذا سيتعين عليك قريبًا ترتيب عقود بيننا، وإلزامنا بها بشدة، كما لو أنك تحكم بين محتالين».

قال السيد ويكفيلد: «وأن أعمل على ألا يستغلك أحد، أليس كذلك؟ كما كنت لتفعل بالتأكيد في أي عقد تبرمه بنفسك. حسنًا، إنني مستعد لإتمامه. ثمة مهام أسوأ من ذلك تواجهني في عملي».

قال الدكتور مبتسمًا: «لن يشغلني بعد هذا سوى التفكير في قاموسي، وهذا العقد الأخير يا آني».

نظر إليها السيد ويكفيلد، بينما كانت جالسة إلى طاولة الشاي مقابل أجنيس. بدت لي أنها تتجنب النظر إليه في تردد وخجل لا يُضاهى، حتى جذبت بسلوكها انتباهه وركز بصره نحوها، كما لو أن شيئًا ما يدور في خلده.

قال بعد صمت قصير: «وصل بريد من الهند. لقد انتبهت إليه».

قال الدكتور: «يا لتوافق هذه المناسبة! لقد وصلتنا رسائل من السيد جاك مالدون!».

صارت السيدة ماركلهام تهز رأسها وتقول: «حقًّا! يا لك من

مسكين يا عزيزي جاك! ما لهذا المناخ المتعب! كأنما العيش فيه - كما أخبرتنا - ليس سوى حياة على كومة من رمال، وتحت عدسة تُركِّز الضوء فتحرق! لقد بدا قويًّا، لكنه لم يكن كذلك. كانت روحه لا جسده يا عزيزي الدكتور هي التي غامر بها بجرأة عارمة. إنني على يقين يا عزيزتي آني أنكِ تتذكرين تمامًا أن ابن عمكِ لم يكن قويًّا قَطُّ، ولا يمكن تسميته بـ«الخارق» كما تعلمين». راحت السيدة ماركلهام تتلفت مُركزة نظرها إلينا بشكل عام، حين أكملت قائلة: «منذ ذاك الوقت عندما كان هو وابنتي طفلين، يتجولان معًا ذراعًا بذراع، طوال النهار».

وهكذا خاطبت آني، إلا أنها لم تتفوه بأي رد.

راح السيد ويكفيلد يسأل: «هل أستنتج مما تقولين يا سيدتي، أن السيد مالدون مريض؟».

ردت الجندي العجوز قائلة: «أجيب أنا! يمكن أن يكون أي شيء يا سيدي العزيز».

قال السيد ويكفيلد: «عدا أن يكون في صحة طيبة، أليس كذلك؟».

قالت الجندي العجوز: «حسنًا، عدا أن يكون في صحة جيدة حقًّا! لقد أصيب بلا شك بضربات الشمس المروعة، وحمى الغابات الوعرة، وكافة السقام التي يمكنك تصورها». ثم أكملت الجندي العجوز قولها مستسلمة إلى نبرة يائسة: «بالطبع كان قد استسلم تمامًا بعدما خرج لأول مرة».

سأل السيد ويكفيلد: «هل قال كل هذا الكلام؟».

أجابت السيدة ماركلهام، وهي تهز رأسها ومروحتها: «أي شيء يقول؟ يا سيدي العزيز، إنك لم تزل تعرف القليل عن جاك مالدون المسكين بعد طرحك لهذا السؤال. أي شيء يقول؟ ليس هو بالشخص الذي يبوح، وإن جررته في أعقاب أربعة خيول برية جامحة».

قالت السيدة سترونج: «يا أمي!».

أجابتها والدتها قائلة: «يا آني، يا عزيزتي، إن عليَّ للمرة الأولى والأخيرة أن أتوسل إليكِ حقًّا ألا تقاطعي حديثي، إلا إذا كنتِ تؤكدين قولي. إنكِ تعلمين جيدًا كما أعلم تمامًا، أن ابن عمكِ مالدون يُفضل أن يُجر في أعقاب أي عدد من الخيول البرية -لماذا أقصر نفسي على أربعة إذن! لن أقصر نفسي على أربعة- بل ثمانية خيول، بل ستة عشر خيلًا، بل اثنان وثلاثون، عوضًا عن قول أي عدد محسوب قد يلغي خطط الدكتور».

قال الدكتور بينما يمسح وجهه بيده ويتلفت بنظراته إلى مستشاره كما لو أنه يطلب المغفرة: «إنها خطط ويكفيلد، أو بالأدق أعني؛ خططنا المشتركة لمسيرته. قلت لنفسي إنه قد يعمل في خارج البلاد أو في داخلها».

أضاف السيد ويكفيلد بجدية قائلًا: «نعم، وقلت في الخارج. بل كنت الوسيط في إرساله إلى خارج البلاد. إنها مسؤوليتي».

قالت الجندي العجوز: «آهٍ! المسؤولية! لقد أنجز كل شيء من أجل الخير. يا سيد ويكفيلد العزيز، لقد رتبت الأمور من أجل المصلحة والأفضل، وإننا نعلم بالأمر. أما إذا لم يستطع هذا الزميل العزيز العيش

هناك، فالأمر ليس له معنى آخر. إذا لم يكن باستطاعته العيش هناك، فإنه سيموت هناك في وقت أقرب مما يقتضيه تغيير خطط الدكتور». استطردت الجندي العجوز بينما تهوي بمروحتها في نوع من التهوين من ألم هذه النبوءة الهادئة، فقالت: «إنني أعرفه. وأعرف أنه سيموت هناك، في وقت أقرب مما يقتضيه تغيير خطط الدكتور».

قال الدكتور بمرح: «حسنًا، يا سيدتي، إنني لست متعصبًا أمام تنفيذ خططي، ويمكنني قلب وتغيير مسارها بنفسي، كما يمكنني استبدال خطط بأخرى. إذا عاد السيد جاك مالدون إلى المنزل بسبب اعتلال صحته، فلن يُسمح له بالسفر إلى الخارج مرة أخرى، بل يجب أن نسعى جاهدين لتوفير دعم وعمل أكثر ملاءمة له هنا في هذا البلد».

لقد تأثرت السيدة ماركلهام إثر هذا الخطاب السخي -ولست بحاجة للقول إنها لم تكن تتوقعه أو تسعى إليه على الإطلاق- حتى إنها لم تستطع إلا أن تخبر الدكتور أنه كما عهدته دومًا ذو خلق، ثم راحت تكرر عادتها من تقبيل عصا مروحتها، ثم النقر عليها بيدها. قامت بعد ذلك بتوبيخ ابنتها آني في لين، لأنها لم تبرز شعورها بينما تستطيع أن تمطر مثل هذه المشاعر اللطيفة، فتغمر نفسها ورفيقها القديم وتشملهما بهذا العطف. كما سردت بعض التفاصيل المتعلقة بأفراد عائلتها الآخرين المستحقين لمثل هذه المساعدات، ممن يتطلعون إلى وضع أقدامهم على أول طريق هذه الحياة.

لم تتحدث ابنتها آني طوال هذا الوقت ولو لمرة واحدة، بل لم ترفع عينيها كذلك. مكث السيد ويكفيلد مثبتًا نظراته عليها وهي جالسة

بجانب ابنته. بدا لي أنه لم يفكر قَطُّ في أن أحدًا قد يراقبه، لذا فقد عزم على التركيز ناحيتها، مستغرقًا في أفكاره الخاصة التي تدور حولها، حتى غرق في محاولاته لاستيعابها تمامًا. أخذ يسأل في هذه اللحظة عما كتبه السيد جاك مالدون عن نفسه بالفعل، وإلى من كتب هذا الخطاب.

تناولت السيدة ماركلهام خطابًا من فوق مسند المدخنة الذي يعلو رأس الدكتور، ثم راحت تقول: «إنه هنا. إن الزميل العزيز يوجه قوله إلى الدكتور نفسه قائلًا... - أين هي؟ آهٍ! - «يؤسفني أن أبلغكم أن صحتي مضطربة بشدة، وأنني أخشى أن يؤول الأمر إلى أن أضطر إلى العودة إلى المنزل لبعض الوقت، وأنها الأمل الوحيد لاستعادة صحتي». إن هذه العبارة واضحة جدًّا، يا لهذا المسكين! إن العودة هي أمله الوحيد في استعادة صحته! إلا أن خطابه إلى آني لم يزل الأكثر وضوحًا. يا آني، أرني تلك الرسالة مرة أخرى».

ناشدت أمها بنبرة خافتة، قائلة: «ليس الآن يا أمي».

ردت أمها قائلة: «يا عزيزتي، إنكِ بلا شك من أسخف البشر على وجه الأرض في بعض الأمور، فمن غير الطبيعي سلوككِ هذا أمام متطلبات عائلتك. إنني أحسب أننا لم نكن سنعرف شيئًا أبدًا عن هذه الرسالة التي بحوزتكِ على الإطلاق، لولا أنني طلبتها منكِ بنفسي. هل تسمين أفعالكِ هذه نوعًا من الثقة في الدكتور سترونج يا حبيبتي؟ إنني لأعجب لأمركِ. يجب أن تدركي الفعل الأنسب لكل حدث».

قدَّمت الرسالة على مضض. رأيت كيف أخذت يدها ترتجف، بينما كانت تسلمها إلى السيدة العجوز كرهًا.

قالت السيدة ماركلهام، بينما ترتدي نظارتها: «لنرَ الآن كلام هذا المقطع. «إن ذكرى الأيام الخالية يا عزيزتي آني...» - وهكذا دواليك - إنها ليست هنا. «إن مدير الأعمال العجوز الودود...» - مَن يقصد؟ آني يا عزيزتي، كيف يكتب ابن عمكِ مالدون بهذا الخط القبيح، وكم أنا غبية! إنه يقصد «الدكتور» بالطبع. آه! يا له من لطيف حقًّا!».

توقفت هنا، لتلتقط مروحتها مرة أخرى، وأخذت تهزها في وجه الدكتور، الذي ظل ينظر إلينا في حالة من الرضا والهدوء، ثم أكملت: «لقد وجدتها الآن. «إنكِ لن تتفاجئي يا آني لما سأقول...» - لن تدهش بالتأكيد، لقد كانت تعلم أنه لم يكن قويًّا حقًّا، فماذا قلته للتوِّ؟ - «لقد تحملت الكثير في هذا المكان البعيد، حتى إنني قررت الرحيل متحملًا جميع المخاطر، وإن كانت إجازة مرضية، إذا استطعت، أو الاستقالة الكاملة، إذا لم أتمكن من الحصول عليها. إن ما قاسيته، وما زلت أقاسيه هنا هو شيء لم أعد أستطيع تحمله». عادت السيدة ماركلهام إلى رسالة الدكتور كما كان من قبل، بعد أن أعادت طي هذه الرسالة، ثم قالت: «ولكن من أجل استجابة هذا المخلوق النبيل، سيكون من المستحيل أن أفكر في أمر عودتي»».

لم ينبس السيد ويكفيلد ببنت شفة، على الرغم من أن السيدة العجوز راحت تنظر نحوه كما لو أنها تريد تعليقه على هذه المعلومات الاستخباراتية، فإنه مكث صامتًا، وقد ثبَّت عينيه على الأرض. ظل على حاله حتى بعد فترة طويلة من تغييرنا لموضوع الحديث. لم يرفع عينيه من على الأرض إلا نادرًا، حتى يريحهما للحظة، بعد أن يُوجِّه نظرات نحو الدكتور أو زوجته أو كليهما، في عبوس وتفكير عميق.

كان الدكتور مغرمًا بالموسيقى. غنت أجنيس بحلاوة وعذوبة وفخامة، كما غنت السيدة سترونج كذلك. لقد غنتا وعزفتا معًا، فحظينا بحفل موسيقي صغير. إلا أنني لاحظت شيئين، أولًا: أن آني سرعان ما استعادت رباطة جأشها، وعادت إلى وعيها تمامًا، إلا أنني لاحظت هوة شاسعة تفصل بينها وبين السيد ويكفيلد تمامًا. ثانيًا: لاحظت أن السيد ويكفيلد بدا كما لو أنه كَره العلاقة الوطيدة بينها وبين أجنيس، وقد راح يراقبهما في قلق. والآن، يجب أن أعترف، أنني أتذكر ما رأيته في تلك الليلة السالفة عندما غادر السيد مالدون. بدأت ذكرى هذه الليلة تعود إليَّ بمعنى جديد لم أكن أدركه من قبل، فراحت تزعجني. لم يعد جمال وجهها البريء يوحي بالبراءة نفسها بالنسبة لي. صرت لا أثق في جمال محياها وسحر سلوكها ولينه. رحت أنظر إلى أجنيس التي تجلس بجانبها متأملًا مدى روعة وحقيقية أجنيس، ومتشككًا في أعماقي حول هذه الصداقة غير العادلة.

إلا أنها كانت سعيدة جدًّا بصداقتها، وكانت الأخرى سعيدة بها أيضًا، حتى إنهما جعلتا المساء يمضي مسرعًا كما لو أننا لم نقضِ سوى ساعة. انتهت هذه الليلة بحادث لم أزل أتذكره جيدًا. لقد كانتا تستأذنان بالانصراف، وإذا بأجنيس قد همت باحتضانها وتقبيلها، فتصادف أن خطا السيد ويكفيلد بينهما، كما لو أنها صدفة عابرة، وقد سحب أجنيس ليبعدها عنها بسرعة. أدركني الوقت، كما لو أنه انقضى بكل تفاصيله وإذا بي لم أزل واقفًا في قاعة الاستقبال حين كانت ليلة الوداع

قبل السفر، وإذا بي أتمثل تعبيرات وجه السيدة سترونج في تلك الليلة عندما واجهته.

لا أستطيع أن أحدد الأثر الذي وقع في صدري، أو كيف آثرت بعد تفكير في الأمر أنه من المستحيل أن أفصلها عن هذه النظرة، فلم أعد أتذكر وجهها بجماله البريء مرة أخرى. ظلت هواجسي تطاردني بعدما وصلت إلى المنزل. بدا لي أنني قد تركت سقف الدكتور وقد غطته غيمة سوداء. بات احترامي لرأسه الأشيب ممزوجًا بالرثاء على ثقته بمن غدروا به، وصرت مستاءً ممن خذلوه. تنبأت بأن ظلًّا لمحنة كبيرة، ووصمة عار شاهقة لم يكن لها ملمح مميز بعد، قد بات وشيكًا. لقد خيَّمت وصمة عار على ذاك المكان الهادئ، حيث عملت ولعبت في صباي، وقد أصاب هذا المكان خطأ فادح. لم يعد لديَّ أي متعة في التذكر بعد تلك اللحظة، فلا أتمثل أشجار الصبار القديمة ذات الأوراق العريضة، والتي ظلت منطوية على ذاتها مائة عام، أو مساحات العشب الناعم، أو الجرار الحجرية، وممشى الدكتور، والصوت المتناسق لجرس الكاتدرائية الذي يحوم فوقهم جميعًا. صارت مشاعري هائمة كما لو أن ملاذ طفولتي الهادئ قد نُهب أمام وجهي، وقد ذهبت سلامته ومهابته أدراج الرياح.

حل الصباح، وحان فراقي للبيت القديم الذي ملأته أجنيس بنفوذها، وقد استولت عليَّ عواقب هذا الفراق. سأعود إليه قريبًا مرة أخرى بلا شك، وقد أنام مرة أخرى - بل ربما أكثر من مرة - في غرفتي القديمة ذاتها، أما أيام سكينتي فقد ولَّت، وانقضى الزمان بعيدًا. ظل قلبي مثقلًا

بالهموم بينما رحت أجمع كتبي وملابسي المتبقية في غرفتي، ومن ثَم أرسلها إلى دوفر، وإن كنت حريصًا على عدم إظهار مشاعري تلك أمام يورايا هيب الذي كان منضبطًا للغاية، وحريصًا على مساعدتي، حتى إنني حسبته سعيدًا لرحيلي.

لقد ودَّعت أجنيس ووالدها، على كل الأحوال، في استعراض غير متقن لرجولتي ورباطة جأشي، ثم اتخذت مقعدي في العربة المتجهة إلى لندن. انتاب مشاعري خليط من اللين والتسامح، بينما أتجول في البلدة، حتى إنني رحت أفكر في أن أومئ للجزار، ذاك العدو القديم، فألقي إليه خمسة شلنات ليشرب ما يحب. إلا أن الجزار قد بدا خشنًا عنيدًا للغاية حيث وقف ينحت كتلة خشبية كبيرة قائمة في المتجر، وعلاوة على ذلك، لم يكن مظهره قد تحسن كثيرًا بعد أن فقد إحدى أسنانه الأمامية بعد أن اقتلعتها منه، ومن ثَم أحسست أنه من الأفضل ألا ألقي إليه بأي عطايا.

أتذكر أن الهاجس الرئيسي الذي راح يجول في خلدي، بعد أن قطعنا شوطًا حتى منتصف الطريق، هو أن أبدو للسائق أكبر سنًّا، وأن أتحدث بخشونة بالغة. حققت الأمر الأخير بفظاظة هائلة، وقد أرهقني فعلي هذا، إلا أنني تمسكت بالأمر، لأنني شعرت أنه يوحي بالكبر والمهابة.

قال السائق: «هل أنت مسافر يا سيدي؟».

أجبت مبديًا نوعًا من الكبرياء، وقد كنت أعرف السائق: «نعم يا ويليام. إنني ذاهب إلى لندن. وسوف أتجه إلى سافوك بعد ذلك».

قال المدرب: «هل ستصطاد يا سيدي؟».

كان يعلم جيدًا - كما كنت أعلم بدوري - أنه من المحتمل، في ذلك الوقت من العام تمامًا، أن أذهب إلى هناك لصيد الحيتان، إلا أنني شعرت بالثناء من توقعه هذا أيضًا.

تظاهرت بالتردد في إجابتي قائلًا: «لست متأكدًا ما إذا كنت سأخرج للصيد أم لا». قال ويليام: «لقد سمعت أن الطيور صارت نادرة جدًّا».

قلت: «هذا ما عرفته أيضًا».

سألني ويليام: «هل سافوك هي موطنك يا سيدي؟».

أجبت بنوع من الزهو قائلًا: «نعم، إن سافوك موطني».

قال ويليام: «قيل لي إن رقائق مخبوزات الحلوى شائعة بتميزها هناك».

لم أكن عن نفسي أعرف شيئًا عنها، لكنني أحسست أنه من الضروري إبداء الفخر بما تشتهر به بلدتي، ومن ثَم وجدت ضرورة إثبات معرفتي بها، ولذلك هززت رأسي موافقًا، كما لو أنني أقول: «إنني أوافقك».

قال ويليام: «والخيول. يا لهذه الماشية! إن الخيل في سافوك أصيلة(١)، وإنها تساوي وزنها ذهبًا. هل سبق لك يا سيدي أن قمت بتربية أي منها بنفسك في سافوك؟».

---

(١) أُطلق على هذه الخيول «*punches*» وهي كلمة إنجليزية قديمة، تعني قصيرًا شجاعًا، لتصف طبيعة الخيول قصيرة الأرجل في سافوك.

قلت: «لا، ليس بالضبط».

قال ويليام: «أراهن على أن هذا الرجل الذي يجلس ورائي قد قام بتربية الخيول بالجملة».

كان الرجل النبيل الذي تحدث عنه أحول العين، له ذقن بارز، ويرتدي قبعة بيضاء طويلة ذات حافة مسطحة ضيقة، وقد بدا بنطاله الباهت الضيق ذا أزرار تمتد من داخل حذاء من ساقيه حتى أعلى وركيه. كان قد أسند ذقنه إلى كتف السائق، وكذلك دنا مني، حتى إن أنفاسه كانت تدغدغ مؤخرة رأسي. رحت أنظر إليه، فإذا به ينظر إلى الخيل بعينه السليمة، نظرة العارف الخبير بأمرها.

سأل ويليام: «ألست كذلك؟».

قال الرجل المحترم من الخلف: «ألست ماذا؟».

«ألا تربي الخيول في سافوك بالجملة؟».

قال الرجل المحترم: «أحسب أنني قمت برعايتها على أكمل وجه. فلم أستثنِ فصيلة من الخيول لم أُربِّها، ولم أترك نوعًا من الكلاب من دون مباشرتي له. إن هواية تربية الخيول والكلاب لم تزل عند بعض الرجال، بل إنني ممن يفضلونها عن الشراب والطعام، والمسكن، والزوجة، والأطفال، وأحسب أنني أفضلها أيضًا أكثر من القراءة والكتابة والحساب، وأنفق عليها بدلًا من السعوط، والدخان، والنوم».

همس ويليام في أذني وهو ممسك بزمام الخيل: «لا يصح لرجل مثله أن يُرى جالسًا خلف السائق، أليس كذلك؟».

فسرت هذه الملاحظة على أنها إشارة إلى رغبته في أن يجلس الرجل في مكاني، لذلك فقد عرضت عليه بخجل أن أبادله مجلسي.

قال ويليام: «حسنًا، إذا لم يكن لديك مانع يا سيدي، فإني أحسب أنه من الأفضل أن تبادله مقعده».

لطالما اعتبرت هذه الواقعة أول سقطة لي في الحياة. لقد حجزت مكاني هذا من مكتب العربات، وكان قد خصص لي مكانًا خلف السائق، فأعطيت موظف الحجز نصف كروان مقابل هذا المكان المميز. نهضت عن مكاني بمعطفي الضخم ولفاحتي اللافتة، لأتنازل في تواضع عن هذا المكان المتميز، وقد بدوت مزهوًّا بنفسي متعاليًا. شعرت كما لو أنني متفضل على هذا السائق. إلا أنني أجده في مراحل الرحلة الأولى يبدلني في هذه اللحظة، برجل رثٍّ أحول العين، لا يتميز بشيء سوى رائحة تشبه الإسطبلات واللجام، وقد استطاع أن يمر من أمامي ويتجاوزني، كما لو أنه ذبابة لا إنسان، بينما كانت الخيول تعدو منطلقة!

ظلت عدم ثقتي بنفسي تؤرقني في حياتي في أغلب الأوقات، ولو كانت في مناسبات صغيرة. كان من الأجدر أن أتخلى عن شعوري هذا، إلا أنه لم يتوقف عن الازدياد بسبب هذا الحادث الصغير في العربة المسافرة من كانتربري. أدركت أن اللجوء إلى فظاظة الكلام وخشونة الصوت مضى عبثًا. لقد غدوت أتحدث من جوفي بقية الرحلة، لكنني شعرت بأنني أخفقت تمامًا، وأنني لم أزل شابًّا ساذجًا.

كان من الغريب والمثير أن أجلس خلف أربعة خيول، مع أنني

متعلم، كما أنني أرتدي ملابس لائقة، ويحوي جيبي المال الوفير الذي سيدفعني إلى البحث عن مكان أبات فيه خلال رحلتي المرهقة. راودت عقلي أفكار كثيرة حين مررنا بكل معالم الطريق البارزة. لقد أبصرتُ المتشردين الذين مررنا بهم، فرأيت ذلك النمط وتلك الملامح التي لم أزل أتذكرها جيدًا. شعرت كما لو أن يد العامل السوداء قد قبضت على قميصي مرة أخرى، ثم أخذت العربة تجول بنا في شارع شاتام الضيق، فألقيت نظرة عابرة إلى الممر الذي يعيش فيه الرجل العجوز الذي اشترى مني سترتي. تطلعت برقبتي في شغف للبحث عن المكان الذي جلست فيه، في الشمس والظل، منتظرًا تحصيل نقودي. وصلنا إلى المرحلة الأخيرة قبيل لندن، وقد مررنا بمدرسة سالم هاوس، حيث هيمن السيد كريكل على من فيها بيده الثقيلة. وددت لو أنفقت كل ما في جيبي، لقاء النزول من العربة لسحقه، ثم إطلاق سراح كل الأولاد كما يطلق سراح عدد من العصافير الحبيسة في أقفاص.

توجهنا إلى فندق الصليب الذهبي في شارع تشارلنج كروس، ويا له من فندق عفن يقبع في حي صغير. أرشدني النادل إلى غرفة المشروبات بالفندق، واقتادتني الخادمة إلى حجرة نومي الصغيرة التي فاحت منها رائحة تشبه رائحة عربة قذرة. كانت الحجرة مقفلة مثل قبو في مسكن عائلي. كنت لم أزل مدركًا لحداثة سني متألمًا لصغري لأنني لم أجد أحدًا يهابني أو يوقرني على الإطلاق، فكانت خادمة الغرفة غير مبالية تمامًا بآرائي حول أي موضوع، كما راح النادل يناديني بلا تكلف، ويقدم لي المشورة لقلة خبرتي.

قال النادل بنبرة واثقة: «حسنًا، والآن ماذا تريد أن تتناول على الغداء؟ إن السادة الشباب يحبون الدواجن بشكل عام؛ هلا أحضر لك الدجاج!».

أخبرته بأكبر قدر ممكن من الهيبة أنني لا أميل إلى تناول الدجاج.

قال النادل: «حقًّا؟ إن السادة الشباب قد سئموا عمومًا من لحم البقر والضأن، فهلا أطلب لك لحم شواء لذيذًا!».

وافقت على هذا الاقتراح، لعدم تمكني من اقتراح أي شيء آخر.

قال النادل بابتسامة تلوح على وجهه وقد أمال رأسه جانبًا: «هل تحب البطاطس؟ إن السادة الشباب بشكل عام يكثرون من تناول البطاطس».

أمرته بأغلظ نبرة في صوتي أن يطلب لي شرائح من لحم العجل والبطاطس وكل ما يلزم، وأن يستعلم في المكتب عما إذا كانت ثمة رسائل باسم المحترم تروتوود كوبرفيلد، مع أنني كنت على علم بعدم وجود أي منها، ولا يمكن أن تصل أي منها كذلك، إلا أنني ظننت أن الأمر سيجعلني أبدو أكثر رجولة حين أظهر انتظارها.

أجابني سريعًا قائلًا إنه لم يصل أي منها، فأبديت دهشة بالغة لسماعي قوله. راح بعدها يبسط قطعة من قماش لتناول الغداء عند زاوية بجوار النار. اندمج في عمله للغاية بينما راح يسألني عن الشراب الذي أفضله مع الطعام. وقد كانت إجابتي هي «نصف لتر من شراب الشيري»، وأحسب أنه وجد الفرصة مواتية لاستخلاص هذا الكم من النبيذ من بواقٍ قديمة تستقر في قيعان العديد من الأواني الصغيرة. وإنني

لأرجح هذا الرأي، لأنني لاحظته بينما أقرأ إحدى الصحف، بعد أن وقف خلف حاجز خشبي خفيض حيث مكان عمله الخاص، وقد لاح مشغولًا جدًّا بسكب عدد من هذه الأوعية في وعاء واحد، كما لو أنه صيدلي يصنع دواءً من وصفة طبية. جاء إليَّ بالنبيذ، فإذا بي أظنه مائعًا، وكان من المؤكد أنه يحتوي على فتات من الخبز الإنجليزي بصورة أكثر مما يتوقع أن يحويه نبيذ أجنبي أقرب إلى الحالة النقية. إلا أنني كنت خجولًا للغاية، فشربته من دون أن أتفوه بشيء.

وكوني في حالة شعورية ممتعة -استنتجت منها أن حالة التسمم ليست دائمًا غير مرغوب فيها في بعض مراحلها العملية- لذا فقد عقدت العزم على الذهاب إلى مسرحية. اخترت الذهاب إلى مسرح كوفنت جاردن، واتخذت مقعدي هناك خلف مقصورة مركزية، فشاهدت عرض يوليوس قيصر، ومشاهد من أداء البانتومايم الجديد. كان منظر كل هؤلاء النبلاء الرومان بينما يتحركون أمامي على قيد الحياة، ودخولهم وخروجهم للترفيه عن المشاهدين، له أثر بديع ومسلٍّ بدلًا من أن يكونوا دروسًا جافة كالتي درستها في المدرسة. أما اختلاط الواقع بالخيال في العرض بأكمله، وتأثير الشعر والأضواء والموسيقى والجوقة والتغييرات الهائلة السلسة للمشاهد المتلألئة والرائعة، فقد كانت مبهرة وساحرة، حتى إنها فتحت أمامي آفاقًا لا محدودة من البهجة، وما إن خرجت إلى الشارع الممطر، في الساعة الثانية عشرة ليلًا، حتى أحسست كما لو أنني هبطت من السحاب، حيث كنت أعيش حياة رومانسية على مر العصور السالفة، ثم وجدتني في عالم صاخب

مشتت، يغرقه الرذاذ، وتدافع المظلات المتزاحمة، تحت ألسنة المطر المنهمر، إنه التدافع، وخشخشة المركبات، والوحل، إنه هذا العالم البائس.

كنت قد خرجت من باب آخر، ثم وقفت في الشارع لفترة قصيرة، كما لو كنت حقًّا أحيا غريبًا على الأرض، لكن الدفع والضغط غير المنتظم والنكز الذي تلقيته، سرعان ما أعادوني إلى وعيي، وأعادوني كذلك إلى طريقي إلى الفندق، حيث رحت أدير هذا الحلم المجيد في ذهني طوال الطريق. مكثت أفكر في حلمي بعد أن شربت القليل من البيرة الخفيفة مع القواقع البحرية، بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وقد ثبتُّ عيني نحو النار الموقدة في غرفة القهوة.

صرت ممتلئًا بالمسرحية وبالماضي، لأنها كانت بطريقة ما، تبدو كما الزجاج شفافة ساطعة، فنفذت من خلالها لأرى حياتي السابقة تمر أمام ناظري، حتى إنني لا أعرف متى تكوَّنت أمام ناظري هيئة هذا الوسيم. إنه شاب متناسق القوام، يرتدي ملابس تشي بذوق فذ في غير تكلف، وقد لاح لي لسبب ما أنني أتذكره جيدًا، إلى أن تمثل حضوره حقيقيًّا أمام ناظري. إلا أنني أتذكر أنني صرت مدركًا لرفقته من دون أن ألاحظ قدومه، ولم أزل جالسًا، أتأمل ساهمًا نحو نار القهوة الموقدة.

نهضت أخيرًا لأخلد إلى النوم، الأمر الذي سيريح ذلك النادل النائم، الذي ظل يعاني من تململ في ساقيه، حتى راح يلفهما، ويضربهما، ويضعهما في جميع أوضاع الالتواءات عند مخزنه الصغير. وفي أثناء توجهي نحو الباب إذ بي أمر بالشخص الذي دخل ومن ثَم

رأيته بوضوح. استدرت مباشرة، وعدت إلى مكاني، ثم نظرت نحوه مرة أخرى. لم يعرفني، لكنني عرفته في غضون لحظة واحدة.

أحسب أنني في وقت آخر، ربما كانت ثقتي في نفسي ستخذلني، أو إقدامي على قرار التحدث إليه، فلا أجرؤ على القدوم بل ربما أؤجله إلى اليوم التالي، أو حتى أفقده. إلا أنني كنت في حالة من الشرود الذهني في ذلك الوقت، حيث كانت المسرحية لم تزل تستولي على عقلي، وقد بدت رعايته السابقة لي تستحق امتناني وتقديري له، وفاض في نفسي حبي القديم له، فشغل جوانحي بصورة عفوية وفطرية، إلى أن توجهت إليه في الحال بقلب خافق، قائلًا:

«ستيرفورث! ألا تتكلم معي؟».

كان ينظر إليَّ - تمامًا كما عهدت نظراته أحيانًا - لكنني لم أرَ أي إيماءة في وجهه تشي بأنه قد عرفني.

قلت: «أخشى أن تكون قد نسيتني».

صرخ فجأة: «يا إلهي! إنه كوبرفيلد الصغير!».

أمسكته بكلتا يدي ولم أستطع أن أفلتهما. لو لم أكن ممن يشعرون بالخزي الشديد، والخوف من أن أغضبه، لطوقت رقبته وبكيت.

«لم أسعد في حياتي قَطُّ قَطُّ قَطُّ مثلما الآن! يا عزيزي ستيرفورث، كم أشعر بسعادة غامرة لرؤيتك!».

قال وهو يصافح يدي من كل قلبه: «وكم يسعدني أن أراك أيضًا! إنك كوبرفيلد، ذاك الولد القديم الذي لا يقهر!». أحسب أنه كان في

غاية السعادة أيضًا، لرؤية كيف أسرتني السعادة التي شعرت بها حين قابلته.

كففت الدموع التي لم يكن بوسعي أن أمنع تدفقها، ثم ضحكت على فعلي هذا، وجلسنا معًا جنبًا إلى جنب.

قال ستيرفورث وهو يربت على كتفي: «كيف أتيت إلى هنا؟».

«جئت إلى هنا اليوم مستقلًّا عربة من كانتربري. لقد تبنتني عمتي وهي تسكن في تلك البلدة، ومن ثَم أنهيت دراستي هناك. وأنت، كيف أتيت إلى هنا يا ستيرفورث؟».

أجاب قائلًا: «حسنًا، إنني ممن يطلقون عليه طالبًا من أوكسفورد، وهذا يعني أنني أشعر بالملل الخانق إثر مكوثي بها من وقت لآخر. وإنني في طريقي الآن إلى منزل والدتي. إنك تبدو في غاية النشاط واللطف يا كوبرفيلد. إنني أنظر إليك الآن، فأشهدك على ما كنت عليه! إنك لم تتغير على الإطلاق!».

قلت: «لقد عرفتك على الفور، ولكنك مميز في ذاكرتي ويمكن تذكرك بسهولة».

ضحك وهو يمرر يده عبر خصلات شعره المتجمعة، وقال في مرح:

«نعم، إنني في رحلة لأداء الواجب، فوالدتي تعيش بعيدًا عن المدينة، كما أن الطرق سيئة موحشة، ومنزلنا يعج بالملل بما فيه الكفاية، لذا فإنني أقمت هنا الليلة بدلًا من مواصلة السفر. لم أقضِ في

البلدة سوى ست ساعات، وقد استولى عليَّ النوم في أغلبها بعد التذمر من المسرحية».

قلت: «لقد شاهدتُ المسرحية أيضًا في كوفنت جاردن. يا لها من تسلية مبهجة ورائعة يا ستيرفورث!».

ضحك ستيرفورث بحرارة.

قال وهو يربت على كتفي: «يا عزيزي ديفي، يا لك من غر صغير، تشبه زهرة الأقحوان تمامًا، عند شروق الشمس، بل إنها ليست أعذب منك. لقد كنت في كوفنت جاردن أيضًا، ولم أرَ عرضًا أكثر بؤسًا من ذاك الذي رأيته من قبل. هلم! نعم أنت يا سيدي!».

كان هذا الكلام موجهًا إلى النادل، الذي كان حريصًا جدًّا على الإنصات إلينا عن بُعد، وها هو يتقدم نحونا الآن مُظهرًا الاحترام.

قال ستيرفورث: «أين ينزل صديقي السيد كوبرفيلد؟».

«أستميحك عذرًا يا سيدي؟».

قال ستيرفورث: «أين ينام؟ ما رقم غرفته؟ إنك تفهم ما أعنيه».

قال النادل بنبرة اعتذار: «حسنًا يا سيدي. إن السيد كوبرفيلد في الوقت الراهن ينزل بالغرفة رقم أربعة وأربعين يا سيدي».

أجابه ستيرفورث: «وماذا تقصد بقولك هذا؟ هل أرسلت السيد كوبرفيلد إلى دور علوي في مقصورة فوق الإسطبل؟».

رد النادل، بينما لم يزل معتذرًا: «كما تعرف، إننا لم نكن على علم يا سيدي بأن السيد كوبرفيلد يريد على أي حال غرفة خاصة. يمكننا أن

ننقل السيد كوبرفيلد إلى غرفة اثنين وسبعين يا سيدي، إذا كان يفضل ذلك. وهي الغرفة التي بعدك يا سيدي».

قال ستيرفورث: «بالطبع سيكون ذلك أفضل، فلتفعل ذلك في الحال». انسحب النادل على الفور لإجراء هذا التعديل. سُرَّ ستيرفورث كثيرًا بذلك، وأخذ يضحك مرة أخرى، ثم ربت على كتفي من جديد، ودعاني لتناول الإفطار معه صباح اليوم التالي في الساعة العاشرة؛ وهي دعوة جعلتني مزهوًّا للغاية، فتقبلتها بامتنان بالغ. انقضى وقت طويل، فأخذنا شموعنا وصعدنا إلى الطابق العلوي، حيث افترقنا بحميمية وود عند باب ستيرفورث، وقد وجدت في غرفتي الجديدة استحسانًا كبيرًا عوضًا عن غرفتي القديمة، فهي ليست متعفنة على الإطلاق، وبها مساحة شاسعة، تحوي سريرًا ذا أربعة أعمدة، كمل لو أنها حجرة ملكية هبطت إليَّ. وهنا، استندت إلى الوسائد الوثيرة التي تكفي ستة أشخاص، وسرعان ما رحت في النوم وقد لفتني سعادة غامرة، ورحت أحلم بروما القديمة، وستيرفورث، والصداقة، إلى أن أدركني صباح اليوم التالي، وراحت أصوات العربات المارة ترسل ضجيجها إليَّ، مما جعلني أحلم بالرعد والآلهة.



# الفصل العشرون

## منزل ستيرفورث

طرقت الخادمة باب غرفتي في الساعة الثامنة، وأخبرتني أن ماء الحلاقة قد أُعد لي بالخارج، لم أكن بحاجة إليه بعد، ولذا احمر وجهي خجلًا وأنا على سريري. راودني شك في أنها ضحكت أيضًا، عندما قالت ذلك، فظل الأمر يشغل ذهني طوال الوقت بينما أرتدي ثيابي، بل أحسست أنني آثم، وأوجست خيفة أن أراها مارة عند الدرج، فخرجت متسللًا لتناول الإفطار. أدركت في نوع من الحساسية؛ كم أنني صغير السن حقًّا، بل أصغر سنًّا مما أرجوه، لدرجة أنني بت عاجزًا لبعض الوقت عن المرور بها في ظل هذه الظروف المخجلة. إلا أنني ما إن سمعت صوتها تعمل بمكنستها، حتى وقفت أختلس النظر من النافذة إلى تمثال الملك تشارلز ممتطيًا ظهر جواده، ومحاطًا بوابل من العربات البدائية، وقد انزاح عنه أي مظهر من مظاهر الملكية، وسط هذا المطر المتساقط والضباب البني الداكن، حتى جاءني النادل معلنًا أن رجلًا محترمًا في انتظاري.

لم أجد ستيرفورث ينتظرني في غرفة القهوة، بل وجدته في جناح أنيق دافئ، وقد أُسدلت فيه ستائر حمراء وبُسط على أرضه سجاد تركي، أما نيران موقده فخالصة ذات ضوء ساطع، كما قُدمت له وجبة فطور ساخنة ورائعة، وضعت على طاولة يعلوها مفرش نظيف. ثبتت مرآة صغيرة راحت تعكس مشهد الغرفة المبهج، وضوء النار النقي، ووجبة الإفطار، وستيرفورث، وكل شيء. راح هذا المشهد يتلألأ في المرآة الصغيرة المستديرة القابعة فوق خزانة جانبية. انتابني الخجل في البداية، حين لاحظت اعتداد ستيرفورث بذاته، وحرصه على أناقته، وقد بدا متفوقًا عليَّ على جميع الأصعدة؛ بما في ذلك العمر، إلا أن رعايته اللينة لي سرعان ما هدَّأت من غيرتي، وردَّتني إلى حالتي الطبيعية تمامًا. لم أستطع سوى الإعجاب بالتغيير الذي أحدثه في فندق الصليب الذهبي، أو أن أقارن بين الحالة البائسة المملة التي كنت عليها بالأمس، براحة هذا الصباح وما فيه من متعة ورفاهية. أما تبسط النادل معي ومناداتي من دون كلفة، فقد زال تمامًا كما لو أنه لم يقدم على هذه الأفعال من قبل. صار يجيء إلينا بخدماته ذليلًا معتذرًا، أو كما يمكنني القول بأنه: كان يأتينا في المسوح والرماد[1].

راح ستيرفورث يحدثني بعد خلونا إلى بعضنا قائلًا: «أما الآن يا كوبرفيلد، فإني أود أن أنصت إلى ما تفعله هذه الأيام، وإلى أين تتجه؟ بل أريد أن أعرف كل شيء عنك. أشعر كما لو أنني أنشغل لأمرك».

---

(١) ذُكر في العهد القديم أن ارتداء المسوح وتغطية الرأس بالرماد؛ علامتان ظاهرتان تكشفان محاولة الإنسان لإظهار التذلل والتوبة.

توهجت مسرورًا بعدما وجدته لم يزل مهتمًّا لأمري، فأخبرته عن اقتراح عمتي لهذه الرحلة الاستكشافية الصغيرة التي بدأتها، وأخبرته بوجهتي التي أقصدها.

قال ستيرفورث: «حيث إنك لست في عجلة من أمرك، فما رأيك أن تأتي معي إذن إلى منزلي في هايجيت، فتمكث معي ليوم أو يومين. سوف تسعد بلقاء والدتي؛ إنها مزهوة ومعجبة ومتفاخرة بي، ولكنك ستعذرها، وستسعد بك».

أجبته مبتسمًا: «أود لو أتأكد من أنها ستسعد لرؤيتي، كما تفضلت وقلت ذلك للتوِّ».

قال ستيرفورث: «آهٍ! إن كل من يحبني، سيأسرها بلا شك وسيفهم ما أرمي إليه».

قلت: «أحسب أنني سأحظى بمكانة مميزة لديها».

قال ستيرفورث: «حسنًا، تعالَ وأثبت ذلك بنفسك. سنذهب لنشاهد الأسود لساعة أو ساعتين -يا له من شيء لطيف أن أصطحب رفيقًا جديدًا مثلك ليشاهد العرض يا كوبرفيلد- وبعد ذلك سنستقل مركبة فنذهب إلى هايجيت».

لم أصدق ما يدور، لقد بدا كما لو كنت في حلم، وأنني سأستيقظ الآن فأجد نفسي في الغرفة الرابعة والأربعين، حيث المقصورة المنعزلة في غرفة القهوة وقد تبسط النادل ورفع الكلفة مرة أخرى. كتبت إلى عمتي وأخبرتها عن لقائي بزميلي القديم الذي طالما أُعجبت به، وقبولي دعوته لزيارة بيته. انطلقنا بعد ذلك في عربة صغيرة، وقمنا

بجولة بانورامية وبعض الجولات الأخرى، كما زرنا المتحف، حيث لاحظت أن عددًا كبيرًا من الناس يعرفون ستيرفورث، على مدى واسع ومتنوع، وإذا بهم يتحدثون في مختلف الموضوعات، وكيف بدا غير مكترث بمعارفه، لا يعبأ بمركزه.

قلت: «ستحصل على درجة عالية في الكلية يا ستيرفورث، إن لم تكن قد حصلت عليها بالفعل، وسيكون ذلك سببًا وجيهًا للاعتزاز والفخر بك».

صاح ستيرفورث: «أحصل على درجة علمية! لستُ أنا هذا الشخص! يا أقحوانتي العزيزة، هل تمانع في مناداتك بأقحوانتي؟».

قلت: «ليس لديَّ مانع على الإطلاق!».

قال ستيرفورث ضاحكًا: «يا أقحوانتي العزيزة، يا لك من صديق طيب! ليست لديَّ أدنى رغبة أو نية في التميز بهذه الطريقة. لقد فعلت ما يكفي لتحقيق غايتي. أجد أنني راضٍ عما حققته لنفسي بل وأكتفي بما أنا عليه».

استأنفت قولي: «لكن الشهرة...».

قال ستيرفورث، وقد تعالت ضحكاته أكثر فأكثر: «يا لك من حالم يا أقحوانتي! لماذا أزعج نفسي، من أجل أن تنفرج أفواه مجموعة من البلهاء ذوي الرؤوس الثقيلة إعجابًا، أو ليرفعوا أيديهم بالتحيات؟ فليفعلوا ذلك برجل آخر سواي، وهنيئًا له هذه الشهرة، ومرحبًا به وليفرح بها».

شعرت بخجل من ارتكابي لمثل هذا الخطأ الفادح، وسعدت

بتغيير الموضوع، ولحسن الحظ لم يكن من الصعب تغييره، فقد كان بإمكان ستيرفورث دائمًا الانتقال من موضوع إلى آخر بعدم اكتراث وخفة يميزانه.

تناولنا الغداء بعد أن أنهينا زياراتنا، وانقضى نهار الشتاء القصير بسرعة فائقة، وقد لاح الغسق عندما توقف سائق العربة بنا عند باب منزل قديم مصنوع من الطوب في هايجيت، يقبع على قمة التل. ظهرت أمامي سيدة عجوز، وإن لم تكن متقدمة جدًّا في السن، تبدو عليها الفخامة ويحمل وجهها سمات الحسن. وقفت بمدخل المنزل بينما نزلنا من العربة، وألقت التحية إلى ستيرفورث ونادته بقولها: «عزيزي جيمس»، وقد طوَّقته بذراعيها. قدمني ستيرفورث إلى هذه السيدة وعرفني أنها والدته، وقد استقبلتني بترحاب حار.

كان المنزل أنيقًا قديم الطراز، هادئًا ومنظمًا. رأيت من نوافذ غرفتي لندن عن آخرها، وقد لاحت أمامي بعيدة مترامية مثل دفعة هائلة من بخار، تكسوها بعض الأضواء المتلألئة والمتناثرة بين مكان وآخر. لم يكن أمامي سوى القليل من الوقت، بينما أرتدي ملابسي، لألقي نظرة على هذا الأثاث المتين، والزخارف المؤطرة للقطع المتناثرة منه (وأغلب الظن أنها من صنع والدة ستيرفورث، شغلتها في صباها). كما لاحظت بعض الصور المرسومة بألوان الشمع لسيدات مزينات الشعر ومليحات الأجسام، تسري ظلالها فوق الجدران، بينما تتوهج أضواء النيران المشتعلة حديثًا، وتتطاير منها الشذرات وتتناثر هنا وهناك، إلى أن دُعيت لتناول الغداء.

رأيت في غرفة الطعام سيدة أخرى، ذات قامة قصيرة نحيلة، وبشرة داكنة، يصعُب النظر إليها، ولكنها حازت بعض المظاهر الجميلة أيضًا، وقد جذبت انتباهي، ربما لأنني لم أتوقع رؤيتها، أو لأنني وجدت نفسي أجلس مقابلًا لها، أو بسبب شيء جذاب فيها حقًّا. كانت ذات شعر أسود وعينين سوداوين حادتين، كما كانت نحيفة القوام تعلو شفتها ندبة. بدت ندبة قديمة - من الأفضل أن أطلق عليها جرحًا، لكنه لم يغير لون جلدها، وقد شفي منذ سنوات. بدت الندبة كما لو أنها قطعت فمها إلى أسفل ذات مرة، باتجاه ذقنها، ولكنها صارت الآن ترى بالكاد عبر الطاولة، باستثناء الجزء الذي يعلو شفتها العليا، لأنه غيَّر من شكلها. شرد ذهني واستنتجت أنها في الثلاثين من عمرها، وأنها ترغب في الزواج. بدت في حالة متهالكة بعض الشيء كما لو أنها بيت مهجور منذ وقت طويل. ومع ذلك، فكما قلت، كانت ذات مظهر جيد. بدت نحافتها ليست سوى أثر لنار متوقدة بداخلها، لا تجد سبيلًا لثورتها سوى فتحتي عينيها الهزيلتين.

قُدمت إليَّ باسم الآنسة دارتل، وكان كل من ستيرفورث ووالدته ينادیانها باسم روزا. عرفت أنها تعيش في المنزل نفسه، وأنها رفيقة للسيدة ستيرفورث منذ فترة طويلة. بدا لي أنها لا تصرح بما تريد قوله مباشرة، بل تلمح إليه تلميحًا، حتى تقوي من أهميته بهذه الممارسة، وعلى سبيل المثال، فقد راحت السيدة ستيرفورث تقول -على سبيل الدعابة لا الجد- إنها تخشى أن تسيطر هذه الحياة الجامحة في الكلية على ابنها، ومن ثَم عقبت الآنسة دارتل قائلة:

«آهٍ، أحقًا قولكِ؟ إنكِ تعرفين مدى جهلي، وأنني لم أتطلع إلا إلى المعلومات فقط، لكن أليس الأمر على هذا النحو دائمًا؟ كنت أتصور أن هذا النمط من الحياة معروف على أنه... ماذا أقول؟».

أجابتها السيدة ستيرفورث بنبرة لا تخلو من الفتور: «إنه نوع من التعليم لمهنة خطيرة للغاية، إذا كنتِ تقصدين هذا المعنى يا روزا».

قالت الآنسة دارتل: «آهٍ! نعم! هذا صحيح جدًّا، لكن أليس الأمر على هذا النحو؟ - أريد أن أتبين الحقيقة وأتفهمها، إذا كنت مخطئة - أليس كذلك، حقًّا؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «ماذا تقصدين بـ«حقًّا»؟».

ردت الآنسة دارتل قائلة: «آهٍ! إنكِ تقصدين أن الأمر ليس على هذا النحو! حسنًا، إنني سعيدة جدًّا لسماع ذلك! أما الآن، فإنني بت أعرف ما عليَّ فعله! هذه هي ميزة طرح السؤال. لن أسمح أبدًا للناس بالتحدث عن التبذير والإسراف وما إلى ذلك قبالتي بعد الآن، خاصة في كل ما يتعلق بنمط هذه الحياة».

قالت السيدة ستيرفورث: «وستكونين حينها على حق. إن معلم ابني رجل نبيل يقظ الضمير، وإذا لم أكن أعول ضمنيًّا على ابني بكل ثقة، فإنني بلا شك أعتمد على معلمه كل الاعتماد».

قالت الآنسة دارتل: «هل تفعلين حقًّا؟ يا للهول! إنه يقظ الضمير، أليس كذلك؟ أحقًّا هو يقظ الضمير إلى الآن؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «نعم، إنني على ثقة تامة في أمره».

صاحت الآنسة دارتل قائلة: «ما أجمل هذا! يا لها من راحة! حقًّا إنه يقظ الضمير؟ إذن فهو ليس... لكنه بالطبع لا يمكن أن يكون... إذا كان يقظ الضمير حقًّا. حسنًا، سأكون سعيدة جدًّا برأيي فيه بعد الآن. لا يمكنكِ أن تتخيلي كيف تأكد رأيي فيه، بعد أن عرفت على وجه اليقين أنه ذو ضمير حي حقًّا!».

هكذا كانت آراؤها الخاصة في كل الأمور، وقد راحت تصحح كل ما قيل فيما يتعارض مع قناعاتها. إنها طريقتها الخاصة ذاتها في التعليق على ما حولها، وإن كانت لا تخفى عني حدتها في بعض الأحيان، كما يتعارض رأيها مع ستيرفورث. حدث موقف شبيه قُبيل انتهاء الغداء، إذ تحدثت إلى السيدة ستيرفورث عن نيتي في الذهاب إلى سافوك، كما قلت إنني سأكون سعيدًا إن اصطحبت ستيرفورث معي إلى هناك، ثم أوضحت له أنني سأقابل مربيتي القديمة وعائلة السيد بيجوتي، كما ذكَّرته بحلمه الذي رآه في المدرسة.

قال ستيرفورث: «آهٍ! إنه ذاك الرجل الطيب الذي جاء بصحبة ولده، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «لا. إنه ابن أخيه الذي تبناه، وعلى الرغم من ذلك، فإنه يعده ولدًا له، كما أن لديه ابنة أخت صغيرة جدًّا جدًّا، تبناها كذلك فهي كابنته. باختصار، إن بيته - أو بالأحرى قاربه، لأنه يعيش في قارب على اليابسة - مليء بأناس يكرمهم ويحيطهم بلطفه. وسيكون من دواعي سروري أن تزور هذه العائلة».

قال ستيرفورث: «هل تنصحني بزيارتهم؟ حسنًا، أظن أنني يجب

أن أقوم بذلك. يجب أن أفكر في الأمر. من المفيد القيام بهذه الرحلة (ناهيك عن متعة الرحلة معك يا أقحوانتي)، ورؤية هذه الأنماط من الشخصيات معًا، والاندماج بهم كواحد منهم».

قفز قلبي فرحًا بأمل جديد في سعادة آتية. إلا أن النبرة التي تحدث بها عن «هذه الأنماط من الشخصيات»، قد أثارت الآنسة دارتل التي ظلت تراقبنا بعينين براقتين من جديد.

راحت الآنسة دارتل تسأل: «آهٍ، لكن أهذا حقيقي؟ قل لي. هل هم على هذا النحو؟».

سألها ستيرفورث: «هل هم ماذا؟ ومن تقصدين بقولك هم؟».

«هذه الأنماط من الشخصيات... هل هم حقًّا حيوانات أو عشائر أو كائنات من رتبة أخرى؟ أريد أن أعرف الكثير عنهم».

قال ستيرفورث بلا مبالاة: «حسنًا، إن ثمة فارقًا كبيرًا جدًّا بيننا وبينهم. لا يُتوقع منهم أن يكونوا في مثل حساسيتنا ومشاعرنا. لا يعانون من الصدمات أو الأذى بسهولة. لا أنكر أنهم ذوو فضيلة وأخلاق رائعة - يجادل بعض الناس حول هذا التصور على الأقل، وإنني متأكد من أنني لا أريد أن أعارض تصوراتهم - إلا أنهم ليسوا من أصحاب الفطرة المرهفة، وقد يُحمدوا على هذه الخصلة، فمثل هؤلاء ممن يتمتعون بجلود خشنة، ليس من السهل جرحهم».

قالت الآنسة دارتل: «حقًّا! حسنًا، لست أدري الآن، إلا أنني قد زاد سروري لسماع ذلك. ويا لها من فكرة تواسيني! إنه لمن دواعي سروري

أن أعرف أنهم لا يعانون، إنهم لا يشعرون! كنت في بعض الأحيان منزعجة من هذا النوع من الناس. إلا أنني الآن سأنحي فكرة وجودهم تمامًا. يحيا الإنسان ليتعلم. أعترف أنني قد ساورتني الشكوك، إلا أنني الآن قد قطعت الشك باليقين. لم أكن أعرف، وها أنا الآن قد عرفت، وهذا يُظهر ميزة السؤال... أليس كذلك؟».

أظن أن ستيرفورث قال ما قاله، على سبيل الدعابة، أو ليوقع بالآنسة دارتل، وقد توقعت منه أن يعلق بالكثير بعدما رحلت، بينما كنا جالسين معًا أمام النار. لكنه اكتفى فقط بسؤاله عن رأيي فيها.

سألته قائلًا: «إنها ماهرة جدًّا، أليس كذلك؟».

قالت ستيرفورث: «ماهرة! إنها تجلب كل شيء نحو المِسن، فتزيد من حدته، وقد شحذت وجهها وشكلها في السنوات الماضية. لقد تآكلت بعد هذا الشحذ المستمر، حتى صارت على حافة التآكل».

قلت: «يا لغرابة تلك الندبة التي تعلو شفتيها!».

تبدل وجه ستيرفورث وصمت للحظة، ثم عاد يقول: «حسنًا، في الحقيقة إنني من أحدثتها».

«أكان حادث من دون قصد!».

«لا. كنت طفلًا صغيرًا، وقد أغضبتني، فألقيت مطرقة عليها. كنت لم أزل ملاكًا صغيرًا واعدًا!».

تألمت للغاية لاقترابي من هذه المنطقة الحساسة، وقد لفني الأسف، ولكن لم يكن للأسف جدوى بعد حديثي.

استطرد ستيرفورث قائلًا: «لقد مكثت العلامة منذ ذلك الحين، كما ترى، بل ستحملها حتى قبرها؛ هذا إن كان لها أن تجد الراحة في قبرها، فأنا لا أستطيع أن أصدق أنها ستستريح في أي مكان. كانت طفلة يتيمة بلا أم، وقد تزوجت أمها من أحد أبناء عم والدي. مات هو الآخر في يوم من الأيام. أحضرتها والدتي إلى هنا -بعد أن صارت أرملة آنذاك- لترافقها. إنها تملك ألفي جنيه من مالها الخاص، وتحتفظ بعوائدهما كل عام، لتضيفها إلى رأس المال. وهذا هو تاريخ الآنسة روزا دارتل كما قصصته عليك».

قلت: «ولا شك في أنها تحبك كأخ لها؟».

أجابني ستيرفورث وهو ينظر إلى النار: «آه! إن كثيرًا من الإخوة ليسوا متحابين دومًا، وآخرون متحابون. تفضل على أي حال، لا تخجل يا كوبرفيلد! سنشرب معًا يا أقحوانة الحقل نخبًا تقديرًا لك، ونخب زنابق الوادي التي لا ترهق نفسها، ولا تلتفت إليَّ، ولو مجاملة لي، ويا له من عار يحل بي!». تلاشت من وجهه ابتسامة بائسة كانت قد غمرت ملامحه، وتحول بعد هذا المرح إلى طبيعته الصريحة الجذابة مرة أخرى.

لم أستطع منع نفسي من إمعان النظر نحو هذه الندبة باهتمام يبدو مؤلمًا بعد أن بدأنا في احتساء الشاي. لم يمضِ وقت طويل حتى لاحظت أنها تقبع في الجزء الأكثر حساسية من وجهها. ترنو شاحبة، فتتغير تلك الندبة أولًا، فتصير خطًّا باهتًا يلوح بلون الرصاص، فيمتد إلى أقصى مدى، بل تشبه علامة دُوِّنت بالحبر السري لم تظهر إلا

باقترابها من النار. نشأت مشادة صغيرة بينها وستيرفورث حول إلقاء النرد في لعبة الطاولة، وقد ظننت للحظة أنها في عاصفة من الغضب، ومن ثَم رأيت الندبة تلوح مثل كتابة قديمة على الحائط.

لم أندهش من رعاية السيدة ستيرفورث الفائقة بابنها. لقد بدت غير قادرة على التحدث أو التفكير في أي شيء سواه. أطلعتني على صورته وهو طفل رضيع، وكانت محفوظة في صندوق صغير مع بعض خصلات من شعره. أرتني صورة أخرى له بدا فيها كما عهدته أول مرة. أظهرت لي جميع الرسائل التي كتبها لها، وكانت قد احتفظت بها في خزانة بالقرب من كرسيها بجوار المدفأة، وهمَّت بقراءة بعض هذه الرسائل لي، وهممت بدوري للإنصات إليها أيضًا، لولا أن تدخل ستيرفورث وأثناها عن عزمها في نوع من الدعابة.

قالت السيدة ستيرفورث، حين كنا نتبادل الحديث على طاولة، بينما يلعبان هما النرد على طاولة أخرى: «لقد أخبرني ابني أنكما تعرفتما في مدرسة السيد كريكل أول الأمر. وإنني لأتذكر في الواقع حديثه في ذلك الوقت عن تلميذ أصغر منه كان يميل إليه هناك، إلا أن اسمك لم يعلق في ذاكرتي حينها، كما تعلم».

قلت: «لقد كان كريمًا ونبيلًا جدًّا معي في تلك الأيام، أؤكد لكِ يا سيدتي، لقد وفقت به، فقد كنت في حاجة إلى مثل هذا الصديق، فلولاه لصرت محطمًا تمامًا».

قالت السيدة ستيرفورث في فخر: «إنه دائمًا كريم ونبيل».

يعلم الله أنني قد وافقت نعتها هذا من كل قلبي. أدركت أنها صدقت حقيقة مشاعري، بعد أن خففت من أسلوبها المتكبر تجاهي، إلا عندما تتحدث مادحة ابنها، فحينها تعود إلى زهوها وفخرها دومًا.

قالت: «لم تكن المدرسة مناسبة لابني بشكل عام، وكانت أبعد ما تكون عنه، إلا أن ثمة ظروفًا خاصة كان يجب مراعاتها حينها، وقد باتت أكثر أهمية من هذا الاختيار. إن معنويات ابني المرتفعة جعلت من الأفضل أن نعمد به إلى رجل يشعر بتفوقه، بل ويقبل أن ينحني أمام تميزه، وقد وجدنا هذا الرجل هناك».

أدركت مقصدها لأنني كنت أعرف من يكون ذلك الرجل. لم يجعلني ذلك أزداد احتقارًا له، بل حسبت أن كلامها ميزة تغض الطرف عن مساوئه، إن كان من الممكن أن ننعته بأي نعمة مثل الاستسلام أمام شخص لا يُقاوم مثل ستيرفورث.

ومضت السيدة المعتزة بابنها تقول: «كان تحفيز ابني هناك على التنافس، من خلال تدعيم شعوره بالفخر الواعي والكبرياء والكرامة – فمثله لا تحده القيود – فما كان منه إلا التقدم. إلا أنه وجد نفسه ملكًا على المكان، فعزم على أن يكون جديرًا بمنصبه، وقد كان».

أجبتها موافقًا من كل قلبي وروحي، بأنه كان جديرًا به.

استطردت حديثها قائلة: «هكذا، فقد سار ابني بمحض إرادته ومن دون إكراه في المسار الذي يمكنه فيه أن يتفوق على كل منافسيه دومًا ما دام أراد. وقد أخبرني ابني، يا سيد كوبرفيلد، بأنك كنت مخلصًا له دومًا، وبأنك عندما التقيت به بالأمس عرَّفته بنفسك وقد غمرتك دموع

الفرح. وإني لأحسب نفسي امرأة منافقة لو أنني تظاهرت بأنني فوجئت بمثل هذه المشاعر التي يقابلها ابني، لكنني لا أستطيع ألا أبالي بحق أي شخص عاقل يدرك استحقاق ابني لهذا التقدير، وإنني سعيدة للغاية برؤيتك هنا، بل يمكنني أن أؤكد لك أنه يَكنُّ صداقة غير عادية لك، وأنك تستطيع الوثوق في رعايته لك».

ظلت الآنسة دارتل تلعب بالنرد على الطاولة في شغف كدأبها في سائر أعمالها. لو أنني رأيتها أول مرة وهي تلعب عند الطاولة، لحسبت أن نحولها وجحوظ عينيها لم يكونا سوى نتيجة لهذا السعي في اللعب، وليس أي شيء آخر في العالم. إلا أنني سأكون مخطئًا لأبعد مدى لو أنني تصورت أن كلمة من هذا الحديث الذي دار بيني والسيدة ستيرفورث قد فاتها، أو أنها لم تلتفت إلى ملامحي بينما أتلقى كلامها بمنتهى السرور. لقد حظيت بتكريم وثقة السيدة ستيرفورث، وشعرت بأنني أكبر سنًّا بعد أن غادرت كانتربري.

انقضى أغلب الليل، وقد قدمت إلينا صينية من الأكواب والأواني الزجاجية، وراح ستيرفورث يعدني بينما نحن جلوس عند المدفأة بأنه سيفكر بجدية في الذهاب معي إلى تلك البلدة، كما قال إنه ما من أمر يدعو للعجلة، وإننا سنقضي أسبوعًا في منزله ثم نتجه إلى هناك، ومن ثَم قالت والدته الشيء نفسه. كنا نتحدث معًا وإذا به يناديني أكثر من مرة بأقحوانة، مما جعل الآنسة دارتل تتدخل مرة أخرى.

راحت الآنسة دارتل تسأل: «قل لي الحقيقة يا سيد كوبرفيلد، هل

هذا لقب؟ ولماذا يطلق عليك هذا الاسم؟ هل هو... ماذا أقول...؟ هل لأنه يعتقد أنك صغير وبريء؟ إنني غبية جدًّا في إدراك هذه الأشياء».

أجبتها باستحياء قائلًا إنني أحسب أن الأمر كذلك.

قالت الآنسة دارتل: «آهٍ! كم أنا سعيدة الآن لمعرفة حقيقة الأمر! أسأل وأستفسر عن المعلومات، ثم يسعدني أن أفهمها. إنه يَحسب أنك صغير وبريء، ولهذا فإنك صديقه. حسنًا، هذا أمر ممتع للغاية!».

ذهبت إلى فراشها بعد ذلك بوقت قصير، وفعلت الأمر نفسه السيدة ستيرفورث. مكثت لنصف ساعة بجوار المدفأة؛ أتبادل الحديث مع ستيرفورث عن ترادلز وعن جميع الزملاء القدامى في مدرسة سالم، ثم صعدنا معًا إلى الطابق العلوي. كانت غرفة ستيرفورث بجوار غرفتي، وقد ذهبت لألقي نظرة عليها. كانت هيئتها توحي بالراحة، إذ كانت مليئة بالمقاعد الوثيرة والوسائد ومساند الأرجل التي يبدو أنها كانت من أشغال التطريز التي حاكتها أمه، فلم تخلُ الحجرة من أي شيء يُنقص اكتمال مظهرها الأنيق. أخيرًا، أبصرت ملامح الأم الجميلة مع حبيبها في صورة معلقة على الحائط، كما لو أنها تركت له ما يحرسه في أثناء نومه.

وجدت نيران المدفأة موقدة في غرفتي بحلول هذا الوقت، كما كانت الستائر منسدلة أمام النوافذ وحول السرير، مما أكسبها مظهرًا مريحًا للغاية. جلست على مقعد كبير بجوار المدفأة لأتأمل هذه البهجة التي تحاوطني، وقد رحت أتأمل فيما أنا فيه لبعض الوقت، وإذا بي ألحظ صورة للآنسة دارتل تطل نحوي بشغف من فوق رف المدخنة.

كان الشبه مذهلًا، وكان هذا المشهد مذهلًا بدوره. لم يصور الرسام تلك الندبة، إلا أنني تخيلتها في موضعها، فصار خيالها يروح أمامي ثم يختفي. أما الآن فكانت الندبة محصورة فوق الشفة العليا كما رأيتها في أثناء الغداء، ثم في لحظةٍ ظهر المدى الكامل للجرح الذي أحدثته المطرقة، كما رأيته عندما أثارها الحماس.

تساءلت بأسى لماذا لم يتمكنوا من وضع صورتها في أي مكان آخر بدلًا من إقحامها عليَّ. خلعت ملابسي بسرعة للتخلص من طيفها، وأطفأت شمعتي، ثم أويتُ إلى الفراش. إلا أنني في غفوة نومي، لم أستطع أن أنسى أن صورتها لم تزل قابعة تنظر إليَّ من موضعها، ربما تقول: «هل هذا حقًّا؟ أسأل لأنني أريد أن أعرف». استيقظت في الليل، فوجدت أنني كنت أسأل الناس في أحلامي بصعوبة عما إذا كان الأمر كذلك بالفعل أم لا، من دون أن أعرف ما الذي أعنيه بقولي هذا.






تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

تشارلز ديكنز


ISBN 978-977-765-332-9



# تشارلز ديكنز

مكتبة ٩٦٧

# ديفيد كوبرفيلد

الجزء الثاني

رواية

التزجمة الكاملة




ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

# ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز

◆ المؤلف: تشارلز ديكنز
◆ العنوان: ديفيد كوبرفيلد - الجزء الثاني
◆ ترجمة: زينب محمد عبد الحميد
◆ طبعة آفاق الأولى 2022
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ









**رقم الإيداع:**
٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩
**الترقيم الدولي:** ISBN
978 - 977-765 - 332 - 9



**Afaq Bookshop & Publishing House**

**1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb**
**CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787**
**E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com**

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

# تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

## الجزء الثاني



آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**
**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**
**إدارة الشئون الفنية**

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد - الجزء الثاني

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 29269 / 2021

الترقيم الدولي 9 - 332 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز




# الفصل الحادي والعشرون

## إيميلي الصغيرة

كان بالمنزل خادم، وقد فهمت أن هذا الرجل يرافق ستيرفورث عادة، وأنهم أحضروه لخدمته خلال فترة الدراسة الجامعية، وكان يبدو من مظهره أنه يتمتع بنوع من الاحترام. أحسب أنه كان الرجل الوحيد من بين قُرناء عمله، الذي يظهر بهذا القدر من الوقار والاحترام. كان قليل الكلام، هين الخطى، صاحب أسلوب هادئ ومتزن، محترمًا وملتزمًا، قريبًا للغاية عندما يكونون في حاجة إليه، ولا يدنو من أي إنسان أبدًا بلا سبب؛ أما أَجَلُّ مظاهره وأدعاها إلى الاعتبار فكان احترامه. لم يكن وجهه طيع الحركة، بل كان عنقه قاسيًا، أما رأسه فذو شعر ناعم قصير مهذب، ومفروق من جانبه، أما طريقة تحدثه فناعمة سلسة، مع عادة غريبة تتمثل في الهمس بحرف السين بشكل واضح، حتى يبدو أنه يكثر استخدام هذا الحرف أكثر مما سواه، إلا أنه راح يضفي على كل شيء غريب فيه نوعًا من الوقار. كان أنفه يبدو مقلوبًا، وقد أضفى

عليه بدوره نوعًا من الاحترام أيضًا. لقد أحاط نفسه بهالة من الاحترام، واطمأن إليها. كان من المستحيل أن يتبادر الشك في أن يخطئ في أي شيء، لما بدا عليه من وقار بالغ. لا يجرؤ أحد على التفكير في إلباسه ثوبًا خاصًّا كالخدم، لأنه كان ذا هيبة بالغة. إن فرْض أي عمل مهين عليه، كان بمثابة إلحاق إهانة طائشة بمشاعر رجل محترم. لاحظت من هنا أن الخادمات في المنزل أدركن مكانته بالفطرة، فرُحن يقمن دائمًا بالأعمال الهينة بأنفسهن، فيتركن له فسحة ليجلس بجوار المدفأة يتصفح الجريدة.

لم أقابل في حياتي رجلًا منطويًا مثله. إلا أنه بدا مع هذه الصفة، كما هي الحال في كل السمات الأخرى التي يمتلكها، أكثر احترامًا دون غيره. آل به الانطواء إلى الحد الذي جهل الناس فيه اسمه المسيحي، وقد بدا أن هذا الجهل يشكل جزءًا من هيبته. لا يستطيع أحد الاعتراض على لقبه ليتيمر، الذي صار معروفًا به. ربما لو كان قد دُعي بيتر لشُنق، أو كان اسمه توم لنُفي، لكن ليتيمر كان اسمًا محترمًا تمامًا.

تسبب هذا الاحترام الموقر والمجرد في ظني، في شعوري بالضآلة والصغر في حضور هذا الرجل بشكل خاص. لم أستطع تخمين عمره الحقيقي، وقد زاده هذا الأمر مكانة أخرى، إذ أكسبه كل الهدوء والوقار مظهرًا قد يلوح به في الخمسين من عمره، وربما هو لم يتجاوز الثلاثين.

كان ليتيمر في غرفتي قبل أن أستيقظ بعدما حل الصباح، ليحضر لي ماء الحلاقة، ويجهز لي ملابس مناسبة. أزحت عني الستائر ونظرت

من السرير، فإذا بي أراه في مهابته غير مكترث بأجواء الرياح الشرقية الباردة لشهر يناير، فلا ينفث ذاك الصقيع عن فمه، بل يرتب وضعية حذائي يمينًا ويسارًا كما لو أنه في وضع أولي للقص، وقد راح ينفخ شذرات من الغبار عن معطفي بينما يبسطه كطفل في مهده.

ألقيت عليه تحية الصباح وسألته عن الساعة في تلك اللحظة. أخرج من جيبه أفخم ساعة صيد رأيتها على الإطلاق، وراح يمنع غطاءها من الانفتاح على آخره بإبهامه فيزيحه بعيدًا، ثم أخذ ينظر إلى صفحتها كما لو أنه يستشير محارة مخروطية الشكل، ثم أغلقها مرة أخرى، وقال في أدب بالغ إنها الثامنة والنصف.

قال: «إن السيد ستيرفورث يسره أن يسمع أنك تمتعت بالراحة يا سيدي».

قلت: «أشكرك، حسنًا، لقد استرحت حقًّا. هل السيد ستيرفورث بخير؟».

أجاب: «شكرًا لك يا سيدي، إن السيد ستيرفورث بخير نوعًا ما». كانت هذه سمة أخرى من سماته، ألا وهي عدم استخدامه لصيغ التفضيل، بل يعبر عما يريد باعتدال ورزانة دائمين.

«هل تطلب أي شيء آخر يمكنني أن أتشرف بفعله لك يا سيدي؟ سيرن جرس الاستعداد عند الساعة التاسعة، لأن الأسرة تتناول الإفطار في التاسعة والنصف».

«لا شيء، أشكرك».

«العفو يا سيدي، الشكر لك». أمال رأسه قليلًا حين مر بسريري، كما لو أنه يعتذر لي عن خطأ اقترفه، ثم خرج، وأغلق الباب بلطف جم، كما لو أنني استغرقت للتوِّ في نوم حلو لم أعهد مثله في حياتي.

أجرينا في كل صباح هذه المحادثة بالضبط، لم نزد عليها شيئًا قَطُّ، ولم ننقص منها كذلك. رحت أشعر مع انقضاء المدة التي أقضيها طوال الليل بأنني أدنو نحو سنوات النضوج بصورة ثابتة، وبعد مرافقتي لستيرفورث، والثقة التي منحتني إياها السيدة والدته، وكذلك بعد محادثات الآنسة دارتل، في حضور هذا الرجل المحترم، أصبحت، كما يغني شعراؤنا الصغار: «شابًّا من جديد».

أُعدت لنا الخيول. أما ستيرفورث، الذي كان يعرف كل شيء، فقد أعطاني دروسًا في ركوبها. قُدمت لنا سيوف، ومن ثَم أعطاني ستيرفورث دروسًا في المبارزة أيضًا، تزودنا بالقفازات، وبدأت أتدرب مع السيد نفسه على الملاكمة. لم يُبدِ ستيرفورث أي علامات على الانزعاج، بعد أن وجدني حديث عهد مبتدئًا في هذه الفنون، لكنني لم أتحمل قَطُّ إظهار حاجتي لتعلم هذه المهارات أمام ليتيمر المحترم. لم أَكُن أي سبب يدفعني إلى الظن بأن ليتيمر لا يفهم مثل هذه الفنون، فلم تقُدني أي إيماءة منه قَطُّ إلى افتراض أي شيء من هذا القبيل، ولو باهتزاز أحد رموشه المهيبة، ومع ذلك فإنني شعرت في كل مرة كنا نتدرب فيها بأنني أكثر الكائنات سذاجة وأقل الأشخاص خبرة من بين البشر.

خصصت جزءًا كبيرًا لهذا الرجل، لأنه ترك تأثيرًا خاصًّا عليَّ في هذا الوقت تحديدًا، وكذلك بسبب ما وقع بعد ذلك.

انقضى الأسبوع في بهجة. مر سريعًا، كما كان من المفترض له أن يمر على إنسان في مثل نشوتي. مررت في هذا الوقت بمواقف عديدة، فدفعني إلى معرفة ستيرفورث بصورة أفضل، بل والإعجاب به أكثر، على كثير من الأصعدة، حتى إنني في نهاية هذا الأسبوع بدا لي أنني قد عشت معه زمنًا فسيحًا. كان يتمتع بطريقة جريئة في معاملتي، فقد عاملني مثل دمية. كنت أستحسن دربه هذا أكثر من سواه، حيث ذكَّرني بمعرفتنا القديمة، وقد بدا بهذا الأسلوب كما لو أننا في تتمة طبيعية لمعرفتنا السالفة، حيث أظهر لي أنه لم يتغير ناحيتي. أزاح ستيرفورث عني أي قلق قد يساورني. لو أنني قارنت مزاياه ومواهبه بمواهبي، أو وازنت بين حقوقي من صداقته بحقوقه علي لربحت كفته. صار سلوكه كصديق لي مألوفًا وغير مصطنع بل حنونًا ودون أن يسلك هذا المسلك ذاته مع أي إنسان آخر. عاملني في المدرسة بشكل مختلف عن بقية الصبية، مما دفعني للظن بأنه يعاملني معاملة خاصة لا أضاهي بها أي صديق آخر لديه. كنت أؤمن بأنني أقرب الأصدقاء إلى قلبه، وقد بات قلبي يشعر بالدفء وازداد تعلقي به. لقد عقد عزمه على الذهاب معي إلى الريف، وحان يوم رحيلنا. تردد في بداية الأمر مستفهمًا: هل سيأخذ ليتيمر معه أم لا، لكنه قرر تركه في المنزل. أما هذا المخلوق المحترم، فقد رضي عن نصيبه أيًا كان، وراح يرتب لنا حقائبنا وينسقها فوق العربة الصغيرة التي كان من المقرر أن تقلنا إلى لندن، فأتقن عمله كما لو أن حقائبنا ستتحدى صدمات العصور المتتالية، ثم تلقى عطائي المتواضع له في هدوء تام.

ودَّعنا السيدة ستيرفورث والآنسة دارتل، وقد قدمت إليهما خالص شكري وامتناني، وأثنيت على هذا اللطف البالغ الذي شملتني به الأم المخلصة. كان آخر شيء أبصرته هو عين ليتيمر الهادئة، وقد تصورت أنها تنظر إليَّ مشحونة بالعواطف، في ظل قناعة صامتة بأنني لم أزل صغيرًا جدًّا إلى أبعد مدى.

لا يسعني أن أصف مشاعري تجاه هذه العودة الميمونة إلى الأماكن القديمة التي آلفتها، لن أستطيع حقًّا أن أصف ما أحسست بعد أن أقلتنا العربة. أذكر أنني لبثت قلقًا للغاية، معتزًّا بانتمائي إلى يارموث، بل صرت سعيدًا مزهوًّا حين تحدث ستيرفورث -في أثناء تجوالنا في شوارعها المظلمة في طريقنا إلى النزل- قائلًا إن هذه البلدة طيبة من وجهة نظره، وإنها منعزلة غير مألوفة. أوينا إلى الفراش بعد وصولنا مباشرة - لاحظت وجود زوج من الأحذية المتسخة والجوارب على باب محل صديقنا القديم «الدولفين» بعدما مررنا به، ثم تناولنا الإفطار في وقت متأخر من صباح يومنا التالي. أما ستيرفورث، فكان في حالة معنوية مرتفعة، فإذا به يتجول حول الشاطئ قبل أن أستيقظ من نومي، وقد قال لي إنه تعرَّف إلى نصف رجال المراكب في هذا المكان، بل علاوة على ذلك، أضاف أنه رأى من بعيد منزلًا يتطابق وصفه مع منزل السيد بيجوتي، وأنه تأكد منه بعد خروج الدخان من مدخنته، وأخبرني أنه فكر كثيرًا في الدخول إلى أهل هذا البيت ومن ثَم إقناعهم أنه أنا، وأنني قد كبرت إلى الحد الذي جعلهم لا يعرفون شكلي.

قال: «متى تنتوي تقديمي إليهم يا أقحوانتي؟ إنني تحت أمرك، فاتخذ ترتيباتك اللازمة».

قلت: «إنني كنت أفكر في أن هذا المساء سيكون وقتًا جيدًا للذهاب إليهم يا ستيرفورث، حيث يجتمعون حول نار المدفأة. إنني أود أن تشاهد المنزل بينما يحاوطه الدفء، فهو مكان مثير للعجب».

أجابني ستيرفورث قائلًا: «فليكن ما أردت! لنذهب هذا المساء».

قلت في سعادة: «لن أبلغهم بأننا هنا، لأننا نريد أن نفاجئهم، كما تعلم».

قال ستيرفورث: «نعم، بالتأكيد. لن نستمتع بالزيارة إلا إذا فاجأناهم. دعنا نرى السكان الأصليين في حالتهم الفطرية».

قلت: «على الرغم من أنهم من هذا النوع من الناس الذين ذكرتهم...».

صرخ بينما يبدي نظرة خاطفة نحوي: «آها! ماذا تقصد أو ما الذي تريده؟! إنك تذكر مناوشاتي مع روزا، أليس كذلك؟ يا للفتاة المربكة، إنني لم أزل متوجسًا منها إلى حد ما. إنها مثل عفريت أمامي. لكن لا تهتم لأمرها الآن؛ ماذا ستفعل؟ إنك ذاهب لزيارة مربيتك، على ما أظن، أليس كذلك؟».

قلت: «حقًّا، نعم، يجب أن أرى بيجوتي أولًا».

أردف ستيرفورث وهو ينظر إلى ساعته قائلًا: «حسنًا. لنفترض أنني سأرسلك إليها لبضع ساعات حتى تُنهي بكاء لقائها بك. هل هو وقت كافٍ؟».

ضحكت وأجبته أنني أظن أنه وقت كافٍ لقضاء الأمر، لكن عليه أن يأتي معي أيضًا لأنه سيجد أن شهرته قد سبقته إلى هناك، بعد أن صار شخصية عظيمة مثلي تقريبًا.

قال ستيرفورث: «سآتي إلى أي مكان تريده، أو أفعل أي شيء تريده. قل لي أين آتي إليك، وما هما إلا ساعتان حتى أمتثل أمامك في أي حالة تفضلها، عاطفية كانت أم هزلية».

أعطيته توجيهات دقيقة ليتمكن من العثور على مكان إقامة السيد باركس، السائق المتوجه إلى بلندرستون أو أماكن سواها، وبناءً على هذا الفهم انطلقتُ بمفردي. كان الهواء باردًا حادًّا، وكانت الأرض جافة، والبحر نقيًّا ورائقًا. أما الشمس فقد راحت تنشر وفرة من سنا ضوئها، إن لم يكن الكثير من الدفء، فلاح كل شيء نضرًا يشع بالحياة. صرت بدوري منتعشًا ومفعمًا بالحيوية، محفوفًا بالسرور لكوني في هذا المكان، حتى إنني وددت لو أوقفت المارة في الشوارع لأصافحهم بكلتا يدي.

بدت الشوارع صغيرة بالطبع. وإني أحسب أن الشوارع التي رأيناها صغيرة ثم تركناها، تغدو أصغر بعد أن نعود إليها. لكنني لم أنسَ شيئًا فيها، ولم أجد شيئًا قد تغير، حتى إنني مررت بمتجر السيد عمر، فإذا بلافتته قد كتب عليها الآن «عمر وجومار»، بعد أن كان يحوز اسم عمر فقط، وإن ظلت عبارة «تاجر وخياط، بائع ملابس، ولوازم جنازات...» إلخ، كما كانت.

بدت خطواتي ترنو بشكل طبيعي نحو باب المتجر، بعد أن قرأت هذه الكلمات بينما كنت أمر بالطريق، فإذا بي أعبره ثم ألقي بنظري

إلى الداخل. أبصرت امرأة جميلة في نهاية المتجر، ترقص مع طفل صغير بين ذراعيها، بينما تشبث صغير آخر بمئزرها. لم أجد صعوبة في التعرف على ميني أو طفليها. لم يكن باب الحجرة الزجاجي مفتوحًا، إلا أنني سمعت صوتًا يتناهى إلى أذني عبر الورشة الموجودة في الفناء، فإذا بها النغمة القديمة التي سمعتها منذ زمن، كما لو أنها لم تتوقف قَطُّ.

قلت: «هل السيد عمر موجود؟ أود أن أراه للحظة، إن كان هنا».

قالت ميني: «آهٍ، نعم يا سيدي، إنه موجود. إن الطقس في الخارج لا يناسبه لأنه مريض بالربو. يا جو، فلتنادِ جدك».

أطلق الصغير الذي كان يمسك بمئزرها صيحة مفعمة بالحيوية، حتى إن دويها أحاله خجلًا، فدفن وجهه في مئزر أمه من جديد، بينما أثار إعجابها الشديد. وما إن سمعت نفثًا ونفخًا ثقيلًا يقتربان منا، حتى لاح السيد عمر واقفًا أمامي بأنفاسه القصيرة المتقطعة، من دون أن يبدو في سن أكبر مما كان عليها في الماضي.

قال السيد عمر: «إنني في خدمتك يا سيدي. كيف أستطيع مساعدتك يا سيدي؟». قلت: «يمكنك أن تصافحني يا سيد عمر، إذا سمحت»، ثم مددت إليه يدي مستطردًا: «لقد كنت كريمًا محبًّا لي ذات يوم، وأخشى أنني لم أُظهر امتنانًا لهذا الفضل بما فيه الكفاية».

راح الرجل العجوز يقول: «هل فعلت ذلك حقًّا؟ إنني سعيد لسماع ذلك، لكنني لا أتذكر متى حدث ذلك. هل أنت متأكد أنك تقصدني أنا؟».

قلت: «إنني واثق من ذلك إلى أبعد حد».

قال السيد عمر بينما ينظر إليَّ ويهز رأسه: «أظن أن ذاكرتي صارت قصيرة مثل أنفاسي، لأني لا أتذكرك».

«ألا تتذكر مجيئك إلى السائق لمقابلتي، وتناول الإفطار هنا، وركوبنا إلى بلندرستون معًا، أنت وأنا، والسيدة جورام، والسيد جورام أيضًا، ولم يكن قد تزوجها بعد؟».

صاح السيد عمر، بعد أن آلت به الدهشة إلى نوبة من السعال: «يا للعجب! رحماك يا إلهي! لا تقل إنك تذكر ذلك! يا ميني، يا عزيزتي، هل تتذكرين؟ يا ربي! نعم. كانت المتوفاة سيدة، على ما أظن؟».

تابعته قائلًا: «كانت أمي».

قال السيد عمر بينما يلامس معطفي بسبابته: «بالتأكيد، وكان ثمة طفل صغير أيضًا! كانا ميتين. دفنا الميت الصغير جوار الميت الآخر. لقد وقع الأمر في بلندرستون بالطبع. رحماك يا رب! وكيف حالك منذ ذلك الحين؟».

حسنًا، شكرت سؤاله، أجبته بأنني بخير، ثم تمنيت له أن يكون هو الآخر في أحسن حال.

قال السيد عمر: «آهٍ، أجد أنفاسي تقصر، لكنها نادرًا ما تطول مع رجل يتقدم مثلي في السن. أما أنا فأعتبر حالي كما هي، وأحاول أن أستفيد من تنظيم أنفاسي إلى أقصى حد. إنها أفضل طريقة للعيش، أليس كذلك؟».

سعل السيد عمر مرة أخرى بعدما ضحك، وساعدته ابنته لتخطي نوبة سعاله، وصارت تقف الآن على مقربة منا، تراقص طفلها الأصغر فوق المنضدة.

قال السيد عمر: «رحماك يا ربي! نعم، بالتأكيد، كانا ميتين! عجبًا! في تلك الرحلة بالذات، إذا كنت ستصدقني، فإنه كان يوم زواج ميني من جورام، وقد قال جورام: «هل حددت اليوم يا سيدي؟». وقالت ميني: «نعم، افعل ذلك يا أبي». أما الآن فقد شاركني جورام في العمل. وانظر هناك، إنه الأصغر».

ضحكت ميني، وربتت على شعرها المسدل على صدغيها، بينما وضع والدها إحدى أصابعه السمينة في يد الطفلة التي كانت ترقص فوق المنضدة.

قال السيد عمر بعد أن أومأ برأسه موافقًا على ما تذكره من لفتات الماضي: «ميتان بالطبع، بالضبط، وقد كان جورام يعمل في هذه اللحظة بالذات، على تجهيز صندوق أسود بمسامير فضية، من دون هذا القياس» - كان يقصد قياس الطفل الراقص على المنضدة - «أقل من ذلك ببوصتين كاملتين تمامًا... هل ستتناول شيئًا؟».

شكرته، لكنني اعتذرت.

قال السيد عمر: «دعني أتذكر. إن زوجة السائق باركس هي بيجوتي أخت الملاح، فهل لها علاقة بأسرتك؟ كانت في الخدمة هناك بالتأكيد، أليس كذلك؟».

أجبته بالإيجاب، فأراحه ردي وأسعده إلى حد كبير.

قال السيد عمر: «أظن أن أنفاسي ستمتد لفترة أطول بعد ذلك، وكذلك ستتمدد ذاكرتي كثيرًا. حسنًا يا سيدي، إن لدينا هنا شابة من أقاربها تتمرن، وإن لها ذوقًا رفيعًا في تفصيل الملابس. أؤكد لك أنني لا أظن أن ثمة دوقة في إنجلترا يمكنها أن تضاهيها ذوقًا».

قلت لا إراديًّا: «أتعني إيميلي الصغيرة؟».

قال السيد عمر: «حقًّا، إن اسمها إيميلي، وهي صغيرة أيضًا. ولكن صدقني، لديها وجه خاص أغضب منها نصف نساء هذه المدينة».

صاحت ميني: «هذا هراء يا أبي».

قال السيد عمر: «يا عزيزتي، إنني لا أقول إن هذا الأمر ينطبق عليكِ». ثم غمز أمام وجهي مستطردًا: «لكني أتكلم عن نصف النساء في يارموث. آه، فهن على محيط خمسة أميال في حالة من الجنون والغيرة من تلك الفتاة».

قالت ميني: «كان الأجدر بها إذن أن تحافظ على مكانتها الخاصة في الحياة يا أبي، ولا تمنحهن أي فرصة للتحدث عنها، ومن ثَم كانت ستخرسهن ولم يكن ليقلن شيئًا».

أجاب السيد عمر: «أكان ذلك بإمكانه أن يمنع ثرثرتهن يا عزيزتي؟! ألن يتجرأن على هذا الفعل؟! هل هذه هي حدود معرفتك بالحياة؟ ما هو الشيء الذي لا تستطيع أي امرأة فعله، ولا ينبغي عليها فعله، خاصة فيما يتعلق بالمظهر الجيد لامرأة أخرى؟».

لقد حسبت أن الأمر انتهى حقًّا مع السيد عمر، بعد أن قال هذه الفكاهة. إلا أنه راح يسعل بشراسة، واستحالت استعادة أنفاسه على الرغم من كل محاولاته لاستعادتها، حتى إنني ظننت أنني سأجد رأسه ملقى أسفل المنضدة تمامًا، وبنطاله الأسود القصير مع تلك الحزم الصغيرة من الشرائط الصدئة الملتفة حول ركبتيه، وقد تعالت مرتجفة في صراع أخير مع الحياة بلا جدوى. ومع ذلك، فقد تحسنت حالته من جديد، إلا أنه ظل يلهث بشدة، وبات منهكًا جدًّا، فاضطر إلى الجلوس على كرسي المكتب القابع في المتجر.

قال وهو يمسح رأسه ويتنفس بصعوبة: «كما تعلم الآن، إنها لم تنل محبة الكثير من الرفاق هنا، لم تحُز أي مودة خاصة من المعارف ولم يكن لها أصدقاء مقربون، ناهيك عن عدم وجود أحباء لها. وكانت النتيجة أن اختلقوا قصة غريبة، مفادها أن إيميلي أرادت أن تصير سيدة. أما رأيي الآن في مصدر ما تم تداوله بشكل أساسي، فإنه يعود إلى قول أدلت به في المدرسة قديمًا، إذ قالت إنها إذا صارت سيدة فإنها تود أن تفعل كذا وكذا لعمها... أتفهمني؟ تقصد أنها تريد شراء أشياء جيدة له مثل كذا وكذا».

أجبته بحرارة ويقين: «أؤكد لك يا سيد عمر، إنها قالت لي الشيء نفسه حين كنا طفلين».

أومأ السيد عمر برأسه وفرك ذقنه، ثم راح يقول: «هذا كل ما في الأمر. كما أنها تستطيع أن تُفصِّل لنفسها من قماش بسيط ثوبًا ترتديه، وكما تعلم، فإنه سيكون أروع مما تهدره الأخريات لتفصيل ثوب، وهذا

ما يجعل الأمور أسوأ من جانبهن. علاوة على ذلك، فإنها بالأحرى ممن يمكن أن نصفهن بالعنيدات - بل سأذهب إلى أبعد حد فأقول إن بوسعي أن أنعتها بالعنيدة حقًّا، وإنها لم تراجع آراءها مطلقًا، بعد أن أفسدها التدليل بعض الشيء - فلم تستطع في البداية، أن تتحكم في عنادها تمامًا. هذا كل ما قيل عنها لا أكثر، أليس كذلك يا ميني؟».

قالت السيدة جورام: «لا يا أبي. إني أحسب أن هذه الأقوال هي أسوأ ما قيل».

قال السيد عمر: «لذلك فإنها بعدما حصلت على عمل، وهو المكوث بصحبة سيدة عجوز غضوب لترافقها في وحدتها، لم تتفاهما معًا، ومن ثَم غادرت. جاءت في النهاية إلى هنا، لتتلقى تدريبًا لمدة ثلاث سنوات، وقد انقضى ما يقرب من سنتين، كانت فيهما فتاة طيبة كعهدها دومًا. تساوي في عملها عمل ست فتيات. يا ميني، هل تساوي ست فتيات الآن؟».

أجابت ميني: «نعم يا أبي. لا تقل أبدًا إنني أنقص من قدراتها!».

قال السيد عمر: «جميل جدًّا، وهذا صحيح».

أضاف السيد عمر بعد بضع لحظات مكث فيها يفرك ذقنه مرات، ثم راح يقول: «وهكذا، أيها الشاب النبيل -حتى لا تظن أنني ثرثار متقطع الأنفاس- فإني أحسب أن هذا كل ما في الأمر».

راحوا يتحدثون بنبرة خافتة عن إيميلي، مما جعلني أتأكد أنها في مكان قريب بلا شك. سألت السيد عمر في هذه اللحظة عما إذا كانت

هنا، فأومأ برأسه مؤكدًا وجودها، وأشار بها نحو باب الردهة. أجاب استفساري العاجل عن إمكانية الدخول بالموافقة فورًا، فأطللت بنظري عبر الزجاج، وإذا بي أبصرها جالسة تؤدي عملها. لاحت أمام ناظري كما لو أنها أجمل المخلوقات صغرًا، ذات عينين زرقاوين صافيتين، قد اخترقت نظراتها أعماق قلبي الغض. استدارت ضاحكة نحو طفل آخر لميني كان يلعب بالقرب منها، فلمحت في طيات وجهها المشرق سمات عناد تكفي لتبرير ما سمعته عنها، يتخلله كثير من الخجل القديم النافر الكامن فيها، لكني لم أرَ أي شيء قد خالط مظهرها الجميل، إنني متأكد من أنه لم يخلُ من مظاهر الخير والسعادة، وكل ما يشملها من دروب الطيبة والسرور.

راح ذلك اللحن يسري عبر الفناء وقد بدا كما لو أنه لم يتوقف قَطُّ - يا للأسف! كان كلحن الحياة الذي لا ينقطع - فظل ينبض بثبات في تكراره الأبدي.

قال السيد عمر: «ألا ترغب في الدخول والحديث معها؟ ادخل وتحدث معها يا سيدي، إن البيت بيتك».

كنت خجولًا جدًّا إلى الحد الذي يمنعني من الدخول إليها في ذلك الوقت - كنت أخشى أن أربكها بمجيئي، ولم أكن أقل خوفًا من إرباك نفسي أيضًا - لكنني ذكَّرت نفسي بالساعة التي غادرت فيها في إحدى الأمسيات، وقد حددت وقتًا لاحقًا لزيارتنا، فاستأذنت من السيد عمر وابنته الجميلة وأطفالها الصغار أن أنصرف، ثم انطلقت بعيدًا نحو منزل بيجوتي العزيزة.

ها هي تقبع في المطبخ المكسوة جدرانه بالبلاط، تطهو طعام الغداء، ما إن طرقت الباب حتى فتحته في اللحظة ذاتها، وسألتني ماذا أريد. نظرت إليها بابتسامة، لكنها لم تبادلني إياها. لم أكن قد توقفت قَطُّ عن الكتابة إليها، إلا أن ثمة سبع سنوات قد انقضت منذ أن التقينا آخر مرة.

قلت متظاهرًا بالتحدث معها بقسوة: «هل السيد باركس في المنزل يا سيدتي؟».

أجابت بيجوتي: «إنه هنا يا سيدي، لكنه ماكث في سريره يعاني من أمراض الروماتيزم».

سألتها: «ألا يذهب إلى بلندرستون الآن؟».

أجابت: «عندما يكون بحالة صحية جيدة فإنه يذهب إليها».

سألتها: «هل ذهبتِ أنتِ إلى هناك من قبل يا سيدة باركس؟».

نظرت إليَّ باهتمام بالغ، وقد لاحظت حركة سريعة من يديها لتشبيكهما.

قلت: «لأنني أريد أن أسألكِ عن أحد المنازل هناك، يسمونه... ماذا يقولون؟ آه، عش الطيور».

تراجعت خطوة إلى الوراء، ومدَّت يديها بخوف مترددة، كما لو أنها تبعدني عنها.

صرخت مناديًا: «بيجوتي».

صرخت قائلة: «ابني الحبيب». وانفجر كلانا بالبكاء، ومكثنا متعانقين.

يا لها من مبالغة وإسراف اقترفته! يا لضحكها وبكائها اللذين امتزجا! أي فخر أظهرته تجاهي، ويا له من فرح وحزن، فهي الأولى في أن تكون محط فخري وفرحي. لم تستطع أن تحملني بين أضلعها لتحتضني مغرمة. لا يسع قلبي أن أصف ما أحسست به. يا لابتهاجي وارتباكي اللذين منعاني من دون أدنى شك من أن أوحي لها بأنني لم أعد صغيرًا لأستجيب لمشاعرها! أجرؤ على القول بأنني لم أضحك قَطُّ أو أبكي طوال حياتي -حتى لها- بحرية أكثر مما فعلت في ذلك الصباح.

قالت بيجوتي، وهي تمسح عينيها بمئزرها: «سيسعد باركس للغاية، لأنك ستُسكِّن من ألمه أكثر مما تفعل مكاييل من المراهم. هل لي أن أذهب وأخبره أنك هنا؟ هل تصعد لرؤيته يا عزيزي؟».

قلت: «بالطبع سأراه». إلا أن بيجوتي لم تستطع الخروج من الغرفة التي أجلس فيها بسهولة. كلما وصلت إلى الباب، كانت تلتفت نحوي، ثم تعود مرة أخرى لتضحك من جديد وتبكي فوق كتفي. اضطررت في النهاية، لتسهيل الأمر، إلى أن أصعد معها إلى الطابق العلوي، لم أنتظر في الخارج سوى دقيقة، بينما تمهد نبأ قدومي ليستعد السيد باركس لاستقبالي، حتى قدَّمت نفسي إلى ذلك المريض.

استقبلني في جو مفعم بالحماس. كان مرضه بالروماتيزم قد حال بيني وبين مصافحته، لكنه توسل إليَّ أن أصافح الشارة التي تعلو طاقيته، ففعلت ما طلبه بود جم. جلست إلى جوار السرير، فقال لي إنني جعلته يشعر بأنه قد حاز العالم بجلستي هذه، وإنه يشعر كما لو أنه يقودني

على الطريق إلى بلندرستون مرة أخرى. مكث مستلقيًا على السرير، مُسندًا رأسه لأعلى، وكان مغطى تمامًا باستثناء وجهه، بحيث لم يظهر منه شيء، بل لم يعد سوى وجه -مثل أيقونات الكاروبيم[١] التقليدية- فبدا لي في هيئته هذه أغرب شيء رأيته في حياتي.

تحدث السيد باركس بينما يرسم ابتسامة بطيئة توحي بتألمه من الروماتيزم، قائلًا: «ما ذلك الاسم الذي كتبته في العربة يا سيدي؟».

قلت: «آه يا سيد باركس، لقد أجرينا العديد من المحادثات الجادة حول هذا الموضوع، أليس كذلك؟».

قال السيد باركس: «لقد كنت أرغب في أن أستغرق وقتًا أطول يا سيدي».



قلت: «لقد مضى وقت طويل بالفعل».

قال السيد باركس: «وأنا لست نادمًا على ذلك. هل تتذكر ما قلته لي مرة عنها، وعن فطائر التفاح، وكذلك كل ما تطهوه؟».

أجبته: «نعم، أتذكر ذلك حقًّا».

قال السيد باركس: «كان ذلك صحيحًا جليًّا في وضوح اللفت». كان السيد باركس يتحدث بينما يومئ برأسه محركًا طاقيته، التي باتت وسيلته الوحيدة لتأكيد قوله، ثم أكمل قائلًا: «كان الأمر صحيحًا كما هي الحال مع الضرائب، فلا شيء حولنا أصدق منها».

---

(١) رتبة من الملائكة مذكورة في العهد القديم، تحيط بالعرش الإلهي، ولكل منهم ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. ترسم بالأيقونات فلا يظهر منها سوى الوجه فقط.

أدار السيد باركس عينيه نحوي، وكأنه موافق على هذه النتيجة التي استنتجها في السرير، فأعطيته موافقتي.

كرر السيد باركس قائلًا: «لا شيء أصدق منها. إن رجلًا فقيرًا مثلي، يكتشف هذه الحقيقة في ذهنه عندما يكون مستلقيًا. إنني رجل فقير جدًّا يا سيدي».

«يؤسفني سماع ذلك يا سيد باركس».

قال السيد باركس: «إنني رجل فقير للغاية، حقًّا أنا كذلك».

هنا مد يده اليمنى ببطء وضعف من تحت أغطية السرير، وبقبضة واهنة لا هدف منها، أمسك بعصا كانت مربوطة بشكل غير محكم إلى جانب السرير. وبعد قليل من التخبط بهذه العصا، راحت ملامح وجهه خلالها تتخذ مجموعة متنوعة من التعبيرات المشتتة، فإذا بالسيد باركس يدسها في صندوق، كان طرف نهايته ظاهرًا أمامي طوال الوقت. ثم هدأت ملامح وجهه.

قال السيد باركس «إنها ملابس قديمة».

قلت: «آهٍ».

قال السيد باركس: «أتمنى لو كانت مالًا يا سيدي».

قلت: «أتمنى لو كانت كذلك بالفعل».

قال السيد باركس وقد فتح عينيه على أقصى اتساع ممكن لهما: «إلا أنها ليست كذلك».

عبَّرت له عن يقيني من ذلك، ثم قال السيد باركس، وهو يوجه عينيه بلطف أكثر نحو زوجته:

«إنها أفضل وأطيب النساء، سي بي باركس. أما سائر أنواع الثناء الذي يمكن لأي شخص أن يقدمه إلى سي بي باركس، فهي تستحقه، بل أكثر. يا عزيزتي، هلا أعددتِ لنا مأدبة غداء اليوم؛ صنوفًا طيبة من المأكل والمشرب؟».

كان يجب أن أحتج على هذه المظاهر غير الضرورية التي ستقام تكريمًا لي، إلا أنني أبصرت بيجوتي، على الجانب الآخر من السرير، قلقة للغاية، يزعجها عدم تقبلي لها، ولذلك آثرت السكوت والقبول.

قال السيد باركس: «إن لديَّ قدر ضئيل من المال في مكان ما قريب مني هنا يا عزيزتي، لكنني متعب قليلًا. فهلا تركتِني أنتِ والسيد ديفيد لأنعم بقيلولة قصيرة، وسوف أحاول العثور عليه عندما أستيقظ».

غادرنا الغرفة امتثالًا لهذا الطلب. ما إن خرجنا من الباب، حتى أخبرتني بيجوتي أن السيد باركس، صار «أكرم قليلًا» الآن مما كان عليه، وأنه يلجأ دائمًا إلى هذه الطريقة قبل إخراج عملة واحدة من صندوقه، وأنه يتحمل معاناة لم يسمع أحد بها من قبل للزحف من السرير وحده، وإخراج النقود من ذلك الصندوق المشؤوم. لقد سمعناه في الواقع، ينطق في هذه اللحظة بآهات مكبوتة أكثر إيلامًا مما اعتدناها منه، حيث صارت أوجاعه تملأ كل مفاصل جسده. أما بيجوتي فكانت عيناها مليئتين بالشفقة عليه، حين قالت لي إن اندفاعه هذا إلى السخاء سيفيده، وإنه من الأفضل عدم منعه من هذا الفعل. سمعنا تأوهاته حتى عاد إلى فراشه مرة أخرى، لا يراودني أدنى شك في أنه تحمل أوجاعًا تفوق آلام الموت. نادى علينا، متظاهرًا بأنه قد

استيقظ للتوِّ من نوم منعش، وأخرج جنيهًا من تحت وسادته. وبدا راضيًا عن هذه الخدعة المرحة التي صدقناها، وحفاظه على سر الصندوق الذي لا يمكن اختراقه، وكان الأمر بمثابة تعويض كافٍ له عن كل ما عاناه من تعذيب.

هيَّأت بيجوتي لخبر وصول ستيرفورث في زيارة، ولم يمضِ وقت طويل بعدها حتى وصل. إنني على يقين من أنها لا تعرف أي فارق بين كونه زائرًا شخصيًّا لها، أو صديقًا لطيفًا لي، وأنها كانت ستستقبله بأقصى درجات الامتنان والتفاني على أي حال. إلا أن روح الدعابة السلسة والحيوية التي يتمتع بها، وأسلوبه اللطيف، ومظهره الوسيم، وموهبته الفطرية في التكيف مع من يشاء، وبساطته الواضحة - عندما يهتم بفعل ذلك - ووصوله إلى قلب أي شخص مباشرة، كانت قد أسرتها بالكامل في غضون خمس دقائق. أما طريقته معي، فكانت وحدها كفيلة من أن تقربه منها، وبعد كل هذه الأسباب مجتمعة، فإنني أحسب بصدق أنها باتت تضمر له نوعًا من المحبة والإعجاب قبل أن يغادر المنزل في تلك الليلة.

مكث معي حتى تناولنا العشاء، ولا يسعني أن أصف طواعيته، ومدى اندماجه وبهجته الصادقة. لقد دخل إلى غرفة السيد باركس كما لو أنه الضوء والهواء، فراح يضيئها وينعشها كما لو أنه الطقس الصحي الذي يحتاجه. لم يظهر صخبه، ولم يَبدُ عليه تصنع، أو تظاهر في أي شيء من أفعاله، بل لاح بسيطًا في خفة لا توصف في كل شيء، حتى إنه من المستحيل أن يبدو أنه غير ذلك، أو أن ثمة ما هو أفضل مما يفعله،

فقد لبث رشيقًا وطبيعيًّا، ومقبولًا، للحد الذي يجعل التفكير في أمره يطغى عليَّ حتى الآن، حين أتذكره.

كم استمتعنا وفرحنا في تلك الحجرة الصغيرة، حيث أبصرت كتاب الشهداء يعلو المكتب كما هو منذ وقت طويل، فالتقطته وقمت في هذه اللحظة بتصفح صوره الرائعة، متذكرًا الأحاسيس القديمة التي أيقظها. إلا أنهم لم يشعروا بما فعلت. تحدثت بيجوتي عما تسميه غرفتي، وعن أنها جاهزة لي لقضاء ليلي ونومي، وعن أملها في أن أشغلها، وقبل أن أتمكن من النظر إلى ستيرفورث، أو التفكير في الأمر، إذا به يجزم ويحكم الأمر في القضية بأكملها.

قال: «بالطبع. ستنام هنا طوال فترة مكوثنا، وسأنام أنا في الفندق».

قلت: «إلا أنك قد صاحبتني في هذه الزيارة، ويبدو أن ذهابك إلى الفندق سيحول بيننا ويفرقنا يا ستيرفورث».

قال: «لمَ! يا إلهي! إلى أين تنتمي فطرتك هذه؟ ما موقع كلمة «يبدو» في حديثنا؟». هكذا تمت تسوية الأمر على الفور.

لقد حافظ على كل صفاته المبهجة حتى النهاية، حتى انطلقنا في الثامنة مساءً إلى قارب السيد بيجوتي. ظل ستيرفورث على دعاباته في صورة تزداد سطوعًا مع مرور الوقت، لأنني حسبت أنه ظل طوال هذا الوقت – ولا يراودني أدنى شك في ذلك حتى الآن – يسعى إلى مواصلة نجاحه بإرضاء من حوله، في تصميم على ذلك، وقد ألهمه الأمر رقة جديدة، وجعله بشكل ما خفي، ألين طباعًا وأرهف شعورًا. إذا أخبرني

أي إنسان أن كل ما فعله ستيرفورث لم يكن سوى لعبة رائعة، أداها فور شعوره بالإثارة حيالها في لحظته الجارية، من أجل إشباع تقلباته المزاجية في ذلك الوقت، فأظهر نوعًا من الحب الطائش؛ رغبة منه في الظهور واكتساب مشاعر لا قيمة لها عنده، ثم طرح تلك المشاعر بعيدًا عنه في الدقيقة التالية، فلن يسعني إلا أن أقول: إنه لو أن أحدًا حدثني بأن كل ما صنعه في تلك الليلة لم يكن سوى كذبة، فإني لأتساءل كيف كنت سأستقبل سخطي العارم، وأي هياج كان من شأنه أن يُنفِّس عن ثورتي! ربما لم أتصور ذلك إلا لفيض مشاعري حينها، وتفاقم إحساسي بالإخلاص والصداقة التي سرت في أفعاله، فجعلتني أسيرًا يخطو معه فوق رمال الشتاء القاتمة باتجاه القارب القديم، بينما تتنهد الريح من حولنا شجية، يزداد أنينها أكثر من ليلتي الأولى التي جئت فيها إلى باب السيد بيجوتي.

قلت: «إن هذا المكان أقرب إلى الأماكن البرية الموحشة يا ستيرفورث، أليس كذلك؟».

قال: «إنه يبدو كئيبًا يحاوطه الظلام، كما أن البحر يزمجر كما لو أنه جائع سينقض لالتهامنا. هل هذا هو القارب الذي أرى نورًا ينبعث منه هناك؟».

قلت: «نعم، إنه القارب».

راح يقول: «إنه القارب نفسه الذي رأيته هذا الصباح. أحسب أنني قد أتيت إليه مباشرة بالفطرة».

لم نزِد من قولنا شيئًا حتى اقترابنا من الضوء، فخطونا على مهل نحو الباب. وضعت يدي على المقبض، ثم همست إلى ستيرفورث ليبقى قريبًا مني، ثم دخلنا.

تناهت إلى أسماعنا همهمة من أصوات ممتزجة ونحن بالخارج، وما إن دخلنا حتى ارتفعت أصوات تصفيق بالأيدي، وقد انتابتني دهشة حين رأيت هذه الضوضاء قد انبثقت من السيدة جامدج، التي لم أكن أعهدها إلا في حالها البائسة عمومًا. إلا أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي بدا بهذه الحماسة الفائقة. كان وجه السيد بيجوتي متهللًا يشع بنوع من الرضا غير المألوف، وقد راح يضحك بكل قوته، وقد بسط ذراعيه الخشنتين على آخرهما، كما كان يفعل مع إيميلي الصغيرة حين راحت تصطدم بهما. أما هام، فقد تنوعت تعابير وجهه، فامتزجت بين الإعجاب والبهجة، وتخللها نوع من الخجل المتخبط الذي حاول تجاوزه، وراح يمسك إيميلي الصغيرة بيده، كما لو أنه يقدمها إلى السيد بيجوتي. بدت إيميلي الصغيرة خجلة يحفها الحياء، لكن مسرورة بالفرحة التي يبديها السيد بيجوتي، وقد ظهر ذلك من خلال عينيها المبتهجتين. كانت قد وقفت عند الباب بعد دخولنا -لأنها كانت أول من رآنا- ثم انتقلت من يد هام نحو حضن السيد بيجوتي وتعانقا. هكذا كانت اللمحة الأولى التي رأينا فيها الجميع، بعد لحظات من انتقالنا من الليل البارد المظلم إلى غرفة يكسوها النور والدفء، وكانت هذه هي حالتهم مجتمعين، بينما لاحت السيدة جامدج في الخلفية، تصفق بيديها كامرأة مجنونة.

تلاشت هذه الصورة الصغيرة على الفور بعد دخولنا، إلى الحد الذي يتشكك فيه المرء في حدوثها في أي وقت مضى. مكثت وسط الأسرة المذهولة، وجهًا لوجه مع السيد بيجوتي، باسطًا يدي إليه، فإذا بهام يصرخ:

«سيد ديفي، إنه السيد ديفي».

صرنا جميعًا نتصافح بعد لحظات، ويسأل كل منا عن أحوال الآخر، وكيف سارت الأمور معه، ويخبر بعضنا بعضًا عن مدى سعادتنا بهذا اللقاء، وقد لبثنا نتحدث في وقت واحد. كان السيد بيجوتي فخورًا للغاية وقد غمرته السعادة لرؤيتنا، حتى إنه لم يكن يعرف ماذا عليه أن يقول أو يفعل، لكنه ظل يصافحني مرارًا، ثم فعل الشيء نفسه مع ستيرفورث، ثم عاود فعله معي، ثم ينفش شعره الأشعث حول رأسه، ويضحك في سعادة وانتصار، وكم سعدت لرؤيته على هذه الحال!

قال السيد بيجوتي: «حقًّا، إن زيارتكم لهذا البيت أيها الشباب بعد أن كبرتم وفي هذه الليلة خاصة دون أي ليلة سواها في حياتي، هي حدث عظيم لم يجرِ من قبل، وإني لأقسم على ذلك بحق. تعالي إلى هنا يا إيميلي يا حبيبتي، تعالي إليَّ يا ساحرتي الصغيرة. إن ثمة صديقًا للسيد ديفي يا عزيزتي، إنه الرجل اللطيف الذي سمعتِ عنه من قبل يا إيميلي. ها قد جاء لزيارتك، جنبًا إلى جنب مع السيد ديفي، في ألمع ليلة في حياة عمكِ لم تُضاهِ ولن تضاهى أبدًا، فما أجمل هذه الليلة! مرحى، مرحى».

ألقى السيد بيجوتي خطبته تلك في نفَس واحد، وبتعبيرات وانفعالات وسرور غير معهود، ثم وضع أحد يديه الكبيرتين في نشوة على إحدى وجنتي ابنة أخيه، وراح يُقبِّلها عشرات المرات، ثم أخذ يُقرِّبها منه ويحتضنها بكل فخر ومحبة وارفين، وراح يربت عليها كما لو أنها امرأة ذات فضل عليه، ثم تركها في نهاية الأمر. انطلقتْ نحو الغرفة الصغيرة حيث اعتدت أن أنام، فإذا بالسيد بيجوتي يلتفت إلينا، في سعادة حارة وأنفاس متقطعة تتخللها بهجة غير معهودة، وراح يقول: «إذن صرتما الآن شابين لطيفين، وقد كبرتما وبلغتما مبلغ الرجال...».

قاطعه هام قائلًا: «إذن هما كذلك، نعم إنهما كذلك. لقد أحسنت القول. لذلك يا سيد ديفي الكبير - صارا شابين - إنهما كذلك».

استطرد السيد بيجوتي قائلًا: «لا تؤاخذاني أيها الشابان اللذان كبرا، لما أبديه من مشاعر، فإنكما حين تفهمان الأمور، ستعذران حالي. يا إيميلي، يا عزيزتي. إنها تعرف ما سأقول، ولذلك همت بالفرار». اندلعت هنا نوبة من الفرح مرة أخرى، ثم تابع حديثه قائلًا: «هل تكرمتِ يا سيدتي بالذهاب إليها وملاحظتها لدقيقة واحدة؟».

أومأت السيدة جامدج برأسها ثم اختفت.

تحدث السيد بيجوتي، بينما يجلس في وسطنا بجوار المدفأة، فراح يقول: «إذا لم تكن هذه الليلة هي ألمع ليالي حياتي، فلأصِر محارًا، بل محارًا مسلوقًا أيضًا، ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك».

التفت السيد بيجوتي نحو ستيرفورث وراح يتحدث إليه بصوت منخفض قائلًا: «هذه هي إيميلي الصغيرة، التي رأيتها هنا يا سيدي، وكما ترى، لقد صارت في خجل تام الآن».

أومأ ستيرفورث برأسه فقط، إلا أن ملامحه لم تفقد الاهتمام المبهج والشغف بمشاركة السيد بيجوتي مشاعره، مما جعل الأخير يجيبه كما لو أنه تحدث إليه بالفعل.

قال السيد بيجوتي: «بالتأكيد. إنها طبيعتها، وهو كذلك. شكرًا يا سيدي».

أومأ لي هام برأسه عدة مرات، كما لو أنه كان على وشك قول الأمر نفسه.

راح السيد بيجوتي يقول: «إن هذه الصغيرة التي لدينا؛ أقصد إيميلي، قد نشأت في منزلنا هذا، على ما يقرب من... - إنني رجل جاهل، لكن هذا ما أحسبه - منذ الوقت الذي يستطيع أي إنسان أن يحيا فيه في هذا المنزل. إنها ليست مولودتي، لأنني لم أرزق بمولود من قبل، لكنني أحببتها كما لو أنها ابنتي، بل أكثر. إنك تفهم مقصدي، لم أستطع فعل ذلك».

قال ستيرفورث: «إنني أفهم الأمر تمامًا».

رد السيد بيجوتي قائلًا: «أعلم ذلك يا سيدي، وأشكرك مرة أخرى. إن السيد ديفي يستطيع أن يتذكر ما كانت عليه، ويمكنك أن تحكم بنفسك على ما هي عليه الآن، لكن أحدًا منكم لا يستطيع أن يدرك تمامًا

ما كانت عليه في الماضي، وكيف هي الآن، وكيف ستصير منزلتها في قلبي المغرم بها. إنني قاسٍ يا سيدي، إنني خشن خشونة قنفذ البحر، لكن لا يسع أحد -ما لم تكن امرأة على ما أظن- أن يعرف مكانة إيميلي الصغيرة في قلبي». ثم أخفض صوته في هذه اللحظة واستطرد قائلًا: «وإن اسم هذه المرأة ليس السيدة جامدج أيضًا، على الرغم من أنها تتمتع بمزايا متنوعة».

نفش السيد بيجوتي شعره مرة أخرى بكلتا يديه، ثم أسند يده إلى ركبتيه، ومضى يكمل حديثه قائلًا: «كان ثمة شخص بعينه، عرف إيميلي الصغيرة بعد أن غرق والدها، كما أنه قد رآها عندما كانت وليدة، ثم تابعها طفلة ثم صبية ففتاة، إلى أن صارت امرأة. إنه رجل لا يسر مظهره الناظرين، فهو في هيئتي وحجم بنيتي، خشن، تكسوه طبقة سميكة من الملح، إلا أنه على كل حال يتسم بالصدق والإخلاص، وقد وضع قلبه في موضعه المناسب».

أحسب أنني لم أرَ قَطُّ هام يبتسم بهذا الشكل الذي أبداه من ابتسامته، مُطلًّا علينا بها في مجلسنا في هذه اللحظات.

قال السيد بيجوتي، بعد أن استعاد وجهه الفرح في جو ظهيرة حار: «ماذا يفعل هذا القاسي المكسو والمشمع بالملح؟ لقد منح قلبه المبارك هذا إلى صغيرتنا إيميلي. إنه يراعيها، ويجعل من نفسه خادمًا لها، ثم راح يفقد إلى حد كبير شهيته بسبب ولعه بها، وعلى مدى طويل صرَّح لي بأمره في النهاية. أما الآن فلا أتمنى شيئًا، كما تعرفون، سوى أن تصير إيميلي الصغيرة في طريقها إلى زواج بهيج. ولا حلم لديَّ على

الإطلاق سوى أن أراها بين يدي زوج أمين يحق له أن يرعاها ويدافع عنها. أنا لا أعرف كم تبقى لي من الحياة، أو متى سأموت، فربما أرحل عن دنياكم قريبًا. إن كل ما أعلمه هو أنني لو انقلب بي قارب في أي ليلة، مع هبوب رياح في طريق «يارموث» إلى هنا، وقد لاحت لعيني أضواء المدينة تتألق للمرة الأخيرة فوق الأمواج المتعالية التي لم أتمكن من مواجهتها، فإنني ساعتها لن يسعني سوى الغرق في سكينة بعد أن أطمئن إلى التفكير في أن ثمة رجلًا يقبع على الشاطئ، بمثابة درع حقيقية لإيميلي الصغيرة، بارك الله فيها، فلا يمسها سوء طوال حياة هذا الرجل».

لوَّح السيد بيجوتي بذراعه اليمنى بجدية وبساطة متناهية، كما لو أنه يلوِّح أمام أضواء المدينة للمرة الأخيرة، ثم تبادل إيماءة مع هام، الذي التقت عيناه به، ثم استكمل حديثه الذي بدأه من قبل، وراح يقول:

«حسنًا، لقد نصحته بالتحدث إلى إيميلي في الأمر. إنه رجل كبير بما فيه الكفاية، إلا أنه لم يزل خجلًا على الرغم من سنه البالغة، فلا يستطيع الحديث إليها بنفسه، لذلك تحدثت أنا بدلًا منه. قالت لي إيميلي: «ماذا تقول؟! هل تقول هام؟ إنه الرجل الذي أعرفه عن قرب متناهٍ لسنوات عديدة، وقد أحببته كثيرًا. آهٍ يا عمي! إنني لا أستطيع الموافقة عليه أبدًا. إنه رجل طيب»، منحتها قبلة، ولم أقل لها أكثر من قولي ذلك: «يا عزيزتي، إنكِ محقة في تحدثك إليَّ بوضوح، عليكِ أن تختاري بنفسك من تريدين، إنكِ حرة مثل طائر صغير». ثم ذهبت إلى هام، وقلت له: «كنت أتمنى لو تقبل الأمر، لكنني لا أستطيع فعل

شيء. إلا أنكما تستطيعان أن تبقيا على حالكما». وكان كل ما استطعت قوله له: «كن معها كما كنت معها دومًا رجلًا نبيلًا». فما كان منه إلا أن قال لي، مصافحًا يدي: «سأفعل»، وقد ظل شريفًا وبالغ الرجولة لمدة عامين، وبقينا كما كنا في سابق عهدنا في منزلنا السابق».

مضى وجه السيد بيجوتي يوحي بتعبيرات مختلفة، راحت تتغير مع المراحل المتتالية من حكايته، ثم راح يستعيد بعد لحظات كل بهجته المنتصرة السابقة، وقد وضع يدًا على ركبتي والأخرى على ركبة ستيرفورث - كان قد بللهما من قبل، بعد مزيد من التركيز والانفعال - وراح يُقسِّم نظراته نحونا، موجهًا خطابه التالي إلينا:

«فجأة، وذات مساء - أو لنقل في ليلة بعينها - جاءت إيميلي الصغيرة من عملها، وهو معها، ستقولان إنه لا شيء يمنع ذلك، أو يعارضه، فهو يعتني بها مثل أخ، راح يحرسها في ذلك الظلام الدامس أو حتى قبل حلول الظلام، بل في جميع الأوقات. إلا أن هذا الرجل المكسو بالخشن، كان يمسك بيدها وقد صرخ فيَّ مبتهجًا، وراح يقول: «انتبه إليَّ، إن هذه الفتاة ستصير زوجتي الصغيرة»، أما هي فقد راحت تقول بين جرأة وخجل، في حالة بين الضحك والبكاء: «نعم يا عمي، إذا سمحت، بعد إذنك»».

راح السيد بيجوتي يصرخ، بينما يدحرج رأسه في نشوة بعدما تذكر هذه الفكرة، قائلا: «يا ربي! لقد راحت تقول: «إذا سمحت». كما لو أنني كنت لأفكر في أي شيء آخر، ثم أكملت: «إنني الآن أكثر ثباتًا، وقد فكرت في الأمر جيدًا، وسأكون زوجة صغيرة له، طيبة قدر

استطاعتي، لأنه عزيز على قلبي، ورجل صالح»، ثم راحت السيدة جامدج تصفق كما لو أنها أمام عرض مسرحي. هذا كل شيء! هيا! لقد حدث كل ذلك في هذه الساعة التي دخلتما فيها تمامًا. وها هو الرجل الذي سيتزوج ابنتي، في اللحظة التي تبلغ فيها عمر الزواج».

ترنح هام، وهذا شيء متوقع، إثر الضربة التي وجهها إليه السيد بيجوتي في فرحته التي لا حدود لها، كدليل على الثقة والصداقة، إلا أنه ظل يشعر بأنه مدعو لقول شيء لنا، ومن ثَم راح يتحدث إلينا في تعثر بالغ وصعوبة، قائلًا:

«لم تكن تفوقك طولًا يا سيد ديفي، حين جئت إلينا أول مرة. رحت أفكر حينها كيف ستصبح بعدما تكبر. إنني - أيها السادة - أراها تكبر وتزدهر مثل الوردة. سأبذل روحي من أجلها - يا سيد ديفي - آهٍ، ويا لبهجتي وامتناني بتضحيتي! إنها بالنسبة لي - أيها السادة - أثمن من... إنها كل ما أبتغيه، بل أكثر مما كنت أتصور يومًا أن أرجوه... إنها تفوق قدرتي على الوصف. إنني أحبها حقًّا. لم يخلق رجل على هذه الأرض بأسرها، أو وجد حتى فوق موج البحار، يستطيع أن يحب سيدته أكثر مما أحبها، وإن كان العديد من الرجال العاديين يستطيعون قول كلام أفضل يفي بشرح ما أقصده».

أحسب أنني تأثرت بالغ التأثر حين رأيت رجلًا قويًّا مثل هام يرتجف في هذه اللحظة من قوة ما يشعر به تجاه المخلوقة الصغيرة الفاتنة التي أسرت قلبه. وأحسب أن الثقة الساذجة التي منحنا إياها السيد بيجوتي

وهام، كانت مؤثرة في حد ذاتها. لقد تأثرت بالقصة بأكملها تمامًا، من دون أن أستطيع أن أحدد إلى أي مدى تأثرت مشاعري بذكريات طفولتي هذه. ولست متأكدًا هل ذهبت إلى هناك وأنا أحمل بين جوانحي أي نزوة باقية من حب إيميلي الصغيرة أم لا. أعلم أنني كنت سعيدًا بكل ما حدث، إلا أن متعة شعوري التي لا توصف في البداية راح يتحول القليل منها ويمتزج بالألم.

لو أنهم طلبوا مني ساعتها أن أمس هذا الوتر السائد بينهم بمهارة حديثي، لما فعلت ذلك، إلا أنني اعتمدت على ستيرفورث. هم بإلقاء كلمة طيبة، فإذا بنا قد غدونا سعداء في غضون دقائق قليلة وقد تباسط الجميع قدر الإمكان.

قال ستيرفورث: «يا سيد بيجوتي، إنك رجل صالح معطاء، وتستحق أن تحتفل بسعادة كما هي حالك الليلة. وإني لباسط يدي إليكم، ها هي! وأنت يا هام، فلتفرح أيها الشاب. وإني أبسط يدي إليك أيضًا. وأنت يا أقحوانتي، فلتشعل النار وتحركها حتى تتوقد سريعًا. وأنت يا سيد بيجوتي، إذا لم تتمكن من حث ابنة أختك اللطيفة على العودة إلينا -وها أنا قد أخليت لها هذا المقعد في الزاوية- فإني سأرحل. لن أسمح أن أتسبب في التفريق بين جمعكم حول المدفأة في مثل هذه الليلة - إن هذه فجوة مكانها على الأقل واضحة - لن أتسبب في هذا وإن منحوني ثروات جزر الهند!».

توجه السيد بيجوتي بعد هذا الكلام إلى غرفتي القديمة لإحضار إيميلي الصغيرة. لم تود إيميلي أن تأتي في بداية الأمر، ثم ذهب هام إليها

وأحضرها لتجلس إلى جانب المدفأة. كانت مرتبكة يسيطر عليها خجل عظيم، لكنها سرعان ما استردت ثقتها بعدما راح ستيرفورث يتحدث إليها في لطف واحترام بالغين، كما تجنب بمهارة أي شيء من شأنه أن يحرجها. مضى ستيرفورث يتحدث إلى السيد بيجوتي عن القوارب والسفن والمد والجزر والأسماك، ثم أشار إلى الوقت الذي شاهد فيه السيد بيجوتي في مدرسة سالم هاوس، وكم كان مسرورًا برؤيته للقارب وبكل ما ينتمي إليه. هكذا استمر في حديثه بخفة وسهولة، حتى وصل بنا مجلسنا إلى دائرة ساحرة، وصرنا جميعًا نتحدث منطلقين من دون أي تحفظ.

لم تتحدث إيميلي في الواقع إلا في أضيق الحدود، ومكثت على ذلك طوال المساء، لكنها راحت تنظر وتستمع إلينا وأخذت ملامحها تبدي انفعالًا بالحديث، وقد باتت ساحرة كعادتها. راح ستيرفورث يروي قصة حزينة عن سفينة محطمة -وقد كان حديثه قد بدأ مع السيد بيجوتي- كما لو أنها كانت شاخصة بتفاصيلها أمامه. أما عينا إيميلي الصغيرة فكانتا مثبتتين عليه طوال الوقت، كما لو أنها ترى حطام السفينة نفسها أيضًا. مضى بعدها يحكي لنا مغامرة مرحة قد مر بها، بدلًا من قصة السفينة المأساوية تلك. أخذ يقصها بقدر من البهجة كما لو أن القصة جديدة بالنسبة إليه كما هي لنا، فضحكت إيميلي الصغيرة حتى رن القارب بصدى صوتها الرنان، وضحكنا جميعًا بمن فينا ستيرفورث أيضًا، في عاطفة لفَّتنا جميعًا من دون أن نقاوم هذا اللطف البالغ الذي سرى في قلوبنا. راح ستيرفورث يشجع السيد بيجوتي على

الغناء، وقد فعل أو بالأحرى لقد راح يزأر، قائلًا: «عندما تهب الرياح، تهب، تهب»، وقد غنى أغنية أخرى للبحارة. كان غناؤه جميلًا ومؤثرًا، حتى إنني رحت أتخيل أن ريحًا حقيقية أخذت تزحف في حزن حول المنزل، وتغمغم بصوت خافت في ثغرات صمتنا المتقطع، وأنها هنا لتنصت إلى قولنا.

أما السيدة جامدج، فقد أيقظها ذلك من حالة قنوطها بنجاح لم يحققه أحد من قبل (على حد تعبير السيد بيجوتي)، منذ وفاة الرجل القديم. فلم يدع لها فسحة من الوقت لتلتهم فيه يأسها، بل قالت في اليوم التالي إنها تحسب أنها قد سُحِرت.

لم يستولِ ستيرفورث على الانتباه العام، ولم يحتكر الحديث لنفسه فقط، بل غدت إيميلي الصغيرة أكثر شجاعة، وتحدثت إليَّ - وإن كان حديثها على خجل بينما تتوارى خلف المدفأة، مسترسلة عن تجوالنا القديم على الشاطئ، والتقاط القذائف والحصى. سألتها إذا كانت تذكر كيف كنت مخلصًا لها، فرحنا نضحك معًا وقد احمر وجهانا خجلًا، وإذا بنا نستعيد ذكريات الماضي بكل ما تحمله من سرور بعدما صار من المستحيل استعادتها في هذا الزمان. ظل صامتًا ومنتبهًا، يراقبنا بعناية طوال هذا الوقت. أما هي فظلت طوال هذا الوقت من المساء قابعة في مجلسها فوق الخزانة القديمة في ركنها الصغير القديم بجوار المدفأة، بينما يجلس هام بجانبها في الموضع الذي كنت أجلس فيه يومًا. لم أستطع التوصل إلى إجابة بنفسي؛ هل تراها جلست في ركنها القصي إمعانًا في طريقتها المعذبة الصغيرة، أو لتصير في مأمن عنا، أم

أنها أرادت أن تبقى قريبة جدًّا من الحائط وبعيدة عنه، لكنني لاحظت أنها مكثت على حالها طوال المساء.

أذكر أننا مكثنا حتى منتصف الليل تقريبًا، ثم استأذنا في الانصراف بعد أن تجاوزناه. كنا قد تناولنا في عشائنا بعض المخبوزات والأسماك المجففة، وكان ستيرفورث قد أخرج من جيبه قارورة ممتلئة من النبيذ الهولندي، والتي أجهزنا عليها نحن الرجال - وإنني أقول نحن الرجال الآن، من دون أن تحمر وجنتي خجلًا - ثم توادعنا في مرح بالغ. وقف الجميع متزاحمين عند الباب، محاولين إضاءة الطريق لنا قدر المستطاع، وإذا بي أبصر عيني إيميلي الصغيرة الزرقاوين الساحرتين تختلسان النظر إلينا من خلف هام، وسمعت صوتها الناعم ينادينا ناصحًا بأن نأخذ حذرنا من الطريق.

قال ستيرفورث وهو يمسك بذراعي: «يا لهذا الجمال الصغير الجذاب! يا لي من مسحور! إنه مكان جذاب، وإنها صحبة جذابة، ويا له من شعور بديع للغاية وممتع أن يختلط المرء بهم!».

أجبت قائلًا: «كم نحن محظوظان أيضًا لأننا وصلنا في ذاك الوقت لنشهد سعادتهم بهذا الزواج المرتقب! إنني لم أرَ هؤلاء الناس في مثل هذه الحالة من قبل. كم كان ممتعًا أن نرى ذلك، وأن نشاركهم فرحتهم الصادقة، على النحو الذي فعلناه».

قال ستيرفورث: «إن هذا الإنسان الخشن لا يليق به أن يصير زوجًا لتلك الفتاة، أليس كذلك؟».

كان ستيرفورث متوددًا إلى هام جدًّا، وظل على هذه الحال معهم جميعًا، مما جعلني أعجب من هذا الرد الصادم البارد غير المتوقع. إلا أنني التفت نحوه سريعًا، فأبصرت أثرًا من الضحك داخل عينيه، فأجبته بارتياح جم قائلًا:

«آه، يا ستيرفورث! أليس من الأفضل ألا تتفكه على الفقراء! قد تتشاجر مع الآنسة دارتل، أو تحاول إخفاء ميلك إلى الاستهزاء أمامي، إلا أنني أعرفك حق المعرفة. رأيت مدى تفهمك لهم تمامًا، وإلى أي مدى يمكنك الدخول في مثل هذه الدائرة من السعادة والفرح مع هذا الصياد البسيط، أو تستوعب محبة مربيتي القديمة، فأوقن أنه ليس ثمة فرح أو حزن أو عاطفة يمكنك أن تستهين بها مع مثل هؤلاء الناس. وإنني معجب بك وأحبك لتفهمك يا ستيرفورث، بل إنني قد أحببتك أضعاف حبي لك سابقًا».

توقف عن المسير والتفت ناظرًا إلى وجهي، ثم قال: «يا أقحوانتي، أحسب أنك إنسان نبيل وصالح. أتمنى لو كنا جميعًا مثلك».

لم تمضِ لحظات حتى راح يغني في مرح أغنية السيد بيجوتي، بينما كنا نسير بخطى دائبة عائدين إلى يارموث.



# الفصل الثاني والعشرون

## بعض المشاهد القديمة، وبعض المعارف الجدد

بقيت أنا وستيرفورث لأكثر من أسبوعين في هذا الموضع من البلدة. لا يسعني أن أقول إننا مكثنا أغلب الأوقات معًا، إلا فيما ندر، فقد كان كل منا يفترق لبضع ساعات عن الآخر أحيانًا. كان ستيرفوث بحارًا ماهرًا، أما أنا فلم أكن ذا خبرة في هذه الأمور، ولذلك فإني كنت أمكث على اليابسة بينما يغدو هو في القارب مع السيد بيجوتي، وقد أحس أن الأمر مسلٍّ بالنسبة إليه. فَرَضَ وجودي في غرفة بيجوتي الاحتياطية قيدًا عليَّ، بينما ظل ستيرفورث طليقًا حرًّا، لأنني عرفت مدى تفاني بيجوتي في خدمة السيد باركس طوال اليوم، ولم أرغب في البقاء خارج البيت حتى وقت متأخر من الليل، في حين بات ستيرفورث طوال فترة مقامه في الفندق حرًّا لا ترافقه سوى روح الدعابة الخاصة التي يتمتع بها، وهكذا راح يفعل ما يحلو له. وقد سمعت أنه أقام بعض الموائد الصغيرة للصيادين في وجود السيد بيجوتي، أو في مكان اجتماعه بالصيادين المعروف باسم «العقل الراغب»، بينما كنت أغط في نومي،

وأنه كان ينزل إلى البحر ملتحفًا بملابس الصيادين، طوال الليالي القمرية، ومن ثَم يعود في الصباح عندما يفيض المد. عرفت بحلول هذا الوقت، أنه يميل بطبيعته إلى الحركة المستمرة، وأن روحه تتمتع بالجرأة، وأنه يسعد بإيجاد متنفس في العمل الشاق والطقس القاسي، بل يسعد بأي وسيلة أخرى تجنح إلى الإثارة على أي حال، لذلك فإنني لم أتفاجأ من أي إجراءات أو تصرفات كان قد أقدم عليها.

تراءى لي سبب آخر لانفصالنا أحيانًا، ألا وهو اهتمامي بطبيعة الحال بالذهاب إلى بلندرستون، وتكرار زيارتي لمواضع قديمة تحمل ذكرى مألوفة لطفولتي، بينما لم يهتم ستيرفورث بالعودة لتكرار زيارته للمكان بعد أن زاره لمرة واحدة. ومن ثَم أتذكر أننا قضينا ثلاثة أو أربعة أيام مفترقين منذ أن تناولنا الإفطار مبكرًا، ثم التقينا مرة أخرى في موعد غداء متأخر. لم تكن لديَّ أي فكرة عن كيفية قضاء وقته في الفترة الفاصلة بينهما، إلا أنني أعلم أنه صار يحظى بشعبية كبيرة في المكان، وأنه يملك عشرين طريقة لتسلية نفسه بنشاط ما، بينما قد لا يتحصل إنسان غيره على شيء واحد مسلٍّ.

أما أنا فقد رحت أحج منفردًا إلى مزارات طفولتي، وغدوت أتذكر كل فسحة من الطريق القديم بينما أسير، فأخذت أطارد البقاع القديمة، من دون أن أتعب أو أمل من زيارتها على الإطلاق. رحت أتعقب سبل ذكرياتي كما نسجتها في مخيلتي في كثير من الأحيان، حيث أمتعني البقاء بين جنباتها كاستمتاعي باستدعاء ذكريات مراتع الطفولة حينما كنت بعيدًا عنها. رحت أنظر إلى ذلك القبر القابع أسفل

الشجرة، حيث يرقد والداي. إنه القبر نفسه الذي عرفته منذ أن رقد به والدي وحيدًا. وقفت بجوار القبر محملًا بمشاعر غريبة يتخللها الرثاء واليأس، متذكرًا الوقت الذي فُتح فيه لاستقبال رفات أمي الجميلة وطفلها. إنه القبر الذي حافظت بيجوتي المخلصة على رعايته قديمًا، وأنبتت حديقة حوله، وها أنا أطأ أرضه. كان القبر بعيدًا عن ممر ساحة الكنيسة، يقبع في زاوية هادئة غير بعيد، وكان بإمكاني قراءة الأسماء المنقوشة فوق الحجر، حين رحت أسير ذهابًا وإيابًا، مذهولًا بعد أن علت أصوات أجراس ساعة الكنيسة، فبدا دويها بعيدًا كعهدي به في الأيام الخوالي. ارتبطت تأملاتي في هذه الأوقات دائمًا بالشخصية التي يجب أن أصبح عليها في الحياة، والأشياء المميزة التي كنت أنتوي تحقيقها. لم تتبدل أصداء خطواتي إلى أي نغمة أخرى، بل كانت ثابتة على منوالها القديم، كما لو أنني عدت إلى المنزل لبناء قلعتي في الهواء بجانب أمي الحية.

توالت تغييرات عظيمة على بيتي القديم. اختفت الأعشاش، بعد أن هجرتها الطيور لفترة طويلة. وقُطِّعَت الأشجار، وتهدلت حتى صارت هيئتها فجة. صارت الحديقة موحشة، وقد سدت بأفرع أشجارها نصف نوافذ المنزل. لم يشغل البيت سوى رجل فقير مجنون، وقد تناوب عليه بعض الأشخاص ممن يقومون على رعايته. كان يجلس دائمًا عند نافذتي الصغيرة، وينظر إلى فناء الكنيسة، وقد رحت أتساءل هل تقاطعت أفكاره الشاردة مع أي من الأوهام التي شغلتني يومًا، كما كنت في الصباحات الوردية أختلس النظر من النافذة الصغيرة نفسها مرتديًا

ثياب النوم، بينما أراقب الخراف ترعى في هدوء تحت ضوء الشمس الساطعة؟

سافر جيراننا القدامى، السيد جرايبر والسيدة زوجته، إلى أمريكا الجنوبية، ومن ثَم شق المطر طريقه عبر سقف منزلهما الفارغ، ولطخ الجدران الخارجية للمنزل. أما السيد تشيليب فقد تزوج مرة أخرى من امرأة طويلة نحيفة ذات عظام بارزة وأنف كبير مدبب، ورُزقا بطفل صغير يجمع بين ملامحهما، ذي رأس ثقيل لا يستطيع حمله، وعينين ضعيفتين محدقتين، وقد بدا كما أنهما تتساءلان دائمًا عن سبب مجيئه إلى هذا العالم.

رحت أجول محملًا بخليط فريد من الحزن والسرور، ومشاعر اعتدت أن أكنها في موطني الأصلي، إلى أن نبهتني شمس الشتاء بأشعتها الحمراء في الغروب إلى أن الوقت قد حان لأستأنف رحلة العودة. تركت هذا المكان خلفي، وجلست أنا وستيرفورث سعيدين على مائدة العشاء بجوار نار المدفأة المشتعلة، وإذا بي أحن إلى الوجود هناك وأجد في أفكاري هذه نشوة ممتعة. إلا أن الأمر لم يستمر على هذا النحو، بعد أن تخففت من حدة انفعالي بهذه الأفكار، حينما ذهبت إلى غرفتي الأنيقة ليلًا. بعد أن تصفحت أوراق كتاب التمساح - الذي ظل موجودًا دائمًا في موضعه فوق طاولة صغيرة - تذكرت بقلب ممتن كم أنا سعيد بوجود صديق مثل ستيرفورث، وصديقة مثل بيجوتي، كما لو أنهما بديل لافتقادي لعمتي الرائعة والكريمة.

كان أقرب طريق لعودتي إلى يارموث، هو الانتقال بالعبَّارة بدلًا من أي مسيرات طويلة أخرى. وصلت إلى مكان يقع بين البلدة والبحر، حيث أمكنني أن أشق طريقًا مستقيمًا نحو البلدة، وبالتالي أنقذت نفسي من مغبة الطريق السريع الملتف. كان منزل السيد بيجوتي قابعًا في ذلك المكان، من دون أن يبتعد عن طريقي أكثر من مائة ياردة. كنت دائمًا أنظر صوب البيت بينما أمضي في طريقي نحوه. كنت على يقين من وجود ستيرفورث هناك، وكان لنا أن ننطلق معًا في الهواء البارد وقد رافقنا الضباب من حولنا، متجهين نحو الأضواء المتلألئة في المدينة.

تأخرت عن المعتاد في إحدى الأمسيات المظلمة، لأنني كنت أقوم بزيارتي الأخيرة إلى بلندرستون في ذلك اليوم، وقد صرنا الآن على وشك العودة إلى المنزل، وإذا بي أجد ستيرفورث في منزل السيد بيجوتي، يجلس وحيدًا ساهمًا أمام نار المدفأة. لقد كان مستغرقًا في تفكيره للغاية، حتى إنه لم ينتبه مطلقًا إلى وجودي على مقربة منه، ربما كان السبب خفة خطواتي فوق الأرض الرملية بالخارج، فلم تُحدث صوتًا ولم تجذب انتباهه، لكنه لم ينتبه كذلك إلى دخولي إلى المنزل، بل كنت أقف على مقربة منه ناظرًا إليه ولم يزل شاردًا عاقد الحاجبين فوق جبينه، شاردًا في تأملاته.

لقد انتفض بعدما وضعت يدي فوق كتفه، وقد جعلني أنتفض بدوري أيضًا.

قال بنبرة غاضبة: «هل تُقبل عليَّ مثل شبح يعاتب صاحبه؟!».

أجبته: «لقد اضطررت إلى الإعلان عن وجودي بطريقة ما. هل قطعت عليك شرودك في النجوم؟».

رد قائلًا: «لا. كلا».

جلست على مقربة منه قائلًا: «أي مكان شردت إليه إذن؟».

قال: «لقد كنت أنظر إلى اللوحات التي تشكلها النار».

راح يحرك محتويات المدفأة سريعًا بقطعة من الخشب المحترق، وقد خرج منها قطار من الشرر شديد السخونة، وراحت تتصاعد الأدخنة من المدخنة الصغيرة، وتتناثر في الهواء. قلت: «لكنك تفسد هذه الصور من أمامي بفعلك هذا».

راح يقول: «ما كنت ستراها. إنني أكره هذا الوقت الهزيل، حيث لا ليل منسدل ولا نهار ساطع. كم تأخرتَ اليوم! أين كنت؟».

قلت: «لقد كنت أنعم بمسيرتي المعتادة».

راح ستيرفورث يلقي نظرة خاطفة إلى الغرفة، ثم قال: «لقد كنت جالسًا هنا أفكر في جميع الأشخاص الذين وجدناهم في غاية السعادة في ليلة زيارتنا لهم، وأفكر في احتمالية أن يتفرقوا فيسود فراغ هادر كالذي يُعبئ المكان الآن، أو تفنى ساحتهم لأي سبب أو يلحق بهم أي ضرر. يا ديفيد، كم تمنيت من الله لو أن لي أبًا حكيمًا في السنوات العشرين الماضية!».

تساءلت: «يا عزيزي ستيرفورث، ما خطبك؟».

صرخ قائلًا: «تمنيت من أعماق روحي لو أحصل على إرشاد قويم،

أتمنى من أعماق روحي أن أتمكن من توجيه نفسي إلى الأفضل».

لاح على حديثه نوع من الاكتئاب، الأمر الذي أدهشني تمامًا. بدا لي مختلفًا كما لم أعهده أو أتخيله من قبل.

نهض من مجلسه وراح يترنح متوترًا وقد استند إلى المدخنة موليًا وجهه شطر النار، ثم قال: «ألم يكن من الأفضل أن أكون في مكان بيجوتي الفقير، أو ابن أخيه التافه، بدلًا من أن أفوق كليهما ثراءً بعشرين مرة، وبدلًا من أن أفوقهم برجاحة عقلي عشرين مرة، فأعذب نفسي وأشقى بها على مدار نصف ساعة بين لحاء هذا القارب الملعون؟!».

صرت مرتبكًا للغاية إثر التغيير الذي طرأ عليه، حتى إنني لم أتمكن في البداية من فعل شيء سوى النظر إليه في صمت، بينما وقف أمامي متكئًا برأسه فوق يده، محملقًا نحو النار في كآبة. أحسست بجدية كلماته في النهاية، الأمر الذي دفعني لأن أستحثه على أن يخبرني بما حدث، وما دفعه إلى هذا التغيير المفاجئ الذي طرأ عليه، وأن يسمح لي أن أشاركه مشاعره على الأقل إن لم أستطع أن أسدي إليه نصائحي، إلا أنني لم أوشك على إنهاء حديثي حتى تهلل ضاحكًا. كانت ضحكاته متقطعة في البداية يشوبها القلق، ولكنه سرعان ما عاوده ابتهاجه.

قال: «يا توت، لم أقصد شيئًا يا أقحوانتي! لا شيء! لقد أخبرتك في الفندق في لندن؛ إنني أثقل على نفسي في بعض الأحيان. لقد كنت كابوسًا لنفسي، وأحسب أنه راودني للتوِّ، كما لو أنني أحلم. تلوح حكايات المربيات في الذاكرة في بعض الأوقات الغريبة التي يتخللها الملل، من دون أن ندرك منبعها الحقيقي ومغزاها. أحسب أنني كنت

أمزج بين ذاتي وولد سيئ «لا يعبأ بشيء»، فأصير كما تقول النساء العجائز «طعامًا للأسود يُهدر ويُطرح للكلاب». أخذ الخوف يغلفني من منبت رأسي إلى أخمصي القدم. لقد كنت خائفًا من نفسي حقًّا».

قلت: «أحسب أنك لا تخشى أي شيء آخر».

أجاب: «ربما لا، ومع ذلك قد أحوز ما يكفي للخوف أيضًا. لا عليك! فلندع هذا الأمر! إنني لن أعاود هذا الأمر مرة ثانية يا ديفيد. إلا أنني سأخبرك بشيء يا صديقي الطيب، فإنني أقر من جديد أنه كان من الأفضل لشخص مثلي - ولمن على شاكلتي - لو فاز بأب حازم وحكيم».

كان وجهه مفعمًا دائمًا بالانفعالات، لكنني لم أره قَطُّ مبديًا مثل هذا النوع الصارم من الجدية، كما بدا عليه هذه المرة حين باح لي بهذه الكلمات، بينما طأطأ نظراته نحو النار.

لوح بيده كما لو أنه ينفض عنه شيئًا في الهواء، قائلًا: «دعنا من هذا كله! لقد استعدت رشدي مرة أخرى بعد أن تجاوزت هذه الحادثات على حد تعبير ماكبث. أما الآن فهيا بنا إلى الغداء. إن لم أكن قد أفسدت الاحتفاء مثل ماكبث مع اضطرابي المثير للإعجاب يا أقحوانتي».

قلت: «إنني أعجب أين ذهب الجميع!».

قال ستيرفورث: «الله أعلم. لقد أتيت إلى هنا بعد تفقدي لك ووصولي بالعبَّارة، فإذا بي أجد المكان مهجورًا. وهذا ما دفعني إلى التفكير، وقد جئتَ لتجدني منخرطًا في التفكير».

أوضح لنا قدوم السيدة جامدج ومعها سلة، سبب فراغ المنزل، فقد كانت قد أسرعت إلى الخارج لشراء شيء ما تحتاجه، قبل عودة السيد بيجوتي من البحر مع المد، وتركت الباب مفتوحًا خلال فترة غيابها، لئلا يعود هام وإيميلي الصغيرة فيجدا الباب مغلقًا بعد أن توقعت أن يعودا مبكرًا هذه الليلة. ألقى ستيرفورث تحية مبهجة على السيدة جامدج واحتضنها بمرح، وما إن تحسنت حالتها المزاجية، حتى أخذ بذراعي وأسرع بي بعيدًا.

تحسنت حالته المزاجية، كما حدث للسيدة جامدج بالضبط، فقد عادا مرة أخرى إلى حالتهما المعتادة وانطلاقهما، بل صار ستيرفورث مقبلًا على المحادثات المفعمة بالحيوية في أثناء سيرنا.

تحدث في مرح قائلًا: «ها نحن ذا، سنتخلى عن حياة القراصنة هذه غدًا، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «هذا ما اتفقنا عليه، وقد حجزنا مقاعدنا من مركبة السائق من قبل، كما تعلم».

قال ستيرفورث: «آه، أظن أنه لا سبيل لتغيير الأمر. لقد كدت أنسى تقريبًا أنني أؤدي أي دور في هذا العالم سوى أنني أخرج للولوج إلى البحر هنا. كم أتمنى لو لم أفعل شيء سواه!».

قلت ضاحكًا: «ما دمت جادًّا، فيجب عليك أن تستمر».

أجابني قائلًا: «هذا على الأرجح ما عليَّ فعله. إن هذه العبارة لا تخلو من معنى ساخر، وهي نابعة من مداعبة لطيفة من صديقي الشاب. ليكن

ما يكون! لا أخفيك القول بأنني رجل متقلب المزاج يا ديفيد. أعترف بأنني كذلك، لكنني سأطرق الحديد ساخنًا بقوة أيضًا، وأحسب أنني أستطيع أن أجتاز امتحانًا ملائمًا يؤهلني لأن أصير بحارًا في هذه المياه».

قلت: «إن السيد بيجوتي يقول إنك أعجوبة».

ضحك ستيرفورث وقال: «إنني ظاهرة بحرية، أليس كذلك؟».

استطردتُ قائلًا: «إنه يظن أنك كذلك حقًّا، وإنك لمدرك حقًّا لمدى حماسك في أي مسعى تبتغي الولوج فيه، وكيف يمكنك إتقانه بسهولة إن أردت. وإن أكثر ما يذهلني فيك يا ستيرفورث أنك مكتفٍ بهذا المسلك المتقلب في استخدام قواك ومواهبك».

أجاب في مرح: «مكتفٍ؟ إنني لا أكترث لشيء أبدًا إلا بنضارتك يا أقحواناتي العزيزة. فيما يتعلق بالملاءمة، لم أتعلم قَطُّ فن ربط نفسي بأي من العجلات التي يدور بها إكسيون[1] هذه الأيام. لقد فاتتني هذه الطريقة في تدريبي المهني السيئ، وصرت لا أعبأ بمثل هذه العذابات الآن. هل تعلم أنني اشتريت قاربًا هنا؟».

توقفت عن مواصلة المسير بعدما انتابتني الدهشة - فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الخبر - ثم صرخت قائلًا: «يا لك من رفيق استثنائي يا ستيرفورث! تقدم على هذا الفعل في وقت قد لا تهتم فيه أبدًا بالاقتراب من هذا المكان مرة أخرى!».

---

(١) إكسيون ملك قبيلة لابيثوس، تحكي عنه الأساطير الإغريقية خيانته للإله زيزس ووقوعه في حب الإله هيرا. أمر زيوس بمعاقبته بربط قدميه ويديه إلى حافة عجلة تدور في النيران إلى الأبد.

عاد: «لا أعرف لم فعلت ذلك».

جذبني ناحيته وقد أسرعنا الخطى، وقد استطرد قائلًا: «لقد أحببت المكان، وعلى أي حال فإنني قد اشتريت قاربًا كان معروضًا للبيع. إنه قارب سريع منطلق فوق أمواج البحار، على حد تعبير السيد بيجوتي عنه، وسيصير هو صاحبه والمسؤول عنه في غيابي».

قلت في بهجة ظاهرة: «الآن فهمتك يا ستيرفورث! إنك تتظاهر بشرائه لنفسك، لكنك فعلت ذلك حقًّا لمنحه للسيد بيجوتي. كان يجدر بي أن أدرك الأمر من البداية، خاصة وأنا أعرف طباعك. يا عزيزي الغالي ستيرفورث، كيف يسعني أن أصف مدى امتناني لكرمك؟».

أجابني بينما تحول وجهه إلى اللون الأحمر: «خير الكلام ما قل ودل».

صرخت قائلًا: «ألم أعرف؟ ألم أقل إن الفرح أو الحزن أو أي عاطفة تنبع من هذه القلوب الصادقة؛ كانت جميعها منصبة عليك؟».

أجاب: «نعم، لقد أخبرتني بكل ذلك. فلننُهِ هذا الحديث. لقد قلنا ما يكفي!».

خشيت أن أسيء إليه بمتابعتي للحديث في هذا الموضوع، بعدما ألقى الضوء عليه، إلا أنني تابعت التفكير فيه في أعماقي فقط، بينما أكملنا المسير بخطى أسرع من ذي قبل.

قال ستيرفورث: «أحسب أن القارب يحتاج إلى تجديد، وسأترك

ليتيمر ورائي ليخبرني بما أنجز فيه من عمل، حتى أتأكد من صلاحه على أكمل وجه. هل قلتُ لك إن ليتيمر قد جاء؟».

«كلا».

«حسنًا، لقد جاء هذا الصباح محملًا برسالة من والدتي».

التقيت بستيرفورث وجهًا لوجه، فإذا بي ألاحظ أنه بدا شاحبًا حتى فاض شحوبه على شفتيه، إلا أنه أخذ ينظر نحوي في ثبات شديد. خشيت أن يكون ثمة خلاف قد وقع بينه ووالدته، وربما كان هذا الخلاف سببًا في شروده وحالته التي وجدته عليها حين أبصرته مختليًا بجوار المدفأة. ألمحت إليه بهواجسي تلك.

راح يهز رأسه ويضحك قليلًا قائلًا: «آهٍ، لا! لم يحدث شيء من هذا القبيل. نعم، لقد جاء الرجل الذي أعرفه».

قلت: «هل مكث على حالته المعهودة؟».

قال ستيرفورث: «إنه على حالته المعهودة؛ غريب وهادئ مثل سكون القطب الشمالي. يجب أن يتأكد من تسمية القارب بعد التجديد. إن اسمه الآن «طائر البحار». ما الذي يجعل السيد بيجوتي مهتمًّا بطيور البحار هذه؟! سأغير هذا الاسم».

سألته: «ماذا ستطلق عليه؟».

«إيميلي الصغيرة».

ظل ينظر إليَّ في ثبات، وقد اعتبرت نظراته هذه بمثابة تذكرة باعتراضه على الثناء على كرمه وعطائه. لم أستطع كبح نفسي أو عدم

إظهار مدى سروري البالغ الذي أطل من قسمات وجهي، إلا أنني لم أقل شيئًا، فاستأنف ابتسامته المعتادة وبدا مرتاحًا مطمئنًّا.

راح يمد أنظاره إلى الأفق وأخذ يقول: «لكن انظر هناك، ها هي إيميلي الصغيرة الأصلية! هل تقبل نحونا مصطحبة هذا الرفيق؟! آه، رحماك يا ربي، يا له من فارس حقيقي، لا يفارقها أبدًا».

كان هام يعمل بنَّاءً للقوارب في هذه الأيام، حيث نمَّى مهارته الفطرية التي اكتشفها في هذه الحرف اليدوية، حتى صار عاملًا ماهرًا. كان يرتدي لباس العمل، وقد بدا متينًا قوي البنية ترتسم عليه صلابة الرجال، حتى لاح لائقًا لأن يكون حارسًا للمخلوق الصغير المزدهر الذي يسير إلى جانبه، فاض على وجهه في صراحة وأمانة وتجلٍّ لا يخفى على العيان مدى اعتزازه بها، وحبه لها، وقد لاحت لي طلتهما من أجمل الإطلالات وأبدعها. وأحسب أنني شعرت في مجيئهما أنهما كانا متقاربين جيدًا يشتركان في طيب الصفات.

سحبت يدها من ذراعه في خجل بعدما توقفنا للحديث إليهما، واحمر وجهها خجلًا حين مدت يدها لمصافحتي ومصافحة ستيرفورث. انصرفنا عنهما بعد أن تبادلنا بضع كلمات، إلا أنها لم تشأ أن تعيد يدها كما كانت، بل سيطر عليها الخجل، فسارت بمفردها. أحسب أن الأمر كله قد بدا لي فاتنًا وجذابًا، ويبدو أن ستيرفورث راح يفكر في الأمر ذاته أيضًا، حيث رحنا نتتبعهما بنظراتنا بينما يسيران في ضوء قمر لم يكتمل بعد.

مرت بنا فجأة امرأة شابة، لم نكن قد لاحظنا اقترابها، وكان من الواضح أنها تتبعهما. أبصرت وجهها بوضوح حين مرت من أمامنا، وأحسب أنني تذكرت أنني التقيت بها من قبل. كانت ترتدي ملابس خفيفة، لاحت فيها جريئة وهائمة، متكبرة وفقيرة، لكنها بدت في هذه اللحظة أنها نثرت كل هذه الانطباعات في مهب الرياح، فلم تشغل بالها بشيء سوى ملاحقتهما. كان الظلام حالًّا يلف مرمى البصر، فإذا بها تتوارى بينما تلاحقهما من دون أن تدنو منهما، ويمتص الظلام شبحها كما فعل معهما تمامًا، وقد ترك غيومه بين البحر والسماء.

قال ستيرفورث: «إن ظلًّا أسود يتبع الفتاة. ماذا يعني هذا؟».

تحدث بصوت خفيض، كان وقعه غريبًا على أذني.

قلت: «أظن أنها ستطلب منهما إحسانًا».

قال ستيرفورث: «إن التسول ليس شيئًا جديدًا، لكن الغريب أن يبدو المتسول بهذه الهيئة التي أراها الليلة».

سألته: «لماذا؟».

قال بعد صمت قصير: «لا أعرف سببًا واضحًا حقًّا، إلا أنني كنت أفكر في شيء من هذا القبيل حالًا، فإذا بي أبصره. إني لأعجب من أين أتت هذه الشيطانة!».

سرنا في طريق يتاخمه جدار، فإذا بي أقول: «أحسب أنها جاءت من ظل هذا الجدار».

راح ينظر من فوق كتفه، قائلًا: «لقد اختفت، واختفى كل شيء سيئ معها. أما الآن فهلم بنا إلى العشاء».

أخذ ينظر مرة أخرى من فوق كتفه صوب البحر وصفحته المتلألئة الممتدة بعيدًا، بل راح يكرر النظر إليه مرة تلو الأخرى. أخذ يتساءل عنها في بعض عبارته المبتورة عدة مرات، طوال الفترة القصيرة التي قضيناها في مسيرتنا، ولم ينسَ أمرها إلا بعدما ظهر أمامها ضوء نيران المدفأة وأشعلنا شمعة لتنير مجلسنا، ثم اتخذ كل منا مقعده من الطاولة في دفء وبهجة.

كان ليتيمر قد جاء، وقد ترك عليَّ قدومه تأثيره المعتاد. قلت له إنني آمل أن تكون السيدة ستيرفورث والآنسة دارتل على ما يرام، فأجاب باحترام وتقدير معهود قائلًا إنهما على ما يرام، ثم شكرني، وأبلغني تحياتهما لي. كان هذا ما قاله لا غير، إلا أنه بدا لي كما لو أنه يود لو يقول بوضوح ما يمكن لرجل مثله قوله: «إنك صغير جدًّا يا سيدي، إنك لم تزل صغيرًا غضًّا».

كنا قد انتهينا من تناول العشاء، حين راح ليتيمر يخطو خطوة أو خطوتين نحو الطاولة، مبتعدًا عن الزاوية التي كان يراقبنا منها، أو بالأحرى من مكان مراقبته لي – بحسب ما يخيل إليَّ، ثم قال لسيده:

«أستميحك عذرًا يا سيدي. إن الآنسة ماوتشر موجودة هنا».

صرخ ستيرفورث مبديًا دهشة بالغة وسائلًا: «من؟».

«إنها الآنسة ماوتشر يا سيدي».

قال ستيرفورث: «لماذا، ماذا تفعل هنا وأي درب جاء بها إلينا؟».

«يبدو أنها هنا في موطنها الأصلي يا سيدي. أبلغتني أنها تقوم بإحدى زياراتها المهنية، فتأتي إلى هنا كل عام يا سيدي. التقيتها في الشارع بعد ظهر اليوم، وأرادت أن تستأذن في أن تتشرف بزيارتك بعد العشاء يا سيدي».

سأل ستيرفورث: «هل تعرف يا أقحوانتي هذه المرأة الغولة؟».

لقد اضطررت إلى الاعتراف بأنني لا أعرفها، بعد أن شعرت بالخجل لكوني في هذا الوضع المخزي أمام ليتيمر، إذ لم أكن أنا أو الآنسة ماوتشر على معرفة تامة.

قال ستيرفورث: «إذن ستعرفها، لأنها واحدة من عجائب الدنيا السبع. عندما تأتي الآنسة ماوتشر أدخلها إلينا».

شعرت ببعض الفضول والإثارة تجاه هذه السيدة، خاصة أن ستيرفورث كان قد انفجر في نوبة من الضحك عندما أشرت إليها، ورفض الإجابة عن أي سؤال حول أمرها رفضًا قاطعًا. لذلك بقيت في حالة ترقب عظيم حتى رفعت المائدة بعد ما يقرب من نصف ساعة، وقد اتخذ كل منا مجلسه حول دورق شراب النبيذ في مواجهة المدفأة. انفتح الباب، وإذا بليتيمر يعلن عن قدومها بهدوئه المعتاد من دون إزعاج، قائلًا:

«الآنسة ماوتشر».

نظرتُ نحو الباب ولكني لم أرَ شيئًا. طال بي النظر إلى الباب، متأهبًا لرؤية الآنسة ماوتشر متصورًا أنها طويلة القامة مهيبة المظهر، وما أشد دهشتي اللا متناهية، حين أبصرتها تتجول حول أريكة تحول بيني وبينها، وإذا بها قزمة، يبلغ عمرها ما يقرب من الأربعين أو الخامسة والأربعين. تسعى نحونا برأس كبير ووجه عريض للغاية، وزوج من الأعين الرمادية ذات نظرات خشنة، وذراعين قصيرتين إلى أبعد مدى، بحيث إنها أرادت وضع إصبعها على أنفها الأفطس، بينما كانت تبحث بنظراتها عن ستيرفورث، فاضطرت إلى مقابلة إصبعها في منتصف الطريق، لتقرب أنفها منه. أما ذقنها، فمن النوع الذي يطلق عليه اسم الذقن المزدوج، ولشدة سمنة ذقنها أخذ يبتلع أربطة قبعتها وعقدة الأربطة وكل شيء. بدت بلا عنق وبلا خصر، ومن الجدير بالذكر أنها لاحت كما لو أنها بلا ساقين؛ على الرغم من أنها كانت أقرب إلى الهيئة مكتملة الحجم حتى خصرها - إذا كان ما لديها يمكن أن أصفه بالخصر - وعلى الرغم من انتهاء جسدها كبقية البشر عمومًا، بما يشبه القدمين، فإنها كانت قصيرة للغاية، وقد وقفت أمام كرسي متوسط الحجم، فإذا به يبدو أمامها مثل طاولة. وضعت حقيبتها على المقعد واستراحت من حملها. كانت هذه السيدة ترتدي ملابس غير رسمية وبسيطة. وقفت بعد أن جمعت أنفها وسبابتها معًا بالصعوبة التي وصفتها من قبل، ثم وقفت وقد أمالت رأسها إلى جانب واحد، وأغمضت إحدى عينيها الحادتين، مما جعل وجهها يبدو غير مألوف، خاصة بعد أن زجرت ستيرفورث بنظراتها لبضع لحظات، ثم استرسلت في الحديث من دون توقف.

شرعت تتحدث في بهجة، بينما تهز رأسها الكبير في وجه ستيرفورث، قائلة: «ماذا أرى؟! يا وردتي، ها أنت ذا، هل هذا أنت حقًّا؟! آهٍ، أيها الفتى المشاغب، يا للعار، ماذا تفعل بعيدًا عن المنزل؟ أكاد أجزم أنك تسعى إلى الأذى. آهٍ، إنك شخص مشعر الجسد يا ستيرفورث، لذا تحتاجني، وأنا من نفس نوعك، أليس كذلك؟ هاهاهاها! كنت ستراهن بمائة جنيه مقابل خمسة، على حساب يقينك أنك لن تراني هنا الآن، أليس كذلك؟ فليبارك الله فيك يا رجل ما دمت على قيد الحياة. إنني أسعى في كل مكان. إنني أظهر هنا وهناك، وأحل من حيث لا تحتسب، كما لو أنني نصف كروان يخرجه الساحر من منديل سيدة. وبمناسبة الحديث عن المناديل، والحديث عن السيدات، فيا لك من عزاء لأمك المباركة، وسعادة لها يا بني العزيز، وما أغلى وجودك فوق كتفها، ولن أزيد بقول أي شيء!».

فكت الآنسة ماوتشر أربطة قبعتها وأزاحتها وراء ظهرها، بعد أن وصلت إلى هذا الجزء من حديثها، ثم جلست تلهث، عند مسند الأقدام القابع أمام نيران المدفأة. بدت هيئتها كما لو أنها تحتمي بطاولة الطعام، كما لو أنها شجرة مورقة، قد ارتسمت ألواحها الخشبية البنية كمظلة تعلو رأسها.

واصلت الآنسة ماوتشر حديثها، بعد أن راحت تضرب بيدها فوق ركبتيها الصغيرتين، قائلة: «يا نجماتي وما هي أسماؤها؟!». أخذت تلقي نظرة خاطفة ماكرة نحوي، ولبثت تقول: «لقد مللت من نفسي. إنها الحقيقة يا ستيرفورث. إنني أجد صعوبة بالغة بعد

صعود السلالم في التقاط كل نفس أريده، كما لو أنني أستنشق دلوًا من الماء. لو كنت رأيتني أطل من نافذة عالية، لحسبتني امرأة فاتنة، أليس كذلك؟».

أجاب ستيرفورث: «أحسب أنني أتصور أنكِ كذلك أينما رأيتكِ».

صرخ ذاك المخلوق الصغير، بعد أن ضربت ستيرفورث بالمنديل الذي كانت تمسح به وجهها، قائلة: «هيا أيها الكلب، هيا تعالَ، ولا تكن وقحًا. لكني أقسم لك بشرفي، إنني كنت في الأسبوع الماضي عند السيدة ميذرز -يا لها من امرأة! يا لعجبي وإعجابي بها!- ثم دخل ميذرز نفسه إلى الغرفة حيث كنت أنتظرها - يا له من رجل! ويا لجمال ملابسه! كيف حافظ على شعره المستعار أيضًا؟ لقد حافظ عليه طوال السنوات العشر الماضية - لقد استمر الرجل في تحياته لي بهذا المعدل وحافظ على وتيرته، إلى أن بدأت أعتقد أنني سأكون مضطرة إلى دق الجرس لإنهاء هذه التحيات. ها! ها! ها! إنه بائس لطيف، لكن تنقصه بعض أساسيات فنون التعامل».

سأل ستيرفورث «ماذا كنتِ تفعلين للسيدة ميذرز؟».

راحت تنقر فوق أنفها مرة أخرى، وتفسد وجهها بعبوسها، وأخذت عيناها تلمعان مثل عفريت في ذكاء خارق للطبيعة، ثم ردت قائلة: «إنها أسرار يا طفلي المبارك. لا تهتم بالأمر. تريد أن تعرف ما إذا كنت قد أوقفت تساقط شعرها، أو صبغته، أو أنني كنت أصقل بشرتها، أو أُحسن حاجبيها، أليس كذلك؟ لا تكترث يا حبيبي، يكفي ما أقصه عليك. هل تعرف ما اسم جدي الأكبر؟».

قال ستيرفورث: «لا».

أجابت الآنسة ماوتشر: «لقد كان يدعى ووكر يا حبيبي الأليف اللطيف، وقد جاء من سلسلة طويلة من ووكرز آخرين، وقد ورثت عقارات الهوكي جميعها منهم».

لم أرَ قَطُّ ما يشبه غمزة الآنسة ماوتشر، لقد امتلكت طريقة استثنائية في حركتها. حازت طريقة رائعة في الاستماع إلى ما قيل لها أيضًا، أو في انتظار الإجابة عما قالته. كانت تطرق برأسها في مكر فتميله جانبًا، وتحملق بعين واحدة مثل الهدهد. أثارت حركاتها في مجملها دهشتي، فجلست أحدق فيها، وكم كنت أخشى أن أبدو غافلًا تمامًا عن قواعد الذوق.

سحبت الكرسي إلى جانبها، بعد أن أفضت بحديثها هذا، وراحت تدس ذراعها القصيرة في حقيبتها حتى كتفها في كل مرة تغطس فيها لاستخراج شيء، ثم انشغلت بإخراج عدد من الزجاجات الصغيرة والإسفنج والأمشاط والفرش وقطع من القماش من حقيبتها، وأزواج صغيرة من مصففات الشعر وأدوات تجعيده، وغيرها من الأدوات، وقد كوَّمت جميع أدواتها فوق الكرسي. توقفت فجأة عن حركتها، ثم تحدثت إلى ستيرفورث بحديث أثار دهشتي أيما دهشة، فقد سألته قائلة:

«من يكون صديقك هذا؟».

قال ستيرفورث: «إنه السيد كوبرفيلد. إنه يريد أن يتعرف إليكِ».

تجولت الآنسة ماوتشر حاملة في يدها حقيبة، وقد ابتسمت لي بينما راحت تقترب مني وتقول: «حسنًا، إذن سيعرفني. أحسب أنه يود لو يعرفني حقًّا. إن وجهه يلوح مثل الخوخ».

وقفت على رؤوس أصابع قدميها حتى تقرص خدي بينما أجلس في مكاني، ثم أكملت حديثها قائلة: «يا له من مغرٍ للغاية، إنني مغرمة جدًّا بالخوخ. أؤكد لك أنه يسعدني أن أتعرف إليك يا سيد كوبرفيلد».

قلت إنني أهنئ نفسي على تشرفي بمعرفتها، وإن السعادة متبادلة بيننا.

صرخت الآنسة ماوتشر، وهي تحاول تغطية وجهها الضخم بقمة يدها: «آهٍ، يا إلهي، كم نحن مؤدبون! يا له من عالم من يشبه ألعاب الطاولة والنرد والاحتيال، أليس كذلك؟!».

كانت هذه الكلمات موجهة إلينا معًا، بينما راحت تزيح يدها الصغيرة من أمام وجهها، ثم دفنت نفسها وذراعها بل سائر جسدها في الحقيبة مرة أخرى.

قال ستيرفورث: «ماذا تقصدين يا آنسة ماوتشر؟».

ردت تلك المرأة الصغيرة، بينما تتحسس حقيبتها مطوحة برأسها إلى الجانب وقد هامت عينها في الهواء، فقالت: «ها! ها! ها! يا لها من حزمة منعشة من الهراء بلا شك، أليس كذلك يا طفلي اللطيف؟ انظر هنا». أخرجت في هذه اللحظة شيئًا ما، واستأنفت قائلة: «إنها قصاصات من أظافر الأمير الروسي. الأمير ألف باء، وقد انقلبت رأسًا على عقب،

وإنني أدعوه بهذا الاسم، لأن اسمه يحتوي على جميع الأحرف، إلا أنها مبعثرة مثل خنازير مضطربة».

قال ستيرفورث: «إن الأمير الروسي زبون عندكِ، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «أنا أصدقك القول يا حبيبي الأليف. إنني أقلم أظافره مرتين في الأسبوع! أقلم أصابع اليدين والقدمين».

قال ستيرفورث: «آمل أن يكون سخيًّا في دفع الأجر، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «إنه يدفع كما يتحدث يا طفلي العزيز، من أنفه. إن الأمير ليس من مدمني الحلاقة مثلكما. ستقول مثل قولي هذا إذا رأيت شاربه. إنه أحمر اللون بطبيعته، إلا أنه يميل إلى اللون الأسود بالفن».

قال ستيرفورث: «من دروب فنكِ بالطبع».

غمزت الآنسة ماوتشر بالإيجاب، وراحت تقول: «كان مجبرًا على طلبي. لا يمكنه الاستغناء عن خدماتي. لقد أثَّر المناخ على صبغته. كانت قد حققت أداءً جيدًا في روسيا، لكنها لم تستطع الثبات هنا. أحسب أنك لم ترَ قَطُّ مثل هذا الأمير الصدئ طوال أيام حياتك. إنه مثل الحديد القديم الصدئ».

راح ستيرفورث يسألها: «هل وصفته لهذا السبب للتوِّ بأنه تافه؟».

عادت الآنسة ماوتشر تهز رأسها بعنف وتقول: «آهٍ، إنك صبي لمَّاح، أليس كذلك؟ لقد قلت، يا لنا من مجموعة من المحتالين بشكل عام، وقد

أريتكم قصاصات من أظافر الأمير لإثبات ذلك. إن أظافر الأمير تمثل لي الكثير أمام بعض العائلات الخاصة من الطبقة الراقية، بل تدر عليَّ أكثر ما تدره كل مواهبي مجتمعة. إنني أحملها دومًا، لأنها أفضل مقدمة أبدأ بها مع الناس. إذا كانت الآنسة ماوتشر هي من يقلم أظافر الأمير، فلا بد أنها ماهرة. إنني أمنحها للشابات، فيحتفظن بها بين ألبومات الصور، على ما أظن. ها! ها! ها! أقسم لكما بحياتي، إن «النظام الاجتماعي بأكمله - كما يسميه الرجال عندما يلقون الخطب في البرلمان - إنما هو نظام مكون من أظافر الأمير!»، هذا ما قالته أتفه النساء، بينما تحاول ثني ذراعيها القصيرتين، وهي تومئ برأسها الكبير».

ضحك ستيرفورث ودوت ضحكاته من أعماق قلبه، وضحكتُ أيضًا، في حين واصلت الآنسة ماوتشر هز رأسها طوال الوقت -الذي ظل على جانب واحد- وأخذت تشيح بنظرها بإحدى العينين في الهواء، وتغمز بالأخرى.

قالت وهي تضرب ركبتيها الصغيرتين وتنهض من مجلسها: «حسنًا، هذا ليس عملًا. تعالَ يا ستيرفورث، فلنستكشف المناطق القطبية، وننتهي من أمرها».

ثم اختارت اثنتين أو ثلاثًا من الآلات الصغيرة، وتناولت زجاجة صغيرة، وسألت - كان سؤالها قد أثار دهشتي - عما إذا كانت الطاولة ستتحمل أم لا؟ ما إن أجاب ستيرفورث بالإيجاب حتى دفعت كرسيًّا ليستقر في مقابله، ثم طلبت مني مساعدتها فمددت يدي، وإذا بها تصعد برشاقة إلى القمة، كما لو أنها تصعد إلى منصة.

قالت بعد أن استقرت على منصتها في أمان: «إذا رأى أي منكما كاحلي، فليقل لي، حتى أعود إلى منزلي وأقتل نفسي».

قال ستيرفورث: «لم أرَه».

قلت: «لم أرَه».

صرخت الآنسة ماوتشر قائلة: «حسنًا، سأوافق على الاستمرار في العيش. أما الآن، فهيا يا بطتي، يا بطة، يا بطة، تعالَ إلى السيدة بوند لتذبحك».

كانت هذه دعوة موجهة إلى ستيرفورث ليضع نفسه تحت يديها؛ وقف فعلًا واستجاب لها. جلس وقد أولى ظهره إلى الطاولة، وأطل بوجهه الضاحك نحوي، ثم قدَّم رأسه لتفتيشه. كان من الواضح أنه لم يقصد أي غرض آخر غير الترفيه. كانت رؤية الآنسة ماوتشر تقف فوقه، بينما تنظر إلى شعره البني الكثيف عبر عدسة مكبرة مستديرة كبيرة، كانت قد أخرجتها من جيبها، تمثل مشهدًا مدهشًا للغاية.

قالت الآنسة ماوتشر، بعد فحص لم يَدُم لفترة طويلة: «يا لك من إنسان جميل! ستصير أصلع مثل الراهب، وينزاح شعر رأسك في غضون اثني عشر شهرًا إن لم أسعفك. أما أنا فأمهلني نصف دقيقة فقط، يا صديقي الشاب، وسأمنحك زيتًا يحافظ على تجعيد الشعر على مدى السنوات العشر القادمة».

قامت إثر إنهاء حديثها بإمالة بعض محتويات الزجاجة الصغيرة إلى قطعة صغيرة من القماش، وأضافت مرة أخرى بعضًا من هذا المزيج

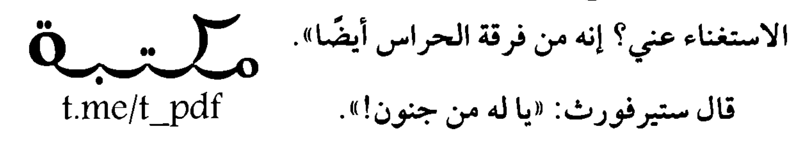
المميز إلى فرشاة صغيرة، ثم بدأت في فرك وكشط كليهما فوق قمة رأس ستيرفورث بأكثر الطرق نشاطًا شهدتها في حياتي على الإطلاق، ثم راحت تتحدث طوال الوقت.

قالت: «إن تشارلي بيجريف، ابن الدوق... هل تعرف تشارلي؟».

اختلست النظر هنا إلى وجهه منتظرة الإجابة.

قال ستيرفورث: «قليلًا».

«يا له من رجل! إنه طولي! أما بالنسبة لساقي تشارلي، فلو كانتا اثنتين لكانتا خارج المنافسة (وهو ليس كذلك). هل تصدق أنه حاول الاستغناء عني؟ إنه من فرقة الحراس أيضًا».




قال ستيرفورث: «يا له من جنون!».

عادت الآنسة ماوتشر تقول: «يبدو أنه كذلك. وعلى أي حال، فقد حاول فعل ذلك سواء كان مجنونًا أم عاقلًا. أتدري ماذا فعل؟ هيهات أن تتخيل. لقد ذهب إلى العطار، وأراد شراء زجاجة من سائل مدغشقر».

قال ستيرفورث: «هل فعل تشارلي ذلك؟».

«حقًّا هذا ما فعله تشارلي. إلا أنه لم يحصل على قطرة واحدة من سائل مدغشقر».

سأل ستيرفورث: «ماذا يكون هذا السائل؟ هل هو شيء للشرب؟».

توقفت الآنسة ماوتشر لتصفع خده، ثم عادت تقول: «أتقول للشرب؟ إنك تعلم أنه لإصلاح شواربه. تمكث امرأة مسنة في المتجر

تبدو مثل الغرفين[1] تمامًا، ولكنها لم تسمع بهذا بالاسم من قبل. قالت المرأة الغرفين لتشارلي: «عفوًا يا سيدي، أليس هو أحمر الشفاه، أليس هو، أليس كذلك؟». قال تشارلي لغرفين: «أحمر شفاه». «ما الذي يرن على مسامعي، هل تعتقدين أنني أريد أحمر الشفاه؟». قالت المرأة الغرفين: «لا أقصد أي نوع من الإهانة يا سيدي. لقد طلبنا من هذا الصنف تحت عدة مسميات، وإنني حسبت أنه قد يكون الصنف نفسه»». واصلت الآنسة ماوتشر فركها طوال الوقت بنشاط كما كانت دائمًا بينما واصلت حديثها قائلة: «أما الآن يا ولدي، فهاك مثال آخر على الاحتيال المنعش الذي كنت أتحدث عنه. أنا أفعل شيئًا من هذا القبيل بنفسي، وربما يصير صفقة جيدة أو ربما أقل. أعرف أن كلمتي حادة قاسية يا فتايَ العزيز، لا تكترث لقولي».

قال ستيرفورث: «بأي طريقة تقصدين؟ هل تقصدين على طريقة أحمر الشفاه؟».

أجابت الآنسة ماوتشر الماكرة، بعد أن دعكت أنفها، فقالت: «ضع هذا وذاك معًا يا تلميذي الرقيق، واحسبها وفقًا لقاعدة الأسرار في جميع المهن، وستمنحك النتيجة الغاية المرجوة. أقول إنني أقترف القليل من هذه الطريقة بنفسي. تسميه إحدى الأرامل باسم مرهم الشفاه، وأخرى تسميه بالقفازات، وغيرهما تسميه دهانًا، وأخرى تسميه معجونًا. أطلق عليه أسماء أيًا ما كان اسمه، أما أنا فأوفره لهن،

---

(١) حيوان أسطوري له جناحان ورأس نسر وجسد أسد. قيل إنه ملك الحيوانات وحارس للكنوز والممتلكات الثمينة.

إلا أننا نحفظ سره فيما بيننا، ونجتمع على الحفاظ عليه على هذا النحو، حتى إنهن سرعان ما يفكرن في وضعه، قبل الدخول إلى غرفة الاستقبال أمامي، أو قبل قدومي. أنتظرهن، فيقبلن ثم يقلن لي أحيانًا، بعدما أبدأ في تطبيقه عليهن: «فلتجعليه سميكًا، بلا خطأ. كيف أبدو يا ماوتشر؟ هل أبدو شاحبة؟». ها! ها! ها! أليس هذا حديثًا منعشًا يا صديقي الشاب؟!».

لم أشهد في حياتي قَطُّ أي شيء يشبه ماوتشر بينما تقف على طاولة الطعام، مستمتعة بشدة بكل هذه المسليات، بينما تفرك رأس ستيرفورث باهتمام، وتغمز في وجهي من فوقه.

قالت: «آه، لكن مثل هذه الأشياء ليست مطلوبة كثيرًا هنا. وهذا ما يثير داخلي رغبة في العودة مرة أخرى، إنني لم أرَ امرأة جميلة منذ وجودي هنا يا جيمي».

قال ستيرفورث: «لم تري ولو واحدة؟».

أجابت الآنسة ماوتشر: «بل لم أرَ شبحها على الأقل».

قال ستيرفورث بينما يدير عينيه: «يمكننا أن نظهر لها جوهرة واحدة، على ما أظن؟ أليس كذلك يا أقحوانتي؟».

قلت: «بلى، حقًا».

صرخت هذه المخلوقة الصغيرة، بينما تنظر إلى وجهي في حدة، ثم تختلس نظرة خاطفة إلى ستيرفورث، وراحت تقول: «آه، أحقًا هذا؟».

بدا تعجبها الأول بمثابة سؤال موجه إلى كل منا، أما سؤالها الثاني فبدا مطروحًا على ستيرفورث فقط. وكان من الجلي أنها لم تتلقَّ إجابة عن أي منهما، لكنها استمرت في حك أنفها، وإمالة رأسها إلى جانبها وبدت عينها غامزة كما هي، كما لو راحت تبحث عن إجابة في الهواء، بل كانت واثقة من ظهورها في تلك اللحظة.

صرخت بعد صمت قصير، وكانت لم تزل محافظة على هيئتها المراقبة نفسها، وإذا بها تقول: «هل هي أختك يا سيد كوبرفيلد؟ إيييه، إيييه».

أجاب ستيرفورث قبل أن أتمكن من الرد، فقال: «لا. ليس شيئًا من هذا القبيل، بل على العكس من ذلك، فقد اعتاد السيد كوبرفيلد على إبداء الإعجاب بها كثيرًا قبل ذلك، أو ربما أكون مخطئًا كثيرًا عند هذا الحد».

عادت الآنسة ماوتشر تسأل: «لماذا لم يستمر إعجابه إلى الآن؟ هل هو متقلب؟ آهٍ، يا للعار! هل يشم رحيق كل زهرة، ثم يتغير كل ساعة، حتى أنهى شغفه ببولي؟ هل اسمها بولي؟».

لقد أربكتني مفاجأة هذه الجنية حين انقضت علينا بهذا السؤال، ثم جحدتنا بنظرة فاحصة متمحصة في لحظة واحدة.

أجبتها: «لا، يا آنسة ماوتشر. إنها تُدعى إيميلي».

صرخت كسابق صرخاتها من قبل تمامًا، فقالت: «أوف، يا لي من عجوز تثرثر بحشرجة الموت! ألست متقلب المزاج يا سيد كوبرفيلد؟».

كانت لهجتها ومظهرها يتضمنان شيئًا لم أكن أستسيغه، خاصة بعدما أدت هذا السلوك بعد طرح هذا الموضوع. وإذا بي أتحدث بطريقة جادة لم يفترض أي منا التحدث بها حتى الآن، فأقول: «إنها فاضلة عفيفة بقدر جمالها، ومخطوبة لرجل فاضل يستحق أن يحظى بمكانة خاصة من حياتهما. إنني أحترمها لخلقها القويم، بقدر إعجابي بمظهرها الجميل الفاتن».

صاح ستيرفورث: «أحسنت القول. مرحى، مرحى، فلتسمعني. سأشبع الآن فضول فاطمة الصغيرة[1] يا أقحوانتي العزيزة، من دون أن أترك لها مجالًا للتخمين والشك. إنها تتدرب حاليًّا، أو تمارس تدريبها - أيًّا كان المسمى - يا آنسة ماوتشر، في متجر عمر وجورام لبيع مستلزمات الخردوات والأدوات وما إلى ذلك، في هذه البلدة. هل تفهمين قولي؟ إنها في متجر عمر وجورام. أما الوعد بالزواج الذي حدثتكِ عنه صديقي فقد تم مع ابن عمها، الذي يدعى بحسب اسمه المسيحي: هام، ولقبه بيجوتي، كما أنه يعمل صانعًا للقوارب، ويمكث أيضًا في هذه البلدة. أما هي فتعيش مع قريب لها، اسمه المسيحي غير معروف، أما لقبه فبيجوتي، كما أنه يعمل في مجال الملاحة أيضًا ويقيم في البلدة نفسها. إنها أجمل جنية صغيرة والأكثر جاذبية في العالم. إنني معجب بها، مثل إعجاب صديقي البالغ بها. ولولا أنني قد أبدو كمن يحط من قدر خطيبها - وهو ما أخشى ألا يعجب صديقي - فإنني أود

---

(١) إحدى شخصيات قصة «ذو اللحية الزرقاء» للكاتب الفرنسي شارل بيرو، وقد كانت فاطمة إحدى زوجات البطل. عرف عنها الفضول وعرف عن البطل القتل المتسلسل لزوجاته.

أن أضيف أنني أشعر أنها تضحي بنفسها، بالإقبال على هذا الزواج، وإنني متأكد من أنها قد تُقدِم على اختيارٍ أفضل إن أرادت، بل أقسم إنها وُلدت لتكون سيدة مكرمة».

استمعت الآنسة ماوتشر إلى هذه الكلمات، التي نطق بها ستيرفورث ببطء شديد وبشكل واضح، بينما أمالت المرأة رأسها إلى الجانب، وطوحت بنظرات عينيها في الهواء كما لو أنها لم تزل تبحث عن الإجابة. ما إن توقف عن حديثه، حتى عادت إلى نشاطها مرة أخرى بعد لحظة واحدة، واندفعت تسترسل في حديثها بكلام مفاجئ.

راحت تقص شاربه بمقص صغير بحركات سريعة، ثم أخذت تلفه حول رأسه في جميع الاتجاهات، قائلة: «آهٍ، هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟ جيد جدًّا، جميل جدًّا. يا لها من قصة طويلة للغاية. يجب أن تنتهي بقولنا: «وقد عاشا سعيدين إلى الأبد»، أليس كذلك؟ آه، ما هذه اللعبة الساذجة؟ أنا أحب فتاة يبدأ اسمها بحرف الألف لأنها جذابة، ثم أكره الفتاة صاحبة حرف الألف لأنها مخطوبة. لقد اصطحبتها إلى عالم متأنق، وشجعتها على الفرار، وإن اسمها إيميلي، وهي تعيش في الشرق، أليس كذلك؟ ها! ها! ها! إنني سريعة البديهة يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

رمقتني بنظرات شديدة المكر، من دون أن تنتظر أي رد على كلامها، ثم تابعت من دون أن تلتقط أنفاسها قائلة:

«هيا انظر، إذا ظهر وغد يتطلع إلى الكمال، فإنه أنت يا ستيرفورث. وإذا كنت أفهم أي إيماءة في هذا العالم، فإنني بالطبع أفهم ما يدور في رأسك. هل تسمع قولي هذا يا حبيبي؟ إنني أفهم مبتغاك». رحت

أختلس هنا النظر إلى وجهه، أما ماوتشر فقد تابعت حديثها قائلة: «الآن يمكنك أن تنصرف يا جيمي (كما نقول في المحكمة)، وإذا جاء السيد كوبرفيلد فاتخَذ مكانه من المقعد فسوف أفعل له ما فعلته معك».

استفسر ستيرفورث ضاحكًا بعد أن تخلى عن مقعده: «ما رأيك يا أقحوانتي؟ هل تريد أن تتجمل؟».

أجبتُ قائلًا: «شكرًا لكِ يا آنسة ماوتشر، ليس في هذا المساء».

راحت المرأة الصغيرة تحدثني بينما تنظر إليَّ بوجه الخبير قائلة: «لا تقل لا. إن حاجبيك كثيفان إلى حد ما، أليس كذلك؟».

أجبتها قائلًا: «شكرًا لكِ. سأقوم بذلك في وقت آخر».

قالت الآنسة ماوتشر: «دعني أنقصه نصف بوصة باتجاه خدك. يمكننا القيام بذلك في غضون أسبوعين».

«لا، أشكركِ. ليس في الوقت الراهن».

وحثتني قائلة: «تعالَ لتحصل على تجميل سري. ألا ترغب في ذلك؟ فلنمهد الطريق، إذن إلى زوج من الشوارب الكثة. هيا تعالَ».

لم أستطع منع ظهور حمرة الخجل على وجهي حين رحت أبدي رفضي، لأنني شعرت أنها قد لامست نقطة ضعفي الآن. أما الآنسة ماوتشر، فقد شعرت أنني لن أستطيع أن أتخلص في الوقت الحالي من الخضوع لأي تجميل قد تضفيه على وجهي ضمن نطاق فنها. صرت في هذه اللحظة منصاعًا أمام إغراء هذه الزجاجة الصغيرة التي رفعتها أمام عيني، فأجبرتني على الطاعة، إلا أنها قالت إننا سنبدأ غدًا في وقت

مبكر، وطلبت مني مساعدتها وأن أمد إليها يدي حتى تنزل من موضعها المرتفع، وبهذه الطريقة قفزت إلى أسفل بخفة بالغة، وبدأت في ربط ذقنها المزدوج بأربطة قبعتها.

قال ستيرفورث: «أما الأجر فهو...».

ردت الآنسة ماوتشر: «خمسة شلنات، ويا له من ثمن بخس. ألست متقلبة المزاج يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبتها في أدب: «كلا على الإطلاق». إلا أنني ظننت أنها كذلك، حينما راحت تطوح بنصفي الكروان كما لو أنها تطوح بعفريت أبيض، ثم أمسكت بهما، وأسقطتهما في جيبها، مطرقعة بيدها عليه في صفعة مدوية عالية.

عقبت الآنسة ماوتشر بعد حركتها بقولها: «هذه هي حصيلتي!»، بينما وقفت عند الكرسي مرة أخرى، وراحت تعيد إلى حقيبتها مجموعة متنوعة من الأشياء الصغيرة التي استخدمتها قبلًا. ثم أردفت قائلة: «هل جمعت كل ما أملك من الفخاخ؟ يبدو أنني انتهيت. لن تصير حالي مثل نيد بيدوود، حين أخذوه إلى الكنيسة «للزواج من امرأة ما»، فإذا به يقول: «وتركت العروس ورائي». ها! ها! ها! يا لهذا الوغد الشرير! كم كان نيد شقيًّا، ولكنه مرح! أما الآن، فإنني أعلم أنني سأحطم قلبيكما، لكنني سأضطر إلى المغادرة. هيا عليكما استدعاء كل ما تستطيعانه من ثبات، لتتحملا وقع مغادرتي. وداعًا يا سيد كوبرفيلد. اعتنِ بنفسك يا فارس نورفولك. يا لي من ثرثارة مهزارة! يعود الخطأ في كل ذلك إليكما أيها التعيسان. إنني أسامحكما. «بون سوار» - كما يقول الإنجليزي بدلًا من

«ليلة سعيدة» حينما تعلم الفرنسية لأول مرة، ويظن أنها كالإنجليزية. «بون سوار يا بطتي»».

أخذت تدنو من الباب متمايلة الخطى، تتأبط الحقيبة المتدلية على ذراعها، وتصدر خشخشة مدوية، وقد توقفت لتسألنا عما إذا كنا نريد منها أن تترك لنا خصلة من شعرها، ثم أضافت تعقيبًا على اقتراحها ذاك فقالت: «ألست ذكية متقلبة المزاج؟». ثم رفعت إصبعها إلى أنفها وغادرت.

راح ستيرفورث يضحك إلى الحد الذي جعل من المستحيل أن أتمالك نفسي من دون أن أضحك أيضًا. أتصور أنه ما كان لي أن أضحك بهذه الطريقة، لكنني لم أستطع مقاومة هذا الإغراء. عندما انتهينا من الضحك تمامًا بعد مرور مدة طويلة، راح ستيرفورث بعدها يحكي لي أن الآنسة ماوتشر لها علاقات واسعة النطاق، وأنها تقدم خدماتها لمجموعة متنوعة من الأشخاص بطرق متباينة. قال إن بعض الناس يعبثون بها ويعاملونها باعتبار أنها شخصية شاذة تمامًا، إلا أنها داهية وحادة الملاحظة، بل تفوق أي إنسان عرفته، وهي ذات بُعد نظر ولمَّاحة، كما أنها قصيرة الساق. أخبرني أن ما قالته عن وجودها بين مكان هنا وآخر هناك، أو في أي مكان، هو أمر صحيح تمامًا، وذلك لأنها تجوب المقاطعات لتجذب العملاء من كل مكان، وأنها لذلك على دراية بالجميع. سألته عن موقفها؛ هل كان مؤذيًا بأي شكل من الأشكال أم لا، وما إذا كان تعاطفها وانحيازها عمومًا إلى الجانب الصحيح من الأمور أم لا. إلا أنني لم أنجح في لفت انتباهه إلى هذه

الأسئلة بعد محاولتين أو ثلاث محاولات، فنسيت أن أكرر أسئلتي عليه أو تناسيت ذكرها. أخذ يتلو عليَّ بتواتر وسرعة بالغة قدرًا كبيرًا عن مهارتها وأرباحها، وأنها ممن برعوا في فنون العلاج بالحجامة، وأنني أستطيع -إن أردت- الاستفادة بخدماتها في هذا الأمر.

غدت الآنسة ماوتشر موضع محادثتنا الرئيسي طوال المساء، حتى إننا حين افترقنا في تلك الليلة ودعني ستيرفورث في أثناء نزولي من السلم قائلًا: «بون سوار».

انتابتني الدهشة بعدما عدت إلى منزل السيد باركس، حيث وجدت هام يغدو ذهابًا وإيابًا أمام البيت، بل زادت دهشتي حين عرفت منه أن إيميلي الصغيرة بالداخل. سألته بطبيعة الحال لماذا لم يدخل هو أيضًا، بدلًا من أن يسير في الشوارع وحده.

أجابني بتردد جديد قائلًا: «تسألني لماذا؟ لأن إيميلي – كما تعرف يا سيد ديفي – تتحدث إلى أحد هنا».

قلت مبتسمًا: «أظن أنه من الأجدر للسبب نفسه وجودك بالداخل أيضًا يا هام».

قال: «حسنًا يا سيد ديفي». ثم خفض صوته وراح يتحدث بلهجة جادة للغاية قائلًا: «أنصت إليَّ يا سيد ديفي، إنها تتحدث إلى شابة يا سيدي – امرأة شابة، كانت إيميلي قد عرفتها ذات مرة، ولا ينبغي لها أن تكون على علاقة بها بعد الآن».

ما إن سمعت هذه الكلمات، حتى ظهر ضوء أمام أفكاري، وإذا به

يسقط مشيرًا إلى الهيئة التي رأيتها تتبعهما منذ بضع ساعات.

قال هام: «إنها امرأة فقيرة يا سيد ديفي، لقد دهستها أقدام البلدة بأسرها. إنها شريدة تجول الطرقات. لا يستطيع إنسان هنا وإن كان في جوف قبر فناء الكنيسة أن ينأى عن كلام الناس وأعينهم».

سألته: «وهل هي من رأيتها الليلة يا هام تسعى فوق الرمال بعد أن قابلناك؟».

قال هام: «أكانت تراقبنا؟ أحسب أنها هي يا سيد ديفي، ليس لأنني كنت أعرف أنها تتبعنا يا سيدي، وإنما لأنها سرعان ما تسللت تحت نافذة إيميلي الصغيرة عندما أبصرت النور منبعثًا منها، وراحت تهمس منادية: «إيميلي، يا إيميلي، أستحلفكِ بالمسيح، فلتنظري إليَّ بقلب امرأة. لقد كنت مثلك في يوم من الأيام». وكم كان وقع هذه الكلمات جللًا يا سيد ديفي على مسامعها».

قلت: «لقد كانت مؤثرة بالفعل يا هام. وماذا فعلت إيميلي؟».

أجاب: «راحت إيميلي تقول: «هل هذا أنتِ يا مارثا؟ آهٍ يا مارثا، هل يمكن أن تكوني أنتِ؟» - لأنهما كانتا قد جلستا معًا في العمل عدة مرات يوميًّا، في متجر السيد عمر».

صرخت قائلًا: «أتذكرها الآن، أتذكرها جيدًا». كنت قد تذكرت إحدى الفتاتين اللتين رأيتهما في أولى زياراتي إلى المتجر.

قال هام: «إنها تُدعى مارثا إندل. تكبر إيميلي بسنتين أو ثلاث سنوات، لكنها كانت زميلتها في المدرسة».

قلت: «لم أسمع اسمها قَطُّ. آسف لم أقصد مقاطعتك».

أجاب هام: «إن كل ما يتعلق بأمرها يا سيد ديفي قد قيل للجميع في كلماتها هذه: «إيميلي، يا إيميلي، أستحلفكِ بالمسيح، فلتنظري إليَّ بقلب امرأة. لقد كنت مثلك في يوم من الأيام». أرادت التحدث إلى إيميلي. لم تستطع إيميلي التحدث معها، لأن عمها الحبيب كان قد عاد إلى المنزل، ولا يقبل أبدًا... لا، يا سيد ديفي». تحدث هام بنبرة بالغة الجدية واسترسل قائلًا: «لم يستطع القبول بهذا الأمر، على الرغم من لطفه ورقة قلبه المعهودة، لا يقبل أن يراهما معًا جنبًا إلى جنب، ولو منحوه كنوز البحار الغارقة بأسرها».

شعرت أن هذا الكلام صحيح. صرت على يقين من أمره في الحال، تمامًا مثلما شعر هام.

تابع هام قائلًا: «لذلك فقد كتبت إيميلي شيئًا بالقلم الرصاص على قطعة من الورق، وزجت إليها بلفافة الورق لتأتي إلى هنا، فقد قالت لها: «أظهري هذه الورقة لعمتي السيدة باركس، وستُجلسكِ بجانب المدفأة، من أجل محبتها لي، حتى يخرج عمي، وساعتها يمكنني أن آتي إليكِ». ثم أخبرتني بهذا الأمر الذي قلته لك يا سيد ديفي وطلبت مني إحضارها إلى هنا. ماذا أفعل الآن؟ لا ينبغي لها أن تعرف امرأة على هذه الشاكلة، لكنني لا أستطيع أن أرفض طلبها، خاصة حين تسألني وقد انسكبت الدموع على صفحة وجهها».

وضع يده في صدر سترته الشعثاء، وأخرج محفظة صغيرة جدًّا بعناية فائقة.

قال هام بينما يُعدِّل من هيئة المحفظة في حنان فوق كف يده الخشنة: «وإن كنت أستطيع منعها حين انهمرت الدموع على صفحة وجهها يا سيد ديفي، فكيف يمكنني منعها بعد أن أعطتني هذه المحفظة لأحملها لها؟ هل أعرف سبب إحضارها؟ يا لهذه اللعبة الصغيرة! إنها لا تحوي سوى مال زهيد يا إيميلي العزيزة». تحدث هام بهذه الكلمات بينما راح ينظر إلى المحفظة متأملًا حجمها الصغير.

شددت على يديه في حرارة بينما راح يعيد وضع المحفظة إلى جيبه مرة أخرى - كان هذا التصرف أكثر إرضاء لي من أن أتفوه بقول أي شيء، ثم سرنا في صمت جيئة وذهابًا لمدة دقيقة أو دقيقتين. انفتح الباب بعد ذلك، وظهرت بيجوتي، تطلب من هام الدخول إلى البيت. وقد كنت سأبقى بعيدًا، لولا أنها لحقت بي وراحت تحثني على الدخول أيضًا. أردت حينها أن أتجنب الغرفة التي جلسوا فيها مجتمعين، لولا أنهم كانوا في المطبخ الأنيق النظيف الذي ذكرته أكثر من مرة فيما قبل. فُتح الباب على الفور، فوجدت نفسي بينهم قبل أن أفكر في وجهتي.

كانت الفتاة - هي التي رأيتها على الرمال - تجلس بالقرب من المدفأة. جلست على الأرض وقد أسندت رأسها وذراعيها على مقعد. تخيلت من تصرفات إيميلي أنها قد نهضت من المقعد نفسه لتوِّها، وأن رأسها البائس ربما كان ملقى على حجرها. لم أرَ سوى مساحة قليلة من وجه الفتاة، حيث تساقط شعرها وتناثر، كما لو أنها نشرته بيديها لتخفي ملامحها، لكنني لاحظت ملامحها الفتية وأنها ذات بشرة فاتحة. كانت بيجوتي تبكي، وكذلك بدا على إيميلي الصغيرة النحيب. لم نسمع

كلمة واحدة بعدما دخلنا في أول الأمر، حتى إنه قد بدا لي أن الساعة الهولندية القابعة على جانب الخزانة، تدق بصوت أعلى من المعتاد وسط هذا الصمت المطبق، إلى أن افتتحت إيميلي الحديث.

قالت لهام: «إن مارثا تريد الذهاب إلى لندن».

سأل هام قائلًا: «لماذا تتجه إلى لندن؟».

وقف هام بينهما ينظر إلى الفتاة المنحنية فوق المقعد بمزيج من الشفقة، والغيرة من مرافقتها للفتاة التي ولع بها، وقد ظلت هذه الذكرى ماثلة أمام خاطري دائمًا في جلاء. ظلا يتحدثان كما لو أن الفتاة مريضة. كانت نبراتهما خافتة ومكتومة إلا أنها ظلت مسموعة بوضوح، على الرغم من أنها لم ترتفع عن كونها همسات تدور بينهما.

تحدث صوت ثالث بنبرة عالية مدوية. كان الصوت لمارثا، إلا أنها لم تتحرك من مكانها، بل قالت: «هناك أفضل من هنا. لا أحد يعرفني هناك أما هنا فالجميع يعرفني».

سألها هام: «ماذا ستفعلين هناك؟».

رفعت رأسها ونظرت حوله للحظة في نظرات يائسة مقبضة. ثم أشاحت بوجهها مرة أخرى، وقد قوست ذراعها اليمنى حول رقبتها، كما لو أنها امرأة مصابة بالحمى، أو أنها تتلوى على نفسها إثر عذاب الألم من قذيفة نيران قد أصابتها.

قالت إيميلي الصغيرة: «ستحاول أن تتدبر أمرها بشكل جيد. إنك لا تعرف ما قالته لنا. هل يعرف الأمر يا عمتي؟».

هزت بيجوتي رأسها في نوع من الشفقة.

قالت مارثا: «سأحاول أن أتدبر أمري، إذا ساعدتني على الرحيل بعيدًا. لن أقدم أبدًا على اقتراف فعل أسوأ مما فعلت هنا. قد أسلك دربًا أفضل». راحت ترتجف بشكل مخيف، وغدت تقول: «آهٍ، أخرجني من هذه الشوارع، التي يعرفني فيها أهل المدينة بأكملها منذ طفولتي».

مدت إيميلي يدها إلى هام، فإذا بي أبصره بينما يضع فيها محفظة صغيرة من قماش. أخذتها - حيث ظنت أنها محفظتها، ثم تقدمت خطوة أو خطوتين للأمام، لكنها اكتشفت أنها ليست المحفظة التي تريدها، فعادت أدراجها، واقتربت من هام الذي كان يجلس بالقرب مني، ونبهته لأمر المحفظة.

تحدث بصوت كنت أستطيع سماعه حين قال: «إن كل شيء ملك لكِ يا إيميلي. إنني لا أملك شيئًا الآن إلا وتملكينه يا عزيزتي. لا تسعدني غير سعادتكِ».

فاضت الدموع من عينيها، لكنها استدارت ومثلت أمام مارثا. لا أعرف ما الشيء الذي أعطته إياها، إلا أنني رأيتها تنحني وتضع مالًا في حضنها، همست إليها بشيء، كما لو أنها تسألها هل هذا يكفي؟ فأجابت الأخرى: «يكفي وزيادة»، ثم أمسكت بيدها وقبلتها.

قامت مارثا، ولفت أطراف شالها حولها، ثم غطت وجهها به، وظلت تبكي بصوت عالٍ، ثم توجهت ببطء نحو الباب. توقفت لحظة قبل أن تخرج، وبدت كما لو أنها ستقول شيئًا ما أو أنها ستتراجع عن

شيء، إلا أنها لم تنبس ببنت شفة. مشت وهي تئن أنينًا موجعًا، بائسة بين لفحات شالها.

أُغلق الباب، فنظرت إيميلي الصغيرة إلى ثلاثتنا نظرات سريعة، ثم أخفت وجهها بين يديها، وخرت منهارة باكية.

راح هام يربت على كتفها في رفق بينما يقول: «لا تبكي يا إيميلي، لا تبكي يا عزيزتي. ليس عليكِ أن تنتحبي بهذا الشكل يا جميلة».

صرخت، بينما ظلت تبكي بصورة مثيرة للشفقة: «آهٍ يا هام! إنني لست فتاة طيبة كما ينبغي أن أكون. أعلم أنني لا أملك قلبًا ممتنًّا في بعض الأحيان، بينما عليَّ أن أتحلى بالعرفان».

قال هام: «بلى، بلى، إنكِ تملكين قلبًا شاكرًا، إنني متأكد من ذلك».

صرخت إيميلي الصغيرة وهي تبكي وتهز رأسها قائلة: «لا! لا! لا! إنني لست فتاة طيبة كما ينبغي أن أكون. ولست حتى قريبة من ذلك. إنني بعيدة كل البعد»، ثم ظلت تبكي كما لو أن قلبها على وشك أن ينفطر.

أخذت تبكي قائلة: «إنني أختبر حبك في مواضع شتى. أعلم أنني أفعل ذلك. كنتُ غالبًا ما ألجأ إليك، ثم أغير معاملتي معك، في الوقت الذي لا بد فيه أن أتعامل معك بصورة مغايرة تمامًا. إنك لا تبادلني هذه المعاملة المتقلبة نفسها. أي شيء يدفعني لأن أتصرف بهذا السوء معك، في حين أن الأجدر بي ألا أفكر بشيء سوى الامتنان لك، وأن أحاول إسعادك!».

قال هام: «إنكِ تشعرينني بالسعادة دائمًا يا عزيزتي، إنني أسعد لرؤيتكِ، كما أسعد طوال اليوم لمجرد التفكير بكِ».

بكت قائلة: «آه، هذا لا يكفي. إنك تستشعر السعادة لأنك إنسان طيب، وليس لأنني أُشعرك بها. آهٍ يا عزيزي، ربما كان من الأنفع لك لو أحببت فتاة أخرى توليك اهتمامًا وامتنانًا يفوق ما أقوم به، وترتبط بك وتحافظ عليك بما يفوقني، فلا تقابل فتاة متقلبة مثلي».

تحدث هام في صوت منخفض، فراح يقول: «يا لقلبكِ الصغير المسكين. لقد أثَّرت مارثا عليه تمامًا».

بكت إيميلي قائلة: «أرجوكِ يا عمتي، اقتربي مني هنا، ودعيني أسند رأسي إليكِ. آهٍ، يا لي من فتاة في أقصى درجات البؤس هذه الليلة يا عمة! آهٍ، إنني لست بالفتاة الطيبة كما ينبغي أن أكون. أعلم إنني لست صالحة».

سارعت بيجوتي إلى المقعد القابع قبالة المدفأة. بينما ركعت إيميلي بجانبها، وقد أحاطتها بيجوتي بذراعيها فطوقت رقبتها، وراحت تنظر بجدية إلى وجهها.

راحت إيميلي تقول: «آهٍ، صلي لأجلي يا عمتي، فلتطلبي لي الرحمة. يا عزيزي هام، فلتطلب لي الرحمة. يا سيد ديفيد، من فضلك، إني أرجوك باسم الأيام الخوالي أن تطلب لي الرحمة. أريد أن أكون فتاة أفضل مما أنا عليه. أريد أن أشعر بالامتنان أضعافًا تفوق ما أشعر به. أريد أن أتعلم أكثر، ويا لها من مباركة لو أنني تعلمت كيف أصير زوجة

صالحة لرجل صالح، وأن أعيش حياة سالمة طيبة. آه من حالي! آه من حالي! آه يا قلبي! يا قلبي!».

غاص وجهها بين نهدَي مربيتي العجوز، بعد أن أوقفت هذا الدعاء الذي كان عذابه وحزنه يبدوان تارة كعذاب وحزن امرأة، وتارة كعذاب وحزن طفل، فكانت هيئتها كما كانت حالها أقرب إلى هذا الامتزاج وأنسب لها. كانت حالتها في ظني أقرب إلى الجمال، عوضًا عن أي طريقة أخرى. لقد راحت تذرف الدموع في صمت، بينما مكثت مربيتي العجوز تهدهدها لتسكتها كما لو كانت رضيعة.

أخذت تهدأ تدريجيًّا، ثم رحنا نواسيها في هذه اللحظة فنتحدث إليها بشكل مشجع، وبدأنا بعدها نمزح معها قليلًا، حتى بدأت ترفع رأسها وتتحدث إلينا. واصلنا مزاحنا معها حتى استطاعت أن تبتسم، ثم تضحك، ثم تجلس بنوع من الخجل، بينما أخذت بيجوتي تلملم خصلات شعرها الضالة، وتجفف عينيها، وترتب هيئتها مرة أخرى خشية أن يتساءل عمها بعدما تعود إلى المنزل، عن سبب بكاء حبيبته الغالية.

رأيتها في تلك الليلة، تقوم بشيء لم أرَها تفعله من قبل. لقد رأيتها تُقبل زوجها المختار على خده ببراءة، وتزحف بالقرب من جسده الممشوق كما لو أنها ستجد فيه أفضل داعم لها. انطلقا معًا في ضوء القمر المتضائل، وقد رحت أنظر إليهما وأتابعهما، بعد أن رحت أقارن في ذهني بين هيئة رحيلهما وهيئة رحيل مارثا، وإذا بي أبصر إيميلي تمسك بذراع هام بكلتا يديها، ولم تزل قريبة منه ملتصقة به.

# الفصل الثالث والعشرون

## أشاور السيد ديك وأختار مهنة

استيقظت في الصباح، وإذا بي أفكر في إيميلي الصغيرة، وأنشغل بانفعالاتها التي أبدتها في الليلة الماضية بعد أن غادرتنا مارثا. أحسست أنني لم أضع يدي على نقاط ضعف وحنو هذه العائلة إلا لأنني أتمتع بقدر من الثقة المقدسة، وأن الكشف عنها سيكون تصرفًا مكروهًا حتى لو كان لستيرفورث. لم أَكُن أي شعور حانٍ لأي إنسان إلا لتلك المخلوقة الجميلة التي كانت رفيقة الطفولة واللعب، وقد كنت مقتنعًا دائمًا بأنني أحببتها بإخلاص، بل سأبقى على هذه القناعة حتى توافيني المنية. أما البوح بسرها إلى أي آذان -حتى لو كانت آذان ستيرفورث- والإفصاح عما لم تستطع قمعه بعد أن انفتح قلبها أمامي بسبب حادث، فهو ليس إلا عمل فظ، بل إنه لا يليق بي، ولا يليق بوهج طفولتنا النقية، الذي لبث يحيط برأسها دومًا على مرأى مني. فلم يكن مني إلا أن اتخذت قرارًا بإبقاء سرها بين جوانحي، بينما أهب لصورتها وهجًا جديدًا.

كنا نتناول الإفطار، وإذا برسالة تصلني من عمتي. كانت رسالتها تحوي أمرًا ما، وقد ظننت أن بإمكان ستيرفورث أن ينصح لي في هذا الأمر، كأي إنسان آخر لديه مثل هذه الخبرات، كما أنني أعرف أنني سأسعد بالتشاور معه، لذا فقد عقدت العزم على أن أناقشه في رحلة عودتنا إلى الوطن. كنا في ذلك الوقت منشغلين بتوديع جميع أصدقائنا. لم يستطع السيد باركس أن يفرغ من توديعه لنا، لما أبداه من غم لرحيلنا، وأحسب أنه كان ليفتح الصندوق مرة أخرى، ويضحي بجنيه آخر، إن كان سيبقينا ثماني وأربعين ساعة أُخر في يارموث. أحست بيجوتي وأفراد عائلتها جميعًا بحزن بالغ لرحيلنا، كما جاء أفراد بيت عمر وجورام لوداعنا. حضر كثير من الملاحين إلى ستيرفورث، كما تطوع عدد من العاملين بالبحر ونقلوا حقائبنا إلى الحافلة، فلو أننا أردنا نقل أمتعة فوج كامل معنا، لما احتجنا إلى استئجار من يحملها لنا. باختصار، لقد رحلنا وسط أسف وإعجاب جميع المهتمين بنا، وتركنا أناسًا كثيرين في غاية الحزن خلفنا.

قلت: «هل ستمكث هنا طويلًا يا ليتيمر؟». لقد كان يقف منتظرًا رؤية السائق حين يشرع في التحرك.

أجاب: «لا يا سيدي. ربما لن أمكث طويلًا يا سيدي».

قال ستيرفورث بنوع من اللا مبالاة: «لا يستطيع الآن تحديد أوقاته. إنه يعرف ما يجب عليه فعله، وسيؤدي دوره».

قلت: «إنني متأكد من أنه سيؤدي عمله على أكمل وجه».

رفع ليتيمر قبعته اعترافًا برأيي السديد، فشعرت أنني قد كبرت في نظره نحو ثمانية أعوام تفوق عمري تقريبًا. رفع قبعته مرة أخرى، متمنيًا لنا رحلة سعيدة، ثم تركناه واقفًا على الرصيف ليبدو لغزًا معتبرًا كأحد أهرامات مصر.

لم نخُض حديثًا لبعض الوقت، وقد ظل ستيرفورث صامتًا على غير عادته، بينما كنت منخرطًا في كثير من التساؤلات التي تجول في خاطري، فرحت أفكر متى تحين لي الفرصة لزيارة الأماكن القديمة مرة أخرى، وما التغييرات الجديدة التي قد تلحق بي أو بها في هذه المدة؟ إلا أن ستيرفورث جذبني إليه من جديد، ونبهني إلى حديث كان قد بدأه في لحظة، حيث يستطيع أن ينتقل من أي نقطة إلى أي شيء يحبه في لحظة خاطفة. جذبني من ذراعي متسائلًا:

«أسمعني صوتك يا ديفيد. ما أمر الرسالة التي كنت تتحدث عنها وقت الإفطار؟».

أخرجتها من جيبي قائلًا: «آهٍ، إنها من عمتي».

«وما الأمر الذي تحتاج فيه إلى النصح؟».

قلت: «يا ستيرفورث، إنها تذكرني أنني خرجت في هذه الرحلة للبحث عن ذاتي والتفكير قليلًا فيما أبتغيه».

«ألم تفعل ذلك بالطبع؟».

«في الواقع لا أستطيع أن أقول إنني حققت هدفي على وجه الدقة، بل أصارحك بقول الحقيقة، أخشى أنني نسيت هذا المرمى».

قال ستيرفورث: «حسنًا. تأمل الآن، وعوِّض إهمالك. انظر إلى اليمين، ترَ بلدًا منبسطًا، يحوي عددًا لا بأس من المستنقعات، ثم انظر إلى اليسار، وسترى الشيء نفسه. انظر إلى الأمام، ولن تجد فرقًا، انظر إلى الخلف، فلن تجد ما يخالف المشهد ذاته».

ضحكت، وأجبت أنني لم أرَ في كل الاحتمالات أي مهنة مناسبة لي، ولعل الأمر يعود إلى رتابة هذه البلدان.

ألقى ستيرفورث نظرة خاطفة على الرسالة التي في يدي وسألني: «ما رأي عمتنا في هذا الموضوع؟ هل تقترح أي شيء؟».

قلت: «بالطبع، نعم، إنها تسألني هنا، عما إذا كنت أستطيع أن أعمل وكيلًا أم لا؟ فما رأيك في هذه المهنة؟».

أجاب ستيرفورث في برود: «حسنًا، لا أظنها مهنة ملائمة. أحسب أنك تستطيع القيام بهذه الوظيفة مثل أي وظيفة أخرى، أليس كذلك؟».

لم يسعني إلا أن أضحك مرة أخرى، بعدما صرح بأنه يرى أن الوظائف والمهن جميعها على قدم المساواة، وقد صرحت له بذلك.

سألته: «وما وظيفة وكيل الأعمال يا ستيرفورث؟».

أجاب ستيرفورث: «حسنًا، إنه نوع من المحامين أشبه بالرهبان. تتصور بعض المحاكم الباهتة المنعقدة في حي المحامين، أن أصحاب هذه المهنة قابعون في زاوية قديمة خاملة بالقرب من كنيسة القديس بولس، وأنهم أشبه بجماعة من المحامين لا يترافعون أمام محاكم القانون أو الاستئناف. إن الوكيل ليس إلا موظف كان من الممكن أن ينتهي وجوده

ودوره في دائرة المسار الطبيعي للأشياء منذ نحو مائتي عام. أما أفضل ما يمكن قوله لك هو أن أحدثك عن حي المحامين. إنه مكان بعيد المنال، على منأى من الناس، حيث يديرون ما يسمى بالقانون الكنسي، فيلجون إلى جميع أنواع الحيل لتطبيق قوانين ضاربة قديمة، قد عفا عليها الزمن في أعمال البرلمان، والتي لا يعرف عنها ثلاثة أرباع العالم شيئًا، أما الربع الأخير فيفترضون أنهم قد نقبوا عنه واستخرجوه في حالة تشبه الحفريات التي استخرجت أيام إدوارد. إنه مكان احتكر الدعاوى المتعلقة بالوصايا وزيجات الناس والخلافات بين السفن والقوارب».

صرخت: «يا لهذا الهراء يا ستيرفورث! أظن أنك لا تقصد أن تقول إن ثمة صلة بين الأمور البحرية والأمور الكنسية؟».

أجابني قائلًا: «لا، لم أقصد ذلك في الواقع يا بني العزيز، لكنني أقصد أن أقول إنهم يدارون ويراقبون من الجماعة ذاتها التي تدير كلية المدنيين[1]. ستذهب إلى هناك يومًا، وستجد أنهم يتخبطون بين نصف المصطلحات البحرية في قاموس يونج، على غرار اصطدام سفينتي «نانسي» و«سارة جين» بعد أن أبحرتا، أو أن السيد بيجوتي ورجال المراكب في يارموث قد خاضوا البحار وسط الريح العاصفة، وقد ألقوا بالحبال والمراسي إلى «نيلسون»[2] لإنقاذها من محنتها، ثم

---

(١) يطلق على «كلية المدنيين» اسم «مجلس الأطباء *Doctors 'Commons*»، وهم جماعة من المحامين الذين يمارسون القانون غير العرفي في لندن، أي القانون الكنسي وقانون الأميرالية. كانت لهم مبانٍ بها غرف ومكتبة كبيرة حيث عاشوا وعملوا، كما عرف مكانهم باسم «حي المحامين».

(٢) انطلق ضابط يدعى نيلسون يحمل الحبال في محاولة لإرساء سفينة لإنقاذها من الانزلاق، وتثبيتها بالحبال حتى يتفادى دمارها، وقد أطلق على السفينة التي أنقذت اسم الضابط نفسه.

ستذهب في يوم آخر إلى المكان نفسه، فتجدهم في بحث دؤوب عن الأدلة بما فيها من تأييد أو نفي، لتدين قسيسًا أساء التصرف، ثم تجد القاضي الذي حكم في القضية البحرية، وقد صار محاميًا في قضية رجل الدين، أو العكس. إنهم مثل الممثلين؛ يكون الرجل قاضيًا الآن، ثم يبتعد عن القضاء في اللحظة ذاتها. يكون شيئًا في لحظة، ثم يتلون إلى شيء آخر في اللحظة ذاتها. يتغير ويتغير، إلا أنها أمور لطيفة للغاية دائمًا ومربحة جدًّا، كالمسرحيات الخاصة التي تعرض أمام جمهور تم اختياره بصورة».

قلت في حيرة: «لكن المحامين والوكلاء ليسوا سواء، أليس كذلك؟».

قال ستيرفورث: «كلا، إن المحامين مدنيون - رجال حصلوا على درجة الدكتوراة في الكلية - وهذا هو السبب الأول لمعرفتي بأمورهم. أما الوكلاء فإنهم من يوظفون المحامين. يحصل كلاهما على رسوم مجزية للغاية، فيحوزا معًا غنيمة صغيرة رائعة وممتعة. خلاصة القول أوصيك يا ديفيد أن تطرق أبواب كلية المدنيين بتيقظ وتمهل. وأستطيع أن أقول لك شيئًا سيرضيك إن أردت؛ هو أنهم يضفون على أنفسهم مهابة وقدرًا رفيعًا».

لقد استوعبت طريقة ستيرفورث واستخفافه خلال معالجة الموضوع، كما أخذت في الاعتبار ذاك الهواء الخشن الذي يحاوط تلك البلدة العتيقة التي يشير إليها بـ«الزاوية العتيقة الخاملة التي تقع بالقرب من ساحة كنيسة القديس بولس»، فلم أشعر بارتباك أمام اقتراح

عمتي، فقد تركت لي حرية اتخاذ قراري، ولم تتردد في إخباري أن الأمر لم يكن سوى محض خاطرة منها، بعد زيارتها الأخيرة لوكيلها الخاص في حي المحامين إثر رغبتها في تسوية وصيتها بما يصب في مصلحتي.

قال ستيرفورث عندما ذكرت له هذا الأمر: «إنه إجراء جدير بالثناء من جانب عمتنا، ونشكرها عليه في كل الأحوال. وإنها لخطوة تستحق كل التشجيع. نصيحتي لك يا أقحوانتي هي أن تتعامل بلطف مع مجتمع كلية المدنيين».

لقد عقدت العزم على الالتحاق بهذه الكلية. أخبرت ستيرفورث أن عمتي تنتظرني في المدينة (كما فهمت من رسالتها)، وأنها قد أقامت في حجرة لأسبوع في فندق خاص في شارع «لينكولن إن فيلدز»، حيث تحوي حجرتها سلمًا حجريًّا خاصًّا، وبابًا مريحًا، وتقبع على السطح، لأن عمتي كانت على قناعة بأن كل منزل في لندن سينشب فيه حريق كل ليلة.

لقد قضينا بقية رحلتنا في جو ممتع، وكنا نتطرق من وقت لآخر إلى الحديث عن كلية المدنيين، ونتخيل المستقبل البعيد حين أصير فيها وكيلًا. أما ستيرفورث فقد راح يتخيل صورتها وقد اتخذت عدة تنويعات متلألئة الأضواء، فكانت مرحة ومتقلبة، فضحك كلانا متفكهًا بهذه الصور. وصلنا إلى نهاية رحلتنا، فعاد ستيرفورث إلى منزله، بعد أن وعدني بالزيارة بعد الغد. أما أنا فقد اتجهت بالعربة إلى لينكولن إن فيلدز، حيث وجدت عمتي تنتظر تناول العشاء.

لو كنت أجوب العالم منذ أن افترقنا، لما كنا سعيدين باللقاء مرة أخرى إلى هذا الحد الذي كنا عليه. لقد بكت عمتي علانية بينما راحت تعانقني. ثم أثنت تقول متظاهرة بالضحك، إنه لو كانت أمي المسكينة على قيد الحياة، فلا شك أن هذا المخلوق الصغير السخيف كان ليذرف الدموع أنهارًا.

قلت: «هل تركت السيد ديك وراءكِ إذن، أيتها العمة؟ آسف له. آه يا جانيت، كيف حالك؟».

كانت جانيت تلوح لي بيدها، وبينما راحت تسألني عن أحوالي وصحتي، إذا بي ألاحظ أن وجه عمتي يستطيل للغاية.

قالت عمتي وهي تفرك أنفها: «إنني آسفة لذلك أيضًا. لم أشعر براحة البال يا تروت، منذ أن كنت هنا». وقبل أن أتمكن من السؤال عن السبب كانت قد أخبرتني.

قالت عمتي وهي تضع يدها بحزم وحزن على الطاولة: «إنني مقتنعة بأن شخصية مثل شخصية ديك ليست مجرد شخصية تصلح لإبعاد الحمير وحسب. إنني واثقة من أن كل ما يحتاجه هو أن يدعم قوة إرادته. كان الأجدر بي أن أترك جانيت في المنزل، فربما كنت قد أرحت خاطري بدلًا من أن أشوشه». أكملت عمتي حديثها مع تأكيد أقوالها: «إذا كان ثمة حمار تعدى على ممتلكاتي يومًا، فإنه ذاك الحمار الذي جاءني في الساعة الرابعة بعد الظهر؛ حين تملكني شعور بالبرد من رأسي إلى أخمصي قدمي، وأنا أوقن أنه كان حمارًا!».

حاولت مواساتها في هذه النقطة لكنها رفضت عزائي.

قالت عمتي: «لقد كان حمارًا ذا ذيل قصير، ركبته هذه الشقيقة المُرْدِية، عندما جاءت إلى منزلي». كان هذا هو الاسم الوحيد الذي تعرفه عمتي عن الآنسة مردستون منذ ذلك الحين. استطردت عمتي حديثها بينما راحت تضرب الطاولة بيدها وتقول: «إذا كان ثمة حمار في دوفر، يصعب عليَّ تحمل جرأته أكثر من سواه، فهو هذا الحيوان!».

غامرت جانيت بالتلميح إلى أن عمتي تزعج نفسها من دون داعٍ، وأنها تعتقد أن الحمار المعني كان يقوم بأعمال نقل للرمل والحصى، ولم يكن يستخدم لأغراض التعدي على ممتلكات الغير. لكن عمتي لم تستمع إلى كلماتها.

قُدِّم إلينا العشاء الساخن الشهي، على الرغم من أن غرفة عمتي كانت مرتفعة جدًّا وبعيدة عن موضع إعداده. لا أعرف السبب الذي جعل عمتي تستأجر هذا الموضع البعيد؛ هل تقبلت المزيد من السلالم الحجرية مقابل اقتصاد جزء من نقودها، أو ربما اختارت أن تكون قريبة من باب السطح طلبًا للأمان. كان العشاء على أي حال يتكون من دجاج مشوي وشريحة من اللحم مع بعض الخضار، وقد ذقت كل صنوفه وكانت جميعها ممتازة. أما عمتي فكان لديها بعض التحفظات الخاصة بأطعمة لندن، فلم تأكل إلا القليل.

قالت عمتي: «أفترض أن هذا الطير المؤسف ولد ونشأ في قبو، ولم يستقبل الهواء أبدًا إلا في موقف حديث للعربات. آمل أن تكون شريحة

اللحم من اللحم البقري، لكنني لا أتوقع ذلك. لا يوجد شيء حقيقي في رأيي في هذا المكان سوى الأوساخ».

ألمحتُ قائلًا: «ألا تحسبين أن الدجاج ربما يكون من خارج البلاد يا عمتي؟».

ردت عمتي: «بالتأكيد لا. لن يكون من دواعي سرور أي تاجر في لندن أن يبيع أي شيء حقيقي وإن تظاهر به».

لم أجرؤ على مخالفة هذا الرأي، لكنني اكتفيت بالتزود بمثل هذا العشاء الشهي، وقد أسعد عمتي أن ترى إقبالي على الطعام. رفعت الطاولة، ثم ساعدتها جانيت في ترتيب شعرها، وارتداء طاقية النوم الخاصة بها، والتي كانت ذات هيئة أصلب من المعتاد. علقت عمتي على هيئة هذه الطاقية قائلة: «إنها حامية في حالة نشوب حريق». ثم راحت تلف رداءها حول ركبتيها، وكانت هذه هي استعداداتها المعتادة لتدفئة نفسها قبل النوم. هيأت جانيت عمتي للنوم؛ وفقًا لبعض العادات المعمول بها، والتي لا يُسمح بأي انحراف عنها مهما كان طفيفًا، فأعدت لها كوبًا من النبيذ الساخن والماء، وشريحة من الخبز المحمص المقطع إلى شرائح رفيعة طويلة. رحلت جانيت بعد أن تركتنا مع هذه الرفقة وحدنا لإنهاء المساء، وقد جلست عمتي أمامي تشرب الخمر والماء، وقد أخذت تنقع فيه شرائح الخبز المحمص واحدة تلو الأخرى قبل أن تتناولها، بينما راحت تنظر إليَّ في حنان من بين حدود طاقيتها الليلية.

طفقت تقول: «حسنًا يا تروت، ما رأيك في فكرة أن تعمل وكيلًا؟ أم أنك لم تبدأ في التفكير في الأمر بعد؟».

قلت: «لقد فكرت كثيرًا في الأمر يا عمتي العزيزة، وتحدثت كثيرًا عن هذه المسألة مع ستيرفورث. إنني أحببت تعلم هذا الأمر في الواقع حبًّا جمًّا. أحب القيام بذلك للغاية».

قالت عمتي: «مرحى، يا له من أمر مبهج!».

«ليس لديَّ سوى عقبة واحدة يا عمتي».

راحت تقول: «قل ما هي يا تروت».

«حسنًا، أريد أن أسأل يا عمتي -بعد أن بدت لي هذه المهنة كما فهمت محدودة - ما إذا كان دخولي إليها سيكون مكلفًا للغاية أم لا؟».

ردت عمتي قائلة: «سيكلفك التدرب ألف جنيه فقط، حتى تستطيع اجتياز الامتحان».

رحت أقرب مقعدي منها قائلًا: «أما الآن يا عمتي العزيزة، فإن بالي لم يعد يرتاح إلى هذا الأمر. إنه مبلغ كبير. لقد أنفقتِ الكثير على تعليمي، وكنتِ دائمًا سخية في كل شيء في كل ما يتعلق بتعليمي. لقد كنتِ تجسيدًا لروح الكرم. لا أشك في وجود بعض الطرق المختلفة التي قد أبدأ بها حياتي بنفقات أقل، ومع ذلك سأبدأ على أمل طيب في المضي قدمًا بالإصرار والعزيمة الصادقة. هل أنتِ متأكدة من أنه لن يكون من الأفضل سوى تجربة هذا المسار في التدرب؟ هل أنتِ متأكدة من قدرتكِ على تحمل هذا القدر من المال، وأنه من الصواب أن ينفق هذا القدر الكبير؟ إنني أسألكِ فقط بصفتكِ أمي الثانية، أن تفكري في الأمر. هل أنتِ متيقنة من الفكرة ذاتها؟».

انتهت عمتي من تناول قطعة الخبز المحمص التي كانت في يدها، وقد لبثت تنظر إلى وجهي تتأمله طوال الوقت، ثم وضعت كأسها فوق المدفأة، وراحت تقبض بين يديها أطراف تنورتها المطوية، ثم أجابت بما يلي:

«أنصت إليَّ يا بُني، إذا كان ثمة شيء أبتغيه من الحياة، فهو أن أوفر لك ما يجعل منك رجلًا صالحًا عاقلًا، وسعيدًا. إنني عازمة على إتمام دوري وكذلك ديك. أود أن يستمع بعض الأشخاص الذين أعرفهم إلى رأي ديك حول هذا الموضوع، لأن حكمته بالغة، لكن لا أحد يقدر موارد عقل هذا الرجل إلا أنا».

توقفت عن الكلام للحظة حتى تمسك بيدي بين يديها، ثم تابعت قائلة:

«من العبث يا تروت، أن نتذكر الماضي، إلا إذا كان لتذكره تأثير على الحاضر. كان من الممكن أن أصير أقرب أصدقاء والدك المسكين، ربما ربطتني علاقة أفضل بتلك الطفلة المسكينة والدتك، حتى بعد أن خيَّبت أملي في أختك بيتسي تروتوود. أحسب أنني فكرت في هذا كله بعدما أتيت إليَّ، صبيًّا صغيرًا هاربًا، مغبرًا تمامًا ومرهقًا. صرت من ذلك الحين وحتى الآن يا تروت، موضع فخري وسعادتي. لا تراودني أي مطالب أو آمال فيما أملك سوى أن أحقق لك ما تريد، على الأقل...» - ترددت هنا، وقد تعجبت لها ولارتباكها في هذه اللحظة - «لا، ليست لديَّ أي مطالب أو آمال فيما أملك، وإنك لطفلي الذي أرعاه. لتكن طفلًا محبًّا لي في عجزي، ولتتحمل تقلباتي وأوهامي،

وأعرف أنك ستفعل ما في وسعك من أجل امرأة عجوز لم تعِش حياتها سعيدة أو سلسة كما كان الأجدر بها أن تكون، فلتحسن إليها ولتجُد بما يفوق ما أسدته تلك المرأة العجوز إليك في يوم من الأيام».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عمتي تشير إلى ماضيها. كانت قد أضفت نوعًا من النضج على طريقتها الهادئة التي استرسلت بها في حكيها، وكذلك على الطريقة التي أنهت بها حديثها، مما جعلني أبجلها وأزيد من احترامي ومحبتي لها.

قالت عمتي: «صار كل شيء متفقًا عليه ومفهومًا بيننا الآن يا تروت، ولا نحتاج إلى الحديث عنه أكثر من ذلك. أعطني قبلة، وسنذهب إلى مجلس العموم غدًا بعد تناول الإفطار».

أجرينا محادثة طويلة بالقرب من المدفأة قبل أن نأوي إلى الفراش. كنت أنام في غرفة في نفس الطابق مع عمتي. كنت منزعجًا قليلًا في أثناء الليل لأنها طرقت باب غرفتي لتشكو غضبها واستياءها من صوت بعيد لعجلات العربات أو عربات السوق، وأخذت تسألني: «هل سمعت صوت المحركات؟»، ولكن بحلول الصباح راحت في سبات، فغصت في النوم بدوري أيضًا.

حلت الظهيرة، فانطلقنا إلى مكتب الأستاذين سبنلو وجوركنز في كلية المدنيين. كان لعمتي رأي آخر في لندن، أرادت أن تشير إليه بوجه عام، وهو أن كل رجل رأته كان نشالًا، لذا أعطتني حقيبتها لأحملها لها، وقد كانت تحتوي على عشرة جنيهات وبعض الفضة.

توقفنا مؤقتًا في متجر الألعاب في شارع فليت، لرؤية عمالقة سانت دونستان يقرعون الأجراس[1] -لقد حددنا توقيت تحركنا، بحيث نصل في تمام الساعة الثانية عشرة- ثم اتجهنا نحو لودجيت هيل وكنيسة القديس بولس. كنا نعبر الطريق حيث المكان سابق الذكر، فإذا بعمتي تسرع الخطى بصورة كبيرة وملحوظة، وقد بدت خائفة كذلك. لاحظت في الوقت نفسه وجود رجل رث الملبس كان قد توقف جوارنا وأخذ يحدق فينا، بل راح يقترب منا شيئًا فشيئًا حتى صار أقرب ما يكون منا.

قالت لي عمتي بصوت خافت، بينما راحت تضغط على ذراعي: «أسرع يا عزيزي تروت، إنني لا أعرف ماذا أفعل».

قلتُ: «لا تنزعجي، ليس في الأمر ما نخاف. ادخلي إلى ذاك المتجر، وسأتخلص قريبًا من هذا الشخص».

راحت تقول: «لا، لا يا بني! أستحلفك بالله ألا تتحدث معه. أتوسل إليك، إني آمرك».

قلت: «يا إلهي، يا عمتي! إنه ليس سوى متسول قوي البنية».

ردت عمتي: «إنك لا تعرف من هو! إنك لا تعرف من هو! إنك لا تعرف ماذا تقول!».

---

(١) كنيسة سانت دونستان من أشهر كنائس لندن. خضعت للعديد من التغيرات في هيئتها المعمارية قبل استبدال المبنى بالكامل في أوائل القرن التاسع عشر. اشتهر محيطها بعدد من المتاجر، وقد صارت مركزًا لبيع الكتب. كان يعلو واجهتها أول ساعة عامة في لندن بها عقرب للدقائق، وقد ثبتت عام ١٦٧١م، كما يتقدم الساعةَ تمثالان من العمالقة يدقان أجراس الساعة.

توقفنا في الطريق عند باب مهجور، بينما كان هذا الرجل يمر، فإذا به يتوقف أيضًا.

أدرتُ رأسي نحوه في سخط، فإذا بعمتي تقول: «لا تنظر إليه! وأحضر لي عربة يا عزيزي، وانتظرني في كنيسة القديس بولس».

سألتها: «هل أنتظرك؟».

أجابتني عمتي: «نعم، يجب أن أذهب وحدي. يجب أن أذهب معه».

«أتذهبين معه يا عمة؟ هل تقصدين هذا الرجل؟».

فأجابت: «إنني بكامل قواي العقلية، وأقول لك إنني يجب أن أفعل ذلك. هيا أحضر لي عربة!».

أحسست أنني لا أستطيع سوى الإذعان والامتثال لهذا الأمر القاطع، بغض النظر عن مدى دهشتي. أسرعت مبتعدًا بضع خطوات، فجلبت عربة صغيرة فارغة كانت تمر من أمامي، وما إن وطئت درجات السلم حتى قفزت عمتي داخلها، ولا أعرف كيف تبعها ذلك الرجل إليها. لوحت لي بيدها لأذهب بعيدًا عنهما في حزم قاطع، حتى إنني استدرت عنها في الحال وقد تملكني الارتباك تمامًا. سمعتها بعد التلويح لي تقول للسائق: «سر إلى أي مكان، واصل المسير مباشرة»، فإذا بالعربة تمر من أمامي في هذه اللحظة في طريقها للصعود إلى التل.

خطر على بالي في هذه اللحظة ما قاله لي السيد ديك، وما كنت أحسبه محض أوهام وترهات. لم يعد يساورني شك في أن هذا الشخص

هو الرجل نفسه الذي حكى عنه السيد ديك بنوع من الإشارات الغامضة، إلا أنني لم أفهم كيف استطاع إحكام قبضته على عمتي، بل لم أتخيل هذا تمامًا. مكثت لنصف ساعة في باحة الكنيسة، وإذا بي أبصر العربة عائدة. توقف السائق بجانبي وكانت عمتي جالسة داخلها وحدها.

لم تكن قد استعادت كامل قوتها بشكل يكفي لأن تتهيأ تمامًا للزيارة التي جئنا من أجلها. طلبت مني أن أركب العربة، وأن أقول للسائق أن يقود ببطء ذهابًا وإيابًا لبعض الوقت. لم تقل أكثر من ذلك، باستثناء قولها: «يا بني العزيز، لا تسألني أبدًا عما حدث، ولا تُشِر بحديثك إليه»، إلى أن استعادت رباطة جأشها تمامًا، وأخبرتني أنها صارت في أفضل حال الآن، وأن بوسعنا الآن أن نفارق العربة. ناولتني حقيبتها لأدفع للسائق أجرته، فإذا بي أكتشف اختفاء الجنيهات كلها، ولم يتبقَّ شيء سوى العملات الفضية.

اقتربنا من حي المحامين وكان الدخول إليه عبر ممر ضيق منخفض بعض الشيء. ما إن سرنا عدة خطوات قليلة بعد أن غادرنا الشارع وراءنا، حتى بدا أن ضجيج المدينة قد ذاب، كما لو أنه سحر منقضٍ، وأفضى بنا الطريق إلى السكون، ثم قادتنا بضع ساحات مملة وطرق ضيقة إلى مكتب سبنلو وجوركنز المضاء بالسماء، حيث يؤدي دهليز ذلك المعبد إلى المكان الذي يقصده الحجاج، فيصلون إليه من دون استئذان أو طرق الأبواب. ظهر ثلاثة أو أربعة كتبة يعملون بالنسخ، وكان أحد هؤلاء الكتبة رجلًا نحيفًا ضعيف البنية، يجلس بمفرده مرتديًا شعرًا مستعارًا باللون البني، وقد بدا ملمسه صلبًا كما لو أنه مصنوع من خبز الزنجبيل.

نهض الرجل لاستقبال عمتي، وأدخلنا إلى غرفة السيد سبنلو.

قال الرجل النحيل الجاف: «إن السيد سبنلو في المحكمة يا سيدتي. إنه يوم المحكمة، لكنه قريب، وسأرسل إليه من يناديه فورًا».

صرنا وحدنا في أثناء بحثهم عن السيد سبنلو ومناداته، لذا فقد انتهزتُ هذه الفرصة ورحت أتأمل أثاث الغرفة قديم الطراز وقد علاه الغبار والأتربة، أما المفرش الأخضر الذي يعلو المكتب فقد خفَّت ألوانه، وصار رثًّا وباهتًا كما لو أنه عجوز فقير. لاح أمام ناظري عدد كبير جدًّا من حزم الأوراق التي تعلو المكتب، وقد كتب على بعضها أنها تتعلق بنزاعات السبِّ، وأدهشني بعضها إذ علاها اسم قضايا التشهير، والبعض الآخر تضمن اسم المحكمة التأسيسية، والبعض الآخر اسم محكمة الاستئناف، والبعض تحت عنوان محكمة الامتياز، والبعض يعلوه اسم المحكمة الأميرالية، والبعض باسم محكمة التفويض. أتاحت لي هذه الفرصة أن أتساءل كثيرًا عن عدد المحاكم في مجملها، وكم من الوقت سيستغرق المرء لفهم اختصاصاتها جميعًا؟ ظهر إلى جانب ذلك كله الكثير من شهادات الشهود ومدونات الأدلة المخطوطة هائلة الحجم ومحفوظة في شهادات خطية. كانت مربوطة بقوة، ومجموعة معًا في حزم ضخمة، وقد لاحت حزم كل قضية، كما لو أنها تتكون من تاريخ مدون في عشرة أو عشرين مجلدًا. ظننت أن كل هذه الحزم من الأوراق على الأرجح باهظة الثمن، وقد منحني هذا المشهد برمته فكرة مقبولة عن عمل الوكيل. صرت ألقي بنظري في رضا متزايد على هذه الأشياء، وكذلك أتفحص عديدًا من الأشياء المماثلة بالرضا

نفسه، إلى أن سمعت خطى متسارعة من الخارج تدنو من الغرفة. جاء السيد سبنلو في ثوب أسود مزين بالفراء الأبيض، مسرع الخطى، ما لبث أن رفع قبعته لتحيتنا فور أن امتثل أمامنا.

كان رجلًا أنيقًا قصيرًا ذا شعر فاتح، يرتدي حذاءً لا يعلوه الغبار، وقد أحكم رابطة عنق بيضاء فوق ياقة قميصه. أما قميصه فقد أحكمت أزراره، وقد لاح مشذبًا ومتينًا، ولا بد أنه قد جاهد كثيرًا في تهذيب شاربه، الذي بدا مرتبًا في دقة. تدلت من صدره سلسلة ضخمة للغاية تشير إلى ساعته الذهبية، إلى الحد الذي سرح فيه خيالي راسمًا صورة لذراعه الذهبية المتعرجة القادرة على الإمساك بتلك الساعة، مثل تلك الأذرع التي توضع فوق دكاكين الساعات الذهبية. بدت عليه هذه العناية البالغة، إلى الحد الذي جعلته متيبسًا لا يستطيع الانحناء، إلا أنه نظر إلى بعض الأوراق المكومة على مكتبه بعد الجلوس على كرسيه، وإذا به يجد نفسه مضطرًّا لتحريك جسده بالكامل، ومن ثَم الانحناء بجذعه، كما يفعل المترنح إثر الشراب.

قدمته عمتي لي قبل قليل، وقد استقبلني بلطف وترحاب. ثم راح يقول بعد ذلك:

«حسنًا يا سيد كوبرفيلد، هل تفكر في الالتحاق بمهنتنا؟ لقد ذكرت الآنسة تروتوود هذا الأمر بشكل عرضي. وإنه لمن دواعي سروري إجراء هذه المقابلة معها اليوم...». أمال جسده مرة ثانية بالانحناءة ذاتها، وأكمل حديثه قائلًا: «لديَّ مكان شاغر هنا. كانت الآنسة تروتوود الطيبة قد ذكرت أن لديها ابن أخ تعتني به بشكل خاص، وأنها تسعى

لتأمين مساره المهني في الحياة. وأحسب أنه يسعدني أن أكون أمام ابن الأخ هذا الذي تعنيه». ثم أحنى جذعه مرة أخرى.

أبديت تقديري، وقلت إن عمتي قد أخبرتني عن هذا المكان الشاغر، وإنني أظن أنني سأسعد للغاية لو أنني حصلت عليه. لقد أعجبت بهذا العمل وصرت أميل بشدة إليه، وأنني قد قبلت على الفور هذا الاقتراح من عمتي. إلا أنني لا أستطيع أن أتعهد على الإطلاق بإحراز تقدم فيه، حتى أتزود بمعرفة الكثير عن هذا المجال، وعلى الرغم من أن الأمر لا يتجاوز الشكليات، فإنني افترضت أنه يجب أن تتاح لي الفرصة لتجربة الطريقة التي أحبها في التعلم، قبل أن ألزم نفسي بها بشكل لا رجعة فيه.

قال السيد سبنلو: «آهٍ بالتأكيد، إننا هنا، في هذا المكتب، نقترح دائمًا شهرًا. إنه شهرًا ابتدائيًّا للتدرب، وإن كنت لأسعد عن نفسي بأن أقترح شهرين أو ثلاثة بل في الواقع من الممكن أن تكون فترة مفتوحة للتدرب، لكنني ألتزم باتفاق شريكي السيد جوركنز».

سألته: «وهل الأجر هو ألف جنيه يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «نعم، إن الأجر بما يشمله من دمغات يعادل ألف جنيه. وكما ذكرت للآنسة تروتوود، فإنني لا أتأثر بأي اعتبارات ربحية، وأحسب أن قلة من الرجال من لا يلتفت إلى الغنيمة، إلا أن السيد جوركنز له آراء خاصة حول هذه الموضوعات، وأنا ملزم باحترام آراء السيد جوركنز. يظن السيد جوركنز باختصار أن ألف جنيه هي مبلغ أقل من المستحق».

تحدثت إليه محاولًا أن أوفر لعمتي قدرًا من المال، فرحت أقول: «أفترض يا سيدي أنه ليس من المعتاد هنا، إذا كان الموظف المتدرب مفيدًا في مجاله، وقد جعل نفسه متدربًا مثاليًّا في مهنته...»، لم أستطع منع ما بدا عليَّ من خجل، بعد أن بدا كلامي امتداحًا لنفسي، لكنني استطردت قائلًا: «أحسب أنه ليس من المعتاد، أن تسمحوا للمتدرب في السنوات الأخيرة من وقت عمله، أن يتقاضى منكم أي شيء».

قام السيد سبنلو بعد جهد كبير برفع رأسه بعيدًا عن رابطة عنقه بما يكفي ليومئ بها، ثم أكمل حديثي بكلمة قائلًا: «راتبًا». ثم استطرد قائلًا:

«لا. لا أستطيع بشكل شخصي أن أبوح بالاعتبارات التي أراعيها حول هذه النقطة يا سيد كوبرفيلد، حتى إن كنت غير مقيَّد بشريك. إن موقف السيد جوركنز جامد وصارم».

انتابتني رهبة عميقة من جراء التفكير في أمر جوركنز المريع، إلا أنني اكتشفت بعد ذلك أنه ليس سوى رجل لطيف ذي مزاج ثقيل، ولم يكن موقفه من العمل يتعدى إبقاء نفسه في الكواليس، ومن ثَم إظهار دوره باستمرار باسم أكثر الرجال قسوة وحدة. إذا أراد أحد الموظفين زيادة راتبه، فسيقولون له إن السيد جوركنز لن يستمع إلى هذا الاقتراح. إذا تباطأ العميل في تسوية أجر أعماله، فإن السيد جوركنز يشدد على ضرورة دفعها، ومهما كانت هذه الأمور مؤلمة - وهي دومًا كذلك - لمشاعر السيد سبنلو، فإن السيد جوركنز سيكون له من رباطة الجأش ما يدفع إلى تنفيذها. أما قلب ويد الملاك الطيب سبنلو فمفتوحان دائمًا،

إلا أنه مقيد دومًا بذلك الشيطان جوركنز. وأحسب أنني مع التقدم في العمر، صارت عندي خبرة ومعرفة ببعض الهيئات الأخرى التي تمارس الأعمال التجارية وفقًا لمبدأ سبنلو وجوركنز.

اتفقنا على أن أبدأ فترة التدريبات الشهرية في أقرب وقت ممكن، وأنه لا داعي من بقاء عمتي في المدينة أو العودة عند انتهاء مدة التدريب، حيث يمكن بسهولة إرسال عقد اتفاقية التدريب، التي كان من المقرر أن أكون خاضعًا له، إلى المنزل لتوقيعه. وصلنا إلى هذا الاتفاق، فعرض السيد سبنلو أن يأخذني إلى المحكمة في ذلك الوقت، ليطلعني على طبيعة هذا المكان. كنت على أهبة الاستعداد لاكتشاف هذا المكان، لذا فقد خرجنا تاركين عمتي وراءنا بعد أن قالت: «مَن الذي سيأمن على نفسه في مكان كهذا؟». وأحسب أنها كانت تظن أن جميع المحاكم هي نوع من مطاحن البارود التي قد تنفجر في أي وقت.

قادني السيد سبنلو إلى فناء مرصوف يحاوطه عدد من قوالب الطوب المنتصبة كشواهد قبر، وقد استنتجت من أسماء الطلبة المدونة على الأبواب، أنها أماكن الإقامة الرسمية للمتعلمين الذين أخبرني ستيرفورث عنهم. انعطفنا بعدها ناحية اليسار حيث قاعة كبيرة هادرة، لا تختلف من وجهة نظري في هيئتها عن هيئة كنيسة صغيرة. كان الجزء العلوي من هذه الغرفة مسورًا ومعزولًا عن بقيتها، وتقبع على الجانب منصة مرتفعة على شكل حدوة حصان. تراءى أمامي عدد من الرجال يجلسون فوق كراسي تبدو مثل كراسي غرفة طعام قديمة الطراز، يرتدون عباءات حمراء ويعلو رؤوسهم شعر مستعار رمادي، وقد عرفت أنهم

الأساتذة المعلمون كما ذكرنا سابقًا. لاح عند منحنى حدوة الحصان هذه رجل منكب فوق مكتب صغير يشبه المنبر، وقد كان رجلًا عجوزًا، لو أنني رأيته في قفص لأشفقت عليه فتناولته بين يدي بالتأكيد كفرخ صغير، إلا أنني عرفت فيما بعد أنه رئيس الجلسة. أما الفراغ المنبسط أمام حدوة الحصان هذه، الذي يقبع في مستوى منخفض وجلس أدنى من هؤلاء، فقد جلس فيه العديد من السادة الآخرين ممن في رتبة السيد سبنلو، وقد ارتدوا عباءات سوداء يكسوها فرو أبيض، وجلسوا إلى طاولة خضراء طويلة. أحسب أن رابطة عنقهم قاسية بشكل عام، وقد سيطرت الغطرسة على مظهرهم. إلا أنني عرفت بعد ذلك أنني أخطأت بشأن هذا الوصف الأخير لهم، لأنه بعدما اضطر اثنان أو ثلاثة منهم إلى النهوض والإجابة عن سؤال الرئيس، لم أرَ قَطُّ أي شيء يبدو عليهم سوى ارتباك الخجل. أما الجمهور، فقد تمثل أمامي في فتى يرتدي لباسًا مرقعًا، ورجل رث يأكل سرًّا فتات خبز من جيوب معطفه، وآخر يدفئ جسده عند مدفأة في وسط قاعة المحكمة. لم يكسر هذا السكون إلا طرقعة نيران المدفأة وصوت أحد الأساتذة، الذي كان يتجول ببطء شارحًا عددًا من أدلة قضيته، وقد راح يتوقف بين حين وآخر على جانب الممر الصغير ليقدم دليلًا جديدًا في قضيته. مجمل القول إنني لم أقم قَطُّ في أي مناسبة في حياتي، بحضور محفل صغير عتيق الطراز، وخارج عن حدود الزمن مثل هذا المحفل الصغير الذي ذهبت إليه، وقد غلب على الحاضرين فيه النعاس، وشعرت أنه أشبه بمادة أفيون مهدئة تمامًا لأي شخص قد يلجأ إلى هذا المكان ربما باستثناء أن تكون واحدًا من الطلبة.

صرت راضيًا تمامًا عن الطبيعة الهادرة لهذا المجتمع، فأبلغت السيد سبنلو أنني رأيت ما يكفيني هذه الساعة، وطلبت منه أن أعود إلى عمتي، وغادرت معها بعد ذلك من كلية المدنيين، بعد أن لفني شعور بأنني لم أزل صغيرًا جدًّا عند خروجي من مكتب سبنلو وجوركنز، بعد أن لاحظت أن الكتبة فيه راحوا ينكزون بعضهم بعضًا بالأقلام مشيرين إليَّ هازئين بي.

وصلنا إلى لينكن إن فيلدز من دون أي مغامرات جديدة، باستثناء مواجهة حمار مشؤوم يجر عربة تاجر خضراوات، مما استدعى بعض ذكريات عمتي المؤلمة. تحدثنا كثيرًا مرة أخرى عن خططي المستقبلية، بعد أن أوينا إلى الفندق في أمان. كنت أعلم أنها حريصة على العودة إلى منزلها مرة أخرى، لتهجر هنا هذه الحرائق والطعام القذر والنشالين، ولم تعد تتحمل البقاء بسهولة في لندن ولو لنصف ساعة أخرى، لذا فقد طلبت منها العودة لديارها حتى لا تتكبد العناء لأجلي، وأن تترك لي فرصة الاعتناء بنفسي.

قالت: «لم يبقَ سوى الغد حتى ينقضي أسبوع على مقامي هنا، إلا أنني لم أغفل التفكير في شيء آخر يا عزيزي. إن ثمة عددًا صغيرًا من الغرف المفروشة في حي أديلفي يا تروت، وأرجو أن يناسبك ويروق لك المقام فيها لأنها جميلة».

ما إن انتهت من هذه المقدمة الموجزة، حتى أخرجت من جيبها إعلانًا مقطوعًا بعناية من إحدى الصحف، يشير إلى أن وجود حجرات في شارع باكنجهام في أديلفي، متاحة للإيجار بما فيها من أثاث، مع

إطلالتها على النهر، وأنها مجموعة مرغوبة وفريدة الطراز. تصلح الغرف مسكنًا لشاب مهذب، أو عضو في إحدى المحاكم، أو غير ذلك، مع إمكانية التسكين الفوري. كانت الشروط معتدلة، ويمكن أن تؤجر لشهر فقط، إذا لزم الأمر.

قلت: «حسنًا، يا له من مسكن مناسب يا عمة!»، صرت بعدها غارقًا في تصور نعيم العيش في هذا المسكن.

تناولت عمتي قبعتها على الفور في لحظة خاطفة ولم تكن قد مرت لحظات منذ أن وضعتها جانبًا، وراحت تقول: «إذن، هيا بنا. سنذهب ونلقي نظرة عليها».

انطلقنا. وجَّهنا الإعلان إلى الاستفسار من السيدة كروب المقيمة في المبنى. دق جرس العمارة التي سنتواصل فيها مع السيدة كروب. لم نستطع الوصول إلى السيد كروب إلا بعد المرة الثالثة أو الرابعة. فظهرت أخيرًا، وكانت تبدو سيدة بدينة ترتدي مئزرًا قصيرًا تعلوه عباءة نسائية من القطن.

قالت عمتي: «إذا سمحتِ يا سيدتي، دعينا نرى الغرف المتاحة لديكم».

قالت السيدة كروب بينما تتحسس المفاتيح في جيبها: «أهي لهذا الرجل المحترم؟».

قالت عمتي: «نعم، إنها لابن أخي».

قالت السيدة كروب: «يا لها من مجموعة غرف رائعة تناسبه».

صعدنا بعد ذلك إلى الطابق العلوي.

كانت الغرف تقبع في الجزء العلوي من المنزل - وإنه لموقع رائع بالنسبة لعمتي، حيث أصير بالقرب من مخرج الحريق - وتقبع الغرف بعد مدخل صغير مظلم إلى حد كبير حتى لا تكاد ترى عبره أي شيء، ومخزن صغير معتم مصنوع من الحجارة حيث لا يمكنك أن ترى أي شيء فيه على الإطلاق، ثم غرفة جلوس وغرفة نوم. كان الأثاث باهتًا، ولكنه يلائم استخدامي إلى حد كبير، وكان من المؤكد أن النهر يمتد خارج نوافذ الغرفة.

كنت سعيدًا برؤية هذا المكان، فانسحبت عمتي والسيدة كروب إلى غرفة المؤن لمناقشة الشروط، بينما بقيت جالسًا على أريكة غرفة الجلوس، ولم أتجرأ على التفكير في أنه من الممكن أن يُقدَّر لي أن أعيش في مثل هذا المكان الجميل. عادتا إليَّ بعد نقاش ومفاوضات استمرت لبعض الوقت، ويا لفرحتي حين ألمحت في وجه السيدة كروب وفي وجه عمتي، أن الاتفاق قد تم.

سألت عمتي: «هل هذا هو أثاث الساكن الأخير؟».

قالت السيدة كروب: «نعم، إنه كذلك يا سيدتي».

سألت عمتي «ماذا حل به؟».

أصيبت السيدة كروب بسعال مزعج ثم راحت تتحدث بصعوبة بالغة، قائلة: «آه، لقد مرض هنا يا سيدتي. يا إلهي! يا وجعي! يا حبيبي! ثم مات».

سألت عمتي: «مهلًا! ما سبب وفاته؟».

قالت السيدة كروب في ثقة: «حسنًا يا سيدتي، لقد مات من كثرة الشراب والدخان».

قالت عمتي: «الدخان؟ أحسب أنكِ لا تقصدين أدخنة المداخن؟».

أجابت السيدة كروب قائلة: «لا يا سيدتي. إنها أدخنة السجائر والغليون».

التفتت عمتي إليَّ، ثم قالت: «إنه أمر غير مزعج يا تروت على أي حال».



قلت: «لا، إطلاقًا».

أما مختصر القول، فقد رأت عمتي كم كنت مبتهجًا بهذا النزل، فاستأجرت الغرف لي لمدة شهر، مع فرصة لاستئجار المكان لاثني عشر شهرًا بعد انتهاء ذلك الوقت إذا وجدت فيه راحتي. كان على السيدة كروب أن تنظف المفروشات وأن تطهو لي؛ أي توفر لي كل سبل العيش الضرورية، وألمحت السيدة كروب صراحةً إلى أنها ستعاملني دومًا بصفتي ابنًا لها. كان من المفترض أن أتسلم الغرف بعد غد، وقد قالت السيدة كروب، إنها تحمد الله أنها عثرت الآن على ابن ترعاه وتعتني به.

أبلغتني عمتي في طريق عودتنا أنها تثق تمامًا في أن الحياة التي سأعيشها الآن ستجعلني رجلًا صلبًا ومعتمدًا على نفسي، وهذا كل ما أحتاج إليه. كررت هذه العبارات عدة مرات في اليوم التالي، وفي

الفترات الفاصلة بين ترتيبنا لنقل ملابسي وكتبي من منزل السيد ويكفيلد. كنا قد عكفنا طوال أيام عطلتي الأخيرة على كتابة رسالة طويلة إلى أجنيس، التي تولت عمتي مسؤولية توصيلها، حيث كان من المقرر أن تغادر في اليوم التالي. لا أريد أن أطيل في سرد هذه التفاصيل، لكني أحتاج فقط إلى أن أضيف أنها وفرت لي كل تدابير العيش الممكنة لسد جميع احتياجاتي خلال شهر تدريبي، وقد استأت كثيرًا وكذلك كان حال عمتي من أن ستيرفورث خيَّب أملي وأملها، فلم يظهر قبل أن تغادر. ودعتها بعد أن اتخذت مكانها في عربة دوفر في أمان، وقد كانت تشعر باللهفة للعودة إلى جانيت حيث الإزعاج القادم من بطش الحمير المتشردة. شق السائق طريقه، فإذا بي أولي وجهي شطر أديلفي، متأملًا الأيام الخوالي عندما كنت أتجول بين أزقته الجوفاء، وآملًا الخير في تلك التغييرات السعيدة التي أوصلتني إلى العيش على السطح.



# الفصل الرابع والعشرون

## فجوري الأول

كان حصولي على هذه القلعة الفاخرة حدثًا جللًا. ما إن أغلقت بابي الخارجي، حتى شعرت أنني مثل شخصية روبنسون كروزو، بعدما وصل إلى حصنه، وسحب خلفه سلمه. كم كان رائعًا أن أتجول في المدينة وقد حوى جيبي مفتاحًا منزليًّا، وقد صار في مقدوري أن أطلب من أي زميل أن يأتي إلى منزلي، وقد تأكدت تمامًا من أنه يحوي ما يحتاجه أي إنسان، وإن لم أدعُ أحدًا فإنه يلائمني. يا له من أمر رائع أن تتاح لي فرصة الدخول والخروج من المنزل في أي وقت، وأن أروح وأغدو من دون أن أستأذن أحدًا، وأن أنادي السيدة كروب، فتأتيني لاهثة الأنفاس تعدو من أعماق الأرض، حين أحتاج إليها أو حين تكون مستعدة للمجيء إليَّ لخدمتي. يمكنني أن أقول إن كل هذه الأمور كانت ممتعة ورائعة للغاية، إلا أنها كانت كئيبة أيضًا في بعض الأحيان.

بدا الطقس رائعًا في الصباح، لا سيما في أوله. ولاحت لي الحياة منعشة، فأصير حرًّا مع بزوغ ضوء النهار، وتبدو الحالة أعذب وأكثر حرية مع ضوء الشمس. إلا أنه مع تراجع ضوء النهار، إذا بالحياة تبدو كما لو أنها تنهار كذلك. لا أعرف كيف يتحول المشهد تمامًا، فقلما كان يبدو على حال أفضل على ضوء الشموع. كنت أرغب أحيانًا في أن أتحدث إلى أي إنسان. لقد افتقدت أجنيس، وشعرت بفراغ وهوة هائلين لافتقادي لهذا الوجه المبتسم، مستودع ثقتي وأسراري. بدا لي أن السيدة كروب بعيدة كل البعد عني. وقد رحت أفكر في الساكن الذي سبقني الذي مات بسبب الشراب والدخان. وكنت أتمنى لو أنه يحيا بيننا، فلا يزعجني بالتفكير في ملابسات وفاته.

لم يمر سوى يومين، حتى شعرت كما لو أنني عشت هنا عامًا كاملًا، من دون أن يتقدم عمري ولو ساعة واحدة، بل راودني عذاب متواتر، طالما كنت أستشعر فيه صغر سني أكثر من أي وقت مضى.

لم يظهر ستيرفورث بعد. دفعني غيابه إلى الظن أنه قد يكون مريضًا، لذا فقد غادرت مجلس العموم في وقت مبكر من يومي الثالث، وتوجهت إلى هاجيت. كانت السيدة ستيرفورث سعيدة برؤيتي، وقالت إنه سافر مع أحد أصدقائه في أكسفورد لزيارة صديق آخر يعيش بالقرب من سانت ألبانز، لكنها توقعت عودته غدًا. كنت مغرمًا به لدرجة أنني شعرت بغيرة قاتلة من أصدقائه في أكسفورد.

ألحت عليَّ للبقاء حتى تناول العشاء، فاستجبت لطلبها، وأحسب أننا لم نخض في التحدث عن شيء غير ستيرفورث طوال اليوم.

أخبرتها كم أَحبه الناس في يارموث، وأنه رفيق عذب مبهج. أما الآنسة دارتل فقد زادت من تلميحاتها وأسئلتها الغامضة، لكنها أبدت اهتمامًا كبيرًا بالإنصات إلى كل ما قمنا به في يارموث، وقالت: «هل وقع ذلك حقًّا؟»، وما إلى هذا من مثل هذه الأسئلة. كانت في كثير من الأحيان تستفسر عن تفاصيل كل شيء تريد معرفته مني. كان مظهرها يبدو كما وصفته بالضبط، عندما رأيتها أول مرة، إلا أن صحبة السيدتين كانت أمرًا غاية في الإمتاع، وقد أحسست نوعًا من الألفة بينهما، حتى إنني شعرت أنني على وشك الوقوع في حب هذه الرفقة إلى حد ما. لم أستطع منع نفسي من التفكير فيها عدة مرات في المساء، وخاصة عندما أعود إلى المنزل ليلًا، فأتخيلها رفقة مبهجة سترافق سيري في شارع باكنجهام.

كنت أحتسي قهوتي وأتناول رغيفي في الصباح، قبل الذهاب إلى مجلس العموم - ويجدر بي أن أعقب هنا فأقول إنني اندهشت أيما دهشة من كمية البن الذي استخدمته السيدة كروب في إعداد قهوتي، مع الأخذ في الاعتبار مدى رداءتها - وهنا أقبل ستيرفورث عليَّ، فإذا بفرحة تلفني بلا حدود.

صرخت قائلًا: «عزيزي ستيرفورث، كنت أظن أنني لن أراك مرة أخرى».

قال ستيرفورث: «لقد أجبرت على النقل بقوة السلاح، في صباح اليوم التالي بعد عودتي إلى المنزل. آه يا أقحوانتي، يا لك من أعزب فريد بديع يقيم هنا!».

رحت أجول به فأعرض عليه الغرف، ولم أتجاهل المخزن في زهو، فأثنى عليه بشدة. وأضاف: «اسمع أيها الشاب، سأتخذ هذا المنزل ملاذًا لسكني في هذه البلاد، ما لم تعطني إشعارًا بالترحال».

كم سعدت لسماع هذه الكلمات منه. إلا أنني أخبرته أنه إذا انتظر مني هذا العرض، فإن عليه الانتظار إلى يوم القيامة.

أسندت يدي ممسكًا بحبل الجرس، وقلت له: «هلا تناولت الإفطار! ستعد لك السيدة كروب قدحًا من القهوة الطازجة، وسأسوِّي قطعة من لحم الخنزير المقدد في فرن يملكه هذا الشاب العازب هنا».

قال ستيرفورث: «لا، لا. لا تقرع الجرس، لا أستطيع، فأنا ذاهب لتناول الإفطار مع أحد هؤلاء الزملاء في فندق بيازا، في كوفنت جاردن».

سألته: «لكنك ستعود لتناول الغداء؟».

أجابني: «أقسم بروحي إنني لن أستطيع. لا شيء أفضل من أن أكون بصحبتك، ولكن عليَّ أن أبقى مع هذين الزميلين. إن ثلاثتنا في إجازة سنبدأها من صباح الغد».

قلت: «أحضرهما إذن إلى هنا لتناول العشاء. هل تظن أنهما سيأتيان؟».

قال ستيرفورث: «آهٍ، سيلبيان هذه الدعوة سريعًا. ولكننا سنضايقك بمجيئنا ومن الأفضل أن تأتي وتتناول الطعام معنا في مكان ما».

لم أكن لأوافق على هذا الاقتراح على أي حال، إذ خطر لي أن عليَّ أن أحصل على شيء من الدفء في المنزل، وأن فرصة مثل هذه لن تسنح لي قريبًا. كنت أستشعر زهوًا بعد ما أبداه ستيرفورث من قبول لمنزلي الجديد، وقد امتزج هذا الفخر برغبة في تطوير إمكاناته إلى أقصى حد ممكن. رجوته أن يقسم لي بأسماء اثنين من أصدقائه أن يأتي، ثم حددنا موعد زيارتهم في الساعة السادسة لتناول العشاء.

رحل ستيرفورث، فناديت السيدة كروب، وأطلعتها على خطتي الجريئة. قالت السيدة كروب إنه من المعروف أولًا قبل أي شيء أنني لا يمكن أن أتوقع خدمتها لنا بتقديم الطعام وما إلى ذلك، إلا أنها تعرف شابًّا نبيهًا، تحسب أنه بارع في القيام بمثل هذه الأمور، وأن أجره خمسة شلنات وما قد أجود به إليه. قلت لها إننا سنحظى به بالتأكيد. أضافت السيدة كروب قائلة إن الأمر الثاني هو أنه من الواضح أن هذا الشاب لن يستطيع أن يوجد في مكانين في وقت واحد - وهو ما شعرت أنه أمر منطقي - وأنه لا غنى عن الاستعانة بـ«شابة» تقف في المخزن مع شمعة غرفة النوم، فلا تكف أبدًا عن غسل الصحون المستخدمة. قلت وما أجر هذه الشابة؟ فقالت السيدة كروب إنها تفترض أنها تتقاضى ثمانية عشر بنسًا، وأنه مبلغ ضئيل لن يعجزني أو يحطمني. قلت إنني أحسب هذا أمرًا معقولًا، وسوينا المسألة. ثم قالت السيدة كروب، أما الآن فلنتفق على أطعمة هذا العشاء.

لم يكن مطبخ السيدة كروب سوى مثال رائع على ضآلة عقل الحداد الذي صنع لها الموقد، إذ إنه لا يصلح لطهي أي شيء سوى

قطع اللحم والبطاطس المهروسة. قالت السيدة كروب: «إنه لا يصلح لطهو السمك، حسنًا، هلا جئت لإلقاء نظرة على هذا المطبخ؟». ولم تستطع أن تقول شيئًا يمكنه أن يشرح الوضع بصورة أكثر إنصافًا من أن تدعوني لرؤيته. إلا أنني لم أجد فائدة من النظر إليه، فلن أكون أكثر خبرة منها، لذلك رفضت وقلت: «لا داعي لطهو السمك». إلا أن السيدة كروب قالت: «لا تقل ذلك، لماذا لا نقدم لهم المحار بدلًا من السمك؟». وافقتها على ذلك. ثم قالت السيدة كروب إنها تقترح أن أقدم زوجًا من الدجاج المشوي الساخن، أستطيع شراءهما من طهاة السوق، وطبقًا من اللحم البقري المطهو مع الخضر المتوفرة عند طهاة السوق أيضًا، مع طبقين جانبيين صغيرين، واقترحت أن يكونا من الفطائر الرقيقة، أو طبقًا من الكلى المطهوة مع المعجنات، كما أوصت بتقديم «تورتة» أشتريها من متاجر المعجنات، وإذا أحببت زيادة شيء فمن الأفضل تقديم حلوى «الجيلي» من متاجر المعجنات أيضًا. قالت السيدة كروب إن هذا التدبير سيجعلها بكامل حريتها للتركيز في أمر إعداد البطاطس، وتقديم الجبن والكرفس بالشكل اللائق الذي ترتضيه.

عملتُ بنصيحة السيدة كروب، فذهبت إلى السوق بنفسي لطلب هذه الأصناف من متجر المعجنات. رحت أتمشى بعدها في شارع ستراند، فإذا بي أبصر شيئًا صلبًا مرقطًا معلقًا خلف واجهة زجاجية لمتجر لحوم الخنازير والأبقار، وقد كانت أشبه ما يكون بالرخام، إلا

أنها تسمى «السلحفاة الوهمية»[1]، دخلت إلى المتجر فاشتريت قطعة منه. وقد رأته السيدة كروب فعلقت قائلة إنها تظن أنه يكفي لإطعام خمسة عشر شخصًا. وافقت السيدة على طهوه، بعدما واجهت بعض الصعوبة، فإذا به يتقلص وينكمش حتى صار أشبه بالحالة السائلة، إلى الحد الذي وجدناه فيه بحسب وصف ستيرفورث «إن هذا الحساء يكفي بصعوبة لإطعام أربعة أشخاص».

أتممت هذه الاستعدادات في سعادة، كما اشتريت بعض الحلوى من سوق كوفنت جاردن، كما طلبت من أحد متاجر بيع النبيذ بالتجزئة في المنطقة المجاورة، أن يرسل لنا عددًا كبيرًا من الزجاجات. عدت إلى المنزل بعد الظهر، فوجدت الزجاجات مرصوصة في مربع على أرضية المخزن، وقد بدت لناظري كثيرة للغاية - على الرغم من نقص زجاجتين - الأمر الذي جعل السيدة كروب مستاءة للغاية، حتى إنني كنت في شدة الخوف مما أبدته من انزعاج.

كان أحد أصدقاء ستيرفورث يدعى جرينجر، والآخر ماركهام، وكانا مرحين وحيويين. كان جرينجر أكبر سنًّا من ستيرفورث، أما ماركهام فشاب، لا يزيد عمره في نظري على عشرين عامًا. لاحظت أن هذا الأخير يتحدث دائمًا عن نفسه إلى أجل غير مسمى، باعتباره «رجلًا ما»، ونادرًا ما تحدث بصيغة المتكلم أو ربما لم يتحدث بها قَطُّ.

---

(١) رأس العجول المقطعة التي يصنع منها حساء بني اللون، يطلق عليه اسم حساء السلحفاة الوهمية، لأنه أشبه بحساء السلحفاة في مذاقه.

قال ماركهام: «قد يكون الرجل على ما يرام هنا يا سيد كوبرفيلد»، وكان يعني نفسه.

قلت: «إنها حال لا بأس بها، والغرف جيدة حقًّا».

قال ستيرفورث: «أتمنى أن تكونا قد جئتما مقبلين بشهية إلى الطعام».

أجاب ماركهام: «أقسم بشرفي، إنه يبدو أن المدينة تزيد من شهية الرجل. وإن الرجل ليتضور جوعًا طوال اليوم. فلا يكف الرجل عن الأكل على الدوام».

راودني في البداية شعور ضئيل بالإحراج، وأحسست أنني أصغر من أن أترأس المائدة، فطلبت من ستيرفورث أن يتخذ مكانه على رأس المائدة حين أعلن موعد العشاء، بينما جلست مقابلًا له. بدا كل شيء على أفضل حال، وكنا قد أقبلنا على احتساء الخمر من دون هوادة. أما ستيرفورث فقد بذل جهدًا بارعًا لإدارة الأمور، حتى إننا واصلنا الاحتفال في صخب من دون انقطاع. إلا أنني لم أشعر بطيب الصحبة في أثناء العشاء، ولم أكن كما كنت أرجو أن أكون، حيث كان مقعدي مقابلًا للباب، وظل انتباهي مشتتًا بملاحظة الشاب الذي استأجرته وقد راح يتنقل بين أرجاء الغرفة كثيرًا، ومكثت أتابع خياله المنعكس على الجدار، الذي راح يسبقه دومًا حين خروجه وعودته إلى الغرفة، رافعًا زجاجة من الشراب إلى فمه. أما الفتاة، فقد جلبت لي نوعًا من الإزعاج أيضًا، ليس بسبب إهمال غسل الأطباق، بل لأنها راحت تكسر واحدًا تلو الآخر. كانت فتاة فضولية، وغير قادرة على تركيز انتباهها في حجرة المؤن فقط، وقد نبهتها إلى هذا الأمر، إلا أنها راحت تنظر إلينا باستمرار، ثم يخيل

إليها أن أمرها قد كُشِف، فترتبك وتتعثر عدة مرات في الأطباق (التي رصفت بها الأرضية بعناية)، ومن ثَم تسببت في قدر كبير من التدمير.

لم تكن كل هذه الأمور سوى عيوب صغيرة، ويمكن نسيانها بسهولة بعد أن تُرفع المائدة، وتُقدَّم الحلوى فوق الطاولة، ومن ثَم تبدأ فترة التسلية والمرح. وقد اكتشفت أن الشاب كان عاجزًا عن الكلام، فأمرته هامسًا باصطحاب الفتاة، والانتظار عند السيدة كروب بالطابق السفلي، ثم تركت نفسي للتمتع بالحفل.

بدأت الاستمتاع مبتهجًا مشرقًا مرحًا وطليق الفؤاد، وقد عادت إلى ذاكرتي مختلف الأحداث التي كدت أن أنساها، بل دفعتني إلى الحديث عنها بعد أن تواترت إليَّ، وشرعت أستطرد في قص تفاصيلها. رحت أضحك في حرارة على نكاتي، وكذلك على نكات الآخرين، ثم نبهت ستيرفورث إلى إغفاله لتمرير النبيذ بيننا. رحت أرتب بعض الارتباطات للذهاب إلى أكسفورد، كما أعلنت أنني أنتوي إقامة حفل عشاء مثل هذا تمامًا مرة في الأسبوع حتى إشعار آخر، ثم أخذت الكثير من السعوط من صندوق جرينجر بنوع من الجنون، حتى إنني اضطررت إلى الذهاب إلى المخزن، لإطلاق نوبة عطس فريدة دامت لمدة عشر دقائق.

واصلت الاحتفال بينما أمرر النبيذ بشكل أسرع، مرة تلو الأخرى من دون توقف، حاملًا في يدي مفتاحًا لفتح المزيد من زجاجات النبيذ قبل أن نحتاج إليها بوقت طويل. اقترحت أن نشرب نخبًا في صحة ستيرفورث. قلت إنه أعز أصدقائي، وحامي طفولتي، ورفيق دربي،

وقلت إنني مسرور لاقتراح هذا النخب. قلت إنني مدين له بالكثير بما يفوق قدرتي على سداد هذا الدين في يوم من الأيام، وإن إعجابي به يتزايد أكثر من أي وقت مضى، ثم قلت مختتمًا حديثي: «أقدم لكم ستيرفورث، حفظه الله، يا هلا». شربنا نخبه ثلاث مرات ثم شربنا مرة أخرى، ثم أخرى، إلى أن فاض بنا كيل الاحتمال. كسرت كأسي بينما أستدير لأصافحه، وقلت له - واصلًا الكلام كما لو أنهما كلمتان:

«ستيرفورث... إنك نجم هدايتي في هذا الوجود».

تنبهت، فإذا بي أنصت إلى أحدهم وقد بدأ الغناء فجأة. كان ماركهام هو المغني، وقد غنى قائلًا: «حينها يغدو فؤاد المرء مكتئبًا من الهموم»[1]. ما إن انتهى من الغناء حتى اقترح أن نشرب نخبًا في صحة «امرأة». اعترضت على اقتراحه، ولم أستطع السماح بذلك. قلت إنها ليست طريقة محترمة في شرب النخب، ولن أسمح أبدًا بأن يشرب هذا النخب في منزلي، وإنه لا مانع عندي في شرب نخب أي شيء باستثناء «السيدات». وأحسب أنني كنت مبالغًا، لأنني رأيت ستيرفورث وجرينجر يضحكان مني - أو منه - أو من كلينا. قال إن الرجل لا يحب أن يُملى عليه. قلت بل يملى على الرجل، فقال إذن فلا تجوز إهانة الرجل إذن. قلت إنه محق في قوله هذا، إلا أنني لا أسمح بمثل هذا الفعل تحت سقف بيتي أبدًا، حيث إنني أحفظ قدسية البيوت،

---

(١) مقطع من المشهد الأول من أوبرا المتسول، وهي مسرحية من ثلاثة أعمال كتبها جون جاي عام ١٧٢٨م، مع موسيقى يوهان كريستوف بيبوش. تعد مثالًا حيًّا لأوبرا القصص الساخرة التي لا تزال تحظى بشعبية حتى اليوم.

ولم تزل قوانين الضيافة هي الأهم. قال إنه لا ينتقص من كرامة الرجل أن يعترف بأنني رفيق صالح وجهنمي، فاقترحت على الفور أن نشرب نخبًا في صحته.

راح أحدهم يدخن، فإذا بنا جميعًا نشاركه التدخين أيضًا. كنت أدخن بينما أحاول كبت رغبتي الملحة في الارتعاش. كان ستيرفورث قد ألقى كلمة عني، فتأثرت إلى حد بالغ ففاضت من عيني الدموع. شكرته، متمنيًا أن تأتي هذه الصحبة إليَّ غدًا لتناول العشاء، وأن نكرر الأمر بعد الغد، بل في كل يوم في تمام الساعة الخامسة، حتى نتمتع بلذة صحبتنا وبهذا الحديث الممتع في أمسيات طوال. ثم أحسست أنه قد حان دوري لاقتراح اسم نشرب نخبه، فاقترحت عمتي. إنها الآنسة بيتسي تروتوود، أفضل بنات جنسها!

خُيّل إليَّ أن أحدًا ينحني مطلًّا من نافذة غرفة نومي، كما لو أنه ينعش جبهته ببرودة الحجر الحاجز لها، ويتحسس لفحة الهواء على وجهه. كان هذا الشخص هو أنا. لقد لبثت أخاطب نفسي باسم «كوبرفيلد»، وأقول: «لماذا حاولت التدخين؟ إنك تدرك أنه لا ينبغي لك التدخين». أما بعده بلحظات، فقد راح هذا الشخص يتأمل ملامحه المنعكسة على صفحة الزجاج، وكان هذا الشخص هو أنا أيضًا. بدوت شاحبًا جدًّا على السطح الزجاجي، وقد لاح تجويف عيني شاغرًا. أما شعري – شعري فقط، لا شيء سواه – فبدا في حالة نكراء من السكر.

قال لي أحدهم: «دعنا نذهب إلى المسرح يا كوبرفيلد». لم أرَ أمامي غرفة النوم، بل لاحت لي طاولة مرة أخرى مكدسة بالزجاجات، وقد

خُيِّل إليَّ أنها تجلجل مهتزة، ولاح لناظري المصباح، وجرينجر عند يدي اليمنى، وماركهام على يساري، وستيرفورث في الجهة المقابلة لي. إنهم جالسون جميعًا في ضباب، بعيدًا عني. أهو المسرح؟ بلا شك. نِعم الرأي. هيا بنا! لكن يجب أن يسمحوا لي أن أراهم جميعًا يتقدمونني إلى الخارج أولًا، ومن ثَم أطفئ المصباح خوفًا من نشوب حريق.

صرت مرتبكًا في الظلام، وإذا بالباب ينغلق إثر ارتباكي، فرحت أتحسسه عند ستائر النافذة فضحك ستيرفورث، وجذبني من ذراعي ثم أخرجني. هبطنا جميعًا واحدًا تلو الآخر، إلا أن واحدًا منا كان قد سقط بالقرب من بئر السلم ثم تدحرج إلى الأسفل. قال شخص آخر إن من وقع هو كوبرفيلد. كنت غاضبًا من هذا الإعلان الكاذب، حتى أدركت أنني مستلقٍ على ظهري عند الردهة، وبدأت أفكر في أنه قد يكون هذا الإعلان مبنيًّا على أسس صحيحة.

كم كانت ليلة ضبابية للغاية، وقد تحلقت الغيوم حول المصابيح في الشوارع! تناهى إلى أذني حديث غير واضح، يقول إن السماء تمطر، إلا أنني لم أستشعر سوى البرودة القارصة. نفض ستيرفورث الغبار عني تحت عمود إنارة، وعدَّل هيئة قبعتي فوق رأسي، التي وضعها شخص ما في مكان ما بطريقة غير مألوفة، لأنني لم أكن مرتديًا لها من قبل. ثم قال ستيرفورث: «إنك بخير يا كوبرفيلد، أليس كذلك؟». فقلت له: «لم أكن بحال أفضل من قبل».

رأيت رجلًا جالسًا في مكان أشبه ببرج الحمام، وقد أطل عليَّ من الضباب، ثم أخذ المال من شخص ما، واستفسر عما إذا كنت ضمن

السادة الذين دفعوا أجرهم أم لا. كان يبدو متشككًا في أمري إلى حد ما - كما أتذكر من اللمحة التي رمقني بها - سائلًا ما إذا كان سيأخذ مني المال أم لا. كنا بعد ذلك بقليل جالسين في مكان مرتفع في مسرح شديد الحرارة، بينما ننظر إلى الأسفل نحو حفرة كبيرة، بدا لي وكأننا ندخن فتتناثر الأدخنة على الناس الذين حُشروا فيها حتى صاروا غير واضحي المعالم. انتقلت إلى مرحلة رائعة في مسرح آخر يبدو نظيفًا جدًّا مقارنة بحالة الشوارع، وقد لاح أناس يتحدثون عن شيء أو آخر، ولكنهم يتكلمون بطريقة غير واضحة على الإطلاق. لمعت الأضواء الساطعة في وفرة، وانسابت الموسيقى، وظهرت بعض السيدات في المقصورات، ولا أعرف أكثر مما قلت. بدا لي المبنى بأكمله راقصًا كما لو أنه يتعلم السباحة. حاولت أن أُثبِّت هذا الانسياب بطريقة ما لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الترنح.

اقترح شخص ما شيئًا، فامتثلنا وإذا بنا نقرر النزول إلى الطابق السفلي حيث مقصورات السيدات. لاح أمام عيني رجل نبيل، مرتديًا ملابس رسمية كاملة، يجلس على أريكة، وفي يده عدسات الأوبرا المكبرة، وقد أبصرت أمامي كامل جسدي مترنحًا منعكسًا في المرآة. دخلت بعد ذلك إلى إحدى هذه المقصورات، وإذا بي أقول شيئًا ما وأنا أجلس، فيصيح الناس من حولي قائلين: «صه»، لشخص ما، أما السيدات فرحن يلقين نظرات ساخطة عليَّ، وماذا؟! نعم! أبصرت أجنيس جالسة على مقعد أمامي، في المقصورة نفسها، بجانب سيدة ورجل نبيل لا أعرفه. أرى وجهها الآن، أفضل من ذي

قبل. أجرؤ على القول إن نظراتها التي لا تمحى لم تخلُ من الأسف والدهشة والتساؤل.

قلت بصوت غليظ: «أجنيس، يا للعجب! أجنيس».

أجابت، ولم أستطع أن أتخيل السبب: «صه، اسكت، إنك تزعج الحاضرين. فلتنظر إلى المسرح».

حاولت، بناءً على أمرها، أن أصلح الأمر وأن أسمع شيئًا مما يدور هناك، لكن من دون جدوى. نظرت إليها مرة بعد أخرى، فرأيتها تتقلص في ركنها، وقد رفعت يدها الملتحفة بالقفاز إلى جبهتها.

قلت: «أجنيس، إنني أخشى ألا تكوني بخير».

قالت: «نعم. نعم. لا تنشغل بي يا تروتوود. أنصت إليَّ، هل ستغادر قريبًا؟».

كررت سؤالها: «هل أغادر قريبًا؟».

قالت: «نعم».

أضمرت نية تبدو غبية للرد عليها بأن أقول إنني سأنتظر، حتى ننزل إلى الطابق السفلي، وأفترض أنني عبَّرت عن نيتي هذه بطريقة ما، لأنها بعد أن نظرت ناحيتي باهتمام لبرهة، بدت كما لو أنها تفهم مقصدي، وقد أجابتني بنبرة منخفضة قائلة:

«أعلم أنك ستفعل ما أطلبه منك، إذا قلت لك إنني جادة فيه. انصرف الآن يا تروتوود، رجاء من أجلي، واطلب من أصدقائك أن يصطحبوك إلى المنزل».

استعدت وعيي في هذه اللحظة بعض الشيء، وشعرت بالخجل على الرغم من أنني كنت غاضبًا منها، وببرد قصير قلت: «سعد» - كنت أنوي قول «ليلة سعيدة» - ثم نهضت ورحلت. تبعني أصدقائي وخرجت على الفور من باب المقصورة متجهًا إلى غرفة نومي، حيث اصطحبت ستيرفورث، الذي ساعدني على خلع ملابسي، بينما أخبره في تذبذب أن أجنيس أختي، وأطلب منه أن يحضر الفتاحة، حتى أفتح زجاجة نبيذ أخرى.

كيف راح هذا الشخص المستلقي على سريري، يتحدث بكل هذا، ويقوم بكل هذه الأفعال في دفعات متقطعة، كما لو أنه في حلم محموم يسري طوال الليل، وقد لاح السرير بحرًا هائجًا لم تسكن ثورته؟! وكيف استقر هذا الشخص ببطء حتى عاد إليَّ؟! بدأت أشعر بالعطش، ثم أحسست أن بشرتي الخارجية أشبه ما تكون بألواح صلبة، وقد صار لساني أسفل غلاية مجوفة، وقد راح يحترق على نار بطيئة بعد طول اتقاد، أما راحتا يدي، فصارتا مثل صفائح معدنية ساخنة لا يُبرد توهجها الجليد.

يا لعذاب خاطري وندمي وعاري الذي لفني بعدما أفقت في صباح اليوم التالي! ويا لارتعابي من أن أكون قد ارتكبت ألف جريمة ثم نسيتها، من دون أن أستطيع أن أكفر عن أي منها! تذكرت تلك النظرة التي لا تمحى التي رمقتني بها أجنيس، ويا لعذابي حين أدركت أنني لن أستطيع التواصل معها، بعد جهلي -حين صرت وحشًا همجيًا- كيف أتت إلى لندن، أو أين تقيم؟ تملكني اشمئزازي من مشهد الغرفة

التي أقيم فيها الاحتفال، مع رأسي المتصدع ورائحة الدخان التي تلف المكان، ومشهد الزجاجات، وقد استحال نهوضي بل استحالت إفاقتي! آهٍ، يا له من يوم!

آهٍ، يا لها من أمسية بائسة! جلست أستدفئ إلى ناري مع صحن من مرق لحم الضأن، كان مغمورًا بالدهن، وقد ظننت أنني أسير في درب المستأجر السابق، وأنني سأتبع خطى قصته الكئيبة كما تبعته إلى غرفه. كدت أتسرع فأهرع إلى دوفر لأحكي ما وقع لي وأكشف عما أضمره. يا لها من أمسية بائسة! وقد حضرت السيدة كروب لأخذ صحن المرق، ثم أخرجت قالبًا من الجبن على طبق قائلة إنه كل ما تبقى من احتفال الأمس. وكنت أميل حقًّا إلى السقوط على صدرها اللين، فأقول بندم صادق: «آهٍ، يا سيدة كروب، لا تشغلي بالك يا سيدة كروب باللحوم الباقية! كم أنا بائس للغاية!»، إلا أنني ظننت -على الرغم من المحنة التي أمر بها- أن السيدة كروب ليست من النوع الذي أثق فيه.



# الفصل الخامس والعشرون

## ملائكة وشياطين

خرجت من باب المنزل في الصباح بعد يوم مشين، لفني فيه الصداع والمرض والندم. صرت مرتبكًا مشوش الذهن، ولم أعد متيقنًا متى أقمتُ حفل العشاء هذا، كما لو أن بعض الجبابرة قد اتخذوا رافعة هائلة ودفعوا بهذا اليوم الفائت خلف بضعة أشهر سالفة. أدركت ساعي البريد قادمًا إلى الطابق العلوي وقد حمل في يده رسالة لي. بدا أنه لا يعبأ بوقته وقد صعد متأنيًا في مهمته، إلا أنه ما إن لاحظ وجودي على قمة الدرج، حتى رفع عينيه نحو الأعلى وأخذ يتأرجح مهرولًا، ثم صعد يلهث كما لو أنه شق على نفسه وقد أعياه الإرهاق.

قال ساعي البريد وهو يلامس قبعته بعصاه الصغيرة: «حضرة السيد ت. كوبرفيلد؟».

أكدت له اسمي على مضض، حيث كنت منزعجًا جدًّا من فكرة أن الرسالة قد تكون من أجنيس، ومع ذلك فقد أخبرته أنني حضرة ت.

كوبرفيلد، وقد صدق ذلك، وأعطاني الرسالة التي قال إنها تتطلب مني إجابة. أبقيت الساعي على درجات السلم في انتظار الرد، ثم عدت إلى غرفتي مرة أخرى، وأنا في مثل هذه الحالة العصبية التي جعلتني واهنًا غير قادر على بسط الرسالة فوق مائدة الطعام، حتى قرأت عنوانها الخارجي، من دون أن أقوى على فتح غلافها.

فتحتها، فوجدتها تحوي ملاحظة لطيفة للغاية، من دون أن تتضمن أي إشارة إلى حالتي في المسرح. كان كل ما قيل هو: «يا عزيزي تروتوود. أقيم في منزل وكيل أبي، إنه السيد ووتربروك، القابع في شارع هولبورن. هل ستأتي لزيارتي اليوم، أو في أي وقت تريد تعيينه؟ صديقتك القديمة المخلصة أجنيس».

استغرقت وقتًا طويلًا حتى أستطيع كتابة رد يرضيني تمامًا، ولا أعرف ماذا دار في خلد ساعي البريد حول هذا التأخير، ربما ظن أنني لا أزال أتعلم الكتابة. أظن أنني كتبت ما يقرب من ست رسائل على الأقل. بدأت أولها قائلًا: «كم أتمنى يا عزيزتي أجنيس، أن أمحو الانطباع السيئ من ذاكرتك...». لم يعجبني هذا الرد، ومن ثَم مزقته. بدأت الكتابة مرة أخرى قائلًا: «لقد قال شكسبير، يا عزيزتي أجنيس، كم أعجب من رجل يضع عدوه في فمه». إلا أنني تذكرت ماركهام، فلم أستطع الاسترسال في هذا الخطاب. ثم إنني جربت أن أكتب شعرًا، وشرعت في تدوين قصيدة واحدة من ستة مقاطع، فكتبت: «آهٍ، لا تَذكُري...»،

إلا أن البيت ذكرني بأحداث الخامس من نوفمبر[1]، وصار من العبث مواصلة أشعاري. كتبت بعد عدة محاولات ما نصه: «عزيزتي أجنيس، إن رسالتكِ تشبهكِ، فما الثناء الذي يمكنني أن أمدحكِ به أكبر من هذا الوصف؟ سآتي في الساعة الرابعة محملًا بمودة وحزن. صديقك ت. ك» وبهذه الرسالة - التي فكرت في استرجاعها مرات بعد أن خرجت من يدي - غادر ساعي البريد أخيرًا.

لو أن رجلًا من رجال مجلس المحامين كان قد مر بمثل هذا اليوم الذي يحمل هذا الزخم، لظننت أنه قدم ما يكفي ليكفر عن نصيبه من ذلك الجبن القديم المتعفن. تركت المكتب في الساعة الثالثة والنصف، ورحت أتجول حول المكان المعهود لبضع دقائق بعد انصرافي، ثم انقضى ما يقرب من ربع ساعة، متجاوزًا الوقت المحدد للقاء، وفقًا لساعة كنيسة سانت أندرو. يمكنني القول إنني صرت مترددًا قبل أن أستجمع قواي لسحب مقبض الجرس المثبت إلى عمود الباب الأيسر لمنزل السيد ووتربروك.

كان الطابق الأرضي مخصصًا لتنفيذ الأعمال المهنية للسيد ووتربروك، أما الطابق العلوي، فكان لممارساته الخاصة (توافرت لديه أعمال لا بأس بها). دخلت إلى غرفة استقبال جميلة ولكنها ضيقة إلى حد ما، جلست أجنيس فيها وهي تحمل بين يديها محفظة.

---

(١) الخامس من نوفمبر عام ١٦٠٥ ذكرى «مؤامرة البارود» التي قبض فيها على جاي فوكس، بعد محاولته الفاشلة في القضاء على الملك وحاشيته عن طريق كمية هائلة من البارود، وضعها مع زملائه تحت مبنى البرلمان. قُبض على جاي فوكس وحُكم عليه بالموت، وصار يوم الخامس من نوفمبر احتفالًا رسميًا في البلاد.

بدت هادئة وفي أحسن حال، حتى أنعشت ذاكرتي بأيام مدرستي السعيدة الحرة في كانتربري، وكذلك تذكرت هذا البائس الغبي المعبأ بالدخان الذي كنته في الليلة الماضية، حتى إنني استسلمت لتوبيخ نفسي وتحمل عار الخزي كما لم أفعل من قبل، وباختصار، كنت قد جعلت من نفسي أضحوكة. لا أستطيع أن أنكر أنني ذرفت الدموع، بل لم أقرر حتى هذه الساعة ما إذا كان الأمر برمته كان الأكثر حكمة أم الأكثر سخافة من بين أفعالي.

قلت بينما أدرت رأسي بعيدًا خجلًا: «لو كان أحد غيرك يا أجنيس، لما فكرت أو عبأت بالأمر كثيرًا. لكن أن تكوني أنتِ من رآني! كم كنت أتمنى لو أنني مت قبل هذا!».

مدت يدها - لم تكن لمستها مثل لمسة أي يد أخرى - وألقتها على ذراعي للحظة. وشعرت بمودة وطمأنينة، حتى إنني لم أستطع منع نفسي من أن أبسط شفتي فأُقبِّل يدها امتنانًا وعرفانًا.

قالت أجنيس في مرح: «اجلس. لا تحزن يا تروتوود. إذا كنت لا تستطيع الوثوق بي تمام الثقة، فبمن تثق؟».

قلت: «آه يا أجنيس! إنكِ ملاكي الطيب».

اعتقدت أنها ابتسمت في حزن شديد، ثم أومأت برأسها.

«نعم يا أجنيس، إنكِ ملاكي الطيب. إنكِ دائمًا ملاكي الطيب».

قالت: «لو أنني كنت هذا الملاك بالفعل تروتوود، فإن شيئًا واحدًا يجب أن أعلق قلبي به وأرعاه».

نظرت إليها متسائلًا. إلا أنني كنت أعرف سابقًا ما ترمي إليه.

قالت أجنيس في نظرة ثابتة: «عليَّ أن أحذرك من شيطان السوء».

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، أتقصدين ستيرفورث؟».

أجابتني: «أقصده يا تروتوود».

قلت: «إنكِ يا أجنيس تظلمينه ظلمًا بينًا. إنه ليس بشيطان يضلني، أو يضل أي شخص آخر. إنه مرشد، وداعم وفي، وصديق لي. عزيزتي أجنيس، أما الآن، أليس هذا ظلمًا - وإنه على عكس طبعكِ - أن تحكمي عليه بناء على ما بدر مني تلك الليلة؟».

ردت في هدوء قائلة: «إنني لا أحكم عليه بناء على ما رأيته منك الليلة الماضية».

«كيف تحكمين إذن؟».

«من أشياء كثيرة - تفاهات في حد ذاتها، لكنها لا تبدو لي كذلك، بعدما أضمها معًا. أحكم عليه جزئيًّا مما ترويه عنه يا تروتوود، ومن طبيعة شخصيتك، ومن تأثيره عليك».

كان صوتها الرقيق ينطوي على شيء ما، فيلامس وترًا حساسًا بداخلي، ولا يستجيب إلا لهذا الصوت وحده. كانت نبرتها دائمًا جادة، وعندما يصير الأمر أكثر جدية، كما هي الحال الآن، فإذا بنبرتها الهادرة تزيد من رهبتي كما أخافتني تمامًا في هذه اللحظة. جلست أنظر إليها بينما تضع ما تقوم به من أعمال التطريز نصب عينيها، وقد مكثت أنصت إليها، وإذا بصورة ستيرفورث تظلم، على الرغم من كل التعلق به، وأنا تحت تأثير تلك النبرة الهادرة.

قالت أجنيس، وقد راحت تنظر إليَّ مجددًا: «إنها جرأة شديدة تنبعث من داخلي؛ أنا التي عشت في عزلة ولا أملك سوى قدر ضئيل من الخبرة بهذا العالم، أن أمنحك نصيحتي بكل ثقة، أو حتى أحوز هذا الرأي القوي القاطع. إلا أنني أعرف ما الذي يدفعني إلى هذا القول يا تروتوود، إنه الإخلاص إلى ذكرى نشأتنا معًا، واهتمامي الصادق بكل ما يتعلق بك؛ هذا ما يدفعني إلى هذه الجرأة. إنني واثقة من صحة قولي، لا يراودني أدنى شك فيها. أشعر كما لو أن شخصًا آخر يتحدث إليك، إنه ليس أنا، لكنني أحذرك من أنك قد اتخذت صديقًا خطيرًا».

نظرت إليها مرة أخرى، ورحت أنصت إليها، وحين عاودت الحديث بعد صمت، أخذت صورة ستيرفورث تظلم من جديد، على الرغم من أنها كانت لم تزل راسخة بين جوانحي.

استأنفت أجنيس حديثها بنبرتها المعتادة بعد فترة صمت قصيرة، وأخذت تقول: «إنني لست بلهاء حتى أتوقع أنك ستغير، أو يمكنك في الحال، أن تغير أي شعور ناحيته بعد أن صار راسخًا في داخلك، أو على الأقل تُبدِّل المشاعر المتجذرة النابعة من نياتك الطيبة السليمة. بل أطلب منك ألا تتسرع في الوثوق به. إنني لا أطلب منك يا تروتوود إلا أمرًا يسيرًا، إن كنت قد كننت لي يومًا أي معزة؛ أعني...». ابتسمت هنا ابتسامة هادئة، لأنني كنت على وشك مقاطعتها، وكانت تعرف سبب ذلك، فاستطردت تقول: «كلما خطرت على بالك - أرجو أن تفكر فيما قلته لك. فهلا تسامحني على كل ما قلته لك؟».

أجبتها: «سوف أسامحكِ يا أجنيس، عندما تمنحين ستيرفورث حقه، فتحبينه مثلما أحبه تمامًا».

قالت أجنيس: «ألن تسامحني حتى ذلك الحين؟».

لمحت طيفًا عابرًا يبدو على وجهها عندما أشرت إليه، لكنها ردت ابتسامتي لها بمثلها، وقد عدنا مرة أخرى متآلفين وقد استعاد كل منا ثقته في الآخر كما كنا في سابق عهدنا.

قلت: «ومتي ستسامحينني يا أجنيس على تلك الليلة السالفة؟».

قالت أجنيس: «عندما أتذكرها».

أنهينا الموضوع على هذا النحو، إلا أنني كنت مشغول الفؤاد إلى الحد الذي يمنعني من إنهائه، ومن ثَم أصررت على إخبارها كيف جلبت هذا الخزي لنفسي، وما وقع من سلسلة الأحداث العرضية لها حتى أدت الحلقة الأخيرة إلى قاعة المسرح. أحسست ارتياحًا لإقدامي على الحكي، كما توسعت في سرد ما أدين به لستيرفورث بعد رعايته لي حين لم يكن بمقدوري الاعتناء بنفسي.

تحدثت أجنيس بمجرد أن انتهيت من حديثي، بينما تحاول تغيير موضوع هذه المحادثة في هدوء، فقالت: «يجب ألا تنسى أنه عليك أن تحكي لي دومًا، ليس ما تقع فيه من المشكلات فقط، بل تخبرني حين تقع في الحب أيضًا. مَن جاءت بعد الآنسة لاركنزا يا تروتوود؟».

«لا أحد يا أجنيس».

قالت أجنيس بينما تضحك وترفع إصبعها ناحيتي: «فتاة يا تروتوود؟».

«لا، بشرفي يا أجنيس، إن في منزل السيدة ستيرفورث بلا شك سيدة ذكية للغاية، وإنني أرغب في التحدث معها -إنها الآنسة دارتل- لكنني لا أعشقها».

ضحكت أجنيس مرة أخرى مفتخرة بقدرتها على سبر أغواري، وأخبرتني أنني إذا كنت مخلصًا لها صادقًا فيما أحكي، فإنها تظن أنها يجب أن تحتفظ بسجل صغير لتدوين غرامياتي المتوهجة، مع تدوين التاريخ ومدة وانتهاء كل علاقة منها، مثل جدول عهود حكم الملوك والملكات في تاريخ إنجلترا. ثم سألتني إذا ما كنت قد رأيت يورايا.

قلت: «يورايا هيب؟ هل هو في لندن؟».

قالت أجنيس: «إنه يأتي إلى المكتب القابع في الطابق السفلي كل يوم. لقد كان في لندن قبلي بأسبوع. أخشى أنه جاء لإتمام عمل بغيض يا تروتوود».

قلت: «أيقوم بعمل مقلق بالنسبة لكِ يا أجنيس؟ تُرى ماذا يمكن أن يكون هذا العمل؟».

تركت أجنيس تطريزها جانبًا، وأجابت بعد أن وضعت إحدى يديها على الأخرى، وراحت تنظر إليَّ بعينيها الناعستين الفاتنتين قائلة:

«أظن أنه سيتشارك مع أبي».

صرخت في سخط أقول: «ماذا؟ يورايا؟ أتقصدين أن هذا الرفيق المزعج، قد تطلع إلى هذه المكانة! ألم تحتجي على ذلك يا أجنيس؟ ضعي في اعتبارِكِ العواقب المحتملة والناجمة عن هذه الشراكة. يجب أن يصير لكِ رأي في الأمر، فلا تسمحي لوالدكِ بالإقدام على مثل هذه الخطوة المتهورة. يجب أن تمنعيه يا أجنيس، ما دامت الفرصة لا تزال سانحة».

كانت أجنيس لم تزل تنظر إليّ، وقد أومأت برأسها حين واصلت حديثي، ثم أجابتني بابتسامة باهتة مجيبة على انفعالي، فقالت:

«هل تتذكر محادثتنا الأخيرة عن أبي؟ لم يمضِ وقت طويل بعد هذا الحديث - ليس أكثر من يومين أو ثلاثة أيام - حتى أنبأني بأول تلميحاته حول ما أخبرتك به. كان من المحزن أن أراه مشتتًا بين رغبته في التظاهر أمامي بأنه قد اختار هذا الأمر رغبة منه، وعدم قدرته على إخفاء ما فُرض عليه. كم شعرت بحزن وأسف عليه».

«مُجبر عليه يا أجنيس! من فرض الأمر عليه؟».

أجابت بعد لحظة من التردد، قائلة: «إنه يورايا. لقد وضع نفسه في مكانة لا غنى عنها عند أبي. إنه حاذق ويقظ. لقد أتقن السيطرة وأثقل معرفته بنقاط ضعف أبي ثم عزَّزها، واستغلها حتى - لنقل بكل ما أعنيه من كلمة يا تروتوود - جعل أبي يخاف منه».

كان من الجلي أن ثمة الكثير مما يفوق ما يمكنها قوله، وأنها تَكُن أكثر مما باح به خاطرها. لم أستطع أن أسألها تجنبًا لإثارة آلامها، لأنني

فهمت أنها حجبت عني بعض التفاصيل، حفاظًا على هيبة والدها. أدركت أن الأمور قد استمرت على هذا النحو منذ فترة طويلة، نعم، لم أستطع إلا أن أتيقن من شعوري، بأقل قدر من التأمل، إذ استمر هذا الأمر لفترة طويلة، ولذا فقد آثرت الصمت.

قالت أجنيس: «إن سيطرته على أبي هائلة جدًّا. إنه يعترف بالتواضع والامتنان – ربما يكون هذا حقيقيًّا، ربما... آمل ذلك – لكن منصبه صار قويًّا حقًّا، وأخشى أن يستخدم قوته في البطش».

قلت إنه كلب، وقد كان هذا الوصف مصدر ارتياح كبير لي في ذلك الحين.

تابعت أجنيس كلامها فقالت: «في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه، كان أبي يتحدث معي وإذا به يخبرني أن يورايا قال إنه يريد أن يتركه، وأنه آسف لتركه وغير راغب في المغادرة، لولا أنه سيحظى بفرصة أفضل. بات أبي مكتئبًا في ذلك الوقت، وقد رأيت أن هامته قد انحنت فصار هرمًا أضعف من أي وقت مضى، ثم بدا مرتاحًا لهذه الطريقة، ألا وهي الشراكة، على الرغم من أنه بدا في الوقت نفسه متألمًا بل خجلًا منها».

«وكيف تلقيتِ الأمر يا أجنيس؟».

أجابت: «لقد فعلت يا تروتوود ما أرجو أن يكون صحيحًا. كنت متأكدة من أنه من الضروري أن تحدث هذه التضحية ضمانًا لسلامة الأب، ومن ثَم ناشدته أن يشاركه. قلت إن المشاركة ستخفف عن أبي عبء حياته – وإني لأرجو أن يحدث ذلك! – وإنه سيمنحني فرصًا أوفر

لأكون برفقته». راحت أجنيس تبكي، وهي تضع يديها أمام وجهها، بعدما بدأت دموعها في الانهمار، وقالت: «آهٍ يا تروتوود! أشعر كما لو أنني أكن لأبي عداوة، بدلًا من أن أكون طفلته المحبة. إنني أدرك كيف أنه أفنى نفسه إخلاصًا لي. أعرف كيف ضيق دائرة عواطفه وواجباته ليركز كل انتباهه إلى حالي. أعرف كم من أمور عدة أغلق أبوابها من أجلي، وكيف أن انشغاله القلق والدائم بمستقبلي قد طغى على حياته بأسرها، فأضعف من قوته وحدَّ من طاقته، بعد أن أفناهما من أجلي وحدي. آه لو أن بإمكاني رد هذا الجميل! آه لو أن بإمكاني العمل على استعادة ما فقد! لقد كنت سببًا في تدهوره، أنا البريئة الساذجة».

لم أكن قد رأيت أجنيس تبكي من قبل. لاحظت الدموع في عينيها عندما جئت إليها في المنزل معلنًا حصولي على درجات عالية ومشرفة في المدرسة، ثم رأيتها في آخر مرة تحدثنا فيها عن والدها، كما رأيتها تدير رأسها اللطيف جانبًا عندما نفترق، لكني لم أرَها حزينة تبكي بمثل هذا الأسى من قبل. لقد شعرت بأسف شديد، حتى إنني لم أستطع إلا أن أقول كلمات حمقاء وعاجزة: «لا تبكي يا أجنيس، لا تبكي، لا يا أختي العزيزة».

أما أجنيس فكانت متفوقة عليَّ من حيث الشخصية والإرادة، كما بت أعرفها جيدًا الآن، باستثناء كل ما عرفته أو لم أعرفه عنها في ذلك الوقت، فلم تكن في حاجة إلى توسلاتي لفترة طويلة. إن طريقتها الفاتنة والهادئة جعلتها مختلفة تمامًا في ذاكرتي عن أي امرأة أخرى، فقد عادت مرة أخرى إلى طبيعتها، كما لو أن سحابة قد انقشعت عن سماء صافية.

قالت أجنيس: «لا أحسب أننا سنبقى بمفردنا لفترة أطول، لذا سأنتهز الفرصة لأرجوك يا تروتوود بجدية وإلحاح، أن تكون ودودًا مع يورايا. لا تصده ولا تستأْ - كما أظن أن لديك نزعة عامة لاحتقاره - مما قد يبدر منه فيزعجك. إنه لا يستحق هذا الاحتقار، لأننا لا نعرف عنه سوءًا. على أي حال، فلتفكر أولًا في أبي ولتفكر فيَّ».

لم يكن لدى أجنيس وقت لتزيد القول، فقد انفتح باب الغرفة، وأقبلت السيدة ووتربروك، وهي امرأة ضخمة، أو ربما كانت ترتدي فستانًا كبيرًا، لا أعرف بالضبط أيهما، لأنني لم أستطع أن أفرق بين السيدة وملابسها، لأنها همت إلينا كما لو كانت مُبحرة في ثيابها. لاح لخاطري أنني ربما أكون قد رأيتها في المسرح، كما لو أبصرت صورتها في فانوس سحري شاحب، لكنها بدت تتذكرني تمامًا، ولم تزل تشك في أنني في حالة من السكر.

اكتشفت مع مُضي الوقت أنني رصين واعٍ، وأرجو أن تكون قد أدركت أنني شاب متواضع خجول. خففت السيدة ووتربروك من حدتها معي كثيرًا، وسألتني أولًا عما إذا كنت أكثر من زيارتي إلى الحدائق العامة، واستفسرت ثانيًا عن مدى اختلاطي بالمجتمع. أجبت عن هذين السؤالين بالنفي، ثم خطر لي أنني قد فزت بثقتها مرة أخرى، لكنها أخفت هذه الحقيقة بلباقة، ثم دعتني لتناول العشاء معها في اليوم التالي. قبلت الدعوة، ثم استأذنت في الانصراف، وتوجهت إلى يورايا في المكتب قبل أن أنصرف لكني لم أجده، فتركت له بطاقة ليراها حين عودته.

ذهبت لتناول العشاء في اليوم التالي. انفتح الباب لاستقبالي، فإذا بسحابة دخان تعبئ المكان ناشرة روائح شواء لحم الضأن. أدركت أنني لست الضيف الوحيد بعد أن تعرفت على الفور على حامل رسائل أجنيس الذي جاءني متخفيًا، وقد كان خادم العائلة، الذي انتظر أسفل السلم يسأل عني. كان قد حاول أن ينظر إليَّ بأقصى ما أوتي من الحذر ليتظاهر أنه لم يرَني من قبل، وقد أضمر كل منا شيئًا، لأنني كنت أعرفه جيدًا، وكان يعرفني جيدًا، إلا أن كلًّا منا لم يتحلَّ بالشجاعة الكافية ليبوح بسره.

رأيت السيد ووتربروك، فإذا به رجل نبيل في منتصف العمر، قصير الرقبة، يرتدي قميصًا كبير الياقة، لا ينتقص وجهه سوى أنف أسود ليصير أشبه بكلب «البولدوج». أعرب لي عن سعادته وتشرفه بمعرفتي. قدمت التحية ومراسم الاحترام للسيدة ووتربروك، وإذا بها تقدمني - في احتفاء بالغ - إلى سيدة بشعة للغاية ترتدي فستانًا أسود مخمليًّا، وقبعة سوداء مخملية هائلة الحجم، أتذكر أنها كانت تبدو أقرب ما تكون إلى إحدى قريبات هاملت، أو على سبيل المثال أشبه بعمته.

كانت هذه السيدة تدعى هنري سبايكر. أما زوجها فكان حاضرًا أيضًا، وهو رجل شديد البرودة، حتى إنه بدا كما لو أن ذرات الثلوج قد تناثرت فوق رأسه فغطت سواده بدلًا من أن يشيب. أظهر الجميع احترامًا وتبجيلًا لآل هنري سبايكر، لكل من الرجل وزوجته على حد سواء. كانت أجنيس قد أخبرتني أن هذا الاحترام يعزى إلى كون السيد

هنري سبايكر وكيلًا لشيء ما أو لشخص ما -نسيت ما الشيء أو أيهما- وأنه مرتبط بصورة ما بوزارة المالية.

رأيت يورايا هيب بين هذا الجمع، مرتديًا حلة سوداء، يظهر تواضعًا جمًّا. صافحته، فأخبرني أنه فخور بملاحظتي لوجوده، وأنه يشعر بالامتنان لتنازلي بإلقاء التحية عليه. كنت أتمنى لو لم يكن مدينًا لي بشيء، لأنه ظل يحوم حولي طوال المساء، مظهرًا هذا الامتنان، وكنت كلما تحدثت بكلمة إلى أجنيس أراه يرمقنا بوجهه الشاحب وعينيه الضامرتين المطلتين من الظلال، وقد بات ينظر إلينا نظرات واهنة.

خيل إليَّ أن الضيوف الآخرين كانوا جميعهم مجمدين لمثل هذه المناسبة، أو مُعتَّقين كما يُعتق النبيذ. إلا أن شخصًا كان قد لفت انتباهي قبل أن يطل علينا، بعد أن سمعت صوتًا معلنًا عن دخوله، إنه السيد ترادلز! ألحت على ذاكرتي حينها ذكريات مدرسة سالم هاوس، بل حسبت أنه قد يكون تومي؛ ذلك الصبي الذي كان يرسم الهياكل العظمية.

لقد بحثت عن السيد ترادلز باهتمام غير عادي. كان شابًّا رصينًا وثابتًا ذا خلق، يبدو شعره مضحكًا، وقد انفتحت عيناه على مصراعيهما، وسرعان ما غاص في ركن ما، حتى صار من الصعب تمييزه من بين المدعوين. استطعت أخيرًا رؤيته من جديد، ولا أدري هل خدعني بصري، أم أنه تومي القديم ذاك الصبي البائس!

شققت طريقي إلى السيد ووتربروك، وقلت إنني أحسب أنه من دواعي سروري رؤية زميل مدرستي القديمة هنا.

قال السيد ووتربروك مندهشًا: «أحقًّا هذا؟ إنك أصغر من أن تكون قد ذهبت إلى المدرسة مع السيد هنري سبايكر».

قلت: «آهٍ، إنني لا أقصده! إنني أقصد الرجل المحترم الذي يدعى ترادلز».

قال مضيفي بعد أن أبدى اهتمامًا: «آهٍ، نعم، نعم، ربما».

قلت، بينما ألقي بنظراتي نحو ترادلز: «إذا كان هو الشخص الذي أقصده حقًّا، فقد كان في مكان يُدعى سالم هاوس وقد كنا معًا، وكان زميلًا ممتازًا».

راح مضيفي يومئ برأسه مُظهِرًا نوعًا من القبول والرضا، قائلًا: «نعم بالتأكيد. إن ترادلز رجل صالح. إنه رفيق جيد حقًّا».

قلت: «يا لها من مصادفة غريبة!».

عاد مضيفي قائلًا: «حقًّا، يا لها من مصادفة، خاصة مع حضور ترادلز إلى هنا لأنه لم يُدعى إلى هذا الجمع سوى اليوم وفي هذا الصباح. لقد أتيح مكان على الطاولة، وقد كان من المفترض أن يشغله شقيق السيدة هنري سبايكر، إلا أنه اعتذر بسبب توعكه. ويا له من رجل نبيل للغاية؛ أقصد شقيق السيدة هنري سبايكر يا سيد كوبرفيلد».

تمتمت بالموافقة في جو مليء بالمشاعر، معتبرًا أنني لا أعرف شيئًا عنه على الإطلاق، ثم استفسرت عن مهنة السيد ترادلز.

قال السيد ووتربروك: «إن ترادلز شاب يهتم بدراسة القانون. نعم. إنه رجل طيب، لا يعادي أحدًا سوى نفسه».

قلت آسفًا لسماع هذ القول: «أهو عدو نفسه؟».

أخذ السيد ووتربروك يثني شفتيه ويلعب بسلسلة ساعاته في هيئة تعكس ترفًا وزهوًا، قائلًا: «حسنًا، من الأفضل أن أقول إنه أحد هؤلاء الرجال الذين يقفون عقبة في طريق نورهم. نعم، أقول إنه بالأحرى لن يصير لقيمته ما يساوي على سبيل المثال خمسمائة جنيه. كان أحد أصدقاء ترادلز في المهنة قد زكّاه عندي. نعم بالتأكيد. نعم. إنه يتمتع حقًّا بقدر من الموهبة في كتابة المذكرات، وعرض القضية في كتابة واضحة. أما أنا فقادر على إلقاء شيء ما في طريق ترادلز، على مدار هذا العام؛ شيء سيكون كبيرًا بالنسبة له. نعم بالتأكيد. نعم».

لقد تأثرت بنبرة السيد ووتربروك التي راح يردد بها قوله «نعم بالتأكيد. نعم». إنها طريقة مترفة وناعمة. راح يكررها بين الحين والآخر بنغمة مبالغة متعالية. لقد أوحت طريقته بفكرة الرجل الذي ولد، ليس كما يقولون بملعقة فضية في فمه، بل ولد مع سلم صاعد ثم استمر في صعود كل قمم الحياة واحدة تلو الأخرى، حتى بدا الآن راسخًا فوق أعلى الحصون، يراقب الشعب أسفل الخنادق بعين الفيلسوف والراعي.

ظلت تأملاتي تحوم حول هذا الموضوع حتى أُعلن عن طعام العشاء. أقبل السيد ووتربروك وقد رافق السيدة عمة هاملت، ثم أولى السيد هنري سبايكر اهتمامه إلى السيدة ووتربروك واتجهوا نحو المائدة. أما أجنيس، فكم كنت أود لو أصطحبها بنفسي إلى

العشاء، لولا أن تقدم رجل متواضع ذو رجلين واهنتين واصطحبها. بقي يورايا وترادلز وأنا، ممثلين عن الشباب الأصغر سنًّا في الحفل، حتى كنا آخر مَن اتخذوا مواضعهم حول المائدة. لم أكن منزعجًا من خسارة اصطحاب أجنيس بالدرجة التي كنت أتوقعها، لأنها أتاحت لي الفرصة لأُعرف نفسي إلى ترادلز بينما كنا نهبط السلم، وقد استقبلني في حماس شديد، بينما راح يورايا يتلوى مظهرًا نوعًا من التذلل البالغ والتحقير من النفس، وكم وددت لو أنني أستطيع أن ألقي به من فوق درجات السلم! افترقت أنا وترادلز على المائدة، حيث جلس كل منا في زاوية نائية. جلس ترادلز في وهج سيدة ذات شعر أحمر مخملي، أما أنا فجلست في كنف كآبة وسواد عمة هاملت. كان وقت تناول العشاء طويلًا للغاية، وظل الحديث يدور عن الأرستقراطية والدم. قالت لنا السيدة ووتربروك مرارًا وتكرارًا، إنها إذا كانت تعاني من ضعف ما، فمصدره الدم.

خطر لي عدة مرات أن الأمور كانت لتتحسن، لو لم نكن مهذبين إلى هذا الحد. لقد كنا في غاية الرقة واللطف، وكان نطاق تصرفاتنا محدودًا للغاية. كان من بين الحضور السيد جالبدج والسيدة زوجته، وكانت لهما - أو على الأقل كانت للرجل - صلة غير مباشرة بالأعمال القضائية المتعلقة بالبنك، حتى انصرف الكلام حول الأمور المتعلقة بالبنك، أو الأمور المتعلقة بالخزانة العامة، فصرنا محاصرين بأجواء تشبه المحكمة. فضلًا عن ذلك كله، فقد عانت عمة هاملت بما ورثته عن العائلة، حيث الانغماس في مناجاة النفس، وراحت تُحدِّث نفسها

عن نفسها، كما راحت تُدلي بكلام متقطع حول كل موضوع يطرح للحديث. كانت هذه الموضوعات الثانوية قليلة بلا شك، إذ كنا نعاود دائمًا الحديث عن الدم، وقد لبث لدى عمة هاملت مجال واسع للمضاربة بالكلام تمامًا مثل ابن أخيها.

ساد الحديث عن الدم حتى أوشك جمعنا أن يبدو مثل الغيلان المجتمعة.

قال السيد ووتربروك بعد أن قرَّب كأس النبيذ من عينه: «أعترف أنني أوافق السيدة ووتربروك الرأي. إن كل الأشياء قد تبدو على ما يرام في ذاتها، ولكنها لا تساوي مسألة الدم».

قالت عمة هاملت: «آهٍ، لا شيء يرضي أحدًا أشد الرضا أكثر منه، بل لا يبدو أي شيء مثاليًّا من دونه، إنه أهم شيء من بين كل الأشياء بشكل عام. إن بعض العقول الوضيعة - ليس الكثير من العقول، يسعدني أن أحسب أنهم قلة - ممن يفضلون القيام بما يجب أن أسميه انحناءً أمام الأصنام. الأصنام بلا شك! أقصد الخدمات العظيمة والأفكار وما إلى ذلك، وهذه النقاط غير ملموسة. أما الدم، فليس كذلك، لأننا نرى الدم في الأنف ونعرفه. نبصره في ذقن، ونقول، «ها هو، هذا دم»، إنها حقيقة واقعة. نشير إليه في جلاء وبلا أدنى شك».

راح الرجل البسيط ذو الرجلين الواهنتين الذي اصطحب أجنيس، يشرح المسألة في هذه اللحظة، وقد بدا فيما أظن، شرحًا قاطعًا.

قال هذا الرجل، وهو يدير نظراته حول المائدة بابتسامة بسيطة: «آهٍ، كما تعلمون، إننا لا نستطيع أن نعيش بلا دماء. يجب أن نحيا بالدماء، كما تعلمون. قد يتأخر بعض الشباب، كما تعلمون، عن ذويهم قليلًا، ربما في التعليم أو السلوك، وقد يقترفون بعض الأخطاء، كما تعلمون، فيوقعون أنفسهم وغيرهم في سلسلة متنوعة من الأزمات، وما إلى ذلك من الصعاب التي أدعو بأن لو يأخذها الشيطان في طريقه إلى الجحيم. إنه لمن دواعي سروري أن أفكر في أن الدماء تسري بينهم، وأنا شخصيًّا أفضل أن يصرعني رجل تنضح عروقه بالدماء في أي وقت، على أن يلتقطني من الهاوية رجل لا يحوز دمًا وفيرًا».

كان هذا الشعور بمثابة تلخيص للرؤية العامة للموضوع، وقد نال أقصى درجات الرضا والقبول، بل جعل من الرجل محط الانتباه، حتى انصرفت السيدات عن الطعام. لاحظت بعد ذلك، أن السيد جالبدج والسيد هنري سبايكر، كانا بعيدين للغاية إلى أن حانت هذه اللحظة، فإذا بهما قد دخلا في تحالف دفاعي ضدنا، كما لو أننا عدو مشترك لكليهما، وتبادلا حوارًا غامضًا عبر الطاولة بهدف هزيمتنا والإطاحة بنا.

قال السيد جالبدج: «إن قضية السند الأول الذي يُحول أربعة آلاف وخمسمائة جنيه، لم تأخذ المسار الذي كان متوقعًا يا سبايكر».

قال السيد سبايكر: «هل تقصد قضية د. أ؟».

قال السيد جالبدج: «أقصد قضية ك. ب».

رفع السيد سبايكر حاجبيه وبدا قلقًا للغاية.

قال السيد جالبدج، بينما يراجع أقواله: «عندما تمت إحالة القضية إلى اللورد... لست بحاجة إلى ذكر اسمه».

قال السيد سبايكر: «أفهمك».

أومأ السيد جالبدج برأسه إيماءة بسيطة، واستطرد قائلًا: «عندما تمت الإحالة إليه، كانت إجابته؛ الدفع أو الحبس».

صاح السيد سبايكر: «رحماك يا ربي!».

كرر السيد جالبدج في حزم: «إنه الدفع، أو الحبس. إنه طريق لا رجعة فيه، هل تفهمني؟».

قال السيد سبايكر في نظرة متشائمة: «تقصد ك؟».

«رفض ك التوقيع رفضًا قاطعًا. لقد حضر إلى السوق الجديدة لهذا الغرض، ولقد رفض الأمر فعلًا».

صار السيد سبايكر منتبهًا للغاية حتى إنه تصلب في مكانه.

راح السيد جالبدج يتحدث مستلقيًا فوق كرسيه قائلًا: «لذا فقد تجمدت هذه المسألة عند هذه النقطة إلى وقتنا هذا. وألتمس من صديقنا ووتربروك المعذرة إذا لم أتمكن من شرح مقصدي بشكل عام، بسبب حجم المصالح الخاصة التي ينطوي عليها هذا الأمر».

بدا لي أن السيد ووتربروك سعيد جدًّا، فرِح بذكر مثل هذه المصالح، أو هذه الأسماء على طاولته، ولو بالتلميح إليها. فأضفى على وجهه سمات الفاهم، وملامح الذكاء - على الرغم من أنني على قناعة تامة بأنه لم يفهم شيئًا عن هذه المناقشة أكثر مما فهمته - فوافق بشدة

على هذه الطريقة الحكيمة، وامتدحها. أراد السيد سبايكر - بعد أن حاز هذه الثقة من صديقه الخاص - أن يتلو الحوار السابق بطبيعة الحال حوارًا آخر، حيث يصير الدور فيه للسيد جالبدج كي يُفاجأ بالألغاز، وتدور كرة أخرى تحل فيها المفاجأة على السيد سبايكر مجددًا، وهكذا دواليك على طريقة استدر وانعطف. أما نحن الغرباء فقد لبثنا كل هذا الوقت منهكين تحت عبء هذه المصالح الهائلة التي ينطوي عليها الحديث. وقد اعتبرَنا مضيفنا بكل فخر ضحايا الدهشة وفريسة الرهبة. سعدت أيما سعادة بالصعود إلى أجنيس، والتحدث معها عند إحدى الزوايا، ثم قدمت إليها ترادلز، وقد بدا أمامها خجولًا لكنه مقبول، لم يزل ذاك المخلوق نفسه حسن النية. اضطر ترادلز إلى المغادرة في وقت مبكر، نظرًا لظروف سفره في صباح اليوم التالي لشهر كامل. لم أستطع أن أجري معه محادثات كثيرة بالقدر الذي كنت أتمناه، لكننا تبادلنا بعض الآراء المشتركة، وتعاهدنا على لقاء آخر ممتع عندما يعود إلى المدينة. كان مهتمًّا جدًّا بسماع ما أعرفه عن ستيرفورث، وقد تحدثت عنه بحرارة حتى طلبت منه أن يخبر أجنيس عن رأيه فيه. أما أجنيس، فنظرت إليَّ خلال هذه الفترة من دون أن تنبس ببنت شفة، وراحت تهز رأسها قليلًا عندما ألتفت إليها فقط.

كنت أفكر في أن أجنيس لم تقم بين أشخاص تألف المقام بينهم، لذلك كنت سعيدًا لسماع أنها ستغادر في غضون أيام قليلة، على الرغم من أسفي على فراقها وقد صار الابتعاد عنها مرة أخرى وشيكًا. أبقاني هذا الأمر حتى رحيل كل الضيوف. كم كان الحديث معها، والاستماع

إلى غنائها، بمثابة تذكرة سارة لحياتي السعيدة في ذاك المنزل القديم الضخم الذي أضفت عليه من جمالها الأخاذ! وددت لو تسنح لي الفرصة لأبقى معها حتى منتصف الليل، إلا أنني لم يكن عندي ما أبديه من أعذار للبقاء أكثر من ذلك، بعدما أُطفئت جميع الأضواء وانصرف ضيوف السيد ووتربروك. استأذنت في الانصراف مقاومًا إرادتي في البقاء. شعرت حينها أن أجنيس تبدو لي ملاك خير لم أعهد وجوده من قبل، ثم خال لي وجهها الوضاء وابتسامتها الهادئة، كما لو أنهما قد أشرقا عليَّ من كائن أزلي يرنو كملاك، وكم أتمنى ألا تخالط أفكاري هذه أي شائبة.

لقد قلت إن الضيوف كانوا قد انصرفوا جميعًا، إلا أنني كان يجب أن أستثني يورايا، الذي لم أضمه إلى هذه الفئة، ولم يتوقف بدوره عن التحليق بالقرب منا. ظل يتبعني عن قرب حتى وجدته يهبط السلم إثري، ومكث على قربه مني متابعًا لي عندما خرجت من المنزل، وقد أبصرته يزج أصابعه الطويلة التي تشبه الهيكل العظمي ببطء في زوج من قفازات أشبه بجاي فوكس[١].

لم أستسِغ مرافقة يورايا، إلا أنني تذكرت ما طلبته أجنيس مني، فدعوته إلى بيتي واحتساء بعض القهوة معي.

أجابني قائلًا: «آهٍ، بالطبع يا سيد كوبرفيلد، أستميحك عذرًا يا سيد كوبرفيلد، إن كنت أدعوك بهذه السلاسة، وإنني لا أحب أن تقيد نفسك

---

(١) أشهر مشاركي «مؤامرة البارود». انظر الهامش السابق. يقال إن بعض المحتفلين يتخذون تمثالاً على هيئة ساخرة وملابس غريبة تجسيدًا لجاي فوكس قبل إحراقه.

بمثل هذا الطلب من إنسان تافه حقير مثلي، بأن تدعوه إلى سكنك».

قلت له: «لا قيود في هذه المسألة. هل ستأتي؟».

أجاب يورايا: «ما أجمل أن أفعل ذلك!».

قلت: «حسنًا، تعالَ معي».

لم يسعني إلا أن أوجز في حديثي معه، وبدا أنه لا يمانع هذا الاقتضاب. توجهنا إلى أقرب الطرق، من دون تبادل أي أحاديث طويلة، وقد لاح أكثر ضعة بعد ارتدائه لهذه القفازات المفزعة، وقد ظل يرتديها طوال الطريق، من دون أن يبدي أي محاولة لإخفاء مظهرها القميء حتى وصلنا إلى سكني.

تقدمته لأرشده إلى موضع السلالم المظلمة، حتى أُجنبه ارتطام رأسه بأي شيء، وقد شعرت بيده الباردة الرطبة وكأنني أمسك بضفدع بين يدي، إلى الحد الذي أغراني بإسقاطه والفرار منه. قيَّدني حديث أجنيس وحسن الضيافة، فعدلت عن هذه الفكرة وأجلسته إلى جانب المدفأة. أشعلت شموعي، فإذا به وقد لفه ذهول وعجب بعدما تكشَّفت أمامه الغرفة. سخَّنت القهوة في وعاء متواضع من القصدير؛ كانت السيدة كروب مسرورة بتحضير القهوة فيه - أظن أن هذا الوعاء لم يُخصَّص لهذا الغرض من الأساس، بل كان إناء للحلاقة. أما الغلاية المختصة باهظة الثمن فمكثت في خزانة المؤن. أبدى يورايا مشاعر كثيرة مفتعلة، حتى إنني وددت لو حرقته بالماء المغلي بكل سرور.

قال يورايا: «آهٍ، حقًّا يا سيد كوبرفيلد - أعني السيد كوبرفيلد[1]، لم أتوقع أن أراك في خدمتي على هذه الصورة قَطُّ. إلا أنني أجد، بطريقة أو بأخرى، أن مثل هذه الأشياء التي لم أكن أتوقعها قَطُّ باتت تحدث أمامي، وقد كنت على يقين، بل ولم أنتظر مطلقًا من موضعي الدنيء هذا أن تحدث لي مثيلاتها. يبدو أنها البركات والنعم صارت تمطر وتغمرني. أحسب أنك سمعت شيئًا عن تغيير حادث في مسيرتي المستقبلية يا سيدي الشاب كوبرفيلد... يجب أن أقول، يا سيد كوبرفيلد».

كان يورايا جالسًا على أريكتي، بينما ثبت ركبتيه الطويلتين ليستقر عليهما فنجان قهوته، وقبعته وقفازه فوق الأرض بالقرب منه، وقد أخذت ملعقته تدور بهدوء في فنجانه، وتلوح عيناه الحمراوان متقدتين كما لو أنهما احترقتا، فصارتا بلا أهداب. دارت مقلتاه نحوي من دون أن ينظر إليَّ. تجلت أمامي خدوشه وندوبه البغيضة التي تعلو أنفه وقد وصفتها سابقًا، فإذا بها تظهر وتختفي مع أنفاسه، وإذا بتموج مروع يخترق هيكله من ذقنه حتى حذائه، مما جعلني أوقن أنني أكرهه بشدة، بل شعرت بالنفور الشديد من وجوده ضيفًا عندي. كنت صغيرًا حينها، ولم أكن معتادًا على إخفاء مشاعري الطاغية.

قال يورايا: «أحسب أنك سمعت شيئًا عن تغيير حادث في مسيرتي المستقبلية يا سيدي الشاب كوبرفيلد... يجب أن أقول، يا سيد

---

(١) تستخدم كلمة *master* بمعناها «سيد» لمن لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، بينما تستخدم *mister* لمن يفوق هذا العمر. عمد يورايا إلى مناداة كوبرفيلد بكلمة تدل على حداثة سنه، ثم حاول أن يبدي مزيدًا من الاحترام بتعديلها، وسيكرر هذه اللعبة، وسأستعيض عنها بإضافة كلمة الشاب دلالة على استخدامه لكلمة *master*.

كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم، سمعت شيئًا».

أكمل حديثه في هدوء: «آه، كنت على يقين من أن الآنسة أجنيس ستخبرك بالأمر. كم يسعدني أن أجد الآنسة أجنيس مدركة للأمر! آهٍ، شكرًا لك سيدي الشاب... يا سيد كوبرفيلد».

كان بإمكاني أن ألقي حذائي عليه -كان جاهزًا فوق السجادة- لأنه جرني إلى الكشف عن شيء متعلق بأجنيس، مهما يكن هينًا. لكني لم أستطع فعل شيء سوى احتساء قهوتي.

تابع يورايا حديثه قائلًا: «يا لك من نبي تكشف الغيب، يا سيد كوبرفيلد! يا عزيزي، يا لك من نبي كاشف للغيب موقن بنفسك! ألا تتذكر أنك قلت لي ذات مرة، إنني ربما أصير شريكًا في أعمال السيد ويكفيلد، وربما يصير المكتب لأعمال ويكفيلد وهيب؟ ربما لا تذكر نبوءتك، ولكن الإنسان البسيط يا سيد كوبرفيلد، يعتز بمثل هذه الأشياء ويحفظها».

قلت: «أتذكر أنني تحدثت عن هذا الأمر، على الرغم من أنني لم أكن أتصور حينها أنه من الممكن حدوثه». قال يورايا في حماسة: «آهٍ، من كان يظن أنه من المحتمل حدوثه يا سيد كوبرفيلد! إنني على يقين من أنني لم أُقْدِم على الأمر بنفسي. أتذكر أنني قلت لك واثقًا إنني أتفه وأحط من أن أصير شريكًا، وقد كنت أصدق نفسي حقًّا وبصدق».

جلس، وقد اعتلت وجهه هذه الابتسامة المنحوتة على قسماته، وراح ينظر إلى النار، بينما أرمقه بنظراتي.

استأنف كلامه قائلًا: «لكن أحط الناس يا سيد كوبرفيلد، قد يصيرون أدواتٍ للخير. يسعدني أن أتصور أنني كنت أداة خير للسيد ويكفيلد، وربما أصير أكثر من ذلك. يا له من رجل جدير بالتقدير يا مستر كوبرفيلد، لكن يا لسذاجته!».

قلت: «كم يؤسفني سماع ذلك!». ثم لم أستطع منع نفسي من توضيح موقفي فقلت: «على جميع الأصعدة».

أجاب يورايا: «أقر بذلك من دون شك يا مستر كوبرفيلد... على جميع الأصعدة. وعلى الآنسة أجنيس قبل كل شيء. إنك لا تتذكر تعبيرك البليغ يا سيد كوبرفيلد، لكني أتذكر كيف قلت ذات يوم إنها تستحق إعجاب الجميع وكيف شكرتك على قولك هذا! لا يراودني شك في أنك قد نسيت هذه العبارة يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

قلت في هدوء: «لا».

صاح يورايا: «يا إلهي، كم أنا سعيد لأنك لم تنسَ! أحسب أنك أول من أوقد شرارة الطموح في صدري الحقير، وكم أسعد لأنك لم تنسَ هذا القول! آهٍ، هل تسمح لي بطلب فنجان آخر من القهوة؟».

كانت نبرته المؤكدة التي عبر بها عن تأجج شرارة طموحه، وكذلك النظرة التي وجهها إليَّ حينما تحدث عنها، قد دفعاني إلى أن أحملق فيه كما لو أنني أبصره مضاءً بنور وهالة من الضوء تحيط به. ثم تذكرت

طلبه الذي عرضه بنبرة صوت مختلفة تمامًا، وصيغة مغايرة لطبيعة حديثه، فتناولت وعاء الحلاقة لأعد له قهوته، لكنني شعرت بارتعاشة تسري في يدي، وانتابني شعور مفاجئ بأنني لم أعد أستطيع مجاراته، وسيطر عليَّ قلق ولهفة في ظل نوع من الارتباك حيال ما قد يقوله بعد ذلك، وأحسست أن حالتي هذه لا يمكن أن تَخفى عليه.

لم يقل شيئًا على الإطلاق. راح يحرك قهوته بشكل دائري ثم يحتسيها، ويتحسس ذقنه برفق بيده المروعة، ثم أخذ ينظر إلى النار، ويحملق في الغرفة، ويلهث بدلًا من أن يبتسم لي، يتلوى ويتموج بجذعه في خنوع وذل، وهكذا أخذ يتلوى ويرتشف القهوة مرة بعد أخرى، لكنه ترك استئناف حديثنا لي.

قلت أخيرًا: «حسنًا، إن السيد ويكفيلد الذي يساوي خمسمائة رجل من أمثالك أو من أمثالي...»؛ أقسم بحياتي إنني لم أتصور أنني أستطيع أن أكمل هذه العبارة من دون أن أقسم هذا الجزء من الجملة في نوع من الحرج، فأكملت قائلًا: «كان الرجل غير حكيم، أليس كذلك يا سيد هيب؟».

أخذ يورايا يجيب وهو يتنهد في تواضع وذل قائلًا: «آهٍ، لم يكن حكيمًا حقًّا يا سيد كوبرفيلد. آهٍ، على الإطلاق. لكني أرجو أن تناديني باسم يورايا، إذا سمحت، كما كنت تناديني دومًا».

قلت بينما أفلت من بين شفتي الكلام في صعوبة: «سأفعل يا يورايا».

رد في حماسة: «شكرًا. شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد. إن مناداتك لي باسم يورايا يلوح مثل هبوب النسائم القديمة، أو رنين الأجراس العتيقة على مسامعي. أستميحك عذرًا... هل كنت أبدي أي ملاحظة؟».

قلت: «نعم، حول السيد ويكفيلد».

أخذ يورايا يتحدث في بطء شديد، بينما يمد يده القاسية فوق طاولتي، ويضغط عليها بإبهامه، حتى اهتزت، واهتزت الغرفة كذلك، فقال: «آهٍ، نعم، حقًّا. آه، يا للحماقة التي اقترفها يا سيد كوبرفيلد. إنه موضوع لن أتطرق إليه، لأي مخلوق غيرك. وإن كنت لا أستطيع أن أتطرق إلى الأمر إلا معك؛ بالتلميح لا أكثر ومن دون تفصيل. لو أن إنسانًا آخر في مكاني خلال السنوات القليلة الماضية - خاصة في هذا الوقت - لاستطاع أن يجعل السيد ويكفيلد رهن إشارته. آهٍ، يا له من رجل جدير بالاحترام يا سيد كوبرفيلد».

أتصور أنني لو اضطررت إلى النظر إليه وقد وطأ بقدمه المفلطحة رأس السيد ويكفيلد، فما كنت لأكرهه أكثر مما كرهته في هذه اللحظة.

تابع حديثه بصوت ناعم، يتناقض بشكل ملحوظ مع حركة إبهامه، من دون أن يقلل من حدة الضغط ولو بدرجة واحدة، فراح يقول: «آهٍ يا عزيزي. حقًّا يا سيد كوبرفيلد، لا يراودني شك في الأمر. كان من الممكن أن تقع خسارة فادحة، وصمة عار، لا أعرف مداها على الإطلاق. إن السيد ويكفيلد يدرك الأمر. إنني الأداة الذليلة التي تخدمه في تواضع، وقد وضعني في مكانة مرموقة ما كنت لأتمنى الوصول إليها. فكم أنا ممتن له! وكيف أؤدي إليه شكري!». أدار وجهه بعدما

أنهى كلامه من دون أن يلتفت نحوي، ثم راح يرفع إبهامه المتعرجة نحو المكان الذي كان يضغطه. أخذ يحك فكه النحيل كما لو أنه يحلق ما نبت به من شعيرات.

أتذكر جيدًا كيف راح قلبي ينبض بكراهيته، عندما رأيت وجهه الماكر، يتلفت عاكسًا لهيب ضوء أحمر منبعثًا من نيران المدفأة، وقد استعد لقول شيء آخر.

استأنف حديثه قائلًا: «يا سيد كوبرفيلد، هل أبقيتك مستيقظًا لوقت متأخر؟».

«لا لم تفعل. إنني أخلد إلى النوم عادة في وقت متأخر».

«شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد، لقد تجاوزت مركزي الحقير منذ أن خاطبتني أول مرة، هذا أمر لا جدال فيه، لكني لم أزل وضيعًا. آمل ألا أكون غير ذلك أبدًا. وأرجو ألا تزيد من تفكيرك في وضاعتي لو منحتك بعض ثقتي يا سيد كوبرفيلد، هل ستفعل؟».

أجبته في مشقة قائلًا: «آهٍ، لا».

أخرج منديلًا من جيبه، وبدأ في مسح راحتَي يديه، وأخذ يقول: «شكرًا لك. إن الآنسة أجنيس يا سيد كوبرفيلد...».

قاطعته قائلًا: «حسنًا يا يورايا؟».

فصرخ: «آه، ما أجمل أن تناديني باسمي يورايا!»، ثم ارتعش جسده كما لو أنه سمكة متشنجة، وأكمل قائلًا: «ألا تحسب أنها تبدو جميلة جدًّا الليلة يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبت قائلًا: «أتصور أنها تبدو كما هي دائمًا، فائقة من جميع النواحي، متفوقة على كل من حولها».

صاح قائلًا: «آهٍ شكرًا لك. هذا صحيح. آهٍ، شكرًا جزيلًا لك».

قلت في زهو: «لا داعي للشكر على الإطلاق. لا يوجد سبب يوجب شكرك لي».

قال يورايا: «تسألني لم هذا يا سيد كوبرفيلد، فأقول إنه في الواقع يتعلق بالسر الذي سأبوح لك به. كما أنني...». راح يفرك يديه بقوة أكبر، ثم ألقى بنظرة إليهما وإلى النار بالتناوب، واستطرد حديثه قائلًا: «مثل أمي، في حالة من البساطة كما كانت حال بيتنا الفقير البسيط ولكننا صادقان، وقد حفظت صورة الآنسة أجنيس - أنا لا أمانع في أن أثق بك فأبوح بسري يا سيد كوبرفيلد، لأنني كنت أسعد دائمًا بأن أتجه نحوك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها قادمًا في عربة يجرها مهر - فظلت بين جوانحي لسنوات. آهٍ يا سيد كوبرفيلد، يا لعواطفي المتقدة التي تجعلني أفتتن بحب الأرض التي تسير عليها أجنيس».

أحسب أن شعورًا بالهذيان قد استولى عليَّ، وراودني برغبة في الإمساك بأسياخ المدفأة الساخنة، وإحراقه بها. انطلقت هذه الفكرة لتخرج من وجداني وتغادره مثل صدمة مدوية لقذيفة أُطلقت من فوهة بندقية. أما صورة أجنيس، فقد مكثت في عقلي وقد استولى عليَّ غضب عارم من هذا الحيوان ذي الرأس الأحمر. رحت أتأمله فإذا به يجلس في هيئة منحرفة كما لو أن روحه اللئيمة قد تمثلت في جسده الناثل أمامي، مما جعلني أشعر بالدوار. بدا كما لو أنه ينتفخ وينمو أمام عيني، وبدت

الغرفة زاخرة بأصداء صوته، فتملكني شعور غريب - الذي ربما لا يخفى على أحد - وقد لاح لي أن كل هذا الأحداث قد وقعت من قبل، في زمن غير معلوم، وأنني كنت أعرف ما سيقوله سابقًا، وقد استحوذ عليَّ هذا الشعور كاملًا.

ما إن أدركت في هذه اللحظة ما بدا عليه من قوة بعد أن تغيرت ملامح وجهه حتى وجدتني أبذل جهدًا مضاعفًا لاستعادة ذكرياتي ومناشدة أجنيس لي بكامل قوتها حتى أحسن معاملته. لقد بذلت جهدًا يفوق سواه حتى استطعت أن أسأله في مظهر أهدأ مما كنت أتخيله عن نفسي قبل دقيقة واحدة؛ ما إذا كان قد أبلغ أجنيس بمشاعره أم لا.

قال: «آهٍ، كلا يا سيدي الشاب كوبرفيلد. كلا يا عزيزي. لم أبلغ أحدًا غيرك. كما ترى أنني خرجت للتوِّ فقط من موقعي المتواضع. وكل أملي أن تلاحظ مدى فائدتي لوالدها - لأنني أثق في مدى فائدتي البالغة له بالفعل يا سيد كوبرفيلد - وأدرك كيف أُيسر الطريق له وأبقيه على استقامته. إنها مرتبطة بوالدها أشد الارتباط يا سيد كوبرفيلد - آهٍ، يا له من خلق جميل في هذه الابنة! - وأظن أنها قد تتبسط، لأجل خاطره، فتصير لطيفة لينة معي».

لقد فهمت عمق مخطط هذا الوغد بأكمله، وفهمت لماذا كشفه أمامي.

استطرد قائلًا: «إذا تفضلت بالاحتفاظ بسري يا سيد كوبرفيلد من دون أن تتعارض معي، بشكل عام، فسأعتبر أنك تسدي إليَّ معروفًا خاصًّا. إنك لا تضمر لي الكراهية، فإني أعرف مقدار قلبك الودود، إلا أنك لم تتعرف مني إلا على وجهي الوضيع - يجب أن أقول الأكثر

حقارة، لأني لم أزل وضيعًا جدًّا - وقد تصير في موقف ضدي، مع حبيبتي أجنيس. وإني أدعوها لي، كما ترى يا سيد كوبرفيلد، فثمة أغنية تقول: «سأتخلى عن تاجي، لأدعو حبيبتي لي!»[1] أرجو أن أحظى بها في يوم من الأيام».

يا لحظكِ العاثر يا عزيزتي أجنيس! إنها أحب وأطيب من أن تكون زوجة لأي إنسان قد يخطر على بالي، فهل من الممكن أن تُحتجز لتصير زوجة لمثل هذا البائس؟!

تابع يورايا حديثه بطريقته اللزجة، بينما جلست محدقًا فيه، وقد انشغل خلدي بهذه الفكرة، فقال: «لا داعي للعجلة في الوقت الحاضر. فكما تعلم يا سيد كوبرفيلد، إن أجنيس ما زالت صغيرة السن، وسيتعين عليَّ أنا وأمي أن نعمل في طريقنا إلى التَّرقي، فنرتب الكثير من الأمور ونعد لها إعدادًا جيدًا، قبل أن نُقدم على إتمام الأمر. سيتاح أمامي الوقت لأمهد لأجنيس أمري، فتصير على دراية بآمالي، كلما سنحت لي الفرصة. آهٍ، كم أنا ممتن لك خالص الامتنان لمنحي هذه الثقة! آهٍ، وإنه لمن دواعي راحتي أن أدرك تفهمك لموقفنا، وأن أتأكد من أنك لن تعارض موقفي، لأنك لا ترغب في جلب التعاسة لهذه الأسرة».

تناول يدي من دون أن أجرؤ على منعه، وما إن ضغط عليها بكفه الرطب، حتى أشار إلى ساعته الصدئة، فقال:

---

(١) أغنية شهيرة عرفت باسم «وردة بلا شوك»، كتبها ليونارد ماكنالي في حب فرانسيس آي أنسون، ولحنها جيمس هوك، وغُنيت أول مرة عام ١٧٨٩م.

«آه يا عزيزي، لقد تأخر الوقت. تفلت اللحظات وتنقضي بينما أبوح بأسرار الأزمنة القديمة يا سيد كوبرفيلد. إنها الواحدة والنصف تقريبًا».

أجبت بأنني أظن أن الساعة تجاوزت الواحدة والنصف. لم أقل هذا لأنني أدركت الوقت حقًّا، ولكني لم أقوَ على استجماع كلماتي بعد أن صارت أفكاري مبعثرة.

قال مفكرًا: «رحماك يا ربي! إن المنزل الذي أبيت فيه هو بمثابة نوع من الفنادق الخاصة حيث المبيت الذي يشمل الطعام والخدمة يا سيد كوبرفيلد، وهو يقع بالقرب من نهر نيو إد. أحسب أن أهله قد خلدوا للنوم منذ ساعتين تقريبًا».

قلت: «يا للأسف، لا يوجد سوى سرير واحد هنا، وإنني...».

قاطعني مرة أخرى في نشوة، وقد رفع أحد رجليه ليتكئ بها على الأخرى قائلًا: «آهٍ، لا تشغل بالك بأمر الأسِرَّة يا سيد كوبرفيلد، ولكن هل تمانع إن استلقيت أمام المدفأة؟».

قلت: «إذا وصل الأمر إلى ذلك الحد، فلتتفضل بالنوم على سريري، وسأستلقي أنا أمام المدفأة».

كان رفضه لهذا العرض صاخبًا مدويًا، حتى إن صوته من بالغ دهشته وفداحة مذلته، كان قد اخترق آذان السيدة كروب، وأحسب أنها كانت نائمة في غرفة بعيدة تقع على مستوى منخفض قريب من الأرض. كانت تغط في سباتها وقد أمنت لدقات ساعة عتيقة لا يمكن إصلاحها، كانت

تشير إليها دومًا إن نشب بيننا أي خلاف بسيط حول الالتزام بالمواعيد. كانت الساعة بطيئة للغاية، تتأخر ما لا يقل أبدًا عن ثلاثة أرباع الساعة، وقد عاود ضبطها عدد لا بأس به من أفضل الصناع، إلا أنها كانت تعاود التأخر كل الصباح. لم أحُز من الحجج ما يدفعني إلى مجادلته، خاصة وأنا في مثل هذه الحالة من الذهول. ولم أستطع مواكبة تذلـله أو التأثير عليه لقبول الاستلقاء في غرفة نومي، ولذا صرت مضطرًّا إلى اتخاذ أفضل الترتيبات الممكنة، من أجل استراحته أمام المدفأة. جهزت مرتبة الأريكة - التي كانت قصيرة جدًّا بالنسبة لهيئته الضخمة - وبسطت وسائدها، وأحضرت البطانية، واستعنت بمفرش الطاولة، وقطعة قماش نظيفة، ومعطف رائع، فأعددت بهم سريرًا وغطاءً، مما جعل يورايا ممتنًّا شاكرًا. أعرته طاقية نوم، ارتداها فورًا، فأحالت شكله إلى أبشع ما يكون -حتى إنني لم أرتدِ طاقية للنوم منذ ذلك الحين- ثم تركته ليستريح.

لن أنسى تلك الليلة أبدًا. لن أنسى أبدًا كيف استلقيت في فراشي ورحت أتقلب على جانبي؛ كم كابدت نفسي من مشقة التفكير في أجنيس وهذا المخلوق؟ كيف رحت أفكر فيما أستطيع فعله، وأتساءل ماذا عليَّ أن أفعل، وكيف أنني لم أتمكن من التوصل إلى أي نتيجة أخرى سوى أن أفضل سلامها وراحتها فلا أقدم على فعل شيء، وأن أكتم سر ما سمعته! ما إن كنت أسترسل في النوم لبضع لحظات حتى تزورني صورة أجنيس بعينيها الرقيقتين، وإذا بوالدها ينظر إليها في اعتزاز، كما عهدتُ نظراته إليها؛ ويطلان أمامي كل بوجهه الجذاب، حتى يمتلأ فؤادي رعبًا غامضًا.

ما إن استيقظت، حتى تذكرت أن يورايا مستلقٍ في الغرفة المجاورة لي، وكم كان الأمر ثقيلًا عليَّ كما لو أنه كابوس يقظ أخذ يزحف بثقله فوق صدري، كما لو أنني أشاطر شيطانًا لعينًا سكني.

لم يفارقني مشهد سيخ المدفأة، بل راح يتسلل إلى أفكاري الغاضبة، على الرغم من انقضاء الليل. ظننت بين نومي ويقظتي، أن الجو لم يزل متوهجًا باللون الأحمر، وقد أخرجت السيخ من نيران المدفأة للتوِّ، ورحت أكوي به جسده. صرت أخيرًا مسكونًا بهذه الفكرة، على الرغم من أنني كنت أعرف أنها ليست إلا وهمًا، إلى الحد الذي دفعني لأن أتسلل إلى الغرفة المجاورة لألقي نظرة عليه. رأيته مستلقيًا على ظهره وقد مدد ساقيه إلى مكان لا أعرف مداه. لم أدرك من أين يأتي بهذه القرقرة المتصاعدة من حلقه وكيف تتوقف في أنفه وفمه مفتوح مثل مكتب البريد. لقد كان الواقع أسوأ بكثير مما دار في خيالي المضطرب، حتى إنني شعرت بعد ذلك بحالة من الانجذاب إلى مراقبته على الرغم من النفور الشديد منه، ولم أستطع منع نفسي من التجول بين داخل الغرفة وخارجها كل نصف ساعة أو نحو ذلك لإلقاء نظرة أخرى عليه. بدا الليل طويلًا ممتدًّا ثقيلًا وبائسًا كما كان دائمًا، من دون أن يلوح أن النهار يَعِد بانقشاع الظلام من صفحة السماء.

رأيته ينزل في الصباح الباكر - لأنه لم يمكث لتناول الإفطار - فبدا لي أن الليل أخذ يتوارى في شخصه، وعندما خرجت متجهًا إلى مجلس العموم كلفت السيدة كروب بعدة تعليمات معينة حتى تترك النوافذ مفتوحة لتهوية غرفة جلوسي وتطهيرها من وجوده.




# الفصل السادس والعشرون

## وقعت في الأسر

لم أرَ يورايا هيب حتى اليوم الذي غادرت فيه أجنيس المدينة. توجهتُ إلى مكتب تذاكر الحافلات لأرافقها وأودعها قبل السفر، وإذا بيورايا عائد إلى كانتربري في العربة نفسها. كان من دواعي سروري أن ألاحظ معطفه الكبير، قصير الخصر، عالي الكتفين، المكتسي بلون التوت، وقد بسطه بجانب مظلته مثل خيمة صغيرة، على حافة المقعد الخلفي على سطح الحافلة، بينما كان مقعد أجنيس بداخل الحافلة بالطبع. أما ما تكبدته من جهد لأتظاهر بالتودد إليه أمام أجنيس، فربما أستحق عليه مكافأة ولو يسيرة. ظل يورايا في موضعه عند نافذة الحافلة، كما كانت حاله في حفل العشاء، إذ راحت نظراته تحوم حولنا من دون توقف، كما لو أنه نسر عظيم يلتهم نفسه في كل مقطع أتلفظ به لأجنيس، أو كل كلمة توجهها أجنيس إليَّ.

سيطر عليَّ شعور بالاضطراب منذ أن كاشفني بسره عند المدفأة، فرحت أفكر كثيرًا في الكلمات التي استخدمتها أجنيس للإشارة إلى شراكته مع والدها حين قالت: «لقد فعلت ما أرجو أن يكون صحيحًا. كنت متأكدة من أنه من الضروري أن تحدث هذه التضحية ضمانًا لسلامة أبي، ومن ثَم ناشدته أن يشاركه». لاح لي نذير بائس بأنها تذل نفسها وتخذلها بهذا الشعور المهين من تضحيتها بنفسها من أجل أبيها، وقد بات هذا الشعور يؤلمني منذ ذلك الحين. أدرك كيف أحبته، وأعرف إلى أي مدى أخلصت له، بل عرفت من كلام شفتيها أنها تعتبر نفسها السبب البريء لأخطائه، وتوقن أنها مدينة له بدين كبير، ترغب بشدة في سداده. لم يراودني عزاء لتضحيتها بعد رؤية مدى اختلافها عن هذا الرجل البغيض ذي الشعر الأحمر الذي يرتدي معطفًا بشعًا بلون التوت، بل شعرت أن الخطر الأكبر يكمن في الاختلاف البين بينهما، وفي إنكار ذاتها وتفاني روحها الطاهرة أمام وقاحته ودناءته. تيقنت من دون أدنى شك أنه على دراية بذلك كله، وقد دبر الأمر بمكره وحيلته، ودرسه أدق دراسة.

كنت على يقين على الرغم من كل ما يجري، من أن هذه التضحية وهذا الفارق، سيدمران سعادة أجنيس ويبددانها، بل لم يراودني شك بعد طريقة حديثها في الوقت الراهن في أنها تتعامى عن الأمر، وإن لم يُلقِ هذا الحدث بظلاله عليها بعد. لم أشأ أن أجرح فؤادها في الوقت الراهن، إن أسديت إليها أي تحذيرات عن عواقب الأمور، فآثرت الصمت، وهكذا افترقنا من دون تفسير. لوحت بيدها لي وابتسمت

مودعة من نافذة الحافلة، بينما يتلوى هذا الشرير على السطح، وكأنها صارت في قبضة يده وقد ظفر بها.

لم أستطع التغلب لفترة طويلة على تأثري بلمحة الوداع هذه. كتبت أجنيس لي لتخبرني أنها قد وصلت في أمان، فإذا بي في بؤس لا يختلف عن ألمي لمغادرتها. صرت كلما شردت بذهني إلى التفكير في هذا التدبير الشرير، اشتد ألمي وتضاعف قلقي. ما من ليلة تمر من دون أن أحلم بأجنيس حتى صارت جزءًا من حياتي، لا ينفصل عن وجودي كما لا ينفصل رأسي عن جسدي.

بات لديَّ قدر من وقت الفراغ يتيح لي أن أتغلب على مخاوفي. كتب ستيرفورث إليَّ ليعلمني أنه في أكسفورد، وكذلك بقيت وحيدًا بعد إنهاء جلستي في مجلس العموم. أحسب أن نوعًا من عدم الثقة في ستيرفورث راودني في هذا الوقت. كتبت إليه في لهجة شديدة الود ردًّا على رسالته، لكنني أتصور أنني كنت سعيدًا بشكل عام لأنه لن يتمكن من القدوم إلى لندن في ذلك الوقت. أظن أن تأثير أجنيس كان قويًّا مهيمنًا عليَّ، فلا تزحزحه عني أي مشاهد، بل كانت له الغلبة عليَّ، حيث استحوذ أمرها على النصيب الأكبر من أفكاري واهتماماتي.

أدركتني الأيام والأسابيع في غضون انشغالي هذا، وبدأ تدريبي في مكتب سبنلو وجوركنز. كنت أتقاضى من عمتي تسعين جنيهًا في السنة؛ باستثناء إيجار المنزل والمصروفات الثانوية المتنوعة. أما غرفتي فصارت محجوزة لمدة اثني عشر شهرًا بالتأكيد؛ على الرغم من أنني ما زلت أجدها كئيبة في المساء، وباتت الأمسيات طوالًا، فإنني استطعت

أن أستقر بها في حالة مزاجية معتدلة، واستسلمت لشرب القهوة التي يبدو لي الآن بينما أستعيد ذكرياتي فأنظر إلى الوراء، أنني قد استهلكت الكثير منها في هذه الفترة من وجودي في السكن، كما أنني توصلت إلى ثلاثة اكتشافات أخرى؛ أولها: أن السيدة كروب كانت مصابة بداء غريب يُدعى «الأسبازوم»، وكان مصحوبًا عادة بالتهاب في الأنف، ويتطلب علاجه احتساء النعناع باستمرار. ثانيها: أن أمرًا غريبًا يزيد من درجة الحرارة في مخزني، مما يجعل زجاجات البراندي تنفجر. ثالثها: أنني صرت وحدي في هذا العالم، فأوليت الكثير من وقتي لتسجيل هذا الظرف في نظم مقاطع شعرية إنجليزية من تأليفي.

جاء يوم تخرجي، لم تُقَم أي احتفالات، باستثناء تناول الشطائر واحتساء شراب الشيري في مكتب الموظفين، ثم توجهت وحدي إلى المسرح في الليل. ذهبت لمشاهدة مسرحية الغريب، وهي نوع من المسرحيات التي يهتم بها دارسو كلية المدنيين، إلا أنها كانت شديدة القسوة على قطاع المحامين، حتى إنني كدت لا أتعرف على نفسي في المرآة بعدما عدت إلى المنزل. قال السيد سبنلو، في هذه المناسبة، بعد أن اختتمنا أعمالنا، إنه سيسعد برؤيتي في منزله في نوروود حيث يمكننا الاحتفال بالتخرج وإبرام عقد العمل، لولا أن ترتيبات منزله تسودها حالة من الفوضى، بسبب توقع عودة ابنته بعد انتهاء فترة تعلمها في باريس. إلا أنه ألمح إلى أنه يأمل في دعوتي لزيارته وتسليته بعدما تعود ابنته إلى المنزل. علمت أنه أرمل وله ابنة واحدة، فأعربت عن امتناني وشكري له.

كان السيد سبنلو بارًّا بوعده، فقد أعاد دعوته في غضون أسبوع أو أسبوعين، قائلًا إنه سيسعد أيما سعادة لو أنني تشرفت بزيارته يوم السبت المقبل، على أن أبقى عنده حتى يوم الاثنين. قلت بالطبع إنني أتشرف بقبول دعوته، وكان عليه أن يصطحبني معه في عربته الفارهة ثم يعيدني مرة أخرى.

حل اليوم الموعود، فإذا بحقيبتي المصنوعة من القماش صارت موضع تبجيل من الموظفين والكتبة أصحاب الرواتب المحدودة، ممن يعتبرون منزل نوروود بمثابة لغز مقدس. أخبرني أحدهم أنه سمع أن السيد سبنلو يأكل كامل طعامه في أطباق من خزف، وألمح آخر إلى أن الشمبانيا تترقرق باستمرار على مائدته من دون انقطاع، ويطاف بها على الآكلين بدلًا من البيرة المعتادة. أما الكاتب العجوز ذو الشعر المستعار، الذي يُدعى السيد تيفي، فقد ذهب إلى هذا المنزل عدة مرات في أعمال مهنية، وكان في كل مناسبة يتسلل إلى قاعة الإفطار. ووصفها بأنها قاعة تحوي أفخم المظاهر، كما قال إنه احتسى شراب الشيري البني المصنوع في الهند الشرقية هناك، وإنه من نوعية ثمينة للغاية بحيث تجعل الرجل يغمز بعينيه. كانت لدينا قضية مؤجلة في المحكمة في ذلك اليوم. كانت القضية تتعلق بطرد خباز، بعدما اعترض على تسديد مبلغ للخزانة لرصف الكنيسة. كانت أوراق الأدلة للقضية تفوق أضعاف قصة روبنسون كروزو، وفقًا لما أجريته من حسابات، لذلك لم ننتهِ منها إلا في وقت متأخر من اليوم الذي سبق الحكم. ومع ذلك، طُرد الخباز من الكنيسة وحُرم من طقوسها لستة أسابيع، وحُكم بتقاضي أجورنا

كاملة، وبعد انتهاء الجلسة اجتمع وكيل الخباز والقاضي والمدافعون من كلا الجانبين - كانوا جميعًا على صلة قرابة - وخرجوا من المدينة معًا، وركبت أنا والسيد سبنلو العربة الفارهة.

كانت العربة فارهة مترفة. وقد تقوست أعناق الخيول ودبت بأرجلها زهوًا، كما لو أنها تعلم أنها تنتمي إلى حي المحامين. لاح قدر كبير من التنافس بين أعضاء مجلس العموم على جميع متطلبات الزهو، فظهرت بعد ذلك أصناف شتى من مظاهر الترف؛ على الرغم من أنني كنت أتصور دومًا، وهذا ما أحسبه دائمًا، أنه في أيامي كانت المنافسة العظيمة مصدرها النشاء، الذي اعتاد الوكلاء والمحامون استخدامه في كي القمصان، وقد أفرطوا في استخدامه إلى حد يفوق ما قد تتحمله طبيعة الإنسان.

ركبنا العربة وكنا في غاية السعادة. أشاد السيد سبنلو في بعض التلميحات بمستقبل مهنتي. قال إنها كانت أرق مهنة في العالم، ويجب ألا يتم الخلط بينها وبين مهنة المحامي بأي حال من الأحوال، لأنها نوع مغاير تمامًا يختلف عما يفعله المحامون، بل هي مهنة خاصة وذات حدود، وأقل آلية، وأكثر ربحًا. علَّق قائلًا إننا أخذنا الأشياء في مجلس العموم بسهولة تفوق ما يمكن تحقيقه في أي مكان آخر، وهذا ما يجعلنا طبقة متميزة. قال إنه كان من المستحيل إخفاء الحقيقة البغيضة التي مفادها أننا موظفون وموكلون بشكل رئيسي من المحامين، إلا أنه جعلني أدرك أن المحامين في مرتبة أدنى، وأن الوكلاء ينظرون إلى المحامين بازدراء، وإن كانوا أقل منهم كفاءة.

سألت السيد سبنلو عن أفضل القضايا في هذه المهنة، فأجاب أن أفضلها على الإطلاق هو قضية وصية متنازع عليها، بتركة صغيرة أنيقة تُقدر بنحو ثلاثين أو أربعين ألفًا من الجنيهات. وأضاف أنه في مثل هذه الحالة، لا يقتصر الأمر على اتساع مجال العمل وتباين طرق الحجاج في كل مرحلة من مراحل الإجراءات، وتثبيت جبال فوق جبال من الأدلة، وبناء استجواب على استجواب آخر مضاد فقط - ناهيك عن أي استئناف وهمي من المحكمة أولا، ثم من مجلس اللوردات- ومن المؤكد أن الأتعاب لن تتأتى إلا بنهاية القضية، لأن الطرفين المتخاصمين يقبلان على هذه القضية بكل حيوية ونشاط، فلا تغدو ثمة اعتبارات للنفقات المطلوبة. أخذ بعد ذلك يمتدح حي المحامين بشكل عام. وقال إن ما يحظى بالإعجاب بشكل خاص في مجلس العموم يكمن في تماسكه. إنه المكان الأكثر تنظيمًا في العالم، والأوفر راحة. إنه باختصار الأكثر استقرارًا. قال إنه إن أحضر - على سبيل المثال - قضية طلاق أو قضية تعويض إلى محكمة التعويضات، أو إلى المحكمة المالية على أفضل تقدير، قد تحاول حينها إدارة لعبة صغيرة هادئة، وتداولها بين الأفراد المتخاصمين، وستنشغل بها كلعبة تديرها في أوقات فراغك. لنفترض أنك لم تكن راضيًا عن حكم المحكمة، فماذا تفعل بعد ذلك؟ تتجه بها إلى المحكمة العليا. ما هي المحكمة العليا؟ إنها المحكمة نفسها، والغرفة نفسها، والمحامون أنفسهم، والمتخاصمون أنفسهم، ولكن مع قاضٍ آخر، حيث يمكن لقاضي المحكمة أن يترافع في أي يوم من الأيام أمام المحكمة بصفته محاميًا. حسنًا، لقد خضت الجولة مرة أخرى، ولم

تزل غير راضٍ عن الحكم. جميل جدًّا. ماذا تفعل بعد ذلك؟ تحتج إلى النواب. من هم النواب؟ حسنًا، إن النواب الكنسيين ما هم إلا محامون لا تُسند إليهم الأعمال، كانوا قد ألقوا نظرة على جولات القضية عندما دارت لعبتها في كلا الملعبين، وشاهدوا الأوراق التي تم خلطها وتقطيعها واللعب بها بين الأطراف، وتحدثوا عنها مع جميع أطراف اللعبة، أما الآن فقد جد جديد، وقد صاروا قضاة لتسوية الأمر بما يرضي الجميع. قال السيد سبنلو بصيغة رسمية في الختام: إن الأشخاص الساخطين قد يتحدثون عن الفساد في مجلس العموم، واقتصار دائرته على الأقارب، وضرورة إصلاح ما فيه، ولكن عندما ارتفع سعر إردب القمح لأعلى سعر، كان مجلس العموم أكثر ازدحامًا، وقد يضع الرجل يده على قلبه بكامل الثقة، ويقول للعالم بأسره: «المسوا مجلس العموم بسوء، وستسقط البلاد».

استمعت إلى كامل حديثه باهتمام. إلا أنني لا أستطيع أن أخفي ما راودتني من شكوك حيال ما إذا كانت البلاد مدينة لمجلس العموم بهذا القدر كما قال السيد سبنلو أم لا، لكنني أصغيت إلى رأيه بكل احترام. أما حديثه عن سعر إردب القمح، فقد شعرت بتواضع قدرتي على فهم الأمر وأنه يفوق استيعابي، وحسمت القضية تمامًا، بل لم أستطع قَطُّ حتى هذه الساعة، أن أدرك المغزى من ذكر إردب القمح في حديثه. لقد ظهر هذا الجدال مرة أخرى لينهكني، ويثبطني طوال حياتي، عند ذكره في جميع القضايا. لا أعرف إلى الآن، ما علاقة ذلك بي بالضبط، أو ما هو الحق الذي يجب أن يوفيه لي إردب من القمح،

خاصة في مجموعة متنوعة لا حصر لها من المناسبات والقضايا، حتى صرت كلما رأيت صديقي القديم -الإردب- يحضر أمامي من رأسه وكتفيه -كما هي الحال دائمًا- فإني أتخلى عن الجدال ويغدو أمري بلا حيلة.

كان ما سبق استطرادًا. أحسب أنني لست بالرجل الذي يمس حي المحامين بسوء أو يسقط البلاد، لذا فقد عبرت عن خضوعي للحديث من خلال صمتي، وعن إذعاني لكل ما سمعته من رئيسي الذي يفوقني عمرًا ومعرفة. تحدثنا بعد ذلك عن رواية الغريب وعن الدراما المسرحية، وعن زوج الخيول الذي أمامنا، حتى وصلنا إلى بوابة منزل السيد سبنلو.

ترامت حديقة بديعة أمام منزل السيد سبنلو، على الرغم من أننا لم نكن في أفضل فصول السنة للاستمتاع بالحديقة، فإنها كانت قد نُسِّقت بشكل رائع للغاية، حتى إنني صرت مفتونًا بها. لاح أمامي عشب ساحر، وانبثق منه عدد من الأشجار، كما تجلت مناحي العروش المنظومة، التي يمكنني فقط تمييزها من ظلالها المترامية، فكانت مقوسة الأفرع حيث تنمو حولها الشجيرات والزهور في موسم انبثاقها. لاح لخاطري أنه «هنا تتمشى الآنسة سبنلو بمفردها. يا إلهي».

دخلنا إلى المنزل فإذا به قد أنير بضوء بهيج، ثم توجهنا إلى قاعة امتلأت بمختلف أنواع القبعات والمعاطف الكبيرة والسترات والقفازات والسياط وعصي المشي. قال السيد سبنلو للخادم: «أين الآنسة دورا؟». قلت في خاطري: «دورا! ما أجمل اسمكِ!».

عرجنا إلى غرفة قريبة منا - أظن أنها غرفة الإفطار المعهودة التي لا تُنسى، والتي شُرِب بها الشيري البني المصنوع في الهند الشرقية - ثم سمعت صوتًا يقول: «يا سيد كوبرفيلد، إن هذه ابنتي دورا، وهذه صديقة ابنتي وأمينة سرها». كان هذا الصوت بلا شك للسيد سبنلو، لكنني لم أكن لألتفت إليه، ولم أهتم بصاحب الصوت. لقد انتهى كل شيء في لحظة. لقد بات مصيري محققًا. صرت أسيرًا وعبدًا. لقد أغرمت بدورا سبنلو وفتنت بها!

لاحت أمامي في هيئة تفوق البشر. لاحت جنية، حورية، لا أعرف من هي - إنها أي شيء لم يرَه أحد من قبل، بل هي كل ما يتمناه البشر. ابتلعتني هاوية الحب في لحظة، من دون أن أتوقف على حافتها مترددًا. لم أتلفت إلى الوراء ولم أنظر تحت قدمي، بل أقدمت إليها بكلي في تهور، قبل أن أدركَ حقيقة شعوري فأبوح لها بكلمة واحدة.

لاحظت صوتًا أتذكر نبرته جيدًا، بعدما انحنيت للتحية، فإذا بها تتمتم بشيء ما قائلة: «أذكر أنني رأيت السيد كوبرفيلد من قبل».

لم تكن دورا من تتحدث. لا، بل كانت أمينة سرها الآنسة مردستون!

لا أظن أن اندهاشًا مبالغًا قد استولى عليَّ. لم تبقَ عندي أي مقدرة - وفقًا لتقديري - على الدهشة. لم يكن ثمة شيء جدير بالذكر في هذا العالم المادي، باستثناء دهشتي من دورا سبنلو. قلت: «كيف حالك يا آنسة مردستون؟ أتمنى أن تكوني بخير».

أجابت قائلة: «إنني في أفضل حال».

قلت: «وكيف حال السيد مردستون؟».

أجابت: «إن أخي في أتم صحة، أشكرك».

أحسب أن السيد سبنلو قد فوجئ بمعرفة كل منا بالآخر، وقد عقَّب على الأمر بقوله: «يسعدني يا كوبرفيلد أن أكتشف أنك على معرفة سابقة بالآنسة مردستون».

قالت الآنسة مردستون في لهجة بها حزم بالغ: «تربطني علاقة قديمة بكوبرفيلد. كنا على معرفة يسيرة ببعضنا منذ أيام طفولته. فرَّقتنا الظروف منذ ذلك الحين، ولولا هذه المصادفة لما عرفته».

أجبتها قائلًا إنني كنت سأعرفها في أي مكان. كان قولي صحيحًا وصادقًا إلى حد بعيد.

قال لي السيد سبنلو: «لقد تفضلت الآنسة مردستون بقبول هذه المهنة - إن جاز لي استخدام هذا التعبير - لتصير صديقة ابنتي دورا. فقدت ابنتي دورا أمها للأسف، فتعهدت الآنسة مردستون برفقتها وحماية سرها».

خطرت ببالي فكرة عابرة تكمن في كون الآنسة مردستون، تشبه أداة ما توضع في الجيب ثم تُسمى حافظة الحياة، إلا أنها لم تُصمَّم بغرض الحماية بل لغرض آخر مثل الاعتداء. لم أعبأ بهذه الفكرة كثيرًا، لأنني لم أكن لأشغل فكري بأفكار عابرة باستثناء تفكيري في دورا. نظرت إليها مباشرة، وقد رحت أفكر في أنها لا تميل إلى أن كون الآنسة مردستون حامية سرها أو رفيقتها بشكل خاص، بعد أن أبدت استياء

واستخفافًا بها. رن الجرس، فقال السيد سبنلو إنه أول تنبيه لإعدادات العشاء، وبذلك انطلقت لارتداء ملابس ملائمة.

كانت فكرة تبديل ملابسي، أو القيام بأي شيء من هذا القبيل، وأنا في هذه الحالة من الهيام، فكرة سخيفة إلى حد ما. لم أستطع سوى الجلوس أمام نار المدفأة، والعض على مفتاح حقيبتي، مفكرًا في دورا الجميلة الفاتنة الغضة، ذات العينين المشرقتين. يا لقوامها البديع، ويا لوجهها الصبوح، ويا لطريقتها الرشيقة الآخذة والساحرة!

دق الجرس مرة أخرى بعد وقت قصير للغاية، حتى إنني لم أستطع التأنق بالشكل الذي كنت أرتضيه وأتمناه في مثل هذه الظروف، بل هرولت لارتداء ملابسي من دون عناية، ثم نزلت إلى الطابق السفلي. وجدت بعض الضيوف في حجرة الطعام، وكانت دورا تتحدث إلى رجل عجوز ذي رأس أشيب. أحسست بغيرة قاتلة من الرجل على الرغم من أنه قال إنه في منزلة جدها.

يا لهذه الحالة المتأججة التي انتابتني! لقد شعرت بالغيرة من الجميع. لم أستطع تحمل فكرة أن أي شخص قد يعرف السيد سبنلو بشكل أفضل من معرفتي به. كم عذبني سماع حديثهم عن وقائع لم أشارك فيها! سألني إنسان ودود ذو رأس أصلع مصقول للغاية، ونحن جلوس إلى مائدة العشاء، عما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي أزور فيها هذا البيت أم لا، فإذا بي أتوحش وأرغب في إيذائه بصورة انتقامية متوحشة.

لا أتذكر أحدًا من ضيوف المائدة باستثناء دورا. ليست لديَّ أدنى فكرة عما تناولناه على طعام العشاء، إلى جانب دورا. أحسست أنني لم أتناول طعامًا بل أشبعتني دورا تمامًا، وأرجعت إلى الطاولة ستة أصناف من الطعام من دون أن أمسسها. جلست بجانب دورا وتكلمت معها. كانت ذات صوت رقيق هو الأكثر بهجة من بين الأصوات، وكانت ضحكتها الصغيرة هي الأكثر مرحًا، أدلت بألطف التعليقات الصغيرة وأكثرها روعة، ومن ثَم قادت شابًّا ضائعًا إلى عبد ذليل قد هجره الأمل. كانت بالأحرى صورة مصغرة تمامًا من كل شيء جميل، فلاحت لي مثل تحفة نادرة، بل لاحت في نظري أثمن التحف.

خرجت دورا من غرفة الطعام مع الآنسة مردستون -لم تحضر أي سيدة إلى الحفلة سواهما- فإذا بي أغرق في خيالي، ولم يزعجني فيه سوى التخوف القاسي من مغبة انتقادات الآنسة مردستون لي. أخبرني هذا المخلوق الودود صاحب الرأس الأصلع المصقول قصة طويلة، أظن أنها كانت تتعلق برعاية النباتات. أحسب أنني سمعته يقول كلمة «بستاني» ويكررها عدة مرات. بدا لي أنني أعيره اهتمامًا كبيرًا، إلا أنني كنت أتجول في خيالي في جنة عدن طوال الوقت مع دورا.

تجددت مخاوفي من الاستخفاف بي أمام معشوقتي الفاتنة عندما توجهنا إلى غرفة الجلوس، بعد أن التقيت بوجه الآنسة مردستون الكئيب والموحش. إلا أنني سرعان ما طمأنت نفسي بطريقة غير متوقعة.

قالت الآنسة مردستون: «يا ديفيد كوبرفيلد، أستأذنك في كلمة».

ثم وجهتني جانبًا نحو النافذة.

لقد واجهت الآنسة مردستون وحدها.

قالت الآنسة مردستون: «يا ديفيد كوبرفيلد. إنني لست في حاجة إلى التطرق إلى أمور الظروف العائلية. إنه ليس موضوعًا مغريًا للخوض فيه». قلت: «إنني بعيد عن هذه الأمور يا سيدتي».

أيدتني الآنسة مردستون قائلة: «حقًّا، بعيد عن ذلك. إنني لا أرغب في إحياء ذكرى الخلافات الماضية، أو الاعتداءات الماضية. لقد تلقيت اعتداءات من شخص - يؤسفني أن أقول إنها امرأة من بنات جنسي - فلا يجب أن أذكر سلوكها من دون ازدراء واشمئزاز، ولذلك من الأفضل عدم التطرق إليها».

شعرت بغيرة متقدة على سيرة عمتي، لكنني قلت إنه من الأفضل بالتأكيد ألا تتطرق الآنسة مردستون عن سيرتها ناهيك عن ذكرها. وأضفت قائلًا إنني لا أستطيع سماع سيرتها بغير احترام، من دون أن أُعبر عن رأيي هذا بأي نبرة صاخبة.

أغمضت الآنسة مردستون عينيها، وأمالت رأسها في ازدراء، ثم، فتحت عينيها ببطء، واستأنفت حديثها قائلة:

«يا ديفيد كوبرفيلد، لن أحاول إخفاء حقيقة أنني شكلت رأيًا سيئًا عنك في طفولتك. ربما كان هذا الرأي خاطئًا، أو لم يعد سلوكك يبرره. إنه ليس موضع تساؤل ونقاش بيننا الآن. كما أنني أنتمي إلى عائلة رائعة، اتصفت - على ما أظن - ببعض الحزم؛ ولست مخلوقة تتأثر أو تتغير بتغير الظروف. قد يكون عندي رأيي قاطع فيك، وقد يكون لديك رأي عني».

رحت بدوري أميل رأسي.

قالت السيدة مردستون: «إلا أنه ليس من الضروري أن تتعارض هذه الآراء وتحتد هنا، بل يجب في ظل الظروف الحالية ألا يحدث هذا التصادم، كما يجب ألا يقع في جميع المناسبات. ونظرًا لأن مصادفات الحياة قد جمعتنا معًا مرة أخرى، وقد تجمعنا في مناسبات أخرى، فإني أود أن أقول: دعنا نلتقي هنا مثل معارف بعيدين. إن الظروف العائلية قد تصير سببًا كافيًا لاجتماعنا الوحيد هنا على هذا الأساس، وليس من الضروري أن يجعل كل منا الآخر موضوعًا لملاحظة. فهل توافقني الرأي؟».

قلت: «يا آنسة مردستون، أعتقد أنكِ والسيد مردستون قد عاملتماني بقسوة شديدة، كما عاملتما والدتي بقسوة بالغة. سأحفظ دائمًا هذا الاعتقاد ما دمت على قيد الحياة. لكنني أوافق تمامًا على اقتراحكِ».

أغمضت الآنسة مردستون عينيها مرة أخرى، وأمالت رأسها. لمست ظهر يدي بأطراف أصابعها الباردة المتيبسة، ثم ابتعدت عني بينما تعيد ترتيب بعض الأساور الصغيرة حول معصمها وتنسق عقدًا حول رقبتها. بدت لي هذه الحلي كما لو أنها المجموعة نفسها، وبالحالة نفسها تمامًا، التي رأيتها عليها آخر مرة. ذكَّرني هذا المشهد، بطبيعة الآنسة مردستون، فلاحت لي سلاسل الحلي كما لو أنها قيود على باب السجن، تشي للناظرين من الخارج، بأمور متوقعة في داخلها.

كل ما أعرفه عن بقية الأمسية هو أنني سمعت إمبراطورة قلبي تغني قصائد ساحرة باللغة الفرنسية، كان مفادها بشكل عام أنه مهما كان الأمر فيجب علينا الرقص دومًا، تا را لا، تا را لا! رافقتها آلة موسيقية تشبه الجيتار وقد شرفتها دورا بملامسة أناملها. أحسست أنني رحت في غيبوبة ساحرة، حتى إنني امتنعت عن الشراب، وأبعدت نفسي عن احتساء البانش على وجه الخصوص. وضعتها الآنسة مردستون تحت حراستها وكانت في طريقها إلى الحجز، فإذا بها تبتسم لي وقد ناولتني يدها الرائعة. ألقيت نظرة على نفسي في المرآة، فإذا بي أبدو معتوهًا وأبله تمامًا. أويت إلى فراشي في حالة ذهنية شديدة الكآبة، ثم استيقظت في حالة من افتتان وذهول.

كان صباحًا جميلًا، فحسبت أنه سيكون من الممتع لو أتنزه في هذا الوقت المبكر بين أحد الممرات المعروشة بأفرع النباتات، وأنغمس في شغفي بالتركيز على صورتها. كنت في طريقي أعبر البهو، فإذا بي ألقى كلبها الصغير. كان يُدعى جيب؛ اختصارًا لجبسي. اقتربت منه في حنان لأني أحببته، لكنه كشر عن أنيابه، وجلس تحت كرسي ليزمجر صراحة، ولم يسمح لي بأدنى قدر من الملاطفة.

كانت الحديقة باردة وفارغة، رحت أتجول متسائلًا عن مدى السعادة التي ستغمرني، لو أنني استطعت الانخراط في هذه الأعجوبة العزيزة. أما الزواج، والثروة، وكل هذه الأمور، فأظن أنني كنت ساذجًا وفارغ الذهن في ذلك الوقت، مثلما كانت حالتي حين أحببت إيميلي الصغيرة. لم أكن لأفكر إلا في أن يُسمح لي بمناداتها باسمها «دورا»،

والكتابة إليها، والتعبير عن مشاعري لها، والتعلق بها، وامتلاك سبب للاعتقاد بأنها عندما تصير مع أشخاص آخرين، فإنها لا تزال على دراية بوجودي ومكانتي. بدا هذا لي قمة الطموح الإنساني، بل أنا متأكد من أنه كان قمة طموحي الشخصي. لا شك في أنني كنت شابًّا ساذجًا يفتقر إلى الإدراك، ولكني كنت مع كل هذا نقي القلب، وهذا ما يمنعني من أن أتذكر مشاعري بازدراء، لكني أضحك قدر ما أستطيع.

لم أسِر لمسافة طويلة، حتى التفت نحو الزاوية والتقيت بها. تتملكني قشعريرة فتسري مرة أخرى في جسدي من رأسي إلى أخمصي قدمي حين تستدعي ذاكرتي هذه الزاوية، ويرتجف قلمي في يدي.

قلت: «لقد... خرجتِ... مبكرًا يا آنسة سبنلو».

قالت: «إن البقاء في المنزل أمر مروع، كما أن الآنسة مردستون سخيفة جدًّا! تتحدث عن ترهات مثل ضرورة أن يتجدد هواء النهار قبل أن أخرج. هراء». ضحكتْ هنا أعذب الضحكات وأطربها، ثم أكملت: «في صباح أيام الآحاد، وحين لا أتدرب، أحاول أن أفعل شيئًا. لذلك فإنني قد أخبرت أبي الليلة الماضية أنني أفضل الخروج نهارًا، علاوة على أن هذا الوقت، هو ألمع الأوقات في اليوم كله. ألا توافقني الرأي؟».

جازفت بوثبة جريئة، وقلت متلعثمًا إنه نهار مشرق جدًّا بالنسبة لي خاصة الآن، على الرغم من أنه كان شديد الظلمة قبل دقيقة واحدة.

قالت دورا: «هل تقصد المجاملة؟ أم أن الطقس تغير بالفعل؟».

ازدادت نبرتي تلعثمًا بينما أجبت بأنني لا أقصد أي نوع من المجاملة، بل هي الحقيقة الواضحة لي؛ على الرغم من أنني لم أكن على علم بأي تغير في حالة الطقس. ثم أضفت في خجل جم قائلًا إن هذا التغير قد انطبع على مشاعري، وبذلك فسرت مغزى كلامي.

لم أرَ في حياتي قَطُّ ما يشبه جمال ضفائرها، فكيف يمكنني وصفها، وأنا لا أجد ما يشبه هذه الجدائل! راحت جدائلها تهتز في محاولاتها لإخفاء خجلها. أما قبعتها المصنوعة من الخوص والشرائط الزرقاء التي تعلو ضفائرها، فلو كان بإمكاني تعليقها في غرفتي القابعة في شارع باكنغهام، لصارت من الكنوز التي لا تُقدر بثمن!

قلت: «هل عدتِ للتوِّ من باريس؟».

قالت: «نعم. هل ذهبت إلى باريس من قبل؟».

«لا».

«آهٍ، أتمنى أن تذهب إليها قريبًا، كم ستحب المقام بها!».

ظهرت على وجهي آثار آلام عميقة. كان أملها في أن أذهب إلى باريس، وظنها أنني أستطيع السفر إليها؛ أمرًا لا يمكن تحمله. لقد كرهت باريس، بل استخففت بقيمة فرنسا بأسرها. قلت إنني لن أترك إنجلترا في ظل الظروف الحالية، لأي اعتبار دنيوي. لا شيء يمكنه التأثير على قراري. باختصار، راحت تهز ضفائرها مرة أخرى، فإذا بكلبها الصغير يركض مقبلًا على طول الممشي لتسليتنا.

كان يغار مني بشدة، فاستمر في النباح. حملته بين ذراعيها -يا إلهي!- وراحت تداعبه، لكنه استمر في النباح. لم يسمح لي بلمسه على الرغم من محاولاتي، فإذا بها تضربه. ازداد حزني بشكل كبير حين رأيت هذه الضربات التي عاقبته بها على جسر أنفه الحاد، بينما راح يغمز بعينيه ويلعق يدها، ولم يزل يزمجر في أنين داخلي كما لو أنه يحدث صوتًا مزدوجًا. عاد إلى هدوئه من جديد -حسنًا؛ كيف لا يهدأ بعد أن أسندت ذقنها المطبوع بالحسن إلى رأسه!- مشينا بعيدًا لنتفقد صوبة زجاجية في الحديقة.

قالت دورا: «إنك لست على ألفة وود مع الآنسة مردستون، أليس كذلك؟ يا حيواني الأليف».

كانت الكلمات الأخيرة موجهة للكلب. آهٍ، لو أنها تتحدث لي فقط!

أجبتها قائلًا: «لا. لا على الإطلاق».

قالت دورا عابسة: «يا لها من مخلوقة متعبة. لا أستطيع أن أستسيغ ما الذي دفع بابا إلى اختيار هذا الشيء المزعج لتصير رفيقتي. من تريد مثل هذه الحامية لها؟ إنني متأكدة من أنني لا أريدها. يستطيع جيب أن يحميني بصورة أفضل بكثير من الآنسة مردستون. ألا يمكنك حراستي يا عزيزي جيب؟».

غمز بعينه في كسل، بعدما قبَّلت رأسه.

قالت: «إن بابا يدعوها صديقتي وأمينة سري، لكنني متأكدة من

أنها ليست كذلك، أليس كذلك يا جيب؟ لن نثق في أي شخص من هذه النوعية، أنا وجيب. سنمنح ثقتنا لمن نريد وفي المكان الذي نرغب فيه، وسنكتشف أصدقاءنا بأنفسنا، بدلًا ممن يصطفيهم غيرنا لنا، أليس كذلك يا جيب؟».

أصدر جيب صوتًا مريحًا، كما لو أنه يجيبها في نبرة تشبه إلى حد ما صوت غلاية الشاي حين تصدر أزيزها. أما كلماتها فلم تكن بالنسبة لي سوى حزمة جديدة من القيود، راحت تُحكَم واحدة تلو الأخرى حتى الكلمة الأخيرة.

استطردت قائلة: «إنه أمر صعب للغاية، بعد أن صرنا بلا ماما لطيفة؛ أن نقبل ببديل لها، فتكون هذه الشيء العجوز الكئيب المدعو الآنسة مردستون، التي تتبعنا دائمًا، أليس كذلك يا جيب؟ لا تشغل بالك يا جيب. لن نبوح بأسرارنا لأحد، وسنجعل أنفسنا سعداء قدر الإمكان على الرغم من وجودها، وسنضايقها، ولن نرضخ لها، أليس كذلك يا جيب؟».

لو استمرت الأمور على هذا النحو لفترة أطول، فأتصور أنني كنت لأجثو على ركبتي فوق الحصى، مع احتمال أن أجرحهما بأظافري بينما أجثو، ومن ثَم سأُطرد من هذا المنزل في الحال. إلا أنه من حسن الحظ أن الصوبة المزروعة لم تكن بعيدة، وقد وصلنا إليها بعد انتهاء هذه الكلمات.

احتوت الصوبة مجموعة رائعة من أزهار إبرة الراعي. رحنا نتسكع أمامها، وقد راحت دورا تتوقف كثيرًا لتبدي إعجابها بهذا أو ذاك، فأتوقف

بدوري لأبدي إعجابي بالشيء نفسه. تضحك دورا وهي ممسكة بكلبها ترفعه في حركة طفولية ليشم رائحة الزهور. إذا لم يكن ثلاثتنا في أرض الجنيات، فإنني بلا شك كنت هناك. كانت رائحة أوراق إبرة الراعي، قد أذهلتني في هذا اليوم، فصرت بين الهزل والعجب الممزوج بالجد. ما الذي تغير داخلي، وماذا اعتراني في لحظة؟ أفكر وإذا بي أبصر قبعة من الخوص وشرائط زرقاء، وعددًا من الضفائر، وكلبًا أسود صغيرًا محمولًا بذراعين نحيفتين، أمام حوض من الأزهار وأوراق النباتات الزاهية.

كانت الآنسة مردستون تبحث عنا، فإذا بها تعثر علينا. قدمت خدها إلى دورا لتقبله، كان جلدها رخوًا ذا تجاعيد صغيرة، قد امتلأت ثناياه ببودرة التجميل. تناولت ذراع دورا وأحكمتها بين يديها، ثم اصطحبتها لتناول الإفطار كما لو أنها تسير في جنازة عسكرية.

لا أدري كم شربت من الشاي لأن دورا كانت مَن أعدته. لكنني أتذكر تمامًا أنني جلست أشرب الشاي حتى أتلفت جهازي العصبي كله، إن كنت قد احتفظت بأي من أعصابي في تلك الأيام. ذهبنا إلى الكنيسة بعد انتهاء الإفطار. كانت الآنسة مردستون تجلس بيني ودورا، فتحجبها عني. إلا أنني سمعت صوتها تُرنم، فانزاح الجميع من ناظري. سمعت العظة - كانت عن دورا بالطبع - وأخشى أن هذا كل ما أدركته من الصلاة.

حظينا بيوم هادئ، من دون ضيوف، كما أننا تنزهنا وتناولنا عشاء عائليًّا لأربعة أفراد، ثم قضينا أمسيتنا في مطالعة الكتب ومشاهدة

الصور. أما الآنسة مردستون فقد جلست تراقبنا متيقظة وقد وضعت أمامها موعظة تقرأها. آه، هل دار بخلد السيد سبنلو شيء؟ جلس أمامي بعد العشاء في ذلك اليوم، وقد وضع منديله فوق رأسه، بينما خيل إليَّ أنني أعانقه بشدة، كما لو أنني صهره! ألم يظن في تلك الليلة، أنني لم أغادره إلا بعد أن أبدى للتوِّ موافقته الكاملة على خطبتي لدورا، وأنني رحت أدعو أن تغمره مزيد من البركات!

غادرنا في الصباح الباكر، حيث كنا سنعمل في قضية إنقاذ سفينة أمم المحكمة البحرية، وكانت هذه القضية تتطلب معرفة دقيقة وشاملة بعلوم الملاحة، كما لم يكن من المتوقع أن نعرف الكثير عن تلك الأمور في حي المحامين. ناشد القاضي رجلين من سادة الخبراء القدامى، وطلب منهما الحضور للمساعدة في القضية، تصدقًا منهما بعلمهما.

جلست دورا إلى مائدة الإفطار؛ تُحضِّر الشاي مرة أخرى، وكان من دواعي سروري الذي لا يخلو من الحزن، أن أحييها فأرفع قبعتي لها قبل أن ترحل بنا العربة، حيث كانت تقف على عتبة الباب حاملة جيب بين ذراعيها.

ما أعجب المحكمة البحرية أمامي في ذلك اليوم، وما هذا الهراء الذي لاح لذهني حول قضيتنا حين استمعت إليها! وكيف تجلى أمامي اسم «دورا»! لاح اسمها منقوشًا على لوح المجداف الفضي الذي وضعوه على الطاولة، رمزًا لهذه الولاية القضائية العالية. كيف كانت مشاعري بعد أن عاد السيد سبنلو إلى منزله من دوني! لقد انتابني أمل جامح في أن يصطحبني معه مرة أخرى، كما لو كنت بحارًا، قد أبحرت

سفينتي بعيدًا عني وتركتني في جزيرة مقفرة. لن أبذل جهدًا ضائعًا في وصف مشاعري تلك، لكن لو كان بمقدور هذه المحكمة العتيقة النائمة أن تستيقظ، وتستعرض صورًا لأحلام اليقظة التي راودتني حول دورا، لكان لها أن تكشف حقيقتي وهيامي.

لا أقصد أن أحلامي زارتني في ذلك اليوم وحده، بل زارتني يومًا بعد يوم، وأسبوعًا بعد الآخر، وفترة تلو الأخرى. كنت أذهب إلى المحكمة من دون أن أنتبه لما يجري حولي، بل لأفكر في دورا. كنت أفكر في بعض الحالات في القضايا، حين يطول استعراضها أمامي ببطء، وإذا بي أتساءل حول القضايا الزوجية - التي تذكرني بدورا أيضًا - وأعجب كيف يصير الأزواج غير سعداء! ويحيد تفكيري في حالات الميراث، فأتخيل ما إذا كانت الأموال المتنازع عليها قد آلت إليَّ، فما أهم الخطوات التي ينبغي اتخاذها على الفور لأفوز بدورا. قادني الأسبوع الأول من شغفي، إلى شراء أربع سترات فاخرة - لم أشترِها لنفسي، فأنا لم أكن لأزهو بها، بل كانت لأجل دورا - ورحت أرتدي قفازات طوال ذهبية بلون القش كلما خرجت إلى الشارع، ورحت أعالج كل الحبوب والقرح التي أصابت جلدي طوال حياتي. لو أن لي إحضار الأحذية الضيقة التي ارتديتها في تلك الفترة ومقارنتها بالحجم الطبيعي لقدمي، فإنها ستظهر هيام قلبي، وستدعو لرثاء حالي.

لفني إحساس بعجز بائس على الرغم من كل ما صنعته من عناية بمظهري، إرضاء لدورا. كنت أسير كل يوم أميالًا تلو أخرى آملًا أن أراها. صرت معروفًا جدًّا بعد وقت قصير على طريق نوروود كأحد

سعاة البريد، ليس في هذه البقعة فقط، بل في لندن بعد أن تجولت بين أرجائها أيضًا. تجولت في الشوارع ومررت بأفضل المتاجر التي تترد عليها السيدات، ورحت أطارد الحوانيت كما لو أنني روح هائمة، ثم أتردد على الحدائق مرة بعد الأخرى بعد أن ينهكني تجوالي الطويل. كنت أراها أحيانًا، على فترات طويلة وفي مناسبات نادرة. صادفت قفازها يلوح لي من نافذة عربة ذات مرة، والتقيتها وسرت معها ومع الآنسة مردستون قليلًا وتحدثت معها مرة أخرى. تنتهي جولتي معهما فأصاب بعدها بحزن بالغ، خاصة بعد أن أدرك أنني لم أُلمح بشيء عن مشاعري، أو لأنني لم أَبُح لها بافتتاني بها، أو لأنها لا تهتم بأمري. كنت أتوق دائمًا، إلى دعوة أخرى إلى منزل السيد سبنلو. إلا أنني مكثت مع خيبة أملي، لأنني لم أحقق أيًا من أحلامي.

يبدو أن السيدة كروب امرأة فطنة. لقد مر على تعلقي بدورا بضعة أسابيع، ولم تواتني الشجاعة الكافية للكتابة إلى أجنيس، ولم أستطع أن أصرح إليها بأمري، فاكتفيت بقول إنني ذهبت في زيارة إلى منزل السيد سبنلو، كما أضفت أنني تعرفت إلى «عائلته» التي تتكون من ابنة واحدة. وأقول إن السيدة كروب امرأة فطنة، لأنها اكتشفت أمري في تلك المرحلة المبكرة. جاءتني في إحدى الأمسيات، التي أحسست فيها شجنًا ووهنًا. كانت مصابة بأعراض ذلك الاضطراب الذي ذكرته من قبل، فطلبت مني منحها القليل من صبغة الحبهان الممزوجة بالراوند، والمنكهة بسبع قطرات من روح القرنفل، وكان هذا أفضل علاج لشكواها، أما إذا لم يتوفر هذا المزيج، فيكفي القليل من البراندي -على الرغم من أنه لم

يكن مستساغًا لها، فإنه كان بمثابة ثاني أفضل علاج. نظرًا لأنني لم أسمع قَطُّ بالعلاج الأول، في حين تحتوي خزانتي دائمًا على الوصفة الثانية، فإنني قد أعطيت السيدة كروب كأسًا من البراندي، ولا أشك في أنها لم تستخدمه بشكل غير لائق، لذا بدأت في شرابه أمامي.

قالت السيدة كروب: «ابتهج يا سيدي. لا أستطيع رؤيتك بائسًا يا سيدي. إنني أحمل مشاعر الأم».

لم أدرك تمامًا كيف يمكنها تطبيق هذه النصيحة بنفسها، لكنني ابتسمت للسيدة كروب في لطف، بكل ما أوتيت من قوة.

قالت السيدة كروب: «تعالَ يا سيدي. اعذرني إن قلت إنني أفهم الأمر يا سيدي. إن المسألة تتعلق بفتاة».

احمر وجهي خجلًا وقلت: «يا سيدة كروب».

تكلمت السيدة كروب بينما تومئ برأسها مشجعة لي وقائلة: «آهٍ، بارك الله فيك. حافظ على قلبك الطيب يا سيدي، لا تحزن يا سيدي. إذا هي لم تبتسم لك، فإنك ستقابل كثيرات غيرها. إنك رجل نبيل يا سيد كوبرفول، وستبتسم لك غيرها. عليك أن تثقك بنفسك يا سيدي».

تناديني السيدة كروب دائمًا بالسيد كوبرفول. أعرف أولًا وبلا شك، أنه لم يكن اسمي، وثانيًا، أميل إلى الظن، بأنها تربط هذا الاسم بشيء غير واضح يتعلق بيوم الغسيل.

قلت: «ما الذي يجعلكِ تفترضين يا سيدة كروب أن الأمر يتعلق بفتاة؟».

قالت في تأثر بالغ: «يا سيد كوبرفول، إنني أُم».

أبقت السيدة كروب يدها فوق صدرها لبعض الوقت، بينما مكثت صامتة تحصن نفسها ضد الألم المتكرر برشفات من دوائها، وفي النهاية استأنفت حديثها مرة أخرى.

قالت السيدة كروب: «استأجرت عمتك العزيزة هذه الغرف لك يا سيد كوبرفول، وقد أحسست منذ ذلك الوقت أن الله قد منحني إنسانًا يمكنني العناية به. الحمد لله». استوقفتني عبارتها: «وجدت منذ ذلك الوقت إنسانًا أعتني به»، ثم أكملت قائلة: «إنك لم تعد تأكل أو تشرب ما يكفيك يا سيدي».

قلت: «هل هذا ما أسندتِ إليه ظنكِ يا سيدة كروب؟».

قالت السيدة كروب في نبرة تقترب من التعنيف: «يا سيدي، لقد غسلت ثياب شباب غيرك. قد يكون الشاب النبيل حريصًا جدًّا على الاهتمام بنفسه، أو قد يكون أقل عناية بها. قد يمشط شعره بانتظام أو يهمله. قد يرتدي حذاءً كبيرًا جدًّا بالنسبة إليه أو ضيقًا للغاية. ويعود الأمر إلى ما اعتاد عليه كل شاب وفقًا لما تشكلت عليه شخصيته الأصلية. إلا أنه ما إن يميل إلى المبالغة في الاهتمام أو الإهمال يا سيدي، فلا أشك ساعتها في وجود فتاة في كلتا الحالين».

هزت السيدة كروب رأسها في حزم مما لا يدع لي شبرًا واحدًا من مساحة أقيم عليها جدالًا.

قالت السيدة كروب: «إن الرجل الذي مات هنا وكان يسكن قبلك كان قد وقع في الحب. أحب إحدى النادلات، وقام بتضييق صدرياته مباشرة، على الرغم من تورم جسده بسبب كثرة الشرب».

قلت: «أتوسل إليكِ يا سيدة كروب لا تقارني الفتاة في حالتي بالنادلة، أو أي شيء من هذا القبيل، إذا سمحتِ».

عادت السيدة كروب تقول: «يا سيد كوبرفول، إنني أم ولا أفتعل الأمر بلا شك. أستميحك عذرًا يا سيدي، إن كنت قد تطفلت عليك، فأنا لا أحب التطفل ولا أرغب في إقحام نفسي فيما لا أجد فيه ترحيبًا. إنك رجل نبيل يا سيد كوبرفول، ونصيحتي لك هي أن تبتهج يا سيدي، وأن تحافظ على قلبك الطيب، وأن تعرف قدرك. كما أنك تستطيع إن أردت أن تمارس نوعًا من الرياضة يا سيدي في هذه الأوقات مثل لعبة البولنج. إن ممارسة الرياضة أمر صحي، وقد تجد فيها ما يشغلك، ويفيدك».

أنهت السيدة كروب حديثها بهذه الكلمات، بعد أن شكرتني قائلة إنها تتوخى الحذر الشديد حتى لا تستنفد البراندي -الذي اختفى تمامًا- ثم حيتني بأدب مهيب، وانصرفت. راح شبحها ينقشع في ظلام الردهة، فإذا بنصيحتها تتمثل إلى ذهني في ضوء نوع طفيف من التطفل من جانب السيدة كروب بلا شك، لكنني ارتضيت نصيحتها في الوقت نفسه وكنت سعيدًا لسماع وجهة نظر أخرى، كما ينصح الحكماء، ليكون بمثابة تحذير لي في المستقبل للحفاظ على سري.

# الفصل السابع والعشرون

## تومي ترادلز

حفزتني نصيحة السيدة كروب، أو ربما حفزني التشابه الصوتي المميز بين كلمة لعبة البولنج وترادلز[1]، فخطر ببالي أن أذهب للبحث عنه في اليوم التالي. كان الوقت الذي حدد فيه وجوده خارج البيت قد ولى، وعاد ليسكن في شارع صغير بالقرب من الكلية البيطرية في كامدن تاون. عرفت من أحد الكتبة أن كثيرًا من المستأجرين في هذه الضاحية بالذات، من الطلاب الذين يدرسون الطب البيطري، وأنهم يشترون حميرًا حية لإجراء تجارب عليها في مساكنهم الخاصة. ما إن حصلت من هذا الموظف على بعض المعلومات، وعن الطريق إلى هذا المجمع الأكاديمي الخاص، إذا بي أنطلق بعد ظهر اليوم نفسه، في زيارة إلى زميل مدرستي القديم.

---

(١) يقصد هنا التناغم الصوتي بين كلمة *skittles* ومعناها لعبة البولينج، واسم صديقه *Traddles*.

لقد وجدت مستوى الشارع الذي يسكن فيه ترادلز أقل مما أرجوه له. بدا أن السكان يميلون إلى إلقاء أي أشياء صغيرة لا يحتاجون إليها على قارعة الطريق، مما جعلها متعرجة وقذرة، بل وتسبب إلقاء أوراق الكرنب إلى جعلها غير واضحة الملامح أيضًا. لم تكن القمامة نباتية بالكامل، بل رأيت من محتوياتها حذاءً، ووعاءً مطويًا، وقبعة سوداء، ومظلة، كلها في مراحل مختلفة من الانحلال، بينما رحت أبحث في طريقي عن رقم المنزل الذي أقصده.

ذكَّرني الطابع العام للمكان بالأيام الخوالي التي كنت أعيش فيها مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته، بل ذكَّرني بقوة بما ظهر أمامي من آثار التأنق الباهتة التي ارتسمت على المنزل الذي توجهت إليه، فجعلته مختلفًا عن جميع المنازل المجاورة في الشارع - على الرغم من أنها بنيت جميعًا على طراز واحد رتيب، فبدت كما لو أنها نسخ بدائية لصبي متخبط كان يتعلم كيفية بناء المنازل، أو لم تكن قد تجاوزت مهارة رسم تلميذ لبيوت على الورق قد شوهتها قذائف الهاون، مما زاد من تذكري للسيد ميكوبر والسيدة زوجته. ما إن وصلت بعد الظهيرة إلى الباب، حتى تصادف فتحه لبائع الحليب، مما زاد من تذكري للسيد ميكوبر والسيدة زوجته بقوة أكبر في هذه اللحظة.

قالها بائع الحليب لخادمة في ريعان الشباب: «والآن، هل من جديد بشأن المبلغ اليسير الذي لي عندكم؟».

كان ردها: «آهٍ، إن سيدي يقول إنه سيسدده على الفور».

راح بائع الحليب يتكلم كما لو أنه لم يتلقَّ جوابًا، أو كما فهمت من نبرة حديثه أنه يرغب في الاستماع إلى شخص ما داخل المنزل لا الخادمة الشابة التي أمامه، وقد عززت عندي هذا الانطباع الطريقة التي راح يحملق فيها نحو الممر في نظرات فاضحة، فاستطرد قائلًا: «نظرًا لأن هذا المبلغ القليل لم يسدد لفترة طويلة، ظننت أنه لن يسدد أبدًا، ولكني لن أتجاهل الأمر أبدًا».

ظل بائع الحليب يلقي بصوته ونظراته داخل المنزل، وأخذ يحدق في الممر، مستطردًا: «أما الآن فكما تعلمين، لن أنتظر أكثر مما انتظرت».

لم أشهد قَطُّ شذوذًا أكبر من الفارق بين طريقة هذا البائع، وطبيعة تعامله مع مادة لطيفة ناعمة مثل الحليب، فكانت طريقته الشرسة أقرب إلى الجزار أو تاجر البراندي.

ضعف صوت الخادمة الشابة أمامه، إلا أنها بدت لي كما لو أنها تحرك شفتيها، فتتذمر مرة أخرى قائلة إن سيدها سيسدد المبلغ على الفور.

تحدث بائع الحليب، بينما ينظر إليها بجدية للمرة الأولى، وقد أمسك ذقنها، قائلًا: «أقول لكِ، هل تحبين الحليب؟».

أجابت: «نعم، لقد أحببته». قال بائع الحليب: «جميل. لن أعطيكم إذن شيئًا منه غدًا. هل تسمعين؟ لن تحصلوا على قطرة واحدة من الحليب غدًا».

أحسب أنها بدت مرتاحة ما دامت ستحصل على قدر من الحليب اليوم. هز بائع الحليب رأسه في عنف ثم أطلق ذقنها، وفتح الصفيحة على مضض، وسكب الكمية المعتادة في إبريق العائلة. انطلق بعيدًا بعد أن تمتم بشيء ما، ثم أطلق صرخة مناديًا على سلعته في الجوار، كما لو أنها صرخة حاقدة مدوية.

توجهت إلى الباب وسألت: «هل يسكن السيد ترادلز هنا؟».

أجاب صوت غامض تسرب من أقصى الممر قائلًا: «نعم». ثم أجابت الخادمة الشابة مؤكدة: «نعم».

قلت: «هل هو في المنزل؟».

مرة أخرى أجاب الصوت الغامض بالإيجاب، وكررت الخادمة الشابة قوله مرة أخرى. دخلت وتبعت توجيهات الخادمة بالصعود إلى الطابق العلوي. مررت من باب الصالون الخلفي، وقد أحسست أن عينًا غامضة تراقبني، وربما هي عين الصوت الغامض نفسه.

وصلت إلى نهاية السلم - كان المنزل يتكون من طابق واحد يعلو فوق الطابق الأرضي - فإذا بترادلز يقف عند نهاية السلم لاستقبالي. فرح برؤيتي، ورحب بي ترحيبًا حارًّا، وأدخلني إلى غرفته الصغيرة. كانت حجرته في واجهة المنزل، أنيقة للغاية، على الرغم من قلة الأثاث بها. وبدا لي أنها غرفته الوحيدة، حيث رأيت بها أريكة تستخدم سريرًا، كما أبصرت فرش تنظيف أحذيته السوداء ودهاناتها بين كتبه، على الرف العلوي خلف القاموس. أما مائدة طعامه، فكانت مغطاة بأوراق عمله،

ويبدو أنه كان مستغرقًا حينها في عمله، مرتديًا معطفًا قديمًا. لم أوجه نظري إلى شيء بعينه، لكنني رأيت كل محتوياتها، إلى الحد الذي جعلني ألاحظ في أثناء جلوسي رسمًا لكنيسة على محبرته المصنوعة من الخزف، وكانت هذه العادة أيضًا قد اكتسبتها وتأصلت عندي منذ أيام ميكوبر الخوالي. يبدو أنه قام بالعديد من الترتيبات البارعة لإخفاء خزانة أدراجه، وصندوق حذائه، وكوب الحلاقة، وما إلى ذلك، مما أثار إعجابي على نحو خاص، ومكثتْ دليلًا على عدم تغير ترادلز الذي اعتاد على صنع نماذج من أوكار الفيلة من أوراقه لإخفاء الذباب داخلها، ولتهدئة نفسه بعد أي إساءات، ولم تزل بعض هذه الأعمال الفنية راسخة لا تُنسى في ذاكرتي أبدًا.

أبصرت شيئًا في إحدى زوايا الغرفة، مغطى بعناية بقطعة قماش بيضاء كبيرة. لم أستطع أن أفهم طبيعته.

قلت وأنا أصافحه مرة أخرى، بعد جلوسي: «يا ترادلز، إنني سعيد برؤيتك».

قال: «وأنا سعيد برؤيتك يا كوبرفيلد. إنني مسرور جدًّا برؤيتك حقًّا. وقد كنت فرحًا كذلك برؤيتك حين التقينا في ميدان إيلي، وكنت متأكدًا من أنك سعيد تمامًا برؤيتي، لذلك أعطيتك هذا العنوان بدلًا من عنواني في غرفة أخرى». قلت: «آهٍ، وهل لديك غرف أخرى؟»،

أجابني ترادلز قائلًا: «نعم، لديَّ ربع غرفة وممر، وربع كاتب. أقصد أنني وثلاثة آخرين نملك مجموعة من الغرف - تبدو وكأنها

شراكة تجارية - كما نقسِّم عمل الموظف أيضًا. يكلفني الأمر نصف كروان في الأسبوع».

ها هي شخصيته القديمة البسيطة ونيته الصافية تتجلى، كما يظهر شيء من حظه القديم العاثر أيضًا، كما أحسست أنه يبتسم لي ابتسامة قديمة بينما يعرض لي هذا التفسير.

أردف ترادلز: «إنني لست خجلًا من هذا المكان يا كوبرفيلد، كما تعرف، فلا أعطي عنواني هنا عادةً. بل لأنني أراعي من يأتون إليَّ، وأتفهم أنهم قد لا يرغبون في المجيء إلى هنا. أما أنا، فأكافح المصاعب في سبيل الحياة، وسيكون من السخف أن أتظاهر بأي شيء آخر».

قلت: «هل تدرس القانون؟ لقد أخبرني السيد ووتربروك بذلك».

أجابني ترادلز بينما يفرك يديه في رفق، محركًا إحداهما فوق الأخرى: «حقًّا، نعم. إنني أدرس القانون. والحقيقة أنني بدأت للتوِّ في الحفاظ على دراستي بانتظام، بعد تأخير طويل. لقد مر وقت منذ أن اجتزت امتحان قبول دراسة القانون». أكمل ترادلز حديثه جفلًا، كما لو قد خلع أحد ضروسه، قائلًا: «أما دفع الجنيهات المائة تلك، فأمر شاق إلى حد كبير».

سألته «هل تعرف ما لا يمكنني منع نفسي من التفكير فيه يا ترادلز، بينما أجلس هنا ناظرًا إليك؟».

قال: «لا أعرف».

قلت: «إنها تلك البدلة الزرقاء السماوية التي اعتدتَ أن ترتديها».

صاح ترادلز ضاحكًا: «يا إلهي، بالتأكيد. لقد كانت مشدودة ضيقة من الذراعين والساقين، أتعلم هذا؟ يا ربي! حسنًا. كم كانت أوقاتًا سعيدة، أليس كذلك؟».

أجبته قائلًا: «حقًّا، وأعترف أن مدير مدرستنا كان ليجعلنا أكثر سعادة، لو لم يُلحق الأذى بأي منا».

قال ترادلز: «ربما، نعم من الجائز، لكننا يا عزيزي، قد نعمنا بقدر كبير من المرح واللهو. هل تتذكر ليالينا في قاعة النوم؟ هل تذكر متى اعتدنا تناول العشاء؟ ومتى كنت تحكي القصص؟ هاهاهاها! وهل تتذكر ما تعرضت له من الضرب بالعصا بسبب بكائي على السيد ميل؟ أتذكر السيد كريكل! أتمنى لو أراه مرة أخرى».

قلت في غضب: «لقد كان يقسو عليك يا ترادلز». كانت روحه الساذجة قد جعلتني أشعر أنني رأيته يتعرض للضرب بالأمس فقط.

راح ترادلز يقول: «هل تظن ذلك؟ حقًّا؟ ربما وقع ذلك. إلا أن كل شيء قد انتهى منذ فترة طويلة. كيف حوَّله الزمن يا ترى؟».

قلت: «كنت مكفولًا من عمك وقتها إذن، أليس كذلك؟».

قال ترادلز: «بالطبع، إنه الشخص الذي كنت أقول إنني أكتب إليه دومًا من دون أن أفعل. آه، هاهاهاها! نعم، كان لي عم آنذاك، وقد مات بعد أن تركت المدرسة بفترة وجيزة».

قلت: «حقًّا!».

قال: «نعم. لقد كان تاجرًا... ماذا نسميه؟ كِسوَة؛ أقصد تاجر أقمشة، وقد جعلني وريثه في مهنته، إلا أن هذا العمل لم يعجبني بعدما كبرت».

سرد لي حكايته كما لو أنه يؤلفها، حتى إنني تخيلت أنه ربما يقصد معنى آخر. سألته قائلًا: «هل تقصد ما قلته حقًّا؟».

أجاب ترادلز: «آهٍ يا عزيزي، نعم يا كوبرفيلد. إنني أعني ما قلته. كان الأمر مؤسفًا، لأنه لم يكن يحبني على الإطلاق. قال إنني خيبت آماله أشد خيبة، لذلك تزوج من مدبرة منزله».

سألته: «وماذا فعلتَ؟».

قال ترادلز: «لم أفعل أي شيء على وجه التحديد. لقد عشت معهما، في انتظار أن يقذفاني إلى معترك الحياة. وللأسف تسرب النقرس إلى بطنه، ثم مات متأثرًا بمرضه، فتزوجت الخادمة من شاب، وبالتالي لم أحظ بنصيب من التركة».

سألته: «ألم تحصل على شيء يا ترادلز، بعد هذه السنين؟».

قال ترادلز: «آه يا عزيزي، حسنًا، لقد حصلت على خمسين جنيهًا. ولم أكن أعمل في أي مهنة، ولم أكتسب أي مهارة تؤهلني للعمل. صرت في البداية في حيرة، ولم أدرِ ماذا أفعل. ولكنني مع ذلك، شرعت في عمل بمساعدة ابن أحد رجال المهنة، كان في مدرسة سالم هاوس. إنه ياولر، الصبي ذو الأنف المائل. هل تتذكره؟».

لا. لم يلازمني هذا الصبي، فقد كانت كل أنوف الصبية مستقيمة في عهدي.

قال ترادلز: «لا يهم أن تتذكره. المهم أنني بدأت في نسخ المذكرات القانونية بمساعدته. لم يكفلني هذا العمل بالكامل. لذلك بدأت في صياغة عرض للقضايا، أو إعداد الملخصات للمحامين، والعمل في مثل هذه الأنواع من الأعمال. إنني رجل مثابر يا كوبرفيلد، ولذلك فإنني تعلمت كيفية القيام بهذه الأعمال ببراعة. حسنًا. وهنا ألحت في رأسي فكرة أن أدخل نفسي في زمرة دارسي القانون، وقد قضت هذه الفكرة على كل ما تبقى من الخمسين جنيهًا. نصحني ياولر بزيارة مكتب أو مكتبين آخرين؛ كان منهما مكتب السيد ووتربروك، فحصلت بواسطته على الكثير من المهام. حالفني الحظ كذلك بالتعرف إلى رجل يعمل في مجال النشر، وكان يعد موسوعة، ومن ثَم طلب مني العمل معه...». ألقى هنا نظرة خاطفة إلى طاولته، وأكمل قائلًا: «وبالفعل، ها أنا أعمل معه في الوقت الراهن». راح ترادلز هنا يتحدث محتفظًا بثقة مرحة اعتدتها في كل ما يقول: «إنني لست باحثًا سيئًا يا كوبرفيلد، إلا أنني لا أتمتع بمهارات الإبداع أو الأصالة على الإطلاق، بل أحسب أنه لم يُولد شاب أقل إبداعًا مني قَطُّ».

بدا أن ترادلز كان يتوقع مني أن أوافقه على هذا الرأي، فلم أستطع سوى الاستجابة بأن أومأت برأسي، ومن ثَم استمر في حديثه بالصبر نفسه المليء بالحيوية الذي كان عليه، ولا أجد تعبيرًا أفضل مما قلت لأعبر عن حالته.

قال ترادلز: «هكذا استطعت شيئًا فشيئًا، أن أجمع مائة جنيه في النهاية مع الاقتصاد في العيش. والحمد لله أنني استطعت دفعها، على الرغم من أن دفعها... على الرغم من أن دفعها كان مضنيًا بالتأكيد. إنني أعيش بحسب نوع العمل الذي ذكرته لك، وما زلت آمل أنه في يوم من الأيام سأستطيع أن أتواصل مع بعض الصحف لأظفر بما يحقق لي الثراء. أما الآن يا كوبرفيلد، فإنك تبدو كما عهدتك بالضبط؛ بهذا الوجه الجميل، وهذه الطلة المريحة المحببة للغاية، حتى إنني لم أُخفِ عنك شيئًا. ولذلك يجب أن أخبرك أنني خاطب».

خاطب! آهٍ يا دورا!

قال ترادلز: «إنها ابنة قسيس. واحدة من عشرة أبناء يقيمون في جنوب ديفونشاير». لاحظ ترادلز أنني أنظر - لا إراديًّا - نحو الصورة المرتسمة على المحبر، فإذا به يؤكد ظني قائلًا: «نعم، إنها الكنيسة المعنية»، ثم راح يتتبع بأنامله مسارًا مرسومًا على المحبرة، وهو يقول: «انظر هنا نحو اليسار، مرورًا بهذه البوابة. يقبع المنزل هنا، حيث أشير بهذا القلم بالضبط، في مواجهة الكنيسة، كما ترى».

لم أدرك تمامًا حجم البهجة التي راح يقص بها عليَّ هذه التفاصيل، إلا فيما بعد، حينما رحت أفكر في نوع من الأنانية برسم مخطط لمنزل السيد سبنلو والحديقة في الوقت نفسه.

قال ترادلز: «يا لها من فتاة معززة مكرمة! إنها تكبرني قليلًا، إلا أنها أعز الفتيات! ألم أخبرك أنني مفارق المدينة؟ لقد توجهت إلى خارج المدينة. رحت أمشي هناك، ثم عدت، ويا لمتعتي بالوقت الذي قضيته!

لا أخفيك سرًّا، فمن المحتمل أن تكون مخططاتنا طويلة الأمد إلى حد ما، لكن شعارنا هو «انتظر على أمل». إننا نردد هذه المقولة دائمًا. نقول دائمًا «انتظر على أمل». وإنها تنتظرني يا كوبرفيلد، وإن بلغت الستين، أو أي سن يمكنك تخيلها.

نهض ترادلز من مقعده، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة منتصر، ثم وضع يده على القماش الأبيض الذي كنت قد لاحظته من قبل.

قال: «ومع ذلك، فإننا لم نغفل الشروع في تجهيز منزلنا. لا، كلا، لقد بدأنا في إعداده، إذ يجب أن نخطو درجات وإن كانت يسيرة». سحب ترادلز القماش في فخر وعناية فائقين، وأكمل ترادلز حديثه قائلًا: «إنهما قطعتان من الأثاث بدأنا بهما. وقد اشترت هذه الزهرية وهذا الرف بنفسها. لقد وضعت هذه الزهرية عند نافذة صالة الاستقبال». تراجع قليلًا عنها ولمسها بإعجاب أكبر، ثم أردف قائلًا: «مع نبتة ثبتها بداخلها. انظر أمامك أيضًا، لقد اشتريت هذه المائدة المستديرة الصغيرة ذات السطح الرخامي، ومحيطها قدمان وعشر بوصات. ربما أردت أن تضع كتابًا عليها، كما تفهم، أو ربما يأتي شخص ما لزيارتك أو لزيارة زوجتك، فيرغب في إسناد فنجان من الشاي إلى مكان ما. وانظر هنا مرة أخرى، إنها قطعة تجميلية رائعة متقنة الصنع، حتى إنها تبدو صلبة كصخرة». امتدحتهما بشدة، فأعد ترادلز الغطاء بعناية فائقة كما أزاله تمامًا.

قال ترادلز: «إن خطوة الأثاث ليست مضنية إلى حد كبير. إلا أن أكثر ما يثبط عزيمتي يا كوبرفيلد هو تفاصيل أغطية المائدة وأكياس الوسائد وغيرها من الأشياء من هذا القبيل. أضف إلى ذلك المصنوعات

الحديدية، وصناديق الشموع، والمشابك، وهذه الأصناف الضرورية ونحوها، لأن هذه الأشياء تكلف الكثير، كما أنها تزداد غلوًّا. ومع ذلك فإنني «انتظر على أمل» وإنني أؤكد لك أنها أعز فتاة».

قلت: «إنني متأكد من ذلك تمامًا».

قال ترادلز وهو عائد إلى مقعده: «أما وإن وصلنا إلى هذه اللحظة، فهذه هي نهاية أخباري، وها أنا أخطو بكل ما أوتيت من همة. إن دخلي ليس وفيرًا، إلا أنني أقتصد فيما أنفق. وجملة القول إنني أتناول طعامي مع سكان الطابق السفلي، وهم أناس طيبون حقًّا. لقد شهد كل من السيد ميكوبر والسيدة زوجته قدرًا كبيرًا من متاعب الحياة، وهما رفقة ممتازة حقًّا».

صرخت بسرعة: «يا عزيزي ترادلز، عن أي شيء تتحدث؟».

نظر إليَّ ترادلز، كما لو كان يتساءل مندهشًا عن مقصدي.

قلت: «أتقول السيد ميكوبر والسيدة زوجته؟! يا للعجب، إنني على معرفة وثيقة بهما».

سمعت طرقة مزدوجة على الباب، وكنت أعرفها جيدًا من خبرتي القديمة ومقامي في وندسور تراس، فهذه الطرقات لا يمكن أن تكون لأحد سوى السيد ميكوبر. انقشع الشك عن ذهني، بعد أن تأكدت من أنهما صديقاي القديمان. طلبت من ترادلز أن يستأذن مالك العقار بالصعود إلينا. استجاب ترادلز لطلبي، وبناءً على ذلك نادى صاحب البيت من فوق سور السلم، وإذا بالسيد ميكوبر يدخل إلى الغرفة في لطف بالغ ومظهر

شبابي من دون أن يتغير فيه شيء يذكر، إذ احتفظ ببنطاله الضيق، وعصاه، وياقة قميصه العريضة، ونظارته؛ إنه هو بكل ما عهدته به دومًا.

تحدث السيد ميكوبر بنبرة قديمة مميزة في صوته، قائلًا: «أستميحك عذرًا يا سيد ترادلز»، وكان يحاول أن ينهي دندناته الناعمة، حين راح يقول: «لم أكن أعلم أن لديك إنسانًا غريبًا في هذا المسكن وفي حرمك».

انحنى السيد ميكوبر لي قليلًا بعد أن رفع ياقة قميصه.

قلت: «كيف حالك يا سيد ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر: «شكرًا لك يا سيدي. إنني في أفضل حال».

تابعت: «وكيف حال السيدة ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر: «يا سيدي، إنها أيضًا، والحمد لله، في أفضل حال».

«والأطفال يا سيد ميكوبر، كيف حالهم؟».

قال السيد ميكوبر: «يسعدني أن أقول يا سيدي إنهم بالمثل، ينعمون بأفضل حال».

لم يستطع السيد ميكوبر أن يتعرف عليَّ طوال هذا الوقت، على الرغم من أنه وقف أمامي وجهًا لوجه. إلا أنه ما إن رآني أبتسم، حتى أخذ يتفحص ملامحي باهتمام أكبر، ثم تراجع خطوة وراح يصرخ قائلًا: «هل هذا ممكن؟! هل يسعدني الحظ بأن أرى كوبرفيلد مرة أخرى!»، ثم صافحني بكلتا يديه بقدر بالغ من الحماس.

قال السيد ميكوبر: «يا لجنات النعيم! يا سيد ترادلز! لم أحسب أنني سأجدك على معرفة بصديق فترة الشباب، ورفيق الأيام الخوالي! آه يا عزيزي». ثم راح ينادي على السيدة ميكوبر عبر السلم، بينما بدا ترادلز مندهشًا بل مشدوهًا، ولا شيء يستطيع أن يصف دهشته حين سمعناه يقول: «ثمة رجل نبيل في شقة السيد ترادلز، وهو يرجو أن يُقدَّم إليكِ يا حبي».

عاد السيد ميكوبر على الفور وصافحني مرة أخرى.

قال السيد ميكوبر: «وكيف حال صديقنا الدكتور العزيز يا كوبرفيلد؟ وكيف حال المعارف كلها في كانتربري؟».

قلت: «لا أسمع عنهم سوى أخبار جيدة».

قال السيد ميكوبر: «إنني سعيد للغاية لسماع أنهم بخير. كانت آخر مرة التقينا فيها في كانتربري، في ظل هذا الصرح الديني الذي خلده تشوسر[1]، والذي كان مقصدًا قديمًا للحجاج يأتونه من أقصى بقاع الأرض، وباختصار، كان لقاؤنا قريبًا من الكاتدرائية».

أجبته مؤكدًا قصته. ثم واصل السيد ميكوبر حديثه في نبرة مزهوة وصوت مرتفع بعض الشيء. إلا أنه لم يخلُ من بعض علامات القلق البادية على وجهه. انتبهت إلى أن بعض الأصوات كانت تسري من الغرفة المجاورة، ولكني لم أبين ما أدركته، ربما كانت السيدة ميكوبر

---

(١) شاعر معروف، لُقِّب بأبي الشعر الإنجليزي، كتب قصصًا تُسمَّى «حكايات كانتربري»، انتقد فيها الكنيسة.

تغسل يديها، وتفتح ثم تغلق بسرعة صنبورًا صدئًا يحدث ضوضاء عند حركته.

قال السيد ميكوبر وهو ينظر نحو ترادلز بعين واحدة: «ستجد أننا يا كوبرفيلد نعيش حاليًّا، على ما يمكن تسميته، مقياسًا صغيرًا ومتواضعًا للرسم، لكنك تدرك أنني خلال مسيرتي المهنية تغلبت على صعوبات شتى واجتزت الكثير من العقبات. ولستَ غريبًا لتجهل أنني عانيت في بعض فترات حياتي، وكان من الضروري أن أتحلى فيها بمزيد من الصبر، حتى ظهرت بعض الأحداث المتوقعة. صار من الضروري أن أتراجع وأتريث، قبل أن أُقدم على فعل ما أثق به، والذي أسميه بلا شك ربيع العمر. أما الآن فإنني في إحدى هذه المراحل بالغة الأهمية في حياة أي إنسان. وإنك تجدني الآن متحفزًا للربيع، ولديَّ كل الأسباب لأن أتصور أن قفزة قوية ستثمر عن النتيجة قريبًا».

كنت أُعبِّر عن قبولي لما سمعته، فإذا بالسيدة ميكوبر مُقبلة علينا. لاحت أضعف مما كانت عليه في السابق، أو هكذا بدت لعيني حين أقبلت في هذه اللحظة، إلا أنها كانت ترتدي ملابس رسمية كاملة وزوجًا من القفازات البنية.

قال السيد ميكوبر بينما يصطحبها نحوي: «هنا يا عزيزتي رجل نبيل يُدعى كوبرفيلد، يرغب في تجديد معرفته بكِ».

اتضح أنه كان من الأفضل، لو مهد السيد ميكوبر برفق قبل هذا الإعلان، لأن السيدة ميكوبر كانت في حالة صحية حرجة، ولم تستطعْ التغلب على هول المفاجأة، مما جعل السيد ميكوبر يسرع في خوف

وفزع إلى صنبور الماء في الفناء الخلفي، ليملأ وعاءً من الماء يُلطِّف به جبينها. استردت وعيها من جديد، وقد أبدت فرحًا بالغًا وصادقًا لرؤيتي. دارت بيننا جميعًا أحاديث استمرت لنصف ساعة. سألت السيدة ميكوبر عن التوأم، فقالت إنهما كبرا وصارا «مخلوقين عظيمين»، وبعد ذلك سألتها عن السيد ميكوبر والآنسة شقيقته، فوصفتهما بقولها إنهما صارا «عملاقين ماردين»، لكنها لم تحضرهما في هذه المناسبة.

ألح السيد ميكوبر على بقائي حتى تناول العشاء، ولم أكن كارهًا لهذه الدعوة، لكنني خشيت أن أجلب المتاعب للسيدة ميكوبر، كما أنني أحسست قلقًا في عينها حول مقدار اللحم البارد الذي لن يكفي بعد هذه الدعوة. لذلك طلبت تأجيل هذه الدعوة إلى وقت آخر. لاحظت بعدها أن السيدة ميكوبر قد اطمأنت على الفور، وقاومت كل الإقناع بالتخلي عن رفضي بعد تأكدي من حالتها.

أخبرت ترادلز والسيد ميكوبر وزوجته، قبل أن أفكر في المغادرة، أنني أريد منهم تحديد موعد للمجيء إلى منزلي وتناول الطعام معي. كان انشغال ترادلز بأعماله قد حتَّم علينا تعيين موعد بعيد إلى حد ما، لكن في النهاية حددنا موعدًا يناسبنا جميعًا، ثم استأذنت في الانصراف.

رافقني السيد ميكوبر، بحجة أنه سيرشدني إلى طريق أقرب مما سلكته في مجيئي، فرافقني حتى ناصية الشارع، وانفرد بي وقد أخذ يشرح لي دافعه، وهو أنه يريد أن يبوح ببضع كلمات إلى صديقه القديم، وأن يُسر إليه بحديث.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، لست بحاجة إلى أن أخبرك أنني أحظى براحة لا توصف بعد أن صار لدينا تحت سقف بيتنا وفي ظل الظروف الحالية، عقل مثل ذاك الذي يلمع - إذا سُمح لي باستعارة هذا التعبير - والمتمثل في صديقك ترادلز. خاصة أن جيراننا في المسكن المجاور، من أمثال عاملة غسيل تعرض بعض المخبوزات للبيع من نافذة في ردهة المنزل، وضابط من «باو ستريت» يسكن في منزل في نهاية الطريق، إلا أن ترادلز صار مصدرًا للتعزية سواء لي أم للسيدة ميكوبر. إنني في الوقت الحاضر، يا عزيزي كوبرفيلد، منخرط في أعمال تجارة الحبوب والبقول مقابل العمولة. إنها مهنة لا أستسيغ أن أصفها بالمجزية - أو بعبارة أخرى، إنها لا تغني من جوع - وقد نتج عن ذلك إحراجي في بعض المواقف بعد مروري بضائقة مالية. ومع ذلك، يسعدني أن أضيف أنه تلوح أمامي الآن فرصة عاجلة تشي بظهور شيء ما - لا أستطيع أن أصرح بشيء عن مصدرها - إنني أثق في أن هذه الفرصة ستكفل لي بشكل دائم، ما يكفيني ويكفي صديقك ترادلز، الذي أهتم بأمره وأعتني به بمحبة خالصة. وربما تكون مهيأ لسماع أن السيدة ميكوبر في حالة صحية سينجم عنها في نهاية المطاف ما يزيد من روابط المحبة بيننا. إننا سنحصل - باختصار، على طفل جديد. لقد أبدت عائلة السيدة ميكوبر مدى أصالتهم بعد تعبيرهم عن عدم رضاهم عن حالنا. إلا أنني لا أستطيع إلا أن أُعقب بقولي إن هذا الشأن لا يخصهم، وإنني أقابل شعورهم المسيء بالازدراء والتحدي».

ثم صافحني السيد ميكوبر مرة أخرى وانصرف عني.

# الفصل الثامن والعشرون

## تحديات السيد ميكوبر

انقضى اليوم الذي اجتمعت فيه من جديد بأصدقائي القدامى، وإذا بي أحيا بعده على ذكرى دورا وشرب القهوة. صرت واهنًا، بعد أن ضعفت شهيتي من جراء وقوعي في الحب، إلا أنني كنت سعيدًا بحالتي، لأنني شعرت أنني أخون حبي لدورا لو أقبلت على طعامي كالمعتاد. لم يعد التريض يؤتي نتيجته المرجوة معي، بعد أن صارت خيبة أملي تطغى على ما قد أناله من هواء نقي. ظلت الشكوك تراودني، وكانت ترجع إلى الخبرة السيئة والتجارب الأليمة التي مررت بها في هذه الفترة من حياتي. رحت أتساءل ما إذا كان الاستمتاع بأكل لحوم الحيوانات يمكن أن يستسيغه إنسان يعاني آلام الأحذية الضيقة باستمرار. أحسب أن الأطراف تحتاج إلى نوع من الراحة قبل أن تنصرف المعدة إلى أداء مهامها بإتقان.

دعوتهم إلى حفل عشاء صغير، ولكني لم أكرر هذه المرة تحضيراتي المكثفة السابقة. اكتفيت بأن أقدم زوجًا من السمك، وفخذة صغيرة من لحم الضأن، وفطيرة محشوة بلحم الحمام. أعلنت السيدة كروب تمردها بعد أن ألمحت إليها في خجل إلى أن تطهو السمك وتسوي الفخذة، وأجابتني كما لو أنني قد أصبت كرامتها بسوء، فقالت: «لا، لا يا سيدي. لا تطلب مني أي شيء، لأنك تعرفني أكثر من غيرك، ولأنني غير قادرة على فعل ما لا ترضاه مشاعري»، ولكننا في النهاية، وصلنا إلى حل وسط، فوافقت السيدة كروب على تلبية هذا العمل الفذ، بشرط أن أتناول العشاء في المنزل لمدة أسبوعين كاملين.

أود أن أشير هنا إلى ما تعرضت له من استبداد فرضته السيدة كروب عليَّ، وكم كان أثره مروعًا ومخيفًا. لم يراودني مثل هذا الفزع قَطُّ إزاء أي إنسان آخر. كنا نطرح حلولًا وسطية في كل شيء. أما إذا ترددت في شيء، فسرعان ما تقع فريسة لمرضها العجيب، ذاك المرض الذي يرقد دائمًا في كمين داخل جوفها، وهو على أهبة الاستعداد للاعتداء على أجهزة جسدها الحيوية في أقرب وقت ممكن. كنت إذا ما قرعت الجرس لأكثر من ست مرات، وقد نفد صبري من كثرة محاولاتي الطائلة بلا جدوى، إذا هي تظهر أخيرًا - وهو أمر لا يمكن الاعتماد عليه بأي شكل من الأشكال، فتُقبل إليَّ مستاءة، وتندس في كرسي بالقرب من الباب لاهثة الأنفاس، فتضع يدها على صدرها المتعب، وقد أصابها الإعياء التام. تدفعني حالتها في رضا وفرح مني إلى عرض أي تضحيات من البراندي أو أي شيء آخر للتخلص من مرضها. وإذا

اعترضت على ترتيب سريري في الساعة الخامسة بعد الظهر - ما زلت أتصور أنه ترتيب غير مريح، فإن حركة واحدة بيدها تجاه المنطقة نفسها حيث صدرها المرهف المتألم، كانت كافية لتجعلني لا أتردد في تقديم الاعتذار. باختصار، كنت سأفعل أي شيء في كرم ونبل بدلًا من أن أسيء إليها؛ وبهذا صارت السيدة كروب فزعًا يغزو حياتي.

اشتريت حاملًا للأطباق مُستعملًا لاستخدامه في تقديم العشاء، بدلًا من إعادة استئجار النادل الذي كنت قد جربته قبل ذلك ثم راودتني بعض الشكوك حوله، خاصة بعد أن التقيت به في شارع ستراند، صباح أحد أيام الأحد، مرتديًا قميصًا يشبه قميصي تمامًا، وكنت قد فقدته منذ حفل العشاء السابق الذي عمل به. إلا أنني استأجرت «الفتاة الشابة»، ولكنني اشترطت عليها أن تحضر الأطباق فقط، ثم تنسحب إلى مكان ما خلف الباب الخارجي للانتظار، حتى لا ينزعج الضيوف من نوبة العطس التي تنتابها، وتصير فرصة تعثرها بالأطباق وكسرها أمرًا مستحيلًا.

جهزت المواد اللازمة لإعداد شراب البانش، الذي سيتولى تحضيره السيد ميكوبر. قدمت إليه زجاجة من ماء اللافندر، وشمعدانًا يحمل شمعتين، وورقة تحوي عددًا من الدبابيس المختلفة، ووسادة مدببة للدبابيس ستستعين بها السيدة ميكوبر لإصلاح زينتها وقد وضعتها على المنضدة. أشعلت نيران المدفأة في غرفة نومي حتى تتمتع السيدة ميكوبر بنوع من الدفء والراحة. بسطت المفروشات بيدي، ثم انتظرت ضيوفي في هدوء.

وصل الزوار الثلاثة معًا في الوقت الموعود. كان السيد ميكوبر يرتدي قميصًا ذا ياقة أكبر من المعتاد، وقد استعان بشريط جديد يحفظ نظارته. ظهرت السيدة ميكوبر مصطحبة قبعتها في حقيبة ورقية بيضاء اللون، وقد حملها ترادلز عنها، كما تأبطت السيدة ميكوبر ذراعه. فرح الجميع لرؤية مكان إقامتي. اصطحبت السيدة ميكوبر إلى منضدة الزينة، فرأت ما أعددته لها، ومن ثَم استولت عليها النشوة، حتى إنها نادت على السيد ميكوبر وطلبت منه الحضور لمشاهدة ما أسعدها.

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، يا له من استقبال فاخر! إن هذه الطريقة في العيش تذكرني بفترة الشباب حين كنت أعزب، ولم يتقدم أحد بعد للزواج من السيدة ميكوبر عند مذبح العهد».

قالت السيدة ميكوبر في مرح: «إنه يقصد أنه لم يكن قد طلبني بعد، يا سيد كوبرفيلد. إنه لا يستطيع أن يتحدث عن الآخرين».

تحدث السيد ميكوبر بنوع من الجدية المفاجئة قائلًا: «يا عزيزتي، إنني لا أرغب في الحديث عن الآخرين. أدرك جيدًا أن الأقدار الخفية قد حفظتكِ لتكوني نصيبًا لي. لقد صرتِ من نصيب إنسان يكافح صراعًا طويل الأمد، ولم يسعه في النهاية سوى الوقوع ضحية للتورط في أزمات مالية معقدة. إنني أفهم ما ترمين إليه يا حبيبتي، وإني آسف عليكِ، ولكني أستطيع التحمل».

صاحت السيدة ميكوبر في بكاء مرير: «آه يا ميكوبر، هل أستحق هذا منك؟! أنا التي لم أتركك قَطُّ، أنا من لن يهجرك أبدًا يا ميكوبر»، قال السيد ميكوبر بعد أن ظهر عليه تأثر بالغ: «آه يا حبيبتي، ستسامحينني،

كما أن صديقنا القديم كوبرفيلد سيسامحني، إنه بوح لحظي من روح رجل جريح، صار حساسًا بسبب الاصطدام الأخير مع ممثل السلطة -أو بعبارة أخرى، مع عامل بغيض يعمل في شركة المياه- وأنكما سوف تشفقان عليه فتتجاوزان عن سيئاته من دون إدانته».

عانق السيد ميكوبر السيدة زوجته ثم شد على يدي، مما جعلني أستنتج من هذا التلميح المنكسر أن المياه قد انقطعت بعد ظهر ذلك اليوم عن بيته، بسبب تخلفه عن سداد ديونه للشركة.

حاولت صرف انتباه السيد ميكوبر عن هذا الموضوع الكئيب، فأبلغته أنني أعتمد عليه في إعداد شراب البانش، ومن ثَم اصطحبته إلى الطاولة وناولته الليمون. انقشع حزنه الأخير، ناهيك عن يأسه الذي لم يستطع أن يستولي عليه سوى لحظة واحدة. لم أرَ في حياتي قَطُّ رجلًا يستمتع برائحة قشر الليمون، والسكر، ورائحة احتراق الروم، وبخار الماء المغلي، كما فعل السيد ميكوبر بعد ظهر ذلك اليوم. كم كان رائعًا أن نرى وجهه يطل علينا لامعًا من بين سحابة من هذه الأدخنة الرقيقة، بينما يحرك المزيج ويخلطه ويتذوقه، فبدا كأنه لا يجهز شراب البانش، بل يعد ثروة طائلة لعائلته ستصل وتورث إلى الأجيال القادمة! أما السيدة ميكوبر، فلا أعرف ما إذا كان تأثير القبعة، أو ماء اللافندر، أو الدبابيس، أو الدفء، أو الشمع، قد كان سببًا في خروجها من غرفتي في مثل هذه الهيئة الجميلة المحببة التي أطلت بها علينا. حتى إنني لا أحسب أنني رأيت قُبَّرة أجمل وأزهى من هذه المرأة البديعة.

لم أجرؤ على الاستفسار حول هذا الأمر قَطُّ، لكنني أظن أن السيدة كروب قد أصابها إعياء بعد قلي السمك لأننا لم نقوَ على أكله، ومن ثَم انتظرنا الطبق التالي. ظهرت فخذة لحم الضأن وقد لاحت شديدة الحمرة من الداخل، وشاحبة اللون من الخارج، إلى جانب وجود مادة غريبة ذات طبيعة رملية متناثرة عليها، كما لو أنها سقطت في رماد موقد المطبخ في أثناء طهوها. إلا أننا لم نستطع الحكم على هذا الأمر، لأننا لم نتذوق المرق بعد أن أوقعته «الفتاة الشابة» على الدرج، وقد ظل منسدلًا فوقه كما القطار الطويل حتى انزاح إلى الخارج. لم تكن فطيرة الحمام سيئة، لكنها كانت فطيرة مضللة، إذ كانت القشرة تشبه رأسًا مخيبًا للآمال، لا تعريف لها من منظور علماء الآثار، بل مليئة بالكتل والنتوءات، من دون أي شيء محدد تحتها. باختصار، كانت المأدبة فاشلة، وكان حري بي أن أتألم وأحزن لفشلها التام، لولا أنني كنت دائم الحزن واليأس بشأن أمر دورا. لم أستطع أن أتجاوز هذه الحالة إلا بعد فكاهة رائعة أطلقها ضيفي السيد ميكوبر.

قال السيد ميكوبر: «يا صديقي العزيز كوبرفيلد، إن الكثير من الحوادث تقع في منازل العائلات الأكثر تنظيمًا، كما تقع في منازل العائلات التي لا يدفعها تنظيمها إلى أن تصبح محرابًا، أو في منزلة الصفوة. أقول باختصار إن تأثير المرأة، في أعظم أدوارها السامية بكونها زوجة، قد لا يخلو من وقوع ما وقع، ويجب علينا أن نتحمل الأمور. إذا سمحت لي بأخذ حريتي في أن أقول إن عددًا قليلًا من الأصدقاء هم أفضل من الشيطان في طهو الأطعمة، وأحسب أنه مع نوع من تقسيم

العمل، يمكننا إنجاز شيء جيد. اطلب من الشابة تجهيز شبكة للطهو هنا لأني أود أن أصلح لك هذا الحادث الصغير بسهولة».

وجدت شبكة حديدية في المخزن، كانت تستخدم في طهو اللحم المقدد الذي يقدم في الصباح. جئنا بها في غمضة عين، وقسمنا أنفسنا على الفور لتنفيذ فكرة السيد ميكوبر. كان تقسيم العمل الذي أشار إليه كالتالي: قام ترادلز بتقطيع لحم الضأن إلى شرائح، أما السيد ميكوبر -الذي كان بإمكانه فعل كل شيء بإتقان ومهارة- فقد قام بتغطيتهم بالفلفل والخردل والملح والتوابل، ثم وضعتهم أنا على شبكة الحديد، ورحت أقلبهم بشوكة، ورفعتهم عنها تحت إشراف السيد ميكوبر. راحت السيدة ميكوبر تعد طبقًا من فطر عيش الغراب في قدر صغير، واستمرت في تقليبه فوق النار. ما إن تحصلنا على بعض الشرائح المطهوة، حتى أجهزنا عليها، ولم تزل أكمامنا مطوية، مشمرين عن أذرعتنا، ناثرين المزيد من الشرائح لتنضج وتتقد فوق النار، وقد قسمنا انتباهنا بين لحم الضأن المطهو في أطباقنا، وشرائحه الجاهزة للشواء.

وما أطرف هذه الطريقة في الطهو، وما أميزها! رحنا نتحرك بشكل دوري للعناية بالطعام، فنجلس ثم نقفز من مقاعدنا مرات لمتابعة الشرائح الهشَّة التي تخرج من الشبكة الحديدية ناضجة وساخنة. لفتنا متعة بالغة، وفي خضم مثل هذا الضجيج المغري والمذاق الآخذ، التهمنا لحم الضأن عن كامله ولم نُبقِ سوى العظم. عادت شهيتي إلى الطعام بأعجوبة. أشعر بالخجل من تسجيل هذا، لكنني أعتقد حقًّا

أنني نسيت دورا لبعض الوقت. وإني على يقين من أن السيد ميكوبر والسيدة زوجته لم يكن ليسعدا بمحفل كما سعدا، ولو أنهما باعا سريرًا من أثاثهما لتوفير هذه المتعة. كما راح ترادلز يضحك بحرارة، طوال الوقت تقريبًا، وهو يأكل ويعمل. لقد كنا جميعًا يدًا واحدة، وأجرؤ على القول إننا لم نكن لنحقق نجاحًا أكبر مما حققناه.

كنا في أوج متعتنا، وقد شغل كل واحد منا بعمله، وقد عملنا جاهدين على إعداد آخر دفعة من شرائح اللحم لإنضاجها على أكمل وجه حتى تُتوج محفلنا بالنجاح. تنبهت ساعتها إلى وجود شخص غريب في الغرفة، وما إن التفت حتى وقعت عيناي على ليتيمر المحترم، واقفًا أمامي ممسكًا بقبعته في يده.

سألت: «ما الأمر؟».

قال: «أستميحك عذرًا يا سيدي، لقد طلب مني الحضور إليك. هل جاء سيدي إلى هنا؟».

«لا».

«ألم تَرَه يا سيدي؟».

«لا، ألم تأتِ قبله؟».

«كلا، لم أسبقه على الفور يا سيدي».

«هل أخبرك أنك ستجده هنا؟».

«ليس الأمر كذلك بالضبط يا سيدي. لكن أظن أنه سيكون هنا غدًا، ما دام أنه لم يصل اليوم».

«هل سيأتي من أكسفورد؟».

عاد باحترام: «أتوسل إليك يا سيدي، أن تتفضل بالجلوس وتسمح لي بفعل هذا عنك». تناول الشوكة من يدي من دون أن أمنعه، وانحنى على الموقد، كما لو أن كل انتباهه منصب عليه.

لا أشك في أننا لم نكن لنشعر بأي إزعاج، لو أقبل ستيرفورث بنفسه علينا، إلا أننا صرنا في لحظة أكثر وداعة وانزواء أمام خادمه المحترم. حاول السيد ميكوبر أن يدندن بعض الألحان ليُظهر أنه مرتاح تمامًا، إلا أنه استقر على كرسيه، بعد أن أخفى شوكته في معطفه على عجل، فإذا بمقبضها يخرج من حضنه، كما لو أنه قد طعن نفسه. ارتدت السيدة ميكوبر قفازها البني، وانسابت في كسل وخدر لطيف. مضى ترادلز يُمرِّر يديه الملطختين بالدهن عبر خصلات شعره، بعد أن وقف في وضع مستقيم، وأخذ يحدق في ارتباك نحو مفرش المائدة. أما أنا فقد بدوت مثل طفل رضيع على رأس طاولتي. أغامر بالكاد بإلقاء نظرة على تلك الظاهرة المحترمة، التي هبطت علينا من سماء الله الواسعة، فأعادت إلى مسكني سكونه المعهود.

رفع ليتيمر المحترم لحم الضأن من الشبكة الحديدة، وراح يقدمه إلينا في هدوء. تناولنا بعضًا منه، إلا أن استمتاعنا به كان قد ولَّى، فتظاهرنا فقط بتناوله. نحَّى كل منا طبقه بعيدًا، فأزالها ليتيمر بلا ضوضاء، ثم وضع الجبن أمامنا، وأزاحه كذلك بعدما انتهينا منه. نظف المائدة بعد أن كوم كل شيء فوق حامل الأطباق. ناول كل منا كأسًا من النبيذ، ثم نقل حامل الأطباق من تلقاء نفسه، وجره إلى المخزن. أدى

كل هذا بطريقة مثالية، من دون أن يرفع عينيه عن عمله. ومع ذلك، فقد بدت حركة مرفقيه كلما اتجه نحوي، كأنها تعج بالتعبير عن رأيه الثابت بأنني لم أزل صغيرًا للغاية.

«هل يمكنني فعل أي شيء آخر يا سيدي؟».

شكرته وقلت: «لا. ألا تتناول شيئًا من الطعام؟».

«كلا، إنني تحت أمرك يا سيدي».

«هل السيد ستيرفورث قادم من أكسفورد؟».

«أستميحك عذرًا يا سيدي».

كررت: «هل السيد ستيرفورث قادم من أكسفورد؟».

قال: «أتصور أنه يصل إلى هنا غدًا يا سيدي. وقد كنت أظن أنه ربما يكون هنا اليوم يا سيدي. وإنني من أخطأ الظن بلا شك يا سيدي».

قلت: «إذا قدر لك رؤيته أولًا ...».

«إذا سمحت لي يا سيدي، لا أظن أنني سأراه أولًا».

قلت: «في حال حدث ذلك، أرجو أن تبلغه أنني حزين لعدم وجوده اليوم هنا، لأن زميله القديم كان موجودًا».

راح ينحني لي مرة ولترادلز مرة أخرى، بينما يلقي بنظراته إليه قائلًا: «سأفعل يا سيدي».

راح يخطو في هدوء نحو الباب، تحدثت إليه على أمل يائس في أن أقول شيئًا طبيعيًّا - لكني لم أستطع قَطُّ التحدث إلى هذا الرجل بهذه اللهجة - فقلت: «آهٍ، يا ليتيمر».

«نعم يا سيدي المحترم».

«هل بقيت في يارموث لفترة طويلة، منذ أن ذهبت إليها؟».

«لا يا سيدي».

«هل رأيت القارب مكتملًا؟».

«نعم سيدي. لقد بقيت فيها وتأخرت عن قصد حتى أرى القارب مكتملًا».

«أعلم».

رفع عينيه إلى عيني في احترامه المعهود.

قلت: «أحسب أن السيد ستيرفورث لم يرَ القارب بعد، أليس كذلك؟».

«إنني حقًّا لا أستطيع الجزم بهذا يا سيدي. أظن أنه لم يرَه، لكنني في الحقيقة لا أستطيع أن أجزم يا سيدي. أرجو لك ليلة سعيدة يا سيدي».

أبدى احترامه إلى كل الحاضرين بعد أن أتبع كلماته تلك بانحناءة ثم انصرف. يبدو أن ضيوفي راحوا يتنفسون الصعداء بعد رحيله، كما كان ارتياحي عظيمًا للغاية، فإلى جانب ذاك القيد الناشئ عن إحساسي الاستثنائي والدائم بكوني في وضع غير مُواتٍ في وجود هذا الرجل، فقد كان ضميري يزعجني بزجرات متشككة في أمر سيده، ولم أستطع قمع الرهبة الغامضة المزعجة التي تراودني خوفًا من أن يكتشف أمري. لا أستطيع أن أدرك كيف جرت الأمور، وليس عندي في الواقع ما أخفيه، إلا أنني شعرت دائمًا أن هذا الرجل على وشك أن يكتشف أمري.

نبهني السيد ميكوبر، فأبعد عن خاطري هذا التفكير، الذي امتزج ببعض التخوف والقلق من رؤية ستيرفورث نفسه. أطرى السيد ميكوبر على ليتيمر ومنحه العديد من المدائح بعد انصرافه، باعتباره رجلًا محترمًا وخادمًا رائعًا. أود أن أشير إلى أن السيد ميكوبر قد حصل على نصيب وافر من الانحناءة العامة الأخيرة من ليتيمر، وقد تلقاها بتواضع لا حدود له.

قال السيد ميكوبر: «إن البانش يا عزيزي كوبرفيلد مثل هذا الزمان له مد وجزر، لا ينتظر أي إنسان. آه، إنه في الوقت الحاضر بنكهة عالية المذاق. يا حبيبتي، هل تعطيني رأيك فيه؟».

قالت السيدة ميكوبر إن مذاقه ممتاز.

قال السيد ميكوبر: «سأشرب، إذا سمح لي صديقي كوبرفيلد بأخذ تلك الحرية الاجتماعية، في نخب تلك الأيام التي كنت فيها أنا وصديقي كوبرفيلد أصغر سنًّا، ثم شققنا طريقنا في العالم جنبًا إلى جنب. قد أقول، عن نفسي وكوبرفيلد، مستدعيًا الكلمات التي غنيناها معًا من قبل:

إننا نركض حول الحقول

ونقطف جميل الأزهار [١]

نعم، لقد قطفناها في عدة مناسبات على سبيل المجاز».

---

(١) نشيد الوداع من تأليف الشاعر الاسكتلندي روبرت برنز. يرجع تاريخه إلى أواخر القرن الثامن عشر، يؤدى النشيد في مناسبات الفراق ويُعبِّر عن الصداقة والوفاء. ترجم النشيد إلى معظم اللغات، ويمتاز بلحن موحد في جميع أنحاء العالم.

راح السيد ميكوبر يتحدث بنبرة قديمة معهودة في صوته، وبلهجة عصية على الوصف، في جو لطيف وممتع، فقال: «لا أعرف نوع هذه الأزهار، لكن لا يراودني أدنى شك في أنني وكوبرفيلد قد قطفنا كثيرًا منها، ما دام كان ذلك ممكنًا».

احتسى السيد ميكوبر في هذا الوقت كمية من البانش، وكذلك شربنا جميعًا. كان من الواضح أن ترادلز تائه، يتساءل أي وقت مضى جمعني مع السيد ميكوبر لنصير رفاقًا نخوض معارك هذا العالم.

قال السيد ميكوبر بعد أن تنحنح لينقي حلقه، ويدفئه بالبانش ولهيب النيران: «إحِم، هل تريدين كأسًا أخرى يا عزيزتي؟».

قالت السيدة ميكوبر إنها تريد القليل من الشراب، لكننا لم نلتفت لقولها، فصارت الكأس ممتلئة.

قالت السيدة ميكوبر وهي تحتسي البانش: «إننا على انفراد تمام هنا يا سيد كوبرفيلد. وقد صار ترادلز جزءًا من عائلتنا، لهذا فإنني أود أن أطلعكم على مخططات السيد ميكوبر لحياتنا المستقبلية». أخذ صوتها نبرة جادة حين أكملت قائلة: «لقد قلت للسيد ميكوبر أكثر من مرة، إن عمله الحالي قد يكون مناسبًا، لكنه ليس مجزيًا. لا يمكن اعتبار العمولة التي لا تتجاوز شلنين وتسعين سنتًا كافية أو مجزية على مدار أسبوعين، مهما كانت تدابيرنا محدودة».

وافقنا جميعًا على رأيها.

أما السيدة ميكوبر فبدت متفاخرة بنظرتها الثاقبة للأشياء، وإرشادها للسيد ميكوبر إلى خطة مستقيمة، فلولا ما أوتيت من حكمة النساء لانحرف عن الطريق. راحت تقول: «ثم إنني رحت أطرح هذا السؤال على نفسي. إذا كان من الصعب الاعتماد على تجارة الحبوب، فما البديل؟ هل يجب الاعتماد على تجارة الفحم؟ لا على الإطلاق. لقد انتبهنا إلى هذه التجربة، بناءً على اقتراح عائلتي، ثم وجدناها لا تلائم حاجتنا».

كان السيد ميكوبر متكئًا على كرسيه وقد وضع يديه في جيوبه، فنظر إلينا مطرقًا، ثم أومأ برأسه، كما لو أنه يقول إن الأمر قد عرض عليكم بوضوح تام.

قالت السيدة ميكوبر: «إن الحديث عن أعمال التجارة بالحبوب والفحم جدال لا طائل من ورائه يا سيد كوبرفيلد، وإنني بطبيعة الحال أنظر إلى العالم حولي وأتساءل: أي عمل يا سيد كوبرفيلد قد يناسب إنسانًا في موهبة وإمكانات ميكوبر؟ وإني أستبعد عمله في أي مجال يعتمد على العمولة، لأن العمولة ليست ثابتة. إن أفضل عمل يناسب شخصًا يتمتع بمزاج غريب مثل السيد ميكوبر هو العمل الثابت المنتظم، على ما أظن».

عبرت ببعض الغمغمات عن موافقتي على كلامها، وكذلك فعل ترادلز، وأيدنا هذا الاكتشاف العظيم، وكان صحيحًا بلا شك، ينطبق على السيد ميكوبر بأدلة كثيرة واضحة وجلية.

استطردت السيدة ميكوبر قولها: «لن أخفي عنك يا عزيزي السيد كوبرفيلد أنني صرت أشعر منذ فترة طويلة أن أعمال تعتيق الخمر تتلاءم

بشكل خاص مع السيد ميكوبر. انظروا إلى مصانع باركلي وبيركنز، انظر إلى ترومان وهانبري وبوكستون، وعلى هذا الأساس والخبرة الواسعة، فإنه حري بالسيد ميكوبر أن يتألق ويتفوق بما علمته عنه، وقد قيل لي إن أرباح هذا المجال طائلة، أما إذا لم يستطع السيد ميكوبر الالتحاق بهذه المصانع -التي رفضت الرد على رسائله، بعدما قدم إليها خدماته ولو في عمل هين صغير- فما فائدة التركيز على هذه الفكرة؟ لا فائدة. قد أكون على قناعة بأن أخلاق السيد ميكوبر...».

قاطعها السيد ميكوبر قائلًا: «إمم، حقًّا يا عزيزتي إن...».

تحدثت السيدة ميكوبر بينما تضع قفازها البني فوق يده، قائلة: «يا حبيبي، فلتسكت. قد أكون على قناعة، يا سيد كوبرفيلد، بأن سلوك السيد ميكوبر يؤهله بشكل خاص للعمل المصرفي. قد أقول في نفسي إنني لو أمتلك وديعة في أي مصرف، فإن سلوك السيد ميكوبر، باعتباره يمثل ذلك المصرف، من شأنه أن يدعم ثقتي بالمكان، ومن ثَم يوسع من مجال التعاملات المالية له. ولكن إذا رفضت المصارف المختلفة الاستفادة من قدرات السيد ميكوبر، أو تلقت طلبه للعمل بها بالرفض المستمر، فما فائدة التركيز على هذه الفكرة؟ لا فائدة. أما فكرة إنشاء مصرف، فإني أعلم أن ثمة أفرادًا من عائلتي يستطيعون إنشاء مؤسسة من هذا النوع، إن هم أرادوا إيداع أموالهم بين يدي السيد ميكوبر. ولكن إذا لم يختاروا إيداع أموالهم بين يدي السيد ميكوبر -وهو ما لن يفعلوه- فما الفائدة من التفكير في ذلك؟ مرة أخرى، أؤكد أننا لم نتقدم أي خطوة أبعد مما كنا عليه من قبل».

أومأت برأسي موافقًا، وقلت: «ولا خطوة». هز ترادلز رأسه أيضًا، وقال: «ولا خطوة».

أردفت السيدة ميكوبر تتحدث بالطريقة نفسها والمنطق نفسه في الحجاج، فقالت: «ما الذي أستنتجه من هذا؟ وما النتيجة الحتمية التي توصلت إليها يا عزيزي السيد كوبرفيلد؟ هل تراني مخطئة لو قلت إنه من الواضح أننا يجب أن نعيش؟».

أجبت: «لا، على الإطلاق»، وأجاب ترادلز: «لا، على الإطلاق». ووجدت نفسي بعد ذلك أضيف، وحدي، في لهجة من الحكمة قائلًا إن الإنسان يجب أن يعيش أو يموت.

أجابت السيدة ميكوبر: «بالضبط. والحقيقة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أننا لا نستطيع أن نعيش من دون أن يظهر قريبًا شيء ما، يختلف كلية عن ظروفنا الحالية. إنني الآن على قناعة أنه لا يمكن توقع حدوث أشياء من تلقاء نفسها، وقد أوضحت ذلك إلى السيد ميكوبر عدة مرات في الفترة الأخيرة، يجب علينا المساعدة إلى حد ما وتحريضها على الظهور. قد أكون مخطئة، لكنني توصلت إلى هذا الرأي».

أبديت أنا وترادلز تأييدنا لهذا الكلام بشدة.

قالت السيدة ميكوبر: «جميل جدًّا. بماذا أوصي إذن؟ ها هو السيد ميكوبر رجل متعدد المؤهلات، وصاحب مواهب رائعة».

قال السيد ميكوبر: «حقًّا يا حبيبتي».

«رحماك يا ربي، اسمح لي يا عزيزي أن أختم حديثي، ها هو السيد

ميكوبر رجل متعدد المؤهلات، وصاحب مواهب رائعة، بل يجدر بي أن أقول إنه عبقري. قد يكون رأيي هذا رأيًا متحيزًا لكوني زوجة».

تذمرتُ وكذلك فعل ترادلز وقلنا: «لا».

راحت السيدة ميكوبر تقول: «وها هو السيد ميكوبر يجلس من دون عمل أو وظيفة مناسبة. على من تقع هذه المسؤولية؟ إنها تقع بوضوح على المجتمع. ومن ثَم سأعلن حقيقة مشينة للغاية، وأتحدى أن ينكرها المجتمع. يبدو لي يا عزيزي السيد كوبرفيلد أن ما يجب على السيد ميكوبر فعله هو أن يتحدى المجتمع بأسره، فيصيح فيه قائلًا: «أرني من سيحمل هذه الصعاب عني. دع من يجرؤ يتقدم على الفور»».

تجرأت هنا لأسأل السيدة ميكوبر عن كيفية القيام بذلك.

قالت السيدة ميكوبر: «من خلال الإعلان في جميع الصحف. يبدو لي أن ما يتعين على السيد ميكوبر القيام به، حتى ينصف نفسه، وينصف عائلته، وسأذهب إلى القول بل لينصف المجتمع، والذي تغاضى عنه حتى الآن؛ هو أن ينشر إعلانًا في جميع الصحف، فيُعرف الناس بنفسه بوضوح، ويُعدد مؤهلاته التي هي كذا وكذا، ويقول فيه: «وظفني الآن، بأجر مجزٍ، ويذكر عنوانه إلى واو. إم، بمكتب بريد كامدن تاون»».

قال السيد ميكوبر، بعد أن جعل ياقة قميصه مسددة أمام ذقنه، وقد أخذ يرمقني بنظراته: «إن فكرة السيدة ميكوبر يا عزيزي كوبرفيلد، هي القفزة نفسها التي أشرت لك إليها، عندما أتيح لي أن أراك آخر مرة، في لقاء أسعدني».

أشرت متشككًا إلى أن «الإعلانات باهظة التكلفة إلى حد ما».

أجابتني السيدة ميكوبر، مع حفاظها على حالتها المنطقية، قائلة: «بالضبط، هذا صحيح تمامًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد، لقد قلت الملاحظة نفسها للسيد ميكوبر. ولهذا السبب على وجه الخصوص، أظن أنه يجب على السيد ميكوبر -كما سبق أن قلت، إحقاقًا للحق، وإنصافًا لأسرته، وإنصافًا للمجتمع- أن يجمع مبلغًا معينًا من المال، عن طريق التمويل المالي».

كان السيد ميكوبر متكئًا على كرسيه، عابثًا بنظارته، وقد رفع عينيه محملقًا إلى السقف، لكنني أظن أنه كان يراقب ترادلز أيضًا، الذي كان ينظر بدوره نحو نيران المدفأة.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا لم يُبدِ أي فرد من عائلتي شعورًا طبيعيًّا للتفاوض على هذا التمويل، فإني أتصور أن ثمة طريقة أفضل. أقصد للتعبير عما أعنيه...».

قال السيد ميكوبر، بينما لم تزل عيناه مرفوعتين إلى السقف: «الاقتراض بفائدة».

قالت السيدة ميكوبر: «وللحصول على اقتراض كهذا، فإن رأيي هو أن يتوجه السيد ميكوبر إلى المدينة، وأن يأخذ الأوراق المطلوبة لهذا القرض إلى سوق المالية، ويقدمها ضمانًا مقابل ما يمكنه الحصول عليه من مال. وهذا ما سيفعله أعضاء السوق المالي للسيد ميكوبر بعد أن يتفهموا تضحيته الكبيرة، وهذا أمر متروك لضمائرهم. إنني

أرى الأمر مثل الاستثمار، وإني أوصي السيد ميكوبر أن يرى الأمر من الزاوية نفسها يا عزيزي السيد كوبرفيلد، ليعتبره استثمارًا مؤكد العائد، وليحسم أمره بقبول أي تضحية».

شعرت، من دون أن أدري سببًا لهذا الشعور، أن الأمر كان إنكارًا للذات وخدمة غالية من السيدة ميكوبر، وقد أطلقت همهمة تؤدي هذا المعنى. أما ترادلز، فقد قلَّد همهمتي، وفعل الشيء نفسه، من دون أن يبعد عينيه عن نيران المدفأة.

أنهت السيدة ميكوبر شراب البانش، ولملمت وشاحها حول كتفيها، استعدادًا لانسحابها إلى غرفة نومي، وراحت تقول: «لا أريد أن أطيل الحديث بهذه الملاحظات عن الموقف المالي للسيد ميكوبر. ها أنا بجانب المدفأة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، وفي حضور السيد ترادلز، الذي صار واحدًا منا تمامًا، على الرغم من أنه ليس صديقًا قديمًا، فإني لم أستطع أن أخفي عنك الدرب الذي أنصح السيد ميكوبر باتخاذه. أشعر أن الوقت قد حان لكي يبذل السيد ميكوبر نفسه، بل أضيف قائلة إن عليه أن يثبت نفسه، ويبدو لي أن هذه هي الوسيلة الممكنة له. أدرك أنني مجرد أنثى وأن حكم الرجال يعتبر عادة الأكفأ لمناقشة مثل هذه الإشكاليات، لكني لم أنسَ أنني عندما عشت في المنزل مع أبي وأمي، كان والدي معتادًا على أن يقول: «إن هيئة «إيما» هشة، لكن إدراكها للأمور يفوق كثيرين». أعلم جيدًا أن أبي كان منحازًا لي للغاية، ولكن من واجبي وإنصافي ألا أشك في قدرته على استنباط طباع البشر إلى حد ما».

أنهت السيدة ميكوبر حديثها، وقد رفضت كل توسلاتنا لها بالبقاء لمشاركتنا ما تبقى من شراب البانش في حضورها، ومن ثَم توجهت إلى غرفة نومي. شعرت أنها امرأة نبيلة حقًّا. إنها نوع من النساء يشبه أن تكون سيدة رومانية، قد أوتيت كل دروب البطولة في زمن المعارك والخطوب الجليلة.

تشبعت بهذا الانطباع، فرحت أهنئ السيد ميكوبر على حيازته لهذا الكنز الثمين، وكذلك فعل ترادلز. مد السيد ميكوبر يده إلى كل واحد منا على التوالي، ثم غطى وجهه بمنديل جيبه، الذي أحسب أنه حاز سعوطًا يفوق ما يتوقعه ويحتاج إليه. ثم عاد إلى احتساء البانش، في حالة فائقة من الابتهاج.

كان حديثه مفعمًا بالبلاغة. راح يشرح لنا كيف أن الآباء يعيشون في أطفالهم مرة أخرى، وأنه على الرغم من ضغط الصعوبات المالية، فإنه يرحب بانضمام أي مولود جديد إلى أبنائه. قال إن السيدة ميكوبر كانت تساورها الشكوك بشأن هذه النقطة في الآونة الأخيرة، لكنه بدَّد مخاوفها وطمأنها. أما عائلتها، فلم يكونوا جديرين بها تمامًا، وقال إن مشاعرهم لا تشغل باله على الإطلاق، ولهم أن يذهبوا - وأقتبس هنا تعبيره - إلى الشيطان.

راح السيد ميكوبر يمدح ترادلز مدحًا صادقًا مخلصًا. قال إن ترادلز ذا شخصية مميزة، وأنه لا يستطيع أن يعدد فضائله الراسخة، لكنه يكن إعجابًا وتقديرًا له. ثم ألمح في حديثه إلى الآنسة الشابة المجهولة، التي يغمرها ترادلز بعاطفته ومحبته، فبادلت ترادلز بالمثل من مودة وتكريم،

وشملته بعاطفتها المحبة. شرب السيد ميكوبر نخبها، وكذلك فعلت، فشكرنا ترادلز، وراح يقول في بساطة وصدق، قد أثَّرا على الشعور، فصرت مفتونًا تمامًا بحديثه: «إنني شاكر وممتن للغاية لكما حقًّا. وإني أؤكد لكما أنها أعز فتاة».

انتهز السيد ميكوبر الفرصة في أولها، وأخذ يلمح بعد ذلك، إلى حالتي العاطفية بأقصى درجات الكياسة والاحتفاء. وقال إنه ما من شيء يمحو عنه فكرة أن صديقه كوبرفيلد محب ومحبوب الآن سوى النفي الجاد والمباشر من صديقه نفسه. انتابتني موجة من الحر الشديد وشعرت بالاضطراب لبعض الوقت، وقدر كبير من التلعثم والحرج وقد احمر وجهي خجلًا، إلا أنني قلت بينما أحمل كأسي بين يدي: «حسنًا، فلنشرب نخب «د.»»، صار السيد ميكوبر متحمسًا وممتنًّا للغاية، إلى الحد الذي جعله يركض إلى غرفة نومي، حاملًا كأسًا من البانش حتى تشرب السيدة ميكوبر نخب «د.» وقد شربته هي الأخرى بحماس، بينما صاحت من داخل الغرفة، بصوت حاد قائلة: «مرحى، مرحى، كم أسعدتني يا عزيزي السيد كوبرفيلد، مرحى»، ثم ربتت على الحائط بكفها بنوع من التصفيق.

أخذ حديثنا بعد ذلك منحى أكثر دنيوية. إذ أخبرنا السيد ميكوبر أنه وجد أن العيش في كامدن تاون أمر شاق، وأن أول شيء فكر في القيام به، هو الانتقال منها حتى يستطيع تحقيق أي شيء يرضيه. وذكر لنا مكانًا في الطرف الغربي من شارع أكسفورد، مقابل حديقة هايد بارك، وقال إنه كان يراقب هذا المكان دائمًا، لكنه لا يتوقع أن يحصل

على هذا المكان على الفور، حيث يحتاج إلى أثاث كثير. وأوضح أنه من المحتمل أن تمر فترة طويلة فاصلة، عليه فيها أن يتأقلم فيها مع جزء علوي يسكنه في أي منزل، ويكون مطلًّا على مكان عمل محترم؛ ولنقل في بيكاديللي، وسيكون موقعًا مرضيًا للسيدة ميكوبر. يستطيعان معًا تصميم نافذة بيضاوية، أو تشييد دور آخر فوق سطحه، أو إجراء بعض التعديلات البسيطة من هذا القبيل، وقد يعيشان فيه منعمين براحة وسمعة طيبة لبضع سنوات. قال في نبرة متأثرة إنه أينما كان مقامه أو مخبأه، فلنثق أنه سيحوي دائمًا غرفة لترادلز، وسكينًا وشوكة لي. شكرناه على لطفه. وتوسل إلينا أن نسامحه على خوضه في هذه التفاصيل العملية الشبيهة بالأشغال، وأن نعذره لأنها طبيعية، ناجمة عن إنسان يقوم بترتيبات جديدة تمامًا ستشمل حياته.

نقرت السيدة ميكوبر على الحائط مرة أخرى لمعرفة ما إذا كان الشاي جاهزًا أم لا، فكسر هذا المرحلة الحميمة من محادثتنا الودية. أعدت لنا الشاي وقد افتخرت بإعداده أيما افتخار. كنت اقتربت منها لمساعدتها في تسليم أكواب الشاي أو الخبز والزبدة، فإذا بها تهمس إليَّ مستفسرة عما إذا كانت «د.» شقراء أم خمرية، أو ما إذا كانت قصيرة أم طويلة، أو أي شيء من هذه النوعية من الأسئلة، وأحسب أنني أحببتها. شربنا الشاي، ثم خضنا أحاديث متنوعة حول بعض الموضوعات بينما نحن جلوس أمام المدفأة، وتكرمت علينا السيدة ميكوبر فراحت تغني لنا بصوت خافت ورقيق وناعم، وقد تذكرت أنني سمعته عندما عرفت لأول مرة، عن علاقتها بالغناء. شرعت في أغانيها المفضلة، فغنت

«العسكري الأبيض الشجاع»[1] وأغنية «تافلين الصغيرة». اشتهرت السيدة ميكوبر بكلتا الأغنيتين عندما كانت تعيش في منزل والديها. أخبرنا السيد ميكوبر أنه عندما سمعها تغني في المرة الأولى، في أول مناسبة رآها تحت سقف بيت الأبوين، لفتت انتباهه إلى أبعد الحدود. ما إن سمعها تغني «تافلين الصغيرة»، حتى عقد العزم على الفوز بتلك المرأة أو الهلاك دونها.

كانت الساعة بين العاشرة والحادية عشرة عندما نهضت السيدة ميكوبر لتضع قبعتها في لفة الورق البني المائل إلى البياض، وتلبس قبعة أخرى. انتهز السيد ميكوبر فرصة انشغال ترادلز بلبس معطفه الكبير ليضع رسالة في يدي، وقد طلب مني هامسًا أن أقرأها في وقت فراغي. انتهزت الفرصة بدوري وتمكنت من حمل شمعة لأنير لهم درجات السلم، وكان السيد ميكوبر قد نزل أولًا، ليقود السيدة ميكوبر إلى درجات السلم، وتبعهما ترادلز حاملًا قبعتها، فاحتجزت ترادلز للحظة على قمة السلم.

قلت: «يا ترادلز، إن السيد ميكوبر لا يقصد أي ضرر، إنه مسكين، ولكني لو كنت مكانك، فلن أقرضه شيئًا».

أجاب ترادلز مبتسمًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، لا أملك شيئًا لأقرضه».

قلت: «إنك تحظى باسم معروف، كما تعلم».

---

(١) أغنية ورقصة اسكتلندية، اشتهر لحنها في القرن الثامن عشر وأشيعت في أوروبا، وهي من ألحان هنري رولي. يؤدي رقصتها ثلاثة رجال وفي مقابلهم ثلاث نساء، ويتبادلون الحركة.

رد ترادلز بنظرة مفكرة فقال: «آهٍ، هل تسمي هذا شيئًا أستطيع إقراضه؟».

«بالتأكيد».

قال ترادلز: «آهٍ، حقًّا، إنني ممتن لك للغاية يا كوبرفيلد، لكني أخشى أن أكون قد أعرته اسمي بالفعل».

سألت: «هل تقصد المستند الذي سيصير قرضًا واستثمارًا؟».

قال ترادلز: «لا، لا أقصد ذلك، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها أمرًا كهذا. لقد كنت أفكر أنه على الأرجح سيطلب مني هذا الاقتراض في الطريق إلى المنزل، وإن لي موقفًا آخر معه».

قلت: «أرجو أن تكون العواقب سليمة».

قال ترادلز: «أرجو ألا يشغلني الأمر لأنه أخبرني في اليوم السابق فقط أنه سوَّى حسابه. كان هذا تعبير السيد ميكوبر «سوَّى حسابه»».

نظر السيد ميكوبر نحونا حين وصلنا إلى هذا المنعطف في الحديث، ولم يتح لي الوقت إلا لتكرار تحذيري لترادلز، فشكرني ثم نزل. انتابني خوف، بعدما لاحظت طريقته الطيبة التي نزل بها السلم حاملًا قبعة السيدة ميكوبر في يده، بعد أن تأبطت هي ذراعه، وأفزعتني فكرة أن تُساق قدماه إلى سوق المال.

عدت إلى المدفأة، ورحت أتأمل شخصية السيد ميكوبر والعلاقات القديمة التي جمعتنا وأنا في حالة بين الجد والضحك، حتى سمعت خطوة سريعة تصعد السلم. ظننت في البداية أن ترادلز رجع من أجل

استعادة شيء نسيته السيدة ميكوبر وراءها، ولكن مع اقتراب الخطوات، عرفت من هو القادم، وشعرت بنبضات قلبي تتصاعد بشدة، وقد تدفق الدم إلى وجهي، لأن القادم كان ستيرفورث.

لم أكن قَطُّ غافلًا عن أجنيس، ولم تترك الملاذ المقدس من أفكاري مطلقًا - إذا جاز لي أن أطلق عليه هذا الوصف - حيث أسكنتها فيه منذ البداية. ما إن دخل ستيرفورث ووقف أمامي وبسط يده إليَّ حتى انقشع الظلام الذي حاوطه واستحال نورًا، فشعرت بحيرة وخجل مما يعتريني من شك في شخص أحببته مخلصًا. إنني أكن لأجنيس أكثر من الحب، فأتصور أن روحها طيفًا ملائكيًّا تحنو بطيبتها على حياتي، لذا عاتبتُ نفسي على ما أصابني، من دون أن ألقي باللوم على أجنيس. وددت لو أكفر عما بدر مني أو أتبين كيف أمحوه.

ضحك ستيرفورث وهو يصافح يدي بحرارها ويطوحها بعيدًا، قائلًا في مرح: «آه يا أقحوانتي، يا صديقي القديم، المدهش، هل ضبطتك في وليمة أخرى، أيها الطائش؟! إن زملاء كلية المدنيين هم أكثر الرجال مرحًا في المدينة، على ما أظن، إلا أنهم جميعًا يحتقرون شباب أكسفورد الرصين بلا سبب». جال بنظراته البراقة في أرجاء الغرفة، ثم جلس على الأريكة المقابلة لي التي غادرها السيد ميكوبر منذ قليل، ثم راح يستنفر اشتعال النيران في المدفأة.

رحبت به بكل الود الذي شعرت به ناحيته، ثم قلت له: «لقد فوجئت بمجيئك في البداية، لذلك تعثرت أنفاسي كثيرًا ولم أستطع أن أحييك يا ستيرفورث».

أجاب ستيرفورث: «حسنًا، إنك راحة للأعين القريحة، كما يقول الاسكتلنديين، وهذا ينطبق على رؤياك يا أقحوانتي، ما دمت في ازدهار كامل. كيف حالك يا عربيد؟».

قلت «إنني بخير، ولم أكن الليلة عربيدًا على الإطلاق، على الرغم من أنني أعترف أنني دعوت ثلاثة أفراد إلى الشراب».

قال ستيرفورث: «لقد التقيت بهم جميعًا في الشارع، وإذا هم يتحدثون بصوت عالٍ مادحين لك. من صديقنا الذي يرتدي الجوارب الطويلة؟».

أعطيته أفضل فكرة في بضع كلمات عن السيد ميكوبر. ضحك بحرارة على انطباعي الضعيف عن هذا الرجل، وقال إنه نوع من الرجال يجب عليه أن يعرفه، بل لا بد أن يعرفه. قلت بدوري: «ولكن من تظنه الصديق الآخر؟».

قال ستيرفورث: «الله أعلم. آمل ألا يكون مملًا، أهو كذلك؟ أحسب أنه يبدو مملًّا بعض الشيء».



أجبته منتصرًا: «إنه ترادلز».

سأل ستيرفورث بطريقته المتهورة: «من يكون؟».

«ألا تتذكر ترادلز؟ ألا تعرف ترادلز رفيق غرفتنا في مدرسة سالم هاوس؟».

قال ستيرفورث وهو يضرب بالعصا قطعة من الفحم فوق النيران: «آهٍ، ألم يزل رقيقًا كعادته؟ وأين التقيت بهذا اللعين؟».

أجبته ممتدحًا ترادلز بكل ما أوتيت من كلام، لأنني أحسست باحتقار ستيرفورث له إلى حد ما. أبدى ستيرفورث تجاهلًا لأمر ترادلز بعد إيماءة خفيفة وابتسامة واهنة، وقال إنه سيسعد برؤية الرجل العجوز أيضًا، لأنه بدا شخصًا غريب الأطوار. سألني عما إذا كان بإمكاني تقديم أي شيء ليأكله أم لا. لاحظت أنه لم يكن يتحدث بطريقة مفعمة بالحيوية، خلال معظم هذا الحوار القصير الذي دار بيننا، بل جلس في فتور يضرب قطعة فحم فوق النار بالعصا. لاحظت أنه استمر في فعل الشيء نفسه بينما كنت أخرج بقايا فطيرة الحمام، وهكذا دواليك.

صاح مقتلعًا صمته بانفجار وصخب بعد أن اتخذ مقعده إلى الطاولة، فقال: «آه يا أقحوانتي، هذا عشاء ملوك، سأوفيك حقك عادلًا، لأنني أتيت من يارموث للتوِّ».

سألته: «ألم تأتِ من أكسفورد؟ كنت أحسب ذلك».

قال ستيرفورث: «ليس أنا. لقد كنت أبحر مسافرًا، هذا هو الأفضل».

قلت له: «لقد جاء ليتيمر إلى هنا اليوم ليسأل عنك، ففهمت منه أنك كنت في أكسفورد، على الرغم من أنني أفكر في الأمر الآن، لأنه لم يقل ذلك مطلقًا».

قال ستيرفورث، وهو يسكب كأسًا من النبيذ بمرح، ويشرب نخبًا لي: «إن ليتيمر أغبى مما كنت أحسبه، لأنه لا يسألني على الإطلاق. أما

القدرة على فهمه، فإنك ستكون أكثر ذكاءً من معظمنا يا أقحوانتي، إذا استطعت ذلك».

تحدثتُ وأنا أحرك مقعدي نحو الطاولة، قائلًا: «هذا صحيح بالفعل. إذن لقد كنت في يارموث يا ستيرفورث»، كنت مهتمًّا بمعرفة كل شيء عنها، فسألته: «هل مكثت هناك لفترة طويلة؟».

أجابني: «لا، كنت في جولة لمدة أسبوع أو نحو ذلك».

«وكيف حالهم جميعًا؟ بالطبع، لم تتزوج إيميلي الصغيرة حتى الآن، أليس كذلك؟».

«لم تتزوج بعد، إلا أنني أظن أن زواجها سيكون في غضون عدة أسابيع، أو قرابة أشهر، أو شيء من هذا القبيل. بالمناسبة لم أرَ الكثير منهم...»، وهنا وضع سكينه وشوكته جانبًا وقد كان يستخدمهما بسرعة بالغة، وأخذ يتحسس جيوبه، وأكمل: «عندي رسالة لك».

«مِمَّن؟».

أخرج بعض الأوراق من جيب صدريته، ثم قال: «من مربيتك العجوز». راح يقرأ العناوين: «إلى ج. ستيرفورث، المحترم، المدين لفندق العقل الراغب؛ ليس هذا. اصبر وسنجده الآن. ما اسم هذا الرجل العجوز؟ لقد نسيته، إنه في حالة سيئة، والأمر يتعلق به على ما أظن».

«أتقصد باركس؟».

أجابني ولم يزل يتحسس جيوبه، وينظر في محتوياتها: «نعم، أخشى أن المرض قد تملك باركس المسكين. رأيت صيدلانيًّا صغيرًا

هناك، ربما جراحًا، أو أيًا كان عمله الطبي، وإن كان قد أوحى بهذا العلم إلى العالم. لقد أفهمني الكثير حول حالته، لكن في النهاية فإن خبرته تقول إن الحوذي يلفظ أنفاسه الأخيرة بسرعة إلى حد ما. ضع يدك في جيب معطفي الكبير الملقى فوق المقعد هناك، وأظن أنك ستجد الرسالة. هل وجدتها هناك؟».

قلت: «ها هي».

«حسنًا».

كانت الرسالة من بيجوتي، وبدت أقل سوءًا من المعتاد، كما كانت مختصرة. لقد أبلغتني عن حالة زوجها الميؤوس منها، وألمحت إلى أنه صار الآن «أسوأ كثيرًا» مما كان عليه، وبالتالي فإنها تجد صعوبة بالغة في خدمته وتمريضه. لم تقل شيئًا عن تعبها ومشقتها، لكنها أثنت عليه بشدة. لقد كتبت الرسالة بروح بسيطة، غير متكلفة، ودودة، صادقة كما عهدتها على الحقيقة، وانتهت بقولها «تحياتي لحبيبي دائمًا» وكانت تقصدني أنا.

كنت أفك شفرات كلماتها، بينما استمر ستيرفورث في تناول الطعام والشراب.

تحدث بعدما انتهيت من القراءة قائلًا: «يا له من أمر مؤلم! إلا أن الشمس تغرب كل يوم، ويموت الناس كل دقيقة، فلا يجب أن نخاف من المصير المحتوم المشترك. إذا فشلنا في تثبيت أقدامنا، فلأن هذه القدم المتسللة إلى جميع الأبواب، وقد سمعنا وقع خطاها في مكان

ما، سوف تنزلق كما هي الحال مع كل شيء في هذا العالم. كلا، القافلة تسير، تجلَّد إذا لزم الأمر، أو لتلِن إذا كان ذلك سيفي بالغرض، المهم استمر، تجاوز جميع العقبات، وفز بالسباق».

قلت: «أي سباق أفوز به؟».

قال: «السباق الذي بدأ فيه الإنسان، سباق القافلة».

أذكر أنني لاحظته في أثناء سكوته، وقد راح ينظر إليَّ مطرقًا رأسه الوسيم قليلًا إلى الخلف، وكأسه مرفوعة في يده. لم أشعر أنه فتنني على الرغم من نضارة وجهه التي تبدو مثل نسيم البحر، والحمرة التي اعتلته من تأثير الشراب. لاحت عليه سمات جديدة لم أشهدها منذ أن رأيته آخر مرة، كما لو كان قد بذل نفسه مسرفًا أمام بعض الملذات التي استيقظت بداخله وتملكته تمامًا. رحت أفكر في أن أبدي اعتراضي على طريقته اليائسة بالسعي وراء أي هاجس يجتاحه، كما لو أنه يخوض عواصف البحار الهائجة، ويتحدى الطقس القاسي، على سبيل المثال لا الحصر. إلا أن ذهني كان منشغلًا بموضوع محادثتنا، فعدت إليه مرة أخرى، وتابعته بدلًا من الاعتراض.

قلت: «اسمع يا ستيرفورث، إذا كانت روحك ومعنوياتك المرتفعة ستصغي إليَّ...».

أجاب منتقلًا من الطاولة إلى المدفأة مرة أخرى: «إنهم أرواح قوية، وسيفعلون ما يحلو لهم».

قلت: «اسمعني يا ستيرفورث، أظن أنني سأذهب لأزور مربيتي

العجوز. لا أقصد أنني أستطيع أن أقدم لها معروفًا، أو أنني سأسدي خدمة حقيقية لها، لكنني زيارتي سيكون لها تأثيرًا بالغًا عليها، بل ستصير زيارتي كما لو أنني فعلت الأمرين. ستتلقى زيارتي بلطف فتجد الراحة والدعم. إنني متأكد من أن زيارتي هي أقل ما يمكن بذله من أجل صديقة مثلها. لو أنك مكاني؛ ألن تذهب في رحلة ليوم واحد إليها؟».

بدت على وجهه سمات تفكير عميق، وقد جلس متأملًا قليلًا قبل أن يجيب بصوت منخفض قائلًا: «حسنًا، اذهب. ليس في ذهابك ضرر».

قلت: «لقد عدت للتوِّ من هناك، وسيكون من العبث أن أطلب منك أن تأتي معي».

أجاب: «بالضبط. سأذهب إلى هاي جيت الليلة. لم أرَ أمي منذ وقت طويل، وقد وخزني ضميري، لأنها تستحق أن يبادلها ابنها الضال هذا الحب. آه، هراء».

أمسك بي على بُعد ذراع منه، وقد وضع يديه على كتفي، ثم سألني: «هل تنوي الذهاب غدًا، على ما أظن؟».

«نعم، أتصور ذلك».

«حسنًا، إذن لا تذهب إلا بعد غد. أردتك أن تأتي وتبقى معنا لبضعة أيام. إنني جئت إلى هنا لأجل هذا، فإذا بك تريد أن تطير إلى يارموث».

«يا لك من إنسان عجيب حين تتحدث عن الطيران يا ستيرفورث! إنك دائم الركض في رحلات استكشافية غير معروفة أو مجهولة».

نظر إليَّ لحظة من دون أن يتكلم، ثم استأنف حديثه إليَّ مرة أخرى، بينما لم يزل ممسكًا بي كما كان من قبل، وقد راح يهزني قائلًا:

«هيا، قل لي إنك ستذهب بعد غد، واقضِ أطول قدر ممكن من الغد معنا، من يعرف متى سنلتقي مرة أخرى؟! هيا، قل لي إنه بعد غد، أريدك أن تقف بيني وبين روزا دارتل، وأن تباعد بيننا».

«هل سيحب أحدكما الآخر، من دوني؟».

ضحك ستيرفورث قائلًا: «نعم، أو ربما سنكره بعضنا، بغض النظر عن أيهما، هيا، قل لي إنه بعد الغد».

قلت بعد الغد، فلبس معطفه الكبير وأشعل سيجاره وهم بالانصراف إلى المنزل. ما إن وجدته قد عقد النية على المغادرة، حتى ارتديت معطفي الكبير - لكنني لم أشعل سيجارتي، بعد أن سئمت من التدخين لفترة طويلة - وسرت معه حتى الطريق العام. كان الطريق موحشًا في تلك الليلة، وكان ستيرفورث في حالة معنوية عظيمة طوال الطريق. افترقنا، فتتبعته بعيني أراقبه ذاهبًا بشجاعة وانتعاش إلى المنزل، فكرت في قوله: «تجاوز جميع العقبات، وفز بالسباق». وتمنيت، لأول مرة، أن يحظى بسباق طيب يهرع فيه إلى النهاية.

كنت أخلع ملابسي في غرفتي، حين سقطت رسالة السيد ميكوبر على الأرض. تذكرتها، فكسرت الختم وقرأت ما يلي. كان مؤرخًا بساعة ونصف قبل العشاء. لست متأكدًا مما إذا كنت قد ذكرت أن السيد ميكوبر يستخدم بعضًا من المصطلحات القانونية حين يمر بأزمة عارمة بشكل خاص، لأنه يظن أنها وافية لإيضاح شؤونه.

«سيدي... لأنني لا أجرؤ على قول عزيزي كوبرفيلد،

حري بي أن أبلغكم أن الموقع أدناه رجل منسحق. قد تلاحظ هذا اليوم بعض محاولاته الخافتة لتجنب معرفتك المبكرة لوضعه المأساوي، إلا أن أمله قد غام في الأفق، فصار الموقع أدناه منسحقًا.

هذه المعلومات الواردة قد صيغت ضمن نطاق شخصي (لا يمكنني تسميته بالمجتمعي) في حالة أقرب إلى السكر، من عامل يخدم سمسارًا. وهذا السمسار لديه حيازة قانونية لبنايات مؤجرة. تتضمن هذه الحيازة كل ما حجز عليه، ليس فقط المنقولات الخاصة بالموقع أدناه، بصفته المستأجر السنوي لهذا السكن، ولكن تشمل المحجوزات أيضًا الممتلكات المتعلقة بالسيد توماس ترادلز، المستأجر من الباطن، وعضو الجمعية الموقرة لرجال القانون.

إن لم تزل ثمة قطرة من كآبة، فستنسكب في كوب فاض بالهموم، وقد صار الآن وصفها «بلاغة» - بلغة كاتب خالد - على شفتي صاحب هذه الكلمات الموقع أدناه، فإنها دين مستحق من الموقع أدناه إلى السيد توماس ترادلز سالف الذكر، بمبلغ قيمته ثلاثة وعشرون جنيهًا وأربعة شلنات وتسعة بنسات ونصف، وقد تجاوز موعد استحقاقه، ولم يتوفر المال ليسدد. بالإضافة إلى حقيقة ازدياد المسؤوليات المعيشية المتراكمة المتعلقة بعائلة الموقع أدناه، بحكم الطبيعة، مما يدفع بوجود ضحية أخرى عاجزة، ينتظر ظهورها البائس بعد انتهاء فترة لا تتجاوز مدتها ستة أشهر قمرية من التاريخ الحالي.

بعد سرد هذه الحيثيات المتعددة على هذا النحو، فإن خلاصة القول أن نضيف أن الغبار والرماد متناثران إلى الأبد

فوق

رأس

وليم ميكوبر».

يا لترادلز المسكين! لقد عرفت ما يكفي عن السيد ميكوبر حتى الآن، لأتوقع أنه سيتعافى من هذه الصدمة. لكن أرَّقني التفكير في حالة ترادلز المسكين، وابنة القسيس التي كانت واحدة من بين عشرة أبناء في ديفونشاير، وهي الفتاة العزيزة التي كانت ستنتظر ترادلز -يا للمديح المشؤوم!- حتى عمر الستين، أو أي عمر يذكر.



# الفصل التاسع والعشرون

## أزور ستيرفورث مرة أخرى في منزله

قلت للسيد سبنلو في الصباح أنني أرغب في الحصول على إجازة قصيرة. لم أكن أتحصل على راتب، وبالتالي لم أكن مكروهًا عند جوركنز العنيد، ولم أجد صعوبة في الحصول عليها. انتهزت هذه الفرصة، ورحت أقول بصوت متحشرج في حلقي، وقد زاغ بصري حين حاولت أن أتلفظ بهذه الكلمات، فسألته عما إذا كانت الآنسة سبنلو بخير. أجابني السيد سبنلو، من دون أي اكتراث كما لو أنه يتحدث عن إنسان عادي، وشكرني على سؤالي، وقال إنها على ما يرام.

كان الكتبة أمثالي يعاملون كما لو أنهم براعم في حيز النمو للالتحاق بالطبقة الأرستقراطية، فيُسدى إليهم قدر كبير من الاحترام، حتى إنني كنت تقريبًا سيد نفسي في جميع الأوقات. لم أهتم في جميع الأحوال بالوصول إلى هايجيت قبل الساعة الواحدة أو الثانية من ظهر اليوم، كما كنا ننتظر في المحكمة في ذلك الصباح قضية حرمان كنسي صغيرة، وكانت تسمى «قضية تيبكنز ضد بولوك لتصحيح مساره الروحي».

قضيت ساعة أو ساعتين حاضرًا مع السيد سبنلو من دون أي تذمر مني. كانت القضية بسبب شجار نشأ بين اثنين من خُدَّام الكنيسة، زُعم أن أحدهما دفع الآخر نحو مضخة مما جعله يصطدم بمقبض المضخة المتصل بمبنى مدرسة، وكان مبنى المدرسة يقع تحت سقف الكنيسة، فاعتبر هذا الدفع إهانة للكنيسة. كانت قضية مسلية، دفعتني إلى الذهاب إلى هايجيت مستقلًّا المركبة العامة، مفكرًا في مجلس العموم، وما قاله السيد سبنلو عن المساس بأعضائه وإسقاط البلاد.

كانت السيدة ستيرفورث سعيدة برؤيتي وكذلك سعدت روزا دارتل. أدهشتني المفاجأة حين علمت بعدم وجود ليتيمر هناك، وأن خادمة صالون صغيرة متواضعة صارت في خدمتنا بدلًا منه. كانت قبعتها ذات شرائط زرقاء، كما كانت عينها ألطف من عين ذلك الرجل المحترم، وأقل إزعاجًا حين تقع النظرات عليها بالصدفة. أما الشيء الذي لاحظته بشكل خاص، قبل أن تنقضي نصف ساعة على وجودي في المنزل، هو التركيز البالغ واليقظة التي راقبتني بها الآنسة دارتل، والطريقة المتربصة التي بدت عليها، حتى بدت لي كما لو أنها تقارن بين وجهي ووجه ستيرفورث. راحت تنتظر ظهور شيء ما مشترك بين الوجهين. كنت أنظر إليها، بينما تبدي هي يقينًا في مراقبتها، فإذا بي أبصر ذلك المحيا الشغوف، ذا الأعين السوداء الهزيلة والجبين المتعجب، عازمًا على التفرس في وجهي، أو الانتقال فجأة مني إلى ستيرفورث، أو التمحيص في كلينا في وقت واحد. ظلت على هذه الحال الأشبه بترقب النمس، إلى أن أدركت أنني ألاحظها، فإذا بها تثبت

نظرتها الثاقبة نحوي في تعبير أكثر إلحاحًا. لم يكن لي ذنب في شيء، بل إنني على يقين من أمري، ولم أشارك في ارتكاب أي خطأ يمكن أن تشك في اقترافه، لكنني تقلصت أمام عينيها الغريبتين، وقد صرت عاجزًا تمامًا على تحمل بريق عينيها الجائع.

ظلت طوال اليوم، تتجول في أرجاء المنزل بأكمله. سمعت حفيف لباسها في المعرض الصغير بالخارج حين كنت أتحدث إلى ستيرفورث في غرفته، وعندما أدينا بعض تمريناتنا القديمة فوق العشب خلف المنزل، إذا بي ألمح وجهها يعبر أمامي من نافذة إلى أخرى، مثل ضوء متجول، يحاول أن يثبت نفسه في أحد المنافذ ليراقبنا. خرجنا جميعًا بعد ذلك للسير بعد الظهيرة، فإذا بها تحكم يديها الرقيقتين على ذراعي مثل الزنبرك، فتبقيني بعيدًا، إلى أن يبتعد ستيرفورث وأمه عن دائرة السمع، ومن ثَم تعاود حديثها معي.

قالت: «لقد مر وقت طويل من دون أن تأتي إلى هنا. هل مهنتك جذابة ومثيرة للاهتمام حقًّا بحيث تستحوذ على انتباهك بالكامل؟ أسأل لأنني أريد دائمًا أن أكون على علم بالأمور، بدلًا من أن أكون جاهلة. هل الأمر كذلك حقًّا؟».

أجبتها بأنني أحببت عملي بما فيه الكفاية، لكنني بالتأكيد لا أستطيع منحه نفسي بالكامل.

قالت روزا دارتل: «آهٍ، يسعدني معرفة ذلك، لأنني أحب دائمًا أن أكون على علم بالصواب عندما أكون مخطئة. هل تقصد أن مهنتك جافة قليلًا، ربما؟».

أجبتها: «حسنًا. ربما كانت جافة إلى حد ما».

قالت: «آهٍ، وهل هذا هو سبب رغبتك في الراحة والتغيير، والبحث عن الإثارة وما إلى ذلك؟ آه، صحيح جدًّا، لكن أليس قليلًا... إيه؟ بالنسبة إليه؛ أنا لا أقصدك».

لاحظت نظرة خاطفة من عينيها نحو المكان الذي يسير فيه ستيرفورث مع والدته مستندة إلى ذراعه، فاتضح لي مقصدها، ولكني بعد ذلك، عدت جاهلًا تمامًا ولم أفهمها. وتجلت حيرتي بلا شك على تعبيرات وجهي.

راحت تقول: «أليس كذلك...؟ أنا لا أقول إنه كذلك، بل أريد أن أعرف... أليس بالأحرى أن تستحوذ عليه هو؟ ألا يجعله ذلك، ربما، أكثر إهمالًا من المعتاد في زياراته إلى شغفه الأعمى... إيه؟». راحت تلقي نظرة سريعة أخرى نحوهم، ثم نظرة خاطفة نحوي حتى بدت كما لو أنها تريد أن تنظر في أعماق أفكاري.

قلت: «أرجوكِ يا آنسة دارتل لا تظني أن...».

قالت: «إنني لا أظن ذلك، يا إلهي، لا تفترض أنني أظن أي شيء، إنني لا أشك في شيء. إنني أطرح سؤالًا فقط، ولا أصرح بأي رأي. أريد أن أُكوِّن رأيًا حول ما تخبرني به. إذن، ليس الأمر كذلك؟ حسنًا، إنني سعيدة جدًّا بمعرفة ذلك».

قلت في حيرة من أمري: «بالتأكيد ليست هذه الحقيقة. إنني لست مسؤولًا عن بقاء ستيرفورث بعيدًا عن المنزل لفترة أطول من المعتاد،

كما أنني لم أعرف أنه غاب لفترة طويلة إلا في هذه اللحظة حقًّا، ولم أكن لأعرف ذلك إلا منكِ. لم أرَه منذ زمن طويل إلى أن التقيته في الليلة الماضية».

«حقًّا؟».

«حقًّا يا آنسة دارتل».

نظرت إليَّ بعد أن أدارت وجهها بالكامل نحوي، فإذا بي ألحظه أكثر حدة وشحوبًا، وقد امتدت علامات الجرح القديم حتى كادت أن تشق شفتها المشوهة، وتتعمق حتى شفتها السفلية، بل تنحدر أسفل وجهها. كم أرعبني هذا المشهد وأثَّر فيَّ إلى حد بعيد! أخافني أيضًا بريق عينيها، حين قالت، وهي تطيل إليَّ النظر في ثبات:

«ماذا يفعل؟».

كررت كلماتها، أكثر من مرة لنفسي، بينما لفتني دهشتي البالغة.

قالت بلهفة متحرقة بدت كافية لتلتهمها كالنار: «ماذا يفعل؟ كيف يساعده ذلك الرجل الذي لا ينظر إليَّ أبدًا من دون أن ألمح كذبًا غامضًا في عينيه؟ إذا كنت شريفًا ومخلصًا، فإنني لا أطلب منك أن تخون صديقك. أطلب منك فقط أن تخبرني، هل حل به غضب، أم كراهية؟ هل هو كبرياء، أم قلق؟ هل حل به نوع من الخيال الجامح، أم الحب؟ ماذا حل به؟».

قلت: «يا آنسة دارتل، كيف أؤكد لكِ حتى تصدقي أنني لا أعرف شيئًا عن ستيرفورث يختلف عما كان عليه عندما جئت إلى هنا لأول

مرة، ولا أستطيع التفكير في أي شيء يفسر مقصدك؟ إنني أجزم أنه لا يوجد شيء، وبالكاد أفهم ما تعنيه».

كانت لا تزال واقفة تنظر إليَّ بثبات، فإذا بي ألمح ارتعاشة أو نوعًا من الخفقان يتمثل في تلك الندبة القاسية، التي لم أستطع فصل فكرة الألم عنها. وإذا بها ترفع زاوية شفتها بنوع من الازدراء أو بنوع من الرأفة بدلًا من السخرية. وضعت يدها الرقيقة الحساسة للغاية فوق ندبتها على عجل. كانت يدها تبدو لمخيلتي أمام النار كما الخزف الدقيق حيت تظلل بها وجهها. راحت تقول مسرعة بلهجة حادة ومنفعلة: «أقسم لك أن أحافظ على سرية حوارنا»، ولم تتفوه بأي كلمة أخرى.

كانت السيدة ستيرفورث سعيدة للغاية بصحبة ابنها، وكان ستيرفورث محترمًا لها ومصغيًا إليها في هذه المرة بشكل خاص. كم أسعدني رؤيتهما معًا على هذا النحو! ليس بسبب المودة المتبادلة بينهما وحسب، بل بسبب التشابه القوي بينهما، كما لو أن سلوكه المتغطرس أو المتهور قد استحال في صورتها لطفًا ووقارًا بما يقتضيه العمر والجنس. فكرت أكثر من مرة أنه من اللطيف أنه لم يقع أي سبب جدي يوجب الانقسام بينهما، وإلا فإن طبيعتين من هذا القبيل -بل يجب أن أقول عنهما، إنهما ظلان من الطبيعة ذاتها- من الصعب التوفيق بينهما لكونهما أكثر الأطراف تناقضًا في هذا الكون. لا بد لي من الاعتراف بأن هذا الفكرة لم تنشأ من تفكيري الشخصي، ولكنها وردت في حديث روزا دارتل، حين قالت في أثناء تناول العشاء: «آهٍ، ليخبرني أي شخص منكم، لأنني كنت أفكر في الأمر طوال اليوم، وأريد أن أعرف».

قالت السيدة ستيرفورث: «ما الذي تريدين معرفته يا روزا؟ أرجوكِ، أرجوكِ يا روزا، لا تكوني غامضة».

صرخت: «غامضة، آهٍ، أحقًّا؟ هل تعتبرينني غامضة؟».

قالت السيدة ستيرفورث: «هل يجب أن أتوسل إليكِ باستمرار للتحدث بصراحة وبطريقة طبيعية؟».

قالت: «آهٍ، أهذه ليست طريقتي الطبيعية؟ الآن يجب أن تتحمليني حقًّا، لأنني أطلب أن أعرف، إننا لا نعرف طبيعة أنفسنا أبدًا».

قالت السيدة ستيرفورث من دون أن تتحدث باستياء: «لقد صرتِ تتصرفين بطبيعة ثانية، لكنني أتذكر - وأحسب أنكِ تتذكرين ذلك أيضًا - أن أسلوبكِ كان مختلفًا يا روزا، فلم يكن لديكِ كل هذا التحفظ، وكنتِ أكثر ثقة في الآخرين مما أنتِ عليه الآن».

قالت: «إنني متأكدة من أنكِ على حق. وهكذا فإن العادات السيئة تنمو مع المرء. أحقًّا كنت أقل تحفظًا وأكثر ثقة؟ إنني لأعجب كيف استطعت، بشكل غير محسوس، أن أتغير كل هذا التغير! حسنًا، إنه لشيء غريب جدًّا، يجب أن أتمعن لأستعيد ذاتي».

قالت السيدة ستيرفورث بابتسامة: «أتمنى أن تفعلي ذلك».

أجابت: «آهٍ، سوف أتعلم الصراحة من - دعيني أتذكره - من جيمس».

قالت السيدة ستيرفورث بسرعة: «لن تجدي مدرسة أفضل يمكنك تعلم الصراحة منها يا روزا». كان حديث روزا دارتل ينطوي دائمًا على

بعض السخرية، على الرغم من أنه قيل بأكثر الطرق عفوية في هذا العالم.

أجابت بحماس غير مألوف: «إنني متأكدة من ذلك. إذا كان عليَّ أن أتأكد من أي شيء، فبالطبع، يجب أن أكون متأكدة من ذلك».

وبدا لي أن السيدة ستيرفورث تأسف لما أبدته من انفعال بسيط لأنها قالت في هذه اللحظة بنبرة لطيفة: «حسنًا يا عزيزتي روزا، لم نسمع ما الذي تريدين معرفته».

أجابت: «ما الذي أريد معرفته؟ آهٍ، كنت أتساءل فقط عن أناس يتشابهون في دستورهم الأخلاقي... هل هذا هو التعبير الصحيح؟».

قال ستيرفورث: «إنه تعبير جيد مثل تعبيراتكِ».

قالت: «شكرًا لك. كنت أتساءل فقط عن أناس يتشابهون في دستورهم الأخلاقي؛ هل هم معرضون لخطر أكبر من الأشخاص الذين ليسوا في مثل هذه الظروف، بافتراض وجود أي سبب جدي يدفع إلى نشأة الخلاف بينهم، أو حدوث انفصال عميق وغاضب؟».

قال ستيرفورث: «أظن أنني سأجيب بنعم».

أجابت: «هل يظن ذلك حقًّا؟ يا ربي! لنفترض إذن، على سبيل المثال -أن أي شيء غير مأمول ولكن سيفي بالغرض- أنك ستخوض شجارًا خطيرًا مع أمك».

قاطعتها السيدة ستيرفورث، ضاحكة وقالت بلطف: «يا عزيزتي

روزا، هلا اقترحتِ أشياء أخرى؟! إنني أنا وجيمس نعرف واجب كل منا تجاه الآخر على أفضل وجه، والحمد لله».

قالت الآنسة دارتل، بعد أن أومأت برأسها مفكرة: «آهٍ، بالتأكيد. وهذا من شأنه أن يمنع حدوث خلاف بالطبع، لا شك في ذلك تمامًا. أما الآن، فكم أنا سعيدة لأنني كنت من الحماقة حتى أعرض هذه المسألة عليكم، لأنه من الجيد جدًّا أن أعرف أن واجب كل منكما تجاه الآخر سيمنع الخلاف، شكرًا جزيلًا».

يجب ألَّا أغفل هنا أن أذكر حدثًا صغيرًا آخر مرتبطًا بالسيدة دارتل، حيث راودني سبب لتذكره بعد ذلك، عندما تجلى لي الماضي بأسره شيئًا لا يمكن إصلاحه. كان ستيرفورث طوال هذا اليوم، بل طوال فترة قريبة منه، يبذل قصارى جهده ويطوع مهاراته الفائقة حتى يحول هذه المخلوقة الفريدة بسهولة الساحر لتصير رفيقة عذبة ومبتهجة، ولم أندهش من نجاحه في الأمر. لم تكن لتستطيع أن تقاوم تأثيره الرائع بما يضفيه من فنه المبهج، إنها طبيعته المبهجة التي تصورتها عنه آنذاك. لم يفاجئني نجاحه أيضًا لأنني كنت أدرك طبيعتها الباهتة وذبولها الغريب. لقد رأيت ملامحها قد تغيرت، وكذلك تبدل أسلوبها ببطء؛ رأيتها تنظر إليه في إعجاب متزايد. لاحظت أنها - بشكل خافت ثم متزايد أكثر فأكثر ولكن بغضب دائم، كما لو أنها تضمر ضعفًا في نفسها - تحاول أن تقاوم القوة الآسرة التي يمتلكها، وأخيرًا رأيت نظرتها الحادة تزداد نعومة، إلى أن صارت ابتسامتها بديعة للغاية. توقف شعوري بالخوف منها، وهو الشعور الذي طالما كان يراودني طوال اليوم، فجلسنا جميعًا

حول المدفأة نتحدث ونضحك معًا، من دون أي تحفظ كما لو أننا أطفال.

لم نبقَ في غرفة الطعام أكثر من خمس دقائق بعد أن غادرتها، ولا أعرف سببًا لذلك، ربما كان بسبب جلوسنا فيها لفترة طويلة، أو لأن ستيرفورث كان عازمًا على ألَّا يفقد الميزة التي اكتسبها. توقف ستيرفورث في هدوء عند باب غرفة المعيشة، وقال هامسًا: «إنها تعزف على القيثارة، ولم يسمعها أحد سوى أمي خلال هذه السنوات الثلاث». كان يحدثنا بابتسامة غريبة سرعان ما انقشعت. دخلنا بعد ذلك إلى الغرفة فإذا بها تجلس فيها وحيدة. كانت على وشك الرحيل حين قال ستيرفورث لها: «لا تنهضي يا عزيزتي روزا، لا تفعلي، كوني لطيفة لمرة واحدة، وغني لنا أغنية أيرلندية».

قالت: «ماذا يهمك في أغنية أيرلندية؟».

قال ستيرفورث: «الكثير، بل أكثر من أي شيء آخر. كما أن أقحوانتي هنا، ويحب الموسيقى أيضًا من كل روحه. غني لنا أغنية أيرلندية يا روزا، واسمحي لي أن أجلس وأستمع إليكِ كما كنت أفعل».

لم يلمسها ولم يلمس الكرسي الذي نهضت منه، بل جلس بالقرب من القيثارة. وقفت بجانبها لبعض الوقت، في وضع غريب، تمرر يدها اليمنى بحركة تشبه العزف، من دون أن تصدر صوتًا. استعدت بهذا الوضع الغريب، ثم بدأت بحركة مفاجئة من جديد فعزفت ألحانها وغنت.

لا أدري هل كان عزفها أم صوتها العذب قد جعل هذه الأغنية تلوح على مسامعي أكثر الأغنيات جمالًا في حياتي، بل أعذب مما قد أتخيله؟ كان الأمر مخيفًا في حقيقة الأمر، كما لو أنه لم يُكتب أو يُلحن، بل نبع من عاطفة بداخلها لم تسعفها الكلمات على البوح بها بنبرات صوتها الخافت. سكن كل شيء مرة أخرى بعد أن سكتت، وإذا بي أصم في خشوع. راحت تميل بجانب القيثارة مرة أخرى، فتعزف بيدها اليمنى، من دون أن تطلق منها ألحانًا.

أفقت من غيبوبتي بعد دقيقة أخرى، وقد ترك ستيرفورث مقعده وتوجه إليها، ثم وضع ذراعه حولها ضاحكًا، وقال: «تعالي يا روزا، في المستقبل سيحب كل منا الآخر، إلى أقصى حد». رأيتها تضربه، وقد أزاحته عنها بغضب قطة برية، ثم اندفعت خارجة من الغرفة.

قالت السيدة ستيرفورث وهي قادمة نحونا: «ماذا حدث لروزا؟».

قال ستيرفورث: «لقد كانت ملاكًا لفترة قصيرة يا أمي ثم انقلبت إلى النقيض بعد لحظات على سبيل التعويض».

قالت: «يجب أن تكون حريصًا على عدم إغضابها يا جيمس. لقد توترت أعصابها، فتذكر أنه لا ينبغي على أحد أن يثيرها».

لم تعد روزا. ولم يذكرها أي منا في حديثه، حتى ذهبت مع ستيرفورث إلى غرفته لتتمنى له ليلة سعيدة. سخر منها بعدها، وراح يسألني عما إذا كنت قد رأيت مثل هذه الكتلة الصغيرة الشرسة الساذجة.

أعربت عن دهشتي بكل ما أوتيت من قدرة على التعبير حينها، وسألته عما إذا كان بإمكانه تخمين السبب الذي دفعها إلى الغضب بهذا الشكل المفاجئ.

قال ستيرفورث: «آهٍ، لا يعلم ذلك إلا الله. فلترجع السبب لأي شيء تحبه - أو لا ترجعه إلى شيء! لقد أخبرتك أنها أخذت كل شيء، بما في ذلك نفسها، إلى حجر شحذ، وشحذته. إنها أداة حادة، تتطلب عناية فائقة وحذر في التعامل معها. إنها خطيرة على الدوام. ليلة سعيدة».

قلت: «ليلة سعيدة يا عزيزي ستيرفورث، سأغادر قبل أن تستيقظ في الصباح. طابت ليلتك».

لم يرغب في السماح لي بالانصراف، فوقف ممسكًا بي، وقد أسند يده إلى كتفي، كما فعل في غرفتي من قبل.

قال بابتسامة: «اسمع يا أقحوانتي، على الرغم من أن هذا الاسم الذي أطلقه عليك ليس اسمك الحقيقي أو اسم معموديتك، فإنه الاسم الذي أحب أن أطلقه عليك، وإني لأرجو، أرجو، أرجو، أن تمنحه لي».

قلت: «هو لك، ما دمت اخترت ذلك».

قال: «يا أقحوانتي، إذا فرق بيننا أي شيء في وقت من الأوقات، فعليك أن تتذكرني في أفضل حالاتي، أيها الشاب الكبير. هيا، دعنا نتفق على هذا الأمر. فلتتذكرني في أفضل حالاتي، إذا ما فرقتنا الظروف».

قلت: «لا أكن لك الأفضل يا ستيرفورث، كما لا أتذكرك بسوء. إنك محبوب دومًا وعزيز بنفس القدر على قلبي».

لقد شعرت بتأنيب الضمير لأنني ظلمته من قبل، ولو بفكرة لم تتجسد، حتى إنني أحسست أن الاعتراف بذنبي هذا كاد أن يرتفع إلى شفتي. ولكنني ترددت، وتراجعت عن خيانة ثقة أجنيس. كان ترددي وتفكيري في كيفية التعامل مع الموضوع من دون المخاطرة بالخيانة قد منعاني من البوح بعد أن كاد اعترافي يرتفع إلى شفتي قبل أن يقول: «بارك الله فيك يا أقحوانتي، وطابت ليلتك»، هكذا لم يصل اعترافي إليه، ثم تصافحنا وافترقنا.

استيقظت مع ضوء الفجر الباهت، وارتديت ملابسي في هدوء بقدر ما استطعت، ثم ألقيت نظرة إلى غرفته. كان يغط في نومه. يرقد مستسلمًا للنوم وقد أسند رأسه إلى ذراعه، كما كنت أراه مرارًا في المدرسة.

انقضى الوقت سريعًا، رحت أنظر إليه وأتساءل كيف لا ينغص راحته شيء! إنه يغط في نومه - دعني أفكر فيه لأتذكره مرة أخرى - لأنني كنت أراه نائمًا في كثير من الأحيان في المدرسة. وهكذا، تركته في هذه الساعة من السكون. فليغفر الله لك يا ستيرفورث، لن ألمس تلك اليد البليدة بحب أو صداقة بعد اليوم. أبدًا أبدًا أبدًا.

# الفصل الثلاثون

## خسارة

وصلت إلى يارموث في المساء متجهًا إلى الفندق. كنت أعرف أنه من المحتمل أن تكون غرفة بيجوتي الاحتياطية -غرفتي- مشغولة، تعج بالزائرين في غضون فترة قصيرة، إن لم يكن هذا الزائر العظيم، الذي يجب أن يخصص كل الأحياء مكانًا لوجوده قبلهم، في المنزل، لذلك ذهبت إلى الفندق، وتناولت العشاء، وشغلت سريري.

خرجت في الساعة العاشرة بعد أن أغلقت العديد من المحلات التجارية، فصارت المدينة ساكنة مملة. وصلت إلى متجر عمر وجورام، فوجدت نوافذه مغلقة، بينما ظل باب المتجر مفتوحًا مما مكنني من رؤية شبح السيد عمر بالداخل. كان يدخن غليونه عند باب الغرفة، فدخلت وسألته عن أحواله.

قال السيد عمر: «جميل، رحماك يا الله، كيف حالك أنت؟ اجلس. آمل ألا يضايقك الدخان».

قلت: «لا يضايقني بأي حال من الأحوال، إنني أحب الدخان - حين يكون من غليون شخص سواي».

فرد السيد عمر ضاحكًا: «ماذا، ليس من غليونك؟ آه، إنه أفضل شيء فعلته يا سيدي. إنه عادة سيئة للشاب. اجلس. إنني عن نفسي أدخن بسبب الربو».

كان السيد عمر قد أفسح لي مكانًا ووضع كرسيًّا، ثم عاد إلى مجلسه مرة أخرى نافثًا في غليونه كما لو كان يحتوي على أسباب الحياة، ومن دونه وجب عليه الموت.

قلت: «إنني حزين لسماع أخبار سيئة عن السيد باركس».

نظر إليَّ السيد عمر بنظرة ثابتة وهز رأسه.

سألته: «هل تعرف كيف صارت حالته الليلة؟».

أجابني السيد عمر قائلًا: «إنه السؤال ذاته الذي كان يجب أن أطرحه عليك يا سيدي، لولا حساسية موقفي. إنها أحد عيوب عملنا. يكون أحد المعارف مريضًا، فلا نتمكن من السؤال عن حالته وصحته».

لم تخطر ببالي مسألة الحساسية، على الرغم من أنني أوجست خيفة حين دخولي من سماع هذه النغمة القديمة. وما إن ذكرها، حتى أدركت ذلك، وقلته له.

قال السيد عمر بعد أن أومأ برأسه: «نعم، نعم، إنك تفهم أننا لا نطرح هذا السؤال. بارك الله فيك، سيصاب الناس بالصدمة إن سمع أحدهم يقول: خالص التحيات من عمر وجورام، وكيف حالك هذا

الصباح؟ أو حالك بعد ظهر هذا اليوم أو أي وقت كان».

أومأ كل منا للآخر بالموافقة، ثم قام السيد عمر بتجديد دخانه المنثور من غليونه.

قال السيد عمر: «إن عملي أحد الأشياء الذي يقطع أفضليتي ويشتت الانتباه عما أرغب في إظهاره في كثير من الأحيان. خذني مثالًا، إنني لم أعرف باركس منذ سنة، حتى أستطيع أن أذهب إليه كما في السابق، بل أعرفه منذ أربعين سنة، ومن ثَم لا يمكنني أن أذهب فأقول له كيف حالك؟».

شعرت أن الموقف شديد الصعوبة على السيد عمر، وقد قلت له ذلك.

قال السيد عمر: «إنني لا أكترث لحالي أكثر من سواي، هكذا أرجو أن أكون. فلتنظر إليَّ، قد تخذلني أنفاسي في أي لحظة، وليس من المحتمل، على حد علمي، أن أكون مهتمًا بنفسي في ظل هذه الظروف. وأقول إن ذلك غير محتمل لأنني رجل يعرف أن أنفاسه ستنقطع، عندما يحين أوانها، كما تقطع الثقوب المنفاخ، فكيف بهذا الرجل الجد الهَرِم؟!».

قلت: «لن يحتمل على الإطلاق».

قال السيد عمر: «إنني لا أشكو من مهنتي، ليس هذا ما قصدت، فلجميع المهن بعض المميزات والمساوئ بلا شك. إلا أنني لا أتمنى سوى أن يتمتع الناس بقدر أكبر من الحكمة والفهم».

استنشق السيد عمر، بوجهه اللطيف المفعم بالرضا عن النفس، عدة نفخات في صمت، ثم قال مستأنفًا حديثه عن مسألته السالفة:

«ونتيجة لذلك فإننا مطالبون بألا نلتمس حالة باركس إلا عن طريق إيميلي وحدها. إنها تعرف حقيقة مقصدنا، ولم يعد يساورها أي مخاوف أو شكوك حول أمرنا، فلا يعتريها ما يفوق مخاوف قطيع من الحملان. لقد استأذن ميني وجورام للتوِّ، وتوجها إلى المنزل. إن ميني تتوجه إلى هناك بعد ساعات من العمل، لتساعد عمتها قليلًا، كما أنها تطمئن على حالها كل ليلة. إن استطعت الانتظار حتى يعودا، فإنهما سيعطيانك التفاصيل كاملة. هل تشرب شيئًا؟ هلا شربت كوبًا من العصير والماء، الآن؟»، أكمل السيد عمر حديثه وهو يحتسي كأسه، فقال: «إنني أدخن وأشرب العصير والماء معًا، لأنهما بمثابة تليين لممرات حلقي، حيث تمر أنفاسي المزعجة». وهنا تحدث السيد عمر بصوت مرتعش فقال: «حفظك الله، إن المشكلة ليست في الممرات التي تخرج عن مهمتها، لقد قلت لابنتي ميني: أعطيني أنفاسًا كافية، وسوف أجد لها الممرات، يا عزيزتي».

حقًّا؛ لم تكن أنفاسًا كاملة، بل كان من المقلق رؤيته يضحك. استرد حالة من السكينة مرة أخرى، مما أمكنني من التحدث إليه، فشكرته على المشروبات التي قدمها، على الرغم من أنني رفضتها، لأنني كنت قد تناولت عشائي للتوِّ، وقلت إني سأنتظر حتى تعود ابنته وصهره، ما دام أنه أسدى إليَّ هذه الدعوة الطيبة، ثم سألته عن حال إيميلي الصغيرة.

قال السيد عمر، بعد أن أبعد غليونه وأخذ يفرك ذقنه: «حسنًا يا سيدي، سأبوح لك بأمر، كم سأسعد حين يتم زواجها».

سألته: «لماذا؟».

قال السيد عمر: «حسنًا، إنها غير مستقرة في الوقت الحالي. لا لأنها ليست جميلة، فهي بديعة بل صارت أجمل. أؤكد لك أنها أجمل الفتيات. ليس الأمر بسبب أنها لا تعمل كما كانت من قبل، لأنها الآن تعمل. إنها تعمل ستة أعمال، بل تساوي ست عاملات، لكنها بطريقة ما بحاجة إلى أن تكتسب شجاعة القلب». استطرد السيد عمر كلامه بعد أن فرك ذقنه مرة أخرى واستعاد تدخينه بشكل يسير: «إذا فهمت ما أعنيه بشكل عام «شدة طويلة، وشدة قوية، وسحب بالكلية، يا أحباب قلبي ويا مرحى!»، فإنني يجب أن أقول لك، إن هذا الأمر بشكل عام هو ما أفتقده في إيميلي».

انبسطت قسمات وجه السيد عمر وارتاح إلى حد كبير، بعد أن أومأت إليه برأسي موافقًا على حديثه، في إشارة إلى فهم مقصده. وبدا أن سرعة إدراكي كانت تسعده، فتابع حديثه قائلًا: «إنني أعتبر أن السبب يرجع بالأساس إلى كونها في حالة غير مستقرة، كما تعلم الآن. لقد تناقشت طويلًا حول أمرها أنا وعمها، كما تحدثت مع حبيبها بعد أوقات العمل، وإنني أعتبر أن السبب يعود بالأساس إلى عدم استقرارها». هز السيد عمر رأسه بلطف، ثم استأنف قائلًا: «يجب ألا تنسى أبدًا أن إيميلي مخلوقة صغيرة محببة وغير عادية. يقول المثل: «لا يمكنك صنع محفظة حريرية من أذن خنزير». حسنًا، إنه أمر لا أعرف شيئًا عنه، لكني أحسبك ستعرفه بعد أن تشق طريقك في الحياة في وقت

مبكر. لقد صنعت منزلًا من ذلك القارب القديم يا سيدي، فصار متينًا لا يُغلب، مصنوعًا من الحجر والرخام».

قلت: «إنني متأكد من أنك فعلت ذلك».

قال السيد عمر: «يا له من مشهد بديع، حين ترى هذه المخلوقة الصغيرة تتمسك بعمها! إن الطريقة التي تتعلق بها، تزداد كل يوم إحكامًا بعد إحكام، وقربًا بعد قرب. وكما تعلم، فإن صراعًا ينشب حين تكون الحال كما هي عليه الآن. فلماذا يجب أن يطول صراعها أكثر مما ينبغي؟».

لقد استمعت باهتمام إلى حديث هذا الرجل العجوز الصالح ورضخت لما قاله من كل قلبي.

قال السيد عمر بنبرة مريحة وهادئة: «لذلك، فإنني قد أوضحت هذا الأمر لهما. وقلت حسنًا، لا تفكر أن إيميلي تتعاقد معي إلى أجل مسمى. لا، على الإطلاق. فلتختارا ما تشاءان من وقتكما. إن عملها أثمن قيمة مما نفترض، فقد كان تعلمها أسرع مما توقعت، بحيث من الممكن أن يتجاوز متجر عمر وجورام عما تبقى لها من تدريب، فلها حرية الذهاب وقتما ترغب. وإن رغبت في إجراء أي تعديلات صغيرة بعد ذلك، فإنها تستطيع القيام بأي أعمال صغيرة لنا في منزلها، وسيكون الأمر مُرضيًا جدًّا. وإن لم تفعل ذلك، فلا يزال الأمر مُرضيًا جدًّا، لأننا لسنا بخاسرين على أي حال». لمسني السيد عمر بغليونه، ثم استأنف قائلًا: «ألا ترى أنه من غير المحتمل أن يذهب رجل قصير الأنفاس مثلي وقد صار جَدًّا أيضًا، فيتجادل حول بضع نقاط مع زهرة زرقاء العينين، مثلها؟».

قلت: «لا يجوز على الإطلاق، ولا شك في ذلك».

قال السيد عمر: «لا يجوز على الإطلاق. حسنًا يا سيدي، إن ابن عمها... هل تعلم أن ابن عمها سيتزوجها؟».

أجبته: «آهٍ نعم. إنني أعرفه جيدًا».

قال السيد عمر: «بالطبع تعرفه. اسمع يا سيدي، إن ابن عمها، كما يبدو، يشغل عملًا جيدًا، ويحسن القيام به، لذا فقد شكرني بطريقة رجولية للغاية على ما قمتُ به. أقر بأن طريقته منحتني انطباعًا جيدًا عنه. لقد اتخذ منزلًا صغيرًا مريحًا؛ منزلًا أتمنى كما تتمنى لو أمتع عيني بالنظر إليه. صار هذا المنزل الصغير الآن يحوي أثاثًا أنيقًا وكاملًا يشبه بيت الدمى، ولولا مرض باركس خاصة بعد أن اتخذ هذا المنعطف السيئ لاستطعت أن أقول عنهما اليوم إنهما صارا زوجين، يا للمساكين! إن الظروف لا تسمح إلا بالتأجيل».

سألته: «وماذا عن إيميلي يا سيد عمر؟ هل صارت أكثر استقرارًا؟».

راح يفرك ذقنه المزدوج مرة أخرى وقال: «حسنًا، لا يمكن توقع الأمر بشكل طبيعي، كما تعلم. إن احتمال التغيير والانفصال عن أهلها، وكل ذلك من الأمور التي يعلمها أي إنسان قريب منها أو بعيد، تشغلها في آن واحد. أما موت باركس فلن يؤدي إلى تأجيل زواجها كثيرًا، لكن طول مرضه سيؤجله كثيرًا. إن الأمور غير مستقرة على أي حال، كما تعلم».

قلت: «أعلم ذلك».

تابع السيد عمر حديثه قائلًا: «نتيجة لذلك، لم تزل إيميلي حزينة قليلًا، ومرتعدة بعض الشيء؛ وربما صارت بشكل عام أكثر اكتئابًا مما كانت عليه. إنها تبدو في كل يوم أكثر ولعًا وتمسكًا بعمها، وتبدي مزيدًا من اللا مبالاة تجاهنا جميعًا. إن كلمة طيبة مني تجلب لعينيها الدموع. وإذا رأيتها تحمل ابنتي الصغيرة، فلن تنسى منظرها المؤثر أبدًا». ثم قال السيد عمر متأملًا: «كم تحب هذه الطفلة الصغيرة! بارك الله أحبائي وحفظهم على قيد الحياة».

أحسست أنني قد أتيحت لي الفرصة المناسبة، فخطر ببالي أن أسأل السيد عمر، قبل أن يقطع محادثتنا بعودة ابنته وزوجها، عما إذا كان يعرف شيئًا عن مارثا.

راح يهز رأسه وقد بدا حزينًا جدًّا وقال: «آه، إنها في حالة سيئة. إنها قصة حزينة يا سيدي، لكنك ستعرفها. لم أتصور قَطُّ أن ثمة أي ضرر في أمر هذه الفتاة. ولا أرغب في ذكر ذلك أمام ابنتي ميني. ستثور ميني في الحال، لذلك لا أذكرها أمامها أبدًا، ولم يتجرأ أي منا على ذكرها أمامها من قبل».

سمع السيد عمر خطى ابنته قبل أن أسمعها، فنكزني بغليونه، وغمز بإحدى عينيه كنوع من التحذير، فدخلت هي وزوجها بعدها مباشرة.

أبلغانا أن السيد باركس كان «في أسوأ حالاته»، وأنه فاقد للوعي تمامًا، وأن السيد تشيليب قال بحزن في المطبخ، قبل انصرافه للتوِّ، إن هيئة الطب وهيئة الجراحين والصيادلة لن يسع أفرادها جميعًا أن يسعفوه لو أنهم دعوا جميعًا إليه. وأضاف السيد تشيليب أن حالة باركس قد

تجاوزت مهارة الكليتين، ولم يعد بإمكان الصيادلة سوى تسميمه.

ما إن سمعت هذه الأخبار، وعلمت أن السيد بيجوتي هناك حتى اعتزمت الذهاب إلى المنزل في الحال. تمنيت ليلة سعيدة للسيد عمر، وللسيد جورام والسيدة زوجته، ثم وجهت خطواتي إلى هناك، بعد أن لفني شعور مهيب، مما جعل السيد باركس يلوح لي مخلوقًا جديدًا ومختلفًا.

استجاب السيد بيجوتي لطرقاتي الخفيفة على الباب. ولم يفاجأ برؤيتي كما توقعت، ولاحظت أن بيجوتي لم تدهش أيضًا، بعدما جاءت لاستقبالي. أدركت منذ ذلك الحين أن الانتظار أو هول المفاجأة من أي شيء يغدو أمرًا ضئيلًا أمام مهابة انتظار الموت.

صافحت السيد بيجوتي ودخلت المطبخ وأغلق هو الباب بهدوء. كانت إيميلي الصغيرة جالسة بجانب الموقد وقد وضعت يدها أمام وجهها، بينما وقف هام بالقرب منها.

رحنا نتكلم هامسين، ثم ننصت بين حين وآخر، لأي صوت قد يصدر من الغرفة العليا. لم يخطر ببالي هذا المشهد في زيارتي الأخيرة لهم، وكم صار غريبًا الآن أن أفتقد وجود السيد باركس في المطبخ!

قال السيد بيجوتي: «إنه لطف كبير منك يا سيد ديفي».

قال هام: «إنه كرم معهود منك».

صاح السيد بيجوتي: «يا إيميلي، يا عزيزتي، انظري هنا، إنه السيد ديفي، هيا، ابتهجي يا جميلة، ألن تقولي شيئًا للسيد ديفي؟».

انتابتها ارتعاشة لم أزل أذكر مشهدها حتى الآن. شعرت ببرودة يدها بعدما لمستها لأسلم عليها. كانت العلامة الوحيدة على أنها يد حية هي انكماشها عني، ثم انزلقت على الكرسي، تسللت إلى الجانب الآخر من عمها، وانحنت على صدره في صمت وارتجاف.

قال السيد بيجوتي وهو يمشط شعرها الكثيف بيده الخشنة الكبيرة: «إن روحها رقيقة، بحيث لا تستطيع التخلص من هذا الحزن. إنه طبع هؤلاء الشباب يا سيد ديفي، حيث وقع هذه التجارب يكون جديدًا عليهم، فيصيرون منزويين، مثل عصفورتي الصغيرة، إنه طبع الشباب».

زادت من تشبثها به، من دون أن ترفع وجهها أو تنبس ببنت شفة.

قال السيد بيجوتي: «لقد تأخرتِ يا عزيزتي، وها هو هام قد جاء ليصطحبكِ إلى المنزل. هيا، اذهبي مع هذا القلب الآخر المحب، ماذا يا إيميلي؟ ماذا يا جميلتي؟».

لم يصلني صوتها، لكنه أحنى رأسه كأنه يستمع إليها، ثم قال:

«هل أدعكِ لتبقي مع عمكِ؟ يا للعجب، أتطلبين مني هذا! كيف تبقين مع عمكِ يا فتاة؟ ماذا عن هذا الرجل الذي سيكون زوجكِ قريبًا جدًّا، بعد أن جاء إلى هنا ليصطحبكِ إلى المنزل؟»، قال السيد بيجوتي، وهو ينظر إلى كلينا، بفخر لا متناهٍ: «إن ملح البحر ليس أكثر ملوحة مما تضمره من ولع لعمها. يا لإيميلي الصغيرة الساذجة!».

قال هام: «إن إيميلي على حق يا سيد ديفي، أصغِ إليَّ، إن حالة

إيميلي مضطربة وخائفة، فليكن لها ما أرادت، سأتركها هنا حتى الصباح، ولتسمحوا لي أن أبقى أيضًا».

قال السيد بيجوتي: «لا، لا. إن رجلًا مثلك متزوج، أو في مقام المتزوج، ليس مضطرًّا إلى أن يتأخر يومًا عن العمل. ولا يجب أن تشرف على إيميلي وتعمل في آن واحد. إن هذا الأمر لن يجدي نفعًا. فلتذهب إلى المنزل ثم تعود. إنك تخاف ألا نعتني بإيميلي الاعتناء اللازم، أعرف ذلك».

استسلم هام أمام هذا الإقناع، وأخذ قبعته لينصرف، ثم أقبل إليها ليقبلها - لم أرَه يقترب منها قَطُّ، لكنني شعرت أن الطبيعة أعطته روح رجل نبيل - فبدت كما لو أنها تتشبث بعمها أكثر، حتى تتجنب زوجها المختار. أغلقتُ الباب من بعده لئلا يزعج ضجيجه الهدوء السائد في المكان. عدت إليهم، فوجدت السيد بيجوتي لا يزال يتحدث إليها.

قال: «سأصعد الآن إلى الطابق العلوي لأخبر عمتكِ أن سيد ديفي هنا، وسوف يفرحها هذا النبأ قليلًا. اجلسي جوار النار، وانعمي بدفئها يا عزيزتي، ودفئي هاتين اليدين الباردتين المميتتين. لست بحاجة إلى أن تكوني مخيفة إلى هذا الحد وأن تتحملي ما يفوق طاقتك. ماذا؟ هل ستأتين معي؟ حسنًا، تعالي معي... هيا تعالي». قال السيد بيجوتي بفخر لا يقل عن ذي قبل: «لولا خروج عمها من المنزل مطرودًا، وقد اضطر إلى النوم فوق الجسر، لتصورت أنها ستذهب إليه الآن، ولكن سيكون هناك شخص آخر قريبًا... شخص آخر قريبًا يا إيميلي».

صعدتُ بدوري بعد ذلك إلى الطابق العلوي، ورحت أجتاز باب غرفتي الصغيرة، التي لفها الظلام، فإذا بهواجس غير واضحة الأسباب تبوح لي بوجودها فيها، مطروحة على الأرض. إلا أنني لا أعرف حتى هذه اللحظة، ما إذا كانت هي حقًّا، أم أن الأمر لم يكن سوى ارتباك وانعكاس للظلال في الغرفة.

وجدتني أفكر في وقت فراغ، بينما لم أزل بجوار موقد المطبخ، فتأملت خوف إيميلي من الموت، خاصة بعد أن استدعى تفكيري ما قاله السيد عمر لي، من أنها في حالة مختلفة تمامًا عن ذي قبل. كما توفر لي وقت فراغ آخر قبل نزول بيجوتي، فرحت أفكر في إشفاق ورثاء لضعفها، بينما جلست أحسب دقات الساعة، وأعمق حساسيتي للصمت المهيب من حولي. أخذتني بيجوتي بين ذراعيها وباركتني وشكرتني مرارًا وتكرارًا لأنني أقدم لها العزاء بمجيئي - هذا ما قالته - في محنتها. ثم طلبت مني وهي تبكي أن أصعد إلى الطابق العلوي، لأن السيد باركس لطالما أحبني وأعجب بي، وأنه تحدث عني كثيرًا قبل أن يفقد وعيه، وأنها موقنة من أنه لو استعاد نفسه مرة أخرى، فسوف يتهلل لرؤيته لي، إذا استطاع أن يتهلل لأي شيء على وجه الأرض.

بدا لي عندما رأيته، أن احتمال استرداد وعيه ضئيل للغاية. كان مستلقيًا وقد أسدل رأسه وكتفيه خارج السرير، في مشهد لا يسر الناظرين. أما نصفه الآخر فمستند إلى الصندوق الذي كلفه الكثير من الألم والمتاعب. علمت أنه عجز عن التسلل من السرير ليفتحه، ولم يعد مطمئنًّا إلى سلامته بعد تحسسه بالعصا التي رأيته يستخدمها، لذلك

فإنه طلب وضعه على الكرسي الموجود بجوار السرير، ثم احتضنه منذ ذلك الحين ليلًا ونهارًا. ها هي ذراعه ملقاة عليها الآن. كان الزمن والعالم ينزلقان من تحته، بينما لبث هذا الصندوق تحت ذراعه، وكانت الكلمات الأخيرة التي قالها (بنبرة توضيحية): «إنها ملابس قديمة».

قالت بيجوتي فيما يشبه المرح، وقد انحنت عليه بينما وقفت أنا وشقيقها عند نهاية السرير: «باركس، يا عزيزي، إنه ابني العزيز... ابني العزيز، إنه سيد ديفي، الذي جمعنا معًا يا باركس، لقد أرسلت الرسائل من قبل، كما تعلم، ألا تتحدث إلى سيد ديفي؟».

كان أخرس وجامدًا مثل الصندوق، الذي استمد من شكله آخر مظاهر ما يمتلكه في الحياة.

قال لي السيد بيجوتي من وراء كفه الذي يواري أذني: «إنه يحتضر مع المد».

صارت عيناي قاتمتين وكذلك عين السيد بيجوتي، لكنني كررت بصوت هامس: «مع المد؟».

قال السيد بيجوتي: «لا يمكن للناس أن يموتوا على طول الساحل، إلا عندما يكون المد قريبًا جدًّا. لا يمكن أن يولدوا، إلا إذا كانوا قريبين جدًّا من المد، بل لا يولدون أصحاء، حتى يصير المد طوفانًا. إنه يحتضر مع المد. إن الماء ينحسر عند الثالثة والنصف، بعد أن يهدأ الموج في نصف ساعة. إذا عاش حتى ينقضي هذا المد، فإنه سيتماسك بمفرده حتى يتجاوز الطوفان، ثم يحتضر مع المد التالي».

بقينا هناك، ورحنا نراقبه لساعات طويلة. لن أتظاهر بالقول إن وجودي كان له من التأثير الغامض على حواسه في تلك الحالة، ولكنه بدأ أخيرًا يتوهم شيئًا في ضعف، فراح يتمتم شيئًا عن حملي في عربته إلى المدرسة.

قالت بيجوتي: «إنه يستعيد وعيه».

نكزني السيد بيجوتي، وتهامس في رهبة واحترام جلل قائلًا: «إن كليهما يحتضران مع المد بسرعة».

قالت بيجوتي: «باركس يا عزيزي».

قال بصوت خافت: «ك. ب باركس. لا توجد امرأة في أي مكان أفضل منها».

قالت بيجوتي: «انظر، إن سيد ديفي هنا». وكان قد فتح عينيه في هذه اللحظة.

كنت على وشك سؤاله عما إذا كان يعرفني أم لا، فإذا به يحاول مد ذراعه نحوي، وقد قال لي بوضوح وبابتسامة لطيفة:

«باركس راغب».

ولما كانت المياه تنحسر، فقد احتضر مع المد.



# الفصل الحادي والثلاثون

## خسارة فادحة

لم يكن من الصعب عليَّ أن أقرر البقاء في المكان الذي كنت فيه -بناءً على طلب بيجوتي- حتى يُنقل جثمان الفقيد المسكين في رحلته الأخيرة إلى قبره في بلندرستون. كانت بيجوتي قد اشترت من مدخراتها الخاصة منذ فترة طويلة قطعة أرض صغيرة في فناء كنيستنا القديمة، بالقرب من قبر «ابنتها الجميلة»، كما كانت تسمي أمي دائمًا، حيث سينقل الجثمان إلى مثواه.

كنت ممتنًّا بالبقاء بجوار بيجوتي، وبذل كل ما بوسعي من أجلها - وإنه لقليل هين في أقصى تقدير، كما أسعدني سماحها لي بذلك، وكم أتذكر موقفها الآن في شكر وعرفان. كما شعرت بارتياح بالغ على المستوى الشخصي والمهني، في تولي مسؤولية تنفيذ وصية السيد باركس، وشرح محتوياتها.

وإنني أدعي الفخر بأنني من اقترح ضرورة البحث عن الوصية في الصندوق. وقد عثرنا عليها بعد إجراء بعض محاولات البحث في الصندوق، وكانت أسفل مخلاة الحصان، حيث اكتشفناها تحت طبقات من التبن، وكذلك وجدنا ساعة ذهبية قديمة بها سلسلة وأختام، كان السيد باركس يرتديها في يوم زفافه، ولم يسبق رؤيتها من قبل أو منذ ذلك الحين. وجدنا سدادة تبغ فضية على شكل ساق، وحافظة على شكل ليمونة مليئة بالفناجين الصغيرة والصحون، وقد تصورت أن السيد باركس قد اشتراها لي عندما كنت طفلًا، ثم وجد نفسه بعد ذلك غير قادر على التخلي عنها، وعثرنا على سبعة وثمانون جنيهًا ونصف، من فئة الجنيهات وأنصاف الجنيهات الذهبية، ومائتين وعشرة جنيهات من فئة الأوراق النقدية النظيفة تمامًا، وإيصالات لأسهم في بنك إنجلترا، كما وجدنا حدوة حصان قديم، وشلن رديء، وقطعة من الكافور، وصدفة محار. لاحظت شكل الصدفة التي كانت مصقولة للغاية، وقد حوى جوفها ألوانًا بديعة، فاستنتجت أن السيد باركس كانت لديه بعض الأفكار العامة حول اللآلئ، ولكن معرفته بها لم تتخذ مسارًا محددًا قَطُّ.

حمل السيد باركس هذا الصندوق في جميع رحلاته كل يوم ولسنوات كثيرة. حاول أن يخفيه، فنسج قصة من خياله، فقال: «إن الصندوق ينتمي إلى السيد بلاكبوي، وقد تركه مع باركس حتى يطلبه منه»، ثم كتب هذه الحكاية بإسهاب على غطاء الصندوق، بأحرف يصعب قراءتها الآن.

لقد اكتشفت أنه ادخر ماله طوال هذه السنوات، لهدف نبيل، وقد بلغت ممتلكاته المالية قرابة ثلاثة آلاف جنيه. أوصى السيد بيجوتي بفائدة عن ألف جنيه تخصص له طوال حياته، وعند وفاته يجب أن يُقسَّم المبلغ بالتساوي بين بيجوتي وإيميلي الصغيرة وأنا، أو من تبقى على قيد الحياة أو من تبقوا منا، والمشاركة بالتساوي على حد سواء. أما كل ما تركه من أملاك غير النقود فترثه بيجوتي، باعتبارها الوريثة المقيمة، والمنفذ الوحيد لوصيته الأخيرة.

شعرت أنني في موقف المراقب القضائي بعدما قرأت هذه الوصية بصوت عالٍ، بأقصى احتفاء ممكن، ثم عرضت أحكام التخصيص، وكررت ذكر نصيب كل فرد مرات عديدة لأولئك الذين يعنيهم الأمر. رحت أفكر منذ ذلك الحين أن أعمال مجلس العموم تفوق ما كنت أتصوره. فحصت الوصية باهتمام بالغ، ووضحت أنها رسمية وقانونية تمامًا من جميع النواحي، ثم وضعت عدة تعليقات بالقلم الرصاص أو ما شابه في الهامش، وأحسب أنه أمر غير عادي إلى حد ما ولم أكن أعرف ذلك من قبل.

رحت أسعى إلى تشييع الجثمان، وأحسب حصة بيجوتي، وأحصر جميع الممتلكات التي ورثتها، وأرتب جميع أمورها بطريقة منظمة، فصرت ناصحًا لها ومستشارًا أمينًا في كل نقطة تخصها، مما أسعد كل منا، وقد بقيت أسبوعًا كاملًا لإتمام هذه الأمور قبل الجنازة. لم أرَ إيميلي الصغيرة في تلك الفترة، لكنهم قالوا لي إنها ستتزوج في سكون في غضون أسبوعين.

لم أحضر الجنازة بهيئة رسمية، إن جاز لي التعبير. أعني أنني لم أرتدِ معطفًا أسود أو غطاءً للرأس لإخافة الطيور، لكنني مشيت إلى بلندرستون في الصباح الباكر، وانتظرت في ساحة الكنيسة حتى وصول الجثمان، في حضور بيجوتي وشقيقها لا غير. نظر الرجل المجنون من نافذتي الصغيرة، وهز صغير السيد تشيليب رأسه الثقيل، ثم أدار عينيه الصغيرتين من فوق كتف مربيته نحو القسيس، ومضى السيد عمر يتنفس بصعوبة في الخلفية. خلا المكان من أي إنسان آخر، ولفنا الهدوء. تجولنا في ساحة الكنيسة لمدة ساعة، بعد أن انتهى كل شيء. قطفوا بعض الأوراق الصغيرة من الشجرة المخضرة فوق قبر أمي.

وهنا لفني الرعب، إذ انخفضت سحابة في البلدة البعيدة التي عدت أخطو إليها وحيدًا بينما كنت أخشى الاقتراب منها. لا أستطيع أن أتحمل التفكير فيما حدث في تلك الليلة التي لا تُنسى، حين لم أقدر على التفكير في العواقب التالية إذا ما واصلت مسيرتي.

إن حالي لم تعد أسوأ مما كنته بينما أُدون ما وقع، ولن يصير الأمر أفضل إذا ما أوقفت يدي غير الراغبة في التدوين. قُضي الأمر، فلا يمكن التراجع عما وقع، وليس في الإمكان إلا ما كان.

كان من المقرر أن تصحبني مربيتي العجوز إلى لندن في اليوم التالي، للعمل على تخليص أعمال تتعلق بالوصية. كان من المفترض أن تمر إيميلي الصغيرة في ذلك اليوم بمنزل السيد عمر، وكنا سنلتقي جميعًا في المركب القديم في تلك الليلة. سيذهب هام لإحضار إيميلي

في موعده المعتاد، بينما سأعود أنا حين فراغي من الأمر، وسيعود الأخ وأخته كما جاءا، بعد أن يودعانا في نهاية اليوم عند المدفأة.

ودعتهم عند بوابة الحديقة، حيث استراح ستراب مع حقيبة رودريك راندوم أبطال القصة القديمة التى عرفتها في الأيام الخوالي، وبدلًا من أن أعود مباشرة إلى القارب رحت أتمشى لمسافة قصيرة على الطريق المؤدي إلى لوستوفت، ثم استدرت عائدًا إلى يارموث. مكثت لتناول العشاء في منزل لائق، على بُعد ميل أو ميلين من الجسر الذي ذكرته من قبل، وهكذا تلاشى النهار، وحل المساء عندما وصلت. كان المطر يتساقط بغزارة في ذلك الوقت، وكانت ليلة موحشة، حتى لاح القمر من خلف السحب فبدد بقعًا من الظلام.

سرعان ما لاح لي منزل السيد بيجوتي على مرمى البصر، وقد تلألأ الضوء بداخله منبعثًا من النافذة. رحت أتخبط قليلًا فوق الرمال، التي أثقلت خطواتي إلى أن وصلت نحو الباب، ثم دخلت.

بدا البيت مريحًا للغاية. كان السيد بيجوتي قد فرغ من تدخين غليونه المسائي بينما تتجلى بعض استعدادات تناول طعام العشاء. كانت النار تتوهج، وقد بعثرت رمادها في كل مكان، بينما تلوح الخزانة جاهزة لاستقبال إيميلي الصغيرة في مكانها القديم. جلست بيجوتي هي الأخرى في مكانها المعهود، كما لو أنها لم تتركه قَطُّ لولا ثوب حدادها الفارق. كانت قد عادت بالفعل إلى صندوق غزلها الذي تعلو غطاءه صورة لكنيسة القديس بولس، ويحوي مازورة القياس داخله مع قليل من الشمع، وبدوا جميعًا في حوزتها كما لو أنهم لم يتبدلوا قَطُّ.

بدت السيدة جامدج قلقة بعض الشيء؛ جالسة في ركنها القديم، ومن ثَم بدت على طبيعتها المعهودة هي الأخرى.

قال السيد بيجوتي بوجه بشوش: «إنك أول من جاء من المجموعة يا سيد ديفي، فلتخلع عنك ذلك المعطف إذا كان مبتلًّا يا سيدي».

قلت له: «شكرًا لك سيد بيجوتي»، ثم ناولته معطفي الخارجي ليعلقه وقلت: «إنه جاف تمامًا».

قال السيد بيجوتي وهو يتحسس كتفي: «حقًّا، جاف كشريحة جافة. اجلس يا سيدي. ليس من المجدي أن أقول مرحبًا بك، بل على الرحب والسعة والطيبة والود».

قلت: «شكرًا لك يا سيد بيجوتي، إنني متأكد من ذلك». ثم قبَّلت بيجوتي قائلًا: «حسنًا يا بيجوتي، كيف حالك أيتها العجوز؟».

ضحك السيد بيجوتي، ثم جلس إلى جانبنا، وأخذ يفرك يديه كمن يستشعر الراحة من المتاعب الأخيرة، وقد انقلب إلى طبيعته الحقيقية، وراح يقول: «ها، ها! لا توجد امرأة في العالم تحتاج إلى الشعور براحة البال أكثر منها، قلت لها هذا يا سيدي. لقد فعلت ما بوسعها لخدمة الفقيد، كما أن الفقيد موقن من ذلك، وقد فعل الفقيد عين الصواب لها، كما فعلت هي عين الصواب له، و... و... وكل شيء على ما يرام».

تأوهت السيدة جامدج.

قال السيد بيجوتي: «ابتهجي أيتها الأم العجوز»، لكنه أومأ برأسه في وجهنا، كما لو أنه يشير إلى أنه من المنطقي أن تستثير الأحداث

المتأخرة ذكرى فقيدها القديم. «لا تنزلقي إلى الهموم، ابتهجي قليلًا من أجل نفسكِ، واكتسبي مزيدًا من الصفقات الجيدة المبهجة وإلا لن تأتي تلقائيًّا إليكِ أبدًا».

قالت السيدة جامدج: «لا يأتيني شيء بصورة تلقائية أبدًا يا دانيال، ولكني سأمكث وحيدة ومضطربة».

قال السيد بيجوتي وهو يهدئ أحزانها: «لا، لا».

قالت السيدة جامدج: «نعم، نعم يا دانيال، إنني لست شخصًا ممن يعيش مع أناس لديهم أموال كافية. إن الظروف تعارضني. خير لكم أن تتخلصوا مني».

قال السيد بيجوتي، بنبرة من الاحتجاج الجاد: «كيف يمكنني أن أنفق مالًا على أحد سواكِ؟ ما الذي تتحدثين عنه؟ ألا أريدكِ الآن أكثر من أي وقت مضى؟».

صرخت السيدة جامدج، بصوت يرثى له: «أعلم أنني لم أكن مرغوبة من قبل، والآن قيل لي ذلك، كيف يمكن أن أتوقع أن أكون مرغوبة، وأنا وحيدة ومضطربة ولن أكون عكس ذلك؟».

بدا السيد بيجوتي مشدوهًا للغاية بعد أن قال هذه الكلمات التي تخلو من الإحساس بالغير، ولكنه لم يستطع الرد، فقد منعته بيجوتي بعد أن شدته من أكمامه، وهزت رأسها بالنفي. راح ينظر إلى السيدة جامدج لبعض اللحظات، شاعرًا بالضيق مؤنبًا نفسه، ثم رفع نظره إلى الساعة الهولندية المعلقة، ثم نهض، وأضاء الشمعة، ووضعها فوق النافذة.

قال السيد بيجوتي بمرح: «ها هي، هنا يا سيدة جامدج، شمعتنا مضاءة كعادتها». تنهدت هنا السيدة جامدج قليلًا. «لا بد أنك تتساءل يا سيدي عن الغرض من كل هذا، حسنًا، إنه لأجل إيميلي الصغيرة. إن الطريق كما ترى، ليس مضاءً كما أن النوافذ الملونة باتت مظلمة، ولذلك فإنني عندما أعود إلى هنا، فإنني أضع الضوء فوق النافذة حتى يرشد خطاها». انحنى السيد بيجوتي فوقي وراح يقول في ابتهاج بالغ: «إني أقوم بالأمر لشيئين: أولهما أن تقول إيميلي لنفسها: «ها هو ذا المنزل». وثانيهما أن تقول: «ها هو ذا عمي» لأنني لو لم أكن موجودًا لما ظهر أي ضوء».

قالت بيجوتي: «يا لك من طفل!». وإني أحسب أنها لمغرمة جدًّا به لهذا السبب.

ظل السيد بيجوتي واقفًا متباعد الساقين إلى حد كبير، وقد فرك يديه لأعلى ولأسفل في راحة ورضا، بينما أخذ ينظر إلينا وإلى النار بالتناوب، ثم قال: «حسنًا، أعرف أنني كذلك ولكني كما تعلمين، لا أبدو للناظرين طفلًا».

عقبت بيجوتي قائلة: «لست كذلك تمامًا من هذه الناحية».

ضحك السيد بيجوتي قائلًا: «لا، ليس شكلًا، ولكن موضوعًا كما تعلمين. لا يهمني الأمر، بارك الله فيكِ، فلتصغي الآن لما أقوله لكِ». أكمل السيد بيجوتي، بتركيز وجد مفاجئين قائلًا: «إنني كلما ذهبت لأتفقد هذا المنزل الأنيق الخاص بإيميلي غاليتنا، أعود مذهولًا وعقلي يكاد يفارقني، لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك. إنني أشعر أن الأشياء

الصغيرة هي إيميلي نفسها؛ أتناولها فأضعها بين كفَّي، وألمسها برفق كأنها هي إيميلي غاليتنا، حتى إنني أجد قبعتها الصغيرة وأوصالها. من ثَم لم أستطع رؤية أي إنسان يلمس أغراضها بخشونة أو من دون لين ورفق، وها هو ذا الطفل الذي تصفونه إذ به قد صار قنفذًا بحريًّا». هكذا أنهى السيد بيجوتي كلامه، مستريحًا من جديته بضحكة رنانة.

ضحكت أنا وبيجوتي، من دون أن نصدر صوتًا عاليًا.

قال السيد بيجوتي، بوجه مبتهج، بعد أن زاد حركته بفرك ساقيه: «كما تعلم، إنني أحسب أن هذا الرأي يرجع إلى لعبي معها كثيرًا، وتمثيلي لها بأنني من الأتراك، أو الفرنسيين، وأسماك القرش، وجميع الغرائب والعجائب. وتقليدي للأسود والحيتان، وما لا أعرف عنه شيئًا كذلك. كانت لم تزل في حيز أعلى قليلًا من ركبتي. لقد واصلت طريق الحياة، كما تعلمون حتى وصلنا إلى أن تكون هذه الشمعة مضاءة هنا الآن». راح السيد بيجوتي يشير إلى الشمعة بسعادة ثم استطرد قائلًا: «أعلم جيدًا أنني سأسهر أناجي الليالي حين ترحل عن هنا، أو أرحل أنا – فأي مكان سواه سأعيش فيه، مهما أوتيت من حظ وفير، حمدًا لله! – إلا أنني سأضع شمعة في مكانها المعتاد، وأجلس أمام نار الموقد، متظاهرًا أنني أتوقع مجيئها، كما أفعل الآن. هذه هي الحقيقة التي تثرثرون حولها، طفل على هيئة قنفذ بحري. صدقًا، إنني أرى الشمعة تنير في اللحظة الحالية، فأقول لنفسي: «إنها تنظر إليها، إيميلي قادمة»، ها هو الطفل في هيئة قنفذ بحري»، توقف عن قهقهته التي تشبه الزئير، وراح يقلب كفيه معًا قائلًا: «ها هو ما يؤيد مقولتي؛ ها هي قد وصلت».

لم يكن القادم سوى هام. ويبدو أن المطر قد ازداد كثافة بعد أن وصلت إلى البيت لأنه كان يرتدي قبعة كبيرة تقطر ماء على وجهه.

قال السيد بيجوتي: «أين إيميلي؟».

قام هام بحركة برأسه، كما لو أنه يشير إلى أنها في الخارج. أخذ السيد بيجوتي الشمعة من النافذة، وسوَّى ذبالتها، ووضعها فوق المنضدة، ثم انشغل بإثارة نيران المدفأة، بينما مكث هام مكانه من دون حراك وأخذ يقول:

«هلا أتيت يا سيد ديفي لدقيقة واحدة لترى ما سأعرضه عليك أنا وإيميلي؟».

خرجنا. ما إن مررت بالباب حتى رأيت ما أثار دهشتي وخوفي، فقد بدا هام شاحبًا إلى أبعد الحدود. دفعني على عجل إلى الهواء الطلق، ثم أغلق الباب من ورائنا، فلم يعد يرافقنا أحد.

قلت: «يا هام، ماذا جرى؟».

قال: «يا سيد ديفي...»، آه على قلبه المكسور، كم بكى بكاءً مروعًا!

لقد أصبت بشلل أمام هذا المشهد المفجع. لا أعرف ما فكرت به حينها، أو ما الشيء الذي روعني. لم أستطع سوى النظر إليه.

قلت: «يا هام، أيها المسكين، فلتخبرني ما الأمر بحق السماء».

«إن حبيبتي يا سيد ديفي... فخر حياتي وأمل قلبي التي مت من أجلها، وسأموت الآن من أجلها أيضًا... لقد ذهبت».

«ذهبت؟».

«لقد هربت إيميلي، آه يا سيد ديفي، فكِّر كيف هربت، كيف أتضرع إلى الله فأطلب منه أن أتمكن من قتلها، وهي التي كانت غالية عزيزة لا تضاهي شيئًا قبل أن تسمح لنفسها بأن تجلب الخراب والعار؟».

لم تزل ذاكرتي تحفظ إلى الآن مشهد وجهه الذي رفعه نحو السماء المضطربة، وارتعاشة يديه المشبوكتين، وآلامه البادية عليه، بل لم يزل هذا المشهد مقرونًا بالمكان الموحش المقفر الذي حاوطنا. يتراءى لي هذا المشهد دائمًا في ليله الحالك، مسيطرًا على جنباته الموحشة.

قال على عجل: «إنك إنسان مثقف، وتعرف ما خير الفعال وأصحها. ماذا أقول للناس في الداخل؟ كيف أبوح لهم بهذا الخبر يا سيد ديفي؟».

رأيت الباب يتحرك، وحاولت غريزيًّا إمساك المزلاج من الخارج، لأحصل على مزيد من الوقت. كان الوقت قد فات، فقد أطل السيد بيجوتي بوجهه، ولا يمكنني أن أنسى التغيير الذي طرأ على ملامح وجهه بعدما رآنا، لن أنسى ولو حييت خمسمائة عام تالية.

أتذكر النحيب والصراخ المهيب، حتى تعلقت المرأتان به، بينما كلنا نقف جميعًا في الغرفة، وكنت ممسكًا بورقة في يدي كان هام أعطاني إياها. راح السيد بيجوتي ينظر نحوي في جمود، بسترته المفتوحة، وشعره المنفوش، ووجهه وشفتيه شاحبتين كأن الدماء تسيل من صدره، وأحسب أنه راح يتنفس من فمه.

قال بصوت خفيض يرتجف: «اقرأها يا سيدي. اقرأها ببطء من فضلك، حتى أفهم ما لم أستطع أن أفهمه».

وفي خضم صمت الموت قرأت هذه الرسالة الملطخة وكانت كالآتي:

«عندما ترى هذه الرسالة يا من تحبني أكثر مما أستحق في أي وقت كان، حتى عندما كان ذهني بريئًا، سأكون قد ابتعدت».

كرر كلماتي ببطء: «سأكون قد ابتعدت. قف، إيميلي تذهب بعيدًا. حسنًا».

«عندما أغادر بيتي العزيز- وبلدي العزيز- آه يا بيتي العزيز- في الصباح...».

كانت الرسالة تحمل تاريخ الليلة السابقة:

«فلن أعود أبدًا، ما لم يعيدني إليه وأنا سيدة. ستعثرون على هذه الرسالة في الليل، بعد عدة ساعات، بدلًا مني. آه، لو تعرف كيف يتمزق قلبي! لو كنت أنت، من ظلمته أشد الظلم، فلا يمكنه أن يغفر لي؛ لما أمكنك إلا أن تعرف ما أعانيه! إنني في غاية الشر حتى إنني لا أستطيع إلا أن أكتب عن نفسي! آه، يمكنك أن تتأكد أني لست سوى إنسانة سيئة إلى أبعد الحدود. آه، إني أناشدك باسم الرحمة أن تخبر عمي أنني لم أحبه قَطُّ نصف قدر حبي له الآن. آه، عليك ألا تتذكر الآن كم كنتم جميعًا محبين وكرماء معي، لا تتذكر أننا كنا سنتزوج يومًا ما، ولكن حاول أن تتصور أنني مت حين كنت صغيرة، ودُفنت في مكان ما. صلِّ

وتضرع إلى الله بعد أن أذهب بعيدًا حتى يرحم عمي! أخبره أنني لم أحبه قَطُّ نصف ما أحببته الآن. كن معزيه. فلتحب فتاة طيبة لتكون لك مثلما كنت لعمي، فتصير صادقة معك، وجديرة بك، فلا تعرف من العار غيري. فليبارك الله الجميع. سأصلي من أجل الجميع، راكعة متضرعة دومًا من أجلكم. إذا لم أعد إليكم سيدة، فلن أصلي من أجل خلاص نفسي، سأصلي من أجل الجميع فقط. وداعًا عمي الحبيب. ها هي آخر دموعي، وشكري الأخير لعمي».

كان هذا هو كل شيء.

ظل واقفًا لفترة طويلة بعد توقفي عن القراءة، ولم يزل ينظر إليَّ. تجرأت أخيرًا فأمسكت بيده ورحت أرجوه قدر استطاعتي بأن يحاول أن يتمالك نفسه. أجاب قائلًا: «أشكرك يا سيدي، أنا شاكر لك»، من دون أن يتحرك.

تحدث هام إليه، إلا أن تفكير السيد بيجوتي ظل منصرفًا إلى محنته في هذه اللحظة، حتى إنه قام بالضغط على يده ثم تصلب في مكانه، فلم يجرؤ أحد على إزعاجه.

حرك عينيه ببطء في النهاية وحوَّلها عن وجهي، كما لو أنه يستيقظ من حلم، وأخذ يدير نظراته في أرجاء الغرفة. ثم قال بصوت خفيض:

«من هذا الرجل؟ أريد أن أعرف اسمه».

نظر هام إليَّ، وقد صفعني هول المفاجأة وصدمت مرة أخرى.

قال السيد بيجوتي: «ثمة رجل مُشتَبه به. فمن يكون هذا الرجل؟».

قال هام متوسلًا: «يا سيد ديفي، فلتخرج لبعض الوقت، ودعني أخبره بما يجب عليَّ أن أقوله له، وليس بوسعك أن تسمع ما سأقوله يا سيدي».

عاودني الشعور بالصدمة من جديد. هبطت جالسًا على كرسي وحاولت أن أجيب، ولكن عقدة لساني لم تفك وغام بصري.

سمعته يقول مرة أخرى: «أريد أن أعرف اسمه».

تلعثم هام قائلًا: «في وقت مضى، جاء خادم إلى هنا، وراح يتجول في أوقات غريبة. كان معه سيد أيضًا. كان كل منهما ينتمي إلى الآخر».

وقف السيد بيجوتي ثابتًا كما كان من قبل، لكنه راح الآن ينظر نحوه.

تابع هام كلامه قائلًا: «شوهد الخادم مع فتاتنا المسكينة الليلة الماضية. لقد كان مختبئًا هنا، هذا الأسبوع أو أكثر. كنا نظن أنه رحل، لكنه كان مختبئًا. لا تبقَ يا سيد ديفي، لا تبقَ».

شعرت بذراع بيجوتي تطوق رقبتي، لكن لم أستطع التحرك وأحسست كما لو أن المنزل على وشك السقوط على رأسي.

ثم استطرد هام قائلًا: «ظهرت عربة غريبة تجرها الخيل واقفة خارج المدينة، في هذا الصباح، على طريق نورويتش، قبل حلول النهار تقريبًا. فذهب إليها الخادم ثم عاد وذهب إليها مرة ثانية. كانت إيميلي تسير بالقرب منه في المرة الثانية. وكان الرجل الآخر في داخل العربة. إنه هو الرجل».

قال السيد بيجوتي بعد أن تراجع وبسط يده كما لو أنه يزيح عنه ما يخافه: «رجاء محبة في الله، لا تقل إن اسمه ستيرفورث».

هتف هام بصوت منكسر: «يا سيد ديفي، إنه ليس ذنبك -وإني لأبعد الأمر كل البعد عنك- لكن اسمه ستيرفورث، وهو لشرير ملعون».

لم يصرخ السيد بيجوتي، ولم يذرف دمعة، ولم يحرك ساكنًا، حتى بدا وكأنه يستيقظ فجأة مرة أخرى، ثم سحب معطفه الخشن من الشماعة القابعة في إحدى زوايا الغرفة.

قال بنفاد صبر: «ساعدوني على ارتداء هذا، لقد ضعفت، ولا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي. ساعدوني». قام أحدنا بالأمر، فقال السيد بيجوتي: «حسنًا، الآن ناولني هذه القبعة».

سأله هام إلى أين هو ذاهب.

قال: «إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي. إني ذاهب للبحث عن إيميلي عزيزتي. إني ذاهب، أولًا، للبحث عن ذلك القارب، وإغراقه حيث كان، لأنني روح حية. فإذا كانت لديَّ فكرة واحدة عما يدور بداخله! بينما كان جالسًا أمامي...». تحدث بعنف، قابضًا على يده اليمنى المشدودة: «بينما كان جالسًا أمامي، وجهًا لوجه، لضربني حتى الموت، أو كنت مغرقه، ففعلت به عين الصواب. إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي».

صرخ هام، مندفعًا نحوه أمام الباب: «إلى أين؟».

«إلى أى مكان، إني ذاهب للبحث عن ابنة أخي في أرجاء العالم. سأجد ابنة أخي المسكينة فأعيدها عن عارها. لن يمنعني أحد، أقول لك إنني سأبحث عن ابنة أخي».

صرخت السيدة جامدج وانخرطت في نوبة بكاء، وقد وقفت حائلة بينهما: «لا، لا. لا، لا، يا دانيال، ليس وأنت في هذه الحالة الآن. ابحث عنها بعد قليل. يا دانيال أيها البائس الوحيد، سيكون هذا غير صحيح، ليس وأنت في هذه الحالة الآن. اجلس، وسامحني لأني كنت مصدر إزعاج لك يا دانيال - ما هذا الحظ الذي يعاندني دومًا؟! - دعنا نتحدث حديثًا واحدًا عنها عندما كانت يتيمة صغيرة، وكان هام يتيمًا أيضًا، وعندما كنت امرأة فقيرة وأرملة، ثم شملتني برعايتك. سوف يلين قلبك المسكين يا دانيال». أسندت رأسها على كتفه واستطردت قائلة: «وستقوى على تحمل حزنك، لأنك تحفظ الوعد يا دانيال «بِمَا فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلَاءِ الأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ»[1] وهذا ما لا يمكن أن يفشل تحت هذا السقف، لقد كان ملجأ للكثيرين، فآوانا لسنوات عديدة».

ظل ساكنًا تمامًا حتى هذه اللحظات، إلى أن سمعته يبكي، فما كان عليَّ إلا أن أركع متوسلًا العفو والغفران عن هذا الخراب الذي سببته، وأن ألعن ستيرفورث، وقد جعلني هذا الشعور في حال أفضل. فإذا بقلبي المحموم يجد السكينة، وانخرطت بدوري في البكاء.




(١) آية من الكتاب المقدس، إنجيل متى (٢٥: ٤٠).

# الفصل الثاني والثلاثون

## بداية رحلة طويلة

أدركت أن ما يدور بداخلي من أمور طبيعية، هي أمور طبيعية أيضًا عند كثير من الرجال، لذلك فإنني لن أخجل من أن أُدون أنني لم أحب ستيرفورث قَطُّ بصورة أفضل مما أحببته بعدما تكسرت الروابط التي كانت تربطني به. كنت في ضيق بالغ جعلني أكتشف دونيته، إلا أنني رحت أفكر في مختلف الصفات اللامعة فيه، ثم خففت من وهجي تجاه كل ما يحمله من صفات طيبة؛ رحت أنصف الصفات التي ربما تجعله رجلًا من النبلاء، ذا خلق عظيم واسم شهير، وكنت بذلك التصور في ذروة إخلاصي له من أي وقت مضى.

تعمق لديَّ شعور بأنني سبب في تلوث سمعة هذا المنزل الشريف من دون أن أدري، ولكني أظن أنني لم أكن لأوجه إليه لومًا لو تقابلت معه وجهًا لوجه. لم أزل أكن له حبًّا حتى الآن، على الرغم من أنه لم يعد يسحرني أو يأسرني. تمسكت أكثر بحنيني لذكرى محبتي له، وأحسب أنني ضعيف أمامها مثل طفل جريح الروح، لكني كنت لأستسلم أمام أي فكرة سوى أن نعود كما كنا في يوم من الأيام، فلم تدُر هذه الفكرة

في بالي يومًا ولم أكن لأفعل. شعرت - كما شعرت من قبل - أن كل شيء قد انتهى بيننا. انقشعت ذكرياته عندي، كما لو أنني لم أعرفها قَطُّ - أو ربما كانت خافتة بما يكفي لتجاهلها بسهولة - بل صارت ذكرياتي معه كذكرى صديق عزيز مات.

نعم يا ستيرفورث، لقد أُزِحت بعيدًا عن كواليس هذا التاريخ الأليم، قد يشهد حزني عليك أمام عرش الدينونة، أما أفكاري الغاضبة أو توبيخي لك فلن يجدي نفعًا أبدًا، أنا موقن من ذلك.

انتشرت أنباء ما حدث سريعًا بين أرجاء المدينة، حتى إنني ما إن مررت بالشوارع في صباح اليوم التالي حتى سمعت الناس يتحدثون عنها على أبواب منازلهم. كان الكثير من الناس قساة عليها، وقليل منهم كانوا قساة عليه، إلا أن شعورًا واحدًا طغى تجاه والدها الثاني وحبيبها، فقد ساد بين الجميع احترام لهما في محنتهما، وشعور مفعم بالوداعة والرقة لحالهما. مكث الملاحون بعيدًا، بعد أن شاهدوا الرجلين يسيران في وقت مبكر بخطوات بطيئة نحو الشاطئ، فوقفوا يتحدثون فيما بينهم رائفين بحالهما الأليمة.

التقيت بهما على الشاطئ. كان من السهل ملاحظة أنهم لم يناما طوال الليلة الماضية، حتى لو لم تخبرني بيجوتي أنهما ظلا جالسين كما تركتهما، حتى حل النهار. كانا يبدوان منهكين، بل أحسب أن رأس السيد بيجوتي قد انحنى في ليلة واحدة أكثر مما انحنى في كل السنوات الماضية التي عرفته فيها. لكنهما كانا على القدر ذاته من رباطة الجأش والثبات كما البحر ذاته، فقد كانا يرقدان تحت قبة السماء القاتمة، بلا

موجات، أما إذا اهتاج لنوة ثقيلة، كان كمن يتنفس الصعداء لراحته، بينما هو في أفق بعيد يكاد يلامسه بشريط فضي من ضوء الشمس غير المرئي.

قال لي السيد بيجوتي بعدما سار ثلاثتنا قليلًا في صمت: «لقد تحدثنا كثيرًا يا سيدي عما يجب علينا فعله وما لا يجب. وإننا لنرى مسارنا واضحًا الآن».

ألقيت نظرة على هام، فإذا به ينظر نحو البحر حيث ذاك الضوء البعيد، فأحسست أنه قد خطرت على باله فكرة مروعة، ليس لأن قسمات وجهه صارت غاضبة، لأنه لم يكن كذلك، بل إنني لا أذكر سوى تعبيره عن عزم صارم، مفاده أنه إذا قابل ستيرفورث يومًا فسوف يقتله.

قال السيد بيجوتي: «لقد انتهيت يا سيدي من مهمتي. إني ذاهب للبحث عن...»، أمسك عن الكلام ثم تابع بصوت أقوى: «إني ذاهب للبحث عنها. هذا هو واجبي وشأني إلى الأبد».

هز رأسه عندما سألته أين سيبحث عنها، وإذا به يسألني عما إذا كنت سأذهب إلى لندن غدًا. أخبرته أنني لم أسافر اليوم، خوفًا من أن أفقد فرصة أن أسدي أي خدمة إليه، لكنني على استعداد للذهاب وقتما يشاء.

قال: «سأذهب معك يا سيدي، إذا وافقت على السفر غدًا».

تمشينا مرة أخرى، في صمت ساد لبعض الوقت، إلى أن استأنف حديثه قائلًا: «أما هام، فسيبقى على عمله الحالي، وسيذهب ليعيش مع أختي. أما القارب القديم هناك...».

قاطعته برفق وقلت: «هل ستتخلى عن القارب القديم يا سيد بيجوتي؟».

أجابني قائلًا: «كان القارب محطتي ومقامي يا سيد ديفي، وقد يتعثر أو يتحطم بعد أن يغمر الظلام وجه هذا اليم، ولكن لا يا سيدي. لا أقصد أن يصير مهجورًا. لن نهجره أبدًا».

مشينا من جديد لفترة كما في السابق حتى أوضح كلامه قائلًا:

«إنني أتمنى يا سيدي أن يبقى ليلًا ونهارًا، ويصمد شتاء وصيفًا، كما كان يبدو دائمًا، منذ أن عرفته أول مرة. فإذا عادت إليه من التيه مرة أخرى، فلن أدع هذا المكان القديم يبدو وكأنه قد طردها يومًا. هل تفهمني؟ بل يجب أن يبدو لها مغريًا فتتوجه إليه إلى أقرب حد ممكن، وتتأمله، ربما مثل الشبح، أو عبر الرياح والأمطار، أو عبر الفراغ القديم للنافذة فتطل على المقعد القديم بجوار المدفأة. ثم، ربما يا سيد ديفي، لا ترى شيئًا سوى السيدة جامدج هناك، وقد تتشجع لتتسلل إليه وهي ترتجف، ثم تستلقي على سريرها القديم، وتريح رأسها المرهق حيث كانت ذات يوم تنعم عليه مستريحة».

لم أتمكن من الرد عليه على الرغم من محاولتي.

تابع السيد بيجوتي كلامه قائلًا: «وفي كل ليلة، سيحل الظلام، وستكون الشمعة منتصبة في مكانها القديم عند النافذة، وإذا كان عليها أن تراها، فقد يبدو أنها تقول «ارجعي يا طفلتي، تعالي»، إذا حدث في أي وقت يا هام أن صدر صوت طرق؛ طرق ناعم من نوع خاص، على باب عمتك، لا تقترب

منه. فلتكن هي - وليس أنت - التي ترى طفلتي الساقطة».

سار أمامنا فتقدمنا قليلًا، وظل على حالته لبضع دقائق. ألقيت نظرة خاطفة خلال هذه الفترة على هام مرة أخرى، فلاحظت التعبير ذاته يعود إلى وجهه، وقد مكثت عيناه متطلعتين نحو الضوء البعيد، فلمست ذراعه.

ناديته باسمه مرتين، بنبرة تشبه ما قد أحاول بها إيقاظ نائم، قبل أن يستجيب لندائي. سألت أخيرًا عما يدور في خاطره ويسيطر عليه، فأجاب: «أفكر فيما يدور أمامي يا سيد ديفي». وكان يشير إلى البحر في ارتباك.

فسألته: «هل تقصد أنك تفكر في الحياة التي أمامك؟».

راح ينظر إليَّ كما لو كان مستيقظًا لتوِّه، ولكن بالوجه الحازم نفسه، وقال: «يا سيد ديفي، لا أعرف حقًّا ما أنظر إليه، ولكن يبدو لي أن النهاية آتية من مكان مثل ذاك البعيد...».

سألته بعد أن عاودني الخوف: «أي نهاية؟».

قال بتمعن: «لا أعرف. كنت أفكر في أن بداية كل شيء قد حدثت هنا، ثم حلت النهاية. لقد انقضى كل شيء». استطرد حديثه بينما بدا كما لو أنه يجيب نظراتي إليه، فقال: «يا سيد ديفي، لا داعي لأن تكون خائفًا بعيدًا عني، لست إلا مشوشًا كدرًا، لا أستطيع أن أشعر بأي شيء». كانت حالته أقرب إلى ما يمكن وصفه بأنه لم يكن هو، بل كان مرتبكًا تمامًا.

توقف السيد بيجوتي لكي ننضم إليه، وهذا ما فعلناه من دون أن نتفوه بكلمة واحدة. ومع ذلك، فإن ذاكرتي ظلت محتفظة بما يتعلق بفكرتي السابقة، وراحت تطاردني على فترات، حتى جاءت النهاية الحتمية في الوقت المحتوم.

اقتربنا من القارب القديم من دون أن نشعر، فدخلناه. لم نجد السيدة جامدج جالسة في ركنها الخاص، بل كانت مشغولة بإعداد الإفطار. تناولتْ قبعة السيد بيجوتي، وجهزت له مقعده، وتحدثت إليه بسلاسة ونعومة، لدرجة أنني لم أكد أعرفها من فرط اختلافها.

قالت: «يا دانيال، يا رجلي الطيب، يجب أن تأكل وتشرب، وتحافظ على قوتك، لأنك من دونها لن تقوى على فعل شيء الآن. حاول، إن روحك عزيزة، إذا أزعجتك بنقرتي -لقد كانت تعني ثرثرتها- فلتخبرني بذلك يا دانيال حتى أكف».

كانت في خدمتنا جميعًا، وما إن انتهت حتى انسحبت إلى النافذة، وراحت تعمل بهدوء في إصلاح بعض القمصان والملابس الأخرى التي يملكها السيد بيجوتي، ثم طوتها بعناية ودستها في حقيبة قديمة من الجلد، تشبه الحقائب التي يحملها البحارة، في غضون ذلك راحت تواصل حديثها بنفس الطريقة الهادئة.

قالت السيدة جامدج: «تعلم يا دانيال أنني سأكون دومًا هنا في كل الأوقات والمواسم، سأكون هنا دومًا، وسأعمل كل شيء لأجعل البيت يوافق كل رغباتك. إنني لم أتعلم الكثير، لكنني سأكتب إليك، في أوقات غربتك عندما تكون بعيدًا، وسأبعث برسائلي إلى سيد ديفي.

ربما ستكتب لي أيضًا يا دانيال في أوقات غربتك، لتخبرني عن مشاعرك وأحوالك في أيامك الموحشة».

قال السيد بيجوتي: «ستكونين امرأة منعزلة وحيدة وأنا في غربتي».

قالت: «لا، لا يا دانيال، لن أكون كذلك. لا تشغل بالك بأمري. سأحظى بما يكفي من الأعمال لأبقيه من أجلك» - كانت السيدة جامدج تعني المنزل - «ستعود مرة أخرى لتسترد وجودك هنا، فتقيم كما يقيم أي إنسان يا دانيال. سأخرج من باب البيت في الوقت المناسب، كما كنت أفعل. وإذا اقترب أي إنسان، فسوف يرى أن الأرملة العجوز لم تزل وفية على طول الأمد».

يا له من تغير مهيب أحاط بالسيدة جامدج في وقت قصير! لقد صارت امرأة أخرى. تجلى إخلاصها اللا متناهي، وصارت تتمتع بسرعة بديهة لما يجب أن يقال، وما الذي ينبغي السكوت عنه. نسيت نفسها وتفانت واحترمت حالة الحزن التي أحاطتنا، حتى إنني صرت أضعها في مكانة عالية من التبجيل. ويا لروعة ما قامت بفعله في ذلك اليوم! إذ كان من الضروري إحضار العديد من الأشياء لنقلها من الشاطئ وتخزينها في المبنى الخارجي، مثل المجاديف والشباك والأشرعة والحبال والساريات وأواني السلطعون والأوزان وما شابه، وعلى الرغم من وفرة المساعدة المقدمة حينها، حيث لم يبخل أي عامل موجود على هذا الشاطئ بالمساعدة، ولم يتخاذل أحد عن العمل بجد من أجل السيد بيجوتي، ولم يكن هو ليبخس أجر من يطلب منه القيام بأي عمل، إلا

أن السيدة جامدج كانت قد أصرت على العمل والكدح طوال اليوم في حمل الأشياء الثقيلة والتي كانت لا تتناسب مع قدراتها على الإطلاق، بل أخذت تعمل ذهابًا وإيابًا في جميع أنواع المهمات حتى لو كانت غير ضرورية. أما بالنسبة لشكواها من مصائبها، فقد بدت كما لو أنها فقدت ما تذكره تمامًا عن أي مصائب. لقد حافظت على نوع من البهجة المعتدلة في خضم تعاطفها، والتي لم تكن أقل دهشة من التغيير الذي طرأ عليها. كان الجدال غير وارد، ولم ألاحظ على صوتها أي تداعٍ، بل لم أبصر أي دمعة قد تفر من عينيها طوال اليوم حتى حل الشفق. صرت أنا وهي والسيد بيجوتي وحدنا، وقد نام في حالة من الإرهاق التام، فإذا بها أصيبت بنوبة نصف مكبوتة من البكاء والنحيب، ثم رافقتني إلى الباب، وقالت: «فليحفظك الله دومًا يا سيد ديفي، ولتكن صديقًا له، فيا له من مسكين!»، ثم هربت على الفور من المنزل لتغسل وجهها، حتى تجلس بجانبه في هدوء، فيجدها إذا استيقظ في أي وقت منهمكة في عملها حيث مكانها المعهود. باختصار، لقد تركتها واستسلمت للنوم، وقد كانت خير داعم ومعين في محنة السيد بيجوتي، ولم أستطع التأمل بدرجة كافية في هذا الدرس الذي تلقيته من السيدة جامدج لأكتشف خبايا هذه التجربة.

رحت أتجول حزينًا بين أرجاء المدينة، وكانت الساعة بين التاسعة والعاشرة صباحًا حين توقفت عند باب السيد عمر. أخبرتني ابنته أن السيد عمر متأثر بالأمر إلى أبعد حد، وأنه ظل في حال سيئة للغاية طوال اليوم، وقد أوى إلى الفراش من دون غليونه.

قالت السيدة جورام: «يا لها من فتاة مخادعة خبيثة القلب. لا خير يرجى منها على الإطلاق».

قلت: «لا تقولي هذا. إن هذا ليس رأيكِ».

صرخت السيدة جورام بغضب: «بل هو رأيي».

قلت: «لا، لا».

طوحت السيدة جورام رأسها جاهدة لتبدو شديدة الصرامة والحزم، لكنها لم تستطع السيطرة على نفسها، وبدأت في البكاء. كنت شابًّا صغيرًا، فأحسنت الظن بها وتعاطفت معها، وتخيلت أنها زوجة وأم فاضلة على أفضل نحو ممكن.

بكت ميني قائلة: «ماذا ستفعل في أيامها؟ إلى أين ستذهب؟ ماذا سيحدث لها؟ آه، كيف يمكن أن تكون بهذه القسوة على نفسها وعليه؟».

تذكرت الوقت الذي كانت فيه ميني فتاة صغيرة وجميلة. وكنت سعيدًا لأنها تذكرت ذلك أيضًا بشعور صادق.

قالت السيدة جورام: «إن صغيرتي ميني، لم تنَم إلا لحظات، وقد ظلت في نومها تبكي من أجل إيميلي. بكت ميني الصغيرة من أجلها طوال اليوم، وراحت تسألني مرة تلو أخرى؛ هل إيميلي سيئة؟ ماذا يمكنني أن أقول لها؟ لقد تناولت إيميلي شريطًا من عنقها وربطته حول ميني الصغيرة في الليلة السابقة لرحيلها من هنا، ثم أسندت رأسها على الوسادة جانبها حتى استولى عليها النوم سريعًا، لم يزل الشريط يحيط بعنق ميني الصغير

حتى الآن. ربما لا يجب أن يبقى معها، لكن ماذا أفعل؟ إن إيميلي سيئة للغاية، لكنهما كانا مغرمين ببعضهما، ولا تفقه الطفلة شيئًا».

كانت السيدة جورام حزينة للغاية إلى الحد الذي جعل زوجها يشرع في الاعتناء بها. تركتهما معًا، وذهبت إلى منزل بيجوتي بعد أن صرت أكثر حزنًا مما كنت عليه.

أما هذه المخلوقة الطيبة -أعني بيجوتي- فعلى الرغم من جميع همومها الأخيرة والليالي الطوال التي لم تنم فيها، فإنها ذهبت إلى منزل شقيقها، حيث قصدت البقاء فيه حتى الصباح. أحضرت معها امرأة عجوزًا كانت تعمل في المنزل منذ بضعة أسابيع، بعد أن عجزت بيجوتي عن الاعتناء به. صار المنزل خاليًا إلا منا. لم يكن لديَّ أي شيء يستدعي خدماتها، فصرفتها إلى الفراش، وذهبت رغمًا عنها، ثم جلستُ قليلًا أمام نار المطبخ، لأفكر في كل ما جرى.

رحت أربط كل شيء بمرض الراحل السيد باركس، بينما أشرد بذهني نحو المد حيث الأفق الذي نظر إليه هام نظرة فريدة في الصباح، ثم تنبهت من شرودي على صوت دقات مطرقة الباب. بدا لي أن شخصًا يقرع الباب بكفه، ولم يكن الصوت صادرًا عن المطرقة. كانت يده حانية وضعيفة على الباب، حتى بدت كما لو أنها طرقات طفل.

لقد وثبت إليه كما لو أن طرقاته توحي بقدوم إنسان ذي مكانة عالية. فتحت الباب، فإذا بي أنظر إلى الأسفل في أول الأمر، ويا لدهشتي حين لم أبصر سوى مظلة كبيرة بدت وكأنها تتجول من تلقاء نفسها، إلا أنني اكتشفت بعد لحظات أن تحتها الآنسة ماوتشر.

لم أكن على استعداد لاستقبال هذا المخلوق الصغير استقبالًا طيبًا، بعد أن كشفت لي عن نفسها حين أزالت المظلة التي لم تستطع إقفالها بعد أن بذلت قصارى جهدها. لاح لعيني هذا الوجه «المتقلب» الذي ترك انطباعًا مذهلًا في نفسي بعد أن رأيته في لقائنا الأول والأخير. إلا أنني قابلت وجهها فلم أرَ فيه غير سمات الجدية. أزلت عنها المظلة الثقيلة، التي يعجز عملاق أيرلندي عن حملها، فقامت بعصر يديها الصغيرتين بطريقة بائسة، فصرت بالأحرى أرثي حالها.

ألقيت نظرة خاطفة على الشارع الفارغ، من دون أن أدرك بوضوح ما إذا كان من المتوقع أن أرى شخصًا يرافقها أم لا، فقلت: «الآنسة ماوتشر! كيف أتيتِ إلى هنا؟ ما الخطب؟»، أشارت بذراعها اليمنى القصيرة إلى أن أغلق لها المظلة، ثم تجاوزتني مسرعة ودخلت إلى المطبخ. أغلقت الباب، ثم تبعتها وأنا أحمل المظلة في يدي، فوجدتها جالسة عند زاوية حاجز الموقد -كان مصنوعًا من الحديد القصير، مع قضيبين مسطَّحين في الأعلى لوضع الأواني عليهما- بجوار المرجل، تتمايل إلى الوراء ثم إلى الأمام، وتضرب يديها على ركبتيها في غضب مثل أي شخص يتألم.

شعرت بانزعاج شديد لأنني صرت المتلقي الوحيد لهذه الزيارة المفاجئة، والمتفرج الوحيد على هذا السلوك العجيب، فصرخت مرة أخرى قائلًا: «أرجوكِ يا آنسة ماوتشر، فلتخبريني ما الأمر! هل أنتِ مريضة؟».

أجابت الآنسة ماوتشر، بعد أن أسندت كلتا يديها على قلبها: «يا صغيري العزيز، إنني مريضة هنا، أنا مريضة للغاية. أظن أن الأمر كان

يجب أن يصل إلى هذا الحد، منذ أن عرفت بوقوعه وكان عليَّ منعه، ولكني لم أكن سوى حمقاء طائشة».

أعادت قبعتها الكبيرة إلى رأسها مرة أخرى - لم تكن تناسب حجمها - وراحت تهتز إلى الوراء وإلى الأمام، مع تأرجح جسدها الصغير ذهابًا وإيابًا، وقد راح ظل قبعتها العملاقة يهتز معها في انسجام على الحائط.

قلت: «إنني مندهش من رؤيتكِ حزينة وجادة جدًّا إلى حد أن...».

قاطعتني قائلة: «نعم، هذه هي الحال دائمًا، إنكم تُفاجأون جميعًا، يا معشر الشباب المتهور، لقد كبرتم وبلغتم الحلم، ولم تزالوا تعجبون لرؤية أي شعور طبيعي ينطلق من شيء صغير مثلي، إنكم تعبثون بي مثل اللعبة، وتستخدمونني للتسلية، ثم تلقون بي بعيدًا إذا مللتم. أتندهشون لأنني أشعر ولأنني أكثر من مجرد لعبة أو حصان أو جندي خشبي؟! نعم، نعم، هذه هي حالكم دومًا. إنه دأبكم القديم».

قلت: «قد ينطبق هذا الأمر مع الآخرين، لكني أؤكد لكِ أنني لست على هذه الحال، ربما لا يجب أن أتفاجأ على الإطلاق من رؤيتكِ على هذه الحال الآن، لكنني لا أعرف عنكِ سوى القليل. لقد قلت ما دار بخلدي من دون تفكير».

وقفت المرأة الصغيرة، وراحت تمد ذراعيها لتعبر عن مكنون نفسها، وراحت تقول: «ماذا أفعل؟ انظر، من أنا؟ ومن والدي؟ ومن أختي؟ ومن أخي؟ لقد عملت من أجل أختي وأخي طوال هذه السنوات،

لقد تكبدت العناء طوال الأيام يا سيد كوبرفيلد. يجب أن أعيش، وإنني لا أؤذي أي إنسان. إذا قسا عليَّ بعض الأشخاص أو لم يرقوا لحالي، أو أخذوا يسخرون مني، فما الذي يتبقى لي لأفعله سوى أن أجعل من نفسي مزحة، وأسخر منهم، ومن كل شيء؟ إذا فعلت ذلك، في الوقت الحالي، فمن المذنب؟ هل أنا الملومة؟».

أوجست في نفسي قولي لا. لا ملامة على الآنسة ماوتشر.

راحت المرأة الصغيرة تهز رأسها في وجهي، في جدية مؤلمة، واستطردت قائلة: «إذا كنت قد أظهرت نفسي قزمة حساسة أمام صديقك المزيف، فما مقدار معونته أو نيته الحسنة التي كنت سأتحصل عليها منه؟ إذا كانت ماوتشر الصغيرة -التي لم يكن لها يد في خلق هيئتها، أيها الشاب النبيل- قد لجأت إليه، أو ما شابه، في مصائبها، فهل تظن أن صوتها الصغير قد يُسمع؟ كانت ماوتشر الصغيرة في حاجة ماسة للعيش، حتى لو كانت أسخف الأقزام وأبلدهم، لكنها لم تستطع تدبر حالها. لا، وإن هي فعلت فإنها ستصفر من أجل قوت عيشها حتى تموت في العراء».

جلست الآنسة ماوتشر عند الحاجز مرة أخرى، وتناولت منديلها ومسحت عينيها.

قالت: «فلتكن ممتنًّا لي، إذا كنت صاحب قلب طيب، وإني لأحسب أنك تمتلكه، بينما أعي جيدًا ما أنا عليه، ويمكنني أن أظل مبتهجة متحملة كل شيء. إنني ممتنة شاكرة لنفسي على أي حال، لأنني

أستطيع أن أشق طريقي الصغير في هذا العالم، من دون أن أكون مدينة لأحد. وإنني مقابل ما يلقى إليَّ من فتات، سواء بحماقة أو بغرور، فإنني أتقدم لأرمي إليهم الفقاعات وفارغ الحديث مرة أخرى. إذا لم أفكر في كل ما أحتاج إليه للعيش، فستغدو الحياة أفضل لي، من دون أن أضر أي إنسان. إذا كنت لعبة بالنسبة لكم أيها العمالقة، فلتتحلوا باللطف معي».

دست الآنسة ماوتشر منديلها في جيبها، وراحت تنظر إليَّ بتفرس طوال الوقت، وتابعت حديثها قائلة:

«رأيتك في الشارع منذ لحظات. قد تفترض أنني لا أستطيع أن أمشي بالسرعة التي تسير بها، وأنا بهذه الساق القصيرة وأنفاسي المتقطعة، فلم أستطع اللحاق بك، ولكنني خمنت من أين أتيت فجئت بعدك. لقد كنت هنا أمس، لكن المرأة الطيبة لم تكن في المنزل».

سألته: «هل تعرفينها؟».

فأجابت: «أعرف عنها بعض الأشياء من عمر وجورام. كنت هناك في السابعة صباح ذاك اليوم، فهل تتذكر ما قاله لي ستيرفورث عن هذه الفتاة التعيسة، في ذلك الوقت عندما رأيتكما في الفندق؟».

بدأت القبعة الكبيرة التي تعلو رأس الآنسة ماوتشر، وظل القبعة الأكبر المنسدل على الحائط، في التأرجح إلى الخلف والأمام مرة أخرى بعدما طرحت هذا السؤال.

تذكرت ما أشارت إليه بالضبط، بعدما رحت أفكر فيما جرى في ذاك اليوم عدة مرات، فقلت لها إنني تذكرت.

قالت المرأة القصيرة، بعد أن رفعت سبابتها ووجهتها بيني وعينيها اللامعتين: «فلتحل عليه لعنة الشيطان، ولتحل عشر لعنات على ذاك الخادم الشرير، لكنني أظن أنك مَن تكن لها شغفًا صبيانيًّا جارفًا».

سألتها: «أنا؟».

صرخت الآنسة ماوتشر، وهي تفرك يديها بفارغ الصبر، بينما تمايل مرة أخرى عند الحاجز: «أيها الطفل، أيها الطفل، باسم القدر الأعمى؛ لماذا امتدحتها إلى هذا الحد، ثم انتابك الخجل، وبدا عليك الانزعاج؟».

لم أستطع أن أخفي عن نفسي أنني فعلت هذا، على الرغم من أن السبب كان مختلفًا تمامًا عما افترضته.

كانت الآنسة ماوتشر تخرج منديلها مرة أخرى، بينما تدب الأرض بضربة صغيرة كلما قربته من عينيها بكلتا يديها، على فترات قصيرة وفي وقت واحد، وراحت تقول: «أما كيف عرفت؟ فلأنني رأيته يجتازك ويجادلك بينما رأيتك لينًا ناعمًا كالشمع طيعًا بين يديه. ما إن غادرت الغرفة بدقيقة، حتى أخبرني خادمه أن «الشاب البريء» - هكذا دعاك، ويمكنك أن تسميه «الذنب القديم» حتى آخر يوم في حياتك - قد أخضع قلبه لها، وصار مفتونًا بها محبًّا لها، لكن سيده مصمم على عدم حدوث أي ضرر - من أجلك لا من أجل مصلحتها - وأن هذا الأمر هو شغلهم الشاغل هنا. كيف أثق به؟ ولكن لم يسعني سوى تصديقه. رأيت ستيرفورث يتودد إليك ويرضيك بمدحه لها، كنت أول من ذكر اسمها، وأقررت بإعجابك القديم بها. راحت حرارتك تزداد

ثم تنخفض، وراح وجهك يحمر ثم يبيض، وهكذا في آن واحد كلما تحدثت إليك عنها. ما الذي يمكن أن أفكر فيه -ما الذي أتصوره- إلا أنك كنت شابًّا متسامحًا في كل شيء، عديم الخبرة، وقد وقعت بين يدي إنسان ذي خبرة كافية، يمكنه إدارتك والسيطرة عليك؟! أكان يدعي أنه يوجهك إلى مصلحتك؟». ابتعدت الآنسة ماوتشر عن الحاجز، وقد راحت تتحرك ذهابًا وإيابًا في المطبخ، بعد أن رفعت ذراعيها القصيرتين تعبيرًا عن الألم، وراحت تصيح قائلة: «آه، آه، آه، لقد كانا خائفين من أن أكتشف الحقيقة، لأنني شيء صغير حاد النظر -أحتاج إلى التبصر، حتى أشق طريقي عبر هذا العالم!- لقد خدعاني تمامًا، فأعطيت الفتاة المسكينة التعيسة رسالة، وأكبر ظني أنها كانت بداية حديثها إلى ليتيمر، الذي تُرِك هنا لهذا الغرض».

وقفت مشدوهًا بعد الكشف عن كل هذا الغدر، ورحت أنظر إلى الآنسة ماوتشر بينما تتجول في المطبخ جيئة وذهابًا حتى تقطعت أنفاسها. جلستْ عند الحاجز مرة أخرى تجفف وجهها بمنديلها، وراحت تهز رأسها لفترة طويلة، من دون أن تحرك باقي جسدها، ومن دون أن تكسر حاجز الصمت الذي ساد.

أخيرًا أضافت بإسهاب قائلة: «انتهى بي المطاف في الريف في بلدة نورويتش يا سيد كوبرفيلد، في الليلة قبل الماضية. إن ما أدركته فورًا هناك، بعد تفكيري في طريقتهما السرية للذهاب والعودة من دونك -وهو أمر غريب- أدى إلى إثارة شكوكي والتفكير في أن ثمة أمرًا خاطئًا يحدث. ركبت الحافلة من لندن الليلة الماضية، حيث عبرت من نورويتش،

فوصلت إلى هنا هذا الصباح. آه، آه، آه، وصلت بعد أن فات الأوان».

انتابت ماوتشر الصغيرة المسكينة ارتعاشة وبرودة بعد كل هذا البكاء والتململ، حتى إنها استدارت نحو الحاجز، ثم وضعت قدميها الصغيرتين الباردتين بين رماد النار لتدفئهما، وجلست تنظر إلى النار، مثل دمية كبيرة. جلستُ على مقعد على الجانب الآخر من الموقد، وانغمست في هواجسي البائسة، ناظرًا إلى النار أيضًا، ملتفتًا أحيانًا إليها.

قالت أخيرًا، وهي تنهض من مكانها: «يجب أن أذهب، لقد تأخر الوقت. لا أظن أنك لا تثق بي، أليس كذلك؟».

التقيت بنظرتها الحادة التي عرفتها بها دومًا، ووجهتها إليَّ حين طرحت عليَّ هذا السؤال من دون أن أستطيع الإجابة بالنفي عن هذا التحدي القصير، ومن دون أن أقر بالموافقة بصورة تامة.

تناولت يدي التي عرضتها عليها لمساعدتها في القيام، ثم نظرت إلى وجهي بحزن قائلة: «هيا، إنك تعلم أنك لم تكن لتسيء الظن بي، لو أنني امرأة كاملة الحجم».

شعرت بأن قولها يحمل كثيرًا من الحقيقة؛ وأحسست بالخجل من نفسي.

قالت وهي تومئ برأسها: «إنك شاب غض. فلتأخذ نصيحتي، حتى وإن كانت من شيء لا يتجاوز ثلاثة أقدام. حاول ألا تربط العيوب الجسدية بالعقلية يا صديقي العزيز، إلا لسبب وجيه».

كانت قد تجاوزَتِ الحاجز الآن، وتجاوزتُ بدوري شكوكي. أخبرتها أنني أظن أنها صدقتني القول في حديثها عن نفسها، وأننا كنا على حد سواء؛ أدوات تعيسة مسخرين بين أيدي غيرنا. شكرتني وقالت إنني رجل طيب.

كانت في طريقها نحو الباب، فإذا بها تنظر نحوي نظرة دهاء، وقد أشارت إليَّ بسبابتها مرة أخرى، ثم صاحت قائلة: «الآن، أنصِت وافهم، لديَّ أسباب بعد ما سمعته - لأن أذني دائمًا مفتوحتان؛ لا أستطيع أن أتجنب مواهبي وصلاحياتي - تجعلني أشك في أنهما سافرا إلى الخارج. أما إذا عادا، أو عاد أي منهما، وأنا على قيد الحياة، فإنني على الأرجح سأعرف بالأمر قبل غيري، لأنني أتصرف كما أفعل الآن، وإني لكاشفة ذلك قريبًا. يجب أن تصير على دراية بكل ما سأعرفه. وإذا كان بإمكاني فعل أي شيء لخدمة الفتاة المسكينة المخدوعة، فإني لن أتردد في خدمتها بأمانة، وليشهد الله على قولي، وإنه من الأفضل لليتيمر أن يلاحقه كلب في ظهره، من أن تلاحقه ماوتشر القصيرة».

لقد أعربت عن إيماني ضمنيًّا بعد هذا البيان الأخير عندما رأيت مظهرها وهي تقوله.

راحت هذه المخلوقة الصغيرة، تلمس معصمي في حنو وعطف قائلة: «لا تثق بي أكثر مما ينبغي ولا أقل من وثوقك في امرأة كاملة الحجم. إذا رأيتني مرة أخرى، على عكس ما أبدو عليه الآن، ومثلما كنت عليه عندما رأيتني لأول مرة، فلتراقب الصحبة التي أكون وسطها.

تذكر أنني شيء صغير عاجز جدًّا ولا حول لي ولا قوة. فكر في حالي في المنزل مع أخ وأخت على شاكلتي، بعدما أنتهي من يوم عملي الشاق. ربما لن تصير قاسيًا عليَّ وترق لحالي، ولن تتفاجأ حين تراني حزينة أو جادة. طابت ليلتك».

بسطت يدي للآنسة ماوتشر، وقد اختلف رأيي فيها تمامًا، ثم فتحت الباب لها حتى تستطيع الخروج. لم يكن من السهل عليها أن تمسك بالمظلة الكبيرة وتجعلها مستقيمة متوازنة بشكل صحيح في قبضتها، ولكنها أخيرًا أنجزت مهمتها بنجاح، ورأيت الشمسية تتمايل في الشارع تحت المطر، من دون أن يبدو أن ثمة شخصًا موجودًا تحتها، إلا حين تسقط زخات أثقل من المعتاد كما لو أنها صنبور مياه مشحونة، فتدفعها جانبًا، ومن ثَم تكشف عن الآنسة ماوتشر وهي تكافح في مشقة حتى تصلح هيئتها من جديد. أسرعت إليها مرة أو اثنتين لمساعدتها بعد زختين قويتين، لكنهما كانتا بلا جدوى بعد اعتدال المظلة مرة أخرى، كما لو أنها طائر ضخم يستعيد هيئته، قبل أن أتمكن من الوصول إليها. دخلت البيت، وأويت إلى الفراش، ثم نمت حتى مطلع الصباح.

في الصباح انضم إليَّ السيد بيجوتي ومربيتي العجوز، وذهبنا في ساعة مبكرة إلى مكتب الحافلات، حيث كانت السيدة جامدج وهام في انتظارنا لتوديعنا.

جذبني هام ونحاني جانبًا، بينما كان السيد بيجوتي يرتب حقيبته بين الأمتعة، فهمس إليَّ قائلًا: «يا سيد ديفي، لقد انهارت حياته تمامًا.

إنه لا يعرف إلى أين سيذهب. لا يعرف ما الذي سيقابله. إنه مقدم على رحلة ستستغرق، بشكل متقطع، بقية أيامه. تذكر كلامي جيدًا، حتى يجد ما يسعى إليه، إنني متأكد من أنك ستكون نعم الصديق، أليس كذلك يا سيد ديفي؟».

قلت: «صدقني، سأفعل ذلك بكل طاقتي». ثم صافحت هام بقوة.

قال: «شكرًا، شكرًا جزيلًا يا سيدي الكريم. يتبقى شيء واحد أريد أن أقوله لك، فأنت تعلم أنني أعمل في وظيفة جيدة يا سيد ديفي، ولا سبيل أمامي الآن لإنفاق الراتب الذي أتحصل عليه. لا فائدة من المال بالنسبة لي، إلا بقدر ما أحيا، فإذا استطعت أن تنفقه لأجله، فسأقوم بعملي مرتاح البال». وهنا تحدث بثبات وبنبرات واثقة، فقال: «وعلى أي حال يا سيدي، يجب أن تتأكد أنني سأعمل بجد في جميع الأوقات، كما يعمل الرجال، وأؤدي عملي بأفضل ما أوتيت من قوة».

قلت له إنني مقتنع بقوله تمامًا. وألمحت إلى أنني آمل أن يأتي الوقت الذي يهجر فيه هذه الحياة المنعزلة التي يفكر في العيش على دربها الآن.

قال وهو يهز رأسه: «لا يا سيدي، لقد مضى كل هذا يا سيدي. لا أحد يستطيع أن يملأ ذاك المكان الفارغ، ولكن عليك أن تضع في اعتبارك المال، فهناك من يكابدون من أجله في جميع الأوقات؟».

ذكَّرته بأن السيد بيجوتي قد حصل على دخل ثابت، وإن كان بلا شك متوسطًا للغاية من تركة صهره، ولكني وعدته بفعل ما أراد. ودَّع

كل منا الآخر. ولم أكن لأستطيع أن أتركه في هذه اللحظة، من دون أن أتذكر بألم، ثباته الرائع وحزنه الشديد.

أما السيدة جامدج، فكيف أصف حالها، بعد أن ركضت في الشارع بجانب العربة، من دون أن تعبأ بشيء سوى رؤية السيد بيجوتي على متنها، وقد رافقتها الدموع التي حاولت قمعها، وقد اندفعت تتخبط في وجه السائرين المقبلين من الاتجاه المعاكس، بعد إقدامها على هذه المهمة الصعبة. أبصرتها في النهاية وهي جالسة على عتبة باب الخباز، لاهثة الأنفاس، بعد أن صارت قبعتها بلا ملامح على الإطلاق، وقد انخلع أحد نعليها، فأُلقي فوق الرصيف على مسافة بعيدة منها.

وصلنا إلى نهاية رحلتنا، وكان سعينا الأول هو البحث عن مكان صغير يصلح لإقامة بيجوتي، بحيث يستطيع أخوها الحصول على سرير بجوارها. كنا محظوظين جدًّا فعثرنا على مسكن نظيف للغاية ورخيص، يعلو متجر لبيع الملابس، لا يفصله عن مسكني سوى شارعين. استلمنا هذا المسكن، واشتريت بعض اللحوم الباردة من أحد المطاعم، ثم اصطحبت رفاقي المسافرين إلى المنزل لتناول الشاي؛ وهو إجراء يؤسفني أن أقول إنه لم يلقَ قبول السيدة كروب، بل على العكس تمامًا. يجب هنا أن أبوح بشيء لتوضيح الحالة الذهنية لتلك السيدة؛ لقد شعرت باستياء شديد بعد أن قامت بيجوتي بتشمير ثوب الحداد قبل أن تقضي عشر دقائق من وجودها في المكان، وشرعت في العمل بنفض الغبار عن غرفة نومي. اعتبرت السيدة كروب هذا العمل نوعًا من الجرأة - على حد قولها - وشيئًا لا تسمح به أبدًا.

أفضى إليَّ السيد بيجوتي بشيء في طريقنا إلى لندن، ولم أستطع التخلص من التفكير في الأمر. لقد كان ينتوي رؤية السيدة ستيرفورث أولًا، فشعرت بأنني ملزم بمساعدته لإتمام هذه المقابلة، وكذلك للتوسط بينهما من أجل تجنب انفعالات الأم قدر الإمكان. كتبت إليها رسالة في تلك الليلة، وأخبرتها فيها بلطف ولين كيف تعرض هذا الرجل للظلم، وأنني شريكه في هذا المصاب. قلت إنه رجل من عامة الناس، لكنه أكثرهم لينًا وخلقًا واستقامة. وإنني لأجرؤ على التعبير عن أملي في عدم رفضها لرؤيته وهو في هذه الورطة القاسية. حددت الساعة الثانية بعد الظهر لتكون موعد زيارتنا، وأرسلت الرسالة بنفسي مع أول مركبة بريد في الصباح.

وقفنا عند الباب في الوقت المحدد - باب ذلك المنزل الذي كنت سعيدًا فيه منذ بضعة أيام قليلة، حين أقبلت عليه بسذاجة الشباب ودفء قلبي المفضي بأسراره، وها قد بات مغلقًا في وجهي من الآن فصاعدًا، بعد أن أفضى بي إلى الخراب.

لم يظهر ليتيمر، بل أقبل هذا الوجه اللطيف الذي حل مكانه، وقد رأيته في زيارتي الأخيرة للمنزل. تقدمنا وأرشدنا إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت السيدة ستيرفورث جالسة، ثم انسلت روزا دارتل من مكان ما في القاعة بعد دخولنا، ووقفت خلف كرسيها مباشرة.

أبصرت في وجه والدته بعد أن نظرت نحوي مباشرة، ملامح تفضي إلى أنها تعرف من ابنها ما فعله. كان وجهها شاحبًا للغاية، يحمل آثار

انفعالات أعمق من أن تكون من تأثير رسالتي وحدها، التي قد تؤثر في شكوكها وولعها بابنها. أتصور أنها لاحت في ذاك اليوم أكثر شبهًا به من أي وقت مضى، وأن هذا الشبه لم يغفله رفيقي الذي جاء معي إليها.

جلست على كرسيها منتصبة القامة ناشرة ذراعيها، ساكنة في جلال فخم، ومشهد مهيب حتى بدت جامدة، لا شيء يزحزحها. نظرت إلى السيد بيجوتي بثبات شديد بينما ظل واقفًا أمامها يبادلها النظرات في ثبات. أما نظرات روزا دارتل الحادة فقد أحاطت بنا لبعض اللحظات من دون أن نكسر الصمت بكلمة واحدة.

أشارت إلى السيد بيجوتي بالجلوس. فقال بصوت منخفض: «لا أشعر أنه من الطبيعي يا سيدتي أن أجلس في هذا المنزل. بينما سأقف مرة ثانية على عجل». وتلا ذلك صمت آخر إلى أن كسرتْه على هذا النحو:

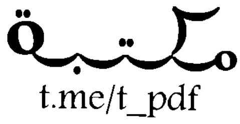
«أعلم، بأسف عميق بالغ، ما الذي أتى بك إلى هنا. فماذا تريد مني؟ وما الذي تطلب مني فعله؟».

وضع قبعته تحت ذراعه، وتحسس صدره ليخرج رسالة إيميلي، فأظهرها وفتحها، وناولها إياها، وقال: «تفضلي بقراءة هذه الرسالة يا سيدتي. إنها بخط ابنة أخي».

قرأتها بالطريقة الفخمة والجليلة ذاتها، ولاحظت أنها لم تتأثر بمحتوياتها، ثم أعادتها إليه.

قال السيد بيجوتي متتبعًا هذا الجزء في الرسالة بإصبعه: ««ما لم

تُعِدني إليكم سيدة». لقد جئت لأعرف يا سيدتي، ما إذا كان سيفي بوعده رعايتها».




أجابت: «لا».

قال السيد بيجوتي: «ولم لا؟».

قالت: «إن الأمر مستحيل. سيحط من نفسه. إنك لا تجهل أنها أقل منزلة منه بكثير».

قال السيد بيجوتي: «ارفعوا أنتم مكانتها».

«إنها جاهلة وغير متعلمة».

قال السيد بيجوتي: «ربما لا تكون جاهلة، أو تكون كذلك، بل لا أظن ذلك يا سيدتي. إنني لست قاضيًا لأحكم على هذه الأشياء، ولكن لم لا تعلمونها؟!».

«بما أنك تجبرني على التحدث بوضوح وصراحة، ولم أكن لأرغب في فعل هذا قَطُّ، فإني سأصارحك بأن ضعة مكانتها سيجعل الأمر مستحيلًا، إذا لم يجد شيئًا آخر يصرفه عنها».

قال ببطء وهدوء: «أصغي إليَّ يا سيدتي. إنكِ تعلمين مقدار محبتكِ لابنكِ، وأنا أدرك محبتي لها كذلك، وإن كانت ابنتي لما زاد حبي لها مائة مرة، فأنا أكن لها حبًّا لا يضاهى. إنكِ لا تعرفين معنى أن يفقد إنسان ابنه، أما أنا فأتألم بهذا الحرمان. إن أكوام الثروات لتهون أمام ناظري وتغدو بلا قيمة أمام عينيَّ الآن، بل لو أنني أحوزها لأنفقتها على عودتها مرة أخرى لأنقذها من هذا العار، من دون أن تُذل أبدًا أو

تُهان. لن يرى أي منا وجهها، نحن الذين أويناها بيننا، ولن يبصرها أحد منا ممن عاش معها ولها وكانت له كل شيء، سنظل بعيدين طوال سنوات عديدة، ولن ننظر إلى وجهها مرة أخرى. سنرضى ونسمح لها بالغياب. سنكون سعداء بالتفكير في أنها بعيدة، كما لو أنها تحيا تحت شمس أخرى وسماء جديدة؛ سنكون سعداء بأنها في عصمة زوجها، لها أطفال صغار وذرية، ونتحمل الوقت حتى يومنا المحتوم حين نصير جميعًا سواسية أمام الله».

لم تخلُ هذه البلاغة القاسية التي تحدث بها من تأثير عميق. بينما ظلت والدة ستيرفورث محافظة على كبريائها، ولكني لمست نبرات من الرقة في صوتها، حين أجابت قائلة:

«إنني لا أبرر أي شيء، ولا أقدم اتهامات مضادة، لكن يؤسفني أن أكرر أن الأمر مستحيل. إن هذا الزواج من شأنه أن يفسد مستقبل ابني بصورة لا رجعة فيها، ويدمر آفاقه. لا شك في أنه لن يحدث أبدًا. إذا كان ثمة أي تعويض آخر...».

قاطعها السيد بيجوتي بعين ثابتة ولكنها متقدة، فقال: «إنني أنظر إلى الشبه الذي يخامر هذا الوجه الذي ينظر إليَّ، في منزلي، بجانب المدفأة، في قاربي -أليس كذلك؟- كم لاح بشوشًا ودودًا، بينما كان خداعًا وغدرًا، حتى إنني كدت أتوحش وتثور ثائرتي كلما فكرت في الأمر. فإذا لم يتحول هذا الشبه في الوجه إلى حمرة مشتعلة من الخجل، عند التفكير في تقديم المال إليَّ تعويضًا عما أصاب طفلتي من خراب، فهو فعل شرير، بل لا أعرف، فربما يبدو وهو على وجه سيدة أسوأ وأشر».

تغيرت ملامحها في لحظة بعد أن أنهى كلامه. واكتسى وجهها احمرارًا وغضبًا. وقالت، بلهجة متحدية، وهي تقبض على الكرسي بإحكام:

«ما التعويض الذي يمكنك أن تقدمه لي مقابل إحداث هذه الفجوة بيني وابني؟ وأين حبك لابنة أخيك من حبي لولدي؟ ما مقدار ألم فراقك أمام ألمي؟».

لمستها الآنسة دارتل بلطف، ثم أحنت رأسها لتهمس لها بشيء، لكنها لم تصغِ لأي كلمة قالتها.

قالت: «لا يا روزا، ولا كلمة واحدة. دعي الرجل يصغي إلى ما أقول، إن ابني، الذي كان هدف حياتي، وكرست له كل تفكيري لإرضاء كل رغبة من رغباته، ولم أنفصل عنه منذ ولادته، ينأى عني في لحظة مع فتاة بائسة، ويهجرني! يقابل ثقتي له بخداع منظم، ويلقي بي من أجلها ليرضي هذه النزوة البائسة، ويتخلى في المقابل عن واجباته تجاه والدته؛ يتخلى عن حبه، واحترامه، وامتنانه لها، تلك الشعارات التي كان من الأولى أن يقوي روابطها بيننا في كل يوم، بل في كل ساعة من حياته فلا يمكن لشيء أن يفصل بيننا! أليس هذا مصابًا فادحًا؟».

حاولت روزا دارتل تهدئتها مرة أخرى، لكن من دون جدوى.

«قلت لكِ يا روزا، ولا كلمة واحدة! إذا كان بإمكانه التضحية بكل ما لديه مقابل شيء رخيص، فيمكنني أن أقامر بكل ما أملك في سبيل هدف أكبر. فليذهب حيث يشاء، مستعينًا بكل الوسائل التي منحتها

له، هل يفكر في اختزالي وإبعادي بغيابه الطويل؟ إنه لا يعرف أمه حق المعرفة. دعوه يبتعد منصرفًا إلى ملذاته الآن، حتى يعود فيجد أنه مُرحَّبًا به مرة أخرى. دعه حتى يفرغ منها الآن، ولن يقترب مني أبدًا، حية كنت أو محتضرة، ما دمت أستطيع أن أرفع يدي في وجهه لإبعاده، إلا إذا تخلص من تلك الفتاة إلى الأبد وأتى ذليلًا يطلب صفحي. هذا هو حقي، وهذا هو العرفان الذي أستحق أن أناله. هذا مربط الفراق بيننا. أليس هذا...؟». راحت تنظر إلى زائرها بالكبرياء ذاتها التي بدأت بها، مستطردة قولها: «أليس هذا مصابًا جللًا؟».

كنت أستمع إلى الأم وأراها بينما تقول هذه الكلمات، وقد بدا لي أنني أسمع وأرى الابن متحديًا كل هذا. كان كل ما رأيته منه، من روح عنيدة لا هوادة فيها، متجليًا فيها كذلك، وكل ما فهمته الآن من سلوكه الخاطئ ومثابرته عليه، صار فهمًا لشخصيتها أيضًا، وإدراكًا لاتسامهما بطبع واحد ودوافع مشركة.

راحت توضح لي بصوت عالٍ، بعد أن استأنفت ضبط نفسها وعادت إلى مهابتها السابقة، أنه لا جدوى من سماع المزيد، أو قول أي شيء آخر، وأنها ترجو وضع حد لهذه المقابلة. نهضت وقد أبدت نوعًا من الكرامة لتغادر الغرفة، فأمسكها السيد بيجوتي مشيرًا إلى أنه لا داعي لانصرافها، وراح يتقدم نحو الباب قائلًا: «لا تخافي يا سيدتي؛ لن أكون عائقًا في طريقكِ، وليس لديَّ المزيد لأقوله. لقد أتيت إلى هنا بلا أمل، وها أنا أنصرف من دونه. لقد فعلت ما كان يجب أن أفعله، لكنني لم آمل قَطُّ في أي فائدة من سعيي هذا. لقد كان هذا منزلًا شريرًا، مقارنة

بعائلتي ومنزلتي، وقد أخطأت إذ توقعت الخير بمجيئي إليه».

رحلنا بعد هذا القول، وتركناها واقفة بجانب كرسيها، بهيئتها المبجلة وقسمات وجهها الجميل.

في طريقنا للخروج كان علينا أن نعبر رواقًا ممهدًا، ذا حواف وسقف زجاجي تتدلى عليه أفرع كرمة، كانت أوراقها وبراعمها خضراء في ذلك الوقت، وكان اليوم مشمسًا، وقد انفتح زوج من الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الحديقة. أقبلت إلينا روزا دارتل بخطوة هادئة، حتى اقتربت منا، وخاطبتني قائلة:

«هلا تظن أنك أحسنت صنعًا بإحضار هذا الرجل إلى هنا؟».

لم يخطر ببالي أن هذا الغضب المكبوت والازدراء قد يجعل وجهها محتقنًا داكنًا إلى هذا الحد، حتى يلوح ذاك الوميض في عينيها السوداوين. لم أفكر أن غضبها قابل للانضغاط في قسمات هذا الوجه حتى بدت تلك الندبة التي أحدثتها المطرقة، بارزة ملحوظة، كعادتها في مثل هذه الحالة المثيرة. عندما بدت ندبتها ترتعش كما حدث من قبل حينما نظرت إليها، إذ بها ترفع يدها إليها وتضربها بها.

قالت مرة أخرى: «أيصح أن تحضر هذا الرجل إلى هنا؟ يا لك من رجل شهم!».

قلت: «يا آنسة دارتل، إنكِ تظلمينني بلا شك إذا حكمتِ عليَّ بقولكِ هذا».

قالت: «لماذا تحدث انقسامًا بين هذين المخلوقين المجنونين؟ ألا تعلم أن كلًّا منهما مفتون بقوته وكبريائه؟».

قلت: «هل هذا ذنبي؟».

عادت تسألني: «لماذا أحضرت هذا الرجل إلى هنا؟».

أجبتها قائلًا: «إنه رجل مصاب بجروح عميقة يا آنسة دارتل. وقد لا تدركين هذه الأمور».

وضعت يدها على صدرها، كما لو أنها تريد أن تمنع العاصفة المستعرة بين جوانحها، فلا يصدر منها صخب، وقالت: «أعلم أن جيمس ستيرفورث يملك قلبًا زائفًا فاسدًا، إنه خائن خادع. ولكن ما الذي تهمني معرفته في هذا الرجل أو يجعلني أهتم بشأنه أو بشأن ابنة أخيه؟».

قلت: «يا آنسة دارتل، إنكِ تعمقين الجروح. يكفي ما قلته، سأقول لكِ شيئًا واحدًا قبل أن ننصرف؛ إنكِ تظلمينه ظلمًا مبينًا».

راحت تقول: «إنني لم أظلمه. إنهم قوم فاسدون لا قيمة لهم. لو أن الأمر بيدي لجلدتها».

مر السيد بيجوتي من دون أن ينبس ببنت شفة وخرج من الباب.

قلت غاضبًا: «آه، يا للعار يا آنسة دارتل! يا له من عار! كيف تُسوِّل لكِ نفسكِ أن تسحقي بقدمكِ هذا الجريح غير المستحق لمصيبته؟!».

أجابت: «لو أن الأمر بيدي لسحقتهم جميعًا بقدمي، ولهدمت منزله. كنت سأصم وجهها بالعار، وأحب أن أراها في أسمال بالية، وألقي بها في الشوارع لتموت جوعًا. ولو أنني سأحكم عليها فما كنت إلا لأحكم عليها بذلك الحكم. هل تفهم ذلك؟ والله إني لفاعلة! إنني

أكرهها. إذا كان بإمكاني إدانتها على موقفها المخزي، فإني سأذهب إلى أي مكان لإدانتها بعارها. لو أن بإمكاني اصطيادها لدفنها في قبرها، فسأفعل ذلك من دون تردد. لو أنني أحوز كلمة تعزية من شأنها أن تواسيها في ساعة احتضارها الأخيرة، وكنت الوحيدة التي تمتلك هذه الكلمة؛ لما تفوهت بها ولو فارقت الحياة نفسها».

أدركت أن حدة كلماتها لا يمكن إلا أن تنقل انطباعًا ضعيفًا عن انفعال فج قد استولى عليها، ما كان منه إلا أن تجلى واضحًا في هيئتها بالكامل، على الرغم من أن صوتها لم يكن مرتفعًا بل أكثر خفوتًا من المعتاد. لا أجد من الكلمات ما أستطيع به أن أصف ما أذكره عن حالتها، أو خضوعها الكامل لغضبها. لقد رأيت الغضب يتجلى بأشكال شتى، لكنني لم أرَه قَطُّ على هذه الهيئة التي كانت عليها.

لحقت بالسيد بيجوتي، فوجدته يسير ببطء ساهمًا متجهًا نحو التل. ما إن وصلت إليه حتى أخبرني بما كان يدور في ذهنه في هذه اللحظة، وما كان يعتزم القيام به في لندن، وكان يقصد «الانطلاق في رحلاته البحثية» تلك الليلة. فسألته إلى أين يعتزم الذهاب؟ فلم يكن منه إلا أن قال: «إنني ذاهب يا سيدي للبحث عن ابنة أخي».

عدنا إلى المسكن الصغير فوق المتجر، وسنحت فرصة لأخبر بيجوتي بما قاله لي. أبلغتني أنه قال لها الشيء نفسه في هذا الصباح. لم تعرف أكثر مما عرفت، فلا تعلم إلى أين يتجه، لكنها ظنت أن لديه خطة ما في ذهنه.

لم أرغب في أن أتركه في ظل هذه الظروف. تناولنا طعامنا معًا، فقدمت لنا بيجوتي فطيرة من لحم الأبقار، وكانت واحدة من الكثير من الأطعمة الجيدة التي اشتهرت بها، وإني أتذكر جيدًا أنني أحسست في هذه المناسبة، بأن طعمها قد اختلط بمذاق متنوع من الشاي والقهوة والزبدة ولحم الخنزير المقدد والجبن والعيش الطازج والحطب والشموع وحليب الجوز، وغيرها من الروائح التي تصعد باستمرار من المتجر. جلسنا بعد العشاء بالقرب من النافذة لمدة ساعة تقريبًا من دون أن نتحدث كثيرًا. ثم قام السيد بيجوتي وأحضر حقيبته الجلدية وتناول عصاه القوية ووضعهما فوق الطاولة.

قَبِل أن يحصل على مبلغ صغير من مخزون أخته من المال على حساب إرثه، وقد ظن أنه سيغطي نفقاته لشهر كامل. وعدني أن يتصل بي إذا توصل إلى شيء، ثم علَّق حقيبته فوق كتفه، وأخذ قبعته وعصاه، وقال لنا: «وداعًا».

قال وهو يحتضن بيجوتي: «ليكتب لكِ الله كل الخير، أيتها المرأة العجوز الغالية، وأنت كذلك يا سيد ديفي»، ثم تصافحنا واستطرد قائلًا: «إنني ذاهب للبحث عنها بين جنبات الأفق الواسع. إذا عادت إلى المنزل في أثناء غيابي - ولكني آسفًا لا أتصور أن يحدث هذا - أو إذا أعدتها، فإني سأحرص على أن نعيش معًا؛ أنا وهي، ثم نموت في مكان لا تصل إلينا فيه لومة لائم. أما إذا أصابني أي مكروه، فاذكر أن آخر كلماتي التي تركتها لها كانت: «إن حبي لابنتي الحبيبة لم يتغير قَطُّ، وإنني أسامحها»».

قال هذه الكلمات بجدية، وهو حاسر الرأس، ثم لبس قبعته ونزل الدرج مبتعدًا، وقد تبعناه حتى الباب. كانت أمسية دافئة ومغبرة، ساد فيها الصمت على طول الطريق الرئيسي الكبير الذي يتفرع منه الشارع الذي يسكن فيه، ساد هدوء مؤقت فيما عدا خطوات قدميه على الرصيف، وقد لاحت في الأفق أشعة الشمس مكتسية بحمرة الغروب المتوهجة. انعطف وحيدًا عند زاوية الشارع الظليل، حتى توارى خلف وهج ضوء الغروب.

لم تحل عليَّ ساعة مثل هذا المساء، أو استيقظت في جوف الليل، أو رحت أنظر إلى القمر أو النجوم، أو أبصرت المطر المتساقط، أو سمعت عواء الريح، إلا وتذكرت هذا الرجل الوحيد الكادح، ذاك الفقير والحاج إلى وجهة محبته وهو يقول:

«إنني ذاهب للبحث عنها بين جنبات الأفق الواسع. أما إذا أصابني أي مكروه، فاذكر أن آخر كلماتي التي تركتها لها كانت: «إن حبي لابنتي الحبيبة لم يتغير قَطُّ، وإنني أسامحها»».



# الفصل الثالث والثلاثون

## سعادة

مكثت طوال هذا الوقت منغمسًا أكثر مما مضى في حب دورا. صار تفكيري بها ملاذي وملجئي من خيبة الأمل والضيق، وعوضًا لي وعزاءً عن فقدان صديقي. كنت كلما شعرت بالشفقة على نفسي أو على الآخرين، استجديت مزيدًا من العزاء في طيف دورا، وكلما زاد تراكم الخداع وانكبت عليَّ متاعب هذا العالم، تلمست نجم دورا عاليًا، فإذا به أنقى وألمع النجوم المضاءة فوق العالم بأسره. لا أظن أنني أدركت من أين جاءت دورا بالتحديد، أو إلى أي درجة ترتبط بالمخلوقات وأي مكانة تعتليها فوقهم، إلا أنني على يقين تام من أنني أستبعد كونها مجرد بشر، فلبثت فكرة كونها تشبه أي فتاة أخرى محل سخطي واحتقاري.

لو أنني استطعت التعبير عن حالي، لقلت إنني صرت غارقًا في حب دورا تمامًا، لم أكن منغمسًا في حبها برأسي وأذني فقط، بل كنت مشبعًا بالكامل به. يكفي أن أقول مجازًا إنه لو انتُزع مني بعض من حبها، لكان كافيًا لإغراق أي إنسان فيه، ولتبقى ما يكفي من حبها داخلي، وفي كل مكان حولي، ليفيض حبها على وجودي بالكامل.

كان أول شيء فعلته من تلقاء نفسي بعدما عدت، هو التنزه ليلًا، حتى وصلت إلى نوروود، وقد بدا لي كما لو أن بداخله لغزًا مثل ألغاز طفولتي، فرحت أطوف حول المنزل، مرة تلو أخرى من دون أن ألمسه، مفكرًا وساهمًا في دورا. أحسب أن القمر كان محل هذا اللغز غير المفهوم، وبعيدًا عن هذا اللغز، فقد صرت مفتونًا بدورة أتبعها دائرًا في فلكها القمري، ورحت أتجول حول المنزل والحديقة لساعتين؛ أنظر عبر شقوق السياج، وأتطلع بذقني إلى أعلى باذلًا مجهودًا عنيفًا ومستندًا إلى القضبان الصدئة. رحت أرسل قبلاتي إلى الأضواء المشعة من النوافذ، داعيًا الله في مشاعر حالمة بين الحين والآخر أن يحمي حبيبتي دورا. لا أعرف من أي شيء كنت أطلب حمايتها، ربما قصدت حمايتها من الحريق، أو من الفئران التي تخيفها وترعبها.

تملكني حبي لدورا واستولى على عقلي، وكان من الطبيعي أن أسر بأمري إلى بيجوتي، بعدما وجدتها مرة أخرى بجانبي في إحدى الأمسيات مع أدوات الحياكة القديمة. كانت منشغلة بتفقدها لخزانة ملابسي، فرحت أقص عليها سري العظيم، بطريقة ملتوية وملتفة. كانت بيجوتي تنصت إليَّ باهتمام، لكنني لم أتمكن من شرح وجهة نظري لها عن الأمر على الإطلاق. لقد كانت شديدة الانحياز لي، وواثقة في علو شأني، ولم تكن قادرة على فهم أسباب مخاوفي، أو دوافع شعوري بالتشاؤم. قالت: «لا بد لهذه الفتاة أن تشعر بالرضا للفوز بمثلك عاشق لها. أما والدها فبعزة الله؛ أي شيء أكثر من الظفر بك لابنته قد يرتضيه؟!».

لاحظت بعدها أن ثوب السيد سبنلو الرسمي وربطة عنقه المحكمة قد هزا بيجوتي قليلًا، فألهماها مزيدًا من التبجيل للرجل الذي راح يزداد رفعة في عيني كل يوم، ويتلألأ إشراقه حتى بدا لي مشعًّا حين جلس منتصب القامة في قاعة المحكمة بين أوراقه، كأنه منارة صغيرة في بحر من الكتب. أتذكر أنني مع مرور الوقت، صرت أتعجب وأنا جالس في المحكمة أيضًا؛ كيف لهؤلاء القضاة والمحامين القدامى ألا يلتفتوا لدورا -لو أنهم يعرفونها- كيف لا يخرجون عن رشدهم محلقين مسرورين إذا ما عرضت عليهم فكرة الزواج من دورا؟ كيف غنت دورا وعزفت على هذا الجيتار المجيد، حتى قادتني إلى حافة الجنون، ومع ذلك لم تُغرِ أحدًا من هؤلاء الرواد السائرين على مهل فلم تحرفهم عن مسارهم ولو شبرًا واحدًا؟!

لقد احتقرتهم كافة. شعرت أنهم متجمدون قساة لا يفقهون سر القلوب، بل إنني أدنتهم جميعًا. لم أعد أنظر إلى مقعد القضاة إلا على أنه وصمة لا يدركها أصحابها، كما لو أنه ليس أكثر من مجرد مكان في حانة عامة.

صرت أتولى إدارة شؤون بيجوتي، فدونت الوصية بيدي بعز وافتخار، وتوصلت إلى تسوية مع مكتب المواريث، وأخذتها إلى البنك، وسرعان ما أتممت كل شيء في المسار الصحيح. كسرنا هذا الروتين القانوني، فذهبنا للتنزه ومشاهدة بعض التماثيل الشمعية في شارع فليت -وآمل أن تكون هذه التماثيل قد ذابت خلال هذه السنوات العشرين- وزرنا معرض الآنسة لينوود. أتذكر أن معرضها كان لمشغولات

التطريز، وأحسب أن أعمالها كانت بمثابة هياكل ميتة تجسيدًا لآثامها الماضية ودعوة إلى التوبة. كما زرنا برج لندن، وذهبنا إلى قمة كنيسة سانت بول. منحت كل هذه العجائب لبيجوتي قدرًا من المتعة، وكانت كفيلة بإمتاعها في ظل الظروف الحالية، باستثناء رؤيتها لكنيسة سانت بول، فقد ارتبطت بها لوقت طويل عبر الرسمة التي تعلو غطاء صندوق أدوات الحياكة، وكانت على حقيقتها مختلفة في كثير من التفاصيل، فاعتبرتها بيجوتي أقل جمالًا من هذا العمل الفني المرسوم.

انتهينا من أعمال بيجوتي، والتي اعتدنا أن نطلق عليها «القضية العادية» في مجلس العموم - كانت مثل هذه الأعمال الشائعة بسيطة ومربحة للغاية. اصطحبت بيجوتي بعدها إلى المكتب ذات صباح لتسدد ما عليها. قال العجوز تيفي إن السيد سبنلو قد خرج ليوثق إدلاء رجل باليمين لإتمام رخصة زواج. كما علمت أنه سيعود مباشرة، لأن المكان الذي ذهب إليه يقع بالقرب من مكتبنا، وكذلك بالقرب من مكتب النائب العام، فأخبرت بيجوتي أن تنتظر.

كان بيننا اتفاق ضمني، نحن أعضاء مجلس العموم، في قضايا تحقيق صحة الوصايا بشكل عام، فكانت تبدو علينا مراسم الحزن في أثناء تعاملنا مع العملاء القادمين إلينا في زي الحداد، بينما نبدو في نوع مغاير من البهجة والخفة مع عملاء الترخيص. لذلك ألمحت لبيجوتي إلى أنها ستجد السيد سبنلو قد تعافى كثيرًا من صدمة وفاة السيد باركس، وقد أهل علينا بالفعل كما لو أنه العريس.

إلا أننا لم نُطِل النظر إليه، بعدما رأيناه مقبلًا علينا في صحبة السيد

مردستون. لم يعتريه سوى القليل من التغيير. بدا شعره كثيفًا، على سواده المعهود به دائمًا، إلا أن نظراته لم تكن حازمة بالقدر الذي كانت عليه قبل ذلك.

قال السيد سبنلو: «آه، مَن؟ كوبرفيلد؟ أحسب أنك تعرف هذا الرجل، أليس كذلك؟».

انحنيت له انحناءة مصطنعة، وسلمت عليه بيجوتي في فتور. كان مرتبكًا إلى حد ما في البداية، لمقابلتنا معًا، ولكن سرعان ما تمالك نفسه وأقبل إليَّ قائلًا: «أرجو أن تكون بخير».

قلت: «لا أظن أن الأمر مهمًّا لك، ولكن نعم، إذا كنت ترغب في معرفة أمري».

نظر كل منا إلى الآخر، ثم وجه خطابه لبيجوتي قائلًا: «وأنتِ؟ يؤسفني أن ألاحظ أنكِ فقدتِ زوجكِ».

أجابته بيجوتي، وهي مرتعشة من رأسها حتى أخمصي قدميها: «إنها ليست الخسارة الأولى التي أتعرض لها في حياتي يا سيد مردستون، ويسعدني أن أقول إن فقدانه لا ألوم عليه أحدًا، ليس لإنسان يد فيما حدث».

قال: «ها! هذه فكرة تريح خاطركِ. هل قمتِ بواجبكِ تجاهه؟».

قالت بيجوتي: «لم أرهق حياة أي إنسان، وكم أنا ممتنة لهذه الفكرة! لا يا سيد مردستون، لم أقلق أو أخيف إنسانًا جميلًا رائعًا مثله حتى أودي به إلى القبر مبكرًا».

نظر إليها في وجوم للحظات -ولا أحسب أنها نظرة تنم عن ندم- ثم أدار رأسه نحوي، لكنه راح ينظر إلى قدمي بدلًا من وجهي قائلًا:

«ليس من المحتمل أن نلتقي قريبًا مرة أخرى، وأحسب أن الأمر مرضيًا لكل منا بلا شك، فمثل هذه اللقاءات لا يمكن أن تكون مقبولة أبدًا. لا أتوقع أن تكن لي الآن أي نيات حسنة، يا من تمردت دائمًا على سلطتي الشرعية التي بذلتها لمصلحتك. إن ثمة كراهية بيننا...».

قلت: «إنه شيء قديم على ما أظن، أليس كذلك؟».

ابتسم ثم أطلت عليَّ نظرة شريرة من عينيه الداكنتين.

قال: «لقد شعرت بهذا النفور القابع بين جوانحك منذ طفولتك. لقد مرَّرت حياة أمك المسكينة. إنك على حق، وأرجو أن تتصرف على نحو أفضل، بعد أن تصلح من نفسك».

أنهى الحوار الذي دار بيننا بصوت منخفض، بهذه الكلمات، في إحدى زوايا المكتب الخارجي، باتجاه غرفة السيد سبنلو. تحدث سيد مردستون بصوت عالٍ، وقد تحول كلامه بسلاسة، قائلًا:

«إن السادة ممن يعملون في مهنة السيد سبنلو معتادون على الاختلافات الأسرية، ويعرفون مدى تعقيدها وصعوبتها دائمًا». تقدم بعد قوله هذا إليه فدفع مالًا مقابل حصوله على رخصة بالزواج، ثم استلمها من السيد سبنلو فطواها بعناية، وصافح السيد سبنلو الذي تمنى له ولزوجته المقبلة السعادة، ثم خرج من المكتب.

واجهت صعوبة كبيرة في إجبار نفسي على الصمت أمام استفزاز كلماته، لكني واجهت صعوبة أقل في إقناع بيجوتي بضبط النفس -هذه المخلوقة الطيبة التي لم تغضب إلا من أجلي- لأننا لم نكن في مكان مناسب لتبادل الاتهامات، فرجوتها أن تكظم غيظها. كانت متحفزة لدرجة غير مألوفة، إلى الحد الذي أسعدني كما لو أنها لم تزل حضنًا حانيًا يحتويني، وقد أثار هذا الموقف في ذهنها ذكرى النوائب القديمة، هكذا رحت أبذل قصارى جهدي لإخفاء الموقف أمام السيد سبنلو والموظفين.

أحسب أن السيد سبنلو لم يكن يعرف طبيعة الصلة التي تربطني بالسيد مردستون، وقد أراحني هذا الأمر للغاية، لأنني لم أستطع تحمل الاعتراف بمعرفته، حتى في أعماق صدري كلما تذكرت ما فعله في حياة والدتي المسكينة. يبدو أن السيد سبنلو قد تصور -إذا كان يفكر في أي شيء- أن عمتي زعيمة لحزب متمكن في عائلتنا، وأن ثمة حزبًا متمردًا بقيادة شخص آخر، وهذا ما استنتجته مما قاله، بينما كنا ننتظر السيد تيفي لتقديم فاتورة بالأتعاب إلى بيجوتي.

قال السيد سبنلو: «إن الآنسة تروتوود حازمة أشد الحزم بلا شك، ومن غير الوارد أن تفسح مجالًا للمعارضة. إنني معجب بشخصيتها، وأود أن أهنئك يا كوبرفيلد، لأنك في الجانب المنضبط. وإنه من المؤسف أن تفرق الاختلافات بين الأقارب -لكنه أمر شائع بين البشر- لكن أهم شيء هو أن تكون في الجانب الصحيح؛ أقصد أنني أظنك في الجانب الصحيح».

قال السيد سبنلو: «أحسب أنه مقبل على زواج موفق، أليس كذلك؟».

أوضحت له أنني لا أعرف شيئًا عن أمره.

قال: «حقًّا! لقد أصغيت إلى الكلمات القلائل التي قالها السيد مردستون -كما يفعل الرجال عادة في مثل هذه المناسبات- ومما قالته أيضًا الآنسة مردستون؛ يجدر بي القول إنه سيكون زواجًا موفقًا».

سألته: «هل تقصد أن الأمر يتعلق بالمال يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «نعم، فهمت أن في الأمر فوزًا بالمال. وقيل إنها جميلة أيضًا».

قلت: «حقًّا! وهل زوجته الجديدة شابة؟».

قال السيد سبنلو: «بلغت لتوِّها السن القانونية. وإني أظن أنهم كانوا يترقبون ذلك في الآونة الأخيرة».

قالت بيجوتي: «يا رب أنقذها». كان قولها شديد الوقع وغير متوقع، حتى لفنا جميعًا الوجوم، إلى أن جاء تيفي بالفاتورة.

أتى تيفي مسرعًا وسلم الفاتورة إلى السيد سبنلو ليراجعها، فأقبل على مراجعتها بعد أن ثبت ذقنه محازيًا ربطة عنقه وأخذ يفركه بهدوء، وراح ينظر إلى تفاصيل الأتعاب مبديًا الانزعاج - كما لو أنه يأسف لما يفعله جوركنز - ثم أعادها إلى تيفي بتنهيدة لطيفة.

قال: «نعم، هذا صحيح، صحيح تمامًا. كان من المفترض أن أكون سعيدًا يا كوبرفيلد، لأنني كنت قد حددت النفقات الفعلية، على

أن تكون الأتعاب على حسابي، إلا أن ما يزعجني من حوادث حياتي المهنية، هو أنني لست حرًّا في تحقيق رغباتي. إنني أعمل مع شريك؛ إنه السيد جوركنز».

قال قوله هذا بحزن ولين، والذي قد يظن منه أن الشيء التالي هو ألا أدفع شيئًا على الإطلاق. أعربت عن تقديري له نيابة عن بيجوتي، ودفعت لتيفي الأتعاب بالأوراق النقدية. عادت بيجوتي بعد ذلك إلى مسكنها، وذهبت مع السيد سبنلو إلى المحكمة، حيث كانت لدينا دعوى طلاق قيد النظر، بموجب قانون بارع، وأظن أنه ألغي الآن، لأنني رأيت بسببه العديد من الزيجات ملغاة، وكانت هذه ميزة هذا القانون. دارت القضية حول زوج اسمه توماس بنيامين، كان قد حصل على رخصة زواجه باسم توماس فقط، من دون أن يدون اسم بنيامين، في حال لم يجد نفسه مرتاحًا في زيجته. وحدث ما كان متوقعًا فلم يرتَح لزواجه، أو جزع بعض الشيء من زوجته، رفيقته المسكينة، فإذا به يتقدم إلى المحكمة الآن بعد أن تزوج عامًا أو عامين، ليشهد له صديق أن اسمه هو توماس بنيامين، وبالتالي فإنه يثبت أن هذا الزوج لم يبرم مطلقًا، وهذا ما أيدته المحكمة، ونال رضاه.

حري بي أن أقول إن شكوكًا راودتني حول عدالة هذا الحكم، ولكني لم أتخفف منها بسبب مكاييل القمح التي توفق بين الأمور الشاذة جميعها. إلا أن السيد سبنلو جادلني في الأمر، قائلًا: «فلتنظر إلى العالم، بما فيه من خير وشر. انظر إلى القانون الكنسي، بما فيه من الخير والشر. وكل شيء مقدر بنظام مضبوط للغاية، هذه هي الحقيقة».

لم تكن لديَّ الجرأة لأقترح على والد دورا أننا ربما نحسن العالم قليلًا، إذا استيقظنا في الصباح الباكر، ثم خلعنا معاطف عملي هذا، لكنني لم أقل سوى أنني أظن أن بمقدورنا تحسين مجلس العموم. أجاب السيد سبنلو بأنه ينصحني بشكل خاص أن أُنحي هذه الفكرة من ذهني، لأنها لا تستحق إهدارًا من رجل لطيف مثلي، لكنه سيسعد إن قلت له ما نوع التحسين الذي ظننت أن مجلس العموم بحاجة إليه.

طرحت عليه هذا الحكم من مجلس العموم -الذي صادف أنه الأقرب إلينا- وقد صار رجلنا أعذب بعده. كنا قد خرجنا من المحكمة، ورحنا نتجول عبر أروقة محكمة الامتياز، فأقررت بأنني أحسب أن محكمة الامتياز تُدار بطريقة غريبة. سألني السيد سبنلو عن أي غرابة أتحدث، أجبته، مع كل الاحترام الواجب لخبرته - ولكن أخشى أن يكون احترامي بدافع كونه والد دورا - فقلت إنه ربما كان من غير المعقول أن يحتوي قلم المحكمة على نسخ الوصايا الأصلية لجميع من ماتوا فتركوا ميراثًا داخل مقاطعة كانتربري الهائلة، لمدة ثلاثة قرون كاملة، فتشغل وصاياهم مبنى عرضيًّا لم يُصَّمم قَطُّ لهذا الغرض، ثم يستأجره أمناء السجل مقابل أجور خاصة، بل إنه غير آمن، ولم يتم التأكد من أنه مقاوم للحريق، كما أنه مكتظ بالوثائق المهمة التي كُدِّست داخله من أرضيته إلى سقفه، وإن هذا الأمر برمته مغنم لأمناء السجل، الذين يتقاضون رسومًا باهظة من الجمهور، فيحشرون وصايا ووثائق الجمهور في أي مكان وعلى أي وضع، فلا هدف عندهم سوى التخلص منها من دون عناء. من غير المعقول عدم إلزام أمناء السجلات

الذين يتلقون أرباحًا تصل إلى ثمانية أو تسعة آلاف جنيه سنويًا -ناهيك عن أرباح نواب السجل وكتبة المقاعد- بإنفاق القليل من هذا المال لتهيئة مكان آمن ومعقول للوثائق المهمة التي اضطرت فئات كثيرة من الناس إلى تسليمها لهم، سواء قبلوا الأمر أم لا. قد يكون من الظلم أن يتقاضى جميع موظفي المكاتب الكبيرة في هذا المكتب العظيم مبالغ باهظة عن أعمالهم المشينة، بينما يقبع الموظفون التعساء في غرفة مظلمة باردة في الطابق العلوي ويتقاضون الفتات، وما لا يقتات عليه الرجال، على الرغم من أنهم يقومون بخدمات جليلة في لندن. أحسب أنه من غير اللائق كلية أن يكون كبير المسجلين، الذي كان من واجبه أن يكون بين الجمهور باستمرار في هذا المكان، وأن يوفر للجميع أماكن ملائمة لحفظ وثائقهم، ومن ثَم يجب أن يتقاضى ما يؤمِّن حياته المعيشية بسبب المنصب الذي يشغله -وقد يجمع هذا الرجل بين مهنته ووظيفته فيكون قسيسًا، أو عاملًا، أو خادمًا في كاتدرائية، أو ما شابه- بينما نلحظ ما يتعرض له الجمهور من إزعاج، كالذي نرى عينة منه كل ظهيرة حين يكتظ المكتب بالناس، وهي أمور نعلم مدى همجيتها. كان هذا باختصار ما قلته قبل أن أضيف أن محكمة الامتياز الخاصة بأبرشية كانتربري هي مؤسسة مزعجة، تحمل كل ملامح هذا العبث الخبيث، ولكنها محصورة بعيدًا في ركن من أركان كنيسة القديس بولس، ولم يعرفها سوى قلة من الناس، وكان من الأجدر بها أن تقلب بالكامل من الداخل إلى الخارج ورأسًا على عقب منذ فترة طويلة.

ابتسم السيد سبنلو بعد ما أبديته من حماسة وتوهج متواضع حول هذا الموضوع، ثم جادلني في الأمر كما جادلني في سواه. قال ماذا سيحدث بعد كل شيء؟ إنها مسألة حساسة. إذا شعر الجمهور أن وصاياهم في أمان، واعتبروا أنه من المسلم به أن المكتب لن يكون أفضل، فمن سيتضرر الآن؟ لن يتضرر أحد. ومن سيفوز بالنتائج؟ كل من لديهم مسمى وظيفي بأجور واهية. ممتاز. ثم يغلب الخير ويعم. حسنًا، قد لا يكون هذا النظام مثاليًّا، لا شيء مثالي، ولكن ما اعترض عليه هو الدق بمطرقة التغيير. عاشت البلاد مزدهرة في ظل محكمة الامتياز. أما الدق بمطرقة التغيير، فمن شأنه أن يعرقل ازدهار الدولة. لقد اعتبر أن مبدأ الرجال يتمثل في قبول الأشياء كما وجدها، ولم تراوده الشكوك في أن محكمة الامتياز سوف تستمر في عملها حتى آخر الأزمان. لقد وافقته الرأي، على الرغم من شكي في هذه الأمور في قرارة نفسي. إلا أنني وجدت أنه كان على حق في تصوره، لأن هذا التصور لم يستمر حتى اللحظة الحالية فحسب، بل استوطن على الرغم من تقديم تقرير برلماني عظيم -لم يُقدَّم عن طيب خاطر- منذ ثمانية عشر عامًا، وقد عرض التقرير كل اعتراضاتي السابقة بالتفصيل، ووصف فيه مكتب الوصايا بأنه لن يتسع إلا لتراكم وثائق عامين ونصف فقط. وإنني لا أعرف ما فعلوه بالوثائق منذ ذلك الحين، فهل فقدوا الكثير منها، أم راحوا يبيعون منها لمحلات الزبد بين الحين والآخر. إنني سعيد لأن وصيتي ليست فيه، وآمل ألا تذهب إلى هناك إلا بعد وقت طويل.

لقد وثقت كل هذا في فصل من قصتي الحالية المبهجة لأن هنا هو موضعه الطبيعي. دار هذا الحديث بيني والسيد سبنلو، وطال بنا الكلام ونحن نسير جيئة وذهابًا، حتى تطرقنا بالحديث إلى العديد من الموضوعات العامة، وهكذا حتى أخبرني السيد سبنلو في نهاية الحديث أن آخر يوم من هذا الأسبوع هو عيد ميلاد دورا، وسيكون سعيدًا إذا تفضلت بقبول الانضمام إلى نزهة صغيرة احتفالًا بهذه المناسبة. طار عقلي مني، بل صار مجرد سائق لجسدي في اليوم التالي، عندما استلمت ورقة صغيرة ذات حواف من الدانتيل، تقول: «إن بابا يحبها. ذكرى إلى الأبد»، فاجتزت لحظات فاصلة في حالة من التوهان.

أظن أنني ارتكبت كل سخافة ممكنة خلال استعدادي لهذا الحدث المبارك. لم أزل أشعر بالحر عندما أتذكر ربطة العنق التي اشتريتها لهذه المناسبة، وقد يصنف حذائي في هذا اليوم ضمن مجموعة من أدوات التعذيب. أرسلت في العربة المتجهة إلى نوروود في الليلة السابقة، علبة صغيرة ورقيقة من الحلوى، بعدما حسبت أنها تعد بمثابة إعلان عن مكنون مشاعري. كانت تحتوي على حلوى مصحوبة بأرق من جمل الحظ الرقيقة التي يحب الناس شراءها. توجهت في السادسة صباحًا إلى سوق كوفنت جاردن لأشتري باقة من الزهور لأقدمها لدورا، وفي تمام الساعة العاشرة كنت على ظهر حصان رمادي جسور -استأجرته لهذه المناسبة- مصطحبًا باقة الورود تحت ظل قبعتي لإبقائها ندية، مهرولًا إلى نوروود.

أزعم أنني حين رأيت دورا في الحديقة وتظاهرت بعدم رؤيتها، ثم تجاوزت المنزل متظاهرًا بأنني أبحث عنها بقلق، فقد ارتكبت خدعتين صغيرتين حمقاوين، ربما ارتكبهما أمثالي من الشباب الغض في الظروف نفسها، لأنهما نبعتا من فطرتي. لكن آه مما رأيت! وجدت المنزل، فنزلت عن حصاني عند بوابة الحديقة، وخطوت بهذا الحذاء ذي القلب الحجري عبر العشب، حيث أبصرت دورا الجالسة على مقعد تحت شجرة أرجوانية اللون، ويا لمنظرها الرائع البهي، في ذلك الصباح الجميل، وهي تلوح بين الفراشات مرتدية قبعة ذات شرائط بيضاء وفستان سماوي! كانت برفقتها سيدة شابة تتقدمها في العمر؛ وإن كانت لا تتجاوز العشرين عامًا. كان اسمها الآنسة ميلز. أما دورا فتدعوها جوليا. كانت صديقة حميمة لدورا، وكم سعدت هي بصداقتها!

كان جيب معها وقد بدا عليه أنه سيبدأ نباحه في وجهي مرة أخرى، بعد أن قدمت باقة الورود، وقد راح يصر على أسنانه مغتاظًا. أظن أنه لو فهم أنني أعشق حبيبته، لنبح أشد النباح!

قالت دورا: «آه، شكرًا لك يا سيد كوبرفيلد».

كانت لديَّ نية أن أقول - بعد أن درست أفضل الكلمات طوال ثلاثة أميال - إنني ظننت أنها باقة جميلة قبل أن أراها بالقرب منها، لكنني لم أتمكن من اختيار مفردات تحوي هذا المعنى. صرت مرتبكًا عاجزًا عن الرد. إن رؤيتها وهي تقرب الورود إلى ذقنها الصغير المكتسي بطابع الحُسن، قد أفقدتني حضور عقلي وبيان لساني بعد أن اعترتني

نشوة خفيفة. وإنني لأعجب كيف استطعت أن أتدارك نفسي فلم أقل: «اقتلني، إذا كان لك قلب. فلتتركيني يا آنسة ميلز أموت هنا».

قربت دورا الورود إلى جيب ليشمها، فدمدم من دون أن يشمها. ضحكت دورا، ثم تناولت باقة الورود فقربتها بنفسها من جيب، لتحمله على شمها عنوة. التقط جيب جزءًا من زهرة إبرة الراعي بين أسنانه، كما لو أنه يخوف قططًا في خياله. ضربته دورا، وعبست في وجهه قائلة: «يا لأزهاري الجميلة المسكينة!»، أحسب أنها كانت ترثي لها في حنو إلى الحد الذي جعلني أتمنى لو أن جيب قد أمسك بي بين أسنانه بدلًا من الورود!

قالت دورا: «ستسعد جدًّا حين تعرف يا سيد كوبرفيلد أن هذه الآنسة مردستون المشاكسة ليست هنا. لقد ذهبت لحضور زواج شقيقها، وستتغيب لثلاثة أسابيع على الأقل. أليس هذا أمرًا ممتعًا؟».

قلت إنني متأكد من أن الأمر ممتع لها، وكل ما يبهجها سيبهجني بالتأكيد. ابتسمت الآنسة ميلز ابتسامة يملأها الحنان والحكمة الفائقة.

قالت دورا: «إنها أبغض شيء رأيته في حياتي. لا يمكنكِ تصور مدى اضطراب مزاجها وسوئها يا جوليا».

قالت جوليا: «بل أستطيع أن أتخيل ذلك يا عزيزتي».

وضعت دورا يدها حول جوليا وقالت: «ربما يمكنكِ تخيل الأمر يا حبيبتي. سامحيني لأنني لم أستثنِكِ يا عزيزتي في بداية الأمر».

فهمت من سلوك دورا هذا أن الآنسة ميلز مرت بتجارب مضطربة في الماضي. وقد استنبطتُ أن أثر هذه التجارب انعكس في طريقتها الحكيمة العطوف. عرفت بعد ذلك أن الآنسة ميلز لم تهنأ ولم تُوفَّق في علاقة عاطفية سابقة، وفهمت أنها هجرت العالم بسبب ما حصلته من خزي في محنتها، ولكنها لم تزل مهتمة بآمال الشباب، دائبة على استيعاب محبتهم وآفاقهم.

خرج السيد سبنلو من المنزل في هذه اللحظة، فذهبت دورا إليه وقالت: «انظر يا أبي، يا لها من ورود جميلة»، وابتسمت الآنسة ميلز ابتسامة متمعنة، كما لو أنها تقول: «آه يا فراشتيَّ، فلتستمتعا بوجودكما القصير في صباح العمر المشرق»، ثم مشينا جميعًا تاركين الحديقة باتجاه العربة التي كانت تستعد لنقلنا.

لن أحظى بمثل هذه الرحلة مرة أخرى في حياتي، ولم أَنل حظًّا يماثلها إلى اليوم. لم يكن في العربة سوى هؤلاء الثلاثة؛ سلتهم، وسلتي، والجيتار. وبالطبع كانت المركبة مكشوفة، فركبت خلفها، وجلست دورا مولية ظهرها شطر الخيول، وناظرة نحوي. احتفظتْ بباقة الورود بقربها وقد ثبتتها إلى الوسادة، ولم تسمح لجيب بالجلوس على هذا الجانب منها على الإطلاق، خوفًا من سحق ورودها. كانت غالبًا ما تحملها في يدها، فتنعش نفسها برائحتها بين حين وآخر. تلاقت أعيننا في هذه الأوقات كثيرًا، وكم أعجب كل العجب من أنني لم أتجاوز رأس الحصان الرمادي ولم أزج به إلى داخل العربة!

أظن أن الطريق كان محاطًا بالغبار، وأتذكر ذكرى مشوشة عن أن السيد سبنلو كان قد اعترض على ركوبي الحصان في هذا الجو المغبر، لكنني لم أكن على دراية بأي شيء حولي. كنت أتحسس ضباب الحب وسحاب الجمال في دورا، لا شيء سواهما. كان السيد سبنلو يقف أحيانًا ويسألني عن رأيي في المستقبل. فكنت أقول إنه لمستقبل مشرق، وإني لأجرؤ على القول إنه كان كذلك لأنني لم أكن أرى فيه سوى دورا. فكانت دورا قد أشرقت شمسًا غنت لأجلها العصافير. هبت نسائم الجنوب عليها، فكانت دورا كما الأزهار البرية المحاطة بالسياج وقد تفتحت منها البراعم. ولم يريحني سوى فكرة أن الآنسة ميلز تفهمني، بل إنها دون غيرها تستطيع أن تغوص في أعماق مشاعري تمامًا وتتفهمها.

لا أعرف كم طال بنا الطريق، وحتى هذه الساعة لا أعرف إلى أين ذهبنا. ربما كنا بالقرب من جيلفورد، أو أقبل ساحر من ليالي ألف ليلة وليلة، ففتح المكان لنقضي فيه هذا النهار، ثم أغلقه إلى الأبد بعدما غادرنا. كانت بقعة خضراء فوق التل، مغطاة بسجاد من العشب النضر الناعم، تظلله الأشجار ونباتات الخلنج، فتكتسي الأرض بالمناظر الطبيعية على مرمى البصر.

كم كانت فكرة وجود أناس في انتظارنا أمرًا شاقًّا! أثيرت غيرتي من دون أن تستثني السيدات، بل صارت غيرتي عارمة بلا حدود. أما بنو جنسي من الرجال - وخاصة محتالًا يكبرني بثلاث أو أربع سنوات، يعلو وجهه شارب أحمر، أفتخر به افتخارًا لا يمكن تحمل وقعه - فقد صار ألد أعدائي.

فككنا سلالنا جميعها، وانشغلنا بتحضير الغداء. تظاهر صاحب الشارب الأحمر بأنه يستطيع إعداد سَلطة - لم أصدقه - وراح يتطفل ويفرض نفسه أمام الضيوف. غسلت بعض الفتيات الخس، وقطعته إلى شرائح تحت إشرافه، وكانت دورا من بينهن. شعرت أن القدر قد وضعني في مواجهة مع هذا الرجل، ويجب أن يسقط أحدنا منهزمًا.

أعدَّ صاحب الشارب الأحمر السَّلطة - تساءلت كيف استطاعوا أكلها، بينما لم أشتهِ لمسها - وعين نفسه مسؤولًا عن تقديم النبيذ، الذي أعد له تجويفًا من جزع شجرة لصبه، وقد استطاع إتمام مهمته لأنه حيوان وحشي بارع. رأيته مرة أخرى قد أعد طبقًا من السلطعون البحري، وراح يأكله عند قدمي دورا.

ولا أذكر ما حدث بعد ذلك، فلم تحتفظ ذاكرتي بشيء بعد هذا المشهد البغيض الذي ثبت أمام عيني. أقر أنني كنت سعيدًا للغاية، لكن فرحتي كانت جوفاء. تعلقت بفتاة ترتدي لونًا ورديًا، ذات عينين صغيرتين، ورحت أغازلها في يأس، فإذا بي أحظى باهتمامها، ولكني لا أعرف هل كان اهتمامها لشخصي فقط، أم أنها أرادت أن تثير صاحب الشارب الأحمر. شربنا نخبًا في صحة دورا. كنت أشرب، فإذا بي تأثرت لمقاطعة محادثتي لهذا الغرض، ثم استأنفت حديثي بعد ذلك مباشرة. لفتُّ انتباه دورا وأنا أنحني لها، وكم فكرت في جاذبيتها، لكنني لاحظت أنها نظرت نحوي من فوق رأس صاحب الشارب الأحمر، فإذا بي جامد ساهم.

كانت للفتاة ذات الفستان الوردي أُم ترتدي فستانًا أخضر، وأظن أن والدتها هذه قد فصلت بيننا بنوع من الحكمة واللباقة. تفرق الجمع، بينما تم إزاحة بقايا الطعام، فرحت أتمشى بمفردي بين الأشجار في حالة من الغضب والندم. كنت أفكر إذا ما كان من الأفضل أن أتظاهر بأنني لست بخير، فأهرب - لا أدري إلى أين - فوق حصاني الرمادي، وإذا بي أقابل دورا والآنسة ميلز أمامي.

قالت الآنسة ميلز: «هل أصابك الضجر يا سيد كوبرفيلد؟».

طلبت منها المعذرة إن بدوت كذلك وقلت إنه لا شيء بي على الإطلاق.

قالت الآنسة ميلز: «وهل أنتِ ضجرة يا دورا؟».

«آهٍ. لا يا عزيزتي، مطلقًا».

قالت الآنسة ميلز، في نبرة أقرب إلى المهابة: «يا سيد كوبرفيلد وأنتِ يا دورا، لا تسمحا لسوء فهم تافه أن يُذبل أزهار الربيع، التي لن تتفتح مجددًا إن أهملت وذبلت. إنني أنقل إليكما خلاصة تجربة الماضي؛ ذاك الماضي البعيد الذي لا رجعة فيه. إن النافورات المتدفقة التي تتلألأ تحت أشعة الشمس يجب ألا تتوقف لمجرد نزوة عابرة، ولا يصح أن تقتلع الواحة المزهرة من قلب الصحراء الكبرى».

لم أدرك ما فعلته بالضبط، فقد كنت متوهجًا من رأسي إلى أخمصي قدمي إلى حد غير عادي، فإذا بي أمسك بيد دورا الصغيرة وأقبلها - وقد سمحت لي بتقبيلها - كما قبلت يد الآنسة ميلز. أحسب أنه قد بدا لنا

جميعًا أننا نحلق مباشرة وصولًا إلى السماء السابعة، وأننا لم نكن لنحط على الأرض مرة أخرى، بل بقينا هناك طوال المساء. تمشينا في البداية ذهابًا وإيابًا بين الأشجار، وقد تشابكت ذراعي بذراع دورا الخجولة. يعلم الله، كما يعلم كل شيء دائما، أنني تمنيت لو أن هذا هو مطاف مصيرنا السعيد، وأننا سنخلد بهذه المشاعر البريئة، فنبقى بين الأشجار إلى الأبد.

إلا أننا انتبهنا بعد وقت قصير إلى أصوات الآخرين؛ يضحكون ويتحدثون وينادون قائلين: «أين دورا؟»، لذا عدنا، فإذا بهم يطلبون من دورا أن تغني لهم. كان صاحب الشارب الأحمر قد عرض أن يذهب إلى العربة فيحضر الجيتار، إلا أن دورا أخبرته أن أحدًا لا يعرف مكانه سواي. انتصرت عليه، فأحضرت الجيتار وجلست بجانبها، وأمسكت منديلها وقفازها، وشربت كل نغمة من صوتها العذب، كما لو أنها تغني لي وحدي، أما الجميع فيصفقون بقدر ما يحلو لهم، من دون أن تربطني بهم أي صلة.

أسكرتني نشوة الفرح. وكم كنت أخشى أن أكون في سعادة بالغة ناتجة عن وهم لا حقيقة، أو أنني سأستيقظ في شارع باكنجهام فأفيق على صوت السيدة كروب وهي تقرقع فناجين الشاي لإعداد الفطور! لكن دورا غنت وغنى آخرون، وغنت الآنسة ميلز أيضًا، وكانت أغنيتها عن أصداء النوم في كهوف الذاكرة، كأنها تبلغ من العمر مائة سنة أو يزيد. حل المساء، وشربنا الشاي من الغلاية مصنوعًا على الطريقة الغجرية، وكنت لا أزال سعيدًا كما كنت دائمًا معها.

ازدادت سعادتي وفاقت أي وقت مضى، حتى انفض الجميع، ومن بينهم المهزوم صاحب الشارب الأحمر، وذهب كل منهم في طريقه، وذهبنا في طريقنا كذلك تحت وطأة المساء الساكن والضوء المحتضر، تحفنا الروائح العطرة التي تتصاعد من حولنا. كان السيد سبنلو يشعر بالنعاس قليلًا بعد شربه للشمبانيا -مباركة التربة التي أنبتت عنبها، ومبارك العنب الذي صنع منه النبيذ، والشمس التي أنضجته، والتاجر الذي غشها- فلم يسعه سوى أن يغط في النوم سريعًا في ركن من أركان العربة، ومن ثَم امتطيت جوادي واقتربت من دورا لأحادثها. لقد أعجبت بحصاني وربت عليه - آهٍ، يا لها من يد صغيرة غالية، كم كانت تبدو حانية على حصان! - ولم يكف شالها عن الحركة، فرحت ألفه بين الحين والآخر حول ذراعي، حتى إنني تخيلت أن جيب بدأ يدرك كيف تسير الأمور، وأنه فهم أن عليه أن يتخذني صديقًا.

أما الآنسة ميلز الحكيمة، فيا لها من ناسكة عطوف، على الرغم من أن الحياة أنهكتها تمامًا، كانت لدورا كما لو أنها بطريرك صغير؛ يبارك فتاة لم تتجاوز العشرين من عمرها، بعد أن عفت عن العالم، فلا يجب بأي حال من الأحوال أن تستيقظ أصداء النوم في كهوف الذاكرة[1]، ويا لكرم أفعالها تلك!

قالت الآنسة ميلز: «تعالَ يا سيد كوبرفيلد إلى هذا الجانب من العربة لحظة. إني أستميحك للحظة واحدة إن استطعت. أريد أن أتحدث إليك».

---

(١) يشير إلى أغنية غنتها الآنسة ميلز من قبل.

ها أنا أعتلي حصاني الرمادي، منحنيًا إلى جانب الآنسة ميلز، وقد أمسكت يدي بباب العربة.

قالت: «إن دورا ستبقى معي. ستعود معي إلى المنزل بعد غد، فإن رغبت في زيارتنا، فإنني متأكدة من أن أبي سيسعد برؤيتك». ما الذي يمكنني فعله سوى أن أطلب من الله في صمت أن يحل ببركته على الآنسة ميلز. ثم إنني احتفظت بعنوان الآنسة ميلز في ركن آمن في ذاكرتي، ولم يسعني غير أن أظهر للآنسة ميلز امتناني، وأن أعبر لها بكلمات حماسية عن تقديري لمساعيها الحميدة، ويا لصداقتها من كنز لا يقدر بثمن!

ثم صرفتني الآنسة ميلز بلطف، قائلة: «عد إلى دورا»، فعدت إليها. وأطلت دورا من العربة لتتحدث معي، ودار بيننا حديث طويل استمر طوال الطريق. رحت أقرب جوادي الرمادي من العربة حتى إنني جعلت ساقه الأمامية تحتك بعجلاتها، فـ«خلعت عنه جلده»، كما قال لي مالكه، مطالبًا بتعويض قدره ثلاثة جنيهات وسبعة شلنات، فدفعتها، وأحسب أنه كان مبلغًا زهيدًا للغاية مقابل ما حصلت عليه من فرح وسرور. ظلت الآنسة ميلز تنظر إلى القمر لوقت لا أعلمه، تتمتم بأبيات من الشعر، وتتذكر -على ما أظن- تلك الأيام الخوالي عندما كانت مقبلة على هذه الحياة.

كانت نوروود قريبة جدًّا من وجهتنا، فوصلنا إليها في وقت قصير للغاية قبل موعدنا بساعات. أما السيد سبنلو فقد استيقظ من نومه قبل وصولنا بقليل، وقال: «يجب أن تأتي معنا لترتاح يا كوبرفيلد»، فوافقت

ونزلت. تناولنا بعض الفطائر وشربنا النبيذ والماء، وبدت دورا في الغرفة المضيئة حمراء الوجنتين، فاتنة الجمال، حتى إنني لم أستطع أن أنتزع نفسي من بينهم لأرحل، بل جلست أحدق فيها كما لو أنني في حلم، حتى نبهني صوت شخير السيد سبنلو إلى ضرورة الاستئذان للانصراف، ولذلك افترقنا. امتطيت جوادي متجهًا إلى لندن بعد لمسة وداع من يد دورا؛ ظلت مضاءة فوق يدي، ورحت أتذكر كل ما حدث وكل ما قيل عشرات الآلاف من المرات، حتى استلقيت أخيرًا على سريري، مبتهجًا كما لو أنني فتى أغر سيطر عليه الحب فأخرجه عن طوره.

استيقظت في صباح اليوم التالي، وقد اعتزمت إفشاء حبي لدورا، ومعرفة مصيري، فإما إجابتها يقينًا بالسعادة أو البؤس. ولم أنتظر من العالم سوى إجابة دورا عن سؤالي. قضيت ثلاثة أيام في غمرة من البؤس، أعذب نفسي بتصور مجموعة متنوعة من السيناريوهات المحبطة، تشمل كل ما قد حدث بيني ودورا. ارتديت في النهاية أفضل الثياب التي اشتريتها خصوصًا لهذا الغرض وقد كلفتني مبلغًا ضخمًا، ثم ذهبت إلى منزل الآنسة ميلز معتزم النية على إعلان حبي.

كم مرة مشيت في الشارع جيئة ورواحًا، ودرت حول الميدان متألمًا خائفًا من أن تصير الإجابة أسوأ بكثير من السؤال نفسه، قبل أن أقنع نفسي بالصعود وقرع الباب، من دون أن أعبأ بالنتيجة في هذه اللحظة. طرقت الباب أخيرًا، ولكن راودتني في لحظات انتظاري بعض الأفكار السريعة التي قد تجعلني أسأل إذا كان هذا منزل السيد بلاكبوي أم لا

-تقليدًا لما كان يفعله باركس المسكين- ثم أستجدي العفو وأتراجع عن الدخول، لكنني لم أفعل واحتفظت بثبات قدميَّ على الأرض.

لم يكن السيد ميلز في المنزل، ولم أكن أتوقع وجوده، فلا أحد يحتاج إليه في شيء. أما الآنسة ميلز فكانت في المنزل، وكان وجودها كافيًا.

دخلت غرفة في الطابق العلوي، حيث كانت الآنسة ميلز ودورا في استقبالي مع جيب. كانت الآنسة ميلز تنسخ مقطوعة موسيقية -أتذكر أنها كانت لأغنية جديدة تسمى «ترنيمة حب»- أما دورا فكانت ترسم أزهارًا. ولا أدري أي إحساس لفني حين عرفت أنها أزهاري؛ تلك الباقة نفسها التي اشتريتها من سوق كوفنت جاردن. لا أستطيع القول إنهما كانتا متشابهتين تمامًا، أو أن رسمها يشبه أي أزهار وقعت تحت عيني يومًا، لكنني فهمت من الورقة التي تنسخها بدقة، أن رسمتها ستكون أزهارًا.

كانت الآنسة ميلز سعيدة جدًّا برؤيتي، وآسفة للغاية لأن والدها لم يكن في المنزل، على الرغم من أنني أحسب أننا جميعًا تحملنا الأمر بثبات. تحدثت الآنسة ميلز لبضع دقائق، ثم وضعت قلمها منصرفة عن نسخ «ترنيمة حب»، ثم نهضت وغادرت الغرفة.

بدأت أفكر أنني سأؤجل إعلاني لحب دورا إلى الغد.

قالت دورا وهي ترفع عينيها الجميلتين نحوي: «أرجو ألا يكون حصانك المسكين متعبًا، بعدما عاد إلى المنزل ليلًا. لقد كان طريقًا طويلًا شاقًّا عليه».

بدأت أفكر أنني سأعلن عن حبي في ذلك اليوم.

قلت: «لقد كان طريقًا طويلًا شاقًّا عليه، لأنه لم يكن يجد ما يدعمه في الرحلة».

سألت دورا: «ألم يأكل؟ يا له من مسكين!».

بدأت أفكر أنني سأؤجل إعلاني لحب دورا إلى الغد.

قلت: «بلى، لقد اعتنيت به للغاية. أعني أنه لم يحظَ بالسعادة التي لا توصف مثلما حظيت بها لكوني بالقرب منكِ».

أحنت دورا رأسها فوق رسمتها، وقالت بعد فترة قصيرة من صمت، جلست خلالها محمومًا تلتهمني حرقة، وقد تصلبت ساقاي.

«لا يبدو أنكِ شعرتِ بهذه السعادة بنفسكِ، في وقت ما من اليوم».

لقد أدركت في هذه اللحظة أنني مُقدم على هدفي، ويجب أن أتمه على الفور.

قالت دورا وهي ترفع حاجبيها قليلًا وتهز رأسها: «لم تهتم لهذه السعادة، على الأقل عندما كنت جالسًا بجانب الآنسة كيت».

يجب أن أذكر أن كيت كان اسم الفتاة التي ارتدت فستانًا ورديًّا، وكانت ذات عينين ضيقتين.

قالت دورا: «على الرغم من أنني بلا شك لا أعرف لماذا تقول إنك وجدت سعادتك، أو لماذا يجب أن تسميها سعادة بوجه عام، لكنك بالطبع لا تعني ما تقوله. وإنني على يقين من أن أحدًا لا يشك في كونك حرًّا لفعل ما تريد. يا جيب، أيها الولد الشقي، تعالَ إلى هنا».

لا أعرف كيف فعلت ذلك. لقد نفذت الأمر في لحظة، فاعترضت طريق جيب، وجذبت دورا بين أحضاني. صرت مفعمًا بالبلاغة، ولم أتوقف قَطُّ لاستدعاء كلمة واحدة. أخبرتها كيف أحببتها، وقلت لها إنني سأموت من دونها. أخبرتها أنني أعبدها عبادة، بينما راح جيب ينبح بجنون طوال الوقت.

أشاحت دورا برأسها وصرخت وارتجفت، فإذا ببلاغتي تنساب أكوامًا. قلت لها إنها إذا أرادت مني أن أموت من أجلها، عليها أن تأمرني بكلمة واحدة، وستجدني على أهبة الاستعداد. إن الحياة من دون حب دورا لا تساوي شيئًا، فأنا لم أستطع أن أحياها، ولن أحياها من دونها. كان حبها لا يفارقني لحظة، ليلًا ونهارًا، منذ أن رأيتها لأول مرة. أحببتها في تلك اللحظة إلى حد الجنون. سوف أحبها إلى الأبد، في كل دقيقة قادمة، حد الجنون. أَحب العشاق من قبلي، وسيحيا العشاق بالحب من بعدي مرة أخرى، ولكن لم يكن عاشق ليحب، أو سيحب، أو يستطيع أن يحب، أو أَحب، أو ينبغي أن يحب، كما أحببت دورا. كنت كلما استرسلت أكثر، ازداد جيب نباحًا. وإذا بكل واحد منا، يزداد جنونًا بطريقته الخاصة في كل لحظة.

حسنًا، جلست أنا ودورا على الأريكة متجاورين، بعد أن هدأت. كان جيب مستلقيًا في حجرها، بينما تطرف بعينها في وجهي بسلام. وكم هدأ روعي وصرت في حالة نشوة رائعة. بعد أن وافقت دورا على خطبتنا.

أفترض أننا أدركنا أن هذا الارتباط سينتهي بالزواج. أجزم أننا أدركنا ذلك، لأن دورا اشترطت ألا نتزوج أبدًا من دون موافقة والدها. لكنني لا أتصور أننا في ظل نشوة الشباب كنا لنلتفت لمن حولنا حقًّا، أو أننا كنا لنستطيع أن نتجاوز بطموحنا لحظتنا الحالية. اتفقنا أن نحفظ سرنا فلا نبوح إلى السيد سبنلو. لكنني متأكد من أن فكرة إخفاء حبنا عنه، لم تخطر ببالي قَطُّ، إذ إنني لم أرَ فيه شيئًا مخزيًا.

بدت الآنسة ميلز أكثر استغراقًا في التفكير بعدما عثرت دورا عليها وأعادتها معها. وإني لأتفهم الأمر، لأن ما حدث كان كفيلًا بأن يوقظ أصداء النوم في كهوف الذاكرة. إلا أنها باركت لنا هذا الارتباط، وأكدت صداقتها الدائمة لنا، وكان حديثها إلينا بشكل عام، أقرب ما يكون إلى صوت يعلو من الدير.

يا له من وقت خمول! يا له من وقت هزيل وسعيد وساذج!

أخذت قياس إصبع دورا حتى أعد لها خاتمًا. كان من المفترض أن يصنع على هيئة لا تنسني[1]، وقد فهم الصائغ مطلبي ودوَّن المقياس الذي أخذته في دفتره، إلا أنه أخذ يضحك وكلفني بدفع أي شيء مقابل علبة صغيرة جميلة ذات أحجار زرقاء. أما كل هذه الأحداث فمرتبطة في أعماقي بذكرى يد دورا، حتى إنني ما إن صادفت بالأمس خاتمًا مثله حول إصبع ابنتي، حتى تحرك قلبي مستعيدًا ذكراه فيما يشبه الألم.

---

(١) نوع من الأزهار لا تنمو إلا في المقابر، وقد اتُّخذت رمزًا للتعبير عن الوفاء.

رحت أتجول هائمًا، حاملًا هذا السر، ممتلئًا بالاعتزاز بنفسي، مستشعرًا جلال محبة دورا، وقداسة كوني محبوبًا، حتى إنني لو مشيت فوق الهواء، لما زادت حالتي زهوًا عما أحسسته وأنا بين الناس، الأموات منهم والأحياء الذين يزحفون سعيًا فوق الأرض.

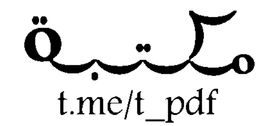
كنا نلتقي في حديقة الميدان، فنجلس داخل المظلة الصيفية السوداء، فإذا بي أحظى بسعادة بالغة تجعلني أحب عصافير لندن في هذه الساعة، لا شيء آخر سوى هذه اللقاءات، فأرى ريشها المدخن كأنه ريش طيور المناطق الاستوائية، أما عندما حدث أول شجار كبير بيننا - كان في غضون أسبوع واحد من خطبتنا - أعادت دورا الخاتم إليَّ مدرجًا مع ورقة يائسة، دونت عليها تعبيرها المذهل القائل «إن حبنا قد بدأ بحماقة، وانتهى أمره بجنون»، ويا لها من كلمات مرعبة دفعتني إلى تمزيق شعري، والبكاء حزنًا على أن يكون كل شيء قد انتهى بيننا.

ذهبت تحت جنح الليل إلى الآنسة ميلز، فرأيتها خلسة في مطبخ خلفي بجوار مصقلة للملابس، فناشدت الآنسة ميلز أن تتدخل لتصلح بيننا وتجنبنا هذا الجنون. قبلت الآنسة ميلز تولي الأمر وعادت إليَّ مع دورا. راحت تعظنا من واقع منبر شبابها المرير، فتحثنا على الاحترام المتبادل، وتجنب الخوض في صحراء فارغة.

بكينا، وتصالحنا، وعدنا إلى بهجتنا مرة أخرى. تغير المطبخ الخلفي، ومصقلة الملابس، وكل شيء، فصاروا معبدًا للحب، حيث

رتبنا خطة لتبادل المراسلات من خلال الآنسة ميلز، فنتبادل على الأقل رسالة واحدة من جانب كل منا يوميًّا.

يا له من زمن رائق خمول! يا له من زمن بريء وسعيد وساذج! ليس من بين جميع الأوقات التي قضيتها، ومراحل حياتي، ما يمكنني أن أبتسم له مثلما أبتسم حين أعيد إلى ذاكرتي لحظة واحدة من هذا الزمان، فأفكر فيما جرى في حنايا الفؤاد.






# الفصل الرابع والثلاثون

## عمتي تدهشني

أرسلت إلى أجنيس بمجرد خطبتي من دورا. كتبت إليها رسالة طويلة، حاولت فيها أن أفهمها مدى سعادتي، ومن تكون حبيبتي دورا. لقد ناشدت أجنيس ألا تعتبر خطبتي شغفًا طائشًا يمكن أن تنتهي وتؤول إلى أي فتاة أخرى، أو أنها تتشابه ولو بأدنى وجه شبه مع الأوهام الصبيانية التي اعتدنا المزاح والتندر عليها. أكدت لها أنه حب خالص من أعماقي لا يستطيع أحد أن يصل إلى قراره مطلقًا، وأعربت عن ظني بأنه لا يضاهي شيئًا على الإطلاق.

رحت أكتب إلى أجنيس في أمسية رائعة بجوار نافذتي المفتوحة، وتذكرت عينيها الهادئتين الصافيتين ووجهها اللطيف الذي يأسرني، وقد أكسبني هذا التأثر نوعًا من السكينة، فخففت عني عجلتي وانفعالاتي التي عشت بها مؤخرًا، حتى اختلطت بسعادتي إلى حد ما، إلى أن هدأت ذارفًا الدموع. أتذكر أنني جلست أريح رأسي على يدي، بعد أن انتهيت من كتابة نصف الرسالة، ورحت أفكر ساهمًا في أجنيس، التي

أعتبرها أحد عناصر حياتي الطبيعية، كما لو أنها مأواي المقدس في هذا الوجود، الذي ستسعد دورا كذلك باللجوء إليه دون سواه. كما لو أن وجهة قلبي قد صارت إليها في الحب، أو الفرح، أو الحزن، أو الأمل، أو الإحباط، فوجد ملجأه وأفضل صديق له.

لم أقل في رسالتي شيئًا عن ستيرفورث. أخبرتها فقط بحدوث أمر محزن في يارموث، بسبب رحيل إيميلي عن منزلها، مما جعل جرحي مزدوجًا بسبب ما شاب رحيلها من ظروف وملابسات. كنت أعرف مدى سرعة بديهتها الدائمة وقدرتها على التكهن بالحقيقة، وأنها لن تكون أبدًا أول من يتفوه باسمه بعد اليوم.

تلقيت الإجابة عن هذه الرسالة، عن طريق البريد. ورحت أقرأ الرسالة بعد أن خُيِّل إليَّ أنني أستمع إلى أجنيس بينما تتحدث معي. كان صوتها الودي يتردد في أذني. فماذا عساي أن أقول أكثر مما قلته!

زارني ترادلز مرة أو مرتين في الفترة الأخيرة حين كنت بعيدًا عن المنزل. فوجد بيجوتي وقابلها، وعلم منها أنها مربيتي القديمة -كانت تتطوع دائمًا بالإدلاء بهذه المعلومات لكل من يقابلها- فتعارفا ونشأت بينهما علاقة. أخبرتني بيجوتي أنهما جلسا، فتبادل معها بعض الأحاديث القصيرة عني. لكني أخشى أن يكون هذا الحديث بأكمله لم يكن إلا من طرفها، بعد أن أفرطت في حديثها المطول، حيث كان من الصعب جدًّا إيقافها عن الكلام - بارك الله فيها - حين أكون موضوع حديثها.

يذكرني هذا الأمر بأنني كنت أنتظر ذات ظهيرة زيارة ترادلز التي حدد موعدها، فما إن حان وقتها حتى أعفت السيدة كروب نفسها من جميع مهامها -باستثناء حصولها على راتبها- إلى أن توقفت بيجوتي عن تقديم نفسها بصفتها مربيتي والقائمة على أموري. سعت السيدة كروب إلى التحدث عن بيجوتي عند السلم بصوت عالٍ للغاية - مع شخص ما غير مرئي، لأنها كانت وحيدة تمامًا في تلك الأوقات - ثم بعثت لي خطابًا، تسرد فيه رأيها حول الأمر، وقد بدأت بيانها المعهود، الذي يناسب كل حدث في حياتها، من حيث كونها أمًّا. راحت تخبرني أنها شهدت أيامًا مختلفة تمامًا، لكنها على مدار حياتها لم تقبل قَطُّ بوجود جواسيس أو متسللين أو مخبرين في منزلها. قالت إنها لن تحدد أسماءً، وأنها ستدعهم يتخفون تحت قبعة ارتدوها، لكنها اعتادت النظر باحتقار ودونية إلى الجواسيس أو المتسللين أو المخبرين، وخاصة من يختبئ منهم بين الأعشاب الضارة، وقد تم تأكيد ذلك. أما إذا وقع رجل ضحية للجواسيس أو المتسللين أو المخبرين - ولم تذكر أسماء أيضًا - فإن ذلك لن يخزيها أبدًا، ما دام له الحق في إرضاء نفسه بالخديعة، فإنها ستتركه وشأنه. أما كل ما تصر عليه السيدة كروب هو ألَّا يُجبر على التواصل مع هؤلاء الأشخاص. لذلك فإنها ترجو أن تُعفى من أي حضور مع هذه الرفقة، إلى أن تعود الأمور كما كانت من قبل في أفضل حال. ثم ذكرت كذلك أن دفتر حسابها الصغير سيوضع على مائدة الإفطار صباح كل سبت، مع رجاء الدفع الفوري للأسباب ذاتها، كما أضافت وجهة النظر الخيرة المتمثلة في تفادي المتاعب «وانقطاع المودة» بين جميع الأطراف.

اقتصر دور السيدة كروب بعد ذلك على التزحلق على السلم، خاصة عندما تحمل جرة مياه، محاولة أن توهم بيجوتي بكسر ساقيها. ومن ثَم وجدت أن العيش في هذه الحالة من الحصار أمر لا يطاق، لكنني كنت خائفًا من السيدة كروب حتى إنني لم أستطع التطلع إلى أي طريقة للتخلص منها.

جاء ترادلز في الموعد المحدد ودق باب منزلي، على الرغم من كل هذه العقبات، وقد صاح قائلًا: «كيف حالك يا عزيزي كوبرفيلد؟».

قلت: «يا عزيزي ترادلز، إنني سعيد برؤيتك أخيرًا، وآسف جدًّا لأنني لم أكن في المنزل قبل ذلك. لكنني كنت مشغولًا إلى حد كبير بـ...».

قال ترادلز: «نعم، نعم، أعلم، بالطبع. إن خطيبتك تعيش في لندن، على ما أظن».

سألته: «ماذا قلت؟».

قال ترادلز بخجل في رقته المعهودة: «أقصد - عفوًا - الآنسة د. فكما تعلم أنها تقيم في لندن، على ما أظن، أليس كذلك؟».

قلت: «نعم بالتأكيد. إنها تعيش بالقرب من لندن».

قال ترادلز بنظرة جادة: «إن خطيبتي، ربما تتذكر أمرها، تقيم في ديفونشاير - وهي واحدة من وسط تسعة إخوة. وبالتالي، فإنني لست منشغلًا للغاية مثلك... وفقًا لهذا المعنى».

قلت: «إني أتساءل كيف تتحمل عدم رؤيتها إلا في أوقات نادرة للغاية».

قال ترادلز، بعد تأمل: «آه، يبدو أن أمرنا عجيب حقًّا. أظن أنه كذلك يا كوبرفيلد، لأنه لا حيلة لي في هذا الأمر، أليس كذلك؟».

أجبته بابتسامة لا تخلو من الخجل: «أظن ذلك، كما أنك تتحلى بكثير من الثبات والصبر يا ترادلز».

قال ترادلز، وهو يفكر في الأمر: «آه يا للعجب! هل أبدو لك على هذه الصورة يا كوبرفيلد؟ لم أكن أتصور أنني أضفي هذا الانطباع حقًّا. إنها فتاة عزيزة إلى أبعد حد، ربما بثت إليَّ شيئًا من هذه الفضائل. أما وقد ذكرت هذه الفضائل الآن يا كوبرفيلد، فلا ينبغي أن أعجب على الإطلاق، بل أؤكد لك أنها تنسى نفسها دائمًا وتعتني بإخوتها التسعة».

فسألت: «هل هي الأكبر؟».

قال ترادلز: «آه يا ربي، لا، بل إن أكبرهم أكثر جمالًا».

أظن أنه لاحظ أنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام أمام عفوية هذا الرد، فأضفى بدوره ابتسامة على وجهه الساذج، ثم استطرد قائلًا:

«لا لشيء بالطبع، سوى أن صوفي... يا له من اسم جميل يا كوبرفيلد! طالما حسبته كذلك، فما رأيك؟».

قلت: «جميل جدًّا».

قال بحماسة: «لا لشيء بالطبع، سوى أن صوفي جميلة أيضًا في عيني، وأنها واحدة من أعز الفتيات على الإطلاق، بل أحسب أنها

كذلك في عين أي إنسان غيري. لكني عندما أقول إن الكبرى أكثرهم جمالًا، فإنني أعني أنها حقًّا...»، راح يحرك كلتا يديه كما لو أنه يصف غيومًا في سماء، قائلًا في حيوية: «كما تعلم؛ أقصد أنها رائعة». قلت: «حقًّا!».

قال ترادلز: «آه، أؤكد لك أنها شيء غير عادي على الإطلاق، حقًّا، ثم إنها، كما تعلم، ممن خلقن ليصرن محلًّا للإعجاب من المجتمع، إلا أنها لا تستطيع الاستمتاع بكثير من المزايا نتيجة لمحدودية إمكانياتها. إنها سريعة الغضب بالطبع في كثير من الأمور وكثيرة التدقيق في بعض الأحيان. إلا أن صوفي تضفي على تعليقها روح الدعابة».

قلت مجازفًا بسؤال: «هل صوفي الأصغر بينهم؟».

قال ترادلز وهو يضرب ذقنه: «آه، كلا يا عزيزي. إن أصغر اثنتين تبلغان من العمر تسعة وعشرة أعوام فحسب، أما صوفي فتتولى تعليمهما».

رحت أخمن قائلًا: «هل هي الابنة الثانية إذن؟».

قال ترادلز: «لا. إن سارة هي الثانية. ويا لسارة المسكينة؛ إنها مصابة بشيء ما في عمودها الفقري. يقول الأطباء إن مرضها سوف يتلاشى بمرور الوقت، ولكن في غضون ذلك عليها أن تستلقي لمدة اثني عشر شهرًا من دون حراك، فتُمرِّضها صوفي. إن صوفي هي الرابعة بين إخوتها».

فسألت: «هل الأم لم تزل على قيد الحياة؟».

قال ترادلز: «آه، نعم، إنها على قيد الحياة. إنها امرأة راقية للغاية حقًّا، لكن طبيعة البلد الرطبة لا تتوافق مع جسدها، لذلك فإنها فقدت القدرة على استخدام أطرافها».

قلت: «رحماك يا ربي».

استأنف ترادلز يقول: «إنه لأمر مؤسف للغاية، أليس كذلك؟ إلا أنه من وجهة النظر المحلية فقط، ليس بهذا القدر من السوء الذي قد يبدو عيه، لأن صوفي تحل محل الأم فتقوم بواجباتها. إنها أم لأمها بمعنى الكلمة، كما أنها في نفس المنزلة بالنسبة إلى الإخوة التسع الآخرين».

شعرت بإعجاب بالغ بفضائل هذه الشابة. كونت وجهة نظر إلا أنني بذلت قصارى جهدي لمنع تحطيم روح ترادلز المعنوية المرتفعة، أو تكدير آفاقهما المستقبلية المشتركة في الحياة، فرحت أسأل بدلًا من ذلك عن حال السيد ميكوبر.

قال ترادلز: «إنه بخير يا كوبرفيلد. شكرًا لك على سؤالك، ولكنني لا أعيش معه في الوقت الحاضر».

«ألا تعيش معه؟».

قال ترادلز هامسًا: «نعم. أتعرف! لقد غير اسمه إلى مورتيمر، بسبب موقفه المحرج في الآونة الأخيرة، كما أنه لا يخرج إلا بعد حلول الظلام، متخفيًا، مرتديًا نظارته. صودرت محتويات منزلنا المستأجر، وقد صارت حالة السيدة ميكوبر مروعة، حتى إنني لم أستطع التراجع

عن إدراج اسمي ضمن مشروع القانون الثاني الذي تحدثنا عنه هنا من قبل. قد تتخيل مدى سروري يا كوبرفيلد حين رأيت أنني سويت الأمر، وقد استعادت السيدة ميكوبر معنوياتها».

قلت: «أممم».

تابع ترادلز حديثه قائلًا: «لا يعني ذلك أن سعادتها دامت طويلًا، فلسوء الحظ لم يمضِ أسبوع واحد حتى جاء إعلام آخر بالمُصادرة، مما أدى إلى تفريق شملنا. وها أنا أعيش في شقة مفروشة منذ ذلك الحين، أما آل مورتيمر فصاروا يتمتعون بخصوصية كبيرة بالفعل. آمل ألا تظن أنني أناني يا كوبرفيلد، إذا ذكرت لك أن المراهن قد استولى على طاولتي المستديرة الصغيرة ذات السطح الرخامي، وزهرية صوفي وحامل الزهرية كذلك».

صرخت في نبرة ساخطة: «يا له من أمر قاسٍ!».

قال ترادلز، مع غمزه المعتاد بعد سماعه لكلامي: «لقد كان الأمر مثل قرصة موجعة. إلا أنني لا أذكره على سبيل التوبيخ والأسى، بل لدافع آخر. والحقيقة يا كوبرفيلد أنني لم أتمكن من إعادة شرائها بعد وقت من الاستيلاء عليها، والسبب الأول: لأن السمسار كان يعرف أنني أريدها ومتمسك باستردادها، فرفع سعرها إلى حد كبير، والسبب الثاني: لأنني... لم أكن أحوز مالًا لأشتريها. ظلت عيني حتى هذه اللحظة تحوم حول متجر السمسار». استطرد ترادلز خطته في نبرة السرور قائلًا: «ذاك المتجر الذي يقع في نهاية طريق توتنهام كورت، فإذا بي أجدها

في يوم معروضة للبيع بسعر يسير. لاحظتها على مسافة من الطريق، لأن السمسار إذا ما رآني، فسوف يطلب ثمنًا باهظًا لها، أما ما فكرت به، بعد أن حصلت على قدر من مال الآن، هو أنك ربما لن تعترض على أن تطلب من مربيتك الطيبة أن تأتي معي إلى المتجر -يمكنني أن أريها المتجر من زاوية في الشارع المجاور- فتتفق على عرض مناسب للشراء، كما لو أنها تبتاعها لنفسها، فهلا تستطيع فعل ذلك؟!».

إن البهجة التي قدم بها ترادلز لي هذه الخطة، والبراعة غير المألوفة التي كانت لديه في التخطيط، لم تزالا من بين الأحداث التي تحتفظ بها ذاكرتي إلى الآن.

أخبرته أن مربيتي العجوز ستسعد بمساعدته، وأننا سنخوض الأمر معًا، ولكن بشرط واحد. كان هذا الشرط هو أن يتخذ قرارًا لا رجعة فيه بعدم منح اسمه لضمان المزيد من القروض للسيد ميكوبر أو أي شيء آخر من هذا القبيل.

قال ترادلز: «يا عزيزي كوبرفيلد، لقد فعلت ذلك لأنني بدأت أشعر أنني لم أكن متهورًا بفعلي هذا فحسب، بل لم أكن منصفًا أيضًا لحق صوفي. لقد أبرمت اتفاقًا بيني وبين نفسي، فلم تعد ثمة مخاوف، لكنني أتعهد لك بذلك أيضًا بأكبر قدر من الاستعداد للوفاء بعهدي. لقد سددت أول التزاماتي سيئة الحظ، وليس لديَّ أدنى شك في أن السيد ميكوبر كان سيدفعها لو استطاع، لكنه لم يملك ما يدفع به الدين. يجب أن أذكر أمرًا أحبه وأوقره في السيد ميكوبر يا كوبرفيلد، وإنه لمتعلق بأمر الالتزام الثاني، الذي لم يحن وقت استحقاق تسديده بعد. إذ لم

يخبرني بتوافر ما سدده به، لكنه قال إنه سيتدبر أمره. وأحسب الآن أنه منصف وصادق في قوله ونياته».

لم أرغب في إضعاف ثقة صديقي العزيز، وبالتالي صدَّقت على كلامه. توجهنا بعد إنهاء محادثة صغيرة أخرى إلى المتجر لتسجيل اسم بيجوتي ضمن المشترين، بينما رفض ترادلز قضاء بقية الليل معي، لأنه كان في حالة خوف شديد من أن يحصل شخص ما على ممتلكاته قبل أن يتمكن من شرائها واستعادتها، كما أنه كان قد كرَّس المساء للكتابة إلى أعز فتاة في العالم.

لن أنسى أبدًا منظره وهو يلقي نظرة خاطفة على زاوية الشارع في طريق توتنهام كورت، بينما راحت بيجوتي تفاوض على ثمن أشيائه الثمينة. ولن أنسى ارتباكه عندما أقبلت بيجوتي نحونا ببطء بعد أن عرضت سعرًا زهيدًا لم يوافق عليه التاجر في البداية، وما إن همت منصرفة حتى تأسَّف، فعادت إليه مرة أخرى. كانت نهاية المفاوضات هي أنها اشترت الصفقة بسعر يسير، فأضفى الأمر على ترادلز بالغ السرور.

علم ترادلز بأمر إرسال أغراضه إلى المكان الذي يعيش فيه، في تلك الليلة، فإذا به يقول: «إنني ممتن لك، شاكرًا حقًّا، وآمل ألا تظن أنني سخيف يا كوبرفيلد لو أنني طلبت خدمة أخرى».

قلت سابقًا: «لست سخيفًا بالتأكيد، لا».

قال ترادلز لبيجوتي: «إنه لطف بالغ منكِ لو أنكِ استطعتِ إحضار الزهرية الآن، لأنني أريد أن أحملها إلى المنزل بنفسي، إنها زهرية صوفي يا كوبرفيلد».

كانت بيجوتي سعيدة لإحضارها له، وقد غمرها بالشكر والعرفان، وشق طريقه إلى توتنهام كورت، حاملًا إناء الزهور بين ذراعيه في مودة، مع تعبيرات فائقة من البهجة والسرور مرتسمة على وجهه لم أرَ مثلها على الإطلاق.

عدنا إلى مسكني، بعد أن اكتشفت أن المتاجر تتمتع بسحر بالغ أمام عيني بيجوتي، ولم أكن أعلم قَطُّ أنها مسحورة بها إلى هذا الحد بما يفوق أي إنسان سواها. رحت أتجول متبسطًا طوال الطريق، مستمتعًا بتحديق بيجوتي في نوافذ المحال، ومنظرها كلما أرادت إطالة النظر. وهكذا أمضينا وقتًا طويلًا حتى وصلنا إلى حي أديلفي.

كنا في طريقنا صاعدين إلى الطابق العلوي، فنبهت بيجوتي إلى الاختفاء المفاجئ للعثرات التي كانت تضعها السيدة كروب، وكذلك اقتفاء آثار خطواتها. وازدادت دهشتنا حين صعدنا إلى أعلى، فوجدنا بابي الخارجي مفتوحًا - كنت قد أغلقته قبل رحيلي - وسمعنا أصواتًا داخل الحجرة.

نظر كل منا إلى الآخر، من دون أن نعرف ما الذي علينا فعله، ومن ثَم توجهنا إلى غرفة الجلوس. وكم كانت دهشتي حين وجدت عمتي والسيد دك هنا أمامي من بين جميع الناس على وجه البسيطة! كانت عمتي جالسة على عدد من الأمتعة، وأمامها عصفوران، كما كانت

تحمل قطتها فوق ركبتيها، كما لو أنها امرأة روبنسون كروزو، بينما تشرب شايًا. أسند السيد دك جسده بعناية متأملًا طائرة ورقية كبيرة أمامه، تشبه إلى حد كبير الطائرة التي اعتدنا تطييرها معًا، مع تراكم مزيد من الأمتعة حوله.

صرخت قائلًا: «عمتي العزيزة، يا للهول، يا له من سرور لم أتوقعه!».

تعانقنا بحرارة. وصافحت السيد دك مصافحة حارة. أما السيدة كروب، فكانت مشغولة بإعداد الشاي، ولم تكن تستطيع الانتباه إلينا، ولكنها قالت بلطف إنها كانت تعلم جيدًا أن السيد كوبرفول[1] سيطير قلبه من الفرحة، حين يرى أهله الأعزاء.

قالت عمتي لبيجوتي، التي توارت أمام حضورها المبجل: «يا إلهي! كيف حالكم؟».

قلت: «هل تتذكرين عمتي يا بيجوتي؟».

صاحت عمتي: «رحماك يا ربي، لا تنادِ المرأة بهذا الاسم يا بني، إنه لا يسمع إلا في جزيرة البحر الجنوبي. لقد تزوجت وتخلصت منه، وهو أفضل شيء يمكن أن تفعله، فلماذا لا تمنحها فائدة التغيير؟ ما اسمكِ الآن يا ب؟». اختصرت اسمها بحرف ليكون حلًّا وسطًا بدلًا عن تلك التسمية البغيضة أمامها.

قالت بيجوتي في أدب: «باركس يا سيدتي».

---

(١) تدليلاً لاسم كوبرفيلد.

قالت عمتي: «حسنًا، يبدو هذا الاسم مبشرًا. كيف حالكِ يا باركس؟ أتمنى أن تكوني بخير».

وبتشجيع من هذه الكلمات اللطيفة ومد يد عمتي ليدها، تقدمت باركس فصافحتها وشكرتها.

قالت عمتي: «أرى أننا صرنا أكبر سنًّا مما كنا في الماضي. لقد التقينا مرة واحدة فقط من قبل، كما تعلمين. قمنا بعمل جليل وقتها، أريد فنجانًا آخر لأحتسيه يا عزيزي تروت».

سلمت الكوب إلى عمتي في تبجيل، وقد كانت تبدو في حالتها الشامخة المعتادة، ومن ثَم غامرت بالاعتراض على جلوسها فوق صندوق بهذه الطريقة.

قلت: «دعيني أهيئ لكِ الأريكة أو الكرسي المريح هنا يا عمتي. لماذا يجب أن تجلسي غير مرتاحة بهذا الشكل؟».

أجابت عمتي قائلة: «شكرًا لك يا تروت. إنني أفضل الجلوس على ممتلكاتي».

قالت السيدة كروب: «هل أصب المزيد من الشاي في القدر قبل أن أنصرف يا سيدتي؟».

ردت عمتي: «لا، أشكركِ يا سيدتي».

قالت السيدة كروب: «هل تسمحين لي بإحضار قطعة أخرى من الزبد يا سيدتي؟ أو هل تقبلين تناول بيضة طازجة؟ أم تفضلين أن أقوم

بتقديم قطعة من اللحم؟ ألا يوجد شيء يمكنني أن أقدمه لعمتك العزيزة يا سيد كوبرفول؟».

أجابت عمتي: «لا شيء يا سيدتي. إنني لا أحتاج إلى شيء، أشكركِ».

ظلت السيدة كروب تبتسم باستمرار للتعبير عن مزاجها اللطيف، وتمسك رأسها باستمرار على جانب واحد، للتعبير عن ضعف عام في بنيتها، وفركت يديها باستمرار لتعبر عن رغبتها في تقديم جميع الخدمات التي يجب أداؤها. انفرج فمها تدريجيًّا لتبتسم برأسها المائل إلى جانب واحد، وانتهت من فرك يدها، ثم خرجت من الغرفة. قالت عمتي: «يا دك، هل تعلم ما قلته لك عن منتهزي الفرص وعباد المال؟».

رد السيد دك – بنظرة خائفة، كما لو أنه نسي الأمر – مسرعًا للإجابة بالإيجاب.

قالت عمتي: «إن السيدة كروب واحدة من هؤلاء. يا باركس، سأولي إليك مهمة إعداد الشاي، وإني أريد الحصول على فنجان آخر، لأنني لا أستطيع تخيل تلك المرأة تصبه أمامي».

كنت أعرف عمتي جيدًا، مما جعلني أفهم أنها تفكر في شيء مهم، وأن هناك الكثير من الأمور التي لا يتصورها إنسان دفعتها إلى المجيء. لاحظت كيف لمعت عيناها، بينما ظننت أنني لم أنتبه إليها. ويا له من ارتباك غريب بدا أنه يدور بداخلها، بينما تحاول المحافظة على شموخها الخارجي ورباطة جأشها. بدأت أفكر فيما إذا كنت قد

فعلت أي شيء يسيء إليها، وهمس لي ضميري أنني لم أخبرها عن أمر دورا بعد، فتساءلت هل يمكن أن يكون هذا هو السبب بأي حال من الأحوال!

كنت أعلم أنها ستتحدث في الوقت الذي تراه مناسبًا لها، ومن ثَم جلست بالقرب منها، ورحت أتحدث مع العصفورين، ولعبت مع القطة، لأبدو هادئًا قدر المستطاع. إلا أنني كنت أبعد ما يكون عن السكينة، وكنت سأبقى على حالي لولا أن انتهز السيد دك الفرصة لتنبيهي. كان دك مستندًا إلى الطائرة الورقية الكبيرة جالسًا خلف عمتي، فراح يهز رأسه في وجهي بقوة مشيرًا إليها.

انتهت عمتي من احتساء الشاي، ورتبت ثوبها بعناية، ومسحت شفتيها لتقول أخيرًا: «يا تروت - لا داعي للانصراف يا باركس! آن الأوان لأن تعتمد على نفسك؟».



قلت: «أرجو ذلك، عمتي».

استفسرت الآنسة بيتسي قائلة: «ما رأيك؟».

«أظن ذلك يا عمة».

قالت عمتي وهي تنظر إليَّ بجدية: «لماذا إذن يا حبيبي تحسبني أُفضِّل الجلوس على أمتعتي هذه الليلة؟».

هزت رأسي، غير قادر على تخمين الإجابة.

قالت عمتي: «لأن هذا كل ما أملك، بعدما أصابني الخراب يا عزيزي».

إذا كان منزلي قد انطرح في النهر ونحن جميعًا به معًا، لما كانت الصدمة أكبر مما تلقيتها.

قالت عمتي وهي تضع يدها بهدوء على كتفي: «إن دك يعرف الأمر. لقد حل عليَّ الخراب، يا عزيزي تروت. إن كل ما أملك في العالم، صارت تحويه هذه الغرفة، باستثناء الكوخ، وقد تركته لجانيت حتى تؤجره. أريد يا باركس أن أحصل الليلة على سرير لهذا الرجل النبيل. وتوفيرًا للنفقات، ربما يمكنك أن تهيئ مكانًا هنا لي، أي شيء سيؤدي الغرض. إنني أحتاج إلى سرير الليلة فقط. سنتحدث عن الأمر باستفاضة غدًا».

انتبهت من ذهولي وقلقي عليها - وأنا متأكد من وجودها - إثر سقوطها على عنقي في لحظة واحدة وبكائها لأنها حزنت لحالي من دون اعتبار أي شيء آخر. وفي اللحظة التالية كانت قد قمعت هذه المشاعر. وقالت بوجه انتصر على اكتئابه:

«يجب أن نواجه مشكلاتنا بشجاعة، ولا نشكو منها، فلا تخيفنا يا عزيزي. يجب أن نتعلم كيف نتصرف. يجب أن نعيش لنتجاوز العقبات يا تروت».



# الفصل الخامس والثلاثون

## كآبة

ما إن استعدت حضوري الذهني، بعد شرودي التام أمام أول صدمة أتلقاها من حديث عمتي، حتى اقترحت على السيد دك أن يأتي معي إلى المتجر، ويأخذ السرير الذي كان السيد بيجوتي قد أخلاه مؤخرًا. كان متجر تشاندلر يقبع في سوق هانجرفورد، وكانت الأسواق مكانًا مختلفًا تمامًا في تلك الأيام، حيث تعلو أبوابها أعمدة خشبية منخفضة - لا تختلف كثيرًا عن ذاك المنزل الذي يسكنه الرجل والمرأة القصيران[١]، في ذاك المقياس الزجاجي القديم للطقس - مما أسعد السيد دك أيما سعادة. وإني لأجرؤ على القول بأن متعة السكن فوق هذه البناية كانت ستعوضه عن عديد من المضايقات، إلا أن المضايقات كانت هينة جدًّا يمكن تحملها، بخلاف الروائح المتداخلة التي ذكرتها من قبل، وربما بالإضافة إلى حاجته إلى مساحة أكبر قليلًا للجلوس، وبخلاف ذلك

(١) مقياس قديم، كان يستخدم لمعرفة حالة الطقس. انتشر بين الصيادين والفلاحين وقام البعض بتزيينه برجل وامرأة بحيث يشير ارتفاع الماء داخله إلى أي منهما، فيرمز مؤشر المرأة إلى أن الجو لطيف بينما يرمز مؤشر الرجل إلى سوء الأحوال الجوية.

فإنه صار مسحورًا تمامًا بمكان إقامته. أكدت له السيدة كروب بنوع من السخط أنه لا توجد مساحة لأرجحة قطة هناك. قال لي السيد دك وهو جالس عند حافة السرير بينما يهز ساقه، وقد كان محقًّا في كلامه: «أتعلم يا تروتوود، إنني لا أريد أن أؤرجح قطة. إنني لم أؤرجح قطة قَطُّ. لذلك ماذا يعني قولها بالنسبة لي؟!».

حاولت أن أفهم من السيد دك أسباب هذا التغيير المفاجئ والرائع الذي طرأ على حال عمتي. وكما توقعت؛ لم تكن لديه أي إجابة على الإطلاق. كانت الإجابة الوحيدة التي استطاع أن يقدمها عن الأمر؛ هي أن عمتي قالت له في اليوم السابق: «الآن يا دك، هل أنت حقًّا الفيلسوف الذي أتصوره حقًّا؟»، وبعد ذلك قال: «نعم»، هو يرجو أن يكون كذلك. ثم قالت له عمتي: «يا دك، لقد حلَّ عليَّ الخراب». ومن ثَم قال: «آهٍ، حقًّا»، ثم أثنت عمتي عليه أفضل الثناء، مما أسعده وأرضاه. وفي نهاية المطاف جاءا إليَّ، وقد تناولا بعض الأرغفة مع البيرة طوال الطريق.

كان السيد دك شديد الرضا، جالسًا عند قدم السرير، يهز ساقه، ويخبرني بتلك الأمور، وعيناه مفتوحتان على مصراعيهما، مبتسمًا ابتسامة مدهشة، ويؤسفني القول إنني انفعلت ورحت أشرح له أن كلمة الخراب تعني الضيق والعوز والمجاعة. لكن سرعان ما أنبني ضميري بمرارة على هذه القسوة بعد أن رأيت وجهه قد صار شاحبًا، وانهمرت الدموع على وجنتيه الطويلتين، بينما كان يلقي نظرة معبأة بحزن لا يوصف، حتى إنها قد تؤثر في قلوب أقسى بكثير من قلبي. لقد تحملت آلامًا لا متناهية لكي أبتهج أمامه مرة أخرى، فتكبدت عناء يفوق ما عانيته

لتحمل إحباطه، وسرعان ما فهمت - كان يجب أن أفهم من البداية - أنه كان مطمئنًّا للغاية، لمجرد إيمانه بأحكم النساء وأروعهن، واعتماده اللا متناهي على مواردي الفكرية. وأحسب أنه ظن أن هذه الميزة، قادرة على مواجهة كل الكوارث ما دامت لم تؤدِّ إلى الموت.

قال السيد دك: «ماذا يمكننا أن نفعل يا تروتوود؟ إن ثمة ذكرى ...».

قلت: «حقًّا، إن كل ما يمكننا فعله الآن يا سيد دك هو الحفاظ على مظهرنا المرح، فلا نسمح لعمتي بملاحظة أننا نفكر في الأمر».

وافق على قولي بكل جد وإخلاص. وناشدني، إذا رأيته ينحرف شبرًا واحدًا عن المسار الصحيح، أن أذكره ببعض الأساليب البارعة التي أستعملها دائمًا. لكن يؤسفني أن أقول إن الخوف الذي سببته له كان يفوق المحاولات التي بذلها في إخفائه. باتت عيناه طوال المساء تجولان وتتفحصان وجه عمتي، مع تعبير عن الاستياء والذعر، كما لو أنه قد رآها تشيخ للتوِّ. ظل يفكر في الأمر، فكان كما لو أنه وضع قيدًا على رأسه، ولكن حرصه على هذا الثبات، وسكونه مع حركة عينيه الدائبتين مثل الآلة، لم يصلح الأمر على الإطلاق. رأيته ينظر إلى رغيف ونحن جلوس على العشاء -صادف أن يكون الرغيف صغيرًا- كما لو لم يكن ثمة شيء آخر يقف بيننا وبين المجاعة، وعندما أصرت عمتي على أن يتناول طبقه المعتاد كاملًا، اكتشفت أنه يقوم بتقطيع خبزه قطعًا ثم يدسها مع قطع من الجبن في جيبه، وليس لديَّ شك في أن غرضه لم يكن سوى إنعاشنا بهذه المدخرات حين نصل إلى مرحلة متقدمة من المجاعة.

كانت عمتي على صعيد آخر، في حالة من ضبط النفس، فكانت درسًا لنا جميعًا، ولي بصفة خاصة بلا شك. بدت لطيفة للغاية مع بيجوتي، إلا عندما ناديت عليها بهذا الاسم عن غير قصد. كانت عمتي تشعر بنوع من الغربة في لندن، إلا أنها كانت تسلك كما لو أنها في منزلها تمامًا. وكان من المفترض أن يُخصص سريري لها، بينما أرقد في غرفة الجلوس لأحرسها. وقد حرصت على أن تكون قريبة جدًّا من النهر، تحسبًا لاندلاع حريق، وأحسب أنها شعرت بالارتياح حقًّا لتهيئة الظروف لها.

رأتني عمتي وأنا أحضر لها المزيج الذي اعتادت احتساءه في المساء، فإذا بها تقول: «يا تروت، لا تُعده يا عزيزي».

قلت: «ألا تشربين شيئًا يا عمتي؟».

«لن أشرب النبيذ يا عزيزي، سأكتفي بشرب البيرة».

«لكن ثمة نبيذًا هنا يا عمة. إنكِ معتادة دائمًا على شرب النبيذ مع الدواء».

قالت عمتي: «احتفظ به في حالة المرض. يجب ألا نستخدمه من دون حساب يا تروت. سأكتفي بنصف لتر من البيرة».

ظننت أن السيد دك على وشك أن يقع فاقدًا الوعي، لكون عمتي مصرة على موقفها، فخرجت واشتريت البيرة بنفسي. كان الوقت قد تأخر، فانتهزت بيجوتي والسيد دك هذه الفرصة للذهاب معًا إلى متجر شاندلر. وفارقتهما عند ناصية الطريق، مبصرًا الرجل المسكين حاملًا

طائرته الورقية الكبيرة فوق ظهره، ويا له من نصب تذكاري مجسدًا للبؤس الإنساني!

مكثت عمتي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا إلى أن جئت، بينما تعتصر أطراف طاقية نومها بأصابعها. قمت بتسخين البيرة وأعددت الخبز المحمص وفقًا للطريقة التي اعتادت عليها. ما إن جهزت لها كل شيء، حتى كانت قد استعدت، وقد ارتدت قبعة النوم، وبسطت تنورتها وغطت ركبتيها.

قالت عمتي بعد أن شربت مقدار ملعقة منها: «يا عزيزي، إنها أفضل بكثير من النبيذ، وأقل مرارة منه».

وأحسب أنني بدوت متشككًا فيما قالته، لأنها أضافت:

«تُت، تُت[1] يا بني. إذا لم يحدث شيء أسوأ من البيرة لنا، فنحن لم نزل ميسوري الحال».

قلت: «أظن ذلك، بل إنني متأكد منه يا عمة».

قالت عمتي: «حسنًا، إذن، لماذا تظن ذلك؟».

عدت: «لأننا شخصان مختلفان تمامًا».

ردت عمتي: «هراء بلا معنى يا تروت».

استمرت عمتي في الاستمتاع الهادئ، مظهرة طيفًا بسيطًا من الشجن، وراحت تشرب البيرة الدافئة بملعقة الشاي، وتنقع شرائح الخبز المحمص فيها.

---

(١) صوت يعني الاعتراض، قصدت به أن يكف عن سكب المزيد من البيرة.

قالت: «اسمع يا تروت، إنني لا أهتم بالوجوه الغريبة بشكل عام، لكنني أحس ميلًا نحو باركس، هل تعلم ذلك؟!».

قلت: «إن سماعي لخبر مثل هذا أثمن عندي من مائة جنيه!».

أردفت عمتي وهي تفرك أنفها قائلة: «إن هذه الحياة عجيبة للغاية. كيف قبلت تلك المرأة الحياة الماضية حاملة لهذا الاسم؟ إنه أمر ثقيل في نظري لا يمكن تحمله. كان من الأسهل بكثير أن تولد حاملة اسم جاكسون، أو أي اسم بشري من هذا القبيل».

قلت: «ربما يكون هذا هو رأيها أيضًا، ولكن هذا ليس خطأها».

ردت عمتي، موافقة على هذا الرأي على مضض: «لا أظن أنها مسؤولة عنه، لكنه أمر مزعج للغاية، المهم أنها الآن تُدعى باركس، وفي هذا الاسم نوع من العزاء. إن باركس مغرمة بك بشكل استثنائي يا تروت».

قلت: «لم تترك فعلًا من دون أن تثبت لي به حبها».

قالت عمتي: «أظن أنها كذلك، لقد فعلت كل ما يدلل على حبها إذ راحت هذه الساذجة المسكينة تتوسل إليَّ وترجوني أن أقبل بعضًا من مالها، لأنها حصلت على جزء وفير منه. يا لها من مغفلة!».

راحت دموع الفرح تنهمر من عين عمتي إلى البيرة الدافئة، ثم استطردت قولها: «إنها أكثر المخلوقات عجبًا على الإطلاق. لقد عرفت، منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها مع تلك الطفلة المسكينة

العزيزة المباركة؛ أمك، وأدركت أنها كانت أكثر البشر سخافة، لكنها تملك صفات طيبة».

تأثرت بالضحك، وانتهزت الفرصة لوضع يدها على عينيها. ما إن أنهت مسح دمعها حتى استأنفت الشراب والحديث في آن واحد.

تنهدت عمتي قائلة: «آه، رحمة الله تشملنا جميعًا. أعرف كل شيء عنها يا تروت، لقد دار بيني وباركس حديث طويل عندما خرجتَ مع دك. صرت أعرف كل شيء عنها. إنني لا أعرف إلى أين تظن هؤلاء الفتيات البائسات أنهن ذاهبات، وإني لأتساءل كيف لا يضربن رؤوسهن في رف الموقد». وإني أحسب أن هذه الفكرة قد راودتها بينما تنظر نحو رف موقدي.

قلت: «يا لكِ من مسكينة يا إيميلي!».

راحت عمتي تقول: «آه، لا تقل أمامي إنها مسكينة. كان يجب أن تفكر في أمرها، قبل أن تتسبب في هذا البؤس، أعطني قبلة يا تروت. إنني آسف لتجربتك القاسية المبكرة».

انحنت إلى الأمام، ثم وضعت كوبها على ركبتي لتحتجزني، ثم قالت:

«آه يا تروت، وهكذا تتوهم إنك قد وقعت في الحب! أليس كذلك؟».

احمر وجهي خجلًا وصرخت قائلًا: «هل أتوهم يا عمة؟! إنني أعشقها من أعماق روحي».

قالت عمتي: «إنها دورا حقًّا! هل تقصد أن تقول إن هذه الصغيرة في غاية الجمال، على ما أظن؟».

أجبتها قائلًا: «يا عمتي العزيزة، لا أحد يستطيع تكوين أدنى فكرة عن ماهيتها».

سألتني عمتي: «آه، أليست سخيفة؟».

«أتقولين سخيفة يا عمة!».

أتصور أنه لم يخطر ببالي قطعًا ولو للحظة واحدة، أن أفكر فيما إذا كانت سخيفة أم لا. لقد استأتُ من الفكرة بالطبع. لكنني كنت بطريقة ما مصدومًا من هذا الأسلوب الجديد الذي تخاطبني به عمتي.

قالت عمتي: «أليست خفيفة العقل؟».

قلت: «خفيفة العقل يا عمة!». لم يسعني إلا أن أكرر هذه التكهنات الجريئة بالشعور نفسه الذي كررت به السؤال السابق.

قالت عمتي: «حسنًا، حسنًا، إنني أسألك فقط، ولا أستخف بها. يا لكما من صغيرين ضعيفين! ولذا تتصوران أنكما خلقتما من أجل أن تكونا معًا، وعليكما أن تسيرا في خضم الحياة كما لو أنكما على مائدة عشاء، مثل قطعتين جميلتين من الحلوى، أليس كذلك يا تروت؟».

كانت تسألني بلطف شديد، وبلين وعطف، مازجة بين المرح والأسف، لذا فقد تأثرتُ تمامًا بكلامها.

أجبتها قائلًا: «أعرف أننا صغيران وعديما الخبرة يا عمة، وأجرؤ على القول إننا نصرح ونفكر أحيانًا في أن علاقتنا محض حماقة بشكل

ما. إلا أنني متأكد من أننا متحابان حقًّا. إذا حسبت يومًا أن دورا يمكن أن تحب أي إنسان آخر، أو تتوقف عن حبي؛ أو أنني يمكن أن أحب أي فتاة أخرى، أو أن أتوقف عن حبها، فإنني لا أستطيع أن أدرك ماذا سأفعل... أظن أني سأجن».

قالت عمتي وهي تهز رأسها وتبتسم في مكر: «آه، يا تروت، إنك لأعمى، أعمى، أعمى».

استطردت عمتي بعد فترة توقف، فقالت: «إن ثمة إنسانًا أعرفه يا تروت يتمتع بمرونة بالغة، وعلى الرغم من هذه المرونة إلا أنه يتمتع بمودة صادقة خالصة، وإنه ليذكرني بهذه الطفلة المسكينة. إن الصدق هو ما يجب أن يبحث عنه الإنسان، فيدعمه ويصلحه يا تروت. يا لروعة الصدق العميق والمودة الخالصة!».

صرختُ: «آه لو تعلمين مدى صدق دورا يا عمتي!».

كررت ما قالته مرة أخرى: «آه يا تروت، يا لك من أعمى، أعمى». أحسست -من دون أن أعرف السبب- بفقدان غامض أو نقص في شيء أحتاج إليه ليظللني مثل سحابة.

قالت عمتي: «ومع ذلك، لا أريد أن أخرج مخلوقين صغيرين من غرورهما بنفسيهما، أو أن أجعلهما غير سعداء فيفقدان شغفهما؛ وإذا كانت العلاقة مجرد ارتباط بين فتاة وفتى صغيرين، ومثل هذه العلاقات في كثير من الأحيان - أتفهم! لا أقول دائمًا! - تؤول في النهاية إلى لا شيء، إلا أننا سنكون جادين في الأمر، ونأمل في قصة مزدهرة في يوم

من الأيام، فلم يزل لدينا ما يكفي من الوقت للتفكير قبل أن تقرر أي شيء».

لم يكن هذا القول في عمومه مريحًا لمحب مفعم بالأمل، لكنني كنت سعيدًا لثقة عمتي فيَّ، وكنت مدركًا لمدى إرهاقها. لذلك فإنني شكرتها بحرارة على عاطفتها النبيلة هذه، وعلى كل كرمها لي، ومن ثَم تمنت لي ليلة سعيدة، وأخذت مشروبها إلى غرفة نومي.

وكم شعرت بالبؤس حين استلقيت على فراشي! كم رحت أفكر وأمعن التفكير في فقري، خاصة في عيني السيد سبنلو. وكيف أنني أحسب أنني لم أعد كما كنت حين صارحت دورا بحبي، وكيف تدفعني الشجاعة إلى إخبارها بحالتي المعيشية، وإعفائها من الخطبة إذا وجدتني غير كفء لها. فكرت كيف سأتدبر أمور معيشتي خلال فترة تدريبي الطويلة، بينما لم أزل غير قادر على الكسب، وما الشيء الذي سأعمله لمساعدة عمتي، بينما لا أرى أي طريقة ستجدي نفعًا. فكرت كيف صارت جيوبي خاوية بلا نقود، وأنني سأرتدي معطفًا رثًّا بعد اليوم، ولن أكون قادرًا على منح دورا ولو القليل من الهدايا، ولن أركب الجياد بعد الآن، أو أظهر نفسي أمامها بأي صورة لامعة مقبولة. أدركت أن تفكيري دنيء وأناني، وكم تعذبت لمعرفة ذلك، فتركت عقلي يركض خلف ضيقي وبؤسي، لأنني كنت مخلصًا لدورا من دون أن أستطيع كبح انشغالي بها. كم شعرت بالخزي في أعماقي لعدم تفكيري في عمتي وأحوالها، وحاولت أن أقلص التفكير في نفسي

بلا جدوى، وكم كنت أنانيًّا فلم أستطع الانفلات من التفكير في دورا، ولم أتمكن من وضع دورا على قدم المساواة مع أي مخلوق آخر. كم تملكني البؤس في تلك الليلة!

أما نومي، فلم يخلُ من الحلم بالفقر بجميع أشكاله، لكن بدا لي أنني أحلم من دون أي مراسم سابقة للنوم. رحت أحلم أنني شريد، أرغب في بيع أعواد الثقاب لدورا، ست حزم مقابل نصف بنس. أما الآن فصرت في مكتب مرتديًا ثياب النوم والحذاء، وقد اعترض السيد سبنلو على الظهور أمام العملاء بذلك الزي البشع. أما الآن فصرت ألتقط من شدة الجوع الفتات المتساقط من بسكويت تيفي الذي اعتاد أن يأكله كل يوم، عندما تدق ساعة كنيسة سانت بول في موعدها. أما الآن فرحت أسعى بلا أمل للحصول على ترخيص للزواج من دورا، وليس لديَّ سوى فردة واحدة من قفاز يورايا هيب في مقابل خدمة الترخيص، الأمر الذي رفضه مجلس العموم بأكمله. رحت أحلم ولم أزل واعيًا إلى حد ما بأنني داخل غرفتي؛ أتقلب مثل السفينة المنكوبة في بحر من الأغطية والملاءات.

كانت عمتي قلقة أيضًا، لأنني سمعتها كثيرًا وقد أخذت تمشي ذهابًا وإيابًا. وبدت مرتين أو ثلاث مرات خلال الليل، مرتدية عباءة طويلة من الصوف تظهر فيها بارتفاع سبعة أقدام، مثل شبح مضطرب يطوف في غرفتي، إلى أن اقتربت من الأريكة التي استلقيت عليها. انتبهت في المرة الأولى مذعورًا، لأعلم أنها استنتجت من ضوء معين في السماء، أن كنيسة وستمنستر تحترق، وأنها جاءت لاستشارتي فيما

يتعلق باحتمالية اشتعال شارع باكنجهام إن غيرت الرياح مسارها. أحسست بعد ذلك وأنا راقد مستكينًا، أنها جلست بالقرب مني، تهمس لنفسها قائلة: «يا له من ولد مسكين!»، مما جعلني أشعر ببؤس مضاعف عشرات المرات، بعد أن أدركت كم كانت حريصة عليَّ، منكرة لذاتها، وكم كنت أنانيًّا محبًّا لنفسي.

كان من الصعب أن أصدق أن ليلة طويلة جدًّا لي يمكن أن تمر قصيرة عند إنسان آخر. دفعتني هذه الفكرة إلى تخيل حفلة حيث يرقص لساعات طوال من دون اعتبار للوقت، حتى تحول تخيلي إلى حلم أيضًا، فسمعت الموسيقى تعزف لحنًا واحدًا بلا انقطاع، ورأيت دورا ترقص رقصة واحدة بلا توقف، من دون أن تعبأ بي. حاول عازف القيثارة عبثًا أن يغطيها طوال الليل بغطاء قاتم متوسط الحجم، إلى أن استيقظت، أو بالأحرى توقفت عن محاولة النوم، بعد أن رأيت الشمس تشرق، فتنفذ أشعتها عبر النافذة أخيرًا.

أما في تلك الأيام، فكان ثمة حمام روماني قديم يقع في نهاية أحد الشوارع المتطرفة خارج ستراند -ربما لم يزل على حاله إلى الآن- اعتدت أن أتحمم فيه وأغطس في أحواضه الباردة. ارتديت ملابسي بهدوء قدر المستطاع، وتركت بيجوتي لتعتني بعمتي، ثم ذهبت إلى مغطس الحمام قبل أن أقوم بأي شيء، ثم تنزهت سيرًا على الأقدام إلى هامستيد. كنت أرجو أن ينعش هذا العلاج السريع ذكائي قليلًا، وأحسب أنه كان مفيدًا لأنني سرعان ما توصلت إلى استنتاج مفاده أن الخطوة الأولى التي يجب أن أتخذها هي محاولة إلغاء مدة تمريني،

واسترداد قسط التأمين. تناولت الفطور في هيث، وسرت عائدًا إلى مجلس العموم، متخطيًا طريقًا مبتلًا وعابرًا بين عطر أزهار الصيف اللطيفة، التي تنمو في الحدائق، فتُحمل إلى المدينة فوق رؤوس الباعة الجائلين، عازمًا على بذل ما أستطيعه لمقابلة ما طرأ على أحوالنا.

وصلت إلى المكتب في وقت مبكر جدًّا، فاضطررت إلى التسكع لنصف ساعة حول مجلس العموم، قبل أن يظهر العجوز تيفي، الذي كان دائمًا أول الحاضرين، ليفتح المكتب بمفتاحه. دخلت وجلست في زاويتي المظللة، أنظر إلى ضوء الشمس المنعكس فوق المداخن المقابلة للمبنى؛ أفكر في دورا، حتى جاء السيد سبنلو بشعره المنفوش المجعد.

قال: «كيف حالك يا كوبرفيلد؟ صباح الخير».

قلت: «صباح الخير يا سيدي. هل تسمح لي بكلمة قبل أن تذهب إلى المحكمة؟».

قال: «بكل تأكيد. تعالَ إلى غرفتي».

تبعته إلى غرفته، وبدأ يرتدي رداءه، ويسوي هندامه أمام مرآة صغيرة معلقة داخل باب خزانة.

قلت: «يؤسفني أن أقول إن لديَّ بعض الأنباء المحبطة من عمتي».

قال «لا، رحماك يا ربي، أرجو ألا يكون شللًا».

أجبته: «لا علاقة للأمر بصحتها يا سيدي. لقد واجهت بعض الخسائر المادية الكبيرة. في الواقع، لم يتبقَّ لها سوى قليل من مال، في الواقع...».

صرخ السيد سبنلو: «إنك تدهشني يا كوبرفيلد».

هززت رأسي، قائلًا: «في الواقع يا سيدي، لقد تبدلت أحوالها، وأردت أن أسألك عما إذا كان من الممكن - مع الوضع في الاعتبار تضحيتنا بجزء من قسط التأمين، بالطبع - إلغاء مدة تدريبي؟». أدهشني تعبير وجهه في اللحظة التي قلت فيها اقتراحي. لا أحد يعلم كم تكبدت عناء تقديم هذا الاقتراح عليه. كان الأمر أشبه بطلب إبعادي عن دورا باعتباره خدمة جليلة.

قال: «هل تقول إلغاء تدريبك كوبرفيلد؟ إلغاؤه؟».

شرحت له في ثبات انفعالي أنني لا أعرف حقًّا كيف سأتدبر شؤون معيشتي، إلا إذا تمكنت من كسب قوتي بنفسي. قلت إنني لا أخاف على مستقبلي، وقد أكدت هذا القول بشدة، كما لو أنني أستحثه على تأكيد جدارتي بأن أكون صهره في يوم من الأيام، ولكنني في الوقت الحاضر، ألتفت إلى تحصيل موارد عيشي. قال السيد سبنلو: «إنني حزين للغاية لسماع هذا الكلام يا كوبرفيلد. أنا حزين للغاية. ليس من المعتاد إلغاء التدريبات لأي سبب من هذا القبيل، فهذا المسلك يبعد عن أخلاقيات المهنة، ومن الخطر المضي في مثل هذه الإجراءات في الوقت الراهن».

غمغمت متوقعًا أن يتنازل بقبول اقتراحي: «إنك لكريم يا سيدي».

قال السيد سبنلو: «العفو، لا تقل ذلك. إنني أقول في الوقت نفسه، لم يكن الأمر ليبدو صعبًا عليَّ أن أطلق يدي وأستطيع اتخاذ القرار وحدي، لولا شراكة السيد جوركنز...».

تحطمت آمالي في لحظة، لكنني بذلت مجهودًا آخر.

قلت: «هل تظن يا سيدي، أنه من الأفضل أن أتحدث إلى السيد جوركنز؟».

هز السيد سبنلو رأسه بشكل محبط. أجاب: «لا سمح الله يا كوبرفيلد، يجب ألا أظلم أي إنسان، خاصة السيد جوركنز. لكنني أعرف شريكي يا كوبرفيلد. إن السيد جوركنز ليس ممن يستطيعون الرد على اقتراح ذي طبيعة غريبة، بل من الصعب جدًّا نقله عن المسار المتبع، وإنك لتعرف من هو!».

إنني على يقين من أنني لم أكن أعرف شيئًا عنه، باستثناء أنه كان في الأصل يعمل بمفرده في هذا المجال، ويعيش الآن بمفرده في منزل بالقرب من ميدان مونتاجو، وأن منزله بحاجة ماسة إلى الطلاء. إنه يأتي إلى المكتب في وقت متأخر جدًّا كل يوم، ثم يغادر كذلك في وقت مبكر للغاية، كما أنه لم يُظهر ما يدل على أنه يُستشار في أي شيء، بل إنه يجلس في مكتب معتم صغير وقذر في الطابق العلوي، حيث لا يقوم بأي عمل على الإطلاق، بل تعلو مكتبه حافظة ورقية صفراء قديمة لم تلوث بالحبر من قبل، ويقال إنها موضوعة في مكانها منذ عشرين عامًا.

سألته: «هل تعترض على عرض الأمر عليه يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو: «لست أعترض بالضبط. إلا أنني أحظى ببعض الخبرة في التعامل مع السيد جوركنز يا كوبرفيلد. كنت أتمنى لو كان الأمر مختلفًا، لأنني سأكون سعيدًا بالاستفادة بآرائكم بأي شكل من

الأشكال. لا يمكنني الاعتراض على مناقشة الأمر مع السيد جوركنز يا كوبرفيلد، لو أنك ارتأيت ذلك ممكنًا».

تلقيت هذا الإذن منه، ثم صافحني بحرارة. جلست أفكر في دورا، وألقي نظرة على ضوء الشمس المتسلل عبر المداخن أسفل جدار المنزل المقابل، حتى جاء السيد جوركنز. صعدت إلى غرفة السيد جوركنز، وكان من الواضح أنني باغته بظهوري في مكتبه.

قال السيد جوركنز: «تفضل يا سيد كوبرفيلد. ادخل».

دخلت ثم جلست، وعرضت قضيتي على السيد جوركنز بالطريقة نفسها التي ذكرتها للسيد سبنلو. لم يكن السيد جوركنز المخلوق الفظيع الذي قد يتوقعه المرء بأي حال من الأحوال، ولكنه كان رجلًا لطيفًا بشوشًا، أملس الوجه، يبلغ من العمر ستين عامًا، استنشق الكثير من السعوط، حتى شاع في مجلس العموم أنه عاش بشكل أساسي على هذا المنشط، مع عدم وجود مساحة صغيرة في نظامه الغذائي لأي طعام آخر.

قال السيد جوركنز بعد أن سمعني بقلق شديد حتى النهاية: «هل عرضت هذا الأمر على السيد سبنلو؟».

أجبت بنعم، وقلت له إن السيد سبنلو قد أوصاني باللجوء إليه.

سألني السيد جوركنز: «هل قال إنه يجب عليَّ أن أعترض على الأمر؟».

اضطررت إلى الاعتراف بأن السيد سبنلو قد اعتبر اعتراضه محتملًا.

قال السيد جوركنز في نبرة عصبية: «يؤسفني القول يا سيد كوبرفيلد، إنني لا أستطيع أن أوافق على طلبكم. في الواقع إنني... لكن عندي موعد في البنك، أستمحيك عذرًا».

وبهذا القول نهض في عجلة من أمره، وكاد يخرج من الغرفة، إلا أنني تجرأت على القول إنني أخشى التساؤل عما إذا كانت هناك طريقة أخرى لترتيب المسألة.

قال السيد جوركنز بعد أن توقف عند الباب ليهز رأسه: «لا، آه، لا»، أردف قائلًا بسرعة كبيرة قبل أن يخرج: «إنني أعترض، كما تعلمون». ثم أضاف، وهو ينظر بقلق نحو الباب مرة أخرى: «يجب أن تكون على علم يا سيد كوبرفيلد، أنه لو اعترض السيد سبنلو على...».

قلت إنه شخصيًّا لا يعترض يا سيدي.

كرر السيد جوركنز بنفاد صبر: «آهٍ، شخصيًّا، أؤكد لك أن ثمة اعتراضًا يا سيد كوبرفيلد. إنه لأمر ميؤوس منه، ما تتمنى أن تفعله لا يمكن فعله. إنني... عندي بالفعل موعد في البنك». وبهذا القول هرب خارجًا، وعلى حد علمي، فقد مرت ثلاثة أيام قبل أن يظهر في مجلس العموم مرة أخرى.

كنت حريصًا جدًّا على ألا أترك بابًا من دون أن أطرقه، لذلك فقد انتظرت حتى جاء السيد سبنلو، ثم قصصت عليه ما حدث، ثم شرحت له أنني أثق في قدرته على إقناع السيد جوركنز واستمالته إذا أولى الأمر أهميته.

رد السيد سبنلو بابتسامة كريمة قائلًا: «يا كوبرفيلد، إنك لا تعرف شريكي السيد جوركنز كما عرفته أنا. لا أفكر في أن أنسب إلى السيد جوركنز أي نوع من الحيلة. لكن السيد جوركنز لديه طريقة لإبداء اعتراضاته تخدع الناس في معظم الأوقات. لا يا كوبرفيلد»، ثم راح يهز رأسه نافيًا وقائلًا: «إن السيد جوركنز لن يبدل رأيه، صدقني».

صرت محتارًا بين السيد سبنلو والسيد جوركنز، أي منهما الشريك المعترض حقًّا؟ لكنني رأيت بوضوح كافٍ أن ثمة قسوة عند طرف من أطراف هذه الشراكة، وأن استرداد ألف جنيه مما دفعته عمتي أمر غير وارد. تملكتني حالة من اليأس، أتذكرها بكل تفاصيلها في سخط، لأني أعلم أن يأسًا قد تعمق في نفسي - على الرغم من أنني كنت على صلة دائمة بدورا - لذا تركت المكتب، وذهبت إلى المنزل.

كنت أحاول أن أفكر في أسوأ الاحتمالات، فأقدم لنفسي التدابير التي يجب أن نقوم بها في المستقبل حين تشتد بنا المصائب. أقبلت عربة تعدو خلفي، ثم توقفت بمحاذاتي، مما جعلني أتطلع إلى من بداخلها. امتدت إليَّ من النافذة يد ناعمة، ثم أطل هذا الوجه الذي لم أرَه يومًا من دون أن أشعر بالصفاء والسعادة، منذ اللحظة الأولى الذي أطل فيها من الدرج الخشبي القديم متجاوزًا حافة الدرابزين العريض، بل إنه هذا الوجه ذو الجمال الناعم المرتبط بالنافذة ذات الزجاج الملون في الكنيسة، وإذا به يبتسم لي.

صرخت بفرح: «أجنيس، آه، يا عزيزتي أجنيس، من بين جميع الخلائق أراكِ! يا لسروري برؤياكِ!».

قالت بصوت محب: «هل أنت مسرور برؤيتي حقًّا؟».

قلت: «أردت أن أتحدث إليكِ حديثًا طويلًا، ولو أنني أملك قبعة ساحر، فلم أكن لأتمنى أن أستدعي إنسانًا غيركِ».

قالت أجنيس: «ما الأمر؟».

تحدثت على استحياء فقلت: «حسنًا، من الأفضل أن أبدأ بالحديث عن دورا أولًا».

قالت أجنيس وهي تضحك: «بالتأكيد، أرجو أن نتحدث عن دورا أولًا».

قلت: «لكنكِ ستتحدثين عن نفسكِ بعد ذلك، إلى أين ستذهبين؟».

كانت متجهة إلى مسكني لزيارة عمتي. كان الجو منعشًا في ذلك اليوم، ففضلت الخروج من العربة التي كانت تفوح منها رائحة ما - كان رأسي بداخل العربة طوال هذا الوقت - تبدو مثل روائح الإسطبل ممزوجة بروائح الخيار. طلبت من الحوذي الانصراف بعربته، وتأبطت أجنيس ذراعي ثم سرنا معًا. لاحت لي أملًا متجسدًا، فكم تغيرت حالتي في دقيقة واحدة، بعد وجود أجنيس بجانبي!

كانت عمتي قد كتبت لها واحدة من رسائلها الغريبة والمفاجئة -التي لم تكن تتجاوز طول ورقة نقدية- وقد أفرغت فيها كامل جهودها في كتابة رسائل مقتضبة كعادتها. ذكرت فيها أنها وقعت في محنة، وأنها ستغادر دوفر إلى الأبد، بعد أن اتخذت قرارها من دون رجعة، وأنها بخير فلا ينبغي لأحد أن ينشغل بأمرها أو ينزعج. جاءت أجنيس

إلى لندن لزيارة عمتي، فقد نشأ بينهما إعجاب متبادل دام طوال سنوات عديدة، وفي الواقع، يعود تاريخ علاقتهما إلى وقت إقامتي في منزل السيد ويكفيلد. قالت أجنيس إنها لم تأتِ وحدها. كان والدها معها ويورايا هيب.

قلت: «هل صارا شريكين الآن؟ حيره الله».

قالت أجنيس: «نعم، يقضيان بعض الأعمال هنا، فاستفدت من مجيئهما، وجئتُ معهما أيضًا. لا تظن أن زيارتي ودية بأكملها وبلا هدف يا تروتوود. إنني أخشى أن أكون متحيزة وقاسية، لكنني لا أحب أن أترك أبي يسافر معه بعيدًا بمفرده». سألتها: «ألا يزال يمارس التأثير نفسه على السيد ويكفيلد يا أجنيس؟».

هزت أجنيس رأسها بالإيجاب، ثم قالت: «إن ثمة تغييرًا كبيرًا في المنزل، حتى إنك لن تجد المنزل القديم الغالي الذي تعرفه. إنهما يعيشان معنا الآن».

قلت: «مَن هما؟».

قالت أجنيس وهي تتفرس في وجهي: «أقصد السيد هيب ووالدته. إنه ينام في غرفتك القديمة».

قلت: «أتمنى لو أنني أعيد ترتيب أحلامه، وساعتها لن ينام في غرفتي طويلًا».

قالت أجنيس: «إنني أحتفظ بغرفتي الصغيرة، التي كنت أتلقى فيها دروسي. كيف مضى بنا الوقت! هل تتذكرها؟ إنها الغرفة الصغيرة

المكسوة بالألواح والمفتوحة على غرفة المعيشة».

قلت: «هل تسألينني إن كنت أتذكر أم لا يا أجنيس؟ لقد رأيتكِ لأول مرة تخرجين من بابها، وقد علقتِ سلة مفاتيحكِ الصغيرة الجذابة بجانبكِ».

قالت أجنيس مبتسمة: «إنها على حالها. وكم أنا سعيدة لأنك تتذكر هذا الأمر بسرور بالغ! كم كنا سعداء!».

قلت: «لقد كنا سعداء حقًّا».

قالت أجنيس بهدوء: «إنني أحتفظ بالغرفة نفسها، لكنني لا أستطيع أن أتخلى عن السيدة هيب في كل الأوقات، كما تعلم. لذا، أشعر أنني مضطرة لتحمل صحبتها، حتى وإن كنت أفضِّل أن أكون وحدي. وإني لا أشكو منها لأي سبب آخر، إلا عندما ترهقني أحيانًا، بسبب مدحها المتواصل لابنها، وهذا أمر طبيعي وغريزي عند أي أم. إنه ابن بار بها».

رحت أنظر إلى أجنيس وهي تقول هذه الكلمات، من دون أن ألاحظ على وجهها ما يشير إلى إدراكها لمقاصد يورايا. التقت عيناها اللطيفتان بعيني، وقد عكست نظراتها صراحتها النقية وجدتها الفائقة، من دون أن يشوب وجهها اللطيف أي تغيير.

قالت أجنيس: «إن الضرر الرئيسي من وجودهما في المنزل هو أنني لا أستطيع أن أكون قريبة من أبي بالشكل الذي أحبه - يحول يورايا هيب بيننا كثيرًا - ولا يمكنني أن أراقبه كما أشاء، وإني لأعرف مدى جرأة ما أقوله. وإني لأرجو أن يكون الحب الخالص والوفاء حصنيه

في النهاية، فينجيانه من أي غش أو غدر. أرجو أن يكون الحب الصادق والوفاء أقوى في النهاية من أي شر أو سوء حظ في هذا العالم».

تلاشت ابتسامة مشرقة، لم أشهدها قَطُّ على أي وجه سواها. لقد انقشعت في اللحظة ذاتها بينما كنت أفكر في روعتها، فكم كانت مألوفة لي ذات يوم! رحنا نقترب من مسكني، فإذا بها تسألني - بعد تغيير سريع طرأ على تعبيرات وجهها - إذا كنت أعرف كيف انقلبت أحوال عمتي. أجبتها قائلًا إنني «لا أعرف»، وإنها لم تخبرني بعد بما حدث لها. شردت أجنيس في تفكير عميق، وقد خيل لي أنني لاحظت ذراعها ترتجف بين يدي.

وجدنا عمتي جالسة وحدها في حالة من الانفعال. لقد شب شجار بينها والسيدة كروب، حول مسألة عامة؛ وهي ملاءمة كماليات الغرف التي يسكنها الجنس اللطيف. لم تبالِ عمتي على الإطلاق بالتشنجات التي تبديها السيدة كروب، ومن ثَم أنهت الخلاف بإخبار تلك السيدة بأن رائحة البراندي الذي أشتريه تفوح منها، وأنها تطلب منها الخروج من الغرفة. وقد اعتبرت السيدة كروب كلا التعبيرين قابلين لرفع قضية، وقد أعربت عن نيتها في تقديم شكوى ضدها أمام «جودي البريطانية»[(١)] ويفترض أنها تعني أنها حصن حرياتنا الوطنية.

أُتيح الوقت لعمتي حتى هدأت، بينما كانت بيجوتي بالخارج مع

---

(١) تستخدم العامية الإنجليزية اسم جودي بمعنى سيدة أو فتاة، ويقصد هنا التاج البريطاني أو القضاء.

السيد دك تطلعه على مشهد الجنود من الحرس الفوارس. وكم سعدت عمتي لرؤية أجنيس، بل إن فرحتها بقدومها أنستها مشكلتها السابقة، وإذا بها تستقبلنا بلطف وطيبة. أشاحت أجنيس قبعتها ووضعتها فوق المنضدة، فجلستُ بجانبها، ولم أستطع منع نفسي من التفكير، بينما أنظر إلى عينيها الودودتين وجبينها اللامع، فأتصور أن وجودها بيننا أمر طبيعي. يا لها من فتاة محل ثقة! على الرغم من أنها صغيرة السن وعديمة الخبرة، فإن عمتي أسرَّت إليها بسرها. يا لصدقها في حبها وكم هي محقة في صراحتها!

بدأنا نتحدث عن خسائر عمتي، وقلت لهم ما حاولت فعله ذاك الصباح.

قالت عمتي: «لم يكن تصرفك حكيمًا يا تروت، لكنك حسن النية. ويجب عليَّ أن أقر بأنك فتى طيب أيها الشاب الكريم، وكم أنا فخورة بك الآن يا عزيزي، وأن الأمور تسير على نحو مقبول. أما الآن يا تروت ويا أجنيس، دعونا نلقي نظرة على حالة بيتسي تروتوود، لنوجهها، ونرى كيف ستقف على قدميها».

لاحظت أن وجه أجنيس شاحبًا، بينما تنظر نحو عمتي باهتمام شديد. أما عمتي، فراحت تربت على قطتها، وتنظر هي الأخرى إلى أجنيس بالاهتمام نفسه.

كانت دائما تحتفظ بمسائلها المالية لنفسها، إلا أنها راحت تقول: «إن بيتسي تروتوود -بالطبع لا أقصد الحديث عن أختك يا عزيزي

تروت، بل أتحدث عن نفسي- كانت تحوز قدرًا من الممتلكات. لا يهم كم تساوي، لكنها كانت تكفي للعيش. بل ربما فاضت ممتلكاتها عن حاجتها فادَّخرت اليسير منها ثم أضافته إليها. قامت بيتسي بمباشرة ممتلكاتها لبعض الوقت، وبعد ذلك، عملت بنصيحة وكيل أعمالها، فاستثمرت أموالها في العقارات. سارت الأمور على ما يرام، وعادت عليها بربح وفير، حتى سددت بيتسي كل ما عليها. إنني أتحدث عن بيتسي كما لو أنها رجل حرب. حسنًا، ثم، راحت بيتسي تبحث عن شيء جديد واستثمار جديد. لقد ظنت أنها تتمتع بحكمة تفوق الآن وكيل أعمالها، حيث لم يصر رجلًا ماهرًا في ذاك الوقت، كما اعتاد أن يكون -وإنني لألمح إلى والدكِ يا أجنيس- فاعتزمت على أن تُسيِّر أمورها بنفسها. حولت استثماراتها إلى سوق أجنبية، وقد كانت سوقًا سيئة للغاية كما اتضح لها فيما بعد. فخسرت أموالها أولًا في سوق التعدين، ثم خسرت في سوق الغوص، حيث استخراج الكنوز الغارقة، أو شيء من هذا الهراء». راحت عمتي تفرك أنفها، واستطردت شارحة: «خسرت بعد ذلك في عمليات التعدين، وأخيرًا حاولت إصلاح أمرها بالكامل واستعادة حقها، فخسرت في الاستثمارات البنكية. لم أكن أعرف قيمة الأسهم البنكية أو مدتها أو نسبة الفائدة والعوائد منها. كما كان البنك في الطرْف الآخر من العالم، فصار كمن سقط في فضاء، من دون أن أعرف السبب، وعلى أي حال فقد انهار إلى أشلاء، ولن يستطيع رد الأموال إلى أصحابها ولو كانت ستة بنسات. كانت ممتلكات بيتسي كلها هناك، وقد تلاشت. هذا هو مجمل القول، فخير الكلام ما قل ودل».

اختتمت عمتي كلامها بهذا الملخص الفلسفي، ثم ثبتت عينيها بنوع من الانتصار نحو أجنيس، بعد أن عاد لون بشرتها إلى طبيعته تدريجيًّا.

قالت أجنيس: «هل هذا تاريخ ما حدث يا عزيزتي الآنسة تروتوود؟».

قالت عمتي: «أرجو أن يكون ما قلته كافيًا يا بنيتي. أجرؤ على القول بأنه لو كان قد توفر المزيد من مال لنخسره، لما انتهى الأمر عند هذا الحد. لا شك في أن بيتسي كانت ستحاول إلقاء بقية أملاكها كما فعلت من قبل، فتسرد فصلًا آخر من تاريخها. إلا أنه لم يتبقَّ لها مال، ولم تعد للقصة بقية».

أصغت أجنيس إليها حابسة لأنفاسها في البداية. ظل لون بشرتها يتلاشى ثم يعود، إلا أنها راحت تتنفس بحرية أكبر بعد فترة. ظننت أنني أعرف السبب، إذ إنها تخشى من أن يكون والدها التعس مسؤولًا بطريقة ما عما حدث لعمتي.

أمسكت عمتي بيد أجنيس وراحت تضحك، قائلة: «هل هذا كل شيء؟ نعم، هذا كل شيء، إلا إذا أكملنا الحكاية وقلنا «ثم عاشت في سعادة وسلام»، ربما يمكنني إضافة القول إلى بيتسي بعد ذلك في يوم من الأيام. أما الآن يا أجنيس، فإنكِ تتمتعين بعقل راجح. وإنك لصاحب عقل راجح في بعض الأمور يا تروت، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أثني عليك دائمًا». وهنا راحت عمتي تهز رأسها أمام وجهي، بطريقة خاصة بها، ثم أكملت: «ما العمل؟ إذا وضعنا عامل الوقت في الاعتبار

يمكن للبيت أن يأتي بسبعين جنيهًا في السنة على سبيل المثال. أظن أننا قد نعتمد على هذا المبلغ. حسنًا، هذا كل ما نملك». توقفت عمتي عن الكلام، كما تفعل بعض الخيول، إذ تتوقف لفترة قصيرة جدًّا في حين تبدو كما لو أنها تتأهب للاستمرار في العدو لفترة طويلة. ثم استأنفت كلامها بعد فترة من السكون قائلة: «ثم إنني لا أنسى دك. إنه يكفي لمائة عام، لكنه بالطبع سينفق على نفسه. سأتخلى عن أمواله قريبًا، على الرغم من أنني أعلم أنني الشخص الوحيد الذي يقدره شخصيًّا، من دون اعتبار لأملاكه، ومن ثَم لن أنفق أمواله إلا عليه. كيف يمكنني أن أبذل قصارى جهدي لأتدبر حالي أنا وتروت وفقًا لإمكانياتنا؟ ما رأيكِ يا أجنيس؟».

تدخلت قائلًا: «يا عمتي، يجب أن أعمل في أي مهنة».

قالت عمتي في انزعاج: «هل تقصد أنك ستتطوع في الجيش مثلًا؟ أو تعمل في البحر؟ لن أسمع بوقوع أي شيء من هذا القبيل. يجب أن تسلك طريق المحاماة. لن نتعرض لأي من هذه الضربات فوق رؤوس الأسرة، إذا سمحت يا سيد».

كنت على وشك أن أوضح أنني لم أرغب في إدخال هذا النمط من التدبير في الأسرة، لكن أجنيس راحت تسأل عما إذا كان مسكني مستأجر لفترة طويلة أم لا.

قالت عمتي: «لقد سألتِ عن نقطة مهمة يا عزيزتي. إننا لن نتخلص منه لمدة ستة أشهر على الأقل، إلا إذا كان من الممكن أن نؤجره بعائد أقل مما دفعناه، وهذا أمر لا أحسب أننا صانعوه. لقد مات الساكن

الأخير هنا، وسيموت خمسة أشخاص من كل ستة - بالطبع - بسبب هذه المرأة صاحبة الفستان القطني. إن بحوزتي قدرًا يسيرًا من المال، وإنني أتفق معكِ على أن أفضل شيء يمكننا القيام به، هو أن نعيش مدة الإيجار هنا، ونحصل لكِ على غرفة نوم قريبة».

ظننت أنه من واجبي التلميح إلى الانزعاج الذي ستعاني منه عمتي، إذ ستعيش في حالة مستمرة من حرب العصابات مع السيدة كروب، لكنها تخلصت من هذا الاعتراض بإيجاز بقولها إنها مستعدة لإبهار السيدة كروب في أول عرض للأعمال العدائية، برد فعل ستتذكره طوال الفترة المتبقية من حياتها.

قالت أجنيس بخجل: «لقد كنت أفكر يا تروتوود، أنه لو كان لديك الوقت...».

أدرك خجلها اليسير، ورحت أفكر في الساعات الطوال التي كرستها للتجول حول المدينة والسير في طريق نوروود، فقلت: «بالطبع لديَّ وقت طويل يا أجنيس. إنني دائمًا أتسكع بعد الساعة الرابعة أو الخامسة، كما لديَّ فسحة من الوقت في الصباح. لديَّ الكثير من الوقت بطريقة أو بأخرى».

قالت أجنيس بينما تقترب نحوي وتتحدث بصوت منخفض، وقد صارت نبراتها مفعمة باللين والأمل، بصورة لم أسمعها من قبل: «أعلم أنك لن تمانع إن عملت سكرتيرًا».

قلت: «وهل يمكن أن أمانع يا عزيزتي أجنيس؟».

تابعت أجنيس قائلة: «لأن دكتور سترونج قد انتوى التقاعد عن العمل، وجاء إلى لندن للعيش فيها. ثم إنه سأل أبي إذا كان بإمكانه أن يرشح له سكرتيرًا. ألا تظن أنه سيفضل أن يُقرِّب منه تلميذه القديم المحبوب أكثر من أي شخص آخر؟».

قالت: «آه يا عزيزتي أجنيس، ماذا كنت سأفعل من دونكِ؟! إنكِ ملاكي الطيب دومًا. لقد قلت لكِ ذلك من قبل. إنني لا أفكر فيكِ أبدًا بأي شكل آخر».

أجابت أجنيس بضحكتها اللطيفة، أن ملاكًا طيبًا واحدًا يكفي – قصدت دورا – ومضت تذكرني أن الدكتور قد اعتاد العمل في مكتبه في الصباح الباكر وفي المساء، وربما يناسبه وقت فراغي للعمل معه. كانت سعادتي بفرصة كسب قوت يومي تفوق سعادتي وأملي في كسبه بالعمل مع معلمي القديم؛ باختصار، لقد أخذت بنصيحة أجنيس، فجلست وكتبت رسالة إلى الدكتور، أذكر له فيها غرضي، وحددت موعدًا لزيارته في اليوم التالي في الساعة العاشرة صباحًا. بعثت برسالتي هذه إلى هايجيت -لأنه كان يعيش في ذلك المكان، الذي لا أنساه- ثم ذهبت إلى مكتب البريد بنفسي، من دون أن أضيع دقيقة واحدة.

أينما تحل أجنيس تضفي على مكانها سمتًا مستساغًا من السكون والبهاء. ما إن عدت حتى وجدت طيور عمتي معلقة في قفصها، كما كانت معلقة لفترة طويلة في نافذة الردهة في بيت عمتي، أما المقعد المريح الذي يشبه مقعد عمتي، فكان من الأمتع رؤيته في موضعه عند النافذة المفتوحة. أما المروحة الخضراء المستديرة، التي أحضرتها

عمتي معها، فقد ثبتتها على حلق النافذة. عرفت من قام بكل هذا الترتيب، وقد لاح أنها فعلت هذا بهدوء من دون جلبة. وكان يجب أن أعرف منذ اللحظة الأولى مَن الذي رتب كتبي المبعثرة، فأعادها إلى الترتيب القديم الذي اعتدته منذ أيام دراستي، حتى لو افترضت أن أجنيس على بعد أميال، وإن لم أستطع رؤيتها مشغولة بترتيبها، لتجلت لي ابتسامتها أمام الفوضى التي آلت إليها.

كانت عمتي راضية بمشهد نهر التايمز. بدا بديعًا حقًّا حين انطبعت أشعة الشمس على صفحته، على الرغم من أنه لا يضاهي مشهد البحر أمام بيتها. إلا أنها لم تستطع التراجع عن تذمرها من دخان لندن، فراحت تقول عنه: «إنه مثل الفلفل الذي يتخلل كل شيء». أثار الدخان في البيت ثورة كاملة، وقد كانت بيجوتي جزءًا بارزًا فيها، إذ علق هذا الفلفل بكل ركن من أركان غرفتي. حاولت بيجوتي إزالته محدثة قدرًا هائلًا من الصخب، فرحت أتأمل مدى ضآلة تأثير بيجوتي أمام ما فعلته أجنيس من دون أي ضجيج على الإطلاق. ثم انتبهت على صوت طرقات الباب.

قالت أجنيس، بعد أن بدا عليها الشحوب: «أظن أنه أبي. لقد وعدني بالقدوم».

فتحت الباب، فلم أجد السيد ويكفيلد وحده، بل رافقه يورايا هيب. لم أكن قد رأيت السيد ويكفيلد منذ مدة طويلة. وكنت مستعدًّا لملاحظة تغيير كبير في مظهره، بعد ما سمعته من أجنيس، إلا أن مظهره صدمني.

لم أصدم لأنه بدا أكبر سنًّا بسنوات عديدة، فقد حافظ على نظافة ملابسه القديمة وهندامها، كما لم تصدمني غلظة سرت على ملامح وجهه، أو لأن عينيه صارتا محتقنتين بالدماء. لم تربكني رعشة يده الانفعالية، فقد عرفت سبب هذه الرعشة، التي ظهرت على يده منذ عدة سنوات في أثناء عمله. لم يكن الأمر يتعلق بما فقده من مظهر جميل، أو ما تبدل من سمته القديم لرجل نبيل -لأن الأمر لم يكن كذلك- بل إن الشيء الذي أدهشني أكثر من هذا كله، هو أنه مع ما يظهر عليه من سمات النبل والتميز، إلا أنه قد كتب على نفسه الخضوع أمام هذا المنتحل المدعو يورايا هيب المتسلل تحت أردية الذل. يبدو لي انقلاب هاتين الطبيعتين، حتى صار يورايا ذا سلطة بعد أن سلب السيد ويكفيلد صلاحياته، مشهدًا مؤلمًا بما يفوق قدرتي على وصفه. فلو أنني رأيت قردًا يقتاد رجلًا، لما كنت أحسبه مشهدًا أكثر إهانة ومذلة مما رأيته.

وبدا أنه أدرك في أعماق نفسه ما فعله تمامًا. ما إن دخل، حتى وقف ساكنًا وقد أحنى رأسه مستشعرًا ما حل به. لم يدُم هذا المشهد سوى لحظة واحدة، إذ قالت أجنيس بهدوء: «يا بابا، ها هي الآنسة تروتوود، وها هو تروتوود الذي لم ترَه منذ فترة طويلة»، اقترب مني، ثم مد لي يده مصافحًا عمتي، وصافحني بقدر أكبر من الحرارة والترحاب. أما لحظة السكون التي تحدثت عنها، فإني قد لاحظت خلالها وجه يورايا إذ يرسم ابتسامة شديدة القبح. وأحسب أن أجنيس قد لاحظت ابتسامته البغيضة أيضًا، لأنها انزوت مبتعدة عنه.

رأته عمتي، أو ربما لم ترَه، وإني لأتحدى علم وعلماء الفراسة في أن يسنوا قوانينهم من دون موافقتها، وأحسب أنه لم يظهر إنسان قَطُّ بمثل هذا المظهر الراسخ الذي تحدده وفقًا لمزاجها، فيصير وجهها حائطًا مصمتًا في مناسبات بعينها، من دون أن ينفذ من ملامحها أي ضوء يشير إلى أفكارها، حتى قطعت الصمت كعادتها بمفاجأة.

راحت عمتي تتحدث إلى السيد ويكفيلد، وقد نظر إليها للمرة الأولى منذ زيارته، فقالت: «حسنًا يا ويكفيلد، لقد أخبرت ابنتك كيف أتصرف بحكمة في أموالي الخاصة؛ لأنني لم أستطع الاعتماد عليك لإدارتها، بعد أن صرت تعاني من صدأ في التفكير حول الأمور التجارية. كنا نتشاور معًا، ونتدبر الأمور بشكل جيد، مع مراعاة لجميع الملابسات. إن أجنيس في رأيي تستحق إدارة عمل المكتب بأكمله».

قال يورايا هيب وهو يلوي جسده: «إذا كان بإمكاني أن أدلي بتعليق، فإنني أتفق تمامًا مع الآنسة بيتسي تروتوود، وإنني سأسعد أيما سعادة لو أن الآنسة أجنيس صارت شريكة بالمكتب».

قالت عمتي: «إنك شريك، وكما تعلم هذا الأمر يكفيك على حد ظني. كيف حالك يا سيدي؟».

اعترافًا بهذا السؤال، الموجه إليه باقتضاب غير عادي، أجاب السيد هيب، وهو يمسك بحقيبته الزرقاء التي يحملها في هيئة مضطربة، بأنه على ما يرام، ثم شكر عمتي، داعيًا أن تكون هي الأخرى في خير حال.

ثم تابع يورايا كلامه قائلًا: «وأنت يا سيد، بل يجب أن أقول، السيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون في أفضل حال. فكم يسعدني أن أراك، أيها السيد كوبرفيلد، وإن كانت مقابلتك في ظل الظروف الحالية». يبدو أنه كان محقًّا في قوله إذ بدا عليه الاستمتاع بها. «إن الظروف الحالية ليست ما يتمناه الصديق لصديقه، يا سيد كوبرفيلد، لكن المال لا يصنع الرجال». راح يورايا يتحدث بلهجة غرور حمقاء قائلًا: «إنني غير كفء حقًّا مع ضعتي اللا متناهية للتعبير عن الأمر، لكنه ليس المال ما يصنع الرجال».

صافحني بعد هذا القول، لكن طريقته لم تكن كالمصافحة المعتادة، إذ وقف على مسافة بعيدة مني، ثم رفع يدي لأعلى وأنزلها إلى أسفل مثل مقبض المضخة. يخاف من ملامستي إلى حد ما.

أضاف موضحًا فكرته فإذا به يقول: «ما رأيك يا سيد كوبرفيلد -يجب أن أناديك بـ: أيها السيد- ألا ترى أن السيد ويكفيلد في ازدهار يا سيدي؟ إن السنوات التي تنقضي في شراكتنا لا تشير يا سيد كوبرفيلد إلا إلى ارتقائنا وانتشالنا من الضعة - أقصد أنا وأمي - وأننا في تطور. كما تزداد الآنسة أجنيس جمالًا».

راح يتلوى بعد هذه المجاملة، بطريقة لا تُطاق، إلى الحد الذي جعل عمتي - التي كانت تجلس تنظر إليه مباشرة - تفقد صبرها.

قالت عمتي في صرامة: «ليرحل الشيطان مع هذا الرجل، ما الذي يقصده؟ لا تكن كالكهرباء يا سيد».

قال يورايا: «أستميحكِ عذرًا يا آنسة تروتوود. أعلم أنكِ متوترة».

قالت عمتي بغضب عارم: «دعك من هذا الكلام يا سيد، لا يفترض بك قول ذلك، لست متوترة ولا أدَّعي شيئًا من هذا القبيل. فإذا كنت ثعبان البحر، يا سيدي، فلتتصرف مثله. أما إن كنت رجلًا، أفلا تتحكم في أطرافك يا سيد؟! يا إلهي».

انتاب السيد هيب الخجل، كما يحدث لمعظم الناس حين يتعرضون لمثل هذا الموقف المفاجئ، خاصة أن موقفه ازداد حرجًا بعد الطريقة الغاضبة التي تحركت بها عمتي وهي جالسة فوق كرسيها، وقد هزت رأسها كما لو أنها على وشك الانقضاض عليه. إلا أنه راح يقول لي بصوت وديع:

«إنني أدرك جيدًا يا سيد كوبرفيلد أن الآنسة تروتوود سيدة رائعة، إلا أنها ذات مزاج متقلب وسريعة الغضب. أظن أنني تشرفت بمعرفتها حين كنت كاتبًا وضيعًا، وقبل أن تعرفها أنت يا سيد كوبرفيلد، وإنني على يقين بأن ما يحدث الآن في ظل الظروف الحالية هو أمر طبيعي. ويا للعجب إذ إن مزاجها أسوأ مما أبدته لي بكثير! لم آتِ إلا لأعرض عليكم أي مساعدة يمكننا القيام بها في الظروف الحالية، سواء من جانب أمي أو من جانبي، أو من جانب مكتب ويكفيلد وهيب، لأننا نتشرف بتقديم العون حقًّا». ابتسم يورايا ابتسامة سقيمة ثم وجه كلامه إلى شريكه قائلًا: «فهلا سمحتَ بقبول كلامي هذا!».

قال السيد ويكفيلد بطريقة رتيبة ومصطنعة: «إن يورايا هيب نشيط في أعماله يا تروتوود. وإنني أتفق تمامًا معه فيما يقول. إنك تعلم أنني

أهتم بأمرك منذ القدم، وبصرف النظر عن ذلك، فإنني أتفق تمامًا مع ما يقوله يورايا».

راح يورايا يرفع إحدى رجليه ليضعها فوق الأخرى، مخاطرًا بالتعرض لثورة أخرى من عمتي، وإذا به يقول: «آه، يا لهذه الثقة! إنها ونعم الأجر. إلا أنني أرجو أن أكون قادرًا على فعل شيء لتخفيف متاعب العمل يا سيد كوبرفيلد».

قال السيد ويكفيلد، بالنبرة الباهتة ذاتها: «إن يورايا هيب محل ثقة بالنسبة لي. لقد أزاحت شراكتي لرجل مثله ثقل التفكير في كثير من الأعباء».

كنت أعلم أن مكر هذا الثعلب الأحمر هو ما دفعه إلى هذا القول، ليستعرضه أمامي تحت ضوء يشبه ذاك الضوء الذي لاحظته حوله في ليلة غبراء سمَّم فيها راحتي. رأيت الابتسامة البغيضة نفسها ترتسم على وجهه من جديد، ولاحظت الطريقة التي يرمقني بها.

قالت أجنيس بنبرة قلقة: «لن ترحل يا أبي، ألن تتمشى مع تروتوود ومعي؟».

أظن أنه كان سيلتفت إلى يورايا قبل أن يرد، لو لم يسرع يورايا برد مخالف لتوقعه.

قال يورايا: «إنني مضطر إلى إنجاز مهمة تخصني. ولولا انشغالي لفضَّلت أن أبقى مع أصدقائي. سأترك شريكي ممثلًا عن وجودنا. يا آنسة أجنيس، إنني تحت أمركِ في أي وقت. أتمنى لك يومًا سعيدًا يا

سيد كوبرفيلد، وأبعث بوافر تحياتي إلى الآنسة بيتسي تروتوود».

انصرف بعد هذه الكلمات، وقد قبَّل يده الضخمة مبديًا قناع وجهه الزائف أمامنا.

جلسنا لنتحدث عن أيامنا الخوالي الممتعة في كانتربري، واستمر حديثنا لساعة أو ساعتين. ما إن ترك السيد ويكفيلد مع أجنيس، حتى ارتد إلى طبيعته القديمة، على الرغم من سمات الاكتئاب المستقرة على قسماته، والتي لم يستطع التخلص منها قَطُّ. استضاء وجهه على الرغم من كل شيء، وبدت عليه سعادة واضحة بعد أن سمعنا نتذكر أحداثًا صغيرة مرت بنا، وكأنه لم يزل يتذكر الكثير منها خير تذكر. قال إن هذه الأوقات التي ينفرد فيها بي وبأجنيس مرة أخرى تجعله يتمنى ألا تفارقه أبدًا بل ترافقه إلى الجنة. وإنني على يقين من أن تأثير أجنيس الهادئ، ولمسة يدها الحانية على ذراعه، كان لهما أثر المعجزات على قسمات وجهه.

أما عمتي، فكانت مشغولة طوال هذا الوقت في الغرفة الداخلية مع بيجوتي، ولم ترغب في مرافقتنا إلى المكان الذي يقيمان فيه، لكنها أصرت على ذهابي معهما، ومن ثَم ذهبت. تناولنا العشاء معًا. ما إن انتهينا من الطعام حتى جلست أجنيس بجانبه، كما اعتادت أن تجلس قديمًا وقدمت له النبيذ. شرب ما قدمته له كالطفل من دون أن يُعلِّق على أفعالها بكلمة واحدة. جلسنا جميعًا مع حلول المساء عند النافذة. بات الليل وشيكًا، فاستلقى على الأريكة، وقد وضعت أجنيس الوسادة تحت رأسه، وراحت تنحني لتطمئن عليه من وقت لآخر. عادت لتجلس إلى

النافذة، ولم يكن الليل قد أسدل أستاره كاملة، فإذا بي ألحظ الدموع تتلألأ في عينيها.

أدعو الله ألا أنسى هذه الفتاة العزيزة أبدًا؛ إنها لنادرة في حبها وصدقها. لو أنني نسيت دورها في ذاك الوقت من حياتي، فإني بلا شك سأكون قد اقتربت من نهاية حياتي، وإلا فإني سأتذكرها دومًا بكل خير. لقد ملأت قلبي بوافر العزم، وعززتني على ضعفي، وجعلت من نفسها قدوة أحتذي بها. كانت خير مرشد ومعين، ولا أعرف كيف كانت متواضعة ولطيفة إلى هذا الحد الذي جعلها تسدي إليَّ نصائحها بقليل من العبارات. لقد روضت حماسي الأهوج ورتبت أهدافي المبعثرة بداخلي. إن كل خير فعلته ولو كان يسيرًا، وكل ضرر منعته عني، يفرضان عليَّ أن أشير إلى فضلها.

راحت تتحدث معي عن دورا وهي جالسة عند النافذة في ذلك الظلام. استمعت إلى مديحي لها، وثنائي عليها مرة تلو أخرى، فإذا بها تتجول حول شخصية تلك الجنية الصغيرة وتلقي بعض لمحات من نور نقي وثناء، مما جعلها تبدو لعيني أعز وأنقى. آه يا أجنيس، يا شقيقة طفولتي، لو عرفت حينها ما صرت أعرفه بعد ذلك بوقت طويل!

نزلت فالتقيت شحاذًا في الشارع، وعندما أدرت رأسي نحو النافذة، حتى أفكر في عينيها الملائكيتين الهادرتين، إذ بي أغمغم، كما لو أن صدى كلمات عمتي ترن بأذني: «أعمى، أعمى، أعمى».

# الفصل السادس والثلاثون

## حماسة

بدأت اليوم التالي بالغطس مرة أخرى في الحمام الروماني، ثم توجهت إلى هايجيت. لم أعد أشعر بالإحباط بعد اليوم. لم أعد خائفًا من مظهر المعطف الرث، وانقشع اشتياقي لامتطاء فرس رمادي شجاع. لقد تغيرت طريقة تفكيري بالكامل في محنتنا الأخيرة. كان عليَّ أن أبرهن لعمتي أن ماضيها لم يُهدر ولم يؤول إلى جحود ونكران. كان عليَّ أن أستدعي ما عانيت من ألم في أيام شبابي، وأعاود العمل بقلب حازم وعزم ثابت. كان عليَّ أن أمسك بفأس الحطاب بين يدي، وأشق لنفسي طريقًا وسط غابة المحنة، فأقطع الأشجار حتى أصل إلى دورا. رحت أواصل مسيرتي بخطى متزايدة، كما لو أنني أنفذ ما فكرت فيه بالمسير.

وجدت نفسي على طريق هايجيت المألوف، أتابع مهمة مختلفة عن التي اعتدت القيام بها في استمتاع. بدا لي أن تغييرًا كاملًا طرأ على حياتي بأسرها، إلا أن عزيمتي لم تخُر. لقد ظهر في حياتي الجديدة

هدف جديد، وعزم فريد. كان العمل عظيمًا، وجزاؤه لا يقدر بثمن. إن دورا هي المكافأة، ولا مفر من أن أظفر بها.

ما إن استسلمت إلى هذه الفكرة، حتى شعرت بأسف شديد إذ لم يكن معطفي رثًّا. أردت أن أقطع الأشجار في غابة المحنة، وفي ظل ظروف جديرة بأن تثبت قوتي. فكرت في أن أطلب من رجل عجوز يرتدي نظارة من السلك، ويكسر حجارة على الطريق، أن يقرضني مطرقته لفترة قصيرة، حتى أبدأ في شق طريق بين الجرانيت لأصل إلى دورا. لقد حفَّزت نفسي بحماسة متقدة، ولهثت إلى الحد الذي شعرت فيه بأنني ظفرت بشيء لا أعرف قدره.

سيطرت عليَّ هذه الحالة، وإذا بي أتوجه إلى بيت رأيته أمامي وكان معروضًا للإيجار، فرحت أتفحصه بدقة، لأنني شعرت أنه من الضروري أن أصير عمليًّا. أحسست أنه مناسب للعيش مع دورا إلى حد بعيد. تتقدم البيت حديقة صغيرة؛ سيتجول فيها جيب وينبح على الباعة الجائلين من خلف أسوارها. كما يحوي البيت غرفة كبيرة في الطابق العلوي تصلح لعمتي. خرجت إلى الشارع مرة أخرى، وقد ازدادت حماستي، فأسرعت الخطى وانطلقت متجهًا إلى هايجيت، حتى وصلت مبكرًا قبل الموعد بساعة كاملة من دون أن أعمد إلى ذلك. كان الأولى بي أن أتنزه لتهدئة نفسي، قبل أن أصلح من هندامي.

صار أول اهتماماتي أن أعثر على بيت الدكتور، خاصة بعد أن انتهيت من تحضير نفسي وتهيأتها. لم يكن البيت في هذه الناحية من هايجيت حيث تعيش السيدة ستيرفورث، ولكنه يقبع في الجانب الآخر

من المدينة الصغيرة. ما إن أدركت الأمر حتى عدت، في جاذبية لم أستطع مقاومتها، إلى ممر بجوار بيت السيدة ستيرفورث، ورحت أنظر متطلعًا من إحدى زوايا جدار الحديقة. رأيت غرفته عن قرب، وكانت مغلقة. كانت أبواب الحديقة مفتوحة، وكانت روزا دارتل تمشي حاسرة الرأس، بخطوات سريعة متهورة، ذهابًا وإيابًا فوق الحصى بجانب العشب. لاحت أمامي كما الوحش المفترس؛ يجرجر أغلاله جيئة وذهابًا في حيز خاضع للضرب، وقد انفجر قلبه بين جوانحه.

تراجعت في هدوء مبتعدًا عن مكان مراقبتي، وتجنبت هذا الجزء من الحي، راجيًا ألا أقترب منه. رحت أتمشى حتى العاشرة صباحًا. لم تكن الكنيسة ذات البرج النحيف التي تلوح على قمة التل الآن، قد بنيت بعد حتى تُعلِمني بالوقت. كان في مكانها قصر قديم من الطوب الأحمر استخدم كمدرسة، وإني لأتذكر منزلًا قديمًا أيضًا يبدو أنه كان ملحقًا بالمدرسة.

اقتربت من كوخ الدكتور، فإذا به مكان قديم جدًّا، بدا أنه أنفق عليه بعض المال لترميمه، إذ كان بإمكاني ملاحظة الزخارف والإصلاحات التي لاحت كما لو أنها اكتملت للتوِّ. رأيته يمشي على جانب الحديقة، بالطماق نفسه وكل شيء اعتدته فيه، كما لو أنه لم يتوقف عن سيره منذ أيام تلمذتي. صاحبه رفاقه القدامى أيضًا، فأحاطت به أشجار كثيرة عالية، ولاح غرابان أو ثلاثة غربان تقفز فوق العشب، كما لو أنها تعتني به، أو كما لو أن الغربان في كانتربري قد كتبت عنه، فراحت تراقبه عن كثب وتتفحصه.

أدركت في يأس أنه لا سبيل إلى جذب انتباهه من تلك المسافة مطلقًا، فتجرأت على فتح البوابة، والسير وراءه، حتى ألتقي به عندما يستدير. استدار ثم توجه نحوي، وراح ينظر إليَّ بتمعن بضع لحظات. كان من الواضح أنه لم يكن يتوقع مقابلتي على الإطلاق، إلا أن وجهه الطيب تهلل برؤيتي معبرًا عن سعادة غير عادية انتابته، ثم تناولني بكلتا يديه مُرحبًا.

قال الدكتور: «أهذا أنت يا كوبرفيلد العزيز، أهذا أنت يا رجل! كيف حالك؟ كم يسعدني أن أراك يا كوبرفيلد العزيز، كم تغيرت وتطورت! إنك كما أنت تمامًا - نعم - آه يا للعجب!».

رجوت أن يكون في أفضل حال، هو والسيدة سترونج أيضًا.

قال الدكتور: «آه يا عزيزي، نعم، إن آني بخير، وستسعد برؤيتك أيما سعادة. إنك تحوز مكانة عالية عندها، فقد قالت ذلك أمس، بعدما أطلعتها على رسالتك. أي - نعم، بالتأكيد- هل تتذكر السيد جاك مالدون يا كوبرفيلد؟».

«أتذكره بالطبع يا سيدي».

قال الدكتور: «بالطبع، تتذكره بلا شك. إنه في خير حال أيضًا».

سألته: «هل عاد إلى المنزل يا سيدي؟».

قال الدكتور: «أتقصد عاد من الهند؟ نعم. لم يستطع السيد جاك مالدون تحمل طبيعة المناخ هناك يا عزيزي. والسيدة ماركلهام - ألم تزل تذكر السيدة ماركلهام؟».

هل أنسى الجندي العجوز؟! كيف أنساها في هذه الفترة القصيرة؟!

قال الدكتور: «إن السيدة ماركلهام كانت قد اغتاظت منه أيما غيظ، ويا له من أمر مؤسف! لذلك أعدناه إلى الوطن مرة أخرى، ثم اشترينا له مكانًا صغيرًا ليعمل فيه، وقد انسجم مع عمله الجديد وارتضى به». كنت أعرف ما يكفي عن السيد جاك مالدون، فلا أشك في أن هذا العمل لم يكن سوى عمل هين، بينما يتقاضى عليه أجرًا وفيرًا. راح الدكتور يسير ذاهبًا وآيبًا، واضعًا يده على كتفي، بينما يتهلل وجهه اللطيف في وجهي.

تابع الدكتور قائلًا: «الآن يا عزيزي كوبرفيلد، لنعود إلى اقتراحك. إنني متأكد من أنه أمر ممتع للغاية ومقبول عندي، لكن ألا تظن أنك تستطيع القيام بعمل أفضل؟ لقد حققت تميزًا، كما تعلم، عندما كنا معًا. وإنك لمؤهل للقيام بالكثير من الأعمال الجيدة. لقد وضعت لنفسك حجر الأساس ويمكنك أن تبني عليه صرحًا. أليس من المؤسف أن تكرس ربيع شبابك لمثل هذا العمل الرديء الذي أقوم به؟».

صرت متهللًا مرة أخرى، وإن كنت خائفًا من التعبير عن احتياجي في تعسف، أو أن أكون قد ألححت على طلبي بإصرار، فذكَّرت الدكتور بأنني أمتهن عملًا بالفعل.

قال الدكتور: «حسنًا، هذا صحيح. إنك بلا شك تشغل مهنة وقد انخرطت فعليًّا في دراستها، مما يجعل وضعك مختلفًا، لكن يا صديقي الشاب، ماذا تفعل سبعون جنيهًا في السنة؟».

قلت: «إنها تضاعف من دخلنا يا دكتور سترونج».

أجاب الدكتور: «عجبًا! إنني أفكر في الأمر ولا أقصد أن أقول إن الأمر سيقتصر على حصولك على سبعين جنيهًا في السنة، لأنني كنت أفكر دائمًا في تقديم هدية للصديق الشاب الذي سأسند إليه هذه الوظيفة». أكمل الدكتور كلامه بينما نمشي معًا ذهابًا وإيابًا ولم تزل يده تعلو كتفي: «لقد خصصت بلا شك هدية سنوية، ووضعتها دومًا في الاعتبار».

رحت أتحدث في هذه اللحظات بجد لا هزل فيه، فقلت: «أنت معلمي العزيز الذي أدين له بفضل بالغ يفوق قدرتي على تقديم العرفان له إلى الأبد».

قاطعني الدكتور قائلًا: «لا، لا. العفو».

«لو أنك وظفتني في وقت فراغي الصباحي والمسائي، وحسبت أن سبعين جنيهًا إسترلينيًّا في السنة أجر ترضاه، فسوف تقدم لي خدمة جليلة لا يمكنني الوفاء بحقها».

قال الدكتور بسذاجة: «يا للعجب! أحسب أن هذا الأجر نزر يسير جدًّا أمام هذا العطاء، آه يا ربي رحماك، أما إن استطعت العمل في مهنة أفضل، فهل ستفعل ذلك؟ هل تتعهد إليَّ بذلك الآن؟». كانت هذه هي طريقة الدكتور التي طالما ناشدَنا بها نحن تلاميذه بالقسم معتدًّا بشرفنا.

وأجبت على طريقة مدرستنا القديمة فقلت: «أعدك يا سيدي».

قال الدكتور وهو يربت على كتفي: «وهو كذلك».

ظلت يده تعلو كتفي، ولم نزل سائرين ذهابًا وإيابًا، حتى قلت له في نوع من المجاملة البريئة: «وستتضاعف سعادتي عشرات المرات يا سيدي لو أنك أشركتني في العمل على استكمال القاموس».

توقف الدكتور، ثم ربت على كتفي مرة أخرى بابتسامة، وراح يصرخ بنبرة انتصار مبهج، كما لو أنني قد توغلت في أعماق الحكمة البشرية، فقال: «يا صديقي الشاب العزيز، لقد أصبت القول. إنه القاموس».

كيف يمكن أن يكون العمل أي شيء آخر؟ لقد كانت جيوبه مثل رأسه مكتظة به. كانت أفكاره عن القاموس تكاد تفيض منه في كل الاتجاهات. أخبرني أنه منذ تقاعده من مهنة التدريس راح يتقدم فيه بشكل رائع، وأنه لا شيء أفضل من ترتيب الأدوار للعمل فيه صباحًا ومساءً، لأنه اعتاد أن يتجول في ساعات النهار مرتديًا قبعته ومستغرقًا في التفكير. كانت أوراقه مبعثرة إلى حد ما، بسبب أن السيد جاك مالدون قد قدم مؤخرًا خدماته المتناهية باعتباره أمينًا على أوراقه، لكنه لم يكن معتادًا على هذه المهنة فاختلطت الأوراق. إلا أننا سنصلح ما اختلط قريبًا، وسنواصل السباحة في مهمتنا. قسمنا العمل بعد ذلك بإنصاف، فوجدت أن جهود السيد جاك مالدون أكثر إزعاجًا لي مما توقعت، لأن عمله لم يقتصر على ارتكاب العديد من الأخطاء، بل راح يرسم كثيرًا من الجنود ورؤوس السيدات على صفحات مخطوطة الدكتور، والتي غالبًا ما ورطتني في متاهات من الغموض.

كان الدكتور سعيدًا للغاية بفكرة انضمامنا للعمل معًا على هذا

الإنجاز الرائع، ومن ثَم اتفقنا على أن نبدأ في صباح اليوم التالي في الساعة السابعة. كنا سنعمل لساعتين كل صباح، ثم نستأنف العمل لساعتين أو ثلاث ساعات ليلًا، فيما عدا أيام السبت حيث أرتاح من العمل، بالإضافة إلى إجازتي في أيام الأحد بالطبع، فاعتبرت هذه الشروط سهلة ميسرة.

رتبنا خطة العمل على هذا النحو الذي يرضينا جميعًا، ثم اصطحبني الدكتور إلى المنزل ليقدمني إلى السيدة سترونج، فوجدناها في مكتب الدكتور الجديد، تنفض الغبار عن كتبه، وهي منحة لم يهبها لأي إنسان آخر، فلا أحد يلمس مقدساته الحبيبة.

كانوا قد أجلوا تناول الإفطار انتظارًا لقدومي، فجلسنا إلى المائدة معًا. لم يطل مجلسنا حتى بدا على وجه السيدة سترونج أنها تنتظر وصول شخص ما قبل أن أسمع أي صوت يعلن عن قدومه. أقبل إلى البوابة رجل نبيل ممتطيًا ظهر خيله، ثم قاده إلى الساحة الصغيرة، مدليًا اللجام فوق ذراعه، كما لو أنه في منزله تمامًا، ثم ربطه حول حلقة في جدار الإسطبل الفارغ، ودخل حجرة الطعام، حاملًا السوط في يده. كان القادم هو السيد جاك مالدون. وأحسب أن حال السيد جاك مالدون لم تتحسن على الإطلاق، فلبث كما كان قبل سفره إلى الهند. كنت حينها في حالة اهتياج شرس، ناقم على الشباب الذين لم يشقوا طريقهم بين الأشواك في غابة المحن، وكان يجب أن أتغاضى عن هذا الانطباع الذي استولى عليَّ.

قال الدكتور: «إنه السيد جاك، وهذا كوبرفيلد».

صافحني السيد جاك مالدون، لكن مصافحته خلت من الحرارة التي تخيلتها، بل كانت أقرب إلى المجاملة الفاترة، مما جعلني أسر في نفسي استياءً بالغًا. أما فتوره برمته فبدا مشهدًا مذهلًا، إذ لم يفارقه إلا حين خاطب ابنة عمه آني.

قال الدكتور: «هل تناولت فطورك هذا الصباح يا سيد جاك؟».

أجابه وقد طوح رأسه إلى الخلف مستندًا إلى الكرسي: «نادرًا ما أتناول الإفطار يا سيدي. أجد أنه يضجرني».

سأل الدكتور: «هل ثمة أخبار جديدة اليوم؟».

أجاب السيد مالدون: «لا جديد على الإطلاق يا سيدي، سوى حديث متناقل عن الجوع والسخط في شمال البلاد، لكن ثمة جائعين وساخطين دومًا في أي مكان».

لاحت على الدكتور سمات الجد، كان كمن يرغب في تغيير الموضوع، فقال: «إذن لا جديد على الإطلاق. يقولون إن انعدام الأخبار ليس إلا خبر سار».

عقب السيد مالدون قائلًا: «إن تقريرًا طويلًا في الصحف يدور حول جريمة قتل يا سيدي. لكن إنسانًا ما يُقتل دائمًا، ولذا لم أقرأه».

أفترض أن إظهار اللا مبالاة تجاه كل تصرفات ومشاعر الجنس البشري صفة معيبة في ذلك الوقت، ومشينة على حد ظني، وكما أدركت منذ زمن. لقد عرفت أن هذه اللا مبالاة صارت عرضًا بالفعل، إذ رأيت هذه السمة تظهر متفوقة على غيرها، عندما قابلت بعض السيدات

والسادة المحترمين، ممن كان يجدر بهم أن يولدوا على هيئة حشرات، ربما أثار هذا التصور دهشتي، إذ كان أمرًا جديدًا عليَّ، لكنه بالتأكيد لم يغير رأيي أو يعزز ثقتي في السيد جاك مالدون.

قال السيد مالدون ملتفتًا نحو آني: «جئت لأسأل عما إذا كانت آني ترغب في الذهاب إلى الأوبرا الليلة. إنها آخر ليالي الأنس في هذا الموسم، وستنشد فيها مغنية جديرة بأن تسمعها حقًّا. إنها رائعة الصوت إلا أنها قبيحة المظهر في تكوين عجيب». أنهى جملته ثم عاد إلى فتوره السابق.

التفت الدكتور إليها، وقد بدا عليه السرور بما يرجح أن يرضي زوجته الشابة، وقال: «يجب أن تذهبي يا آني. يجب أن تذهبي».

قالت للدكتور: «أفضل ألا أذهب. أفضل البقاء في المنزل، بل أستسيغ البقاء في المنزل أكثر من الخروج».

لم تلتفت آني إلى ابن عمها، وراحت تتحدث إليَّ فتسألني عن أجنيس، وما إذا كانت تستطيع أن تراها أم أنها لن تأتي في ذلك اليوم. كانت مرتبكة للغاية، حتى إنني تساءلت كيف يمكن للدكتور الذي راح يغمس خبزه في الزبدة أن يتعامى عن أشياء واضحة وجلية.

إلا أنه لم يلحظ شيئًا. أخبرها بلطف أنها لم تزل شابة تحتاج إلى التسلية والترويح، ويجب ألا تترك نفسها فريسة للملل بسبب وليفها العجوز البليد، علاوة على ذلك، أضاف أنه يريد أن يسمعها وهي تغني له أغنيات المطربة الجديدة كلها، فكيف يمكنها أن تغنيها سليمة، إن لم

تذهب لحفلتها؟ هكذا أصر الدكتور على أن تُحضِّر نفسها للذهاب إلى الحفل، وكان على السيد جاك مالدون أن يعود مرة ثانية لتناول العشاء معهما. انصرف السيد مالدون متجهًا إلى محل عمله على ما أظن، ممتطيًا ظهر حصانه، وقد بدا عليه الفتور والخمول.

شعرت بفضول في صباح اليوم التالي، لمعرفة ما إذا كانت آني قد ذهبت إلى الحفل أم لا. علمت أنها لم تفعل، لكنها أرسلت خطابًا إلى لندن لإعلام ابن عمها أنها لن تأتي، ثم خرجت بعد الظهيرة لزيارة أجنيس وأقنعت الدكتور أن يأتي معها. أخبرني الدكتور أنهما عادا إلى المنزل عبر طريق بين الحقول، وأن المساء كان بديعًا ممتعًا. تساءلت بعد ذلك؛ هل كانت ستذهب لو لم تكن أجنيس في المدينة؟ وهل كان لها أثر جيد عليها أيضًا؟!

أظن أنها لم تكن سعيدة، وإن كان وجهها يبدو هانئًا، أو أنها لم تُبدِ غير سمات من رضا زائف. رحت ألقي عليها نظرات خاطفة من وقت إلى آخر، فقد كانت تجلس عند النافذة طوال الوقت الذي نعمل فيه. راحت تعد لنا الفطور، الذي نتناول منه لقيمات خاطفة في أثناء عملنا. غادرت في التاسعة صباحًا، فإذا بي أراها راكعة عند قدمي الدكتور، تلبسه حذاءه وطماقه. لاح لي ظل ناعم أُلقي على وجهها من انعكاس ظلال بعض الأوراق الخضراء المتدلية من النافذة المفتوحة في الغرفة السفلى. رحت أفكر طوال الطريق إلى المكتب في الليلة التي رأيتها فيها تنظر إليه وهو يقرأ.

كنت منهمكًا في العمل في تلك الفترة. أستيقظ في الخامسة

صباحًا، وأعود في التاسعة أو العاشرة ليلًا. إلا أنني شعرت بارتياح لا يوصف لكوني منخرطًا في العمل عن كثب، ولم أكن أسير ببطء قَطُّ لأي سبب، بل شعرت بحماس جعلني أتصور أنني كلما تعبت صرت جديرًا بدورا. لم أفصح لدورا بعد عما حدث من تغير في شخصيتي، لأنها كانت قادمة لزيارة الآنسة ميلز في غضون أيام قليلة، ومن ثَم أجَّلت كل ما انتويت إخبارها به حتى ذلك الحين، واكتفيت بمراسلتي لها -كانت الرسائل بيننا تصل سرًّا عن طريق الآنسة ميلز- وقد أعلمتها بأنني سأخبرها بالكثير. رحت خلال هذه الفترة أقلل من عنايتي بنفسي، ومن الدهان، والصابون المعطر، وماء اللافندر الذي هجرته تمامًا، وبعت ثلاث صدريات بثمن زهيد، لأنها فاخرة للغاية وغير صالحة لعملي الشاق.

لم أكن راضيًا عن هذه الإجراءات برمتها، بل تحرقت نافد الصبر إلى فعل المزيد، فذهبت لزيارة ترادلز، وكان في ذاك الوقت يسكن في منزل خلف شارع كاسل في حي يسمى هولبورن. اصطحبت السيد دك معي، الذي رافقني مرتين قبل ذلك إلى هايجيت، واستأنف رفقته مع الدكتور.

أخذت السيد دك معي، لأنه صار حساسًا متأثرًا بمحنة عمتي، ومؤمنًا أنني صرت أعمل مثل عبد أو مدان، ومن ثَم راح القلق يسيطر عليه، وفقد ابتهاجه وشهيته، بعد أن أحس أنه لا يقوم بأي عمل مفيد. شعر في هذه الحالة أنه غير قادر على إنهاء مذكراته أكثر من أي وقت مضى، وأنه كلما بذل جهدًا أكبر محاولًا العمل أطل عليه رأس الملك

التعس تشارلز الأول. خيل إليَّ أن مرضه سيزداد، إلا إذا أقحمنا عليه بعض الخدع البريئة وجعلناه يتصور أنه يقوم بشيء مفيد، حتى لو لم نتمكن من وضعه في طريق مفيد حقًّا - وهو الأفضل - لذا فإنني اختلقت شيئًا لأصطحبه إلى ترادلز لعله يستطيع مساعدتنا. كتبت إلى ترادلز بيانًا كاملًا قبل ذهابنا إليه، وأخبرته فيه بكل ما حدث، وأرسل ترادلز لي إجابة وافية، معبرًا فيها عن تعاطفه وصداقته.

لقد وجدناه يعمل بجد أمام محبرته وأوراقه، منتعشًا بمنظر الزهرية والمائدة الصغيرة المستديرة القابعين في زاوية مسكنه الصغير. استقبلنا بترحاب حار، وانخرط في صداقة مع السيد دك في لحظة. أعلن السيد دك يقينًا أنه رآه من قبل، فقلنا معًا: «محتمل جدًّا».

كان الموضوع الأول الذي أردت استشارة ترادلز فيه هو أنني علمت أن الكثير من الرجال المتميزين في مختلف المساعي قد بدأوا حياتهم بتدوين مناقشات جلسات البرلمان، وكان ترادلز قد عدَّد لي هذه الصحف، وقال إن أحد آماله العمل بها. جمعت بين الأمرين معًا، وأخبرت ترادلز في رسالتي أنني أرغب في معرفة ما إذا كنت مؤهلًا للسعي في الحصول على هذه المهنة أم لا. أخبرني ترادلز في لقائنا إجابة سؤالي، فقال إن ثمة مهارة آلية واحدة تتطلبها هذه المهنة، ولا يُتجاوز عنها إلا في حالات نادرة، ألا وهي امتلاك مهارة الاختزال. كان التميز في الاختزال مساويًا في صعوبته لإتقان ست لغات، وربما يمكن اكتسابها بالمثابرة والتدرب في غضون بضع سنوات. افترض ترادلز أن هذه المهنة من شأنها أن تيسر لي أموري، لكنني أحسست أن ثمة بعض الأشجار

العالية تحول دون طريقي وما عليَّ سوى تسويتها، ومن ثَم قررت على الفور أن أشق طريقي نحو دورا ماضيًا في الغابة حاملًا فأسي.

قلت: «إنني ممتن جدًّا لك يا عزيزي ترادلز، سأبدأ غدًا».

بدا ترادلز مندهشًا، وكان محقًّا في اندهاشه، لأنه لم يدرك إلى هذه اللحظة مدى حماستي وإقدامي.

قلت: «سأشتري كتابًا به شرح وافٍ لهذه المهارة، وسأنكب عليه في مجلس العموم، حيث لا أجد ما أنشغل به، وسأعمل على تدوين جلساتنا في المحكمة كنوع من التمرن. يا صديقي العزيز ترادلز، فلتثق في أنني سأتقن الأمر».

قال ترادلز بعد أن جحظت عيناه: «عجبًا، لم أعرف أنك إنسان دؤوب إلى هذا الحد يا كوبرفيلد».

لا أعرف كيف كان عليه أن يعرف ذلك عني لأن الأمر كان جديدًا عليَّ. نحَّيت هذا الموضوع جانبًا، وطرحت موضوع السيد دك على طاولة المناقشة.

قال السيد دك بلهفة: «كما ترى، إذا كان بإمكاني أن أبذل نفسي في عمل يا سيد ترادلز، إذ من الممكن أن أقرع طبلة أو أنفخ في أي شيء، فإني سأفعل».

يا للمسكين! لا يساورني شك في أنه كان يفضل في أعماق قلبه أن يقوم بمثل هذا العمل على غيره. أجاب ترادلز الذي لم يستطع أن يبتسم في وجه العالم:

«لكنك كاتب حسن الخط يا سيدي. ألم تخبرني بذلك يا كوبرفيلد؟».

قلت: «إنه ممتاز». وقد كان ممتازًا بالفعل، وكان يكتب بدقة متناهية.

قال ترادلز: «ألا تظن أنك تستطيع نسخ المخطوطات يا سيدي، إذا جئت بها إليك؟».

نظر السيد دك إليَّ بريبة، وقال: «ما رأيك يا تروتوود؟».

هززت رأسي، وهز السيد دك، وتنهد، ثم قال: «أخبره عن المذكرات».

شرحت لترادلز مدى صعوبة إبقاء الملك تشارلز الأول بعيدًا عن مخطوطات السيد دك، فإذا بالسيد دك ينظر نحو ترادلز باحترام شديد وجدية ثم راح يمص إبهامه.

قال ترادلز بعد قليل من التفكير: «إنكم تعلمون أن مثل هذه الكتابات التي أتحدث عنها جاهزة بالفعل، ولا داعي لتدخل السيد دك في إتمامها. ألن يُحدث هذا فرقًا يا كوبرفيلد؟ وفي جميع الأحوال، أليس من الأفضل أن نحاول؟».

منحتنا هذه الفكرة أملًا جديدًا. رحت أنا وترادلز نفكر معًا، بينما راح السيد دك يراقبنا بقلق من فوق مقعده. أعددنا خطة واستطعنا بموجبها توجيهه إلى العمل في اليوم التالي بنجاح منقطع النظير.

جهزنا له العمل الذي أعده له ترادلز، فوضعناه على طاولة بجوار النافذة في شارع باكنجهام. كان من المفترض أن ينسخ عدة نسخ – نسيت

عددها - من مستند قانوني حول حقوق المرور. ثم وضعنا على طاولة أخرى آخر نسخة أصلية غير مكتملة من مذكراته الموقرة. كانت تعليماتنا إلى السيد دك أن ينسخ ما يراه أمامه بالضبط، من دون أدنى تحريف عن الأصل، وإذا شعر بضرورة التلميح بأدنى إشارة إلى الملك تشارلز الأول، فعليه أن ينتقل سريعًا إلى المذكرات. حثناه على أن يكون جادًّا في عمله، وأسندنا إلى عمتي مراقبته. أبلغتنا عمتي بعد ذلك، أنه كان في البداية مثل رجل يقرع على الطبول بعصوين، كما قسَّم انتباهه بين العملين، إلا أنه أدرك بعد فترة كم أن هذه الطريقة مربكة ومرهقة، فتناول المخطوط المطلوب نسخه بعد أن تجلى أمام عينيه واضحًا، فانكب على نسخة منتظمًا في العمل، وأجل كتابة المذكرات إلى وقت آخر ملائم. كنا باختصار حريصين أشد الحرص على ألا نشغله بشيء يفوق ما يستطيع الإفادة منه، وعلى الرغم من أنه لم يبدأ العمل منذ بداية الأسبوع إلا أنه كسب في ليلة السبت التالية عشرة شلنات وتسعة بنسات. ولن أنسى طوال حياتي توجهه إلى جميع المحلات التجارية في الحي لتغيير هذا الكنز إلى فئات الستة بنسات، ثم إحضاره إلى عمتي على شكل قلب مرصوص فوق صينية، وقد اغرورقت عيناه بدموع الفرح والفخر. لاح كمن سُحِر منذ اللحظة الأولى من توظيفه في عمل مفيد، وإذا وُجد رجل سعيد في العالم في ليلة السبت تلك، فقد كان المخلوق الممتن الذي آمن بأن عمتي أروع امرأة في الوجود، وبأنني أروع شاب فيه.

قال السيد دك وهو يصافحني في الزاوية: «إنني لا أتضور جوعًا بعد الآن يا تروتوود. سوف أعولها يا سيدي»، ثم طوح أصابعه العشر في

الهواء، كما لو أنها عشرة بنوك.

لم أعرف أيهما أكثر سعادة، ترادلز أم أنا. تحدث ترادلز بغتة، بعد أن أخرج رسالة من جيبه وناولها لي، قائلًا: «حسنًا، لقد كنت على وشك نسيان أمر السيد ميكوبر تمامًا».

كانت الرسالة موجهة إليَّ، إذ لم يفوت السيد ميكوبر قَطُّ أي فرصة ممكنة لكتابة رسالة لي بعد الاستئذان من ترادلز وتقديم الاحترام له، فقال:

«عزيزي كوبرفيلد،

لعلك غير مستعد لاستقبال تلميح بظهور أمر عارض، وربما ذكرت لك في موقف سابق أنني توقعت وقوع هذا الحدث.

إنني على وشك الاستقرار في إحدى قرى مقاطعات جزيرتنا العزيزة - حيث يمكن وصف المجتمع بأنه مزيج سعيد من الفلاحين والكهنة - وسأرتبط مباشرة بإحدى المهن المتعلقة بالتعليم. سترافقني السيدة ميكوبر مع ذريتنا، ربما تعثر على رفاتنا في المستقبل وقد امتزج في مقبرة بحفنة جليلة من تراب هذه البقعة التي أشرت إليها. هل يمكنني القول إنها بقعة معروفة من الصين إلى بيرو؟

وإني لمُودِّع بابل الجديدة[١]، حيث تناوبت علينا النوائب وكثرت علينا فيها المحن، وإني والسيدة ميكوبر لا نستطيع أن نتغافل عن أننا

(١) يصف المدينة التي انتقل إليها بأنها بابل الجديدة إشارة إلى أنه ذهب إليها كمنفى، كما ذكر في العهد القديم.

سنهجر لسنوات، بل ربما إلى الأبد، رجلًا تربطنا به علاقات قوية، وتضحيات في لب حياتنا المنزلية. فإذا سمحت بمرافقة صديقنا المشترك، السيد توماس ترادلز، إلى منزلنا الحالي في عشية يوم المغادرة لنتبادل الأمنيات الطيبة والمناسبة لهذه الظروف، فإنك ستمنح بقدومك البركة إلى

إنسان

صديق

إلى الأبد

ويلكنز ميكوبر».

كان من دواعي سروري أن وجدت أن السيد ميكوبر قد نفض عن كاهله الغبار والرماد، وأن شيئًا ما قد ظهر أخيرًا. علمت من ترادلز أن الدعوة أشارت إلى المساء، فأعربت عن استعدادي لتلبيتها، وانطلقنا معًا إلى المسكن الذي يقطنه السيد ميكوبر باسم السيد مورتيمر، والذي يقع بالقرب من نهاية شارع جريز آن.

كانت مساحة هذا السكن محدودة للغاية، حتى إننا وجدنا التوأم وقد صارا يبلغان الآن من العمر ثماني أو تسع سنوات، وإذا بهما ينامان في غرفة جلوس الأسرة. كان السيد ميكوبر قد أعد - في وعاء الغسيل - سائلًا أسماه «مشروبًا» من المشروبات اللذيذة التي اشتهر بها. وقد سعدت في هذه المناسبة بأن أجدد معرفتي بالسيد ميكوبر الذي لاح فتى واعدًا، يبلغ من العمر نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا، يتمتع بنشاط

في حركته مثل شباب هذه السن. كما أنني تعرفت من جديد على أخته الآنسة ميكوبر التي أخبرنا السيد ميكوبر عنها، فقال: «إن والدتها قد جددت فيها شبابها مثل العنقاء».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزي كوبرفيلد، ستجدنا أنت والسيد ترادلز على وشك الهجرة، وإننا لنعتذر عن أي مضايقات صغيرة تتعلق بهذا الأمر العارض».

ألقيت نظرة سريعة على المكان بينما أحاول التفكير في رد مناسب، فلاحظت أن أمتعة الأسرة جاهزة ومحزومة، وأنها لم تكن كبيرة الحجم بأي حال من الأحوال. هنأت السيدة ميكوبر على الإقدام على هذه الخطوة.

قالت السيدة ميكوبر: «عزيزي السيد كوبرفيلد، إنني واثقة تمامًا في اهتمامك الودي بجميع شؤوننا. قد تعتبر عائلتي أن هذا التغيير نفيًا، فليحسبوه كذلك إذا رغبوا، لكنني زوجة وأم ولن أتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا».

أبدى ترادلز موافقة على كلامها، بعد أن ناشدته عين السيدة ميكوبر أن يفصح عن رأيه.

قالت السيدة ميكوبر: «إنها ليست سوى وجهة نظري على الأقل يا عزيزي السيد كوبرفيلد ويا سيد ترادلز. لقد أخذت على نفسي عهدًا بعدما كررت كلمات ارتباطي به التي لا رجعة فيها، فقلت «أنا إيما، قبلت زواجك يا ويلكنز». لقد تلوت هذه الصلاة أمام شمعة ليلة

أمس، والنتيجة التي توصلت إليها هي أنني لم أستطع التخلي عن السيد ميكوبر. وإنني وإن كنت مخطئة في فهمي لطبيعة الزواج، إلا أنني لن أتخلى عنه أبدًا».

قال السيد ميكوبر بنفاد صبر: «يا عزيزتي، لا يراودني أدنى شك في أنكِ ستفعلين أي شيء من هذا القبيل».

أردفت السيدة ميكوبر قائلة: «إنني أعرف يا عزيزي السيد كوبرفيلد أنني الآن على وشك أن أخالط الغرباء، وأدرك أيضًا أن الكثير من أفراد عائلتي، الذين كتب إليهم السيد ميكوبر أجمل العبارات، معلنًا لهم هذه الحقيقة، لم يعيروا السيد ميكوبر اهتمامًا بالرد. وفي الواقع قد أكون ممن يؤمن بالخرافات، ولكن يبدو لي أن السيد ميكوبر مُقدَّر له ألا يتلقى أي إجابات مطلقًا مهما تفاقمت عدد رسائله إليهم. وأستخلص من صمت عائلتي أنهم معترضون على القرار الذي اتخذته، ولكنني لن أسمح لنفسي بالانحراف عن واجبي يا سيد كوبرفيلد، حتى ولو طلب أبي وأمي ذلك مني، لو أنهما على قيد الحياة».

أعربت عن رأيي فقلت إن الأمور تسير في الاتجاه الصحيح. قالت السيدة ميكوبر: «إن استقرار المرء في مدينة تشبه الكاتدرائية يعد نوعًا من التضحية، ولكن لا شك يا سيد كوبرفيلد أن مثل هذه التضحية لا تضاهي أبدًا تضحية رجل يتمتع بمواهب جمة مثل السيد ميكوبر».

قلت: «آه، هل ستذهبان إلى مدينة تشبه الكاتدرائية؟».

أجاب السيد ميكوبر الذي راح يقدم إلينا مشروبه من إبريق الغسيل اليدوي، فقال:

«سنذهب إلى كانتربري. وفي الواقع يا عزيزي كوبرفيلد، لقد اتخذت بعض الترتيبات وتعهدت بموجبها أن أتعاقد مع صديقنا هيب، لمساعدته وخدمته بصفتي كاتبه السري».

حدقت في السيد ميكوبر وقد بدا أنه استمتع بما رآه من دهشتي.

قال في لهجة رسمية: «إنني مدين بالاعتراف بأن التفكير العملي، والاقتراحات الحكيمة للسيدة ميكوبر، هي التي أدت إلى هذه النتيجة إلى حد كبير. إن القفاز الذي ألقته السيدة ميكوبر في مناسبة سابقة[١]، أُذيع خبره، ومن ثَم التقطه صديقي هيب، مما آل بنا إلى هذا التعاقد بيننا. أما صديقي هيب، فإنه رجل يتمتع بحنكة ملحوظة، وإني لأستحسن التحدث عنه بكل احترام ممكن. لم يحدد صديقي هيب أجرًا مجزيًا مرتفعًا للغاية، لكنه أسدى إليَّ الكثير للتخلص من الصعوبات المالية، في مقابل خدماتي الجليلة». راح السيد ميكوبر يُحقِّر من نفسه في افتخار، بطريقته القديمة اللطيفة المعهودة، فقال: «إنني أؤمن أنني سأقتطع مما أتمتع به من ذكاء ولباقة جزءًا لأعمل به، وسوف أكرسهما لخدمة صديقي هيب. إنني على علم ببعض مبادئ القانون - بصفتي مدعى عليه في قضايا مدنية - وسأقدم على الفور على دراسة أحد أبرز القانونيين الإنجليز وأكثرهم شهرة. أظن أنه لا ضرورة إلى أن أضيف أنني ألمح إلى القاضي السيد بلاكستون».

(١) كانت عادة إلقاء القفاز تعني الإقدام والشجاعة، والمقصود هو المبادرة وقبول التحدي.

قاطعت السيدة ميكوبر هذه الملاحظات، كما قاطعت بالطبع جزءًا لا بأس به من الملاحظات التي قيلت ذاك المساء، بعد أن اكتشفت أن ميكوبر الصغير جالس فوق حذائه، أو أنه ممسك رأسه بكلتا ذراعيه كما لو أنه يشعر بأن رأسه أجوف يتململ، أو بعد ركله لترادلز من أسفل الطاولة عن طريق الخطأ، أو تحريك قدميه فوق بعضهما البعض، أو إفساحهما لمسافات بعيدة مما يبدو شائنًا وغير طبيعي، أو مستلقيًا إلى جنبه وقد انحشر شعره بين كؤوس النبيذ، أو تململت أطرافه في شكل آخر غير لائق ولا تقبله أعراف المجتمع. أما سيد ميكوبر الصغير، فراح يستقبل تلك الاكتشافات بروح من الاستياء.

جلستُ طوال الوقت مندهشًا مما أفصح به السيد ميكوبر، ورحت أتساءل عن مغزى كلامه، حتى استأنفت السيدة ميكوبر الكلام، فصرفت انتباهي إليها.

قالت السيدة ميكوبر: «إن كل ما أطلبه بشكل خاص من السيد ميكوبر هو أن يتوخى الحذر يا عزيزي السيد كوبرفيلد، فلا تبعده دراسة هذا الفرع من القانون عن نطاق مواهبه، حتى يستطيع في النهاية أن يتسلق قمة أهدافه. وإنني على قناعة تامة بأن السيد ميكوبر عليه أن يبذل عقله ليتوصل إلى مهنة تتلاءم مع مواهبه الخصبة، وفصاحة لغته، وعليه أن يتميز عمن سواه». استطردت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة أكثر عمقًا الآن، فقالت: «أريد أن أستشيرك يا سيد ترادلز، ألا يصح للسيد ميكوبر أن يصير قاضيًا، أو مستشارًا؟ هل يستطيع الإنسان زج نفسه

خارج نطاق هذه الملابسات فيصير في منصب يتجاوز العمل الذي قبله السيد ميكوبر؟».

راح السيد ميكوبر يلقي نظرة فضولية على ترادلز وإذا به يقول: «يا عزيزي، إن أمامنا وقت كافٍ للبحث في هذه الأسئلة».

قالت: «لا يا ميكوبر، إن خطأك في هذه الحياة هو أنك لا تتطلع إلى المستقبل. إنك ملزم - إنصافًا لعائلتك وإن لم يكن لنفسك - بأن تتمتع بنظرة شاملة إلى أقصى نقطة في الأفق قد تقودك إليها قدراتك».

سعل السيد ميكوبر ثم احتسى مشروبه في جو من الرضا والأريحية، بينما لم تزل نظراته الخاطفة واقعة على ترادلز، كما لو أنه يرغب في سماع رأيه.

تحدث ترادلز، محاولًا التمهل في إظهار حقيقة رأيه، فقال: «إن الحالة الجلية لهذه القضية يا سيدة ميكوبر؛ أعني أن الحقيقة الواقعة، كما تعلمون تشير إلى...».

قاطعته السيدة ميكوبر قائلة: «يا عزيزي السيد ترادلز، لا أود سوى سماع الحقيقة، وأرجو أن تكون مجردة وخالية من الإسهاب قدر الإمكان في هذا الموضوع الذي يشغل أهمية كبيرة عندنا».

قال ترادلز: «إن هذا الفرع من القانون، حتى لو كان السيد ميكوبر محاميًا عاديًّا...».

عادت السيدة ميكوبر إلى مقاطعته قائلة: «بالضبط». («يا ويلكنز، إنك تحدق بعينيك ولن يمكنك أن تستعيد نظرك من جراء هذا التحديق»).

استأنف ترادلز قائلًا: «لا علاقة لهذا الفرع من القانون بأي شيء. إن المحامي دون سواه هو المؤهل لمثل هذه القضايا. أما السيد ميكوبر فلا يمكن أن يكون محاميًا من دون أن يلتحق بالدراسة القانونية لمدة خمس سنوات».

قالت السيدة ميكوبر، بأسلوبها العملي اللطيف: «هل أفهم مما تقول يا عزيزي السيد ترادلز أنه بعد انتهاء تلك الفترة، سيصير السيد ميكوبر مؤهلًا للعمل كقاضٍ أو مستشار؟».

أجاب ترادلز بتركيز قوي على هذه العبارة قائلًا: «سيصير مؤهلًا».

قالت السيدة ميكوبر: «شكرًا لك، فهذا كافٍ تمامًا. وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن السيد ميكوبر لن يخسر أي امتياز بالتزامه بهذه الواجبات، وقد هدأ قلقي الآن. إنني أتحدث بدافع أنثوي بالضرورة، بل كنت دائمًا أرى أن السيد ميكوبر يتمتع بشيء سمعته من أبي عندما كنت أعيش في منزله؛ شيء يُسمى «العقل القضائي»، وأرجو أن يلتحق السيد ميكوبر الآن بمجال يُطور فيه هذا العقل نفسه، ومن ثَم يبلغ مركزًا قياديًّا».

أحسب أن السيد ميكوبر رأى في نفسه هذه العقلية القضائية تمامًا، كما لو أنه قد التحق بالبرلمان، فمرر يده برضا على رأسه الأصلع، وقال باستسلام جلي:

«يا عزيزي، لن نعلم الغيب. إن صار مقدرًا لي ارتداء شعر مستعار، فإنني على الأقل مستعد لذلك». أشار هنا إلى صلعته المميزة، ثم قال:

«إنني لن أندم على فقدان شعري، فربما حُرمت منه لغرض معين. لا أستطيع أن أجزم بالأمر. إنني لأعتزم يا عزيزي كوبرفيلد على أن أعلم ابني حتى يخدم الكنيسة. ولن أنكر أنني سأفرح بدوري للوصول إلى مكانة مرموقة تساعدني على بلوغ مرادي».

قلت بينما أفكر بين الحين والآخر في يورايا هيب: «الخدمة الكنسية؟».

قال السيد ميكوبر: «نعم. إنه صاحب صوت بديع، وسيبدأ مرنمًا. ستُمكِّنه إقامتنا في كانتربري، ورفقتنا المحلية، من الاستفادة بلا شك من أي وظيفة شاغرة في الكاتدرائية».

نظرت إلى السيد ميكوبر الصغير مرة أخرى، فرأيت وجهه وقد اعتلاه تعبير خاص، كما لو أن صوته محتجز من وراء حاجبيه، بعد أن غنى لنا (أغنية بين الإنشاد والنوم) بحيث بدا لي صوته حشرجات «نقار الخشب». وبعد العديد من الإطراءات على هذا الأداء، جذبنا الحديث إلى بعض الموضوعات العامة. وكنت قد عجزت عن كتمان ما فاض داخلي من يأس من ظروف حياتي المتغيرة، لذا فقد رحت أقصها على السيد ميكوبر والسيدة زوجته. ولا أستطيع أن أعبر عن السعادة البالغة التي ظهرت عليهما بعد علمهما بما تواجهه عمتي من محن، مما جعلهما أكثر راحة وودًّا.

صرنا على وشك الانتهاء من مشروبنا الأخير، فوجَّهت نفسي شطر ترادلز، وذكَّرته بأن علينا ألا نفترق من دون أن نتمنى لأصدقائنا الصحة والسعادة والنجاح في حياتهم المهنية الجديدة. وطلبت من السيد

ميكوبر أن يملأ كؤوسنا لنشرب نخبهما، ثم صافحته من فوق الطاولة، وقبلت السيدة ميكوبر، لإحياء ذكرى هذه المناسبة الحافلة بالأحداث. قلدني ترادلز في الجزء الأول، لكنه لم يعتبر نفسه صديقًا قديمًا بما يكفي للقيام بالمغامرة بالثانية.

تحدث السيد ميكوبر وقد دس إبهاميه في جيبي صدريته، فقال: «يا عزيزي كوبرفيلد، يا رفيق شبابي - إن جاز التعبير - ويا صديقي المحترم ترادلز - إذا سمحت لي أن أدعوك بهذه الصفة - فلتسمحا لي أن أتحدث باسم السيدة ميكوبر، وباسمي، وباسم ذريتنا، فأشكركما بأحر العبارات الصادقة على هذه الأمنيات الطيبة». راح السيد ميكوبر يتحدث كما لو أنهم سيقطعون خمسمائة ألف ميل، فاستطرد قائلًا: «إنه لمن المتوقع في عشية الهجرة التي ستدفعنا إلى حياة جديدة تمامًا، أن أقدم بعض الإطراءات لاثنين من أعز الأصدقاء إلى قلبي. إلا أني أريد أن أقول إنه أيًا كانت المكانة التي قد أحرزها في المجتمع، من جراء منافع المهنة التي صرت على وشك الالتحاق بها، فإني سأسعى جاهدًا ألا أخذل مكانتي، وستعمل السيدة ميكوبر على تزيينها. وقد كنت تحت ضغط مؤقت بسبب الأزمات المالية، التي قيَّدتني لسداد مستحقاتها على الفور، ولكنها ظلت عالقة بسبب بعض الظروف، فكنت مضطرًا إلى الظهور في مظهر يتنافى مع طبيعتي -وإني لأقصد النظارة- كما دفعتني إلى حمل اسم لا أستطيع أن أؤسس عليه أي إجراءات قانونية. وكل ما أستطيع قوله في هذا الصدد هو أن السحابة قد انقشعت بهذا المشهد الكئيب، وبرز رب النهار مرة أخرى على قمم الجبال. فلن يحل

يوم الاثنين المقبل، إلا وتصل العربية في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى كانتربري، فتدب قدمي فوق موطني الأصلي وأسترد اسمي؛ ميكوبر».

عاد السيد ميكوبر إلى مجلسه في نهاية حديثه، ثم شرب كأسين متتاليتين من شراب البانش. ثم قال في وقار شديد:

«ثمة شيء آخر يجب أن أفعله قبل أن نفترق، وهو عمل يقتضي العدالة. لقد وضع صديقي السيد توماس ترادلز «اسمه» في مناسبتين -إذا كان بإمكاني استخدام هذا التعبير الشائع، حيث دون اسمه في سندات صرف خاصة بإيجار محل إقامتي. تعرض السيد توماس ترادلز في المرة الأولى- دعني أقول باختصار - لصدمة أمام هذا الدين. أما الدين الثاني فلم يحن موعد سداده بعد. كان المبلغ الأول المستحق...». وهنا أشار السيد ميكوبر بعناية إلى أوراق أمامه، ثم قال: «أحسب أنه ثلاثة وعشرون جنيهًا، وأربعة شلنات، وتسعة بنسات ونصف، أما مقدار الدين الثاني وفقًا لأوراقي المدونة، فيبلغ ثمانية عشر جنيهًا، وستة شلنات، وبنسين. وهذه المبالغ مجتمعة، تصل إجمالًا -إذا كان حسابي صحيحًا- إلى واحد وأربعين جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف. وأفضل أن يقدم صديقي كوبرفيلد معروفًا لي فيتحقق من هذا المجموع».

راجعت الحساب ووجدته صحيحًا.

قال السيد ميكوبر: «إن مغادرة هذه المدينة، ومفارقة صديقي السيد توماس ترادلز، من دون تبرئة ذمتي من الجزء المالي المتعلق بهذا الالتزام، هما أمران سيؤثران عليَّ إلى حد لا يحتمل. لذلك، فقد

أعددت الأمر لصديقي السيد توماس ترادلز، وأنا أحمل بين يدي الآن وثيقة تحقق الهدف المنشود، فأرجو أن أسلم لصديقي السيد توماس ترادلز إقرارًا شخصيًّا بأنني أدين له بمبلغ وقدره واحد وأربعون جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف. ويسعدني أن أستعيد كرامتي بهذا الإقرار، وأن أستطيع المشي منتصب القامة مرة أخرى أمام رفقائي الرجال».

وبعد هذه المقدمة التي أثرت على السيد ميكوبر تأثيرًا بالغًا، وضع بياناته على الإقرار وأسلمه إلى يد ترادلز، وقال إنه يرجو له التوفيق في سبل الحياة كلها. وإنني على قناعة تامة بأن ما فعله السيد ميكوبر كان بالنسبة إليه مساويًا تمامًا لسداد المال، بل إن ترادلز نفسه لم يفرق بين الأمرين؛ إذ لم تسنح له الفرصة للتفكير. مشى السيد ميكوبر منتصب القامة أمام زميله، بقوة هذا العمل الفاضل، وقد بدا صدره عريضًا مرة أخرى حين أضاء لنا الطريق نزولًا إلى الطابق السفلي. كان وداعنا حارًّا من الجانبين كليهما. اصطحبت ترادلز حتى باب منزله، ثم تمشيت إلى المنزل وحدي، بينما رحت أفكر في أمر من بين الأمور الغريبة والمتناقضة التي تشغلني؛ وهو أنني أدين للسيد ميكوبر بذكريات حانية، لم أزل أحتفظ بها في ذاكرتي إذ كنت نزيلًا عنده، لكنه لم يطلب مني المال قَطُّ. لم أمتلك أدنى شجاعة لرفض أي طلب يطلبه، ولا يخامرني أدنى شك في أنه كان يعرف ذلك - أراني أدون فضله عليَّ، كما فعلت للتوِّ.



# الفصل السابع والثلاثون

## قليل من الماء البارد

ما إن مر أسبوع على نمط حياتي الجديد، حتى صرت أشد من أي وقت مضى، وأقوى عزمًا أمام القرارات العملية الهائلة التي ترتبت على محنتنا. واصلت السعي مسرعًا إلى غايتي التي أنشدها. حزمت أمري على أن آخذ أموري بأكبر قدر ممكن من الجدية، فأعمل بكامل طاقاتي على تحقيق هدفي. لقد كرَّست نفسي فصارت ضحية لمأربي، حتى إنني فكرت في اتباع نظام غذائي نباتي، متصورًا لسبب غامض أنني عندما أصير مخلوقًا آكلًا للنباتات، فإنني أضحي من أجل دورا.

أما دورا الصغيرة فلم تدرك حتى هذه اللحظة شيئًا عن عزيمتي اليائسة، بخلاف ما تدونه رسائلي إليها فتلقي بظلال على أمري. حل يوم سبت جديد، فتوجهت دورا في المساء إلى منزل الآنسة ميلز. خرج السيد ميلز إلى نادي الويست[1] (أدركت هذه الرسالة وأنا في

(١) لعبة بطاقات إنجليزية كلاسيكية، لُعبت على نطاق واسع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

الشارع حين أبصرت قفص الطيور موضوعًا عند النافذة الوسطى لغرفة الاستقبال)، وكان عليَّ الذهاب إلى هناك لاحتساء الشاي.

استقر مقامنا حينها في شارع باكنجهام، حيث واصل السيد دك نسخه للمخطوطات وهو في حالة من السعادة الفائقة. كما أحرزت عمتي انتصارًا بارزًا على السيدة كروب، بعد أن سددت لها مستحقاتها، وألقت الجرة الأولى من النافذة بدلًا من وضعها على الدرج، وبذلك أمَّنت عمتي نفسها من مخاطر الصعود والنزول، وازدادت انتصاراتها في العالم الخارجي. أثارت هذه الإجراءات الصارمة رعبًا شديدًا في نفس السيدة كروب، حتى إنها استقرت في مطبخها الخاص، بعد أن حسبت أن عمتي امرأة مجنونة. لم تبالِ عمتي إلى حد كبير برأي السيدة كروب أو رأي أي إنسان آخر، بل دعمت هذه الفكرة عنها بدلًا من تثبيطها، فما لبثت السيدة كروب التي اتسمت بالجرأة من أيام قلائل، أن صارت وديعة خافتة للغاية، تتحاشى مقابلة عمتي على السلم، وتسعى لإخفاء جسدها البدين خلف الأبواب - وإن كانت تترك هامشًا عريضًا من قماش ثوبها مرئيًّا - أو تنكمش مختبئة في زوايا المبنى المظلمة. منح هذا الأمر لعمتي نوعًا من الرضا لا يوصف، وإني لأحسب أنها استمتعت بالتجول صعودًا وهبوطًا، مرتدية قبعتها التي تعلو قمة رأسها في الأوقات التي يُحتمل أن تظهر فيها السيدة كروب في طريقها.

كانت عمتي أنيقة ومبتكرة بصورة غير عادية، لذا فقد أدخلت عددًا من التحسينات الطفيفة في ترتيب مسكننا، مما جعله يبدو أكثر ثراءً لا

فقرًا. لقد حوَّلت المخزن إلى غرفة لي لتبديل الملابس، واشترت سريرًا وزيَّنته لي، فبدا بالنهار كخزانة الكتب، ثم كسرير إذا ما حل الليل. صرت هدفًا لعنايتها المستمرة، ولم تكن أمي المسكينة لتحبني أكثر من عمتي، ولا أحرص على سعادتي وراحتي منها.

اعتبرت بيجوتي نفسها ذات حظ كبير، إذ سُمح لها بالمشاركة في ترتيبات عمتي لي، وعلى الرغم من أنها لم تزل تحتفظ بشيء من شعورها القديم بالرهبة من عمتي، فقد تلقت الكثير من علامات التشجيع والحث على الثقة بالنفس، حتى صارتا صديقتين رائعتين. إن الوقت قد حان الآن (أتحدث عن يوم السبت عندما كنت أحتسي الشاي عند الآنسة ميلز) لكي تعود بيجوتي إلى المنزل، لتؤدي واجباتها التي تعهدت بها نيابة عن هام، ومن ثَم قالت عمتي لها: «وداعًا يا باركس، اعتني بنفسك، أجزم أنني لم أفكر قَطُّ في أنني قد أكون آسفة، كما أنا آسفة الآن لفراقكِ».

اصطحبت بيجوتي إلى مكتب العربات، وودعتها. بكت عند فراقنا، ثم أوصتني بأخيها كما أوصاني هام قبلها. لم نسمع عنه أي خبر منذ رحيله حتى هذا الأصيل المشمس.

قالت بيجوتي: «أما الآن يا عزيزي ديفي، فإن احتجت إلى أموال لمصروفات تدريبك، أو أردت يا عزيزي أن يدعمك إنسان إلى أن تسلك طريقك (ويجب أن تفعل أي الفعلين، أو كليهما يا حبيبي)، فمن لديه الحق في أن تطلب منه أن يقرضك، غيري أنا؛ تلك الخادمة العجوز الغبية؟!».

لم أكن من الجحود بحيث أتجاهل الرد على كلامها، فقلت لها لو أنني اقترضت أموالًا من أي إنسان، فسيكون أنتِ. وقد قبلت منها مبلغًا كبيرًا على الفور، وأحسب أن هذا الفعل قد منح بيجوتي راحة أكبر من أي شيء يمكن أن أفعله من أجلها.

همست بيجوتي قائلة: «يا عزيزي، أخبر ملاكك الصغير الجميل أنني أحب أن أراها، ولو لدقيقة واحدة، وأخبرها أنني سآتي قبل أن تتزوج ابني، فأنسق منزلكما ليصير جميلًا رائعًا، إذا سمحتما لي».

قلت لها إنني لن أدع أحدًا غيرها يلمسه، فرحت بيجوتي فرحة كبيرة حتى إنها سافرت مبتهجة النفس طيبة الخاطر.

تحاملت على نفسي قدر استطاعتي في عملي في مجلس العموم طوال اليوم، متنقلًا بين عدد متنوع من التخصصات، ثم توجهت في الموعد المحدد إلى الشارع الذي يقيم فيه السيد ميلز في المساء. تكاسل السيد ميلز عن الخروج، فنام بعد أن تناول العشاء، كما أنني لم أبصر قفص الطيور معلقًا في النافذة الوسطى.

انتظرت خروجه لوقت طويل، حتى إنني تمنيت وبشدة أن يوقع النادي عليه غرامة مالية بسبب تأخره. خرج السيد في النهاية، ثم رأيت دورا تعلق قفص الطيور، وتختلس النظر من الشرفة بحثًا عني، ثم ركضت إلى الداخل مرة أخرى بعدما لمحتني، بينما مكث جيب في الخلف ينبح نباحًا ضاريًا إثر كلب هائل لجزار، لو أمسكه لابتلعه كما لو كان حبة دواء.

أقبلت دورا إلى باب غرفة المعيشة لاستقبالي، وأقبل جيب مندفعًا

إلى الخارج، متدحرجًا ومهرولًا ناحيتي ظنًّا منه أنني قاطع طريق. جلسنا جميعًا سعداء ومتحابين قدر الإمكان، لكن سرعان ما حملتُ الخراب إلى أحضان فرحتنا -ليس لأنني قصدت أن أغتم، لكنني كنت ممتلئًا بأمري ففاض كيلي- سألت دورا، من دون أدنى تمهيد للأمر، هل تستطيع أن تحب متسولًا؟

يا لجميلتي الصغيرة، فكيف أذهلت دورا! كان استقبالها الوحيد للكلمة أن اصفر وجهها وتخشبت كما لو أنها طاقية نوم، أو عكازان، أو ساق خشبية، أو كلب يحمل دورقًا في فمه، أو شيء من هذا القبيل، فإذا بها تحدق في وجهي بأروع اندهاش.

سألتني دورا مكفهرة الوجه: «كيف تتجرأ فتسألني عن شيء بهذا الغباء؟ أحب متسولًا!».

قلت: «يا دورا، يا أعز من نفسي، إنني متسول».

أجابت دورا، وهي تصفع يدي: «كيف يمكنك أن تكون بهذا السخف حتى تجلس أمامي وتروي مثل هذه القصص؟ سأنادي جيب كي يعضك».

كانت طريقتها الطفولية أشهى طريقة في العالم في ناظري، لكن كان من الضروري أن أفصح عن أمري، فتحدثت في جد وقلت:

«يا دورا، يا حياتي، لقد أفلس حبيبكِ ديفيد».

قالت دورا وهي تهز جدائلها: «أنذرك بأنني سأنادي جيب ليعضك، إذا بقيت على هذا السخف».

لكنني بدوت جادًّا، حتى توقفت دورا عن هز جدائلها، ثم وضعت يدها الصغيرة المرتعشة على كتفي، وقد بدت خائفة وقلقة في البداية، ثم شرعت في البكاء. كان منظرها مروعًا، فإذا بي أجثو على ركبتيَّ أمام الأريكة لأداعبها وأناشدها ألا تمزق قلبي، ولكنها لم تكف عن البكاء لبعض الوقت، بل لم تفعل دورا الصغيرة المسكينة شيئًا سوى أن صرخت قائلة: «رحماك يا ربي، يا للهول!»، وآهٍ، كم كانت خائفة مذعورة! ولكن أين جوليا ميلز؟! آه، هل أصطحبها إلى جوليا ميلز، وأنصرف بعيدًا؟! رحت أحدث نفسي محتملًا عذابي.

استطعت أن أجعل دورا تنظر نحوي أخيرًا، بعد معاناة من التوسلات والرجاء. اعتلى وجهها تعبير مروع، انقشع عنها تدريجيًّا بعد أن لمست وجهها حتى عاد إلى روعته، ثم لصقت خدها الناعم الجميل بخدي. أخبرتها حينها وقد طوقتها بذراعي، كم أحببتها كثيرًا، وكيف صارت غالية عزيزة، ثم شعرت أنه من عين الصواب أن أعرض عليها التحرر من عهد خطوبتها لأنني صرت فقيرًا الآن. أخبرتها كيف لا أستطيع تحمل الحياة أو استكمالها لو أني فقدتها، وكيف أنني لن أخشى الفقر، إذا لم تخف منه، لأن ذراعي عفية وقلبي قوي بإلهامها. أخبرتها كيف كنت أعمل بشجاعة لم يعلمها سوى العشاق، وكيف بدأت في التفكير في الحياة بوجه عملي، متطلعًا إلى المستقبل. أخبرتها كيف صارت اللقمة المكتسبة بالكد أحلى من وليمة موروثة. حدثتها بأكثر من هذا الكلامَ للغرض نفسه، فإذا بي أُطلِق موجة من بلاغة عاطفية مرتجلة عن كاملها، على الرغم من أنني كنت أفكر في هذا الأمر طوال الليل والنهار، منذ أن

أذهلتني عمتي بالإفصاح عن محنتنا.

قلت بنشوة بعد أن أدركت مدى تشبثها بي: «هل ما زال قلبكِ لي يا عزيزتي؟».

صرخت دورا: «آه، نعم. آه، نعم، إنه بأسره لك. آه، لا تكن فظًّا».

هل أنا فظ؟! مع دورا؟!

قالت دورا وهي تقترب مني: «لا تحدثني عن الفقر والعمل الجاد، آه، لا، لا».

قلت: «يا حبيبتي الغالية، إن اللقمة التي كسبتها عن جدارة بالكد...».

قالت دورا: «نعم بالتأكيد، لكنني لا أريد أن أسمع المزيد عن اللقيمات، ويجب أن يتناول جيب قطعة من اللحم كل يوم في الساعة الثانية عشرة، وإلا سيموت».

لقد فتنت بطريقتها الطفولية الساحرة. شرحت لدورا برفق أن جيب سيحصل على قطعة اللحم كعادته. ورحت أرسم لها صورة لمنزلنا المقتصد، الذي سأقيمه بعملي ودأبي - رحت أرسم هذا المنزل الصغير مستدعيًا صورة المنزل الذي رأيته في هايجيت، وصورة عمتي في غرفتها في الطابق العلوي.

قلت بحنان: «هل ما زلت فظًّا إلى الآن يا دورا؟».

صرخت دورا: «آه، كلا، كلا، ولكن أرجو أن تُبقي عمتك في غرفتها دومًا. وآمل ألا تكون عجوزًا مؤنِّبة».

إذا استطعت أن أحب دورا أكثر من أي وقت مضى، فإني متيقن من أنني أحببتها بهذه الصورة حينها، إلا أنني أحسست أنها ليست واقعية أو عملية. لقد أضعفت حماستي الجديدة الغضة، بعد أن أدركت صعوبة بالغة في استثارة حماستها والتواصل معها. حاولت معها مرة أخرى بعدما استردت هدوءها، فراحت تفرك أذني جيب وهو مستلقٍ على حجرها. اتخذت هيئة جادة، وقلت:

«حبيبتي، هل تأذنين لي بقول شيء؟».

قالت دورا بدلال: «آه، من فضلك لا تكن عمليًّا، لأن ذلك يخيفني جدًّا».

قلت: «يا حبيبة قلبي، ليس في هذا كله ما يثير قلقكِ. أريدكِ أن تفكري في الأمر بشكل مختلف تمامًا. أريد أن تقوي هذه الأمور أعصابكِ، وتلهمكِ حسن التصرف يا دورا».

صرخت دورا: «آه، لكن هذا أمر صادم للغاية».

قلت: «لا يا حبيبتي، إن المثابرة وقوة الشخصية ستمكننا من تحمل أشياء أسوأ من ذلك بكثير».

قالت دورا وهي تهز جدائل شعرها: «لكنني لست قوية على الإطلاق؛ هل أنا قوية يا جيب؟ آه، فلتُقبل جيب، ولتكن لطيفًا».

كان من المستحيل أن أقاوم تقبيل جيب، بعدما رفعته إليَّ وقربته لهذا الغرض، ومطت فمها الصغير المشرق الوردي ليتخذ هيئة التقبيل، حيث وجهتني إلى هذا الفعل، وأصرت على إجرائه بالشكل المتماثل

لها، فأقبله وسط رأسه، فوق أنفه تحديدًا. فعلت ما أمرتني به -مكافئًا نفسي بعد طاعتي لها بقبلة منها- فإذا بها تسحرني فتسلب سمات جسدي الجادة، من دون أن أدري كم لبثت.

قلت: «لكن، يا دورا، يا حبيبتي، لقد أردت أن أذكر شيئًا».

حتى أعتى قضاة المحكمة قد يقع في حبها، لو أبصرها حين طوت يديها الصغيرتين ورفعتهما متوسلة وراجية ألا أصير مروِّعًا بعد الآن.

قلت لها بنبرة تأكيد: «لن أروعكِ بكل تأكيد يا عزيزتي، لكن لو أنكِ يا دورا يا حبيبتي تحملين نفسكِ على التفكير في بعض المواقف - من دون يأس، كما تعلمين، بعيدًا عن الحزن - فكري في أنكِ - فقط لتشجيع نفسكِ - مخطوبة لرجل فقير...».

صرخت دورا مقاطعة: «لا تقل هذا، إنه أمر مروع للغاية».

قلت بمرح: «يا روحي الغالية، الأمر ليس مروعًا على الإطلاق، لو أنكِ ستفكرين لبعض الوقت، فإنكِ ستشرفين بين الحين والآخر على التدبير المنزلي في بيت والدكِ، وتسعين لاكتساب القليل من المهارات؛ كالحساب على سبيل المثال».

تلقت دورا الصغيرة المسكينة هذا الاقتراح بانفعال يمزج بين النحيب والصراخ.

تابعت كلامي فقلت: «... سيكون الأمر مفيدًا جدًّا لنا فيما بعد. فإذا وعدتِني بالقراءة قليلًا في كتاب طهي صغير سأرسله إليكِ، لكان خيرًا لكل منا». استطردت حديثي في نوع من الحماسة فقلت: «لقد صار

طريقنا في الحياة صلبًا ووعرًا يا دورا، وعلينا أن نمهده لخطانا. يجب أن نكافح حتى نسير إلى الأمام ونتحلى بالشجاعة، فأمامنا من العقبات ما يستوجب علينا مواجهتها وسحقها».

كنت أسترسل وأخوض في حديثي بحماسة بالغة، ولكني أدركت أنه من غير الضروري المضي قدمًا. لقد قلت ما يكفي، وها هي خائفة مرة أخرى. آه، كم كانت خائفة مذعورة! ولكن أين جوليا ميلز؟! آه، هل أصطحبها إلى جوليا ميلز، وأنصرف بعيدًا؟! باختصار، صرت مشتتًا تمامًا، أجول ذهابًا وإيابًا مهتاجًا في غرفة الاستقبال.

ظننت أنني قتلتها رعبًا هذه المرة، فرحت أنثر الماء على وجهها. جثوت على ركبتيَّ، ونتفت شعري. لقد وسمت نفسي بالوحش الضاري، الوحش الذي لا يرحم. ناشدتها المغفرة. توسلت إليها أن تتطلع نحوي. هجمت على صندوق أدوات الآنسة ميلز لأبحث فيه عن زجاجة عطر. كان ذهني مشتتًا فالتقطت حاوية إبر عاجية بدلًا من العطر، وأسقطت كل الإبر فوق دورا. رحت أهز قبضة يدي في وجه جيب، فقد كان مسعورًا هائجًا مثلي. أقبلت على كل انفعال وحشي يمكنني القيام به، متجاوزًا حدود العقل والمنطق حتى دخلت الآنسة ميلز الغرفة.

صاحت الآنسة ميلز، منكبة على مساعدة صديقتها: «مَن فعل هذا بها؟».

أجبتها قائلًا: «أنا يا آنسة ميلز، لقد فعلت ذلك، انظري إلى هذا المخلوق المدمر أمامكِ» - أو قلت كلمات بهذا المعنى، ثم حجبت وجهي عن الضوء مستعينًا بوسادة الأريكة.

ظنت الآنسة ميلز في البداية أن شجارًا وقع بيننا، وأننا نقترب من تخوم صحراء الهجر، لكنها سرعان ما اكتشفت حقيقة الأمور، بعد أن احتضنتها دورا الصغيرة الحنون، وراحت تصرخ قائلة إنني «عامل فقير»، ثم بكت على حالي واحتضنتني، وسألتني هل أسمح لها أن تعطيني أموالها كلها لأحتفظ بها، ثم هوت معانقة الآنسة ميلز، وهي تبكي كما لو أن قلبها الرقيق قد تحطم.

لا بد أن الآنسة ميلز ولدت لتكون نعمة وإنعامًا علينا. لقد فهمت مني بكلمات موجزة حقيقة ما يدور، وراحت تعزي دورا، ثم أقنعتها تدريجيًّا أنني لست عاملًا - أظن أن دورا فهمت من طريقتي في توضيح وضعي أنني ملاح، أرنو إلى توازن جسدي فوق الأمواج، أسير على لوح خشبي طوال اليوم دافعًا عربة يدوية - وهكذا وفقت الآنسة ميلز بيننا في سلام. ظللتنا السكينة تمامًا، فصعدت دورا لتضع بعض ماء الورد على عينيها فترطبهما، ودقت الآنسة ميلز الجرس معلنة عن وقت احتساء الشاي. أخبرت الآنسة ميلز في هذه الفسحة من الوقت أن مكانتها وصداقتها ارتفعتا في نظري، وأن نبض قلبي حتمًا سيتوقف لو أنني نسيت يومًا كرمها وعطفها.

رحت أشرح للآنسة ميلز بعد ذلك ما حاولتُ، من دون جدوى، أن أشرحه لدورا. ردت الآنسة ميلز أنها ترى من حيث المبدأ العام، أن كوخًا من الرضا خير من قصر فخم بارد، وأنه إن وُجد الحب، وُجد كل شيء.

قلت للآنسة ميلز إنها محقة تمامًا، وأقدر على فهم هذا الأمر أفضل مني، وأنا الذي أحب دورا حبًّا لم يسبق أن اختبره عاشق حتى الآن، لكن

الآنسة ميلز علقت في يأس قائلة إنها ودت لو أدركت بعض القلوب حقيقة هذا الشعور، فأوضحت لها أنني قصدت التعليق على الأحياء من الذكور من بني جنسي.

وجَّهت حديثي إلى الآنسة ميلز، فسألتها عما إذا كانت ترى أي ميزة عملية في الاقتراح الذي كنت حريصًا على طرحه على دورا، من تعلم الحسابات، والتدبير المنزلي، وقراءة كتاب الطهي؟

كانت هذه هي إجابة الآنسة ميلز بعد تفكير:

«سأكون واضحة معك يا سيد كوبرفيلد. إن المعاناة العقلية وآلام التجربة تحل عند البعض محل الطبائع وخبرة السنين، وسأكون صريحة معك كما لو أنني رئيسة دير. أقول لك لا، إن اقتراحك لا يناسب دورا التي نعرفها. إن دورا العزيزة ابنة مدللة للطبيعة. إنها نوع من الإشراق، والنسيم، والمرح. سأكون على راحتي معك فأعترف لك بأنه لو كان من الممكن تنفيذ اقتراحك، فقد تصير الأمور بخير، لكن...»، ثم هزت الآنسة ميلز رأسها.

لقد شجعني إقرار الآنسة ميلز الأخير على سؤالها عن أمر دورا، فهل تتوافر لديها أي فرصة لجذب انتباهها إلى مثل هذه الاستعدادات لخوض حياة جادة، وهل سيعود عليها الأمر بفائدة؟ ردت الآنسة ميلز على هذا السؤال بالإيجاب. رحت أطلب منها أن تتولى مسؤولية كتاب الطهي بنفسها. وإذا استطاعت أن تقنع دورا بقبول الأمر من دون أن تخيفها، فإنها بذلك ستسدي إليَّ خدمة جليلة. قبلت الآنسة ميلز هذا الأمر أيضًا وتعهدت لي بذلك، لكنها لم تكن متفائلة.

عادت دورا إلينا، وقد بدت مخلوقًا صغيرًا بديعًا، حتى إنني شككت حقًّا فيما إذا كانت بحاجة إلى أن تزعج نفسها بمثل هذه الأمور التقليدية. راحت تلاطفني بحب، وقد لاحت لناظري آسرة للغاية (خاصة عندما جعلت جيب يقف على رجليه الخلفيتين ليتناول الخبز المحمص، وعندما تظاهرت بإمساك أنفه أمام إبريق الشاي الساخن لمعاقبته على رفضه الانصياع لأوامرها). شعرت أنني وحش ضارٍ قد تسلل إلى داخل تعريشة جِنِّية، حين تذكرت أنني أفزعتها وجعلتها تبكي.

ما إن انتهينا من الشاي حتى التقطنا الجيتار، فراحت دورا تغني تلك الأغاني الفرنسية القديمة المحببة إليها، والتي تدور حول استحالة ترك الرقص في أي يوم من الأيام. أما أنغامها «لا را لا، لا را لا»، فقد جعلتني أحس أنني أكثر وحشية من ذي قبل.

لم ينغص علينا سوى شيء واحد، كان قد وقع قبل انصرافي بفترة وجيزة، إذ ألمحت الآنسة ميلز ببعض الإشارات إلى صباح الغد، فقلت إنني مضطر لسوء الحظ إلى بذل نفسي في هذه المرحلة، لأستيقظ في الخامسة فجرًا. لا يسعني أن أجزم بأن دورا ظنت أنني أعمل حارسًا خاصًا، لكن قولي كان قد ترك انطباعًا طاغيًا عليها، فتوقفت عن العزف والغناء.

ظل الأمر عالقًا في ذهنها حتى قمت لأودعها، فقالت لي - بطريقتها البديعة في الإقناع الجميلة - كما لو أنني دمية، هكذا اعتدت أن أفكر في نظرتها لي:

«أما الآن فلا تستيقظ في الساعة الخامسة أيها الفتى المشاغب، إنه أمر غير منطقي على الإطلاق».

قلت: «يا حبيبتي، يجب أن أقوم بعملي».

عادت دورا: «ولكن لا تستيقظ في هذا الوقت، لماذا عليك أن تفعل ذلك؟».

كان من المستحيل أن أجيب هذا الوجه الجميل المندهش، من دون إبداء الخفة والمرح، والقول بأننا يجب أن نعمل لكي نعيش.

صرخت دورا: «آه، كم هذا سخيف!».

قلت: «كيف نعيش من دون عمل يا دورا؟».

قالت دورا: «كيف؟ قل لي كيف؟!».

ظنت أنها حسمت إجابة هذا الإشكالية تمامًا، ومن ثَم أعطتني قبلة صغيرة منبعثة مباشرة من قلبها البريء المنتصر، حتى إنني ما كنت لأزحزح عنها غرورها بإجابتها ولو في مقابل ثروة ضخمة.

حسنًا، لقد أحببتها، وواصلت الخوض في حبها في متعة من التفاني الكامل. إلا أنني لم أتغافل عن الجد في العمل، بل شاركت في كثير من المجالات المختلفة، وحين أجلس مستريحًا في الليل في مقابل عمتي، أفكر كيف أخفتُ دورا في ذاك الوقت، وكيف كان من الأفضل لو شققت طريقي حاملًا الجيتار متخللًا غابة المحن، إلى أن تصورت أن رأسي قد شاب.



# الفصل الثامن والثلاثون

## حل الشراكة

لم أسمح لقرار تدوين المناقشات البرلمانية أن يفتر. لقد كان واحدًا من المجالات التي سعيت إلى خوض غمارها على الفور، إذ أبقيت شغفي به متقدًا، ورحت أطرق عليه ساخنًا بمثابرة، زهوت بها أمام نفسي بصدق. اشتريت كتابًا معتمدًا يشرح فن التدوين وأسرار الاختزال[1] (كلفني عشرة شلنات وستة بنسات)، وانغمست في بحر مضطرب حتى رسوت في غضون أسابيع قليلة على حافة الجنون. كانت النقاط ترمز إلى معانٍ متباينة تتنوع من موضع إلى آخر؛ تُكتب في موضع ما فتعني شيئًا، وتُكتب في آخر فيتغير مدلولها تمامًا، وكذلك تنقلب دلالات الدوائر انقلابًا مدهشًا، وتختلف المعاني والاستدلالات التي تنتج عن علامات تشبه أرجل الذباب، وكذلك تحدث تغيرات هائلة في المعنى في حالة كتابة قوس في غير مكانه. لم يزعجني كل هذا في ساعات يقظتي فحسب، بل راحت العلامات تظهر في نومي

(١) أسلوب كتابة سريعة يعتمد الرموز أو المختصرات بدلاً من الحروف أو الكلمات أو الجمل.

وأحلامي. رحت أتلمس طريقي متخبطًا بين هذه المصاعب كالأعمى، وما إن تمكنت من إتقان أبجدية الاختزال، التي لم تختلف عن دراسة متاهات معبد فرعوني، حتى لاحت أمامي مواكب من الأهوال الجديدة، تسمى الرموز الشائعة، ولم أعرف رموزًا أكثر استبدادًا ولا أشد وطأة على الإطلاق. وعلى سبيل المثال، كان أحد الرموز يشبه بداية نسيج العنكبوت ويعني التوقع، وآخر يشبه صاروخًا أو قلمًا ومحبرة ويرمز إلى أن هذا الأمر غير مهم. وثبت هذه الرموز الشائعة البائسة في ذهني، فإذا بها تطرد منه كل ما عداها، ومن ثَم رحت أبدأ من جديد. كنت أنساها، ثم أستعيدها، ثم تسقط رموز غيرها عن ذاكرتي؛ باختصار، كان الأمر مفجعًا حقًّا.

كان الأمر مفجعًا، لكن دورا كانت بمثابة مرسى لزورقي الهائم بين العواصف، ومربط حبالي المعقودة في غابة المحن التي واصلت تقطيع أشواكها، واحدة تلو الأخرى، بعزيمة متقدة، حتى إنني في غضون ثلاثة أو أربعة أشهر كنت أمام تجربة لكتابة خطابات نواب مجلس العموم المفوهين. لن أنسى أبدًا كيف ابتعد هذا الخطيب عني قبل أن أبدأ في تدوين كلامه، تاركًا قلمي المرتبك يترنح حول الورقة كما لو كان أنه في نوبة جنون.

لم تثمر هذه المحاولة، وكان الأمر واضحًا تمامًا لي. كنت أحلق عاليًا في فضاء لم ينبغِ لي أن أرنو إليه قَطُّ. ولذلك فإنني لجأت إلى ترادلز طلبًا لمشورته، فاقترح أن يملي عليَّ بنفسه الخطب ببطء وبسكنات طويلة تتوافق مع ضعفي. كم كنت ممتنًّا لمساعدته الودية،

ومن ثَم قبلت هذا الاقتراح. انقضت الليالي، بل لم تمضِ ليلة تقريبًا، من دون أن نعقد برلمانًا خاصًّا لفترات طويلة في شارع باكنجهام، بعد عودتي من منزل الدكتور.

وددت لو أرى مثل هذا البرلمان في أي مكان آخر. لقد مثلت عمتي والسيد دك الحكومة تارة والمعارضة تارة أخرى (بحسب ما يقتضيه الموقف)، أما ترادلز فراح يُجسد المتحدثين في إنفيلد، أو مجموعة من الخطب البرلمانية، ممن وجهوا انتقادات مدهشة ضدهم. وقف ترادلز بجانب الطاولة، مشيرًا بإصبعه إلى موضع صفحة خطابه، وناشرًا ذراعه اليمنى فوق رأسه، مجسدًا السيد بت، أو السيد فوكس، أو السيد شريدان، أو السيد بارك، أو اللورد كسلري، أو السيد سدموث، أو السيد كانينج، فينطلق في أشد الاحتجاجات عنفًا، ليقدم أبشع الإدانات وأغلظ صنوف التشهير لعمتي والسيد دك لإسرافهما وفسادهما. أما أنا فكنت أجلس على مسافة قصيرة، ساندًا دفتري فوق ركبتي، لألاحقه بكل ما أوتيت من قوة. كان عدم اتساق وتهور ترادلز يضاهيان ما يفعله أي سياسي حقيقي، فلم يكن ينقضي أسبوع حتى ينقلب في منهجه وسياسته، فيغدو إلى مسارات شتى رافعًا أعلامًا متباينة على ساريات شتى. كانت عمتي تشبه إلى حد كبير وزير مالية جامد، لا تتدخل مقاطعة بأي كلمة إلا لمرة أو اثنتين قائلة كلمات مثل «مرحى» أو «لا»، أو «آه» تبعًا لما يتطلبه سياق الخطاب، وكانت مثل هذه الكلمات إشارة دائمة إلى السيد دك (رجل الريف المثالي) ليتبعها مرددًا الصيحة نفسها. ظل السيد دك يطالب بمثل هذه الأشياء خلال مسيرته البرلمانية، وصار

مسؤولًا عن عواقبها الوخيمة، مما جلب له نوعًا من الارتباك. أظن أن خوفًا انتابه من أنه قد فعل شيئًا ما من شأنه إبادة الدستور البريطاني، أو تدمير البلاد.

رحنا نتابع هذه المناقشات في كثير من الأحيان حتى منتصف الليل، أو إلى أن تذبل الشموع. كان لكثرة هذه التدريبات أثرًا جيدًا، إذ بدأت في مواكبة ترادلز بشكل معقول، وكان الأولى بي أن أستشعر لذة الانتصار لولا أنني لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن موضوع ملاحظاتي. أما الرموز التي دونتها، فكانت أشبه بنسخ من نقوش صينية على مجموعة هائلة من صناديق الشاي، أو أحرف ذهبية مدونة على زجاجات حمراء وخضراء كبيرة كالتي توضع في متاجر الكيميائيين.

لم أستطع شيئًا سوى التقهقر إلى الوراء والبدء من جديد. كان الأمر صعبًا للغاية، بل رجعت أدراجي بقلب مثقل مهموم، وبدأت في العمل بجد ومنهجية على الأرض المملة ذاتها بخطى حلزون، فرحت أتوقف لفحص كل بقعة في طريقي بدقة، فأتفقد المسارات جميعها، وأبذل قصارى جهدي لتمييز هذه الرموز المراوغة أينما قابلتها. كنت ملتزمًا عادتي بموعد ذهابي إلى المكتب، وبموعدي مع الدكتور أيضًا. عملت بجد شديد، أو كما يقول التعبير الشائع، مثل حصان يجر عربة. توجهت ذات يوم إلى مجلس العموم كعادتي، فالتقيت بالسيد سبنلو عند الباب وقد بدا جادًّا عابسًا، يتحدث إلى نفسه. كان معتادًا على الشكوى من آلام في رأسه - كان عنقه قصيرًا جدًّا، وأظن أنه كان يفرط في تناول الطعام - وكنت أخشى في البداية أن يكون مرضه متعلقًا بسمنته، إلا أنه سرعان ما بدد قلقي.

لم يرد السيد سبنلو عليَّ بلطفه المعتاد حين بادرته قائلًا: «صباح الخير»، بل نظر إليَّ بفتور، وطلب مني ببرود أن أرافقه إلى مقهى بعينه، وكان له في تلك الأيام باب يؤدي إلى مبنى المكاتب، داخل ممر صغير من كنيسة القديس بولس. امتثلت لأوامره وأنا في غاية الارتباك، محمومًا، كما لو أن براعم مخاوفي على وشك الانفجار. سمحت له بالمضي قدمًا ليتقدمني قليلًا، بسبب ضيق الطريق، فلاحظت أنه يترنح برأسه في هيئة لا تبشر بخير، مما زاد عقلي اضطرابًا وشكًّا في أنه قد اكتشف أمري مع حبيبتي دورا.

لو أنني لم أخمن هذا الاكتشاف، ونحن في طريقنا إلى المقهى، لم أكن لأفشل في إدراك الأمر بعدما تبعته إلى غرفة في الطابق العلوي، فوجدت الآنسة مردستون جالسة وخلفها خزانة جانبية، كانت عبارة عن عدة أكواب مقلوبة تحتوي على الليمون، واثنين من تلك الصناديق الاستثنائية مسنودة إلى الزوايا والأركان لغرس السكاكين والشوك داخلها. ومن حسن حظ البشرية أن الزمن قد عفا عليها الآن.

مدت الآنسة مردستون إليَّ أظافر أصابعها الباردة، وجلست متخشبة جامدة للغاية. ثم أغلق السيد سبنلو الباب، وأشار إليَّ بالجلوس، بينما ظل واقفًا إلى جانب المدفأة.

قال السيد سبنلو: «أرجو يا آنسة مردستون أن تتفضلي بإخراج ما في جعبتكِ للسيد كوبرفيلد».

أحسب أن جعبتها بالقسوة نفسها التي عهدتها في طفولتي، والتي تفترس مثل عضة هوجاء. ضغطت الآنسة مردستون على شفتيها،

بالتوّازي مع إخراج ما في حقيبتها التي فتحتها في الوقت ذاته مع فتح فمها قليلًا - وأخرجت رسالتي الأخيرة إلى دورا، التي تعج بتعابير المحبة والوفاء.

قال السيد سبنلو: «أظن أن هذا خطك يا سيد كوبرفيلد؟».

صرت ملتاعًا محمومًا، وكان الصوت الذي أصدرته مختلفًا تمامًا عن صوتي، حين قلت: «إنه كذلك يا سيدي».

تحدث السيد سبنلو بعد أن أخرجت الآنسة مردستون من حقيبتها ثلة من رسائلي، مربوطة على هيئة دائرية بأغلى الشرائط الزرقاء، فقال: «إذا لم أكن مخطئًا، فهذه أيضًا بقلمك يا سيد كوبرفيلد؟».

تناولتها منها بارتباك مروع، وألقيت نظرة خاطفة على بعض العبارات الظاهرة أعلاها، مثل: «دورا يا أعز إنسانة على الإطلاق»، و«يا ملاكي الحبيب الغالي»، و«يا حبيبتي المباركة إلى الأبد»، وما شابه ذلك من عبارات، فاحمر وجهي خجلًا وأطرقت برأسي بعيدًا.

قال السيد سبنلو بلهجة باردة، بعد أن أعدت إليه الرسائل بطريقة آلية: «لا، شكرًا لك، لن أحرمك منها. هلا تفضلتِ بالمضي قدمًا يا آنسة مردستون».

راحت هذه المخلوقة اللطيفة، بعد لحظة استقصاء نظرت فيها نحو السجادة، تتحدث بلهجة جافة على النحو التالي: «يجب أن أعترف أن شكوكًا راودتني لبعض الوقت حول مشاعر الآنسة سبنلو تجاه ديفيد كوبرفيلد. ورحت ألاحظ الآنسة سبنلو وديفيد كوبرفيلد بعد أن التقيا

للمرة الأولى، فإذا بانطباعي عن الأمر حينها لم يكن مقبولًا. إن فساد قلب الإنسان ...».

قاطعها السيد سبنلو قائلًا: «أرجوكِ يا سيدتي، فلتقتصري على ذكر الحقائق».

حولت الآنسة مردستون عينيها، ثم هزت رأسها كما لو كانت تحتج على هذه المقاطعة غير اللائقة، وقد استأنفت كلامها عابسة فقالت:

«بما أن حديثي يقتصر على ذكر الحقائق، فسوف أذكرها بأكبر قدر ممكن من الجفاء. ربما يصير هذا المسار مقبولًا. لقد قلت يا سيدي منذ قليل، إن شكوكًا راودتني لبعض الوقت حول مشاعر الآنسة سبنلو تجاه ديفيد كوبرفيلد. لقد حاولت مرارًا العثور على إثبات حاسم يقطع الشك باليقين، لكن من دون جدوى، ولذلك فإنني امتنعت عن ذكر هذه الهواجس لوالد الآنسة سبنلو». نظرت إليه في صرامة، واستطردت تقول: «لمعرفتي بمدى ضآلة حكمة التصرف في مثل هذه الحالات، ونكران أداء الواجب بضمير حي».

بدا أن السيد سبنلو خائف متململ أمام الصرامة المهذبة لأسلوب الآنسة مردستون، وقلل من شدة لهجتها بإيماءة صغيرة بيده تبعث على الصلح.

تابعت الآنسة مردستون كلامها بصوت ساخر قائلة: «وعند عودتي إلى نوروود، بعد فترة من الغياب بسبب زواج أخي، وبعد عودة الآنسة سبنلو من زيارتها لصديقتها الآنسة ميلز، أتاحت لي تصرفات الآنسة

سبنلو مجالًا للشك يفوق شكوكي الماضية. لذلك رحت أراقب الآنسة سبنلو عن كثب».

يا لعزيزتي دورا الصغيرة الرقيقة، كيف لم تنتبه إلى عين التنين؟!

أردفت الآنسة مردستون قائلة: «لم أجد دليلًا حتى الليلة الماضية. بدا لي أن الآنسة سبنلو قد تلقت الكثير من الرسائل من صديقتها الآنسة ميلز. إلا أن الآنسة ميلز كانت صديقة لدورا تحت غطاء من موافقة كاملة من والدها». كانت هذه ضربة قوية أخرى وجهتها إلى السيد سبنلو. أكملت: «لم يكن لي أن أتدخل في هذا الأمر. وإذا لم يُسمح لي بالتلميح إلى فساد القلب البشري، فيجوز لي على الأقل -بل يجب السماح لي الآن- بالإشارة إلى وضع الثقة في غير محلها».

تمتم السيد سبنلو معتذرًا وموافقًا.

تابعت الآنسة مردستون: «لاحظت الليلة الماضية بعد تناول الشاي، أن الكلب الصغير بدأ يتدحرج ويهدر حول غرفة الاستقبال، وهو يحمل شيئًا بين فكيه». قلت للآنسة سبنلو: «يا دورا، ما الذي يحمله هذا الكلب بين فكيه؟ إنها ورقة». تحسست الآنسة سبنلو فستانها على الفور، ثم أطلقت صرخة مباغتة، وركضت متجهة نحو الكلب. تدخلت وقلت: «يا دورا، يا حبيبتي، يجب أن تسمحي لي برؤيتها».

ويحك يا جيب، أيها الذليل البائس! أهذا الغم من عملك إذن؟!

قالت الآنسة مردستون: «لقد حاولت الآنسة سبنلو رشوتي بالقبلات، وإلهائي بصناديق الحياكة، وبعض قطع المجوهرات الصغيرة - قد ترفعت عن هذا بالطبع. تراجع الكلب الصغير تحت

الأريكة بعد اقترابي منه، ولكني استطعت بصعوبة بالغة إخراجه من مكانه بمساعدة مكواة ملتهبة. ظل محتفظًا بالرسالة في فمه بعد أن طردته من مكانه. سعيت لأخذها منه، على الرغم من وجود خطر وشيك من تعرضي للعض، فقد أمسك بالرسالة بين أسنانه بإصرار شديد، حتى إن جسده ظل معلقًا في الهواء وأنا ممسكة بالرسالة. حصلت عليها في نهاية المطاف، وبعد الاطلاع عليها، أدركت أن الآنسة سبنلو تحتفظ بالعديد من هذه الرسائل، واستطعت في النهاية أن أحصل منها على رزمة الرسائل التي صارت الآن في يد ديفيد كوبرفيلد».

توقفت هنا عن الكلام. وأغلقت حقيبتها مرة أخرى، وكذلك أغلقت فمها. بدا أنها من الممكن أن تنكسر، لكنها لن تنحني أبدًا.

قال السيد سبنلو وهو يستدير إليَّ: «ها قد سمعت الآنسة مردستون. فهل من الممكن أن أسألك يا سيد كوبرفيلد، إذا كان لديك أي شيء للرد على ما قالته؟».

لاح لخاطري صورة كنز قلبي الصغير الجميل، وهي تبكي وتنتحب طوال الليل، مفكرة في كونها وحيدة، وخائفة وبائسة، بعد أن توسلت وناشدت تلك المرأة ذات القلب الصخري لتسامحها. كانت قد منحتها تلك القبلات، وصناديق الحياكة، والحلي، من دون جدوى. أتصورها تنتحب أمام هذه المحنة القاسية التي مرت بها لأجلي. أضعفت صورتها من جأشي الواهن الذي تمكنت من حشده وحاولت الحفاظ عليه. وأخشى أن رعشة قد انتابتني لدقيقة أو نحو ذلك، على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي لإخفائها.

قلت: «لا يوجد شيء يمكنني قوله يا سيدي، إلا أن اللوم كله يقع على عاتقي. أما دورا...».

قاطعني والدها بوقار: «فلتدعوها بالآنسة سبنلو من فضلك».

واصلت كلامي بعد أن ابتلعت هذا التوجيه البارد، فقلت: «... استحثتني وأقنعتني، فوافقت على إخفاء الأمر، وإني لآسف عليه».

قال السيد سبنلو، وهو يمشي جيئة وذهابًا على السجادة المبسوطة جوار المدفأة، مؤكدًا ما قاله بجسده كله بدلًا من رأسه، بسبب تصلب ربطة عنقه وظهره: «إنك الملام أشد اللوم يا سيدي، لقد قمت بعمل خفي وغير لائق يا سيد كوبرفيلد. لقد اصطحبت رجلًا نبيلًا إلى منزلي، بغض النظر عما إذا كان في التاسعة عشرة أو التاسعة والعشرين أو التسعين من عمره، فإني قد اصطحبته إلى هناك بنفس واثقة. إذا أساء إلى ثقتي، فإنه ارتكب فعلًا مشينًا يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «أؤكد لك أنني أشعر بذلك يا سيدي. لكنني لم أفكر في الأمر من هذه الناحية من قبل. إنني – مع خالص تقديري، بصراحة، وفي واقع الأمر يا سيد سبنلو، لم أفكر في ذلك من قبل. إنني أحب الآنسة سبنلو إلى الحد ...».

قال السيد سبنلو بعد أن احمر وجهه خجلًا: «صه، كلام فارغ، أرجوك لا تقل لي في وجهي إنك تحب ابنتي يا سيد كوبرفيلد».

رحت أحدثه في مذلة، فقلت: «وهل يمكن الدفاع عن سلوكي إذا لم أكن أحبها يا سيدي؟».

قال السيد سبنلو بعد أن توقف: «هل يمكنك الدفاع عن سلوكك إذا أقررت بذلك يا سيدي؟ هل فكرت في سنك، وسن ابنتي يا سيد كوبرفيلد؟ هل فكرت في عواقب تخطي الثقة التي يجب أن تبقى بيني وابنتي؟ هل فكرت في مكانة ابنتي في الحياة، والمشاريع التي أفكر فيها لمستقبلها، ومخالفتها لوصيتي لها؟ هل فكرت في أي شيء من هذا يا سيد كوبرفيلد؟».

أجبته، متحدثًا إليه باحترام وحزن معًا: «أخشى أن أقول إنني لم أفكر في الأمر يا سيدي، لكن أرجو أن تصدقني، لقد فكرت في موقفي من الحياة. لقد شرحت ذلك لك، لقد كنا مرتبطين بالفعل عندما...».

تحدث السيد سبنلو بصورة لم أعهدها من قبل، فكان كالمتأثر بشراب البانش، يضرب كفًّا بكف - لم أستطع منع نفسي من ملاحظة هذا الانفعال وإن كنت مغمومًا، فقال: «أرجوك، لا تتحدث معي عن الارتباط يا سيد كوبرفيلد».

ضحكت الآنسة مردستون التي لم تحرك ساكنًا بخلاف ما أبدته من احتقار.

بدأت الحديث مرة أخرى، مستبدلًا بأشكال التعبير غير المستساغة له، أخرى جديدة، فقلت: «شرحت لك موقفي المتغير يا سيدي، فكان هذا الإخفاء الذي قدت إليه الآنسة سبنلو قد بدأ يؤرقني. ومنذ أن تغيرت ظروفي صرت تحت وطأة إجهاد عصبي مروع، بذلت كل طاقتي لتحسينه. إنني متأكد من أنني سأحسن ظروفي في وقت مناسب. هل ستمنحني الوقت، أي فترة زمنية طويلة؟ فكلانا لم يزل صغير السن يا سيدي ...».

قاطعني السيد سبنلو، وأومأ برأسه عدة مرات، ثم تحدث عابس الوجه فقال: «إنك على حق، كلاكما صغير جدًّا. إن كل ما جرى محض هراء، ويجب أن نضع حدًّا له. ارمِ هذه الرسائل بعيدًا واحرقها في النار. أعطني رسائل الآنسة سبنلو لأحرقها في النار، وعلى الرغم من أن تعاملنا المستقبلي يجب، كما تعرف، أن يقتصر على العمل في مجلس العموم هنا، فإننا سنتفق على عدم ذكر الماضي مرة أخرى. تعالَ يا سيد كوبرفيلد، إنك لست من معدومي الإحساس، وهذه هي الحدود المعقولة».

كلا. لم أقتنع بهذه الفكرة ولم أستطع قبولها. كنت آسفًا ندِمًا، لكن ثمة اعتبارات أكبر من العقل. إن الحب فوق كل الاعتبارات الأرضية، لقد أحببت دورا حب عبادة، كما أحبتني تمامًا. لم أقل ذلك بالضبط، بل خففت وطأته قدر استطاعتي، لكني ضمَّنته هذه المعاني، وصممت عليه. لا أظن أنني تحدثت بلهجة سخيفة للغاية، لكنني أعلم أنني كنت حازمًا في قولي.

قال السيد سبنلو: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، يجب أن أجرب نفوذي مع ابنتي».

تكلمت الآنسة مردستون، بصوت معبر، بعد شهيق طويل، والذي لم يبدُ تنهيدًا ولا أنينًا ولكنه كان يشبههما، فقالت إنه كان من الأجدر به أن يفعل ذلك منذ البداية.

قال السيد سبنلو وقد وجد في هذا الكلام دعمًا لموقفه: «يجب أن أجرب نفوذي مع ابنتي. هل ترفض أن تأخذ هذه الرسائل يا سيد كوبرفيلد؟».

كنت قد وضعت الرسائل على الطاولة.

نعم أرفض. أخبرته أنني آمل ألا يظن أنني أخطأت حين رفضت طلبه، لكني لا أستطيع أن آخذ هذه الرسائل من الآنسة مردستون.

قال السيد سبنلو: «ولا أنا؟».



أجبته باحترام بالغ بلا، ولا منه.

قال السيد سبنلو: «عظيم جدًّا».

ساد الصمت، ولم أستطع أن أقرر ما إذا كنت سأنصرف أم أبقى. تحركت بهدوء أخيرًا نحو الباب، واعتزمت أن أقول إنه من الأفضل أن أنسحب ومن ثَم يستفتي قلبه، فإذا به يقول وقد أوغل يديه في جيوب معطفه -وهو كل ما يستطيع فعله- وكان مظهره أولى أن أدعوه بالتقي الورع:

«لعلك تعلم يا سيد كوبرفيلد، أن لديَّ بعض الأملاك، وأن ابنتي هي أقرب وأعز أقاربي».

سرعان ما أجبته بأنني أرجو ألا يكون الخطأ الذي زللت فيه بسبب حبي الميؤوس منه، قد يدفعه إلى الاعتقاد بأنني من المرتزقة.

قال السيد سبنلو: «إنني لا ألمح إلى الأمر في ضوء هذه الفكرة، لكن سيكون من الأفضل لك ولنا جميعًا، إذا كنت مرتزقًا يا سيد كوبرفيلد؛ أعني لو كنت كذلك لصرت أكثر تحفظًا وأقل تأثرًا بكل هذا الهراء الأهوج. كلا. لست أقصد إلا أن أقول إنه من وجهة نظر أخرى، لعلك على دراية بأنني صاحب أملاك سأورثها لابنتي».

أكدت كلامه تمامًا.

قال السيد سبنلو: «ولا يمكنك أن تفكر، بعد ما أحرزته من خبرة بما نراه هنا كل يوم في مجلس العموم من تصرفات الناس المتباينة غير المسؤولة والهوجاء -فيما يتعلق بترتيبات وصاياهم وإجراءات توزيع التركة- ولا يمكن لي من بين جميع الموضوعات التي أجد فيها أغرب تناقضات البشرية، أن أغفل هذا الأمر فيما يخصني».

رحت أميل رأسي موافقًا.

قال السيد سبنلو، وقد زادت نبرته ورعًا وتأثرًا، وهو يهز رأسه ببطء مرتكزًا على أصابع قدميه ثم كعبيه بالتناوب: «لا ينبغي أن أسمح لابنتي أن تتأثر بحماقة كهذه من حماقات الشباب. إنها ليست سوى نزوة، وهراء مطلق، لن يلبث في غضون فترة وجيزة إلا أن يزن مثقال ريشة أو أخف. لكن ربما... ربما إذا لم تتخلَّ تمامًا عن هذا الفعل السخيف، فإنني قد أضطر في لحظة قلق أن أحميها من عواقب أي خطوة حمقاء تدفع بها إلى طريق الزواج، وأحيطها بحمايتي من عواقب أي نزق. أما الآن يا سيد كوبرفيلد، فإني أرجو ألا تضطرني، ولو لربع ساعة، أن أبدل تلك الصفحة المنطوية من كتاب حياتي، فأعيد النظر أو أمحو ما خلصت إليه بصياغته النهائية منذ عهد بعيد».

ساد هدوء، واستقرت عليه السكينة مع نسيم الغروب الهادر، مما كان له أبلغ الأثر. لقد صار مسالمًا ومستكينًا، وبدا أنه اطمأن إلى أنه سيدبر شؤونه ويرتبها بمثالية، وأن الأمر قد انقضى. أحسب أنني رأيت حقًّا دموعًا تنهمر من عينيه، من عمق إحساسه بكل ما مضى.

لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ لم أستطع أن أنكر حبي لدورا ولا أن أتخلى عن حبيبة قلبي. أخبرني أنه من الأفضل أن أقضي أسبوعًا للتفكير فيما قاله، فكيف أقول إنني لا أحتاج إلى أسبوع، بل كيف يمكن أن أغفل عن يقيني بأن أسابيع عدة لا يمكنها أن تنزع مني هذا الحب؟

قال السيد سبنلو وهو يصلح من ربطة عنقه بكلتا يديه: «تستطيع في هذه المدة أن تتشاور مع الآنسة تروتوود، أو مع أي إنسان لديه أي خبرة في الحياة. خذ أسبوعًا للتفكير يا سيد كوبرفيلد».

استسلمت، وخرجت من الغرفة راسمًا على وجهي ما استطعت من سمات الوفاء والغم واليأس. تبعني حاجبا الآنسة مردستون الثقيلان إلى الباب -أقول حاجبيها بدلًا من عينيها، لأنهما كانا أبرز ما في وجهها- وراحت تنظر إليَّ بالنظرات ذاتها، التي كانت ترمقني بها في ساعات الصباح الأولى في منزلنا، بل بالتحديد في صالة الاستقبال في بلندرستون، إلى الحد الذي قد يدفعني إلى الظن بأنني أخطأت في دروسي مرة أخرى، بل صار العبء الثقيل الذي يشغل ذهني هو تذكري لكتاب الإملاء القديم البشع الذي يحوي نقوشًا جافة بيضاوية الشكل، والتي كانت تُخيل إليَّ مثل زجاج مقعر داخل إطار نظارات.

وصلت إلى المكتب، فأشرت إلى تيفي القديم وبقية زملائي بتركي وشأني، ثم جلست على مكتبي منزويًا أفكر في هذا الزلزال الذي هزني. رحت ألعن جيب في مرارة ويأس، بعد أن سيطرت عليَّ حالة من العذاب والرثاء لدورا. رحت أتساءل كيف لم أحمل قبعتي مسرعًا في جنون إلى نوروود. قادني تفكيري إلى أنهم سيروعونها، ويدفعونها

إلى البكاء، بينما أنا غائب عنها لا أستطيع تهدئتها. كانت هذه الأفكار مؤلمة أشد الألم، حتى إنها دفعتني إلى كتابة رسالة جامحة إلى السيد سبنلو، أتوسل فيها إليه ألا يحملها عواقب قدري الأغبر. لقد ناشدته أن يرحم روحها المرهفة، فلا يسحق هذه الزهرة الهشة. أتذكر بوضوح أنني مضيت أخاطبه بكلمات عامة، لا بصفته والد دورا، بل كما لو أنه غول، أو تنين وانتلي[1]. أغلقت هذه الرسالة ووضعتها على مكتبه قبل عودته، وعندما دخل رأيته عبر باب غرفته - فقد كان نصف مفتوح - وقد تناولها وقرأها.

لم يقل شيئًا عنها طوال الصباح، ولكنه دعاني إليه قبل مغادرته ظهرًا، وأخبرني أنني لست بحاجة إلى الشعور بالقلق على الإطلاق حيال حال ابنته وسعادتها. قال إنه قد أكد لها أن كل هذه الأحداث محض هراء، ولم يزد. لقد حسب أنه أب متسامح (وقد كان كذلك بالفعل)، وقد أعفاني من أي قلق عليها.

قال لي: «قد تضطرني يا سيد كوبرفيلد، إذا دفعك سلوك أحمق أو عنيد، إلى أن أرسل ابنتي إلى خارج البلاد مرة أخرى لفترة ما، إلا أن رأيي فيك هو أنك أفضل من أن تسلك هذا المسلك. أرجو أن تتسم بقدر أكبر من الحكمة في غضون أيام قلائل. أما الآنسة مردستون...» -لأنني أشرت إليها في الرسالة- «فإنني أحترم يقظة هذه السيدة، وأشعر بفضلها، إلا أنني منعتها من الحديث عن هذا الأمر. إن كل ما أرغب فيه

---

(١) تنين مُجسَّد على حجر رملي في شمال غرب مدينة شيفيلد بإنجلترا، تحكي الأسطورة أنه قُتل على يد أحد الفرسان.

يا سيد كوبرفيلد هو أن تنسى ما جرى. حقًّا كل ما عليك فعله يا سيد كوبرفيلد هو النسيان».

أهذا كل ما عليَّ فعله! لقد كتبت إلى الآنسة ميلز، فنقلت إليها مرارة هذا الشعور. رحت أقول لها بسخرية كما في كوميديا سوداء إن كل ما عليَّ فعله هو أن أنسى دورا. كان هذا هو كل شيء، لكن ما معناه؟! توسلت إلى الآنسة ميلز طالبًا أن تقابلني في هذا المساء. وإذا لم تستطع ذلك أو عارضه وجود السيد ميلز، فإنني أطلب مقابلتها سرًّا في المطبخ الخلفي عند موضع عصارة الملابس. أخبرتها أن عقلي راح يترنح منزلقًا عن عرشه، وأنها الوحيدة -أعني الآنسة ميلز- التي يمكنها منع الإطاحة به. وقعت الرسالة بقولي، إني خادمها المشتت. لم أتمالك نفسي بعد قراءة هذه العبارات قبل أن أرسلها، فشعرت أنها أشبه بطراز وأسلوب السيد ميكوبر.

أرسلتها على الرغم من كل شيء، ثم توجهت في الليل إلى الشارع الذي تسكن فيه الآنسة ميلز، ورحت أجُوبه ذهابًا وإيابًا، حتى أقبلت إليَّ خادمتها خلسة، واصطحبتني في الطريق وصولًا إلى المطبخ الخلفي. لقد أدركت منذ ذلك الحين من الأسباب ما يجعلني أظن بأنه ما من شيء على الأرض كان يمنعني من الدخول من الباب الأمامي، أو الجلوس في غرفة المعيشة، باستثناء حب الآنسة ميلز للرومانسية والغموض.

أفضيت في المطبخ الخلفي بما جئت به مهتاجًا. أحسب أنني ما ذهبت إلى هناك، إلا لأفرغ حماقاتي، وأنا على يقين تام بأنني كنت أحمق بالفعل. تلقت الآنسة ميلز رسالة عاجلة من دورا، تخبرها أن

كل شيء قد كشف، وتقول: «آه، تعالي إليَّ يا جوليا، هيا، تعالي»، لكن الآنسة ميلز لم تثق في قبول وجود ما أسمته «السلطات العُليا»، ومن ثَم لم تذهب، وهكذا كنا جميعًا تائهين في ظلمات صحراء قاحلة.

تدفق من الآنسة ميلز سيل رائع من الكلمات، وأحبت أن تسكبها على مسامعي. اختلطت دموعها بدموعي، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بأنها أحست لذة مروعة في مصابنا. وإني لأجرؤ على القول بأنها راحت تلاطف محنتنا، وتستغل مصابنا إلى أقصى حد. قالت الآنسة ميلز إن هوة عميقة انفتحت بيني وبين دورا، ولا يمكن للحب إلا أن يمتد إليها فيحيطها بطيف ألوانه، وإن الحب عليه أن يتألم في هذا العالم القاسي، هكذا كان الأمر فيما مضى، وسيبقى إلى الأبد، ولكن هذا لا يهم، لأن القلوب المحصورة ستنفجر داخل أنسجة العنكبوت أخيرًا، حتى ينتقم الحب ويظفر.

كان في كلامها نوع من العزاء اليسير، إلا أن الآنسة ميلز قالت إنها لن تشجع الآمال الكاذبة. لقد تركتني أكثر غمًّا من ذي قبل. شكرتها وأعربت لها عن امتناني العميق، وقد أحسست أنها صديقة وفية. لقد عزمنا على أن تذهب إلى دورا في الصباح، وأن تحاول طمأنتها بكل وسيلة ممكنة، سواء بالنظرات أو الكلمات التي تؤكد لها إخلاصي وبؤسي. افترقنا بعد أن غمرنا الحزن، وأحسب أن الآنسة ميلز قد استمتعت تمامًا به.

أفضيت إلى عمتي بكل شيء بعد وصولي إلى المنزل، ثم أويت إلى فراشي يائسًا على الرغم من كل ما قالته لمواساتي. استيقظت

مستيئسًا وخرجت يائسًا. كنت في صباح يوم سبت، فتوجهت مباشرة إلى مجلس العموم.

انتابتني الدهشة فور وصولي إلى باب المكتب حيث رأيت بعض العاملين يقفون في الخارج يتحدثون معًا، ونحو ستة مارة يحدقون في النوافذ المغلقة. أسرعت من خطوي، ومررت من بينهم، متعجبًا من مظهرهم، إلى أن دخلت إلى المكتب على عجل.

وجدت الكتبة على مكاتبهم، لكنهم لا يؤدون أعمالهم. وأبصرت تيفي -أكبر العاملين- لأول مرة في حياته جالسًا على كرسي غير كرسيه، من دون أن يخلع قبعته ويعلقها.

قال عندما دخلت: «يا لها من كارثة مروعة يا سيد كوبرفيلد!».

صرخت: «ما هي؟ ماذا جرى؟».

صرخ تيفي كما صرخ معه الباقون، وهم يدورون حولي قائلين: «ألا تعرف؟».

رحت أنظر من وجه إلى آخر قائلًا: «لا».

قال تيفي: «السيد سبنلو».

قلت: «ماذا حدث له؟».

قال: «لقد مات».

حسبت أن المكتب أخذ يترنح، لا أنا، وقد أمسك بي أحد الكتبة قبل أن أسقط. أجلسوني، وأحلوا ربطة عنقي، وجلبوا لي بعض الماء. ولا أدري كم من الوقت مضى وأنا على هذه الحال.

قلت: «هل مات؟».

قال تيفي: «لقد تناول العشاء في البلدة أمس، واستقل عربته وحيدًا، بعد أن أرسل الحوذي إلى المنزل بالحافلة، كما كان يفعل في بعض الأحيان، كما تعلم».

قلت: «حسنًا، وماذا بعد؟».

قال: «وصلت العربة إلى المنزل من دونه. توقفت الخيول عند بوابة الإسطبل. خرج السائس ومعه الفانوس. فلم يجد أحدًا في العربة».

سألت: «هل جمحت خيول العربة؟».

قال تيفي وهو يضع نظارته: «لم يبدُ عليها أي إرهاق. ولم تكن أجسادها ساخنة، بل فهمت أنها راحت تسير بالوتيرة المعتادة. أما الزمام فقد كسر عنها، لكنها راحت تجره فوق الأرض. استيقظ أهل المنزل مباشرة على هذا الخبر، وخرج ثلاثة منهم على طول الطريق، فوجدوه على بُعد ميل من المنزل».

تدخل أحد الكتبة الصغار قائلًا: «وجدوه على بُعد أكثر من ميل يا سيد تيفي».

قال تيفي: «أحق هذا؟ أحسب أنك على صواب، وجدوه على بُعد أكثر من ميل، في مكان غير بعيد عن الكنيسة، منطرحًا على وجهه، وقد استلقى جزء من جسده على جانب الطريق والباقي على الطريق نفسه. لعله أصيب بنوبة فجائية، أو خرج عن العربة حين شعر بإعياء قبل ظهور النوبة، أو لعله مات في لحظة بعينها. لا شك في أنه كان فاقد

الوعي تمامًا خارج العربة، ولا يبدو أن أحدًا يعرف ما إذا كان قد استمر في التنفس خارجها أم لا، لكن من المؤكد أنه لم يتكلم قَطُّ. كانوا قد استدعوا المساعدة الطبية في أسرع وقت، لكنها لم تُجدِ نفعًا».

لا أستطيع أن أصف حالتي حين تلقيت هذا الخبر. كنت مصدومًا من هذا الحدث المفاجئ، الذي وقع لتوِّه لشخص اختلفت معه في أمر من الأمور، فإذا بشعور من فراغ مروع يحيط بالغرفة التي شغلها مؤخرًا، حيث بدا لي أن مقعده ومكتبه ينتظرانه. لاح خط يده الذي اكتتبه بالأمس شبحًا هائمًا وقد استحال فصله عن المكان. شعرت حين انفتح الباب أنه مقبل آتٍ لدخول مكتبه. أما هذا الصمت والسكون الساريان في المكتب، والإنصات النهم لأي حديث عن الحادث الذي سيطر على الزملاء، وتوافد أناس آخرون دخولًا وخروجًا من المكتب طوال اليوم، لاهين أنفسهم بالحديث عن الموضوع، فإنها في جملتها أحداث يسهل على الإنسان تصورها. ما لا أستطيع وصفه هو كيف أنني شعرت في أعماق قلبي بغيرة كامنة من الموت. كيف شعرت كما لو أن قوته ستزحزحني من مكانتي في عقل دورا. لا يمكن للكلمات أن تصف كيف رحت -على مضض- أحسدها على حزنها. كيف شعرت بالاضطراب حين فكرت في أنها تبكي حزنًا على أحد سواي، أو أنها تتلقى من غيري المواساة. كيف انتابتني رغبة جشعة في أسرها بعيدًا عن أي إنسان سواي، لأكون أنا لها الكل في الكل، في هذا الوقت غير المناسب دون غيره من الأوقات.

كنت في خضم هذه الحالة النفسية -التي لم أمر بها وحدي بل إنها معروفة عند الناس- وإذا بي أتوجه إلى نوروود في تلك الليلة، فعرفت من أحد الخدم بعد سؤالي وأنا بالباب أن الآنسة ميلز موجودة، ومن ثَم طلبت من عمتي أن تكتب رسالة إليها، وقد فعلت ما طلبته. قدمت عزائي لموت السيد سبنلو المفاجئ، وأعربت عن حزني بصدق، وذرفت الدموع ألمًا عليه. ناشدتها أن تقول لدورا -إذا كانت دورا في حالة تسمح لها بسماع ذلك- إنه قد تحدث معي بأقصى درجات اللطف والاحترام، ولم يذكر اسمها إلا بكل حنان وود، من دون أن يتفوه بكلمة واحدة مؤذية. أعلم أنني أقدمت على هذا القول بدافع من الأنانية، لأستدعي ذكر اسمي أمامها، لكنني حاولت أن أقنع نفسي أنه عمل عادل لإنعاش ذكراه. لعلني كنت أصدق ذلك.

تلقت عمتي في اليوم التالي بضعة أسطر ردًّا على رسالتها معنونة باسمها من الخارج، وموجهة إليَّ من الداخل. لقد تغلب الحزن على دورا، وعندما سألتها صديقتها هل تسمح لها بإرسال تحياتها وخالص حبها إليَّ، إذا بها لا تجيب إلا بالصراخ، لأنها كانت تبكي دائمًا قائلة: «آه يا أبي العزيز، آه، أيها الأب المسكين»، لكنها لم تقل لا، مما دفعني إلى تفسير الأمر أعجب التفسيرات.

حضر السيد جوركنز إلى المكتب بعد أيام قليلة، إذ كان في نوروود منذ وقوع الحادث. كان هو وتيفي مجتمعين على انفراد لبعض الوقت، ثم أطل تيفي من الباب وطلب مني الدخول.

قال السيد جوركنز: «آه، إنني والسيد تيفي على وشك فحص المكاتب والأدراج وغيرها من مستودعات المتوفى يا سيد كوبرفيلد، بهدف ختم أوراقه الخاصة والبحث عن الوصية، حيث إنه لا أثر لهذه الأشياء في أي مكان آخر. وقد يكون من الأفضل أن تساعدنا إذا سمحت».

كنت ملتاعًا أتطلع إلى معرفة أي شيء عن الظروف التي ستحيط بدورا؛ مَن سيتولى وصايتها وما إلى ذلك من أمور تخص وضعها الحالي. بدأنا البحث على الفور. أخذ السيد جوركنز يفتح الأدراج والمكاتب، وأخرجنا الأوراق جميعها. وضعنا أوراق المكتب في جهة، والأوراق الخاصة - وكانت محدودة - في جهة أخرى. رحنا نعمل في جد وتركيز، فإذا وجدنا ختمًا طائشًا، أو حقيبة أقلام رصاص، أو خاتمًا، أو أي شيء صغير من هذا النوع؛ أضفناه إلى متعلقاته الشخصية، كما أننا رحنا نتحدث بهدوء شديد في أثناء عملنا هذا.

أغلقنا عدة رزم بعد فحصها، واستمر عملنا بهدوء وسط الغبار، وإذا بالسيد جوركنز يحدثني بالكلمات نفسها التي كان يتحدث بها عن شريكه الراحل، فقال:

«إن السيد سبنلو لم يكن لينحرف عن مساره. إنك تعرف طبيعته، إنني أميل إلى الظن بأنه لم يدوّن أي وصية».

قلت: «حسنًا، أعرف أنه ترك وصية».

توقفا عن العمل وأخذا ينظران إليَّ.

قلت: «لقد أخبرني في اليوم الذي رأيته فيه وكان آخر عهدي به، أنه ترك وصية، وأن شؤونه قد حسمت منذ فترة طويلة».

هز السيد جوركنز والعجوز تيفي رأسيهما في وقت واحد بالموافقة.

قال تيفي: «الأمر لا يبدو مبشرًا».

قال السيد جوركنز: «غير مبشر على الإطلاق».

شعرت بالحديث قائلًا: «إنني على يقن أن...».

قاطعني تيفي بينما يضع يده فوق ذراعي، ويغمض عينيه وهو يهز رأسه قائلًا: «اسمع يا سيد كوبرفيلد، لو أنك قضيت في هذه المهنة ما قضيناه، لعلمت أنه ما من شيء في هذه الدنيا يربك الرجال أكثر من الوصية، فلا يمكن الوثوق فيما يقولون إلا بنزر قليل».

أجبته بإصرار: «حقًّا، يا للعجب، لقد أدلى بهذه الملاحظة ذاتها».

أردف تيفي قائلًا: «إنني أتصور أن الأمر محسوم، ورأيي هو أنه... لم يترك وصية».

بدا لي الأمر مذهلًا، لكن صار جليًّا أنه لم يترك وصية، بل إنه لم يكن يفكر في كتابة أي وصايا مطلقًا. لم تقدم أوراقه دليلًا على وجودها، بل لم يظهر تلميحًا أو مخططًا أو مذكرة تشي بوجود نية لترك وصية، ومما أثار دهشتي أيضًا أن مقتنياته كانت في حالة من الفوضى والاضطراب. سمعت أنه من الصعب تحديد ما عليه من ديون، أو ما سدده من فواتير، أو حصر ما يمتلكه عند موته. كان من المحتمل أنه هو نفسه لم يلم بجميع هذه الأمور لسنوات عدة. اتضح شيئًا فشيئًا أنه كان يحرص على

المنافسة في كل ما يخص المظهر، فإذا هو حسن المظهر بين أعضاء مجلس العموم، وقد أنفق ما يفوق دخله المهني على ذلك. لم يكن دخله ضخمًا، فإذا بمصروفاته قد قللت من موارده في أيامه الأخيرة. وإن كان في يوم من الأيام صاحب ممتلكات واسعة -وهو أمر مشكوك فيه إلى حد بعيد- فإنه تقلص جدًّا بالفعل. لقد بيع الأثاث وتراكمت رسوم الإيجار في نوروود، كما أخبرني تيفي -الذي لم يدرك مدى اهتمامي بالقصة- أنه سدد عن المتوفى جميع الديون العالقة، وخصم حصته من الديون غير المعروفة أو المشكوك فيها، وكذلك المستحقة للشركة، وأنها في مجملها لن تتجاوز الألف جنيه، مقابل الأصول المتبقية كلها.

انتهت هذه الإجراءات بعد انقضاء نحو ستة أسابيع على الوفاة، وقد عانيت أشد العذاب طوال هذه الفترة. حسبت أنني آذيت نفسي بيدي، بعدما أخبرتني الآنسة ميلز أن دورا الصغيرة محطمة الفؤاد لم تكن تتفوه بشيء حين يُذكر اسمي غير أن تقول: «آه يا أبي المسكين، آه يا أبي العزيز». لم يكن لدورا أقارب سوى عمتين عذراوين، تقيمان في بوتني، ولم تكونا على اتصال بأخيهما لسنوات عديدة إلا بقدر يسير. أخبرتني الآنسة ميلز أن هذا لا يعني أنهم تشاجروا معًا، ولكن بعد أن دُعيتا لاحتساء الشاي احتفالًا بطقس تعميد دورا، وكانتا قد اعتبرتا أنفسهما مقربتين بحيث يجدر بهما أن تدعيان إلى الغداء، فقد أعربتا عن رأيهما هذا في رسالة، فقالتا: «إنه من الخير لجميع الأطراف أن نبقى بعيدتين». ومنذ ذلك الحين شقتا طريقهما في الحياة، وشق أخوهما طريقه بعيدًا عنهما.

ها قد خرجت هاتان المرأتان من معزلهما الآن، واقترحتا اصطحاب دورا للعيش في بوتني. تشبثت دورا بهما وراحت تبكي وتصرخ قائلة: «نعم يا عمتيَّ، أرجوكما أن تصحباني أنا وجوليا ميلز وجيب إلى بوتني»، ولذا فقد رحلوا بعد وقت قصير من الجنازة.

لا أعرف كيف اتسع الوقت لي لأحوم حول بوتني. لقد ابتكرت بطريقة أو بأخرى، مسارًا للتجول في الحي لأكثر من مرة. التزمت الآنسة ميلز بواجبات الصداقة وحرصت على مراعاتها، فراحت تدون لي يوميات دورا، ثم تقابلني أحيانًا في حي المكاتب فتقرأها لي، وإن لم يسمح لها الوقت بالقراءة، فإذا بها تعيرني إياها. وكم أعتز بهذه المذكرات، التي احتفظت بعينة منها، كما تقول إحداها:

«الاثنين. لم تزل حلوتي د. مكتئبة للغاية. تشكو من الصداع. انتبهت إلى جيب ولجمال جسده وأناقته، فداعبته. وهكذا أيقظت الذكريات، وفتحت بوابات من الحزن. فاض الحزن عن جوفها. (هل الدموع قطرات تنسكب من القلب؟) ج. م.».

«الثلاثاء. د. واهنة ومنفعلة. جميلة حتى في شحوبها. (ألا نلاحظ هذا على القمر أيضًا؟ ج.م) خرجت د. مع ج. م. واصطحباج لاستنشاق الهواء في عربة. نبح ج. على أحد الكناسين، فتسبب في ابتسامة جلية على ملامح وجه د. (من هذه الروابط الطفيفة تتألف سلسلة الحياة) ج.م.».

«الأربعاء. د. مبتهجة إلى حد ما. أنشدت لها أغنية «أجراس المساء». لم تهدأ بل كان تأثيرها عكسيًّا. انفعلت د. بشكل لا يوصف.

وجدتها تبكي بعد ذلك في غرفتها. تلوت عليها أبياتًا من الشعر عنها وعن الغزال الصغير. لم تُجدِ نفعًا. أشرت أيضًا إلى الصبر المتجسد في نصب تذكاري. (لماذا جسد في نصب تذكاري؟) ج. م.».

«الخميس. تتحسن د. بالتأكيد. أمضت ليلة هادئة. مسحة طفيفة من لون خمري لاح على خديها مرة أخرى. ذكرت اسم د. ك. على استحياء وحذر ونحن نتريض. تغلب الحزن على د. على الفور. قالت: «آه يا عزيزتي جوليا، آه، لقد كنت طفلة شقية وغير بارة»، واسيتها وداعبتها. رسمت صورة خيالية لـ د. ك. على حافة قبر. تغلب الحزن على د. مرة أخرى. قالت: «آه، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟ آه، خذني إلى مكان آخر»، لفني قلق بالغ. فقدت د. وعيها، استعنا بكوب ماء من متجر قريب. (تقارب مجازي. مطرقة تعلو الباب؛ حياة بشرية متقلبة. واحسرتاه!) ج. م.».

«الجمعة. يوم الحادث. يظهر رجل في المطبخ بحقيبة زرقاء، راح يقول: «أحذية السيدات تُركت للإصلاح». ردت الطاهية: «لم نطلب هذه الخدمة». وقف الرجل يجادلها. انسحبت الطاهية للاستفسار، تاركة الرجل وحده مع جيب. عادت الطاهية، ولم يزل الرجل يجادل في الأمر، لكنه رحل في النهاية. صار جيب في عداد المفقودين. فُقد ج. أبلغنا الشرطة بالحادث. وصفت الرجل بأنفه العريض، وساقيه الشبيهتين بسياج الجسر. بحثنا في كل اتجاه. تبكي د. بمرارة على غياب ج. ولا عزاء. تجدد الإشارة إلى الغزال الصغير. مناسبة ولكنها غير مجدية. في المساء، يظهر صبي غريب ينادي. دخل إلى الصالون.

يتسم بأنف واسع، لكن ساقيه لا تشبهان السياج. يقول إنه يريد جنيهًا ويدل على الكلب. يرفض المزيد من التوضيح، على الرغم من الضغط عليه بشدة. تدفع د. الجنيه. تذهب الطاهية إلى منزل صغير، فتجد ج. مقيدًا إلى رجل الطاولة بمفرده. تبتهج د. وترقص حول ج. بينما يتناول عشاءه. تشجعت أمام هذا التغيير السعيد، فذكرت اسم د. ك. تبكي د. وتقول: «إنه من المؤسف أن أفكر في أي شيء سوى بابا المسكين»، تحتضن ج. وتبكي حتى تنام. (ألا يجب على د. ك. أن يصبر أمام نوائب الزمن؟) ج. م.».

كانت الآنسة ميلز ومذكراتها عزائي الوحيد في هذه الفترة. كانت رؤيتي لها عقب رؤيتها لدورا بقليل، وتتبع الحرف الأول من اسم دورا في صفحات مذكراتها قد زاداني تعاسة، ولكنها كانت وسائل راحتي الوحيدة. شعرت أنني كنت أعيش في قصر من الأوراق، وقد انهار، ولم يتبقَّ سوى الآنسة ميلز بينما أمكث بين الأنقاض. شعرت أن ساحرًا عجيبًا قد رسم دائرة سحرية حول ربة قلبي البريئة، فلا شيء في الواقع سوى أجنحة القدر القوية التي يمكنها أن تعين الكثير من الناس على تجاوز المحن ستمكنني من الدخول إليها.



# الفصل التاسع والثلاثون

## ويكفيلد وهيب

لاحت عمتي لي قلقة مرتبكة بسبب اكتئابي الذي طال، تظاهرت برغبة ملحة لدفعي للذهاب إلى دوفر لأتأكد من سير الأمور في منزلها في مسارها الطبيعي، وإبرام عقد مع المستأجر نفسه لمدة أطول من الإيجار. كانت جانيت قد عُيِّنت في خدمة السيدة سترونج، وقد كنت أراها كل يوم. ظلت مترددة قبل مغادرتها دوفر، تفكر فيما إذا كانت ستقطع علاقتها بجنس الرجال كما اعتادت من قبل، أو تتزوج من الربان، لكنها قررت ألا تتزوج، ليس حفاظًا على مبدأ عدم الزواج، على ما أظن، بل لأنها لم تحب ذلك الرجل.

تكبدت ألم فراق الآنسة ميلز، إلا أنني اقتنعت بذريعة عمتي، إذ رأيت أنها وسيلة ستمكنني من قضاء بضع ساعات من الهدوء مع أجنيس. استأذنت الدكتور الطيب في الغياب لثلاثة أيام عاجلة. أذن الدكتور لي بهذه الراحة، وتمنى لي لو أخذت فترة أطول للاسترخاء، لكن طاقتي لم تكن لتحتمل هذا الغياب، وبهذا قررت الذهاب ثم العودة حين أستطيع.

أما مجلس العموم، فلم أشعر أنني أحظى بفرصة كبيرة بالعمل فيه، بل والحقيقة أننا لم نحظَ بسمعة مميزة بين المحامين، وأخذ وضعنا في الانحدار سريعًا حيث المجهول. كان العمل مهملًا في عهد السيد جوركنز، قبل فترة شراكته مع السيد سبنلو، وعلى الرغم من تطوره بعد ضخ دم جديد، وبالإدارة التي قدمها السيد سبنلو، فإنه لم يرتكز على أساس قوي لتحمل ما يطرأ من تغيرات من دون أن يهتز، مثلما حدث في هذه الضربة التي أصابته بعد الفقدان المفاجئ لمديره النشط. لقد انحدرت أعمال المكتب. كان السيد جوركنز ذا سمعة ذائعة الصيت في الشركة، إلا أنه كان رجلًا هادئًا وغير مبالٍ، ولم تؤثر شهرته في الخارج، ولم تدعم استمرار العمل. تسلمت في هذه الأوقات عملي تحت إشرافه، فرأيته يستنشق سعوطه ويترك العمل هائمًا، فما ندمت على الألف جنيه التي دفعتها عمتي يومًا، أكثر من ندمي عليها في تلك اللحظة.

لم يكن هذا كله أسوأ ما في الأمر، فقد ظهر عدد من الدخلاء والغرباء في مجلس العموم، ممن ليسوا من أرباب مهنة المحاماة، انخرطوا في أعمال وسيطة، وأنجزوها تحت مظلة من المحامين الحقيقيين، الذين قدموا أسماءهم مقابل حصة في الغنيمة - ظهر عدد كبير من هؤلاء القوم أيضًا. صار مكتبنا الآن بحاجة إلى أعمال أيًّا ما كانت، ومن ثَم انضممنا إلى هذه الفرقة النبيلة، ورحنا نلقي بالإغراءات على السماسرة والدخلاء لجلب قضاياهم إلينا. كانت تراخيص الزواج والوصايا الصغيرة هي كل ما كنا نبحث عنه، كما

رحنا نتنافس منافسة شرسة على مثل هذه القضايا التي تجلب لنا أتعابًا مرتفعة. تناثر خاطفو القضايا والمخادعون في جميع الطرق المؤدية إلى مجلس العموم، محاولين بذل قصارى جهدهم لقطع الطريق على أي إنسان في ثياب الحداد، وكل من تبدو عليه مظاهر الخجل، ومن ثَم إغراؤهم للتعامل مع المكاتب المملوكة لأرباب عملهم. راح هؤلاء يتبعون التعليمات وينفذونها بدقة بالغة، حتى دُفعت مرتين دفعًا إلى مكتب خصمنا الرئيسي قبل أن يعرفني الناس بالنظر. أدت المصالح المتضاربة لهؤلاء السادة إلى إثارة مشاعرهم وأحقادهم، بل وقعت تصادمات شخصية بينهم، فانفضح أعضاء مجلس العموم أمام عميلنا الرئيسي (الذي كان يعمل سابقًا في تجارة النبيذ، ثم عمل بعد ذلك في مسار السمسرة والرهون) الذي أصيب في شجار وراح يتجول لعدة أيام بعينين متورمتين. لم يعتد أي من هؤلاء الكشافة أن يفكر في مساعدة سيدة عجوز ترتدي ثوب الحداد حتى تستطيع أن تنزل عن عربتها كنوع من الأدب، بل ربما يقتل أي محامٍ تسأل عنه السيدة العجوز، ثم يخبرها أن رب عمله يمثل الخليفة الشرعي والموكل عن هذا المحامي بعد وفاته، ثم تُساق السيدة العجوز (التي تتأثر بشكل كبير في أغلب الأوقات) إلى مكتب صاحب العمل. جُلب العديد من الأسرى إليَّ بهذه الطريقة ذاتها. أما المنافسة على تراخيص الزواج، فقد ارتفعت إلى درجة أن الرجل الخجول الذي يسعى للحصول على ترخيص، لا يسعه غير تسليم نفسه لأول صائد له، وإلا تشاجر السماسرة عليه، فيصير فريسة لأقواهم. كان من عادة أحد الكتبة عندنا، وهو من دخلاء

المهنة أيضًا، أن يجلس مرتديًا قبعته في ذروة هذه المنافسات، حتى يكون مستعدًّا للاندفاع بحلف اليمين أمام أي ضحية سيقت إلى المكتب. وأحسب أن هذه الطريقة ما زالت قائمة حتى يومنا هذا. رأيت في المرة الأخيرة التي زرت فيها مجلس العموم رجلًا مدنيًّا قوي البدن يرتدي بذلة بيضاء، قد انقض عليَّ فور وصولي إلى الباب، بينما راح يهمس في أذني بعبارة «رخصة زواج؟». استطعت بعد عناء منعه من أن يرفعني بذراعيه ليأخذني إلى مكتب محاميه.

اسمحوا لي أن أنتقل من هذا الاستطراد إلى دوفر، حيث وجدت كل شيء في المنزل على حاله، واستطعت طمأنة عمتي بشكل كبير بعد إبلاغها أن المستأجر قد ورث عداءها للحمير، وراح يشن حربًا متواصلة عليها. سويت بعض الأعمال الصغيرة التي كان عليَّ التعامل معها هناك، وقضيت ليلتي في دوفر، ثم تمشيت في الصباح متجهًا إلى كانتربري. كان الشتاء قد حل مرة أخرى، وإذا بنسيمه البارد ورياحه الهادرة، تجدد داخلي شعاعًا من الأمل.

وصلت إلى كانتربري، فتجولت في شوارعها القديمة وقد لفتني سعادة وسكينة، فهدأ انفعالي، وطاب قلبي. رحت أشاهد اللافتات القديمة، والأسماء التي أعرفها تعلو المحلات التجارية، وكبار السن ممن يخدمون فيها. بدا لي أن الوقت قد مر طويلًا، منذ أن كنت تلميذًا هناك، وكم تعجبت لأن المكان لم يتغير كثيرًا، حتى فكرت في مدى ضآلة ما اعتراني من تغيير كذلك. وإني أقر أنه من الغريب أن يكون هذا التأثير الهادئ الذي لم ينفصل في ذهني عن أجنيس، بدا كما لو أنه

انتشر وذاع في المدينة التي سكنتها. صارت أبراج الكاتدرائية ساكنة، بل وكذلك بدت الطيور والغربان، فلاح صوت الهواء من حولها أعلى من أصواتها التي قاربت السكون التام. صارت مداخل البلدة محطمة، بعد أن كانت تعج بالتماثيل، فإذا بها قد انهارت منطرحة منذ زمن طويل، مثلما فارقها الحجاج الذين قصدوا التمتع برؤيتها. صارت الزوايا ساكنة، حيث تسلل اللبلاب ناميًا على مدى قرون فافترش نهايات الجملون والجدران المدمرة، وغطى البيوت القديمة والمناظر الطبيعية لمراعي الحقول والبساتين والحدائق. لقد شعرت بالهواء الهادئ نفسه والسكينة ذاتها في كل مكان، وفي كل شيء.

وصلت إلى منزل السيد ويكفيلد، فوجدت السيد ميكوبر في الغرفة الصغيرة بالطابق الأرضي، حيث اعتاد يورايا هيب الجلوس. كان عاكفًا على الكتابة بعزم كبير، مرتديًا بذلة سوداء ذات مظهر رسمي، وقد بدا قوي البنية عظيم الهيئة في هذا المكتب الصغير.

كان السيد ميكوبر سعيدًا لرؤيتي، لكنه كان مرتبكًا أيضًا إلى حد ما. كان على وشك اصطحابي إلى مكتب يورايا على الفور، إلا أنني رفضت الذهاب معه قائلًا: «إنني -كما تعرف- أتذكر المنزل منذ عهد قديم، وسوف أجد طريقي إليه في الطابق العلوي. هل أحببت العمل بالقانون يا سيد ميكوبر؟».

أجاب: «يا عزيزي كوبرفيلد. إن رجلًا يتمتع بقدرات عالية على التخيل تمنعه كثرة التفصيلات والتشعبات من إحكام دراسة القانون». ألقى

نظرة خاطفة على بعض الرسائل التي كان يكتبها، ثم استطرد قائلًا: «حتى العقل لا يمكن أن يصير حرًّا في مراسلاتنا المهنية، فلا يرتقي إلى أي شكل من أشكال التعبير الفائق. ومع ذلك، فإنها مهنة عظيمة. مهنة عظيمة».

أخبرني أنه صار مستأجرًا لمنزل يورايا هيب القديم، وأن السيدة ميكوبر ستسعد باستقبالي مرة أخرى تحت سقف بيتها.

قال السيد ميكوبر: «إنه مسكن متواضع - وإني لأقتبس تعبيرًا مفضلًا عن صديقي هيب: لكنه قد يكون بمثابة نقطة انطلاق لسكن منزلي أكثر فخامة».

سألته ما إذا كان راضيًا حتى الآن بمعاملة صديقه هيب له، فإذا به ينهض ليتأكد أن الباب مغلق، قبل أن يجيب عن سؤالي بصوت منخفض قائلًا:

«يا عزيزي كوبرفيلد، الرجل الذي يعمل تحت ضغط من الأزمات المالية يجد نفسه في وضع محرج، وهذا ينطبق على الناس كافة. لا يتقلص هذا العيب، حين يدفعه العوز إلى سحب مكافآته المالية أو جزء من راتبه، قبل استحقاق صرفه المحدد. كل ما يمكنني قوله هو أن صديقي هيب قد استجاب للنداءات -التي لست بحاجة إلى ذكرها بالتحديد- بطريقة تُحسب له بما يتناسب مع ما يشرف عقله وقلبه».

قلت: «لم أتصور أنه كريم يصرف من حر ماله».

قال السيد ميكوبر: «عفوًا، إنني أتحدث عن تجربتي مع صديقي هيب».

قلت: «إنني سعيد أن تجربتك معه طيبة للغاية».

قال السيد ميكوبر: «إنك ذو خلق كريم يا عزيزي كوبرفيلد». ثم همهم ببعض الألحان.

سألته حتى أغير الموضوع: «هل ترى السيد ويكفيلد كثيرًا؟».

قال السيد ميكوبر باستخفاف: «ليس كثيرًا. إني لأجرؤ على القول بأن السيد ويكفيلد رجل طيب النيات، لكنه... باختصار، لقد عفا عليه الزمن».

قلت: «أخشى أن يكون شريكه من يدفعه إلى أن يصير على هذه الصورة».

تحدث السيد ميكوبر، بعد أن انتابته بعض الاضطرابات فوق كرسيه، فقال: «يا عزيزي كوبرفيلد، اسمح لي أن أدلي بملاحظة، إنني هنا لأنني محل للثقة. إنني هنا في موضع ثقة. إن مناقشة بعض الموضوعات، حتى مع السيدة ميكوبر نفسها (التي طالما شاركتني تقلبات حياتي المختلفة، كما أنها امرأة ذات عقل مبهر)، أمر لا يتوافق مع الواجبات التي توكل إليَّ الآن. لذلك أود أن أقول إن ثمة فارقًا بين علاقاتنا الودية - التي أثق أنها لن تتبدل أبدًا - وحدود عملنا، كما لو أنها على جانب من هذا الخط». أخذ السيد ميكوبر يرسم خطًّا وهميًّا على المكتب المقابل له، ثم أكمل قائلًا: «في هذا النطاق يكمن العقل البشري كاملًا، مع استثناء تافه ينتقل إلى الناحية الأخرى وهذا هو الاستثناء؛ أعني شؤون السيدين ويكفيلد وهيب بكل انتماءاتهما ومصالحهما. أثق أنني لن أسيء إلى

رفيق شبابي؛ أفإن قدمت إليه هذا الاقتراح، ألن يحكم عليه بحيادية ورجاحة عقل؟».

لاحظت تغيرًا واضطرابًا يطرأ على السيد ميكوبر، ما لبث أن سيطر عليه بإحكام، كما لو كانت واجباته الجديدة غير ملائمة، فشعرت أنه لا يحق لي الاستهانة بكلامه. فإذا به يبادر بمصافحتي كما لو أنه ارتاح واطمأن لما أخبرني به.

قال السيد ميكوبر: «دعني أؤكد لك يا كوبرفيلد أنني مسحور بالآنسة ويكفيلد. إنها شابة فاتنة للغاية، تتمتع بجاذبية ومواهب وذات خلق عظيم. أقسم لك بشرفي»، وراح يُقبِّل يده مرارًا وتكرارًا وأخذ ينحني بلطف قائلًا: «إنني أبجل الآنسة ويكفيلد».

قلت: «كم أنا سعيد بهذا».

قال السيد ميكوبر: «أيها العزيز كوبرفيلد، لولا أن أكدت لنا – في تلك المناسبة اللطيفة التي قضيناها في سعادة معك في الظهيرة – أن حرف الدال هو حرفك الأحب، لظننا أنه بلا شك حرف الألف».

لقد مررنا جميعًا بهذه التجربة الشعورية، والتي تنتابنا من حين إلى آخر، حين نقول أو نفعل شيئًا، فنستشعر أنه قيل من قبل وفعلناه من قبل منذ زمن بعيد – فقد كنا محاطين منذ زمن غابر بالوجوه والأشياء نفسها، وفي الظروف نفسها أيضًا – فعرفنا ما سيقال بالضبط، كما لو أننا تذكرناه فجأة. ولم ينتابني هذا الانطباع الغامض في حياتي بصورة أقوى مما أحسست حين نطق هذه الكلمات.

استأذنت من السيد ميكوبر حينها، وأوصيته بأن يحمل سلامي لجميع من في المنزل. ما إن تركته حتى عاد إلى مقعده وتناول قلمه، ثم هز رأسه ليستعيد أفكاره، ويستدعي الكتابة بسهولة. أدركت بوضوح أن ثمة شيئًا قد حال بيننا منذ أن تقلد وظائفه الجديدة، مما منع كلًّا منا من الاقتراب من الآخر بخلاف ما اعتدنا عليه، ومن ثَم تبدلت طبيعة علاقتنا تمامًا.

لم أجد أحدًا في غرفة الاستقبال القديمة العجيبة، على الرغم من ظهور آثار لوجود السيدة هيب. تجولت ببصري في أنحاء غرفة أجنيس، فرأيتها جالسة بجانب المدفأة على مكتب قديم الطراز، منهمكة في كتابة شيء ما.

انطبع خيال جسدي مشوشًا الضوء، فإذا بها ترفع رأسها ناظرة إلى أعلى. يا لفرحي أن أكون سببًا في تغيير هذا الوجه المشرق اليقظ، فأصير دافع هذا الاحترام والترحيب!

جلسنا معًا، جنبًا إلى جنب، فرحت أقول: «آه يا أجنيس، لقد اشتقت إليكِ كثيرًا».

فأجابت: «حقًّا؟ مرة أخرى! أبهذه السرعة؟».

أومأت برأسي بالإيجاب.

قلت: «لا أعرف كيف حدث هذا يا أجنيس. يبدو أنني أحتاج إلى الاستعانة بعقل مدبر. كنت معتادًا على أن تفكري في أموري في الأيام

الخوالي البهية التي قضيتها هنا، وقد جئت إليكِ كعادتي لطلب المشورة والنصح، وأحسب حقًّا أنني فقدت الموهبة».

قالت أجنيس بمرح: «وما هي؟».

أجبتها: «لا أعرف ماذا أسميها. أحسب أنني جاد ومثابر، ألستُ كذلك؟».

قالت أجنيس: «إنني متأكدة من ذلك».

سألتها في شيء من التردد: «وإنني لصبور يا أجنيس، ألستُ كذلك؟».

عادت أجنيس ضاحكة: «بلى، إلى حد بعيد».

قلت: «ومع ذلك أنا حزين وقلق للغاية، كما أنني مضطرب ومتردد إلى أبعد الحدود. أحتاج إلى شيء حتى أطمئن على نفسي، فأرغب فيما قد أسميه ملاذًا، هل أطلق عليه ملاذًا؟».

قالت أجنيس: «سمِّه ما شئت بما تستطيع التعبير به».

قلت: «حسنًا، اسمعي، لقد جئتِ إلى لندن، فإذا بي أهرع إليكِ محددًا هدفًا ومنهجًا في آن واحد. يدفعني هدفي إلى أن آتي إلى هنا، فإذا بي في لحظة أتبدل لأصير إنسانًا جديدًا. لم تتغير الظروف التي أرَّقتني منذ أن دخلت هذه الغرفة، لكن تأثيرًا يعتريني خلال هذه الفترة القصيرة، فيغيرني. وآه، كيف تحسنت حالتي؟! ما هذا؟! وأي سر تحملينه يا أجنيس؟!».

كان رأسها محنيًّا، تنظر إلى النار.

قلت: «إنها القصة القديمة، فلا تضحكي عندما أقول إن التأثير يظهر دائمًا في صغائر الأمور كما يظهر في الأمور العظيمة. كانت مشكلاتي القديمة تافهة، أما الآن فمشكلاتي خطيرة، ولكن كلما ابتعدت عن الفتاة التي وجدتها في محل أختي...».

وهنا، نظرت أجنيس إلى أعلى - بوجهها الملائكي - ثم قربت إليَّ يدها، فقبلتها.

استطردت قائلًا: «حين أحتاج إليكِ يا أجنيس ولا أجد السبيل إليكِ لنصحي كما في بداية عهدي بكِ، فإنني أشعر أنني كالتائه في الصحراء، والذي عليه أن يواجه مختلف صنوف الصعاب. وحين أتيت إليكِ أخيرًا (كما أفعل دائمًا)، فإنني ألوذ بالسلام والسعادة. ها قد عدت إلى المنزل الآن، كما المسافر المتعب، لأجد هذا الإحساس المبارك بالراحة والنعيم».

شعرت بصدق ما قلته، متأثرًا به أعمق التأثير، إلى الحد الذي خار فيه صوتي، فأخفيت وجهي بيدي، وانفجرت دموعي تسيل. أدون ما حدث بصدق، مهما كانت التناقضات الموجودة بداخلي، فهذه هي حال الكثير منا. لعل هذه التناقضات تختلف من إنسان إلى آخر، أو لعلها أقل حدة، لكن أيًّا ما فعلته، وإن انحرفت عن صوت قلبي، إلا أنني لم أكن أدرك شيئًا عن أمري. إن كل ما عرفته هو أنني كنت شديد الصدق، حين شعرت بالراحة والسلام لوجود أجنيس بالقرب مني.

كان أسلوبها أخويًّا هادئًا، وعيناها مشرقتين، وصوتها رقيقًا، فاستطاعت بهذا السكون المحبب - الذي أحال المنزل الذي كانت تسكن فيه منذ زمن بعيد إلى مكان مقدس - أن تشدني من هذا الضعف سريعًا، ومن ثَم قادتني إلى رواية كل ما حدث بعد لقائنا الأخير.

قلت بعدما أنهيت قصتي: «لا أجد كلمة أخرى لأقولها يا أجنيس، إنني الآن أعتمد عليكِ».

قالت أجنيس بابتسامة لطيفة: «لكن لا يصح أن يعتمد الأمر عليَّ يا تروتوود. يجب أن يعتمد على إنسان آخر».

قلت: «تقصدين دورا؟».

قالت: «بالتأكيد».

قلت بنوع من الإحراج: «حسنًا، إنني لم أقل لكِ من قبل يا أجنيس أن دورا من الصعب أن... لن أقول إنه من الصعب أن أعتمد عليها بشكل عام، لأنها روح نقية وصادقة، ولكن من الصعب جدًّا أن... إنني حقًّا لا أعرف كيف أعبر عن الأمر يا أجنيس. إنها مخلوقة خجولة، ومن السهل أن تشعر بالذعر والخوف. لقد حدث شيء بيننا منذ مدة، وقبل وفاة والدها. كنت أظن أنه من الصواب أن أوضح لها... لكنني سأخبركِ - إذا صبرتِ معي - كيف سارت الأمور».

وهكذا، أخبرت أجنيس عن إعلاني لفقري، وعن كتاب الطبخ، وحسابات التدبير المنزلي، وكل شيء.

استدعت أجنيس ابتسامتها قائلة: «آه يا تروتوود، يا لأسلوبك القديم المتهور نفسه! لعلك كنت قادرًا على خوض الحياة في جد، من دون أن تفاجئ فتاة منزوية ومحبة وساذجة مثلها. آه يا دورا المسكينة».

لم أسمع في حياتي قَطُّ صوتًا بهذا اللطف والسماحة، بالطريقة التي لاحت في نبرتها في هذا الرد. أحسست أن الأمر أشبه برؤيتي لها بينما تعانق دورا في إعجاب وحنان، فإذا بها توبخني ضمنيًّا، عن طريق حمايتها ورعايتها لها؛ تلوم تسرعي الأهوج الذي أفزع هذا القلب الصغير. أحسست أن الأمر أشبه برؤيتي لدورا وهي تعانق أجنيس بكل ما لديها من خفة وفتنة من دون تصنع، فتشكرها وتناشدها مداعبة أن تحميها، بينما تظهر محبتها لي بكل براءة وطفولية.

شعرت بامتنان بالغ لأجنيس، وزاد إعجابي بها، وتخيلت الفتاتين معًا، في مشهد مشرق، تبدوان فيه صديقتين حميمتين، كل منهما تزين الأخرى وتجملها.

نظرت إلى النار لفترة قصيرة، ثم رحت أسأل أجنيس: «ماذا أفعل يا أجنيس؟ ما العمل الصحيح الذي عليَّ القيام به؟».

قالت أجنيس: «أظن، أن الطريق المشرف الذي يجب اتباعه، هو أن تكتب إلى هاتين السيدتين. ألا ترى أن الطرق السرية هي دروب غير لائقة؟».

قلت: «نعم، ما دمتِ ترينها كذلك».

ردت أجنيس بتردد وخجل: «إنني لست أهلًا للحكم على مثل

هذه الأمور، لكنني بالتأكيد أشعر... باختصار، أشعر أن تصرفك بسرية وخفاء، هو سلوك لا يتوافق معك».

قلت: «أخشى أن أكون كذلك، في رأيكِ السامي للغاية عني يا أجنيس».

قالت: «إن مثلك يتمتع بفطرة صادقة، وبالتالي من الخير أن تكتب إلى هاتين السيدتين. الأفضل أن تروي لهما ما حدث، بأكبر قدر ممكن من الوضوح والصراحة، وأود أن تستأذن طلبًا لزيارتهما في منزلهما في الوقت الذي يناسبهما. أما وإنك شاب تسعى إلى تعزيز مكانتك في الحياة، فأحسب أنه من الأفضل أن تذكر لهما أنك ستتعهد بالالتزام بأي شروط تفرضانها عليك. فلتحثهما على قبول طلبك، من دون الرجوع إلى دورا أو مناقشتها، لتحددا وقتًا مناسبًا لهما». أكملت أجنيس حديثها بلطف قائلة: «لن أكون حادة أو أقترح فعل المزيد، بل أفضل أن أثق في إخلاصي ومثابرتي، كما أثق في دورا».

قلت: «ولكن ماذا لو أنهما أفزعتا دورا وتحدثتا إليها مرة أخرى يا أجنيس؟ إن فعلتا فإن دورا ستبكي، من دون أن تقول أي شيء عني».

سألتني أجنيس بملامحها العطوفة نفسها: «هل هذا محتمل؟».

فقلت: «بارك الله فيها، إنها تخاف بسهولة مثل الطيور. قد يحدث ذلك، أو ربما كانتا أختي السيد سبنلو (هاتان السيدتان المسنتان من الشخصيات غريبة الأطوار) ومن ثَم لا ينبغي على الأرجح مخاطبتهما بهذه الطريقة».

رفعت أجنيس عينيها الناعمتين نحو عيني، وقالت: «لا أظن ذلك يا تروتوود، إلا أنني سأفكر في الأمر. لعل الأفضل أن نفكر فيما إذا كان من الصواب القيام بذلك أم لا، فإذا خلصنا إلى الصواب، فلنفعله».

لم يرادوني شك في صواب هذه الفكرة، فأقبلت بقلب متعافٍ لا يخلو من إحساس عميق بأهمية مهمتي، فكرست فترة الظهيرة بأكملها لتكوين مسودة لهذه الرسالة. تخلت أجنيس عن مكتبها لي، لأجل هذا الغرض العظيم، لكنني نزلت أولًا إلى الطابق السفلي للقاء السيد ويكفيلد ويورايا هيب.

وجدت يورايا وقد حصل على حجرة مكتب جديد تفوح منها رائحة الجبس، تحيط بها حديقة، بينما يبدو حقيرًا بصورة غير معهودة، وسط مجموعة من الكتب والأوراق. استقبلني بطريقته المألوفة المتملقة، وتظاهر بأنه لم يسمع بنبأ وصولي من السيد ميكوبر، وقد سمحت لنفسي بتكذيب هذه الحجة. رافقني بعد ذلك إلى غرفة السيد ويكفيلد، التي لاحت أمامي مثل شبح لغرفته في الماضي - حيث جردت من مختلف وسائل الراحة والرفاهية، في سبيل إيواء هذا الشريك الجديد - ثم وقف يورايا أمام النار، ليدفئ ظهره، وأخذ يفرك ذقنه بيده، بينما أتبادل مع السيد ويكفيلد التحية.

قال السيد ويكفيلد: «هلا بقيت معنا يا تروتوود، خلال فترة وجودك في كانتربري؟».

قلت: «هل يتسع المكان لي؟».

قال يورايا: «بالتأكيد يا سيد كوبرفيلد - يجب أن أناديك بـ: يا أيها السيد، لكن الأولى تصدر مني بصورة طبيعية - سأتخلى عن غرفتك القديمة بكل سرور، إذا قبلت ذلك».

قال السيد ويكفيلد: «كلا، لماذا نزعجك؟ تتوفر غرفة أخرى. تتوفر غرفة أخرى».

قال يورايا مصطنعًا ابتسامة: «آه، لكنك تعرف أنني سأكون سعيدًا حقًّا».

اختصرت الأمر وقلت إنني سأنام في الغرفة الأخرى وإلا مضيت، فوافقا. استأذنت في الانصراف حتى وقت تناول الغداء، ثم صعدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى.

كم تمنيت ألا أحظى برفقة أحد سوى أجنيس! إلا أن السيدة هيب استأذنت في إحضار أدوات حياكتها والجلوس بالقرب من نار المدفأة في هذه الغرفة، بدعوى أنها ملائمة لمرضى الروماتيزم، وأطيب ريحًا في هذا الوقت من غرفة الاستقبال أو الطعام. تمنيت لو وضعتها تحت رحمة الريح على قمة برج من أبراج الكنيسة، ولم أكن لأندم على ذلك، إلا أنني تصرفت بأدب، فألقيت عليها التحية والسلام.

قالت السيدة هيب ردًّا على سؤالي عن حالها وصحتها: «إنني ممتنة لك يا سيدي، فأنا في خير حال. لا أطمع في شيء غير أن أرى يورايا مستقرًّا في الحياة، وهذا كل ما أرجوه. ما رأيك في يوري يا سيدي؟».

حسبت أنه يبدو أكثر شرًّا من أي وقت مضى، إلا أنني أجبتها أنني لا ألاحظ فيه أي تغيير.

قالت السيدة هيب: «آه، ألا تظن أنه تغير؟ اسمح لي هنا أن أخالفك الرأي. ألا تلاحظ أنه قد صار أكثر نحافة؟».

أجبتها قائلًا: «ليس أكثر من المعتاد».

قالت السيدة هيب: «وليكن! إنك لا تنظر إليه بعين الأم».

قابلت عين والدته عيني، فأحسست أنها تنظر بشر إلى بقية العالم، وإن كانت تنظر إلى ابنها بنظرة حانية، وأظن أنهما كانا مخلصين لبعضهما بعض. تحولت نظراتها بعد ذلك إلى أجنيس.

سألتها السيدة هيب: «ألا تلاحظين يا آنسة ويكفيلد أنه قد صار أنحف؟».

قالت أجنيس وهي تتابع عملها بهدوء: «لا، إنكِ مهتمة به للغاية. إنه في أفضل حال».

استأنفت السيدة هيب الحياكة بعد أن أصدرت عطسة مدوية.

لم تتوقف قَطُّ، ولم تتركنا لحظة. كنت قد وصلت في وقت مبكر من اليوم، وقد تبقى ثلاث أو أربع ساعات على موعد الغداء. إلا أنها مكثت في مكانها، تزج إبرتها في رتابة مثل ساعة زجاجية تسكب رمالها. ظلت جالسة إلى جانب نار المدفأة، بينما جلست إلى المكتب الذي يقابلها وجلست أجنيس بجواري.

رحت أفكر في رسالتي بتأنٍّ، فإذا رفعت عيني قابلت وجه أجنيس المتأمل، ورأيته واضحًا، فأشعر بتشجيع ينبعث من ملامحها الملائكية، إلا أنني لم أزل مدركًا في اللحظة ذاتها لتلك العين الشريرة التي تلتفت إليَّ، أو تتجه نحوها، ثم تعود إليَّ مرة أخرى، ثم تهبط إلى غزلها خفية. أي غزل هذا؟ لا أعرف، إنني لم أتعلم هذه المهارة، لكن ما صنعته بدا لي مثل الشبكة. راحت تعمل بعيدان صينية مخصصة للحياكة، فلاحت مع ألسنة النار مثل ساحرة شريرة، يقيدها ذلك الخير المتوهج الذي يجلس الآن مقابلًا لها، ولكنها على استعداد لإلقاء شبكتها في أي وقت.

حافظت على مراقبتها لنا بالعينين الغامضتين أنفسهما في أثناء الغداء. ثم أخذ ابنها دورها في المراقبة بعد انتهاء الغداء. أما بعد أن تُرِكنا أنا والسيد ويكفيلد معًا، إذا بيورايا يتصنع ابتساماته لنا، حتى إنني لم أستطع تحمل ذلك المشهد. راحت الأم تحوك وتراقب مرة أخرى في غرفة الاستقبال بعد أن جلست إلى جوار البيانو، بينما راحت أجنيس تغني وتعزف. طلبت الأم من أجنيس أن تغني أغنية ما، قائلة إن يوري يحبها (راح يورايا يتثاءب فوق كرسيه الكبير)، بينما راحت تنظر إليه من حين لآخر، وأخبرت أجنيس أنه في حالة انتشاء من الموسيقى. أحسب أنها نادرًا ما تحدثت من دون ذكر ابنها، وإني لأتعجب إذا لم تفعل ذلك، فقد كان من الواضح أن هذا هو الواجب المنوط بها.

استمر الوضع على هذه الحال حتى حان وقت النوم. كان مشهد الأم وابنها أقرب إلى خفافيش كبيرة تحوم حول المنزل بأكمله، تُعتمه بهيئتها القبيحة. لم أشعر بالارتياح، ومن ثَم فضَّلت أن أمكث في الطابق

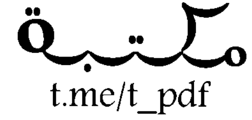
السفلي، أراقب الحياكة كما أتأمل كل شيء، بدلًا من أن آوي إلى الفراش. ولم تمر سوى ساعات النوم حتى استأنفت في اليوم التالي الحياكة والمراقبة من جديد، وقد استمرتا طوال اليوم.

لم تسنح لي الفرصة لأتحدث إلى أجنيس ولو لعشر دقائق. ولم أستطع أن أطلعها على رسالتي، فاقترحت عليها أن تخرج لتتمشى معي. إلا أن السيدة هيب راحت تشكو مرة تلو أخرى من أنها في حالة سيئة، ومن ثَم مكثت أجنيس برفقتها. خرجت بمفردي وقت الغسق لأفكر فيما يجب أن أفعله، كما فكرت في أن أمنع أجنيس مما هي مقبلة عليه، بعد ما قاله لي يورايا هيب عنها في لندن، لأن كلامه أقلقني من جديد.

لم أكن قد ابتعدت بما يكفي عن البلدة، فلم أزل على طريق رامسجيت الممهد، حتى سمعت صوتًا من ورائي يرحب بي عبر الغبار. لم أخطئ في التعرف على الإنسان الهزيل ذي المعطف الضخم. توقفت، وكان السائر خلفي هو يورايا هيب.

قلت: «ما الأمر؟».

قال: «ما أسرعك! إن ساقيَّ طويلتان جدًّا، لكنك أتعبتهما بسرعتك».




قلت: «إلى أين تتجه؟».

قال: «إني ذاهب معك يا سيد كوبرفيلد، إذا سمحت لي بمتعة التمشي مع صديق قديم».

قلت بعد صمت محاولًا أن أبدو نشيطًا: «يورايا».

قال يورايا: «سيد كوبرفيلد».

قلت: «أقول لك الحق، وأرجو ألا تحسبها إهانة، لقد خرجت لأمشي وحدي، لا لأحظى برفقة».

رمقني بطرف عينه، وقال بابتسامة مجحفة: «أتقصد الابتعاد عن أمي؟».

قلت: «نعم، حقًّا».

قال: «آه، لكنك تعلم أننا متواضعان للغاية. ونظرًا لأننا نعلم منزلتنا الواهنة، فإننا يجب أن نحرص حقًّا على ألا نرتطم بالحائط لأننا لا نمتلك حيلة سوى الحب يا سيدي».

رفع يديه إلى ذقنه، ثم فركهما بهدوء، وضحك متأنيًا مثل قرد خبيث ماكر، بل أظن أنه لا يبدو لي مثل البشر.

قال ولم يزل يتلوى بطريقته البشعة، ويهز رأسه أمام وجهي: «كما ترى أنك لمنافس خطير جدًّا يا سيد كوبرفيلد كعادتك دومًا».

قلت: «هل تراقب الآنسة ويكفيلد، وتجعل منزلها بائسًا بسببي؟».

أجاب: «آه، يا سيد كوبرفيلد، إنها كلمات في غاية القسوة».

قلت: «فسِّر معاني الكلمات كما تحب، إنك تفهم مقصدي يا يورايا، أعرف ذلك».

قال: «آه، كلا، يجب أن تصوغ مقصدك في كلمات. حقًّا، إنني لا أفهم مقصدك».

أجبرت نفسي على الاتزان والهدوء في الحديث معه مراعاة لأجنيس، فقلت: «هل تفترض أنني أعتبر الآنسة ويكفيلد في مكانة غير مكانة الأخت العزيزة؟».

أجاب: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، إنك تدرك أنني لست ملزمًا بالإجابة عن هذا السؤال. لا يجوز لك، كما تعلم أن... ولكنني - كما تعرف - ربما...».

لم أرَ في حياتي قَطُّ شيئًا يضاهي هذا المكر المضمر في ملامحه، ولا مثل عينيه الخاويتين من أي انعكاس من دون ظل لرمش واحد.

قاطعته قائلًا: «اسمع، من أجل الآنسة ويكفيلد...».

صرخ بالتواء مريض منزويًا على نفسه، فقال: «هلا نادِها بأجنيس كما تناديها دومًا يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «من أجل أجنيس ويكفيلد، فليحفظها الله».

«شكرًا لك على هذا الفضل يا سيد كوبرفيلد».

«سأخبرك بما كنت سأقوله - لجاك كيتش[1] - أو تحت أي ظرف من الظروف».

قال يورايا وهو يمد عنقه ويمسك أذنه بكفه: «لمن يا سيدي؟».

قلت: «للجلاد، أو لأبعد شخص يمكن أن يخطر على بالي». كانت ملامحه في هذه اللحظة تلائم هذا التشبيه وتجعله طبيعيًّا تمامًا.

---

(١) جلاد إنجليزي شهير، استخدمه الملك تشارلز الثاني في تنفيذ أحكام الإعدام والتعذيب، واشتهر بوحشيته.

قلت: «إنني مرتبط بشابة. أرجو أن يريحك هذا الأمر».

قال يورايا: «أتقسم بشرفك؟».

كنت على وشك أن أمنحه تأكيدًا تلبية لطلبه، لكنه أمسك يدي وضغط عليها.

قال: «آه يا سيد كوبرفيلد، ليتك تعاطفت معي وبادلتني ثقتي بعدما بحت لك بمكنون قلبي، في تلك الليلة التي سهرنا فيها طويلًا أمام نيران المدفأة في غرفة جلوسك، فلو أنك فعلت ما كنت لأشك فيك أبدًا. سآخذ أمي كذلك بعيدًا الآن وأنا مطمئن فرح. أعلم أنك ستعذرني على ما بدر مني من حيطات الحب، أليس كذلك؟ يا للأسف يا سيد كوبرفيلد، لمَ لم تتنازل فتبادلني ثقتي؟! إنني متأكد من أنني هيأت لك كل الفرص لتثق بي. لكنك لم تتنازل قَطُّ، ولم تحقق ما كنت أتمناه. أعلم أنك لم تحبني قَطُّ، لكنني أعجبت بك للغاية».

ظل يضغط على يدي بأصابعه الرطبة المريبة طوال حديثه، بينما كنت أبذل قصارى جهدي لإفلاتهما، لكنني فشلت تمامًا. لقد ثبَّتهما تحت كُم معطفه الكبير ذي اللون التوتي، فرحت أسير معه بالإكراه تقريبًا، متأبطًا ذراعه.

قال يورايا بعد لحظة أدار فيها وجهه ناحيتي: «هل ستعود إلى المنزل؟». وكان القمر بازغًا يلقي أشعته الفضية على النوافذ.

تحدثت بعد أن قطعت صمتي الطويل: «قبل أن نترك الموضوع، يجب أن تفهم أنني أحسب أن أجنيس ويكفيلد في مكانة أعلى منك،

كما أنها بعيدة عن كل تطلعاتك، مثلها مثل ذلك القمر».

قال يورايا: «فلنهدأ، حسنًا، إنني أقر يا سيد كوبرفيلد أنك إلى الآن لم تحبني إلا أنني أعجبت بك. أحسب أنك تراني منحطًا للغاية إلى الآن، ألا ينبغي أن أتساءل عن ذلك؟».

قلت: «إنني أكره افتعال التواضع، كما أكره افتعال أي شيء آخر».

قال يورايا، وهو يبدو شاحبًا في ضوء القمر: «ها أنت تقولها الآن، كنت أعرف ذلك، لكنك لا تستطيع أن تتخيل مذلة إنسان في مكانتي يا سيد كوبرفيلد، لقد نشأت أنا وأبي في مدرسة خيرية للبنين، وكذلك نشأت أمي أيضًا في مؤسسة خيرية عامة. لقد علَّمونا جميعًا أن نسلك بقدر كبير من المذلة، فلم نعرف سواها من الصباح إلى المساء. كان علينا أن نكون وضعاء أمام هذا، وأن نكون أذلاء أمام ذلك، وأن نخلع قبعاتنا هنا، وننحني هناك، وأن ندرك دائمًا حجم مكانتنا ونذل أنفسنا أمام السادة. وكم كان لنا من سادة! حصل أبي على ميدالية تكريمًا لتواضعه، وحصلت على الميدالية ذاتها. وظفر أبي في الكنيسة لضعته، وكان يتمتع بمنزلة بين السادة، ولكونه رجلًا حسن التصرف أصروا على جلبه إلى هذا المكان. يقول أبي لي: «كن متضعًا يا يورايا، وستستمر. هذا ما تعلمته أنا وأنت في المدرسة، وإنه خير السلوك. كن متضعًا، وستحيا»، وحقًّا قمنا بذلك بنجاح».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخطر ببالي أن هذا النفاق البغيض للتواضع الزائف ربما يكون موروثًا من عائلة هيب. لقد رأيت الحصاد، لكنني لم أفكر قَطُّ في البذور.

قال يورايا: «عندما كنت صبيًّا صغيرًا، تعرفت على معنى الخذلان ورافقته، فالتهمته مثل فطيرة شهية. توقفت عند هذه النقطة الفارقة في تعليمي، وقلت لنفسي: «تمسكي بها بقوة». لقد عرضتَ عليَّ أن تعلمني اللاتينية، وكنت أعرف هذه اللغة بما فيه الكفاية، لكن أبي كان يقول: «إن الناس يحبون أن يرأسوك، فاجعل نفسك في مرتبة أقل منهم». إنني حتى هذه اللحظة حقير للغاية يا سيد كوبرفيلد، لكنني أتمتع بقليل من القوة».

تحدث إليَّ بكل هذا الحديث، لكنني رأيت وجهه بازغًا في ضوء القمر، وقد فهمت أنه يعتزم تعويض مذلته باستخدام قوته. لم أشك قَطُّ في لؤمه ومكره وحقده، لكنني أدركت في هذه اللحظة ولأول مرة، كيف تكون الروح الوحشية الانتقامية التي لا تهدأ، وقد كانت بلا شك وليدة هذا القمع المبكر، والكبت طويل الأمد.

ها قد انتهى هنا من حديثه عن نفسه، وخلصنا إلى نتيجة مقبولة، أدت إلى سحب يده ليستطيع إمساك ذقنه فيما يشبه عناقًا آخر لنفسه. ولم أكد أتخلص من يده حتى ابتعدت عنه، وكنت مصممًا على ألا أعاود الاقتراب منه. سرنا بعد ذلك عائدين إلى المنزل جنبًا إلى جنب، ولم نتبادل سوى قليل من الحديث. لا أعرف هل ارتفعت معنوياته بعد هذا الحوار الذي دار بيننا، أم أنه أحب هذا الانغماس والتأمل في الماضي وذكرياته. المهم أن معنوياته قد تأثرت، إذ راح يتحدث على الغداء أكثر من المعتاد. وطلب من والدته أن تكف عن دورها الرقابي

منذ لحظة عودتنا إلى المنزل. راح يتحدث عن نفسه، وعن أن فترة مكوثه بلا زواج قد طالت. نظر ذات مرة إلى أجنيس، فتمنيت لو تخليت عن كل ما أملك في سبيل قتله.

صرنا نحن الرجال الثلاثة بمفردنا بعد الغداء، فإذا بيورايا يدخل في حالة تميل إلى المغامرة. لعله تناول القليل من النبيذ أو لم يتناوله على الإطلاق، فأحسب أن شعورًا وقحًا من الانتصار كان قد سيطر عليه، وربما أغراه وجودي لعرض هذه الجرأة.

لاحظت ليلة أمس، أنه حاول إغراء السيد ويكفيلد على الإكثار من الشراب، وفهمت من تعبيرات وجه أجنيس قبل أن تخرج أنها تنبهني إلى أن يقتصر الشراب على كأس واحدة، وبعدها أقترح الانصراف لمرافقتها. كنت أعتزم فعل ذلك اليوم، إلا أن يورايا كان أسرع مني.

تحدث يورايا إلى السيد ويكفيلد، وهو يجلس مقابلًا له عند طرف الطاولة، فقال: «إننا لا نرى زائرنا الحالي إلا نادرًا يا سيدي، ويجب أن أقترح أن أرحب به بكأس أو كأسين من النبيذ، إذا لم تمانع يا سيد كوبرفيلد، في صحتك وسعادتك».

لقد اضطررت إلى قبول الكأس من اليد التي مدها نحوي، وبإحساس مختلف كل الاختلاف أمسكت بيد الرجل المحطم... أمسكت بيد شريكه.

قال يورايا: «هيا يا شريكي، إذا جاز لي أن أستأذن الآن، فإني أطلب أن نشرب كأسًا أو اثنتين في نخب كوبرفيلد».

لقد تجاوزت ما اقترحه السيد ويكفيلد بشرب نخب في صحة عمتي، ثم في صحة السيد دك، ثم نخب في صحة «المحامين»، ثم نخب يورايا. راح يشرب لكل نخب كأسين، وبدا عليه الضعف وانسحاب الوعي، ومجاهدته ليتماسك أمامنا من دون جدوى، وصراعه بين عار مذلته أمام سيطرة يورايا عليه ورغبته في التصالح معه بإرضائه. بينما ابتهج يورايا ابتهاجًا ظاهرًا وأخذ يتلوى ويمسك بي. وكم أشعر بالغثيان والألم حين أسترجع هذا المشهد، فإذا بيدي ترتعش وتنأى عن كتابته ووصفه!

قال يورايا أخيرًا: «تعالَ أيها الشريك، سأمنحك كأسًا، وإني أطلب بكل اتضاع كأسًا كبيرة، لأنني سأشرب نخب أطهر الفتيات».

كان والدها يحمل كأسه الفارغة في يده. رأيته يضعها، ثم ينظر إلى الصورة التي تشبهها، وقد وضع يده على جبهته، ثم تراجع منزويًا في كرسيه.

استطرد يورايا قائلًا: «إنني إنسان وضيع لا أرتقي إلى أن أشرب نخبها، لكنني معجب بها... بل أعشقها».

لا أتصور ألمًا يضاهي ما يحمله رأس والدها الأشيب، ولم يلح لخاطري مشهد أكثر فظاعة من هذا المشهد، بما يحمله من ألم نفسي تجلى في رعشة يديه في هذه اللحظة.

قال يورايا متجاهلًا عاقبة تصرفه أو غير مدرك لأثر أفعاله: «أجنيس... إن أجنيس ويكفيلد هي... يمكنني أن أقول إنها أرقى بنات

جنسها. هل يمكنني التحدث بحرية كما هو الأمر بين صديقين؟ أن يكون المرء والدها لهو فخر وعزة، ولكن أن أصير زوجها...».

كيف أنقذني من هذا الكلام سماع صرخة ثانية من أبيها، مثل التي أطلقها على الطاولة! قال يورايا بعد أن تحول لونه إلى شحوب الموتى: «ما الخطب؟ أرجو ألا تكون قد أصبت بالجنون يا سيد ويكفيلد، بعد أن بحت لك بكل شيء. إذا قلت إنني أطمح في الزواج من أجنيس، فهذا من حقي تمامًا مثل أي رجل آخر، بل إني أحق بها من أي رجل آخر».

أحطت السيد ويكفيلد بذراعي، وناشدته بكل ما يخطر ببالي من عزيز وغالٍ، واستحلفته مرات عديدة بحبه لأجنيس أن يهدأ قليلًا. لقد بدا عليه غضب عارم في تلك اللحظة؛ غضب قد يدفعه إلى تمزيق شعره، أو ضرب رأسه، أو إفلات نفسه مني، أو إجباري على التخلي عنه بقوة، بينما لم يرد على كلامي ولو بكلمة واحدة، ولم ينظر إلى أحد، كأنه لا يرى شيئًا، وبدا كمن يصارع شيئًا لا يراه ولا يعرف كنهه، وإذا بوجهه محدقًا مشدوهًا. كم كان المشهد مروعًا!

رحت أحدثه بعبارات غير مترابطة، وتوسلت إليه راجيًا ألا يستسلم لهذا الشعور الوحشي، وأن ينصت إلى قولي. استحلفته أن يفكر في أجنيس، وفي العلاقة الطيبة التي تربطني بها، ليتذكر كيف نشأنا وتربينا أنا وأجنيس معًا، وكيف كرَّمتها وأحببتها، وكيف كان فخورًا وسعيدًا بها. حاولت أن أجلب صورتها لذهنه بأي صورة ممكنة، حتى إنني

عاتبته على التفكير بها في مثل هذا المشهد. لعلّي قد أثّرت فيه بشيء ما، أو كبحت من وحشية انفعاله، أو قللت من معاناة هذا المشهد. بدأ بعدها ينظر إليَّ، ولاحت نظراته غريبة في البداية، ثم تسلل الإدراك والصحو إلى عينيه. تحدث في النهاية قائلًا: «أعرف هذا يا تروتوود! يا ابني الحبيب وإنك... أعرف، لكن انظر إليه».

أشار إلى يورايا الذي لاح شاحبًا ومنزويًا في أحد الأركان، وكان من الواضح أنه انحرف كثيرًا عن حساباته، متفاجئًا من عواقب فعلته.

استطرد السيد ويكفيلد: «انظر إلى جلادي هذا، لقد تخليت عن اسمي وسمعتي أمامه خطوة بخطوة، كما تخليت عن السلام والهدوء، ومنزلي ومأواي».

قال يورايا بلهجة من التسوية العقيمة والسريعة لمنهزم: «لقد حافظتُ على اسمك وسمعتك، وسلامك وهدوئك، ومنزلك ومأواك أيضًا، لا تكن أحمق يا سيد ويكفيلد. وإذا كنت قد تجاوزت قليلًا ما كنت مُعدًّا له، فإنني أظن أنني أستطيع العودة إلى أدراجي، أليس كذلك؟ ولا ضرر من ذلك».

قال السيد ويكفيلد: «لقد بحثت عن الدوافع الفردية عند الجميع، وكنت مقتنعًا بأن رابطة المصلحة هي الدافع الذي ربطنا. لكن انظروا إلى ما هو عليه الآن... آه، انظر إلى ما هو عليه».

صرخ يورايا مشيرًا بإصبعه الطويلة نحوي: «من الأفضل أن توقفه عن هذا الكلام يا كوبرفيلد، إن استطعت، لأنه سيقول كلامًا لا معنى

له الآن -هلا منعته- سيأسف على كلامه بعد ذلك، وستأسف أنت لسماعه».

صرخ السيد ويكفيلد فيَّ يائسًا: «سأقول أي شيء أريده، لماذا لا أكون تحت وطأة أي قوة في العالم ما دمت تحت رحمتك؟».

قال يورايا: «انتبه، إني أحذرك، إذا لم تغلق فمه، فإنك لست بصديقه الحقيقي. لماذا لا تكون تحت وطأة أي قوة في العالم يا سيد ويكفيلد؟ لأن لديك ابنة. أنت وأنا نعرف ما نعرفه، أليس كذلك؟ دع الكلاب والفتن نائمة، فمن يريد أن يوقظها؟ بالطبع لست أنا من يرغب في ذلك. ألا يمكنك أن ترى أنني أتضع بقدر ما أستطيع؟ وإني لأقول أمامكما أنني لو تطلعت إلى ما هو أبعد من منزلتي، فإني آسف. فماذا ستقول الآن يا سيدي؟».

صاح السيد ويكفيلد وهو يفرك يديه: «آه يا تروتوود، آه يا تروتوود، انظر إلى أي حال وصلت، منذ أن رأيتك لأول مرة في هذا المنزل! لقد كنت آنذاك على حافة المنحدر، وها أنا في طريقي الكئيب الذي أقطعه منذ ذلك الحين إلى الهاوية. لقد دمرني التساهل والضعف... التساهل بين الذكرى والنسيان. لقد تحول حزني الطبيعي على والدة ابنتي إلى مرض. تحول حبي الفطري لابنتي إلى مرض. لقد أصبت كل شيء لمسته بالاعتلال. وكما تعلم، لقد جلبت البؤس على من أحببته بشدة. ظننت أنه من الممكن أن أحب مخلوقًا واحدًا في العالم بصدق، من دون أن أحب البقية. ظننت أنه من الممكن أن أحزن بصدق على مخلوق واحد خرج من العالم، ولا أحزن كهذا الحزن على غيره. هكذا حرفت

دروس حياتي وانقلبت. لقد افترست قلبي الجبان المريض، ثم افترسني هو بدوره. لقد عشت ضعيفًا في حزني، ضعيفًا في حبي، ضعيفًا في هروبي البائس من ظلمة كليهما، وصرت أنظر إلى الخراب الذي أنا عليه، فأكرهني، وأهرب من نفسي».

سقط على كرسيه، وبكى منكسرًا. فارقه انفعاله الذي شب فيه، فخرج يورايا من انزوائه.

قال السيد ويكفيلد وهو يمد يديه، كما لو أنه يستنكر حكمي عليه: «لا أعرف ما فعلته في أثناء سورتي وسخطي. إنه أعلم بذلك مني» - كان يقصد يورايا هيب - «لأنه كان دائمًا عند مرفقي يهمس في أذني. ألا ترى حجر الرَّحى الذي ثبته حول رقبتي؟! ستجده في منزلي، وستجده في عملي. وها قد سمعته منذ وقت قصير، فهل عليَّ أن أقول المزيد؟!».

قال يورايا بلهجة تجمع بين التحدي والتملق: «لم تكن بحاجة إلى قول كل هذا الكلام، ولا حتى لقول نصفه، ولا أي شيء منه على الإطلاق. ولولا النبيذ لما تصورت الأمر على هذا النحو مطلقًا. ستفكر في الأمر غدًا بشكل أفضل يا سيدي. وإذا كنت قد قلت أكثر مما يلزم، أو أكثر مما قصدت، فماذا إذن؟ أنا لم أدعِّم هذا الكلام بشيء».

فُتح الباب، ودخلت أجنيس، من دون أثر للون الدماء الحية في وجهها، ثم وضعت ذراعها حول عنقه، وقالت في ثبات: «يا أبي، إنك لست بخير. تعالَ معي».

وضع رأسه على كتفها منهكًا من الظلم في خزي بالغ، ثم خرج معها. التقت عيناي بعينيها للحظة، فأدركت أنها تعلم ما مر بنا.

قال يورايا: «لم أكن أتوقع أنه سيكون خشنًا قاسيًا يا سيد كوبرفيلد. إلا أنني لن أعتبر أن شيئًا قد وقع، سأعود صديقًا له في الغد. إن هذا في صالحه. وإنني لحريص كل الحرص على خيره ومصلحته».

لم أجبه، وصعدت إلى الطابق العلوي إلى الغرفة الهادئة حيث كانت أجنيس تجلس فيها بجانبي كثيرًا بينما أنا عاكف على كتبي. لم يقترب مني أحد حتى وقت متأخر من الليل. تناولت كتابًا وحاولت قراءته. سمعت صوت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة، وكنت لم أزل أقرأ من دون أن أعرف ما الذي قرأته، إلى أن لمستني أجنيس بيدها.

قالت: «ستسافر في الصباح الباكر يا تروتوود، دعنا نودع بعضنا الآن».

كانت تبكي، لكن وجهها ظل هادئًا وجميلًا.

مدت إليَّ يدها قائلة: «فليبارك الله فيك».

قلت: «يا أجنيس العزيزة، أراكِ تطلبين ألا أتحدث عن شيء مما جرى الليلة، فهل بوسعي أن أفعل أي شيء؟».

فأجابت: «الله موجود، وإني لأثق به».

قلت: «ألا أستطيع فعل شيء؛ أنا الذي يأتي إليكِ بكل أحزانه البائسة؟».

أجابت: «وإني لأجعلها أخف بكثير. لا شيء يا عزيزي تروتوود».

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، إنها جرأة مني - أنا الفقير جدًّا أمام كل ما أنتِ فيه من غنى بالخير، وحسن القرار، والصفات النبيلة كافة - أن أشك أو أعترض على رأيك، لكنكِ تعلمين كم أحبكِ وكيف أدين لكِ بالكثير. لكن لن تضحي بنفسكِ أبدًا من أجل إحساس مضلل بالواجب يا أجنيس، أليس كذلك؟».

ظهر عليها الاضطراب في هذه اللحظة، وكان يفوق أي اضطراب رأيته عليها في أي وقت مضى، وإذا بها تقتلع يديها مني، وتتراجع خطوة إلى الوراء.

قلت: «قولي إنكِ لا تفكرين بهذه الطريقة يا عزيزتي أجنيس، يا أكثر من أختي، فكري في نعمة قلبكِ الذي لا يُقدر بثمن، وفي هذا الحب بين جوانحكِ».

آه، ها هو هذا الوجه الملائكي يتمثل أمامي بعد مرور الزمن، فيتجلى مظهره في تلك اللحظة، ساهمًا لا يبدو عليه العجب أو الاتهام أو الندم. آه، لقد رأيته بعد مرور الزمن، وبعد انقضاء الأيام. ها هي نظراتها تخبو، كما تخبو الآن ابتسامتها الجميلة، وتخبرني أنها لا تخشى على نفسها شيئًا، ولا داعي من الخوف عليها، ثم ودعتني وتركتني بعد أن دعتني: «يا أخي».

كان الظلام لم يزل مسيطرًا على أول الصباح، حين ركبتُ العربة عند باب النُّزل، ثم انطلقت ولم يزل ضوء النهار على وشك البزوغ.

رحت أفكر فيها، وقد جلست إلى جانب الحوذي فإذا بي ألمح يورايا بين خليط الليل والنهار.

قال بصوت خافت، بعد أن تعلق بحديد سطح العربة: «يا كوبرفيلد، ظننت أنك ستسعد لسماع هذا النبأ قبل رحيلك، حيث أزيلت الخلافات بيننا. لقد دخلت إلى غرفته، وعادت كل الأمور سلسة بيننا. وعلى الرغم من أنني لست ذا شأن، فإنني نافع له، كما تعلم. كما أنه يدرك مصلحته حين تذهب عنه وطأة الخمر. يا له من رجل طيب على الرغم من كل شيء يا سيد كوبرفيلد».

أجبرت نفسي على أن أقول إنني مسرور لأنه قدم اعتذاره.

قال يورايا: «آه، بالتأكيد، وما قيمة الاعتذار - كما تعلم - إذا كان صادرًا من إنسان وضيع؟ إنه لأمر سهل للغاية! كلام بسيط! وأحسب أنك قد قطفت في هذه اللحظة ثمرة لم تنضج بعد يا سيد كوبرفيلد».

أجبته: «أظن أنني فعلت ذلك».

قال يورايا: «لقد فعلت ذلك الليلة الماضية. لكنها ستنضج فيما بعد. إن كل ما تحتاج إليه هو الصبر. وإنني أستطيع الانتظار».

أكثر من وداعه وتحياته، ثم نزل بعدما شرع الحوذي في التحرك مرة أخرى. ظل يأكل شيئًا لإبعاد هواء الصباح الرطب. لم أعرف ما الذي يمضغه، لكن حركات فمه لاحت كما لو أن الثمرة قد نضجت بالفعل، وأنه راح يلتهمها بشفتيه متلذذًا.

# الفصل الأربعون

## المتجول

دارت بيننا محادثة جادة في شارع باكنجهام في تلك الليلة، حول الأحداث الأخيرة التي ذكرتها بالتفصيل في الفصل الأخير. كانت عمتي مهتمة بما حدث للغاية، بل راحت تسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا مطوقة ذراعيها لأكثر من ساعتين بعدما سمعت ما سمعته. كانت كلما شعرت بالانزعاج من شيء ما جابت المكان بهذه المشية، بل ومن الممكن دومًا تقدير مقدار انزعاجها بطول مدة مشيتها. كانت في هذه المرة شديدة الانزعاج، حتى إنها وجدت أنه من الضروري فتح باب غرفة النوم، والتجول في دورات تشمل النطاق الكامل لغرف النوم بأكملها من الجدار إلى الجدار. جلست أنا والسيد دك ساكنين بجانب النار، بينما واصلت عمتي الدخول والخروج، على طول هذا المسار المحدود بوتيرة ثابتة، تتوافق مع انتظام عقارب الساعة.

صرت أنا وعمتي وحدنا بعد أن أوى السيد دك إلى فراشه. جلست أكتب رسالتي إلى السيدتين العجوزتين، أما عمتي فكانت قد سئمت

من المشي في ذلك الوقت، فجلست بجوار المدفأة وقد أحكمت عليها طرف ثوبها كالمعتاد. إلا أنها بدلًا من الجلوس بطريقتها المعتادة، ممسكة بكأسها المسندة إلى ركبتها، تركتها مهملة فوق رف المدفأة، وأسندت كوعها الأيسر على ذراعها اليمنى كما أسندت ذقنها على يدها اليسرى، ومكثت على هذه الحال ساهمة متفكرة. كنت كلما رفعت عيني لأفكر في أمر ما التقيت بعينيها، فإذا بها تؤمئ إليَّ وتقول بنبرة مؤكدة: «إنني في أحسن حال يا عزيزي، لكنني أشعر بالحزن والأسف».

كنت مشغولًا للغاية حتى إنني لم ألاحظ، إلا بعد أن أوت إلى فراشها، أنها تركت خليطها الليلي -كما كانت تسميه دائمًا- من دون أن تتذوقه، بل تركته فوق رف المدفأة. أقبلت إلى باب حجرتها بطريقة ألطف من المعتاد، بعد أن طرقت بابها لأطلعها على هذا الاكتشاف، لكنها اكتفت بأن تقول: «فقدت الرغبة في الشراب الليلة يا تروت»، ثم هزت رأسها وأوت إلى فراشها مرة أخرى.

قرأت عمتي رسالتي للسيدتين العجوزتين في الصباح، ووافقتْ عليها. وضعت رسالتي بالبريد، ولم يعد لديَّ أي شيء آخر لأفعله، إلا أن أنتظر الرد متحليًا بالصبر قدر المستطاع. مكثت على هذه الحال من الانتظار ما يقرب من أسبوع، إلى أن غادرت بيت الدكتور ذات ليلة باردة، متجهًا نحو المنزل.

كان يومًا مريرًا، إذ هبت رياح شمالية شرقية باردة واستمرت حدتها لبعض الوقت. امتزجت الرياح القارسة مع الضوء، فحلت الثلوج.

أتذكر أن سقوطها كان ثقيلًا ومتواترًا في تكتلات كبيرة وسميكة. كانت الضوضاء المنبعثة من عجلات العربات وأقدام العابرين مكتومة كما لو أن الشوارع قد افترشت بطبقات سميكة من الريش.

سلكت أقصر طريق إلى المنزل - فلم أكن إلا لأختصر الطريق في مثل هذه الليلة - فمررت بشارع سانت مارتن. الآن، لاحت لي الكنيسة التي منحت اسمها لهذا الشارع، بازغة بين ممر ضيق في ذلك الوقت. لا تمتد أمامها أي مساحة مفتوحة، ثم ينتهي الممر عند شارع ستراند. مررت بدرجات سلم الممر، فإذا بي أقابل وجه امرأة في إحدى الزوايا. نظرت في وجهي وعبرت الممر الضيق، ثم اختفت. كنت أعرفها. لقد رأيتها في مكان ما، لكني لا أستطيع تذكره بالتحديد. شيء كان يربطني بها، وقد نفذت إلى قلبي مباشرة، إلا أنني كنت أفكر في شيء آخر عندما صادفتها، فصرت في حيرة من أمري.

لاح لي من درجات سلم الكنيسة شبح رجل ينحني لإزاحة بعض الثلوج الناعمة واحتجازها. التقى وجهه بوجهي في اللحظة ذاتها، ولا أتذكر أنني توقفت عن المسير على الرغم من دهشتي. مضيت في طريقي على أي حال، إلا أنه قام ثم استدار وأقبل نحوي، فإذا بي أقف وجهًا لوجه أمام السيد بيجوتي.

أدركت حينها أن المرأة التي رمقتني كانت مارثا التي أعطتها إيميلي المال في تلك الليلة، حين كنا في المطبخ. إنها مارثا إندل - جنبًا إلى جنب مع إنسان لم يُطِق رؤية ابنة أخته العزيزة معها، كما أخبرني هام، ولو منحوه كل الكنوز الغارقة في البحار.

تصافحنا بحرارة. ولم يستطع أي منا أن يتفوه بكلمة واحدة في البداية.

إلا أنه بدأ حديثه بعد أن أحكم عليَّ قبضته بشدة، فقال: «يا سيد ديفي، يفرح قلبي بلقياك، يا له من لقاء طيب!».

قلت: «من الجميل أن أقابل صديقي القديم العزيز».

قال: «لقد كنت أفكر الليلة في تفقد أحوالك يا سيدي، ولكني أعرف أن عمتك تسكن الآن معك. أما أنا فكنت متجهًا إلى يارموث، وخشيت أن يكون الوقت متأخرًا جدًّا لزيارتك. وكان الأفضل أن آتي إليك في الصباح الباكر يا سيدي، قبل أن أرحل».

قلت: «هل سترحل مرة أخرى؟».

أجاب وهو يهز رأسه في تمهل: «نعم يا سيدي، سأرحل غدًا».

سألته: «إلى أين ستذهب الآن؟».

أجاب، وهو ينفض الثلج عن شعره الطويل: «حسنًا، كنت على وشك أن أنطلق إلى مكان ما».

كانت أحد مداخل فندق الصليب الذهبي تطل في تلك الأيام على ممر جانبي، يقابل المكان الذي التقيته فيه، وهو مكان لا أنساه لأنه يرتبط في ذاكرتي بسوء حظ هذا الرجل. أشرت إلى مدخل الفندق، وتأبطت ذراعه، ومشينا. كان الممر مطلًّا على غرفتين أو ثلاث غرف عامة خارج ساحة الفندق. تفقدت إحداها فوجدتها فارغة، وقد أشعلت فيها نيران المدفأة، فاصطحبته إليها.

أبصرت وجهه في الضوء، فلاحظت أن وجهه قد أحرق من لفحات الشمس بالإضافة إلى شعره الطويل الأشعث، وقد لاح رماديًّا، انتشرت التجاعيد في وجهه واعرضَّت جبهته. بدت عليه سمات كدحه وتجواله مع تقلبات الطقس، لكنه بدا قويًّا جدًّا، وكأنه رجل يدعمه ثبات هدفه، فلا يثنيه شيء عن عزمه.

نفض الثلج عن قبعته وملابسه، وأزاله بعيدًا عن وجهه، بينما أراقب حركاته هذه وأنا داخل الغرفة. جلس أمامي على طاولة، وأدار ظهره للباب الذي دخلنا منه، ثم مد يده الخشنة إليَّ مرة أخرى، وأمسكني بحرارة.

قال: «سأخبرك يا سيد ديفي أين كنت طوال الأيام السابقة، وسأقص عليك كل ما سمعته. لقد تجولت في أماكن شتى، لكنني لم أعرف سوى القليل، وسأقوله لك».

قرعت الجرس لأطلب شرابًا ساخنًا. لكنه لم يرغب في أن يشرب شيئًا أقوى من البيرة، وخلال انتظارنا لإعداد المشروبات وتدفئتها على النار، جلس ساهمًا يفكر. بدا على وجهه شرود هائل، فلم أجرؤ على إزعاجه.

قال وهو يرفع رأسه بعد أن تركنا الخادم: «كانت تحدثني كثيرًا وهي طفلة عن البحر والسواحل التي صارت أمواج البحر فيها زرقاء داكنة، تلمع تحت أشعة الشمس. ظننتُ لفترة طويلة أن غرق والدها دفعها إلى التفكير في هذا الأمر كثيرًا. وكما تعرف، فإنني لست متيقنًا من هذا الأمر تمامًا، لكن ربما كانت تتصور - أو تتخيل - أنه انجرف

بفعل هذه الأمواج الداكنة، فدفعته إلى أماكن تنمو فيها الزهور دائمًا وتهب عليه الرياح في بلدة مشرقة».

أجبته: «لعلها أخيلة الطفولة».

قال السيد بيجوتي: «لاح لخاطري حين اختفت أنه قد أخذها إلى تلك البلاد. وتصورت أنه راح يحدثها عن عجائب شتى، وأنها ستصير سيدة ذات شأن، وكيف جعلها تصغي إليه وانساقت له في كل شيء. وحين قابلنا والدته، أدركت أنني محق تمامًا. شققت طريقي في البحر إلى فرنسا، ونزلت بها، كما لو أنني هبطت من السماء».

رأيت الباب يتحرك، والثلج ينجرف للداخل. كما رأيت السيد بيجوتي يتحرك قليلًا، ويمد يده بهدوء لإبقاء الباب مفتوحًا.

قال السيد بيجوتي: «لقد علمت بوجود رجل إنجليزي في السلطة الفرنسية، فأخبرته أنني جئت للبحث عن ابنة أخي. أحضر لي أوراقًا لأنني أردت شيئًا يسهل تنقلي داخل فرنسا -لا أعرف حقًّا ماذا يسمونها- وأراد أن يعطيني مالًا، لكنني شكرته وأخبرته أنني لست بحاجة إليه. وبلا شك رحت أشكره على كرمه. قال لي: «لقد راسلتُ بعض الأشخاص مقدمًا، وسأتحدث مع آخرين ممن يأتون إليَّ بهذه الطريقة نفسها، وسيعرفك كثيرون، حيث البلاد البعيدة التي ستسافر إليها بمفردك». شكرته بأحسن الكلمات، وأعربت له عن امتناني لمعروفه، وانطلقت بعيدًا أجوب في فرنسا».

قلت: «أكنت وحيدًا تسير على الأقدام؟».

أجابني: «سيرًا على الأقدام في أغلب الأحيان، ومرات في عربات مع أناس يذهبون إلى السوق، وأوقات أخرى في حافلات فارغة. رحت أقطع أميالًا في يوم واحد، أرافق فيها غالبًا جنديًّا فقيرًا أو رجلًا مسافرًا لرؤية أصدقائه. لم أستطع التحدث مع كثيرين؛ لا أنا أتحدث لغتهم ولا هم يتحدثون لغتي، لكن كان كل منا رفقة طيبة للآخر، على طول الطرق المغبر».

أدركت ما لاقاه من طيب رفقة من نبرته الطيبة الودودة.

استطرد قائلًا: «كنت أنزل إلى أي بلدة، فأتلمس طريقي إلى الفندق، وأنتظر عند مدخله حتى يظهر أي إنسان (وكان هذا الإنسان يظهر في الغالب) يفهم الإنجليزية. أخبره أنني أبحث عن ابنة أخي. وكان مثل هؤلاء الأشخاص ممن أقابلهم يحدثونني عن نزلاء هذا الفندق، ومن ثَم أنتظر لعلِّي أرى ابنة أخي من بين الداخلين والخارجين. أما حين لا أصل إلى مرادي، فإذا بي أنطلق ماضيًا في سبيلي، وشيئًا فشيئًا أنزل إلى قرية جديدة هنا أو هناك، فأجدني معروفًا بين أناسها الفقراء. كانوا يستقبلونني عند أبواب منازلهم، ويهبونني ما يقدرون عليه من طعام وشراب، ويرشدونني إلى مواضع صالحة للنوم. التقيتُ يا سيد ديفي بكثير من النساء ممن لديهن بنات في عمر إيميلي تقريبًا، فوجدتهن ينتظرنني - برحمة من الله - على حدود القرية، ليقدمن لي أشياء طيبة. كان لبعضهن بنات مُتن صغيرات، والله وحده يعلم كم كانت أمهاتهن كريمات طيبات».

كانت مارثا تقف عند الباب. وقد رأيت وجهها الهزيل يصغي إلى حديثنا. وخشيت أن يدير رأسه فيراها كما رأيتها.

قال السيد بيجوتي: «كن يضعن أطفالهن غالبًا - ولا سيما بناتهن الصغيرات - فوق ركبتي. ولو أنك مررت بأبوابهن ليلًا، لرأيتني جالسًا معهن كما لو أنهن بناتي العزيزات. آه، يا ابنتي الحبيبة».

تغلب عليه الحزن فجأة، فانتحب بصوت عالٍ. رفعت يدي المرتعشة ووضعتها على يده التي وضعها أمام وجهه. قال: «شكرًا لك يا سيدي، لا تشغل بالك».

أبعد يده عن وجهه ثم أسندها إلى صدره وتابع قصته، فقال: «كن يسرن معي في الصباح، لميل أو ميلين في الطريق، وعندما نفترق أقول لهن: «إنني ممتن للغاية، فليحفظكن الله»، ويبدو أنهن كن يفهمن مقصدي دومًا، فيُجبن عليه بلطف. وصلت أخيرًا إلى البحر. قد تظن أنه لم يكن من الصعب على رجل ملَّاح مثلي أن يشق طريقه إلى إيطاليا بحرًا. ما إن وصلت إليها، حتى رحت أتجول بين أرجائها كما فعلت من قبل. كان أناسها طيبين وأكرموني، وكان عليَّ أن أتجول من مدينة إلى أخرى في هذه البلاد، لكنني تلقيت أخبارًا عن رؤيتها وسط الجبال السويسرية. قال رجل لي إن خادمه شاهدهم هناك؛ رأى الثلاثة معًا[١]، وأخبرني كيف سافروا إلى هناك وأين نزلوا. اتجهت إلى الجبال يا سيد ديفي، واصلًا ليلي بنهاري. مهما كنت أمضي بعيدًا، كانت الجبال تلوح بعيدة عني، لكنني وصلت إليها ثم تجاوزتها. اقتربت من المكان الذي حدده لي، إلا أنني رحت أفكر مناجيًا نفسي: «ماذا سأفعل حين أراها؟»».

---

(١) يقصد إيميلي وستيرفورث وليتيمر.

كان الوجه المنصت إلينا غير العابئ بالليل العاصف لم يزل بالباب، وإذا بيدها تتوسلني أن أدعها تنصت ولا أطردها من مكانها.

قال السيد بيجوتي: «لم يراودني شك فيها قَطُّ. لا، لم يخامرني أدنى شك، هلا سمحوا لها برؤية وجهي! هلا سمحوا لها أن تسمع صوتي، فيتركوها ماثلة أمامي أُذكرها بالبيت الذي هربت منه، وبراءة الطفولة التي كانت عليها! وإنها وإن كبرت وصارت سيدة كما الملكات، فإنها ستجثو عند قدميَّ! إنني على يقين تام من هذا. لقد جاءني صوتها في المنام كثيرًا تصرخ قائلة: «عمي»، كما رأيتها تسقط أمامي مثل الموتى. رأيتها في نومي كثيرًا، وكنت أتقدم نحوها ثم أهمس لها قائلًا: «يا إيميلي، يا عزيزتي، لقد جئتكِ وإني أسامحكِ، وسأصطحبكِ إلى المنزل»».

توقف عن الكلام وهز رأسه، ثم استمر في التَّنهُّد.

قال: «أما هو فلا يمثل شيئًا بالنسبة إليَّ الآن. إن إيميلي هي كل شيء. لقد اشتريت ثوبًا ريفيًّا لترتديه بمجرد أن أعثر عليها، وإنني على يقين من أنها ستسير بجانبي فوق هذا الطريق الصلب، فتذهب معي إلى حيث أريد، ولن تطيل فراقي أكثر من هذا أبدًا. إن كل ما أفكر به في هذه اللحظة هو أنها ستلبس هذا الثوب، وتتخلص مما كانت ترتديه، لآخذها بين ذراعي مرة أخرى، وأسير متجهًا إلى المنزل. سأتوقف في الطريق أحيانًا، حتى تشفى قدماها من الرضوض ويندمل قلبها الذي عانى من كدمات أسوأ. ولا أظن أنني يجب أن ألتفت إليه كثيرًا. إلا أنني سيد ديفي لم ألحق بهم، لك أن تتخيل! لقد فات الأوان، ورحلوا. ولم

أستطع معرفة إلى أين ذهبوا. قال البعض إنهم غادروا، وآخرون قالوا إنهم ذهبوا هناك. لقد سافرت بعيدًا، واتجهت إلى هنا وهناك، لكنني لم أجد إيميلي، فعدت إلى المنزل».

سألته: «ومتى جئت؟».

قال السيد بيجوتي: «منذ أربعة أيام. لقد رأيت القارب القديم مظلمًا، ولمحت النور فوق النافذة. اقتربت وألقيت نظرة عبر الزجاج، فرأيت السيدة جامدج، هذه المخلوقة الأمينة جالسة كما تركتها بمفردها بجوار النار. ناديتها قائلًا: «لا تخافي، أنا دانيال»، ثم دخلت إليها. لم أستطع أن أفهم قَطُّ كيف بدا القارب القديم غريبًا لعيني».

أخرج السيد بيجوتي من جيب صدريته - بحذر وعناية فائقين - حزمة صغيرة من الأوراق تحتوي على رسالتين أو ثلاث أو ما شابه، ثم وضعها فوق الطاولة.

قال وهو يختار ورقة من بينهم: «كانت هذه أول رسالة منها قبل أسبوع من رحيلي. أرفقت معها خمسين جنيهًا ورقية، ملفوفة في ورقة ومعنونة باسمي. كانت قد زجتها من تحت أعتاب الباب ليلًا. حاولت إخفاء خطها، لكنها لم تستطع إخفاءه عني».

طوى الورقة مرة أخرى، بصبر وعناية شديدين، وأعادها كما كانت تمامًا، ثم نحاها جانبًا.

فتح رسالة أخرى وقال: «وهذه رسالة موجهة إلى السيدة جامدج منذ شهرين أو ثلاثة أشهر». نظر إليها لبعض اللحظات ثم ناولها

لي، وأضاف بصوت منخفض قائلًا: «هلا تفضلت بقراءتها يا سيدي المحترم».

قرأت ما يلي:

«آه، أي شعور سيراودكِ حين ترين هذا الخط، وتعلمين أنه من عمل يدي الشريرة، لكن حاولي، حاولي - ليس من أجلي، ولكن من أجل عمي الطيب- حاولي أن تجعلي قلبكِ يلين لي ويتحنن ولو لوقت قصير فقط! أدعو الله أن تحاولي أن تترفقي بفتاة بائسة، فتكتبي شيئًا ولو على قطعة صغيرة من الورق تخبريني عن أحواله، وعما قاله عني قبل أن تمتنعوا عن ذكر اسمي بينكم. هل رأيتِه وقد راح يفكر ذات ليلة في الفتاة التي أحبها، فشرد ساهمًا حين حان الوقت القديم لعودتي إلى المنزل؟ آه يا لقلبي المنكسر الذي يفكر فيه! إني أركع أمامكِ، وأتوسل إليكِ وأناشدكِ ألا تكوني قاسية معي بالقدر الذي أستحقه - إنني أعلم جيدًا أنني أستحق القسوة - ولكن هلا تتعطفي وتجودي بكرمكِ، فتكتبين شيئًا لي عنه، وترسلينه إليَّ! لستِ في حاجة إلى مناداتي بقولكِ يا صغيرتي، ولا حاجة لكِ إلى مناداتي بالاسم الذي دنسته بعاري، لكن فلتصغي إلى عذابي وترحميني، فتكتبي لي كلمة لأطمئن على عمي الذي لن أراه مرة أخرى ولن تقع عليه عيني في هذه الحياة أبدًا.

عزيزتي، إذا كان قلبكِ قاسيًا عليَّ - وإني أعلم استحقاقي لهذه القسوة - فلتصغي إلى مَن كنت على وشك أن أدعوه زوجي، طالما كان الأمر صعبًا عليكِ يا عزيزتي، ولتسأليه - هو الذي ظلمته أكثر من غيره - قبل أن تقرري رفض توسلاتي البائسة إليكِ تمامًا! فهلا كان رحيمًا

حانيًا، فيسمح لكِ بكتابة شيء لي لأقرأه - أحسب أنه سيأذن لكِ بمجرد أن تطلبي منه ذلك، لأنه الشجاع والمتسامح كعهده دومًا، ثم أخبريه - في حالة موافقته فقط - أنني حين أسمع الريح تهب في الليل، أشعر كما لو أنها مرت به وبعمي سورة من غضب عليَّ، كانت في طريق صعودها إلى الله. أخبريه أنني لو مت غدًا - وآهٍ، لو أنني أستطيع، لهنأت جدًّا بالموت! - فإنني سأدعو له ولعمي بكلماتي الأخيرة، وسأدعو له بحياة سعيدة مع أنفاسي الأخيرة».

أرفقت أموالًا مع هذه الرسالة أيضًا، وكانت خمسة جنيهات. لم يمسها أحد مثل المبلغ السابق، ثم أعاد السيد بيجوتي طيها بالطريقة نفسها. كانت الرسالة قد أضافت تعليمات مفصلة عن العنوان الذي سيرسل إليه الرد، وهي تفصيلات تكشف عن تدخل عدة أيادٍ، مما جعل من الصعب الوصول إلى أي استنتاج منطقي عن مكان اختفائها، وإن كان من غير المستبعد على الأقل أن يشير إلى تلك البقعة التي قيل إنها شوهدت بها.

سألت السيد بيجوتي: «وما الإجابة التي أرسلتها؟».

قال: «إن السيدة جامدج ليست على مستوى عالٍ من التعليم يا سيدي، لقد كتب هام الرد. وقالا لها إنني ذهبت للبحث عنها، وأخبراها عن كلماتي الأخيرة قبل الرحيل».

قلت: «هل هذه رسالة أخرى بين يديك؟».

كشف السيد بيجوتي عما بيده قائلًا: «إنه المال يا سيدي. كما ترى

أنه عشرة جنيهات، ومعها ورقة مكتوب فيها «من صديق مخلص»، مثل ما سبقها من أموال. كانت النقود السابقة قد وضعت تحت أعتاب الباب، أما هذه فأرسلتها بالبريد أول أمس. إنني ذاهب للبحث عنها في المكان الظاهر على ختم الرسالة».

أظهر الختم لي، وكان من بلدة تقع أعلى نهر الراين. وجد في يارموث بعض التجار الأجانب ممن يعرفون هذا البلد، وقد رسموا له خريطة بسيطة على الورق، وقد استطاع أن يفهم هذا المخطط جيدًا، فأخرجها ووضعها بيننا على المائدة. كان قد أسند ذقنه على إحدى يديه، وتتبع بالأخرى مساره على الخريطة.

سألته عن حال هام، فهز رأسه، وقال: «إنه يعمل بقدر ما يستطيع الرجال أن يكدوا ويعملوا. لقد صار ذا اسم ذائع في هذه الناحية، مثل أي رجل مجتهد في أي مكان في هذا الميدان. تمتد إليه يد أي إنسان لمساعدته، وكما تعرف، فإنه على استعداد لمساعدة أي إنسان كذلك. إنه لا يشكو أبدًا، لكن أختي تظن - وهذا سر بيننا فقط - أن جرحه عميق لا يلتئم».

قلت: «رجل مسكين، إنني أصدق ما قالته».

قال السيد بيجوتي في همس مهيب: «لم يعد يهتم بحياته يا سيد ديفي أو يعبأ بها. ولو طلبوا رجلًا لعمل قاسٍ في طقس قاسٍ، إذا به يبادر إليه مسرعًا. وإذا ظهر واجب صعب وخطر، إذ به يؤديه على الرغم مما يحفه من مخاطر، بل إنه يتقدم على جميع رفاقه لتلبيته، ومع ذلك كله فإنه وديع كالطفل، بل لم يظهر طفل في يارموث لا يعرفه».

جمع الرسائل بعناية، ورتبها بيده، ثم جمعها في حزمة صغيرة، ووضعها بحنان في جيب صدريته مرة أخرى. اختفى الوجه المطل من الباب. رحت أراقب الثلج بينما ينجرف إلى الداخل، لكنني لم أرَ أي شيء آخر عند الباب.

قال وهو يفتش في حقيبته: «وبعد أن رأيتك الليلة يا سيد ديفي -ويا له من أمر رائع لي!- فإني مسافر غدًا في الصباح الباكر. وها قد رأيت كل ما تحصلت عليه». وضع يده على مكان رزمة الأوراق الصغيرة، وأكمل قائلًا: «إن كل ما يزعجني هو أن أفكر في أي ضرر قد يلحق بي، قبل أن أرد هذه الأموال. فإذا قُدِّر لي أن أموت، أو أتوه، أو أسرق، أو اختفى هذا المال بأي طريقة أخرى، ولم يعرف مرسلها ماذا فعلت بها قَطُّ، فإني أظن أن الآخرة لن تستوعبني! أتصور أنني يجب عليَّ حينها أن أعود، فأرد إليه ماله».

نهض، فنهضت أيضًا. تصافحنا مرة أخرى قبل أن نرحل.

قال: «سأقطع مسافة عشرة آلاف ميل، سأمضي في سبيلي حتى أسقط ميتًا، أو أضع هذه الأموال أمامه. وإذا فعلت ذلك، ووجدت عزيزتي إيميلي، فسأكون راضيًا شاكرًا. وإذا لم أجدها، فربما ستسمع في يوم ما، أن عمها المحب لم ينتهِ من بحثه عنها قَطُّ إلا حين أنهى حياته. وإذا كنت أعرفها حق المعرفة، فإن هذا النبأ كفيل بردها إلى منزلها في النهاية».

خرج في ذلك الليل القاسي، فإذا بي أبصر شبح تلك الإنسانة الوحيدة يبتعد مسرعًا. فأقبلت عليه على عجل متظاهرًا أنني نسيت

شيئًا، وأجريت معه محادثة حتى رحلت عنا.

تحدث السيد البيجوتي عن منزل للمسافرين على طريق دوفر، حيث قال إنه يعرف أنه سيجد فيه مسكنًا نظيفًا وبسيطًا يقضي فيه الليل. سرت معه فوق جسر وستمنستر، ثم افترقنا عند شاطئ ساري. بدا كل شيء في مخيلتي، كما لو أنه يلتزم بالسكينة تقديسًا له، وإذا به يستأنف رحلته الأليمة عبر الثلوج.

عدت إلى ساحة الفندق، وقد ألح عليَّ شبح ذاك الوجه، فرحت أنظر متطلعًا إليه حولي، إلا أنني لم أجده. لقد غطى الثلج آثار أقدامنا الأخيرة. كان مساري الجديد هو المسار الوحيد المرئي، بل بدأت آثار قدميَّ تتوارى هي الأخرى، بعد أن تساقطت الثلوج بسرعة كبيرة. سرت بينما أنظر من فوق كتفي متلفتًا ورائي.






تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد



---

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

*تشارلز ديكنز*


ISBN 978-977-765-332-9



# تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد





## الجزء الثالث

رواية







ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

# ديفيد كوبرفيلد

تشارلز ديكنز








- ترجمة: زينب محمد عبد الحميد
- طبعة آفاق الأولى 2022
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ











رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ٢٩٢٦٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 332 - 9





**Afaq Bookshop & Publishing House**



1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد

رواية

ترجمة

زينب محمد عبد الحميد

## الجزء الثالث



آفاق للنشر والتوزيع

**بطاقة الفهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية**

**إدارة الشئون الفنية**

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : ديفيد كوبرفيلد - الجزء الثالث

ترجمة: زينب محمد عبد الحميد

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2022

520 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 29269 / 2021

الترقيم الدولي 9 - 332 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز





# الفصل الواحد والأربعون

## عمتا دورا

جاء الرد أخيرًا، بإجابة السيدتين العجوزتين. لقد وجهتا تحياتهما إلى السيد كوبرفيلد، وأبلغتاه أنهما أولتا رسالته أجل التقدير والاحترام، وقالتا إنهما فعلتا ذلك «من أجل سعادة الطرفين كليهما» - وقد حسبت هذا التعبير مثيرًا للقلق، ليس بسبب استخدامهما له للإشارة إلى الاختلاف الأسري سالف الذكر، بل لأنني لاحظت -على مدار حياتي- أن العبارات التقليدية ليست سوى ألعاب نارية، يمكنها أن تتشكل عبر مجموعة متنوعة لا تحصى من أشكال التعبير وألوانه عبر الصيغ التقليدية ذاتها. استأذنت الآنستان سبنلو في الامتناع عن كتابة رأيهما «في المراسلات» حول أي موضوع يخص السيد كوبرفيلد. أما إذا تسنى للسيد كوبرفيلد أن يقدم إليهما معروفًا بالتواصل في يوم معين -إذا ناسبه الأمر- عن طريق صديق سري، فستكونا سعيدتين لتبادل بعض الأحاديث التي تخص هذا الموضوع.

أجاب السيد كوبرفيلد على الفور بوافر تحياته واحترامه واستجاب لهذا الطلب. بادر بأنه يشرفه انتظار كل من السيدتين سبنلو في الوقت المتفق عليه، ليرافقه، بعد إذنهما الكريم، صديقه السيد تومي ترادلز من حي المحامين. ما إن تبعث رسالة، حتى تنتاب السيد كوبرفيلد حالة من الهياج العصبي الحاد، فتتملكه حتى يومه التالي وهكذا.

كان ما أثقل همي، في خضم هذه الأزمة الحافلة بالأحداث، هو فقدي للخدمات التي لا تقدر بثمن من الآنسة ميلز. أما السيد ميلز، فقد كان دائمًا ما يختلق أمرًا أو آخر لإزعاجي - أو هكذا أحسست من تصرفاته، وأحس هو الأمر ذاته - وقد تمادى في سلوكه إلى ذروته، حتى إنه فكر في السفر إلى الهند. لماذا قد يسافر إلى الهند إلا لمضايقتي؟ سيتأكد من أنه لا فائدة منه في أي جزء آخر من العالم، لكنه سيجيد التعايش في هذه البقعة، حيث التجارة في الهند على اتساعها. ومهما يكن من أمر فإنني كنت أحلم بشلالات الهند المترقرقة وأنياب الأفيال. لقد سافر إلى كلكتا في شبابه، وها هو يعتزم الآن السفر إليها مرة أخرى، كمستثمر مقيم بها. لم يشغلني هذا الأمر مطلقًا. أما هو فقد اعتبر سفره إلى الهند مع جوليا حدثًا جللًا. لقد سافرت جوليا وتركت البلاد وودعت علاقاتها كلها. صار المنزل معروضًا للمقايضة أمام رزمة كاملة من الفواتير، ليعلن عن إمكانية تأجيره أو بيعه، أما الأثاث المهشم وغيره فلم يتيسر التخلص منه. ها هو زلزال آخر يرجرجني قبل أن أتعافى من صدمتي المنصرمة.

تشتت ذهني وانشغلت بالتفكير في ملبسي في هذا اليوم المهم، بل صرت منقسمًا بين رغبتي في الظهور بهيئة مميزة، ورهبتي من ارتداء شيء قد يضعف شخصيتي العملية في أعين السيدتين سبنلو. سعيت للوصول إلى مظهر حيادي مُرضٍ بين هذا وذاك، وقد ارتضت عمتي اختياراتي ونتائجها. ألقى سيد دك بحذائه وراءنا بعد رحيلي أنا وترادلز، متمنيًا لنا حظًّا سعيدًا، ثم شققنا طريقنا نحو الطابق السفلي.

كان ترادلز رفيقًا ممتازًا، كما توقعت، وقد صارت تربطني به مودة اعتدتها، لم يسعني إلا أن أرجو - بعد هذه المناسبة الخاصة - ألا يتراجع أبدًا عن عادة تمشيط شعره بهذه الصورة المرتبة. لقد منحه مظهرًا مدهشًا - لا أقول إنه تجلى مفعمًا بالقداسة - بل أخفيت هواجسي هامسًا أنه قد صار فاتنًا أمامنا.

سمحت لنفسي بإفشاء سريرتي إلى ترادلز، بينما كنا نسير إلى بوتني، فلعل كلامي يخفف من حدة الأمر قليلًا.

قال ترادلز وهو يرفع قبعته ويفرك شعره بمختلف الطرق: «يا عزيزي كوبرفيلد، لن يمتعني شيء أكثر من تصورك هذا. لكنني لن أبقي على شعري بهذه الطريقة».

قلت: «هل يثنيني فعلك عن رأيي؟».

قال ترادلز: «لا، لا يغير شيء من رأيك. وإن كنت سأضاعف من هواجسك مرة ونصف، على طول طريقنا إلى بوتني، فستخفف من أحمالها الثقال مرة أخرى في اللحظة التي تخفف فيها من أسبابها. إنك

لا تعرف مدى خشونة شعري يا كوبرفيلد. إنه أقرب ما يكون إلى القنفذ حين ينزعج فينتصب شوكه».

أعترف أنني شعرت بنوع من خيبة الأمل، لكنني كنت مفتونًا بروحه الطيبة، فأخبرته أنني أقدرها. أجابني بأن شعره قد أزال عنه كل العناد من شخصيته، إذ لم يعد يراوده هذا الشعور.

عاود ترادلز الضحك قائلًا: «آهٍ، أؤكد لك أنني خضت قصة قديمة بسبب شَعري المُخزي، إذ لم تستطع زوجة عمي تحمله. قالت إنه يثير غضبها، فراحت تعترض سبيلي مرات، بعد أن وقعت في حب صوفي لأول مرة. عارضتني كثيرًا جدًّا».

«هل اعترضت عليك بسبب شعرك؟».

أجاب ترادلز قائلًا: «لا لم تعارضني بنفسها، لكن أختها الكبرى - تلك الجميلة - راحت تسخر من شعري، وراحت كما تعرف تتندر به في كامل حديثها. وبالفعل، كانت الأخوات يضحكن عليه».

قلت: «فهمت».

أكمل ترادلز حديثه ببراءة خالصة فقال: «نعم، إنها مجرد مزحة بالنسبة لنا. يتصورون أن صوفي لديها قفل في مكتبها، وأنها مضطرة إلى حفظه داخل كتاب مغلف لإبقائه مغلقًا[١]. أما نحن فتُضحكنا تلك الأحاديث».

---

(١) اعتقاد شعبي بأن قفلاً مغلقًا قادر على حفظ المحبة بين حبيبين.

قلت في نبرة متوترة: «بالمناسبة يا عزيزي ترادلز، قد تفيدني تجربتك إذ ما ارتبطت بالسيدة الشابة التي ذكرتها للتوِّ. هل تقدمت لخطبتها من عائلتها؟ أم هل مررت بأي شيء مشابه لما نمر به اليوم، على سبيل المثال؟».

أجاب ترادلز بعد أن توارى وجهه في ظل: «حسنًا، لقد كان الاتفاق معي قاسيًا يا كوبرفيلد. فكما تعرف، كانت صوفي ذات نفع كبير لعائلتها، ولم يستطع أي منهم تحمل فكرة زواجها. لقد اتفقوا فيما بينهم بالفعل على أنها لن تتزوج أبدًا، ثم أطلقوا عليها اسم الخادمة العجوز. فما إن بحت بطلب الزواج، بأقصى درجات الحذر، إلى السيدة كرولر حتى...».

سألته: «أتقصد الأم؟».

قال ترادلز: «نعم إنها الأم، وتدعى ريفيريند هوراس كرولر. فما إن بحت بطلب الزواج، بأقصى درجات الحذر الممكنة، إلى السيدة كرولر حتى اهتاجت وصرخت في نوبة من جنون. لم أتمكن بعدها من الحديث عن الأمر مرة أخرى، ولعدة أشهر».

سألته: «هل أقدمت على طلبك في آخر المطاف؟».

قال ترادلز: «حسنًا، لقد أصلح ريفيريند هوراس الأمر. إنه رجل ممتاز، مثالي في كل شيء، فقد أوضح لها أنه يجب عليها -كمسيحية- أن تتصالح مع الذبيحة[1]، خاصة أن الأمر لم يحسم بعد. كما نصحها

---

(١) يقصد التصالح مع القدر، والذبيحة هنا هو المسيح وفقًا للمفاهيم المسيحية.

بألا تكُنّ أي شعور سيئ وغير مبرر تجاهي. أما أنا يا كوبرفيلد، فأعدك بأنني سأقنص الفرصة للتقرب إلى هذه العائلة».

قلت: «هل يصح ظني يا ترادلز بأن تكون الأخوات قد وقفن إلى جانبك؟».

أردف قائلًا: «لماذا قد يقفن بجانبي، لا أستطيع أن أجزم أنهن فعلن ذلك. لقد تصالحنا مع السيدة كرولر، وكان علينا أن نتهادن لمدة من أجل سارة. هل تتذكر ما قلته لك عن سارة، تلك التي تعاني شيئًا في عمودها الفقري؟».

«أتذكرها تمامًا».

تحدث ترادلز بينما ينظر إليَّ في فزع قائلًا: «لقد تصلبت يديها، وأغمضت عينيها، وتحول لونها إلى الرمادي. تصلب جسدها تمامًا ثم لم تتناول شيئًا ليومين سوى الخبز المحمص كما راحت تشرب الماء بملعقة شاي».

قلت له: «يا لها من فتاة بشعة يا ترادلز!».

قال ترادلز: «آهٍ، أستميحك عذرًا يا كوبرفيلد، إنها فتاة فاتنة للغاية، لكنها تتمتع بقدر كبير من المشاعر. حسنًا في الواقع، كلهن يملكن هذا القدر الكبير نفسه. أخبرتني صوفي بعد ذلك، أنها لم تستطع وصف شعورها القاتل بالذنب وتأنيب الذات حين واجهت نفسها بما حدث لسارة. أعلم يا كوبرفيلد أنه كان عليَّ أن أُكبِّل مشاعري، بعد أن تحولت إلى اتهام. لقد استعادت سارة صحتها، إلا أنه كان علينا التريث لثمانية

أيام أخر، بعد أن راودتهم مشاعر متباينة، دفعتهم إلى الشفقة عليها بعد ما حدث لها. أما الصغيران اللذان تشرف صوفي على تعليمهما، فقد انتهيا للتوِّ من اختبارات الملحق».

قلت: «أرجو على أي حال أن يكون الجميع قد تصالح معها الآن، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز متشككًا: «بلى، أقول إنهم رضخوا لها بشكل عام. إننا في حقيقة الأمر نتجنب ذكر الحديث عن هذا الموضوع، كما أن ظنوني وما أظهره من لا مبالاة فتمثل لهم عزاء كبيرًا. سيصير المشهد مؤسفًا إن تزوجنا، إذ سيكون أشبه بجنازة لا حفل زفاف. وسيكرهني الجميع لأنني سأنأى بها بعيدًا».

كانت تعبيرات وجهه صادقة فيما يقول، بينما راح يهز رأسه المضحك في مشهد هزلي. إن ذكرى هذا المشهد تثير إعجابي أكثر مما كانت عليه في الواقع، لأنني كنت في ذاك الوقت في حالة خوف عارم كما كنت شارد الذهن. لم أكن في حالة تسمح بأن أولي انتباهي الكامل لأي شيء حولي. اقتربت من المنزل الذي تعيش فيه السيدة سبنلو، بينما يراودني صراع يتعلق بمظهري واستحضار تركيزي، فما كان من ترادلز إلا أن قدم لي منبهًا لطيفًا متمثلًا في كوب من البيرة. انتهى هذا الفاصل الذي قضيته في استراحة عامة مجاورة، ثم اصطحبني ترادلز في خطوات مترنحة إلى باب السيدة سبنلو.

كان إحساسي بنفسي مشوشًا، هكذا أحسست وقتها على نحو ما، بعدما فتحت الخادمة الباب أمامي. كنت مذبذبًا بطريقة ما. عبرت

قاعة ما أبصرت بها زجاجة الطقس[١]، لأصل إلى غرفة استقبال صغيرة هادئة في الطابق الأرضي، تشرف على حديقة أنيقة. اتخذت مقعدي من الأريكة وقد مكنني موقعي من رؤية شعر ترادلز، وها قد ظهر أمامي بعد أن أزال قبعته في هذه اللحظة، ليبدو مثل ذرات صغيرة مشتتة ومبعثرة، تشبه ما يتطاير من صناديق السعوط بعد نزع الغطاء. تناهت إلى أذني كذلك دقات ساعة من طراز قديم. كانت تدق بعيدًا فوق المدخنة، كما لو أنها تحاول أن تحافظ بدقاتها على نبضات قلبي، على الرغم من أنها لم تستطع متابعتها. حاولت أيضًا أن أبحث في محيط الغرفة عن أي شيء يخص دورا، لكني لم أعثر على أي منها. راودني هاجس في ذلك الوقت من أنني قد سمعت جيب ينبح من بعيد، بينما خنق صوته إنسان ما على الفور. أستفيق لأجد نفسي في النهاية أقف خلف ترادلز في مقابل المدفأة، بينما انحنى في ارتباك كبير أمام سيدتين ضئيلتين كبيرتين في السن، ترتديان ملابس سوداء. ظهرت كل منهما في مظهر عجيب كما لو أنهما هياكل عظمية مكسوة بالجلد أو كأنهما بُعثتا بعد أن رافقتا السيد سبنلو الراحل في مثواه الأخير.

قالت إحدى المرأتين الضئيلتين: «تفضلا، اجلسا».

تعثرت بترادلز، فإذا بي أنهار جالسًا على مقعد في مكان غير مميز على عكس موقعي من مقعدي الأول. وكنت قد استعدت قدرتي على تدقيق النظر في تلك اللحظة، فأدركت ساعتها أنه من الواضح أن السيد

---

(١) زجاجة الطقس: أداة من زجاج شفاف محكم الغلق، تحوي سائلاً خاصًا. تكشف حالة التبلور داخل السائل حالة الطقس.

سبنلو كان أصغر أفراد العائلة، وأن ثمة تفاوتًا بين الأختين يتجاوز ست أو ثماني سنوات. لاحت الصغرى كما لو أنها مديرة الجلسة، حيث حملت رسالتي في يدها -كم بدت لي في صورة مألوفة جدًّا، وغريبة جدًّا في الوقت ذاته!- وظلت تتفحصها بنظارتها تمحيصًا. كانتا ترتديان ملابس متشابهة، إلا أن الأخت الصغرى كانت قد ارتدت ثوبها على نحو يبديها أكثر شبابًا؛ ربما لأن ملبسها كان قد حمل نوعًا من الزركشة البسيطة، أو ثنية في تفصيلاتها، أو سوار، أو شيء صغير من هذا النوع من الزينة، مما جعلها تبدو أكثر حيوية وشبابًا. بدت كلتاهما مستقيمتي الهيئة، رسميتين ودقيقتين، عاقلتين وهادئتين. أما الأخت التي لم تحمل رسالتي، فقد شبكت ذراعيها فوق صدرها، فاستراحت كل منهما على الأخرى، كما لو أنهما عاشقان.

تحدثت الأخت التي تلقت رسالتي، موجهة خطابها إلى ترادلز قائلة:

«يا سيد كوبرفيلد، أتصور أن...».

كان هذا الاستهلال مخيفًا. وكان على ترادلز الإشارة إلى أنني السيد كوبرفيلد، وكان عليَّ التعريف بنفسي، لتتخلصا مما ظنتاه سابقًا من أن ترادلز هو السيد كوبرفيلد، لنصير بعد ذلك في وضع ملائم تمامًا وصحيح. تطور الموقف، بعد أن سمعنا جميعًا بوضوح نباح جيب المتقطع والذي واصله بمقطوعة أخرى من نباح آخر طويل.

قالت الأخت التي تحمل الرسالة: «يا سيد كوبرفيلد».

أقدمت على فعل شيء هذه المرة. أظن أنني انحنيت. كان الجميع بكامل انتباههم، حين تدخلت الأخت الأخرى في الحديث قائلة:

«إن أختي لافينيا على دراية بمثل هذا النوع من الأمور، وستدلي بما نعتبره منصفًا لتحقيق سعادة الطرفين».

اكتشفت بعد ذلك أن السيدة لافينيا كانت المسؤولة عن شؤون القلب، وذلك بسبب وجود السيد بيدجر في حياتها الماضية، والذي لعب دورًا قصيرًا في حياتها. كان من المفترض أنه متيم بها. أما أنا فقد أبقيت على رأيي سرًّا إذ أحسست أن هذه المسألة محض افتراء ولا صحة لهذه القصة تمامًا، وأن بيدجر كان بريئًا كلية من هذه المشاعر، إذ لم يسبق له أن أبدى أي إشارات أو تلميحات أعرفها ليعبر عن إعجابه بها. أما السيدة لافينيا والسيدة كلاريسا فقد احتفظتا بخرافة مفادها أنه كان على وشك إعلان شغفه بها، لولا أن شبابه لم يسعفه - كان بعمر الستين تقريبًا - بعد أن تجرع من الشراب ما فاق احتماله، فتخبط ذات مرة في محاولة لاستعادة وعيه عبثًا، بعد أن شرب ماء المرحاض. ظننتا كل الظن أنه مات ملتاعًا بحبه الخفي، ولذلك فإن عليَّ أن أذكر صورته المعلقة في المنزل ذات الأنف الدمشقي، والتي تظهر أنه لم يحاول إخفاء حدتها.

قالت السيدة لافينيا: «لن نتطرق إلى تاريخ منصرم حول هذه المسألة. لقد ألغى موت أخينا المسكين فرانسيس هذه الفرصة».

تحدثت السيدة كلاريسا فقالت: «لم نعتد التواصل مع أخينا فرانسيس باستمرار، ولكن لم يكن ثمة انقسام أو انفصال محقق بيننا.

شق فرانسيس طريقه المحتوم، وكذلك فعلنا. حسبنا أن الأجدر بجميع الأطراف أن يسير كل منا في دربه. وكان هذا ما فعلناه».

كانت كل واحدة من الأختين تنحني قليلًا إلى الأمام حين تتحدث، وتهز رأسها بعد أن تنهي جملتها، ثم تستقيم مرة أخرى في سكون. أما السيدة كلاريسا فلم تحرك ذراعيها، بل راحت تحرك أناملها في بعض الأوقات كما لو أنها تعزف ألحانًا -في دقائق وأوزان يجب أن أفكر في جدواها- لكنها لم تزحزح يديها قَطُّ.

قالت السيدة لافينيا: «لقد تغير موقف ابنة أخينا، أو نفترض أن موقفها قد تغير بوفاة شقيقنا فرانسيس. وبالتالي فإننا نحسب أن آراء أخينا في موقفها قد تغيرت بدورها أيضًا. ليس لدينا أدنى شك يا سيد كوبرفيلد في أنك رجل نبيل، يتمتع بصفات حميدة وروح شريفة، أو أنك تكُن عاطفة -أو هكذا نظن تمامًا أنك تكُنّ عاطفة- لابنة أخينا».

أجبتها - كما كنت أفعل عادة كلما سنحت لي الفرصة - بأن حبي لدورا لا يضاهي أي حب سواه. فأقبل ترادلز على مساعدتي بتنهيدة تأكيدية مؤمنًا على قولي.

استمرت السيدة لافينيا في طرح بعض التصورات. ثم تحدثت بعدها السيدة كلاريسا مرة أخرى، وقد بدا أنها تقاوم رغبة في الإشارة إلى شقيقها فرانسيس باستمرار، فقالت:

«لو أن والدة دورا صرحت بعد زواجها من شقيقنا فرانسيس على الفور بأن مائدة العشاء لم تعد تتسع لأفراد العائلة جميعهم، لكان ذلك أفضل لإسعاد جميع الأطراف».

قالت السيدة لافينيا: «أختي كلاريسا، لا داعي لأن نلتفت إلى مثل هذه الأحاديث الآن».

أجابتها السيدة كلاريسا: «أختي لافينيا، إنه لأمر يتعلق بالموضوع ذاته، بل هو فرع أصيل من الموضوع، ولستِ وحدكِ المؤهلة للتحدث فيه. ألا ينبغي أن أفكر في التدخل في الأمر؟! إنني أكن رأيًا في هذا الفرع من المسألة تحديدًا. كان من الأفضل لسعادة جميع الأطراف، لو أن والدة دورا صرحت عن نياتها بوضوح بعدما تزوجت من شقيقنا فرانسيس. ألم يكن علينا أن نفكر فيما سيحدث في المستقبل! كان علينا أن نقول: «من فضلكم لا تهجرونا أبدًا»، ومن ثَم نتجنب كل احتمالات سوء الفهم».

هزت السيدة كلاريسا رأسها، فاستأنفت السيدة لافينيا دورها وإذا بها تتفحص رسالتي مرة أخرى عبر نظارتها. كانتا ذات أعين دائرية صغيرة متلألئة، كما كانت أعينهن تشبه أعين الطيور. لم تكونا كالطيور إجمالًا، لكنهما امتلكتا طريقة حادة وسريعة ومفاجئة وخاطفة لاستعادة أنفسهما، مثل الكناري.

استأنفت السيدة لافينيا دورها كما أوضحت سابقًا فقالت:

«أتطلب الإذن مني ومن أختي كلاريسا، يا سيد كوبرفيلد، للزيارة هنا بصفتك الخاطب المقبول لابنة أخينا».

تحدثت السيدة كلاريسا، وهي تستعيد دورها مرة أخرى -إن كان من الممكن أن أصف ما حدث باستعادة الدور- فقالت: «إذا كان شقيقنا فرانسيس قد تملكته رغبة في أن يحيط نفسه بهالة من أعضاء مجلس

العموم والمحامين فقط، فما الهدف المأمول من هذه الرغبة؟ هل كان علينا رفض انفصالنا عن أخينا؟ لا، إنني واثقة من أنه لم يكن ليفعل ذلك. لقد كنا بعيدتين عن التطلع أو التطفل أو فرض أنفسنا على أي إنسان. لكن لماذا لم نقل ذلك؟ فليكن، لأننا ارتأينا أنه من الصواب أن نترك أخينا فرانسيس وزوجته في مجتمعهما الخاص. وفضلنا أنا وأختي لافينيا أن نبحث عن عالمنا الخاص، آملتين أن نجد طريقنا بأنفسنا كذلك».

بدا أن هذه الأقاويل موجهة إليَّ وإلى ترادلز، لذلك قمنا بإبداء نوع من الرد. كان رد ترادلز غير مسموع. أظن أنني لاحظت وحدي إجابته، وإن ظل محلًّا لتقدير جميع المعنيين بالأمر. أما أنا فلا أعرف على الأقل ما قصدته حين أجبت بالموافقة على كلامهما.

قالت السيدة كلاريسا، بعد أن أراحت ذهنها وأفضت بما فيه: «أختي لافينيا، يمكنكِ مواصلة حديثكِ يا عزيزتي».

شرعت السيدة لافينيا تقول:

«يا سيد كوبرفيلد، كنا أنا وأختي كلاريسا حريصتين جدًّا ونحن نفكر في فحوى هذه الرسالة، ولم نفكر في الأمر من دون أن نعرضه على ابنة أخينا في نهاية المطاف، ومناقشة الأمر معها. ليس لدينا أدنى شك في أنك حسن الظن في إعجابك الجم بها».

بدا عليَّ الحماس فرحت أقول: «آه، أظن يا سيدتي...».

لكن السيدة كلاريسا كانت قد رمقتني بنظرة خاطفة، تشبه تمامًا

نظرة الكناري الحادة، تطالبني فيها بعدم مقاطعة هذا الوحي المسترسل، فطلبت العفو منهما.

استأنفت السيدة لافينيا، بينما راحت تلتفت نحو أختها طالبة منها تأييد قولها في إيماءة صغيرة لكل كلمة، قائلة: «إن العاطفة... العاطفة الناضجة، والولاء، والإخلاص، تعد نوعًا من المشاعر التي لا تظهر بسهولة معلنة عن نفسها، بل إنها مثل صوت خفيض متواضع ومتأخر، يكمن في جوهر الأشياء، ينتظر في تأنٍّ وتروٍّ، ويطيل من انتظاره. إنها الثمرة الناضجة، إذ تنساب الحياة وتنزاح بنا بعيدًا أحيانًا، فنجدها لم تزل تنضج في الظل».

لم أفهم حينها بالطبع أن هذا الحديث لم يكن سوى إشارة إلى تجربتها المفترضة المنكوبة مع بيدجر. لكنني لاحظت، من الطريقة الجادة التي أومأت بها السيدة كلاريسا، أن حكمة بالغة تنساب من هذه الكلمات.

تابعت السيدة لافينيا حديثها: «إنها النور - بالنسبة لي هذا ما أطلقه عليها، فأشبه هذه المشاعر بالنور - إنه محرك الشباب، كما أنه ذرات متناثرة كما الغبار، مقارنة بالصخور. يصعب توقع مدى احتمال صاحبه له أو مدى حقيقية هذا الشعور لديه. لم نقرر أنا وأختي كلاريسا كيفية التصرف في ذاك الأمر بعد يا سيد كوبرفيلد ويا سيد...».

قال صديقي وقد وجد الأعين تتجه نحوه: «ترادلز».

سألت السيدة كلاريسا قائلة: «اعذرني. إنك من حي المحامين على ما أظن، أليس كذلك؟»، ثم نظرت إلى رسالتي مرة أخرى.

أجابها ترادلز في حمرة من الخجل قائلًا: «بلى».

لم أكن قد تلقيت حتى هذه اللحظة أي تشجيع صريح، إلا أنني أتصور أن الأختين الضئيلتين، وخاصة السيدة لافينيا، كانتا قد استمتعتا أشد الاستمتاع بهذه المسألة الجديدة والمثمرة لمصلحة العائلة. لقد اتفقتا على تحقيق أقصى استفادة منها، ربما بنوع من التلاعب والتسلية، لكن المهم أنه قد ظهر بصيص من أمل جيد ومشرق. ظننت أن السيدة لافينيا ستشعر بالرضا؛ لأنها لم تألف من قبل الإشراف على عشيقين شابين، مثلي أنا ودورا. وأن السيدة كلاريسا لن تشعر بالقدر نفسه من الرضا لإشرافها علينا. كان تناغم هذا الصدى الذي توقعته سيُكسب المسألة مزيدًا من الاهتمام والقوة. ومن ثَم منحني هذا الموقف قدرًا من الشجاعة لأبرهن أنني أحببت دورا فوق ما أستطيع البوح به، بل أحببتها بما يفوق تخيل أي إنسان. صرحت لهما أن أصدقائي كافة باتوا يعرفون أنني أحببتها، وأن عمتي وأجنيس وترادلز، وكل من عرفني صار يعرف كيف أحببتها، وأي ثمن كلفني حبي لها. ناشدت ترادلز ليساعدني في إتمام حديثي. فإذا ترادلز مشتعلًا كما لو أنه منغمس في نقاش برلماني، وقد لاح لي نبيلًا بحق. أكد ما قلته بعبارات لبقة، وبأسلوب عملي وبحجة واضحة، وكان من الواضح أنه ترك انطباعًا إيجابيًّا عند السيدتين.

قال ترادلز: «إذا افترضنا أن بوسعي التدخل في هذا الأمر، فإنني سأتحدث بصفتي إنسانًا لديه خبرة ولو قليلة في مثل هذه الأمور، لأنني قد خطبت شابة -واحدة من بين عشرات الشابات في ديفونشاير- ولا أرى أي احتمالية في وقتنا الحاضر لإنهاء ارتباطنا».

التفتت إليه السيدة لافينيا في اهتمام فائق وملحوظ قائلة: «ستصير قادرًا على توثيق كلامك وإثباته يا سيد ترادلز، إذ إن العاطفة الناضجة والكامنة تنتظر في تأنٍّ وتروٍّ، وتدعوك للصبر، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «بلى، تمامًا يا سيدتي».

نظرت السيدة كلاريسا إلى السيدة لافينيا وأومأت بموافقتها بشدة. ثم التفتت السيدة لافينيا إلى السيدة كلاريسا، وتنهدت لتنبهها إلى شيء. فاستأنفت السيدة كلاريسا كلامها قائلة: «أختي لافينيا، تفضلي زجاجة عطري».

أنعشت السيدة لافينيا نفسها بقطرات من العطر. أخذنا نتفحصها أنا وترادلز باهتمام بالغ في أثناء ذلك، إلى أن شرعت تقول بصوت خفيض:

«انتابتني وأختي ريبة وخشية، يا سيد ترادلز، حول المسار الذي يجب أن نسلكه، إذ هو بالبراهين الواقعية الدالة، أو الميول الخيالية، لمصير شباب مثل صديقك سيد كوبرفيلد وابنة أخينا».

علقت السيدة كلاريسا بقولها: «يا لطفلة شقيقنا فرانسيس المسكينة! لو أن زوجة شقيقنا فرانسيس قد أحست أنه من الصواب أن تقرر في حياتها - على الرغم من أنها محقة بلا أدنى شك في التصرف على النحو الذي تصورته الأفضل - دعوة العائلة لتلتف حول مائدة عشاء واحدة، ربما عرفنا ابنة شقيقنا فرانسيس بصورة أفضل وفهمناها في وقتنا الحالي. هيا أكملي يا أختي لافينيا».

قامت السيدة لافينيا بطي رسالتي، حتى تستطيع أن تسرد تعليقها المدون خلفها. رمقتني عبر نظاراتها، موجِّهة بعض الملاحظات المنظمة التي دونتها على هذا الجزء من الرسالة.

قالت: «يبدو لنا أنه من الحكمة، يا سيد ترادلز، وضع هذه المشاعر في اختبار تحت ملاحظاتنا. إننا لا نعرف شيئًا عنهما في الوقت الحالي، ولسنا في وضع يسمح لنا بالحكم على مدى حقيقة المشاعر بينهما. لذلك نميل حتى هذه اللحظة إلى الموافقة على اقتراح سيد كوبرفيلد، فنقبل زياراته هنا».

صحت، مثلجًا الفؤاد مرتاحًا من ذاك العبء الهائل من الخوف، فقلت: «لن أخذلكما أبدًا يا سيدتي العزيزتين. لا تشغلا بالكما بأي سوء».

تابعت السيدة لافينيا قولها: «لكن... لكننا نفضل اعتبار تلك الزيارات لنا يا سيد ترادلز، كما هي في الوقت الحالي. يجب أن نحمي أنفسنا من الاعتراف المعلن بأي علاقة بين سيد كوبرفيلد وابنة أخينا، حتى تتاح لنا الفرصة...».

قالت السيدة كلاريسا: «حتى تسنح لكِ أنتِ الفرصة يا أختي لافينيا».

وافقت السيدة لافينيا وقالت متحسرة: «وإن يكن من أمر، حتى تسنح لي فرصة ملاحظتهما».

قال ترادلز مشيرًا إليَّ: «يا كوبرفيلد، إنني على يقين من أنك تستشعر بمدى عقلانية الموقف مما يدفعك إلى مراعاته، فلا شيء يضاهي هذا التصرف السليم».

صرخت قائلًا: «لا شيء يضاهيه».

استرسلت السيدة لافينيا في كلامها مشيرة مرة أخرى إلى شروطها قائلة: «إننا سنعتمد على زيارات شبيهة بزيارتنا هذه. ووفقًا لهذا الفهم دون سواه، يجب أن نطلب من السيد كوبرفيلد تأكيدًا واضحًا، عروجًا على شرف كلمته ووعده، بألا يحدث أي تواصل من أي نوع، بينه وابنة أخينا من دون علمنا. كما أننا لن نتغاضى عن أي مشروع مقدم عليه، ما دام يتعلق بابنة أخينا، من دون أن يعرضه علينا أولًا...». قاطعتها السيدة كلاريسا قائلة: «عليكِ يا أختي لافينيا».

رضخت السيدة لافينيا أمام قولها فاستكملت: «أيًا ما كان من أمر يا كلاريسا! تقدم طلبك لي - حتى يلقى موافقتنا. يجب أن نأخذ هذا الشرط بعين الاعتبار وعلى محمل الجد، ولا يجب تجاوزه مهما يكن من أمر. كما كنا نرجو أن يكون السيد كوبرفيلد برفقة بعض الأصدقاء المقربين اليوم». قالت ذلك وهي تميل برأسها نحو ترادلز، فانحنى بدوره أمامها، ثم أكملت حديثها قائلة: «حتى لا يكون ثمة مجال لشك أو لسوء فهم يتعلق بهذا الأمر. فإذا كان السيد كوبرفيلد، أو إذا كنتَ يا سيد ترادلز، تشعر بقدر ولو ضئيل من القلق حول إبرام هذا الوعد، فإنني أتوسل إليكما أن تأخذا وقتًا في التفكير».

صحت، بينما تغمرني حماسة متقدة، أنه ليس من الضروري انقضاء أي لحظة في التفكير. لقد عاهدت نفسي على الوفاء بالوعد. رحت بأقصى درجات الانفعال قوة، أدعو ترادلز لأن يشهد على قولي، ووصمت نفسي بأقذع السمات إذا ما انحرفت عن وعدي أقل انحراف أو أخلفته.

قالت السيدة لافينيا، وهي لم تزل عاقدة ذراعيها: «تمهل، لقد عقدنا العزم، قبل أن يسعدنا استقبالكما أيها السيدان، أن نترككما لتخلوا نحو ربع الساعة، لأخذ الأمر بعين الاعتبار والتفكير. فلتسمحا لنا بالمغادرة».

كان من العبث أن أصر على أنه لا داعي للتفكير في شيء، بعد أن استأذنتا في الانصراف إلى أجل مسمى. هكذا اتفقت هذه الطيور الخفيفة ذات الهمم الكبيرة على أن تتركاني لأتلقى تهنئة من ترادلز، مما جعلني أشعر أنني أخوض بحارًا من السعادة. عادتا بزهو لا يقل عن زهوهما الأول بعد انقضاء ربع الساعة بالضبط. لقد ذهبتا في خفة كما لو كان ثوباهما الصغيران مصنوعين من أوراق الخريف، ثم عادتا خفيفتين بالطريقة ذاتها.

أقررت بعدها بإلزام نفسي مرة أخرى بالشروط المنصوص عليها.

قالت السيدة لافينيا: «أختي كلاريسا، إنكِ ستتولين ترتيب بقية الأمور».

مدت السيدة كلاريسا ذراعيها لأول مرة، فدونت بعض الملاحظات وتأملتها.

تحدثت السيدة كلاريسا قائلة: «سنكون سعداء باستقبال السيد كوبرفيلد لتناول الغداء كل يوم أحد، إذا ناسب ذلك يوم عطلته. سيكون موعدنا في الساعة الثالثة».

انحنيتُ موافقًا.

قالت السيدة كلاريسا: «أما خلال الأسبوع، فإننا سنسعد باستقبال السيد كوبرفيلد ليحتسي الشاي معنا في السادسة والنصف».

انحنيت مرة أخرى موافقًا.

قالت السيدة كلاريسا: «سنستقبل زيارته مرتين في الأسبوع بصفة دورية وليست متقطعة».

انحنيت موافقًا من جديد.

قالت السيدة كلاريسا: «أما الآنسة تروتوود، التي ذكر اسمها في رسالة السيد كوبرفيلد، فإننا سندعوها لزيارتنا. ستصير الزيارة أفضل وأمتع لإسعاد جميع الأطراف، كما يسرنا استقبالكم وتكرار زياراتكم لنا. فإننا لسنا كغيرنا ممن لا يحبون تبادل الزيارات، (كما كانت الحال عند شقيقنا فرانسيس وعائلته) إننا مختلفتان عنهم تمامًا».

قلت إن عمتي ستسعد بأن تنال شرف معرفتهما، على الرغم من أنني يجب أن أقر بأنني لم أكن متأكدًا تمامًا من تواؤم هذه الأطراف معًا بصورة مرضية. ما إن صار اللقاء على وشك الانتهاء حتى أعربت عن تقديري لهما بنوع من التودد. تناولت يد السيدة كلاريسا أولًا، ثم السيدة لافينيا، ولثمت بشفتي كل منهما على حدة.

قامت السيدة لافينيا بعدها فاستأذنت من السيد ترادلز حتى تغيب دقيقة، ثم طلبت مني أن أتبعها. أطعتها مرتجفًا وتبعتها إلى أن دخلنا إلى غرفة أخرى. التقيت فيها بحبيبتي المباركة، فقد وجدتها تستند بأذنيها

خلف الباب، ووجهها الصغير المحبب يستند إلى الحائط. أما جيب فكان جسده داخل المدفأة ورأسه مقيدًا بمنشفة.

آهٍ، كم كانت جميلة في ثوبها الأسود، وكم أخذت تنتحب وتبكي في بداية الأمر من دون أن تصدر صوتًا من وراء الباب! كيف توطد يقيننا بأنَّا مغرمان. خرجت إليَّ أخيرًا، ويا له من نعيم استشعرته بعدما أخرجنا جيب من المدفأة، وأعدناه إلى النور، بينما راح يعطس مرارًا، وتم لم شمل ثلاثتنا.

قلت «يا عزيزتي دورا، أما الآن، فلم يعد حبنا محض خيال. إنكِ لي إلى الأبد».

ناشدتني دورا قائلة: «آهٍ، لا تفعل، أرجوك».

قلت: «ألستِ ملكي إلى الأبد يا دورا؟».

صرخت دورا: «آه نعم، بالطبع أنا لك، لكنني خائفة جدًّا».

«أخائفة يا مليكتي؟».

أجابت دورا: «نعم بالتأكيد، إنني لا أحبه. لماذا لا يذهب؟».

«مَن يا حياتي؟».

قالت دورا: «أقصد صديقك. إن أمرنا لا يعنيه بالتأكيد، يا له من غبي».

لم تظهر أي شيء مثيرًا للإقناع سوى طريقتها الطفولية. قلت: «يا حبيبتي، إنه أفضل مخلوق».

بدت دورا مصدومة، فقالت: «آهٍ، لكننا لا نريد أي مخلوقات فاضلة».

قلت: «يا عزيزتي، ستعرفينه جيدًا في أقرب وقت، وستحبين مسلكه. كما ستأتي عمتي قريبًا، وستحبينها أيضًا كبقية الأشياء الجميلة التي تحبينها بعدما تعرفينها».

أجابتني دورا، وهي تقبلني قبلة صغيرة مرتاعة، بعد أن حاوطتني يداها فقالت: «لا، من فضلك لا تحضرها، لا تفعل. أعلم أنها شقية وتصطنع الأذى والفساد منذ القدم، لا تدعها تأتي إلى هنا، يا دودي»، كان مناداتها لي بدودي تدليلًا وملاطفة لاسم ديفيد.

صار المنطق هنا بلا فائدة، لذلك ضحكت وأظهرت قبولي لكلامها، فقد كنت في حالة حب وسعادة جمة. عرضت عليَّ بعدها مهارة جيب الجديدة، وقدرته على الوقوف على رجليه الخلفيتين في الزاوية –وهو ما فعله للحظة كوميض البرق، ثم سقط بعدها أرضًا– ولا أعرف كم مضى من وقت هناك، مكثت فيه غافلًا عن ترادلز؛ إذ إن السيدة لافينيا لم تأتِ لترجعني إليهم ثانية. كانت السيدة لافينيا مفتونة بدورا للغاية. أخبرتني أن دورا كانت تشبهها تمامًا عندما كانت في عمرها، ولا بد أنها استحسنت وجودها معها، فعاملتْ دورا كما لو أنها لعبة. حاولت إقناع دورا بالدخول لرؤية ترادلز، ولكنني ما إن اقترحت الأمر عليها، حتى هرولت إلى غرفتها وحبست نفسها بالداخل. عدت إلى ترادلز من دونها، ثم مشيت معه حيث الهواء الطلق.

قال ترادلز: «يا له من شعور بالرضا لا يضاهى. إنهن سيدات

كبيرات في السن لطيفات، إنني متأكد من كرمهن. لن أندهش مطلقًا لو أنك أتممت زواجك قبلي يا كوبرفيلد».

سألته بينما أحس زهوًا يملأ قلبي: «هل تتقن صوفي العزف على آلة موسيقية يا ترادلز؟».

أجاب ترادلز: «إنها تعرف ما يكفي من العزف على البيانو فتعلم إخوتها الصغار».

سألته: «هل تتقن أي نوع من الغناء؟».

قال ترادلز: «حسنًا، إنها تغني بعض الأشعار أحيانًا، لتبث في أرواح الآخرين دربًا من سمو الوجدان، لكنها لم تدرس أيًّا من صنوف الغناء».

سألت: «هل تغني على أنغام الجيتار؟».

أجابني ترادلز: «آهٍ يا عزيزي. إنها لا تفعل ذلك».

«هل تقوم برسم أي شيء؟».

قال ترادلز: «لا على الإطلاق».

لقد وعدت ترادلز بسماع غناء دورا، ورؤية بعض رسوماتها الوردية. قال إنها ستعجبه جدًّا من دون شك، فاتجهنا إلى المنزل متشابكي الأذرع تملأنا روح الدعابة والبهجة. شجعته في الطريق على الحديث عن «صوفي»، وهذا ما فعله بدافع من محب، وقد أعجبت به أشد الإعجاب. قارنتها في ذهني بدورا، فشعرت بنوع من الارتياح بداخلي. لكنني اعترفت في قرارة نفسي أنها بدت فتاة ممتازة كما أنها تناسب ترادلز كذلك.

عرفت عمتي على الفور نتائج هذه الزيارة الناجحة، وعرفت كل ما قيل وكل ما حدث في هذه المقابلة. كانت سعيدة بدورها لرؤيتي في غاية الفرح، ووعدتني بالتواصل مع عمتَي دورا من دون إهدار للوقت. لكنها راحت تذرع غرفتنا ذهابًا وإيابًا في تلك الليلة. كنت ساعتها أكتب إلى أجنيس، وقد بدأت أتصور أنها تنوي مواصلة المشي حتى الصباح.

كانت رسالتي إلى أجنيس شديدة الحماسة والامتنان، حيث سردت كل الأثر الرائع الناتج عن اتباع نصحها. أجابتني بدورها برسالة عبر البريد. كانت رسالتها مفعمة بالأمل، جادة ومبهجة، بل صارت دائمة الابتهاج منذ ذلك الحين.

تملكني يقين منذ هذه اللحظة بعدما توثقت يدي من حبائل الأمور أكثر من أي وقت مضى. كنت أهتم بتفاصيل رحلتي اليومية إلى هايجيت. كان الوصول إلى بوتني حلمًا بعيد المنال، فقد كنت بطبيعة الحال أتمنى أن أذهب إلى هناك. كانت زيارات تناول الشاي المقترحة غير عملية على الإطلاق، فقد تضاعفت زياراتي تلك مع السيدة لافينيا حتى أستطيع طلب الإذن في زيارة أخرى في كل سبت، من دون الإضرار بزيارتي أيام الآحاد. ولذلك باتت نهاية الأسبوع من أمتع أوقاتي، بل رحت أتجاوز الأسبوع بأسره متطلعًا إلى نهايته تلك.

شعرت بارتياح جم عندما وجدت أن عمتي وعمتَي دورا على وئام، تراعين جميع الدقائق، في صورة أكثر سلاسة مما توقعت. قامت عمتي بزيارتها الموعودة في غضون أيام قليلة من لقائي بهما. وما إن انقضت أيام قلائل حتى دعتاها عمتا دورا واستقبلتاها بصورة لائقة. وقعت زيارات

مماثلة ولكن بصورة أكثر ودية بعد ذلك، وكانت تتم عادة على فترات من ثلاثة إلى أربعة أسابيع. أعلم أن وطأة عمتي كانت ثقيلة على عمتَي دورا كثيرًا. إذ كانتا تستأجران عربة بعينها لتقلها إليهما، كما تحتاجان إليها للخروج إلى بوتني في أوقات غير مألوفة، مثل الخروج بعد فترة وجيزة من الإفطار أو قبل احتساء الشاي مباشرة. كما أزعجتهما طريقة عمتي في ارتداء قبعتها بطريقة خاصة بها تراها مريحة لرأسها، من دون أن تذعن لأي مظهر من مظاهر التحضر مطلقًا. اتفقت عمتا دورا سريعًا على اعتبار عمتي سيدة غريبة الأطوار بل وذكورية إلى حد ما، مع تفهم أمرها برمته. أزعجت عمتي عمتَي دورا في كثير من الأحيان وسخرت من تكبرهما، إذ راحت تعبر عن آرائها المهرطقة في نقاط مختلفة عن فكرة الاحتفال بالزواج ومراسمه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان حبها الجم لي يدفعها إلى الحفاظ على بعض اللباقة مراعاة للوئام والألفة العامة.

كان جيب هو العضو الوحيد في مجتمعنا الصغير الذي رفض التكيف مع الظروف بصورة قاطعة. لم يرَ عمتي قَطُّ من دون أن يكشر عن أنيابه على الفور، ثم لم يلبث أن ينكفئ تحت كرسي، حتى يصدر نباحًا لا ينقطع. راح يصدر بين الحين والآخر عواء رقيقًا، كما لو أن عمتي تفوق طاقة احتماله حقًّا. جربنا سائر الطرق معه، من الإقناع، والتوبيخ، والصفع تارة، أو تهدئته بالمشي في شارع باكنجهام تارة أخرى. اندفع حينها مسرعًا على الفور نحو قطتين، مما أثار رعب جميع المارين، لكنه لم يستطع أن يتحامل على نفسه ليقبل الوجود مع عمتي.

كنا نتصور أحيانًا أننا قد تغلبنا على اعتراضه، إذ يبدي وده لبضع دقائق، ثم يعاود رفع أنفه ليعوي بأقصى صوته. لم يجد معه شيئًا سوى إغماض عينيه وتخبئته في المدفأة لأوقات طويلة. كانت دورا تقوم عادة بإحكام فمه بمنشفة ووضعه بالمدفأة، ثم تبلغ عمتي بما فعلته به عند الباب.

تواءمنا ورحنا نتقدم في هذا القطار الهادئ، لكن لم يزعجني سوى أمر واحد. لقد بدا لي أن دورا قد استجابت لكونها لعبة جميلة أو ملهاة. ألفتها عمتي تدريجيًّا، وكانت تناديها دائمًا باسم الزهرة الصغيرة. كما ابتهجت وسعدت السيدة لافينيا لمراقبة تصرفاتها وسلوكها، وتمشيط شعرها، وصنع الحلي لها، ومعاملتها مثل طفلة مدللة، وكان مسلك السيدة لافينيا، هو الدرب عينه الذي سلكته أختها بطبيعة الحال. لاح الأمر غريبا جدًّا أمامي، لكن بدا لي أن الجميع صار يعامل دورا بتدليل فائق، مثلما تعاملت دورا مع جيب بالدلال ذاته.

قررت أن أتحدث إلى دورا حول هذا الأمر. كنا نسير في أحد الأيام خارج البيت. كنا قد حصلنا على موافقة السيدة لافينيا بعد فترة للخروج بمفردنا. قلت لها إنني أرجو لو تطلب إليهم أن يعاملوها بشكل مختلف.

وقد برهنت لها قائلًا: «لأنكِ تعرفين يا حبيبتي أنكِ لستِ طفلة».

قالت دورا: «أما هنا، وفي هذه اللحظة، سيكون فراق بيني وبينك».

«أتقولين فراقًا يا حبيبتي؟»‎.

قالت دورا: «إنني متأكدة من أنهم في غاية اللطف والكرم معي، كما أنني سعيدة للغاية».

قلت: «حسنًا، لكن يا حياتي الغالية، قد تصيرين في غاية السعادة، ومع ذلك تُعامَلين معاملة الراشدين».

رمقتني دورا بنظرة بائسة -إنها أجمل نظرة- ثم بدأت البكاء قائلة بأنني إذا لم أكن أحبها، فلماذا عقدت جل عزمي لخطبتها؟ ولماذا لم أرحل إلى الآن إذا لم أستطع تحملها؟

ماذا عساي أن أفعل سوى أن قبلت مسقط دموعها المنهمرة، لأخبرها كم أنني أهتم لأمرها وأعتني بها طوال ذلك الوقت.

قالت دورا: «إنني بلا شك مرهفة الحس. فلا يصح أن تصير قاسيًا معي يا دودي».

أجبتها: «أتقولين إنني قاسٍ يا حبي الثمين، أيمكنني أن أكون كذلك -أو أستطيع- أن أصير قاسيًا عليك، وإن قسوت على العالم بأسره؟!».

قالت دورا بينما تلوي شفتيها كزهرة: «إذن لا تتبع عيبًا في شخصيتي. فإن فعلت ذلك سأصير على ما يرام».

كنت قد سُحِرت بطلبها في تلك اللحظة، خاصة حين طلبت من تلقاء نفسها أن أعيرها كتابًا عن الطبخ، بعد أن تحدثت عنه ذات مرة، كما طلبت مني أن أعلمها كيفية تدوين الحسابات، وفاء بما وعدتها به سابقًا. أحضرت المجلد معي في زيارتي التالية. كنت قد غلفته بشكل جميل، لأجعله يبدو أقل جفافًا وأكثر جاذبية. رحنا نتجول حول الساقية، ثم أريتها كتابًا قديمًا عن التدبير المنزلي، وكان هذا الكتاب

لعمتي، ثم أعطيتها مجموعة من ألواح الأردواز، وحقيبة أقلام صغيرة وعلبة من الخيوط، للتدرب على بعض مهارات التدبير المنزلي.

أما كتاب الطبخ فقد تسبب لدورا في آلام بالرأس، كما جعلتها الأرقام تنتحب. قالت إنهم لن يضيفوا إليها شيئًا. لذا قامت بتمزيقهم، ولم يلفت انتباهها سوى القليل من النصائح التي تخصني أو تتعلق بجيب، لذلك دونتها على ألواح الأردواز.

حاولت بعدها بطريقة هزلية أن أردد بعض الإرشادات الشفاهية عن التدابير المنزلية، حين كنا نتجول بعد ظهر أحد أيام السبت. وحاولت مرات أخرى ترديدها في مواقف متنوعة، فرحت أقول على سبيل المثال بينما نجتاز محل الجزار:

«افترضي الآن يا وليفتي أننا تزوجنا، وأنكِ ستشترين كتفًا من لحم الضأن لإعداده للعشاء، هل تعرفين كيف تشترينه؟».

كان وجه دورا الصغير الجميل يتوارى، ثم تدير فمها كما الزهرة مرة أخرى، كما لو أنها تفضل وبشدة أن تغلق فمي بقبلة.

أكرر سؤالي عليها، فربما لم أكن مرنًا بما فيه الكفاية في طرحي الأول فأقول: «هل تعرفين كيف تشترينه يا حبيبتي؟».

تفكر دورا قليلًا، ثم ترد، ربما بنوع من الانتصار العظيم، فتقول:

«لماذا أفكر في الأمر، إن الجزار يعرف كيف يبيعه، فلماذا عليَّ أن أعرف بنفسي؟ آه، أيها الفتى السخيف».

رحت لهذا السبب أكثر من تذكيرها بكتاب الطبخ، كما سألت ذات مرة عما ستفعله إذا ما تزوجنا، وطلبت الحساء الأيرلندي الشهي الذي أحبه. أجابت أنها ستطلب من الخادمة أن تطهوه، ثم أحكمت يديها الصغيرتين معًا متأبطة ذراعي، وضحكت ضحكتها الساحرة، حتى إنها لاحت لناظري أكثر بهجة من أي وقت مضى.

صار الاستخدام الرئيسي الذي خصص له كتاب الطبخ بعد ذلك، هو وضعه في الزاوية ليقف عليه جيب. شعرت دورا بسعادة بالغة، عندما دربته على الوقوف عليه من دون أن تغير وضعه، وفي الوقت نفسه دربته على حمل حافظة الأقلام في فمه، وقد كانت سعيدة جدًّا بها.

عدنا إلى الحديث عن العزف على الجيتار، ورسوم الورود، والأغاني التي لا تنقطع منها أصداء الرقص أبدًا، تا را لا لي! كان الجميع سعداء طوال الأسبوع. تمنيت أحيانًا لو أجرؤ على التلميح إلى السيدة لافينيا، بأنها قد بالغت في معاملتها لحبيبة قلبي على أنها لعبة. إلا أنني رحت أنتبه أحيانًا، لأجد أنني وقعت بطبيعة الحال في الخطأ العام نفسه، فعاملتها مثل اللعبة أيضًا، وإن لم أفعل ذلك طوال الوقت.



# الفصل الثاني والأربعون

## أذى متعمد

ينتابني شعور يؤنبني على كتابتي، على الرغم من أن هذه المخطوطة لن تقع عليها عين سواي، كم عملت بجد حتى أتقن فن الاختزال الرائع، وكم احتويت كل خطوة تتحسن بها مهاراتي، وتدعم إحساسي بالمسؤولية تجاه دورا وعمتيها. سأضيف إلى ما كتبته سابقًا شيئًا عن مثابرتي في هذا الوقت من حياتي، ومدى صبري وطاقتي المستعرة التي أخذت تتقد بداخلي بمرور الوقت، والتي أعلم أنها الجزء القوي من شخصيتي - إذ إنني لو تذكرت الماضي السحيق، لأدركت أنها مكمن قوتي على مدار حياتي، بل إنها مصدر نجاحي. لقد كنت محظوظًا جدًّا في الأمور الدنيوية، وقد عمل كثير من الرجال بجهد أكبر، لكنهم لم يحققوا نصف ما حققت من النجاح. ما كنت أستطيع قَطُّ أن أصل إلى نجاحي من دون الالتزام والمثابرة والنظام والاجتهاد، أو من دون العزم على التركيز على تحقيق هدف واحد في كل مرة، بالإضافة إلى الوقت الذي لم أهدره، وقد واصلت هذه الخطى

فيما بعد. يعلم الله أنني لم أكتب هذه الكلمات بنية الإشادة بنفسي. إن الرجل الذي يراجع حياته، كما أفعل هنا باستمرار، من صفحة إلى أخرى، يصير مستحقًّا لأن يوصف بأنه رجل صالح بالفعل، ذلك لأنه لم يتجنب التركيز في كثير من مواهبه الخفية، ولم يتحسر على ضياع فرص شتى، وتجاوز المشاعر السيئة والمنحرفة التي احتدمت مستعرة داخل صدره، والتي قد تؤول به إلى الهزيمة. إنني لا أحمل موهبة فطرية واحدة، حتى أجرؤ على القول بأني قد أسأت استخدامها، بل إن مقصدي ببساطة هو أن كل ما سعيت إلى فعله في هذه الحياة، هو أنني حاولت من كل قلبي أن أقوم بالخير. كان كل ما كرست نفسي له من أهداف كبيرة أو صغيرة، قد وهبت له نفسي بالكامل، فكنت دائم الشغل بكدٍّ وجدية. لم أصدق قَطُّ أنه من الممكن لأي موهبة فطرية أو عطاء أن يدعي تفوقًا على قدراتنا المتساوية الثابتة والواضحة، من دون العمل الجاد، والسعي أملًا في جني الثمار. لا يضاهي هذا النجاح شيء على وجه الأرض. قد تُشكل بعض المواهب السعيدة، وبعض الفرص السارة التي تواتينا، سلمًا يصعد عليه بعض الرجال، إلا أن منحنيات هذا السلم عليها أن تصقل بأشياء تتحمل البلى، وليس ثمة بديل عن الجد والكد والحماس الصادق. لا أقدم على فعل شيء أستطيعه إلا وأهب له نفسي كاملًا؛ وكذلك لم أستهِن قَطُّ بجهدي مهما يكن من أمر. أما الآن فإنني أدرك أن هذه القواعد هي قواعدي الذهبية لخوض معترك الحياة.

أريد أن أشير هنا إلى الفضل الذي أدين به لأجنيس، لدعمها في تنفيذ سعيي وتحقيق آمالي، وإن حكاياتي لتتجه إلى أجنيس بوافر المحبة الصادقة.

جاءت أجنيس في زيارة لأسبوعين لزيارة الدكتور، فقد كان السيد ويكفيلد صديقًا قديمًا له. أحب الدكتور كذلك أن يتحدث إليه، ليطمئنه. وكانت هذه الزيارة مرمى محادثتي السالفة مع أجنيس في آخر زيارة لها في المدينة. أقبلت أجنيس في زيارتها هذه المرة مع والدها. لم أتفاجأ كثيرًا عندما علمت أنها تبحث عن مسكن قريب في الحي من السيدة هيب، التي طالما دفعتها شكواها من الروماتيزم إلى طلب تغيير الهواء، كما أنها ستسعد بوجود هذه الصحبة معها. كما أنني لم أتفاجأ عندما جاء يورايا في اليوم التالي، مثل أي ابن مطيع بار، فاصطحب والدته إلى مسكنها.

كان قد فرض نفسه عليَّ للتنزه في حديقة الدكتور، وراح يقول: «كما تعرف يا سيد كوبرفيلد، إن المرء حين يحب، يشعر بنوع من الغيرة، تدفعه على الأقل إلى مراقبة المحبوب حرصًا عليه».

سألته: «ممن تغار الآن؟».

التفت قائلًا: «لا أغار من إنسان بعينه في الوقت الحاضر، والفضل لك يا أيها السيد كوبرفيلد – لا أغار من ذكر على الأقل حتى هذه اللحظة».

«هل تقصد أنك تغار من امرأة؟».

رمقني بطرف عينيه الخبيثتين ثم ضحك.

قال: «في الواقع يا كوبرفيلد -أقصد يا أيها السيد كوبرفيلد، يجب أن أقول لك إن هذه العادة قد تملكتني في حديثي إليك- كم أنت بارع في التلميح إلى الأمور، فتضع بين يدي مقاليد الحديث، حسنًا، لا أمانع في إخبارك بالأمر». وضع يده الشبيهة بالسمكة على يدي، ليكمل قائلًا: «إنني لست رجلًا ممن يعجبون النساء بشكل عام يا سيدي، فلم تتقبلني السيدة سترونج قَطُّ لهذا السبب».

بدت عيناه حينها في بهاء لونهما الأخضر متوهجتين، بينما راح يرمقني في مكر ودهاء.

سألت: «ماذا تقصد؟».

أجاب بابتسامة جافة: «حسنًا، على الرغم من أنني محامٍ يا سيد كوبرفيلد، فإنني أعني في الوقت الحالي ما أقوله».

بادرت بسؤاله في هدوء: «وماذا تقصد بنظرتك؟».

«أتقول نظرتي؟ آه يا عزيزي كوبرفيلد، إنها ملاحظة حادة، ترى ماذا أعني بنظرتي؟».

قلت: «نعم، أسأل عن نظرتك».

بدا مستمتعًا للغاية، وضحك بحرارة كما هي طبيعته في الضحك. حك بعد ذلك ذقنه، ثم قال وهو يميل نظرات عينيه إلى الأسفل، في حين لم تزل ترتجف في بطء شديد: «كنت مجرد كاتب، وكانت السيدة سترونج تنظر إليَّ بازدراء دائمًا. أما أجنيس فكانت تقرب منها

أناسًا وتبعد عنها آخرين كما النهر، وقد كانت دائمًا صديقة لك يا سيد كوبرفيلد، لكنني كنت بعيدًا عنها وعن ناظريها، بحيث لا يمكنها ملاحظتي».

قلت: «حسنًا، وماذا بعد؟ افترض أنك كنت كذلك!».

تابع يورايا كلماته بنبرة متيقنة مندهشة في آن بينما واصل حك ذقنه، فقال: «بل كنت في عينها وضيعًا».

قلت: «ألم تعرف أن الدكتور لا ينتبه لأحد لا يلبث أمامه طوال الوقت؟».

أدار عينيه نحوي ورمقني بتلك النظرة الجانبية مرة أخرى، وراح يبرز فكه السفلي ويمده، حتى يشعر براحة أكبر في فركه، ثم أجاب قائلًا: «يا عزيزي، إنني لا أقصد الدكتور. آهٍ، لا أيها الرجل المسكين، إنني أقصد السيد مالدون».

اضطرب قلبي بين جوانحي. واستيقظت كل شكوكي ومخاوفي القديمة، واستدعيت كل سعادة أظهرها الدكتور في طمأنينة. تداخلت كل الاحتمالات واختلطت بين التبرئة والتصديق، من دون أن أقدر على كشفها. رأيت في لحظة كل شيء أمامي يتلوى كما يتلوى هذا الرجل.

قال يورايا: «اعتاد أن يأتي إلى المكتب من دون أن يمنع نفسه عن توجيه الأوامر لي وتوبيخي. أعلم أنه أحد السادة المحترمين. كنت حليمًا جدًّا ومتواضعًا -وهذا هو طبعي- لكنني لم أرتَح لهذا النوع من التصرفات، إنني لا أحب ذلك».

توقف عن فرك ذقنه ثم شفط إليه خديه حتى بدا وكأنهما سيلتقيان داخل جوفه، لكنه أبقى نظرته الجانبية نحوي طوال الوقت.

استأنف كلامه بعد أن استعاد هيئته فقال: «إنها واحدة من نسائكم المحبوبات، وإنني عل يقين من أنها لا ترغب في أن تصادق رجلًا مثلي. إلا أنني أضع شخص أجنيس التي يخصني أمرها في مستوى أعلى من هذه اللعبة. إنني الآن لست من الرجال المقربين لنسائكم يا سيد كوبرفيلد، إلا أن عينيَّ تراقبانكم منذ وقت طويل جدًّا، وللجميع أعين، معظمها تتحدث بما أبصرت، فلا داعي لأن نُحولها بعيدًا «عنهم»».

حاولت أن أبدو غير منتبه لمرماه، وغير منزعج من كلماته، لكنني رأيت في وجهه ملامح من انتصار أجوف.

استرسل في حديثه رافعًا جبينه متفاخرًا، معلقًا حاجبيه الحمراوين خفيفَي الشعر، قائلًا في انتصار خبيث: «والآن، لن أسمح لنفسي بالانهزام يا كوبرفيلد. سأفعل ما بوسعي لوضع حد لهذه الصداقة، لأنني لا أوافق عليها. ولا أمانع في أن أعترف لك باضطراب نفسي وألمها، وأريد أن أبعد كل الدخلاء. لن أخاطر -أدرك أنني أبعد عن المخاطرة- ولن أمنح أي فرصة للتآمر ضدي».

قلت: «إنك تتآمر دائمًا، وتخدع نفسك بالاعتقاد بأن من حولك يتآمر ضدك، وهذا ما أوقنه من أمرك».

أجاب: «لعلك محق يا سيد كوبرفيلد. لكني أحوز دوافع، على حد تعبير شريكي، فأنا أتشبث بهدفي بأسناني وأظافري، حين لا يجب أن

أتصرف بنوع من اللين المبالغ فيه، فلا أسمح للناس أن يحولوا دون طريقي. حقًّا يجب أن ينزاحوا عن مسيرتي يا سيد كوبرفيلد».

قلت: «إنني لا أفهمك».

أردف يقول وهو يهز رأسه: «ألا تفهمني حقًّا؟ إنني مندهش من قولك هذا يا سيد كوبرفيلد، لأنك عادة ما تكون سريع البديهة جدًّا. سأحاول أن أكون أكثر وضوحًا مرة أخرى، فهل فهمت أنني أقصد السيد مالدون؛ ذاك القادم على ظهر خيله يدق الجرس عند البوابة يا سيدي؟».

أجبته بلا مبالاة قدر استطاعتي: «يبدو أنه هو».

بدل يورايا نظراته الفظة، ووضع يديه بين مقابض ركبتيه، وضاعف ضحكته منطويًا على نفسه. كانت ضحكته جوفاء ساكنة تمامًا، فلم يهرب منه صوت. نفرت بشدة من سلوكه البغيض، ولا سيما بعد هذه الحالة الأخيرة، لدرجة أنني ابتعدت عنه من دون سابق استئذان، وتركته يتسكع وسط الحديقة، كما خيال المآتة، في حالة من التزعزع.

أذكر جيدًا أنني اصطحبت أجنيس لرؤية دورا في مساء يوم لاحق غير مساء ذلك الأحد، وكنت قد رتبت لهذه الزيارة سابقًا مع الآنسة لافينيا، حتى تحتسي أجنيس الشاي معنا.

لفتني حالة من الزهو والقلق. كنت مزهوًّا بخطيبتي الصغيرة، وقلقًا من مدى إعجاب أجنيس بها. قبعت أجنيس طوال الطريق إلى بوتني داخل العربة، بينما جلست في الخارج. رحت أتخيل دورا، وأتصور

كل مظهر من الإطلالات الجميلة التي عرفتها جيدًا. تمثلتها في هذه اللحظة من غفلتي وقد اقتنعت أنها ستبدو تمامًا كما أراها في مثل هذه المواقف، ثم أتشكك فيما إذا كنت سأتقبل مظهرها في تلك اللحظة كما كنت أتقبله أم لا، إلى أن زاد اضطرابي بسبب طول إلحاح هذه الأفكار على ذهني مرة أخرى.

لم يراودني شك في أنها ستبدو جميلة جدًّا على أي حال، بل إنني تيقنت ألا مثيل لجمالها بعد أن تجلت أمامي فاتنة. تقدمت أجنيس لتحية عمتيها الضئيلتين، أما دورا فلم تكن في حجرة الاستقبال، بل إنها اختبأت عن طريق أجنيس خجلًا من لقائها. كنت أعرف أين أبحث عنها في تلك اللحظة، وبالتأكيد وجدتها تلصق أذنيها مرة أخرى بالباب القديم الباهت نفسه.

رفضت في البداية الخروج مطلقًا، فرحت أتوسل إليها طوال خمس دقائق كاملة حتى وافقت. تأبطت ذراعي، لأصطحبها إلى حجرة الاستقبال. كان وجهها الصغير الساحر محمرًّا في جمال غير مسبوق قَطُّ. ما إن دخلنا الغرفة، حتى شحب وجهها ففاق جماله المعهود عشرة آلاف مرة.

كانت دورا خائفة من أجنيس. أخبرتني أنها تعرف أن أجنيس «ذكية جدًّا»، ولكن ما إن رأتها للوهلة الأولى في مظهر جاد للغاية وفاتن، حتى ابتهجت، ثم أطلقت صرخة خافتة تعبيرًا عن مفاجأتها السارة. راحت تطوق أجنيس بذراعيها الحنونتين، ثم لصقت خدها البريء على وجهها مرحبة بها.

لم أشعر بسعادة قَطُّ كما شعرت بها في هذه اللحظة. لم أفرح مثلما فرحت برؤيتي هاتين الفتاتين جالستين معًا جنبًا إلى جنب. رأيت بطبيعة الحال حبيبتي الصغيرة تتجلى بتلك الأعين الودودة بطبيعتها. كما رأيت أجنيس وقد أحاطتها بنظرات من الحنان والجمال.

شاركتني الآنسة لافينيا والآنسة كلاريسا فرحتي بطريقتهما. كانت أجمل طاولة شاي في العالم. ترأست الآنسة كلاريسا الطاولة. قطعتُ كعكة البذور الحلوة[١] وقدمتُها. كانت الأختان الصغيرتان مولعتين بالنقر كما الطيور، فالتقطتا البذور ونقرتا السكر، كما راقبتنا الآنسة لافينيا بعين راعية ومحبة، وكأن حبنا السعيد لم يزل شغلها الشاغل. صرنا راضين تمامًا عن أنفسنا وعن بعضنا البعض.

تغلغلت بهجة أجنيس اللطيفة إلى قلوبهن جميعًا. اهتمامها الهادئ بكل ما يهم دورا، طريقتها في التعرف على جيب (الذي استجاب على الفور لها)، طريقتها اللطيفة التي أبعدت خجل دورا، بعدما كانت خجلى من أن تجلس على مقعدها المعتاد، رونقها المتواضع وسهولتها في التعامل. أثار سلوكها حشدًا من سمات الثقة أبعدت بدورها خجل دورا، ولْتبدُ دائرتنا مثالية تمامًا.

قالت دورا بعد احتساء الشاي: «إنني سعيدة للغاية لأنكِ أحببتني. لم أتصور أنكِ ستعجبين بي، وإنني أود -أكثر من أي وقت مضى- أن أصير محبوبة، خاصة الآن بعد أن غادرت جوليا ميلز».

---

(١) كعكة إنجليزية تقليدية قديمة، كانت غالبًا ما تُصنع من دقيق اللوز.

لقد أغفلت ذكر هذا الأمر من قبل، إذ أبحرت الآنسة ميلز إلى الهند، وذهبت أنا ودورا إلى متن سفينة عظيمة من سفن الهند الشرقية في جرافيسند لتوديعها. احتفظنا من رحلتنا بالزنجبيل والجوافة وأطعمة أخرى من هذا النوع للغداء. عدنا بعد أن ودعنا الآنسة ميلز وتركناها جالسة على مقعد من القماش المشدود؛ تبكي على سطح الباخرة، وتتأبط دفتر يوميات جديد وكبير تحت ذراعها حتى لا ينزلق، وكان من المقرر أن تدون به عواطفها بعد أن تتأمل المحيط.

قالت أجنيس إنها خافت من أن أكون قد أوهمتهم بأنها شخصية لا يتوقع منها شيء، إلا أن دورا صححت هذه الفكرة مباشرة. قالت بينما تلتوي ناحيتي: «آهٍ لا، إنه يعير رأيك كل اهتمام، لدرجة أنني كنت خائفة جدًّا منه».

قالت أجنيس بابتسامة: «إن رأيي لا يمكن أن يمس قرناءه الأحباء الذين يعرفهم، وإلا فالأجدر ألا يأخذ به».

قالت دورا بطريقتها المدللة المقنعة: «فلتسمحي لي بمعرفة رأيكِ، إذا استطعتِ».

لقد سخرنا من رغبة دورا في أن تكون محبوبة، بينما أخبرتني دورا أنني بدوت غبيًّا، وأنها لم تحب هذا المسلك بأي حال من الأحوال. حلقت الأمسية القصيرة بنا مثل طائر عابر. اقترب موعد وصول العربة، وكنت أقف وحدي أمام المدفأة فإذا بدورا مقبلة عليَّ تمشي الهوينا، لتهبني تلك القبلة الصغيرة الثمينة المعتادة قبل ذهابي.

قالت دورا، وعيناها اللامعتان تتوقدان وهجًا، بينما تنشغل يدها اليمنى الصغيرة بأحد أزرار معطفي: «ألا تظن أنني لو كنت قد اتخذتها صديقة منذ وقت طويل يا دودي، لصرت أكثر ذكاء؟».

قلت: «حبيبتي، يا لكلامكِ من هراء!».

أجابتني دورا وهي تحملق نحوي: «هل تحسب أن قولي هراء؟ هل أنت متأكد؟».

أكملت دورا حديثها بينما تدير أزراري يمينًا ويسارًا: «بالطبع، لقد نسيت مدى علاقة أجنيس بك، أيها الولد الشرير».

أجبتها: «إنها ليست قرابة على وجه التحديد. لكننا نشأنا معًا، فكنا مثل أخ وأخت».

قالت دورا ماسكة بزر آخر من معطفي: «أتساءل لماذا لم تقع في حبي؟».

«ربما لأنني لم أستطع رؤيتكِ من دون أن أحبكِ يا دورا!».

قالت دورا وهي تنتقل إلى زر آخر: «لنفترض أنك لم ترني على الإطلاق».

أجبت ساخرًا: «لنفترض أننا لم نُولد قَطُّ».

تساءلت عما كانت تفكر فيه، فألقيت نظرة خاطفة على اليد الناعمة الصغيرة التي تتحرك صعودًا في صف الأزرار على معطفي وقد سكنت. أبصرت شعرها الغزير المنثور فوق صدري، ورموش عينيها وأهدابها المطرقة قليلًا. راحت تتحرك بينما أتابع أصابعها الرقيقة. رفعت عينيها

لتقابل عيني، ثم هبت واقفة على أطراف أصابع قدميها، لتهبني، برقة فاقت رقتها المعتادة، تلك القبلة الصغيرة الغالية -لمرة، ثم مرتين، ثم ثلاث مرات- ثم خرجت من الغرفة.

انسجموا جميعًا في غضون خمس دقائق، وانقشعت آثار هواجس دورا غير المألوفة فاختفت تمامًا. راحت تضحك وقد صممت على أن يقدم جيب جميع عروضه التي تدرب عليها قبل أن تذهب إلى العربة. استغرق جيب وقتًا طويلًا (ليس لكثرة الحركات التي يؤديها، ولكن لإحجامه أحيانًا عن تأديتها فورًا)، بل لم يكمل عروضه بعد حتى سمعنا صوت العربة عند الباب. كان الوداع سريعًا، ولكنه ذو وقع حنون على أجنيس، وقد اتفقت مع دورا على أن تراسلها (لم تخَف دورا من أن رسائلها ستكون حمقاء، على حد تعبيرها)، وكان على أجنيس أن تكتب إلى دورا كذلك. ودعت كل منهما الأخرى مرة ثانية عند باب العربة، ثم مرة ثالثة، على الرغم من احتجاج الآنسة لافينيا، حينما نزلت دورا لتذكير أجنيس مرة أخرى عند نافذة العربة بالكتابة إليها، كما أنها أرادت أن تهز جدائلها أمام وجهي بعد أن اتخذت مجلسي من العربة.

كانت العربة ستتجه بنا بالقرب من كوفنت جاردن، حيث نستقل حافلة تصل بنا إلى هايجيت. كنت متلهفًا على النزول والمشي في ذاك الوقت الفاصل، لعل أجنيس تمتدح دورا أمامي. آه، يا له من مدح! كم هي محبة ومشجعة إذ أشادت بهذه المخلوقة الفاتنة التي فزت بها، وأشادت بمفاتنها الفطرية كلها التي لا تصنُّع فيها، كما مدحت ما أظهرته من اهتمام على أفضل وجه، وبأقصى عناية! كيف راحت تذكرني بدقة،

من دون نفاق، بالأمانة التي سأتحمل بها أحلام هذه الطفلة اليتيمة!

ما أحببت دورا قَطُّ بعمق وصدق، كما أحببتها في تلك الليلة. نزلنا مرة أخرى من العربة، وسرنا في ضوء النجوم على طول الطريق الهادئ الذي يؤدي إلى منزل الدكتور، فأخبرت أجنيس ساعتها بما يجول في خاطري.

قلت: «كنتِ جالسة بجوارها يا أجنيس، فبدا لي أنكِ ملاكها الحارس، كما أنكِ ملاكي الحارس أيضًا. يبدو أنني سأكون من الآن ملاككِ أيضًا يا أجنيس».

أجابتني قائلة: «يا له من ملاك مسكين، لكنه وفي».

انغرست نبرة صوتها الصافية مباشرة داخل قلبي، فشعرت أنني أود أن أقول دونما افتعال: «إن الابتهاج يليق بكِ يا أجنيس (دون أي إنسان آخر عرفته)، وإني ألاحظ أنكِ قد استعدتِ هذا الابتهاج اليوم، فبت أتمنى لو ترافقكِ سعادة أكبر في بيتكِ».

قالت: «إنني سعيدة في قرارة نفسي. وإنني لمبتهجة سعيدة الوجدان».

نظرت إلى الوجه الهادئ المطرق نحو السماء، وقد أحسب أن النجوم قد جعلتها تبدو في غاية النبل.

قالت أجنيس بعد لحظات قليلة: «لم يحدث أي تغيير في المنزل».

قلت: «ألا توجد بشائر جديدة؟! أنا لن أزعجكِ يا أجنيس، لكن لا يمكنني أن أمنع نفسي من السؤال عما تحدثنا عنه في آخر لقاء لنا».

أجابت: «لا، لا شيء».

«لقد فكرت كثيرًا في ذلك».

أضافت بعد لحظة قولها: «يجب أن تزيح عنك التفكير في الأمر. تذكر أنني أثق في الحب البسيط والحقيقي بالنهاية. ليس لديَّ أي مخاوف تراودني يا تروتوود. أما الخطوة التي تخشى أن أتخذها، فلن أقوم بها أبدًا».

كنت أتصور أن هذه الفكرة لم تكن لتخيفني مطلقًا، إلا أنه في هذه الفترة من التأمل الرزين، كان من المريح لي سماع هذا التأكيد من شفتيها الصادقتين، لذلك صرحت لها بالأمر في جدية.

قلت: «بعدما تنتهي هذه الزيارة - لأننا قد لا نصبح وحدنا مرة أخرى - فإلى متى تتوقعين مغيبكِ عنا يا عزيزتي أجنيس، قبل أن تأتي إلى لندن مرة أخرى؟».

أجابت: «ربما لوقت طويل. أحسب أنه من الأفضل لأبي أن أبقى في المنزل. أغلب الظن أننا لن نلتقي في الفترة المقبلة، لكنني سأواظب على مراسلة دورا بانتظام، وبهذه الطريقة ستتعرف كل منا على الأخرى».

كنا قد وصلنا في هذه اللحظة إلى الفناء الصغير لمنزل الدكتور، وقد حل ظلام الليل، وانبعث ضوء من نافذة غرفة السيدة سترونج، فأشارت أجنيس إليها، ثم ودعتني متمنية لي ليلة سعيدة.

قالت بينما تبسط يدها ناحيتي قائلة: «لا تشغل بالك بمتاعبنا وهمومنا، فإنني لم أشعر بسعادة لشيء أكثر من سعادتي بك. إذا كان

بإمكانك مساعدتي، فانتبه لسعادتك، فهي ما أطلبه منك. بارك الله فيك دائمًا».

كانت تتحدث بابتسامتها المبهجة، أما هذه النغمات الأخيرة من صوتها المبتهج، فقد بدت لي كما لو أنني أرى وأسمع دورا الصغيرة في صحبتها مرة أخرى. وقفت للحظة، أراقب النجوم من السقيفة، بقلب يغمره الحب والامتنان، ثم غادرت وبدأت أسير ببطء. كنت قد استأجرت سريرًا في نُزل لائق قريب. خرجت عند البوابة وأدرت رأسي متأملًا، فإذا بي أرى ضوءًا ينبعث من مكتب الدكتور. خطر في ذهني هاجس مؤلم من أنه كان يعمل في القاموس من دون مساعدتي. أردت أن أتيقن من الأمر، وأن أحييه متمنيًا له ليلة سعيدة على أي حال، إذ لعله جالس بين كتبه، ولعله غير منشغل بشيء أبدًا. عدت خطوات إلى الوراء، ومشيت بهدوء مجتازًا للردهة، ثم فتحت الباب برفق ناظرًا داخله.

أدهشني أول إنسان رأيته على ضوء المصباح الهادر، إذ أبصرت يورايا واقفًا بجانب المصباح، وقد وضع إحدى يديه التي تشبه الهيكل العظمي على فمه، أما الأخرى فممتدة فوق مكتب الدكتور. أما الدكتور فجالس على كرسي المكتب وقد غطى وجهه بكلتا يديه. كان السيد ويكفيلد منحنيًا إلى الأمام، وملامسًا لذراع الدكتور، وقد بدا مضطربًا ومكتئبًا قليل الحيلة.

ظننت للحظة أن الدكتور مريض، فتقدمت على عجل منفعلًا بهذا المشهد. التقيت ساعتها بعين يورايا، فأبصرت حقيقة الأمر. كنت على وشك أن أنسحب، إلا أن الدكتور أومأ لي حتى لا أغادر، فبقيت.

سمعت يورايا يقول وهو يتلوى بهيئته البشعة: «على أي حال، سندع الباب مغلقًا. لا حاجة لنا إلى أن ننشر الأمر بين جميع أفراد المدينة».

أنهى جملته ثم مشى على أصابع قدميه نحو الباب، الذي كنت قد تركته مفتوحًا قبلًا، فأغلقه بعناية. عاد بعدها إلى مكانه السابق. كان صوته وأسلوبه يحملان نبرة متصنعة للشفقة والرحمة، وهو تصنع لا يحتمل -على الأقل بالنسبة لي- وأقبح من أي سلوك آخر قد يسلكه.

قال يورايا: «لقد شعرت أنه من واجبي يا سيد كوبرفيلد، أن أوضح للدكتور سترونج ما تحدثنا عنه من قبل. ألم تفهمني بالضبط، على الرغم من توضيحي؟».

التفت إليه من دون أن أجد إجابة أخرى غير التفاتي، فأقبلت على أستاذي القديم الطيب، وقلت له بعض الكلمات لمواساته وتشجيعه. وضع يده على كتفي، كما كانت عادته عندما كنت غلامًا صغيرًا، لكنه لم يرفع رأسه الأشيب عاليًا.

استأنف يورايا كلامه بالطريقة الرسمية ذاتها: «نظرًا لأنك لم تفهمني يا سيد كوبرفيلد، فإنني قد أسمح لنفسي بكل اتضاع -لأنني بين الأصدقاء- أن أقول إنني قد نبهت الدكتور سترونج إلى تصرفات السيدة سترونج. أؤكد لك يا كوبرفيلد أنني قلت ما قلته رغمًا عني، كما أنه أمر لا يخصني، ولكن في الحقيقة أننا جميعًا ننخرط مع ما لا ينبغي أن يشغلنا أحيانًا. كان هذا هو مقصدي يا سيدي، لكنك لم تفهمني حين تحدثت إليك».

أتساءل الآن بينما أتذكر نظراته الموحشة عن السبب الذي منعني من أن أقبض عنقه فأخنق أنفاسه.

ثم استطرد قائلًا: «إنني لأجرؤ على القول بأنني لم أوضح كلامي كل الوضوح، كما أنك لم توضح مقصدك أيضًا. كان كلانا يميل بطبيعة الحال إلى طرح هذا الموضوع بشكل عام. ومع ذلك، فقد قررت أخيرًا أن أتحدث بوضوح وقد ذكرت للدكتور سترونج أن... هلا تحدثت يا سيدي؟».

أما الدكتور فقد تنهد. كان أنينه يلامس القلب ويذيبه، لكنه لم يكن ليحرك ساكنًا في فؤاد يورايا، بل استطرد قائلًا: «لقد أوضحت للدكتور سترونج أنه بوسع أي إنسان أن ينتبه إلى ما بين السيد مالدون، والسيدة الفاتنة اللطيفة زوجة الدكتور سترونج، إذ يلاطف كل منهما الآخر. قد نكون قد أقحمنا أنفسنا في الوقت الحالي فيما لا يخصنا، إلا أنه قد آن الأوان حقًّا لنخبر الدكتور سترونج بأن الأمر قد لاح واضحًا أمام الجميع مثل الشمس. لقد قدم السيد مالدون حججًا للعودة إلى هنا قبل أن يسافر إلى الهند، بينما كانت أسباب عودته مغايرة لما ادعى. إنه موجود دائمًا هنا، من أجل أي شيء آخر غير ما يدعيه. وعندما دخلت يا سيدي، كنت لتوِّي أطلب من شريكي...». استدار ناحية السيد ويكفيلد ثم أكمل قوله: «أن يقسم بشرفه للدكتور سترونج بأن هذا ما لاحظه منذ عهد طويل. هيا تعالَ، يا سيد ويكفيلد، تعالَ يا سيدي، هل ستتكرم وتخبرنا بالأمر؟ نعم أم لا يا سيدي؟ هيا يا شريكي».

قال السيد ويكفيلد بينما يعيد يده المرتعشة على ذراع الدكتور مرة أخرى: «بحق الله، يا دكتوري العزيز، لا تضع وزنًا لأي شكوك قد راودتني في يوم من الأيام».

صاح يورايا بينما يهز رأسه قائلًا: «ألم تزل شكوكًا! يا له من تأكيد بائس؛ أليس كذلك؟ إنه التأكيد نفسه. يا لهذا الصديق القديم! بارك الله روحك النقية، لم أكن سوى كاتب في مكتبه يا كوبرفيلد، حين لاحظته عشرين مرة لا مرة واحدة، متألمًا لما حدث. لكن كما تعلم، إنه يندفع لأنه أب، ولا أستطيع لومه بالتأكيد لتصوره بأن آنسة أجنيس كادت أن تورط نفسها بعلاقتها بأناس كان من الأحرى أن تهجرهم».

تكلم السيد ويكفيلد بصوت مرتعش قائلًا: «يا عزيزي سترونج، يا صديقي الطيب، لا حاجة لي أن أخبرك أن سوء حظي قد أوقعني لأبحث عن دافع رئيسي يحث كل إنسان على فعله، وأن أختبر كل الأفعال عبر سبيل واحد ضيق. إنه لاختبار صعب، وربما تلبستني مثل هذه الشكوك بسبب هذا الخلل في تفكيري».

تحدث الدكتور من دون أن يرفع رأسه قائلًا: «انتابتك الشكوك يا ويكفيلد. عندك شكوك».

حثَّ يورايا على استكمال الحديث قائلًا: «تكلم يا شريكي».

قال السيد ويكفيلد: «راودتني الشكوك في وقت ما بالتأكيد. ليغفر الله لي. وقد ظننت أنها راودتك أيضًا».

رد الدكتور بنبرة حزن مثيرة للشفقة قائلًا: «لا، لا، لا».

قال السيد ويكفيلد: «ظننت ذات مرة أنك ترغب في إبعاد مالدون إلى الخارج لتفصل بينهما».

أجاب الدكتور: «لا، لا، لا. فعلت ذلك لأسعد آني بتوفير عمل لرفيق طفولتها، لا لشيء آخر».

قال السيد ويكفيلد: «حسنًا، أرى أنني لم أكن لأشك في الأمر، بعد أن أوضحته لي. إلا أنني ظننت -وإنني أناشدكم بأن تذكر هذا الحيز الضيق من تفكيري، وكيف صار خطيئتي التي تطوقني- أن ما وقع من أحداث كثيرة متفاوتة، مع فارق السن...».

عقب يورايا في تزلف وشفقة مصنعة بعد أن كشر عن أنيابه: «إنه التعبير الأمثل، كما تعرف يا سيد كوبرفيلد».

استأنف السيد ويكفيلد حديثه قائلًا: «... إن وجود شابة مثلها تتمتع بمفاتن جذابة، وأيًا ما كان الاحترام الذي تكنه لك احترامًا حقيقيًا، لكن لعلها قبلت بفكرة الزواج لاعتبارات دنيوية فقط. إنني لا أتغاضى عن المشاعر والظروف التي لا حصر لها وقد تكون كلها أقرب إلى الخير. فبحق رب السماء لا تنسَ هذه الاعتبارات».

قال يورايا وهو يومئ برأسه موافقًا: «ما أجمل هذه الكلمات!».

قال السيد ويكفيلد: «كنت أراقبها دومًا من هذه الناحية، لكني أستحلفك بكل عزيز لك يا صديقي القديم، وأناشدك أن تراعي ما قلته، لأنني مجبر الآن على اعتراف لا مفر منه إذ...».

يضيف يورايا منبهًا: «لا، لا مفر من الأمر يا سيد ويكفيلد، بعدما وصل الأمر إلى هذا الحد يا سيدي».

قال السيد ويكفيلد وهو يلقي نظرة خاطفة على شريكه في عجز وشطط: «إن هذا ما فعلته تمامًا، لقد شككت في أمرها، وظننت أنها تريد أن تتخاذل عن عهدها تجاهك. وإن كان لا بد لي من قول كل شيء، فإنني أود أن أقول إني كنت في بعض الأحيان أشعر بالجزع من اختلاط أجنيس بها، إذ تألفها، فلا ترى ضيرًا ولا تبصر ما أبصرته. لعل نظرتي لم تنطلق إلا من ملاحظة مريضة خيالية، إلا أنني لم أَبُح بهذا الأمر لإنسان، ولم أتعمد قَطُّ أن أشهر هواجسي لأي إنسان كان». استكمل السيد ويكفيلد حديثه في تأثر شديد: «وإن يكن سماع قولي سيكون فظًّا مؤلمًا لك، إلا أنك ستشفق على حالي، إن علمت كم يروعني البوح به».

مد الدكتور يده في صورة تلقائية طيبة. التقطها السيد ويكفيلد بيديه وأمسكها لفترة قصيرة بينما ظل مطأطئ الرأس.

تكلم يورايا بينما يتلوى في مكانه مثل ثعبان بحر، قائلًا: «إنني على يقين من أن هذا الأمر يحاوطه ما لا يُرضي أي إنسان. ونظرًا لأننا قد وصلنا إلى هذا الحد، فإنني سأتحرر من سكوتي لأذكر أن كوبرفيلد قد لاحظ الأمر نفسه أيضًا».

التفت إليه وسألته كيف يتجرأ على التحدث نيابة عني!

عاد يورايا يتلوى بجسده كاملًا، وراح يقول: «ياه! كم أنت كريم يا كوبرفيلد! إننا جميعًا نعلم مدى دماثة طبعك وطيبة روحك، لكنك

فهمت ما قصدته في اللحظة التي تحدثت فيها إليك في الليلة الماضية. إنك تعي وتعرف حقًّا ما قصدته يا كوبرفيلد. لا تنكر الأمر، إنك تنكره لنياتك الطيبة، لكن لا تفعل ذلك يا كوبرفيلد».

أبصرت عين الدكتور العجوز الطيبة وقد تحولت صوبي للحظة. شعرت أن الاعتراف بشكوكي وذكرياتي القديمة، كان قد سُطر على جبيني في جلاء، بحيث لا يمكن التغاضي عنه. صار لا جدوى من احتدام الموقف، ولا أستطيع التراجع عن الآن. سأبوح بما أكنه، فأنا لم أعد أستطيع النكران.

عاد الصمت يطوقنا مرة أخرى، وبقينا على حالنا حتى قام الدكتور وجال في الغرفة مرتين أو ثلاث مرات. عاد لتوِّه إلى مكانه المعتاد من كرسيه، مسندًا إليه ظهره، رافعًا منديله إلى عينيه في عفوية من حين إلى آخر، مما أكسبه في نظري شرفًا ومكانة تفوق أي تصنع أو مواربة مفتعلة لإخفاء مشاعره.

قال الدكتور: «لقد أثقلني اللوم. أتصور أنني الملوم إلى أبعد حد. لقد عرَّضت إنسانًا أحفظه في قلبي للاتهام والتشكيك، بما قد أسميه تشهيرًا، للحد الذي قد تتلبس فيه مخيلة أي إنسان بأوهام لم تقع قَطُّ. ولولاي لما تعرضت إلى كل هذه الافتراءات».

أصدر يورايا هيب نوعًا من النحيب. أتصور أنه افتعله ليعبر عن تعاطفه.

قال الدكتور: «بالطبع، إن آني بريئة من هذه الافتراءات، وليس من الممكن قَطُّ أن تنطبق عليها. إن الأمر بالنسبة لي لم يتجاوز كونه عارضًا. ويا أيها السادة، إني لا أخفي عليكم أنني قد صرت رجلًا هرمًا الآن، فلم أعد أشعر في أيامي هذه أنني أملك شيئًا لأحيا لأجله. أما حياتي... إن حياتي متوقفة على شرف ووجود هذه السيدة العزيزة التي هي محط حديثنا هذا».

لا أتصور أي تجسيد للشهامة والنبل أفضل مما جسده هذا الإنسان، بل إنه أجمل صورة حالمة قد يتخيلها رسام. فلا يمكن أن يظهر ما هو أكثر بيانًا وكرامة ورفعة من حديث ذاك الدكتور العجوز البسيط.

تابع حديثه قائلًا: «إنني لن أنكر أمرًا. لعلي أميل بدرجة ما إلى الاعتراف بأنني ربما أوقعت تلك السيدة -من دون أن أدرك وعن غير قصد- في شباك زواج تعيس. إنني رجل لم أعتد الملاحظة، ولا يسعني إلا أن أصدق أن ملاحظة عدد من الأشخاص من مختلف الأعمار والخبرات، أفضل من ملاحظتي، خاصة أنها تميل بشكل واضح إلى الأمر نفسه».

لقد أعجبت كثيرًا، كما وصفت الأمر في موضع آخر، بأسلوبه اللطيف وعطفه على زوجته الشابة. كانت المودة فائقة الاحترام التي أبداها في كل إشارة إليها في هذه المناسبة، وطريقته في إظهار تقديره لها، قد أبعدت أدنى شك في نزاهتها، ورفعت مكانته في ناظري إلى ما يفوق الوصف.

قال الدكتور: «لقد تزوجت هذه السيدة في سن صغيرة جدًّا. أدنيتها مني بينما لم تزل غضة تتشكل وتنمو. كان نضجها ونموها يزيدان

من سعادتي. كنت أعرف والدها جيدًا، كما كنت أعرفها جيدًا. لقد علمتها ما استطعت، لأنني أحببت فيها كل صفاتها الجميلة والمثالية. إذا أخطأت في توجيهها نحو صون فضائل مودتها وعاطفتها الصادقة، مثلما أخشى الآن أن أكون قد فعلت، فإنني لم أقصد ذلك قَطُّ. وما عليَّ سوى أن أطلب العفو من هذه السيدة، من كل قلبي».

جال في الغرفة ثم عاد إلى المكان نفسه، ممسكًا بالكرسي بقبضة جادة ترتجف مثلما لاح في صوته الجاد المرتعش.

راح يقول: «كنت أعتبر نفسي ملاذًا لها من مخاطر الحياة وتقلباتها. أقنعت نفسي أنها ستحيا معي في سكينة ورضا، على الرغم من التفاوت الجلي بين أعمارنا. لم أبعد عن تفكيري ذاك الوقت الذي يجب أن أتركها فيه حرة. إنها لم تزل شابة جميلة، كما أنها تبدو بأفكارها أكثر نضجًا - لا أيها السادة - أقسم إنني لم أغفل حقيقة أبصرها».

بدا أن شخصيته العطوفة قد توهجت من بين إخلاصه وكرمه. كانت لكل كلمة نطقها قوة لا يمكن أن تضاهيها موهبة أخرى.

قال: «كانت حياتي مع هذه السيدة سعيدة رغدة. لاحت أمامي فرص متواصلة ومتكررة حتى هذه الليلة، بت أحفل فيها باليوم الذي ظلمتها فيه بهذا الظلم الكبير إذ تزوجتها».

كان صوته يزداد ارتعاشًا بينما ينطق هذه الكلمات، توقف بعدها للحظات قليلة، ثم مضى يقول: «ها قد استيقظت من غفوتي. لقد كنت طوال حياتي حالمًا بالقليل، لكنني أدرك أنه من الطبيعي أن تشعر بالندم

والأسف على رفيقها العجوز، حين تقارن زوجها بأزواج مثيلاتها. أخشى أنها تنظر إليه بنوع من الأسف البريء، مع بعض الأفكار التي لا تلام عليها، فتفكر في شكل حياتها لو أنني لم أظهر بها. إن كثيرًا مما لاحظته، وإن لم أذكره، قد راودني من جديد بتفسير مغاير، خاصة في هذه الساعة الأخيرة المضنية. لكنني أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أيها السادة، إذ لا يصح أن يقترن اسم هذه السيدة العزيزة أبدًا بكلمة شك، أو هفوة شك».

توهجت عيناه لفترة وجيزة وساد صوته الثبات. لفه صمت لوهلة خاطفة مرة أخرى. ثم شرع لتوِّه يستعيد كلامه فمضى يقول: «لم يتبقَّ لي سوى أن أتحمل عاقبة التعاسة التي تسببت بها، وأن أخضع لها قدر استطاعتي. أما هي، فالأحرى لها أن تلوم فعلتي لا أنا من يلقي على كاهلها اللوم. لقد أصبح من واجبي إنقاذها من سوء الفهم القاسي والآثم، الذي لم يستطع أصدقائي تجنبه. أتصور أننا سننزوي بحياتنا عن الناس، إذ كلما ابتعدنا صارت حالنا أفضل. وعندما يحين وقتي -وقد يكون قريبًا، نسأل الله الرحمة!- فإن موتي سيحررها من القيود، وسأغمض عيني على صورة وجهها الكريم، في ثقة ومحبة لا حدود لهما. وسأتركها من دون جزع، لتحيا أيامًا أكثر سعادة وإشراقًا».

لم أتمكن من رؤيته لكثرة الدموع التي انهمرت من عيني أمام فطرته النقية وطيبة قلبه، والتي راحت تصوره في مكانة أبهى وأجمل بكل تلك البساطة المتناهية في أسلوبه. اتجه ناحية الباب، بينما أضاف قائلًا:

«أيها السادة، لقد أظهرت لكم مكنون قلبي، وإنني على يقين من أنكم ستحترمونه. ما قلناه الليلة لا يمكن أن يقال فيه أو يعاد. يا ويكفيلد، مد إليَّ ذراع الصديق القديم لأصعد إلى الطابق العلوي».

سارع السيد ويكفيلد إليه من دون أن ينبس ببنت شفة، ثم خرجا ببطء من الغرفة معًا، بينما تابعهما يورايا باهتمام.

قال يورايا، مستديرًا إليَّ في خنوع: «حسنًا يا سيد كوبرفيلد، لم تأخذ الأمور المنعطف الذي كان متوقعًا، لأن المعلم العجوز -ويا له من رجل ممتاز!- يبدو متخبطًا كأعمى، لكن هذه العائلة في ظني قد تلاشت وتكسرت».

لم أكن بحاجة إلى شيء سوى سماع نبرة صوته، حتى يحتد جنوني إلى درجة لم أكن أتصورها، وبصورة لم أشهدها من قبل ولم أعهدها منذ تلك اللحظة.

قلت: «أيها الحقير، ماذا تقصد من توريطي في مخططاتك؟ كيف تجرؤ على مناشدتي الآن كما لو أننا كنا نتناقش معًا أيها الوغد الكاذب؟».

وقف كل منا في مواجهة مع الآخر. رأيت بوضوح وفي جلاء وجهه الحقيقي الخفي، الذي لم أكن قد عرفته على حقيقته قبلًا؛ أعني أنه راح يفرض عليَّ أسراره حتى أصير قليل الحيلة أمامه، ثم نصب لي فخًّا في هذا الأمر بالذات متعمدًا، حتى لا أستطيع الفكاك. ظهر خده النحيل بالكامل أمامي، فجذبني لصفعه بكفي بقوة حتى تخدرت أصابعي والتهبت كما لو أنني قد أضرمت بها النار فاحترقت.

التقط يدي وتجمدنا في هذا التلاحم ينظر كل منا للآخر. وقفنا على هذه الصورة لوقت طويل، وكانت فترة كافية لأرى علامات أصابعي البيضاء تتلاشى، فتصبغ اللون الأحمر القاني على صفحة خده، وقد اشتد احمرار وجهه.

قال في صوت متقطع لاهث: «يا كوبرفيلد، هل فقدت السيطرة على حواسك؟».

قلت منتزعًا يدي منه: «لقد فقدت أنت السيطرة على نفسك أيها الكلب، لن ألتفت إليك بعد الآن».

تحدث إليَّ بينما أجبره الألم على خده على أن يتحسسه بيده: «هل تجرؤ على تجاهلي؟ لعلك فاعل ما قلت، لكن أليس هذا التصرف منك الآن نكرانًا للجميل؟».

قلت: «لقد أوضحت لك كثيرًا أنني أحتقرك. وها قد أظهرت لك الآن بوضوح أكثر كم أكن لك من احتقار. لماذا أقيم وزنًا أو أخاف من إظهار أسوأ ما فيك من شر مكنون لكل من حولك؟ فأي فعل أنت مقترفه غير هذا الشر؟».

لقد فهم تمامًا بهذه الإشارة الظروف التي قيدتني وجعلتني على تواصل معه حتى هذه اللحظة. أظن أن صفعي له والإشارة التي لمَّحت بها إلى الظروف لم تكن لأتجاهلها، لولا الحوار الذي وقع بيني وأجنيس تلك الليلة، فالتزمت الصمت ولم أعد أعبأ يومها بما وقع.

ساد الصمت مرة أخرى وطال بنا السكون. بدا لي أن عينيه تنظران إليَّ فتتشكل بهما ظلال من ألوان تجعلهما أكثر قبحًا.

أزاح يده عن خده قائلًا: «يا كوبرفيلد، لقد كنت دائمًا تقف ضدي. أعلم أنك كنت دائمًا منحازًا إلى السيد ويكفيلد».

قلت ولم أزل في حالة من الغضب الشديد: «تصور ما تشاء، فإن لم يكن ظنك صحيحًا، فهذا لأنك الأجدر بسوء الظن».

أجاب قائلًا: «ومع ذلك كنت دائمًا معجبًا بك يا كوبرفيلد».

ترفعت عن الرد، فحملت قبعتي، وانصرفت متجهًا إلى فراشي، فإذا به قد أقبل عليَّ وحال بيني والباب.

قال: «يا كوبرفيلد، يظهر طرفان في أي شجار، إلا أنني لن أكون طرفًا فيه».

قلت: «فلتصاحب الشيطان».

فأجاب: «لا تقل ذلك، أعلم أنك ستأسف على ما قلته لي فيما بعد. كيف يمكنك أن تتصور نفسك أدنى مني، بحيث تُظهر هذه الروح السيئة؟ لكني أسامحك».

كررت في ازدراء وسخرية: «أتقول إنك تسامحني!».

أجاب يورايا قائلًا: «نعم، لا يمكنك منعي من أن أسامحك، وإن كان هجومك عليَّ لغريب. لقد كنت دومًا صديقًا لك. لا يمكن أن ينشب شجار من دون طرفين، ولن أكون طرفًا فيه. سأظل صديقًا لك رغمًا عنك. والآن تعرف أن عليك توقع هذا المسلك مني».

كان من الضروري الاستمرار في هذا الحديث بصوت منخفض. كان موقفه هادئًا للغاية، بينما كنت سريع الكلام جدًّا لا أتردد في الرد، لكن علينا ألا نزعج المنزل في هذه الساعة غير المناسبة. راحت حدتي تهدأ من دون أن تتحسن حالتي العامة. صار عليَّ إخباره أنني أتوقع منه ما كنت أرجوه دومًا، وأن أملي به لم يخِب يومًا. فتحت الباب وتجاوزته، فانشق أمامي كما لو كان حبة من جوز كبيرة وضعت هنا أمامي لتنفلق، ثم خرجت من المنزل. لم ينَم هو في المنزل كذلك بل ذهب إلى مسكن والدته، وقبل أن أبتعد عنه مئات الأمتار كان قد لحقني ورافقني.

همس في أذني من دون أن أدير رأسي ناحيته قائلًا: «أتعرف يا كوبرفيلد، إنك في مركز سيئ تمامًا».

شعرت أن كلامه صحيح، فصرت أكثر انزعاجًا، وإذا به يكمل قائلًا: «لا يمكن أن تتصور أن هذا الموقف درب من الشجاعة، ولا تستطيع رفض مسامحتي لك، كما أنني لا أنوي ذكر ما حدث لأمي أو لأي مخلوق حي. إنني مصمم على مسامحتك، لكني أتعجب بالفعل كيف مددت يدك على إنسان تعرف ضعته ومكانته».

شعرت وقتها فقط أنني أدنى منه منزلة. لقد عرفني أكثر مما عرفت نفسي. ولو أنه رد خطئي أو هاجمني علانية، لشعرت بالراحة وبررت موقفي، لكنه أوقد تحتي نارًا هادئة، ولم أزل محترقًا منذ منتصف الليل.

خرجت في الصباح، وكان جرس الكنيسة يصدر دقاته الأولى، بينما كان يتمشى مع والدته ذهابًا وإيابًا. خاطبني وكأن شيئًا لم يكن، فلم يسعني سوى الرد عليه. أظن أنني قد ضربته بقوة بما يكفي لإصابته

بألم في أسنانه. كان وجهه مغطى على أي حال بمنديل حريري أسود، كما اعتلت رأسه قبعة أبعد ما تكون عن الجمال. سمعت أنه ذهب إلى طبيب أسنان في لندن صباح الاثنين، وأنه قد اقتلع إحدى أسنانه، وإني لأرجو أن يكون قد اقتلع اثنتين.

قال الدكتور إنه مريض، فظل وحيدًا لفترات طويلة في الأيام التالية المتبقية من مدة الزيارة. لم يمر سوى أسبوع على عودة أجنيس ووالدها حتى استأنفنا عملنا المعتاد، وقد سلمني الدكتور بيديه في اليوم السابق للعمل ملاحظة مطوية غير مغلقة بإحكام. كانت موجهة إليَّ، وقد أفهمني، بكلمات حنونة مقتضبة، ألا أشير إلى أمر ذاك المساء مطلقًا. كنت قد أسررت به إلى عمتي، لكني لم أَبُح به لإنسان سواها، لأن موضوعها لم يكن لتطرح مناقشته مع أجنيس، وبالتأكيد لم يكن لدى أجنيس أدنى شك فيما حدث ولم تعلم عنه شيئًا.

كنت على قناعة تامة بأن السيدة سترونج لم تكن في أحسن حال في ذلك الوقت. مرت عدة أسابيع قبل أن ألحظ تغييرًا طفيفًا بها، فقد حدث لها تغير بطيء، كما تسير سحابة في سماء من دون أن تحركها الرياح. كانت في البداية تتساءل عن التعاطف والشفقة في الطريقة التي يتحدث بها الدكتور معها، وعن رغبته في أن ترافقها والدتها للتخفيف من رتابة حياتها الباهتة. كنا نجتمع للعمل في كثير من الأحيان وتجلس معنا، فأراه يتوقف عن العمل شاخصًا ببصره ناحيتها، يرمقها بوجه لا يُنسى. لاحظت بعد ذلك أنها تنهض أحيانًا بينما تمتلئ عيناها بالدموع فتغادر الغرفة، وقد هيمن ظل حزين على جمالها مع مرور الوقت،

وأخذ يتعمق أكثر فأكثر ويزداد قتامة. كانت السيدة ماركلهام تجلس كعاتها في المنزل آنذاك؛ تتحدث عن كل شيء من دون أن تبدي رأيًا ذا أهمية.

استولى هذا التغيير على حياة آني، واخترقها مثل أشعة الشمس المتسللة في منزل الدكتور. بدا الدكتور بعدها بمظهر أكبر سنًّا، وازداد هِرَمًا، لكن لين طبعه، ولطف سلوكه الهادئ، وعاطفته الطيبة تجاهها، جعلوه قادرًا على تحمل أي أعباء. رأيته ذات مرة، في وقت مبكر من صباح يوم عيد ميلادها، وقد جاءت للجلوس بجوار النافذة ونحن مشغولان بالعمل -كانت معتادة على جلوسها هناك دائمًا، لكنها صارت الآن تجلس في نوع من الخجل والتذبذب، في صورة أظنها مؤثرة للغاية- فتناول جبينها بين يديه وقبَّله، ثم انطلق بعيدًا في سرعة خاطفة، وتحرك بعيدًا عنها لتبقى هي مكانها. رأيتها جامدة في مكانها مثل التمثال، وقد طأطأت رأسها وشبكت يديها، ثم شرعت في البكاء. لا أستطيع أن أصف مدى حزني وأسفي عليها.

أحسب أنها حاولت التحدث معي في بعض الأوقات بعد ذلك الموقف، على فترات متباعدة كلما تُركنا بمفردنا، لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة. كان الدكتور يضع دائمًا بعض المخططات الجديدة لتسليتها، مثل التنزه في حدائق الألعاب بعيدًا عن المنزل مع والدتها والسيدة ماركلهام، التي كانت مغرمة جدًّا بمثل هذه الحدائق المسلية والألعاب، وغير راضية عن أي شيء سواها. لقد وطأتها من دون سابق معرفة بها، ثم جاهرت باستحسانها. أما آني فقد مضت تسير حيث أي مكان تساق

إليه، من دون أن تشعر بالسعادة، كما لو أنها بلا روح، ويبدو أنها لم تعد تهتم بأي شيء قَطُّ.

لم أعرف كيف أفكر في الأمر وكذلك عمتي، ولا بد أنها قد قطعت أميالًا داخل شرفتها جيئة وذهابة من شدة حيرتها، وكان الأغرب من ذلك كله هو أن الراحة الحقيقية الوحيدة التي شقت طريقها إلى هذه المنطقة السرية التعسة في منزلنا، قد تجسدت في شخص السيد دك.

إنني عاجز عن توضيح أفكاره حول الأمر، أو ملاحظته عنه، ولا أجرؤ على القول إنه كان سيطلب مني مساعدته لإيضاحها، إلا أنني دونت في قصتي مدى احترامه وتبجيله للدكتور الذي فاق الحدود، مع دقة في إدراك الأمور والمحافظة على الترابط الحقيقي لعلاقاته به. لقد احتمل هذا الإنسان أن يحيا في عباءة مخلوق ضعيف في هذه الدنيا، بينما يحوي أعلى درجات الذكاء. إن عقل وجوهر القلب الذي يحويه سيد دك ليسطع بنور الحقيقة داخله، إذا جاز لي أن أصفه بهذا الوصف.

لقد استعاد بكل فخر مكانته، بتلك الميزة التي كانت له قديمًا، إذ كان يسير متنزهًا في الحديقة مع الدكتور في ذهابه وإيابه في أوقات فراغه كما كان يفعل في كانتربري. أما الأمور فاختلفت عن عهدها القديم، لذلك كرس كل وقت فراغه، بل ونهض مبكرًا، لتطول المدة وتتسع لمشي أطول. تغمره سعادة لا يشعر بمثيلتها أبدًا عندما يقرأ الدكتور عليه جزءًا من القاموس بأدائه الرائع، بل مكث بائسًا حزينًا إلى أن يُخرج الدكتور القاموس من جيبه ويبدأ في تلاوة شيء منه. كنت أنشغل أنا والدكتور في العمل، فإذا بالسيد دك قد أَسَرَته عادة

المشي مع السيدة سترونج ذهابًا وإيابًا، وراقت له مساعدتها في تقليم زهورها المفضلة، أو إزالة الأعشاب الضارة عن أحواض النباتات. وإنني لعلى يقين من أنه نادرًا ما تحدث إليها، وأنه لم يتجاوز بحديثه بضع كلمات في الساعة. كانت رعايته الهادئة ووجهه الوديع، قد وجدا استحسانًا فوريًا بين جوانح الدكتور وزوجته، وعرف كل منهما أنه يحبهما، وأنه يبادلهما المحبة الخالصة، وقد أصبح الود رابطًا قويا لا يزحزحه إنسان.

كنت أحيانًا أفكر في أمره، فأستحضر هذا الوجه الحكيم الذي لا يمكن اختراق دواخله، وهو يسير مع الدكتور في كل مكان، مسرورًا بتأثره بالكلمات الصعبة في القاموس، وأتصوره بينما يحمل خلف آني قدورًا ضخمة لسقاية الزرع، يجثو على ركبتيه مرتديًا زوجًا من القفازات، في عمل مضنٍ دقيق، وهو فحص أوراق النباتات الصغيرة لتنقيتها من الآفات، معربًا في صورته عن عجز أي فيلسوف عن التعبير عن أفعاله. وإني لأتعجب من رغبته الشديدة في أن يصادقها، كما لو أنه يستحم بالمحبة والثقة والمودة في كل ثقب من ثقوب إناء السقاية. أفكر في أمره فلا أعجب من أنه لا يجول في عقله المدهش أبدًا أي مسمى للتعاسة، ولم يجلب حزن الملك تشارلز إلى الحديقة، ولم يتردد قَطُّ في أن يقدم خدماته، ولم يثنِ يومًا على معرفته بوجود خطأ ما، ولا عن رغبته في تصحيح الأمر - أشعر حقًّا بالخجل لأنني ظننت أنه لم يكن في كامل رشده، مع الأخذ في الاعتبار ما قمت أنا بفعله بكامل قواي العقلية التي استنفدتها.

راحت عمتي تبدي ملاحظتها بفخر عندما تحدثنا عن ذاك الأمر قائلة: «لا أحد غيري يعرف حقيقة هذا الرجل يا تروت، سيتفرد دك بعد حين بما يميزه».

يجب أن أشير هنا إلى موضوع آخر قبل أن أغلق هذا الفصل من الحكاية. لقد لاحظت خلال زيارة بيت الدكتور أن ساعي البريد يحضر رسالتين أو ثلاث رسائل في كل صباح ليورايا هيب، الذي كان قد أقام في هايجيت حتى عودة الباقين. حدث ذلك في أيام العطلة، وكانت الرسائل معنونة دائمًا بخط السيد ميكوبر وأسلوبه الرسمي. كان السيد ميكوبر قد تولى أمر المسؤوليات القانونية، وكان من دواعي فخري وسروري أن أستنتج من هذه المقدمات البسيطة، أن سيد ميكوبر كان يتقدم في عمله بشكل مميز. كانت من المفاجآت الضخمة أن أتلقى الرسالة التالية من زوجته الودودة في هذا الوقت تحديدًا.

«كانتربري، مساء الاثنين.

ستندهش بلا شك يا عزيزي السيد كوبرفيلد حين تتلقى هذه الرسالة، ولم يزل محتواها يحمل ما سيزيد من دهشتك. أذكرك قبل أي شيء بالثقة المتبادلة التي أرجو أن أفرضها بيننا وأتصور وجودها، ولم أكن لألجأ إلى هذا لولا أن مشاعري كزوجة وأم تتطلب نوعًا من راحة البال، ولا أرغب في استشارة عائلتي - التي تكن كراهية للسيد ميكوبر - فأنا لا أعرف أحدًا ألتمس مشورته أفضل من صديقي القديم والساكن السابق في بيتي.

لعلك تدرك، يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أن بيني والسيد ميكوبر -الذي لن أتخلى عنه أبدًا- نوعًا من الثقة المتبادلة دومًا. قد يكون السيد ميكوبر قد كتب وثيقة مالية في يوم من الأيام من دون استشارتي، أو لعله قد ضللني فيما يتعلق بالفترة التي يصح فيها سداد مستحقاته المالية، وهذا ما حدث بالفعل. لم يكن سيد ميكوبر بشكل عام ليخفي أسرارًا على حبيبته -وأقصد زوجته- بل اعتاد دائمًا أن يحكي لي أحداث اليوم كله قبل أن نخلد إلى النوم.

لك أن تتخيل يا عزيزي السيد كوبرفيلد، ما ينتاب مشاعري، حين أبلغك أن سيد ميكوبر قد تغير تمامًا هذه الأيام. صار متحفظًا كما لو أنه يكتم سرًّا، وصارت حياته لغزًا على شريكة أفراحه وأحزانه - أشير مرة أخرى إلى أنني أقصد زوجته - وإذا أكدت لك أنه بخلاف معرفتي أنه يجلس من الصباح إلى المساء في المكتب، فإنني لم أعد أعرف عنه هذه الأيام سوى أقل القليل، كمعرفتي برجل يعيش في الجنوب، يخالط أناسًا منهم من يصبح حديث فمه كالأطفال الطائشين يرددون حكايات لا يفهمونها عن «عصيدة البرقوق الباردة». هكذا يجب أن أتبنى مقولة شعبية للتعبير عن حقيقة واقعة.

ولكن هذا ليس كل ما في الأمر. إن سيد ميكوبر قد صار كئيبًا متشددًا وعنيفًا، بعيدًا عن ابننا الأكبر وعن ابنتنا، ولا يظهر اعتزازه بتوأمه. يتطلع بعين فاترة إلى المخلوق الغريب -وإن لم يكن مؤذيًا على الإطلاق- والذي صار عضوًا جديدًا في أسرتنا مؤخرًا. أحصل منه على بعض النفقات المالية في صعوبة بالغة لتغطية نفقاتنا، والتي اقتضبناها

إلى أقصى حد، في ظل التهديدات المخيفة بأنه سوف يريح نفسه - على حد تعبيره الدقيق - ويرفض بلا هوادة تقديم أي تفسير أو أسباب لهذه السياسة المضطربة.

إنها لحال أصعب من أن تحتمل، بل إنه لأمر موجع. فإن تفضلت بإسداء نصحك لي في حدود معرفتك بقلة حيلتي وضعفي، فترشدني إلى أفضل تصرف أقوم به لحل هذه المعضلة. إنك بنصيحتك ستضيف إليَّ جميلًا آخر إلى كثير قدمته لنا. مع خالص التحية والمودة من الأطفال، وابتسامة من غريب لم يعِ شيئًا عن الحياة بعد، ولتعِش هانئًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد.

من المنكوبة



إيما ميكوبر».

لم أشعر أن هناك مبررًا لإعطاء زوجة ذات خبرة مثل السيدة ميكوبر أي نصائح جديدة، سوى أن تحاول استعادة سيد ميكوبر بالصبر واللين - كما كنت أعرف أنها ستفعل ذلك على أي حال - لكن الرسالة جعلتني أفكر في أمره كثيرًا.



# الفصل الثالث والأربعون

## نظرة إلى الماضي

اسمحوا لي أن أتوقف هنا مرة أخرى عند فترة لا تنسى من حياتي. اسمحوا لي أن أتنحى فأراقب أشباح هذه الأيام تمر جانبي مصحوبة بظلي في موكب تعس حزين.

مرت أسابيع، وأشهر، وفصول، فلا تبدو أطول من أيام صيف جليلة أو أمسيات شتاء. تلوح اليوم بقاع الأرض التي سرت بها مع دورا نضرة، كحقل من ذهب لامع، فيترقرق لون البنفسج الخفي في أكوام وعناقيد تحت غطاء من الثلج، وتتلألأ صفحة النهر في اللحظة التي يتدفق فيها، حيث مسارنا بجواره في أيام الآحاد، تحت أشعة شمس الصيف، أو تتماوج صفحته مع رياح الشتاء، أو تتكاثف بأكوام الجليد المنجرفة. تمر الأيام أسرع من أي وقت مضى كنهر يجري نحو البحر، يومض، ثم ينطفئ، ويتدحرج موجه.

لم يتغير نمط الحياة في منزل السيدتين الصغيرتين كالعصافير. ظلت الساعة تدق فوق المدفأة، وزجاجة الطقس معلقة في القاعة. لم

تكن الساعة ولا زجاجة الطقس منضبطتين على الإطلاق، لكننا نؤمن بهما في إخلاص.

لقد بلغت مبلغ الرجال، وأشرفت على إتمام الواحد والعشرين. إلا أن بلوغ الرشد نوع من الكرامة التي تفرض على المرء أو يكسبها، فاسمحوا لي أن أفكر فيما حققته.

لقد روضت هذا الوحش الضاري، أقصد فن الاختزال، ورحت أحقق دخلًا لا بأس به من وراء احترافه، وحزت صيتًا عاليًا وشهرة لإنجازاتي في كل ما يتعلق بفروع هذا الفن، وجنيت أحد عشر جنيهًا آخر نظير نقل المناقشات البرلمانية إلى إحدى الصحف الصباحية. كنت أسجل ليلة بعد ليلة تنبؤات لا تتحقق أبدًا، ووعودًا لم تنجز قَطُّ، وتفسيرات لا تهدف إلا إلى الحيرة. رحت أتعثر أمام الكلمات، وأغوص في الألفاظ. إن بريطانيا، تلك الأنثى التعيسة تبدو أمامي دائمًا كما الطير المربوط؛ تخرقها أسياخ الشواء المتمثلة في الأقلام، أما رباط جناحيها برجليها فما هو إلا شريط أحمر. لقد تواريت تمامًا عن المشهد بما يكفي لأعرف قيمة الحياة السياسية، فأنا كافر تمامًا بها، ولن يُحوِّلني شيء عن ذلك طوال حياتي.

جرب صديقي العزيز ترادلز حظه في هذا الدرب نفسه، لكنه لم يتهيأ لهذا العمل ولم يناسبه. كان ترادلز يتمتع بقدر كبير من الفكاهة والسخرية في تعليقه على فشله في هذا العمل، فقد كان يذكرني دومًا بأنه كان يعتبر نفسه بطيئًا فلا يصلح لعمل يتطلب السرعة. كان قد حصل على عمل مؤقت في الصحيفة نفسها، ليكتب تقارير عن حقائق

بعض الموضوعات الجافة، ومن ثَم يصوغها من هم أفضل منه في صورة أفضل. استُدعي للمرافعة أمام القضاء، واستطاع بتفانيه واجتهاده وأخلاقه الحرية بالإعجاب، أن يوفر مائة جنيه أخرى دفعة واحدة، ليتدرب عند أحد المحامين المشتغلين في إجراءات التخصيص والملكية. احتسينا كمية كبيرة جدًّا من النبيذ الدافئ بعد عودته من مرافعته، وأحسب أن محكمة الأحوال المدنية قد حققت كسبًا لا بأس به من الرسوم التي رأى ترادلز أنها باهظة.

أما أنا فقد حصلت على قوتي من دروب أخرى، فأقبلت على الكتابة والتأليف برهبة وخوف. كتبت شيئًا بسيطًا سرًّا، ثم أرسلته إلى مجلة، وقد نُشر بها. تشرفت منذ ذلك الحين بكتابة بعض أعدادها، ومنذ ذلك الوقت صرت أكتب عددًا من القطع الأدبية المقبولة. صرت أتقاضى اليوم راتبي عنها بانتظام، وقد تيسرت الحال إجمالًا، وحين أحسب دخلي، فإنني أعد على أصابع يدي اليسرى فأجتاز الإصبع الثالثة وأقف عند المفصل الأوسط للإصبع الرابعة.

انتقلنا من شارع باكنجهام إلى كوخ صغير لطيف، قريب جدًّا من المنزل الذي تطلعت إليه، عندما أبديت حماسي للوهلة الأولى. كانت عمتي قد باعت منزلها في دوفر نظير صفقة جيدة، ومع ذلك لن تبقى هنا معي، لأنها تنوي الانتقال إلى منزل ريفي أصغر، قيمته في متناول اليد. فبماذا ينذر هذا الحدث؟ أينذر بقرب زواجي؟ نعم.

نعم، سوف أتزوج دورا. منحتنا الآنسة لافينيا والآنسة كلاريسا موافقتهما على الزواج، ففرحت طيور الكناري ورفرفت بأجنحتها في

رقة تفوق أي وقت مضى. كلفت الآنسة لافينيا نفسها بالإشراف على أمتعة وملابس حبيبتي، فانشغلت بقص «باترون» الثياب، وخاضت في محادثات واختلافات مع خياط يتمتع بشهرة واسعة، ويحمل حزمة مطوية ويتأبط مازورة قياس. ثم أقبلت خياطة تغرس دائمًا في صدرها إبرًا وخيطًا، وقد نشرت أدواتها في المنزل، حتى بدا لي أنها تأكل وتشرب وتنام من دون أن تخلع عن إصبعها الكشتبان قَطُّ. لقد جعلوا من حبيبتي عارضة أزياء؛ ينادونها فتأتي لتجرب ثوبًا أو تجرب فستانًا، حتى إننا لم نستطع أن نختلي ولم نهنأ ولو لخمس دقائق في المساء معًا، إذ تقبل إحدى الإناث المتطفلات وتقرع الباب قائلة: «هلا سمحتِ يا آنسة دورا بالصعود إلى الطابق العلوي».

أما آنسة كلاريسا وعمتي فتتجولان في جميع أنحاء لندن، لتكتشفا أماكن قطع الأثاث التي يمكن أن أقتنيها أنا ودورا، فتعودان لتخبرانا بأفضل ما علمتاه حتى نشاهده ونبتاعه دفعة واحدة، من دون إهدار الوقت في البحث. كنا نذهب لرؤية رف في مطبخ أو عارضة لتقطيع اللحوم، فترى دورا منزلًا صينيًّا لجيب، تعلوه أجراس صغيرة، فتنتبه إليه وتفضل ابتياعه. لقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا ليعتاد جيب مسكنه الجديد بعد أن ابتعناه، وراحت أجراسه جميعها تجلجل كلما دخل أو خرج منه، فينتابه خوف ورعب.

جاءت بيجوتي وانكبت على العمل على الفور، لتفيدنا بوجودها معنا. يبدو أن دورها يقتصر على تنظيف كل شيء مرارًا وتكرارًا. تقوم بفرك كل شيء يمكن فركه بصورة دائمة حتى يلمع، ليبدو ناصعًا مثل

جبهتها الصافية. بدأت الآن ملاحظة أخيها المنزوي، فإذا به يجول الشوارع المظلمة ليلًا. يتفرس الوجوه المتجولة بينما يسير، ولم أتحدث إليه في مثل هذه الساعة، لأنني أعرف جيدًا، مع مرور جسده أمامي في طريقه، ما يسعى إليه وما يخاف ملاقاته.

لماذا يبدو ترادلز جادًّا جدًّا عندما جاءني في مجلس العموم بعد ظهر هذا اليوم؟ كنت لم أظهر حضوري بين حين وآخر، للمحافظة على شكليات عملي، حالما يتوفر لديَّ بعض الوقت. لقد اقتربت من تحقيق أحلامي الشابة التي رجوتها كل يوم، وها أنا سأستخرج إذنًا للزواج.

إنها وثيقة صغيرة ولكنها تفعل الكثير. كان ترادلز يتأملها، حيث كانت موضوعة فوق مكتبي، ينظر إليها نظرة بين الإعجاب والرهبة. كانا اسما ديفيد كوبرفيلد ودورا سبنلو مدونين في خط تراثي حالم ومتشابك، وقد كتبت في الزاوية أسماء العائلتين، ولصق طابع باسم هذه المؤسسة الأبوية الحانية التي تهتم بمختلف معاملات الحياة الإنسانية، فبدت كما لو أنها تشرف على زواجنا. كان رئيس الأساقفة في كانتربري قد أنعم علينا بالبركة في عمل هذه المطبوعات لنا، وقد قام بذلك بمقابل بخس زهيد.

أشعر أنني على الرغم من كل ما مضى لم أزل في حلم، إنه حلم مرتبك، سعيد وعابر، لا أستطيع أن أصدق أنه سيتحقق بالفعل. كنت على الرغم من كل شيء لا أصدق أن كل إنسان مررت به في الطريق يعلم بوسيلة أو أخرى خبرًا عن أمر زواجي بعد غد. ذهبت لأداء القسم أمام وكيل الأسقفية، فعرفني وأنجز مهمتي كما لو أننا كنا نضمر عقدًا

للتفاهم بيننا. لم أطلب شيئًا من ترادلز على الإطلاق، ولكنه ظل حاضرًا بصفته الشاهد على صلاحي.

أقول لترادلز: «أرجو أن تأتي إلى هنا مرة ثانية يا صديقي العزيز، فأكون أنا مكانك وأشهد لك بالخير. أرجو أن يحدث هذا قريبًا».

أجاب: «أشكرك على أمنياتك الطيبة يا عزيزي كوبرفيلد. إنني لأرجو ذلك أيضًا. إنه لمن دواعي سروري أن أعرف أنها ستنتظرني مهما طال بي الوقت، وأنها حقًّا أعز فتاة».

سألته: «متى ستقابلها في العربة؟».

أجابني ترادلز ناظرًا إلى ساعته الفضية القديمة - الساعة ذاتها التي أخذ منها ترسًا في المدرسة ليصنع طاحونة مائية، قائلًا: «في السابعة. إنه وقت وصول السيدة ويكفيلد، أليس كذلك؟».

قلت: «ستصل بعد ذلك بقليل، إذ إن وقت وصولها هو الثامنة والنصف».

قال ترادلز: «أؤكد لك يا بني العزيز أنني مسرور كما لو أنني سأتزوج تقريبًا، وأحسب أن هذه الواقعة تقترب من نهاية سعيدة. إن الصداقة الوطيدة التي تربطنا، ودعوتك الكريمة لصوفي في هذه المناسبة السعيدة، ومشاركتها لتكون وصيفة الشرف بالاشتراك مع الآنسة ويكفيلد؛ أمور تتطلب مني جزيل الشكر، وإنني لممتن غاية الامتنان».

سمعته وصافحته، ورحنا نتحدث ونمشي ونتناول بعض الأطعمة وما إلى ذلك، لكني لا أصدق، فلا شيء من ذلك يبدو حقيقيًّا.

تصل صوفي في الوقت المناسب إلى منزل عمتَي دورا. تحمل وجهًا هو الأكثر قبولًا دون غيره. إنها ليست جميلة إطلاقًا، لكنها جذابة بصورة استثنائية - إنها واحدة من أكثر المخلوقات لطفًا. كما أنها غير مقلدة لغيرها، تبعد عن التصنع، ولبقة في تعاملها. قدمها ترادلز لنا بفخر كبير واعتزاز، وقد فرك يديه لعشر دقائق كاملة، بينما فزعت كل شعرة فوق رأسه مقشعرة منتصبة فوق منبتها، عندما هنأته في زاوية البيت على حسن اختياره.

أحضرت أجنيس عربة من كانتربري، وقد أطلَّت بوجهها البهيج والجميل بيننا للمرة الثانية، وقد تجانست مع ترادلز إلى حد كبير. كان من الرائع رؤية هذا اللقاء وملاحظة ازدهار ترادلز بينما يقدم لأجنيس أعز فتاة في العالم ويثني عليها.

ما زلت لا أصدق ما يجري. إننا نقضي أمسية ممتعة في سعادة بالغة، وعلى الرغم من ذلك لا أصدق ما يحدث حتى هذه اللحظة، لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي، لا يمكنني التيقن من سعادتي لأنها بالفعل تتحقق، أشعر أنني في حالة ضبابية وغير مستقرة، كما لو أنني قد استيقظت مبكرًا في صباح منذ أسبوع أو أسبوعين، ولم أنم منذ ذلك الحين. لا أستطيع أن أدرك ما وقع في الأيام الخوالي. يبدو أنني حملت إذن الزواج في جيبي لعدة أشهر متتالية.

ذهبنا جميعًا في اليوم التالي لمشاهدة المنزل -منزلنا؛ أنا ودورا- لا يمكنني اعتبار نفسي سيدًا على هذا البيت. كنت أشعر أنني سأسكنه بإذن من إنسان آخر، بل أتوقع قدوم سيده الحقيقي في أي وقت، فيقول

إنه سعيد لرؤيتي. يبدو أنه منزل صغير جميل، يحوي كل شيء مشرق وجديد. تصحبه أزهار مطلة من السجاد لتبدو كما لو أنها قد جمعت حديثًا، وتطل منها الأوراق الخضراء على أفرعها كما لو أنها قد خرجت للتوِّ من عناقيدها، فتتناغم مع الستائر المصنوعة من التل الناصع، والأثاث الوردي بلون حمرة الخجل. ترافقني دورا وقد زينتها قبعة الحديقة ذات الشريط الأزرق - هل أتذكر الآن كيف أحببتها مطلة في قبعة أخرى مثلها حين رأيتها لأول مرة! - كانت تعلق مشبكها الصغير، بينما يظهر الجيتار في المنزل منتصبًا تمامًا على حوافه عند الزاوية. ظل الجميع يتعثر في بيت جيب الصيني، الذي بدا أكبر من أن يتسع له بيتنا الصغير.

إنها أمسية سعيدة أخرى، حالمة تمامًا، مثل كل ما فات من أحلام، أتخيلها بينما لم أزل في الغرفة المعتادة قبل مغادرتي، ولم تكن دورا بها. أظن أنهم لم ينتهوا من عملهم بعد. لقد اختفت الآنسة لافينيا، وأخبرتني في ظروف غامضة أنها لن تطيل المغيب. كانت غيبتها قد طالت نوعًا ما، إلا أنه بمرور الوقت كان قد تناهى إلى سمعي حفيف لثوب عند الباب، وإذا بشخص ما يقرعه. قلت: «ادخل»، بينما عاود هذا الشخص قرع الباب مرة أخرى.

توجهت إلى الباب متسائلًا من يكون، فإذا بي ألتقي بعينين لامعتين ووجه خجول. إنهما عينا دورا ووجهها، وقد ألبستها آنسة لافينيا فستان الغد وكذلك القبعة، بل ألبستها كل شيء لأبدي رأيي فيه. ضممت زوجتي الصغيرة نحو فؤادي، فأصدرت آنسة لافينيا صوتًا يشبه الصراخ،

لأنني أسقطت عنها القبعة. تضحك دورا ثم تبكي في اللحظة نفسها. أما أنا فكنت في غاية السعادة، وظننت أنني أقل تصديقًا لما يجري من حولي من أي وقت مضى.

قالت دورا: «هل تظن أنه جميل يا دودي؟».

لعلي أجبتها مرددًا كذلك كلمة: «جميل».

راحت دورا تسأل: «وهل أنت متأكد من أنك تحبني كثيرًا؟».

كانت هذه المحادثة محفوفة بنوع من خطر يهدد القبعة، فأطلقت الآنسة لافينيا صرخة صغيرة أخرى، وطلبت مني أن أفهم أن عليَّ أن أنظر إلى دورا فقط، من دون أن ألمسها بأي حال من الأحوال. كانت دورا قد وقفت لهذا السبب في حالة من الارتباك الممزوج بالبهجة لدقيقة أو دقيقتين، لتحظى بإعجابي، ثم خلعت القبعة -كانت تبدو طبيعية جدًّا من دونها- ثم هربت ممسكة بها في يدها. تعود مرة أخرى لتتراقص أمامي في ثوبها العادي، وتسأل جيب عما إذا كنتُ قد ظفرت بزوجة صغيرة جميلة أم لا، وهل سيسامحها على زواجها. تنثني ناحيته ليقف على كتاب الطبخ، للمرة الأخيرة في حياة العزوبية.

أعود إلى المنزل في حالة أشبه بحلم لم أشهده قَطُّ، مستشعرًا إرهاقًا حتى وصولي إلى مهجعي. استيقظت في وقت مبكر جدًّا من صباح اليوم التالي، سالكًا طريقي إلى هايجيت لإحضار عمتي.

لم أرَ عمتي في مثل هذه الحالة من قبل. كانت ترتدي لباسًا من حرير بلون اللافندر، وقبعة بيضاء جعلتها تبدو فاتنة، لقد ساعدتها

جانيت على اختيار ثوبها كما أنها زينتها كذلك، ثم انتظرت إبداء رأيي في ملبسها. كانت بيجوتي مستعدة للذهاب إلى الكنيسة، وقد اعتزمت مشاهدة الحفل من صحنها. أما السيد دك، الذي سيسلمني حبيبتي عند المذبح، فقد هذب شعره وأصلح من مفرقه. قابلت كذلك ترادلز في الطريق مرتديًا مزيجًا رائعًا من اللون الكريمي والأزرق الفاتح. أضفى ترادلز والسيد دِك نوعًا من الجاذبية بوجه عام بارتدائهما قفازات أنيقة.

لا شك أنني ألمح هذه التفاصيل التي أعلم بوجودها، لكني جاهل كذلك بتفاصيل أخرى لا أعلم عنها شيئًا، وأكاد لا أصدق شيئًا على الإطلاق. كنا نسير في عربة مكشوفة، بينما أفكر في أن هذا الزواج الساحر يبدو حقيقيًّا إلى الحد الذي أشعر معه برثاء عجيب على هؤلاء التعساء الذين لم يشاركوا فيه، لأنهم يهدرون أوقاتهم في الذهاب إلى المتاجر، وإلى وظائفهم اليومية بدلًا من معاينة هذا السحر.

ظلت يد عمتي قابضة على كفي طوال الطريق. توقفنا على مسافة قصيرة من الكنيسة حتى تنزل بيجوتي، لأنها جلست معنا داخل العربة. شدت عمتي على يدي واعتصرتها ثم قبلتني قائلة: «بارك الله فيك يا تروت، إن كان لي ابن فلن يكون أعز منك أبدًا. لم أزل أفكر في طفلي العزيز منذ الصباح إلى الآن».

قلت: «وأنا كذلك، وإنني لمدين لكِ يا عمتي العزيزة».

تقول عمتي: «كفى يا تروت الصغير»، ثم تمد يدها في مودة خالصة إلى ترادلز، الذي يمد يده بعد ذلك إلى سيد دك، الذي يطلق بدوره يده لي، ثم أبسط يدي نحو ترادلز، حتى نصل إلى باب الكنيسة.

إنني متأكد من أن الكنيسة هادئة تمامًا، لكنها باتت في خيالي مزدحمة، كما لو أنها مغزل يعمل بقوة اندفاع البخار، فلا تهدأ أعصابي برؤيتها. كنت قد أطلق العنان لخيالي لأحلق بعيدًا شارد الذهن. صار ما تبقى من أحداث كما الحلم المفتت بلا رابط في مخيلتي.

إنه حلم من قدومهم مع دورا، مع انحناءة متفق عليها كما الحراس أمام أعمدة المذبح. إنه حلم تساءلت فيه عن هذا الموقف، وما السر في أن يكن المنظمات دائمًا من أقبح النساء هيئة في العالم، وما إذا كان ثمة تخوف ديني من انتشار عدوى تغلب فيها روح الدعابة والمرح، مما يقتضي وضع كل هذه الأوعية من الخل في الطريق إلى الجنة.

إنه حلم من ظهور القسيس والخادم عند الهيكل، مع عدد قليل من البحارة، وبعض الأشخاص الآخرين الذين يتجولون في صحن الكنيسة. ظهر ملاح قديم خلفي، فحلت رائحة قوية بالكنيسة أحدثها شراب الروم. ثم بدأت المراسم بالتراتيل بصوت عميق أجش، بينما وقفنا جميعًا في خشوع عظيم.

إنه حلم من ظهور آنسة لافينيا وصيفة للعروس أو أشبه بالمساعدة، وقد كانت أول من بكى -وأظن أنها كانت تبكي تبجيلًا لذكرى بيدجر- فتنهدت الآنسة كلاريسا وناولتها كأسًا من مادة فوارة لتنعشها. أما أجنيس فقد كانت ترعى دورا، بدلًا عن عمتي التي حاولت أن تُظهر نوعًا من الصرامة، فإذا بالدموع تنهمر على صفحة وجهها. بدت لي دورا الصغيرة مرتجفة مرارًا، بينما راحت تغمغم بردودها في همسات خافتة.

إنه حلم من ركوعنا معًا جنبًا إلى جنب، مما جعل ارتجافة دورا تهدأ شيئًا فشيئًا، لكنها أبقت دائمًا على تمسكها بيد أجنيس. أخذت المراسم تتوالى في هدوء وجدية، بينما أخذ كل منا ينظر إلى الآخر في تبادل للابتسامات والدموع. انقضت المراسم، فراحت زوجتي الشابة تبكي على أبيها المسكين في حالة هستيرية، يا لأبيها العزيز!

إنه حلم من سرعة ابتهاج زوجتي مرة أخرى، ووقوفنا جميعًا في حلقة لتوقيع عقد الزواج. ذهبت إلى المذبح كي أحضر بيجوتي للتوقيع على العقد، فعانقتني في زاوية بعيدة، وقد ذكرتني أنها قد شهدت على زواج والدتي العزيزة من بدايته حتى نهايته، وكذلك شهدت رحلة حياتي وزواجي.

إنه حلم أسير فيه عبر الممر في فخر وزهو متأبطًا ذراع زوجتي اللطيفة، وسط سحاب من وجوه الناس والمنابر، والتماثيل، والمقاعد، والأرغن، وأعضاء الكنيسة ونوافذها، كما راحت أجواء خافتة من ذكريات طفولتي عن كنيسة موطني ترفرف حولي من زمنها البعيد.

إنه حلم من تهامس الحاضرين من حولنا إعجابًا بالزوجين الشابين، وجمال العروس الغضة الفاتنة. إنه حلم من المرح والثرثرة التي لفتنا ونحن عائدون في العربة، وقد حكت لنا صوفي كيف فقدت وعيها في أول مرة التقت فيها بترادلز الذي أوكلتُ إليه حمل رخصة الزواج، فإذا به يسأل عنها ويتحسس جيوبه، بعد أن ألمحت صوفي أنه قد فقدها بالتأكيد أو انتشلت من جيبه. إنه حلم من ضحكات أجنيس المرحة، ومحبة دورا لها لدرجة أنها لم تنفصل عنها، ولم تترك يدها.

إنه حلم من إعداد فطور مكتظ بكل ما هو شهي ومتنوع من مأكل ومشرب، بينما أشارك تذوقها كما يشارك حالم في حلم آخر بالطعام، فيتذوق الملذات من دون أدنى إدراك لكنهها، كما لو أنني لم آكل ولم أشرب على مائدة سوى الحب والزواج، فلا أدرك حقيقة أي شيء ولا أجد مؤونة أخرى تضاهيه.

إنه حلم من إلقاء خطاب بنفس الأسلوب الحالم، من دون أن أحمل أي فكرة عن مقصد قولي أو هدفه، بما يتجاوز ما يمكن فهمه، وأنا في اقتناع كامل بأنني لم أقله. إنه حلم بأننا سعداء في مجتمع بسيط (كما الحلم الدائم في المنام)، بينما يتمتع جيب بكعكة زفاف هو الآخر، على الرغم من أنها أرهقت معدته بعد ذلك.

إنه حلم من مجيء عربة تجرها الخيول بزينتها، وقد انطلقت دورا لتبديل ملابسها في حين بقيت عمتي والآنسة كلاريسا معنا، بينما نسير في الحديقة. أما عمتي فقد ألقت خطابًا رائعًا حين تناولنا الإفطار بينما أشارت إلى عمتَي دورا في سعادة بالغة، وقد شعرتا بالزهو أيضًا من هذه الخطبة العظيمة.

إنه حلم من كون دورا متأهبة، وقد أحاطت بها الآنسة لافينيا كما لو أنها تخشى من أن تفقد اللعبة الجميلة التي منحتها الكثير من الرعاية في متعة ولذة. إنه حلم تبدي دورا فيه سلسلة طويلة من الاندهاشات لسهوها عن عدد من الأشياء الصغيرة، وتسابق الجميع بالركض في كل مكان لجلبها لها.

إنه حلم من التفاف الجميع حول دورا، حين شرعت في توديعهم قبل الانصراف، وقد التفوا حولها مثلما التفت زهور ملابسهم وألوانها و شرائطهم ، فبدوا مثل بستان من زهور، ثم إقبالهم على معانقتها حتى بدت كالمختنقة بحبائل من أزهار وقد اختلط الضحك والبكاء معًا، متكئة إلى ذراعَي الغيورتين.

إنه حلم من حملي لجيب (الذي سيرافقنا)، وإصرار دورا بقولها لا على أن تحمله هي، وإلا فإنه سيظن أنها لم تعد تحبه بعد أن صارت الآن متزوجة مما قد يكسر قلبه. إنه حلم من انطلاقنا متشابكي الأذرع، بينما تلتفت دورا ناظرة إلى الوراء وهي تقول: «إذا كنت قد تشاجرت في يوم من الأيام مع أحد أو ضايقت أي إنسان، فليغفر لي وليسامحني»، ثم انفجرت في البكاء.

إنه حلم من تلويحها بيدها الصغيرة، ورحيلنا مرة أخرى، ثم توقفها من جديد والتفاتها إلى الوراء مهرولة إلى أجنيس، لتهبها، دون أي إنسان سواها، آخر قبلاتها ووداعها.

نبتعد معًا، وأستيقظ من الحلم. أصدق في النهاية ما حدث. ها هي ذي زوجتي الصغيرة العزيزة الغالية، تدنو بجانبي، وأنا من يهيم بها عشقًا.

تسألني دورا: «هل أنت سعيد الآن أيها الولد الأحمق؟ أمتأكد من أنك لست نادمًا؟».

لقد وقفت بمعزل لأرى شبح تلك الأيام والأحداث تمر أمامي. لقد رحلوا عني، وها أنا أستأنف الرحلة إلى قصتي.

# الفصل الرابع والأربعون

## تدابير منزلنا

كانت الأمور مدهشة، فقد انتهى شهر العسل، وعادت وصيفتا العروس إلى بيتهما، فوجدت نفسي جالسًا في منزلي الصغير مع دورا، بلا عمل على الإطلاق، إجلالًا لهذا العمل المتعلق بالمهنة القديمة اللذيذة المتمثلة في ممارسة الحب.

لم أكن قد اعتدت وجود دورا هنا دومًا ترافقني، فقد كان أمرًا غير عادي، وصرت بلا شك غير مضطر إلى الخروج لالتماس رؤيتها، ولم يبقَ ما يدفع مهجتي إلى التهافت لمعرفة حالها، ولست مضطرًّا إلى مراسلتها، ولن أخطط لمكيدة أو أنتهز الفرصة لأختلي بها. مرت بي إحدى الأمسيات، كنت أرفع بصري عما أكتبه أحيانًا، فأراها جالسة في الجهة المقابلة مني، أتكئ على الكرسي وأفكر كم صار الأمر غريبًا بأن صرنا وحدنا معًا -لم يعد بالطبع لأحد أن يعبأ بأمرنا- أما جملة عواطفنا الحالمة في خطوبتنا فقد آلت إلى الرف، لتصدأ -فلم يسعَ أي منا لإرضاء الآخر- إذ لم يبقَ أمام أي منا سوى الرضا بالآخر مدى الحياة.

كنت أنشغل بحضور مناقشات برلمانية أحيانًا، فأضطر إلى المكوث في عملي خارج المنزل حتى وقت متأخر جدًّا من الليل، فإذا بي أفكر في طريق عودتي إلى المنزل أنه كم يبدو غريبًا لي أن أصل إلى المنزل فأجد دورا تنتظرني فيه في هذه اللحظة! كانت الأمور رائعة في البداية، حين تأتي إليَّ دورا لتتحدث معي في رقة بينما أتناول العشاء، ويا للروعة إذ أدرك أنها تركت أثرًا من شعرها بين أوراقي، فقد كانت رؤيتي لها حدثًا مذهلًا آسرًا.

لست أعرف ما إذا وُجد عصفوران صغيران قليلَي الخبرة، يجهلان تدابير المنزل، كما كنت أنا ودورا الجميلة. كنا بالطبع قد جلبنا إلينا خادمة، لتدير شؤون المنزل بدلًا عنا، ولم أزل أضمر ظنًّا بأن هذه الخادمة هي ابنة السيدة كروب، إلا أنها تخفي حقيقتها. لقد عانينا في هذه الفترة أشد معاناة من ماري آن.

كان تدعى باراجون، وكان طبعها غير مألوف لنا. أحضرت لنا شهادة بحسن سيرها وسلوكها، مكتوبة على روقة عريقة، فكانت أشبه بالمنشور يفصل بالذكر أنها تستطيع القيام بجميع الأعمال المنزلية التي سمعت عنها، أو لم أسمع عنها طوال حياتي. كانت فتاة شابة في مقتبل العمر، ذات وجه حاد الملامح، به تصبغات خاصة فوق الذراعين، وآثار طفح تشبه الحصبة الدائمة أو الالتهاب الجلدي. كان لديها ابن عم، يعمل ضمن فريق الحرس الخاص، ذو رجلين طويلتين، حتى إنه يتراءى لي كما لو أنه ظل لإنسان آخر وقت الظهيرة، وكان يرتدي سترة عسكرية صغيرة جدًّا لا تناسب حجمه، كما كان أضخم من أن يحويه

البيت الصغير، لأنه لا يتناسب مع حجمه على الإطلاق، كما أن جدرانه كانت رقيقة. كان كلما نزل في بيتنا أدركنا وجوده في المساء، حيث نستمع إلى همهمة مستمرة صادرة من المطبخ.

كان القدر رفيقًا بنا وكنا سذجًا، لذلك كنت مستعدًّا لتصديق أنها كانت في نوبة عصبية عندما وجدنا متاعنا ملقى تحت المرجل، وأن نقص ملاعق الشاي التي اختفت يعود إلى الكناس الذي ضيعها أو سرقها.

راحت سرًّا تنهش عقولنا في شراسة، فأحسسنا بقلة خبرتنا، وعجزنا عن مساعدة أنفسنا، فكان علينا أن نندس تحت رحمتها، إذا كانت تعرف أيًّا منها، لكنها كانت امرأة قاسية لا تعرف عزيزًا أو غاليًا. كانت كذلك سببًا لمشاجرتنا الصغيرة الأولى.

قلت لدورا ذات يوم: «يا حبيبة عمري، هل تظنين أن ماري آن لديها أي فكرة عن تنظيم الوقت؟».

سألت دورا وهي تنظر ببراءة بينما تكمل رسمها: «لماذا يا دودي؟».

«لأن الساعة الآن الخامسة يا حبيبتي، وكنا نتناول الغداء في الساعة الرابعة».

نظرت دورا بحزن إلى الساعة، وألمحت إلى أنها كانت تتصور أن الوقت لم يمر بهذه السرعة.

قلت وأنا أنظر إلى ساعتي: «بالعكس يا حبيبتي، لقد مر الوقت بطيئًا جدًّا».

اقتربت زوجتي الصغيرة مني وجلست على ركبتي، حتى تحثني على الهدوء والسكينة، ثم رسمت خطًّا بقلمها الرصاص في منتصف أنفي، وكم كانت هذه الحركة لطيفة لكنها لن تغنيني عن الغداء.

قلت: «ألا تظنين يا عزيزتي أنه من الأفضل لكِ أن تعترضي على ما تفعله ماري آن؟».

أجابت دورا: «آهٍ، لا، من فضلك لا تقل هذا».

سألتها في لين: «لمَ لا يا حبيبتي؟».

قالت دورا: «آهٍ، لأنني مثل إوزة صغيرة بلهاء، وهي تعرف أنني كذلك».

أدركت أن هذا الشعور اللين لن يتوافق مع إنشاء أي نظام للإشراف على ماري آن، مما جعلني أعبس قليلًا.

قالت دورا: «آهٍ، يا لهذه التجاعيد القبيحة المرتسمة على جبين الولد الشرير»، قالتها بينما لم تزل فوق ركبتي، تلعق قلمها وتضعه بين شفتيها الورديتين لتجعل خطه أكثر اسودادًا ثم ترسم خطًّا فوق تجاعيد جبيني، بينما تحاول فرد جبيني في صورة مضحكة وغريبة من كونها مجدة فيما تفعل، مما أسعدني تمامًا على الرغم مما يختلجني.

قالت دورا: «ها هو طفلي المطيع، يصير وجهه أجمل بكثير حين يضحك».

قلت: «لكن يا حبيبتي...».

صرخت دورا قائلة: «لا، لا، من فضلك»، ثم طبعت قبلة على خدي قائلة: «لا تكن مثل صاحب اللحية الزرقاء[1]، لا تكن جادًّا».

قلت: «يا زوجتي الغالية، يجب أن نكون جادين أحيانًا. تعالي، اجلسي على هذا الكرسي بجواري. أعطني القلم الرصاص، هيا، هيا نتحدث الآن بحكمة. إنكِ تعلمين يا عزيزتي»، يا لها من يد صغيرة فاتنة أمسكها، ويا له من خاتم زفاف صغير بالكاد يرى بين أناملها! «كما تعلمين يا حبيبتي أنه ليس من المريح تمامًا أن أضطر إلى الخروج من دون غداء الآن، أليس كذلك؟».

أجابت دورا بصوت خافت: «لا، لا».

«حبيبتي، لمَ ترتجفين؟!».

صاحت دورا في نبرة بائسة تثير الشفقة: «لأنني أعرف أنك ستوبخني».

«يا حلوتي، إنني أستمع فقط إلى صوت العقل وأناقشكِ».

صاحت دورا في يأس قائلة: «آهٍ، إن هذه المناقشة أسوأ من التوبيخ، لم أتزوج لأستمع إلى مناقشات. إذا كنت تقصد إدارة محاورات مع مثل هذا الشيء الصغير المسكين، فيجب أن تخبرني بذلك أيها الفتى القاسي».

---

(١) كتب شارل بيرو قصة عن قاتل متسلسل قتل زوجاته وأخفى جثثهن في غرفة مغلقة، بعد أن منعهن من فتح باب غرفة معين في غيابه، لكنهن لم ينفذن أوامره فقتلهن، وقد سُمي بـ«صاحب اللحية الزرقاء».

حاولت تهدئة دورا، لكنها أشاحت بوجهها عني، وهزت خصلات شعرها من جانب إلى آخر، ثم أردفت قائلة: «إنك فتى قاسٍ قاسٍ»، كررتها مرات عديدة، حتى إنني لم أدرِ ماذا أفعل، فرحت أتجول بالغرفة عدة مرات ذهابًا وإيابًا في قلة حيلة من أمري، إلى أن رجعت إليها مرة أخرى.

قلت: «يا دورا، يا حبيبتي».

عادت دورا تقول: «لا، إنني لست حبيبتك. لا بد أنك نادم على الزواج بي، وإلا فلا تفكر في مثل هذه النقاشات معي».

شعرت بالألم الشديد لهذه الطبيعة غير المنطقية لإلصاق هذه التهمة بي، فتشجعت لأبدو حازمًا جادًّا فقلت: «إنكِ الآن يا دورا تسلكين مسلك الأطفال، وتتفوهين بكلام ليس له معنى. إنني واثق من أنكِ تتذكرين أنني اضطررت إلى الخروج أمس من دون تناولي الغداء لأنه لم يكن قد أعد بعد، وأنني شعرت أول أمس بتوعك بسبب اضطراري إلى تناول اللحم بسرعة ولم يكتمل نضجه بعد، أما اليوم، فلا أتناول الغداء على الإطلاق. أخشى أن أذكركِ كم من الوقت انتظرنا لتناول الإفطار، وبعد أن طال انتظارنا لم يكن الماء قد أتم الغليان. إنني لا أقصد لومكِ يا عزيزتي، لكن هذا أمر غير مريح».

صرخت دورا قائلة: «آه، إنك أيها الفتى القاسي تقول إنني زوجة بشعة».

قلت: «يا عزيزتي دورا، يجب أن تعلمي في هذه اللحظة أنني لم أقُل ذلك قَطُّ».

صرخت دورا تجيبني: «قلتَ إنني غير مريحة!».

«لقد قلتُ إن إدارة شؤون المنزل لم تكن مريحة».

صاحت دورا: «إنه نفس الشيء بالضبط»، كان من الواضح أنها ظنت أن هذا هو مقصد كلامي، لأنها بكت بشدة.

تجولت مرة أخرى داخل الحجرة، وأنا مفعم بالحب لزوجتي الجميلة، فشتت انتباهي بشعوري بالذنب والظلم حتى هممت بمعاقبة نفسي وطرق رأسي بالباب. جلست مرة أخرى وقلت:

«إنني لا ألومكِ يا دورا. إن لدينا الكثير لنتعلمه، لكنني أحاول فقط يا عزيزتي أن أرشدكِ إلى ما يجب عليكِ فعله، يجب عليكِ حقًّا...» -زاد تأكيدي وتصميمي على عدم التخلي عن هذا التعبير- «يجب أن تُعوِّدي نفسكِ على الإشراف على ماري آن، وفوق ذلك كله أن تؤدي عملًا ولو يسيرًا لراحتكِ وراحتي».

قالت دورا بينما تنتحب بشدة: «إنني أندهش حقًّا حين تتفوه بمثل تلك الأحاديث الجائرة. إنك تذكر ذاك اليوم، عندما قلت إنك ترغب في تناول القليل من السمك، خرجت بنفسي، سرت لأميال وأميال، وأحضرت ما طلبت، لأفاجئك».

قلت: «كان ذلك لطفًا منكِ يا حبيبتي، وقد أحسست بالامتنان العظيم لموقفكِ، حتى إنني لم أنبهكِ للثمن الذي اشتريتِ به سمك السلمون – والذي كان يفوق ما يحتاج إليه شخصان. ولم أنبهكِ إلى أن كلفته كانت جنيهًا وستين بنسًا، وهو ما يزيد على نفقاتنا».

بكت دورا قائلة: «لقد استمتعت به كثيرًا، وقلت إنني كنت كالفأرة».

أجبتها قائلًا: «لم أزل أمتدحكِ بهذا القول مرة أخرى يا حبيبتي، بل أكرر مدحي ألف مرة».

إلا أنني كنت قد جرحت قلب دورا الصغير الرقيق، ولم يكن هذا ليشعرها بالسكينة. كانت مثيرة للشفقة في بكائها ونحيبها، لدرجة شعرت فيها أنني لا أعي ما الذي يؤذيها في قولي. اضطررت بعدها إلى الإسراع بالخروج، ومكثت خارج البيت لوقت متأخر وقد اختلجتني طوال الليل آلام الندم، فبت معذبَ الفؤاد تعسًا. اعتصرني ضميري كما لو أنني قاتل، وكان يطاردني شعور غامض بالإثم الهائل الذي اقترفته.

وصلت إلى المنزل وقد جاوزت منتصف الليل بساعتين أو ثلاث ساعات، لأجد عمتي جالسة في منزلنا تنتظرني.

قلت في انزعاج: «هل حدث شيء يا عمتي؟».

أجابتني: «لا شيء يا تروت. اجلس، تعالَ اجلس. لم تكن زهرتنا الصغيرة في حالة جيدة فجئت لأرافقها، وهذا كل ما في الأمر».

أسندت رأسي على راحتي، وشعرت بالأسف والتعاسة. راحت عيناي تتأملان في تلك النار المشتعلة، وما كنت أتوقع أن يحدث كل ما حدث بعد مضي وقت قصير على تحقق آمالي المشرقة. جلست أفكر، بينما التقت عيناي بنظرات عمتي التي كانت تستقر على وجهي، وقد حملت نظراتها تعبيرًا من القلق، لكنه سرعان ما تلاشى مباشرة.

قلت: «أؤكد لكِ يا عمتي، أنني مكثت حزينًا جدًّا طوال الليل، أفكر في حال دورا، لكنني لم أقصد أي شيء سوى التحدث معها بحنان ومحبة عن شؤوننا المنزلية».

أومأت عمتي مشجعة لموقفي.

قالت: «يجب أن تتحلى بالصبر يا تروت».

قلت: «بالطبع بكل تأكيد. يعلم الله أنني لم أقصد المبالغة في الأمر يا عمتي».

قالت عمتي: «لا، بالطبع لم تقصد، لكن زهرتنا الصغيرة لم تزل رقيقة صغيرة للغاية، ويجب أن تهفو بريح لطيفة معها».

شكرت عمتي الطيبة من كل قلبي على حنانها على زوجتي. كنت على يقين من أنها تعرف أنني أفعل الأمر ذاته.

قلت بعد مزيد من تأمل في المشكلة مرة أخرى: «ألا تظنين يا عمتي أنه بإمكانكِ إسداء النصح اليسير إلى دورا من وقت إلى آخر، لمصلحة كل واحد منا؟».

ردت عمتي بنوع من الانفعال قائلة: «لا يا تروت، لا تطلب مني أمرًا كهذا».

كانت نبرة صوتها جادة للغاية، حتى إنني حملقت مندهشًا.

قالت عمتي: «إنني أسترجع حياتي السابقة يا بني، وأتذكر أناسًا ممن صاروا اليوم في قبورهم، وكان الأجدر بي أن أكون على علاقة طيبة معهم. إذا كنت قد حكمت في قسوة على أخطاء الآخرين في زيجاتهم،

فربما يكون ذلك لأنني وجدت أسبابًا في حياتي تجعل أحكامي مريرة وقاسية. فلننحِّ هذا الأمر جانبًا. لقد كنت امرأة غضوبة ومزعجة وصعبة المراس منذ سنوات عديدة، ولعلي لم أزل كذلك، أو سأظل كذلك. إلا أن كلًّا منا، أنا وأنت يا تروت، قد أسدى إلى الآخر معروفًا. إنك يا تروت قد وقفت بجانبي في جميع المجريات، وخيرًا فعلت بي يا عزيزي، فلا ينبغي أن يفرق شيء بيننا في مثل هذه اللحظات من اليوم».

صرخت قائلًا: «يفرق بيننا!».

قالت عمتي بينما تصلح طرف ثوبها: «اسمع يا بني، ما أسرع الفراق بيننا إن أنا فعلت ما تقول! وكم يؤلمني أن أتسبب في إيذاء زهرتنا الصغيرة المسكينة لو أنني تدخلت في أمور لا يستطيع أي إنسان، ولو كان قديسًا، التنبؤ بعواقبها. أريد من وليفتنا المدللة أن تحبني، وأن تكون خفيفة الروح مثل فراشة. تذكر منزلك في الفترة التي أعقبت زواجك، ولا تكن سببًا لأن نصاب أنا أو هي بما ألمحت به إليك».

أدركت على الفور أن عمتي على حق. وأدركت تمامًا مدى شعورها النبيل السخي تجاه زوجتي العزيزة.

راحت تقول: «إنها الأيام الأولى يا تروت، ولم تُبنَ روما في يوم ولا حتى في عام. لقد اخترت زوجة حسناء».

أحسست ساعتها أن غيمة قد أظلت وجهها للحظة، ثم مضت تقول: «لقد اخترت مخلوقًا جميلًا جدًّا وحنونًا للغاية، وسيكون من أولويات واجباتك، ومن دواعي سرورك أيضًا -بالطبع فأنا أعرف ذلك

ولا ألقي محاضرة- أن تقدر شخصها كما هي، وتحترم طبعها ومزاياها، من دون أن تتطلع إلى صفات قد لا تتمتع بها. ما عليك سوى أن تحاول دفعها إلى تطوير صفاتها إن استطعت. وإذا لم تستطع يا بني...»، وهنا فركت عمتي أنفها ثم أكملت: «يجب عليك فقط أن تُعود نفسك على الاستغناء عنها. تذكر يا عزيزي أن مستقبلك متوقف عليكما، وليس بوسع أحد مساعدتكما، بل إنكما اللذان سيتدبران أمركما. إنه الزواج يا تروت، فليبارككما الله أنتما الاثنين في مقاصدكما. يا لكما من صغيرين غضين كطفلين ضالين في الغابة![1]».

قالت عمتي ما قالته بلهجة مرحة، ثم قبلتني تعبيرًا عن مباركتها ورضاها.

قالت: «أما الآن، فلتنِر لي ناقوسي الصغير، ولترافقني إلى الممر الخاص بي نحو الحديقة» - حيث كان البيتان متصلين بممر من ناحية الحديقة - «ولتحمل محبة بيتسي تروود وتحياتها إلى زهرتنا عندما تعود. ومهما فعلت يا تروت، فلا تحلم أبدًا بوضع بيتسي في دور الفزَّاعة، لأنك لو كشفت عن مكنونها وكانت شفافة كالزجاج، لوجدتها ذابلة للغاية وهزيلة لا حول لها ولا قوة».

ربطت عمتي رأسها بمنديل بعد أن أنهت كلامها. كانت قد اعتادت على ارتدائه في مثل هذه المناسبات، ثم رافقتها في طريقها. وقفت في حديقتها تحمل ناقوسها الصغير لتضيء لي طريق عودتي، وقد بدت

---

(١) تعبير مأخوذ من قصيدة شعبية تعود لعام ١٥٩٥ باسم «الأطفال في الغابة»، حول اثنين من الأيتام الصغار الذين تم التخلي عنهم وتركهم للموت في الغابة.

نظراتها لي تحمل شيئًا آخر من القلق وانشغال البال، لكنني كنت مستغرقًا بالتفكير فيما قالته، وقد تأثرت كثيرًا -لأول مرة، في الواقع- واقتنعت بأنه عليَّ أنا ودورا رسم مستقبلنا بأنفسنا، وأنه لا يمكن لأحد أن يمد يد العون لنا، ومن ثَم لم أهتم كثيرًا بقلق عمتي البادي في عينيها.

جاءت دورا متسللة نحوي في نعالها الصغيرة، بعد أن صرت وحدي، وراحت تبكي فوق كتفي، وتقول كم كنت قاسيًا وكم كانت شقية، فرددت أنا الشيء نفسه، وهذا ما كنت أتصوره حقيقيًّا. تجاوزنا الأمر وتصالحنا، ثم اتفقنا على أن يكون خلافنا البسيط هذا هو خلافنا الأول والأخير بيننا، وأننا لن نختلف مرة أخرى، ولو عشنا مائة عام.

كان الاختبار المنزلي التالي الذي مررنا به هو معضلة اختيار الخدم. كان ابن عم ماري آن قد هرب من الجندية، واختبأ عندنا في مخزن الفحم، ثم ما لبث أن قبض عليه رفاقه من السلاح بعد أن أخرجوه من المخبأ وساروا به مكبلًا في موكب. لم يكن موكب غطى حديقتنا الأمامية بوابل من الخزي والفضيحة. أثارت هذه الفعلة حفيظتي وشجعتني على التخلص من ماري آن، والتي لم تغالِ في شيء، بل أدهشتني حين تقاضت أجرها في هدوء من دون احتجاج، ولكني فهمت السر، إذ اكتشفت اختفاء ملاعق الشاي، وكذلك عرفت أمر المبالغ الصغيرة التي اقترضتها باسمي من التجار من دون وجه حق أو إذن مني. وظفنا بعد فترة السيدة كيدجيربري - أكبر سكان بلدة كنتيش سنًّا، على ما أظن، كما لو أنها مومياء دبت فيها الروح، وكانت أضعف من أن تدرك أي تصور عن فنون إدارة المنزل. وجدنا بعد ذلك خادمة

أخرى كانت أوفر صحة، وأكثر لطفًا ولينًا، إلا أنها كانت تتعثر كثيرًا، فتُسقط أمتعتنا إما في صعودها أو نزولها من المطبخ، وكذلك فعلت في غرفة الجلوس، إذ حطمت أطقم تحضير الشاي، فصار أشبه بالمغطس. كان الخراب الذي ارتكبته مؤسفًا، مما جعل فصلها ضروريًّا. خلفتها -بعد فترات متقطعة من خدمة السيدة كيدجيربري لنا- سلسلة طويلة من العاجزات عن العمل، ثم انتهينا إلى شابة ذات مظهر أنيق، تبين لنا بعد ذلك أنها ذهبت إلى مشاهدة بعض العروض الشعبية في جرينتش مرتدية قبعة دورا. لا أتذكر بعد ذلك شيئًا عن هذه الخادمة سوى عدد متنوع من الإخفاقات.

ألم يغدُ للجميع مأرب سوى خداعنا! لقد صار ظهورنا في أحد المتاجر بمثابة إشارة لعرض البضائع التالفة على الفور، فإذا اشترينا سلطعونًا لنأكله فلا بد أن يكون منفوخًا بالماء لا اللحم، وصارت كل أنواع لحومنا قاسية جافة، ولم نتحصل على أرغفة صالحة للأكل إلا فيما ندر، ورحنا نبحث عن خبز طيب ناضج القشرة وجاف الحواف بعض الشيء، ورحت أطالع بنفسي كتاب الطبخ، حتى أتوصل إلى الطريقة المثلى لشواء الأفخاذ أو الضلوع أو الأكتاف حتى تنضج بالشكل المطلوب ولا تهترئ أكثر مما ينبغي فوق نار الموقد. قرأت في كتاب الطبخ أنه من المقرر ترك كل رطل من اللحم مدة لا تقل عن ربع ساعة كاملة، ولا تزيد على نصف ساعة بأي حال من الأحوال. كانت هذه الطريقة دائمًا ما تخذلنا بسبب بعض الخطوات الغريبة الفاشلة، ولم نتمكن قَطُّ من الوصول إلى حل وسطي بين النضج والاحتراق.

أتصور أن سلسلة الإخفاقات التي مررنا بها كانت سببًا في تكبدنا نفقات تفوق بكثير حدود أي انتصارات حققناها. إن وضعنا حسابات التجار محلًّا للاعتبار، فقد يبدو لي أنه من الأفضل لو أبقينا الطابق السفلي مرصوفًا بالزبدة، بالقياس إلى استهلاكنا لها على أوسع نطاق. لا أعرف ما إذا كانت الضرائب قد سجلت زيادة على استهلاك الفلفل أم لا، لكن إذا لم يؤثر استهلاكنا لهذا الصنف وحده على السوق، فلا يسعني إلا أن أقول إن عددًا من العائلات قد توقف عن استخدامه، أو شرائه، وأعجب ما في الأمر على الإطلاق هو أننا لم يكن لدينا يومًا شيء منه، ولم نحتج إليه في المنزل.

أما السيدة التي تغسل ملابسنا، فقد رهنت ثيابنا ثم جاءت في حالة مضنية من السُّكر لتعتذر لنا، وأتصور أن هذا الأمر وقع عدة مرات مع أناس آخرين. حدث الشيء نفسه مع عامل إصلاح المدخنة، وخادمي الرعية، إلى جانب شهادة زور من بعض الخدام على شماس الكنيسة، لكن البلاء ازداد بأن وظفنا خادمة تكن حبًّا للشراب فتطلبه وتستمتع به، مما أدى إلى تضخم ديوننا المستحقة للحانة العامة، ثمنًا لمشروبات نجهل كنهها، مثل: «ربع من الروم للسيدة كاف»، و«ثمن من الجن بالقرنفل للسيدة كاف»، و«زجاجة من الروم والنعناع للسيدة كاف»، وقد أشار اسم السيدة كاف إلى السيدة كوبرفيلد أي دورا، وكان من المفترض كما ظهر في شرح الحساب، أنها من احتست كل هذه المشروبات.

كان أول الأحداث الكبيرة في تدبير منزلنا هو إعداد غداء بسيط لترادلز. كنت قد التقيت به في المدينة، وطلبت منه أن يخرج معي

للتريض بعد ظهر ذلك اليوم، فوافق على الفور، وكتبت إلى دورا قائلًا إنني سأستضيفه اليوم في المنزل لتناول الغداء. كان الطقس بديعًا، وقد تحدثنا في طريقنا عن سعادتي في المنزل. كان ترادلز معجبًا به أشد الإعجاب، وقد صرح لي قائلًا إنه يتخيل نفسه بمثل هذا المنزل، بينما تنتظره صوفي وتتهيأ له بعد عودته من العمل، وأنه لا يمكن أن يفكر في أي شيء آخر أكثر سعادة وفرحًا.

لم أكن لأتمنى زوجة أجمل ولا أرق من هذه الزوجة الصغيرة التي تجلس أمامي في الطرف المقابل من الطاولة، لكنني بالتأكيد كنت أتمنى أن نجلس في مساحة أكبر قليلًا. لم أعرف كيف أصف الأمر، فعلى الرغم من أننا لم نكن سوى اثنين، فقد كنت أشعر بضيق المكان، فكنا دومًا نشغل الغرفة ذاتها في نفس اللحظة، وكان ثمة مجال كافٍ لفقدان كل شيء باستمرار. أظن أن السبب ربما يكون لعدم وجود مكان مخصص لأي شيء، باستثناء بيت جيب، الذي أغلق الممر الرئيسي للمنزل بشكل دائم.

كان ترادلز في هذه الاستضافة محاطًا ببيت جيب وعلبة الجيتار على مقربة منه، وكذلك لوحة أزهار دورا، وطاولة الكتابة الخاصة بي، حتى راودتني الشكوك في قدرته على استخدام السكين والشوكة في تناول الطعام، لكنه علق محتجًا على مخاوفي في روح من دعابة قائلًا: «أؤكد لك يا كوبرفيلد أن مساحتي بحر واسع، أؤكد لكم، بل محيط واسع».

تمنيت شيئًا آخر، ألا وهو ألا يتجرأ جيب مطلقًا على المشي على مفرش المائدة في أثناء الغداء. بدأت أدرك أن فوضى ستندلع في وجوده بشكل عام، حتى لو لم يكن معتادًا على وضع قدمه في الملح أو الزبدة المذابة حتى تلك اللحظة. بدا في هذه المناسبة أنه يتصور أن إبقاءه صراحة يعني إبقاء ترادلز في وضع حرج، فقد أكثر النباح على صديقي القديم، وقام بجولات قصيرة حول طبقه، في نوع من الحماسة، لدرجة يمكن القول معها إنه استحوذ على المحادثة.

كنت على الرغم من كل ما جرى مدركًا رقة قلب عزيزة قلبي دورا، وعارفًا لمدى حساسيتها تجاه أي إهانة نحو مفضلاتها أو كلبها المدلل، لذلك لم ألمح بأي اعتراض، ولم أقل كلمة واحدة - لأسباب مماثلة - عن الأطباق المتناثرة المتزاحمة الملقاة على الأرض، والتي تعرقل الخطى. لم أعلق على ظهور قوارض في البيت التي كانت في عداد السادسة والسابعة، وبدت تجول حولنا في حالة من السكر كما لو أنها أفرطت في الشراب، أو الحصار الفج المفروض على ترادلز بما يحاوطه من أطباق وأباريق. لم يسعني إيقاف ذلك السيل من الاندهاش الذي يجول بمخيلتي حينما أبصرت قبالة عيني فخذة مسلوقة من لحم الضأن، قبل تشفيتها، وكيف أن قطع اللحم مبتورة في أشكال غير مستوية، وما إذا كان جزارنا قد تعاقد مع كل خروف مشوه قد أتى إلى العالم، لكني احتفظت بتأملاتي لنفسي.

قلت لدورا: «يا حبيبتي، ماذا عندكِ في هذا الطبق؟».

لم أستطع أن أتخيل السبب الذي يجعل دورا تبدي على وجهها تلك التعبيرات الطفولية أمامي، كما لو أنها ترغب في تقبيلي.

قالت دورا في خجل: «إنه محار يا عزيزي».

فقلت: «هل كان من اختيارِكِ؟».

قالت دورا: «نعم يا دودي».

صحت بينما أضع عن يدي السكين والشوكة جانبًا: «يا لسعادة هذا المرء! إنها أحب صنوف الطعام إلى قلب ترادلز».

قالت دورا: «حقًّا يا دودي، ها قد اشتريت جالونًا صغيرًا جميلًا منه، وقد قال لي البائع إنه طيب شهي. لكنني أخشى... أخشى أن يكون قد تغير بعض الشيء. إنه لا يبدو على حاله». وهنا هزت دورا رأسها، وقد تلألأ في عينيها وميض من الماس والدموع.

قلت: «إنها مفتوحة إلى نصفَي القوقعة لا غير، تناولي مقدمة اللحم فقط يا حبيبتي».

قالت دورا بينما تحاول أن تبدو جادة لكنها حزينة للغاية: «لكن هذا الشيء لا أستطيع إخراجه».

قال ترادلز، بينما يفحص الطبق في مرح: «هل تعلم يا كوبرفيلد؛ أتصور وفقًا لكلام دورا أنه محار كبير فاخر، لكنني أستنتج من مظهره أنه لم يُفتح مطلقًا».

لم ينفتح المحار قَطُّ؛ ولم تكن لدينا سكاكين خاصة للمحار – وإن كانت بحوزتنا فإننا لم نكن نستطيع استخدامها، لذلك اكتفينا بالنظر

إلى المحار ثم تناولنا لحم الضأن، أو أكلنا على الأقل ما شئنا منه من الجزء الناضج فيه، بعد أن مزجناه ببعض من القبار[1]. وإنني على قناعة بأنني لو تركت ترادلز لحريته، فإنه سيترك العنان لنفسه بالكامل فيأكل طبقًا من اللحم النيء كما الوحش، حتى يعبر عن مدى استمتاعه بالمأدبة. والحقيقة أنني لم أكن لأسمع عن مثل هذه التضحية على مذبح الصداقة، لذا فكرت في جلب ما كنا نحفظه من طبق اللحم المقدد بدلًا من ذلك، وقد وجدت شيئًا من لحم الخنزير المقدد البارد في خزانة المأكولات لحسن الحظ.

صارت زوجتي الصغيرة المسكينة على وشك الكدر حين تصورت أنني سأنزعج مما جرى، لكن حالتها قد تبدلت إلى بهجة حين أدركت أنني لست كذلك، وأن القلق الذي ساورني، سرعان ما تلاشى، فأمضينا أمسية سعيدة. جلست دورا وقد أسندت ذراعها إلى مقعدي، بينما تناولت أنا وترادلز كأسًا من نبيذ، فراحت تغتنم كل فرصة للهمس في أذني قائلة كم كان لطيفًا مني جدًّا أنني لم أغضب ولم أكن فتى قاسيًا أو غليظًا. أعدت لنا شايًا بعد وقت قصير، وقد كان جميلًا جدًّا أن أراها تعده، فكانت تبدو كمن ينشغل بمجموعة من أدوات الشاي الخاصة بالدمى، ولم أهتم كثيرًا بجودة ما أحتسيه. لعبت أنا وترادلز بعد ذلك، لعبة أو اثنتين بالأوراق، بينما غنت دورا وعزفت على الجيتار في الوقت نفسه. بدا لي كما لو أن توقي لمحبتها وزواجنا كان حلمًا رقيقًا، وأن

(١) عشبة تُستخدم حبوبها التي تشبه البازلاء، وهي ذات طعم لاذع ومالح، وتضاف إلى كثير من الأطباق.

ولعي لسماع صوتها لم ينتهِ منذ الليلة التي سمعته فيها لأول مرة.

غادر ترادلز، فعدت إلى قاعة الاستقبال بعد أن ودعته خارجًا. وضعت زوجتي كرسيها بالقرب من مقعدي، ثم جلست بجانبي وقالت: «إنني آسفة جدًّا. هل ستحاول تعليمي يا دودي؟».

أجبتها: «يجب أن أعلم نفسي أولًا يا دورا. إن حالي سيئة مثلكِ يا حبيبتي».

أجابتني: «آه، لكنك تستطيع أن تتعلم، فأنت رجل ذكي ولماح».

قلت: «كلام فارغ يا فأرة».

استأنفت زوجتي بعد صمت طويل: «أتمنى لو كان بإمكاني السفر إلى الريف لأمكث لمدة عام كامل مع أجنيس».

كانت يداها متشابكتين حول كتفي، وقد استقر ذقنها عليها، ثم ثبتت نظرات عينيها الزرقاوين نحو عيني في سكينة.

سألتها: «لماذا؟».

قالت دورا: «أتصور أنها ربما استطاعت تطويري، وأظن أنني ربما كنت لأتعلم منها الكثير».

«سيحدث كل شيء في أوانه يا حبيبتي. يجب أن تتذكري أن أجنيس ظلت تعتني بوالدها طوال هذه السنوات المنصرمة. كانت أجنيس، حتى طوال طفولتها، هي نفسها أجنيس التي نعرفها حتى الآن».

سألت دورا من دون أن تتحرك: «هل يمكن أن تناديني باسم أريدك أن تناديني به؟».

سألتها في ابتسامة: «ما هو؟».

قالت وهي تعبث بخصلة من شعرها للحظة: «إنه اسم غبي. الزوجة الطفلة».

سألت زوجتي الطفلة ضاحكًا عن سبب رغبتها في أن تُطلق على نفسها هذا الاسم. أجابت من دون أن تحرك ساكنًا، غير أنها تركت ذراعي تطوقها وجعلت عينيها الزرقاوين أقرب إليَّ، فقالت:

«لا أقصد، أيها الرجل السخيف، أن تناديني بهذا الاسم بدلًا من دورا. لا أقصد سوى أن تفكر بي بمثل هذه الطريقة. قل لنفسك عندما تغضب مني: «إنها ليست سوى زوجة طفلة»، عندما تشعر بخيبة أمل كبيرة، فلتقل: «كنت أعرف، منذ وقت طويل، أنها لن تسلك سوى مسلك الزوجة الطفلة»، عندما أخيب ظنك فيما يجب أن أكون عليه، وأقترف ما لا يمكنك أن تتصور اقترافه، فلتقل: «لم تزل زوجتي الطفلة الحمقاء تحبني»، وفي الواقع أنا أحبك».

لم آخذ حديثها على محمل الجد. لم تكن هي نفسها حتى هذه اللحظة، لتتأمل حالها بجدية. أما سجيتها الساذجة فما لبثت أن أشرقت وغمرتها سعادة جمة بما قلته لها في هذه اللحظة من أعماق قلبي، حتى علت الضحكة وجهها سريعًا لتلحق ببريق عينها اللامعة. صارت زوجتي بعدها تتصرف بطفولية في واقع الأمر، فتجلس على الأرض خارج البيت الصيني الذي ابتعناه، وتقرع كل الأجراس الصغيرة الواحد تلو الآخر، لمعاقبة جيب على السلوك السيئ الذي صار من طبعه

مؤخرًا، بينما يرقد جسد جيب في الداخل مخرجًا رأسه يرمقنا خلسة في كسل كأن هذا العقاب لا يضايقه.

كانت مناشدة دورا الأخيرة الجذابة قد أحدثت بداخلي عظيم الأثر، فإنني أعود بذاكرتي إلى ذلك الوقت الذي أكتب عنه، لأستحضر هذه الشخصية الساذجة التي أحببتها بشدة، فتتهيأ لي من بين ضباب وظلال الماضي، وترسل رأسها اللطيف نحوي مرة أخرى؛ ما زلت أستطيع البوح بأن مناشدتها الصغيرة تلك دائمًا ما تجول بخلدي. ربما لم أسلك مسلكًا ملائمًا ساعتها، فقد كنت صغيرًا وعديم الخبرة. لكني لم أصم أذني عن فحوى هذه المناشدة البريئة.

أخبرتني دورا، بعد فترة وجيزة، أنها ستصبح ربة منزل رائعة. مضت تُلمع الطاولات الصغيرة، وقلمت القلم الرصاص لي، واشترت دفترًا ضخمًا للحسابات، وخاطت بالإبرة في عناية جميع صفحات كتاب الطبخ التي مزقها جيب فجمعتها. لقد قامت بمحاولة ضئيلة يائسة «لتصير نافعة»، على حد وصفها، إلا أن الأرقام كانت عضالًا، تأبى أن تتضافر في معادلة. دونت رقمين أو ثلاثة أرقام في دفتر الحسابات من دون أن تتحصل على حاصل جمع صحيح، وجاء جيب ليمشي فوق الصفحة ويهز ذيله ملطخًا الدفتر بأكمله. صارت إصبع يدها اليمنى الوسطى، تلك الصغيرة غارقة في الحبر، وأتصور أنها المحاولة الوحيدة التي تطرقت إليها.

أصبحت في بعض الأحيان أقضي بعض الأمسيات منشغلًا بعملي على الرغم من وجودي في المنزل - لأنني قد كتبت شيئًا لا بأس به

إلى الآن، وصرت معروفًا ككاتب في نطاق ضيق - كنت أنحي عني قلمي جانبًا، ثم أراقب طفلتي في محاولاتها لأن تصبح نافعة. ستخرج في بادئ الأمر دفتر الحسابات الضخم، ثم تضعه فوق الطاولة مصدرة تنهيدة عميقة. ستفتحه على الموضع الذي لطخه جيب وقد صار غير مقروء في الليلة الماضية، ثم تنادي على جيب ليشهد جريمته النكراء. قد يؤول الأمر لصالح جيب، فربما لا تعود عواقبه إلا ببعض الحبر فوق أنفه كنوع من العقوبة، ستطلب بعد ذلك من جيب الاستلقاء على الطاولة في الحال، «مثل الأسد» - وقد كان استلقاؤه هذا إحدى حيله، لا أستطيع أن أقول إن الشبه فيها بالأسد رائع ومطابق - لكننا لو أخذناها بروح من الدعابة واعتبارًا لطاعته، فإنه يستطيع تأديتها. ستمسك دورا بالقلم بعدئذ وتبدأ في الكتابة ثم ستجد فيه حبرًا هينًا، ثم تأخذ قلمًا آخر وتبدأ في الكتابة، فتجد أنه ينثر مداده فوق الورقة، ثم تأخذ قلمًا غيرهما وتبدأ في الكتابة، ثم تسمع صريرًا خفيضًا له فتقول: «آه، يا له من قلم مزعج، وسوف يزعج دودي»، ثم تتخلى عنه وتكف عن المحاولة، وتنحي الحسابات جانبًا بعد أن تتظاهر بأنها قد هزمت الأسد به.

أما إذا لفتها حالة ذهنية شديدة الهدوء والجدية، فإنها تجلس مع دفتر الحسابات وسلة صغيرة تضع فيها الفواتير وقوائم المشتريات الأخرى، والتي تبدو أشبه بأوراق ملفوفة أكثر من أي شيء آخر، فتسعى إلى الحصول على بعض النتائج منها. تعد مقارنة بالغة وتدقق أحدها مع الآخر، فتدون أرقامًا على لوحة الكتابة، ثم تمسحها، ثم تقوم بالعد على كل أصابع يدها اليسرى مرارًا وتكرارًا، وتكرر العد من الخلف للأمام،

ستشعر بعد ذلك بالضيق والإحباط، فتبدو بائسة للغاية. لقد خامرني ألم بمجرد أن رأيت وجهها اللامع مغطى بما يشبه الغيوم - أكان كل هذا لأجلي! - فأتوجه إليها بهدوء ثم أقول:

«ما الأمر يا دورا؟».

كانت دورا تتطلع إليَّ يائسة، فتجيب قائلة: «لن أحصل على نتائج صحيحة. إنها أشياء توجع رأسي. ولن يجدي ذلك نفعًا».

سأجيب قائلًا: «فلنحاول الآن معًا. دعيني أريكِ شيئًا يا دورا».

ثم أبدأ عرضًا عمليًّا ستوليه دورا اهتمامًا بالغًا، ربما لمدة خمس دقائق، ثم تبدأ أعراض التعب الشديد تلوح عليها، ثم تحاول تخفيف وطأة الأمر بالعبث بشعري، أو ستجرب تأثيرات وجهي بينما تقلب ياقة قميصي. إذا لم أستجب لتأثير هذه الدعابة، وأصررت على استكمال ما يدور، فسينتابها فزع مريع وستغتم، وساعتها ستزداد ارتباكًا شيئًا فشيئًا، ولذلك فإنني أتذكر عفويتها المبهجة عندما انجذبت نحوها لأول مرة، وأنها زوجتي الطفلة، وأن عتابها سيعود عليَّ باللوم، فأضع القلم الرصاص جانبًا وأطلب منها أن تتناول الجيتار.

ينتظرني قدر كبير من العمل لأقوم به، وتراودني كثير من المخاوف، لكنها الأسباب ذاتها التي جعلتني أحتفظ بهواجسي لنفسي. لست متأكدًا الآن، إن كانت أفعالي صائبة أم لا، لكنني ما سلكت هذا النحو إلا من أجل زوجتي الطفلة. أفتش في صدري، وأمسك بأسراره إن عرفتها، فأدلي بها من دون أي تحفظ على هذه الأوراق. أدون خسائري القديمة التعسة أو

فقداني شيئًا ما مضى، كما أدرك مكانها في قلبي، من دون أن يسعني التعبير عن مرارة عيشي. كنت أسير وحدي في طقس جيد بينما أتذكر أيام الصيف عندما عبأ الهواء سحر صبياني، شعرت أنني قد فقدت شيئًا من أحلامي من دون تحقيقه، لكنني أدركت أنها لم تكن ومضات ناعمة من ماضٍ بعيد، إذ لا يمكن لأي شيء أن يلقي بظلاله على الوقت الحاضر. شعرت في بعض الأحيان، أنني كنت أتمنى، لبعض من الوقت فحسب، لو كانت زوجتي مستشارة لأمري، لو أن لديها مزيدًا من الفهم والإدراك، لشدت من أزري وحسنت من حالي، لو أنني مُنحت ما يملأ هذا الفراغ الذي بدا داخلي في مكان ما، لكنني شعرت كما لو أن شيئًا يحول دون استكمال سعادتي، فلم يكن مقدرًا أن أحوزها قَطُّ، ولم تكن من مصيري الكائن.

كنت زوجًا طفلًا لسنوات بالنظر إلى عمري، فلم أدرك أي مؤثرات طيبة أو تجارب أخرى غير تلك المدونة فوق هذه الأوراق. إن كنت قد اقترفت خطأً، وقد اقترفت الكثير بالفعل، فقد أخطأت بدافع مضلل من الحب، أو لحاجتي إلى الحكمة والنصح. إنني أدون الحقيقة كما هي تمامًا إذ لن ينفعني تجنبها الآن.

هكذا أخذت على عاتقي متاعب واهتمامات حياتنا، ولم يكن لي معين فيها. عشنا كثيرًا في فوضى كما كانت حالنا من قبل على الرغم من المحاولات غير المثمرة، لكنني اعتدت الأمر، وقد صرت سعيدًا الآن بعد أن أصبح من النادر أن ألحظ انزعاجًا ظاهرًا على دورا. صارت مشرقة ومبتهجة على طريقتها الطفولية القديمة، أحبتني كثيرًا، وقد باتت سعيدة بلهوها السالف المعهود.

دارت في بعض الليالي مداولات برلمانية ثقيلة - أعني من حيث طولها وليس جودتها، لأنها لم تكن لتحل شيئًا في نهاية المطاف في كثير من الأحيان - فإذا عدت إلى المنزل متأخرًا، أجد دورا ساهرة تنتظر عودتي، فلا تستريح أبدًا إلا حين تسمع خطى أقدامي، فتهبط السلم كعادتها دائمًا لاستقبالي. ظلت بعض أمسياتي فارغة من دون أن أنشغل بعملي، الذي كنت أبذل فيه نفسي مضحيًا بالكثير ومستشعرًا الألم، كنت ساعتها أنخرط في الكتابة في المنزل، بينما تجلس دورا، مهما تأخر الوقت، في سكينة على مقربة مني يلفها صمت مطبق، لدرجة أنني كثيرًا ما أحسبها قد راحت في سبات، فإذا بعيني في كل مرة أرفع فيها رأسي إليها، تبصر عينيها الزرقاوين تنظران إليَّ في اهتمام هادئ وصفته من قبل.

كنت أنهي كتابتي ذات ليلة، بينما قابلت عيني دورا وهي تقول: «آه، يا لك من فتى مُتعَب!».

قلت: «يا لكِ من فتاة منهكة! إنه أمر يفوق احتمالكِ. يجب أن تأوي إلى فراشكِ مرة أخرى يا حبيبتي. لقد تأخر بكِ الوقت».

ناشدتني دورا بينما تقف بجانبي قائلة: «لا، لا ترسلني إلى النوم، أتوسل إليك، لا تفعل ذلك».

راحت دورا تنتحب معانقة رقبتي، بينما أقول: «دورا، لست بأفضل حال يا عزيزتي، لست سعيدًا».

قالت دورا: «حسنًا، لكن قل لي إنك ستتركني بجوارك، أراقبك بينما تكتب».

أجبتها: «لمَ؟ يا له من مشهد مرهق لمثل هذه الأعين البراقة في منتصف الليل».

عادت دورا ضاحكة تقول: «هل ما زالت مشرقة على الرغم من الإرهاق؟ إنني سعيدة جدًّا لأنها لم تزل براقة».

قلت: «يا لكِ من مغرورة صغيرة».

لكنها لم تكن متفاخرة، بل انتابتها سعادة بريئة من إعجابي بها. كنت أعرف ذلك جيدًا، قبل أن تخبرني به.

استطردت دورا: «إذا كنت تراها بهذا الجمال، فلتقل إن عليَّ المكوث دائمًا، لأراقبك بينما تكتب. هل تعتقد أنها فاتنة؟».

«فاتنة جدًّا».

«إذن دعني أمكث دائمًا وأراقبك بينما تكتب».

«أخشى أن هذا لن يحسن من بريقها يا دورا».

«نعم، لأنك، أيها الفتى الذكي، لن تنساني حينها، بينما تصبح معبأ بهذه الخيالات الساكنة».

ثم تساءلت دورا، بينما تختلس النظر من فوق كتفي ناظرة نحو وجهي: «هل تمانع إذا قلت شيئًا سخيفًا للغاية؟ - أكثر من المعتاد؟».

استفسرت قائلًا: «وما الشيء العجيب الذي تريدين قوله؟».

قالت دورا: «من فضلك دعني أمسك الأقلام. أريد أن أفعل شيئًا خلال تلك الساعات العديدة التي تعمل فيها مُجِدًّا. هل تسمح لي بالإمساك بالأقلام؟».

إن ذكرى فرحتها المليحة عندما أجبت بنعم تجلب الدموع إلى عيني. أما المرة التالية التي جلست فيها للكتابة، وما تلاها من مرات في انتظام، فقد كانت تجلس فيها في مكانها القديم، مع مجموعة أقلام احتياطية إلى جانبها. إن انتصارها في هذا الارتباط بعملي، وسرورها كلما أردت قلمًا جديدًا - وهو ما كنت أتظاهر غالبًا بفعله - قد أوحى إليَّ بطريقة جديدة لإرضاء زوجتي الطفلة. كنت أحيانًا أتظاهر بحاجتي إلى نسخ صفحة أو اثنتين من مخطوطة كتابتي، ومن ثَم تتباهى دورا متألقة بما أقترحه عليها من عمل. كانت الاستعدادات التي أعدتها لهذا العمل رائعة، فارتدت المآزر، واستعارت المرايل من المطبخ لتجنب الحبر، وأتذكر كم استغرقت من وقت، والمرات التي لا حصر لها التي توقفت فيها عن العمل لتضحك مع جيب كما لو كان يفهم كل ما يدور، واقتناعها بأن عملها لم يكن ليكتمل إلا إذا وقعت اسمها في النهاية، ثم الطريقة التي تقدمه بها لي، كما لو أنها نسخة مدرسية، ثم إشادتي بها بعد ذلك، فما كان منها إلا أن طوقت رقبتي بذراعيها... لامست هذه الذكريات قلبيَّ وإن كانت تبدو لغيري من الناس بسيطة لا تلامس القلوب.

استحوذت دورا على المفاتيح بعد ذلك بفترة وجيزة، وذهبت لجولة حول المنزل مع مجموعة المفاتيح كلها في حزمة كالعنقود،

ووضعتها في سلسلة صغيرة مربوطة بخصرها النحيل. كانت نادرًا ما تجد بوابات الأماكن التي تقصدها مقفلة، فلا تجد للمفاتيح فائدة باستثناء أنها قد تصبح لعبة لجيب - أما دورا فكانت مسرورة بامتلاكها، وهذا ما أسعدني. كانت في غاية الامتنان والرضا بعد أن صارت موهومة بأنها تدير البيت بما يحدث أثرًا كبيرًا فيه، وكانت فرحتها لا تقدر بثمن كما لو أننا نشيد بيتًا كما يشيده الأطفال في ألعابهم على سبيل المزاح.

هكذا واصلنا العيش. كانت دورا أقل ودًّا لعمتي مني. أخبرتها كثيرًا عن خشيتها من الوقت الذي تصبح فيه «شيئًا قديمًا». لم أرَ عمتي مطلقًا متوددة إلى أي شخص سواها. لقد توددت إلى جيب، على الرغم من أن جيب لم يتجاوب معها؛ استمعت يومًا بعد يوم إلى الجيتار، على الرغم من أنني أعرف أنها لا تتذوق الموسيقى. لم يهاجمها العجز قَطُّ، إلا إذا كانت تبعاته قاسية، فقطعت المسافات الشاسعة سيرًا على الأقدام لتشتري أي تفاهات، لتفاجئ دورا بشيء قد اكتشفت أنها تريده؛ ولم تكن لتصل إلى الحديقة فأتفقدتها من غرفتي، فإذا بها تنادي عند أسفل الدرج، بصوت مبتهج يرن في جنبات المنزل سائلة:

«أين زهرتنا الصغيرة؟».





# الفصل الخامس والأربعون

## السيد دك يحقق توقعات عمتي

كان قد مر بعض الوقت، منذ أن غادرت الدكتور، لكني كنت أعيش في حيه، فأقابله كثيرًا، وقد ذهبنا جميعنا إلى منزله في مناسبتين أو ثلاث مناسبات لتناول العشاء أو احتساء الشاي. كانت «الجندي العجوز» تحتل مكانها المعتاد تحت سقف بيته، ظلت كما هي تمامًا دائمًا وأبدًا، وبقيت الفراشات الخالدة نفسها تحوم فوق قبعتها.

كانت السيدة ماركلهام كغيرها من الأمهات اللواتي عرفتهن في حياتي؛ تفوق ابنتها ولعًا بصنوف البهجة. لقد احتاجت إلى قدر كبير من التسلية، فتظاهرت، مثل جندي قديم يستشير ميوله الخاصة، بأن تكرس نفسها لابنتها، ولا عجب من رغبة الدكتور في الترفيه عن آني، وقد كان أمرًا مقبولًا خاصة لمثل هذا الوالد المثالي؛ والذي أعرب عن موافقته بلا شروط أو قيود.

لا يخامرني أدنى شك في حقيقة الأمر؛ أنها لاكت جرح الدكتور من دون معرفة الأمر. إنها لم تقصد شيئًا سوى اتباع درب الرعونة والأنانية، التي طالما لم تخلُ منها السنوات الماضية عن كاملها، أظن أنها أكدت له خوفه من أنه كان قيدًا على زوجته الشابة، وأنه لم يقع بينهما انسجام عاطفي، بينما تشيد بشدة بتصميمه لتخفيف عبء حياتها.

قالت له ذات يوم بينما كنتُ حاضرًا بينهما: «يا عزيزي، إنك تعلم بلا أدنى شك أن إقامة آني محتجزة وحيدة دومًا هنا يبعث على الضجر».

أومأ الدكتور برأسه الطيب موافقًا. قالت السيدة ماركلهام بينما تتباهى في زهو: «لو أنها بلغت سن والدتها، لاختلف الأمر. قد تضعني أنا في سجن، أو وسط جمع لطيف ولين، ولا أهتم أبدًا بالخروج. لكنني لست آني، كما تعلم، وآني ليست والدتها».

أجاب الدكتور: «بالتأكيد، بالتأكيد».

استطردت: «إنك أفضل مخلوق...».

أظهر الدكتور نوعًا من الاستنكار على هذا الوصف، لكنها أكملت قائلة: «لا، أستميحك عذرًا، يجب أن أقول أمامك ما أقوله خلف ظهرك دومًا، إنك أفضل المخلوقات، ولكنك بالطبع لا تقوم بـ... إنك لا تفعل هذا الآن، أليس كذلك؟ هل تجاري آني في الضلالات والأوهام نفسها؟».

قال الدكتور في نبرة حزينة: «لا».

ردت الجندي العجوز قائلة: «لا، بالطبع لا. خذ قاموسك، على

سبيل المثال. يا للقاموس من عمل مفيد! يا له من عمل ضروري! معاني الكلمات! لولا دكتور جونسون[1]، أو أي شخص على شاكلته، ربما مكثنا حتى هذه اللحظة نطلق على مكواة إيطالية اسم «سرير». لكننا لا نتوقع أن يثير قاموس - خاصة عند إعداده - اهتمام آني، أليس كذلك؟».

هز الدكتور رأسه موافقًا.

قالت السيدة ماركلهام، وهي تربت على كتفه في زهوها المطلق: «وهذا هو السبب في أنني أوافق بشدة على تفكيرك. إنه يظهر أنك لا تتوقع، كما يتوقع العديد من كبار السن، أن تتكئ رؤوس كبار السن على أكتاف الصغار. لقد درست شخصية آني، وإنك لتفهمها. وهذا ما أجده ساحرًا جدًّا».

حسبت أنه قد لاح على وجه دكتور سترونج، ذاك الوجه الهادئ والصبور، بعضًا من ألم، تحت وطأة هذه الإطراءات والمدائح.

راحت الجندي العجوز تربت على كتفه عدة مرات قائلة: «ومن ثَم يا عزيزي الدكتور، فإن لك أن تأمرني بفعل أي شيء، في جميع الأوقات والفصول. فلتعرف الآن أنني في خدمتك تمامًا. إنني مستعدة للذهاب مع آني إلى دور الأوبرا، وإلى الحفلات الموسيقية والمعارض، بل وإلى مختلف الأماكن، ولن تجدني أبدًا متعبة. إنه واجبي يا عزيزي الدكتور قبل أي اعتبار في هذا الكون».

---

(١) قاموس للغة الإنجليزية من إعداد صامويل جونسون، وقد حمل اسم صاحبه، وهو أحد أكثر القواميس الإنجليزية تأثيرًا إذ يُعد أول قاموس كامل للغة.

لقد أبرت بوعدها، فكانت واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين يمكنهم تحمل قدر كبير من اللهو، ولم تتوانَ قَطُّ عن مثابرتها والدأب عليه. كانت مستقرة في مجلسها المعتاد فوق أكثر مقاعد البيت راحة ولينًا، تقرأ مرتدية نظاراتها لساعتين في اليوم، وكانت نادرًا ما تمسك بصحيفة لتقرأها من دون أن تجد بها شيئًا ترفيهيًّا من المؤكد أن آني سترغب في مشاهدته. كانت آني تحاول عبثًا أن تحتج بقولها إنها سئمت مثل هذه الأشياء، إذ كان رد والدتها دائمًا هو: «أما الآن يا عزيزتي آني، فإنني على يقين من أنكِ أفضل خبرة وأوسع دراية، لكن يجب أن أخبركِ يا حبيبتي أنكِ لا تقابلين لطف دكتور سترونج بما يجب من امتنان».

قيلت هذه العبارة عادة في حضور الدكتور، وقد بدا لي أنه يشكل حافزًا أساسيًّا آنيًّا لسحب اعتراضاتها إن انتوت إظهار أي اعتراض، لكنها استسلمت بشكل عام لوالدتها، وذهبت إلى حيث تريد الجندي العجوز.

لم يكن السيد مالدون يرافقهما إلا فيما ندر. وجهت ذات مرة دعوة إلى عمتي ودورا لمرافقتهما، وقد قبلتا الدعوة، ودعوتا في بعض الأحيان دورا فقط، حتى جاء وقت كنت أشعر فيه بقلق من ذهابها معهما، لكن التفكير فيما مر في تلك الليلة في مكتب الدكتور، قد بدل مخاوفي وبددها، وظننت أن الدكتور كان على حق، ولم تراودني شكوك في وقوع أي سوء.

كانت عمتي تفرك أنفها بين الحين والآخر حين يتصادف وجودها بمفردها معي، بينما تصرح بأنها لا تستطيع إدراك الحقيقة كاملة. تمنت

لو كانوا أكثر سعادة، ولم تتصور أن صديقتنا العسكرية -هكذا كانت تنادى الجندي العجوز- قد أصلحت الأمر على الإطلاق. كما أعربت عمتي عن رأيها قائلة: «إذا قطعت صديقتنا العسكرية الفراشات القائمة فوق قبعتها، ثم أعطتها لمنظفي المداخن في يوم من أيام مايو، لكان الأمر بداية لشيء معقول لها».

لم تعطِ عمتي ثقتها المطلقة إلا إلى السيد دك. قالت إنه من الواضح أن هذا الرجل يحمل فكرة ما في رأسه، وأنه يكفيه أن يرسخ أساسها لمرة واحدة فقط، فهنا تكمن الصعوبة الكبيرة التي يواجهها، وإن لم يفعل فسوف يجعل من نفسه نموذجًا لا يضاهى.

أخذ السيد دك يسلك الدرب نفسه عبر تصوراته السالفة تمامًا بشأن الدكتور والسيدة سترونج، من دون أن يعبأ بمثل توقعات عمتي تلك. يبدو أنه لا يتقدم ولا يتأخر، كما لو أنه استقر في مؤسسته الأصيلة، ثابتًا كما البناء الشامخ، وها أنا أعترف بأن إيماني بثباته الدائم، لم يكن ليبعد بكثير عن كونه بناءً شامخًا.

كان من المفارقة أنه في إحدى الليالي، وبعد أن مضى على زواجي عدة أشهر، أطل السيد دك برأسه في الردهة، بينما كنت جالسًا منكبًا على الكتابة وحدي، إذ خرجت دورا مع عمتي لاحتساء الشاي مع عمتيها العصفورتين الصغيرتين، فقال مع سعال شديد:

«أخشى أنك لا تستطيع أن تتحدث معي يا تروتوود من دون أن أتسبب في إزعاجك».

أجبته: «كلا يا سيد دك، تفضل بالدخول».

أسند السيد دك إصبعه إلى جانب أنفه بعد أن صافحني، ثم قال: «يا تروتوود، قبل أن أجلس، أود أن أبدي ملاحظة. هل تعرف عمتك؟».

أجبته قائلًا: «قليلًا».

«إنها أروع امرأة في العالم يا سيدي».

وما إن بث السيد دك هذه الرسالة التي أطلقها من أعماقه كما لو أنها رصاصة تخترقه، حتى جلس في هيبة أكبر من تلك التي اعتدتها، ثم رمقني بنظراته قائلًا: «أما الآن يا بني فسأطرح عليك سؤالًا».

قلت: «تفضل، سلني ما تشاء».

سأل السيد دك بينما يطوي ذراعيه: «كيف تتصورني يا سيدي؟».

أجبته قائلًا: «إنك صديق قديم عزيز».

رد السيد دك ضاحكًا، ثم مد يده في سعادة بالغة لمصافحتي قائلًا: «شكرًا لك يا تروتوود»، ثم استأنف كلامه في جدية: «إنني أعني يا بني... ما رأيك فيَّ من هذه الناحية؟»، ثم راح يربت على جبهته.

كنت في حيرة من أمري كيف أجيب، لكنه ساعدني بكلمة واحدة.

قال السيد دك: «هل أنا ضعيف؟».

أجبته متشككًا في قولي: «حسنًا، على الأرجح أنك كذلك».

صرخ السيد دك وقد بدا مفتونًا بردِّي قائلًا: «بالضبط، هذا هو الواقع يا تروتوود، عندما تنال بعض المشكلات من رأسك -بالطبع

تعرف من- فلتضعها في المكان الذي تعلمه... لقد كان...»، راح السيد دك يدير يديه في سرعة كبيرة حول بعضهما لمرات كثيرة متتالية، ثم اصطدم بهما، ودحرجهما فوق بعضهما في تعبير عن الارتباك، وأخذ يكمل قائلًا: «لقد كان شيء من هذا القبيل قد حدث لي بطريقة ما. آهٍ».

أومأت إليه برأسي، وأومأ هو إليَّ مرة أخرى.

قال السيد دك بعد أن أخفض صوته إلى حد الهمس: «باختصار يا بني، إنني بسيط».

كنت مهيأ للوصول إلى هذا الاستنتاج، لكنه أوقفني وقاطعني قائلًا: «نعم هذا أنا، إنها تتظاهر بأنني لست كذلك، ولن تسمعها تصرح بالأمر، لكنها حقيقتي. إنني أدرك صفاتي، ولولا أنها وقفت بجانبي موقف الصديق يا سيدي، لما كنت أستطيع أن أحيا إلا في سجن أصم وفي حياة كئيبة طوال هذه السنوات العديدة. لكنني سأعولها. إنني لا أنفق النقود التي أتقاضاها على النسخ، بل أضعها في صندوق، كما أنني أعددت وصية وسأترك كل شيء لها لتصير غنية وسامية ونبيلة».

أخرج السيد دك منديلًا من جيبه وأخذ يمسح عينيه، ثم طواه في عناية فائقة، وضغطه بسلاسة بين يديه وأدخله في جيبه، وبدا كما لو أنه قد أزاح عمتي معه.

قال السيد دك: «إنك الآن رجل مثقف يا تروتوود، وعالم بارع، كما أنك تعرف مكانة الرجل المتعلم فتقدر الدكتور هذا الرجل العظيم، وتعرف أي شرف قدمه لي واختصني به دومًا، إذ هو ليس بالمتكبر بل إنه متواضع مستكين. إنه وديع حتى مع دك المسكين البسيط الذي لا

يعرف شيئًا. لقد أعليت من اسمه حين دونته على قصاصة من أوراق الطائرة الورقية، وقد راحت تحلق بخيطها الطويل وتعلو في السماء بين الطيور والبلابل. لقد كانت الطائرة الورقية سعيدة باستقبال اسمه يا سيدي، وأشرقت السماء به».

لقد أسعدته بقولي، بكل صدق، إن الدكتور يستحق منا أجل احترام وأسمى تقدير.

قال السيد دك: «أما زوجته الجميلة فنجمة، إنها نجمة ساطعة، وقد رأيتها تتألق يا سيدي. لكن...»، هنا قرَّب مقعده، ثم وضع إحدى يدي على ركبتي قائلًا: «ثمة سحابة يا سيدي، ثمة غيوم».

أجبت على التعاطف الذي أبداه وجهه بأن بادلته التعبير نفسه مرتسمًا على وجهي، ثم رحت أهز رأسي.

قال السيد دك: «وأي غيوم؟».

نظر في وجهي بلهفة، وكان يبدو حريصًا جدًّا على فهم الأمر، حتى إنني بذلت جهدًا مضنيًا للإجابة عليه في رفق وبصورة واضحة، كما لو أنني قد رحت أشرح شيئًا لطفل فقلت: «يحول بينهما فارق مؤسف، وإنه لمن الأسباب التعيسة للتباعد. إنه سبب خفي قد لا يتصل اتصالًا وثيقًا بفكرة الفارق بين عمريهما، وربما هو خلاف نشأ بغير سبب تقريبًا».

توقف السيد دك بعدما أنهيت حديثي، وكان قد عبر عن فهم كل جملة قلتها بإيماءة من رأسه. جلس متأملًا وقد ثبت عينيه على وجهي، ووضع يده فوق ركبتي.

قال بعد فترة: «هل الدكتور غاضب منها يا تروتوود؟».

«لا، إنه مخلص لها».

قال السيد دك: «إذن، لقد فهمت الأمر يا بني».

ساوره ابتهاج مفاجئ جعله يضربني على ركبتي فرحًا، ثم انحنى إلى الخلف مسندًا ظهره إلى كرسيه، وقد ارتفع حاجباه حتى صارا معلقين، مما جعلني أفكر في أن به جنونًا أكثر مما ظننت في أي وقت مضى. عاد وجهه فجأة إلى جده مرة أخرى، ثم انحنى إلى الأمام كما كان من قبل وأقبل عليَّ بعد أن أخرج بكل وقار منديله من جيبه، كما لو أن المنديل يمثل عمتي حقًّا، ثم قال: «إنها أروع امرأة في العالم يا تروتوود. لماذا لم تفعل شيئًا لتصحيح الأمور؟».

أجبته: «إنه موضوع حساس للغاية ويصعب التدخل فيه».

قال السيد دك بينما يلمسني بإصبعه: «أيها المثقف البارع، لماذا لم يفعل شيئًا؟».

عدت أردد: «للسبب نفسه».

قال السيد دك: «لقد فهمت السر إذن يا بني»، وقف بعدها أمامي في هيئة أكثر بهجة من ذي قبل، أومأ برأسه، ثم ضرب صدره بنفسه، وكرر فعلته مرارًا، حتى يظن المرء أنه كاد أن ينزع أنفاسه ورمحه مع ضربه لجسده.

قال السيد دك: «إنه رجل مسكين به شيء من جنون، إنه رجل أحمق يا سيدي، ضعيف التفكير، يفضل رفقاءه على نفسه، كما تعلم». ضرب

نفسه مرة أخرى، ثم أكمل: «يسلك بأفعاله ما لا يستطيع أي شخص رائع فعله. سأقرب بينهما يا بني. سأحاول ولن يلوماني، ولن يعترضا على شخصي. لن يمانعا ما سأفعله وإن كان خطأ. إنني لم أزل السيد دك. ومن يمانع دك؟ لا أحد يعرقل دك! واو!». زفر نفَسًا طفيفًا مُزدَرى، كما لو أنه ينفخ جسده ثم يطلقه بعيدًا منفجرًا في الفضاء.

لقد كان من حسن الحظ أنه واصل حتى الآن هذا اللغز، لأننا قد سمعنا الحافلة تتوقف عند بوابة الحديقة الصغيرة، وقد جلبت عمتي ودورا إلى المنزل.

راح يهمس قائلًا: «لا تنبس بكلمة يا بني. اترك كل اللوم على دك - دك بسيط - دك مجنون. لقد كنت أنكر يا سيدي أنني فهمت السر منذ وقت طويل، أما الآن فقد تأكدت. إنني متأكد من أنني قد فهمت ما قلته لي. حسنًا». لم يتفوه السيد دك بكلمة أخرى عن هذا الموضوع، لكنه اقتضب حديثه عن نفسه لمدة نصف ساعة تالية (في إزعاج كبير لعقل عمتي)، حتى يؤكد لي التزامه بالسرية من دون مساس بها.

دهشت لعدم سماعي عن الأمر لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع تالية، على الرغم من أنني كنت مهتمًا أشد ما يكون لمعرفة نتيجة مساعيه التي توسمت بها بارقة أمل غريبة من فطرته الطيبة تجلت من الخاتمة التي وصل إليها، ولست أقول شيئًا هنا عن الشعور الجيد نحوه، فقد أظهر دائمًا ما يؤيد هذا الأمر. بدأت أخيرًا أتصور أن عقله في حالة من الخلخلة، فنسي ما انتوى فعله أو تخلى عنه تمامًا.

مرت إحدى الأمسيات اللطيفة، حينها لم تكن دورا تميل إلى

الخروج، مما جعلني أنا وعمتي نذهب إلى منزل الدكتور. كان الخريف قد حلَّ، ولم تكن ثمة نقاشات تفسد أجواء المساء المنعشة، وأتذكر كيف كانت رائحة أوراق الشجر تشبه رائحة حديقة بيتنا القديم في بلندرستون ونحن ندوسها بأقدامنا، وكيف بدت مشاعري القديمة البائسة تمر أمامي كأنها تهب مع زفرات الريح الصاخبة.

حل الشفق مع وصولنا إلى المنزل، وكانت السيدة سترونج قد خرجت لتوِّها من الحديقة، بينما ظل السيد دك مشغولًا بسكينه يعمل على تهذيب بعض الأغصان لمساعدة البستاني في عمله. انخرط الدكتور بالحديث مع شخص ما في مكتبه، ولكن السيدة سترونج قالت إن الزائر سينصرف مباشرة، ومن ثَم توسلت إلينا أن نبقى لنقابله، واصطحبتنا إلى حجرة الاستقبال، وجلسنا بجوار النافذة المظلمة، ولم يستدعِ الأمر إظهار أي نوع من التكلف لزيارة الأصدقاء والجيران القدامى مثلنا.

لم تمر سوى دقائق معدودة على جلوسنا، حتى جاءت السيدة ماركلهام، التي عادة ما تحاول أن تُحدث ضجة حول شيء ما. حلَّت باهتمامها الزائد والمألوف بالتفاصيل، وكانت تحمل جريدة في يدها، فتحدثت لاهثة وقالت: «يا إلهي، يا آني، لماذا لم تخبريني أن هناك رجلًا في المكتب!».

أجابت في هدوء: «آه يا أمي العزيزة. كيف لي أن أعرف أنكِ تريدين إخبارك بالأمر؟».

قالت السيدة ماركلهام بينما تندس جالسة على الأريكة: «أريد معرفة كل الأخبار، لم أصل إلى مثل هذا المنعطف في حياتي بأسرها».

سألت آني: «هل توجهتِ إلى المكتب إذن يا ماما؟».

عاودت حديثها بنبرة قاطعة قائلة: «هل تسألين إن كنت قد ذهبت إلى المكتب يا عزيزتي؟ لقد ذهبت إليه بالفعل، وصادفت هذا المخلوق الودود - لو تشعرون بما يراودني يا آنسة تروتوود ويا ديفيد حين وجدته... إنه يكتب وصيته».

ما إن سمعت ابنتها هذا الكلام، حتى أدارت عينها سريعًا نحو النافذة.

نشرت السيدة ماركلهام الجريدة على حجرها كما لو أنها غطاء مائدة، ثم ألقت يدها عليها، واستطردت قائلة: «إنه يدون وصيته يا عزيزتي آني، إنها أمنيته الأخيرة فيما يريده. يا لبصيرة هذا الرجل ومحبته الغالية! يجب أن أخبركِ كيف كان ذلك. لا بد حقًّا أن أخبركِ، إنصافًا لحق هذا الرجل المحبوب -لأنه ليس أقل من أن يكون عزيزًا محبوبًا- عليَّ إخباركِ كيف صارت الأمور. لعلكِ تعرفين يا آنسة تروتوود أنه لا تتوافر شمعة تضاء في هذا المنزل أبدًا، إلا لتكون عين المرء في وسط رأسه بكل معنى الكلمة، فينتبه إلى قراءة كل ورقة يبصرها. وما من مقعد في هذا المنزل يمكن أن يجلس عليه إنسان ليقرأ هذه الورقة، باستثناء كرسي وحيد في المكتب، وهكذا دفعتني هذه الظروف إلى المكتب، حيث أبصرت ضوءًا، ففتحت الباب، ووجدت الدكتور العزيز بصحبة رجلين من مهنته نفسها، من الواضح أن لهما صلة بالعمل بالقانون. كان ثلاثتهم واقفين حول الطاولة، بينما يلوح الدكتور ممسكًا بقلمه المفضل في يده. وسمعته يقول: «إن الموقف يعبر ببساطة ووضوح...». يا

حبيبتي آني، أرجو أن تنتبهي إلى سماع هذه الكلمات ذاتها حين قال: «إن الموقف ببساطة ووضوح يعبر أيها السادة عن الثقة التي أكنها للسيدة سترونج، ويمنحها كل شيء من دون قيد أو شرط»، أجاب أحد المهنيين قائلًا: «نعم يعطيها كل شيء من دون قيد أو شرط». قلت حينها بمشاعر الأم الفطرية: «يا إلهي، يا رب». وسقطت فوق عتبة الباب، ثم تسللت خارجة من الممر الخلفي الصغير في اتجاه المخزن».

فتحت السيدة سترونج النوافذ، وخرجت إلى الشرفة حيث وقفت متكئة إلى عمود.

أما السيدة ماركلهام، فقد راحت تتبعها بنظراتها بشكل آلي ثم قالت: «أما الآن أليس الأمر منعشًا يا آنسة تروتوود، وأنت يا ديفيد، حيث يعثر المرء على رجل في عمر الدكتور سترونج بمثل هذه القوة العقلية ليقدم على هذا الفعل؟ إنه يدلل على نظرتي الصائبة، فلقد قلت لآني، حينما قام الدكتور سترونج بزيارة محببة جدًّا إلى قلبي، وقد جعلها مكاشفة لمشاعره وخطب فيها آني، فقلت لها: «يا عزيزتي، إنني أرى أنه لا مجال للشك في شيء، أقصد من ناحية توفير تأمين لكِ. إن دكتور سترونج سيفعل أكثر مما قد يلزم نفسه به»».

دق الجرس بعدها، وسمعنا صوت أقدام الزائرين، وهما في طريقهما للخروج.

قالت الجندي العجوز بعد الإنصات لها: «لقد انتهى كل شيء بلا شك. إن الرجل الغالي قد وقَّع وختم وسلَّم وصيته وأراح باله واستسلم لقدره. قد تسير الأمور جيدًا. يا لهذا العقل الكبير! يا آني يا حبيبتي، إنني

ذاهبة إلى المكتب بجريدتي، لأنني لا أتحمل الحياة من دون الاطلاع على الأخبار. يا آنسة تروتوود، ويا ديفيد، تعالا لمقابلة الدكتور».

كنت مدركًا أن السيد دك قابعًا في ظل الغرفة، حيث يغلق سكينه، بينما رافقناها إلى غرفة المكتب، وبالمناسبة لقد فركت عمتي أنفها بعنف كنوع من التنفيس اللطيف لعدم تسامحها مع صديقتنا الجندي، لكن نسيت من دخل إلى المكتب أولًا، أو كيف استقرت السيدة ماركلهام على كرسيها المريح، أو كيف تركت أنا وعمتي معًا بالقرب من الباب -إلا إذا كانت عيناها أسرع من عيني ملاحظة، فأرجعتني إلى الخلف في هذا المكان- نسيت كيف وقعت الأحداث، إن كنت قد أدركت نتائجها. إن كل ما أعرفه أننا رأينا الدكتور قبل أن يلاحظ وجودنا، وكان جالسًا على مكتبه بين مجلدات من الأوراق التي يعتز بها، بينما يسند رأسه إلى يده في سكينة. أبصرنا في اللحظة ذاتها السيدة سترونج بينما تتسلل إلى المكتب شاحبة ومرتجفة، فأسندها السيد دك بذراعه، وقد وضع يده الأخرى فوق ذراع الدكتور، مما أتاح له النظر إلى الأعلى والشرود في الفراغ. حرك الدكتور رأسه، فانكفأت زوجته متكئة على ركبتها جاثية عند قدميه، ثم رفعت يديها في توسل، شاخصة بعينيها نحو وجهه في هذا المشهد الذي لا ينسى، بل لم أنسَه بدوري قَطُّ. لاح هذا المشهد أمامنا، فأسقطت السيدة ماركلهام الجريدة من يدها، وراحت تحملق كما لو أنها تمثال نصفي لسفينة عابرة تسمى الدهشة، وهذا أقرب تصور يمكنني التفكير به أكثر من أي شيء آخر.

أكتب هذه الكلمات الآن بينما أستحضر صورة وصوت هذا الدكتور الراقي، والدهشة التي استولت عليه، والكرامة التي امتزجت بموقف توسل زوجته، والاهتمام الصادق من السيد دك، والجدية التي حدثت بها عمتي نفسها قائلة: «إنه لرجل مجنون»، معبرة عن الانتصار والفوز وإنقاذه من البؤس.

قال السيد دك: «يا دكتور، ما الخطب؟ انظر إلينا».

صاح الدكتور قائلًا: «يا آني، لا تنحني عند قدمَي يا عزيزتي».

ردت: «نعم، إنني أتوسل وأرجو ألا يغادر أحد الغرفة، آه يا زوجي ويا أبي، فلنكسر هذا الصمت الطويل. دعنا نفهم حقيقة ما وقع وحال بيننا».

كانت السيدة ماركلهام في هذا الوقت تحاول أن تستعيد زخم الكلام، ويبدو أنها قد عبأت نفسها زهوًا بمفاخر الأسرة وسخطها الأمومي، فصاحت في هذه اللحظة قائلة: «يا آني، عودي إلى رشدكِ على الفور وانهضي، ولا تلحقي العار بكل من ينتمون إليكِ بهذا الهوان الذي ترتضيه نفسكِ، إلا إذا كنتِ ترغبين في أن يمسني الجنون على الفور».

أخذت آني تقول: «يا ماما، لا تهدري كلماتكِ بلا فائدة، لأن مناشدتي وتوسلي لزوجي، ولا دخل لكِ في هذا الأمر».

صاحت السيدة ماركلهام: «لا دخل لي، لا دخل لي أنا، لقد فقدت تلك الابنة سيطرتها على عقلها. أرجوكم أحضروا لي كأسًا من ماء».

كنت منتبهًا جدًّا للدكتور وزوجته فلم أعبأ بهذا الطلب، ولم يكن له أي تأثير على أي إنسان آخر، فأثار هذا الإهمال السيدة ماركلهام فراحت تلهث وتحدق وتزأر غاضبة، ثم هدأت نفسها بالترويح بمروحتها.

تحدث الدكتور إلى آني وقد أخذ بيدها في حنان قائلًا: «يا آني، يا عزيزتي، إذا حدث أي تغيير لا مفر منه في وقت ما على مدار حياتنا الزوجية، فلستِ ملامة. إن الذنب ذنبي، ولم يكن الخطأ إلا مني. لم تتغير عاطفتي نحوكِ ولم يتبدل إعجابي واحترامي لكِ. أتمنى أن أسعدكِ، وإنني أحبكِ وأكرمكِ حقًّا. انهضي يا آني أرجوكِ».

أما هي فلم تنهض، بل غاصت على مقربة منه، بعد أن نظرت إليه قليلًا، وقد أسندت ذراعها على ركبته، وأمالت رأسها إليها، ثم قالت:

«لو أن لي صديقًا هنا، يمكنه أن يتحدث بكلمة حق واحدة لي أو لزوجي في هذا الأمر. لو أن لي صديقًا هنا يستطيع أن يقول كلمة حق عن أي شك كان يراود قلبي أحيانًا. لو أن لي صديقًا هنا يبجل زوجي أو يهتم بأمري، أو يعرف أي شيء بغض النظر عن ماهيته، قد يساعد في التوسط بيننا بالخير، فإنني أناشد هذا الصديق أن يتحدث».

حل صمت مطبق في هذه اللحظة، وما إن انقضت بعض لحظات من التردد المؤلم حتى كسرت هذا الصمت، قائلًا: «يا سيدة سترونج، إن ثمة أمرًا ما على حد معرفتي، وقد طلب مني دكتور سترونج أن أكتمه، وقد أخفيته حتى الليلة، ولكني أظن أن الوقت قد حان، وسيكون من الخطأ والظلم الفادح أن أخفيه بعد الآن، بعدما بدا لي أن توسلكِ يحررني من هذا العهد بالكتمان».

أدارت وجهها نحوي للحظة، فأدركت أنني كنت على حق. لم يكن بإمكاني مقاومة توسلاتها، حتى لو لم أكن مطمئنًا.

قالت: «إن سلامة علاقتنا في المستقبل قد صارت بين يديك، وإنني أثق في أنك لن تكتم شيئًا أو تخفيه. أعلم سابقًا أنه ما من شيء تخبرني به أنت أو أي إنسان غيرك، سيُظهر قلب زوجي النبيل في أي هيئة أخرى غير التي عهدتها. مهما تتصور عن الأمر ومدى تأثيره عليَّ، فلتتجاهل ظنونك. سأراجع نفسي قبل أي شيء، ولأحاسب نفسي أمامه ثم أمام الله بعد ذلك».

لم أقم بأي إشارة توحي بالاستئذان من الدكتور أمام هذا التوسل الجاد، بل مضيت من دون تنازل آخر عن الحقيقة إلا التخفيف قليلًا من فجاجة منطق يورايا هيب وتعبيراته، ورحت أقص الأمر بوضوح وما جرى في الغرفة في تلك الليلة المنصرمة. كان تحديق السيدة ماركلهام في أثناء السرد بأكمله، ومداخلاتها الحادة والصاخبة بالصراخ الذي أقحمته من حين لآخر، يفوق أي وصف.

انتهيت من كلامي، ولم تزل آني صامتة لبضع لحظات محنية الرأس في الحال نفسها التي وصفتها من قبل. أمسكت بعدها بيد الدكتور -الذي ظل جالسًا بالهيئة نفسها التي رأيناها حين دخلنا الغرفة- وراحت تضغط يده على صدرها ثم قبَّلتها، وساعدها السيد دك على النهوض بلطف، ثم وقفت بعدها وبدأت حديثها متكئة عليه، تنظر إلى زوجها الذي لم تزحزح عنه عينيها قَطُّ.

قالت بصوت منخفض ذليل ورقيق: «لقد كانت كل هذه الأمور تجول بخاطري، منذ أن تزوجت، سأكشف أمري لأصبح عارية أمامك. لم أستطع العيش تحت وطأة تحفظ بعد أن عرفت ما عرفته الآن».

قال الدكتور في هدوء: «كلا يا آني، إنني لم أشك فيكِ قَطُّ يا طفلتي، فلا حاجة لقول ذلك، في الواقع لا حاجة لأن تقولي شيئًا يا عزيزتي».

أجابت بنفس الطريقة: «إن ثمة حاجة ماسة، يجب أن أبوح بمكنون قلبي أمام روح الكرم والصدق التي أحببتها سنة بعد سنة، ويومًا بعد يوم، وبجلتها أكثر فأكثر. والله يشهد بحالي».

قاطعت السيدة ماركلهام قائلة: «صدقًا ما تقول، إن كنت محلًّا للتقدير للإدلاء بشيء على الإطلاق. يجب أن تسمحوا لي بأن أدلي بملاحظة أنه ليس من الضروري الدخول في هذه التفاصيل».

تهامست عمتي قائلة بنبرة غضب: «لم تكوني محلًّا للتقدير يا فضولية».

قالت آني من دون أن ترفع عينيها عن وجهه: «ليس بوسع أي إنسان الحكم بذلك سوى زوجي يا ماما، وسوف يسمعني. إذا قلت أي شيء يسبب لكِ الألم يا ماما، فلتسامحيني. لقد تحملت الألم عن نفسي في كثير من الأحيان ولوقت طويل قبل أي إنسان».

شهقت السيدة ماركلهام قائلة: «يا للعجب!».

قالت آني: «كنت يومًا صغيرة جدًّا، مجرد طفلة ساذجة للغاية مرتبطة في معارفي الأولى بصديق ومعلم صبور – وهو صديق المرحوم

والدي - الذي كنت أكن له معزة دائمة. لا أستطيع تذكر أي شيء تعلمته من دون أن يكون مرتبطًا به. لقد تعبأ ذهني بكنوز المعرفة الأولى بفضله، وختم شخصيته على مداركي بأسرها. أظن أن أفكاري لم تكن لتصير نافعة لي، لو أنني تعلمتها على يد أي إنسان سواه».

صاحت السيدة ماركلهام: «إنها لا تقيم لوالدتها وزنًا أو فضلًا».

قالت آني: «ليس الأمر على هذا النحو يا ماما، لكنني أضعه في مكانته، وهذا ما يجب عليَّ فعله. لقد كبرتُ بينما ظل في المكانة نفسها، وكنت فخورة باهتمامه، ومرتبطة به بعمق، واعتزاز، وامتنان، وكنت أنظر إليه، وبالكاد أستطيع أن أصف حاله - كما الأب والمرشد، والإنسان الذي يصبح مدحه مختلفًا عن أي مديح آخر، كإنسان لطالما استطعت أن أثق به ولم أزل أثق به، حتى إن راودني شك في العالم بأسره. إنكِ تعرفين يا ماما، كم كنت صغيرة وساذجة، عندما ظهر أمامي فجأة وتقدم لي عاشقًا ومحبًّا».

قالت السيدة ماركلهام: «لقد قلتُ هذه الحقيقة خمسين مرة على الأقل أمام الحاضرين هنا جميعًا».

تمتمت عمتي قائلة: «أمسكي لسانكِ إذن كرامة لله، ولا تذكري الأمر أكثر بعد الآن».

تحدثت آني، بينما لم تزل تحتفظ بنفس الهيئة والنبرة: «كان التغيير عظيمًا؛ شعرت بتحول كبير في بداية الأمر، وأحسست باضطراب وحيرة إلى الحد الذي جعلني قلقة وخائفة. لم أكن سوى فتاة صغيرة،

أما بعدما حدث تغيير كبير في الشخصية التي كنت أتطلع إليها منذ فترة طويلة، لفني بالغ الأسى. لن يعيده أي شيء على ما كان عليه في البداية مرة أخرى. انتابني زهو دفعني لأثبت له أنني جديرة بذلك، ومن ثَم تزوجنا».

أضافت السيدة ماركلهام قائلة: «في سانت ألفاج كانتربري».

قالت عمتي هامسة: «لعنة الله على هذه المرأة، ألن تسكت!».

تابعت آني حديثها، في درب أكثر إشراقًا وخجلًا: «لم أفكر قَطُّ في أي مكسب دنيوي يجلبه زوجي لي. لم يكن لقلبي الشاب مكان لاعتبار أي عوامل مادية من هذا القبيل. سامحيني يا ماما إذا قلت إنكِ كنتِ أول من عرضت على ذهني فكرة أن ثمة شخصًا يمكن أن يظلمني، ويظلمه، بمثل هذه الشبهات القاسية».

صرخت السيدة ماركلهام قائلة: «أنا».

عقبت عمتي قائلة: «آه، أنتِ، بالتأكيد، ولا يمكنكِ إنكار الأمر أو طرده بمروحتكِ يا صديقتي العسكرية».

قالت آني: «لقد كان هذا الشك أول تعاسة في حياتي الجديدة. صار السبب الأول والدافع إلى كل لحظة تعيسة عرفتها. لقد كانت هذه اللحظات مؤخرًا أكثر مما أستطيع أن أحصيه عددًا، لكن لم يكن - يا زوجي الكريم - للسبب الذي تفترضه، لأنه لم تراود قلبي فكرة أو هاجس أو أمل في أن تنتزعني أي قوة أو تفصلني عنك».

رفعت عينيها وشبكت يديها، وكم بدت لي جميلة ونقية كما لو أنها روح شفافة صادقة. نظر الدكتور إليها منذ هذه اللحظة إلى ما تلاها، وقد ثبت إليها عينه مثلما فعلت قبله.

استطردت بعدها قائلة: «إنني لا ألوم أمي، لأنها حاولت التقرب نحوك بكل ما استطاعت، إنني لا ألومها في كل نياتها، إنني متأكدة من سلامة نياتها. إلا أنني لاحظت عددًا من الادعاءات الملحة التي استغلت اسمي فمثلت ضغطًا عليك، وكيف تم استغلالك باسمي، وكم كنت كريمًا، وكيف استاء السيد ويكفيلد، الذي كان يتمتع بفيض سخائك أيما تمتع، هنا سيطر عليَّ أول إحساس بالشك في أنني قد تعرضت لشبهات لئيمة، وأن حناني عليك قد راح يُشتَرى ثم يباع لك -أنت من بين جميع الرجال على وجه الأرض- كما لو أن عارًا غير مستحقة له، وظلمًا لا يناسبني، قد أجبرك يا زوجي على المشاركة فيه. لا أستطيع أن أصف لك، ولا في إمكان أمي أن تتخيل ما دار في خلدي واستمكن منه، إذ لفني الرعب وأحاطني الألم، ومع ذلك كانت روحي على يقين أنني في يوم زواجي كنت قد توجت بتاج الحب والشرف والعزة بقية حياتي».

صرخت السيدة ماركلهام باكية: «يا له من شكر يحصل عليه المرء نظير رعاية أسرته! كم أتمنى لو كنت غريبة خشنة من بلاد الترك».

قالت عمتي: «أتمنى لو كنتِ كذلك، من كل قلبي. وكم أتمنى لو كنتِ في وطن الأتراك كذلك».

راحت آني تتحدث في هدوء، ومن دون أي تردد قائلة: «كانت ماما في ذلك الوقت أكثر اهتمامًا بابن عمي مالدون، وقد أعجبت به

كثيرًا جدًّا. كنا ذات يوم كعاشقين صغيرين. لولا أن سارت الأمور على هذا النحو، لأقنعت نفسي أنني أحببته حقًّا، وربما كنت لأتخذه زوجًا، ولأصبحت أكثر بؤسًا. ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف».

راعني التفكير في هذه الكلمات «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف»، بينما رحت أتابع بجدية ما تبعها من حديث، كما لو أن بعضها قد لامسني وخصني، وإن كان مدلولها غريبًا وقد حال بيني وإدراك المقصود تمامًا. «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف».

قالت آني: «لم أجد شيئًا مشتركًا بيننا، حقًّا أدركت منذ فترة طويلة ألا شيء يجمعنا. أما إذا كان ثمة شيء واحد يدفعني إلى الامتنان لزوجي، عوضًا عن الكثير الذي يوجب امتناني له، فيجب أن أكون شاكرة له لأنه أنقذني من أول اندفاع خاطئ لقلبي الأهوج».

وقفت بلا حراك أمام الدكتور، وقد تحدثت بجدية أبهرتني، وإن ظل صوتها هادئًا كما كان من قبل.

تابعت كلامها قائلة: «كان من المنتظر أن يكون ابن عمي موضع كرامتك الذي أفضته عليه من أجلي. أما أنا فكنت في ألم من هذا الشكل للمقايضة التي قد بدوت عليه. ظننت أنه من الأفضل له أن يشق طريقه في الحياة بنفسه، وأحسب أنني لو كنت مكانه لحاولت الاعتماد على نفسي محتملة سبل المعاناة. لكنني لم أفكر في شيء أسوأ من ذلك، إلى أن جاءت ليلة رحيله إلى الهند، ففي تلك الليلة علمت أن لديه قلبًا زائفًا

وروحًا ناكرة للجميل. لقد أبصرت الشك في تحديق السيد ويكفيلد لي، وأدركت لأول مرة، هذا الشك المظلم الذي ظلل حياتي».

قال الدكتور: «أتقولين شكًّا يا آني! لا، لا، لا».

أجابت: «أعرف يا زوجي أنه لم يخامرك شيء من هذا الشك، لقد جئتك في تلك الليلة لأفرغ أمامك كل ما أحاطني من خزي وأسى، وقد أدركت أنه عليَّ أن أعترف أن أحدًا من أفراد عائلتي كنتَ محسنًا إليه، قد نطق تحت سقف بيتك بكلمات لا ينبغي أن تُقال، حتى إن كنت بائسة ضعيفة أو مرتزقة. لقد ثارت نفسي من قذارة الحكاية ذاتها، فمات الكلام على شفتي، ومنذ تلك الساعة وحتى الآن لم أتجاوز الأمر قَطُّ».

استندت السيدة ماركلهام إلى الخلف في كرسيها المريح، وقد أصدرت تنهيدات قصيرة، وتقاعدت خلف مروحتها، كما لو أنها لا تريد أن تظهر نفسها بعد الآن.

استطردت آني قائلة: «لم يسبق لي أن بادلته أي حديث منذ ذلك الوقت إلا في وجودك، وحين يكون الأمر ضروريًّا فقط لتجنب أي نوع من تأويل الموقف. انقضت سنوات منذ أن عرف مني طبيعة مركزه هنا. أما لطفك الذي فعلته سرًّا من أجل ترقيته، ثم معرفتي بعد ذلك أنك ما أردت سوى أن تُدخل السرور والسعادة عليَّ، فلتصدق قولي بأن الأمر نفسه زادني تعاسة ولم يزد السر الذي أطويه سوى ألم».

مالت برفق نحو قدمي الدكتور، على الرغم من أنه بذل قصارى جهده لمنعها، ثم قالت بينما تلوح عينها باكية وناظرة إلى وجهه: «لا

تتحدث إليَّ الآن، اسمح لي أن أزيد قولي بما هو أكثر من ذلك بقليل، فلو أن هذا الأمر تكرر الآن وكان خطأً أو صوابًا، فما كنت لأفعل إلا ما فعلت، ولن تستطيع أبدًا أن تدرك مقدار ما كنت أضمره لك من إخلاص، عوضًا عن كل الذكريات القديمة. لا تعلم مدى قسوة أن يظن الناس وفائي عبثًا أو أنني امرأة بلا قلب. لقد آلت المظاهر التي أحاطتني إلى تأكيد هذا الظن. كنت صغيرة جدًّا، ولم يكن عندي مَن أشركه في أمري، وكنت على خلاف مع أمي، وقد وقعت بيننا هوة سحيقة. انكمشتُ منكبة على نفسي لهذه الأسباب، وأخفيت الإهانة التي تعرضت لها، وذلك لأنني بجَّلتك كثيرًا، وتمنيت كثيرًا أن تبجلني».

قال الدكتور: «يا آني، يا قلبي النقي، يا فتاتي العزيزة».

قالت: «هلا أزيد حديثي قليلًا، بعدد من كلمات أُخَر، كنت أحسب أن ثمة الكثيرات ممن كنت لتتزوجهن، واللاتي لم يكنَّ ليجلبن عليك مثل هذه الاتهامات والمتاعب، وكن سيجعلن من منزلك أفضل المنازل. كنت أخشى أنه كان خيرًا لي لو بقيت تلميذتك، أو تقريبًا طفلتك، وكنت أخشى أنني لست كفئًا لمستوى علمك وحكمتك. إذا كان كل ما سلف يجعلني أنكمش على نفسي وأنزوي - كما حدث بالفعل - بينما صار عليَّ البوح بأمري، فلأنني لم أزل أبجلك كثيرًا، وآمل أن تبجلني كذلك يومًا ما».

قال الدكتور: «لقد لاح ذاك اليوم يا آني واستمر منذ وقت طويل يا آني، ولا يمكن أن ينزاح عني ولو ليلة واحدة كاملة يا عزيزتي».

«كلمة أخرى! قصدت بعد ذلك - وكنت أنتوي تحقيق مقصدي

بثبات، غير متزعزعة عنه - أن أتحمل على كاهلي ثقل إدراك أنني لا أستحق الإنسان الذي رافقته بكل طيبة. أما الآن فعندي كلمة أخيرة، يا أعز الأصدقاء وأفضلهم، لقد اتضح لي سبب تغيرك الأخير، والذي راقبته في ألم وحزن شديدين، وقد أرده أحيانًا إلى مخاوفي القديمة، وأحيانًا أخرى إلى افتراضات أقرب إلى الحقيقة، وهذا ما قد ظهر جليًّا الليلة. لقد عرفت الليلة بالصدفة أيضًا مدى ثقتك النبيلة بي، حتى في ظل هذا الخطأ، ولا أتطلع إلى أن أتصور أن أي حب أو واجب قد أقدمه لك سيجعلني في المقابل مستحقة لثقتك ونبلك اللذين لا يقدران بثمن، لكن بعد ما طرأ عليَّ من معرفة جديدة بحالي، يمكنني أن أرفع عيني إلى هذا الوجه العزيز، الذي احترمته كأب، وأحببته كزوج، وإني لأقسم لك بكل مقدس إنني لم أسئ إليك يومًا في خاطري أي إساءة كبيرة أو صغيرة، ولم أظلمك، ولم أتزحزح عن الإخلاص الذي أوليك إياه».

طوقت آني رقبة الدكتور، فأحنى رأسه إليها وقد امتزج شعره الرمادي بخصلات شعرها البني الداكن، وراحت تقول: «آهٍ، فلتضمني إلى قلبك يا زوجي، لا تطرحني خارجه، لا تفكر أو تتحدث عن فوارق بيننا، لأنه ليس ثمة تفاوت بيننا إلا بكثرة عيوبي، التي أدركت حقيقتها بصورة أفضل في كل عام انقضى، وتعلمت أن أزيد من احترامي لك أكثر فأكثر. آهٍ، فلتضمني إلى قلبك يا زوجي، لأن حبي لك مؤسس على صخرة وهو يدوم».

أعقب ذلك صمتٌ طويل. سارت عمتي بعد ذلك نحو السيد دك، من دون أن تستحث نفسها على الإسراع مطلقًا، ثم عانقته وقبلته. كان

من حسن حظه أنها فعلت ذلك، لأنني كنت على ثقة من أنني لاحظته هو في تلك اللحظة يستعد للوقوف على ساق واحدة في نوع من التعبير المناسب عن البهجة والفرح.

قالت عمتي في نوع من الاستحسان التام: «يا لك من رجل رائع جدًّا يا دك! ولا يبدو أنك تتصف بأي شيء آخر سوى هذه الروعة، لأنني أعرفك جيدًا».

جذبته عمتي من كمه نحوها، ثم أومأت إليَّ، فانسلَّ ثلاثتنا خارجين من الغرفة في هدوء.

قالت عمتي وهي في طريقها إلى المنزل: «إن ما وقع سيقضي على صديقتنا العسكرية، على أفضل تقدير، لذلك يجب أن أنام بشكل أفضل، فليس ثمة شيء آخر يسعدني ويريحني».

قال السيد دك في تعاطف كبير: «إنني أتصور أننا قد تغلبنا عليها تمامًا».

راحت عمتي تسأل: «ماذا؟! هل رأيت يومًا تمساحًا يُغلب؟».

رد السيد دك في هدوء قائلًا: «لا أظن أنني رأيت تمساحًا من قبل».

قالت عمتي في تركيز شديد: «لولا هذا الحيوان العجوز لما وقع شيء من هذا مطلقًا. أرجو أن تترك بعض الأمهات بناتهن وشأنهن بعد الزواج، فلا يتفاقم مثل هذا النوع من التعلق المبالغ فيه. يبدو أنهن يتصورن أن العاقبة الوحيدة التي يمكن تحقيقها هي إحضار امرأة شابة تعيسة إلى العالم - فليحفظ الله روحي، كما لو أنها طلبت من الله

إحضارها لتزهق روحها أو تخرجها منها بنفسها! ما الذي تفكر به يا تروت؟».

كنت أفكر في كل ما قيل. كان عقلي لم يزل يتأمل بعض التعبيرات المستخدمة. «ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف». «أول اندفاع خاطئ لقلب أهوج». «حبي تأسس على صخرة». وصلنا إلى المنزل، وكانت أوراق الشجر مستلقية تحت أقدامنا، وقد أخذت ريح الخريف تهفو.



# الفصل السادس والأربعون

## تبادل معلومات

يبدو أنه قد مر ما يقرب من عام أو نحو ذلك على زواجي، إذا جاز لي الوثوق في ذاكرتي المتذبذبة حول التواريخ، وكنت عائدًا من نزهة انفرادية في أحد المساءات، بينما أفكر في الكتاب الذي أكتبه في ذلك الوقت - لأن نجاحي كان قد صار في ازدياد مطرد وكانت متطلباتي ثابتة، فانخرطت في ذلك الوقت في أول أعمالي الروائية - وإذا بي مارًّا بمنزل السيدة ستيرفورث، وكنت أمر به كثيرًا قبل ذلك في أثناء إقامتي في ذلك الحي، ولم أكن لأختار طريقًا آخر للرجوع. ومع ذلك، لم يكن قَطُّ من السهل العثور على طريق آخر من دون أن أسلك طريقًا دائريًّا طويلًا، وهكذا مررت بالبيت بهذه الطريقة في كثير من الأحيان، بل وبشكل دوري.

لم أزد على أن ألقيت نظرة على المنزل حين ممرت به في خطى سريعة. بدا قاتمًا ومملًّا في هيئة موحشة. لم تكن غرف المنزل الفخمة التي تطل على الطريق تُظهر أي مظهر من الابتهاج. بدت النوافذ

القديمة الضيقة ذات الإطارات السميكة كئيبة للغاية، ولم يبدُ أي منها مبهجًا قَطُّ بأي حال من الأحوال، بعد أن ظلت الستائر مغلقة ومنسدلة دومًا. كان للمنزل طريق مسقوف عبر ساحة صغيرة مرصوفة، يؤدي إلى مدخل لم يستخدم قَطُّ، ينتهي إلى سلم مستدير مميز عن غيره، إذ له نافذة من دون ستائر لا يختلف شكلها عن النوافذ الأخرى في الظلام والكآبة. لا أذكر أنني لاحظت نورًا في أرجاء المنزل بأسره، ولو لمرة واحدة. أما إذ كنت أمر به باستمرار، فربما ظننت أن إنسانًا مقطوع النسل قد مات فيه، ولو كان الحظ قد حالفني بعدم معرفة أي شيء عن المكان، بينما أبصره كثيرًا على هذه الهيئة التي لا تتغير، لأطلقت العنان لخيالي الجريء بالعديد من التكهنات البارعة حوله.

ظل البيت كما كان دومًا، فأبعدت عن خاطري التفكير في أمره بقدر ما أستطيع، لكن عقلي لم يستطع أن يمر به ويتركه من دون انتباه، وكذلك فعل جسدي، فرحت كعادتي أوقظ سلسلة طويلة من التأملات. لاح أمامي في هذا المساء بالذات الذي أذكره، طيفٌ ممزوجٌ بذكريات الطفولة ونزوات المراهقة، وأشباح الآمال شبه المكتملة، وظلال منكسرة لخيبات أمل شوهدت فلا تكاد تتضح. امتزجت الخبرة بالخيال بما يشغل أفكاري دومًا، حتى أحسست أنها تفوق كونها مجرد خواطر أو أوهام. استغرقت في التفكير حتى تنبهت وأنا سائر في طريقي على صوت ما.

كان صوتًا لامرأة، وقد أخذت وقتًا طويلًا في التفكير لأتذكر الخادمة التي تقيم مع السيدة ستيرفورث، والتي كانت ترتدي في السابق

قبعة ذات شرائط زرقاء. لقد انتزعتها الآن، على ما أظن، لتتكيف مع الطابع المتغير للمنزل، فصارت ترتدي واحدًا أو اثنين فقط من شرائط غير محكمة الربط، بُنية، غامقة اللون.

قالت السيدة: «إذا سمحت يا سيدي، هلا تفضلت بالدخول والتحدث إلى آنسة دارتل؟».

سألت: «هل أرسلتك آنسة دارتل لي؟».

أجابت: «لم ترسلني الليلة يا سيدي، ولكن الآنسة دارتل قد لاحظتك وأنت تمر من هنا منذ ليلة أو ليلتين، فطلبت مني الجلوس عند السلم لحين رؤيتك تمر من هنا مرة أخرى، فأدعوك للدخول والتحدث إليها».

تراجعت بخطواتي إلى الوراء لترشدني إلى الطريق، ثم سألت عن حال آنسة ستيرفورث. قالت إن سيدتها مريضة، وقد انفردت وانزوت في غرفتها الخاصة.

وصلنا إلى المنزل، فأرشدتني الفتاة إلى مكان الآنسة دارتل، حيث كانت تجلس في الحديقة، ثم تركتني حتى أعلن لها عن وجودي بنفسي. كانت الآنسة دارتل تجلس على طرف مقعد أشبه بمصطبة تطل على المدينة العظيمة، وكان المساء قاتمًا، وقد لاح ضوء خافت في السماء، بينما انقشع كل شيء حولي إلا شيء ما أكبر بدأ يتوهج في كآبة، وقد تخيلت أنه كان رفيقًا لائقًا لذكرى هذه المرأة الشرسة.

أبصرتني بينما أتقدم نحوها، فنهضت للحظة لتستقبلني. كانت شاحبة أكثر مما تخيلت وأكثر نحافة مما عهدتها آخر مرة، ولم تزل عيناها اللامعتان أكثر إشراقًا، أما ندبتها فأكثر وضوحًا.

لم يكن لقاؤنا وديًّا بل جافًّا. لقد افترقنا غاضبين في المرة الأخيرة، وكان يبدو عليها نوع من الازدراء لم تحاول أن تخفيه.

وقفت على مقربة منها، وقد أسندت يدي على ظهر المقعد، رافضًا دعوتها لي بالجلوس، وقلت: «قيل لي إنكِ ترغبين في التحدث إليَّ يا آنسة دارتل».

قالت: «تفضل لو سمحت. رجاءً أخبرني، هل عثرت على هذه الفتاة؟».



«لا».

«ومع ذلك فقد هربت».

رأيت شفتيها النحيفتين تنفرجان بينما تنظر إليَّ، كما لو كانتا متشوقتين إلى توبيخها بلوم.

كررت قولها: «أتقولين هربت؟».

قالت ضاحكة: «نعم، هربت منه. إذا لم يعثر عليها، فربما لن يعثر عليها أبدًا. ومن المتوقع أن تكون قد ماتت».

يا لهذه القسوة الفاحشة التي قابلتْ بها نظراتي، والتي لم أرَ مثلها مطلقًا في أي وجه سواها.

قلت: «تتمنين موتها، قد تكون هذه أفضل أمنية يمكن أن تتمناها

لها إحدى بنات جنسها. إنني سعيد لأن الوقت قد خفف عنكِ غضبكِ كثيرًا يا آنسة دارتل».

منعت نفسها من الرد، لكنها أجابتني بضحكة احتقار أخرى، ثم قالت: «إن أصدقاء هذه الشابة الممتازة المصابة بأذى بالغ ليسوا سوى أصدقائك، وإنك لمدافع عن حقوقهم. فهل تريد أن تعرف أخبارًا عنها؟».

قلت: «نعم».

نهضت وقد رسمت ابتسامة لئيمة، وخطت بضع خطوات نحو جدار فخم كان على مقربة منها، يفصل الحديقة الخارجية عن حديقة المطبخ، ثم قالت بصوت عالٍ: «تعال إلى هنا» - كان نداؤها كما لو أنها تدعو حيوانًا ضاريًا.

تحدثت وهي تنظر نحوي من فوق كتفها بالسخرية ذاتها: «ستكبح أي بطولة استعراضية أو انتقام في هذا المكان يا سيد كوبرفيلد، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي من دون أن أفهم مقصدها، فإذا بها تقول مرة أخرى: «تعالَ إلى هنا». عادت وقد تبعها السيد ليتيمر المحترم، وقد انحنى أمامي في احترام وتبجيل، فانحنيت بدوري لتحيته، وقد اتخذ مكانه خلفها. لاحت أجواء خبيثة من الانتصار، وكان من الغريب أن تتصف بأي شيء من الأنوثة والإغراء، حيث كانت تتكئ على مقعد بيننا، وقد وجهت نظراتها نحوي، ربما تستحق أن تكون أميرة قاسية في أسطورة ما.

بدأت في حديثها من دون أن تلقي بنظراتها إليه، بينما راحت تلمس ندبتها القديمة المرتعشة، ربما في سرور لا ألم في هذه اللحظة، قالت: «والآن، فلتخبر السيد كوبرفيلد عن قصة الهروب».

قال السيد ليتيمر: «إن السيد جيمس، وأنا، يا سيدتي...».

قاطعته في عبوس قائلة: «لا توجه حديثك إليَّ».

عاد يقول: «إن السيد جيمس، وأنا، يا سيدي...».

قلت: «ولا توجه حديثك إليَّ، إذا سمحت».

لم يشعر السيد ليتيمر بالحيرة على الإطلاق، ولم يبدُ ذلك ولو بإيحاء طفيف. صار أي شيء نقبله هو الشيء نفسه الذي يوافقه، ومن ثَم بدأ كلامه مرة أخرى، فقال: «لقد سافرت أنا والسيد جيمس إلى الخارج مع الفتاة الشابة، وقد ظلت تحت رعاية السيد جيمس منذ أن غادرت يارموث. تجولنا في أماكن مختلفة، وزرنا عددًا من الدولة الأجنبية. لقد ذهبنا إلى فرنسا وسويسرا وإيطاليا، تجولنا في الواقع في جميع أنحاء العالم تقريبًا».

التفت ناظرًا إلى ظهر المقعد كما لو أنه يخاطبه، ثم حرك يديه كما لو أنه يعزف بهدوء، أو يضرب أوتارًا على بيانو صامت أخرق.

استطرد ليتيمر قوله: «لقد انجذب السيد جيمس بصورة غير طبيعية إلى الشابة، وطالت علاقته بها فترة أطول مما عهدته في أي علاقة منذ أن كنت في خدمته. كانت الشابة تتحسن بصورة لافتة، فتعلمت اللغات وتحدثتها، حتى لم يكن لإنسان أن يدرك أنها الفتاة

الساذجة التي عرفها من قبل. لاحظت كذلك أنها صارت محط إعجاب كبير أينما ذهبت».

أحكمت آنسة دارتل يدها حول خصرها. وقد رأيته يسرق لمحة إليها، ويبتسم قليلًا خفية، ثم مضى في حديثه يقول: «كانت الشابة قد حازت إعجابًا جمًّا حقًّا؛ وإذا بجمال ثيابها، وبديع هيأتها مع الهواء و لفحة الشمس تزداد جمالًا وحسنًا، وأشياء أخرى من هذا السحر وذاك الجمال وغيرهما مما يصقل مواهبها ويحوز انتباهًا عامًّا».

توقف ليتيمر قليلًا عن الكلام، بينما راحت عينا الآنسة دارتل تجولان في قلق في فضاء بعيد، ثم عضت على شفتها السفلى لإيقاف حديث هذا الفم المرتجف الزاخر بالكلمات.

أزاح ليتيمر يديه من فوق المقعد وقد شبك إحداهما بالأخرى، ثم استقر جالسًا وقد رفع إحدى ساقيه على الأخرى، ومضى يقول وقد أطرق عينيه ورفع من رأسه المحترم مشرئبًّا بعض الشيء، ومائلًا نحو جانب واحد قليلًا:

«ظلت حال الشابة على هذا النحو بعضًا من الوقت، وكانت تنزوي أحيانًا، إلى أن تصورتُ أنها قد ضجرت من السيد جيمس، بعد استسلامها لروحها المنقبضة وعواطفها المختنقة وما إلى ذلك، ومن ثَم لم تسِر الأمور في سلاسة. بدأ السيد جيمس ينتابه القلق والضجر مرة أخرى، وكلما ألمح لذلك ازدادت انقباضًا وانزواءً. يجب أن أقول إنني قد مررت بوقت عصيب للغاية حقًّا في محاولة الصلح بين الاثنين. كنت لم أزل أصلح الأمور هنا وهناك، مرارًا وتكرارًا، واستمر الأمر

برمته على هذه الحال، وأنا متأكد من أن الأمور قد طالت لفترة أطول مما قد يتوقعها أي إنسان».

استرجعت الآنسة دارتل عينيها الزائغتين من إطراقهما البعيد، ونظرت إليَّ مرة أخرى في هذه اللحظة بطبيعتها السابقة. تمخض السيد ليتيمر بسعال قصير محترم لينظف حلقه مواربًا يده، وقد بدل وضعية ساقيه، ثم استطرد قائلًا:

«تحول الأمر في النهاية إلى عدد لا بأس به من كلمات اللوم والعتاب، إلى أن غادر السيد جيمس ذات صباح تاركًا حي نابولي، حيث كنا نقيم في «فيلا» بجوار البحر، وكانت الشابة متحيزة جدًّا للبحر وتحب المقام عنده. رحل قائلًا إنه سيعود في غضون يوم أو نحو ذلك، لكنه تركني مسؤولًا عن إيضاح الأمر، فأقول إنه من أجل سعادة الطرفين، إنه...».

توقف هنا لسعال قصير ثم أكمل: «قد رحل. يجب أن أشير هنا إلى أن السيد جيمس قد تصرف بشرف شديد، لأنه اقترح على الشابة الزواج من إنسان محترم للغاية على استعداد تام للتغاضي عن الماضي، وقد كان لا يقل ميزة عن أي رجل تطمح إليه شابة من بين عامة الناس من الدهماء».

بدَّل ساقيه مرة أخرى، ثم رطب شفتيه بريقه، وكنت مقتنعًا أن وغدًا يتحدث عن نفسه، ورأيت قناعاتي تنعكس على وجه آنسة دارتل كذلك.

قال: «هكذا كنت مسؤولًا أيضًا عن التواصل بينهما، وكنت على استعداد لفعل أي شيء يخلص السيد جيمس من الصعوبات التي يواجهها، لأعيد الانسجام بينه ووالدته الحنون التي عانت الكثير من أجله. توليت المفاوضات بينهما، فازداد عنف الشابة بعدما علمت خبر مغادرته، وقد كانت ثورتها تفوق كل التوقعات، حتى صارت في قمة الجنون، وكان لا بد أن تحتجز بالقوة، وإلا حاولت قتل نفسها، إما بالوصول إلى السكين، أو الوصول إلى البحر، وإن لم تستطع الوصول إلى أي منهما، فقد كان من المحتمل أن تضرب رأسها فوق الأرض الرخامية».

لاح على آنسة دارتل المتكئة على مقعدها، ضوء من الابتهاج يعلو وجهها، وكأنها راحت تداعب الأصوات التي نطق بها هذا الرجل وتلتهم كلماته.

تحدث السيد ليتيمر بينما فرك يديه في قلق فقال: «ولكن عندما جئت إلى الجزء الثاني من التعليمات، وهو ما كان من المفترض أن يعده أي إنسان في مختلف الظروف دليلًا على العفة والنية الطيبة، لم تلبث الشابة أن ظهرت على حقيقتها. لم أشهد في حياتي إنسانة أشنع أو أبشع منها. كان سلوكها سيئًا بشكل مدهش ومربك، إذ لم يعد لديها عرفان بالجميل، ولا مزيد من الإحساس أو الصبر، ولا أي دوافع سوى أنها صارت كخواء أو حجارة قاسية، وإذا لم أكن حذرًا، لامتصت دمي».

قلت بسخط: «أحسب أنني أحسن الرأي فيها لهذا السبب».

أحنى السيد ليتيمر رأسه كما لو أنه يريد أن يقول: «أحقًّا يا سيدي؟ لكنك لم تزل صغير السن!»، ثم استأنف سرده.

مضى يقول: «كان من الضروري باختصار، أن أحجب كل شيء قريب منها لفترة من الوقت، وإلا تمكنت من إصابة نفسها أو أي شخص آخر، وكذلك كان عليَّ مراقبتها عن قرب، إلا أنها على الرغم من كل شيء استطاعت أن تهرب في الليل، حيث أزاحت شبكة النافذة التي كنت قد سمَّرتها بنفسي، ثم تدلت على كرمة واقعة أدناها، ومنذ ذلك الحين لم أرَها ولم أسمع عنها أي شيء».

قالت آنسة دارتل بابتسامة: «لعلها ماتت». قالتها في جحود ينهش جسد الفتاة المحطمة.

عاد السيد ليتيمر إلى حديثه منتهزًا أي فرصة لمخاطبة أي إنسان، فقال: «لعلها أغرقت نفسها يا آنسة، فهذا أمر وارد جدًّا، أو لعلها وجدت من يمد لها يد العون من البحارة أو زوجاتهم أو أطفالهم. لقد كانت ذات ود وألفة بالاختلاط بهم، واعتادت التحدث إليهم دومًا بالقرب من الشاطئ يا آنسة دارتل، وكذلك اعتادت الجلوس بجانب قواربهم، فقد أدركتها تفعل هذه التصرفات في غياب السيد جيمس الذي كان يطول لأيام، حتى إنه قد استاء عندما علم ذات مرة أنها أخبرت الأطفال بأنها ابنة بحار، وأنها كانت تجول في وطنها على الشاطئ مثلهم منذ زمن بعيد».

آهٍ يا إيميلي، يا للجمال التعس! يا لصورتها التي تمثلت أمامي فتجسدت جالسة على شاطئ بعيد، تلهو بين أطفال على شاكلتها حينما

كانت بريئة، تسمع أصواتًا صغيرة كان من الممكن أن تناديها قائلة أمي لو أنها تزوجت من رجل فقير، أو تصغي إلى صوت البحر العظيم المتتالي بلا نهاية، بل ربما يردد لها الصوت قائلًا: «لن يعود من رحل».

قال ليتيمر: «صار من الواضح أنه ليس بالإمكان فعل أي شيء يا آنسة دارتل، وساعتها...».

قاطعته بازدراء شديد قائلة: «هل أذنت لك أن تتحدث إليَّ؟».

أجابها قائلًا: «لقد تحدثتِ معي يا آنسة، أستميحكِ عذرًا. إن من أصول خدمتي أن أطيع الأمر».

عادت تقول: «قم بخدمتك إذن. أنْهِ قصتك وانطلق».

تحدث في احترام فائق وانحناء خانع قائلًا: «صار من الواضح أننا لم نعثر عليها، فذهبت إلى السيد جيمس، حيث المكان الذي اتفقنا أن أرسل إليه خطاباتي، وأبلغته بما حدث. تبادلنا نقاشًا حول هذا الحادث، وشعرت أن طبيعة شخصيتي تحتم عليَّ أن أتركه. كنت أستطيع أن أواصل التحمل، كما تحملت الكثير من السيد جيمس، لكنه أهانني كثيرًا، وزاد الحد في أذيته. كنت على علم بالخلاف المؤسف بينه ووالدته، وما كانت عليه من قلق وشرود ذهن، لذلك حرصت على العودة إلى المنزل في إنجلترا، والتواصل...».

قالت لي آنسة دارتل: «مقابل المال الذي دفعته له».

استطرد السيد ليتيمر بعد لحظة من التفكير قائلًا: «وهذا صحيح تمامًا يا سيدتي. أليس هو ما قلته بنفسي! لم أكن على يقين بأي شيء

سوى ذلك، وها أنا الآن عاطل عن العمل، وسأصير ممتنًا لو أنني ظفرت بمركز محترم».

نظرت آنسة دارتل إلى وجهي، وكأنها ستسأل عما إذا كنت أرغب في طرح أي أسئلة، فخطر لي شيء دفعني لأن أقول لها:

«أريد أن أعرف من هذا المخلوق...» - لم أستطع أن أجبر نفسي على النطق بأي كلمة أخرى، فأكملت «إذا ما عثروا على رسالة مبعوثة إليها من موطنها، أو أنه يظن أنها قد تلقت رسائل».

ظل هادئًا وصامتًا، وقد ثبت عينيه نحو الأرض، مقابلًا أطراف يده اليمنى في وضع دقيق بأطراف مثيلتها اليسرى.

أدارت آنسة دارتل رأسها نحوه في ازدراء، فإذا به ينتبه من غفلته ثم يقول: «أستميحكِ عذرًا يا آنسة. مهما يكن من طاعتي وخضوعي لكِ، وعلى الرغم من كوني خادمًا فإنني أصون كرامتي، وإنكِ يا آنسة والسيد كوبرفيلد شخصان مختلفان، فإذا رغب السيد كوبرفيلد في معرفة أي شيء مني، فليسمح لي أن أذكره بأنه يستطيع أن يطرح سؤاله عليَّ، إني أمتلك كرامة عليَّ صونها».

أحسست صراعًا في أعماقي، لكني سرعان ما وجهت عيني نحوه قائلًا: «لقد سمعت سؤالي. قد تعتبره موجهًا إليك، إن آثرت ذلك. فما جوابك؟».

عاود طريقته التي يسلكها بين الحين والآخر في الإدلاء ببعض النصائح الدقيقة، قائلًا: «يا سيدي، يجب أن تكون إجابتي لائقة، لأن

كشف سر السيد جيمس لأمه وإفشاءه لك فعلان مختلفان. أظن أنه من غير المحتمل أن يشجع السيد جيمس فكرة تلقي رسائل، لأنها تزيد من حالة الإحباط والبغض، وإنني يا سيدي لا أحبذ التجاوز في إجابتي عن هذا الحد».

سألتني آنسة دارتل: «أهذا كل شيء؟».

أشرت إليها أن هذا هو كل ما أردت قوله. إلا أنني أضفت شيئًا حين رأيته مبتعدًا، فقلت: «إنني أفهم الدور الشنيع الذي قام به هذا المخلوق في القصة البائسة، وسأوضح الأمر للرجل الصادق الذي كان رعاها كأب منذ طفولتها، وإني لأنصحه بتجنب الظهور وسط الناس مرة أخرى».

كان قد توقف منذ اللحظة التي بدأت فيها بالحديث، ليصغي بطريقته المعتادة، فقال: «شكرًا لك يا سيدي. لكنك ستلتمس لي العذر إذا قلت لك يا سيدي، إنه لا يوجد عبيد ولا سائقو عبيد في هذا البلد، وإنه لا يُسمح للناس بتحقيق القانون بأيديهم. وأظن أنهم لو فعلوا فستصير عاقبة كل امرئ وخيمة، وجملة القول إنني لست خائفًا على الإطلاق من الذهاب إلى أي مكان قد أرغب فيه يا سيدي».

بهذا القول انحنى أمامي في تهذيب، ثم أتبعها بانحناءة أخرى إلى آنسة دارتل، ثم خرج من شق الباب نفسه الذي جاء منه. تبادلت مع الآنسة دارتل نظرات وقد ساد كل منا السكون لفترة قصيرة، وسرعان ما استعادت طريقتها التي كانت عليها تمامًا حينما ظهر الرجل وأقبل إلينا.

عقبت متحدثة بحركة بطيئة من شفتها، فقالت: «إنه يقول إنه سمع بالإضافة إلى ما حدث، أن سيده قد تجاوز إسبانيا، وأنه يعتزم السفر بعيدًا ليرضي شغفه البحري حتى ينتابه الملل، لكن هذا الأمر لا يعنيك. لقد صار بين هذين الشخصين المختالين، أقصد الأم والابن، هوة شاسعة أكبر من ذي قبل، مع أمل ضئيل في التئامها، لأنهما من الطينة نفسها، يزيد الوقت كلًّا منهما عنادًا واستبدادًا. إنه أمر لا يعنيك، لكنه يوضح لك ما أريد قوله، وإن هذا الشيطان الذي تتصوره ملاكًا، أعني هذه الفتاة الحقيرة التي التقطها من بين وحل المد والجزر...».

جحظت عيناها السوداوان تحملقان نحوي، وأخذت ترفع إصبعها في وجهي وأكملت قائلة: «لعلها لم تزل على قيد الحياة، لأنني أظن أنه من الصعب أن تموت بعض الأشياء السوقية. إذا كان الأمر على هذا النحو، فسوف ترغب في العثور على هذه اللؤلؤة الثمينة ومن ثَم تتولى رعايتها. إننا نرغب في الشيء نفسه، لأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تقع في يده فريسة مرة أخرى، وهكذا فإننا متحدون حتى هذه اللحظة لأجل هدف واحد، ولهذا السبب فإنني قد طلبت حضورك لسماع ما سمعته، على الرغم من أنني لا أتردد في رميها بالأذى الذي تستحقه تلك الصعلوكة الحمقاء».

لاحظت من تغير معالم وجهها أن شخصًا قد جاء من خلفي. لقد كانت السيدة ستيرفورث، وقد مدت إليَّ يدها في جفاء أكبر مما مضى مع تكلفها بأسلوبها الفخم المعتاد، إلا أنني لم أزل أحتفظ بذكرى لا تُمحى عن حبي القديم لابنها، والذي لم أزل متأثرًا به. لقد تغيرت كثيرًا.

صار شكلها الرقيق أقل استقامة، وأصبح وجهها الوسيم غائرًا حادًّا، كما اشتعل معظم شعرها شيبًا، إلا أنها بمجرد جلوسها على المقعد، أدركت أنها لم تزل سيدة جميلة؛ تحمل هذه العين المشرقة التي أعرفها جيدًا بمظهرها البراق، والتي ظلت وضاءة في أحلامي أيام دراستي.

قالت السيدة ستيرفورث: «هل السيد كوبرفيلد على علم بكل شيء يا روزا؟».

أجابتها الآنسة دارتل قائلة: «نعم».

«وهل سمع ليتيمر بنفسه؟».

«نعم، لقد حدثته عن سبب رغبتكِ في سماعه».

«يا لكِ من فتاة مطيعة».

ثم تحدثت السيدة ستيرفورث إليَّ فقالت: «لقد أرسلت بعض الخطابات الطفيفة إلى صديقك السابق يا سيدي، لكنها لم تستثِر إحساسه بالواجب أو الالتزام الطبيعي، ولذلك فإني لا أريد شيئًا آخر غير ما ذكرته روزا. قد يغدو هذا الدرب مستساغًا لعقل الرجل المحترم الذي جلبته إلى هنا - الذي أنا آسفة حزينة له - ولا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، ومن ثَم ينقذ ابني من الوقوع مرة أخرى في أفخاخ عدو متربص به. أليس كذلك!».

اعتدلت في جلستها، ثم أشاحت بنظراتها بعيدًا نحو الفضاء.

قلت لها باحترام: «إنني أفهم مقصدكِ يا سيدتي. أؤكد لكِ أنني لا أمثل خطرًا بما يشغلكِ من دوافع. إلا أنه من واجبي أن أقول، لكِ على

وجه خاص، إنني قد عرفت هذه الأسرة المكلومة منذ الطفولة، وإنه إذا ظننت أن الفتاة التي تعرضت للظلم الشديد، لم تكن مخدوعة بضراوة، وأنها لا تؤثر أن تموت مائة مرة على أن تأخذ كوب ماء من يد ابنكِ، فإنكِ مخطئة خطأ فادحًا».

قالت السيدة ستيرفورث، بينما كانت الأخرى على وشك التدخل: «حسنًا يا روزا، حسنًا. هذا لا يهم، فليكن الأمر كذلك. قيل لي إنك متزوج يا سيد، أليس كذلك؟».

أجبت بأنني قد تزوجت منذ مدة.

سألتني: «وهل تسير أمور عملك بشكل جيد؟ إنني لا أسمع سوى القليل من الأنباء بسبب الحياة الهادئة التي أحياها، لكنني عرفت أنك على أعتاب الشهرة».

قلت: «كنت محظوظًا للغاية، وحاز اسمي بعض الثناء».

سألت بصوت خافت: «ألم تزل أمك حية؟».

قلت: «لا».

عادت تقول: «يا له من أمر مؤسف. لو أنها على قيد الحياة فإنها كانت ستفتخر بك. تصبح على خير».

أمسكت يديها الممدودتين في مهابة وجلال، فأحسست بها في يدي كما لو أن صدرها مفعم بالسكينة والسلام. بدا أن كبرياءها لا تزال تنبض بالحيوية، وقد ارتسم حجابًا هادئًا أمام وجهها، فجلست تنظر من خلاله أمامها مباشرة إلى الأفق البعيد.

ابتعدت عنهما متجاوزًا الشرفة، ولم أستطع منع نفسي من الالتفات لرؤيتهما جالستين في ثبات محدقتين في الأفق، وقد راحت سحبه تتكاثف ثم تتلاشى من حولهما. لاحت لي بعض المصابيح القديمة تتلألأ في المدينة البعيدة، بينما لم يزل الضوء الساطع يحوم في الربع الشرقي من السماء. أما الجزء الأكبر من الوادي الواسع المتداخل، فقد تخلله الضباب المتوالي مثل أمواج البحر، مما جعل المشهد يبدو كما لو أن المياه المتجمعة ستحيط بهما. وكان الباعث لتذكري هذا المشهد الآن والتفكير فيه برهبة، أنني حيث نظرت إلى هاتين المرأتين مرة أخرى، استحضرت مشهد البحر الهائج شديد الإعصار وقد ارتفعت أمواجه عند أقدامهما.

فكرت في ما قيل لي، وشعرت أنه من الصواب إبلاغ الأمر للسيد بيجوتي. ذهبت في المساء التالي إلى لندن بحثًا عنه، وكان يتجول دائمًا من مكان إلى آخر لهدف واحد، هو استعادة ابنة شقيقه أمامه، لكنه كان في أغلب الأوقات يتجه للإقامة في لندن أكثر مما سواها. أراه في كثير من الأحيان، وكما هي حاله الآن أيضًا، يتجول في الطرقات في جوف الليل باحثًا عن مبتغاه بين القلائل الذين تبعثروا خارج الأبواب في تلك الساعات المبكرة.

سكن منزلًا فوق متجر صغير للشموع في سوق هانجرفورد، والذي أتيحت لي الفرصة لذكره أكثر من مرة، وقد خرج منه لأول مرة لأداء رسالته الرحيمة، فوجهت مسيرتي إلى المكان نفسه، وعلمت من

أهل المنزل بعد السؤال عنه أنه لم يخرج بعد، وأنني سأجده في غرفته في الطابق العلوي.

جلس بالقرب من نافذة يحتفظ فيها ببعض النباتات وقد انشغل بالقراءة. كانت الغرفة في غاية النظافة والنظام. أدركت في لحظة أنه كان دائمًا على استعداد لاستقبالها، وأنه لم يخرج قَطُّ إلا وامتلكه اليقين بأنه من الممكن أن يجدها ويحضرها إلى المنزل. لم ينتبه لصوت استدارة مقبض الباب، ولم يرفع عينيه إلا عندما وضعت يدي على كتفه.

صاح قائلًا: «السيد ديفي، شكرًا لك يا سيدي، أشكرك من أعماق قلبي على هذه الزيارة. تفضل بالجلوس. أهلًا ومرحبًا يا سيدي».

تحدثت إليه بينما أتلقف الكرسي الذي ناوله لي: «يا سيد بيجوتي، لا تتوقع الكثير، لقد سمعت بعض الأخبار اليسيرة».

«عن إيميلي!».

وضع يده على فمه في توتر وقد حملقت عيناه نحو عيني.

«إن هذه الأخبار لا تعطي أي فكرة عن مكان وجودها، لكنها تقول إنها ليست معه».

جلس، ثم نظر إليَّ في اهتمام وانتباه، واستمع في صمت عميق إلى كل ما كان عليَّ أن أقوله. إنني أتذكر جيدًا الإحساس بالجلال، بل والجمال أيضًا، الذي أثارته جاذبية وجهه الصبور، حين جلس بعد أن أشاح عينيه عن عيني تدريجيًّا، وراح ينظر إلى الأسفل ويميل جبهته نحو يده. لم يُبدِ أي مقاطعة، فقد ظل ثابتًا طوال الوقت. بدا وكأنه يتابع

شخصيتها من خلال السرد، ويترك أي شيء سواها يمر به، كما لو أنه غير موجود.

انتهيت من الحديث فغطى وجهه بكفيه، ولبث صامتًا، فنظرتُ من النافذة لبعض الوقت، وشغلت نفسي بالنباتات.

واستفسر في تأنٍّ: «ما هو شعورك حيال الأمر يا سيد ديفي؟».

أجبته: «أظن أنها على قيد الحياة».

قال: «لا أعرف، ربما كانت الصدمة الأولى قاسية للغاية، فلم تستطع تحملها، ثم دفعتها الحيرة واليأس إلى...! إن البحر واسع على حد تعبيرها. هل يمكن أن تتخلى عن حياتها لأن هذا البحر القاسي من المفترض أن يكون قبرها».

كان يتكلم متأملًا في صوت خفيض، خائفًا، بينما يجول في الغرفة الصغيرة.

استطرد قائلًا: «ومع ذلك يا سيد ديفي، فإنني على يقين من أنها على قيد الحياة - كنت متيقنًا من ذلك في يقظتي ونومي، وصار من الرائع أن أجدها - لقد دفعني هذا اليقين، وتمسكت به - لا أظن أن وهمًا يضللني. لا، إن إيميلي على قيد الحياة».

أسند يده إلى الطاولة في قوة، وعلا وجهه الذي لفحته أشعة الشمس تعبير جاد.

قال في ثبات: «إن ابنة أخي إيميلي لم تزل على قيد الحياة يا سيدي، لا أعرف من أين عادت، أو كيف، لكن قيل لي إنها على قيد الحياة».

بدا وكأنه الرجل الملهم، على حد قوله. انتظرت بضع لحظات، حتى يعيرني انتباهه بالكامل، ثم شرعت في إيضاح نوع من الاحتياط بعد ما وقع لي الليلة الماضية، وسيكون من الحكمة إدراكه.

بدأت بعد ذلك في سرد حديثي قائلًا: «أما الآن يا صديقي العزيز...».

قال بينما يقبض على يدي بكلتا يديه: «شكرًا، شكرًا يا سيدي الطيب».

«إذا كان عليها أن تشق طريقها إلى لندن، فهذا أمر مرجح، لكن من الممكن أن تتوه وحدها بسهولة في هذه المدينة الشاسعة. إنها لا تريد أن تفقد نفسها لتضيع، فإذا لم تكن لتذهب إلى المنزل...؟».

قاطعني وهو يهز رأسه في حزن قائلًا: «ولن تعود إليه. إنها غادرت من تلقاء نفسها، ولأنها أقدمت على هذا الفعل، فإنها لم تعد كما كانت يا سيدي».

قلت: «إذا جاءت إلى هنا، فإني أظن أن ثمة شخصًا واحدًا، من المرجح أنه يعرف جوهرها أكثر من أي شخص آخر في العالم. هل تتذكر -فلتسمع ما أقوله في جلد وصبر، ولتفكر باليقين العظيم الذي تملكه- هل تتذكر مارثا؟».

سألني: «أتقصد الفتاة التي من بلدتنا؟».

لم أكن بحاجة إلى إجابة أخرى غير ما أبداه على وجهه.

«هل تعلم أنها في لندن؟».

أجاب بقشعريرة: «لقد رأيتها في الشارع».

قلت: «لكنك لا تعرف أن إيميلي كانت قد أحسنت إليها، بمساعدة هام، قبل فترة طويلة من هروبها من المنزل. لقد التقينا ذات ليلة، وتبادلنا حديثًا في الغرفة معًا، وقد كانت تتنصت طوال الوقت على حديثنا من وراء الباب».

رد في دهشة قائلًا: «يا سيد ديفي، أكان ذلك في تلك الليلة شديدة العاصفة؟».

قلت: «إنها تلك الليلة، ولم أرَها منذ ذلك الحين. عدت بعد انصرافي عنك لأتحدث معها ولكنها رحلت واختفت. ولم أرغب في ذكرها لك آنذاك، أما الآن فإنني أوضح لك أنها الشخص الذي أتحدث عنه وأحسب أننا يجب أن نصل إليها. هل فهمت مقصدي؟».

أجاب: «فهمتك تمامًا يا سيدي».

أخفتنا أصواتنا حتى الهمس تقريبًا، ولبثنا نتحدث بهذه النبرة.

قلت: «إنك تقول إنك رأيتها. هل تظن أننا نستطيع العثور عليها؟ فلا أمل عندي في ملاقاتها إلا عن طريق الصدفة».

«أظن يا سيد ديفي أنني أعرف أين أجدها».

«إنه ليل مظلم، لكننا معًا، فهل نخرج الآن ونحاول العثور عليها الليلة؟».

وافق واستعد لمرافقتي، ومن دون أن أقصد مراقبة ما يفعله، رأيت كيف عدَّل الغرفة الصغيرة في عناية، ووضع شمعة جاهزة ووسائل

إضاءة، ورتب السرير، وأخرج أخيرًا من الدرج أحد فساتينها الذي كان مطويًا بدقة مع بعض الملابس الأخرى -أتذكر أنني رأيتها ترتديه فيما قبل- وكذلك أخرج قبعة وضعها على كرسي. لم يشر إلى أمر هذه الملابس، ولم أذكرها له كذلك. لقد كانت ملابسها في انتظارها بلا شك، على مر ليالٍ كثيرة طوال.

هبطنا إلى الطابق السفلي وقد راح يقول: «يا سيد ديفي، لقد كنت أعد هذه الفتاة، مارثا، منذ وقت بعيد، أشبه بالوحل الذي انكب تحت قدمي إيميلي. فليغفر الله لي، وها قد اختلف الأمر الآن».

سرنا معًا ورحت أسأله عن هام، وكان جزء من سؤالي يتعلق بإشباع رغبته في الحديث، وجزء لإرضاء نفسي. أجابني بنفس الكلمات تقريبًا التي قيلت سابقًا، بأن هام ظل كما هو دومًا، يمضي حياته من دون أن يكترث لشيء بأي حال من الأحوال، لكنه لا يتذمر أبدًا وهو محبوب من الجميع.

سألته عن رأيه في نفسية هام، وهل يفكر في سبب مصائبهم هذه، وهل يتصور أن الأمر خطير، وماذا يتوقع من رد فعل هام إذا ما واجه ستيرفورث.

أجاب: «لا أعرف يا سيدي. لقد فكرت في الأمر في كثير من الأحيان، لكنني لا أستطيع أن أشتت نفسي بالإدلاء برأيي، بل إن توقعاتي لا تهم».

أعدت إلى ذاكرتي صورته في صباح اليوم التالي لمغادرتها، عندما

كان ثلاثتنا على الشاطئ. قلت: «هل تتذكر طريقته الموحشة التي نظر بها إلى البحر، متحدثًا عن «أنه نهاية الأمر»؟».

قال: «بالتأكيد أتذكر».

«وماذا كان مقصده؟».

أجاب: «يا سيد ديفي، لقد طرحت السؤال على نفسي عدة مرات، ولم أجد أي إجابة. إنه شيء وحيد غريب، إذ على الرغم من أنه لطيف للغاية، فإنني لن أرتاح إن حاولت الولوج إلى مكمن عقله. لم يتحدث قَطُّ أمامي إلا بكلمات لائقة محفوفة بزهو ومنضبطة المعنى، وليس من المحتمل أنه سيخالف طريقته في التحدث بوسيلة أخرى الآن، لكنه غطاء لما يكنه من فيض منهمر في ذهنه، حيث تكمن سريرته. إنه عميق يا سيدي، ولا أستطيع أن أرى ما يخفيه».

قلت: «إنك على حق، وهذا الأمر نفسه الذي جعلني أشعر بالقلق أحيانًا».

علق قائلًا: «وأنا كذلك يا سيد ديفي، بل أكثر من ذلك. أؤكد لك بأنني قلق من جرأته ومخاطرته، على الرغم من أنهما راجعان إلى ما اعتراه من تغيير، فإنني لم أعرف عنه يومًا أنه لجأ إلى العنف ممها كانت الظروف، وعلى الرغم من ذلك، فإنني آمل ألا يجمع الله بين الرجلين».

كنا قد وصلنا إلى المدينة مرورًا بـ«تمبل بار». لم يتابع حديثه بعد الآن، بل راح يمشي بجانبي، وقد أسلم حياته وكرسها لأجل هدف واحد. مضى مع هذا التركيز الهادئ نحو مرماه الذي كاد أن يحوله إلى شخص

منعزل وسط حشد من البشر، ولم نكن بعيدين عن جسر بلاكفرايارس، حين أدار رأسه وأشار إلى شبح امرأة تسير بمحاذاة الجانب الآخر من الشارع. عرفت في الحال أنها الهدف الذي سعينا إليه.

عبرنا الطريق، وكدنا نصل إليها، إلى أن خطر ببالي أنها امرأة، وقد تتعاطف وتشعر باهتمام بأمر الفتاة المفقودة إذا تحدثنا إليها في مكان أكثر هدوءًا وبمعزل عن الزحام، ومن ثَم علينا ألا نظهر أنفسنا أمامها، لذلك نصحت رفيقي بألا نخاطبها الآن، بل نتتبعها. كان الدافع لهذه النصيحة هو رغبتي كذلك في معرفة إلى أين تتجه.

وافقني الرأي، فتتبعناها من بعيد، ولم نغفل عنها قَطُّ، لكننا لم نعبأ بالاقتراب منها كثيرًا، كما أنها كانت تتلفت كثيرًا حولها. توقفت مرة للاستماع إلى فرقة موسيقية، ومن ثَم توقفنا أيضًا.

توجهتْ إلى طريق طويل، فتتبعنا خطاها، وقد بدا لنا من معالم الطريق ومن حركاتها أنها قاصدة مكانًا بعينه حيث وجهة محددة. كان اختراقها لشوارع مزدحمة والطريقة التي أبدتها في محاولة إبعاد أي إنسان يراقبها خفية، هما ما دفعاني إلى التشبث بتتبعها، وفي النهاية رأيتها تتجه نحو شارع مظلم موحش، يخلو من الضوضاء والحشود. قلت: «لعلنا نستطيع أن نتحدث إليها الآن»، وبعدها أسرعنا خطانا، ومشينا في إثرها.



# الفصل السابع والأربعون

## مارثا

صرنا الآن في وستمنستر، وكنا قد تراجعنا خطوات بعد أن رأيناها تتجه نحونا، فإذا بها تسير نحو كنيسة وستمنستر بعد أن تحاشت الأضواء والضوضاء في شوارع البلدة الرئيسية. انطلقت بسرعة فائقة، متجاوزة بين هذا وذاك عددًا من العابرين من ناحية الجسر، واستطاعت أن تتقدمنا بهذه الخطى المتسارعة، فلم نستطع اللحاق بها إلى أن وصلنا إلى شارع ضيق موازٍ للنهر بالقرب من ميلبانك. عبرت الطريق في لحظة وصولنا، كأنها تتجنب الخطوات التي سمعتها عن قرب، فمرت مسرعة من دون أن تلتفت إلى الوراء.

جمدت أقدامي بعد نظرة خاطفة عبر البوابة الموحشة نحو النهر. ظهرت أمامي بعض العربات في ظلام الليل، فنكزت رفيقي من دون أن أتفوه بكلمة، وقد تحاشينا عبور الشارع، وآثرنا أن نتتبعها بالمسير على الجانب الآخر من الطريق، محاولين الحافظ على هدوئنا قدر الإمكان، محتجبين في ظل المنازل، وإن بقينا بالقرب منها.

لاح نزل في نهاية ذلك الشارع المنخفض - ولم يزل قائمًا في المكان ذاته حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها. إنه مبنى خشبي صغير متداعٍ، لعله كان مخزنًا قديمًا في أحد الأيام وقد عفا عليه الزمن. ينتصب النزل عند تلك النقطة التي ينتهي عندها الشارع، ويبدأ الطريق في التمدد بين صف من المنازل والنهر. لقد توقفتْ بمجرد أن وصلت إلى هناك إذ أبصرت النهر، كما لو أنها وصلت إلى وجهتها، ثم راحت تسير ببطء على حافة النهر، وتنظر إليه في تروٍّ.

كنت أحسب طوال الطريق أنها متجهة إلى منزل ما، وكان يختلجني أمل غامض -في حقيقة الأمر- أن ذاك المكان قد يكون ذا صلة بطريقة ما بالفتاة المفقودة، أما تلك النظرة القاتمة التي نظرتْ بها نحو النهر عبر بوابته الموحشة، كانت قد أبعدت عني فكرة ذهابها إلى مكان أبعد من هذا.

كان المكان كئيبًا في ذلك الوقت، موحشًا ومنعزلًا وسط هذا الليل، مثل أي مكان آخر متطرف في لندن، إذ يخلو من الأرصفة أو المنازل على جانبي الطرق الكئيبة وهو قريب من مبنى السجن الكبير، وقد ألقت المصارف الراكدة ثلة من الطين على جدران هذا السجن، وتناثرت الحشائش الخشنة والأعشاب على جميع أراضي المستنقع في المنطقة المجاورة. تلاشت في أحد هذه الأجزاء جثث المنازل التي انتصبت في وحشية متهدمة من دون أن تفنى عن آخرها. بدت الأرض في مكان آخر وقد امتلأت بوحوش من حديد صدئ لغلايات بخارية، وعجلات ورافعات وأنابيب وأفران ومجاديف ومراسٍ وأجراس

للغوص وأشرعة طواحين هوائية. تأملت بعض الأشياء الغريبة والتي لا أعرف ماذا تكون، و قد تراكمت وراحت تختبئ بين أكوام الغبار كما لو أنها تحاول عبثًا إخفاء نفسها، بعد أن غاصت ثقيلة في الأرض في هذا الطقس الرطب. كان وهج بعض النيران المتنوعة والمتصارعة على ضفة النهر قد انبث ليلًا ليشتت كل هذا السكون، عدا هذا الدخان الكثيف المتواصل المتصاعد من المداخن. تناثرت بعض الحفر والجسور الصغيرة الملتفة بين أكوام خشبية قديمة رثة متعلقة في وهن، فبدت مثل شعيرات خضراء تخترقها شواهد قبور منتصبة من العام الماضي، تنعى رجال غرقى رفرفت شواهد قبورهم فوق علامة المياه المرتفعة، مشرئبة بين نضح الطين وأمواج المد والجزر. دارت قصة مفادها أن إحدى الحفر التي حفرت للموتى في وقت الطاعون العظيم صارت على وشك الظهور، ويبدو أن تأثيرًا مدمرًا قد انطلق منها إلى المكان كله. بدا الأمر كما لو أن كابوسًا قد تخلل المكان تدريجيًا ليصل إلى هذه الحالة من فيض التيار الملوث والأوحال.

ظهرت الفتاة التي تبعناها حتى حافة النهر كما لو كانت كومة من قمامة ألقاها النهر وتركها للفساد والانحلال، ورأيناها وقد وقفت في وسط هذا المشهد الليلي وحيدة ساكنة تنظر إلى الماء.

جذبنا بعض القوارب والصنادل المنغرسة في الوحل، وقد مكنتنا من الاقتراب من الفتاة حتى صرنا على بعد خطوات منها من دون أن تلحظنا. أومأتُ بعد ذلك إلى السيد بيجوتي حتى يمكث في مكانه بينما انطلقتُ محاولًا الاقتراب منها. رحت أدنو منها مرتجفًا في هذا المكان

المعزول الموحش، حيث ظلال الجسر الحديدي الشنيع، كما كان ظلها النحيف المنعكس على صفحة النهر قد ألقى في قلبي رعبًا ورهبة.

أظن أنها كانت تتحدث إلى نفسها. إنني متأكد من ذلك، على الرغم من استغرابي من تحديقها في الماء، فقد كانت في حالة مضطربة ومربكة، كما أن شالها كان قد انزاح بعيدًا عن كتفيها، وقد دست يديها فيه. بدت هيئتها ومشيتها أشبه بإنسان نائم لا مستيقظ. أذكر -ولا يمكنني أن أنسى أبدًا- أن طريقتها الجامحة لم تكن لتشي بشيء سوى أنها ستغرق أمام عيني، فما لبثت أن قبضت على ذراعيها.

قلت في اللحظة نفسها: «مارثا».

أطلقت صرخة مروعة، وراحت تقاومني بقوة إلى أن ارتبت في مقدرتي على الإمساك بها بمفردي، وإذا بيد أقوى من يدي قد أمسكت بها. رفعت عينيها الخائفتين وعرفت من نحن، فبذلت محاولة أخرى للإفلات منه ثم هوت بيننا فحملناها عند الماء حيث وجدنا بعض الحجارة الجافة، فأجلسناها بينما راحت تبكي وتتأوه، ثم استوت في جلستها بين الحجارة وقد أمسكت رأسها بكلتا يديها.

راحت تصرخ في انفعال: «آهٍ النهر، آهٍ النهر».

قلت: «صه، اصمتي».

لكنها ظلت تكرر الكلمات نفسها، وتصرخ بلا انقطاع قائلة: «آهٍ النهر، آهٍ النهر، أعلم أنه يشبهني. أعلم أنني أنتمي إليه. أعلم أنه رفيق حقيقي لمخلوقة مثلي أنا. إنه يأتي من الريف حيث لم يحل الفساد في

يوم من الأيام، ثم يزحف عبر الطرق الكئيبة، مدنسًا وبائسًا، وما يلبث أن ينساب، مثل حياتي، فينصب في بحر عظيم دائم الاضطراب. وها أنا أشعر بذلك. يجب أن أمضي معه».

لم أعرف قَطُّ حقيقة اليأس إلا في وقع هذه الكلمات.

استرسلت قائلة: «لا يمكنني الابتعاد عنه. لا أستطيع أن أنساه. إنه يطاردني ليلًا ونهارًا، وهو الشيء الوحيد في العالم الذي أناسبه وأصلح له، أو يناسبني. آهٍ، أيها النهر المهيب».

خطر لي أنني أرى في وجه رفيقي تاريخ ابنة أخيه، وقد أخذ ينظر إليها من دون كلام أو حركة، ولو لم أكن أعرف شيئًا عنها. لم أرَ قَطُّ، في أي مشهد طوال حياتي، هذا الامتزاج العجيب الذي رأيته على ملامح وجهه بين الرعب والرحمة. ارتجف كما لو أنه على وشك السقوط، فأمسكت يده بعد أن أقلقني مظهره، فإذا بها شديدة البرودة كأنها لإنسان ميت.

همستُ: «إنها في حالة جنون. ستتحدث بشكل مختلف بعد وقت قصير».

لم أعرف بماذا أجابني، فقد أومأ بحركة ما بفمه، وبدا أنه يظن أنه يتكلم، لكنه ما لبث أن اكتفى بالإشارة إليها بيده الممدودة.

انتابتها نوبة أخرى من الصراخ، وقد أخفت وجهها مرة أخرى بين الحجارة، وانكبت مستلقية أمامنا في صورة مهيبة للذل والخراب. أدركت أن هذه الحالة يجب أن تنقشع، قبل أن نتمكن من التحدث

إليها، فتجرأت على كبح جماح أمله قبل أن يسترسل في حديثه، ووقفنا صامتين حتى أصبحت أكثر هدوءًا.

انحنيت بعد ذلك لأساعدها على النهوض، فبدا لي أنها تريد النهوض للفرار منا، لكنها كانت واهنة، متكئة على أحد المراكب، فقلت لها: «يا مارثا، هل تعرفين من هذا، أتعرفين الرجل الذي يرافقني؟».

أجابت بصوت خافت: «نعم».

«هل تعلمين أننا تتبعناكِ كثيرًا الليلة؟».

هزت رأسها من دون أن تلتفت نحوه ولا نحوي، لكنها وقفت ذليلة، ممسكة بقبعتها وشالها في إحدى يديها، من دون أن تبدو منتبهة لهما، ثم ضغطت بيدها الأخرى على جبينها.

قلت: «هل هدأتِ من روعكِ؟ -أرجو أن يشملنا الله بعطفه- لنتحدث في موضوع يهمكِ وقع في تلك الليلة الثلجية».

اندلعت في البكاء من جديد، وتمتمت ببعض الشكر الجزيل لي لأنني لم أطردها في تلك الليلة حين وقفت خلف الباب.

قالت بعد لحظات: «لا أريد أن أقول شيئًا عن نفسي. إنني امرأة بائسة ضائعة. لا أمل لي على الإطلاق». ابتعدت عن السيد بيجوتي وانزوت خائفة منه قائلة: «فلتخبره يا سيدي -إذا كنت لا تشعر بصعوبة كبيرة في القيام بذلك- بأنني لم أكن قَطُّ سببًا في محنته بأي حال من الأحوال».

أجبتها في جدية تفوق نبرتها الجادة: «إنه لم يتهمكِ قَطُّ بهذا الأمر».

تحدثت في صوت منكسر قائلة: «إن لم تخدعني ذاكرتي، فقد كنت أنت من جاء إلى المطبخ، في الليلة التي غمرتني فيها بهذه الشفقة الطيبة؛ كنت لطيفًا جدًّا معي، لم تنبذني مثل البقية، وقدمت لي يد العطف الحانية. أهذا أنت يا سيدي؟».

أجبت: «أجل، إنه أنا».

تكلمت بينما تنظر إلى النهر في تعبير مروع، قائلة: «إن كانت قد أوذيت بسببي، فحري بي أن أكون غارقة في النهر منذ فترة طويلة. إذا لم أكن بريئة من أي ذنب يخص أمرها، فلم أكن لأبتعد قَطُّ في جوف ليلة شتاء واحدة».

قلت: «إن سبب رحيلها مفهوم جيدًا. إنكِ بريئة من أي جزء فيه، نحن نؤمن بذلك تمامًا. إننا نعلم حقيقة الأمر».

صاحت الفتاة في أسف بالغ قائلة: «آه، لو أن لي قلبًا طاهرًا، لكان أولى بي أن أكون خير عون لها وأحسن صنعًا! كم كانت تحنو عليَّ دومًا! لم تخاطبني قَطُّ بكلمة إلا برفق ولين. هل من المحتمل أن أحاول جعلها مثلي، وأنا عارفة بحالي التي أنا عليها جيدًا؟ لقد فقدت كل عزيز في الحياة، وكان أسوأ ما فقدته هو انفصالي عنها إلى الأبد».

وقف السيد بيجوتي وقد أسند إحدى يديه على مقدمة القارب، رافعًا عينيه، وواضعًا يده الأخرى أمام وجهه.

استطردت مارثا قائلة: «سمعت ما حدث قبل تلك الليلة الثلجية من بعض أهالي بلدتنا. صار أكثر ما يخطر في بالي هو أن الناس سيتذكرون

أنها رافقتني في يوم من الأيام، وسيقولون إنني من أفسدها. يعلم الله وحده، أنني كدت أبذل نفسي فداء لأن أعيد إليها اسمها الطاهر وسمعتها الطيبة».

ظلت فترة طويلة على حالتها، من دون أن تستطيع ضبط نفسها. كان ألمها حادًّا يشي بندمها وحزنها المفجع.

صرخت تقول: «إن موتي، ليس بشيء يذكر -ماذا عساي أن أقول؟- أكنت سأحيا! كنت سأحيا عجوزًا في الشوارع البائسة. أتجول فيتجنبني الناس في الظلام، ثم أرى أشعة النهار تنكسر على خط المنازل المروع، وأتذكر كيف كانت الشمس نفسها تسطع في غرفتي وتوقظني ذات مرة. لقد كنت أتمنى الموت في سبيل إنقاذها».

انكبت فوق الحجارة، وقبضت على بعضها بكلتا يديها، ثم جذبتها كما لو أنها ستطحنها. ظلت تتلوى بين الحين والآخر في وضعية جديدة، فتصلب ذراعيها أو تعقدهما أمام وجهها، كما لو أنها تحجب عن عينيها قليلًا من الضوء. ظلت تدلي برأسها، كما لو أنها مثقلة بالذكريات التي لا تُحتمل.

راحت تتحدث وقد غلبها اليأس قائلة: «ما الذي سأحيا لأجله؟! كيف يمكنني العيش بما أنا عليه؟! إنها لعنة تلتهمني، ووصمة عار على كل من اقترب مني».

التفتت فجأة نحو رفيقي وقالت: «فلتنقض عليَّ، فلتقتلني، كانت فتاتك مفخرتك، وظننتَ أنني أسأت إليها أو دفعتها إلى الشارع. لا يمكنك أن تصدق غير ذلك. لماذا ستصدق أي كلمة واحدة تخرج من

بين شفتي؟ سيمسسك أشد عار، وسيلتصق بك حتى هذه اللحظة، إذا نحن تبادلنا كلمة واحدة. إنني لا أشكو حالي، ولا أقول إنها تشبهني لأنني أعلم أن ثمة هوة شاسعة وفارقة بيننا. ليس بوسعي سوى أن أقول، مع كل ذنبي وبؤسي الذي أحمله فوق رأسي، إنني أحبها، وممتنة لها من كل قلبي. آهٍ، لا تظن أن قدرتي على حب أي شيء قد تآكلت تمامًا. فلتلفظوني بعيدًا كما يفعل العالم بأسره. اقتلني لكوني ما أنا عليه، ولأنني عرفتها يومًا، لكن لا تحسب أنني بلا مشاعر».

نظر إليها بينما كانت تتضرع بطريقة هوجاء، وما إن سكتت حتى اقترب منها وأنهضها من مكانها برفق.

قال السيد بيجوتي: «يا مارثا، إنني لا أحكم عليكِ بذنب لا سمح الله. حاشاي من بين كل الرجال أن أفعل ذلك يا بنيتي، إنكِ لا تدركين نصف ما طرأ عليَّ من تغيير، وقد أثقل عاتقي بمرور الزمن».

سكت للحظة، ثم استأنف حديثه قائلًا: «حسنًا، إنكِ لا تفهمين كيف أنني وهذا الرجل المحترم وددنا التحدث إليكِ. إنكِ لا تفهمين ما الذي دار بيننا. فلتسمعي الآن».

كان تأثيره عليها بالغًا، فوقفت أمامه منكمشة كأنها تخشى أن تلتقي بعينيه، وقد هدأت ثورتها البائسة وسكنت.

قال السيد بيجوتي: «إذا كنتِ مهتمة لما دار بيني والسيد ديفي، فإنني كما تعرفين - أو لا تعرفين - كنت أسعى للبحث عن ابنة أخي العزيزة، بعد تلك الليلة الصاخبة».

كرر في ثبات قوله: «آه، ابنة أخي العزيزة، إنها عزيزة عليَّ الآن يا مارثا، أكثر من ذي قبل».

حجبت وجهها بيديها، وبخلاف هذا الفعل فقد ظلت هادئة.

قال السيد بيجوتي: «لقد اعتنيت بها منذ أن تيتمت صغيرة، فكانت مثلكِ بلا أب أو أم، وبلا صديق يرعاها في درب هذا البحر القاسي. ربما يمكنكِ تخمين عاقبة أن تحصل على مثل هذا الصديق. لقد انجذبت إلى الطريقة التي جعلتني مغرمًا بها بمرور الوقت. صارت ابنة أخي بمثابة ابنتي».

راحت ترتجف في صمت، فما لبث أن وضع شالها بعناية حولها، بعد أن التقطه من الأرض.

قال: «إنني على يقين من أنها ستأتي معي إلى أقصى الأرض، إذا هي تمكنت من رؤيتي مرة أخرى، وإنها لن تضطر إلى الفرار إلى أطراف العالم لكي تتحاشى لقائي، إذ لا شيء يدعو إلى الشك في محبتي وحناني».

راح يكرر مقولته في تأكيد هادئ لحقيقة ما قاله: «إلا أن الخجل يفرق بيننا ويداخلها الإحساس بالعار فيبعدها عني».

قرأت بين ثنايا كل كلمة في طريقته الواضحة والمثيرة للإعجاب في تقديم نفسه، دليلًا جديدًا على أنه فكر في هذا الموضوع بكل تفاصيله وزواياه.

استطرد قائلًا: «وفقًا لتقديراتنا، فإنني والسيد ديفي، نعرف أنها أرادت ذات يوم أن تجعل وجهتها الانفرادية البائسة نحو لندن. إننا

جميعًا -أنا وغيري وكذلك السيد ديفي- ندرك أنكِ بريئة من كل ما حل بها، براءة الطفل الذي لم يولد بعد. لقد تحدثتِ عن كونها لطيفة، وبالأخص طيبة معكِ. فليحفظها الله، أعلم أنها كانت ودودة، أعلم أنها كانت دائمًا طيبة مع الجميع. إنكِ ممتنة لها وتحبينها. فلتساعدينا بكل ما تستطيعين للعثور عليها، وليجزيكِ الله خير الجزاء».

أسرعت ترمقه كأنها تشك للمرة الأولى في ما قاله.

سألته بصوت خفيض تتخلله الدهشة: «هل ستثق بي؟».

قال السيد بيجوتي: «كل الثقة وإلى أبعد الحدود».

سألت على عجل: «سأتحدث إليها حالما وجدتها في أي وقت، سآويها، إذا كان لديَّ مأوى لأشاطرها ليلها. سآتي إليك بعد ذلك من دون علمها، ثم سآتي بك إليها؛ أليس كذلك؟».

أجبنا معًا: «بلى».

رفعت عينيها، وتعهدت إلينا بأنها ستكرس نفسها لهذه المهمة في حماس وإخلاص. إنها لن تتأرجح عن هدفها أبدًا، ولن تنحرف عنه أبدًا، ولن تتخلى عنها أبدًا، حينما تظهر أي بارقة من أمل. لن تصبح إلا وفية لأمرها، لأن كل ما تملكه الآن في الحياة، يربطها بشيء خالٍ من الشر. كان تركها للأمر - إذا كان ذلك ممكنًا - سيزيدها بؤسًا ويأسًا مما كانت عليه عند حافة النهر في تلك الليلة، وقد تتكاتف جميع القوى البشرية والإلهية على نبذها إلى الأبد.

لم ترفع صوتها ليتجاوز صوت أنفاسها، ولم توجه خطابها إلينا، بل ناجت سماء الليل، ثم انتصبت في هدوء جم ناظرة نحو الماء القاتم.

رأينا أنه من المناسب في هذه اللحظة، أن نصرح لها بكل ما نعرفه، مما رويته قبلًا. لقد استمعت باهتمام كبير، وبوجه دائم التغير بين لحظة وأخرى متأثرًا، ولكنه لا يخلو من مرماه الواحد في جميع تعابيره المختلفة. تمتلئ عيناها بالدموع من حين لآخر، لكنها تلك المرة كانت تحبسها. بدا أن مشاعرها قد تغيرت تمامًا، ولم يعد بوسعها أن تهدأ عن آخرها.

قصصنا عليها كل شيء، ثم سألت بعدها عن مكان يمكن أن تصل فيه إلينا، إذا جدت مناسبة. كتبتُ تحت مصباح كئيب في الطريق عنوانين لنا على ورقة من دفتر الجيب ثم انتزعتها وأعطيتها لها، فدستها في صدرها البائس. سألتها عن مكان سكنها فأجابت بعد برهة إنها بلا مأوى منذ عهد بعيد، ومن الأفضل ألا أعرفه.

اقترح عليَّ السيد بيجوتي هامسًا بشيء ما كان بالفعل يدور بخلدي، فأخرجت محفظة نقودي، لكنني لم أستطع إقناعها بقبول أي نقود. ولم أتمكن من أن أطلب منها أي وعد بأنها ستقبل نقودًا في أي وقت آخر. لقد أوضحت لها أنه لا يمكن الاستعانة بالسيد بيجوتي في البحث، لأن شخصًا مثله صار في حالة يرثى لها. أما فكرة مشاركتها في هذا البحث، مع الاعتماد على مواردها الخاصة، فشيء يصدمنا تمامًا. واصلت الصمود على موقفها. كان تأثيره عليها في هذا الأمر لا حول له ولا قوة. شكرته بامتنان لكنها أصرت على موقفها بلا هوادة.

قالت: «قد يصبح من الأجدى حصولي على عمل. سأحاول».

عدت أقول لها: «فلتأخذي قليلًا من مال يساعدك، حتى تحصلي على عمل».

أجابتني: «لا يسعني القيام بما وعدت به في مقابل المال. لا أستطيع أن أحتمل الأمر ولو صرت أتضور جوعًا. إن أعطيتني مالًا يعني أنك تنتزع ثقتك بي، فلا تأخذ الشيء الوحيد الذي وهبتني إياه، لا تأخذ الشيء الوحيد المؤكد الذي ينقذني من هلاك النهر».

قلتُ: «قسمًا بالعادل الحكم الذي لن نلبث أن نقف جميعًا؛ أنتِ وجميعنا، ماثلين بين يديه يوم الحساب، إنني أرفض هذه الفكرة البشعة. يمكننا معًا أن نفعل بعض الخير، إذا أردنا».

ارتجفت، وارتجفت شفتها وشحب وجهها ثم قالت:

«لقد قذف الله بي في قلبيكما، ربما لإنقاذي، أنا المخلوق البائس، لتكفر عن سيئاتها بالتوبة. أخشى أن ظني هذا يبدو جريئًا جدًّا، فإنني إذا أتيت بأي خير، فلعلي أبدأ في إنعاش أملي بأن خيرًا يمكن أن تجلبه أفعالي، لأنني إلى اليوم لم أقترف إلا السوء والعار. لقد وثقتما بي بما منحتماني من ثقة لأول مرة منذ فترة طويلة، وعلى الرغم من حياتي البائسة الأليمة، فإنني أجدكما تعهدان إليَّ بما سأحاول تحقيقه. لا أعرف أكثر من هذا، ولا أستطيع أن أزيد شيئًا».

كفكفت مرة أخرى دموعها التي انهمرت وفاضت، ثم مدت يدها المرتجفة ولمست السيد بيجوتي، كما لو أنها تتلمس فيه بركة أو

فضيلة شفاء، ثم ذهبت على طول الطريق المقفر. ظلت واهنة، ربما لفترة طويلة، وقد وجدت حينما اقتربت مني فرصة لملاحظة أنها كانت متهالكة وواهنة، وأن عينيها الغائرتين تعبران عن حرمانها وجلدها.

تبعناها حتى مسافة قصيرة، فقد كان طريقنا ممتدًّا في الاتجاه نفسه، حتى عدنا إلى الشوارع المضاءة والمكتظة بالسكان. كنت أضمر ثقة بما باحت به، وقد نقلت هذه الثقة إلى السيد بيجوتي بعد ذلك. تبدل ما كان يظهره في البداية من عدم الثقة بها وتتبعها من بعيد. كنا نفكر بالطريقة ذاتها، ونعتمد عليها بنفس القدر، لذا فقد تركناها لتسلك طريقها الخاص. أما نحن فسلكنا طريقنا، وكانت وجهتنا نحو هايجيت. رافقني حتى جزء كبير من الطريق. افترقنا وقد تبادلنا دعاءنا من أجل نجاح هذا الجهد الجديد. بدت عليه عاطفة جديدة ومفهومة أسبابها، فلم أكن في حاجة إلى تفسيرها.

حلَّ منتصف الليل بوصولي إلى المنزل. كنت قد وصلت إلى بوابتي، حتى وقفت أستمع إلى جرس كنيسة القديس بولس العميق، بعد أن ظننت أن صوتها قد تناهى إلى أذني عبر العديد من دقات الساعات المذهلة. فوجئت بعدها برؤية باب منزل عمتي مفتوحًا، بينما يتسلل ضوء خافت عبر المدخل ليضيء الطريق.

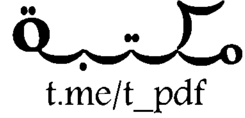
فكرت في أن عمتي ربما عاودها إعياؤها القديم، فراحت تراقب نشوب بعض الحرائق الوهمية في الأفق، لذا ذهبت للتحدث معها. كانت مفاجأة كبيرة أن رأيت رجلًا يقف في حديقتها الصغيرة.

كان يحمل في يده كأسًا وزجاجة يشرب منها. توقفت، بين أوراق

الشجر الكثيفة بالخارج، حيث كان القمر مكتملًا في هذا الوقت، على الرغم من احتجابه. تعرفت إلى الرجل الذي كان من المفترض أن يكون شبحًا للسيد دك، وقد قابلته ذات مرة مع عمتي في شوارع المدينة.

راح يأكل ويشرب في جوع ونهم، وقد بدا عليه الفضول من ناحية البيت أيضًا، كما لو أنها المرة الأولى التي يراه فيها. انحنى يضع الزجاجة على الأرض، ثم نظر نحو النوافذ وحولها، في تأفف ونفاد صبر، حتى بدا حريصًا على الرحيل.

انقطع الضوء من الأفق للحظة، ثم ظهرت عمتي. كان يبدو عليه الاضطراب، وقد دست ببعض النقود في يده، وقد سمعت ما أحدثته من طقطقة.




سأل: «ما فائدة هذا المبلغ؟».

ردت عمتي: «لا أستطيع دفع المزيد».

قال: «إذن لن أذهب. ها هي نقودكِ يمكنكِ استعادته».

ردت عمتي في انفعال شديد قائلة: «أيها الرجل الخبيث، كيف تجرؤ على استغلالي؟ لكن لماذا أسأل؟ إنك تفعل ذلك لأنك تعرف أنني في موقف ضعف. ماذا عليَّ أن أفعل لأحرر نفسي إلى الأبد من زياراتك، وأتركك إلى حالك القفر؟».

قال: «ولماذا تتخلي عني؟».

ردت عمتي: «أتسألني لماذا! يا لهذا القلب الذي بين ضلوعك!».

وقف منفعلًا يهز المال ويهز رأسه ثم قال أخيرًا:

«هل هذا كل ما تتعمدين إعطاءه لي إذن؟».

قالت عمتي: «هذا كل ما يمكنني أن أعطيك إياه. إنك تعلم ما تعرضت له من خسائر، وأنا أفقر مما كنت عليه في السابق. لقد أخبرتك بذلك. ألم تفهم مقصدي بعد! لماذا توجعني بمغبة النظر إليك للحظة أخرى، ورؤية ما أصبحت عليه؟».

قال: «لقد أصبحت رث الثياب مهلهلًا، إن كان هذا ما ترمين إليه. إنني أعيش حياتي مثل البومة».

قالت عمتي: «لقد جردتني تمامًا من الجزء الأكبر من كل ما امتلكته. لقد أغلقت قلبي لسنوات طوال عن العالم بأسره. لقد عاملتني بنكران وجحود وقسوة. اذهب وكفر عن أفعالك. لا تزِد جراحًا جديدة إلى قائمة الأضرار الطويلة والمتتالية التي سببتها لي».

عاد: «أجل، إن كل شيء على ما يرام. حسنًا، يجب أن أبذل قصارى جهدي، على ما أظن، في الوقت الحاضر».

بدا مندهشًا من دموع عمتي الغاضبة، وخرج على مضض متراخيًا عبر الحديقة. خطوت خطوتين أو ثلاث خطوات سريعة، متظاهرًا بأنني قد حضرت للتوِّ. التقيت الرجل عند البوابة، ثم دخلت في لحظة خروجه منها. نظر كل منا إلى الآخر نظرة خاطفة وعابرة من دون محاباة.

قلتُ على عجل: «يا عمتي، أيزعجكِ هذا الرجل مرة أخرى؟! دعيني أتحدث إليه. مَن يكون هذا الرجل؟».

أجابتني عمتي بينما جذبتني من ذراعي إليها: «يا بني، تعالَ ولا تتحدث معي لعشر دقائق».

جلسنا في صالونها الصغير. جلست عمتي خلف المروحة الخضراء المستديرة، والتي ظلت في مكانها منذ أيام مشدودة على ظهر كرسي. ظلت عمتي تمسح عينيها من حين لآخر، لمدة ربع ساعة تقريبًا. ثم خرجت من مكانها وجلست بجواري.

قالت عمتي في هدوء: «إنه زوجي يا تروت».

«أهذا زوجكِ يا عمتي؟ لقد ظننت أنه مات».

أجابتني عمتي: «إنه ميت بالنسبة إليَّ، لكنه لم يزل على قيد الحياة».

جلست صامتًا في ذهول.

قالت عمتي في هدوء: «إن بيتسي تروتوود ليست حالمة ذات مشاعر جامحة، لكن وقع ما وقع منذ زمن يا تروت، عندما كانت تؤمن بهذا الرجل تمامًا. حسنًا، لقد أحبته يا تروت. لم تتوانَ عن إثبات كل ما تكن من تعلق ومودة، فقدمت له كل ما تستطيع. ما لبث أن سدد العطاء؛ بكسر ثروتها وكاد يكسر قلبها. لذلك وضعت كل هذه الصنوف من المشاعر، مرة واحدة وإلى الأبد، في قبر، ثم ملأته وسوته بالأرض».

«آه يا عمتي الغالية الطيبة».

مدت عمتي يدها كالمعتاد مستندة إلى ظهري، وأكملت قائلة: «لقد تركته وأكرمته. أستطيع يا تروت أن أقول بعد أن مر الزمن، إنني تركته وكنت سخية عليه كريمة، وإن كان بالغ القسوة معي، للحد الذي

جعلني أُفضل أن أفصل نفسي عنه بشروط سهلة، لكنني لم أفعل. لقد أنفق سريعًا وفي تهور كل ما أعطيته له، وغرق في حضيض العيش. تزوج على ما أظن امرأة أخرى، وأصبح مغامرًا، ومقامرًا، وغشاشًا. إنه ما هو عليه الآن، كما ترى».

استطردت عمتي كلامها مع صدى قديم من كبرياء وزهو بنبرة صوتها، قائلة: «كان على الرغم من ذلك رجلًا حسن المظهر عندما تزوجته. وأنا صدقت أنه سيصير لي مكرمة! كنت حمقاء».

ضغطت على يدي وهزت رأسها، وأكملت:

«لم يعد يمثل لي شيئًا بعد الآن يا تروت. إنه أحط من أن يُذكر. إنه يدفع الآن ثمن جرائمه (كما لو كان شحاذًا يجول في هذا البلد). لقد أعطيته أموالًا على فترات، في كل مرة يظهر فيها. أعطيته ما يفوق طاقتي، ليذهب بعيدًا. كنت حمقاء عندما تزوجته، ولم أزل حتى هذه اللحظة حمقاء، لا تجد دواءً لهذا الداء الذي ظنَّت فيه خيرًا يومًا ما. لقد تعطلت مخيلتي عن التفكير في كيفية التعامل معه. لذلك يا تروت، صرت امرأة خشنة».

نفضت عمتي الأمر عنها بتنهيدة شديدة، وكذلك نفضت ثوبها.

قالت: «هذا كل ما في الأمر يا عزيزي، بت الآن تعرف البداية والوسط والنهاية، وكل شيء عن أمري. لن يذكر أي منا هذا الأمر للآخر بعد الآن، وبالطبع لن تذكره أيضًا لأي شخص آخر. هذه هي قصتي الغاضبة والمرهقة، وسوف نحتفظ بها لأنفسنا يا تروت!».

# الفصل الثامن والأربعون

## تدابير البيت

اجتهدت في كتابي، من دون أن أقصر في إنهاء عملي الصحفي في موعده المحدد، حتى خرج للنور وحقق نجاحًا باهرًا. لم أنبهر بما سمعته من ثناء تناهى إلى أذني، على الرغم من أنني أدركت ما يدور من الإشادة بالكتاب. فكرت في تحسين كتابتي، فلطالما خامرني شك في تقديرات الناس، أكثر من أي إنسان آخر، وكنت أضع أمام عيني على الدوام ما لاحظته عن الطبيعة البشرية؛ إذ ما يلبث المرء أن يجد سببًا وجيهًا للإيمان بنفسه، حتى يخبو، فلا يعنيه سوى التجلي أمام وجوه الآخرين حتى يؤمنوا به، ولهذا السبب حرصت على تواضعي واحترام ذاتي وكلما ازداد مديح الناس لي، حاولت بذل ما يدفعني لاستحقاقه بالاجتهاد.

إن كتابتي هذه تمثل بالأساس ذاكرتي المكتوبة، ولست أهدف من ورائها إلى أن أتابع تاريخ قصصي التي ألفتها في تلك الأيام، فهي تعبر عن نفسها، وما عليَّ سوى أن أترك لها العنان لتفصح عن نفسها، إنما أشير إليها فقط، لأنها جزء من سيرتي.

رسخ عندي اعتقاد مبني على أساس مفداه أن الطبيعة والصدفة قد صنعتا مني كتابًا، ولذلك تابعت مهنتي ككاتب في ثقة واطمئنان، ولولاهما لتنحيت عن الكتابة، ولتركت هذا الدرب وتحولت طاقتي إلى مساعٍ أخرى. كان عليَّ أن أكتشف موهبتي والدافع الحقيقي الذي حرك داخلي الموهبة، وأن أكون ما أنا عليه ولا شيء سواه.

لقد وُفقت في نشر كتاباتي في الصحف أو أماكن أخرى، وظلت كتابتي تزدهر، وتصورت بعد تحقيق هذا النجاح الجديد، أنني مؤهل بجدارة لأن أهرب من تسجيل المناقشات الكئيبة، وذات ليلة مبهجة انتهيت من صخب المناقشات البرلمانية المزعجة، ولم أسمعها منذ ذلك الحين، على الرغم من أنني لم أزل أتعرف على النغمات القديمة المدونة في الصحف، من دون أن ألحظ أي اختلاف جوهري، باستثناء تغير بسيط لا يتناسب مع طول الدورة البرلمانية، فتكون قد ازدادت صخبًا وضجيجًا.

أكتب الآن عن فترة زواجي، وأظن أنها امتدت إلى ما يقرب من عام ونصف. توصلنا بعد عدة تجارب متنوعة، إلى أن نبعد أنفسنا عن شؤون التدبير المنزلي باعتباره عملًا سيئًا. ظل المنزل على هيئته واستعنا بخادم. كانت الوظيفة الرئيسية لهذا الخادم هي الشجار مع الطاهية، فكان أشبه بـ«ويتنجتون»[1] بارعًا في هذا الصدد، لكن من دون قطته ومن دون أن يحظى بفرصة ولو بعيدة لانتخابه عمدة في المدينة.

---

(١) قصة من الفولكلور الإنجليزي عن صبي يُدعى ويتنجتون ساعدته قطته على تحقيق الشهرة والثراء، وقد اشتهر بالمشاجرة مع الطاهية.

يبدو لي أنه عاش تحت وابل من الحظ السيئ والتشرد، وأنه أمضى عمره في شجار لا ينقطع. لقد راح يصرخ في أكثر من مناسبة حرجة طلبًا للمساعدة، خاصة إذا كنا نقيم عشاء صغيرًا، أو نحتفل مع بعض الأصدقاء في المساء، وكان يخرج من المطبخ متعثرًا تتطاير خلفه قذائف معدنية تقذفه بها الطاهية. أردنا التخلص منه، لكنه كان متمسكًا بنا للغاية، فلم يرحل عنا. كان فتى بكّاء، وقد اندلع في نحيب أليم حين ألمحنا بفكرة الاستغناء عنه، فاضطررنا للإبقاء عليه. كان يتيم الأم، ولم أستطع العثور بأي طريقة على أقارب له ولو من بعيد، باستثناء أخته التي فرت إلى أمريكا في اللحظة التي أخلت فيها مسؤوليتها عنه وسلمته لنا. صار بعدها الشاب عبئًا مقيمًا لا يتغير. كان مدركًا ويقظًا لحالته المؤسفة، ولطالما فرك عينيه بكم سترته، أو انحنى ليمسح أنفه في الزاوية القصوى بمنديل جيب صغير، والذي لم يكن ليخرجه عن آخره من جيبه، ولكنه أبقاه دومًا مخفيًا.

كانت هذه الصفحة غير الموفقة في حياتنا، قد أهلت علينا في ساعة نحس بتكلفة ستة جنيات وعشرة شلنات في السنة، ثم صار مصدرًا مستمرًّا للمتاعب لنا. شاهدته بينما يكبر على مرور الأيام، فإذا به ينمو مثل حبات الفاصولياء الحمراء، فانتابتني مخاوف أليمة من الوقت الذي سيبلغ فيه الحلم وتنبت فيه لحيته، بل امتدت مخاوفي إلى ما بعدها حيث أيام سيصير فيها أصلع أو أشيب. لم يعد عندي أي بارقة أمل في التخلص منه، بل رحت أتصور نفسي في المستقبل، وقد اعتدت التفكير في الإزعاج الذي سيخلفه عندما يصبح رجلًا عجوزًا.

لم أتوقع أي سبب أقل شأنًا مما ذكرت، يدفعني للخروج من هذا المأزق النحس. لقد سرق هذا الصبي المشؤوم ساعة دورا التي كانت مثل باقي أغراضنا ملقاة من دون مكان مخصص لها. كان الصبي ضعيف الذهن ساذجًا، فقد باع الساعة وأنفق ثمنها على ركوبه المستمر للعربات العامة، والجلوس خارجًا في رحلة ذهابًا وإيابًا بين لندن وأوكسبريدج. انتهى به المطاف على ما أذكر في مركز شرطة باوستريت، بعد الانتهاء من رحلته الخامسة عشرة، ولم نعثر معه إلا على أربعة شلنات وستة بنسات، وناي مستعمل لم يستطع العزف عليه.

كانت المفاجأة وعواقبها ستبدو أقل وقعًا عليَّ لو أنه لم يكن تائبًا. كان دومًا مبديًا أقصى درجات الندم الصادق، وبطريقة غريبة - ليس بصورة نهائية، بل بالتقسيط، إذ راح على سبيل المثال في اليوم التالي حين اضطررت إلى الشهادة ضده، يكشف لنا أسرارًا عن المخزن، إذ كنا نحسب أنه مليء بالنبيذ، إلا أنه لم يكن مليئًا إلا بالزجاجات الفارغة والفلين. افترضنا بعد هذا الموقف أنه أحكم عقله، إلى أن أخبرنا بأسوأ ما يعرفه عن الطاهية بعد يوم أو يومين، فكان ضميره قد وخزه من جديد، فكشف لنا كيف أنها أنجبت طفلة صغيرة، وقد كانت تأتي فتأخذ خبزنا في وقت مبكر كل صباح. كما أخبرنا أنه أغرى بائع اللبن لإمداده بالفحم الذي يلزمه من مؤونتنا، ثم أبلغتني السلطات في غضون يومين أو ثلاثة أخر، عن اكتشاف شرائح من لحم البقر بين أدوات المطبخ، وعدد من الأغطية في كيس من قماش بالٍ. ثم توجه بعد فترة وجيزة نحو شيء جديد تمامًا، إذ اعترف بعلمه بأن الفتى جامع الزجاجات قد

انتوى السطو على مبانينا، من ثَم اعتقلت الشرطة ذاك الفتى على الفور. اعتراني خجل جم من أن أصير مثل هذه الضحية، للحد الذي وددت فيه أن أدفع له أي ثمن من أجل أن يحفظ لسانه ولا يبوح بشيء، أو أعرض عليه رشوة كبيرة مقابل أن يلوذ بالفرار. لقد زاد ثقل الأمر على خاطري، خاصة لأنه لم يدرك شيئًا عن هذا كله، بل تصور أنه أراد التكفير عن آثامه السالفة بالتفكير في كشف جديد يفضح سره ويفشيه، بل لعله ظن أنه بهذه الأفعال يكدس أفضاله فوق رأسي.

نجوت في النهاية بنفسي، فاختبأت كلما رأيت مبعوثًا من الشرطة يقوم ببعض التحريات الجديدة، ومارست حياتي خلسة حتى حوكم الفتى وأُمر بإبعاده، ولكنه راح يكتب لنا الرسائل دومًا ولم يكن ليهدأ، بل ألح كثيرًا حتى يرى دورا قبل رحيله. ذهبت دورا لزيارته، وقد فقدت وعيها بعدما وجدت نفسها داخل القضبان الحديدية. باختصار، لم أشعر بهدوء في حياتي حتى تم ترحيله، وكما سمعت لاحقًا، فقد وكلت إليه رعاية بعض الأغنام في مكان ما «أعالي البلاد»، وليست لديَّ فكرة جغرافية عن هذا المكان.

قادتني كل هذه الحوادث إلى بعض التأملات الجادة، لعرض أخطائنا في منحناها الجديد. لم أستطع منع نفسي من البوح بأفكاري لدورا في إحدى الأمسيات على الرغم من رقتي معها وحناني عليها.

قلت: «يا حبيبتي، إنه لأمر يؤلمني جدًّا أن أتصور أن افتقار حياتنا إلى النظام والإدارة، لم يعد يشملنا فقط -وإنه الشيء الذي اعتدنا عليه- بل صار يشمل أناسًا آخرين».

قالت دورا: «لقد سكت لفترة طويلة، أما الآن فأنت على وشك التحول».

«لا يا عزيزتي، حسنًا، اسمحي لي أن أشرح لكِ ما أعنيه».

قالت دورا: «أظن أنني لا أريد أن أعرف».

«لكني أريدكِ أن تعرفي يا حبيبتي. أنزلي جيب بعيدًا».

وجهت دورا أنفه نحو أنفي ثم قالت: «بوه»، لتزيح عني صرامتي من دون جدوى. أمرته بالدخول إلى بيته، ثم جلست تنظر إليَّ ويداها مطويتان، وقد علا وجهها انتباه ضئيل للغاية.

شرعت حديثي قائلًا: «يا عزيزتي، في الحقيقة إن ثمة مرضًا معديًا بيننا. إننا نعدي الجميع به».

ربما كنت سأستمر بهذه الطريقة المجازية، لو لم يُبدِ وجه دورا تحذيرًا بأنها على وشك أن تتساءل بكل قوتها عما إذا كنت سأقترح أي نوع جديد من التطعيم، أو أي علاج طبي آخر، لهذه الحالة غير الصحية التي تنتابنا. راجعت نفسي، ثم جعلت المعنى أوضح.

قلت: «لم يعد الأمر يا قطتي مقتصرًا على خسارتنا للمال والراحة فقط، بل صار الأمر مرهونًا بعدم تعلمنا أن نكون أكثر حرصًا. إننا نتحمل مسؤولية إفساد كل من يأتي إلى خدمتنا، أو يتعامل معنا. إنني أشعر بالخوف من أن الخطأ لا يقع بالكامل من جانب واحد. إن هؤلاء الأشخاص جميعًا يصابون بالمرض نفسه، لأننا لا نبدي انتباهًا ملائمًا لأنفسنا».

صاحت دورا، بينما اتسعت عيناها على مصراعيهما: «آهٍ، يا له من اتهام قاسٍ، لتقول إنك رأيتني أسرق ساعات ذهبية، آهٍ».

اعترضت قائلًا: «يا عزيزتي، لا تتحدثي عن هراء لا يُعقل. من ذا الذي ألمح بأقل إشارة إلى الساعات الذهبية؟».

عادت دورا تردد: «أنت فعلت ذلك، إنك تعلم أنك القائل، لقد قلت إنني لم أعد جيدة، وقارنتني به».

سألتها: «بمن؟».

انتحبت دورا قائلة: «بالخادم. آه، أيها الرجل القاسي، إنك تقارن زوجتك الحنونة بخادم أبعدوه من البلدة. لماذا لم تخبرني برأيك عني قبل الزواج؟ لماذا لم تقل، أيها الإنسان القاسي، إنك مقتنع بأنني أسوأ من الخادم المُبعد؟ آه، يا له من رأي يفزعني! يا إلهي».

حاولت برفق إزالة المنديل الذي ضغطته على عينيها، ورحت أقول: «أما الآن يا دورا، يا حبيبتي، فإن ما تفعلينه الآن ليس أمرًا سخيفًا جدًّا فحسب، بل وخاطئ تمامًا. وهذا ليس صحيحًا قبل أي شيء».

تبكي دورا قائلة: «كنت تقول دومًا عن الخادم إنه ينسج القصص. وها أنت الآن تقول الشيء نفسه عني! آهٍ، ماذا أفعل؟! ماذا عليَّ أن أفعل؟!».

أجبتها قائلًا: «يا فتاتي الحبيبة، إنني أتوسل إليكِ حتى تعقلي الأمور وأن تصغي إلى ما قلته وما أقوله. يا عزيزتي دورا، إذا لم نتعلم كيف نؤدي دورنا مباشرة مع الذين نوظفهم، فإنهم لن يتعلموا أبدًا كيفية

القيام بواجبهم نحونا. أخشى أننا نهيئ فرصًا للناس لارتكاب أخطاء، والأجدر بنا ألا نتيحها لهم أبدًا. إننا أناس متساهلون في جميع ترتيباتنا، أو في شروط اختيارنا التي لا نفرضها. إن أحببنا اختيارنا، ووجدناه مناسبًا -وهو ما لا يحدث- فأنا مقتنع بأننا ينبغي أن نحيد عن المضي في هذا الطريق. إننا نفسد الناس بصورة متعمدة، وقد صرنا ملزمين بالتفكير في أمرنا، ولا يسعني التفكير في الأمر وحدي يا دورا. إنه أمر لا أستطيع التخلي عنه، ويجعلني أحيانًا أشعر بتوتر وقلق شديد. هذا هو يا عزيزتي كل ما في الأمر. تعالي إليَّ الآن، لا تكوني حمقاء».

لم تسمح لي دورا لوقت طويل بإزالة وشاحها. انكبت وراءه تبكي وتغمغم بأشياء من قبيل: إذا كنتَ غير مرتاح، فلماذا تزوجت؟ لماذا لم أقل، قبل يوم من ذهابنا إلى الكنيسة، إنني كنت أعرف أنني لن أستريح ولن أهنأ، وإنني لا أفضل الزواج بها؟ إذا لم أستطع تحملها، فلماذا لم أرسلها بعيدًا إلى عمتيها في بوتني أو إلى جوليا ميلز في الهند؟ ستسعد جوليا برؤيتها ولن تسميها خادمة مُبعَدة، وأن جوليا لم تطلق عليها قَطُّ أي وصف من هذا القبيل. باختصار، كانت دورا مكتئبة للغاية، وأصابتني كآبتها بالألم لأنني تسببت لها في هذه الحالة. شعرت أنه لا جدوى من تكرار هذا النوع من الجهد، ويجب أن أتخذ مسارًا آخر، على الرغم من أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة.

أي مسار قد تبقى لأسلكه؟ ما الذي يناسب «تكوين عقلها»؟ كانت هذه عبارات شائعة من كلمات لها صدى عادل وواعد بالخير، وقد عقدت العزم على تشكيل عقل دورا.

بدأت التفكير على الفور. كانت دورا طفولية للغاية، وربما كنت سأستمر في إضحاكها إلى الأبد، لكنني حاولت أن أكون جادًّا وقد أزعجها الأمر وأربكني أيضًا. تحدثت معها في الموضوعات التي شغلت أفكاري، فقرأت لها شكسبير، حتى أرهقها وأضجرها حتى المنتهى. لقد اعتدت أن أمدها -كان الأمر عرضًا ولم يستمر- بقصاصات صغيرة عن معلومات مفيدة، أو رأي سديد أو نصيحة، لكنها كانت تنبذها كما لو أنها مفرقعات نارية، ومهما حاولت قصدًا تشكيل عقل زوجتي الصغيرة، بدا لي أنها تعرف ما أنا منتويه بالغريزة، فتصبح فريسة لمخاوف أشد. كانت -بوجه خاص وبصورة واضحة بالنسبة لي- تعتقد أن شكسبير رجلًا شريرًا. هكذا صار تشكيل العقل أمرًا بطيء الخطى.

لقد أقحمت ترادلز لإسداء خدمة إليَّ من دون علمه، فكان كلما جاء لزيارتنا ما ألبث أن أفجر مناجم معلوماتي عليه، من أجل تشييد عقل دورا من جهة خفية. كان مقدار الحكمة العملية التي ألقيتها على ترادلز بهذه الطريقة هائلة، وذات أهمية بالغة، إلا أنها لم تحدث أي تأثير آخر على دورا، سوى خفض معنوياتها، مما جعلها متوترة دائمًا من جراء الخوف الذي تحول إلى عرضها التالي. وجدت نفسي في حالة أشبه بمدير المدرسة، أو أنني في فخ أو ورطة؛ ألعب دور العنكبوت فأنسج خيوطي دائمًا لإيقاع دورا كالذبابة في شبكتي، فأنقض دائمًا خارج حفرتي لأسبب لها اضطرابًا لا متناهٍ.

ثابرت وتطلعت، على الرغم من كل شيء في هذه المرحلة المتوسطة، إلى الوقت الذي يقع فيه تعاطف تام بيني ودورا، وكان من المفترض أن أكون قد «شكلت عقلها» بصورة مُرضية تمامًا، لقد ثابرت طوال أشهر. اكتشفت أخيرًا أنه على الرغم من أنني كنت طوال هذا الوقت قنفذًا، وكنت أكد في كل شيء بعزم، وبعد أن خيل لي فيما مضى أن عقل دورا ربما قد صار تام التكوين بالفعل، فإنني لم أُصِب هدفي.

فكرت في الأمر بصورة أعمق، وقد بدا الأمر جليًّا للغاية، للدرجة التي تخليت فيها عن مخططي الذي كان له مظهر واعد قولًا لا فعلًا، عازمًا من الآن فصاعدًا على أن أكون راضيًا عن زوجتي الطفلة، وألا أحاول تغييرها إلى أي شيء آخر بأي وسيلة. لقد سئمت من أن أكون ثاقبًا وحصيفًا أمام نفسي، وسئمت من رؤية حبيبتي من أجل كبحها، لذلك اشتريت لها قرطًا جميلًا، وطوقًا لجيب، وذهبت بهم إلى المنزل ذات يوم لترضى عني.

كانت دورا مسرورة بالهدايا الصغيرة فقبلتني فرحة، إلا أن ثمة هوة مظلمة ظلت بيننا. قررت أنه ينبغي لهذه الغمة أن تنقشع، مهما كان ظلامها طفيفًا. إذا كان لا بد من وجود مثل هذه الظلمة في أي مكان، فسأحتفظ به للمستقبل في صدري.

جلست بجانب زوجتي على الأريكة، ووضعت القرطين في أذنيها. أخبرتها بعدها أنني أخشى أننا لم نكن على وفاق في الآونة الأخيرة، كما اعتدنا أن نكون، وأن الخطأ كان خطئي. كان هذا هو شعوري الصادق، وهو الأمر الذي حدث بالفعل.

قلت: «في الحقيقة يا دورا يا حياتي، إنني كنت أحاول أن أكون حكيمًا».

قالت دورا في خجل: «وحاولت أن تجعلني حكيمة أيضًا. أليس كذلك يا دودي؟».

أومأت بالموافقة على سؤالها، أمام هذين الحاجبين المرتفعين في جمال، وقبلت شفتيها المنفرجتين.

قالت دورا بينما تهز رأسها حتى اهتز القرطان مرة أخرى: «ليس ثمة فائدة تذكر. إنك تعرف طبيعة ما أنا عليه، وأي اسم أردت أن تطلقه عليَّ منذ البداية. إذا لم تتمكن من القيام بذلك، فإني أخشى أنك لن تحبني أبدًا. هل أنت متأكد من أنك لا تعتقد في بعض الأحيان أنه كان من الأفضل أن تحصل على...».

لم تبذل أي جهد للمضي قدمًا في حديثها، فسألتها: «أن أفعل ماذا يا عزيزتي؟».

قالت دورا: «لا شيء».

كررتُ: «كيف لا شيء؟».

وضعت ذراعيها حول رقبتي، وضحكت، ووصفت نفسها باسمها المفضل الساذج، ثم أخفت وجهها فوق كتفي، مظهرة هذا الكم من موجات شعرها الذي اعتنت به للغاية، وبذلت جهدًا في تنظيفه وإظهاره.

قلت ضاحكًا على تفكيري: «ألا أظن أنه كان من الأفضل ألا أفعل شيئًا، بدلًا من محاولة تشكيل عقل زوجتي الصغيرة؟ هل هذا هو السؤال؟ نعم، في الحقيقة لقد حاولت فعل ذلك حقًّا».

صرخت دورا قائلة: «أهذا ما حاولت فعله! يا لك من فتى صادم!».

قلت: «لكنني لن أحاول أبدًا بعد الآن، لأني أحبها حبًّا جمًّا كما هي».

سألتني دورا بينما تقترب مني: «من دون قصة... حقًّا؟».

قلت: «لماذا أسعى لتغيير من كانت كنزي الثمين لفترة طويلة؟! لا يمكنكِ أبدًا أن تظهري بصورة أفضل من طبيعتكِ يا دورا يا حلوتي، ولن نخوض أي تجارب واهية، ولكننا سنعود إلى طريقتنا القديمة، وسنصبح سعداء».

أجابتني دورا: «لنكن سعداء، نعم، طوال اليوم، ألن تمانع إن ساءت الأمور في بعض الأحيان؟».

فقلت: «نعم، نعم، علينا أن نبذل قصارى جهدنا».

تدللت دورا في قولها: «ولن تخبرني بعد الآن أننا نتسبب في إفساد الآخرين. أليس كذلك؟ لأنك تعلم أن هذا أمر متناقض بشكل مخيف».

قلت: «نعم، نعم».

قالت دورا: «أليس من الأفضل لي أن أكون غبية على أن أكون متوترة؟».

«من الأفضل أن تكوني دورا التي على فطرتها على أن تكوني أي شيء آخر في العالم».

«في العالم! آه يا دودي، يا له من مكان كبير!».

هزت رأسها، وقد وجهت عينيها المبتهجتين نحو عيني، وقبَّلتني، ثم ابتدعت ضحكة مرحة، واندفعت بعيدًا لتُلبس جيب طوقه الجديد.

وهكذا انتهت محاولتي الأخيرة من دون أن أحدث في دورا أي تغيير. كنت متألمًا من هذه التجربة، ولم أستطع تحمل نتائج تفكيري المنفرد، وكذلك لم أستطع التوفيق بين فكرتي ومناشدتها السابقة بمعاملتها كزوجة طفلة. لقد عقدت العزم على أن أفعل ما بوسعي في هدوء، لتحسين تدابير عيشنا بنفسي، إلا أنني توقعت أن أقصى ما سأبذله سيظل ضئيلًا للغاية، أو يدفعني إلى التدهور مرة أخرى في شباك العنكبوت، وأبقى في انتظار الفرج إلى الأبد.

انقشعت الغشاوة التي ذكرتها، ولم تعد تحتل مكانًا بيننا الآن، ولكن هل انصبت كليًّا داخل قلبي؟ أو كيف سقطت عني؟

ساد شعور الحزن القديم في حياتي، لقد تعمَّق، إذ تغيرت هيئته، لكنها صارت غير محددة كما كانت دائمًا. خاطبني شجن مثل مقطوعة موسيقية حزينة تناهى صوتها الخافت إلى أذني في الليل. لقد أحببت زوجتي كثيرًا وكنت سعيدًا، لكن السعادة التي كنت أتوقعها حولها غموض، ولم تصبح هي السعادة التي وددت الاستمتاع بها في يوم من الأيام، وقد صار ثمة شيء مفقود دومًا.

ها أنا أدلي برأيي في هذه الورقة؛ وفاءً لاتفاق أبرمته أمام نفسي، وأعاود فحصها عن كثب، وأظهر أسرارها للنور. أدون ما فاتني، وما

زلت أعتبره -كما كنت أعتبره دائمًا- شيئًا من حلم خيالي لشبابي. إنه حلم غير قابل التحقق. ها أنا أكتشف الأمر الآن، ممزوجًا ببعض الألم الطبيعي، كما يفعل كل الرجال. ربما كان من الأفضل أن أجد عونًا أكبر من زوجتي، وأن تشاركني أفكاري المتعددة، والتي أعرف أنها لم يكن ليشاركني فيها إنسان.

حاولت أن أوازن نفسي بين هذين الاستنتاجين المتعارضين، لأن أولهما شعرت به شعورًا عامًّا ولا مفر منه، وثانيهما خاص بي، ولعله كان من الممكن أن يصير مختلفًا. شعرت بعدم وجود فارق واضح يشي بمعارضتهما البعض، فعدت لأفكر في أحلام الشباب البعيدة عن التحقق، لكني استرجعت مرحلة ما قبل الرجولة التي تجاوزتها في أفضل حال، ثم استرجعت أيامي الرائقة التي قضيتها مع أجنيس في المنزل القديم المحبب إليَّ. انقضت هذه الأيام أمامي مثل أشباح الموتى، التي قد تبعث من جديد في عالم آخر، ولكنها لا يمكن أن تحيا لمدة أطول في هذا العالم.

راودني في بعض الأحيان بعض من هواجس؛ ماذا كان ليحدث، لو لم نتعرف أنا ودورا كل منا على الآخر؟ لقد كان وجودها مندمجًا جدًّا مع وجودي، لدرجة جعلت من هذا الهاجس الأكثر خمولًا من بين جميع الأوهام، وسرعان ما انقشع بعيدًا عن متناول يدي وبصري، مثل شعاع الشمس يخبو في الهواء.

لطالما أحببتها. صار كل ما أصفه، غفوات، ثم صحوة، ثم نومًا مرة أخرى، في أعمق فترات ذهني استرخاء. لم يكن عندي دليل على

أقوالي. لا أعرف أي تأثير لها في أي شيء قلته أو فعلته. لقد تحملت ثقل همومنا الصغيرة بأسرها وكذلك كل مشاريعي، بعد أن اكتفت دورا بحمل الأقلام. أدرك كلانا أدوارنا التي تتغير بحسب حالتنا. كانت دورا مغرمة وفخورة بي حقًّا. لقد كتبت أجنيس بضع كلمات جادة في رسائلها، مادحة حالة الزهو والاهتمام التي يبديها أصدقائي القدامى حين يتحدثون عن مكانتي المتنامية، وعن قراءتهم كتابي كما لو أنهم سمعوني أتحدث بمحتوياته. لقد قرأت دورا كلمات أجنيس وقد لاحت دموع من فرح في عينيها اللامعتين، ثم قالت إنني فتى عزيز عليها، ذكي ومشهور.

«إنه الدافع الخاطئ الأول لقلب غير منضبط». كانت كلمات السيدة سترونج تلك تتكرر داخل رأسي باستمرار في ذاك الوقت، وتعاد دائمًا في عقلي، بل رحت أستيقظ عليها في جوف الليل، وأتذكر أنني قرأتها حتى في أحلامي، وأنها كانت منقوشة على جدران المنازل. لقد عرفت الآن أن قلبي كان أهوج ساذجًا بفطرته عندما أحب دورا، وأنه لو كان منضبطًا متعقلًا، ما شعرت أبدًا عندما تزوجنا بما شعرت به من مشاعر خفية.

«ليس ثمة تنافر في الزواج أكثر بغضًا من عدم تواؤم الرؤية والهدف». تذكرت هذه الكلمات أيضًا، فقد حاولت أن أُكيف دورا مع نفسي، إلى أن صار الأمر بلا جدوى، ولم يبقَ أمامي سوى أن أُكيف نفسي مع دورا، لأتشارك معها أمرها ما دمت استطعت، فأغدو سعيدًا راضيًا، وأحمل على عاتقي ما أستطيع تحمله، ولأبقي على السعادة بيننا

كذلك. كان هذا هو الانضباط الذي حاولت أن أكنه في قلبي، حينما بدأت التفكير في الأمر. صار عامي الثاني من الزواج أكثر سعادة من العام الأول. والأفضل من ذلك، أن صارت حياة دورا مشرقة.

لم تكن دورا بوافر صحتها مع حلول ذلك العام. كنت آمل أن تساعدني يدان أخف من يدي في تشكيل شخصيتها وصوغها من جديد، وأن ابتسامة طفل على صدرها كفيلة بأن تغير زوجتي الطفلة وتحولها إلى امرأة ناضجة، لكن لم تسِر الأمور على هذا النحو، إذ رفرفت هذه الروح للحظة على عتبة سجنها الصغير، وأطلقت جناحها من دون أن تعي من الأمر شيئًا.

قالت دورا: «عندما يمكنني الركض مرة أخرى، كما تعودت أن أركض يا عمتي، سأجعل جيب يتسابق معي. لقد صار بطيئًا وكسولًا».

قالت عمتي بينما تعمل بجانبها في هدوء: «إنني أشك في ذلك يا عزيزتي، إنه يعاني من اضطراب أسوأ من الكسل. إنه التقدم في العمر يا دورا».

سألت دورا مندهشة: «هل تعتقدين أنه كبير في السن؟ آهٍ، كم يبدو غريبًا أن يصير جيب عجوزًا».

قالت عمتي في مرح: «إنه أمر سنتحمله جميعًا يا صغيرتي، وها نحن نواصل مسيرتنا في الحياة نحو الكبر. أؤكد لكِ أنني لا أجد مهربًا لأتحرر من عوارض التقدم في السن».

قالت دورا بينما تنظر إليه برأفة: «لكن جيب... حتى جيب الصغير، آهٍ يا رفيقي المسكين».

ربتت عمتي على خدَّي دورا حين انحنت من فوق أريكتها لتنظر إلى جيب، الذي استجاب لها بالوقوف على رجليه الخلفيتين، ثم حاول بمختلف الطرق القفز فوق رأسها وكتفها. قالت عمتي: «سأصارحكِ بأنه سيستمر في تعبه لفترة طويلة، يا زهرتي... يجب أن نبطن له بيته بقطع القماش هذا الشتاء، ولن أندهش إذا ما عاد منتعشًا مرة أخرى مع تفتح الأزهار في الربيع. فليحفظ الله الكلب الصغير. إذا امتلك جيب عديدًا من الأرواح مثل قطة، وكان على وشك أن يفقدها جميعًا، فإنني أظن أنه لن يكف عن النباح في وجهي مع أنفاسه الأخيرة».

ساعدته دورا على النهوض فوق الأريكة. كان حقًّا يتحدى عمتي بالنباح إلى أقصى درجات الغضب، لدرجة أنه لم يستطع الحفاظ على استقامته، لكنه ظل ينبح على الرغم من اعوجاج جسده إلى جانبه. كانت عمتي تطيل النظر نحوه، فتزداد نظراته إليها لومًا، ويزداد نباحًا، إلا أنها كانت قد اعتادت أخيرًا أن تلبس نظارتها، ولسبب غامض اعتبر جيب أن النظارة إهانة موجهة إليه تحديدًا.

أقنعته دورا أن يرقد بجانبها بعد إلحاح طويل، وما إن صار هادئًا، حتى سحبت إحدى أذنيه الطويلتين وأخذت تديرها وتخلخلها بيدها، مكررة في تمعن قولها: «حتى جيب الصغير! آهٍ يا رفيقي المسكين».

قالت عمتي في مودة: «إن رئتيه سليمتان بما يكفي لمواصلة العيش، وغضبه ليس هينًا على الإطلاق. لم تزل أمامه سنوات عديدة بلا

شك ليحيا، ولكن إذا كنتِ تريدين كلبًا يتسابق معكِ يا زهرتي الصغيرة، فقد أدى جيب ما عليه من هذا الدور، وسأمنحكِ كلبًا جديدًا يناسبكِ».

قالت دورا بصوت خافت: «شكرًا لكِ يا عمتي. لكن لا، من فضلكِ».

سألت عمتي وهي تخلع نظارتها: «لمَ لا؟».

أجابت دورا: «لا يمكنني حيازة أي كلب آخر سوى جيب. سيكون الأمر قاسيًا جدًّا على جيب. علاوة على ذلك، فإنني لا أستطيع أن أكن هذه الصداقة نفسها مع أي كلب آخر غير جيب، لأنه لازمني قبل أن أتزوج، ولم ينبح على دودي عندما جاء لأول مرة إلى منزلنا. لا أستطيع رعاية أي كلب آخر، ولكني أخاف على جيب يا عمتي».

تحدثت عمتي بينما تربت على خدها مرة أخرى: «بالتأكيد، إنكِ على حق».

قالت دورا: «إنكِ لستِ مستاءة، أليس كذلك؟».

صرخت عمتي بينما تنحني عليها في ود: «لماذا أستاء؟! يا لكِ من قطة أليفة وحساسة! كيف تتصورين أنني يمكن أن أشعر بالإهانة لرفضكِ؟!».

راحت دورا تقول: «لا، لا، لم أكن أتصور ذلك حقًّا، لكنني متعبة قليلًا، وقد جعلني ذلك سخيفة لبعض الوقت في حديثي عن جيب. إنني دائمًا شيء صغير سخيف كما تعلمون، لكن التعب قد جعلني أكثر سخافة. لقد عرفني في كل ما حدث لي، أليس كذلك يا جيب؟

ولا أستطيع تحمل إهانته، لأنه قد تغير قليلًا. هل يمكنني أن أفعل ذلك يا جيب؟».

صار جيب يقترب من سيدته، وقد أخذ يلعق يدها في تكاسل.

قالت دورا: «أنت لست عجوزًا يا جيب إلى الحد الذي يجعلك تترك سيدتك الآن، أليس كذلك؟ قد نحتفظ بوجودنا معًا لفترة أطول قليلًا».

يا لجمالكِ يا دورا! نزلت لتناول العشاء يوم الأحد التالي، وقد لفتها سعادة بالغة لرؤية ترادلز الذي اعتاد أن يتناول معنا العشاء دائمًا في يوم الأحد. ظننا أنها ستركض كما كانت تفعل في غضون أيام قليلة، لكنها لم تفعل. انتظرنا أيامًا قليلة لتعود لعهدها السابق، ثم انتظرنا بضعة أيام أخر من دون أن تركض أو تمشي كذلك. إلا أنها بدت في غاية الجمال، ولم تزل كذلك مرحة جدًّا. أما قدماها الصغيرتان اللتان اعتادتا أن تكونا رشيقتين للغاية وأن تتراقصا حول جيب، فقد صارتا واهنتين وبلا حراك.

بدأتُ في حملها نزولًا إلى الطابق السفلي كل صباح، وصعودًا إلى الطابق العلوي كل ليلة. تتشبث حول رقبتي وتضحك، كما لو أنني أراهن كل مرة على إضحاكها. ينبح جيب ثم يدور حولنا ليسبقنا بخطواته، ثم يلتفت إلى الوراء ليتأكد أننا في طريقنا للهبوط، يلتقط أنفاسه ويراقب قدومنا نحوه. كانت عمتي، أفضل الممرضات وأكثرهن بهجة. تمشي وراءنا، كتلة متحركة من أغطية الشالات والوسائد. أما السيد دك، فلم يكن ليتنازل عن منصب حامل الشمعة لأي شخص على قيد الحياة. أما

ترادلز فغالبًا ما كان يمكث أسفل الدرج، يراقبنا ويتولى مسؤولية أي رسائل إشارية من دورا إلى فتاته الأعز عليه في العالم. لقد صنعنا موكبًا مثاليًّا تمامًا، وكانت زوجتي الطفلة الأكثر جاذبية به.

كنت أحملها في بعض الأحيان، فأشعر أنها أخف وزنًا بين ذراعي. انتابني شعور بأن ثمة هوة سحيقة، كما لو أنني أقترب من منطقة متجمدة غير مرئية، كان لها من الأثر في تخدير حياتي. تجنبت الاعتراف بهذا الشعور تحت أي مسمى. تجاهلت وقع مشاعري على نفسي، إلى أن حلت ليلة، أثقلتني بوقعها. كانت عمتي قد تركت دورا بعد أن حيتها قائلة: «ليلة سعيدة يا زهرتنا الصغيرة». جلست إلى مكتبي وحدي، ورحت أفكر قائلًا لنفسي: يا له من اسم مشؤوم. كيف ذبلت الزهرة الصغيرة قبل أن تتفتح على أفرع الشجرة؟!



# الفصل التاسع والأربعون

## اشتراكي في سر

تلقيت ذات صباح بالبريد الرسالة التالية، والتي أرسلت من كانتربري معنونة باسمي إلى مكتبي في مجلس العموم. قرأت فيها ما يلي في دهشة:

«سيدي العزيز،

لقد أدت ظروف خارجة عن إرادتي الشخصية، ولفترة طويلة من الزمن، إلى قطع هذه العلاقة الحميمة. انقطعت في ظل الفرص المحدودة التي أتيحت لي في خضم واجباتي المهنية، إلا أنني رحت أتأمل مشاهد وأحداث الماضي، وقد أضفت عليها ذاكرتي مختلف المباهج العالقة بها، وعليها أن تحتفظ بها إلى الأبد، لإثراء هذا النوع من المشاعر المبهجة التي لا توصف. وإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة يا سيدي العزيز ما حققته لك موهبتك من الرقي والتميز، والتي قد تمنعني من الافتراض بأن أتطلع في حرية إلى مخاطبة رفيق شبابي، باسمه المألوف كوبرفيلد! يكفي أن أعرف أن الاسم الذي أتشرف بأن أشير إليه، سيبقى فخرًا لا يضاهى بين ذخائر منزلنا (أشرت إلى المحفوظات

المتعلقة بنزلائنا السابقين، والتي احتفظت بها السيدة ميكوبر)، وسيبقى محاطًا بكل مشاعر الاحترام لشخصه والتي تبلغ منزلة المودة والحب.

لم يكن لإنسان مثلي الوقوع في مثل هذه الأخطاء الفارقة مع مجموعة من المصادفات المشؤومة غير المعهودة، فأصير كسفينة محطمة (إذا كان مسموحًا لي الاستعانة بمثل هذا التشبيه من بين زمرة البحرية)، ها هو يتناول القلم في هذه اللحظة ليكتب إليك - أكرر أنه لسبب ما، لا تُبنى لغتي على المجاملة أو التهنئة، فمن الأفضل أن أترك هذه الصفات ليدين أقوى حديثًا وأنقى قلمًا.

إذا سمحت لك أعمالك المهمة بأن تلقي نظرة على مثل هذه العبارات غير الكاملة حتى الآن - والتي قد تظهر، أو لا تظهر لك، مصادفة - فسوف تتساءل بشكل طبيعي إذن عن الشيء الذي تأثرت به، وحثها على كتابة الرسالة الحالية. اسمح لي أن أقول إنني أسعى تمامًا لإدراك الدافع المعقول لإجابة السؤال، وأشرع في تقديم الرد عليه، وأفترض أنه ليس من ورائه دافعًا ماليًّا.

لست هنا بصدد الإشارة بشكل مباشر إلى قدرتي الشخصية على توجيه الصاعقة، أو إطلاق اللهب الثائر، للانتقام في أي مكان، فهل يُسمح لي أن أقول قولًا عابرًا بأن تطلعاتي الزاهية قد تبددت للأبد، وأن سلامي قد تحطم وأن قوتي في البهجة قد دُمرت، وأن قلبي لم يعد في مكانه المناسب، ولم أعد أسير منتصبًا أمام المخلوقات. لقد تقرحت الزهرة، وامتلأت الكأس بالمرارة حتى حافتها، والتهمت الدودة فريستها، وسرعان ما ستتخلص من ضحيتها، وفي الإبكار الخير. إنني

لن أستطرد أكثر. إنني في وضع نفسي مؤلم غريب، بل لا تستطيع السيدة ميكوبر التخفيف عن أوجاعي، على الرغم من أنها تؤدي دورًا ثلاثيًّا من كونها امرأة وزوجة وأمًّا، ولذلك إنني أعتزم الهروب من نفسي لفترة قصيرة، فأخصص فترة راحة مدتها ثمانٍ وأربعون ساعة، لإعادة زيارة بعض المشاهد الحضرية للاستمتاع بالماضي والتاريخ بما يريح بالي ويبعث في روحي السكينة. ستأخذني قدماي بشكل طبيعي نحو سجن الملك، وسأكون خارج الجدار الجنوبي له في عملية مدنية بعد غد في تمام الساعة السابعة مساءً على وجه التحديد، وهذا هو الهدف من هذه الرسالة.

لا أشعر أن هناك ما يدعو لتبرير طلبي من صديقي السابق السيد كوبرفيلد، أو صديقي السابق السيد توماس ترادلز -إذا كان هذا الرجل لا يزال موجودًا وقريبًا- بالتنازل لمقابلتي، وتجديد علاقاتنا القديمة في الأيام الخوالي بما تسمح به الظروف. سأكتفي بقول ملاحظة حيث إنكما ستجدانني في الساعة والمكان اللذين أشرت إليهما، حيث يمكنكما العثور على أشباهي من آثار مدمرة موجودة حتى الآن

من حطام

برج متهدم

ويلكنز ميكوبر».



«ملاحظة: قد يكون من الأفضل، إضافة إلى ما سبق، الإفادة بأن السيدة ميكوبر لا تعرف شيئًا عن هذا السر».

قرأت الرسالة عدة مرات. حاولت أن أجد مسوغًا لأسلوب السيد ميكوبر النبيل في الكتابة، ورحت أفكر في المتعة الاستثنائية التي دفعته للجلوس وكتابة رسائل طويلة بمختلف طرق الالتواء البعيدة. ما زلت أظن أن شيئًا مهمًّا يكمن وراء هذا التواصل غير المباشر، وقد نحيت الرسالة جانبًا لأفكر في مرماها، ثم تناولتها مرة أخرى لأعيد قراءتها، فجاءني ترادلز بينما لم أزل أتفحصها في ذروة حيرتي.

قلت: «صديقي العزيز، لم أكن سعيدًا يومًا برؤيتك مثل الآن. لقد أتيت لتعطيني خلاصة حكمتك الرصينة في أنسب وقت، إذ تلقيت خطابًا فريدًا جدًّا من السيد ميكوبر يا ترادلز».

صاح ترادلز: «أحقًّا ما تقوله؟ لا تقل إنه حقيقي؟ إنني تلقيت بدوري رسالة من السيدة ميكوبر».

تجمدت مشية ترادلز بهذه الكلمات، وقد اقشعر وانتصبت شعيراته تحت تأثير الجهد والإثارة معًا، كما لو أبصر شبحًا مرتاعًا، ثم أخرج رسالته وتبادلها مع رسالتي. راقبت انفعالاته التي يبديها مع قراءته لرسالة السيد ميكوبر، وإذا به يرفع حاجبيه مع قراءته لبعض تعبيراتها مرددًا: «توجيه الصاعقة، أو إطلاق اللهب الثائر، للانتقام»، وما لبث أن قال: «يا للعجب يا كوبرفيلد!» تحولت بدوري إلى رسالة السيدة ميكوبر واطلعت عليها.

كانت الرسالة على النحو التالي:

«تحياتي الطيبة إلى السيد توماس ترادلز، وإذا لم يزل يتذكر إنسانة قد حظيت سابقًا بسعادة وشرف التعرف عليه، فهل أرجو أن أشغل بضع لحظات من وقته؟ أؤكد للسيد توماس ترادلز أنني لم أكن لأتطفل طالبة عطفه، لو أنني كنت في أي وضع آخر غير هذا الوضع المتشرذم.

إنه من دواعي أسفي أن أذكر نفور السيد ميكوبر من زوجته وعائلته (على الرغم من أنه طالما استأنس بهما من قبل). وهذا هو سبب مراسلتي للسيد ترادلز بهذا النداء التعيس، ربما ألتمس أفضل الأعذار له. لا يستطيع السيد ترادلز تخيل فكرة ملائمة تعبر عن مدى تغير سلوك السيد ميكوبر، بما في ذلك وحشيته وعنفه. لقد تفاقم الأمر تدريجيًّا إلى أن خرج عن حدود العقل. إنني أؤكد للسيد ترادلز أنه نادرًا ما يمر يوم، من دون أن تحدث بعض من هذه النوبات. إن السيد ترادلز لن يطلب مني تصوير مشاعري، عندما أبلغه أنني قد اعتدت سماع السيد ميكوبر بينما يؤكد أنه باع نفسه لشيء غامض، وقد صارت سماته الرئيسية منذ فترة طويلة تتسم بالسرية، هكذا تبدلت بصورة غير محدودة. إن أدنى استفزاز ولو كان يقتصر على سؤاله عن شيء يفضله على العشاء، قد يجعله يعبر عن رغبته في الانفصال. أما ليلة أمس عندما سأله التوأم بسذاجة أن يمنحهما بنسين لشراء «حلوى الليمون» -وهي نوع من الحلوى المحلية- إذا به يخرج سكين المحار في وجه التوأم.

إنني أناشد السيد ترادلز أن يتحمل معي عبء الدخول في هذه التفاصيل، لأنه من دونها سيجد صعوبة في تكوين ولو صورة هينة حقًّا لوضعي الحقيقي الذي يفطر قلبي.

هل يمكنني الآن أن أخاطر بالبوح للسيد ترادلز بمغزى رسالتي؟ هل سيسمح لي الآن أن أطمع في وده وعطفه؟ آه، نعم لأني أدرك حقيقة قلبه.

إن فطنة المشاعر لا يمكن أن تعمى عن شيء بسهولة، خاصة إن كان لامرأة. سيذهب السيد ميكوبر إلى لندن. لقد أخفى يده عن كثب هذا الصباح قبل الإفطار، وقد طوى فيها تذكرة معنونة باتجاه السفر. لقد حجبها داخل جراب بني صغير وكانت بقيت لدينا منذ أيامنا السعيدة الماضية. لكنني بنوع من القلق الزوجي وبنظرة نسر وقلق الأم، فأبصرت حرفي الدال والنون، وميزتهما بوضوح، كانت وجهة الحافلة ناحية الغرب، وستصل إلى جولدن كروس. إنني أتضرع إلى السيد ترادلز بحرارة، وأناشده أن يقابل زوجي الضال وأن يتفاهم معه. أتجرأ على أن أطلب من السيد ترادلز أن يحاول التدخل بين السيد ميكوبر وعائلته المنكوبة. آهٍ وا أسفاه، يا له من مطلب فوق طاقة الاحتمال!

إذا كان السيد كوبرفيلد لم يزل يذكر إلى الآن امرأة مثلي نكراء، فهل سيتكرم السيد ترادلز فيحمل إليه تحياتي واحترامي اللذين لا يتبدلان، وينقل إليه توسلاتي نفسها. أرجو أن يعتبر هذه الرسالة خاصة من دون أن يلمح بها بأي حال من الأحوال ولو من بعيد في حضور السيد ميكوبر. وإذا تكرم السيد ترادلز بالرد على رسالتي (وهو الأمر الذي لا يسعني إلا أن أتصوره بعيد الاحتمال)، فإني أرجو أن تحفظ

الرسالة الموجهة إلى السيدة أ. م في مكتب بريد كانتربري، ليكون الأمر محفوفًا بعواقب أقل إيلامًا من أي رسالة موجهة على الفور إلى الإنسانة التي تعد نفسها في هذا الكرب الشديد.

صديقة السيد توماس ترادلز المحترم والمتعاون؛

إيما ميكوبر».

كان ترادلز قد قرأ الرسالة لمرتين، ثم راح ينظر إليَّ بعدها قائلًا: «ما رأيك في هذه الرسالة؟».

سألته بينما لم يزل عاقدًا حاجبيه يتفحصها: «وما رأيك أنت في الرسالة الأخرى؟».

أجاب ترادلز قائلًا: «أظن أن كلًّا منهما يا كوبرفيلد يقصد كتابة ما يفوق قصدهما في رسالتيهما، وهذه عادة السيد ميكوبر وزوجته في مراسلاتهما - لكني لا أعرف السبب. إن الخطابين مكتوبان بحسن نية، ولا شك لديَّ في ذلك، ومن دون أي اتفاق بينهما. يا للمسكينة!» كان ترادلز يلمح في هذه اللحظة إلى رسالة السيدة ميكوبر، وكنا نقف جنبًا إلى جنب بينما نقارن كل واحدة بالأخرى. قال ترادلز: «أرى أنه من اللطف لو أجبناها في جميع الأحوال، ولنخبرها أننا لن نتردد أبدًا في مقابلة السيد ميكوبر».

وافقت على هذه الفكرة في سهولة جمة، وقد صرت في هذه اللحظات ألوم نفسي بعد أن تعاملت مع رسالتها السابقة باستخفاف. استدعى هذا الموقف وقتًا مضى، أذكر ما وقع به جيدًا حيث كنت

مستغرقًا في أعمالي الخاصة، وتجربتي مع الأسرة، ولم أكن لأنتبه إلى ما سواهما، وقد انتهى الأمر تدريجيًّا برفضي لمضمون الرسالة. كنت غالبًا ما أفكر في عائلة ميكوبر، ولكني أتساءل في الأساس عن «الالتزامات المالية» التي راكموها في كانتربري، وأتذكر كيف بدا السيد ميكوبر خجولًا أمامي بعد أن صار كاتبًا ليورايا هيب.

كتبت الآن -على الرغم من كل شيء- رسالة مطمئنة إلى السيدة ميكوبر، ثم وقعناها باسمينا مجتمعين، ثم سرنا نحو المدينة في طريقنا إلى إرسالها. رحت أنا وترادلز نتجادل في مناقشات طويلة، وأطلقنا عددًا من التكهنات، والتي لا أحتاج إلى تكرارها. ما لبثنا بعدها إلا واتجهنا إلى عمتي بعد الظهيرة طالبين منها المشورة. كان الشيء الوحيد الذي قررناه هو أننا سنلتزم بالموعد المحدد الذي عينه السيد ميكوبر لمقابلتنا.

وصلنا إلى المكان المحدد قبل ربع ساعة من الموعد، إلا أننا وجدنا السيد ميكوبر هناك بانتظارنا. كان يقف وقد شبك ذراعيه مستندًا إلى الحائط، ينظر إلى الأسياخ التي تعلوه، في تعبير عاطفي، كما لو أنه يتصورها أغصان الأشجار المتشابكة التي ظللته في شبابه.

دنونا منه، وخاطبناه وقد انتبهنا إلى طريقته التي صارت أكثر حيرة وأقل رقة مما كانت عليه منذ وقت مضى. كان قد تخلى عن زيه الرسمي ذي اللون الأسود، ليقوم بهذه الرحلة بعد أن ارتدى معطفًا قديمًا وبنطالًا، ولكنه بدا أقل أناقة من ذي قبل. استعاد رونقه القديم شيئًا فشيئًا بعد أن تحدثنا إليه، أما نظارته فقد كانت تتدلى بسهولة عن عينيه، وكذلك

فاضت عنه ياقة قميصه، على الرغم من أنها لم تزل محتفظة بقوامها القديم هائل الحجم، فإنها كانت متدلية بعض الشيء.

ألقينا التحايا ثم قال السيد ميكوبر: «أيها السادة، إنكما صديقان حقيقيان، إنكما نعم الصديقان وقت الشدائد. فلتسمحا لي أن أسأل عن الحالة الصحية للسيدة كوبرفيلد في الوقت الحالي، أما مكانة السيدة ترادلز فمحفوظة على افتراض ما سأتبعه من سؤالي عليها، على اعتبار أنني صرت صديقًا للسيد ترادلز في السراء والضراء».

شكرنا ذوقه، وقدمنا له ردودًا لائقة. نبهنا للاقتراب قليلًا نحو الجدار ثم بدأ يقول: «أؤكد لكما، أيها السيدان...» لكنني اعترضت على ما أبداه من تكليف بيننا، فرجوته أن يتحدث إلينا بطريقته القديمة.

عاود حديثه بعد أن شد على يدي قائلًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إن لطفك يغلب عليَّ. أما هذا الاستقبال لواجهة محطمة من هيكل كان ذات يوم إنسانًا ينم عن قلب يكشف عن طبيعتنا الطيبة المشتركة، إذا سمح لي بالتعبير عن نفسي بهذا الشكل. كنت على وشك ملاحظة ما أراه مرة أخرى في تلك الفترة الهادئة التي مر بها بعض أسعد ساعات وجودي».

قلت: «لقد فعلت ذلك بلا شك بفضل السيدة ميكوبر، وأرجو أن تكون بخير».

صار وجه السيد ميكوبر غائمًا عند هذه الإشارة، فأومأ في حزن قائلًا: «شكرًا لك. إن حالتها متذبذبة، وكذلك حال السجن! لأول مرة منذ سنوات عديدة، لم أعانِ هذا الكم الهائل من ضغط الالتزامات

المالية، والديون التي تتراكم من يوم لآخر. لقد تكدس الممر بالدائنين وصاروا يرفضون إخلاءه. لا توجد مطرقة على الباب لكي يلجأ دائن إليها ليدقها، ولم تكن ثمة محاباة لإجراءات شخصية، ولم يتبقَّ شيء للحجز عليه، لم يبقَ سوى الباب العام أيها السيدان! لقد أبصرت ظل انعكاس الحديد المشيد فوق قمة هرم الطوب المتراس بين حصى المكان، ورأيت أطفالي يخربون متاهات هذا النمط المتماسك، متجنبين علامات الاستدلال الغامقة. لقد كنت على دراية بكل حجر في المكان. أما وقد حلَّ الوهن، فإنكما لمدركان كيف تعذراني».

قلت: «لقد شرعنا جميعًا في مسايرة الحياة منذ ذلك الحين يا سيد ميكوبر».

عاود السيد ميكوبر حديثه قائلًا في مرارة: «يا سيد كوبرفيلد، كنت نزيلًا في ذلك المعزل، وكان بإمكاني ساعتها أن أنظر إلى وجه زميلي وألكم رأسه إذا أساء إليَّ. إلا أنني أنا وزملائي فلم نعد على أخلاقنا المجيدة الآن».

ابتعد السيد ميكوبر عن حائط المبنى في هيئة يائسة، وقد تناول ذراعي الممتدة من جهة، وكذلك أخذ بيد ترادلز من الجهة الأخرى، ثم سار بيننا.

استطرد السيد ميكوبر حديثه بينما يلتفت نحو الخلف بنظراته الحانية من فوق كتفه، قائلًا: «إن بعض معالم الطريق تؤول إلى القبر، ولولا معصية الطموح، ما رغب إنسان في تجاوزها أبدًا. وهكذا كان مسار حياتي المتقلبة».

قال ترادلز: «آه، إنك ليائس يا سيد ميكوبر».

قاطعه السيد ميكوبر قائلًا: «إنني كذلك يا سيدي».

قال ترادلز: «أرجو ألا يكون السبب هو ما صورته من كراهية للقانون، لأنني محامٍ كما تعلم».

لم يُجب السيد ميكوبر بكلمة واحدة.

تكلمت بعد فترة صمت سائلًا: «كيف حال صديقنا هيب يا سيد ميكوبر؟».

أجاب السيد ميكوبر، بعد أن انفجر في حالة انفعال بالغ، وقد تحول شاحبًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إذا كنت تسأل عن صاحب العمل بوصفه صديقًا لك، فإنني آسف على هذه الصداقة، وإذا سألت عنه بصفته صديقي، فها أنا أبتسم ساخرًا. وبغض النظر عن الصفة التي تسأل بها عن صاحب العمل، فإنني أتوسل إليك من دون إساءة، أن أقصر إجابتي على هذا القول: فمهما كانت هيئته صالحة، فإن جوهره ماكر، لا أصوره إلا بشيطان. سوف تسمح لي على اعتبار مكانتي لديك، أن أرفض متابعة التحدث في موضوع جعلني أشعر باليأس إلى أقصى درجاته في مسيرتي المهنية».

أعربت عن أسفي لتطرقي ببراءة لموضوع قد أثاره للغاية. قلت: «هل لي أن أسأل، من دون مغبة تكرار الخطأ؛ كيف حال أصدقائي القدامى السيد ويكفيلد والآنسة ابنته؟».

أجاب السيد ميكوبر، بعد أن اعتلت وجهه حمرة الحياة: «إن الآنسة ويكفيلد كانت وستظل كما هي دائمًا؛ قدوة ومثالًا مشرقًا. إنها يا عزيزي كوبرفيلد النقطة الوحيدة المرصعة بالنجوم في هذا الوجود البائس. إنني أكن احترامًا لهذه السيدة الشابة، وإعجابًا بشخصيتها، وتفانيًا لها من أجل حبها وحقيقتها، وصلاحها. هلا تأخذاني، خذاني إلى مكان هادئ لأتمالك روحي، فإني لست في حالة متماسكة».

سقناه إلى شارع ضيق، حيث أخرج منديلًا من جيبه ووقف مسندًا ظهره إلى الحائط. ولو أنني نظرتُ إليه متحفزًا كما يفعل ترادلز، لوجد مرافقتنا له غير ملهمة بأي حال من الأحوال.

راح السيد ميكوبر يبكي بغير تصنع، لكنه لاح في ظل نحيبه لطيفًا راقيًا كعادته، وقال: «إنه قدري... قدري أيها السيدان. لقد صارت مشاعرنا الطبيعية الخالصة مثارًا لتوبيخي. إن تبجيلي للآنسة ويكفيلد يرفرف بين جوانحي. ألم يكن من الأفضل لو تركتني هائمًا شريدًا في الأراضي، فينهال عليَّ الدود وأفنى في وقت وجيز؟».

لم نشاركه هذا الدعاء، بل وقفنا متفرجين، حتى أعاد منديله إلى جيبه، ورفع ياقة قميصه، ربما ليخدع أي شخص يحاول مراقبة بكائه في الحي، غمغم بكلمات ثم أمال قبعته كذلك جانبًا في صورة مبالغة. لم أدرك ماذا كان ليفوتنا منه لو لم نحرص على رؤيته. دعوته لزيارة عمتي لأقدمه إليها وقلت إن موافقته ستسرني ما دام سيأتي إلى هايجيت، حيث ثمة سرير في انتظاره.

قلت له: «ستعد لنا كأسًا من البانش يا سيد ميكوبر على طريقتك،

ومن ثَم ستبعد عن ذهنك كل ما يشغله، وستُبقي على ذكرياتك الممتعة».

قال ترادلز في تروٍّ: «لعله من الأفضل لو كشفت مكنون صدرك إلى صديقين فترتاح، وتسكن لوعتك، هيا فلتبح لنا يا سيد ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «أيها السيدان، فلتفعلا بي ما تشاءان، لست سوى قشة تطفو على سطح الهاوية، وقد ألقت بي الأفيال وبعثرتني في مختلف الدروب. أستميحكم عذرًا، كان عليَّ أن أبوح بتعبير يلائم حالي».

مشينا وقد تأبط كل منا الآخر مرة أخرى، ووجدنا عربة على وشك التحرك، وبالمناسبة لقد وصلنا إلى هايجيت من دون مواجهة أي صعوبات. انتابني شعور بالغ بالاضطراب وقد صار ذهني مشوشًا، فلم أوقن بما يحسن عليَّ قوله أو فعله بالضبط، وكذلك شعر ترادلز بالشيء نفسه، بل تجلى اضطرابه عليه. كان السيد ميكوبر غارقًا في كآبة عميقة أغلب الوقت، لكنه حاول من حين لآخر أن يذكي نفسه، ويرنم ببعض الألحان الشاذة، لكن منظر قبعته المائلة، وياقة قميصه المرفوعة حتى عينيه، لم تزيداه إلا إيغالًا في أعماق البؤس.

لم تكن دورا في حالة صحية جيدة، ومن ثَم ذهبنا إلى منزل عمتي بدلًا من منزلي. قدمت عمتي نفسها حال وصولها، ورحبت في ود بالسيد ميكوبر. قبَّل السيد ميكوبر يدها، وجلس بجوار النافذة، وقد أزاح منديله، وبدا كما لو أنه رجل يصارع انفعالات مشاعره.

كان السيد دك في المنزل، وكان بطبيعته شديد التعاطف مع أي إنسان تبدو عليه الكآبة والهدوء، وقد كان سريعًا جدًّا في العثور على أي إنسان

على هذه الشاكلة، لدرجة أنه صافح السيد ميكوبر ست مرات على الأقل في خمس دقائق. وجد السيد ميكوبر نفسه مندمجًا وقد تورط في كل هذا الاحتواء الذي أبداه رجل غريب، وقد كان مؤثرًا للغاية، إلى الحد الذي منعه من الحديث إلا أن يومئ برأسه كلما أتيحت له الفرصة قائلًا: «يا سيدي العزيز، لقد غلبني قولك»، أرضى هذا الموقف السيد دك للغاية، حتى إنه راح يكرر مصافحته في قوة تفوق ما قبلها مرات عدة.

قال السيد ميكوبر لعمتي: «يا سيدتي الفاضلة، إذا سمحتِ لي باستعارة عبارة من بين كلمات ومفردات تعبيراتنا الوطنية الجزلة، فإن هذا الرجل قد «غمرني عزًّا». إن حفاوة هذا الاستقبال قد أنقذت رجلًا مهدر الشعور يعاني عبئًا عضالًا من الحيرة والقلق».

أجابت عمتي في فخر: «إن صديقي السيد دك ليس رجلًا عاديًّا».

قال السيد ميكوبر: «إنني على يقين من ذلك يا سيدتي العزيزة، إنني ممتن لشدة لطفك»، ومن ثَم راح السيد دك يصافحه مرة أخرى.

قال السيد دك بنظرة قلقة: «كيف حالك؟».

أجاب السيد ميكوبر متنهدًا: «إنني غير مبالٍ، يائس يا سيدي العزيز».

قال السيد دك: «يجب أن تحافظ على معنوياتك مرتفعة، وتريح نفسك قدر الإمكان».

أثَّرت هذه الكلمات الودودة على السيد ميكوبر، وكذلك فعلت يد السيد دك التي أحاطت مرة أخرى بيده، فأردف قائلًا: «كان قدري أن

ألتقي في واحة الحياة العريضة هذه بكوكبة زاخرة ومتنوعة من البشر، لكني لم أكن لأجتمع قَطُّ بواحة زاهية خضراء، مثل التي تحضرني هنا».

كنت لأسعد في وقت آخر بهذه الكلمات، لكنني شعرت أننا جميعًا مقيدون وغير مرتاحين، ورحت أرقب السيد ميكوبر بتحفز بالغ. ظل متذبذبًا بين نزعة واضحة للإفصاح عن مكنون ما، والتصرف النقيض بعدم الإفصاح عن أي شيء. صرت لذلك كما لو أنني أنازع الحُمى. جلس ترادلز على حافة كرسيه وقد اتسعت عيناه على مصراعيهما وانتصب شعره أكثر من أي وقت مضى. أخذ يحدق في منعطفات الأرض وفي السيد ميكوبر من دون أن يحاول أن ينبس ببنت شفة. أما عمتي فقد كانت الأكثر انتباهًا لضيفنا الجديد. إنها لم تزل تمتلك ذكاء يفوق أيًا منا. لاحظت أنها قد حملته على الحديث، وجعلته يتكلم سواء أحب ذلك أم كره.

قالت عمتي: «إنك صديق قديم جدًا لابن أخي يا سيد ميكوبر. كنت أرجو لو سررت برؤيتك والتعرف عليك من قبل».

رد السيد ميكوبر قائلًا: «يا سيدتي، إنني أرجو لو تشرفت بمعرفتكِ من قبل، ربما تبدل انكساري فرحًا».

قالت عمتي: «أرجو أن تكون السيدة ميكوبر وعائلتك بخير يا سيدي».

أمال السيد ميكوبر رأسه، وتوقف عن الحديث لبرهة ثم عقب قائلًا: «إنهم بخير يا سيدتي، كما يلوذ الغريب بأفضل مأمن».

صاحت عمتي في هيئة مباغتة وقالت: «حفظك الله يا سيدي، ما الذي تتحدث عنه؟».

أردف السيد ميكوبر يقول: «إن رزق عائلتي يا سيدتي يرتجف بين كفي ميزان. إن صاحب العمل...».

توقف السيد ميكوبر هنا باضطراب جلي، ثم بدأ في تقشير البرتقال الذي وضع أمامه تلبية لطلبي، بالإضافة إلى جميع الأدوات الأخرى التي ربما يستخدمها في صنع شرابه المفضل.

أمد السيد دك فقد نكز السيد ميكوبر في ذراعه كنوع من التذكير اللطيف، قائلًا: «كما تعلم إن صاحب عملك...».

تصافحا مرة أخرى ثم عاود السيد ميكوبر حديثه قائلًا: «يا سيدي العزيز، إنك تذكرني بحديثي وإنني لمدين لك بالشكر. لقد تفضل عليَّ صاحب العمل ذات مرة يا سيدتي، وهو السيد هيب، بأن قال لولا أنني أحصل على راتب من جراء عملي معه، فإنني على الأرجح سأغدو متسكعًا أجول البلدة مبتلعًا للسيوف، أو ملتهمًا للزجاج، حتى أكسب قوتي. ولا يسعني إلا أن أتصور المشهد ذاته إذ قد يغدو أطفالي بلا عمل، فلا يشغلهم سوى البحث عن مصدر رزق في نوع من الاستجداء والشحاذة، بينما تعلن السيدة ميكوبر عن تشجيعهم نظرًا لحاجتهم المضنية، فتعزف هي الأخرى على أرغن بدائي».

راح السيد ميكوبر يلوح بسكينه في شكل عشوائي ولكن معبر، ليشير إلى أنه من المتوقع أن تتحقق هذه المشاهد بعد توقفه عن العمل، ثم ما لبث أن استأنف تقشيره للبرتقال في يأس.

أسندت عمتي مرفقها إلى المائدة المستديرة الصغيرة التي ظلت بجانبها كعادتها، بينما تنظر إليه في اهتمام. استبعدت عن ذهني فكرة إغرائه بإفشاء سره، طالما لم يكن مستعدًّا للبوح به طواعية، وكان من الممكن أن أطلب منه استكمال الحديث في هذه المرحلة، ولكن حالت دون طلبي هذه الإجراءات الغريبة التي رأيته منهمكًا فيها. لقد وضع قشر البرتقال في الغلاية، وسكب السكر فوق صينية التقديم، والكحول في الإبريق الفارغ، ثم رأيت - من بين هذه الأشياء الرائعة - محاولته لصب الماء المغلي بكل عناية. رأيت أن كارثة على وشك الوقوع، وقد حدثت بالفعل، حين أوقع كل أدواته ومحتوياتها معًا، ثم قام من كرسيه، وأخرج منديل جيبه، وانفجر في البكاء.

تكلم السيد ميكوبر من وراء منديله قائلًا: «يا عزيزي كوبرفيلد، إن هذه المهنة من بين جميع المهن الأخرى، تتطلب عقلًا منظمًا، وسيطرة على النفس، فلا أستطيع القيام بهذه المهمة الآن، وهذا أمر لا جدال فيه».

قلت: «يا سيد ميكوبر، ما الأمر؟ أستميحك أن تتكلم، إنك بين أصدقاء».

كرر السيد ميكوبر جملتي قائلًا: «بين أصدقاء يا سيدي»، ثم ما لبث أن باح بكل ما كتمه قائلًا: «يا إلهي، إنني بهذه الحالة وعلى سجيتي لأنني بين الأصدقاء. هل تسألوني ما القضية أيها السادة؟ أليس حريًّا أن تسألوا ما الذي ليس بقضية؟ إن الحقارة هي القضية. إن الدناءة هي القضية. إن الخداع، والاحتيال، والتآمر، هي القضية؛ واسم هذه الكتلة الفظة بأكملها هو... هيب».

صفقت عمتي بيديها، وأسبلنا جميعًا كما لو كنا ممسوسين.

استطرد السيد ميكوبر بينما يحرك منديله في عنف، ويضربه بذراعيه من وقت لآخر، كما لو أنه يكابد غارقًا في مصاعب خارقة: «لقد انتهى الصراع، لن أكابد هذه الحياة بعد الآن. إنني كائن بائس في معزل عن مختلف سبل الحياة المقبولة. لقد اقترفت آثامًا في خدمة هذا الوغد الجهنمي. فلتعيدوا إليَّ زوجتي، وأعيدوا إليَّ أسرتي، فلتستبدلوا ميكوبر بالبؤس الهين الذي يجول في حذاء على قدميه في الوقت الحاضر، فلتدعوني غدًا لابتلاع سيف، وسأبتلعه بشهية».

لم أرَ رجلًا أشد انفعالًا في حياتي منه. لقد حاولت تهدئته، حتى نصل إلى حل عقلاني، لكنه صار أكثر ثورية وسخونة، ولم يستمع لكلمة واحدة.

قال السيد ميكوبر، بينما يلهث، وينفث الهواء، وينتحب كما لو أنه رجل يصارع الأهوال: «سأضع يدي في يد أي إنسان، حتى أبدده إلى شظايا... أبغض - هذا الثعبان - هيب! لن أحيا في كنف الإنسانية، حتى أقوم - أنقل جبل فيزوف[1] - فيثور - على - هذا - الوغد المخادع - هيب! الانتعاش - تحت هذا السقف - لا سيما لكمة - من شأنها - أ - أن تخنقني - إلا إذا كنت سألكمه قبلًا فأقلع العينين - من الرأس - من - هذا المخادع والكذاب فلا نهاية له - هيب! إنني - أنا - لن أعرف أحدًا - و - أنا - لن أقول شيئًا - و - لن - لن أعيش في أي مكان

(١) جبل بركاني يقع شرق مدينة نابولي ويعد الجبل البركاني الوحيد الثائر في أوروبا.

- حتى أسحق - إلى - ذرات غير قابلة للاكتشاف - هذا - المنافق والحاذق المتعالي والوغد - هيب».

انتابني خوف من أن يموت السيد ميكوبر على الفور. لقد كابد الحديث بهذه الطريقة من خلال هذه الجمل غير المفصلة. كان كلما وجد نفسه يقترب من اسم هيب شق طريقه إليه، وقد لاح نطقه أقرب ما يكون من حالة إغماء، لقد انتزع نفسه بقوة فاقت الحد، وكانت طريقته مخيفة إلى أبعد مدى. أما الآن فقد انكفأ على المقعد، بينما ينفث ناظرًا إلينا، وقد اعتلى وجهه مختلف الألوان المحتملة من دون أدنى توقف. تتابعت سلسلة لا نهاية لها من الاختناقات تلاحق بعضها بعضًا في عجلة من أمرها، وقد بدا أثرها على جبهته، فلاح كما لو أنه يحيا على رمق. كنت سأذهب لمساعدته، لكنه لوح لي، ولم يبدِ اهتمامًا بسماع كلمة واحدة مني.

«لا يا كوبرفيلد - لا داعي للحديث - حتى - نستطيع - إنصاف - الآنسة ويكفيلد - من المظالم التي ارتكبها الوغد البارع - هيب».

إنني على قناعة تامة من أنه لم يكن ليقوى على النطق بهذه الكلمات لولا الدافع الذي استلهمه من ذاك الاسم، فقال: «إنه سر خفي - أ - عن العالم بأسره - أ - لا استثناءات - في يوم ما من الأسبوع - أ - في وقت الإفطار - أ - سيكون الجميع حاضرًا - بما في ذلك العمة - أ - وهذا الرجل الودود للغاية - سنجتمع في فندق كانتربري - حيث - أنا والسيدة ميكوبر - سنغني نشيد الوداع في جوقة - و - أ - سوف نفضح فائق الشر الذي لا يطاق - هيب! لا أكترث لقول - أ - أو أود الاستماع

إلى أي إقناع - سأنصرف فورًا - إنني غير قادر - أ - على تحمل الجلوس - سأراقب مسار الخائن المحكوم عليه بالفشل - هيب».

ظل يكرر هذه الكلمة الساحرة الأخيرة التي أبقى عليها لوقت لا بأس به، والتي تجاوز فيها كل جهده أكثر من ذي قبل، ثم ما لبث أن هرع السيد ميكوبر خارج المنزل، وتركنا في حالة من الإثارة والأمل والدهشة، مما جعلنا في حالة تضاهي على الأقل حالته. وقع ما وقع في ذلك الحين، وعلى الرغم من ذلك فإن شغفه بكتابة الرسائل كان أقوى من أن يقاوم. كنا لم نزل في ذروة الإثارة والأمل والعجب، وإذا برسالة نتسلمها من نادل من حانة مجاورة، حيث مر به لكتابتها.



«سري للغاية».

«سيدي العزيز،

أتوسل إليك أن تسمح لي بأن أنقل من خلالك خالص اعتذاري إلى عمتك القديرة على اهتياجي الأخير. لقد انفجر البركان المحترق داخلي، والذي حاولت أن أخمده لفترة طويلة؛ نتيجة لصراع داخلي من السهل للمرء أن يتصوره لا أن يصفه.

إنني أؤكد لكم موعدي الذي حددته ووضحته أجلّ وضوح في صباح هذا اليوم من الأسبوع، في قاعة الاحتفال العامة في كانتربري، حيث سأتشرف أنا والسيدة ميكوبر بانضمام أصواتنا إلى أصواتكم، لننضم في حزب واحد ليقضي على هذا الخشن المعمر.

إنه الواجب الذي عليَّ أن أؤديه، والفرض الذي لا مفر منه، والذي يمكنني عبر تحقيقه إنقاذ غيري من بني البشر، حتى وإن تلاشى ذكري بعد الآن. سأطلب بكل بساطة أن أودع في هذا المكان من مأواي الأخير، حيث:

«حيث مرقد المرء في ضيق إلى الأبد،

نوم الراحلين تحت الرمال والكثب»[١].

فلْتعلُ قبري هذه الكتابة البسيطة؛

ويلكنز ميكوبر».



(١) من قصيدة رثاء في ساحة كنيسة، للشاعر الإنجليزي توماس جراي (١٧١٦ - ١٧٧١)م.

# الفصل الخمسون

## حلم السيد بيجوتي يتحقق

مرت الآن بضعة أشهر منذ مقابلتنا مع مارثا على ضفة النهر. لم أرَها قَطُّ منذ ذلك الحين، لكنها تواصلت مع السيد بيجوتي في عدة مناسبات. لم يثمر تدخلها في الأمر عن شيء. ولا يمكنني الاستدلال، مما نقله لي السيد بيجوتي، على أي دليل أو ملاحظة فارقة عن مصير إيميلي. أعترف أنني بدأت استشعار اليأس من نجاتها، وغرقت تدريجيًّا في مغبة اعتقاد موتها.

ظلت قناعة السيد بيجوتي ثابتة لا تتزحزح. أظن -على قدر علمي- وأحسب أن قلبه الصادق لاح جليًّا أمامي -فلم يتزحزح يقينه الراسخ قَطُّ، ولو لمرة واحدة، ولم ينأ عن إيمانه بالعثور عليها، ولم ينفد صبره. كنت أرتجف من هول الألم الذي قد يكون عليه يومًا ما، إلا أن يقينه الذي لا يتزحزح ظل كأنفاسه، يشي بأن ثمة روحانية خالصة تكمن داخله، مما يعبر في صورة مؤثرة عن أن ملاذًا نقيًّا يكمن في أعماق فطرته الجميلة. صار احترامي وتبجيلي اللذان أحملهما له يتعاظمان كل يوم.

لم يكن خائر العزم ليفقد يقينه، وقد كان رجلًا يتمتع بعمل شاق طوال حياته، مما أكسبه الجلد، كما كان يعلم أنه في كل الأشياء التي يرغب فيها المساعدة، ما عليه سوى القيام بدوره بأمانة وإخلاص، ومن ثَم يسعى إليه العون نفسه. لقد عرفت أنه انطلق في الليل، مستسلمًا لهاتف تجلى له عن طريق الصدفة من نافذة قارب قديم، حتى سار إلى يارموث. لقد عرفت ما جرى له، حين قرأ شيئًا في الجريدة قد ينطبق عليها. لقد حمل عصاه، وانطلق في رحلة من ثلاثة أو أربعة أميال، فشق طريقه في البحر إلى نابولي، ثم ما لبث أن عاد بعد أن سمع السرد الذي أرشدتني آنسة دارتل به. كانت جميع رحلاته صعبة، لأنه طالما أصر دومًا على توفير المال من أجل إيميلي، حيث يجب العثور عليها بما معه من مال. لم أسمعه يتراجع قَطُّ طوال هذه المطاردة الطويلة، لم أسمعه قَطُّ يقول إنه صار مرهقًا أو أوشك على الانفجار.

رأته دورا كثيرًا منذ زواجنا، وكانت مولعة به جدًّا. أتخيل شخصيته التي أمامي الآن، واقفة بالقرب من أريكتها، مع قبعته الخشنة في يده، وقد ارتقت عينا زوجتي الطفلة الزرقاوان نحو وجهه في دهشة وخجل. يأتي لتبادل الحديث معي في بعض الأحيان في مساء إحدى ليالي الشفق، فأشجعه على تدخين قصبته في الحديقة، بينما نسير ببطء معًا، ومن ثَم تلوح لخاطري صورة منزله المهجور، ويسري هذا الهواء المريح الذي اعتدت أن أستشعره بعين الطفولة ذات أمسية حيث كانت النار مشتعلة، والرياح تئن من حولها.

أخبرني في إحدى الأمسيات، في مثل هذه الساعة المعتادة، أنه وجد مارثا تنتظر بالقرب من مسكنه عندما خرج في الليلة السابقة. وأنها طلبت منه ألا يغادر لندن لأي سبب، حتى يراها مرة أخرى.

سألته: «هل أخبرتك بالسبب؟».

فأجاب: «لقد سألتها يا سيد ديفي، لكنها لم تتحدث إلا ببضع كلمات قليلة، وما لبثت أن سمعت وعدي لها ثم انطلقت بعيدًا».

سألته: «هل قالت متى تتوقع رؤيتها مرة أخرى؟».

عاود حديثه مسندًا يده نحو وجهه في رفق قائلًا: «لا يا سيد ديفي، سألتها عن هذا أيضًا، لكنها قالت إنها لا تستطيع قول أي شيء أكثر مما قالته».

كنت قد عاهدت نفسي منذ فترة طويلة ألا أشجعه بآمال معلقة على خيوط واهية، لذلك لم أُبدِ أي تعليق آخر على هذه المعلومات، غير أنني توقعت أنه سيراها قريبًا. كانت مثل هذه التخمينات تراود نفسي باهتة بما فيه الكفاية، فأحتفظ بها في قرارة نفسي.

سرت ذات مساء، بعد خمسة عشر يومًا تقريبًا، في الحديقة وحدي. أذكر ذاك الأصيل جيدًا، حيث كان في الأسبوع الثاني من أحاديث السيد ميكوبر المثيرة. هطلت الأمطار طوال اليوم، مما أضفى نوع من الرطوبة في الهواء. صارت أوراق الأشجار الكثيفة مثقلة برطوبة الهواء بعد أن توقف المطر، على الرغم من أن السماء ظلت مظلمة بالسحاب. راحت الطيور الغنَّاء تشدو في مرح. بدأ الشفق ينغلق من حولي بينما أسير

ذهابًا وجيئة في الحديقة، فصمتت أغاريد الطيور الصغيرة، وقد ساد ذاك السكون الغريب الذي يلازم مثل هذه الأمسية في البلاد. صارت أفرع الأشجار الأخف وزنًا ساكنة بعد جفافها، من دون أفرع الأغصان العرضية.

انبسطت رقعة بسيطة من الأفرع الخضراء، كانت كافية لعمل ما يشبه التعريشة، كما نما اللبلاب على جانب منزلنا، حيث أستطيع النظر من خلال فجواته بينما أخطو خطواتي في الحديقة نحو الطريق إلى المنزل. تصادف أن أدرت عيني نحو هذا المكان، حيث كنت أفكر في أشياء كثيرة. أبصرت امرأة وراءها، مرتدية عباءة بسيطة. كانت تنحني نحوي بشغف، وتومئ لي بالاقتراب.

قلت: «مارثا».

طلبت مني في تهامس مضطرب: «هل يمكنك أن تأتي معي؟ لقد ذهبت إليه، وهو ليس في المنزل. كتبت رسالة إلى المكان الذي سيأتي إليه، وتركتها على طاولته. قالوا إنه لن يغيب طويلًا. عندي أخبار له. هل يمكنك المجيء في الحال؟».

كان جوابي أن تجاوزت البوابة على الفور. قامت على الفور بإيماءة بيدها، كما لو أنها تقطع صبري وصمتي، فأشارت بيدها نحو لندن، ثم ما لبثت أن سارت بسرعةٍ كشفت عن ردائها.

أشرت إليها نحو وجهتنا وسألتها إن كانت هي أم لا؟ أشارت إليَّ موافقة، بنفس الإيماءة المتسرعة كما في السابق. ما لبثت أن

أوقفت عربة فارغة قادمة نحونا، وجلسنا داخلها. سألتها عن وجهة السائق، فأجابت: «إلى أي مكان بالقرب من جولدن سكوير، سريعًا» - ثم انكمشت في زاوية العربة، وقد لاحت إحدى يديها مرتجفة أمام وجهها، أما الأخرى فتدلي بالإشارة الأولى، وكما لو أنها لا تستطيع تحمل إصدار أي صوت.

صرت في هذه اللحظة منزعجًا للغاية، ومنبهرًا مع بريق متضارب من الأمل والخوف. نظرت إليها للحصول على بعض الشرح، إلا أنني أدركت رغبتها في التزام الصمت، وقد كان هذا الشعور ميلًا طبيعيًّا عندي أيضًا. لم أحاول كسر الصمت في هذا الوقت. انطلقنا من دون أن ننبس ببنت شفة. كانت تنظر من النافذة أحيانًا، معتقدة أننا نسير ببطء، على الرغم من سرعتنا التي كنا نسير بها، لكنها ظنت خلاف ذلك تمامًا في البداية.

نزلنا عند أحد مداخل ساحة جولدن سكوير، وما لبثت أن طلبت من الحوذي الانتظار، من دون أن أعلم شيئًا عن طول مدة انتظاره لنا. مدت يدها لتمسك بذراعي، وقد وجهت خطواتي سريعًا نحو أحد الشوارع الكئيبة، الشائعة في هذا المكان. لاحت المنازل متفرقة حيث استقلت كل عائلة فيما مضى منزلا، لكنها تدهورت منذ فترة طويلة، وتحولت إلى مساكن فقيرة تقطن في غرفها العائلات. أدخلتني إلى أحد الأبواب المفتوحة لهذه البنايات، ثم أطلقت ذراعي. طلبت مني أن أتبعها لصعود الدرج المشترك الذي كان بمثابة قناة رافدة نحو الشارع.

كان المنزل مكتظًّا بالنزلاء. كنا نصعد، فتفتح أبواب الغرف وتطل منها رؤوس الناس، وكنا قد تجاوزنا كذلك أشخاصًا آخرين نازلين على الدرج. ألقيت نظرة خاطفة إلى الخارج قبل دخولنا، فرأيت نساء وأطفالًا يتسكعون عند النوافذ فوق أواني الزهور، فقد بدا أننا استدعينا فضولهم، لأنهم كانوا يمثلون أغلب المراقبين الذين نظروا من أبوابهم فيما بعد. كان السلم عريضًا مكسوًّا بالألواح، به درابزينات ضخمة من بعض الخشب الداكن، وكذلك تعلو الأبواب أفاريز مزينة بالفاكهة والزهور المنحوتة، وثمة مقاعد واسعة تلوح من النوافذ. لكن كل هذه الرموز المميزة لعظمة الماضي كانت فاسدة وقذرة؛ أدى التعفن والرطوبة ومرور الزمن إلى إضعاف الأرضيات، والتي كانت واهية في عدة أماكن إلى درجة غير آمنة. لاحظت أن بعض المحاولات قد بذلت لبث دماء جديدة في هذا الإطار المتضائل، من خلال إصلاح بعض الأعمال الخشبية القديمة باهظة الثمن في عدة أماكن. كانت مثل هذه الإصلاحات أشبه بزواج نبيل عجوز مترف بفقير سوقي، وقد انكمش كل طرف في اتحاد غير ممتزج بالطرف الآخر. كانت العديد من النوافذ الخلفية التي تطل على الدرج مظلمة أو مسدودة بالكامل. أما تلك التي بقيت، فبالكاد يلوح بها أي زجاج. انبعث هواء عفن يبدو أنه معتاد عبر الإطارات المتهالكة، من دون أن يخرج منها قَطُّ. رأيت من خلال نوافذ أخرى، لا تحتوي بدورها على زجاج، منازل أخرى في حالة مماثلة. نظرت بعدها إلى أسفل حيث فناء قذر، وكومة من غبار مشترك بين النزل.

انتقلنا إلى الطابق العلوي من المنزل. بالمناسبة، ظننت لمرتين أو ثلاث أنني أبصرت في ضوء غير واضح تنورة لامرأة ترتفع أمامنا. استدرنا لصعود آخر درجات السلم التي تفصلنا عن السطح، فإذا بالهيئة التي أبصرتها تتجلي كاملة أمامي، لأبصر سيدة تتوقف للحظة أمامي عند الباب. ما لبثت أن أدارت المقبض ثم دخلت.

قالت مارثا في صوت خافت: «من هذه؟! لقد دخلت غرفتي. إنني لا أعرفها».

أما أنا فعرفتها. لقد تعرفت إليها في ذهول، وقلت إنها آنسة دارتل.

قلت لمارثا في كلمات مقتضبة شيئًا مفاده أنها سيدة كنت قد رأيتها من قبل. لقد تعرفت عليها عندما سمعنا صوتها في الغرفة، لكني لم أكن لأتعرف عليها من وقفتها. كررت مارثا في نظرة مندهشة عملها السابق، حيث قادتني في هدوء لصعود الدرج، لنصل بعد ذلك إلى باب خلفي صغير. يبدو أنه لا يحتوي على قفل، فقد فتحته بلمسة واحدة، ثم وصلنا إلى غرفة صغيرة فارغة ذات سقف مائل ومنخفض، أفضل قليلًا من أن يكون خزانة. كان ثمة باب صغير للتوصيل بين هذه الغرفة وأخرى مفتوحًا جزئيًّا. توقفنا هنا، لاهثًا بعد صعودنا، فما لبثت أن وضعت مارثا يدها برفق على شفتي. صار بإمكاني فقط رؤية الغرفة التي خلفها. كانت كبيرة جدًّا وتحوي سريرًا. لاح لي بعض الصور المألوفة للسفن معلقة على الجدران. لم أتمكن من رؤية آنسة دارتل أو الشخص الذي سمعنا حديثه. بالتأكيد لم تستطع مارثا رؤية أي شيء، فقد كان موقعي

أفضل منها. ساد صمت دام للحظات. أبقت مارثا إحدى يديها نحو شفتي ورفعت الأخرى نحو أذنها في هيئة استماع.

قالت روزا دارتل في غطرسة: «لا يهمني ألا تكون في المنزل، لا أعرف شيئًا عنها. لقد جئت لرؤيتكِ أنتِ».

رد صوت ناعم قائلًا: «رؤيتي أنا؟».

تناهى إلى أذني هذا الصوت فانتابتني قشعريرة وسرت في جسدي. لقد كان الصوت لإيميلي.

عادت آنسة دارتل تقول: «نعم، جئت لأراكِ. ماذا؟ ألا تخجلين من هذا الوجه الذي فعل الكثير لكِ؟».

كانت الكراهية الحازمة التي لا تلين في لهجتها، وحدتها الشديدة الباردة، وغضبها المتقن، قد جعلتها تتمثل أمامي، كما لو أنني أراها واقفة قبالتي في النور. استدعيت أمام ناظري تلكما العينين السوداوين الوامضتين، وهذه الهيئة التي تخلو من العاطفة، بل رأيت الندبة، ومسارها الأبيض الذي يقطع شفتيها، ترتجف وتنبض بينما تتكلم.

قالت: «لقد جئت لأرى نزوة جيمس ستيرفورث؛ تلك الفتاة التي هربت معه، فصارت حديث المدينة، يلوكها أحط الناس في موطنها بعد أن صارت ملهاة للمتبجح الفاسق أمثال هذا المدعو جيمس ستيرفورث. أريد أن أعرف كيف لمثل هذه الوقيعة أن تحدث».

كان ثمة حفيف، كما لو أن الفتاة التعسة التي كانت تنهال عليها هذه

الاستهزاءات، قد ركضت نحو الباب، ثم سرعان ما أقحمت آنسة دارتل نفسها أمامها. تلت ذلك لحظة سكون أخرى.

عاودت الآنسة دارتل التحدث مرة أخرى، وقد انهالت عليها بوابل من توبيخ.

قالت: «ابقي هنا، أو سأفضح أمرك في المنزل، بل الشارع كله، إذا حاولتِ التهرب مني، فسأوقفكِ حتى إن تطلب الأمر الأخذ بشعركِ، ورفع أقرب الأحجار لردعكِ».

كان الرد الوحيد الذي تناهى إلى أذني، مجرد نفثة من أنفاس مرعوبة. توالى الصمت. لم أكن أعرف ما دوري نحو ما حدث، وبقدر ما كنت أرغب في إنهاء المقابلة، إلا أنني شعرت أنه لا يحق لي أن أقحم نفسي. لقد كان للسيد بيجوتي وحده الحق في رؤيتها واستعادتها. ألن يأتي أبدًا؟ فكرت في الأمر بفارغ الصبر.

قالت روزا دارتل في ضحكة ساخرة: «إذن! ها قد رأيت هذه الفتاة أخيرًا! أي سبب هذا الذي يجعل مخلوقًا صغيرا يتصف بهذا التواضع الرقيق!».

صاحت إيميلي قائلة: «آه، أستحلفكِ بالله، لتبعدي هذا عني، مهما كان من أمري، فإنكِ تعرفين قصتي المحزنة، كرامة لله فلتعفيني من هذا القول، ما دمتِ قد نجوتِ بنفسكِ».

ردت الأخرى في ضراوة قائلة: «إذا كنت نجوت بنفسي! ما المشترك بيننا، في رأيكِ؟».

قالت إيميلي وهي تبكي: «لا شيء سوى جنسنا».

قالت روزا دارتل: «يا له من ادعاء غاية في القوة، يُصرح به شخص سيئ السمعة. إن أكننت أي ضيق في صدري أو شعورًا باحتقاركِ والاشمئزاز منكِ، فسيجمده هذا القول... جنسنا! يا لكِ من شرف لبنات جنسنا!».

قالت إيميلي: «لقد استحققت هذا العناء، لكنه أمر مروع. عزيزتي، سيدتي العزيزة، فكري فيما عانيت وكيف سرت إلى هاوية! آهٍ، يا مارثا، فلتعودي! آهٍ، يا موطني، يا موطني».

جلست آنسة دارتل على كرسي على مرأى من الباب، ثم نظرت إلى أسفل، كما لو كانت إيميلي تجلس على الأرض أمامها. صارت الآن قابعة أمامي وخلفها بقعة من نور، بحيث استطعت أن أرى شفتها الملتفة، وعينيها القاسيتين مثبتتين باهتمام في مكان واحد، في انتصار جشع.

قالت: «استمعي إلى قولي، واحتفظي بفنونكِ الزائفة المخادعة أمام السُّذج. هل تأملين أن تحركني دموعكِ؟ لا يمكنكِ أن تسحريني بابتساماتكِ التي لا تأسر سوى العبيد».

صرخت إيميلي: «آه، فلترحميني بعض الشيء، أظهري لي بعض التعاطف، وإلا سأموت جنونًا».

قالت روزا دارتل: «لن يصبح موتكِ كفارة عظيمة لجرائمكِ. هل تعلمين ماذا فعلتِ؟ هل فكرتِ يومًا في المنزل الذي دمرتِه؟».

صرخت إيميلي: «آهٍ، هل مضت ليلة أو نهار من دون أن أفكر في الأمر؟!».

أستطيع الآن رؤيتها جاثمة على ركبتيها، ورأسها مرفوع للخلف، بينما ينظر وجهها الشاحب إلى الأعلى. أما يداها فمتشابكتان وقد حبست أنفاسها، بينما يتدفق شعرها منبسطًا حولها.

عادت إيميلي تقول: «هل مرت دقيقة واحدة، مستيقظة كنت أو نائمة، من دون أن أتمثله أمامي، تمامًا كما كان في الأيام الخوالي، قبل أن أدير إليه ظهري دائمًا وإلى الأبد؟! آهٍ، يا لموطني، ومنزلي! يا عمي العزيز، إذا كنت لتعرف كم أشقى بمحبتك بعدما ابتعدت عن مصدر الخير، فلن تغمرني بها أبدًا كما عهدك. ستغضب لحالي ولو لمرة واحدة على الأقل في حياتي، لأنني ربما شعرت ببعض الراحة! كان الجميع مغرمًا بي دائمًا! لذلك لم أنعم بأي راحة على وجه الأرض بأسرها».

انكفأت إيميلي على وجهها، أمام تلك الشخصية المستبدة القابعة على الكرسي، في محاولة لمناشدتها بالتعلق في تنورة فستانها.

جلست روزا دارتل تنظر إليها، متصلبة كما لو أنها إنسان نحاسي. كانت قد ضغطت على شفتيها بشدة، كما لو أنها تعلم أنه يجب عليها أن تبقي قيدًا قويًا على نفسها -أكتب ما أؤمن به بصدق- أو أنها ستميل إلى ضرب هذه الهيئة الجميلة بقدمها. لقد رأيتها بوضوح، وبدا أن القوة الكاملة لوجهها وشخصيتها مضطرة إلى إظهار هذا التعبير.... «ألن يأتي أبدًا؟».

صارت تسيطر بعد هذه اللحظة على ثقل صدرها الغاضب، بحيث يمكنها الآن أن تثق بنفسها للتحدث، فقالت: «يا لهذا الزهو البائس لديدان الأرض! منزلكِ! هل تتخيلين أنني أفكر في ذلك الأمر، أو أفترض أنكِ يمكن أن تُلحقي أي ضرر بهذا المكان المنحط الذي لا يساوي -في كل جلاء- فتات المال؟ منزلكِ! لقد كنتِ جزءًا من تجارة منزلكِ، وقد شروكِ وباعوكِ مثل أي شيء آخر يمكن بيعه حين يتعامل معه موظف».

صرخت إيميلي: «آهٍ، لم يكن الأمر على هذا النحو. فلتقولي أي شيء عني، لكن لا تفتري عليَّ بأقوال فاحشة ومخزية، فتتكدس فوق ما اقترفت، وتنكفئ على أناس شرفاء مثلكِ! فلتكني لهم بعض الاحترام، ليس رحمة بي، بل احترامًا لكونكِ امرأة».

لم تلقِ بالًا لهذا النداء، ولم تكن لتعير الأمر اهتمامًا. راحت تبعد فستانها مغبة أن تلوثه لمسات إيميلي، ثم قالت: «إنني أتحدث... أتحدث عن منزله - حيث أعيش». ظلت تتكلم بينما تمد يدها ملوحة أمام ضحكتها المحتقرة، ناظرة إلى الفتاة الساجدة أمامها. أكملت قائلة: «إنكِ سبب في التفرقة بين السيدة الأم وابنها المحترم، بعد أن جلبتِ من الحزن ما يفوق منزلًا لا يقبلكِ للعمل به ولو فتاة في المطبخ تكفيرًا بعدما جلبتِ له سخطًا. إنكِ قطعة من قذارة؛ انتشلت من صفحة الماء، لتَشقى وتُشقي لساعة، ثم ما تلبث أن تعود إلى مكانها الأصلي».

صرخت إيميلي وقد شبكت يديها معًا قائلة: «لا، لا، حمله الطريق إليَّ لأول مرة -ولم يخطر ببالي ذلك اليوم، إنه قابلني بينما أحمل

نفسي إلى قبري- لقد نشأتُ فاضلة مثلكِ أو مثل أي سيدة. توقعت أن أكون زوجة طيبة مثلكِ لرجل طيب، أو أتزوج مثل أي امرأة في العالم. إذا كنتِ تعيشين في منزله وتعرفينه، فربما تدركين مدى قوته مع فتاة ضعيفة بلا جدوى. إنني لا أدافع عن نفسي، لكني أعلم جيدًا، وهو يعلم جيدًا أيضًا، أو سيعرف حين يحين أجله بعد أن يضطرب عقله بالحقيقة، أنه استخدم كل قوته لخداعي، وأنني صدقته ووثقت به وأحببته».

هبت روزا دارتل من مقعدها مرتدة إلى الوراء ثم ما لبثت أن ركلت إيميلي. كان وجهها قد علاه خبث وظلام موحش ومشوه بسخط، إلى الحد الذي ألقيت فيه بنفسي حائلًا بينهما. انقشعت الضربة -التي لم يكن لها هدف- في الهواء. وقفت بعد لحظة لاهثة الأنفاس، تنظر إلى إيميلي في كراهية عمياء، وقد كانت ملامحها قادرة على التعبير عن هذا البغض. ترتجف من رأسها إلى أخمص قدمها في ثورة غضب واحتقار، ظننت أنني لم أرَ مثل هذا المشهد من قبل، ولن أتمكن من رؤية مثله طوال حياتي.

أحكمت آنسة دارتل قبضتها، مرتجفة كما لو أنها لا تريد سوى سلاح فتطعن سبب غضبها، ثم صرخت قائلة: «تحبينه؟».

تقلصت إيميلي أمام ناظري، من دون أن تنبس ببنت شفة.

تحدثت آنسة دارتل قائلة: «أتتحدثين بقولكِ هذا بشفتيكِ المخزيتين؟ لماذا لا يجلدون مثل هذه المخلوقات؟ لو أن الأمر بيدي، لأمرت بجلد هذه الفتاة حتى الموت».

لم يراودني شك في أنها قد تقدم على مثل هذا العمل. لم أكن لأثق بها لو أنها امتلكت سلاحًا، بينما استمرت بنظرتها الغاضبة تلك. بدأت تضحك في بطء، ببطء شديد، ثم أشاحت بيدها نحو إيميلي، كما لو كانت مشهدًا من محاكمة لعار نشب بين آلهة وبني البشر.

قالت: «إنها محبة، تلك الجيفة، وقالت لي إنه كان يهتم بها من قبل. ها ها، يا لهم من تجار كاذبين».

كان استهزاؤها أشنع من غضبها المعلن. كنت أفضل من بين الحالتين، أن يقتصر الأمر على الدافع الأخير. كانت قد أظهرت جل غضبها حين انهارت للحظة واحدة فقط. لكنها سرعان ما قيدته مرة أخرى، ومع ذلك ظل يمزقها من الداخل، على الرغم من أنها تمالكت فورتها.

قالت: «لقد جئت إلى هنا، يا نبع الحب النقي، لأرى -كما أخبرتكِ في البداية- الحال التي صرتِ إليها. كنت فضولية. إنني راضية. وأخبركِ أيضًا، أنه كان من الأفضل لكِ أن تبحثي عن موطنكِ سريعًا، وعليكِ إخفاء رأسكِ بين هؤلاء الأشخاص الممتازين الذين ينتظرونكِ، والذين سيتحكمون في حالكِ ومالكِ. بعد أن ينتهي كل شيء، تستطيعين أن تؤمني بشيء وتثقي وتحبي مرة أخرى، كما تعلمين! حسبت أنكِ لعبة مكسورة عاشت وقتها؛ شيء متلألئ لا قيمة له بعد أن تلطخ وقذف به بعيدًا. لا شيء سيدعو لمعاملتكِ مثل كنز حقيقي، وامرأة كاملة، وبريئة ساذجة، وقلب جديد مليء بالحب والثقة، وهو ما تبدين عليه، ويتوافق تمامًا مع قصتكِ. لديَّ شيء آخر لأقوله. فلتنتبهي لما أقوله لأنني

سأفعله. هل تسمعينني يا روح خرافية؟ ما أقوله، أعني به ما أفعله».

تغلب عليها غضبها مرة أخرى للحظة، لكنه قد مر على وجهها مثل تشنج ثم تركها تبتسم.

أردفت قائلة: «فلتخفي نفسكِ، إذا لم يكن في المنزل، ففي مكان آخر. فليكن في مكان بعيد المنال، في حياة غامضة - أو الأفضل من ذلك، أن تختفي بموت غامض. أتساءل، إذا لم ينكسر قلبكِ المحب، فلماذا لم تجدي طريقة لمساعدته على البقاء! لقد سمعت عن مثل هذه الوسائل في بعض الأحيان. أحسب أنه يمكن العثور عليها بسهولة».

قاطعها هنا نحيب إيميلي الهادر. توقفت عن الكلام واستمعت إليه كما الموسيقى.

مضت روزا دارتل تقول: «ربما أكون ذات طبيعة غريبة، إلا أنني لا أتحمل أن ألتقط أنفاسي بحرية في نفس الهواء الذي تتنفسينه. أجده فاسدًا. سأحرره من أنفاسكِ، سوف أطهره منكِ. إذا بقيتِ على قيد الحياة هنا غدًا، فسأفضح قصتكِ وشخصيتكِ الحقيقية على هذا الدرج المشترك. يقولون إن ثمة نساء محترمات في هذا المنزل، وإنه لأمر مؤسف أن تتخفي بينهن مثل هذه الفتاة المنحطة التافهة. إذا كنتِ ستغادرين هذا المكان، فلتبحثي عن أي ملجأ في هذه المدينة بشخصية مستعارة غير شخصيتكِ الحقيقية (والتي سأرحب بها من دون مضايقة مني)، وإلا سأقوم بالأفعال ذاتها، لو أنني سمعت عن تراجعكِ عن تنفيذ الأمر. سيساعدني رجل نبيل كان يتطلع منذ وقت ليس ببعيد ليصل إليكِ، لذا فإنني متفائلة لتنفيذ الأمر».

ألن يأتي مطلقًا، أبدًا؟ كم مضى من وقت تحملت هذا الحدث؟ كم من الوقت سأصمد وأتحمل؟ صرخت إيميلي البائسة قائلة: «آهِ يا نفسي، آه يا روحي، ماذا؟ ماذا سأفعل؟». كانت نبرتها تلين أشد القلوب قساوة، هكذا ظننت، إلا أنها لم تكن لتؤثر في ابتسامة روزا دارتل الساخرة.

عادت الأخرى تجيب: «ما عليكِ فعله! أن تنعمي بالحياة داخل خواطركِ! فلتكرسي حياتكِ لتحيي على ذكرى حنان جيمس ستيرفورث -كان سيجعلكِ زوجة الرجل الذي يخدمه، أليس كذلك؟- أو تعيشين ممتنة للمخلوق المستقيم والقدير الذي كان سيحصل عليكِ كهدية له. أما إذا كانت تلك الذكريات الزاخرة، والوعي بفضائلكِ، ومكانتكِ المشرفة التي رفعوكِ إليها في أعين كل ما يتهيأ بشكل بشري، لن تدعمكِ، فلتتزوجي ذلك الرجل الطيب، ولتسعدي بهذا التنازل الذي قدمه لكِ. إذا لم يفلح هذا أيضًا، موتي! ثمة مدافن وأكوام غبار لمثل هذه الوفيات، وبمثل هذا اليأس، فلتبحثي عن طريقة، ولتشُقي رحلتكِ إلى الجنة».

تناهى إلى أذني وقع أقدام بعيدة على الدرج، عرفتها، كنت متأكدًا منها. كانت وقع أقدامه حمدًا لله.

تحركت ببطء أمام الباب بعد قولها ذاك، ثم حالت بيني ورؤيتي.

فتحت الباب الآخر لتنصرف، لكنها أضافت في بطء وحزم قائلة: «انتبهي لقولي! إنني عازمة -لأسباب تخصني- على طردكِ غدًا، إن لم تنسحبي من محيط أقدامي تمامًا، وإلا أسقطت قناعكِ الجميل

بفضيحة. هذا ما كان عليَّ قوله. وما أقوله، أعني به ما أفعله».

اقتربت الخطوات على الدرج أكثر -تجاوزتها بينما تهبط- ثم اندفعت إلى الغرفة!

«عمي».

أعقبت هذه الكلمة صرخة مخيفة. توقفت للحظة، ونظرت إلى الداخل، فرأيته يسند جسدها الضئيل المتهاوي بين ذراعيه. حدق في وجهها لبضع ثوانٍ. ثم انحنى متكئًا أرضًا لتقبيلها. آهٍ، يا لرقته!

قال في صوت خافت مرتجف: «يا سيد ديفي، أشكر الله لأن حلمي صار حقيقة. أشكره من كل قلبي لأنه أرشدني، بطريقته الخاصة، إلى حبيبتي».

بهذه الكلمات حملها بين ذراعيه. ووجهها المحجوب ملقى على صدره، مقابلًا وجهه. حملها مغشيًّا عليها وغير واعية، وهبط السلم.



# الفصل الواحد والخمسون

## بداية رحلة أطول

تمشيت في الحديقة مع عمتي في صباح اليوم التالي، وكنا لم نزل في ساعة مبكرة. صارت عمتي تمارس قليلًا من التمارين الآن، بعد أن أمضت وقتًا طويلًا في خدمة عزيزتي دورا. قيل لي وقتها إن السيد بيجوتي يرغب في التحدث إليَّ. وقد لحقني في منتصف الطريق في أثناء سيري في الحديقة، بينما رحت أسير إليه نحو البوابة. ما إن أبصر عمتي حتى خلع قبعته كاشفًا رأسه كما اعتاد دومًا، فقد كان يكنُّ لها احترامًا كبيرًا. كنت قد أخبرتها بكل ما حدث بين عشية وضحاها. سارت بوجه بشوش وصافحت السيد بيجوتي من دون أن تنبس ببنت شفة، ثم ربتت على ذراعه. كان ترحيبها صادقًا، حتى إنها لم تكن بحاجة إلى قول أي شيء. لقد أدرك السيد بيجوتي كرمها تمامًا كما لو أنها قالت آلاف الكلمات.

قالت عمتي: «سأدخل الآن يا تروت، عليك أن تعتني بزهرتنا الصغيرة التي ستستيقظ في غضون لحظات».

قال السيد بيجوتي: «سأحاول ألا يطول وجودي هنا يا سيدتي. ما لم يكن عقلي قد ولى وذهب عني هذا الصباح محلقًا حيث تعطش الطيور» - قصد السيد بيجوتي بكلامه أن يقول (حيث تعشش الطيور) - ثم أكمل: «أيبقى عقلي هنا ما دمتِ ستغادريننا؟».

راحت عمتي تقول: «عندك ما تقوله يا صديقي العزيز، وسوف تتصرف بشكل أفضل من دوني».

أجاب السيد بيجوتي قائلًا: «أستميحكِ عذرًا يا سيدتي، يجب أن أتعامل مع الأمر بلطف، فلا تمانعي الاستماع إلى همهماتي، إن كنتِ ستبقين هنا».

قالت عمتي في جملة قصيرة: «ألن تصغي أنت لكلامي أيضًا؟ إذن أنا متأكدة من أنني سأفعل الشيء نفسه».

وجهت عمتي بعدها إشارة بذراعها إلى السيد بيجوتي، وسارت معه نحو كوخ صيفي صغير مورق يقبع في الجزء السفلي من الحديقة، حيث جلست على مقعد، وجلست بجانبها. كان ثمة مقعد آخر للسيد بيجوتي، لكنه فضَّل الوقوف، بينما أسند يده إلى طاولة ريفية صغيرة. وقف ينظر إلى قبعته لفترة قصيرة قبل أن يشرع في الكلام، لم أستطع كبح تأملي في قوة مشاعره التي عبَّرت عنها يده القوية في حمل القبعة، ويا له من رفيق طيب ومحل ثقة كما يتجلى في جبينه الصادق وشعره الرمادي الخشن.

استهل السيد بيجوتي حديثه بعد أن رفع عينيه نحو أعيننا قائلًا: «لقد

أخذتُ ابنتي الغالية في الليلة الماضية إلى مسكني البعيد، حيث كنت أتوقع قدومها منذ وقت طويل وأعده لها من أجل راحتها. لقد مرت ساعات قبل أن تفيق لتعرفني جيدًا، وعندما أفاقت ركعت عند قدمي، ثم قالت لي ببراءة الطفولة، كما لو أنها تتلو صلواتها، كيف حدث كل شيء. قد تصدقوني حين أقول إنني اعتدت أن أسمع صوتها في المنزل في غاية المرح قبل ذلك، وعندما سمعته هذه المرة وقد أبصرتها مستكينة، كنت كما الغارق في خضم نعم الله مُخلِّصنا - شعرت بذهول أفناني وحال بيني وشكره».

رشم صليبًا فوق جبينه من دون أن يخفي علينا السبب. ثم علا صوته متحدثًا.

«لم يراودني هذا الشعور منذ وقت طويل، وقد أحسسته الآن لأني وجدتها. كنت أظن فقط أنها قد كانت لديَّ ثم ذهبت بلا رجعة. لا أعرف لماذا لم أتذكر فضائله الكثيرة قبل ذلك مثلما أذكرها الآن، وأوقن بها. لم يكن ثمة شيء يدور في ذهني منذ دقيقة لأتفوه بكلمة واحدة عن نفسي، لكن الأمر جاء طبيعيًّا لدرجة أنني استسلمت له من دون أن أشعر برهبة في الحديث».

قالت عمتي: «إنك روح طيبة متواضعة، وسوف تحصد مكافأتك».

كانت ظلال الأوراق تلاعب وجه السيد بيجوتي، الذي ما لبث أن انحنى برأسه انحناءة مفاجئة نحو عمتي، تقديرًا لحسن رأيها، ثم تناول الخيط الذي تركه، ليكمل حديثه.

قال في حنق شديد انتابه للحظات: «بحثت عن صغيرتي إيميلي، بعد أن صارت أسيرة بسبب ذلك الثعبان على حد قول السيد ديفي، وقصته المعروفة، جزاه الله بمثل أفعاله! كانت إيميلي قد هرعت في الليل. كانت ليلة مظلمة، يشوبها العديد من النجوم المتلألئة. أصابها جموح. ركضت على طول شاطئ البحر معتقدة أنها بمحاذاة الصندل القديم، بينما تصرخ لكي نحول وجوهنا عنها، لأنها كانت قادمة. كانت تصرخ منادية نفسها وكأنها شخص آخر. جرحت نفسها بالحجارة والصخور المكسوة، ولم تعد تشعر بها كما لو أنها تحولت هي الأخرى إلى حجارة بينها. كانت تهرب في هيئة لم أعهدها من قبل، كما لو أن ثمة نيرانًا تلتهب أمام عينيها وزئيرًا يدوي في أذنيها. فجأة - أو هكذا قالت، كما تفهمان - تغير حال اليوم، وصار ممطرًا وعاصفًا، بينما صارت مستلقية على كومة من الحجارة على الشاطئ. ظهرت امرأة تتحدث إليها بلهجة أهل هذا البلد، قائلة: «ما فات قد ولَّى، فلماذا تبتئسين؟»».

لقد رأى كل ما يتعلق به. مر أمامه في وضوح شديد، بينما يتحدث. كان يصف لي ما يراه بجديته المفرطة. تحدث بتميز أعظم من أن يمكنني وصفه. أستطيع الآن فقط بعد مرور فترة طويلة، أن أصدق ما حدث باسترجاع الأمر بالكتابة، لكنني كنت حاضرًا بالفعل في هذه المشاهد. لقد سحرني هذا الجو المذهل من الإخلاص والتفاني.

تابع السيد بيجوتي حديثه قائلًا: «كانت عينا إيميلي ثقيلتين -كما كانتا في هذا الوقت- حتى أبصرت هذه المرأة بشكل أفضل. كانت تعرف أنها كانت واحدة منهم، كما كانت تتحدث معها كثيرًا على

الشاطئ. كانت تركض (على حد قولها) كثيرًا في الليل، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت تتجول أيضًا غالبًا في طرق طويلة سيرًا على قدميها في بعض الأحيان، أو متنقلة بين القوارب والعربات في أوقات أخر، وكانت تعرف البلدة بأسرها على طول ساحلها لأميال عديدة. لم تُرزق هذه المرأة أطفالًا، منذ أن تزوجت في شبابها، لكنها كانت تتطلع إلى حضانة طفل قبل ذلك. أتمنى أن يسمع الله صلاتي فيهبها كل النعيم والسعادة في ملكوت السماوات ويعزي قلبها، وتسعد فيها خالدة. أتمنى أن يرافق شيخوختها ملاك يحرسها ويرحمها، وأن يصير ونيسًا لها في الحياة وبعد الممات».

قالت عمتي: «آمين».

قال السيد بيجوتي: «لقد كانت خجولة وهادئة. جلست في بداية الأمر بعيدًا إلى حد ما، عن محيطها، أو شيء من هذا القبيل، عندما تحدثت إيميلي إلى بعض الأطفال. كانت إيميلي قد لاحظت وجودها، فذهبت للتحدث إليها، وبما أن الشابة كانت منحازة كذلك للأطفال، فقد صارتا صديقتين سريعًا. على أي حال، كانت كلما خطت إيميلي خطوة نحو هذا المكان استقبلتها بالزهور. كانت هذه هي حالتها كما عرفناها حتى تلك اللحظة، كما كان لديها الكثير من الخفايا. عرضت على إيميلي المجيء إلى المنزل، وبالفعل أخذتها. لقد فعلت ذلك حقًّا». استطرد السيد بيجوتي كلامه بعد أن غطى وجهه قائلًا: «لقد أخذتها إلى المنزل».

لقد رأيته متأثرًا بهذا العمل الطيب أكثر من تأثره بأي شيء سواه منذ الليلة التي غابت فيها. لم نحاول أنا وعمتي إزعاجه أو مقاطعته.

أكمل حديثه في اللحظة ذاتها قائلًا: «كان كوخًا صغيرًا. نفترض أنه كذلك، لكنها وجدت مكانًا لإيميلي فيه. كان زوجها بعيدًا في البحر، وقد أبقت شخصيته سرًّا، وقد أبقته سرًّا أيضًا وسط جيرانها المحيطين بها (لم يكن ثمة الكثير بالقرب منهم). أصيبت إيميلي بالحمى، والغريب جدًّا بالنسبة لي -ربما لم يكن هذا الأمر غريبًا جدًّا بالنسبة للعلماء- أنها أخرجت لغة هذه البلدة من رأسها، ولم يعد بإمكانها التحدث إلا بلهجتها، لم يتمكن أحد من تفسير الأمر. تتذكر ما حدث، كما لو أنها كانت تحلم. تحكي بلسانها الحالي أنها كانت ترقد هناك دائمًا، وتوقن أن الصندل القديم كان يدور دومًا على بُعد أمتار من الخليج، وصارت تتوسل وتطلب منهم إرسال خطاب ينبئ عن كيف كانت تحتضر، لتعود إليها رسالة مغفرة، إذا كانت ثمة طريقة للمراسلة. لقد ظنت طوال الوقت تقريبًا - حتى هذه اللحظة، أنه كما ذكرت للتوِّ كان يتربص بها تحت التعاريش، بعد أن أحضرها إلى هذه الغرفة، وقد طلبت من الشابة الطيبة ألا تتخلى عنها، وعلمت في الوقت نفسه أنها لا تستطيع أن تتفهم كلامها، وخافت أن تؤخذ بعيدًا. هكذا كانت النيران تهب من عينيها وتئن أصوات زمجرة في أذنيها. ولم يتبدل الأمر اليوم ولا البارحة ولا غدًا. أما كل شيء في حياتها، فقد صار كما كان دائمًا، أو يمكن أن يظل دائمًا، أو كل شيء صار كما لم يكن من قبل، وظل كما لم يكن له أن يكون، كان كل شيء قد تكالب عليها دفعة واحدة، وليس ثمة أمر واضح ولا سار، ومع ذلك فهي تغني وتضحك حوله. كم من الوقت استمر هذا الأمر؟ لا أعرف. ولكن بعد أن ينقضي اليوم تأتي

للنوم، وفي ذاك النوم، صارت في ضعف أصغر طفل بعد أن كانت أقوى من نفسها أضعاف المرات».

توقف هنا كما لو أنه يستريح من أهوال وصفه. تابع قصته بعد انتابه صمت لبضع لحظات.

«كان عصرًا لطيفًا عندما استيقظت وهادئًا للغاية من دون صوت، فيما عدا تموجات هذا البحر الأزرق على الشاطئ من دون مد. ظنت في البداية أنها كانت في المنزل منذ صباح يوم الأحد، لكن أوراق العنب كما تراها تحت التعاريش ومن ورائها التلال لا تشي بأن هذا هو المنزل وتُشوِّشها. ثم جاءت صديقتها لتراقب سريرها بجانبها، ثم عرفت أن الصندل القديم لم يعد يدور على بُعد أمتار أخر من الخليج، بل لم يكن سوى خمائل من نسيج. وقد عرفت أين هي ولماذا. وهنا انفجرت في البكاء في أحضان تلك الشابة الطيبة، التي آمل أن يكون طفلها راقدًا الآن، ويلتفت نحوها بعينيه الجميلتين».

لم يستطع التحدث عن هذه الصديقة الطيبة لإيميلي من دون أن تنهمر منه الدموع. كانت المحاولة عبثًا. انهار مرة أخرى محاولًا أن يباركها.

استأنف حديثه، بعد هذه المشاعر التي لم أستطع رؤيتها من دون المشاركة فيها، أما عمتي فبكت من كل قلبها. «صارت حالة إيميلي على هذا النحو، وبدأت في التحسن. أما لغة هذه البلدة فقد اختفت عنها تمامًا، وأجبرتها على استخدام الإشارات. استمرت الحال هكذا، بينما تتحسن حالتها يومًا بعد يوم في بطء لكن في تطور ملحوظ، وقد حاولت

معرفة أسماء الأشياء الشائعة -الأسماء التي بدت وكأنها لم تهتم بها طوال حياتها- حتى حلت إحدى الأمسيات، عندما كانت تجلس عند نافذتها فأبصرت طفلة تلعب عند الشاطئ. مدت هذه الطفلة يدها إليها فجأة، ثم قالت ما سيكون معناه باللغة الإنجليزية: «ابنة الصياد، يا لها من صدفة!» - عليكم أن تعرفوا أنهم اعتادوا تسميتها بـ«السيدة الجميلة»، إنها الطريقة العامة للتسمية في تلك البلدة، وأنها علمتهم أن يطلقوا عليها اسم «ابنة الصياد» بدلًا من ذلك. وما تلبث الطفلة أن تقول بعد ذلك فجأة: «يا ابنة الصياد، ها محارة!»، ثم تفهمها إيميلي، فتصرخ باكية، بعد أن تسترجع كل شيء».

قال السيد بيجوتي بعد فترة قصيرة أخرى من الصمت: «ما إن استعادت إيميلي عافيتها مرة أخرى، حتى صارت على وشك مغادرة هذا الحي الصغير الطيب، لتعود إلى موطنها. عاد بعد ذلك الزوج إلى المنزل، وقد رافقها الاثنان معًا حتى متن باخرة صغيرة متجهة إلى ليجورن، ومنها إلى فرنسا. كان بحوزتها القليل من المال، لكنه كان أكثر قليلًا من القليل الذي أخذوه مقابل كل ما فعلوه. إنني سعيد جدًّا بذلك، على الرغم من أنهم كانوا فقراء للغاية. إن ما فعلوه أمر لم يفسده العث أو الصدأ، ولم تصل إليه يد اللصوص ولا سرقوا فضائله. يا سيد ديفي، سوف يصمدون بكرامتهم أمام كل كنوز هذا العالم».

«وصلت إيميلي إلى فرنسا، وكانت ضمن السيدات المسافرات، وقد انتظرن في فندق بالميناء. وها هنا جاء الثعبان ذات يوم - أبعده الله عني دومًا. فلا أعرف مدى الأذى الذي قد أسببه له - وسرعان ما رأته،

من دون أن يراها، فعاودها كل خوفها ووحشيتها، وهربت قبل أن يرتد إليه زفير أنفاسه. لقد جاءت إلى إنجلترا، ثم جلست عند الشاطئ في دوفر».

قال السيد بيجوتي: «لا أعرف بالتأكيد متى بدأت تفقد عزيمتها، ولكنها حاولت المجيء إلى منزلها العزيز مرات على طول الطريق إلى إنجلترا. ما إن وصلت سريعًا إلى إنجلترا حتى وجّهت وجهها نحوه. ولكن الخوف من عدم الغفران، والخوف من التعرض للوم، والخوف من موت بعضنا، والخوف من أشياء كثيرة، حال بينها بقوة كفيلة بدفعها بعيدًا عن إتمام الطريق. لقد قالت لي: «عمي، يا عمي، لقد كان الخوف من أنني لا أستحق أن أفعل ما يشتاق إليه صدري الممزق والنازف، هو الخوف الأكثر رعبًا على الإطلاق. لقد تراجعت، بعدما كان قلبي مليئًا بالرجاء والصلاة، حتى أتمكن من الزحف إلى عتبة الباب القديم في الليل، فأقبله، وأمرغ وجهي الشرير عليه، ثم أجدني ميتة في الصباح».

أخفض السيد بيجوتي صوته حتى صار هامسًا ومتعجبًا فقال: «لقد جاءت إلى لندن... أتت إلى لندن وحدها، كما لم يسبق لها من قبل، من دون فلس واحد، شابة، جميلة جدًّا. كانت في هذه اللحظة التي عادت فيها إلى الوراء بائسة تمامًا، إلى أن وجدت (كما ظنت) صديقة تحدثت معها كامرأة محترمة عن أعمال حياكة كما أنها تربت على هذا العمل، ووعدتها بالعثور على الكثير من العمل، وعن توفير مسكن لها في الليل، وذلك لإجراء بعض الاتصالات السرية بي وبجميع الأشخاص في المنزل في اليوم التالي». أكمل حديثه بصوت عالٍ وبطاقة من امتنان

هزته من رأسه إلى أخمص قدمه، قائلًا: «وقفت طفلتي على حافة الهاوية، أكثر مما أستطيع أن أتصور أو أتخيل أمرها. كانت مارثا، قد خالفت وعدها لها فأنقذتها».

لم أستطع قمع صيحة ابتهاجي.

أمسك يدي بكلتا يديه القويتين قائلًا: «يا سيد ديفي، لقد كنتَ أول من ذكرها. شكرًا يا سيدي. لقد كانت متماسكة. كانت قد أدركت حقيقة حالها المريرة التي عليها أن تبصرها، وعرفت كيف تتصرف. لقد فعلت ما عليها فعله. وكانت إرادة الله فوق الجميع. جاءت، شاحبة ومسرعة، بعد أن غطَّت إيميلي في نومها. لتقول لها: «قومي من شر الموت، وتعالي معي». كان من الممكن أن يوقفها نزلاء هذا المنزل، لكن ربما قد أوقفهم البحر عن ذلك في آخر لحظة، بينما قالت لهم: «فلتبتعدوا عني، إنني شبح يناديها من جانب قبرها المفتوح». أخبرت إيميلي أنها رأتني، وتعلم أنني أحببتها وأسامحها. لفتها على عجل بملابسها. أخذتها على ذراعها، بينما كانت خافتة ومرتجفة. لم تستجب لما قالوه كما لو كانت لم تخلق لها آذان. سارت بينهم مع طفلتي، ولم تُبدِ اهتمامًا بسواها، وأخرجتها بأمان في جوف الليل من حفرة الخراب السوداء تلك».

قال السيد بيجوتي، بعد أن أطلق يدي، ووضعها فوق صدره المرتفع: «لقد اعتنت بإيميلي. اعتنت بابنتي إيميلي، بينما كانت مستلقية منهكة، وراحت تتجول في أثناء نومها، حتى وقت متأخر من اليوم التالي. ثم ذهبت للبحث عني. ثم بحثت عنك يا سيد ديفي. لم

تخبر إيميلي بالسبب الذي خرجت لأجله، خشية أن يفشل مخططها، وكان عليها أن تفكر في إخفاء نفسها. كيف عرفت السيدة القاسية أنها هي؟ لا أعرف. إما أنه رآها، كما كنت أقول دومًا، أو أنه -كما يرتاح خاطري إلى حد بعيد- قد عرف الأمر من هذه المرأة. إنني على أي حال لا أسأل نفسي كثيرًا. فقد عثرت على ابنتي».

أردف السيد بيجوتي قائلًا: «كنا طوال الليل، أنا وإيميلي معًا. يا لهذه الصغيرة! عدنا -على حد تعبيرها- بعد ما انقضى من وقت في أجواء تشوبها دموع من انكسرت قلوبهم. كان وجهها الغالي أصغر من أن أراه منكسرًا، بعد أن نمت وصارت امرأة في منزلي. ظلت ذراعها ملتفة حول عنقي طوال الليل، وقد انحرف رأسها، ناظرة نحوي. صار كل منا على يقين من أن الآخر قد صار محلًّا لثقته أكثر من أي وقت مضى».

توقف عن الكلام، واستقرت يده على الطاولة مفعمًا بعزم الأسود.

قالت عمتي بينما تجفف دموع عينيها: «لقد راودني بريق من نور يا تروت، عندما قررت أن أصير عرابة لأختك بيتسي تروتوود، والتي أحبطتني بعدم مجيئها، ولكن عوضًا عن ذلك، لن يمنحني أي شيء آخر متعة أكبر من أن أكون عرابة هذه الطفلة الصغيرة الطيبة».

أومأ السيد بيجوتي برأسه متفهمًا مشاعر عمتي، لكنه لم يستطع الوثوق في نفسه ليعبر عن امتداحها بأي إشارة لفظية. بقينا جميعًا صامتين، وانشغل كل منا بتأملاته (كانت عمتي تجفف عينيها، ثم صارت بعد لحظات تبكي متشنجة، ثم بدأت تضحك وتدعو نفسها حمقاء)، إلى أن شرعت في حديثي.

قلت للسيد بيجوتي: «هل اتخذت قرارًا واضحًا فيما يتعلق بالمستقبل يا صديقي العزيز؟ إنني بحاجة إلى أن أطرح عليك هذا السؤال».

أجابني: «بالفعل يا سيد ديفي، لقد أخبرت إيميلي بالقرار. إن ثمة بلادًا عظيمة بعيدة عن هنا. إن حياتنا المستقبلية ممتدة نحو البحر».

قلت: «سوف يهاجرون معًا يا عمتي».

قال السيد بيجوتي بابتسامة متفائلة: «نعم، لا أحد يستطيع أن يوبخ حبيبتي في أستراليا. سنبدأ حياة جديدة هناك».

سألته عما إذا كان قد حدد لنفسه وقتًا للمغادرة.

أجاب: «لقد توجهت إلى المرفأ مبكرًا هذا الصباح يا سيدي، لكي أستعلم عن موعد السفن. عرفت أن ثمة إبحارًا واحدًا في غضون ستة أسابيع أو شهرين تقريبًا من الآن - لقد شاهدت هذه السفينة هذا الصباح وصعدت على متنها - ومن ثَم سنحجز بها مكاننا للسفر».

سألته: «بمفردك؟».

أجاب قائلًا: «نعم يا سيد ديفي، إن أختي، كما ترى، مولعة بك وبكل ما يخصك، ولم تعتَد سوى التفكير في بلدها، ولن يكون من الإنصاف أن نتركها تسافر. بالإضافة إلى ذلك، فإن لديها أعباءً تتحمل مسؤوليتها يا سيد ديفي، ولا ينبغي أن نغفل عنها».

قلت: «مسكين هام».

أوضح السيد بيجوتي الأمر لعمتي حتى تحيط بمعلومات أكثر عن

الأمر قائلًا: «إن أختي الطيبة تعتني بمنزله، كما ترين يا سيدتي، وهو يتعامل معها بلطف. سوف يجلس ويتحدث معها بنفس هادئة، كما لو أنه لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة مع إنسان سواها». أكمل السيد بيجوتي بينما يهز رأسه قائلًا: «أيها المسكين، إنه لا يتحدث كثيرًا، حتى يمكن أن يوفر القليل من حديثه لغيرها».

قلت: «وماذا عن السيدة جامدج؟».

أجاب السيد بيجوتي، بنظرة متحيرة تلاشت تدريجيًّا بعد تقدمه في الحديث: «حسنًا، لقد راودتني الكثير من الاعتبارات، سأقول لكما ما يتعلق بالسيدة جامدج. كما تريان، إن السيدة جامدج تقبع في عالمها القديم، وهي ليست ما قد أسميه رفيقة جيدة. بيني وبينك يا سيد ديفي -وأنت يا سيدتي- إن السيدة جامدج تقود المرء إلى الانتعاش»- إنه تعبير شعبي قديم. «حقًّا من المحتمل اعتبارها على هذا النحو لأنها لا تعرف سوى عالمها القديم، بما فيه من نوبات غضب». استطرد السيد بيجوتي قائلًا: «إنني الآن فهمت ما يدور في عالمها الهَرِم، وصرت أقدر نياتها، لذلك أفهمها، لكن لا يمكن أن تسير الأمور تمامًا على هذا النحو، كما تعرف، مع الآخرين - لا يمكن أن نتعامل مع أمرها هذا بوجه طبيعي».

وافقتُ أنا وعمتي على كلامه.

قال السيد بيجوتي «وفقًا لذلك، فإنني لا أقول إن أختي ستفعل هذا الأمر بالتأكيد، ولكن ربما تتصور أن السيدة جامدج ستتسبب لها في مشكلة صغيرة بين الحين والآخر. لا أنتوي لهذه الأسباب الإبقاء

على السيدة جامدج بصحبتهم لفترة طويلة، ولكنني سأحاول العثور على عش حتى تستطيع أن تصيده لنفسها. (تشير كلمة عش، في تلك اللهجة، إلى المنزل، أما الصيد فيقصد به احتياجاتها) ولهذا الغرض قررت أن أعوضها بمعونة قبل رحيلي، بحيث تعيش في راحة تامة. إنها إنسانة وفية. تعيش وحيدة في هذا العمر، فلا ننتظر منها أن تتحمل ركوب السفينة، والتنقل بين الغابات والبراري في بلد جديد على أطراف العالم. لذلك سأقدم على ما انتويته من أجلها».

لم ينسَ الرجل أحدًا. لقد كان يفكر في احتياجات الجميع ومصائرهم، من دون أن يلتفت لمطالبه الشخصية.

ثم تابع كلامه: «أما إيميلي، فستبقى معي -الطفلة المسكينة، إنها متألمة وفي حاجة إلى السلام والراحة- حتى يحين الوقت الذي نمضي فيه إلى رحلتنا، فتنشغل بإعداد الثياب التي تحتاجها، وأرجو أن تنقضي أحزانها فينقشع عنها الحزن كأنه ماضٍ بعيد منصرم، بعد أن تجد نفسها في رفقة عمها الخشن المحب مرة أخرى».

أومأت عمتي برأسها لتأكيد هذا الأمل، مما منح السيد بيجوتي ارتياحًا كبيرًا.

وضع يده في جيب صدره، وأخرج بصعوبة حزمة أوراق بسيطة كنت قد رأيتها من قبل، وما لبث أن بسطها على الطاولة ثم قال: «إن ثمة شيئًا أكثر قد تبقى يا سيد ديفي. إن هذه الأوراق النقدية هنا - خمسون جنيهًا وعشرة. أود أن أضيف قدرًا من المال وأرتب هذه الأوراق لتصير منفصلة. لقد طلبت منها فعل ذلك قبلًا (لكني لم أذكر السبب)، وقد

قامت بترتيبها. إنني لست عالمًا. هل من الممكن أن تقوم بـ«هذا» الأمر؟».

ناولني الأوراق واحدة تلو الأخرى، معتذرًا عن عجزه عن حسابها، ثم راح يراقبني بينما كنت أنظر إليها، إلى أن تأكدت أنها مرتبة تمامًا.

أعادها قائلًا: «شكرًا يا سيدي. إذا لم يكن لديك اعتراض يا سيد ديفي، فإنني سأضع بعضًا من هذا المال في ظرف موجه إليه، وسأرسل البعض الآخر إلى أمه. لن أقول لها شيئًا أكثر مما سأقوله لكما، فقط سأشير لها بالمبلغ المتروك، وسأشير أيضًا إلى أنني قد سافرت، وأبلغها بتاريخ استعادته مرة أخرى».

أخبرته أنني أظن أنه من الأفضل أن يتم أمره، وأنني كنت مقتنعًا تمامًا أن تفكيره صحيحًا، عندما أقبل على فعله.

شرع في إظهار ابتسامة غامضة، بينما رتب رزمة أوراقه الصغيرة مرة أخرى، ثم أعادها إلى جيبه: «لقد قلت إنه قد تبقى شيء واحد، ولكن ثمة شيئًا آخر. لم أكن على يقين من أمري، حين خرجت هذا الصباح، ما إذا كنت أستطيع أن أذهب إلى هام وأخبره بكل شيء بنفسي أم لا. قد وقع ما وقع لحسن الحظ. لذلك، فإنني قد كتبت رسالة قبل خروجي، ووضعتها في مكتب البريد، لأخبرهم كيف صارت مثل «تلك» الأحداث معي، وأنني يجب أن أبتعد قليلًا غدًا لأفرغ ذهني لأقوى على التفكير في العمل، والأكثر من ذلك، أن أتفرغ لوداع يارموث أخيرًا».

قلت له: «وهل تريدني أن أذهب معك؟».

أجابني: «إن كنت تستطيع أن تقدم لي هذه الخدمة اللطيفة، فلتفعل يا سيد ديفي. أعلم أن رؤيتهم لك ستشجعهم قليلًا».

كانت دورا الصغيرة في حالة معنوية جيدة، وقد أبدت موافقة شديدة على ذهابي -كما شعرت بذلك في أثناء التحدث إليها- وقد عهدت إلى نفسي بمرافقته نزولًا على رغبته. كنا في صباح اليوم التالي على متن حافلة يارموث، بعد أن عبرنا الأرض القديمة مرة أخرى.

كنا نسير على طول الشارع المألوف في الليل - أما السيد بيجوتي، وعلى الرغم من كل ما أبديته من اعتراض، قد حمل حقيبتي - ومن ثَم ألقيت نظرة خاطفة على متجر عمر وجورام. رأيت صديقي القديم السيد عمر هناك يدخن قصبته. شعرت بتردد لوجودي، بينما التقى السيد بيجوتي به مقدمًا أخته وهام لأول مرة إليه، وقد جعلت من هذا الأمر عذرًا لي أمام السيد عمر.

قلت: «كيف حال السيد عمر بعد هذا الوقت الطويل؟».

نفض عنه دخان قصبته، حتى يتمكن من رؤيتي بشكل أفضل، وسرعان ما تعرف عليَّ وقد أبدى سعادة بالغة.

قال: «يجب أن أقوم يا سيدي، اعترافًا مني بشرف هذه الزيارة، لكن لتعذرني فأطرافي عاجزة لا تقوى على الحراك من دون مقعد بعجلات. على أي حال وباستثناء أطرافي وأنفاسي، فإنني لا أزال ودودًا بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون ودودًا، وإنني ممتن لهذا».

هنأته على شعوره بالرضا وروحه الطيبة، بعد أن أبصرت للتوِّ مقعده المتحرك ذا العجلات.

تابع نظراتي بعد أن صقل ذراعَي المقعد بكوعيه، وقد أخذ يسأل: «إنه شيء عبقري، أليس كذلك؟ إنه يعمل بخفة الريشة، ويسير على درب محدد كما ساعي البريد. بارك الله فيك يا ميني الصغيرة - إنها حفيدتي التي تعرفها، ابنة ميني - إنها تضخ قوتها الصغيرة في مواجهة ظهر المقعد، فتدفعه دفعة واحدة فيتحرك بعيدًا، كما لو أنه أسرع وأنشط من أي شيء. سأقول لكم شيئًا، إنه مقعد غير عادي يصلح لتدخين القصبة عليه».

لم أرَ قَطُّ رجلًا مثل السيد عمر. إن هذا العجوز الطيب يحقق أقصى استفادة من أي شيء، ويكتشف طرقًا خاصة للاستمتاع به. لقد كان مشرق الوجه، كما لو أن مقعده والربو، وكذلك عجز أطرافه، لم تكن سوى أفرع مختلفة لاختراع عظيم يعزز من رفاهية غليونه.

قال السيد عمر: «إنني أؤكد لكم أنني وأنا جالس فوق هذا المقعد أبصر من العالم ما لم أبصره في أي وقت مضى. إنني أرى ما هو أبعد منه. ستندهش من عدد الأشخاص الذين يأملون في محادثتي طوال اليوم. ستندهش حقًّا! لقد تضاعفت قراءتي للصحف عن ذي قبل منذ أن أخذني هذا المقعد. وكذلك تضاعفت قراءتي العامة يا عزيزي، وما أكثرها! وقد جعلتني أشعر بنفسي قويًّا جدًّا، كما تعلم! ماذا لو كنت مصابًا في عيني، ماذا كنت لأفعل؟ ماذا لو كنت مصابًا في أذني، فماذا كنت لأفعل؟ أما كوني مصابًا في أطرافي، فماذا يعني ذلك؟

كانت أطرافي تحد من أنفاسي عندما أستخدمها. أما الآن، فإذا رغبت في الخروج إلى الشارع أو النزول إلى الرمال، فلا بد لي من الاتصال بـ«دك»، أصغر طفل لجورام، فأذهب بعيدًا في عربتي الخاصة، كما لو أنني عمدة لندن».

وهنا كاد أن يختنق من كثرة الضحك.

تحدث السيد عمر، وقد استأنف نفثه في قصبته: «ليباركك الرب. يجب على المرء أن يحصد المكسب مع الخسارة؛ هذا ما يقرره الإنسان في هذه الحياة. إن جورام يعمل بشكل جيد. لم تزل أعماله السابقة قائمة».

قلت: «إنني سعيد جدًّا لسماع ذلك».

قال السيد عمر: «كنت أعرف أنك ستسعد بذلك. إن جورام وميني يُظهران لي كل الحب. أي شيء يريده المرء أكثر من ذلك؟! ما فائدة أطرافه عوضًا عن هذا الحب؟!».

كان ازدراؤه الشديد لأطرافه، بينما هو جالس يدخن، من أجمل الأشياء الغريبة التي واجهتها على الإطلاق.

قال السيد عمر بينما يتطلع إليَّ في إعجاب: «لقد توجهتُ إلى القراءة العامة، منذ أن انتقلتَ أنت أيضًا إلى الكتابة، أليس كذلك يا سيدي؟ كان ما كتبته عملًا جميلًا! ما أجمل التعبيرات فيه! إنني قرأت كل كلمة فيه - كل كلمة. لم يراودني شعور بالنعاس، على الإطلاق».

ضحكتُ مظهرًا امتناني، لكن يجب أن أعترف أنني أدركت أهمية مثل هذه النقاشات حول الكتاب.

قال السيد عمر: «أعطيك كلمتي وبشرفي يا سيدي، إنني حين أضع هذا الكتاب على الطاولة، وأنظر إليه من الخارج، بعد أن أدمجت أجزاءه الثلاثة المنفصلة معًا - واحد، اثنان، ثلاثة، أصير فخورًا إلى درجة النشوة من أنني كان لي شرف التواصل مع عائلتك. آه يا عزيزي، لقد مضى وقت طويل إلى الآن، أليس كذلك؟ انتهى المطاف في بلندرستون بعد حفلة صغيرة جميلة أقيمت مع وصول طفل آخر. كنت صغيرًا في حفلة صغيرة جدًّا. آه يا عزيزي، آه يا عزيزي».

لقد غيرت الموضوع بالإشارة إلى إيميلي. بعد أن أكدت له أنني لم أنسَ مدى اهتمامه بها دائمًا، وكيف كان يعاملها دومًا بلطف. شرحت له بشكل عام ما يتعلق بأمر إعادتها إلى عمها بمساعدة مارثا. كنت أعرف أن هذه الحكاية سترضي الرجل العجوز. استمع في اهتمام شديد، ثم قال متأثرًا بعدما انتهيت:

«إنني سعيد بذلك يا سيدي، إنه أفضل خبر سمعته في هذا اليوم. آه يا عزيزي، يا عزيزي، يا عزيزي! وما الذي سيجري الآن لتلك الشابة التعيسة مارثا؟».

قلت: «إنك تلمس أمرًا ظللت أفكر فيه منذ الأمس، ولكنني لا أستطيع أن أقدم لك أي معلومات حتى الآن يا سيد عمر. لم يلمح السيد بيجوتي إلى ذلك الأمر، وأنا حريص على عدم الإشارة إليها. إنني متأكد من أنه لم ينسَها. إنه لا ينسى شيئًا أبدًا بمثل هذه الأهمية».

تحدث السيد عمر مستكملًا كلماته التي توقف عندها قائلًا: «إنك تعلم، مهما يكن من أمر، فإنني أتمنى أن أشارك في أي شيء يخصها.

فلتجعلني في مهب أي شيء تعتبره صحيحًا، واسمحوا لي أن أكون على علم بما يجري. إنني لا أتصور أن هذه الفتاة سيئة كليًّا، ويسعدني أن أجدها غير ذلك. إن ميني أحيانًا ما تكون على هذا النحو. إن الشابات مخلوقات متناقضات في بعض الأشياء -كانت والدتها مثلها تمامًا- لكن قلوبهن لينة ورقيقة. لقد تعرضت ميني إلى كل ما تعرضت له مارثا. لماذا لم أتصور أنه من الضروري تقديم يد المساعدة من قبل؟! لكني أطرحه عليك الآن. لتسمح لي أن أقدم لها مساعدة بارك الله فيك. إنه ليسعدني أن ندرك أن هذه الفتاة طيبة حقًّا. لذا، ضعني في خدمة كل ما تراه صحيحًا، هل ستجدني جيدًا جدًّا لهذا الأمر؟ فلترسل لي توجيهك بإشارة إلى ما يجب أن أقوم به. آه يا عزيزي! إن المرء قد يخطط في وقت ما من حياته لمستقبله، إلى أن يلتقي أمامه طرفَا الحياة، حينها يجد نفسه، مهما كان قلبه، يتحرك مرة أخرى، في مسار عربة متحركة نحو عمل شيء ما، وينبغي وقتها أن يبتهج مستعينًا بطيب العمل إن استطاع، بل ربما يريد أن يفعل الكثير. إنني هنا لا أتحدث عن نفسي على وجه الخصوص، لأن الطريقة التي أرى بها الأمور يا سيدي، هي أننا جميعًا نسير إلى أسفل التل، مهما كان عمرنا، فإن الزمن لا يتوقف ساكنًا للحظة واحدة. لذلك دعونا دائمًا نعمل للخير، ونبتهج به، كي تتأكد نياتنا».

نفث دخانه الرمادي من قصبته، ثم وضعه على حافة في ظهر مقعده، كانت قد صُنعت خصوصًا لاستقباله.

قال السيد عمر بينما يفرك يديه في رقة: «أتعرف ابن عم إيميلي؟ كان من المفترض أن يتزوجها، حينما كان رفيقًا في يارموث. سيأتي ويتحدث

إليَّ أو يقرأ لي في المساء، هكذا يفعل أحيانًا لمدة ساعة حين نجلس معًا. إنه شخص طيب، كما أحب أن أصفه بهذا الوصف كل حياته طيبة».

قلت: «سأراه الآن».

سألني السيد عمر: «هل ستفعل؟ إذن فلتخبره أنني أرسل إليه مودتي وتحياتي. إن ميني وجورام في شجار. سيسعدان برؤيتك كما سعدت بذلك، إن كانا في المنزل. إن ميني لا تخرج على الإطلاق، كما ترى، لأسباب تخص والدها، على حد قولها. لذلك فقد أقسمتُ إنها إذا لم تخرج الليلة إليَّ فسوف أنام في الساعة السادسة». اهتز جسد السيد عمر ضاحكًا، وكذلك اهتز مقعده من جراء هذه الحركة واستطرد قائلًا: «لهذا السبب فإنها في شجار مع جورام».

صافحته، وتمنيت له ليلة سعيدة.

قال السيد عمر: «اعذرني للحظات يا سيدي. إذا كنت ستذهب من دون رؤية الفيل الصغير، فستخسر أفضل ما يمكن أن تراه. إنك لن ترى مثل هذا المشهد. يا ميني».

أجاب صوت لطفل صغير في نغمات، من مكان ما في الطابق العلوي، قائلًا: «إنني قادم يا جدي»، وسرعان ما دخلت إلى المتجر فتاة صغيرة جميلة ذات شعر بني طويل مجعد.

قال السيد عمر بينما يداعب الطفلة: «هذه هي الفيل الصغير يا سيدي. إنها السلالة السيامية يا سيدي. ها هي الفيل الصغير أمامك الآن».

فتحت الفيل الصغير باب قاعة الاستقبال، مما مكنني من رؤية أنها قد تحولت في هذه الأيام الأخيرة، إلى غرفة نوم للسيد عمر، حيث لم يكن من السهل نقله إلى الطابق العلوي. ما لبثت الفتاة أن أخفت جبهتها الجميلة بعد أن قلبت شعرها الطويل على ظهر مقعد السيد عمر.

أخذ السيد عمر يتغامز قائلًا: «هكذا هي أعقاب الفيل، كما تعلم يا سيدي، تتحرك بينما تتجه إلى شيء ما. هيا أيها الفيل. مرة واحدة، مرتان، ثلاث مرات».

نهض الفيل الصغير عند هذه الإشارة. أظهر من البراعة ما يزيد على أي مخلوق بالغ الروعة، فدفعت المقعد مستديرة مع السيد عمر الذي يقبع جالسًا عليه، ثم حركته مجلجلًا نحو الردهة، من دون أن يلمس الباب. كان المغزى أن استمتع السيد عمر بالأداء بشكل لا يوصف، وقد أخذ ينظر إليَّ في طريقه كمن حاز القضية الظافرة من مجهودات حياته.

تنزهت في المدينة ثم توجهت نحو منزل هام. لقد ابتعدت بيجوتي الآن وإلى الأبد، وتركت منزلها الخاص لخليفة السيد باركس في مجال النقل، والذي دفع لها مقابلًا مجزيًا عن الاسم التجاري للعمل وعن العربة والحصان. أعتقد أنه الحصان البطيء نفسه الذي قاده السيد باركس والذي لم يزل يعمل.

لقد وجدتهم في المطبخ الأنيق، برفقة السيدة جامدج، التي جلبها السيد بيجوتي بنفسه من الصندل القديم. أشك في أنه كان بإمكان أي شخص آخر حملها على ترك مكانها غيره. كان من الواضح أنه أخبرهم جميعًا بأمره. كان كل من بيجوتي والسيدة جامدج ترتديان مآزرهما

وقد ارتفعت حتى أعينهما، أما هام فكان قد عاد لتوِّه بعد أن «أخذ جولة على الشاطئ». عاد الآن إلى المنزل، فأبدى سعادة بالغة لرؤيتي. وقد أملت في أن يكونوا جميعًا سعداء كذلك لوجودي هناك. تحدثنا، في جو أقرب إلى البهجة، عن تطور السيد بيجوتي نحو الثراء في بلد جديد، وعن العجائب التي سيصفها في رسائله إلينا. لم نقل شيئًا عن إيميلي على وجه التحديد، لكننا أشرنا إليها من بعيد أكثر من مرة. كان هام أهدأ من باقي أفراد الجمع.

أما بيجوتي، فقد أخبرتني بعدما قادتني إلى غرفة صغيرة، حيث كان كتاب التمساح مجهزًا لي على المنضدة، أن هام دائمًا على هذه الحال الهادئة. بكت وقالت إنها تظن أنه محطم القلب، على الرغم من أنه كان مليئًا بالشجاعة والعذوبة، وعمل بمهارة تفوق أي صانع قوارب في أي مكان في هذه المنطقة بأسرها. حدثتني أنه كان في كثير من الأوقات حيث أسمار الأمسيات، وبينما يتحدث عن حياتهم القديمة في منزلها الصندل، لا يلبث أن يحكي عن إيميلي الطفلة، لكنه لم يذكرها كامرأة بالغة قَطُّ.

أحسب أنني قرأت في ملامح وجهه أنه يود لو يتحدث معي على انفراد. لذلك قررت أن أضع نفسي في طريقه، مساء اليوم التالي، إلى المنزل بعد عمله. وما إن استقرت هذه الخطة في نفسي، حتى رحت في سبات. في هذه الليلة، ولأول مرة بعد كل هذه الليالي الكثيرة، أخذ السيد بيجوتي الشمعة من على النافذة وراح يتأرجح في شبكته القديمة حيث الصندل القديم، فغمغمت الرياح وصدحت بصوتها القديم حول رأسه.

انشغل طوال اليوم التالي بالتخلص من قاربه ومعالجته، ثم حزْم أمتعته وإرسالها إلى لندن عن طريق عربة. كانت أغراضه بعضًا من المقتنيات المحلية الصغيرة التي ظن أنها ستكون مفيدة له، ثم ما لبث أن ترك البقية أو منحها للسيدة جامدج. رافقته السيدة جامدج طوال اليوم. تمنيت آسفًا أن أرى المكان القديم مرة أخرى، قبل أن تخفى عنا معالمه، لذلك فقد خططت لمقابلتهما هناك في المساء، لكنني رتبت وقتي بحيث أقابل هام أولًا.

كان من السهل أن أقابله في طريقه، لأنني كنت أعرف مكان عمله. التقيت به عند جزء منحسر من الرمال، كنت أعلم أنه سيعبرها ثم سأعود معه بعدها، ساعتها ربما يتاح لديه وقت فراغ للتحدث معي إذا كان يرغب في ذلك حقًّا. لم أخطئ في تقدير تعبير وجهه. كنا قد تمشينا بعض الشيء معًا، حينما تحدث من دون أن يلتفت نحوي قائلًا:

«هل رأيتها يا سيد ديفي؟».

أجبت في هدوء: «رأيتها للحظة فقط، عندما كانت في حالة من إغماء».

مشينا لمسافة أبعد قليلًا، ثم قال:

«يا سيد ديفي، هل ستراها، هل تظن ذلك؟».

قلت: «ربما يكون الأمر مؤلمًا للغاية بالنسبة لها».

أجاب: «لقد أدركت ذلك. هذا ما سيحدث يا سيدي، هذا ما سيكون».

قلت في لطف: «لكن يا هام، إذا كان ثمة شيء يمكنني كتابته لها، بدلًا منك، في حال لم أتمكن من الحديث إليها، إذا كان ثمة شيء تود أن تخبرها به من خلالي، فإنني سأعتبر توصيل ذلك أمانة مقدسة».

«إنني متأكد من ذلك. شكرًا يا سيدي، إنه لطف كبير منك. أعتقد أن ثمة شيئًا أود قوله أو كتابته».

«أي شيء؟».

مشينا مسافة أبعد قليلًا في صمت، ثم قال:

«إنني أسامحها. كما أرجو منها أن تسامحني، بقدر مشاعري الجمة نحوها التي ربما تكون سببًا في الضغط عليها. تنتابني في بعض الأوقات الغريبة، تصورات عما لو أنها لم تكن قد وعدتني بالزواج منها. لو أنها وثقت بي يا سيدي، وعاملتني بود صافٍ، لأخبرتني بمكنون خاطرها، وربما أخذت بمشورتي، وربما كنت قد أنقذتها».

شددت على يده وقلت: «هل هذا كل شيء؟».

أجابني: «ثمة شيء آخر، إن سمحت لي بقول المزيد يا سيد ديفي».

مشينا، أبعد قليلًا مما مشينا، قبل أن يتكلم مرة أخرى. لم يكن يبكي حين توقف برهة كما عبرت عن ذلك في سطور، لكنه كان يتمالك نفسه ليتحدث في وضوح شديد.

«لقد أحببتها -وأحببت ذكراها- إلى درجة عميقة جدًّا- تملكتني حتى ظننت من أعماق نفسي أنني رجل سعيد. يمكن أن أكون سعيدًا فقط -بعد نسيانها- وأنا لا أستطيع تحمل هذا الأمر إلا بمشقة، وعليها

أن تعلم أنني فعلت. أما أنت يا سيد ديفي فأكثر علمًا، ويمكنك التفكير في أي شيء تقوله لها بحيث يجعلها تعتقد أنني لم أتأذَّ كثيرًا، وما زلت أحبها، وتحزنني حالها. قل أي شيء يقنعها بأنني لم أعد أعاني من حياتي، وآمل مع ذلك أن أراها من دون لوم، ربما يتوقف أي خبيث عن بعث القلق والإرهاق بالنهاية - قل أي شيء من شأنه أن يخفف عن خاطرها الحزين، ومع ذلك، لا تجعلها تفكر أنني من الممكن أن أتزوج، أو ينال أي إنسان سواها مكانتها عندي -ها أنا أطلب منك أن تقول ذلك- ولتخبرها بصلواتي لأجلها - فقد كانت عزيزة جدًّا عليَّ».

شددت على يده الخشنة مرة أخرى، وأخبرته أنني سألتزم بتنفيذ ذلك بقدر ما أستطيع.

أجاب: «إنني أشكرك يا سيدي. كان من لطفك أن قابلتني. وكم كنت طيبًا في أن تتحمل هذه الرفقة. يا سيد ديفي، إنني أتفهم الأمور جيدًا، ستأتي عمتي إلى لندن قبل إبحارهم، وسوف يجتمعون من جديد، لكنني لا أحب رؤية السيد بيجوتي مرة أخرى. إنني على يقين من مشاعري حيال الأمر. نحن لا نصرح بذلك، ولكن سيكون الأمر أفضل على هذا النحو. إن رأيته للمرة الأخيرة، فهل ستتكرم وتبلغه بسلام محب وشكر من هذا اليتيم الذي كان له أكثر من أب؟».

وعدته بهذا أيضًا، بكل أمانة.

صافحني بحرارة قائلًا: «أشكرك مرة أخرى يا سيدي. أعرف أنك في طريقك للذهاب. وداعًا».

أشاح بحركة خفيفة من يده، كأنه يشرح لي أنه لا يستطيع دخول هذا المكان القديم، ثم التفت بعيدًا. رحت أتتبع هيئته الراحلة بينما يعبر النفايات في ضوء القمر، ثم ما لبث أن أبصرته وقد وجَّه وجهه شطر شريط من الضوء الفضي الساري على البحر. أخذ يدنو منه، وينظر إليه، حتى توارى بعيدًا.

كان باب الصندل مفتوحًا عندما اقتربت؛ دخلت فوجدت أنه خالٍ من أثاثه كله، وقد احتفظوا بإحدى الخزائن القديمة، حيث جلست عليها السيدة جامدج، واضعة سلة على ركبتها، ناظرة نحو السيد بيجوتي. أسند السيد بيجوتي كوعه على مسند للمدخنة الخشنة، بينما راح يحدق في عدد قليل من الجمرات المتهالكة على شباكها. رفع رأسه، كما كنت أتمنى، عند مجيئي، وتحدث إليَّ بطريقة مبهجة.

تناول شمعة وقال: «هيا، ستودع المكان وفاءً بالوعد، أليس كذلك يا سيد ديفي؟ عندك ما يكفي من الوقت الآن، أليس كذلك؟». قلت: «حسنًا، إنه الوقت المناسب».

تحدث السيد بيجوتي، قائلًا: «عجبًا! لم نكن مكتوفي الأيدي يا سيدي. لقد عملت السيدة جامدج كما لو أنها... أنا لا أعرف ما الذي لا تستطيع السيدة جامدج عمله». أخذ ينظر إليها في حيرة من أجل استجلاء موافقتها.

كانت السيدة جامدج متكئة على سلتها، ولم تُبدِ أي إيماءة.

قال السيد بيجوتي هامسًا: «إن هذه هي الخزانة ذاتها التي سبق وأن

جلست عليها لفترة طويلة مع إيميلي، سأحملها معي في آخر المطاف. وها هي غرفة نومك الصغيرة القديمة، فلتنظر إليها يا سيد ديفي، إنها لليلة قاتمة بقدر ما يمكن لفن من الفنون أن يتمناها».

كانت الرياح في حقيقة الأمر هادئة، إلا أنها أحدثت صوتًا مهيبًا، فهبت حول المنزل المهجور منتحبة هامسة في حزن بالغ. لقد اختفى كل شيء، حتى المرآة الصغيرة ذات الهيكل المصنوع من صدفة المحار. تخيلت نفسي مستلقيًا هناك، حيث وقع هذا التغيير العظيم لأول مرة في المنزل. فكرت في الطفلة ذات العينين الزرقاوين التي سحرتني. فكرت في ستيرفورث، وراودني طيف أحمق ومخيف من كونه قريبًا، ومن احتمالية أن أواجهه في أي منعطف أتجه إليه.

قال السيد بيجوتي بصوت هامس: «لا بد أن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا، قبل أن يجد الصندل مستأجرين جددًا. إنهم يعاينونه على هذا النحو آسفين لحالته الآن».

سألته: «هل تخص أي شخص في الحي بمتابعة الأمر؟».

قال السيد بيجوتي: «نعم، أخص صانع الصاري. سأعطي له المفتاح الليلة».

نظرنا إلى الغرفة الصغيرة الأخرى، وعدنا إلى السيدة جامدج، التي لم تزل جالسة على الخزانة. ما لبثت أن طلبت من السيد بيجوتي أن يُوجِّه الضوء نحو المدخنة، حتى يضيء الطريق، لتتمكن من الخروج من الباب قبل إطفاء الشمعة.

تخلت السيدة جامدج فجأة عن سلتها، وقد تشبثت بذراع السيد بيجوتي ثم قالت: «يا دانيال، يا عزيزي دانيال، إن أسماري السالفة التي تحدثت عنها في هذا المنزل ستبقى خالدة، ليس عليَّ أن أتركها وراءنا. لا تفكر في نسياني يا دانيال، آه، لا تفعل ذلك أبدًا».

تفاجأ السيد بيجوتي، ثم أخذت نظراته تتحول من السيدة جامدج إليَّ، ثم مني إلى السيدة جامدج، كما لو أنه قد أفاق لتوِّه من النوم.

صرخت السيدة جامدج في حماس قائلة: «لا، عزيزي دانيال، لا تفعل. فلتأخذني معك لفترة طويلة يا دانيال، خذني معك لفترة طويلة مع إيميلي. سأكون خادمتك، سأكون ثابتة وهادئة. لو كان ثمة عبيد في هذه الأطراف البعيدة حيث سترحل، فسأكون ملتزمة بخدمتك وحدك، وسأسعد بذلك، لكن لا تتركني وراءك هنا يا دانيال، يا عزيزي».

هز السيد بيجوتي رأسه قائلًا: «يا روحي الطيبة، إنكِ لا تعرفين ما الرحلة الطويلة، وما هذه الحياة الصعبة». صرخت السيدة جامدج مجيبة: «حقًّا، إنني أعرف يا دانيال، أستطيع أن أخمن. أما كلماتي المودعة تحت هذا السقف، فهي أنني سأدخل المنزل ثم أموت، إذا لم تأخذني معك. أستطيع أن أحفر يا دانيال. أستطيع أن أعمل. أستطيع العيش في كد وكبد. أستطيع أن أكون محبة وصبورة الآن، أكثر مما تعتقد يا دانيال، لو أنك جربتني. لن أنبس ببنت شفة، لو كنت على شفا الموت من العوز يا دانيال بيجوتي. لكنني سأذهب معك ومع إيميلي، إذا سمحت لي، ولو إلى نهاية العالم. أعرف كيف يدور الأمر، أعلم أنك تظن أنني وحيدة وبائسة، لكن الأمر يا حبيبي الغالي لم يعد كذلك.

إنني لن أجلس هنا طويلًا، لأراقب وأتذكر تجاربك، من دون أن أفعل شيئًا جيدًا حيال أمرك. يا سيد ديفي، فلتتحدث معه من أجلي. أنا أعرف طباعه، وكذلك أعرف إيميلي، وأعرف أوجاعهما، ويمكنني أن أصير مصدر راحة لهما، في بعض الأوقات الصعبة، وأستطيع العمل في خدمتهما. يا دانيال، عزيزي دانيال، دعني أذهب معك إلى الأبد».

تناولت السيدة جامدج يده وقبلتها في حنان وعاطفة ودودة، في نشوة عائلية من الإخلاص والامتنان، وهو ما يستحقه عن جدارة.

أخرجنا الخزانة، وأطفأنا الشمعة، وأغلقنا الباب من الخارج، وتركنا الصندل القديم مغلقًا، في بقعة داكنة من هذا الليل الغائم. استقللنا في اليوم التالي الحافلة متوجهين إلى لندن، بينما كانت السيدة جامدج وسلتها على المقعد الخلفي، وقد صارت سعيدة.






# الفصل الثاني والخمسون

## أحضر انفجارًا

كان الوقت الذي عيَّنه السيد ميكوبر يقترب، وقد مكثت أنا وعمتي طوال أربع وعشرين ساعة نفكر فيما سنفعله، لأنها لم ترغب في ترك دورا وحدها. آه، لقد صرت أحمل دورا بسهولة صعودًا وهبوطًا الآن.

اشترط السيد ميكوبر حضور عمتي، إلا أننا عزمنا على بقائها في المنزل، على أن أمثلها أنا والسيد دك بحضورنا. باختصار، لقد عقدنا العزم على خوض هذا الغمار، إلى أن اعترضتنا دورا مرة أخرى بإعلانها أنها لن تسامح نفسها أبدًا، ولن تسامح هذا الولد الشرير مطلقًا، إذا بقيت عمتي، لأي ذريعة أو سبب.

قالت دورا بينما تهز تجعيد شعرها في وجه عمتي: «لن أتحدث إليكِ. سأصير سخيفة. سأجعل جيب ينبح عليكِ طوال اليوم. سأتيقن من أنكِ صرتِ حقًّا شيئًا قديمًا لا فائدة منه، إذا لم تذهبي».

ضحكت عمتي قائلة: «يا برعمنا الصغير، إنكِ تعلمين أنه لا يمكنكِ الاستغناء عني».

قالت دورا: «بل أستطيع. لا فائدة لكِ على الإطلاق. إنكِ لا تستطيعين صعود السلم وهبوطه مرات من أجلي طوال اليوم. إنكِ لا تجلسين أبدًا لتقصي عليَّ حكايات دودي، عندما كان حذاؤه مهترئًا، ومغطى بالغبار. آه، يا له من عث صغير مسكين! إنكِ لا تفعلين أي شيء لإرضائي، أليس كذلك يا عزيزتي؟». أسرعت دورا بعدها بتقبيل عمتي حتى لا تظن عمتي أنها تعني ما قالته حقًّا، ثم قالت: «بلى، إنكِ تفعلين، إنني أمزح فقط».

قالت دورا بنبرة دلال: «لكن يا عمة، فلتسمعيني الآن. يجب أن تذهبي، ولن أكف عن معاكستكِ حتى تسمحي لي أن أعبر عما أريده بطريقتي الخاصة. سأجعل حياة دودي المشاغب نكدًا وكدرًا، إذا لم يدفعكِ إلى الذهاب. سأجعل من نفسي شخصًا بغيضًا، بل سأدفع جيب إلى التصرف على المنوال نفسه. سأجعلكِ تتمنين لو ذهبتِ، لتتخلصي من هذه الحال إلى حال أفضل. ستندمين في كل يوم من هذه اللحظة وإلى الأبد إن لم تذهبي». راحت دورا تملس شعرها وتتلفت بنظراتها إليَّ ثم إلى عمتي متسائلة: «وبالإضافة إلى ذلك كله، لماذا لا تذهبان معًا؟ إنني لست مريضة للغاية. هل أنا حقًّا كذلك؟».

صرخت عمتي: «لمَ تطرحين هذا السؤال؟ أي سؤال هذا!».

قلت: «يا لها من خيالات!».

قالت دورا وهي تدير نظراتها ببطء من أحدنا إلى الآخر، ثم ترفع شفتيها الجميلتين لتقبلنا وهي مستلقية على أريكتها: «نعم، إنني أعلم

أنني سخيفة، حسنًا إذن، يجب أن تذهبا معًا، وإلا فإنني لن أصدقكما، بل سأبكي».

رأيت في وجه عمتي ما يوحي بأنها قد بدأت الآن تفسح مجالًا للموافقة، كما رأيت وجه دورا قد أشرق وتهلل من جديد.

قالت دورا: «ستعودان محملين بالكثير من القصص لتخبراني بها، وسيستغرق فهمي للأمر أسبوعًا على الأقل. أعلم أنني لن أفهم ما ستقولانه لفترة طويلة، خاصة إذا كانت الأخبار تتعلق بأي عمل بينكما. ومن المؤكد أنكما ستحكيان أمورًا عنه. أما إذا كان ثمة موضوعات أخرى يمكن إضافتها إلى جانب ذلك، فإنني لا أعرف متى سأتفهمها. يبدو أن طفلي الشرير سيظل بائسًا كدرًا طوال الوقت، مضطرًّا إلى شرح هذه الأمور لي. ها! ستذهبان الآن، أليس كذلك؟ ستغيبان لليلة واحدة فقط، وسيتولى جيب العناية بي في غيابكما. سيحملني دودي إلى الطابق العلوي قبل أن تذهبا، ولن أنزل مرة أخرى حتى تعودا، وسوف تتلقى أجنيس رسالة توبيخ مخيفة مني، لأنها لم تزُرنا قَطُّ».

اتفقنا من دون مزيد من التشاور على أن نذهب معًا، وأن دورا لم تكن سوى محتالة صغيرة تتظاهر بأنها مريضة إلى حد ما، لأنها تحب أن نداللها. بدت دورا حينها مسرورة جدًّا ومرحة جدًّا. أما نحن الأربعة -أي عمتي، والسيد دك، وترادلز وأنا- فقد ذهبنا إلى كانتربري في عربة دوفر في تلك الليلة.

وصلنا إلى الفندق الذي طلب منا السيد ميكوبر أن ننتظره فيه، بعد أن تجاوزنا بعض العقبات في منتصف الليل. وجدت رسالة تفيد بأنه

سيلتقي بنا في الصباح في الموعد المحدد في الساعة التاسعة والنصف. توجَّه كل واحد منا إلى سريره، وكنا نرتجف من البرد، منهكين بعد هذه الأوقات العصيبة. سرنا عبر ممرات ضيقة ومختلفة تفوح منها رائحة تشبه شيئًا منقوعًا منذ زمن طويل، في محلول من الحساء أو رائحة الإسطبلات.

تجولت في الصباح الباكر في الشوارع القديمة الهادئة العزيزة على قلبي، وقد اختلطت مرة أخرى في خيالي بظلال البوابات ومداخل الكنائس الجليلة. كانت الغربان تحلق حول أبراج الكاتدرائية. أما أبراج الكنائس نفسها، المطلة على الأميال العتيقة الممتدة في هذه البلدة الثرية النضرة والجداول الخلابة، فقد راحت تشق هواء هذا الصباح المشرق، كما لو أن شيئًا لم يتغير على وجه البسيطة، إلى أن دقت أجراس الكنيسة معلنة في حزن عن التغير الذي اعترى كل شيء. باحت لي عن عمرها الحقيقي، وعن شباب دورا النضر، وعن الكثيرين الذين لم تعتريهم الشيخوخة، ممن عاشوا وأحبوا ثم ماتوا، في حين ظلت أصداء أجراس الكنيسة تدوي عبر درع الأمير السوداء الصدئة المعلقة داخلها[1]، ثم تلاشت أنفاسهم في الهواء كما تتلاشى الدوائر على صفحة الماء.

نظرت إلى المنزل القديم عند زاوية الشارع، لكنني لم أقترب منه، لئلا يلاحظني أحد فأتسبب عن غير قصد في إفساد الغرض الذي

---

(١) الأمير الأسود اسم أطلق على إدوارد من وودستوك، وهو الابن الأكبر للملك إدوارد الثالث، دُفن في كاتدرائية كانتربري، وقد نسبت إليه درع سوداء، مسماة بدرع السلام، وهي محفوظة بالكاتدرائية.

اعتزمت فعله. كانت أشعة شمس الصباح تضرب سقف المنزل ونوافذه الشبكية، وتلامسها بوميض من ذهب، كما بدا أن أشعتها راحت تلامس قلبي مستثيرة سلامه القديم.

تجولت في أرجاء البلدة لساعة أو نحو ذلك، ثم عدت إلى الشارع الرئيسي، الذي كان قد نفض عنه أثر نومه في الليلة الماضية. رأيت من بين المتنقلين في المتاجر ذاك الجزار عدوي القديم، الذي ينتعل الآن حذاءً طويلًا وقد رُزق بطفلٍ دفعه إلى العمل الجاد طلبًا لرزقه. كان الطفل يرضع، وقد بدا عليه أنه عضو صالح في المجتمع.

استولى القلق علينا جميعًا، ونفد صبرنا بعدما جلسنا لتناول الإفطار. ازددنا حيرة واضطربنا مع اقتراب الساعة من التاسعة والنصف بينما ننتظر السيد ميكوبر. لم نستطع في النهاية أن نتظاهر بالإقبال على تناول الطعام، باستثناء السيد دك، فلم يتجاوز الإفطار مجرد كونه شكلًا وطقسًا لا معنى له. راحت عمتي تتمشى بين أرجاء الغرفة ذهابًا وإيابًا، وجلس ترادلز على الأريكة متظاهرًا بأنه منكب على قراءة الصحيفة، بينما زاغت عيناه نحو السقف. أما أنا فقد نظرت من النافذة لأنبههم إلى قدوم السيد ميكوبر فور مجيئه، ولم أُطِل الانتظار حتى ظهر في الشارع مع أول دقات للساعة في التاسعة والنصف.

قلت: «ها هو ذا، لكنه لا يرتدي زيه الرسمي».

ربطت عمتي أربطة قبعتها - نزلت إلى تناول الإفطار مرتدية قبعتها - ثم تلفحت بشالها، كما لو أنها تسعد لأي شيء عارض خطير لا هوادة فيه. وراح ترادلز يحكم أزرار معطفه بتأنٍّ. انزعج السيد دك من

هذه المظاهر المتكلفة، لكنه شعر أنه من الضروري تقليدها، فسحب قبعته بكلتا يديه حتى ثبتها فوق أذنيه قدر استطاعته، ثم خلعها على الفور مرة أخرى للترحيب بالسيد ميكوبر.

قال السيد ميكوبر: «أيها السادة، سيدتي، صباح الخير. ويا سيدي العزيز، يا لك من رجل طيب». قصد السيد دك، وقد صافحه بحرارة.

قال السيد دك: «هل تناولت الإفطار؟ أترغب في شرائح اللحم؟!».

صرخ السيد ميكوبر بعد أن منعه من دق الجرس: «لا أريده يا سيدي الكريم، إنني والشهية يا سيد ديكسون قد صرنا غرباء منذ وقت طويل».

صار السيد ديكسون سعيدًا جدًّا باسمه الجديد، وبدا أنه يتصور أنه جدير باستحقاق هذا الاسم من السيد ميكوبر، حتى إنه صافحه مرة أخرى امتنانًا، وراح يضحك ضحكات طفولية.

قالت عمتي: «يا دك، انتبه».

عاد السيد دك إلى رشده، وقد احمر وجهه خجلًا.

قالت عمتي للسيد ميكوبر، وهي ترتدي قفازها: «أما الآن يا سيدي، فإننا مستعدون لجبل فيزوف[1]، أو أي شيء غيره، بمجرد أن تشاء».

وقال السيد ميكوبر: «يا سيدتي، أثق بأنكِ ستشهدين انفجارًا قريبًا. وأحسب يا سيد ترادلز أنك قد تأذن لي بأن أذكر هنا أننا تحدثنا عن الأمر معًا، أليس كذلك؟».

---

(١) بركان فيزوف يقع على خليج نابولي في إيطاليا.

قال ترادلز وقد نظرتُ إليه بدهشة: «هذا ما وقع يا كوبرفيلد بلا شك. لقد استشارني السيد ميكوبر حول ما يفكر فيه. وقد نصحته بأحسن الرأي».

أردف السيد ميكوبر قائلًا: «إن لم أكن مخطئًا يا سيد ترادلز، فإن ما أفكر فيه هو الكشف عن أمر خطير».

قال ترادلز: «إنه خطير للغاية».

قال السيد ميكوبر: «ربما في ظل هذه الظروف، يا سيدتي ويا سادتي، ستقدمون إليَّ معروفًا بتهيئة أنفسكم في الوقت الحالي، لتوجيه شخص، وإن كان لا يستحق أن يُلتفت إليه في أي ظرف آخر، فلا يعد أكثر من ضال شريد على ضفاف البشرية. فهل تستطيعون اعتباره أخًا لكم في الإنسانية، على الرغم من أخطائه التي شوهت آدميته، وهل تستطيعون إصلاح ظروفه؟».

قلت: «إننا نثق بك تمامًا يا سيد ميكوبر، وسنفعل ما يحلو لك».

قال السيد ميكوبر: «يا سيد كوبرفيلد، إن ثقتك في محلها في هذا الأمر. أود أن أستأذنكم في الاختلاء بنفسي لخمس دقائق، ثم استقبالكم جميعًا في مكتب ويكفيلد وهيب الذي أعمل به، ومن ثَم أستطيع السؤال عن أحوال الآنسة ويكفيلد».

نظرت أنا وعمتي إلى ترادلز، الذي أومأ بالموافقة.

استطرد السيد ميكوبر: «ليس لديَّ شيء جديد لأقوله في الوقت الحالي».

لفتني دهشة لا متناهية، في حين انحنى أمامنا ثم ابتعد عنا بهذه الطريقة الغريبة كل الغرابة، وقد بدا وجهه شاحبًا للغاية.

نظرت إلى ترادلز مستفهمًا عما نرى، فما كان منه إلا أن ابتسم، وهز رأسه وقد انتصب شعره فوقه من الدهشة. أخرجت ساعتي بعدها، ورحت أحسب الدقائق الخمس التي حددها. نظرت إلى عمتي فإذا بساعتها في يدها، وإذا بها تقوم بالأمر نفسه. انتهى الوقت المحدد، وناول ترادلز ذراعه لعمتي، ثم خرجنا معًا متجهين إلى المنزل القديم، من دون أن نتفوه بكلمة واحدة طوال الطريق.

وجدنا السيد ميكوبر في مكتبه في الطابق الأرضي. كان يكتب، أو يتظاهر بالكتابة في تأنٍّ. كانت مسطرة المكتب الكبيرة مندسة في صدريته، ولم يستطع إخفاءها جيدًا، بل ظهرت منها قدم أو أكثر بارزة من حضنه، كما لو أنها نوع جديد من الزينة تزين القميص.

بدا لي أنهم يتوقعون أن أبدأ بالحديث، فقلت بصوت عالٍ: «كيف حالك يا سيد ميكوبر؟».

قال السيد ميكوبر بنبرة جادة: «يا سيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون بخير».

قلت: «هل الآنسة ويكفيلد في المنزل؟».

أجابني قائلًا: «إن السيد ويكفيلد مريض ملازم للفراش يا سيدي، يشكو من الحمى الروماتيزمية. لكن لا يراودني شك في أن الآنسة ويكفيلد ستسعد برؤية الأصدقاء القدامى. هلا تفضلت بالدخول يا سيدي؟».

لقد سبقنا إلى غرفة الطعام - كانت الغرفة الأولى التي دخلتها في ذلك المنزل، ثم فتح باب مكتب السيد ويكفيلد القديم، وقال بصوت رنان:

«الآنسة تروتوود والسيد ديفيد كوبرفيلد والسيد توماس ترادلز والسيد ديكسون».

لم أرَ يورايا هيب منذ صفعته. وكان من الواضح أن زيارتنا له قد أذهلته، وأجرؤ على القول بأن دهشته لم تكن أقل من دهشتنا. لم يستطع أن يعقد حاجبيه غضبًا، إذ لم يكن لهما أي ملامح تذكر، لكنه عبس إلى الحد الذي كاد معه أن يغمض عينيه الصغيرتين، في حين رفع يده المروعة بسرعة إلى ذقنه، دلالة على الخوف أو المفاجأة. ولم يظهر بهذا المشهد إلا حين صرنا بصدد دخول غرفته، بعدما ألقيت نظرة عليه من فوق كتف عمتي، لكنه بعد لحظة واحدة، عاد إلى اتضاعه كعهده دومًا.

قال: «حسنًا، إنني على يقين بأن هذه الزيارة لم تكن متوقعة. قد أقول إن اجتماع جميع الأصدقاء حول كنيسة سانت بول في وقت واحد، أمر ممتع وغير متوقع. يا أيها السيد كوبرفيلد، أرجو أن تكون بخير، وإذا سمحت لي بالتعبير عما يدور في نفسي بتواضع، فإنني أتقدم بخالص الود إليهم كما هي الحال دائمًا مع أصدقائك، سواء بادلوني الود نفسه أو لم يبادلوني إياه. ويا سيدي، إني لأرجو أن تكون السيدة كوبرفيلد في أفضل حال. إنني أؤكد لكم أننا في الآونة الأخيرة قد صرنا قلقين للغاية على صحتها بسبب بعض الأقاويل السيئة عن حالتها».

شعرت بالخجل من أن أسمح له بمصافحتي، لكنني لم أعرف ماذا أفعل غير ذلك.

تحدث يورايا بابتسامته البغيضة، فقال: «لقد تغيرت الأمور في هذا المكتب يا آنسة تروتوود، منذ كنت كاتبًا منحطًّا حين توليت أمر مهركِ، أليس كذلك؟ لكنني لم أتغير يا آنسة تروتوود».

أجابت عمتي: «حسنًا، سأخبرك بالحقيقة يا سيدي. إنني أحسب أنك ثابت جدًّا على وعود شبابك، إذا كان هذا القول يرضيك».

قال يورايا وهو يتلوى بأسلوبه المعتاد القبيح: «شكرًا لكِ يا آنسة تروتوود على هذا الرأي الطيب. يا ميكوبر، فلتخبر الآنسة أجنيس وأمي بوجودهم. كم ستسعد أمي برؤية هذه الجماعة». ثم راح يهيئ لنا مقاعد للجلوس.

اشتعلت عين يورايا بحمرة ماكرة وقد التقت بعين ترادلز عن طريق الخطأ، لأنها كانت تفحصنا ثم تهرب من نظراتنا في الحال، فراح ترادلز يقول: «هل أنت مشغول يا سيد هيب؟».

عاد يورايا إلى مقعده الرسمي، وأخذ يعتصر يديه، ووضع راحة يده بين ركبتيه العظيمتين، ثم أجاب قائلًا: «كلا يا سيد ترادلز، لست مشغولًا بالقدر الذي كنت أرجوه. لكن المحامين مثل أسماك القرش والعلق، وهم كما تعلم لا يشعرون بالرضا بسهولة. إن أيدينا أنا وميكوبر مشغولة بالعمل بشكل عام، وذلك لأن السيد ويكفيلد لا يكاد يصلح لأي وظيفة يا سيدي. إلا أنني على يقين من أن عملي لديه يسعدني كما

أنه واجب عليَّ. ولا أظن أنك كنت على علاقة وطيدة بالسيد ويكفيلد يا سيد ترادلز، أليس كذلك؟ أحسب أنني لم أتشرف برؤيتك ولو لمرة واحدة قبل الآن».

قال ترادلز: «كلا، لم أكن على علاقة وطيدة بالسيد ويكفيلد، وإلا كنت قد التقيت بك منذ فترة طويلة يا سيد هيب».

كانت لهجة هذا الرد تحمل شيئًا جعل يورايا ينظر إلى المتحدث مرة أخرى، مُبديًا تعبيرًا شريرًا ومريبًا للغاية. لكنه ما إن وقعت عيناه على ترادلز، حتى أبصر على ملامحه حسن النية، وقد انتصب شعر رأسه، وإذا بترادلز ينفي ببساطة ما دار في ذهن يورايا بعد أن تحدث وقد سرت رعشة في جسده كله، ولكنها بدت بشكل خاص نابعة من حلقه، فقال:

«إنني آسف لذلك يا سيد ترادلز. لو أنك تعرفه لأعجبت به بقدر إعجابنا جميعًا به. أما إخفاقاته الصغيرة فكانت أولى أن تجعله محبوبًا بدرجة أكبر. ولكن إذا أردت سماع حديث بليغ عن شريكي في العمل، فينبغي عليَّ أن أحيلك إلى كوبرفيلد. وإذا لم تسمعه من قبل، فإن محور الأسرة عنده مؤثر للغاية».

مُنعت من التنصل من هذه المجاملة -إذا كان عليَّ أن أتنصل منها على أي حال- إذ أقبلت علينا أجنيس، بعد أن أعلن السيد ميكوبر عن دخولها في هذه اللحظة. وأحسب أنها لم تكن واثقة من نفسها على غير العادة، بل كان من الواضح أنها تعاني قلقًا وتعبًا. إلا أن ودها الصادق وجمالها الهادئ قد أضفيا عليها بريقًا ولطفًا.

رأيت يورايا يراقبها وهي تستقبلنا، فذكرتني هيئته بصورة جني قبيح ومتمرد يراقب الروح الطيبة. وفي غضون تخيلاتي، تبادل السيد ميكوبر وترادلز بعض الإيماءات الطفيفة، ثم خرج ترادلز من دون أن يلحظه أحد غيري.

قال يورايا: «انصرف يا ميكوبر».

وقف السيد ميكوبر، وقد أسند يده على المسطرة المخبأة في صدره، وظل منتصبًا أمام الباب. بدا عليه بصورة لا لبس فيها، أنه يفكر في أن أحد أقرانه من الرجال، بل إن هذا الرجل هو صاحب عمله.

قال يورايا: «ماذا تنتظر؟ يا ميكوبر، هل سمعت أنني أقول لك انصرف؟».

أجاب السيد ميكوبر الثابت في مكانه، فقال: «نعم».

قال يورايا: «إذن لماذا تنتظر؟».

أجاب السيد ميكوبر باندفاع: «لأنني... باختصار، أريد أن أبقى».

امتعض وجه يورايا، ولاح عليه شحوب قبيح، وانتشرت صفرة شحوبه حتى أضعفت احمرار بشرته. ثم أطال النظر إلى السيد ميكوبر، وقد صارت قسمات وجهه بأكملها تلهث بأنفاس متقطعة.

قال محاولًا تصنع الابتسام: «إنك رجل مشتت كما يعرفك الناس كلهم، وأخشى أن تُجبرني على التخلص منك. امشِ، سأتحدث معك فيما بعد».

تحدث السيد ميكوبر مرة أخرى، وقد انفجر بأقصى درجات الحدة

فجأة، فقال: «إذا كان ثمة وغد على هذه الأرض، وقد تحدثت معه كثيرًا، فإن هذا الوغد يُدعى... هيب».

ارتد يورايا إلى الوراء وكأنه قد صُفع أو لُسع بشيء. ثم قال بصوت منخفض وهو يدير نظراته بيننا ببطء، وقد ارتسم على وجهه أحلك تعبير شرير يمكن أن يرتسم على وجه إنسان:

«آه! إنها مؤامرة! لقد التقيتم هنا في موعد محدد مقصود! وأنت يا كوبرفيلد، هل تريد أن تقتسم الغنائم مع كاتبي؟ والآن، فلتحذر! لن تنفذ شيئًا من هذا. إن كلًّا منا يفهم الآخر، أنت وأنا، لا تجمعنا أي مودة. لقد كنت منذ قدومك الأول إلى هنا جروًا فخورًا متكبرًا دائمًا. إنك تحسدني على الترقي، أليس كذلك؟ لن تفلح مؤامراتك ضدي. سأتصدى لها. يا ميكوبر، اخرج. سأتحدث إليك فيما بعد».

قلت: «يا سيد ميكوبر، لقد تغير هذا الرجل تغييرًا مفاجئًا، وقد ظهر عليه في أكثر من جانب، فتجاوز المألوف ولم يفضِ بالحقيقة في أمر بعينه، مما يؤكد لي أنه قد خرج عن رشده، فتعامل معه بما يستحق».

قال يورايا، بالصوت الخفيض نفسه، وقد تصبب عرقًا، وراح يمسحه عن جبينه بيده النحيلة الطويلة: «يا لكم من عصابة مذهلة، أليس كذلك؟ هل تشترون كاتبي وهو من حثالة المجتمع -كما كنت أنت يا كوبرفيلد قبل أن يتعطف أحد عليك، كما تعلم- لتشويه سمعتي بأكاذيبه؟ يا آنسة تروتوود، من الأفضل أن توقفي هذا الهراء، وإلا سأوقف زوجكِ أسرع مما تتوقعين. إنني لم أعرف قصتك عبثًا بل بمهنية واحتراف يا أيتها السيدة العجوز. ويا آنسة ويكفيلد، إذا كنتِ تحبين والدكِ قيد أنملة،

فمن الأفضل ألا تنضمي إلى هذه العصابة. وأقول لكِ إنكِ إذا انضممتِ إليهم، سأطيح به. والآن هيا، لقد أوقعت بعضًا منكم تحت المقصلة. أعيدوا التفكير، قبل أن أمررها فوق رقابكم. فكر مرة أخرى يا ميكوبر، إذا كنت لا تريد أن تُسحق. أنصحك أن تنصرف بعيدًا عن هنا، وسوف أتحدث معك فيما بعد، أيها الأحمق، فلتنصرف قبل فوات الأوان. أين أمي؟». لاحظ يورايا غياب ترادلز فجأة، فسحب حبل الجرس في توتر، وقال: «يا لها من أفعال مذهلة تجري في منزلي!».

قال ترادلز، وقد عاد مع الأم المحترمة لهذا الابن المحترم: «ها هي السيدة هيب يا سيدي، لقد سمحت لنفسي بأن أتعرف عليها».

رد يورايا قائلًا: «من أنت حتى تُعرِّف نفسك لها؟ وماذا تريد بوجودك هنا؟».

قال ترادلز بلهجة هادئة قريبة إلى التفكير العملي: «إنني وكيل السيد ويكفيلد وصديقه يا سيدي، كما أنني أحمل في جيبي توكيلًا رسميًّا منه، لأنوب عنه في الأمور كافة».

قال يورايا بعد أن صار وجهه أبشع وأقبح مما كان: «يا لهذا الحمار العجوز! يشرب حتى يفقد عقله، ثم تحصل منه على هذا التوكيل بالاحتيال!».

قال ترادلز بهدوء: «أعرف أن شيئًا قد أُخذ منه بالاحتيال. كما أنك تعرف هذا الشيء يا سيد هيب. سنحيل هذه المسألة، إذا سمحت، إلى السيد ميكوبر».

بدأت السيدة هيب تبدي إيماءة قلقة، وتقول: «يوري...».

أجاب: «أمسكي لسانكِ يا أمي. إن أصلح ما يمكن عمله في الوقت الراهن هو الإقلال من الحديث».

«لكن يا يوري...».

«هلا أمسكتِ لسانكِ يا أمي وتركتِ الأمر لي؟».

كنت أعرف منذ فترة طويلة أن خنوعه زائف، وأن ادعاءاته كلها خادعة وجوفاء، إلا أنني لم أكن أتصور مدى نفاقه، حتى رأيته في هذه اللحظة بعد أن أزال قناعه. وكانت المفاجأة والسرعة اللتان أسقطه بهما بعد أن أدرك أنه لن يفيده، قد كشفتا عن مدى الحقد والوقاحة والكراهية. ويا لسخرية القدر، كم تباهى بالشر الذي اقترفه حتى هذه اللحظة! لقد ظل طوال هذا الوقت يائسًا أيضًا، بعد أن بذل قصارى جهده وتفكيره من أجل استغلالنا. كان وجهه الحقيقي يتوافق تمامًا مع تجربتي معه التي مررت بها منذ أن عرفته من فترة طويلة، حين فاجأني في البداية ثم كرهته أشد الكراهية.

لن أقول شيئًا عن النظرة التي وجهها لي، وهو واقف يرمقنا بنظراته واحدة تلو الأخرى، لأنني كنت أعرف دائمًا أنه يكرهني، وقد تذكرت علامات صفعة يدي على خده. لكن عندما انتقلت عيناه إلى أجنيس، ورأيت الغضب الذي شعر به لأن سلطته عليها تتلاشى، ولاحت لي خيبة أمله في مشاعره البغيضة التي دفعته إلى التطلع إلى الارتباط بإنسانة فاضلة، أبعد أن ينالها رجل مثله لا يقدرها قدرها أو يهتم بمحاسنها،

انتابتني صدمة من مجرد التفكير في أنها قد عاشت، ولو لساعة واحدة، على مرأى من رجل مثله.

فرك الجزء السفلي من وجهه، ونظر إلينا بهاتين العينين المقيتتين من فوق أصابعه البشعة. راح بعدها يوجه حديثًا آخر لي، بطريقة تمزج بين الصراخ والإساءة.

قال: «هل تظن أن من حقك، أنت يا كوبرفيلد، وأنت الذي تفتخر بشرفك كثيرًا وتتباهى بأشياء من هذا القبيل، أن تتسلل إلى مكاني، وتتجسس عليَّ مع كاتبي؟ لو كنت أنا من اقترف مثل هذا الفعل فما كنت لأعجب، لأنني لا أدَّعي أنني رجل نبيل. وإن كنتُ -على حد قول ميكوبر- لم أتسكع في الشارع قَطُّ مثلك. فيا للعجب من أن تقدم أنت على هذا الفعل! ألم تخشَ عواقب القيام بذلك أيضًا؟ إنك لا تتصور ما سأفعله ردًّا عليك. لا تعرف كيف ستتورط في مشكلات بسبب تآمرك. جميل جدًّا، سوف نرى. أنت يا سيد، أيًّا ما كان اسمك، كنت ستحيل بعض المسائل إلى ميكوبر، هاك حكمك، لماذا لا تحثه على الكلام؟ أظن أنه قد تعلم الدرس».

لم يلحظ تأثيرًا يذكر لكلامه عليَّ أو على أيٍّ منا، فجلس على حافة مكتبه وقد دس يديه في جيوبه، وقد لف إحدى ساقيه حول الأخرى، منتظرًا عاقبة كلامه في إصرار وترقب.

أما السيد ميكوبر، فكنت قد كبحت جماح غضبه حتى هذه اللحظة بصعوبة بالغة، بعد أن حاول مرارًا مقاطعة يورايا بتكرار الأحرف الأولى من كلمة مجرم، من دون الوصول إلى نهايتها، فإذا به ينفجر في

هذه اللحظة ويسحب المسطرة من صدره (على ما يبدو كان يريد أن يستخدمها كسلاح دفاعي)، وأخرج من جيبه وثيقة مطوية بطول صفحة كاملة، كانت مطوية على شكل كتاب كبير. بسط الوثيقة بانتفاضاته المعهودة، ثم ألقى نظرة خاطفة على محتوياتها، وكأنه يعتز بإعجاب فني بأسلوب كتابتها، ومضى يقرأ ما يلي:

«عزيزتي الآنسة تروتوود والسادة الأعزاء...».

قالت عمتي بصوت منخفض: «فليرحم الله هذا الرجل، إنه ينسخ الخطابات على رزمة من الورق، حتى لو كانت تشكل أعظم إساءة».

تابع السيد ميكوبر قراءته، من دون أن يسمعها.

«إنني شاخص أمامكم للتنديد بأكثر الناس شرًّا على الإطلاق». أشار السيد ميكوبر بمسطرته إلى يورايا هيب، من دون أن يرفع بصره عن كتابه، ومضى يقول: «إنني لا أطلب شيئًا لنفسي. لقد كنت منذ المهد فريسة الالتزامات المالية التي لم أتمكن من سدادها، وصرت لعبة في يد الظروف المهينة. صار العار، والعوز، واليأس، والجنون، مجتمعين أو منفصلين، عقبة أمام مسيرتي المهنية».

كانت اللذة التي وصف بها السيد ميكوبر نفسه بأنه فريسة لهذه المصائب الكئيبة، لا يضاهيها سوى التركيز الذي قرأ به رسالته، والتبجيل الذي حمله بها، بينما راح يهز رأسه، حين يظن أنه قد أصاب بجملته كبد مقصده.

استطرد قائلًا: «تراكمت الإهانة، والعوز، واليأس، والجنون،

بعد أن دخلت إلى مكتب الشركة -أو كما يطلق عليه جارنا من بلاد الغال[1]، وسُمِّي رسميًّا بمكتب ويكفيلد وهيب، ولكنه في الواقع، تحت سلطة هيب وحده. إن هيب، وهيب فقط، هو المحرك الرئيس لتلك الآلة. هيب، وهيب فقط، هو المزور والغشاش».

اشتد وجه يورايا زرقة، واختلط به شحوب بعد ظهور هذا الخطاب، فاندفع إليه ويبدو أنه أراد أن يمزقه إلى أشلاء. منعه السيد ميكوبر بمعجزة وبراعة مدهشة أو حظ عجيب، إذ أمسك بمفاصل أصابعه مع المسطرة، فعطل يده اليمنى عن الإمساك بأوراقه، فانهار رسغ يورايا كما لو أنه مكسور، وأصدرت ضربة المسطرة صوتًا كما لو أنها سقطت على خشب.

قال يورايا وهو يتلوى من الألم بطريقة جديدة: «ليأخذك شيطان! سأنال منك تحت أي ظرف».

شهق السيد ميكوبر قائلًا: «اقترب مني مرة أخرى، إنك أنت... أنت... أنت من يحمل العار، وإذا كان لديك رأس إنسان حقيقي، فسأكسره. هيا... هيا تعالَ».

أظن أنني لم أرَ قَطُّ أي شيء أكثر تفاهة من هذا المشهد - لم أزل أذكر هذا الشعور حتى يومي هذا. كان السيد ميكوبر يتخذ من مسطرته سلاحًا للقتال ويصرخ قائلًا: «هيا تعالَ»، بينما دفعته أنا وترادلز للعودة إلى إحدى زوايا الغرفة، ولكننا كلما أبقيناه عندها، أصر على التحرك مرة أخرى.

---

(١) اسم أطلقه الرومان على المنطقة التي تمتد من شمال إيطاليا إلى فرنسا وبلجيكا.

تمتم عدوه متحدثًا إلى نفسه، بعد أن فرك يده الجريحة لبعض الوقت، وسحب ببطء منديلًا كان ملتفًّا حول رقبته وربطه على جرحه، ثم أمسكها بيده الأخرى، وجلس على طاولته ناظرًا بوجهه المتجهم إلى أسفل.

هدأ السيد ميكوبر بما فيه الكفاية، وشرع في قراءة رسالته، فقال:

«إن الراتب الذي دخلت به في خدمة - هيب»، ظل يتوقف دائمًا أمام تلك الكلمة وراح ينطقها بقوة مذهلة وقد استطرد: «لم يتجاوز اثنين وعشرين شلنًا وستة بنسات في الأسبوع، على أن يصير باقي أجري مرهونًا بقيمة مجهوداتي المهنية، أو بعبارة أخرى أدق وصفًا، يُحدَّد على أساس مذلتي، وطيبة دوافعي، وفقر عائلتي، والتشابه الأخلاقي العام - أو بالأحرى غير الأخلاقي - بيني وهيب. أود أن أقول إنه سرعان ما صار من الضروري لي أن ألتمس من هيب سلفًا نقديًّا، حتى أسد حاجة السيدة ميكوبر وعائلتنا المنكوبة، ولكنها ستنهض من مذلتها. هل أحتاج إلى القول بأن هيب كان يتوقع مني ذلك، فأقرضني، ووقعتُ على إيصالات وأوراق من هذا القبيل، معروفة لدى المؤسسات القانونية في هذا البلد؟ وهكذا صرت منغمسًا في الشباك التي أعدها لافتراسي؟».

يبدو أن استمتاع السيد ميكوبر برسالته البليغة، في وصف هذه الحالة المؤسفة للأمر، فاق أي ألم أو قلق كان من الممكن أن تسببه له الأحداث الحقيقية. وقد راح يقرأ منها:

«حينها بدأ هيب يمنحني قدرًا كبيرًا من ثقته، فقد كان هذا ضروريًّا لتنفيذ أعماله الجهنمية. بدأت بعدها -إذا جاز لي استخدام

تعبير شكسبير وإضفاؤه على نفسي- أنكمش، وأتضاءل، وأنحل. لقد وجدت أن خدماتي كانت تستدعي تزوير الأعمال باستمرار، وخداع إنسان يكفي أن أسميه بالسيد واو. ومع ذلك، ظل هيب الشرير يصرح بامتنانه اللا متناهي طوال الوقت، والصداقة التي لا حدود لها التي تجمعه بهذا الرجل المحترم. كم كان هذا الأمر سيئًا بغيضًا، وكما قال الفيلسوف دين، بأسلوبه التطبيقي الشامل الذي ميز الزخرفة اللامعة لعصر إليزابيث: «يبقى الأسوأ متواريًا في الخلف»».

لقد تأثر السيد ميكوبر بهذا الختام وسعد بالاقتباس الدقيق، حتى إنه غمر نفسه وغمرنا معه بقراءة ثانية للجملة، بحجة أنه تاه عن الموضع الذي انتهى إليه.

تابع القراءة فقال: «إنني لا أنتوي الاستغراق في قائمة مفصلة أدرجتها في الرسالة الحالية (على الرغم من أنها جاهزة في موضع آخر)، تحوي عمليات الخداع البسيطة المختلفة التي قمت بها ضد الشخص الذي أطلقت عليه السيد «واو»، وكنت طرفًا فيها وموافقًا عليها ضمنيًّا. وكان هدفي أن أتخلى عنها حين يتوقف الصراع بين حاجتي والراتب، وبين لقمة العيش وعدم وجودها، وبين الحياة والهلاك. كنت أخطط بأن أستفيد من فرصي لاكتشاف وكشف عمليات الخداع التي ارتكبت في حق هذا السيد وإصابته بضرر جسيم لصالح هيب. حفزني ضميري الصامت المضمر داخلي، وحفزني محرك آخر خارجي لا يقل تأثيرًا وجاذبية عن ضميري -وسأشير إليه باختصار باسم الآنسة واو- فدفعني إلى الانخراط في مهمة شاقة تطلب جهدًا للتحقيق السري. وهكذا

استمر الأمر حتى هذه اللحظة، لفترة تتجاوز على حد علمي ومعلوماتي وظني اثني عشر شهرًا».

راح يقرأ هذا المقطع كما لو أنه قانون برلماني، وبدا منتعشًا مهيبًا متأثرًا بوقع هذه الكلمات.

راح يقرأ وينظر إلى يورايا، حاملًا المسطرة في وضع مريح تحت إبطه الأيسر، تأهبًا لوقوع شيء ما. قال: «هذه هي التهم الموجهة إلى هيب».

أظن أننا حبسنا أنفاسنا. وإني واثق من أن يورايا قام بالشيء نفسه.

قال السيد ميكوبر: «أولًا: عندما صارت إدارة السيد واو لأعماله واهنة، وضعفت ذاكرته لأسباب ليس من الضروري أو الملائم الاستغراق في تفاصيلها، راح هيب يعقد له الأمور برمتها، خاصة المعاملات الرسمية منها. كان السيد واو غير مستعد للدخول في أي أعمال، بينما صار هيب قريبًا منه دائمًا لإجباره على خوضها، إلى أن حصل في ظل هذه الظروف على توقيع السيد واو، بعد أن أقنعه بأنها أوراق غير مهمة. حمله بعد ذلك على منحه تفويضًا يمكنه من سحب مبلغ معين من ودائع الأمانات، يبلغ اثني عشر ألفًا وستمائة وأربعة عشر جنيهًا وشلنين وتسعة بنسات، ثم أنفقها على رسوم عمل مزعومة، ولسداد عجز ربما كان موجودًا، أو ليس له وجود مطلقًا. لقد منح هذه العملية مظهرًا يوحي بسوء نية واحتيال السيد واو، وراح طوال الوقت يصف عمل السيد واو بغير النزيه، ثم استخدمه منذ ذلك الحين لتعذيبه وتقييد حريته».

قال يورايا بنبرة تهديد وإيماءة إرهاب من رأسه: «عليك إثبات هذا يا كوبرفيلد، لكل شيء وقته».

أبعد السيد ميكوبر رسالته جانبًا، وقال: «يا سيد ترادلز، فلتسأل هيب لأنك أقمت في منزله من بعده، هل ستسأله من فضلك؟».

قال يورايا بازدراء: «إن الأحمق نفسه لم يزل يعيش هناك إلى الآن».

قال السيد ميكوبر: «فلتسأل هيب عما إذا احتفظ يومًا بدفتر جيب في ذلك المنزل. هل ستسأله؟».

رأيت يد يورايا النحيلة تتوقف لا إراديًّا عن حك ذقنه.

قال السيد ميكوبر: «أو فلتسأله عما إذا كان قد أحرق دفترًا. إذا قال نعم، وسألك عن مكان الرماد، فحوِّله إلى ويلكنز ميكوبر، وسوف يُسمعه شيئًا لا يبرِّئه على الإطلاق».

كان زهو الانتصار الذي بدا على السيد ميكوبر بقوله لهذه الكلمات، قد أحدث تأثيرًا قويًّا، مما أثار قلق الأم، فراحت تصرخ في هياج شديد:

«يوري، يوري، كن متضعًا، واقبل التصالح يا عزيزي».

أجاب يورايا: «يا أمي، هلا تصمتين؟ إنكِ خائفة ولا تعرفين ماذا تقولين أو تقصدين». ثم نظر إليَّ مزمجرًا ومكررًا كلامه: «لقد كان أحدهم وضيعًا للغاية منذ عهد طويل جدًّا، بما يفوق ما كنتُ عليه من ذل».

كان السيد ميكوبر يُعدِّل من وضعية ذقنه بلطف فوق ربطة عنقه، حين شرع في القراءة:

«ثانيًا: زوَّر هيب في عدة مناسبات، على حد علمي، ومعلوماتي، وظني...».

تمتم يورايا بعد أن اطمأن: «لكن هذا لن يجدي، وأنتِ يا أمي فلتلتزمي الصمت».

مضى السيد ميكوبر يقول: «سنسعى إلى تقديم شيء مُجدٍ، ونجلبه لك في النهاية يا سيدي، وإنه لقريب جدًّا».

ثم استأنف: «زوَّر هيب في عدة مناسبات، على حد علمي، ومعلوماتي، وظني، مختلف الحسابات والمستندات والوثائق تزويرًا منهجيًّا. كما زوَّر توقيع السيد واو، وقد فعل ذلك صراحة في موضع بعينه، أستطيع إثباته بنفسي. وقد أوضح أن الأمر قد مضى على النحو التالي».

شعر السيد ميكوبر مرة أخرى بمتعة من أثر وقع هذا التركيب الرسمي للكلمات، وعلى الرغم من طريقته السخيفة، يجدر بي أن أقول إنه لم يكن شيئًا غريبًا عليه على الإطلاق. لقد لاحظت هذا المسلك في عدد من الرجال على مدار حياتي، بل يبدو لي أنها قاعدة عامة. رأيت وكلاء على سبيل المثال، يرددون القسم القانوني، فيتلذذون بترديد عدة كلمات فخمة ورنانة؛ تعبيرًا عن فكرة بعينها على التوالي، كأن يقولون إنهم يبغضون أشد البغضاء وينكرون أغلظ النكران، أو ما إلى ذلك من عبارات. إنها اللذة ذاتها التي يجدها الناس في السباب والشتائم، وألفاظ التحريم القديمة. إننا نتحدث عن استبداد الكلمات، ولكننا نحب هذا الاستبداد الطاغي عليها أيضًا، بل إننا مغرمون باشتقاق مجموعة هائلة

من الكلمات واستخدام فيض من الألفاظ في عدد من المناسبات الحيوية. إننا نتصور أن استخدامها مهم، وأنها تؤيد مواقفنا؛ نظرًا لأننا لا نعبأ بالمعنى الذي نورده في المناسبات الرسمية، ما دامت الألفاظ كانت رنانة ومتنوعة، بل تضع المعنى أو مغزى ألفاظنا في مرتبة ثانوية، في سبيل الحفاظ على استعراض مهيب لها. يواجه الناس مشكلاتهم بعرض قديم رائع وفخم لمزيد من الكلمات، كما ينتفض العبيد على كثرتهم ضد أسيادهم، لذلك فإنني أظن أنني أستطيع أن أذكر أمة ما كانت قد واجهت مشكلات عديدة وكبيرة، وسوف تدخل في عديد من المشكلات الكبرى، لأنها لم تزل تحافظ على حاشية كبيرة جدًّا من الكلمات.

قرأ السيد ميكوبر، وهو يلعق شفتيه:

«الطريف في الأمر أنه وقع على النحو التالي: لما كان السيد واو عاجزًا، صارت احتمالية وفاته قد تؤدي إلى بعض الاكتشافات، وإلى سقوط سلطة هيب عن عائلة السيد واو -هذا ما أقره أنا ويلكنز ميكوبر الموقع أدناه- ما لم يكن قد حاول التأثير على المحبة الأبوية لابنته سرًّا، فلا تسمح بإجراء أي تحقيق في شؤون الشراكة على الإطلاق. وقد فكر هيب في ضرورة أن يحصل على وثيقة جاهزة من السيد واو، تُخلي مسؤوليته عن المبلغ سالف الذكر؛ وهو اثنا عشر ألفًا وستمائة وأربعة عشر جنيهًا وشلنان وتسعة بنسات، مع الفوائد. نصت الوثيقة على أن هيب قد دفع هذا المبلغ إلى السيد واو لإنقاذه من العار، على الرغم من أن المبلغ لم يسدد قَطُّ، بل بدده منذ فترة طويلة. أما التوقيع المرفق

على هذه الوثيقة، والمنسوب إلى السيد واو، فإنه مزور من هيب، وفي حوزتي الكثير من الوثائق التي قلد بها توقيع السيد واو بخط يده، وكذلك في دفتر جيبه. تظهر أثر النيران في هذه الوثائق، ولكن يمكن لأي إنسان قراءتها وتمييزها. إنني لم أوقع على أي وثيقة من هذا القبيل، ولم تزل الوثيقة نفسها في حوزتي». أخرج يورايا هيب مفاتيح من جيبه فجأة وفتح أحد الأدراج، ثم أدرك الموقف، فاستدار نحونا مرة أخرى، من دون أن ينظر إليه.

عاد السيد ميكوبر يقرأ مرة أخرى، ناظرًا إلى رسالته كما لو أنه يقرأ نصًّا خطابيًّا: «إن الوثيقة نفسها في حوزتي؛ أقصد أنها كانت معي حتى الساعات الأولى من هذا الصباح، وإلى أن كتبت هذه الرسالة، لكنني أعطيتها بعد ذلك إلى السيد ترادلز».

أكد ترادلز كلامه قائلًا: «هذا صحيح تمامًا».

صرخت الأم: «يوري، يا يوري، اتضع وفاوض. أعلم أيها السادة أن ابني سيحفظ مكانته الذليلة، إذا منحتموه وقتًا للتفكير. إنني على يقين من أنك تعلم يا سيد كوبرفيلد أنه كان دائمًا وضيعًا جدًّا يا سيدي».

كم كان من المدهش أن نرى إصرار الأم على التمسك بالحيلة القديمة، بينما تخلى الابن عنها بعد أن صارت عديمة الفائدة.

نفد صبر يورايا فعض على المنديل الذي لف به يده، وقال: «يا أمي، لو أنكِ أمسكتِ سلاحًا وأطلقتِ النار عليَّ، لكان أفضل مما تقولين».

صرخت السيدة هيب: «لكني أحبك يا يوري».

لم أشك في أنها تحبه، أو أنه يحبها، مهما بدا ذلك غريبًا، وإن كانا بلا شك يمثلان زوجين متجانسين. أكملت: «ولا يمكنني أن أتحمل ما أسمعه منك حين تستفز السادة، فتُعرِّض نفسك لمزيد من الأخطار. لقد قلت للسيد المحترم في البداية، بعد أن أخبرني في الطابق العلوي أن كل شيء قد انكشف، إنني سأدفعك إلى أن تعود إلى وضاعتك، وأن تتفاوض لطلب العفو. آه، انظروا أيها السادة كم أذل، فلا تكترثوا به».

رد يورايا بغضب، مشيرًا بإصبعه النحيلة نحوي، كما لو أنه يُوجِّه كل عداوته إليَّ، بصفتي المحرك الرئيس في هذا الاكتشاف. أما أنا، فلم أقابل ما قاله بشيء، حين قال: «حسنًا، هل هو كوبرفيلد؟ ها، هو كوبرفيلد يا أمي الذي يود لو يمنحكِ مائة جنيه لتقولي شيئًا ولو أقل مما تفوهتِ به؟».

صرخت والدته: «لا أستطيع مساعدتك بغير ما قلته يا يوري. لا أتحمل أن أراك على حافة الخطر نتيجة لتكبرك ورفع رأسك عاليًا. من الأفضل أن تعود وضيعًا كما كنت دائمًا».

أخذ يعض منديله لبعض الوقت ثم تحدث إليَّ بعبوس، فقال:

«ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ إذا كنت ترغب في أي شيء، فاستمر فيما تفعل. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟».

استأنف السيد ميكوبر رسالته على الفور، مسرورًا بالعودة إلى الأداء الذي يرتضيه ويحبه، فقال:

«ثالثًا، وأخيرًا: إنني الآن في وضع يسمح لي بعرض أوراق هيب

المزيفة، وإظهار مذكراته الحقيقية؛ بدءًا من دفتر الجيب المُدمَّر جزئيًّا (الذي لم أستطع فهمه، بعد أن اكتشفته السيدة ميكوبر بالصدفة حين انتقلنا إلى مسكننا الحالي. وجدته في خزانة ما أو صندوق القمامة المخصص للرماد وبقايا المحروقات عند موقد المنزل). استطاع هيب أن يستغل نقاط ضعف، وعيوب السيد واو المسكين، بل واستغل فضائله ذاتها، ومشاعره الأبوية، واتصافه بالشرف، فاستغل كل ذاك لسنوات لتحقيق مطامعه. ظل السيد واو مخدوعًا لسنوات طوال تعرض فيها للنهب بكل السبل التي يمكن تصورها، حتى يشبع الجشع والشره المالي وحب امتلاك السلطة لـ - هيب. كان هدف هيب النهائي هو أن يُخضِع السيد والسيدة واو خضوعًا كاملًا (لن أقول شيئًا عن أغراضه الأخرى التي تتعلق بالسيدة واو). استطاع بعد بضعة أشهر أن يدفع السيد واو إلى التخلي عن شركته، وإلى بيع أثاث بيته أيضًا مقابل قدر من المال يدفعه هيب بانتظام على أقساط ربع سنوية في كل عام. بدأت حسابات ممتلكات السيد واو منذ هذه اللحظة تبدو مزيفة ومقلقة، في حين أقبل السيد واو على تداول مالي، واستمر في الاقتراض المزعوم بفائدة هائلة، كان مصدرها في الحقيقة هيب، وتؤول إليه، وقد حصل عليها عن طريق الاحتيال أو حجبها عن السيد واو نفسه، بحجة أنه سيدفعها في المضاربات المالية أو غير ذلك، وهكذا استخدم عدة حجج متنوعة من الخداع وقلة الضمير. تكالبت الخدع تدريجيًّا، حتى لم يستطع السيد واو التعس التطلع إلى طريق للخلاص في هذه الحياة. حسب أنه قد أفلس، وساءت ظروفه، ولم يبقَ له أمل في إصلاح

أموره أو الحفاظ على سمعته، إلا بالاعتماد على هذا الوحش المتخفي في ثياب رجل». استخدم السيد ميكوبر تعبيرات كثيرة على مثل هذا المنوال - «الذي، جعل نفسه ضروريًّا له، حتى استطاع تدميره. وإنني لأتعهد بإظهار دلائل كل هذه الأمور، وربما أستطيع قول أكثر من ذلك بكثير».

همست ببضع كلمات لأجنيس التي كانت تجلس بجانبي وهي تبكي بكاء ممزوجًا بالفرح والحزن. تحركنا جميعًا كما لو أن السيد ميكوبر قد أنهى خطابه. إلا أنه قال بجرأة وجد: «أستميحكم عذرًا»، ثم مضى يتلو رسالته بمزيج من الانقباض الخافت والمتعة الفائقة.

«ها قد انتهيت الآن. لم يتبقَّ لي سوى إثبات هذه الاتهامات. وبعد ذلك سأرحل مع عائلتي تعيسة الحظ، فأختفي من المشهد، لأننا نشكل عبئًا عليه، وهذا ما سنفعله في القريب العاجل. يدفعنا ذلك إلى استنتاج عقلي مفاده أن رضيعنا ستخلو معدته أولًا باعتباره العضو الأضعف في دائرتنا، ثم سيتبعه توأمنا على التوالي. ليكن ما يكون. أما أنا، فقد أنجزت مسيرتي في كانتربري وفعلت بي الكثير، أما السجن نتيجة الدين، والعوز، فسيفعلان بي المزيد قريبًا. إنني على ثقة من أن متاعب العمل ومخاطرة التحقيق - حيث جمعت أدق النتائج وضمَّنتها معًا بتروٍّ، في ظل ضغط العمل الشاق، وتحت وطأة مخاوف بائسة منذ مطلع الصباح مع رقرقات الندى، وحتى ظلام الليل، تحت رقابة عين يقظة لإنسان لا داعي لأن نسميه الآن بالشيطان - إلى جانب مكابدة الحاجة الأبوية لمقاومة الفقر وتحويل وطأته إلى الدرب الصحيح، قد

يصير فعليًّا كله مثل رش بضع قطرات من الماء العذب على مقبرتي طلبًا للرحمة، وأنا لا أرغب في أي شيء سوى ذلك. قد لا يكون من الإنصاف أن أشبه نفسي بجندي بطل شجاع وبارز، وأقول إنني فعلت ما فعلت من دون أطماع ولا أغراض شخصية أو ذاتية بل من أجل

إنجلترا، والوطن، والجمال.

المخلص دائمًا وأبدًا، ويلكنز ميكوبر».

لاح التأثر الشديد على السيد ميكوبر، لكنه ظل متلذذًا بما فعله، فطوى رسالته وسلمها بانحناءة إلى عمتي، كما لو أنها شيء قد ترغب في الاحتفاظ به.

لاحظت في زيارتي الأولى منذ فترة طويلة أن الغرفة تحوي خزانة حديدية، والمفتاح فيها. بدا أن يورايا قد أصابه شك مفاجئ، فما إن التفت إلى السيد ميكوبر بنظرة واحدة حتى هرع إليها وفتح أبوابها التي تصدر قعقعة، فإذا بها فارغة.

صرخ بوجه مخيف: «أين الأوراق؟ لقد سرق اللص الأوراق».

راح السيد ميكوبر ينقر بالمسطرة مشيرًا إلى نفسه قائلًا: «أنا من أخذها، بعد أن حصلت على المفتاح منك كالمعتاد -في وقت مبكر- وفتحتها في هذا الصباح».

قال ترادلز: «لا تقلق. إن الأوراق في حوزتي. سأحافظ عليها، استنادًا إلى التفويض الذي ذكرته».

صاح يورايا: «إنك تتلقى بضائع مسروقة، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «لو تقصد في ظل هذه الظروف، فبلى».

وكم دهشت حين رأيت عمتي، التي كانت هادئة للغاية ويقظة لكل ما يُقال، تلقي سهامها على يورايا هيب، فإذا بها تقبض على ياقة قميصه البيضاء بكلتا يديها.

قالت عمتي: «هل تعرف ماذا أريد؟».

قال: «صدرية ضيقة كالتي للمجاذيب».

أجابت عمتي: «كلا، أريد ممتلكاتي. يا أجنيس، يا عزيزتي، حين ظننت أن والدك قد أضاع مالي، فإنني لم أطالب به - لم أنبس ببنت شفة، ولم أقل شيئًا حتى لعزيزي تروت عن هذا المال. أما الآن وقد عرفت أن هذا الرجل هو المسؤول عما جرى، فإنني سأسترد مالي. هيا يا تروت أسرع، واسترد منه مالي».

يبدو أن عمتي كانت تظن أنه يحتفظ بممتلكاتها في هذه اللحظة حول ياقة قميصه، فأنا لم أستطع التأكد من ظنها هذا، لكنها راحت تجذبه من ياقته كما لو أنها على يقين من أمره. سارعت بالوقوف بينهما، ورحت أؤكد لها أننا سنحرص جميعًا على إجباره على إعادة كل ما استولى عليه زورًا. فكرت في كلامي ثم هدأت بعد لحظات، لكنها لم تنزعج مما فعلته على الإطلاق -على الرغم من أنني لا أستطيع أن أقول الكثير عن وصف اضطراب قبعتها- ثم عادت إلى مقعدها بهدوء.

ظلت السيدة هيب طوال الدقائق القليلة الماضية تطالب ابنها بأن يصير «متضعًا»، وراحت تجثو على ركبتيها أمامنا جميعًا، واحدًا

تلو الآخر، وتتعهد لنا بعهود صارمة. أجلسها ابنها على كرسيه، وقد عبس وجهه ثم أمسك بذراعي، ولكن من دون حدة، وقال لي بنظرة شرسة:

«ماذا تريد مني أن أفعل؟».

قال ترادلز: «سأخبرك بما يجب عمله».

تمتم يورايا قائلًا: «أليس لكوبرفيلد لسان؟ سأبرم معك اتفاقًا جيدًا لو أنك أخبرتني من دون كذب أن أحدًا قد قطعه وانتزعه».

صرخت والدته: «إن يورايا يقصد أن يكون متضعًا، فلا تكترثوا لما يقول أيها السادة المحترمون».

قال ترادلز: «إن ما يجب عمله، هو ما يلي؛ أولًا: يجب أن تسلم لي الآن صك التنازل الذي سمعنا عنه في هذه اللحظة...».

قاطعه يورايا قائلًا: «لنفترض أنه ليس معي».

قال ترادلز: «بل معك، وكما تعرف، لا مجال لطرح مثل هذه الفرضيات». لا يسعني إلا أن أعترف بأنها كانت المرة الأولى التي أنصف فيها حقًّا زميلي القديم بما أبداه من عقل صافٍ، وحس سليم، وصبر في محله. استطرد ترادلز: «ثانيًا: يجب أن تستعد لرد كل ما استوليت عليه نتيجة جشعك، حتى آخر بنس. ويجب أن تظل جميع وثائق وأوراق الشركة في حوزتنا، وكذلك جميع وثائقك وأوراقك، وجميع الحسابات المالية والسندات بكل فروعها. باختصار، سيصير كل شيء هنا بحوزتنا».

قال يورايا: «لا أدري، هل هذا ما يجب فعله حقًّا؟ يجب أن أحظى بوقت للتفكير في الأمر».

أجاب ترادلز: «بالتأكيد، ولكن في غضون ذلك الوقت، وإلى أن يتم كل شيء على نحو يرضينا، فإننا سنحتفظ بهذه الأشياء كافة. وأرجو منك - أو باختصار نحن نلزمك - بالبقاء في غرفتك، وعدم الاتصال بأي إنسان».

قال يورايا بعد سيل من الشتائم: «لن أفعل ذلك».

أردف ترادلز قائلًا: «إن سجن ميدستون[1] أكثر مواضع الاحتجاز أمانًا. وقد يستغرق القانون وقتًا طويلًا حتى يعيد إلينا حقوقنا، بل من الممكن ألا يعيد إلينا حقوقنا كاملة على عكس ما قد تفعله أنت، لكنه بلا شك سيعاقبك. يا للعجب! إنك تعرف ما سيحدث تمامًا مثلما أعرفه. يا كوبرفيلد، هلا توجهت إلى مبنى جيلدهول[2] لتحضر ضابطين؟».

هنا، انفجرت السيدة هيب مرة أخرى، باكية جاثية على ركبتيها أمام أجنيس، راجية أن تتدخل لتصلح بينهم، مُعلنة أنه وضيع للغاية، وأن كل ما حدث صحيح. بدت كالمحمومة وقد ظهر عليها الارتعاب على ابنها، فقالت إنه إذا لم يفعل ما نريده، فستقوم هي نفسها بتنفيذ الأمر على أي حال. أما السؤال عن ردة فعله لو أنه أوتي نصيبًا من الجرأة، يشبه السؤال عما قد يفعله حيوان هجين إذا تمتع بروح نمر. لقد كان

---

(١) سجن إنجليزي عرف باكتظاظه وسوء تهويته.

(٢) المركز الرسمي والإداري للندن.

جبانًا يغرقه الجبن من رأسه حتى أخمصي قدميه. راح يُظهر طبيعته الدنيئة في ذله وارتعابه، كما فعل طوال حياته الخبيثة.

مسح عن جبينه الملتهب ما تصبب من عرقه، وهو يقول: «كفى، تمالكي نفسكِ يا أمي، فليحصلوا على ما أرادوه. هيا اذهبي وأحضري الأوراق».

قال ترادلز: «يا سيد دك، هلا ساعدتها من فضلك».

لاح السيد دك فخورًا بتكليفه بالمهمة ومدركًا لها. رافق السيدة هيب كما يرافق الكلب راعي الخراف، لم تسبب له أي متاعب، لأنها لم تعد بالمطلوب فحسب بل عادت بصندوق مليء بالأوراق، فوجدنا وثائق البنك وبعض المستندات الأخرى التي قد نستخدمها فيما بعد.

قال ترادلز بعدما أحضرت الأوراق: «حسنًا، يمكنك أن تنصرف الآن يا سيد هيب حتى تفكر. وسأدلي بملاحظة إذا سمحت، أمام الحاضرين جميعًا، إذ لم يتبقَّ سوى شيء واحد يجب القيام به، وهو ما شرحته لك سابقًا، ويجب أن يتم من دون تأخير».

لم يرفع يورايا عينيه عن الأرض، لكنه اجتاز الغرفة وقد ثبت يده إلى ذقنه، ثم توقف عند الباب، وقال:

«يا كوبرفيلد، لطالما كرهتك. لقد كنت دائمًا مغرورًا، وكنت دائمًا ضدي».

قلت: «أظن أنني أخبرتك ذات مرة من قبل، أنك أنت من كنت ضد العالم بأسره بجشعك ومكرك. قد يكون خيرًا لك وأجدى أن تفكر في

المستقبل، وتفكر في أن الجشع والمكر لم يقضيا على العالم بعد، ولم يتحلَّ بهما إنسان إلا وانقلبا عليه. إن نهايتهما فناء محتوم».

أجاب باستهزاء: «أو محتوم مؤكد كما اعتادوا على تدريسه في المدرسة - تلك المدرسة نفسها التي عانيت فيها صنوفًا من المذلة. تعلمت فيها من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة أن العمل لعنة، ومن الساعة الحادية عشرة إلى الواحدة أن العمل ذاته نعمة وبهجة وكرامة، وأشياء أخرى لا أدركها. آه! إنك تعظ بشكل يتسق تمامًا مع ما علموه لنا. ألا تريد أن تتنازل فتتضع؟ أظن أنني لولا الضعة لما استطعت أن أخدع شريكي النبيل. يا ميكوبر، أيها المتنمر العجوز، سأجازيك على أفعالك».

قابل السيد ميكوبر إصبع يورايا الممدودة نحوه باستهانة، نافشًا صدره إلى حد كبير حتى ترنح عند الباب، ثم وجه إليَّ كلامه معبرًا عن ارتياحه «لرؤية إعادة تشييد بناء متبادلة بينه والسيدة ميكوبر». ثم دعا الجميع بعد ذلك إلى التأمل في هذا المشهد المؤثر.

قال السيد ميكوبر: «ها قد انقشعت السحب التي حجبت بيني والسيدة ميكوبر. أما أولادي فليتولاهم خالقهم بعدله الدائم».

كنا جميعًا ممتنين له أشد الامتنان، وأحببنا أن نُعبِّر له عن هذا الشعور فنذهب معه، على الرغم من ضيق الوقت وما نمر به من توتر واضطراب. أما أجنيس، فكان عليها أن تعود إلى والدها، كما أنها لم تستطِع أن تتحمل مزيدًا من الأحداث، وقد اكتفت بأمل بزغ فجره أمامها. كما كان من الضروري أن يمكث أحد مع يورايا حتى لا يهرب. وقد بقي ترادلز معه لهذا الغرض، حتى لا يتورط السيد دك معه. أما أنا

وعمتي والسيد دك، فقد عدنا إلى المنزل مع السيد ميكوبر. ما إن رحلت سريعًا عن هذه الفتاة العزيزة التي أدين لها بأفضال كثيرة، حتى رحت أفكر في الخطر الذي أُنقذت منه هذا الصباح. كانتِ ذات عزيمة صادقة، وقد شعرت بالامتنان الشديد لما مررت به في صباي من مآسٍ دفعت بي إلى التعرف على السيد ميكوبر.

لم يكن منزله بعيدًا. كان الباب المطل على الشارع يقودنا مباشرة إلى غرفة الجلوس. تقدمنا مهرولًا كعادته، وإذا بنا نجد أنفسنا بين أحضان أسرته على الفور. صاح السيد ميكوبر: «إيما، يا حياتي»، ثم اندفع إلى أحضان السيدة ميكوبر. صرخت السيدة ميكوبر، وتلقت السيد ميكوبر بين ذراعيها. بدا على السيدة ميكوبر التأثر الشديد، وقد كانت ترعى مخلوقًا غريبًا لم يعِ شيئًا عن الحياة بعد، وكانت قد ذكرته في رسالتها الأخيرة إليَّ. راح هذا المخلوق الغريب يقفز ويتلوى، بينما أظهر التوأم فرحتهما في عدة مظاهر مربكة لكنها بريئة ساذجة. أما السيد ميكوبر الصغير فلم تسعفه تصرفاته، وسرعان ما لاح عليه الاستياء المبكر، فتجهم وجهه واستسلم لمشاعره الفياضة، فبكى.

قال السيد ميكوبر: «يا إيما، لقد انقشعت السحب عن خاطري. واستعدت الثقة المتبادلة بيننا التي حرصنا عليها لفترة طويلة، ولن تتبدل أو تنقطع أبدًا». صرخ السيد ميكوبر، وهو يذرف الدموع: «أما الآن، فمرحبًا بالفقر، أهلًا بالبؤس، أهلًا بالتشرد. ها أنا أرحب بالجوع، والأسمال، والعواصف، والتسول، لأن الثقة المتبادلة ستدعمنا حتى النهاية».

راح السيد ميكوبر يردد هذه التعبيرات، وهو يجلس السيدة ميكوبر إلى الكرسي، ثم عانق أفراد أسرته جميعًا، مُرحبًا بسُبل اليأس القاتمة، وقد بدت - في تقديري - شيئًا غير مرحب به، ومن ثَم راح يدعو الجميع إلى الخروج إلى كانتربري والغناء مع المنشدين، حيث لم يبقَ لهم شيء آخر يدعمهم.

انتابت السيدة ميكوبر حالة إغماء إثر انفعالها الشديد، فكان أول شيء يجب القيام به هو أن نعيدها إلى وعيها، قبل الغناء مع جوقة المنشدين، وهذا ما فعلته عمتي والسيد ميكوبر. ما إن أفاقت السيدة ميكوبر حتى تعرفت على عمتي وانتبهت إلى وجودي وتعرفت عليَّ كذلك.

قالت هذه السيدة المسكينة، بينما تمد يدها إليَّ: «عذرًا يا عزيزي السيد كوبرفيلد، إنني لست امرأة قوية، فلم أتحمل وطأة خبر انقشاع سوء التفاهم الأخير الذي وقع بيني والسيد ميكوبر».

قالت عمتي: «أهؤلاء هم أفراد أسرتكِ كلها يا سيدتي؟».

أجابت السيدة ميكوبر: «لا زيادة في الوقت الحاضر».

قالت عمتي: «يا إلهي، لم أقصد ذلك يا سيدتي. قصدت أن أقول هل هؤلاء أولادكِ؟».

أجاب السيد ميكوبر: «إن توقعكِ صحيح يا سيدتي».

قالت عمتي متأملة: «حسنًا، وهذا الصبي الصغير الذي هو أكبر أولادك، ما الذي أعددتموه له في المستقبل؟».

قال السيد ميكوبر: «كنت أرجو عندما أتيت إلى هنا أن أدخل ويلكنز إلى الكنيسة، أو ربما أعبر عما أردته بمزيد من الوضوح فأقول إنني أردت أن ألحقه بجوقة المرتلين. إلا أنني لم أجد مكانًا شاغرًا ساعتها في تلك الجوقة الجليلة التي اشتهرت بها هذه المدينة. باختصار، لقد تعاقد على الغناء في الحانات العامة، بدلًا من الغناء في الصروح المقدسة».

قالت السيدة ميكوبر بنبرة حانية: «لكنه طيب النيات».

أردف السيد ميكوبر قائلًا: «لن أتردد في القول إنه طيب النيات يا حبيبتي، لكنني لم أرَ أنه يُوجه موهبته إلى اتجاه بعينه على الإطلاق».

عاد السيد ميكوبر الصغير إلى عبوسه مرة أخرى، وسأله بشيء من الغضب، ماذا يفعل؟ وهل تراه قد وُلِد ليصير نجارًا أو نقاشًا، بدلًا من أن يكون طائرًا؟ وهل بإمكانه الذهاب إلى الشارع المجاور وفتح متجر للأدوية؟ أم هل بإمكانه الإسراع إلى محكمة الجنايات وإعلان نفسه محاميًا؟ هل يمكن أن يصعد بالقوة إلى مسرح الأوبرا فينجح بالعنف؟ هل يستطيع فعل أي شيء من دون أن يتدرب على شيء؟

فكرت عمتي قليلًا ثم قالت: «إني أتساءل يا سيد ميكوبر، كيف لم تفكر قَطُّ في الهجرة».

عاد السيد ميكوبر: «يا سيدتي، لقد كانت الهجرة حلم شبابي، والطموح الخادع في سنوات نضجي». إلا أنني كنت مقتنعًا تمامًا، أنه لم يفكر قَطُّ في الهجرة طوال حياته.

قالت عمتي وهي تنظر إلى وجهي: «حقًّا! يا لها من فكرة تناسبك وتناسب أسرتكما يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، فلم لا تهاجرون الآن؟!».

أجاب السيد ميكوبر عابسًا: «إنه رأس المال يا سيدتي. إنه رأس المال».

وافقت زوجته على كلامه قائلة: «هذه هي العراقيل، قد أقول إنها الصعوبة الوحيدة يا عزيزي السيد كوبرفيلد».

صرخت عمتي: «أتقول رأس المال؟ لكنك تقدم لنا خدمة جليلة - بل قد أقول إنك قد قدمتها لنا بالفعل، وسنحصل منها بالتأكيد على خير كثير - فكيف لنا ألا نقدم لك شيئًا يساهم في توفير رأس المال؟».

قال السيد ميكوبر بحماس متقد: «لا أستطيع أن أقبله كهدية، ولكن إذا كان ممكنًا وبوسعكم أن تمنحوني مبلغًا كافيًا، فلنقل على سبيل الاقتراض، بفائدة نسبتها خمسة بالمائة سنويًّا، وعلى مسؤوليتي الشخصية، مع وثائق بخط يدي، على أن يسدد المبلغ خلال اثني عشر شهرًا، أو ثمانية عشر، أو أربعة وعشرين شهرًا، على التوالي، لإتاحة الوقت تحسبًا لشيء قد يطرأ علينا».

قالت عمتي: «هل تسأل إن كان ذلك ممكنًا أم لا؟ بالطبع إنه ممكن، وستجري الأمور بشروطك الخاصة إذا أبديت الموافقة. فلتفكرا كلاكما في هذا الأمر الآن. إن ديفيد يعرف أناسًا سيهاجرون إلى أستراليا قريبًا. إذا قررتما السفر، فلماذا لا تذهبان على متن السفينة نفسها؟ يمكن لكل

منكما مساعدة الآخر. فكر في هذا الآن يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر. خذا وقتكما في التفكير وتدبرا الأمر جيدًا».

قالت السيدة ميكوبر: «لست أريد سوى أن أطرح استفسارًا واحدًا يا سيدتي العزيزة. هل تظنين أن المناخ هناك صحي؟».

قالت عمتي: «إنه أروع مناخ في العالم».

قالت السيدة ميكوبر: «إن كان الأمر كذلك، فإنني سأطرح سؤالي التالي. والآن، هل تتمتع البلاد بظروف مواتية بحيث يستطيع رجل لديه قدرات مثل قدرات السيد ميكوبر أن يحصل على فرصة عادلة للترقي في الحياة الاجتماعية؟ وهل من الممكن مستقبلًا - لا أقول في الوقت الراهن - أن يتطلع إلى أن يصير مديرًا، أو أي شيء من هذا القبيل؟ هل من الممكن أن تتوفر أمامه فرصة معقولة تظهر مواهبه ليطور من نفسه - وهذا سيكفيه تمامًا - ومن ثَم يعثر على سبيل خاص للترقي؟».

قالت عمتي: «لا مجال أفضل من هذه البلدة المنفتحة، أمام رجل يحسن التصرف ويجتهد في عمله».

كررت السيدة ميكوبر هذه العبارة بنبرة عملية فقالت: «أمام رجل يحسن التصرف ويجتهد في عمله. حسنًا، من الواضح لي أن أستراليا هي مجال العمل المستحق للسيد ميكوبر».

قال السيد ميكوبر: «إنني مقتنع تمامًا يا سيدتي العزيزة. إنها الأرض الوحيدة الملائمة لي ولعائلتي في ظل الظروف الحالية. وأود لو أن معجزة تلوح لي على ضفاف تلك البلاد. إنها ليست بعيدة مقارنة

بغيرها من البلاد النائية. ومع إبداء كل الاحترام لاقتراحكِ الكريم، إلا أنني أؤكد لكِ أن الأمر مجرد مسألة شكلية».

هل أنسى يومًا كيف تحول في لحظة إلى أكثر الرجال تفاؤلًا، متطلعًا إلى الثروة؟ هل أنسى كيف تحدثت السيدة ميكوبر حينها عن عادات الكنغر؟ هل أتذكر ذلك الشارع في كانتربري في يوم من أيام السوق، من دون أن أتذكره عائدًا معنا، يشرح لنا العادات غير المستقرة لنزيل مؤقت في تلك البلاد، بينما ينظر نحو الثيران المتجهة نحونا بعين مزارع أسترالي.






# الفصل الثالث والخمسون

## رجوع آخر

يجب أن أتوقف هنا مرة أخرى. آه يا زوجتي الطفلة. يلوح لي شبح يبرز من بين حشد متحرك أمام ذاكرتي، هادئًا وساكنًا، يقول بحبه البريء وجماله الطفولي: توقف حتى تفكر فيَّ، انظر إلى الزهرة الصغيرة ترفرف فوق الأرض.

أنصاع للهاتف. ويصير كل شيء سواه معتمًا ثم يتلاشى. أكون مع دورا مرة أخرى في بيتنا، فلا أعرف كم لبثت مريضة. إنني اعتدت على هذا الشعور، حتى إنني لم أستطع إدراك الوقت. إن المدة لم تطل حقًا، استمرت لأسابيع أو شهور، إلا أنها على مستوى مشاعري وتجربتي قد امتدت وامتد ألمها وعذابها.

لقد توقف الجميع عن قول: «انتظر بضعة أيام أخر». بدأ الخوف يتسرب إليَّ من أن يوم الشفاء قد لا يشرق أبدًا، فلن أرى زوجتي الطفلة تجري في ضوء الشمس مع صديقها القديم جيب.

لقد كبر وشاخ فجأة، ولعل ذلك لأنه افتقد عشيقته التي كانت تستثير نشاطه وتنعش روحه الصبية. لقد بات يترنح، وضعف بصره، ووهنت أوصاله. وكم حزنت عمتي لأنه لم يعد يعترض طريقها، بل صار يزحف بالقرب منها، فيستلقي على سرير دورا ليلعق كفيها برفق، بينما يهمل عمتي الجالسة بجانب السرير.

كانت دورا الراقدة تبتسم لنا. لم تزل تبدو جميلة وإن لم تتفوه بكلمة واحدة متسرعة. تقول إننا طيبون معها للغاية، وإنها تعلم أن غلامها العزيز الحذق يتعب نفسه من أجلها، وإن عمتي لا تنام بل تسهر دائمًا منتبهة لها ومتعطفة عليها. تأتي السيدتان اللتان تشبهان الطيور في بعض الأحيان لرؤيتها، فتتحدثان عن يوم زفافنا وكل هذا الوقت السعيد.

يا لها من فترة رقاد غريبة، توقفت فيها حياتي! سكنت مظاهر الحياة بأسرها، داخل أبواب بيتي وخارجها. كنت أجلس في غرفة هادئة وظليلة ومنظمة، وعينا زوجتي الزرقاوان الطفوليتان تتجهان نحوي، وتلتف أصابعها الصغيرة حول يدي. أجلس على هذه الهيئة لساعات طوال، وإن كان من بين تلك الأوقات كلها ثلاثة مواقف هي الأكثر بزوغًا في ذهني.

كان الصباح، فزينت عمتي دورا التي راحت توضح لي كيف أن شعرها الجميل سوف يُبسط على الوسادة الآن، وكم هو طويل ولامع، وكيف أنها تحب أن تجمعه في غير إحكام في تلك الشبكة التي ترتديها.

تقول لي عندما أبتسم: «إنني لا أتفاخر بجدائلي الآن أيها الغلام الساحر، بل لأنك كنت تقول إنك تحسب أنها جميلة جدًّا، ولأنني عندما بدأت أفكر فيك لأول مرة، كنت أختلس النظر في المرآة، وأتساءل عما إذا كنت ترغب في الحصول على خصلة منها. يا لك من غلام أحمق يا دودي حين منحتك خصلة من جدائلي!».

قلت: «كان ذلك في يوم كنتِ ترسمين فيه الزهور التي قدمتها لكِ يا دورا. أخبرتكِ يومها كم أنا غارق في الحب».

تقول دورا: «آه، لكنني لم أود أن أخبرك حينها كم بكيت عليها، لأنني تصورت أنك أحببتني حقًّا. دعنا حين أستطيع الركض مرة أخرى كما اعتدت يا دودي، نذهب لزيارة تلك الأماكن التي كنا فيها حبيبين سخيفين، أليس كذلك؟ هل سنزور بعض الطرقات القديمة؟ ولن تنسى زيارة قبر أبي المسكين، أليس كذلك؟».

«بلى، سنحظى بأيام سعيدة. لذلك يجب أن تسرعي بالتعافي يا حبيبتي».

«آه، سأفعل ذلك قريبًا، إنني قد تحسنت كثيرًا، ألا تدرك ذلك؟!».

حل المساء، بينما أجلس على الكرسي نفسه، بجوار السرير ذاته. يتجه الوجه نفسه نحوي. لبثنا صامتين، بينما تلوح الابتسامة على وجهها. لقد توقفت عن حمل وزنها الخفيف صعودًا أو هبوطًا الآن، فها هي ترقد هنا طوال اليوم.

«يا دودي».

«نعم يا عزيزتي دورا».

«لن تظن أن ما سأقوله لك شيء غير معقول، خاصة بعدما أخبرتني منذ فترة قصيرة عن مرض السيد ويكفيلد، أليس كذلك؟ إنني أريد أن أرى أجنيس. أتشوق للغاية إلى رؤيتها».

«سأكتب لها يا عزيزتي».

«هل ستفعل ذلك؟».

«في الحال».

«يا لك من فتى طيب كريم! طوقني يا دودي بذراعيك. إنني متلهفة لرؤيتها يا عزيزي، وهذه ليست نزوة، أو خيالًا أحمق. أريد حقًّا أن أراها».

«إنني على يقين من ذلك. لا بد أن أخبرها بالأمر، وستأتي حتمًا».

تهمس دورا بينما تلف ذراعها حول عنقي: «إنك تلبث وحيدًا تمامًا حين تنزل إلى الطابق السفلي هذه الأيام، أليس كذلك؟».

«كيف يمكنني ألا أكون وحيدًا يا حبيبتي حين أرى مقعدك فارغًا؟».

تمسكت بي لبعض الوقت، في صمت: «مقعدي فارغ! وأنت، هل تفتقدني حقًّا يا دودي؟». راحت تنظر إلى أعلى وتبتسم في إشراق قائلة: «أتفتقد المسكينة، التائهة الغبية؟».

«يا قلبي، هل من الممكن أن أفتقد مخلوقًا على هذه الأرض سواكِ؟».

«آه يا زوجي، إنني في غاية السعادة، لكنني آسفة جدًا».

راحت تزحف مقتربة مني، وتحتضنني بين ذراعيها. تضحك وتبكي، ثم تهدأ بعد ذلك وتبدو عليها السعادة.

قالت: «حسنًا، ما عليك إلا أن تُبلغ أجنيس بمدى حبي، وأنني أتشوق إلى رؤيتها للغاية، ولم يبقَ لديَّ شيء آخر لأتمناه».

«لم يتبقَّ إلا أن تتحسني مرة أخرى يا دورا».

«آه يا دودي، إنني أظن أحيانًا - تعرف أنني كنت دائمًا شيئًا صغيرًا سخيفًا - أن ذلك لن يحدث أبدًا».

«لا تقولي ذلك يا دورا يا أعز الأحباب، لا تفكري بهذه الطريقة».

«سأفعل. أما إذا كان بإمكاني مساعدتك يا دودي فإنني سأسعد للغاية. حتى لو مكث غلامي الحبيب شاعرًا بالوحدة الشديدة، أمام كرسي طفلته وزوجته التافهة».

حلَّ الليل، ولم أزل معها. وصلت أجنيس وقضينا يومًا كاملًا حتى المساء. لقد جلست أنا وعمتي معًا مع دورا منذ الصباح. لم نتحدث كثيرًا، لكن دورا كانت راضية تمامًا ومبتهجة. وها قد صرنا وحدنا الآن.

هل أعرف الآن أن زوجتي الطفلة ستتركني قريبًا؟ لقد أخبروني بذلك، لكنه لم يكن شيئًا جديدًا لأفكر به. أحسب أنني لم أستطع التعامل مع هذه الحقيقة على محمل الجد، بل ولم أستطع إنكارها. لقد خلوت إلى نفسي عدة مرات اليوم، لأبكي. تذكرت مشهد كل إنسان رأيته باكيًا على الفراق، سواء كان حيًّا أم ميتًا. تعرفت منذ ذلك اليوم

على التاريخ الكريم والرحيم. حاولت أن أتمالك نفسي وأعزيها، وإن كنت قد عجزت عن مواساتها بما يكفي. لم أستطع أن أجبر عقلي على تقبل فكرة أن النهاية قادمة لا محالة. أمسك يدها بيدي، وأشعر بقلبها في قلبي، فأرى حبها لي لم يزل يحيا بكل قوته، فلا أستطيع أن أمحو ظلًّا شاحبًا يحيا على رمق معتقدًا أنها ستنجو.

قالت بنظرة وديعة: «أود أن أقول لك شيئًا طالما فكرت في قوله مؤخرًا يا دودي. إنك لن تمانع ذلك، أليس كذلك؟».

«أتقولين إنني سأمانع يا حبيبتي؟».

«لأنني لا أعرف ما الذي ستفكر فيه، أو ما إذا كنت قد فكرت في الأمر نفسه يومًا. لعلك فكرت في الشيء نفسه وراودك في كثير من الأحيان. يا دودي، يا حبيبي، إنني أخشى من أنني كنت صغيرة للغاية».

أضع وجهي على الوسادة بجانبها، فتنظر إلى عيني وتتحدث بهدوء شديد. تمضي في كلامها بينما أشعر بقلبي المروَّع، أنها تتحدث عن نفسها بصيغة الماضي.

«أخشى يا عزيزي أنني كنت صغيرة للغاية. لا أقصد صغيرة العمر وحسب، بل والخبرة والأفكار وكل شيء. كنت مخلوقة صغيرة سخيفة. وأخشى أنه كان من الأفضل لو أننا اكتفينا بتبادل مشاعر الحب فقط، كما يحب الشاب فتاةً، ثم نسينا ذلك. لقد بدأت أتصور أنني لم أكن لائقة لأن أصير زوجة».

أحاول أن أتمالك دموعي، وأرد قائلًا: «آه يا دورا، يا حبيبتي، ألم أكن أصلح للزواج؟!».

تقول وهي تهز جدائل شعرها كعادتها: «لا أعرف. ربما! لكن لو أنني كنت صالحة للزواج، لجعلتك صالحًا له أيضًا. علاوة على كونك رجلًا ذكيًّا جدًّا، أما أنا فلم أكن كذلك قَطُّ».

«لقد كنا سعيدين للغاية يا دورا».

«كنتُ في غاية السعادة. ولكن مع مرور السنين، كان غلامي الحبيب ليسأم من زوجته الطفلة. كانت لتصير شيئًا فشيئًا أقل إمتاعًا له. كان من الممكن أن يصير أكثر عقلانية ويتدبر ما يريده في منزله. أما هي فلم تكن لتتحسن، أو تحرز أفضل مما أحرزته».

«آه يا دورا، يا أعز الناس، لا تتحدثي معي بهذه الطريقة. إن كل كلمة تبدو عتابًا!».

تجيبني بينما تقبلني: «لا، لا أنبس بكلمة عتاب. آه، يا عزيزي، إنك لم تستحق هذا قَطُّ. لقد أحببتك أيما محبة، وهي أكبر من أن أقول لك كلمة عتاب بلهجة جادة. لقد كانت هذه هي كل المزايا التي أمتلكها، باستثناء كوني جميلة، أو كما كنت تظن ذلك. هل يبدو الطابق السفلي موحشًا يا دودي؟».

«جدًّا، جدًّا».

«لا تبكِ، هل مقعدي لم يزل هناك؟».

«في مكانه القديم».

«آه، يا لبكاء غلامي المسكين! اهدأ، لا تبكِ، أما الآن فلتعدني بشيء واحد. أريد أن أتحدث إلى أجنيس. انزل إلى الطابق السفلي، وأخبر أجنيس بذلك، وأرسلها إليَّ. دعني أتحدث إليها من دون أن تحضر معها عمتي أو أي إنسان آخر. أريد التحدث إلى أجنيس نفسها. أريد أن أتحدث إلى أجنيس بمفردها».

وعدتها أنني سأنفذ ذلك على الفور، ولكن لا يمكنني تركها بسبب حزني عليها.

همست إليَّ وهي تحتضنني بين ذراعيها: «قلت لك إن حالتي أفضل. آه يا دودي، إنك لن تحب زوجتك الطفلة بعد سنوات عديدة حبًّا يضاهي حبك الآن أبدًا. وبعد سنوات أكثر، ستحاول أن ترضيك ثم ستخيب ظنك، وربما ساعتها لن تستطيع أن تحب نصف هذا الحب. أعلم أنني كنت صغيرة للغاية وحمقاء، بل أكثر من ذلك».

نزلت إلى الطابق السفلي، ووجدت أجنيس في غرفة الاستقبال، فأبلغتها الرسالة. انصرفت وتركتني وحدي مع جيب.

كان جيب في بيته بجوار المدفأة، يرقد على سريره الوثير، يحاول عبثًا أن ينام. لاح القمر الساطع وهاجًا صافيًا، بينما رحت أنظر إلى الليل، وتنهمر دموعي مسرعة، وأحسب أن قلبي المضطرب كان يتألم بشدة.

أجلس أمام المدفأة، فأفكر بندم أعمى في كل المشاعر الخفية التي أخفيتها منذ زواجي. أفكر في كل التفاهات الصغيرة التي دارت بيني ودورا، فأشعر أنني أعاين حقيقة أن تلك التفاهات ليست سوى الحياة

في مجملها. تقفز صورة الطفلة الحبيبة كما عرفتها أول مرة وتتجلى في بحر ذكرياتي، فتزيد حبي الصغير جمالًا وتزيدني عشقًا، بكل ما في العشق من افتتان وسحر وقوة. هل كان من الأفضل لو أننا أحببنا بعضنا مثل أي شاب وفتاة، ثم نسينا ذلك؟ يا أيها القلب المضطرب، فلتُجِب.

لا أعلم كم طال بي المقام وحيدًا. نبهني ذلك الرفيق القديم لزوجتي الطفلة. لم يهدأ باله وازداد قلقه، فخرج زاحفًا من منزله، وراح ينظر إليَّ متجهًا نحو الباب، ثم صعد إلى الطابق العلوي.

«ليس الليلة يا جيب، ليس الليلة».

يعود إليَّ ببطء شديد ويلعق يدي ثم يرفع عينيه الخافتتين إلى وجهي.

«آه يا جيب، قد لا يكون ذلك أبدًا».

يستلقي عند قدمي، ويتمدد كما لو أنه يريد أن ينام، ثم ينبح بأنين حزين ويموت.

«آه، يا أجنيس، انظري، انظري هنا».

أبصر وجهها مفعمًا بالشفقة والحزن، وأشهد ذلك المطر المنهمر من الدموع، وذلك الصمت المروع، وتلك اليد المهيبة مرفوعة نحو السماء.

«أجنيس».

انتهى كل شيء. حل الظلام أمام عيني، وفي لحظة، مُحي كل شيء عن ذاكرتي.

# الفصل الرابع والخمسون

## صفقات السيد ميكوبر

لم يسعني الوقت لأعود إلى رشدي تحت وطأة الحزن. رحت أتصور أن المستقبل قد أوصد أبوابه أمامي، وأن طاقة حياتي ومحركها قد آلا إلى زوال، ولن يسعني ملجأ سوى القبر. أقول دومًا إنني خلقت لأفكر، لكنني لم أستطع تجاوز أولى صدمات حزني، لذلك راح حزني ينمو ببطء. ولولا أن الأحداث التي سأسردها راحت تتفاقم حولي، فإذا بها تربكني في البداية، ثم تزيد من معاناتي في النهاية، لكان من الممكن أو على الأرجح أن تؤول بي إلى الانهيار في الحال. كنت في الواقع قد تصورت في فترة من الزمن قبل أن يقع بي ما وقع، أنني أدرك مدى محنتي تمامًا، بل ظننت حينها أن أشد آلامي قد ولى. هدأت ثورة ذهني فإذا بي أدرك أن كل معاني البراءة والجمال في قصتي الرقيقة قد ولَّت إلى الأبد.

لا أعرف حتى هذه اللحظة ولا أميز بوضوح كيف وافقت على السفر إلى الخارج لأول مرة، أو كيف اتفقنا على أنني سأسعى لاستعادة سلامي أو أغير من حالتي بالسفر. سادت روح أجنيس على كل ما فكرنا فيه وقلناه وفعلناه في ذلك الوقت العصيب، حتى إنني قد أحيل الأمر كله إلى تأثيرها وسلطتها على الرغم من أن تأثيرها ظل هادئًا.

بدأت أفكر منذ هذه اللحظة في علاقتي القديمة بها، فتذكرتها عند نافذة الزجاج الملون في الكنيسة، كما لو أنني أمام نبوءة تنذر بالعاقبة التي كانت ستحدث لي في ملء الزمان، وقد ثبت هذا المشهد في ذهني. بات الحزن يلفني منذ تلك اللحظة التي لا تُنسى أبدًا، حين وقفت أمامي رافعة يدها، كما لو أنني ماثل أمام حضور مقدس، وحيدًا في منزلي. لقد نزل ملاك الموت، فنامت زوجتي الطفلة على صدر أجنيس وقد ارتسمت ابتسامة على وجهها. هذا ما قالوه لي حين تحاملت على نفسي لسماع هذا الخبر. فقدت وعيي إثر هذا النبأ، ثم تنبهت متذكرًا دموعها الرحيمة في البداية، وكلماتها المليئة بالأمل والسلام، ووجهها اللطيف الذي يطل عليَّ من أنقى موضع من الجنة، فتتنزَّل في قلبي المضطرب، وتضمد آلامه وجراحه.

اسمحوا لي أن أعود بالحديث إلى قصتنا.

كان عليَّ أن أسافر، ويبدو أن هذا ما اتفقنا عليه منذ البداية. لاحت لي الآن بقاع الأرض بأسرها بساطًا يكسو رفات زوجتي المتوفاة. لم أنتظر سوى ما أسماه السيد ميكوبر «سحق هيب النهائي»، كما لو أنني أنتظر رحيل المهاجرين.

نفذت ما طلبه ترادلز مني، وهو أكثر الأصدقاء محبة ومواساة لي في فجيعتي، فعدنا إلى كانتربري؛ أعني عدتُ أنا وعمتي وأجنيس. قصدنا منزل السيد ميكوبر مباشرة استجابة لموعد سابق، حيث كان صديقي هذا يعمل في منزل السيد ويكفيلد منذ اجتماعنا الأخير المدوي. ما إن أبصرتني السيدة ميكوبر المسكينة مقبلًا عليها مرتديًا ملابس الحداد السوداء، حتى تأثرت تأثيرًا بالغًا. كان قلب السيدة ميكوبر حانيًا عطوفًا، لم يتبدل طوال السنوات العديدة المنقضية.

أما التحية التي وجهتها عمتي لهم بعد جلوسنا فكانت أن قالت: «حسنًا يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، هل آمل أن تكونا قد فكرتما في أمر الهجرة الذي اقترحته عليكما؟».

أجابها السيد ميكوبر قائلًا: «يا سيدتي العزيزة، ربما لا يمكنني التعبير عن النتيجة التي وصلت إليها السيدة ميكوبر مع خادمكِ المتواضع، بل ويمكنني أن أضيف أطفالنا، حيث فكرنا معًا ومنفردين، فأستعير تعبيرَ شاعر لامع إذ يقول «قاربي على الشاطئ، ولحائي في البحر»[1]».

قالت عمتي: «بالضبط. إنني متفائلة بالخير من قراركم الحكيم».

فقال: «يا سيدتي، إنكِ تمنحيننا شرفًا بالغًا بحديثكِ ونصحكِ». أشار بعد ذلك إلى مذكرة، واستطرد قائلًا: «وفيما يتعلق بالدعم المالي

---

(١) من أشعار جورج جوردون بايرون، أحد رواد الشعر الرومانسي، حظي بشعبية كبيرة في أرجاء بريطانيا.

الذي سيمكّننا من إطلاق زورقنا الضعيف في خضم هذه الأحداث، فإنني قد أعدت النظر في نقطة مهمة، وأود أن أعرض عليكم بعض ملاحظاتي التي دونتها بيدي - ولا داعي لأن أقول إنني راعيت فيها تدوين المبالغ المستحق سدادها على التوالي، بموجب قوانين البرلمان المطبقة على مثل هذه الوثائق المالية - على أن يُسدد المبلغ في اثني عشر شهرًا، أو ثمانية عشر، أو أربعة وعشرين شهرًا، على التوالي. وكان هذا هو الاقتراح الذي قدمته في الأصل، لكنني أخشى أن مثل هذا التعاقب في السداد قد لا يتيح أمامي وقتًا كافيًا لسداد المبلغ المطلوب، خاصة وإن طرأت بعض الأمور».

راح السيد ميكوبر يدير بصره بين أرجاء الغرفة كما لو أنه يحصي مئات الأفدنة من الأراضي المزروعة على نطاق واسع، ثم استطرد قائلًا: «قد لا نحتمل سداد أول مبلغ مستحق، لأننا قد نجني حصادنا، وربما لا يثمر لنا شيئًا. أظن أنه من الصعب أحيانًا الحصول على فرصة عمل في ذلك الجزء من مستعمراتنا من دون أن نتخبط في القتال على هذه الأرض القاسية».

قالت عمتي: «رتِّب الأمر بأي طريقة تفضلها يا سيدي».

أجاب: «يا سيدتي، أنا والسيدة ميكوبر على دراية كبيرة بمدى طيبة أصدقائنا ورفاقنا. إن ما أرجوه هو أن أتمم هذا الأمر على وجه دقيق تمامًا. إننا نطوي صفحاتنا لنبدأ صفحة جديدة تمامًا، كما نوشك جميعًا على قلب صفحات من الماضي، ربما ننكفئ ونتراجع إثر طفرة لم تكن بالحسبان، كما هي الحال مع أسرتي الآن، لكن يبقى الشيء الذي أبقيه

داخلي وهو احترام الذات، بالإضافة إلى أن أصير قدوة لابني، ومن ثَم وجب أن تحفظ مثل هذه الترتيبات بين رجل وآخر».

لست متيقنًا من أن السيد ميكوبر قد أضاف أي معنى بهذه العبارات الأخيرة، ولا أظن أن أحدًا قد فهم مقصده، لكنه بدا مستمتعًا بكلماته بطريقة غير مسبوقة، بل راح يكررها بسعال مثير للدهشة، قائلًا: «بين رجل وآخر».

استرسل السيد ميكوبر قائلًا: «أقترح أن أقدم إليكم فواتير - لقد صارت وسيلة ملائمة لعالم التجارة، وأحسب أن الأصل في استخدامها يعود إلى اليهود، إذ يبدو لي أنهم عقدوا صفقات جهنمية شتى منذ ظهور هذه الفواتير - إنها طريقة تسمح بالتفاوض. أما في حالة أن فضلتم تقديم سند أو أي وثيقة أخرى تؤمِّن لكم حقوقكم المالية، فإنني سأنفذ ما أردتم بكل سرور، كما ينبغي أن يكون بين رجل وآخر».

علقت عمتي قائلة إنه في حالة استعداد الطرفين للموافقة على المسألة - وهذا أمر تظن أنه مسلم به - لن تظهر أي صعوبة في تسوية هذه النقطة. وقد وافق السيد ميكوبر على ما قالته.

قال السيد ميكوبر بلهجة مفتخرة: «أما استعداداتنا المنزلية لمواجهة المصير الذي نفهم الآن أننا مقدمون عليه يا سيدتي، فإنني أستأذنكِ في عرضها عليكم. إن ابنتي الكبرى تذهب في الساعة الخامسة كل صباح إلى مؤسسة مجاورة، لتتعلم عملية حلب الأبقار -إذا كان من الممكن أن أطلق عليها اسم «عملية»- كما طلبنا من الأطفال الصغار أن يلاحظوا، بقدر ما تسمح الظروف، عادات الخنازير والدواجن التي

تربى في الأجزاء الفقيرة في هذه المدينة، إلا أن هذه المراقبة أسفرت عن عودتهم إلى المنزل بعد حادثتين، كانوا على مسافة شبر واحد من عجلات كادت تدهسهم. أما أنا، فقد وجهت اهتمامي خلال الأسبوع الماضي إلى فن الخبز، وكذلك انطلق ابني ويلكنز بعصا ليرعى بعض الماشية المعروضة للبيع في السوق، بعد أن سمح له الرعاة بالأمر مقابل القيام بأعمال وعرة وتقديم خدمات تطوعية من هذا القبيل، ويؤسفني أن تدفعني طبيعتي الصادقة إلى أن أقول إنه لم يلاقِ في كثير من الأحيان غير التهديد بشكل عام، أو اللعن والشتم حتى كف عن عمله».

قالت عمتي مشجعة: «حسنًا. إنني متأكدة من أن السيدة ميكوبر انشغلت أيضًا بعمل ما».

أجابت السيدة ميكوبر بلهجة عملية فقالت: «يا سيدتي العزيزة، إنني أقر بأنني لم أشارك في نشاط أو عمل مرتبط مباشرة بالزراعة أو تربية الماشية، على الرغم من أنني أدرك جيدًا أن كليهما سيثيران اهتمامي فوق أرض أجنبية. لقد انتهزت بعض الفرص بعد إنهاء واجباتي المنزلية، وكرست وقتي للتواصل مع عائلتي بشكل أفضل». كانت السيدة ميكوبر تُوجه كلامها لي دائمًا، وأحسب أنها تتبع بذلك عادتها القديمة، إذ كانت تبدأ دومًا حديثها كما لو أنها تخاطب شخصًا آخر. استطردت قائلة: «لأنني أقر يا عزيزي السيد كوبرفيلد بأنه يبدو لي أن الوقت قد حان كي ندفن الماضي في غياهب النسيان، إذ يجب على عائلتي أن تمد يدها إلى السيد ميكوبر، وعلى السيد ميكوبر أن يمد يده إلى عائلتي، فيسكن الأسد

مع الحمل[1]، ويصير الجميع على وفاق مع السيد ميكوبر».

قلت أظن أن ذلك عين الصواب.

مضت السيدة ميكوبر تقول: «إن هذا على الأقل هو الضوء الذي أتطلع إلى رؤية الأمور من خلاله يا عزيزي السيد كوبرفيلد. كنت أعيش في المنزل مع أبي وأمي، وقد اعتاد والدي أن يسأل كلما ظهر أي أمر قيد المناقشة في دائرتنا المحدودة، فإذا به يقول: «في أي ضوء ترى إيما هذا الموضوع؟». أعلم أن أبي كان متحيزًا للغاية، لكنني كنت مضطرة إلى أن أتخذ موقفًا فيما يخص هذه الجفوة الشديدة التي سادت بين السيد ميكوبر وعائلتي، وإن كان موقفي مضللًا».

قالت عمتي: «لا شك في ذلك، ولديكِ كل الحق يا سيدتي».

وافقت السيدة ميكوبر على كلامها قائلة: «بالضبط. أما الآن فلعلي مخطئة في استنتاجاتي، بل على الأرجح أنني مخطئة، إلا أن انطباعي الفردي مفاده أن الهوة بين عائلتي والسيد ميكوبر كانت بسبب خوفهم من أن يطلب منهم دعمًا ماليًّا». أكملت السيدة ميكوبر حديثها بنبرة من يتسم بالحكمة العميقة، فقالت: «لا يسعني هنا إلا أن أفكر في خوف بعض أفراد عائلتي من أن يطلب السيد ميكوبر منهم الانتفاع بأسمائهم. لا أقصد أن يطلب منهم منح أسمائهم في معمودية أطفالنا، بل خافوا

---

(١) تعبير مستقى من الكتاب المقدس يصف الأحوال في مملكة الرب: «فَيَسْكُنُ الذِّئْبُ مَعَ الْخَرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمِرُ مَعَ الْجَدْيِ، وَالْعِجْلُ وَالشِّبْلُ وَالْمُسَمَّنُ مَعًا، وَصَبِيٌّ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا. وَالْبَقَرَةُ وَالدُّبَّةُ تَرْعَيَانِ. تَرْبُضُ أَوْلاَدُهُمَا مَعًا، وَالأَسَدُ كَالْبَقَرِ يَأْكُلُ تِبْنًا» (أشعياء ١١: ٦، ٧).

من أن يستخدم أسماءهم كضامنين في وثائق الديون، أو التفاوض في سوق المال».

أعلنت السيدة ميكوبر عن هذا الاكتشاف بنظرة ثاقبة، فبدا كما لو أنه أمر لم يخطر ببال أحد من قبل، بل أحست أنها أذهلت عمتي التي أجابت فجأة قائلة: «حسنًا يا سيدتي، على العموم لا ينبغي أن أتعجب إذا ما كنتِ على حق فيما تقولين».

قالت السيدة ميكوبر: «لقد صار السيد ميكوبر الآن على وشك التخلص من الأغلال المالية التي طالما فتنته، ليبدأ حياة مهنية جديدة في بلد يتوفر فيه مجال متسع لقدراته، وهذه الميزة في رأيي عامل مهم للغاية، لأن قدرات السيد ميكوبر تتطلب مساحة خاصة. يبدو لي أن على عائلتي أن تلتفت إلى هذه الأمور فتتقدم في خطواتها بالتصالح. كنت أتمنى رؤية لقاء بين السيد ميكوبر وعائلتي في حفل ترفيهي تقدمه عائلتي على نفقاتها. يشرب به بعض الأعضاء البارزين في عائلتي نخب السيد ميكوبر ونخب ازدهاره المأمول، ومن ثَم تتوفر للسيد ميكوبر الفرصة لإيضاح آرائه لهم».

قال السيد ميكوبر بشيء من الحماسة: «يا عزيزتي، قد يكون من الأفضل لي أن أصرح في الحال بوضوح، أنني إذا شرحت آرائي لتلك الجماعة في مجملها، فإنه من المحتمل أن أُواجَه بنوع من الهجوم. إن انطباعي عن عائلتكِ في مجملها، لا يتعدى كونهم جماعة وقحة، بل إنهم أشرار أوغاد على وجه الخصوص».

قالت السيدة ميكوبر وهي تهز رأسها: «لا يا ميكوبر، إنك لم تفهمهم قَطُّ، ولم يحاولوا فهمك مطلقًا».

سعل السيد ميكوبر.

قالت زوجته: «لم يفهموك قَطُّ يا ميكوبر. قد يكونوا غير قادرين على استيعابك. وإذا كان هذا ما في الأمر، فإنه من سوء حظهم. وإنني لأشفق على هذا الحظ السيئ».

قال السيد ميكوبر بلهجة ندم: «إنني آسف يا عزيزتي إيما. إنني قد أسأت التعبير، فتحدثت حديثًا يبدو قاسيًا. إن ما أود قوله هو أنني أستطيع السفر إلى الخارج من دون أن تتقدم عائلتك بخطوة لتشجيعي. باختصار، لا أنتظر رؤية هزة من أكتافهم الباردة. كما أنني أفضل بشكل عام أن أترك إنجلترا بهذا الزخم الذي أملكه وحدي، من دون استثارة أي مشاعر من هذه الجماعة. أما إذا تنازلوا في الوقت نفسه بالرد على مراسلاتكِ يا عزيزتي - وهو أمر تثبت خبراتنا بهم أنه غير محتمل إلى حد بعيد - فإنني لن أكون عقبة أمام رغباتكِ».

سُوي الأمر وديًّا. ومد السيد ميكوبر ذراعه إلى السيدة ميكوبر، ثم ألقى نظرة خاطفة على كومة من الوثائق والأوراق المنبسطة على الطاولة أمام ترادلز، وقال إنهما سيتركاننا لنخلو لأنفسنا، وهذا ما فعلاه بكل احترام.

كان ترادلز متكئًا على كرسيه حتى غادرا، فإذا به ينظر إليَّ بمحبة أثارت الاحمرار في عينيه، ونفشت شعره ليتخذ مختلف الأشكال، وإذا

به يقول: «يا عزيزي كوبرفيلد، إنني لا أستطيع أن أعتذر عن الإزعاج الذي أجلبه لك فيما يتعلق بأمور أعلم أنك مهتم بها أشد الاهتمام، مما قد يؤدي إلى انقشاع هواجسك. وأرجو يا صديقي العزيز ألا تصير منهكًا».

قلت بعد صمت قصير: «لقد استعدت نفسي تمامًا. وإننا أمام عدد من الأسباب تدفعنا إلى التفكير في أمر عمتي من دون غيرها. إنك تعرف ما فعلته».

أجاب ترادلز: «بالتأكيد، بالتأكيد. ومَن ينسى أفعالها!».

قلت: «إلا أن هذا ليس كل ما في الأمر. لقد أزعجتها بعض المشكلات الجديدة خلال الأسبوعين الماضيين. كانت تخرج من لندن وتعود إليها كل يوم. خرجت مبكرًا عدة مرات ثم تأخرت في عودتها حتى المساء. أما الليلة الماضية يا ترادلز، فلم تُنهِ هذه الرحلة حتى انتصف الليل تقريبًا قبل عودتها إلى المنزل. إنك تعرف مدى اهتمامها بشؤون الآخرين، كما تعرف أنها لن تخبرني بما يضايقها».

ظلت عمتي شاحبة فوق مقعدها، تلوح على وجهها خطوط عميقة. لم تحرك ساكنًا حتى انتهيت من حديثي هذا، وما إن انتهيت حتى وجدت الدموع الضالة طريقها إلى خديها، كما وضعت يدها فوق يدي.

قالت: «لا شيء يا تروت. لا شيء. لن تحدث هذه الأمور مجددًا. يجب أن تعرف حقيقة الأمور. أما الآن يا أجنيس، يا عزيزتي، دعونا ننتبه إلى تحضير هذه الشؤون».

قال ترادلز: «يجب أن أقول شيئًا في حق السيد ميكوبر، إذ إنه رجل لا يكل عن العمل خاصة إذا تعلق الأمر بشؤون الآخرين، على الرغم من أنه لم يعمل بجد لينفع نفسه. إنني لم أرَ مثل هذا الرجل في حياتي قَطُّ. لو أنه استمر على المنوال ذاته، فإن عمره يجب أن يتجاوز في الوقت الحاضر المائتي عام تقريبًا. إن الحماسة التي أفنى بها نفسه في عمله المتواصل، والانغماس والمثابرة والطريقة التي كان يغطس بها ليلًا ونهارًا بين الأوراق والوثائق، أمر غير مألوف فعلًا، باستثناء شيء أود أن أقوله عن العدد الهائل من الرسائل التي كتبها لي بين جنبات هذا المنزل أو منزل السيد ويكفيلد، وغالبًا ما كتبها فوق الطاولة وهو جالس في الجهة المقابلة مني، وكان من الممكن أن يتكلم مباشرة إليَّ بسهولة أكبر».

صرخت عمتي: «يكتب الرسائل! أظن أنه يحلم بها!».

قال ترادلز: «أما السيد دك فقد صنع هو الآخر معجزات! ما إن أُطلق سراحه بعد التغاضي عن مراقبة يورايا هيب، وقد أدى هذه المسؤولية بيقظة وانتباه لم أرَهما في حياتي، حتى بدأ في تكريس نفسه للسيد ويكفيلد. وكان أفادنا قلقه الدائم أيما إفادة في التحقيقات التي أجريناها، كما أفادنا في استخراج الأدلة ونسخها، وكذلك في جلب الأوراق وحملها، وكان وجوده محفزًا ودافعًا لنا».

صاحت عمتي: «إن دك رجل رائع للغاية. إنك تعرف يا تروت أنني طالما قلت لك إنه رجل عظيم».

أردف ترادلز يقول برقة كبيرة وجدية بالغة في آن: «يسعدني أن أقول يا آنسة ويكفيلد إن السيد ويكفيلد تحسن بصورة كبيرة في غيابكِ.

بعد أن تحرر من الكابوس الذي حاصره لفترة طويلة، وانزاحت عنه المخاوف المروعة التي عاش في ظلها، فصار إنسانًا جديدًا تمامًا. أما قدرته الضعيفة على تركيز وانحصار ذاكرته في بعض الأحيان على نقاط معينة من العمل، فقد تحسنت هي الأخرى أيما تحسن، واستطاع مساعدتنا في استيضاح بعض الأمور التي شق علينا فهمها لصعوبتها البالغة، بل كنا على وشك أن نيأس من فهمها لولا مساعدته لنا. إن ما فعلناه بالنهاية هو التوصل إلى نتائج، وهي قصيرة موجزة تغنينا عن كثير من الكلام عن كل الظروف المفعمة بالأمل التي لاحظتها. وإنني لو ذكرت كل الملابسات فإنني لن أنهي حديثي أبدًا».

أحسست من طريقة ترادلز الطيبة وبساطته المقبولة أنه ما قال كلامه هذا إلا ليُدخل على قلوبنا السرور، ولكي يُسمع أجنيس اسم والدها المذكور فتزداد طمأنينتها عليه، ولم يكن الغرض الأخير أقل متعة وسعادة من الأول.

قال ترادلز وهو ينظر إلى الأوراق المنبسطة على الطاولة: «أما الآن، فلنبحث في الأمر. لقد أحصينا أموالنا، ونظمنا قدرًا كبيرًا مما أحاطنا من ارتباك غير متعمد في المقام الأول، ثم نظمنا الارتباك المتعمد والتزوير في المرتبة الثانية، فتبين أن السيد ويكفيلد قد ينتهي الآن من تصفية عمله وتخليص توكيلاته، من دون عجز أو اختلال في أداء ما عليه».

صرخت أجنيس بحرارة: «آه، الحمد لله».

قال ترادلز: «لكن الفائض الذي سيتبقى لدعمه سيكون مبلغًا ضئيلًا للغاية - وأفترض بقولي هذا أن المنزل سيُباع - لن يتجاوز في

جميع الاحتمالات بضع مئات من الجنيهات، وربما يكون من الأفضل يا آنسة ويكفيلد أن نفكر فيما إذا كان من الممكن أن يحتفظ بوكالته لبعض الممتلكات التي ظل أمينًا عليها منذ فترة طويلة. كما تعلمين أن أصدقاءه قد ينصحونه بالمضي في عمله الآن بعد أن استرد حريته. أنتِ نفسكِ يا آنسة ويكفيلد، وأنت يا كوبرفيلد، وأنا...».

قالت أجنيس وهي تنظر إليَّ: «لقد فكرت في الأمر يا تروتوود، وأميلِ إلى تجنب هذه الأمور، فلا يجب أن يُبقي على شيء من عمله، بناء على توصية من صديق أشعر بالامتنان الشديد له، وأدين له بالكثير».

لاحظ ترادلز: «لا أقول إنني أوصي بالإبقاء على توكيلاته. إلا أنني ظننت أنه من الصواب أن أعرض عليكم الفكرة وحسب».

أجابت أجنيس، بثبات: «إنني سعيدة لسماع اقتراحك هذا، لأنها فكرة تمنحني أملًا، ونوعًا من الاطمئنان إلى أننا نفكر في الشيء نفسه على حد سواء. يا عزيزي السيد ترادلز ويا عزيزي تروتوود، لقد عاد أبي حرًّا بشرف وكرامة، فما الذي يمكن أن أتمناه أكثر من ذلك؟! لطالما كنت أتمنى لو أنني أستطيع تحريره من الشدائد التي كبلته، لأعيد إليه جزءًا صغيرًا من الحب والرعاية اللذين أدين له بهما، وأن أكرس حياتي له. لقد كانت هذه الأمنيات هي ذروة آمالي لسنوات عديدة، صار حمل مستقبلنا هو كل ما على عاتقي، فلا أفكر إلا في سعادتي العظيمة القادمة؛ أقصد القادمة بعد تحريره من ثقل مسؤولياته وأعبائه كلها».

قلت: «هل فكرتِ كيف ستسير الأمور يا أجنيس؟».

قالت: «فكرت كثيرًا. إنني لست خائفة يا عزيزي تروتوود. إنني متأكدة من نجاح خطواتنا. يعرفني هنا أناس كثر، ويتكرمون عليَّ بلطفهم وعطفهم، وإنني على يقين من هذا الأمر ولا شك فيه. إن احتياجاتنا ليست كثيرة، فإذا استأجرت المنزل القديم الغالي، واحتفظت بمدرسة، فإننا سننتفع ونسعد بما أوتينا».

أعادت نبرة الحماسة الهادرة في صوتها البهيج ذكرى واضحة للمنزل القديم الغالي أولًا، ثم بيتي الموحش ثانيًا، حتى صار قلبي مفعمًا بالمشاعر إلى الحد الذي عجزت فيه عن الكلام. تظاهر ترادلز لبعض الوقت بأنه مشغول بالبحث عن شيء في الأوراق.

قال ترادلز: «ننتقل يا آنسة تروتوود إلى ما يتعلق بممتلكاتكِ».

تنهدت عمتي قائلة: «حسنًا يا سيدي، إن كل ما عليَّ قوله هو أن ممتلكاتي قد تلاشت ويمكنني تحمل خسارتها، وإذا لم تكن قد تلاشت فإنني سأسعد أيما سعادة باستعادتها».

قال ترادلز: «أحسب أنها بلغت في الأصل ما يقرب من ثمانية آلاف جنيه على هيئة سندات مالية، أليس كذلك؟».

أجابت عمتي: «صحيح».

قال ترادلز في نوع من الحيرة: «لا يمكنني حساب أكثر من خمسة».

سألت عمتي في رباطة جأش غير مألوفة: «ماذا تقصد؟».

قال ترادلز: «أقصد خمسة آلاف جنيه».

أجابته عمتي: «سأفند لك كل ما وقع. لقد احتفظت لنفسي بثلاثة

آلاف جنيه. دفعت ألفًا في البداية مقابل تدريبك يا تروت يا عزيزتي، واحتفظت بالألفين الأخريين. ما إن فقدت باقي نقودي، حتى ظننت أنه من الحكمة ألا أذكر شيئًا عن المبلغ المتبقي معي، فأبقيت أمره سرًّا ليوم عصيب. أردت أن أرى كيف ستخرج من المحنة يا تروت، وها أنت قد خرجت بنبل ومثابرة معتمدًا على نفسك، متفانيًا. وكذلك فعل دك. فلا تتحدثوا معي عن الأمر، لأني أجدني متوترة الأعصاب قليلًا».

لم يخطر ببال أحد أن يراها جالسة في وضع مستقيم وقد طوت ذراعيها، متحكمة في مشاعرها بصورة رائعة.

صاح ترادلز مبتهجًا بالفرح: «ثم يسعدني أن أقول إننا قد استعدنا المبلغ كله».

صرخت عمتي: «لا يهنئني أي إنسان قبل أن أفهم! كيف حدث ذلك يا سيدي؟».

قال ترادلز: «هل كنتِ تظنين أن السيد ويكفيلد قد اختلسه؟».

قالت عمتي: «بالطبع ظننت ذلك، ولذلك آثرت الصمت. يا أجنيس، لا تعلقين على قولي ولو بكلمة واحدة!».

قال ترادلز: «وبالفعل، بيعت هذه السندات المالية بحكم التوكيل الذي تسلمه منكِ، ولكن لا أحتاج إلى تحديد الشخص الذي باع هذه السندات أو من وقع فعليًّا على الأوراق. بعد ذلك، تظاهر هذا الوغد أن السيد ويكفيلد اختلس المال، ثم أثبت أيضًا بالأرقام أنه حصل على هذا المال، وقال إنه اتبع في ذلك التعليمات القانونية العامة، وإنه لجأ إلى

البيع لسد أوجه القصور والأزمات الأخرى. كان السيد ويكفيلد ضعيفًا وعاجزًا تحت قبضته إلى الحد الذي عجز معه أن يدفع لكِ مالكِ بعد ذلك. وما كان من السيد ويكفيلد إلا أن جعل من نفسه - للأسف - طرفًا في عملية الاحتيال، وصار متهمًا باختلاس عدة مبالغ من الفوائد على أصل مزعوم كان يعلم أنه لم يعد موجودًا».

أردفت عمتي قائلة: «ثم تحمل في النهاية العاقبة بنفسه. بل أرسل لي خطابًا مجنونًا، يتهم نفسه بالسرقة والخطأ الذي لم يسمع به أحد من قبل. زرته بعد ذلك في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، وطلبت شمعة ثم أحرقت الرسالة، وأخبرته أنني سأنتظر أن يرد لي حقي ويعود إلى نفسه، وإذا لم يستطع فليحافظ على سره هذا مخفيًّا حفاظًا على ابنته. لا أريد أن يتحدث أحد منكم معي حول ما قلته، وإلا غادرت المنزل في الحال».

أبقينا جميعًا على الصمت، بينما أجنيس تغطي وجهها بكفيها.

قالت عمتي بعد صمت قصير: «حسنًا يا صديقي العزيز، وهل استعدت المال منه حقًّا؟».

قال ترادلز: «حسنًا، في الحقيقة لقد طوَّق السيد ميكوبر هذا الوغد تمامًا، وكان مستعدًّا دائمًا بعديد من الأساليب الجديدة في حالة ما إذا فشلت إحدى الوسائل القديمة لتقييده، بحيث لا يستطيع الهروب منا. أما الموقف الأبرز هو أنني لا أظن أن هذا الوغد أراد أن يسيطر على هذا المبلغ لإرضاء جشعه، بل أراد أن يبدده بسبب كراهيته المفرطة التي شعر بها تجاه كوبرفيلد. وقد صرح لي بهذه الكراهية بوضوح. قال إنه ما كان ليبدد هذا المبلغ إلا لعرقلة كوبرفيلد وإذلاله».

قالت عمتي وهي تملس حاجبيها متفكرة وناظرة إلى أجنيس: «ها، وماذا حلَّ به؟».

قال ترادلز: «لا أعرف. لقد غادر مع والدته من هنا، بينما ظلت تصرخ وتتوسل وتكشف الحقائق طوال الوقت. سافرا بعيدًا في إحدى عربات لندن الليلية، ولم أعد أعرف شيئًا عنه، إلا أن حقده عليَّ عند الفراق كان جريئًا. بدا أنه كان يعتبر نفسه مدينًا لي بشيء يسير مقابل ما يدين به للسيد ميكوبر، وهو ما أعتبره -كما أخبرته- مدحًا عظيمًا».

سألته: «هل تظن أنه يملك مالًا يا ترادلز؟».

أجاب وهو يهز رأسه بجدية: «نعم يا عزيزي، أظن ذلك. يجدر بي أن أشير إلى أنه حصل بلا شك على قدر كبير من المال بطريقة ما. إلا أنني أظن يا كوبرفيلد أنه إذا أتيحت لك الفرصة لمراقبة مسار يورايا، فإنك ستجد أن تلك الأموال لن تُغنيه أبدًا عن الأذى. إنه النفاق متجسدًا، ولن يسعى وراء أي شيء من دون عوج. إن هذا الدرب هو تعويضه الوحيد عن القيود الظاهرية التي يكبل بها نفسه. إنه يزحف على الأرض ويسعى دائمًا إلى غرض صغير، ثم ينكب على كل شيء بغيض في هذا الطريق. إنه يكره ويشتبه في كل من يحول بينه وهدفه من دون قصد. ستزداد طرقه الملتوية التواء بين عشية وضحاها، لأتفه سبب، أو من دون سبب واضح. يكفي أن تتمعن في تاريخه هنا فقط لتتيقن من ذلك».

قالت عمتي: «يا له من وحش جشع!».

علق ترادلز بعد لحظات من تفكير قائلًا: «لا أعرف حقًّا كيف وصل إلى هذا الحد! كيف يمكن لكثير من الناس أن يصيروا بهذا الجشع بل ويحرصوا عليه!».

قالت عمتي: «والآن، لنعُد إلى السيد ميكوبر».

قال ترادلز بابتهاج: «حسنًا، لا بد أن أثني مرة أخرى حقًّا على ما فعله السيد ميكوبر. لولا صبره ومثابرته لفترة طويلة، لما تمكنا أبدًا من تحقيق أي شيء يذكر. وأظن أننا يجب أن نعتبر أن ما فعله السيد ميكوبر هو عين الصواب، خاصة لو وضعنا في الاعتبار أن يورايا هيب نفسه كان بإمكانه المقايضة على صمته».

قلت: «إنني أوافقك على ما تقول».

سألت عمتي: «والآن، ماذا ستمنحونه؟».

قال ترادلز في نوع من الارتباك: «آه، قبل أن نتطرق إلى هذا الأمر، أخشى أن أقول إنني ظننت أنه من الأفضل أن أطرح مسألتين، لأنني لم أستطع حل كل الأمور التي طرحت أمامي، حيث إن إجراء هذه التسويات سيكون خارج الحدود القانونية، بل إنه خارج القانون من بدايته إلى نهايته تمامًا. ويا له من أمر بالغ الصعوبة. إن سندات الدين وما يشبهها من أوراق قدمها السيد ميكوبر إلى يورايا في مقابل حصوله على سلفة...».

قالت عمتي: «حسنًا، يجب أن تسدد إليه».

أجاب ترادلز وهو يفتح عينيه على اتساعهما: «نعم، لكنني لا أعرف

متى يمكن المضي قدمًا في سدادها، أو أين هي، وإنني أتوقع أنه خلال هذا الوقت وقبل مغادرة السيد ميكوبر، سيحاول يورايا مرارًا أن يزج به إلى السجن أو الإيقاع به بين يدي القضاء».

فقالت عمتي: «من ثَم يجب إطلاق سراحه مرة أخرى، وتخليصه من السجن. فما هو المبلغ المطلوب منه تمامًا؟».

قال ترادلز مبتسمًا: «حسنًا، لقد دون السيد ميكوبر هذه الصفقات -إنه يسميها الصفقات- بدقة بالغة في دفتره، وهي تبلغ مائة وثلاثة جنيهات وخمسة شلنات».

قالت عمتي: «والآن، ماذا سنعطيه بالإضافة إلى هذا المبلغ؟ إننا نستطيع أن نتحدث أنا وأنتِ يا عزيزتي أجنيس عن تقسيمه بيننا فيما بعد، فكم ندفع؟ هل ندفع خمسمائة جنيه؟».

تدخلت أنا وترادلز بعد طرح هذه النقطة على الفور، فأوصى كلانا بدفع مبلغ صغير للسيد ميكوبر، ودفع مطالبات يورايا عند استحقاق السداد من دون شروط. اقترحنا أن نسدد رسوم سفر العائلة وما يكفيها من مصروفات الرحلة والملابس، بالإضافة إلى مائة جنيه نقدية، على أن نرتب مع السيد ميكوبر الأمور المتعلقة بسداد هذه السلفة بترتيبات جدية، لأنه من الأفضل له أن يضع نفسه أمام هذه المسؤولية. أضفت إلى هذا الاقتراح، أنه ينبغي أن أقدم بعض التفصيلات عن شخصيته وتاريخه إلى السيد بيجوتي، لأنني أعرف أنه يمكن الاعتماد عليه. كما ينبغي أن يعهد إلى السيد بيجوتي بتقديم مائة جنيه أخرى له بهدوء تقديرًا لحكمته. اقترحت كذلك أن أستحث السيد ميكوبر على الاهتمام

بالسيد بيجوتي، من خلال إطلاعه على جانب كبير من قصته بعد إعطاء أي مبرر كي أسردها، أو أقص عليه ما أراه مناسبًا منها، كما سأسعى إلى دفع كل منهما للتقرب من الآخر من أجل تحقيق منفعة عامة. تناقشنا جميعًا بحرارة حول هذه الآراء. ويمكنني أن أذكر على الفور، أن المعنيين بالأمر قد وافقوا بعد وقت قصير على هذه المقترحات بنية طيبة وانسجام تام.

رأيت أن ترادلز راح ينظر بقلق إلى عمتي مرة أخرى، فذكرته بالنقطة الثانية والأخيرة التي أشار إليها حتى يكمل حديثه.

قال ترادلز مترددًا: «اعذرني يا كوبرفيلد، ولتعذرني عمتك أيضًا، خاصة إذا تعرضت لمسألة مؤلمة، لأنني أخشى بشدة أن أثير المواجع. إلا أنني أظن أنه من الضروري تذكيركما بها. لقد وجَّه يورايا هيب في يوم إدانة السيد ميكوبر الذي لا يُنسى تهديدًا إلى زوج عمتك».

وافقت عمتي على كلامه بإيماءة، في حين أبقت على هيئتها الساكنة ورباطة جأشها.

قال ترادلز: «هل كان هذا التهديد مجرد وقاحة أبداها بلا هدف؟».

أجابته عمتي قائلة: «لا».

ألمح ترادلز قائلًا: «أرجو المعذرة، هل هذا الشخص حقيقي، وهل يملك هذه الصفة بالأساس؟».

قالت عمتي: «نعم يا صديقي العزيز».

بدا وجه ترادلز مستطيلًا فاغر الفم، يشي بأنه لم يستطع الإحاطة

بهذا الموضوع، فتركه كما ترك مصير مسؤوليات السيد ميكوبر بعد عدم إدراكه للشروط التي أحاطت به، كما أننا لم نعد نتمتع بأي سلطة على يورايا هيب، ومن ثَم إذا أراد أن يؤذي أحدنا أو أيًّا منا بأي إساءة أو إزعاج، فإنه بلا شك سيقدم على ذلك.

ظلت عمتي هادئة، إلى أن وجدت بعض الدموع الضالة طريقها إلى خديها. قالت: «إنك محق تمامًا. وكان من حسن الرأي أن تذكرنا بذلك».

سأل ترادلز بلطف: «هل يمكنني -أنا أو كوبرفيلد- القيام بأي شيء؟».

قالت عمتي: «لا شيء. أكرر شكري لك مرات. يا تروت يا عزيزي إن تهديده عبثي. دعونا ندعو السيد ميكوبر والسيدة زوجته لينضما إلينا. ولا يتحدث أي منكم معي في الأمر». ثم هذَّبت طرف ثوبها، وجلست بقامتها الشامخة تنظر نحو الباب، وما إن دخلا حتى قالت: «حسنًا، يا سيد ميكوبر ويا سيدة ميكوبر، لقد ناقشنا أمر هجرتك. وإنني أود أن أعتذر منكما لإبقائكما خارج الغرفة لفترة طويلة. ثم إنني سأخبركما بالترتيبات التي نقترحها في هذا الأمر».

راحت عمتي تشرح هذه الأمور وقد قابلتها الأسرة برضا لا حدود له - كان الأطفال وكل أفراد الأسرة حاضرين آنذاك - وقد أيقظت هذه المناقشات عادات السيد ميكوبر الدقيقة، التي تظهر مع بداية أي مرحلة من مراحل المعاملات المالية للدين، بحيث لا يمكن ثنيه عن الإسراع على الفور إلى الخارج بحماس متقد لشراء الطوابع والدمغات بنفسه.

إلا أن فرحته لاقت صدمة في غضون خمس دقائق، إذ عاد بصحبة شرطي ليخبرنا بسيل من الدموع أن كل آماله قد ضاعت وولت. كنا مستعدين تمامًا لمثل هذا الحدث الذي دبره يورايا هيب، فدفعنا المال في الحال. لم تمضِ خمس دقائق أخرى حتى جلس السيد ميكوبر على الطاولة، وراح يلصق الطوابع وتعبير يعلو وجهه يشي بفرحه التام. ولم يكن ليضفي اكتمالًا على هذا الوجه اللامع سوى عمل لائق يتمثل في إعداده لشراب البانش. كانت رؤيته ممتعة إذ راح يلصق الطوابع بلذة فنان، وأخذ يلمسها كما لو أنها صور يمعن بها النظر من جميع النواحي. مضى يدون في دفتر جيبه ملاحظات دقيقة عن التواريخ والمبالغ، ثم تأملها بحساسية عالية بعد انتهاء عملية التوثيق. وكم كان مشهده ثمينًا يستحق المراقبة حقًّا!

قالت عمتي بعد فترة من مراقبته بصمت: «أما الآن -وإذا سمحت لي أن أقدم إليك نصحًا- فإن أفضل شيء تفعله يا سيدي، هو نبذ هذا العمل إلى الأبد».

أجاب السيد ميكوبر: «يا سيدتي، إنني أعتزم تسجيل مثل هذا العهد على صفحة مذكراتي الأولى التي سأكتبها في المستقبل. ستشهد السيدة ميكوبر على هذا العهد». بدأت لهجة السيد ميكوبر تتخذ هيئة رسمية، حين استطرد في حديثه قائلًا: «إنني أثق أن ابني ويلكنز سيضع في اعتباره أبد الدهر، أن من الخير له أن يضع قبضته في النار إلى الأبد، على أن يستخدمها في التعامل مع الثعابين التي سممت حياة والده التعس». تأثر السيد ميكوبر بهذه الكلمات تأثرًا بالغًا، وتغيرت هيئته في لحظة

إلى صورة من اليأس، ثم نظر إلى ثعابينه نظرة بغيضة قاتمة -لم يتلاشَ إعجابه الأخير بها لكنه صار خافتًا تمامًا- ثم طواها ووضعها في جيبه.

هكذا انتهت إجراءات المساء. كان الحزن واليأس قد أتعبانا، وكنت قد اعتزمت أنا وعمتي أن نعود غدًا إلى لندن، فاتفقنا أن نغادر على أن تتبعنا أسرة السيد ميكوبر بعد بيع بضائعها للسمسار. كما يجب تسوية حسابات السيد ويكفيلد بكل سرعة ممكنة تحت إشراف ترادلز. أما أجنيس فعليها أن تأتي إلى لندن هي الأخرى، حتى ننتهي من هذه الإجراءات. قضينا تلك الليلة في المنزل القديم، بعد أن تحرر من وجود هيب داخله، وبدا كما لو أنه خالٍ من المرض. استلقيتُ في غرفتي القديمة، فكنت كالمتجول الغارق الذي يعود إلى شاطئه.

عدنا في اليوم التالي إلى منزل عمتي - لا إلى منزلي - وما إن جلست أنا وهي منفردين، كما اعتدنا منذ زمن بعيد قبل أن يأوي كل منا إلى فراشه، فإذا بها تقول: «يا تروت، هل ترغب حقًّا في معرفة ما يدور في ذهني مؤخرًا؟».

قلت: «إنني أود أن أعرف ذلك حقًّا يا عمتي. فإن لاح لي وقت شعرت فيه برغبة في ألا يزورك الحزن أو القلق، فإنها هذه اللحظة تمامًا».

قالت عمتي بنبرة ودودة: «لقد شعرت بالحزن الكافي يا بني، فلم أشأ أن أضفي مآسي صغيرة. ولا أن أكن أي دافع آخر سوى هذا يا تروت، لإخفاء أي شيء عنك».

قلت: «إنني على يقين من ذلك، لكن أخبريني ما جرى الآن».

سألت عمتي: «هل ستركب معي غدًا لنتحدث قليلًا في الطريق؟».

قلت: «بالطبع».

قالت: «سنتحرك في التاسعة صباحًا، وسأخبرك بكل شيء إذن يا عزيزي».

خرجنا في التاسعة وركبنا عربة صغيرة واتجهنا إلى لندن. قطعنا مسافة طويلة وتجاوزنا عدة شوارع حتى وصلنا إلى أحد المستشفيات الكبرى. رأيت بجوار المبنى عربة لحمل النعوش وقد كان وجودها أمرًا عاديًّا. عرف السائق عمتي، وامتثل لحركة من يدها من النافذة، فانطلق ببطء، وإذا بنا نتبعه.

قالت عمتي: «لقد فهمت الأمر الآن يا تروت. لقد مات».

«هل مات في المستشفى؟».

«نعم».

جلست بجانبي من دون حراك. لكنني لاحظت مرة أخرى تلك الدموع الضالة تشق طريقها على وجهها.

قالت عمتي في هذه اللحظة: «لقد مكث في المستشفى مرة قبل هذه. كان مريضًا لفترة طويلة. بات رجلًا محطمًا كسيرًا طوال هذه السنوات الطويلة. ما إن أدرك حالته في هذا المرض الأخير، حتى طلب منهم أن يرسلوا في طلبي. كان قد أحس حينها بالأسف. أحس بندم شديد».

«أعرف يا عمتي أنكِ ذهبتِ إليه».

«ذهبت إليه. ورحت أزوره بعدها بشكل دوري».

سألتها: «هل مات في الليلة التي سبقت ذهابنا إلى كانتربري؟».

أومأت عمتي برأسها قائلة: «لا أحد يستطيع أن يؤذيه الآن. لقد كان التهديد بلا جدوى».

انطلقنا خارج المدينة، حيث ساحة الكنيسة في هورنسي. قالت عمتي: «هذا مكان أحب إليه من الشوارع. لقد ولد هنا».

نزلنا، ثم تابعنا المسير خلف التابوت البسيط إلى أن وصلنا إلى ركن لم أزل أتذكره جيدًا، حيث تلونا الصلوات حتى دُفن.

قالت عمتي، بينما كنا نسير عائدين إلى العربة: «كان زواجي في مثل هذا اليوم منذ ستة وثلاثين عامًا يا عزيزي. فليغفر الله لنا جميعًا». جلسنا إلى مقاعدنا في صمت، وقد ظلت بجانبي ممسكة بيدي لفترة طويلة. ثم انفجرت في النهاية في البكاء وقالت:

«لقد كان رجلًا حسن المظهر حين تزوجته يا تروت، ولكنه تغير للأسف».

لم يدُم الأمر طويلًا. فما إن أراحتها دموعها، حتى عادت سريعًا إلى سكونها بل واستحالت مبتهجة. قالت إن أعصابها قد اهتزت قليلًا، وإلا لما أفسحت مجالًا للبكاء. فليغفر الله لنا جميعًا.

عدنا بعد ذلك إلى منزلها الصغير في هايجيت، فوجدنا الملاحظة القصيرة التالية، والتي وصلت عبر البريد في ذلك الصباح، وكانت من السيد ميكوبر:

كانتربري - الجمعة.

«سيدتي العزيزة وكوبرفيلد،

إن الأرض الموعودة اللطيفة التي لاحت في الأفق مؤخرًا صارت ملبدة بضباب لا يمكن اختراقه مرة أخرى، وتلاشت إلى الأبد من أعين البائس الذي جرفه التيار إلى بؤسه المقدر.

أُصدر أمر قضائي آخر (في محكمة جلالة الملك العليا بمجلس الملك في وستمنستر)، في قضية أخرى تتعلق بمسألة هيب.

«ها قد حان اليوم الآن، ودقت ساعة المصير،

لنشاهد احتدام المعركة الدائرة،

لنرَ فخر قوة إدوارد تدنو -

سلاسل وعبودية[(١)]»



استسلمت إلى هذه النهاية السريعة - لأن التعذيب النفسي لا يمكن احتماله بعد مرحلة معينة، وإنني أشعر أنني وصلت إلى هذه النقطة بالفعل - وها قد شققت مسار حياتي. فبارك الله فيكم، بارك الله فيكم. سأنزل بالسجن كما لو أنني مسافر من المسافرين أو زائر يدفعه الفضول، أو لنقل فضولًا ممزوجًا بالرثاء، لرؤية مكان الحبس المخصص للمدينين في هذه المدينة، وأثق أنني سأتأمل هذا الأمر مليًّا وأتتبع جداره ذا النقوش المحفورة عليه بمسمار صدئ،

وأتبع الأحرف الأولى الغامضة،

و. م».

---

(١) أغنية اسكتلندية كتبها روبرت بيرنز، تعد نشيدًا غير رسمي عن سيادة اسكتلندا.

«ملاحظة: لقد أعدت فتح هذه الرسالة لأقول إن صديقنا المشترك، السيد توماس ترادلز -الذي لم يتركنا حتى هذه اللحظة، ويبدو أنه إنسان كريم للغاية- قد دفع الديون والتكاليف باسم الآنسة تروتوود النبيلة، وإنني وأسرتي في أوج النعيم الدنيوي ممتنون لهذا الفضل».



# الفصل الخامس والخمسون

## عاصفة

أقترب الآن من حادث بشع في حياتي لا ينمحي، وقد ارتبط بروابط عدة ومتنوعة لا حصر لها مع كل ما سبقه من أحداث سردتها هذه الصفحات. راح ينمو منذ بداية قصتي، بل ويزداد في نموه كلما تقدمت أحداثها، كأنه برج عظيم يطل على سهل، وقد ألقى بظلاله المترامية على وقائع شتى منذ طفولتي.

انقضت سنوات بعد وقوع هذا الحادث، مكث خلالها يراودني في أحلامي مرات عديدة، بل بتُّ أتأثر به بشكل لافت حتى استعرت ثورته مبددة هدوء غرفتي في جوف الليل الساكن. لم أزل أحلم به أحيانًا حتى يومنا هذا، على فترات طويلة غير محددة. ترتبط ذكراه عندي بالرياح العاصفة، أو أستعيده مع أي ذكرى هينة لشاطئ البحر. يقتحم عقلي بقوة كذكرى ملحة لا تنقشع. سأحاول تدوين ما حدث بكل بساطة. إنني لا أتذكرها فحسب، بل أراها حاضرة كما لو أنها متمثلة أمامي.

ما إن حان وقت إبحار السفينة بالمهاجرين، حتى جاءت مربيتي العجوز الطيبة من لندن، ممتلئة بحزن عارم، ظهر عليها بمجرد أن التقينا. مكثت معها معظم الوقت، وكذلك بقيت مع شقيقها، ومع أسرة ميكوبر -صاروا معًا أغلب الوقت- لكنني لم أرَ إيميلي قَطُّ.

جلست مع بيجوتي وشقيقها منفردين في إحدى الأمسيات التي تسبق موعد السفر. تطرقنا بحديثنا حول هام، فراحت بيجوتي تصف لنا كيف أنه ودعها بحنان، وكيف تمالك نفسه بذكاء وهدوء، خاصة في الآونة الأخيرة، بعد أن ظن الناس أن الفاجعة قد أودت به. لم تتعب هذه المخلوقة الحنونة قَطُّ من الحديث في هذا الموضوع. كما أننا أولينا اهتمامنا لسماع العديد من الأمثلة التي دللت على شخصيته، حيث تعاملت معه كثيرًا وأحبت مواقفه بما يضاهي حبها للحكايات.

كنت أنا وعمتي في ذلك الوقت نخلي البيتين في هايجيت، بعد أن انتويت السفر إلى الخارج، وقرَّرت هي أن تعود إلى منزلها في دوفر. كنا قد نزلنا في سكن مؤقت في كوفنت جاردن، وكنت عائدًا إلى المنزل بعد محادثة المساء هذه، فإذا بي أفكر فيما مر بيني وهام في آخر مرة كنت فيها في يارموث، مما جعلني أتراجع عن قراري بترك رسالة إلى إيميلي حين أودع عمها على متن السفينة. ظننت أنه من الأفضل لو أنني كتبت إليها الآن، وحسبت أنها قد ترغب بعد تلقي رسالتي، في إرسال كلمة وداع من خلالي إلى حبيبها التعس. هكذا أحسست أنه يجب عليَّ أن أمنحها هذه الفرصة.

جلست في غرفتي وكتبت إليها قبل أن أخلد إلى النوم. أخبرتها

أنني رأيت هام، وأنه طلب مني أن أخبرها بما كتبته لها بين أسطر هذه الأوراق. نقلت إليها ما أراد قوله بصدق. ولم أكن بحاجة إلى المبالغة فيه -إن كان لي الحق في التوسع فيه- حيث لم يكن إخلاصه وطيبته بحاجة إلى أن أزينهما بنفسي بل لم يكن صدقه بحاجة إلى أن يبرهنه أي إنسان. تركت خطابي يُرسل إليها في الصباح، ودونت عليه كلمة للسيد بيجوتي أطلب منه فيها أن يسلمه لها، ثم أويت إلى فراشي مع حلول الفجر.

كنت حينذاك أضعف مما تصورت، فلم أستطع النوم حتى شروق الشمس، فمكثت على هيئتي حتى وقت متأخر من اليوم التالي ولم ألبث مترنحًا. انتبهت لوجود عمتي بجانب سريري، حيث ظلت واقفة في صمت، شعرت بها في أثناء نومي، وأفترض أننا جميعًا نشعر بمثل هذه الأشياء.

ما إن فتحت عيني، حتى قالت: «يا تروت يا عزيزي، لم أرغب في إزعاجك. إلا أن السيد بيجوتي قد حضر إلى هنا. فهل أطلب منه أن يصعد؟».

أجبتها بنعم، فامتثل أمامي مسرعًا.

قال بعدما تصافحنا: «يا سيد ديفي. لقد سلمت رسالتك إلى إيميلي يا سيدي، وقد كتبتْ إليك هذا الرد، وطلبت مني أن أدعوك إلى قراءته، فإذا لم ترَ منه أي ضرر، فإنها ترجوك أن تبعثه إلى هام».

قلت له: «وهل قرأته بنفسك؟».

أومأ برأسه في حزن. فتحت الرسالة وقرأت ما يلي:

«لقد تلقيت رسالتك. آه، ماذا أكتب من كلمات حتى أشكرك على لطفك وطيبتك معي؟!

لقد لامست كلماتك قلبي. سأحفظها بين جوانحي حتى أموت. إنها أشواك حادة، لكنها تواسيني وتريحني. لقد صليت، ودعوت بهذه الكلمات كثيرًا. إنني أشهد ما أنت عليه من رأفة، وأعاين حنان عمي، فأفكر في رحمة الله، وأتضرع إليه باكية.

أما الآن، فوداعًا إلى الأبد. يا صديقي العزيز، وداعًا إلى الأبد في هذا العالم. أما إذا غفر الله لي في عالم آخر، فقد أعود طفلة وآتي إليك. كل شكري وامتناني. وداعًا إلى الأبد».

كانت هذه هي الرسالة الممتلئة بالدموع.

قال السيد بيجوتي بعدما انتهيت من قراءتها: «هل لي أن أبلغها أنك لا ترى فيها أي أذى، وأنك ستتكرم وتتولى مسؤولية إيصالها يا سيد ديفي؟». قلت: «بلا شك، ولكنني أفكر...».

«نعم يا سيد ديفي؟».

قلت: «إنني أفكر في الرجوع مرة أخرى إلى يارموث. لم يزل أمامي متسع من الوقت، إذ عليَّ أن أذهب ثم أعود قبل أن تبحر السفينة. إن ذهني لم يزل منشغلًا بهام باستمرار، حيث أتصوره في وحدته. إذا وضعت هذه الرسالة بين يديه في هذا الوقت، وتمكنت من إخبارها أنه قد حصل عليها في لحظة الفراق هذه، فكم سيكون لطفًا مني بكليهما!

لقد قبلت تكليف ذاك الرجل الصالح لأقوم بالمهمة التي كلفني بها، ولا يمكنني أن أتخاذل. إن الرحلة لن تتسبب لي في أي مشقة. إنني لم أزل مضطربًا، وسيكون خيرًا لي أن أتحرك لأنشغل عن توتري، ومن ثَم سأنطلق الليلة إلى يارموث».

سعى السيد بيجوتي جاهدًا لأن يثنيني عن عزمي، إلا أنني أحسست أنه يوافقني الفكرة؛ وهكذا تأكدت نيتي واستقرت مشاعري. ما كان منه إلا أن استجاب لرغبتي، فانطلق إلى مكتب الحافلات، وحجز لي مقعدًا أماميًّا على متن العربة المسافرة. ما إن حل المساء حتى وجدتني على الطريق ذاته الذي اجتزته عدة مرات في عدد لا بأس به من المحن.

سألت الحوذي بينما نحن في خطواتنا الأولى خارج لندن، فقلت: «ألا تظن أن السماء بديعة جدًّا؟ لا أتذكر أنني رأيت مثيلًا لها قَطُّ».

فأجاب: «ولا أنا. إنني لم أرَ لها مثيلًا. إنها تشي بهبوب الرياح يا سيدي. أتوقع أن يهتاج البحر لوقت طويل».

لاحت لي السماء قاحلة مظلمة، لطختها أدخنة منبعثة من الوقود الرطب، قد تطايرت ثم تكاثفت في أكوام هائلة، تشير إلى أن ارتفاعها يفوق ما تبدو عليه، بل إنها تتجاوز أعمق تجاويف الأرض. لاح القمر من بينها موحشًا، كما الغارق المتذبذب الذي ضل طريقه، خوفًا من أثر مروع من اختلال قوانين الطبيعة. باتت الرياح عاصفة طوال الوقت، وراح عواؤها يعلو بصوت مهيب غير مألوف، وما إن انقضت ساعة أخرى حتى تضاعفت غيوم السماء، وازدادت وطأة الرياح.

ما إن اشتد جنح الليل، حتى تناثرت الغيوم وامتدت على أديم السماء بأكملها، فباتت حالكة، تعصف بها الرياح وتزداد وتخور، وبالكاد تقاومها خيول العربة. توقفنا في كثير من الأحيان في جوف هذا الليل الدامس -كنا في أواخر شهر سبتمبر، حيث لم يكن الليل قصيرًا ولا هينًا- وقد أشاحت الخيل برأسها أو توقفت تمامًا، بل وشعرنا في كثير من الأحيان بخوف شديد من انقلاب العربة. هبت شذرات ثقيلة من المطر قبل العاصفة. كانت مثل زخات من الفولاذ، فحاولنا حينها أن نلوذ بمأوى من الأشجار أو الجدران حتى نحتمي بها، إلا أننا لم نقوَ على التوقف في مهب الريح، بل وصار من المستحيل مواصلة النضال.

اندلع النهار فانفجرت الرياح بقوة أكبر من ذي قبل. كنت في يارموث حين قال البحارة إن السماء قد فجرت رصاصًا من بنادق عتيدة، لكنني لم أعرف قَطُّ طوال حياتي يومًا كهذا اليوم. وصلنا في وقت متأخر جدًّا إلى إيبسويتش، بعد أن اضطررنا إلى خوض المعارك مع كل شبر من الأرض بعد أن تجاوزنا عشرة أميال من لندن. أبصرت جماعة من الناس في السوق، كانوا قد استيقظوا من أسِرتهم ليلًا، خوفًا من سقوط المداخن. تجمع بعضهم حول ساحة الفندق حين وقفنا لنغير الخيول، فأخبرونا عن صفائح كبيرة من الرصاص قد اقتلعتها الرياح من برج الكنيسة المرتفع، وقذفت بها في شارع جانبي، ومن ثَم عرقلت الطريق. أخبرنا آخرون أن سكان الريف القادمين من القرى المجاورة، قد رأوا أشجارًا كبيرة انتزعتها الرياح وأودت بها أرضًا، وباتت الأغصان

متناثرة حول الطرق والحقول، ومع ذلك، لم تهدأ العاصفة، بل راحت تخور بقوة أكبر.

كنا نواجه العاصفة بالقرب من البحر، حيث ظلت الرياح العاتية تهب نحو الشاطئ، وتزداد شدتها ويتضاعف بأسها. كان رذاذ البحر ينبسط فوق شفاهنا قبل أن نستطيع أن نراه بوقت طويل، حتى أمطرنا الملح بوابله. كانت المياه قد انتشرت على بعد أميال مترامية حول الأرض المنبسطة المجاورة ليارموث. تلاطمت الأمواج وراحت تنخر في الحواجز الصغيرة للجسور وتتجه نحونا. وما إن اقتربنا من البحر، حتى أبصرنا الأمواج في الأفق، تعلو على فترات مثل سيل متدحرج إلى الهاوية، فصارت أشبه بلمحات من شاطئ آخر تعلوه الأبراج والمباني. وصلنا إلى البلدة أخيرًا، وخرج الناس من بيوتهم وقد اعوجت ظهورهم واسترسل شعرهم، مندهشين من وصول عربة المسافرين في تلك الليلة.

نزلت في الفندق القديم ثم ذهبت لألقي نظرة على البحر. رحت أخطو على طول الشارع في مشقة، بعد أن تناثرت فيه الرمال والأعشاب البحرية، وطمسته بقع متطايرة من زبد البحر، وكم كنت خائفًا من سقوط الألواح الخشبية لأسقف المنازل فوق رأسي! بل رحت أمسك بأناس التقيت بهم في زوايا عاصفة، لأتشبث بهم في طريقي إلى أن اقتربت من الشاطئ. أبصرت هناك جماعة من الناس ليسوا من البحارة وحسب، بل ومن أهل البلدة، مختبئين خلف المباني، كما أبصرت بعضهم قد تحدى غضب العاصفة بين الحين والآخر ليلقي بنظرة إلى

البحر، فيخرج تمامًا عن مساره، ثم يعيد محاولة العودة إلى مكانه على الرغم من قسوة المسارات المتعرجة.

انضممت إلى هذه الجماعة، فوجدت النساء يندبن على أزواجهن ممن خرجوا في قوارب لصيد الأسماك أو المحار، ظنًّا منهن أن القوارب قد انقلبت من دون أن يتمكنوا من الوصول إلى مكان آمن. وكان من بين هذه الجماعة عدد من البحارة القدامى يهزون رؤوسهم زائغي الأبصار بين الماء والسماء، يتمتمون إلى بعضهم. أما أصحاب السفن فقد لاحوا منفعلين قلقين، كما تجمع الأطفال معًا ناظرين إلى الوجوه الأكبر سنًّا. لم يبعد القلق عن البحارة الأقوياء، فأخذوا يراقبون البحر عبر مناظيرهم وقد احتموا بملاذ يعصمهم، كما لو أنهم يعاينون عدوًّا.

استطعت أن أجد لنفسي مكانًا لأنظر إلى البحر الهائل، فراعني هياج الريح العاتية، والحجارة المتطايرة، والرمال المتناثرة، كما أربكتني ضوضاؤه المفزعة. كانت أمواجه الشاهقة التي تتدحرج من أعلى ارتفاع لها منزلقة على الشاطئ، تبدو كما لو أنها ستبتلع البلدة. تراجعت الأمواج إلى الوراء بصوت أجش، فبدا أنها تجرف كهوفًا عميقة على الشاطئ، أو كما أنها ودت لو قوضت الأرض وابتلعتها. رعدت عواصف ذات رؤوس بيضاء، ثم تحطمت متكسرة إلى أشلاء قبل وصولها إلى الأرض، بدا أن كل جزء من أشلائها يمتلك القوة الكاملة لغضب العاصفة كلها، إذ اندفعت متناثرة ثم تجمعت لتكوين وحش عاصف آخر. انمحت التلال المتموجة وتحولت إلى وديان، كما طمست الوديان المتموجة وتراكمت فوقها التلال، وإن ظهر أمامي طائر

وحيد فلكي يمر عبر التلال متجاوزًا العاصفة. ارتجفت حشود من المياه وهزت الشاطئ بصوتها العالي. ما إن تدحرجت الأمواج متخذة هيئتها الصاخبة حتى تغير شكلها ومكانها، وتغلبت عليها دفقة مياه أخرى وتسربت إلى مكان آخر بعيد. بدا الشاطئ المنتصب في الأفق يرتفع ثم يهبط بأبراجه ومبانيه، بينما تكاثفت فوقه الغيوم سريعًا، وقد خيل إليَّ أنني أرى الطبيعة بأسرها تتمزق وتثور.

لم أجد هام بين الناس الذين جمعتهم هذه الريح التي لا تُنسى - لأنها لم تزل تُذكر بينهم باعتبارها أعظم عاصفة شهدتها البلدة على سواحلها على الإطلاق - ومن ثَم شققت طريقي إلى منزله. كان باب المنزل مغلقًا، ولم أتلقَّ ردًّا من أحد بعد أن طرقته مرات، فذهبت ملتمسًا بعض الطرق والممرات الجانبية المؤدية إلى الفناء الذي كان يعمل فيه. قيل لي هناك إنه ذهب إلى لوستوفت، لتلبية عمل مفاجئ لإصلاح عدة سفن تتطلب براعته، إلا أنه سيعود في الصباح الباكر غدًا.

عدت إلى الفندق. اغتسلت وارتديت ملابسي وحاولت النوم دون جدوى، وكانت الساعة لم تزل الخامسة بعد الظهر. لم أكد أجلس لخمس دقائق بجوار نار المدفأة، حتى أقبل النادل يقلبها، وكانت هذه الحركة ذريعة للتحدث إليَّ. أخبرني أن ناقلتين للفحم قد غرقتا بكل ما عليهما من حمولة على بُعد أميال قليلة منا، وأن الناس قد شاهدوا بعض السفن الأخرى تصارع الأمواج وتحاول الاقتراب من الشاطئ في مشقة وعناء. قال : فليرحمهم الله ويرأف بالبحارة المساكين جميعًا لو أننا سنمضي ليلة أخرى مثل الليلة الماضية!

انقبضت روحي واشتد كربي، وأحسست خوفًا على هام لانشغاله بالعمل في هذه الظروف الاستثنائية. لقد تأثرت بالأحداث الأخيرة تأثرًا بالغًا لا أدرك مداه. كما أربكني تعرضي الطويل للرياح العاتية، مما أضفى نوعًا من التشويش على أفكاري ومخيلتي، بل فقدت التعاقب الواضح والمنطقي للوقت والمسافات. لم يجدر بي أن أتفاجأ لو أنني خرجت إلى المدينة متصورًا أنني سأقابل شخصًا ما أدرك أنه قاطن في لندن. أقول - إن جاز التعبير - إنني لم أنتبه إلى هذه الأمور، ومع ذلك كنت مشغولًا بذكريات جمة استثارها وجودي في هذا المكان بشكل طبيعي، فصارت تحضر أمام خاطري حية مؤثرة.

وفقًا لحالتي تلك، فقد ربطت مخيلتي البائسة -على الفور ورغمًا عني- بين كلام النادل عن السفن وقلقي على هام. راحت مخاوفي تهيئ لي أنه قد غرق في البحر في أثناء عودته من لوستوفت. نما هذا الشعور داخلي، حتى قررت العودة إلى فناء عمل هام قبل تناول العشاء، حتى أستطيع أن أسأل صانع القوارب هل يظن أن محاولة هام للعودة عن طريق البحر ستبوء بالنجاح أم الفشل؟ فإذا هو منحني أقل سبب يؤيد مخاوفي، فإنني سوف أذهب إلى لوستوفت وأمنعه من خوض البحر، بل سأحضره معي.

طلبت إحضار العشاء على عجل، ثم عدت إلى فناء العمل. لم أصل إلى رب العمل مبكرًا لأنه كان يحمل في يده فانوسًا وقد أوشك على إغلاق باب الفناء. ضحك بشدة عندما طرحت سؤالي عليه، وقال إنه لا داعي للخوف، وإن أي رجل ذي عقل أو من دونه، لن يؤذي نفسه أمام

هذه العاصفة المهلكة، ولا سيما هام بيجوتي الذي وُلِد ليكون ملاحًا.

كان حديثه منطقيًّا للغاية، لذا جعلني أشعرت بالخجل مما كنت مضطرًّا لفعله استجابة لانفعالي، ومن ثَم عدت إلى الفندق. ظلت أصوات الرياح تشتد، وأظن أنها راحت تتصاعد، حتى باتت كالعواء والزئير، فخلخلت الأبواب والنوافذ، وباتت تخور في جوف المداخن، وتهز أرجاء المسكن الذي يأويني، وثار البحر الهائج، فصار أكثر رعبًا مما كان عليه في الصباح، بالإضافة إلى ما حل عليه من ظلمة حالكة في هذه اللحظة، مما أضفى على العاصفة مظهرًا من الفزع الجديد يفوق بحقيقته الخيال.

لم أستطع تناول الطعام، ولم أقدر أن أجلس ساكنًا، كما لم أتمكن من مواصلة الصمود على هيئة بعينها. أحسست شيئًا بداخلي، كان على وشك أن يستجيب للعاصفة في الخارج. غاصت مخاوفي في ذاكرتي وخلخلت أعماقها. تواترت ذكرياتي مسرعة مع جريان البحر الجامح، ولم يزل قلقي من العاصفة وخوفي على هام يتصدران تفكيري دون سواهما.

رفعت عني مائدة العشاء من دون أن أتذوقه، لكني حاولت أن أنعش نفسي بكأس أو اثنتين من النبيذ، لكن دون جدوى. سقطت في سبات ثقيل أمام نيران المدفأة، من دون أن أفقد وعيي، سواء بسبب الضوضاء خارج الأبواب، أو بسبب الضجيج الذي يعتريني في الداخل. لقد طغيا كلاهما عليَّ، وتملكني رعب جديد لا يمكن تحديده كنهه. وما إن استيقظت -أو بالأحرى عندما تخلصت من الخمول الذي كان يقيدني

في مقعدي- حتى شعرت بجسدي بالكامل يهتز خوفًا من شيء غير مبرر وغير مفهوم.

رحت أتجول ذهابًا وإيابًا، ثم حاولت قراءة جريدة قديمة، بينما أنصت إلى أصوات الفزع حولي. نظرت إلى الوجوه والصور التي ترسمها أدخنة نيران المدفأة. أزعجتني دقات الساعة المتواترة على الحائط، إلى أن قررت في النهاية أن آوي إلى الفراش.

كان من بواعث الاطمئنان في ليلة مثل هذه، أن يخبرونا أن بعض خدم الفندق قد اتفقوا معًا على السهر حتى الصباح. أويت إلى الفراش، مرهقًا ومتثاقلًا للغاية، بل ما إن استلقيت حتى تلاشت كل مشاعري، كما لو أنني قد سحرت، ثم استيقظت منتعشًا تمامًا.

استلقيت على السرير لساعات طوال، أستمع إلى الريح والماء. ورحت أتخيل في هذه اللحظة، أنني قد سمعت صرخات منبعثة من البحر، ثم أتخيل بعدها بلحظات أنني سمعت صوت طلقات نارية بوضوح، ثم بعد ذلك بلحظات أتخيل أني سمعت صوت انهيار منازل البلدة. نهضت عدة مرات ونظرت إلى الخارج، إلا أنني لم أتمكن من رؤية أي شيء، باستثناء انعكاس ضوء الشمعة على زجاج النوافذ الزجاجية الباهتة، وكذلك صورة وجهي المتهالك الذي ينظر إليَّ من فراغ أسود.

تفاقم قلقي في النهاية إلى الحد الذي دفعني للإسراع في ارتداء ملابسي والنزول إلى الطابق السفلي. رأيت في المطبخ الكبير لحم الخنزير المقدد وحبال البصل متدلية من العوارض، بينما كان حراس الفندق مجتمعين في أوضاع مختلفة حول طاولة، بعد أن أبعدوها

عمدًا عن المدخنة الكبيرة، وقربوها من الباب. ما إن رأتني فتاة جميلة، حتى صرخت وقد انتصبت أذناها وتحجرت عيناها عند الباب، لأنها ظنت أنني عفريت. أما الآخرون فكانوا أكثر انتباهًا، بل صاروا سعداء لانضمام رفيق إليهم. سألني أحد الرجال، مشيرًا إلى موضوع ما كانوا يناقشونه، عما إذا كنت أظن أن أرواح البحارة الذين غرقوا قد خرجت هائمة في العاصفة أم لا.

أجرؤ على القول إنني بقيت في ذلك المكان لمدة ساعتين، فتحت بوابة الفناء ذات مرة ثم نظرت إلى الشارع الفارغ، فإذا بالرمال، والطحالب البحرية، ورقائق الزبد، يمرون بالقرب من المكان. اضطررت إلى طلب المساعدة حتى أتمكن من إغلاق البوابة مرة أخرى، حتى أصد بها الريح القاسية.

أحاطت غرفتي المعزولة كآبة قاتمة بعدما عدت إليها من جديد، لكنني صرت متعبًا فاستلقيت على السرير مرة أخرى. سقطت من برج اليقظة هاويًا إلى أعماق النوم السحيقة. يبدو أن العاصفة مكثت عالقة فترة طويلة في ذاكرتي، وعلى الرغم من أنني حلمت أنني في مكان آخر وسط مجموعة متنوعة من المشاهد، فإنها باتت تنفجر في حلمي دومًا. فقدت في النهاية قبضتي الواهنة على الواقع، فحلمت أنني مع صديقين عزيزين -لكنني لم أعرف تحديدًا من كانا- وقد حوصرنا في بلدة ما وسط هدير المدافع والقذائف.

كان صوت المدفع عاليًا ومتواصلًا، حتى إنني لم أستطع سماع شيء كنت أرغب في سماعه، ومن ثَم بذلت مجهودًا كبيرًا حتى

استيقظت. وجدتني في وضح النهار- حيث الساعة الثامنة أو التاسعة صباحًا - ولم تزل العاصفة مستعرة بدلًا من المدافع التي راودتني في أحلامي، وأدركت أن شخصًا يطرق بابي ويناديا.

صرخت: «ما الأمر؟».

«إنه مشهد لحطام، قريب منا».

نزلت من السرير وسألت: «أي حطام تقصد؟».

«إنها سفينة شراعية كانت قادمة من إسبانيا أو البرتغال، محمَّلة بالفاكهة والنبيذ. أسرع يا سيدي، إذا كنت تريد رؤيتها. من المحتمل أنها ستدنو من الشاطئ، وتتحطم في أي لحظة».

انطلق الصوت المتحمس يصرخ فوق درجات السلم. فتلحفت بملابسي بأقصى سرعة ممكنة، ثم ركضت إلى الشارع.

رأيت عدة أشخاص قد سبقوني، وإذا بهم يركضون جميعًا في اتجاه واحد نحو الشاطئ. ركضت بالطريقة نفسها، متجاوزًا عددًا لا بأس به من هذه الجماعة، وسرعان ما صرت في مواجهة البحر الهائج.

كانت الرياح قد هدأت قليلًا في هذا الوقت، وإن لم تكن أكثر صخبًا من المدافع التي راودتني في حلمي، فقد تضاءلت أصوات ستة مدافع من بين المئات بعد هزيمتها. أما البحر، فقد بدا أكثر فزعًا مما كان عليه طوال الليل، بل أشد رهبة عما رأيته آخر مرة. كان مشهد ارتفاع الأمواج وانتفاخها، وتراكبها فوق بعضها ثم تتابعها في اصطفاف لا نهاية له، يلوح أكثر رعبًا وإثارة للفزع. كان من الصعب سماع أي شيء سوى

دوي الرياح والأمواج. مكثت وسط الزحام، والفوضى التي لا توصف، بينما أحاول جاهدًا أن أتماسك للصمود في وجه هذا الطقس. كنت في حالة من الاضطراب والتزعزع، حتى إنني نظرت إلى البحر بحثًا عن الحطام، فلم أرَ شيئًا سوى رؤوس الأمواج العظيمة تزيد من زبدها. كان يقف بجواري رجل ملاح يرتدي نصف ملابسه، وقد أشار بذراعه العارية -يعلوها وشم على هيئة سهم، أشار في اتجاه يده نفسها- منبهًا لي نحو اليسار. ويا الله! لقد أبصرت السفينة تدنو منا للغاية.

تحطم صاري السفينة الذي كان يعلوها بنحو ستة أو ثمانية أقدام من سطحها، وظل منحنيًا ومثبتًا على جانبها، مشتبكًا في عدد من الأشرعة والحبال المتناثرة. حل هذا الخراب كله، بينما راحت السفينة تهتز وتضرب من دون توقف ولو للحظة واحدة، وبعنف لا يمكن تصوره تمامًا، بل كاد صاريها المهشم أن يغرقها. حاول البحارة قطع هذا الجزء من الحطام ورميه بعيدًا، بعد أن مالت السفينة. أبصرت البحارة بوضوح وهم يعملون بالفؤوس، وانتبهت لواحد منهم ذي شعر طويل مجعد، كان نشيط الحركة مميزًا من بين البقية. في هذه اللحظة انبعثت صرخة عظيمة مدوية من الشاطئ رن صداها فوق الريح والماء، إذ ثار البحر وراح يكتسح الحطام المتدحرج عابثًا وملقيًا بالرجال، والشراع، والبراميل، والألواح الخشبية، والحواجز في موجه الغاضب، كما لو أنها أكوام من الألعاب تنهار في موجة من الغليان.

ظل الصاري الثاني قائمًا يحمل شراعًا ممزقًا، وبجانبه ثلة من الحبال المتشابكة والمقطوعة يرفرف فوقها جيئة وذهابًا. قال البحار نفسه ذو

الوشم بصوته الأجش، وقد اخترق أذني، إن السفينة قد ارتطمت مرة واحدة، ثم ارتفعت وارتطمت مرة أخرى. فهمت مما قاله أن السفينة قد انشقت. استطعت إدراك الأمر بسهولة لأن التدحرج والتلاطم كانا هائلين للغاية، بحيث يتعذر على أي عمل بشري أن يواجهه لفترة طويلة. ظل البحار يتكلم، حتى سمعنا صرخة أخرى مروعة قادمة من الشاطئ، إذ ظهر أربعة رجال متشبثين بحطام الصاري المتبقي، وكان يتقدمهم ذاك الرجل النشيط ذو الشعر المجعد.

اعتلى متن السفينة جرسًا. كانت السفينة تتمايل وتتحطم كما لو أنها مخلوق يائس مدفوع بالجنون، فيبدو لنا سطحها بالكامل في هذه اللحظات، ثم تدور مترنحة نحو الشاطئ، فلا يبدو منها سوى باطنها، وإذا بها تثور بعنف بين أمواج البحر، فيدق الجرس فوقها كما لو أن صوته يعلن عن نهاية هؤلاء الرجال التعساء ممن حملتهم الريح نحونا. فقدنا السفينة مرة أخرى، ثم لاحت لنا مجددًا. اختفى عن أبصارنا رجلان، فاشتد الفزع بين الواقفين على الشاطئ. تأوه الرجال واعتصروا أيديهم، بينما صرخت النساء وأشحن بوجوههن. راح عدد من الواقفين يركضون ذهابًا وإيابًا على طول الشاطئ، ويصرخون طلبًا للمساعدة حيث لا مُعين. وجدت نفسي مندفعًا كواحد من هؤلاء الصارخين، بينما تتنازعني الحمى، طالبًا من البحارة الذين أعرفهم ألا يتركوا هذين المخلوقين الضائعين للهلاك أمام أعيننا.

تحدث إليَّ البحارة بنبرات مضطربة، ولا أعرف كيف استطعت مع هذه الكلمات القلائل أن أفهم أن قارب النجاة مأهول بكثير من

الشجعان منذ ساعة، ولكنهم لم يتمكنوا من فعل أي شيء، لأنه ما من إنسان يائس يجرؤ على محاولة خوض الموج الثائر حاملًا حبلًا لإقامة اتصال بين السفينة والشاطئ. ظننت أنه لم تتبقَّ أي فرصة للمحاولة، فإذا بي أرى حراكًا جديدًا بين الناس على الشاطئ، وإذا هم يتفرقون وقد ظهر هام يخترق صفوفهم متجهًا إلى الأمام.

أذكر أنني ركضت إليه، لأكرر مناشدتي واستغاثتي، وعلى الرغم من أنني كنت مشتتًا بسبب هذا المشهد الجديد المروع، فإنني انتبهت لنوع من التصميم في وجهه ونظرته إلى البحر -كان يبدو عليه المظهر نفسه الذي أتذكره له في الصباح الذي أعقب رحيل إيميلي- وأدركت مدى الخطر الذي ينوي الإقدام عليه. حملته إلى الابتعاد بكلتا ذراعي، وناشدت الرجال الذين كنت أتحدث إليهم ألا يستمعوا إليه، ولا يقدمون على هلاكه، فلا يدعوه يتحرك من فوق تلك الرمال.

ارتفعت صرخة أخرى على الشاطئ، فنظرنا إلى الحطام، فرأينا الشراع والصاري يوجهان ضربة عاتية إلى الرجل الذي مكث متمسكًا بالسفينة.

تصدر أمامنا هذا المشهد، ولاحت لنا مثابرة هذا الرجل اليائس الهادئ الذي اعتاد قيادة نصف الحاضرين قبل ذلك، فصارت مناشدتي كمن يأمل أن تكف الريح استجابة لطلبه. راح هام يقول لي بنبرة مرحة وهو يمسكني بكلتا يديه: «يا سيد ديفي، إذا حانت ساعتي، فإن قدري آتٍ لا محالة. وإذا لم تحِن بعد، فسوف أتجاوز هذه المحنة. فليحفظك الله ويبارككم جميعًا. يا رفاق، جهزوا عدتي، إنني منطلق».

أبعدوني من دون قسوة، بل بنوع من اللين، بحيث أحاط بي الناس حتى لا أتحرك عن مكاني. كما أدركت -على الرغم من شرودي- أنهم أقنعوني أنه عازم على الذهاب بمساعدة أو من دون مساعدة، وأنني يجب ألا أعترض سبل احتياطات السلامة الذي سيتخذها، فلا أزعج القائمين على معاونته. لا أعرف ماذا قلت أو كيف كانت إجابتهم لي. رأيت حركة سريعة على الشاطئ، وقد أخذ الرجال يجرون الحبال من سفينة أخرى، ويخترقون دائرة من الناس تخفي هام عن ناظري. رأيته بعد ذلك واقفًا بمفرده، مرتديًا رداء وسروال بحار، يحمل حبلًا في يده، أو كان متدليًا من معصمه، وآخر ملفوفًا حول خصره، وعدد من أفضل الرجال قد أمسكوا بطرف من الحبل قد ألقاه على مسافة قصيرة منهم فصار متراخيًا على الشاطئ عند قدميه.

لاح الحطام في عيني التي لم تعتد على رؤية هذه الأشياء، تفككت السفينة، فرأيتها مشطورة إلى نصفين، وقد لاحت لي حياة الرجل المعزول فوق الصاري كما لو أنها معلقة بخيط، إلا أنه مكث متمسكًا به. كان هذا الرجل يرتدي قبعة حمراء فريدة، لا تشبه قبعة البحارة، وكان لونها زاهيًا واضحًا بينما راحت الألواح القليلة الباقية تتناثر فتحول بينه والموت. دق جرس الموت معلنًا قدومه. رأينا جميعًا الرجل يلوح فوق السفينة، وإذا به يدق الجرس، تأكدت من أنه يفعل ذلك، وأحسب أنني شردت حينها بعد أن أعاد هذا المشهد إلى خاطري ذكرى قديمة لصديق عزيز.

وقف هام بمفرده يراقب البحر. حبس الرجال أنفسهم من خلفه، بينما تصاعدت أنفاس العاصفة أمامه. تجددت موجة كبيرة بعد

تراجعها، فنظر إلى الوراء إلى أولئك الذين يمسكون بالحبل الذي يُطوِّق جسده، ثم اندفع إثر الموجة بسرعة، وبعد لحظة واحدة كان يلوح مصارعًا للأمواج. أخذ يرتفع مع تلال الموج، ويهبط مع وديانها، ويضيع تحت الزبد، ثم يطفو مرة أخرى مع استواء الأرض. راح الرجال بعدها يشدون الحبال على عجل.

أبصرت هام جريحًا، إذ رأيت من موضعي دماءه تسيل، لكنه لم ينشغل بجرحه. أظهر نفسه على عجل ليأمرهم بأن يرخوا الحبل ليعطوه مساحة من الحرية -أو هذا ما فهمته من حركة ذراعه- ثم انطلق يخوض ما خاضه من قبل.

انطلق في هذه اللحظة قاصدًا الوصول إلى الحطام، حيث أخذ يرتفع مع تلال الموج، ويهبط مع وديانها، ويضيع تحت مشهد الزبد، ثم يطفو مرة أخرى مع استواء الأرض، ومحمولًا نحو السفينة، مجاهدًا بشجاعة وبسالة. لم تكن المسافة طويلة، إلا أن ثورة البحر وقوة الرياح جعلت النزاع مميتًا. اقترب في النهاية من الحطام، بل صار قريبًا للغاية، حتى إن ضربة قوية أخرى كانت كافية حتى يستطيع الوصول إليه ويتشبث به. تعاقبت موجة أخرى خضراء شاهقة كالجبال، واثبة من وراء السفينة، متجهة نحو الشاطئ، فإذا به يقفز في جوفها بقوة ثم اختفى مع السفينة.

أبصرت بعض الشظايا المتعرجة مع موج البحر، كما لو كانت شيئًا قد تحطم، حيث المكان الذي سحب البحارة منه هام. لاح الذعر على جميع الوجوه. لقد جذبوا هام حتى اقترب من موضع قدمي، فاقدًا للوعي هالكًا، ومن ثَم نقلوه إلى أقرب منزل. لم يمنعني أحد في هذه

اللحظات من الاقتراب منه، فمكثت بجواره. حاول القوم بكل الوسائل إعادته إلى الحياة، لكن الأمواج الهائلة كانت قد لطمته حتى الموت، وسكن قلبه الكريم إلى الأبد.

كنت جالسًا بجانب السرير، بعد أن تخلى عني الأمل وانقضى كل شيء، فإذا بصياد كان يعرفني منذ كنت أنا وإيميلي صغارًا يهمس باسمي عند الباب.

قال وقد بدأت الدموع تنهمر على وجهه المتهالك بسبب الطقس، وقد بدا شاحبًا بشفتيه المرتعشتين: «يا سيدي، هلا تفضلت إليَّ هنا؟».

كانت الذكريات القديمة التي أعيدت إلى ذهني قد انطبعت على نظراته. فسألته مذعورًا، متكئًا على ذراعه التي مدها نحوي:

«هل وصل جسده إلى الشاطئ؟».



قال: «نعم».

سألته بعد ذلك: «هل أعرفه؟».

لم يُجب، لكنه قادني إلى الشاطئ، في ذاك الجزء الذي بحثت فيه أنا وإيميلي صغيرين عن قذائف، وفي ذاك الجزء تحديدًا تناثرت بعض الشظايا الخفيفة من القارب القديم الذي تحطم في الليلة الماضية بفعل الرياح. رأيته ممددًا ورأسه على ذراعه -بين أنقاض المنزل الذي ظلمه- كما كنت أراه مرارًا في المدرسة.



# الفصل السادس والخمسون

## جرح جديد وآخر قديم

آه يا ستيرفورث. لقد تحدثنا في آخر مرة التقيتك فيها، في ساعة لم أكن أحسبها ساعة فراق. لم يكن من داعٍ لأن تقول: «تذكرني بأفضل صفاتي»، لقد فعلت ذلك دائمًا، فهل يمكنني أن أغير ذكرياتي الآن بعد هذا المشهد؟!

أحضر الناس نعشًا ووضعوه عليه وغطوه بعلم، ثم رفعوه وحملوه نحو البيوت. لقد عرفه كل الرجال الذين حملوه، ممن سافروا من قبل معه ورأوه مرحًا وجريئًا. حملوه وسط الزئير الوحشي، صامتين وسط جلبة تحيط بهم. حملوه إلى الكوخ حيث موضع الموت الذي سبقه بالفعل.

ما إن وضعوا النعش على أعتاب الباب، حتى نظر كل منهم إلى الآخر ثم نظروا إليَّ وتهامسوا. أدركت سبب ما فعلوه، حيث شعروا أنه ليس من الصواب أن يرقدوه في الغرفة الهادئة نفسها.

انطلقنا إلى البلدة ونقلنا الجثمان إلى الفندق. وما إن تمكنت من جمع شتات أفكاري، حتى أرسلت إلى جورام فطلبت منه أن يجهز لي وسيلة تنقل الجثمان إلى لندن في الليل. كنت أعلم أن العناية به والواجب الصعب المتمثل في التمهيد لوالدته لتعرف الأمر، شيئان لا يمكن أن أرتاح إلا بتنفيذهما بنفسي، كما كنت حريصًا على أداء هذا الواجب بإخلاص قدر استطاعتي.

اخترت أن أبدأ الرحلة في الليل، حتى لا يزعجني فضول الناس حين أغادر البلدة. خرجت من فناء الفندق تتبعني عربة تحمل الجثمان الذي صرت مسؤولًا عنه. كان الوقت قد اقترب من منتصف الليل، إلا أنني أبصرت عددًا لا بأس به من الناس في انتظارنا، وقد تناثروا على مسافات متقطعة على طول البلدة بل ورأيت المزيد على مسافة غير بعيدة من الطريق العام. شققت طريقي حتى لم يعد حولي سوى الليل الكئيب والفضاء المنفتح من حولي، ورماد صداقتي وصباي.

وصلت إلى هايجيت وقد لفني ظهر يوم خريفي رقيق. تعطرت الأرض فيه من أثر الأوراق المتساقطة، وتلك التي لم تسقط بعد، ذات الألوان البديعة من الأصفر والأحمر والبني، وقد علقت على الأشجار، وتخللتها أشعة الشمس المشرقة. تجاوزت الميل الأخير بينما أفكر فيما عليَّ فعله، وقد تركت العربة التي تبعتني طوال الليل في انتظار أوامري بمواصلة المسير.

وصلت إلى المنزل، وقد بدا لي كما أعرفه. لم تتزحزح ستائره. لم

يظهر أي أثر للحياة في فنائه الممهد الهادئ المؤدي إلى الباب المهجور. كانت الريح قد هدأت فلم يتحرك شيء من حولي.

لم أتشجع في البداية لأدق جرس الباب، لكنني ما إن دققته حتى بدا لي أن صوت رنينه قد عبَّر عن مهمتي. خرجت الخادمة الصغيرة تحمل في يدها المفتاح، وقالت وهي تنظر إليَّ بجدية بينما تفتح البوابة:

«أستميحك عذرًا يا سيدي. هل أنت مريض؟».

قلت: «لقد كنت مضطربًا للغاية، وأشعر بالتعب».

قالت: «هل وقع شيء يا سيدي؟ هل السيد جيمس...؟».

قلت: «صه، نعم، وقع شيء ما، وينبغي أن أقابل السيدة ستيرفورث. هل هي في المنزل؟».

ردت الفتاة بقلق قائلة إن سيدتها نادرًا ما تخرج في هذه الأوقات، بل لا تخرج أبدًا وإن انتظرتها عربة للتحرك. إنها قابعة في غرفتها، لا تقابل أحدًا، إلا أنها ستقابلني. قالت إن سيدتها في الطابق العلوي مع الآنسة دارتل. وسألتني ما الرسالة التي أود إبلاغها لها.

حذرتها بلهجة صارمة حتى تتوخى الحذر في سلوكها، وطلبت منها ألا تفعل شيئًا سوى إعطاء بطاقتي لها، وتقول إنني منتظر. جلست بعدها في غرفة الاستقبال -كنا قد وصلنا إليها في أثناء الحديث- وانتظرتها حتى تعود. انقشع الهواء اللطيف الذي طغى على الغرفة من قبل، بعد أن صارت النوافذ شبه مغلقة، كما هجرت القيثارة منذ عهد طويل وحتى اليوم. لاحت صورته في الطفولة معلقة أمامي، كما

أبصرت الصندوق الذي احتفظت فيه والدته برسائله. تساءلت عما إذا كانت تقرأها منذ لحظات، وهل ستكثر من الاطلاع عليها فيما بعد.

كان المنزل ساكنًا، حتى إنني سمعت وقع خطوات الفتاة الصاعدة على السلم، وكذلك سمعتها عند عودتها. حملت إليَّ رسالة مفادها أن السيدة ستيرفورث مريضة ولا تستطيع النزول، ولكنها تطلب المعذرة مني كما أنها ستسعد إن قبلت برؤيتها في الغرفة. لم تمضِ سوى لحظات قليلة حتى كنت واقفًا أمامها.

كانت جالسة في غرفته، لا غرفتها. أحسست بالطبع أنها قد أقامت فيها لتحيي ذكرياته. أحاطت نفسها بكثير من ألعابه القديمة وأعماله، فأبقت عليها كما تركها. إلا أنها تذمرت حين استقبلتني قائلة إنها تركت غرفتها لأنها لم تكن مناسبة لوضعها الصحي، وراحت بنظرتها المتعالية تصد أقل شك قد يراودني عن الحقيقة.

كانت روزا دارتل جالسة كعادتها على كرسيها. أدركت منذ اللحظة الأولى التي استقرت فيها عيناها الداكنتان على وجهي، أنها تعرف أنني أحمل إليهم نبأ سيئًا. ظهرت الندبة في تلك اللحظة، وقد تراجعت متوارية بالكرسي، حتى تنأى بوجهها بعيدًا عن ملاحظة السيدة ستيرفورث، ثم رمقتني بنظرة ثاقبة متفحصة، لم تتوارَ، ولم تتقلص قَطُّ.

قالت السيدة ستيرفورث: «يؤسفني أن ألاحظ أنك في حداد يا سيدي».

قلت: «إنني للأسف أرمل».

قالت: «إنك صغير جدًّا على هذا الفقد الكبير. إنني حزينة لسماع هذا النبأ. حقًّا، يؤسفني معرفة ذلك. أرجو أن يداويك الزمن».

قلت بينما أنظر إليها: «أرجو أن يصير الزمن رؤوفًا بنا جميعًا. يا عزيزتي السيدة ستيرفورث، علينا جميعًا أن نثق في ذلك حتى في أعنف مصائبنا».

أفزعتها نبرة الجد في حديثي وروَّعتها الدموع البادية في عيني. بدا أن مجرى أفكارها كله قد توقف وتبدل.

حاولت السيطرة على صوتي حتى أنطق اسمه بلطف، لكنه ارتجف. كررته هي، لمرتين أو ثلاث مرات بنبرة خافتة. ثم خاطبتني بهدوء مصطنع قائلة: «ابني مريض».

أجبتها: «مريض جدًّا».

«هل رأيته؟».

«نعم».

«هل تصالحتما؟».

لم أستطع أن أقول نعم، ولم أستطع قول لا. أدارت رأسها قليلًا نحو المكان الذي تقف فيه روزا دارتل عند مرفقها، وفي تلك اللحظة قلت لروزا بحركة من شفتي: «مات».

ربما لم تتشجع السيدة ستيرفورث على النظر خلفها، لتقرأ على شفتي ما لم تكن مستعدة بعد لمعرفته، بعد أن صار واضحًا جليًّا. لفت عينيها نحوي بسرعة، لكنني رأيت روزا دارتل ترفع يديها في الهواء بحدة من اليأس والرعب، ثم أقفلتهما على وجهها.

أما السيدة الوسيمة مثله -آه، مثله- نظرت نحوي نظرة ثابتة، ثم وضعت يدها على جبهتها. توسلت إليها وطلبت منها أن تهدأ، وتعد نفسها لتحمل ما سأقوله. وكان ينبغي أن أطلب منها أن تبكي، لأنها جلست كما لو أنها تمثال من الحجر.

تلعثمت قائلًا: «عندما كنت هنا آخر مرة أخبرتني الآنسة دارتل أنه راح يبحر هنا وهناك. كانت الليلة قبل الماضية ليلة مروعة في البحر. لو أنه كان في البحر تلك الليلة، بالقرب من ساحل الخطر؛ يقال إنه كان هناك. ولو أن السفينة التي شوهدت هي السفينة التي...».

قالت السيدة ستيرفورث: «يا روزا، تعالي إليَّ».

أقبلتْ إليها من دون تعاطف أو لين، بل لمعت عيناها كالنار وهي تواجه والدته، وابتدعت ضحكة مخيفة.

قالت: «والآن، هل أرضيتِ كبرياءكِ أيتها المجنونة؟ وقد كفَّر لكِ الآن بحياته! هل تسمعين؟ حياته!».

تراجعت السيدة ستيرفورث إلى كرسيها، ولم تصدر أي صوت سوى الأنين، وقد ألقت نظرتها عليها محملقة.

صرخت روزا، وقد ضربت صدرها في هياج: «انظري إليَّ، أصدري أنينكِ، وتأوَّهي، ثم انظري إليَّ»، راحت تضرب ندبتها قائلة: «انظري هنا، إلى صنيع ابنكِ الميت».

كان أنين الأم الذي تزفره من حين لآخر يزلزل قلبي. ظلت كما هي دومًا مختنقة الأنفاس صامتة. وقد راحت كعهدها تحرك رأسها حركة

يائسة عاجزة، من دون أن يتغير وجهها. انطبق فمها على أسنانها، كما لو كان فكها قد تصلب، وتجمد وجهها من الألم.

راحت روزا تقول: «هل تتذكرين متى فعل هذا بي؟ هل تتذكرين متى فعله، بما ورثه من طبعكِ، وبما ترعرع فيه من كبرياء وزهو، ففعل بي ما فعله وشوهني مدى الحياة؟ انظري إليَّ، وأثره على جبيني حتى أموت بسبب استيائه وحدته، هيا أصدري أنينكِ وتأوهكِ على صنيعكِ به».

ناشدتها قائلًا: «يا آنسة دارتل، أستحلفكِ بحق السماء...».

قالت بينما تلتفت نحوي بعينيها المشتعلتين كالبرق: «سأتحدث، فصه. أنتِ! أقول لكِ انظري إليَّ؛ أيتها الأم المزهوة بابن كاذب فخور! أصدري أنينكِ على تربيتكِ له، فلتئِنِّي على إفسادكِ له، فلتئِنِّي على خسارتكِ له، فلتئِنِّي على حالي».

اعتصرت الآنسة دارتل قبضة يدها، وارتجف بدنها البالي، كما لو أن غضبها أمات شيئًا فيها. ثم صرخت قائلة: «هل تستائين من عناده؟! هل تألمتِ من مشاعره المتغطرسة؟! لقد عارضتِهما بعدما شاب رأسكِ، في حين دسستِ هاتين الصفتين به بعدما أنجبتِه. إنكِ من ربيتِه من المهد ليصير ما شبَّ عليه، ومحوتِ ما كان ينبغي أن يتحلى به. هلا تلقيتِ مكافأتكِ الآن على ما مررتِ به من سنوات التعب؟».

قلتُ: «آه يا آنسة دارتل، عار عليكِ! يا لكِ من قاسية!».

قالت: «انتبه، إنني أقول إنني سأتحدث إليها، ولن تمنعني أي قوة على وجه الأرض ما دمت أقف في مكاني هنا. لقد سكت طوال هذه

السنوات، أفلم يحن دوري لأتكلم الآن؟ لقد أحببته أكثر منها». تحولت هنا بنظراتها إلى السيدة ستيرفورث وراحت تقول: «كنت أستطيع أن أحبه من دون مقابل. ولو أنني كنت زوجته، لصرت عبدة لنزواته في سبيل كلمة حب يهبها لي كل عام. كنت سأتقبل هذه الحياة، فمن يعرف نفسي أفضل مني؟ لكنكِ كنتِ صارمة، ومختالة، ومتحفظة، وأنانية. كان من الممكن أن أكرس له حبي، فيدهس أنانيتكِ التافهة تحت قدميه».

راحت تضرب الأرض وعيناها متوهجتان كما لو أنها تجسد كلامها بالفعل.

قالت وهي تضرب بيدها الندبة مرة أخرى من دون هوادة أو رحمة: «انظري هنا. لقد كبر إلى الحد الذي أدرك فيه أثر ما فعله. لقد فهم وندم وتأسف عنه. رحت أغني له، وأتحدث إليه، وأظهر الحماسة التي أشعر بها في كل ما يفعله. رحت أجتهد وأقبل على المعارف التي تثير اهتمامه، حتى انجذب إليَّ. صار نقيًّا وصادقًا وقد أحبني. نعم، لقد أحبني، أحبني حين أبعدكِ عن خاطره لفترة بعد خصام طفيف، فأخذني إلى قلبه».

قالت ما قالته بفخر ساخر في خضم جنونها -لأنه صار أقل وطأة- ولكنها ظلت تذكره بشغف، فراحت نيران حماساتها المتقدة تخبو بين لحظة وأخرى.

قالت: «صرت في منزلة الدمية -كان عليَّ أن أدرك ذلك، لكنه سحرني بمغازلته الصبيانية- صرت تافهة يتسلى بي في ساعة من ملل، ثم يطيح بي، ثم يعاود التقاطي ليلهو بي مرة أخرى، مثلما يتقلب مزاجه الهزلي تمامًا. سئم مني وكنت قد مللت. انقشع عنه هذا الخيال، ولم أحاول بعد هذه اللحظة تعزيز أي قوة أمتلكها، وإلا لأرغمته على أن

يتزوجني. لقد ابتعد كل منا عن الآخر من دون أن ينبس ببنت شفة. لعلكِ أدركتِ الفراق بيننا، ولم تأسفي له. صرت منذ ذلك الحين مجرد قطعة أثاث مشوهة بينكما؛ بلا أعين أو آذان أو مشاعر أو ذكريات. هل تئِنِّين؟ تئِنِّين على ما فعلتِه. لا تتوجعي على حبكِ له. أقول لكِ إنه قد مر بي وقت أحببته فيه أكثر منكِ».

وقفت وعيناها الغاضبتان اللامعتان تحدقان بوجه جامد، بل لا يلين مع تكرار الأنين كما لو أن وجهها مجرد صورة.

قلت: «يا آنسة دارتل، إذا كنتِ تحملين من القسوة ما لا يجعلكِ ترثين هذه الأم المنكوبة...».

ردت بحدة قائلة: «ومن يرثي لحالي؟ لقد زرعتْ كل هذا. دعها تئن من الحصاد الذي تحصده اليوم».

قلت: «وإذا كانت أخطاؤه...».

صرخت، وقد انفجرت باكية في حرقة وانفعال: «أخطاء! من يجرؤ على الإساءة إليه؟ لقد كانت روحه تعادل أرواح ملايين الأصدقاء ممن تنازل بالتعامل معهم».

أجبتها: «لا يمكن لإنسان أن يحبه أو يحفظ له ذكرى أكثر مني. وإني قصدت أن أقول إنه إذا لم ترثي لحال والدته، أو إذا كانت أخطاؤه التي نغصت عليكِ...».

صرخت وهي تمزق شعرها الأسود قائلة: «يا له من خطأ! لقد أحببته».

قلت: «إذا كانت أخطاؤه لا يمكن أن تُطرد من ذاكرتكِ في مثل هذه الساعة، فانظري إليها كشخص لم ترَه عينكِ من قبل، وقدمي لها بعض المساعدة».

مكثت السيدة ستيرفورث طوال هذا الوقت من دون أن تتغير ملامحها، بل بدا أنها غير قابلة للتغيير. ظلت صامتة وجامدة محملقة. تئن بالطريقة الغريبة نفسها من وقت لآخر، بحركة الرأس نفسها التي لا حول لها ولا قوة، من دون أن تبدي أي علامة أخرى أو أثر على الحياة. ركعت الآنسة دارتل أمامها فجأة، وشرعت ترخي لها ثوبها.

قالت وهي تنظر إليَّ وقد اختلطت ملامحها بمزيج من الغضب والحزن: «اللعنة عليك، لقد أتيت إلى هنا في ساعة نحس، اللعنة عليك، اذهب».

غادرتُ الغرفة، وأسرعت إلى قرع الجرس لتنبيه الخدم وإحضارهم. كانت الآنسة دارتل قد تناولت الجسد المتصلب بين ذراعيها، ولم تزل جاثية على ركبتيها تبكي فوقها، وتقبلها، وتناديها، وتهزها جيئة وذهابًا على صدرها كما تهدهد الطفل، وتحاول إيقاظ حواسها الخاملة بكل وسيلة. أما أنا، فلم أعد خائفًا من تركها، ومن ثَم خرجت مرة أخرى بلا ضوضاء منطلقًا بعد أن أخبرت قاطني المنزل بما جرى.

عدت في وقت لاحق من ذاك اليوم، وأرقدناه في غرفة والدته. قالوا لي إنها ظلت على حالها، ولم تتركها الآنسة دارتل. كان الأطباء حاضرين، وقد جربوا أشياء كثيرة معها، لكنها مكثت راقدة كصنم، باستثناء صوت أنين منخفض راحت تزفره بين حين وآخر.

مررت بأرجاء المنزل الكئيب، وقد أظلمت نوافذه. وأُغلقت نوافذ الغرفة التي كان يرقد فيها أخيرًا. رفعت يدي المتصلبة كالرصاص وقبضتها عند قلبي. وقد بدا لي العالم بأسره موتًا وصمتًا، لم يقطعه سوى أنين والدته.






# الفصل السابع والخمسون

## المهاجرون

كان عليَّ أن أفعل شيئًا آخر قبل أن أستسلم لصدمة هذه الانفعالات، إذ أخفيت ما حدث عن المقبلين على السفر، فتركتهم ينعمون برحلتهم بجهلهم السعيد. ولم أهدر الوقت في اتخاذ هذا القرار.

انفردت بالسيد ميكوبر في تلك الليلة، وأوليت إليه مهمة أن يحول بين السيد بيجوتي ونبأ الكارثة الأخيرة. وقد تعهد لي بأداء هذه المهمة بحماس قائلًا إنه سيمنع وصول أي صحيفة إلى السيد بيجوتي حتى لا تصل إليه الكارثة من خلالها.

قال السيد ميكوبر، وهو يضرب صدره: «إذا توغلت إليه هذه الكارثة يا سيدي، فإنها ستكون قد تسللت من هذا الجسد أولًا».

يجب أن أعقب هنا فأقول إن السيد ميكوبر راح يتكيف مع المجتمع الجديد، فاكتسب صفات جريئة من سمات القراصنة، لا بخروجه عن القانون تمامًا، بل في دفاعه العادل وإقدامه الشجاع. ولعل سلوكه الجديد قد يدفع المرء إلى الظن بأنه من أبناء البرية، وأنه قد اعتاد منذ

فترة طويلة على العيش خارج حدود الحضارة، وأنه على وشك العودة إلى براري وطنه.

كان مما زود نفسه به؛ بدلة كاملة من الجلد الزيتي، وقبعة من القش ذات تاج منخفض للغاية، مائل أو لنقل ملصق بها من الخارج. ظهر في هذه الملابس الخشنة، وقد تأبط تلسكوبًا مما يحمله البحارة عادة، وقد اتخذ خدعة ذكية تتمثل في رفع عينه إلى السماء راصدًا تقلبات الطقس المخيف، فكان أقرب إلى هيئة البحار بصورة تفوق هيئة السيد بيجوتي. وإن جاز لي التعبير، فإن أفراد أسرته جميعهم صاروا جاهزين للعمل. أبصرت السيدة ميكوبر وقد ارتدت قبعة متحجرة، أبعد من أن تتناسب مع وجهها، وقد ثبتتها بشريط يتدلى تحت ذقنها. تلحفت بشال لفته حولها -كما لفت عمتي نفسها بشال حين استقبلتني أول مرة- فبدت مثل حزمة، مثبتة برباط من الخلف يدور بخصرها وينتهي بعقدة قوية. أما الآنسة ميكوبر فقد واجهت الطقس العاصف، بالطريقة نفسها التي فعلتها والدتها، فأحكمت ملحفتها وربطتها من دون أن يفيض عن حبكتها شيء. أما ميكوبر الابن، فصار بالكاد مرئيًّا في قميصه الغرنزي[1]، وبدلته التي هي أسوأ ما رأيته من ملابس على الإطلاق. جهزوا بقية الأطفال كما لو أنهم لحوم محفوظة في علب حصينة. كان كل من السيد ميكوبر وابنه الأكبر يشمران عن أكمامهما حتى الرسغين، بحيث كانا مستعدين

---

(١) جزيرة إنجليزية، اشتهرت بأعمال الملاحة، لها قميص أزرق مميز للبحارة.

لتقديم يد المساعدة في أي عمل، بل وكانا على استعداد ليتلعثما بغناء أقصر أغاني العمل الحماسية منشدين: «يو... هيف... يو»[1].

هكذا وجدتهم أنا وترادلز عند حلول الظلام، متجمعين على درجات خشبية، كانت تعرف في ذلك الوقت باسم «سلالم هنجرفورد»، يراقبون رحيل سفينة تحمل بعض ممتلكاتهم على متنها. أخبرت ترادلز بالحادث المفزع، وقد صدمه ما وقع بشدة، ولكن لا شك في أنه قد أبقى الأمر سرًّا، وقد جاء لمساعدتي في هذه الخدمة الأخيرة، وهنا انفردت بالسيد ميكوبر جانبًا وطلبت منه أن يبقى على عهده محتفظًا بالسر.

استقرت عائلة ميكوبر في فندق صغير قذر، كان قريبًا من سلالم هنجرفورد في تلك الأيام، وكانت غرفه الخشبية البارزة تطل على النهر. لقد اجتذبت الأسرة المهاجرة اهتمامًا كبيرًا من أهل هنجرفورد ومن حولها، مما جعلنا سعداء بالاحتماء من نظرات الناس في غرفتهم. كانت الغرفة واحدة من الغرف الخشبية في الطابق العلوي، حيث يتدفق المد من تحتها. ظلت عمتي وأجنيس منشغلتين بإعداد بعض وسائل الراحة الإضافية، مثل تجهيز بعض الملابس للأطفال، وراحت بيجوتي تساعدهما في هدوء بالاستعانة بصندوق أدوات الحياكة القديم، والمقياس، وبقايا من الشمع أمامها، وغيرها من أدوات قد انقضى زمنها الآن.

لم يكن من السهل الرد على استفساراتها، بل كان من الصعب كذلك الهمس إلى السيد بيجوتي بعدما أحضره السيد ميكوبر، فأقول

---

(١) دندنة موسيقية كان يغنيها البحارة في رحلة عودتهم إلى الوطن.

له إنني قد سلمت الرسالة، وإن كل شيء على ما يرام. إلا أنني قمت بالأمرين كليهما، لأجعلهم سعداء. أظهرت أثرًا من الحزن الذي شعرت به، إلا أن فراقهم كان سببا كافيًا لتفسير حالتي.

سألت عمتي: «ومتى تبحر السفينة يا سيد ميكوبر؟».

رأى السيد ميكوبر أنه من الضروري تهيئة عمتي وزوجته لما سيحدث تدريجيًّا، فقال إنها ستبحر في وقت أقرب مما كان يتوقع أمس.

قالت عمتي: «أظن أن السفينة قد عادت إليك ببشارة جيدة؟».

أجابها قائلًا: «بالفعل جاءت يا سيدتي».

قالت عمتي: «هل ستبحر إذن في...؟».

أجاب: «يا سيدتي، لقد علمت أنه يجب علينا أن نكون على متن السفينة قبل السابعة من صباح الغد».

قالت عمتي: «عجبًا! يا له من وقت قريب جدًّا! هل التوقيت مناسب من الناحية البحرية يا سيد بيجوتي؟».

«حسنًا يا سيدتي، سوف تنزل إلى النهر مع هذا المد. فإذا جاء السيد ديفي وأختي إلى متن السفينة في جرافيسن بعد ظهر اليوم التالي، فسوف نلتقي بهم مرة أخيرة».

قلت: «وهذا ما سنفعله بكل تأكيد».

قال السيد ميكوبر وهو ينظر في وجهي متفكرًا: «وحتى ذلك الحين وإلى أن نصل إلى البحر، فإننا سنراقب أنا والسيد بيجوتي متاعنا

وأغراضنا». راح السيد ميكوبر يتنحنح لينظف حلقه بطريقته الرائعة حتى استكمل قوله قائلًا: «أما أنتِ يا إيما يا حبيبتي، فإن صديقي السيد توماس ترادلز همس إليَّ في أذني ملتمسًا أن يتمتع بامتياز، فطلب إعداد المكونات اللازمة لتركيب مقدار معقول من هذا المشروب المرتبط في أذهاننا بشكل غريب بلحم البقر المشوي في إنجلترا القديمة. إنني ألمح باختصار إلى شراب البانش. لو أننا في ظروف عادية، لترددت في طلب تساهل الآنسة تروتوود والآنسة ويكفيلد، إلا أننا...».

قالت عمتي: «لا يمكنني إلا أن أقول إنني سأشرب بكل سرور نخب كل السعادة والنجاح لك يا سيد ميكوبر».

قالت أجنيس بابتسامة: «وأنا أيضًا».

نزل السيد ميكوبر على الفور إلى الحانة، حيث تصرف كما لو أنه في منزله تمامًا، فعاد في وقت مناسب حاملًا إبريقًا يتصاعد منه البخار. لم يسعني إلا أن ألاحظ أنه كان يقشر الليمون بسكينه الذي يصل طوله قدمًا، ربما ليتناسب مع وطنه الجديد بشكل عملي. مسح سكينه فوق كم معطفه، في مشهد لا يخلو من التباهي. وجدت في هذه اللحظة السيدة ميكوبر والعضوين الكبيرين في الأسرة قد تزودوا بأدوات رائعة مماثلة، بينما كانت لكل طفل ملعقة خشبية خاصة به متصلة بجسمه بخيط قوي. أخذ السيد ميكوبر يتمثل حياته المقبلة، فراح يصب شراب البانش في شيء بدلًا من كأسين للسيدة ميكوبر وابنهما الأكبر وابنته. كان من الممكن أن يستخدم عددًا من الكؤوس بسهولة، لأن الرف الموجود بالغرفة كان ممتلئًا بالكؤوس. قدم الشراب إليهما في وعاءين قذرين صغيرين من

الصفيح. ولم أرَه قَطُّ يستمتع بأي شيء في حياته مثل استمتاعه بالشرب من وعائه الخاص، ثم أعاده إلى جيبه في نهاية المساء.

قال السيد ميكوبر بنبرة ارتياح بعد تخليه عن وسائل الرفاهية: «لقد تخلينا عن وسائل الرفاهية المتاحة في بلدتنا القديمة، إذ لا يمكن لسكان الغابة بالطبع أن يستخدموها ويشاركوا ترف سكان الأراضي الحرة».

هنا، جاء صبي ليقول إن السيد ميكوبر مطلوب في الطابق السفلي.

قالت السيدة ميكوبر وهي تزيح وعاء الصفيح: «ينتابني شعور أن طالبه هو أحد أفراد عائلتي».

عقب السيد ميكوبر بنبرة حادة معتادة عند حديثه عن هذا الموضوع فقال: «إذا كان الأمر كذلك يا عزيزتي، وكان القادم هو أحد أفراد عائلتكِ - سواء كان رجلًا أم امرأة أم جمادًا - وقد جعلنا ننتظر لفترة طويلة، فلعله سينتظر الآن حتى أستعد لمقابلته على مهل».

قالت زوجته بنبرة خافتة: «يا ميكوبر، إننا في مثل هذه الظروف...».

قال السيد ميكوبر: «يا إيما، كفي عن التوبيخ، فلا يجدر أن نقابل كل إهانة صغيرة بالتعليق[١]».

علقت زوجته قائلة: «إن الخسارة يا ميكوبر كانت من نصيب عائلتي، لا من نصيبك. إذا كانت عائلتي مدركة مبلغ الخسارة التي تعرضوا لها نتيجة لسلوكهم منذ عهد بعيد، ثم أرادوا اليوم مد يد التواصل من جديد فلا ينبغي أن نصدها».

---

(١) اقتباس من مسرحة يوليوس قيصر للكاتب الإنجليزي ويليام شكسبير.

قال: «فليكن ما أردتِ يا عزيزتي».

قالت زوجته: «إن لم تفعل ذلك مراعاة لهم، فليكن دافعك هو إرضائي يا ميكوبر».

أجابها قائلًا: «يا إيما، إن النظر إلى المسألة من ناحية إرضائكِ في مثل هذه اللحظات هو شيء لا يقاوم. إلا أنني لا أستطيع أن أتعهد إليكِ في هذه اللحظة أن أعانق أفراد عائلتكِ. أما هذا الفرد الحاضر الآن من عائلتكِ، فلن يجد قلبي باردًا أمام دفء مشاعره».

انسحب السيد ميكوبر، وغاب عنا فترة من الوقت. لم تكن السيدة ميكوبر مطمئنة تمامًا، بل خائفة من أن ينشأ خلاف بين السيد ميكوبر وقريبها. عاد الغلام نفسه إلى الظهور من جديد، وسلمني ملاحظة مكتوبة بقلم رصاص، كان عنوانها مكتوبًا بصيغة قانونية، وهو «هيب ضد ميكوبر». علمت من هذه الوثيقة أن السيد ميكوبر قد تعرض للاعتقال مرة أخرى. صار في أقصى نوبات اليأس، وقد طلب إليَّ أن أرسل له سكينه ووعاء مع حامل الرسالة، علَّهما يكونان نافعين له خلال الفترة القصيرة المتبقية له من حياته داخل السجن. طلب مني أيضًا أن أؤدي له عملًا أخيرًا كصديق، وهو أن ألحق أفراد أسرته بالعمل في مشغل الأبرشية، وأنسى أن مخلوقًا مثله قد عاش يومًا على الإطلاق.

أجبت بالطبع على هذه الرسالة بالنزول مع الصبي لدفع المبلغ المستحق، حيث وجدت السيد ميكوبر جالسًا في الزاوية، ينظر بحزن إلى الضابط المنفذ لمهمة القبض عليه. عانقني السيد ميكوبر عناقًا حارًّا بعد إطلاق سراحه. وأخرج دفتره ودون المبلغ المدفوع. أتذكر كم كان

دقيقًا في تدوين التفاصيل، فنبهني حين أهملت بلا قصد ذكر نصف بنس من بيان مجموع ما دفعته.

ذكره دفتر الجيب في كثير من المناسبات المهمة بعدد من المعاملات المالية. عدنا إلى الغرفة في الطابق العلوي - حيث أرجع سبب تأخره إلى ظروف خارجة عن إرادته - فأخرج من دفتره ورقة كبيرة مطوية، مما جعلها تبدو صغيرة، وكانت مغطاة تمامًا بأعمدة طويلة من الأرقام المكتوبة بعناية. لا يسعني بعد أن ألقيت عليها لمحة سريعة إلا أن أقول إنني لم أرَ عددًا من العمليات الحسابية لمثل هذه المبالغ طوال حياتي. يبدو أن هذه الحسابات كانت تبعات للفائدة المركبة على ما أسماه «المبلغ الأساسي المحدد بواحد وأربعين جنيهًا، وعشرة شلنات، وأحد عشر بنسًا ونصف»، وهي تراكمات لفترات حسابية مختلفة، وبعد دراسة متأنية لهذه الأرقام، وتقدير مفصل لموارده، توصل إلى استنتاج مفاده أن سداد هذا المبلغ المتمثل في الفائدة المركبة سيتم خلال عامين وخمسة عشر شهرًا وأربعة عشر يومًا، من ذلك التاريخ. كتب مذكرة بدقة كبيرة، سلمها إلى ترادلز على الفور كإبراء ذمة كاملة لديونه - بين الرجل وآخر - مع إقرار بالامتنان والعرفان.

قالت السيدة ميكوبر وهي تهز رأسها: «لا يزال ينتابني شعور بأن عائلتي ستظهر على متن السفينة، قبل أن نغادر في النهاية».

كان من الواضح أن السيد ميكوبر يحمل هذا الهاجس أيضًا، لكنه وضعه في وعاء من الصفيح وابتلعه.

قالت عمتي: «إذا سنحت أمامكِ الفرصة لإرسال رسائل إلى البلدة يا سيدة ميكوبر، فكما تعلمين، يجب أن تطمئنينا بأخباركِ».

أجابت: «يا عزيزتي آنسة تروتوود، سأسعد للغاية بالتفكير في أن إنسانًا ينتظر سماع أخبارنا. لن أتهاون في مراسلتكم. أحسب أن السيد كوبرفيلد نفسه، وهو الصديق القديم الذي يعرفنا، لن يعترض على تلقي أخبار عن إنسان كان يعرفه منذ أن كان التوأم صغيرين لا يفقهان شيئًا عن الحياة، أليس كذلك؟».

قلت إنني أرجو أن أطمئن على أخبارهم كلما سنحت لها فرصة بالكتابة.

قال السيد ميكوبر: «أرجو الله أن تتوفر لنا عديد الفرص. إن المحيط في مثل هذه الأوقات يصير مركزًا مثاليًّا لإبحار السفن، ونواجه كثيرين ممن يرغبون في دهسنا». استطرد السيد ميكوبر عابثًا بنظارته قائلًا: «إنه مجرد عبور، أما المسافة فليست سوى خيال تام».

أتصور في هذه اللحظة أن الأمر بدا غريبًا جدًّا، فكم كان غريبًا أن يتحدث رجل مثل السيد ميكوبر، عندما سافر من لندن إلى كانتربري فيقول إنه كمن يسافر إلى أقصى مجاهل الأرض، أما حين سافر من إنجلترا إلى أستراليا، إذ به يقول إنه ذاهب في رحلة قصيرة عبر القناة.

قال السيد ميكوبر: «سأسعى في هذه الرحلة لأن أغزل لكم حكاية بين حين وآخر، لأنني أثق بأن غناء ابني ويلكنز سيلقى قبولًا ممن يصطفون حول موقد السفينة، وحين ترتدي السيدة ميكوبر أرجلها

البحرية -إنه تعبير أرجو ألا يتضمن أي إحراج- فإنني أجرؤ على القول إنها ستغني لنا «تافلين الصغير». أظن أننا سنصادف في الأغلب سباع البحر ودلافين تلاحقنا أسرابًا. سأصف لكم كل ما سيحيط بنا من أشياء شيقة سواء مر بجانبنا أم أحاط بنا». استعاد السيد ميكوبر لهجته المرحة القديمة مستطردًا حديثه فقال: «باختصار، سيصير كل شيء مثيرًا للغاية، سواء هنا أم هناك، حين ينادي مراقب السفينة من برجه العالي فيقول: «آه، إنه البر»، وسنندهش أيما دهشة».

ما إن أنهى هذه الكلمات حتى تجرع محتويات وعاء القصدير الصغير، كما لو أنه أتم رحلته، واجتاز امتحانًا من الدرجة الأولى أمام السلطات البحرية العليا.

قالت السيدة ميكوبر: «إن ما أرجوه بالأساس يا عزيزي السيد كوبرفيلد، هو أن نعود مرة أخرى فنعيش مع بعض أفراد عائلتنا في بلدتنا القديمة. لا تعبس يا ميكوبر، إنني لا أشير الآن إلى عائلتي، ولكنني أقصد أحفادنا». هزت السيدة ميكوبر رأسها واستأنفت قائلة: «مهما كانت فروع شجرة الأسرة قوية، فلا يمكنني أن أنسى الشجرة الأم. أما حين يصل فرعنا إلى الشهرة والثروة، فإنني أود أن تتدفق هذه الثروة إلى خزائن بريطانيا».

قال السيد ميكوبر: «يا عزيزتي، يجب أن تغتنم بريطانيا فرصتها. لا بد أن أشير هنا إلى أنها لم تقدم لي الكثير قَطُّ، فلا أكن لها أي شيء خاصة من هذا القبيل».

قالت السيدة ميكوبر: «يا ميكوبر، إنك مخطئ في هذا التقدير. إنك

مسافر يا ميكوبر إلى هذا الأفق البعيد لتقوية العلاقة بينك وألبيون[1] لا لإضعافها».

أجابها السيد ميكوبر قائلًا: «يا حبيبتي، إنني أكرر عليكِ قولي بأن الارتباط الذي أقصده لا يضعني تحت وطأة هذا العبء من الالتزام الشخصي، إنني شديد الحساسية فيما يتعلق بتشكيل ارتباط آخر مع الماضي».

قالت السيدة ميكوبر: «يا ميكوبر، إنني هنا أقول لك مرة أخرى إنك مخطئ، فأنت تجهل مكامن قوتك يا ميكوبر. إن قوتك ستعزز في هذه الخطوة التي توشك على اتخاذها، العلاقة بينك وألبيون».

جلس السيد ميكوبر على كرسي مستندًا إلى مرفقيه وقد رفع حاجبيه، يبدو مترددًا بين رضاه عن نصف آراء السيدة ميكوبر ومعترضًا على نصفها الآخر، خاصة كلما كررت شيئًا منها، إلا أنه بدا مدركًا لحكمة قولها وبُعد نظرها.

قالت السيدة ميكوبر: «يا عزيزي السيد كوبرفيلد، أرجو أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته. يبدو لي أنه من المهم والضروري أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته منذ صعوده متن السفينة. وإن معرفتك القديمة بي يا عزيزي السيد كوبرفيلد، كفيلة بأن تخبرك بأنني لا أتمتع بالسلوك المتفائل الذي يتميز به السيد ميكوبر. إن شخصيتي - إن جاز لي التعبير - تتصف بالعملية. أعلم أن هذه رحلة طويلة. أعلم أنها ستنطوي على كثير من المضايقات ودروب

(١) استخدم أرسطو كلمة ألبيون كأحد أسماء بريطانيا، تُدُووِل الاسم بين بعض التجار، واستُخدم في كثير من الأعمال الأدبية.

من الحرمان. لا أستطيع أن أغلق عيني، فأغفل عن هذه الحقائق. إلا أنني أعرف أيضًا من يكون السيد ميكوبر، وأدرك القوة الكامنة فيه. ولذلك أرى أنه من الأهمية أن يشعر السيد ميكوبر بمكانته».

قال السيد ميكوبر: «يا حبيبتي، ربما تسمحين لي أن أشير إلى أنني لا أستطيع أن أشعر بمكانتي في الوقت الحاضر».

قالت: «لا أظن ذلك يا ميكوبر، بل لا أحسب ذلك صحيحًا على الإطلاق. يا عزيزي السيد كوبرفيلد، إن السيد ميكوبر ليس رجلًا عاديًّا. سيسافر السيد ميكوبر إلى بلد بعيد، حيث يُفهم ويُقدَّر تمامًا ولأول مرة. وإني لأرجو منه أن يتخذ مكانته عند مقدمة هذه السفينة، ويقول بعزم: «لقد جئت إلى هذا البلد لغزوه، هل تتحلون بالشرف؟ هل تقتنون الثروات؟ هل لديكم مناصب برواتب مجزية؟ دعهم يقدمون كل ما لديهم، لأن كل شيء لي»».

بدا لي السيد ميكوبر وهو يلقي نظرة خاطفة علينا جميعًا، أنه يحسب أن هذه الفكرة ممتازة.

قالت السيدة ميكوبر بنبرتها الجدلية: «أرجو أن يكون كلامي مفهومًا أمام السيد ميكوبر، فيصير قيصر ثرواته ومالكها. يبدو لي أن هذه المكانة يا عزيزي السيد كوبرفيلد، هي مكانته الحقيقية. إنني أود أن يقف السيد ميكوبر عند مقدمة هذه السفينة منذ اللحظة الأولى لهذه الرحلة، فيقول: «كفى تأخرًا. كفى خيبة أمل. كفى موارد محدودة. كان ذلك كله في البلد القديم، أما هذا، فبلدي الجديد. قدموا إليَّ تعويضًا. قدموا كل شيء أمامي»».

طوى السيد ميكوبر ذراعيه بطريقة حازمة، كما لو أنه يطوق مغزى الحديث.

قالت السيدة ميكوبر: «إذا فعل ذلك، وأدرك مكانته، ألست محقة إذا قلت إن السيد ميكوبر سيعزز علاقته ببريطانيا ولن يضعفها؟ سيصير شخصية عامة مهمة تنمو في النصف الآخر من الكرة الأرضية، فهل ستقولون لي إن تأثيرها لن يصير محسوسًا في الوطن؟ هل يمكن أن أكون متدنية التفكير حتى أتخيل أن السيد ميكوبر، الذي سيحمل عصا الموهبة والقوة في أستراليا، لن يصير شيئًا في إنجلترا؟ إنني مجرد امرأة، لكنني سأكون غير جديرة باحترام نفسي أو أبي، إذا كنت موسومة بمثل هذا الوهن السخيف».

إن قناعة السيدة ميكوبر بأن حججها لا تقبل الرد، قد دفعتها إلى التحدث بنبرة قوية أحسست أنني لم أسمع بها من قبل.

قالت السيدة ميكوبر: «وبالتالي، فإنني أتمنى ما هو أكثر من ذلك في فترة مقبلة. قد نعود فنعيش مرة أخرى على أرض بلادنا. لا أستطيع أن أخفي عن نفسي أنه من المحتمل أن يصير السيد ميكوبر صفحة من صفحات التاريخ. ومن ثَم يجب أن يكون ممثلًا في الدولة التي نشأ بها ولم تعطه عملًا».

قال السيد ميكوبر: «يا حبيبتي، من المستحيل ألا أتأثر بعاطفتكِ. إنني على استعداد دائم لمراعاة رأيكِ ومشاعركِ. ما قُدِّر سيكون. ومعاذ الله أن أحقد على بلدي في أي جزء من الثروة التي قد يجمعها أحفادنا».

قالت عمتي وهي تشير إلى السيد بيجوتي: «هذا كلام جيد، وإنني أشرب نخب محبتي لكم جميعًا، داعية لكم بوافر النعمة والنجاح».

وضع السيد بيجوتي الطفلين اللذين كان يرعاهما ويلاعبهما فوق ركبتيه، لينضم إلينا مع السيد ميكوبر والسيدة زوجته فنشرب نخبنا جميعًا. تصافح هو وأفراد أسرة ميكوبر بحرارة كرفاق، وأشرق وجهه البني بابتسامة. شعرت أنه سيشق طريقه، ويؤسس اسمًا جيدًا فيصير محبوبًا، ويذهب إلى حيث يريد.

سمحوا للأطفال أن يغمسوا ملاعقهم الخشبية في قدر السيد ميكوبر، وأن يشربوا نخبنا. ما إن قمنا بذلك حتى نهضت عمتي وأجنيس وودعنا المهاجرين. كم كان وداعًا مؤلمًا! راح الجميع يبكون، وقد تعلق الأطفال بأجنيس حتى اللحظة الأخيرة، بل تركنا السيدة ميكوبر المسكينة في حالة يرثى لها، فراحت تبكي وتنتحب على ضوء شمعة خافتة، لا بد أنها جعلت الغرفة تبدو من جانب النهر كما لو أنها منارة بائسة.

نزلت مرة أخرى صباح اليوم التالي لأراقب رحيلهم. كانوا قد غادروا في قارب في وقت مبكر نحو الساعة الخامسة صباحًا. كان هذا المشهد مثالًا رائعًا على الفارق الذي تحدثه هذه المواقف الفاصلة، فعلى الرغم من معرفتي بهذا الفندق المنهار والسلالم الخشبية، لم تتجاوز تاريخها الليلة الماضية فقط، فإن كليهما قد بدا لي كئيبًا ومهجورًا في هذه اللحظة بعد أن رحلوا بعيدًا.

ذهبت في عصر اليوم التالي مع مربيتي العجوز إلى جريفسيند. وجدنا السفينة في النهر محاطة بحشد من المراكب. تهب رياح مواتية

فتنتظر السفينة إشارة الإبحار من فوق صاريها. أسرعت إلى استئجار قارب، وانطلقنا به مجتازين عددًا من المراكب الصغيرة التي أحاطت بنا في دوائر، ثم صعدنا على متنها.

كان السيد بيجوتي ينتظرنا على سطح السفينة. أخبرني أن السيد ميكوبر قد قُبض عليه للتوِّ مرة أخرى -وكانت المرة الأخيرة- تنفيذًا لدعوى هيب، وأنه سدد المبلغ المطلوب امتثالًا لطلبي، وبالتالي قدمت إليه المبلغ الذي سدده له. انطلق السيد بيجوتي بنا بين طوابق السفينة، وقد انقشعت حينها أي مخاوف باقية لديَّ من سماعه أي شائعات عما حدث، خاصة بعد ظهور السيد ميكوبر مطلًّا من ظلام الحجرة، وقد تأبط ذراعه بجو من الصداقة والحماية، وأخبرني أنهما نادرًا ما افترقا عن بعضهما، منذ الليلة التي سبقت الأمس.

كان مشهدًا غريبًا بالنسبة لي، محاصرًا بظلام دامس، حتى إنني لم أستطع في البداية أن أتبين أي شيء، إلى أن اتضحت الصور أمامي بعد أن اعتادت عيني على الظلام شيئًا فشيئًا. بدا أنني أقف أمام لوحة من لوحات أوستاد[1]. تجلت أمامي العوارض الكبيرة والحواجز الضخمة، وحلقات السفينة الحديدية، وحجرات المهاجرين، والصناديق، والحزم، والبراميل، وأكوام الأمتعة المتنوعة، فكانت مضاءة من زاوية أو أخرى بفوانيس متدلية، أو يسقط عليها ضوء أصفر قد اخترق الأشرعة من أشعة النهار في مواضع أخرى. لاحت لي جماعات شتى تحاول أن

---

(١) الرسام إسحاق فان أوستاد وأخته الرسامة أدريان فان أوستاد، هولنديان الأصل، اشتهرا برسم لوحات يتخللها الظلام.

تقيم صداقات جديدة، فيتحدث كل منهم مع الآخر فيختلط الكلام والضحك، بالبكاء والأكل والشراب. استقر بعض الناس مع أمتعتهم من دون أن تتجاوز مساحتهم مواقع أقدامهم، وقد رتبوا مواضع أسرهم الصغيرة، فأجلسوا الأطفال الصغار على مقاعد أو كراسٍ قصيرة ذات مساند قزمية. أما الآخرون فراحوا يتجولون يائسين من أن ينعموا بمكان للراحة. أبصرت أطفالًا ممن لم يمضِ على أعمارهم سوى أسبوع أو أسبوعين، وعجائز من الرجال والنساء بظهور محنية، وقد لاح لي أن أعمارهم لن يبقى منها سوى أسبوع أو أسبوعين. رأيت فلاحين وحرَّاثًا أشداء يجرون تربة إنجلترا بأحذيتهم، وحدادين اصطحبوا فوق جلودهم عينات من السخام والدخان. يبدو أن كل سن وكل مهنة قد حُشرت من أناسها زمرة في هذه المساحة الضيقة بين الطوابق الصغيرة.

أدرت عيني في هذا المكان، فظننت أنني قد رأيت شخصًا جالسًا بجوار منفذ مفتوح، وقد جلس بالقرب منه أحد أطفال ميكوبر. بدا لي أن الجالس إيميلي، بعد أن لفت انتباهي أولًا، أن شخصية أخرى تودعها بقبلة. راحت تبتعد عنها بهدوء مختفية بين هذه الفوضى، وإذا بي أتذكر حينها أجنيس، ولكنني مع الحركة السريعة والفوضى وارتباك أفكاري، فقدت أثرها مرة أخرى. لم أدرك شيئًا سوى أن الوقت قد حان للانصراف بعدما نودي في جميع الزوار بمغادرة السفينة. رأيت مربيتي تبكي فوق صندوق بجانبي، ووجدت السيدة جامدج منشغلة بترتيب أغراض السيد بيجوتي، وقد عاونتها بعض الشابات اليافعات الملتفحات بأثواب سوداء.

قال السيد بيجوتي: «هل نسيت شيئًا أخيرًا يا سيد ديفي؟ هل تركت شيئًا ونسيناه قبل أن نفترق؟».

قلت: «نسينا شيئًا واحدًا؛ مارثا».

لمس كتف المرأة الشابة التي لمحتها، فإذا بمارثا واقفة أمامي.

صرخت: «فليحفظك الله أيها الرجل الطيب، هل ستصطحبها معك؟».

أجابت مارثا عنه بسيل من الدموع. لم أستطع قول أي شيء في هذه اللحظة، لكنني شددت على يده. وإذا كنت قد أحببت رجلًا وبجَّلته، فقد أحببت هذا الرجل وبجَّلته في أعماق روحي.

راح الغرباء ينقشعون عن السفينة بسرعة، وبقيت أعظم تجربة خضتها في حياتي. أخبرته ما عهد إليَّ به ذاك الفتى الراحل نبيل الروح لأقوله عند الفراق. تحركت مشاعره متأثرًا، ولكنه أثار دهشتي حين وجه إليَّ في المقابل عديدًا من رسائل المودة والندم لأحملها إلى تلك الآذان الصماء.

حان وقت الرحيل، فاحتضنته، وأخذت مربيتي الباكية فأسندتها إلى ذراعي، وانطلقت بعيدًا. ودعت السيدة ميكوبر المسكينة على متن السفينة. كانت حتى هذه اللحظة لم تزل تبحث عن أفراد من عائلتها مشتتة الانتباه، كما كانت آخر كلماتها لي أنها لن تتخلى عن السيد ميكوبر أبدًا.

تجاوزنا السفينة ونزلنا من جانبها إلى قاربنا، ووقفنا على مسافة قصيرة لنرى السفينة وهي تشق مسارها. كان الغروب هادئًا وساطعًا،

يشتعل بضوئه الأحمر. لاحت أمامنا الصواري المدببة منثورة أمام هذا الوهج. يا له من مشهد فاتن ومؤلم، ومفعم بالأمل! لم أرَ طوال حياتي قَطُّ مشهدًا يشبه السفينة المجيدة الشامخة حين لاحت منبسطة على صفحة المياه المتدفقة، تدب فوق متنها الحياة، بحشود مزدحمة، كأن على رؤوسهم الطير، ساكنين للحظة قبل أن تبحر.

لم يدُم هذا السكون سوى لحظة، فما إن ارتفعت الأشرعة مع الريح، وبدأت السفينة في التحرك، حتى تعالت من القوارب ثلاثة هتافات مدوية، أجاب عليها ركاب السفينة بأن رددوا هذه الهتافات، ثم تردد صداها وأعاد الصدى كرته. انفجرت دقات قلبي متسارعة بعد سماعي أصواتهم، ورأيت التلويح بالقبعات والمناديل، ثم رأيتها!

رأيتها واقفة بجانب عمها ترتجف على كتفه. أشار إلينا بيد شغوفة، فرأتنا هي كذلك، ولوَّحت لي بوداعها الأخير. آه يا إيميلي، أيتها الفاتنة المطرقة، فلتتشبثي به بكل ما أوتيتِ من ثقة في قلبكِ المجروح، لأنه تعلق بكِ بكل قوة حبه العظيم.

رأيتهما محاطين بالضوء الوردي، واقفين عاليًا على سطح السفينة. ظل كل منهما متشبثًا بالآخر حتى اختفيا معًا. حل ظلام الليل على تلال كنت، وقد عاد بنا القارب إلى الشاطئ، فإذا بنا نهبط البر وسط ظلام دامس.



# الفصل الثامن والخمسون

## غياب

كانت ليلة طويلة ومظلمة. اجتمعت عليَّ فيها أشباح آمال كثيرة، فراحت تطاردني كما تداعت عليَّ ذكريات غالية، وعديد من الأخطاء، وسيل من الأحزان والندم والإخفاقات.

سافرت مبتعدًا عن إنجلترا. لم أدرك في هذا الوقت مدى قوة الصدمة التي سأتحملها. هجرت كل عزيز ومضيت بعيدًا، وظننت أنني سأتحمل الفراق، وأن كل شيء قد ولَّى. كنت مثل رجل في ميدان المعركة يتلقى جرحًا مميتًا، ولا يدرك إصابته، هكذا تُركت وحدي مع قلبي المصاب، من دون أن أعي أي شيء عن الجرح الذي أناضله.

أدركت مصابي على مهل، شيئًا فشيئًا، حبة تلو الأخرى، إلى أن تعمَّق شعوري الكئيب الذي سافرت به إلى الخارج وأخذ يتسع في كل ساعة. شعرت في البداية بالخسارة والحزن، ولم أستطع تمييز شيء سواهما. تفاقمت مشاعري بدرجات غير محسوسة، إلى أن صارت وعيًا يائسًا بكل ما فقدته، من الحب والصداقة والاهتمام، وكل

ما تحطم. فقدت إيماني الأول، وحبي الأول، وتهدمت قلعة حياتي بأسرها. لم يتبقَّ سوى فراغ من هلاك وحطام، يحيط بي من كل جانب من دون استثناء حتى لتدركه في الأفق المظلم.

لم أكن أعلم ما إذا كان حزني أنانيًّا أم لا. لقد حزنت على زوجتي الطفلة، بعد أن اقتُطفت زهرة شبابها وهي لم تزل غضة صغيرة للغاية. لقد حزنت على إنسان كان له أن ينال حب وإعجاب آلاف من البشر، كما فاز بحبي منذ عهد طويل. حزنت على القلب الكسير الذي وجد راحته في أعماق البحر الهائج، وعلى بقايا مبعثرة لمنزل بسيط سمعت بين أرجائه صوت هبوب رياح الليل في طفولتي.

لم يعد يراودني أي أمل في النجاة مرة أخرى من هذا الحزن المتراكم الذي وقعت فيه. رحت أتجول من مكان إلى آخر، حاملًا عبئي معي في كل موضع، إلى أن شعرت بثقله في هذه اللحظات، وقد انزلقت تحت وطأته، فأخبرت قلبي بأن وطأة هذا الحمل لا يمكن أن تخف أبدًا.

أحاط بي اليأس واشتد للأسوأ حتى ظننت أنني لن أنجو إلا بالموت. تصورت في بعض الأحيان أنني أرغب في الموت في وطني. مضيت بالفعل في طريقي، حتى أتمكن من العودة إليه قريبًا. كنت في أوقات أخرى أفكر في الانتقال إلى بلدة بعيدة، ساعيًا وراء شيء لا أدرك كنهه، محاولًا ترك ما أجهله ورائي.

ليس في إمكاني أن أتتبع مراحل يأسي التي توالت عليَّ مرحلة تلو الأخرى. أما أحلامي فلا يمكن وصفها إلا بصورة ناقصة وغامضة، وحين ألزم نفسي بالنظر إلى الوراء لتذكر هذه الفترة من حياتي، يبدو

لي أنني أتذكر حلمًا. أرى نفسي أتجول بين المدن الأجنبية والقصور والكاتدرائيات والمعابد والمتاحف والقلاع والمقابر والشوارع الرائعة - تلك الأماكن القديمة المرتبطة بالتاريخ والخيال والفن - فأشعر أنني حالم. أحمل عبئي المؤلم متجولًا، من دون أن أدرك شيئًا مما حولي لأنه يتلاشى أمامي. جعلتني الظلمة التي اكتنفت قلبي الهش أشعر بالفتور تجاه كل شيء، باستثناء حزني الثقيل. اسمحوا لي أن أنظر إلى مصابي -كما فعلت أخيرًا، أحمد الله- فأصحو من حلمه الطويل الحزين البائس إلى الفجر.

سافرت لأشهر عديدة حاملًا هذه السحابة القاتمة في وجداني. منعتني بعض الأسباب العمياء من العودة إلى وطني، وقد ظلت تعتمل في داخلي عبثًا حتى تجد لنفسها تعبيرًا أوضح، ومن ثَم رحت أطوف البلدان. كنت أسافر في بعض الأحيان من مكان إلى آخر، في توتر لم يسمح لي بالنزول في أي موضع، وكنت أحيانًا أخرى أمكث طويلًا في مكان واحد. كنت بلا هدف، ولم أشعر بروح في داخلي ترشدني أينما حللت.

كنت في سويسرا، بعد أن تركت إيطاليا، مجتازًا أحد الممرات العظيمة لجبال الألب، وانطلقت منذ ذلك الحين مع أحد المرشدين بين طرق الجبال الفرعية. لست أعرف هل كانت تلك العزلة المفزعة قد أسرت بشيء إلى قلبي أم لا. شعرت بالسمو والإجلال لهذه المرتفعات والمنحدرات الرهيبة، والسيول الهادرة، والأرض المفروشة بالجليد والثلج، لكنني لم أدرك منها شيئًا في تلك اللحظة سوى مظهرها.

وصلت إلى وادٍ في إحدى الليالي قبيل الأصيل، فنزلت به لأستريح. نزلت إليه سالكًا إحدى الطرق المتعرجة بجانب الجبل، بعد أن رأيته يتلألأ أسفلها. أظن أنني أحسست بنوع من الجمال والهدوء، كنت قد فقدتهما منذ عهد طويل. انتابني شعور لطيف أيقظ طمأنينة قلبي فراحت تحركه على مهل بين جوانحي. أتذكر أنني اجتزت المكان مرة واحدة، بمسحة من حزن لم تكن قد فارقتني بعد، لكنني لم أكن يائسًا بالكامل. أتذكر أنني رجوت أن يسري تغيير طيب بداخلي.

وصلت إلى الوادي، حيث شمس المغيب ساطعة فوق قمم بعيدة تعلوها الثلوج التي أحاطت بالوادي كما الغيوم الأبدية بلا نهاية. كانت سفوح الجبال ووديانًا تقع فيها قرى صغيرة خضراء غنية، وقد نمت غابات من أشجار التنوب الداكنة فوق هذا الغطاء النباتي اللطيف، وقد شقت بطولها الجليد البارد فحالت بينها والانهيار الجليدي. لاحت مجموعة من المنحدرات الصخرية فوق الوادي، وتناثرت صخور رمادية مع جليد لامع ومراعٍ خضراء نضرة، امتزجت كلها تدريجيًا مع الثلج فتوَّجها تتويجًا. لاحت بقعة هنا وأخرى هناك على جانب الجبل، فكانت كل نقطة صغيرة منها منزلًا. كانت عبارة عن أكواخ خشبية منعزلة، تتضاءل أمام الارتفاعات الشاهقة بحيث بدت صغيرة للغاية مثل الدمى، بل لاحت القرية بأسرها مثل لعب متناثرة، وكذلك القرية المتمركزة في الوادي. كان جسرها الخشبي يعلو الجدول الذي يتدفق فوق الصخور المكسورة، ويهدر بعيدًا بين الأشجار. ينبعث من الفضاء الهادئ صوت غناء بعيد، حيث يغني الرعاة، إلا أنني أبصرت ذات مساء

سحابة ساطعة تسبح في منتصف الفضاء بامتداد جانب الجبل، فظننت أن غناءً ينبعث منها، ولم تكن موسيقاه أرضية. أحسست فجأة في هذا الصفاء أن الطبيعة المبجلة تتحدث إليَّ، فتهدهدني لأضع رأسي المتعب على العشب، وإذا بي أبكي بكاء لم أعهده قَطُّ منذ أن ماتت دورا.

وجدت حزمة من الرسائل تنتظرني قبل بضع دقائق، فخرجت من القرية لقراءتها إلى أن يُعد العشاء. كان عدد من رسائل أخرى قد فاتني كذلك، من دون أن أتلقى أيًّا منها منذ عهد طويل. كنت أخط سطرًا أو سطرين، لأقول إنني بصحة جيدة، أو إنني قد وصلت إلى مكان ما، ثم لم أعد أجد عزمًا أو مثابرة لكتابة الرسائل منذ أن غادرت وطني.

كانت حزمة الرسائل بين يدي. فتحتها وقرأت رسالة أجنيس. علمت أنها صارت سعيدة وموفقة فيما كانت ترجوه. كان هذا كل ما أخبرتني به عن نفسها، أما بقية الرسالة فعني.

لم تسدِ إليَّ أي نصيحة، ولم تحثني على أداء أي واجب. أخبرتني بطريقتها الخاصة عن مقدار ثقتها بي. قالت إن رجلًا بطبع مثل طبعي يعرف كيف يُحوِّل البلاء إلى خير، وإنها تعرف كيف ستعمل الأزمات والشجون على تعزيزه وتقويته. كانت متأكدة من أنني على الرغم من الحزن الذي مررت به وعلى الرغم من مصابي، فإنني سأكتسب عاطفة أقوى وأسمى. لقد عظمت من شهرتي التي حققتها وتطلعت إلى زيادتها، وقد عرفت يقينًا أنني سأنميها. كانت تعلم أن الحزن في داخلي لا يمكن أن يكون ضعفًا، بل قوة متقدة. وكما أدت قوة احتمالي أيام طفولتي دورها وقد صرت ما أنا عليه، فإن المصائب الأعظم ستعذبني

وتصقلني حتى أكون أفضل مما كنت. وهكذا، كما علموني يجب أن أعلم الآخرين. أودعتني في يد الله الذي قبض حبيبتي البريئة إلى جوار راحته، وأكدت محبتها الأخوية لي، والتي لم تزل متقدة، وأنها بجانبي دومًا حيثما أريد الذهاب، فخورة بما قمت به، بل أشد فخرًا بما قدر لي فعله.

ألصقت الرسالة بصدري وفكرت في حالي التي كنت عليها منذ ساعةٍ سمعت الأصوات تتلاشى، وأبصرت سحابة الليل الهادئة تتضاءل، وقد تلاشت في عيني كل ألوان الوادي، وانقشع الثلج الذهبي على قمم الجبال حتى صار جزءًا بعيدًا من سماء الليل الباهتة. أحسست أن ظلمة الليل توارت عن خاطري، وأن ظلاله كلها قد صفت، وأنه لم يخلق اسم للحب الذي حملته لها، وقد صارت أعزَّ عليَّ وأحب منذ ذلك الحين من أي وقت مضى.

قرأت رسالتها عدة مرات، وكتبت إليها قبل أن أنام. أخبرتها بأنني كنت في حاجة ماسة إلى مساعدتها، وأنني لولاها لم أكن، بل لولاها لما كنت قَطُّ هذا الإنسان الذي تصفه. لقد ألهمتني أن أكون هذا الرجل وسأحاول أن أكونه.

لقد حاولت. لم يتبقَّ سوى ثلاثة أشهر أخرى حتى أكمل عامًا منذ بداية حزني. عقدت العزم على ألا أتخذ قرارًا حتى تنقضي الأشهر الثلاثة، على أن أستمر في المحاولة. كنت أعيش في هذا الوادي أو أتنقل بجواره طوال الوقت.

قررت بعد مرور ثلاثة أشهر البقاء بعيدًا عن وطني لبعض الوقت،

وأن أستقر في الوقت الراهن في سويسرا، التي صارت عزيزة على نفسي بعد ذكرى تلك الأمسية، فأستأنف الكتابة وأتقدم في العمل.

لجأت إلى نصيحة أجنيس وما أثنت به عليَّ. فتشت عن فطرتي، ولم يكن بحثي عبثًا. اعترفت لقلبي بحق البشرية عليَّ، فاستعدت الإحساس بالواجب بعد أن كنت قد تملصت منه مؤخرًا. لم يمضِ وقت طويل حتى كوَّنت عددًا من الأصدقاء في الوادي، يقارب عدد أصدقائي في يارموث. كنت قد غادرت الوادي قبل حلول الشتاء وذهبت إلى جنيف، ثم عدت إليه في الربيع، فكان لاستقبال الأصدقاء وتحيتهم الودية صوت مألوف على مسامعي، على الرغم من أن كلماتهم لم تكن إنجليزية.

داومت على العمل منذ الصباح وحتى وقت متأخر من اليوم في صبر وجد. كتبت قصة هادفة نابعة من خبرتي، لا من محض الخيال، ثم أرسلتها إلى ترادلز، فقام بترتيب نشرها مقابل مبلغ مجزٍ للغاية بالنسبة لي. بدأت الأخبار المتزايدة عن شهرتي تصل إليَّ من المسافرين الذين أصادفهم. استأنفت العمل بعد قسط من الراحة والتغير بحماستي القديمة، فشرعت في كتابة قصة جديدة، كانت قد استحوذت عليَّ بقوة. رحت أشعر بحماستي تتقد وتزداد مع تقدمي في العمل، وقد استجمعت طاقاتي القصوى لإتمامه بصورة لائقة. كان هذا العمل هو ثالث أعمالي الأدبية. لم أكن قد أتممت كتابة نصفه، حتى فكرت في فترة راحة في أمر العودة إلى الوطن.

عكفت على الدراسة والعمل الدؤوب لفترات طويلة، وعودت نفسي على ممارسة التمارين الرياضية القوية. استعدت صحتي تمامًا

بعد أن عانيت من ضعف شديد حين غادرت إنجلترا. رأيت الكثير، وتجولت بين بلدان شتى، وأرجو أن تكون دائرة معارفي قد اتسعت.

لقد ذكرت هنا كل ما ظننت أنني أرغب في ذكره الآن، عن غيابي ذاك - مع تحفظ واحد، فقد نجحت في البوح بأمري حتى هذه اللحظة، من دون أي قصد إلى قمع أفكاري، لأنني وكما قلت في موضع آخر، قد جعلت من هذا الحكي مدونة لذاكرتي. أردت الاحتفاظ بأكثر أسراري المكنونة وأخطرها، فأسردها حتى النهاية، وها أنا الآن أحفظها. ولا يمكنني اختراق لغز قلبي تمامًا، حتى أعرف متى بدأت التفكير في توجيه آماله وأحلامه البكر إلى أجنيس. لا أستطيع أن أقول، في أي مرحلة من مراحل حزني، بدأت بالتفكير في هذا الأمر، بعد أن بددت في طفولتي المتشردة كنز حبها. لعلني أتصور أنني أضمرت في نفسي شيئًا عن تلك الفكرة البعيدة، فأدركت موقفي وراودتني أفكار بعيدة عن هذه الخسارة التعيسة أو الحاجة إلى شيء لم يتحقق قَطُّ. أما الآن، فقد لاح لذهني عتاب وندم جديدان، حين تركت نفسي حزينًا ووحيدًا في العالم.

ولو أنني قبلتها في ذلك الوقت كثيرًا، لانكشفت خواطري وبحت بضعفي ووحدتي. كان هذا هو مكمن مخاوفي التي دفعتني في أول الأمر إلى الابتعاد عن إنجلترا. إذ لم أكن لأستطيع أن أتحمل فقدان جزء ولو صغير من محبتها الأخوية، ولذلك كان يجب أن أبني قيدًا بيننا يحول دون إحساسي المضمر إلى أجل غير مسمى.

لم أستطع أن أنسى أن المشاعر التي تعاملني بها الآن قد نشأت باختياري ومحض إرادتي الحرة. فإذا كانت قد أحبتني يومًا بطريقة

أخرى - وكنت أتصور أحيانًا أن الوقت قد حان لتفعل ذلك - فإنني من ألقى بهذا الحب بعيدًا، كأنه لم يكن، فلم يعد منه شيء الآن. لقد اعتدت على التفكير فيها حين كنا مجرد أطفال، كما لو أنها فتاة بعيدة عن خيالاتي الجامحة. منحت مشاعري لفتاة أخرى، فلم أقدم على ما كان من الممكن أن أفعله. أما مكانة أجنيس عندي، فكانت من صنيعي وصنيع رأفة قلبها النبيل أيضًا.

في بداية التغيير الذي دب في داخلي تدريجيًّا حاولت أن أفهم نفسي بشكل أفضل وأن أكون رجلًا أفضل مما كنته. تأملت نفسي بنوع من الرصد العام، فعدت بمخيلتي إلى الماضي ورحت أتمنى لو أنني أستطيع إلغاء أخطائي، فأنعم بالزواج منها. إلا أنه مع مرور الوقت، كان هذا الاحتمال الغامض قد تلاشى وابتعد عني. وإذا كانت قد أحبتني في يوم من الأيام، فما عليَّ إلا أن أبجلها، خاصة إذا ما تذكرت ثقتي التي وضعتها فيها، ومعرفتها بضلال قلبي ومكنونه، والتضحية التي قدمتها لتظل صديقتي وأختي، والنصر الذي حققته بالإبقاء على علاقتنا. أما إذا لم تكن قد أحبتني قَطُّ، فهل من الممكن أن أصدق أنها ستحبني الآن؟

لطالما شعرت بضعفي أمام قوتها وثباتها، أما الآن فقد شعرت بضآلتي أكثر من ذي قبل. كنت الأجدر بها، وكانت جديرة بي منذ عهد طويل، أما الآن فلم أعد كذلك. لقد مر الوقت ومضى، فتركته ينقضي وفقدتها واستحققت خسارتها.

لقد عانيت كثيرًا في هذه النزاعات، وامتلأت بالتعاسة والندم، وقد سيطر عليَّ إحساس دائم بأنه من الحكمة والشرف أن أبعد نفسي عن

اللجوء إلى هذه الفتاة العزيزة، وألا أكشف لها عن آمالي الذابلة، بعد أن تحولت عنها بتفاهتي بينما كانت مشرقة وفاتنة - كانت هذه هي فكرتي عنها في الأصل - وهذا كله ما أقررته بصدق. لم أبذل أي جهد لأخفي عن نفسي الآن أنني أحببتها، وأنني كرست روحي لعشقها، لكنني رحت أؤكد لنفسي بأن الأوان قد فات الآن، وأنه لا داعي لأن تتوتر علاقتنا الوثيقة القائمة منذ عهد طويل.

لقد فكرت كثيرًا بين حين وآخر فيما تصورت دورا حدوثه في سنوات لاحقة لنا، لم يشأ القدر أن نجربها معًا. فكرت في أن الأشياء التي لم تحدث قَطُّ، غالبًا ما تصير كالحقائق بالنسبة لنا من حيث آثارها، فتتشابه مع ما عشناه. إن السنوات التي تحدثت دورا عنها تحولت إلى حقائق الآن، فقوَّمتني. كان من المحتمل أن أحيا أيامي هذه مع دورا يومًا ما، ثم نفترق بعد ذلك بقليل مع أولى حماقاتنا. لقد حاولت تحويل علاقتي بأجنيس إلى دافع يستحثني أكثر إلى التفاني، وأن أصير أكثر اجتهادًا، وأكثر وعيًا بنفسي وبعيوبي وأخطائي. وهكذا، من خلال تفكيري في الأمر على هذا النحو، فقد توصلت إلى قناعة تامة بأن الزواج من أجنيس لن يكون أبدًا.

كانت هذه الأفكار، بكل ما حوته من حيرة وتناقضات، هي الرمال المتحركة التي تشغل خاطري، من وقت مغادرتي إلى عودتي إلى الوطن بعد ثلاث سنوات. انقضت ثلاث سنوات على إبحار سفينة بالمهاجرين، عندما وقفت في الساعة نفسها من غروب الشمس، وفي المكان نفسه،

على سطح السفينة التي أعادتني إلى موطني، ناظرًا إلى المياه الوردية حيث رأيت صورة تلك السفينة منعكسة على صفحتها.

إنها ثلاث سنوات طوال في مجملها، وإن كانت قصيرة في حسابات الزمن. كان الوطن عزيزًا جدًّا، وكذلك أجنيس -لكنها لم تكن لي- لم تكن لي قَطُّ، أو لعلها كانت لي في عهد مضى.



# الفصل التاسع والخمسون

## العودة

ذهبت إلى لندن ذات مساء في ليلة خريفية باردة. كان الجو مظلمًا وممطرًا، ورأيت فيما لا يتجاوز الدقيقة الواحدة ثلة من الضباب والطين تفوق ما رأيته على مدار عام كامل. مشيت من مبنى الجمارك حتى وصلت إلى النصب التذكاري من دون أن أعثر على عربة، وعلى الرغم من أن واجهات المنازل لاحت لي بمزاريبها المنتفخة كالأصدقاء القدامى، فإنني لم أستطع تصورها إلا كأصدقاء شديدي القذارة.

لاحظت في كثير من الأحيان -أفترض أن الجميع قد لاحظ الأمر نفسه- أن ابتعاد المرء عن مكان مألوف، يعد إشارة لوقوع تغير فيه، فما إن نظرت من نافذة الحافلة، حتى لاحظت أن منزلًا قديمًا في شارع فيش ستريت هيل الذي لم يمسه نقاش أو نجار أو بناء لقرن من الزمان قد هُدم في غيابي، وأن الشارع المجاور الذي اكتظ بالأوساخ والفوضى قد مُهدت طرقه وتوسعت، ومن ثَم توقعت أن تلوح لي كاتدرائية القديس بولس أقدم وأبلى.

هكذا صرت على استعداد لتقبل بعض التغييرات التي طرأت على مصائر أصدقائي. كانت عمتي قد عادت إلى حياتها في دوفر منذ فترة طويلة، وبدأ ترادلز في التدرب على بعض المرافعات القضائية، في الدورة القضائية الأولى التي أعقبت رحيلي، كما أنه استقر بمكتبه الآن في جرايزان، وأخبرني في رسائله الأخيرة أنه يأمل أن يقترن قريبًا بأعز فتاة في العالم.

كانوا يتوقعون عودتي إلى المنزل قبل عيد الميلاد، ولم يخطر ببالهم أنني سأعود مبكرًا في مثل هذا الوقت، بل إنني قمت بتضليلهم عمدًا، حتى أسعد بمفاجأتهم. كنت على الرغم من ذلك أشعر بنوع من الاستياء وخيبة الأمل لأنني لم أتلقَّ ترحيبًا بوصولي، بل رحت أواصل المسير وحيدًا صامتًا وسط الشوارع الضبابية.

أدخلت المحلات التجارية الشهيرة بأضوائها المبهجة شيئًا من البهجة على قلبي، وكنت قد نزلت عند باب مقهى جرايزان فاستعدت معنوياتي، كما أنني تذكرت بداياتي الأولى - في تلك الفترة التي تختلف فيها حالتي عن حالي الآن - حيث كنت أقيم في فندق الصليب الذهبي، وتذكرت التغييرات التي طرأت منذ ذلك الحين، لكن كان ذلك كله طبيعيًّا.

سألت النادل بينما ألتمس الدفء عند الموقد: «هل تعرف أين أجد السيد ترادلز هنا؟».

قال: «إنه في هولبورن كورت يا سيدي. رقم اثنين».

قلت: «أتصور أن السيد ترادلز بات يتمتع بشهرة عالية بين المحامين. أليس كذلك؟».

أجاب النادل: «حسنًا يا سيدي، لعله يتمتع بشهرة يا سيدي، إلا أنني لا أعرف مداها».

كان النادل رجلًا هزيلًا في منتصف العمر، وقد استعان بنادل يتمتع بسلطة أكبر منه، فجاء إليَّ رجل قوي البنية أكبر عمرًا من النادل الأول، يتدلى من وجهه ذقن مزدوج، يرتدي بنطالًا وجوارب سوداء، وقد خرج من مكان أشبه بالمقعد المخصص لرجال الكنيسة من نهاية قاعة القهوة، حيث كان يجلس عند صندوق نقود، وفي يديه دليل وقائمة بأسماء المحامين ووثائق وأوراق أخرى.

قال النادل الهزيل: «إنه يسأل عن السيد ترادلز، رقم اثنين في المحكمة».

لوح النادل الضخم إلى الهزيل بالانصراف، ثم استدار نحوي في وقار.

قلت: «كنت أتساءل عما إذا كان السيد ترادلز الموجود في رقم اثنين في المحكمة، يتمتع بشهرة نامية بين المحامين أم لا؟».

قال النادل بصوت أجش: «لم أسمع اسمه من قبل».

شعرت بالأسف الشديد على ترادلز.

راح النادل العجيب يحملق فيَّ قائلًا: «لا بد أنه شاب، أليس كذلك؟ متى جاء إلى هنا؟».

قلت: «منذ مدة لا تزيد على ثلاث سنوات».

لم يستطع النادل - الذي أتصور أنه عاش في كوخ كنيسته لمدة أربعين عامًا - متابعة مثل هذا الموضوع التافه. فسألني ماذا أحب على العشاء.

أحسست بعد هذا الموقف أنني عدت إلى إنجلترا مرة أخرى، وقد صرت محبطًا مشفقًا على حال ترادلز، وأحسست أنه لا أمل له هنا. طلبت قطعة من السمك وشريحة من لحم مشوي، ثم وقفت أمام النار أفكر في سبب جهل الناس بترادلز.

رحت أتابع النادل بأم عيني، ولم أستطع التوقف عن التفكير في أن الحديقة التي تفتَّح بها تدريجيًّا حتى يصير الزهرة التي هو عليها اليوم، لم تكن سوى أرض بور من الصعب أن ينمو فيها ويترعرع، لقد بدا عليها الكبر، وصارت العروق متيبسة جامدة وموحشة مسنة. ألقيت نظرة خاطفة على القاعة التي اكتست أرضها بالرمال، بالطريقة ذاتها التي افترشت بلا شك بها عندما كان هذا النادل العجوز صبيًّا - إن كان صبيًّا يومًا، وهو ما بدا غير محتمل - ثم نظرت إلى الطاولات اللامعة فرأيت صورتي منعكسة على قلب خشب الماهوجني القديم المصقول، كما عاينت المصابيح التي تخلو من أي شائبة تغبر زجاجها أو تطفئ فتيلها، وأبصرت الستائر الخضراء التي تسر العين، بقضبانها النحاسية النقية، وقد أحيطت بحلقاتها بإحكام، ثم نظرت إلى موقدين كبيرين يتحرق في جوفهما الفحم متوهجًا، ورمقت صفوفًا من الأواني الزاهية كما لو

أنها تعي قيمة أنابيب النبيذ المعتق باهظ الثمن الموجود أسفلها. بدا لي أن إنجلترا والقانون كانا من الصعوبة البالغة بحيث لا يمكن أن تغزوهما العاصفة.

صعدت إلى غرفة نومي لتغيير ملابسي المبتلة، وقد لاحت لي هذه الغرفة الواسعة العتيقة ذات الجدران الخشبية، والقائمة فوق الممر المؤدي إلى الفندق -على ما أذكر- وضخامة الفراش بأعمدته الأربعة المهيبة، والجاذبية التي لا تقاوم للأدراج، وقد بدت أنها تتحد جميعًا عابسة مكفهرة على حظ ترادلز، أو على أي شاب جريء على شاكلته. نزلت مرة أخرى لتناول العشاء، وكان السكون الذي أحاط وقت الطعام يشي بالسمت الغالب على المكان -الذي كان خاليًا من النزلاء، لأن العطلة الرسمية لم تكن قد انتهت بعد- كان كل شيء يبوح بجرأة ترادلز، وآماله المتواضعة في كسب رزقه لمدة عشرين عامًا قادمة.

لم أرَ شيئًا كهذا طوال سفري، لذا فقد تحطمت كل آمالي التي كنت أرجوها لصديقي وتبددت تمامًا. لقد سئم النادل الكبير مني، فلم يعد يقترب مني، بل كرس نفسه لخدمة رجل عجوز يرتدي حذاء طويلًا، بل خيل إليَّ لتر من النبيذ الفاخر قد سعى إليه من تلقاء نفسه من القبو من دون أن يطلب أي شيء. همس إليَّ النادل الآخر فأخبرني بأن هذا الرجل العجوز كان موظفًا متقاعدًا يعيش في الميدان، وأنه يملك قدرًا من المال كان من المتوقع أن يتركه إرثًا لابنة الغسالة، وكذلك ترددت عنه شائعات بأن لديه طاقمًا من الصيني يحتفظ به في صوان مغبر، لم تمسسه يد، كما يمتلك عددًا من الملاعق والشوك الفضية، لم يشهد

منها إنسان في يوم من الأيام سوى شوكة واحدة. أدركت تمامًا في هذه اللحظة أن ترادلز قد ضاع، وتلاشى من خاطري أي أمل له.

كنت متلهفًا لرؤية هذا الصديق القديم العزيز، فأسرعت في تناول العشاء غير مبالٍ على الإطلاق بانطباع النادل الكبير عني، ثم أسرعت خارجًا من الباب الخلفي، فوصلت بعد وقت قصير إلى المبنى رقم اثنين من المحكمة، فأبصرت لافتة على عمود الباب تُعلِمني بأن السيد ترادلز يشغل مجموعة من الغرف في الطابق الأول، ومن ثَم صعدت السلم، فإذا به عتيق مهدم، به ضوء خافت يشع من فتيل قنديل صغير برأس مخلخل، يكاد ضوءه ينعدم داخل زجاجته الصغيرة القذرة.

صعدت إلى الطابق العلوي متعثر الخطى، وقد خيل إليَّ أنني سمعت صوتًا لطيفًا ضاحكًا، ولم يكن هذا الضحك ليصدر من محامٍ أو وكيل أو كاتب محامٍ أو كاتب وكيل، ولكنه ضحك فتاتين أو ثلاث فتيات مرحات. توقفت لسماع هذا الصوت في حين وضعت قدمي في حفرة حيث قام أحد أفراد الجمعية الشرفاء في جرايزان بسد ثغرة من دون وضع لوح خشبي، فسقطت محدثًا جلبة، لكنني ما إن نهضت منتصبًا على قدمَي حتى عاد الصمت.

تلمست طريقي بعناية أكبر في خطواتي التالية فوق السلم، خفق قلبي عاليًا عندما وجدت الباب الخارجي الذي كتب عليه اسم السيد ترادلز، مفتوحًا. طرقت الباب لكن لم أسمع إلا صوت مشاجرة كبيرة في الداخل، فطرقت الباب مرة أخرى وإذا بفتى صغير حاد النظرات

يبدو في هيئة بين الخادم والكاتب يلهث بشدة متقطع الأنفاس، لكنه نظر إليَّ كما لو أنه يتحداني، حتى أثبت بشكل قانوني أنني الطارق نفسه.

قلت: «هل السيد ترادلز موجود في الداخل؟».

«نعم سيدي، لكنه مشغول».

«أريد أن أقابله».

تفحصني الفتى ذو النظرات الحادة للحظة ثم قرر أن يسمح لي بالدخول، وقد فتح الباب على مصراعيه لهذا الغرض. رافقني أولًا إلى ممر صغير يبدو كالحجرة، ثم قادني إلى غرفة جلوس صغيرة، حيث أدركت أنني صرت في حضرة صديقي القديم - الذي كان يلهث أيضًا - وقد جلس إلى طاولة منكبًّا فوق بعض الأوراق.

رفع ترادلز بصره إليَّ ثم صاح قائلًا: «يا إلهي، إنه كوبرفيلد»، واندفع بين ذراعي، فاحتضنته بقوة.

«هل أنت بخير يا عزيزي ترادلز؟».

«إنني بخير يا غالٍ، يا عزيزي كوبرفيلد، ولا شيء سوى الأخبار الجيدة».

بكى كل منا من فرط السعادة.

قال ترادلز بينما يعبث بتجاعيد شعره في حماسته المعهودة، ولم يكن بحاجة إلى هذه الحركة على الإطلاق: «آه يا صديقي الأعز يا كوبرفيلد، يا صديقي الذي أفتقده منذ فترة طويلة وأرحب به أشد الترحاب، كم أنا سعيد برؤيتك! ما أشد اسمرار بشرتك! كم أنا سعيد!

أقسم لك بحياتي وشرفي إنني لم أكن سعيدًا قَطُّ يا حبيبي يا كوبرفيلد كما أنا سعيد الآن».

كنت في حيرة من أمري ولم أستطع التعبير عن مشاعري، أو التحدث بأي صورة من الصور في أول الأمر.

قال ترادلز: «يا صديقي العزيز، لقد صرت ذا شهرة كبيرة، أيها العظيم كوبرفيلد، يا الله! متى أتيت، ومن أين، وماذا كنت تفعل؟».

لم يتوقف ترادلز قَطُّ عن الكلام حتى يحصل على إجابة عن أي شيء قاله، بل أقعدني على كرسي مريح بجوار النار، ومكث طوال هذا الوقت يقلب الجمرات بإحدى يديه، وقد سحب منديل رقبتي باليد الأخرى بشدة متوهمًا أنه معطف رائع، ثم راح يعانقني مرة أخرى من دون أن تترك يده عصا تقليب الجمرات، فعانقته كذلك. جلسنا نضحك ونمسح أعيننا التي اغرورقت بالدموع، ونتصافح بأيدينا فوق نيران الموقد.

قال ترادلز: «تخيل أنك كنت على وشك العودة إلى الوطن كما هي الحال الآن يا غلامي العزيز، ولا تحضر الحفل».

«أي حفل يا عزيزي ترادلز؟».

صاح ترادلز وقد نظر بعينيه على اتساعهما متعجبًا كعادته قائلًا: «رحماك يا ربي! ألم تصلك رسالتي الأخيرة؟».

«بالتأكيد لا، ما دمت تشير إلى حفل لا أعلمه».

نفش ترادلز شعره بكلتا يديه فانتصب فوق رأسه، ثم وضع يديه على ركبتي قائلًا: «يا للعجب يا عزيزي كوبرفيلد، لقد تزوجت».

صرخت في فرح قائلًا: «تزوجت!».

قال ترادلز: «ليبارك لي الله، نعم، لقد تزوجت صوفي في ديفونشير بمباركة القسيس المبجل هوراس، وإنها تقف الآن خلف ستارة النافذة، انظر هناك».

يا لدهشتي! لقد أقبلت أعز فتاة في العالم في تلك اللحظة من مكان اختبائها، ضاحكة وخجلى، وأحسب أنها العروس الأكثر بهجة، وودًّا، وصدقًا، ومرحًا، وإشراقًا -إلا أنني لم أستطع المجاهرة بهذا القول حينها- بل لم يشهد العالم فتاة في مثل جمالها قَطُّ. قبَّلتها كما لو أنها أحد معارفي القدامى، وتمنيت لهما الفرح والسعادة من كل قلبي.

قال ترادلز: «يا إلهي، يا لها من صحبة مبهجة! وكم صرت شديد الاسمرار يا عزيزي كوبرفيلد! بارك الله فيك، كم أنا سعيد!».

قلت: «وأنا كذلك».

قالت صوفي ضاحكة وقد احمر وجهها خجلًا: «وإنني بلا شك في غاية السعادة أيضًا».

قال ترادلز: «نحن جميعًا سعداء أقصى سعادة ممكنة، بل إن الفتيات سعيدات أيضًا. يا إلهي لقد نسيتهن».

قلت: «هل تقول نسيتهن؟».

قال ترادلز: «نعم، أقصد الفتيات أخوات صوفي. إنهن يقمن معنا، فقد جئن للتنزه في لندن. والحقيقة أنهن... هل كنت أنت من سقطت عند السلم يا كوبرفيلد؟».

قلت ضاحكًا: «نعم، إنه أنا».

قال ترادلز: «حسنًا، عندما تعثرتَ بالسلم، كنت ألاعب الفتيات، وكنا في الحقيقة، نلعب لعبة «قطة في الزاوية»، ولكن هذه اللعبة غير لائقة تمامًا بمهنتي في وستمنستر هول، فقد توقفن عن اللعب إذ ظننت الفتيات أنك أحد العملاء».

نظر ترادلز إلى باب إحدى الغرف ثم قال: «إنهن بلا شك يصغين إليك الآن».

قلت ضاحكًا من جديد: «إنني آسف، فأنا من جلب هذا الاضطراب».

أجاب ترادلز في سرور بالغ: «أقسم إنك إن رأيتهن يركضن مسرعات ذاهبات ثم عائدات مرة أخرى، بعد أن طرقت الباب، ليلتقطن الأمشاط التي سقطت من شعورهن، ثم مسرعات بدرب من الجنون، لم تكن لتقول شيئًا يا كوبرفيلد. أما أنتِ يا حبيبتي فهلا جئتِ بالفتيات؟».

تسللت صوفي بعيدًا، وسمعناها تستقبلهن في الغرفة المجاورة بضحكات عالية.

قال ترادلز: «إنها أصوات كالألحان حقًّا، أليس كذلك يا عزيزي كوبرفيلد؟ إنها لأصوات مستساغة مستحبة، تضيء هذه الغرف القديمة فيتلاشى ظلامها، ويا لها من بهجة تحيط بذاك العازب البائس الذي عاش -كما تعلم- طوال حياته وحيدًا! يا لها من أصوات ساحرة! ويا للمسكينات! لقد خسرن الكثير بعد زواج صوفي - التي أؤكد لك يا

كوبرفيلد، أنها لم تزل أعز فتاة في العالم - ويسعدني أن أجدهن في مثل هذه السعادة التي تفوق الحدود. إن اجتماع الفتيات شيء ممتع للغاية يا كوبرفيلد. إنه ليس منظمًا مثل اجتماع المهنيين، لكنه ممتع أشد الإمتاع».

لاحظت أنه تلعثم قليلًا، وأدركت أنه، لطيبة قلبه، قد خشي أن يتسبب في إيلامي بما قاله، فما كان مني إلا أن أعربت له عن موافقتي على كلامه بحماسة، فعادت إليه سكينته وسروره البالغ.

قال ترادلز: «لكن لأتحرى الصدق، إن تدابير أمورنا المعيشية غير مرتبة يا عزيزي كوبرفيلد، بل إن وجود صوفي هنا أمر غير مهني، إلا أننا لا نملك مكانًا آخر لنقيم فيه، فعلينا أن نبحر في زورق صغير مضطرب، ولكننا مستعدون لكل الصعوبة التي سنواجهها، كما أن صوفي مدبرة حقًّا بما يفوق الوصف. سوف تتفاجأ من تدبيرها لشؤون هؤلاء الفتيات. إنني بلا شك لا أعرف كيف تقوم بتدابيرها حقًّا».

سألته: «هل يبيت عندكما كثيرات منهن؟».

قال ترادلز بصوت خفيض ليحفظ سره: «إن الكبرى تدعى كارولين، لكنني أناديها بالجميلة، وكذلك سارة هنا، وهي الفتاة التي ذكرت لك أنها تعاني من مرض ما في عمودها الفقري كما تعرف، وقد تحسنت بدرجة هائلة. وهنا الصغرى أيضًا، وهي التي تعلِّمها صوفي. ومعنا أيضًا لويزا».

صحت قائلًا: «أحقًّا ما تقول؟».

قال ترادلز: «نعم. إن مجموع الغرف ثلاث فقط، إلا أن صوفي ترتب الأمر للفتيات بأروع طريقة ممكنة، فينعمن بنومة مريحة قدر الإمكان». وهنا أشار ترادلز بإصبعه فقال: «إن ثلاثة منهن ينمن في هذه الغرفة، واثنتين في تلك الغرفة».

لم أستطع تمالك نفسي من النظر إلى المكان من حولي، بحثًا عن المكان المتبقي لإقامة السيد ترادلز والسيدة زوجته. فهم ترادلز مقصدي، فقال: «حسنًا، إننا معتادان على مثل هذه المصاعب، كما قلت لك للتوِّ، وقد نجحنا في ابتكار فراش في الأسبوع الماضي ننام عليه هنا على الأرض. إلا أن ثمة غرفة صغيرة فوق سطح البناية، وستجد أنها غرفة لطيفة جدًّا عندما تصعد لرؤيتها، وقد أعدَّتها صوفي بنفسها وثبتت ورق الجدران لتفاجئني، فصارت غرفتنا في الوقت الراهن. إنها غرفة صغيرة على الطراز الغجري، كما أنها تطل على منظر جميل إلى حد ما».

قلت: «ها قد نعمت بزواج سعيد بالنهاية يا عزيزي ترادلز، كم أشعر بالسعادة من أجل ما حققته!».

قال ترادلز ونحن نتصافح مجددًا: «شكرًا لك يا عزيزي كوبرفيلد. نعم، إنني أسعد في حياتي بقدر المستطاع». أشار ترادلز بانتصار إلى مزهرية وحامل لمزهرية، ثم قال: «ها هما صاحباك، وها هي طاولة ذات سطح رخامي، أما بقية الأثاث كله فبسيط وعملي كما ترى، وبالنسبة لأدوات المائدة، فالحمد لله، ليست لدينا أدوات كثيرة من قبيل ملاعق الشاي وما شابه».

قلت بسرور: «سوف تجلب كل شيء لاحقًا، أليس كذلك؟».

أجاب ترادلز: «بالضبط، سوف أجلب كل ذلك بمرور الوقت. إن لدينا بالطبع شيئًا ما يشبه ملاعق الشاي، لأننا في حاجة إلى تقليبه، لكنه من معدن بريطانيا[١]».

قلت: «ستصير الملاعق الفضية ألمع بريقًا حين يأتي أوانها».

قال: «هذا بالضبط ما نقوله».

عاد يتحدث بنبرة خافتة سرية مرة أخرى، فاستطرد قائلًا: «كما تعرف يا عزيزي كوبرفيلد أنني ما إن أنهيت مرافعتي في قضية «دودم جايبس وويجزل»، حتى حققت نفعًا كبيرًا في مسيرتي المهنية، فذهبت إلى ديفونشير، وأجريت حديثًا مهمًّا على انفراد مع القس المبجل هوراس. لقد ركزت على حقيقة أن صوفي... - التي أؤكد لك يا كوبرفيلد، أنها أعز فتاة».

قلت: «إنني على يقين من أنها عزيزة غالية».

ابتهج ترادلز قائلًا: «إنها كذلك حقًّا. لكني أخشى أن أكون قد غيرت الموضوع. هل ذكرت لك أمر القس المبجل هوراس؟».

«قلت إنك ركزت على حقيقة أن...».

استطرد ترادلز قائلًا: «هذا صحيح. لقد قلت إنني ركزت على حقيقة أنني وصوفي مخطوبان منذ فترة طويلة، وأن صوفي ارتضت بكل سرور بي بعد موافقة والديها؛ ومجمل القول...». وهنا أضاف ترادلز ابتسامته

(١) نوع خاص ورخيص من المعادن يتكون في معظمه من القصدير.

الصريحة المعهودة ثم قال: «إننا مع وضعنا الحالي وملاعقنا المعدنية الرخيصة. حسنًا... لقد عرضت وفقًا لذلك على القس المحترم هوراس - إنه واحد من أفضل الكهنة يا كوبرفيلد، ويجب أن يرقُّونه إلى مرتبة الأسقف، أو على الأقل لا بد من أن ينال ما يكفي معيشته من دون أن يكون في حاجة إلى العيش تحت وطأة الضغوط - أنني إذا استطعت تخطي الأزمة، ولنقُل بتدبر مائتي وخمسين جنيهًا مثلًا في السنة الواحدة، وإذا استطعت أن أشق طريقي إليها بعزيمة جادة، أو إذا استطعت أن أتحصل على مبلغ أفضل في العام القادم، وتمكنت من تجهيز مكان صغير كهذا بأثاث بسيط كذلك، فإنني سأكون جديرًا حينها بالزواج من صوفي. لقد حرصت على أن أخبره بأننا صبرنا لسنوات عديدة، وأن وجود صوفي وخدمتها لأهلها وبيتها لا يجب أن يجعلا والديها الحنونين يقفان في طريق استقرارها في الحياة، ألا توافقني الرأي؟».

أجبت قائلًا: «لا يجب أن يحدث ذلك بالطبع».

ابتهج ترادلز قائلًا: «يسعدني أنك توافقني الرأي يا كوبرفيلد، لأنني أظن أنه بخلاف الدور الذي لعبه القس المبجل هوراس، فإن والديها وإخوتها راحوا يتصرفون بنوع من الأنانية في مثل هذه الظروف. حسنًا، لقد أوضحت للمبجل هوراس أيضًا أن أصدق أمنياتي أن أكون نافعًا للأسرة، وأنني إذا ما تقدمت في مسيرة الحياة، ووقع أي شيء له... إنني أقصد هنا الإشارة إلى القس المبجل هوراس...».

قلت: «نعم إنني أفهمك».

استطرد قائلًا: «قلت إنه إذا وقع أي شيء له أو للسيدة كرولر،

فستكون أقصى أمنياتي أن أصير والدًا للفتيات. وقد أجابني بأكثر الطرق إثارة للإعجاب، إذ أطرى على مشاعري، وتعهد بأن يحصل على موافقة السيدة كرولر على هذا التدبير. لقد قضوا معًا أوقاتًا عصيبة، إذ صعدت من قدميها حتى صدرها ثم صعدت أخيرًا إلى رأسها».

سألته: «ما الذي صعد؟».

أجابني ترادلز بنظرة جادة: «حزنها. لقد أخبرتك قبل ذلك أنها امرأة سامية جدًّا من حيث المشاعر، لكنها فقدت قدرتها على تحريك ساقيها. إن كل ما كان يضايقها قد استقر في قدميها، إلا أن حزنها صعد في هذه الظروف إلى صدرها ثم إلى رأسها، باختصار تغلغل كيانها كله بطريقة تنذر بالخطر. مع ذلك فإنهم استطاعوا أن يساعدوها على استعادة صحتها هذه المرة حيث أولوها عناية حنونة ومستمرة، وها قد مر على زواجنا بالأمس ستة أسابيع. لا يمكنك أن تتصور يا كوبرفيلد كيف أحسست أنني وحش، حين رأيت أفراد الأسرة كلها باكين منهارين بل مغشيًّا عليهم في كل مكان. لم تستطع السيدة كرولر أن تراني قبل أن نرحل عنهم، ولم تستطع أن تسامحني على حرماني لها من ابنتها العزيزة، لكنها إنسانة طيبة، وقد فعلت ما فعلته في الماضي بسبب تأثرها وحسب. وها قد وصلني منها هذا الصباح خطابًا مبهجًا».

«باختصار يا صديقي، إنك تشعر أخيرًا بالسعادة التي تستحقها».

ضحك ترادلز قائلًا: «إنها لمجاملة منك، ولكني فعلًا في حالة أُحسَد عليها. إنني أعمل بكد وأقرأ القانون بنهم. أنهض في الخامسة،

من دون أن أشكو من ذلك على الإطلاق. أخفي الفتيات في النهار، وألعب معهن في المساء. أؤكد لك أنني أشعر بالحزن حقًّا لعودتهن إلى منزلهن يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي يسبق أول يوم في الفصل الدراسي الأول». تغيرت لهجة ترادلز الواثقة فإذا به يتحدث بصوت عالٍ قائلًا: «ها هم الفتيات. هذا هو السيد كوبرفيلد. هذه هي الآنسة كرولر، وهذه الآنسة سارة والآنسة لويزا وماجريت ولوسي».

كن أشبه بصحبة رائعة من الزهور، فبدون يانعات ونضرات وجميلات، وكانت الآنسة كارولين فاتنة للغاية، وإن اتسمت نظرة صوفي بسمات محببة ومرحة وودودة ولطيفة المعشر، مما أكد لي أن صديقي قد أحسن الاختيار. جلسنا جميعًا حول المدفأة، بينما رأيت الفتى حاد النظرات - فهمت أنه كان يلهث حين دخولي لأنه أسرع بإخفاء الأوراق - وقد أحضر لنا الأغراض الخاصة بإعداد الشاي، ثم انصرف ليخلد إلى النوم، بعد أن أغلق الباب الخارجي علينا بعنف. أعدت السيدة ترادلز الشاي لنا بسرور بالغ وهدوء يشع من عينيها، ثم أعدت الخبز في سكينة وهي جالسة في زاوية بالقرب من نار المدفأة.

أخبرتني وهي تعد الخبز أنها قد رأت أجنيس، وأن توم قد اصطحبها إلى كينت في رحلة زفاف، وهناك رأت عمتي أيضًا، وكانتا كلتاهما بخير - أعني أجنيس وعمتي. لم نتحدث عن أي شيء سواي، فقد قالت إنها تظن أن توم لم يبعدني قَطُّ عن تفكيره طوال وقت غيابي عنه. كان توم هو رأس السلطة في كل شيء، فأحسست أنه تشكَّل بوضوح ليصير صنمًا في حياتها، ولم يكن بالإمكان زحزحة قاعدة هذا الصنم

بأي ضجة، فقد كانت تصدقه دائمًا وتوقره بإيمان خالص من كل قلبها، أيًا ما كانت العاقبة.

لقد تأثرت وسعدت لعنايتهما؛ هي وترادلز للأخت الكبرى التي تدعى الجميلة، ولا أحسب أن احترامهما لها أكسبها تبجيلًا، بل أضفى نوعًا من البهجة والسرور، وهما مُكوِّن أساسي من مكونات شخصيتيهما. فإذا ما نسي ترادلز أمر ملاعق الشاي التي لم يحرز ثمنها بعد، فلا شك عندي أنه نسيها لأنه يقدم الشاي إلى الجميلة. وإذا ناهضت زوجته ذات المزاج الرائق أي إنسان، فإنني على قناعة بأنها فعلت ما فعلته لأنها شقيقة الجميلة. لقد لاحظت بعض المؤشرات البسيطة التي توحي بأنها ذات دلال كما أنها متقلبة المزاج بعض الشيء، لكن ترادلز وزوجته اعتبرا سلوك الجميلة حقًّا من حقوقها وهبة طبيعية لها. ولو أنني ولدت لأن أكون ملكة النحل، وكانا هما النحلات العاملات، لما كان بوسعهما أن يشعرا بقدر أكبر من الرضا والسعادة.

لقد فتنت بميلهما إلى إنكار الذات، واعتزازهما بهؤلاء الفتيات، وخضوعهما عن طيب خاطر لرغباتهن؛ تعد أجمل شهادة صغيرة على مكارم أخلاقهما الجلية أمامي. وإذا نودي على ترادلز بكلمة «حبيبي» مرة واحدة في هذا المساء، وطُلِب منه إحضار شيء ما هنا، أو حمل شيء ما إلى هناك، أو رفع شيء ما، أو إنزال شيء آخر، أو حتى إيجاد شيء، أو إصلاح شيء آخر، فقد طُلب منه كل ما سبق بهذا النداء على الأقل اثنتي عشرة مرة في ساعة واحدة.

لم يكن الفتيات يصنعن شيئًا من دون مساعدة صوفي. إذا انسدلت جدائل إحداهن، فليس لأحد أن يصلحها سوى صوفي، وإذا نسيت إحداهن لحنًا من أغنية، فلا يمكن لأحد سوى صوفي أن تدندنها صحيحة. إذا أرادت واحدة منهن أن تتذكر اسم مكان ما في ديفونشير، فإن صوفي وحدها القادرة على تذكره. إذا توجب كتابة رسالة ما إلى العائلة، فإن صوفي وحدها الموثوق فيما ستكتبه قبل إعداد الإفطار في الصباح. إذا أفلتت إحداهن خيطًا في حياكتها، فلا يمكن لأحد سوى صوفي أن يعيد الخيط إلى اتجاهه السليم. لقد كانت الفتيات سيدات المكان بحق، وكان صوفي وترادلز في خدمتهن. لا أستطيع أن أتخيل عدد الأطفال الذين تمكنت صوفي من شملهم برعايتها في وقت واحد! لقد بدت مشهورة بمعرفة مختلف الأغاني التي يمكن أن تغنى لطفل باللغة الإنجليزية، وقد غنَّت عشرات منها صحيحة بأرق الأصوات وأعذبها. غنت واحدة تلو أخرى - كانت كل أخت تطلب من صوفي أغنية مختلفة، بينما كانت الأخت الجميلة آخر من يطلب منهن - الأمر الذي فتنني تمامًا. أما أفضل شيء فكان أنه في وسط كل نزاعاتهن كانت الأخوات يحملن في صدورهن رقة واحترامًا عظيمين لصوفي وترادلز، وإنني على يقين من أنني حين استأذنت في الانصراف، وصحبني ترادلز ليسير معي حتى المقهى، لم أرَ قَطُّ رأسًا عنيدًا مليئًا بالشعر، أو أي رأس مليء بالشعر عمومًا، ينهال عليه مثل هذا السيل من القبلات.

لقد كان مشهدًا لم يسعني إلا أن أستعيده في ذاكرتي بكل سرور لفترة طويلة بعد أن عدت وتمنيت لترادلز ليلة سعيدة. ولو رأيت آلاف الزهور تتفتح على أعوادها في هذه الغرف الماثلة في المبنى

القديم المهترئ المدعو جرايزان، لما أمكن لها أن تضفي عليَّ إشراقًا يضاهي نصف بهجة هؤلاء الفتيات. أما فكرة وجود هؤلاء الفتيات من ديفونشير وسط هذه المؤسسات القانونية الجافة ومكاتب المحامين، والشاي والخبز المحمص، وأغاني الأطفال في هذا الجو الكئيب من الوثائق والبيروقراطية والرقائق المتربة، والمحابر والأوراق المختصرة والمسودات والتقارير القانونية والأوامر القضائية والبيانات والفواتير والتكاليف، بدا الأمر لمخيلتي إجمالًا دربًا من البهجة، كما لو أني حلمت أن عائلة السلطان الشهيرة قد قبلت إدراج أفرادها في قوائم المحامين، وقد جلبت إلى جرايزان الببغاء الناطق والشجرة القادرة على الغناء والمياه الذهبية. أدركت أنني قد ودَّعت ترادلز ليلًا على أي حال، ثم عدت إلى المقهى وقد اعتراني تغيير كبير فيما يتعلق بشعوري بالأسف على ترادلز. فبدأت أفكر في أنه سوف يخطو في هذه الحياة رغمًا عن كبار الخدم في كل فنادق إنجلترا.

قربت مقعدي من المدفأة الموجودة في المقهى ورحت أفكر في حال ترادلز، ولكني تراجعت تدريجيًّا عن التفكير في سعادته، وبدأت أحدق في الفحم المشتعل وأتصور كيف تكسر وكيف تبدلت هيئته، ثم فكرت في التقلبات الجذرية ومواقف الفراق التي تركت أثرًا حقيقيًّا على حياتي. لم أرَ نارًا موقدة بالفحم منذ أن تركت إنجلترا من ثلاثة أعوام، على الرغم من أني تأملت نيرانًا كثيرة موقدة بالأخشاب، فراقبتها حتى صارت رمادًا يختلط بكومة من الريش. أحسست أن هذه الأفكار لا تلائم ما بي من قنوط، ولا توائم آمالي الهالكة.

أستطيع أن أفكر الآن في الماضي بشجاعة ومن دون مرارة الألم، كما يمكنني أن أتطلع إلى المستقبل بروح جسورة. لم يعد لديَّ تصور عن إقامة حياة أسرية في أفضل معانيها، فقد تعلمت أن أعامل الفتاة التي كان يجب أن تكون نبع حب عظيم لي كما الأخت. ستتزوج، وستجد مطالبين جددًا يتلقون حنانها، وبتأدية واجبها تجاههم لن تعرف أبدًا الحب الذي تنامى في صدري لها. كان من الصحيح أن أدفع ثمن عاطفتي المتهورة، وأن أحصد ثمار ما زرعته.

كنت مستغرقًا في التفكير، أقول لنفسي هلا ضبطت قلبي فعلًا لتقبُّل هذا الوضع، فأستطيع برباطة جأش أن أشغل في بيتها الجديد مكانة مطمئنة مثل المكانة التي شغلتها هي في بيتي، وحينها وجدت عينَي تحدقان في وجه ربما قد خرج من النار لارتباطه بذكريات طفولتي المبكرة.

لقد رأيت الطبيب تشيليب الذي أدين له بفضل كبير في الفصل الأول من حكايتي، فإذا به جالسًا يقرأ في صحيفة في ظل زاوية مقابلة لي. كان أثر مرور الأعوام عليه لم يزل مقبولًا في هذا الوقت، ولكن لكونه رجلًا ضئيل البنية لطيفًا ووديعًا وهادئًا، لاح عليه الإنهاك بسهولة. نما في خاطري في تلك اللحظة أنه يجلس على هيئته ذاتها التي جلس بها في حجرة الاستقبال في منزلنا في انتظار أن أولد.

لقد ترك السيد تشيليب بلندرستون منذ ستة أو سبعة أعوام، ولم أَرَه قَطُّ منذ ذلك الوقت. جلس بوداعة يقرأ الصحيفة وقد أمال رأسه الصغير جانبًا، يلوح عند مرفقه كأس من النجاشي[١] الدافئ، وقد بدت

(١) مشروب مصنوع من النبيذ يمزج بالماء الساخن والبرتقال، أو الليمون والتوابل والسكر.

عليه ملامح من الرضا، بل بدا كما أنه سيعتذر للصحيفة على جرأته وانخراطه في قراءتها.

ذهبت إليه وقلت: «كيف حالك يا سيد تشيليب؟».

ارتبك بشدة من هذا الحديث المفاجئ الموجَّه إليه من شخص غريب، وأجاب ببطئه المعهود: «شكرًا لك يا سيدي. إنني بخير. أشكرك على لطفك، وأرجو أن تكون بخير».

قلت: «ألا تتذكرني؟».

ابتسم السيد تشيليب بوداعة شديدة، وهز رأسه وهو يلقي عليَّ نظرة متفحصة قائلًا: «أحسب أن شيئًا ما في مظهرك مألوف يا سيدي، لكني لا أستطيع أن أتذكر اسمك تحديدًا».

قلت: «لقد كنت تعرفني قبل أن أعرف نفسي بوقت طويل».

قال: «أحقًّا يا سيدي؟ هل يكون لي الشرف أن أكون قد تلقيتك عندما...؟».

قلت: «نعم يا سيدي».

صاح السيد تشيليب قائلًا: «آه، يا للعجب! ولكن لا شك أنك تغيرت كثيرًا من وقتها، أليس كذلك؟».



قلت: «غالبًا».

«حسنًا يا سيدي. أرجو أن تعذرني لو أنني اضطررت إلى أن أسألك عن اسمك».

لقد تأثر أيما تأثر حين أخبرته باسمي، فصافحني بحرارة، وكانت مصافحة كهذه بمثابة فعل عنيف له، فقد اعتاد على أن يمد يده الصغيرة فيبسطها متجاوزًا عظم فخذه بقليل، كما لو أنها قطعة من سمك ناضج، ومن ثَم يتذبذب مضطربًا حين يتناولها إنسان بين كفيه. أسرع بعد ذلك إلى وضع يده في جيب معطفه فور أن أنهى مصافحته لي، وبدا أنه ارتاح حينما استعادها آمنة.

قال السيد تشيليب بينما يتأملني برأسه المائل: «آه يا سيدي، إن اسمك كوبرفيلد، أليس كذلك؟ حسنًا يا سيدي، أعتقد أنني كنت سأعرفك لو سنحت لي الفرصة لأتمعن وأدقق النظر إليك عن كثب، لأنك تشبه الفقيد والدك إلى حد كبير يا سيدي».

عقَّبت قائلًا: «لم أحظَ بسعادة أن أرى والدي».

قال السيد تشيليب بلهجة ملطِّفة: «صحيح يا سيدي. وإنه لأمر مؤسف للغاية في كل الأحوال». ثم راح يهز رأسه الصغير ببطء مجددًا ليقول: «إن شهرتك لا تخفى عنا في المكان الذي نعيش فيه يا سيدي». نقر بإصبعه على جبهته ثم قال: «إنني أشعر بإثارة كبيرة هنا، ولا بد أنك تجد مهنتك شاقة ومجهدة يا سيدي».

سألته وأنا أجلس بالقرب منه: «أين تستقر الآن؟».

قال: «إنني أعيش الآن على بعد بضعة أميال من بلدة بوري سانت إدموندز. لقد ورثت السيدة تشيليب عن أبيها بيتًا صغيرًا في هذا المكان، فاشتريت عيادة هناك سوف تسعد إن سمعت أنني موفق فيها. كبرت

ابنتي وصارت الآن شابة رائعة طويلة». هز رأسه مجددًا هزة خفيفة، ثم قال: «لقد أرخت والدتها طيتين من ثيابها في الأسبوع الماضي فقط. هكذا يمر الزمن كما ترى يا سيدي».

رفع الرجل الضئيل كأسه الفارغة إلى شفتيه، بينما يحدثني عن هذه الملاحظة الأخيرة، عرضت عليه أن نعيد ملء كأسه مجددًا وأن أبقى معه لمزيد من الوقت، فقال بطريقته البطيئة ذاتها: «حسنًا يا سيدي، هذا كرم يفوق ما اعتدت عليه، لكني لا أستطيع أن أحرم نفسي من متعة الحديث معك. يبدو لي كأنني بالأمس قد تشرفت بعلاجك من الحصبة. لقد تعافيت منها بطريقة ساحرة يا سيدي».

شكرته على هذه المجاملة وطلبت له مشروبه النجاشي وقد أحضره النادل سريعًا. قال السيد تشيليب، وقد استثاره الشرب مجددًا: «يا له من إسراف لم أعتَده مطلقًا! لكني لا أستطيع مقاومة مناسبة استثنائية تمامًا كهذه المناسبة. هل لك أسرة يا سيدي؟».

هززت رأسي نافيًا.

قال السيد تشيليب: «لقد علمت يا سيدي أنك تعرضت لمصاب منذ مدة، وقد عرفت ذلك من شقيقة زوج والدتك. إنها شخصية حازمة للغاية، أليس كذلك يا سيدي؟».

قلت: «نعم، إنها صريحة بما فيه الكفاية، لكن أين رأيتها يا سيد تشيليب؟».

قال السيد تشيليب بابتسامته الهادئة: «ألا تعلم يا سيد أن زوج والدتك قد صار جاري مرة أخرى؟».

قلت: «لا».

استطرد قائلًا: «إنه جاري حقًّا. لقد تزوج شابة من فتيات هذه الناحية تملك بيتًا صغيرًا رائعًا. يا لها من مسكينة! وماذا عن عملك الفكري الآن يا سيد؟ ألا تجده مرهقًا لك؟».

أخذ السيد تشيليب ينظر إليَّ بإعجاب كما لو أنه طائر الحنَّاء[1].

لم أُجب عن هذا السؤال، وعدت إلى الحديث عن عائلة مردستون فقلت: «لقد عرفت أنه تزوج مجددًا. هل ترعى الأسرة صحيًّا؟».

قال: «ليس بانتظام. لقد استدعوني لأمر صحي مرة. لقد تطورت الأمور المتعلقة بمسألة الفراسة والصرامة عند السيد مردستون وأخته يا سيدي».

أجبت بنظرة معبِّرة للغاية حتى إنها شجَّعت السيد تشيليب بصحبة مشروبه النجاشي على أن يهز رأسه عدة هزات مجددًا، وقال مستغرقًا في التفكير: «آه، يا للعجب! إننا نتذكر الأيام الخوالي يا سيد كوبرفيلد».

سألته: «ألا يزال الأخ والأخت يتبعان مسارهما القديم؟».

أجاب السيد تشيليب: «حسنًا يا سيد، حري بطبيب مثلي ينخرط طوال الوقت داخل الأُسر أن يتحلى بالعمى والصمم تجاه أي شيء لا

---

(١) طائر أوروبي يكسو صدره لون برتقالي، معروف بوقفته الجريئة المتصلبة على الأرض، وهو من الطيور التي شاع ذكرها في الأعمال الإبداعية الإنجليزية.

يتعلق بالعلاج، مع ذلك عليَّ أن أقول إنهما شديدا القسوة؛ سواء تجاه ما يتعلق بهذه الحياة أو الحياة الأخرى».

قلت: «أجرؤ على القول إن الحياة الأخرى سوف تنظم من دون الرجوع إليهما، لكن السؤال يكمن في ماذا سيفعلان في هذه الحياة الحاضرة».

هز السيد تشيليب رأسه، وقد استثاره الشراب النجاشي، فرشف منه رشفة، ثم قال بنبرة حزينة: «لقد كانت امرأة فاتنة يا سيدي».

«أتقصد السيدة مردستون الحالية؟».

قال السيد تشيليب: «امرأة فاتنة حقًّا. إنني متيقن من أنها لطيفة بأقصى قدر ممكن من اللطف. ورأي السيدة تشيليب زوجتي هو أنها قد تحطمت تمامًا منذ زواجها، وأنها اليوم مختلة التفكير من شدة الكآبة»، واستطرد السيد تشيليب كلامه بنوع من الفزع فقال: «والسيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على المراقبة يا سيدي».

قلت: «أظن أنه توجب إخضاعها وكسرها لتلائم قالب خلقها المقيت. كان الله في عونها. وهذا ما حدث بالفعل».

قال السيد تشيليب: «حسنًا، أؤكد لك أنه في الواقع نشبت مشاجرات عنيفة في البداية، لكنها الآن لم تعد سوى خيالات. فهل أستطيع أن أكتمك سرًّا بأن أقول لك يا سيدي إنه منذ أن جاءت الأخت لتقديم يد العون، كادا معًا أن يتحولا إلى دروب الجنون؟».

قلت له إن بوسعي تصديق الأمر بسهولة.

قال السيد تشيليب مؤازرًا نفسه برشفة أخرى من الشراب النجاشي: «لا أتردد في أن أبوح لك بسر مفاده أن أمها ماتت للسبب نفسه، لأن الطغيان والكآبة والقلق قد جعلوا السيدة مردستون أقرب ما تكون إلى الجنون. كانت شابة تفيض بالحيوية قبل الزواج يا سيدي، إلى أن حطمتها كآبتهما وقسوتهما وعبوسهما، وإنهما يخرجان الآن في مشهد أقرب إلى مراقبة الحارس للسجين. كانت هذه هي ملاحظة زوجتي لي في الأسبوع الماضي. أؤكد لك يا سيدي أن السيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على الملاحظة، أما زوجتي نفسها فلها قدرة عظيمة على المراقبة».

قلت: «هل تراه لم يزل يعلن بعبوس - أشعر بالخزي من استخدام هذه الكلمة في مثل هذه المناسبة - أنه متدين؟».

قال السيد تشيليب وقد احمر جفناه سريعًا في علامة على عدم اعتياده الإسراف في الشراب: «إنك تتسرع في توقع الأمور يا سيدي»، ثم أكمل بأهدأ وأبطأ وتيرة ممكنة فقال: «إن واحدة من أكثر ملاحظات زوجتي إثارة للإعجاب، وقد صعقتني حقًّا، هي الإشارة إلى أن السيد مردستون يعلق صورة لنفسه ويطلق عليها: «الطبيعة المقدسة». أؤكد لك يا سيدي أنني قد ذُهلت تمامًا عندما قالت لي زوجتي هذه الجملة. إن السيدات يتمتعن بقدرة عظيمة على الملاحظة، أليس كذلك يا سيدي؟».

قلت: «لا شك في ذلك»، فابتهج لكلامي بشدة.

قال: «كم يسرني أن ألقى موافقة منك على رأيي يا سيدي! أؤكد لك أنه لا يحدث كثيرًا أن أغامر بالتصريح عن رأي خارج مجال الطب. إن السيد مردستون يطلق أحيانًا خطبًا عامة، ويُقال -أو باختصار زوجتي

هي التي قالت ذلك يا سيدي- إنه كلما ازداد الطاغية شرًّا ازدادت عقيدته ضراوة».

«أعتقد أن السيدة زوجتك على حق تمامًا».

أما أقصر الرجال طولًا وأودعهم خلقًا فقد واصل حديثه بشجاعة أكبر قائلًا: «بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول إن ما يطلق عليه الناس بالباطل أنه الدين، ما هو في الحقيقة سوى هوة يمررون من خلالها زهوهم وغطرستهم. أتعلم يا سيدي أنني مضطر إى أن أقول لك...» - وهنا أمال رأسه جانبًا قائلًا: «إنني لا أجد أي تبرير في الكتاب المقدس لما يعتقده السيد مردستون والسيدة أخته؟».

قلت: «ولم أجد تبريرًا له أيضًا».

قال: «إنهما في الوقت نفسه مكروهان للغاية، ونظرًا لأنهما يشعران بقدر كبير من الحرية في إرسال كل من يكرههما إلى جهنم، بل صار لدينا قدر كبير من أبناء حينا في جهنم! مع ذلك يا سيدي، وكما تقول زوجتي، فإنهما يتلقيان عقابًا مستمرًّا، فقد نُفيا داخل أنفسهما ولم يجدا في النهاية إلا أن يلتهما قلبيهما التهامًا، وهما مصدر السوء والشرور نفسه. أما الآن يا سيدي، وفيما يتعلق بعملك الفكري، أرجو أن تسمح لي بالعودة إلى التحدث عنه. ألا يُعرِّضك هذا العمل إلى قدر كبير من الإجهاد؟».

لم أجد صعوبة تُذكر في تحويل انتباه السيد تشيليب عن هذا الموضوع في ظل جرعاته المتتالية من الشراب النجاشي، فحدثته عن

شؤونه الخاصة وقد استمر في ثرثرته حولها لنصف ساعة أخرى تقريبًا. وفهمت من بعض عباراته المبتورة أنه جاء إلى مقهى جرايزان ليقدم شهادته المهنية أمام لجنة متخصصة فيما يتعلق بالحالة العقلية لمريض صار مخبولًا تمامًا من فرط الشرب. قال السيد تشيليب: «إنني أؤكد لك يا سيدي أنني أنفعل وأضطرب للغاية في مثل هذه المواقف. لا أتحمل ما يقولون يا سيدي، كما أن مثل هذه الأمور تفقدني رباطة جأشي تمامًا. أتعلم أني لم أتعافَ إلا من فترة بسيطة بسبب السلوك المخيف لتلك السيدة في ليلة ميلادك يا سيد كوبرفيلد؟».

أخبرته أني كنت في طريقي إلى عمتي «تنين تلك الليلة»[1] في الصباح الباكر، وأنه لو سنحت له الفرصة ليعرفها، لأدرك أنها واحدة من أرق النساء وأفضلهن. لكن يبدو أن فكرة أن يراها مجددًا قد أخافته، فأجاب بابتسامة بسيطة شاحبة ثم قال: «أهي أرق النساء حقًّا يا سيدي، حقًّا؟»، وسرعان ما طلب شمعة، وذهب إلى غرفته كما لو أنه لم يعد يشعر بالأمان في أي مكان آخر، وفي الواقع لم ألحظ أنه يترنح من أثر الشراب النجاشي، ولكنني أظن أن نبضه الهادئ قد زادت دقاته دقتين أو ثلاث دقات في الدقيقة بما يفوق طبيعته منذ تلك الليلة العظيمة التي غضبت فيها عمتي فضربته بقبعتها.

أويت بدوري إلى فراشي بعد أن انتصف الليل وقد أنهكني التعب تمامًا، ثم قضيت نهار اليوم التالي في الحافلة المتجهة إلى دوفر، وما

---

(١) يقصد الإشارة إلى الليلة التي وُلد فيها كوبرفيلد، وقد لاحت العمة للسيد تشيليب كما التنين المخيف.

إن وصلت سالمًا حتى ذهبت إلى عمتي في غرفتها القديمة، وكانت جالسة تحتسي الشاي -صارت ترتدي نظارات الآن- استقبلتني مع السيد دك، والعجوز بيجوتي العزيزة على قلبي -التي صارت مدبرة للمنزل- استقبلتني بذراعين مفتوحتين ودموع من الفرحة. شعرت عمتي باستمتاع كبير حينما بدأنا في الحديث بصفاء عن لقائي بالسيد تشيليب وذكراها المفزعة الباقية في ذاكرته حتى الآن، ثم حكت لي عمتي وبيجوتي الكثير عن الزوج الثاني لأمي المسكينة، وعن تلك المرأة القاتلة أخته، وأحسب أن عمتي لن ترضى بأي ألم أو عقوبة ولن ترضى بأن تطلق عليها اسمًا مسيحيًّا أو دنيويًّا أو أي تسمية أخرى.



# الفصل الستون

## أجنيس

صرت أنا وعمتي بمفردنا، فتحدثنا طوال الليل، وحكت لي كيف أن المهاجرين لا يكتبون إلى ذويهم في الوطن إلا بفيض من أمل وغبطة، وكيف أن السيد ميكوبر سدد الكثير من المبالغ الصغيرة بالفعل لما أسماه «الالتزامات المالية الرسمية» التي تعامل معها بطريقة منظمة ومرتبة، وكما ينبغي أن تكون التعاملات بين رجل وآخر. تحدثنا أيضًا عن جانيت التي عادت إلى خدمة عمتي في دوفر، وقد نفَّذت أخيرًا وعدها بالابتعاد عن الرجال بالدخول إلى عش الزوجية وزواجها من صاحب حانة ميسور الحال، وكيف تراجعت عمتي في النهاية عن مبدأ نبذ المقبلين على الزواج، فساعدت العروس، وتوجت حفل الزفاف بحضورها. تحدثنا في كثير من الموضوعات التي كنت أعرف أغلبها من الرسائل التي وصلتني، كما أن عمتي لم تنسَ بالطبع السيد دك، فأخبرتني أنه ظل مشغولًا باستمرار في نسخ كل شيء وقعت عليه يده، وكيف أنه أبقى الملك تشارلز الأول على مسافة محترمة بسبب هذا الانشغال، ثم قالت لي كيف أن عمله هذا صار من مسراتها وخير جزاء حياته، إذ صار حرًّا وسعيدًا، بدلًا من رتابة عزلته المستمرة. توصلنا في

نهاية الحديث إلى استنتاج عام مفاده أنه ما من إنسان سواها استطاع كشف جوهره النقي.

قالت عمتي وهي تربت على ظهر يدي بينما كنا جالسين جلستنا القديمة أمام المدفأة: «ومتى تنوي يا تروت أن تعود إلى كانتربري؟».

قلت: «سأحضر حصانًا وأذهب به في صباح الغد يا عمتي، إلا إذا قررتِ أن تأتي معي».

قالت عمتي بطريقتها المختزلة المفاجئة: «كلا، إنني أرغب في الاستقرار هنا».

قلت إنني سأمضي إذن على ظهر الحصان، ولولا رغبتي في زيارتها لما توقفت في كانتربري اليوم.

أسعدها قولي لكنها قالت: «يا تروت، كان بوسع عظامي العجوز أن تبقى إلى الغد»، ثم ربتت برقة على ظهر يدي مجددًا وأنا جالس شاردًا في النار أمامي.

أقول إنني كنت شاردًا، لأنني لم أستطع أن آتي إلى هنا مرة أخرى فأصير بالقرب من أجنيس من دون أن أستعيد هذه الأمور الباعثة على الندم التي شغلتني منذ فترة طويلة. قد تكون حدة الندم قد خفَّت، بعد أن تعلمت ما فشلت في تعلمه حينما كانت حياتي وأنا شاب أمامي بكاملها، لكن بواعث الندم ذاتها لم تَقِل. تخيلت أنني أسمع صوت عمتي تقول لي مرة أخرى: «آه يا تروت، إن الحب أعمى، أعمى، أعمى»، فأحسست أنني قد فهمت الآن معناها وأدركت مغزاها.

ظللنا صامتين لبضع دقائق، ثم رفعت عيني بعدها فإذا بي أجد أن عمتي ظلت تراقبني طوال سكوتي، ولعلها كانت تتابع تيار أفكاري، فقد بدا لي الآن أن متابعته صارت سهلة بعد أن كان عنيدًا عصيًّا من قبل.

قالت عمتي: «ستجد أباها أشيب الرأس على الرغم من صلاح أحواله من بقية النواحي. لقد انصلح حاله، وعادت سمعته الطيبة، وستجده قد كف عن قياس جميع مصالح البشر والأفراح والأحزان بمسطرته الوحيدة البائسة. ثق يا بني أن مثل هذه الأشياء لا بد أن تتقلص كثيرًا قبل أن تقاس بتلك الطريقة».

قلت: «معكِ حق».

استطردت عمتي قائلة: «وستجدها جميلة وطيبة ومتزنة ونزيهة وبريئة كما كانت دائمًا، ولو أنني أعرف مديحًا أكبر يا تروت لوصفتها به».

لم يكن ثمة مديح أكبر لها، ولا توبيخ أشد من هذا التوبيخ لي. آه، كيف ضللت بعيدًا؟!

قالت عمتي بنبرة جادة كادت عيناها تفيضان فيها بالدموع: «لو أنها درَّبت الفتيات اللاتي يتطلعن إلى أن يصرن مثلها، فإنها بتوفيق من الله سوف توظف حياتها على أحسن وجه، بل ستصير نافعة وسعيدة كما قالت لي ذات يوم. وكيف لها أن تصير أي شيء سوى نافعة وسعيدة؟!».

كنت أفكر بصوت عالٍ خلال حديثي فقلت: «هل لأجنيس أي...».

قالت عمتي بحدة: «حسنًا، أي ماذا؟».

قلت: «أي حبيب؟».

صاحت عمتي بكبرياء حادة: «لعل لها عشاقًا كثرًا، وكان من الجائز أن تكون قد تزوجت عشرين مرة خلال سفرك يا عزيزي».

قلت: «لا شك... لا شك في ذلك. ولكن هل لديها أي حبيب جدير بها فعلًا؟ أقصد هل لأجنيس حبيب لا يجعلها تلتفت لأي إنسان سواه؟».

جلست عمتي مستغرقة في التفكير لبرهة، وقد أسندت ذقنها إلى يدها، ثم قالت وهي ترفع عينيها صوبي ببطء: «أظن أنها على علاقة بأحد يا تروت».

قلت: «هل هي علاقة موفقة؟».

عاودت عمتي التحدث بلهجة جادة فقالت: «لا يمكنني أن أبوح بالأمر يا تروت، فليس لديَّ الحق في أن أخبرك بالمزيد، لأنها لم تكشف لي أمرها، لكني أظن أن لها حبيبًا وحسب».

نظرت إليَّ في انتباه وقلق شديدين، بل لقد رأيتها ترعش أيضًا، حتى شعرت في هذا الوقت دون سواه أنها كانت تتابع أفكاري الأخيرة، فاستدعيت كل القرارات التي اتخذتها، وكل ما اعتزمت فعله طوال الأيام والليالي الماضية، واستجمعت كل الصراعات التي اعتملت في قلبي، فقلت: «إذا كان الأمر كذلك، فإنني آمل أن...».

قالت عمتي بحدة: «لست متأكدة مما قلته لك، فلا يجب أن تقيم نتائجك على شكوكي، بل عليك أن تُبقي الأمر سرًّا، فلعل ظنوني واهية،

كما أنني لا أملك الحق في الحديث عن أمر أجهله».

استطردت: «وإذا كانت ظنوني صحيحة، فسوف تخبرني أجنيس في الوقت الذي تراه مناسبًا، لأن إنسانة مثلها وضعتها في منزلة الأخت وأخبرتها بالكثير، لن تتردد في إخباري بمسألة ارتباطها».

أزاحت عمتي نظرها عني بالبطء ذاته الذي نظرت به إلى وجهي من قبل، ثم غطت عينيها بيديها واستغرقت في التفكير. وضعت يدها بعدها بقليل فوق كتفي، وجلسنا معًا ننظر إلى الماضي من دون أن نتفوه بكلمة أخرى حتى افترقنا ليلًا.

انطلقت على ظهر الحصان في الصباح الباكر، متذكرًا مشهد أيام المدرسة القديمة. لا يمكنني أن أقول إني مكثت سعيدًا بالأمل الذي راودني بأن أنتصر على نفسي، وإن كنت أفكر في احتمالية رؤية أجنيس قريبًا جدًّا.

وصلت سريعًا إلى الأرض التي سيطرت على ذهني، فتجولت في الشوارع الهادئة حيث بدا كل حجر أمامي كأنه كتاب صبي. تمشيت إلى المنزل القديم ثم تجاوزته بقلب يخشى الدخول، عدت أدراجي ومررت بالشرفة المنخفضة للغرفة التي اعتاد يورايا هيب الجلوس بها في البداية ثم السيد ميكوبر من بعده، ورأيت كيف صارت حجرة صغيرة الآن، كما اختفى منها المكتب، وفيما عدا ذلك، فقد ظل المنزل الرصين القديم نظيفًا ومنظمًا كما كان حين رأيته أول مرة. طلبت من الخادمة الجديدة التي استقبلتني أن تخبر السيدة ويكفيلد أن سيدًا في انتظارها من طرف صديق في الخارج. قادتني الخادمة إلى السلم القديم الفخم ذاته -تنبهت

إلى خطواتي عند المواضع التي كنت أعرفها جيدًا- وصلت إلى غرفة الاستقبال التي ظلت هي الأخرى على حالها. كانت الكتب التي قرأتها بصحبة أجنيس على رفوفها، والمكتب الذي ذاكرت عليه دروسي لليالٍ عديدة لم يزل في الزاوية القديمة المجاورة للطاولة ذاتها، كما أزيلت كل التغييرات البسيطة التي طرأت على المكان حين سكنه يورايا هيب وأمه، وقد عاد كل شيء إلى سابق عهده كما كان في الأيام الخوالي المبهجة.

وقفت عند النافذة ونظرت إلى الشارع القديم وإلى المنازل المقابلة، متذكرًا كيف كنت أراقب هذه المنازل بعد الظهيرة في أيام مطيرة، حينما أتيت إلى هنا لأول مرة، وكيف اعتدت على تأمل الناس ممن يظهرون أمامي من الشرفات، وكيف تتبعتهم بعيني وهم يصعدون ويهبطون درجات السلم بينما تسير النسء فوق الرصيف مصدرات دقات بأحذيتهن، كما تذكرت الأمطار التي انهمرت في خطوط مائلة، والماء الذي تدفق على طول الطريق. عاودني بقوة الشعور الذي اعتدته حين كنت أراقب الرحل والمتشردين ممن يدخلون إلى المدينة في هذه الأمسيات الرطبة، متعرجين في مشيتهم تحت وطأة الحزم المتدلية على نهايات العصي المحمولة على أكتافهم. تذكرت المكان حين يعبَأ برائحة الأرض الرطبة والأوراق والغصون المبللة، وقد عاودني إحساسي بالهواء الذي يهب على وجهي في رحلتي الشاقة.

انفتح الباب الصغير نحو الجدار المزخرف فانتبهت والتفت. التقيت بعينيها الصافيتين الجميلتين بينما تدنو مني، ثم وقفت ومدت يدها، فأمسكت بها بين ذراعي قائلًا:

«يا أجنيس، يا فتاتي العزيزة، لقد فاجأتكِ بمجيئي من دون سابق إنذار».

قالت: «لا، كلا، إنني سعيدة أيما سعادة برؤيتك يا تروتوود».

فقربتها من قلبي، ثم مكثنا صامتين لبعض الوقت. جلسنا بعد ذلك متقاربين وقد أدارت وجهها الملائكي نحوي وقد ارتسمت عليه ملامح الترحاب التي طالما حلمت بها في نومي وصحوي لأعوام طوال.

كم كانت صادقة عذبة وكم لاحت أمامي فائقة الجمال. كنت أكن لها امتنانًا بالغًا، وقد كانت عزيزة على قلبي إلى حد لم أستطع معه التعبير عن مكنونه. حاولت أن أباركها وأدعو لها... حاولت أن أشكرها... ثم حاولت أن أخبرها -كما فعلت كثيرًا في رسائلي إليها- بمدى تأثيرها عليَّ وقوة سلطانها على قلبي، لكن ضاعت كل جهودي سدى، فقد كان حبي وفرحي أبكمين.

هدَّأت أجنيس من اضطرابي بصفائها الرائع، وأعادتني إلى وقت افتراقنا، وتحدثت عن إيميلي التي زارتها سرًّا مرات عديدة، وحدثتني برقة عن شجاعة دورا، وبحس غريزي لا يخطئ لقلبها النبيل لمست أوتار ذاكرتي بأقصى ما يكون من نعومة وتناغم، حتى خيل إليَّ أنني أستمع إلى موسيقى حزينة بعيدة، فأيقظت مشاعري من دون أن أرغب في أن أهرب من ذكرى أثارتها، وكيف أنزوي عنها، وقد امتزجت هذه الأنغام بروحها الغالية، وهي الملاك الذي أرشدني في هذه الحياة؟!

قلت لها بعد فترة قصيرة: «وأنتِ يا أجنيس... حدثيني عن نفسكِ. إنكِ لم تخبريني بأي شيء تقريبًا عن حياتكِ طوال الفترة الماضية».

أجابت بابتسامتها الفاتنة: «وماذا يمكنني أن أقول؟ إن أبي بخير، وإنك لترانا هنا ننعم بالهدوء في منزلنا، بعد أن زالت مخاوفنا واستعدنا منزلنا، وبمعرفة حالنا يا تروت العزيز تكون قد عرفت كل شيء».

قلت: «أهذا كل شيء يا أجنيس؟».

نظرت إليَّ وقد ارتسمت الدهشة على ملامحها.

قلت: «هل ثمة شيء آخر يا أختي العزيزة؟».

بدا وجهها شاحبًا وقد ذبل مجددًا في هذه اللحظة، وابتسمت فلاحت ابتسامتها لي وقد خالطتها لمحة من حزن، وهزت رأسها.

كنت أسعى إلى الحديث معها بما ألمحت به إلى عمتي، فقد كنت متألمًا بشدة من السر الذي أخبرتني به عمتي، فأردت أن أتشجع ومن ثَم كان عليَّ أن أُروِّض قلبي وأنفذ واجبي تجاهها. لكنني أحسست أنها قد شعرت بالضيق، فلم أعاود ذكر هذا الأمر مرة ثانية.

سألتها: «هل أنتِ منشغلة بأمور كثيرة يا عزيزتي أجنيس؟».

أجابتني وهي تنظر إليَّ مجددًا بكل هدوئها المشرق: «أتقصد عملي بالمدرسة؟».

قلت: «نعم. إنه عمل مجهد، أليس كذلك؟».

ردت قائلة: «إن عملي ممتع للغاية حتى إنني لا أستطيع أن أصفه بأنه مجهد».

قلت: «لا يصعب عليكِ أي شيء فيه خير ومنفعة للناس».

أشرق وجهها بالدماء ثم تلاشى لونه مرة ثانية، ثم أبصرت ابتسامتها الحزينة ذاتها بينما تطأطئ رأسها.

قالت أجنيس بوجه باش: «سوف تنتظر حتى ترى أبي وتقضي اليوم معنا، أليس كذلك؟ وربما تنام أيضًا في غرفتك، ما رأيك؟ إننا ندعوها دائمًا غرفتك».

لم أستطع إجابة هذه الدعوة، لأنني وعدت عمتي بأن أعود على ظهر حصاني إليها هذا المساء، لكنني قلت لها إنني سأقضي النهار معهما بكل سرور.

قالت أجنيس: «إنني مضطرة إلى أن أظل سجينة لبعض الوقت، إلا أن الكتب القديمة يا تروتوود، وكذلك الموسيقى القديمة؛ تؤنسني».

تلفت حولي قائلًا: «لم تزل الزهور القديمة هنا، أقصد الأنواع القديمة نفسها».

عاودت أجنيس حديثها مبتسمة: «لقد سرني أن أُبقي على كل شيء في غيابك كما كان حينما كنا طفلين، لأنني أحسب أننا كنا حينها سعيدين للغاية».

قلت: «يعلم الله كم كنا سعيدين!».

قالت أجنيس وهي تنظر بعينيها الحائرتين إليَّ: «كان كل شيء صغير هنا يذكرني بأخي، فكم كان رفيقًا عزيزًا، حتى هذه...»، وهنا أشارت لي إلى سلة صغيرة مليئة بالمفاتيح لا تزال معلقة من أحد جوانبها، ثم قالت: «لا تزال تدندن حين تهتز بأنغام قديمة».

ابتسمتْ مجددًا ثم خرجت من الباب الذي أقبلت منه في البداية.

لم يكن بوسعي سوى الحفاظ على هذه العاطفة الأخوية التي كانت عندي بمثابة الواجب الديني، لأنها كل ما تبقى لي، بل هي كنزي الحقيقي، فلا أستطيع أن أخلخل يومًا أساسات هذه الثقة والعاطفة المقدستين اللتين منحتهما لي، ولا أتخيل ضياعهما، ولن يمكنني استعادتهما مجددًا. وضعت هذا القرار نصب عيني دومًا، وكلما ازددت حبًّا لها، ألزمت نفسي بألا أنساه أبدًا.

سرت في الشوارع، وقد رأيت ذات مرة الجزار؛ عدوي القديم، وقد صار شرطيًّا يعلق شارته في المتجر، وإذا بي أذهب لألقي نظرة على المكان الذي عاركته فيه، وهناك تذكرت الآنسة شيبرد والآنسة لاركنز الكبيرة وكل مشاعر الحب والإعجاب والكره في تلك الأيام، فأدركت أن شيئًا منها لم يستمر على طول هذا الزمن سوى أجنيس، وبدت لي نجمًا ساطعًا يضوي فوق سمائي، ويزداد بهاءً وعلوًّا. عدت مرة أخرى فوجدت أن السيد ويكفيلد قد عاد إلى المنزل من حديقته التي تبعد ميلين تقريبًا عن البلدة، حيث صار يذهب إليها كل يوم تقريبًا ليشغل نفسه، كما أنني وجدته كما وصفته عمتي لي. جلسنا لتناول العشاء وبصحبتنا نصف دستة من الفتيات الصغيرات، ولم يبدُ لي سوى ظل لصورته الوسيمة المعلقة على الحائط.

استعدت مجددًا السكينة والصفاء المرتبطين بهذا المكان القديم في ذاكرتي، وغمرني وانتشت حواسي، أنهينا العشاء، من دون أن يحتسي السيد ويكفيلد شرابه، ولم أرغب في شيء منه كذلك، فصعدنا

إلى أعلى حيث انخرطت أجنيس ورفاقها الصغار في الغناء واللعب والعمل. ما إن شربنا الشاي حتى انصرفت الفتيات وجلسنا معًا نتحدث عن الأيام الخوالي.

قال السيد ويكفيلد بينما يهز رأسه الأشيب: «إن دوري في تلك الأيام الخوالي -كما تعرف يا تروتوود- يبعث على الأسف، بل يدعو للندم الشديد والأسى، ولكنني لن ألغيه وإن كنت مستطيعًا ذلك».

صدقت كلامه، بينما رحت أتلفت ناظرًا إلى الوجه الذي بجانبه.

استطرد قائلًا: «إن كنت قد أوقفت كل ذلك، فإنني كنت سأفقد ذاك الصبر والإخلاص والمثابرة والحب الطفولي. آه، لم أكن لأنساه ولو نسيت نفسي».

قلت بنبرة من لين: «إنني أفهمك يا سيدي، بل وأحترم موقفك وأبجله».

استأنف حديثه قائلًا: «إلا أنه ليس بوسع إنسان - ولا حتى أنت أيضًا - أن يدرك كم قاست وكم عانت. آه يا عزيزتي أجنيس».

وضعت يدها على ذراعه تتوسله أن يتوقف عن الحديث، وقد شحب وجهها للغاية.

تنهد، فأدركت أنه منع نفسه من الحديث عن بعض التجارب التي قاستها، أو التي كانت تقاسيها كما أخبرتني عمتي، ثم قال: «حسنًا، إنني لم أخبرك قَطُّ يا تروتوود شيئًا عن أمها. فهل حدثك أحد عنها؟».

قلت: «أبدًا يا سيدي».

قال: «إنها حكاية قصيرة، وإن صارت المعاناة التي تبعتها شديدة. لقد تزوجتني بعد أن عارضت رغبة أبيها بعدم الزواج مني، فتبرأ منها، ولقد توسلتْ إليه أن يسامحها قبل أن تولد أجنيس وتوجد في هذا العالم، إلا أنه كان رجلًا قاسيًا للغاية، وكانت أمها قد ماتت منذ فترة طويلة. لقد صدها والدها فباتت كسيرة الفؤاد».

أسندت أجنيس رأسها فوق كتفه وأحاطت عنقه بذراعها.

قال: «كان قلبها عطوفًا ورقيقًا، فكسر. لقد عرفتُ طبيعتها الرقيقة العذبة، ولم يتفهمها إنسان مثلي. أحبتني حبًّا جمًّا لكنها لم تسعد يومًا، فقد كانت تعاني دائمًا في الخفاء تحت وطأة هذا الضغط، كما كانت ضعيفة الجسد مكتئبة كذلك في هذه الفترة، خاصة بعد أن تلقت صده الأخير لها، فلم يكن صده هو الأول من طرفه، بل لقد صدها مرات عدة، فذبلت إثر معاناتها ثم ماتت. تركت لي أجنيس وعمرها لم يتجاوز الأسبوعين فقط، كما تركت لي هذا المشيب الذي تتذكرني به حينما أتيت إلى هنا لأول مرة».

قبَّل أجنيس على وجنتها، ثم مضى يقول:

«كان حبي لطفلتي العزيزة حبًّا فائقًا، إلا أنني كنت لم أزل عليل الوجدان. لن أزيد في القول، فأنا لا أتحدث هنا عن نفسي يا تروتوود، بل عن أمها وعنها، وإنني على يقين من أنك ستفهم حقيقة الأمر برمته، إذا أعطيتك أي لمحة عما أنا عليه الآن أو على من كنته في الماضي. ولست في حاجة بالطبع لأن أخبرك شيئًا عن شخصية أجنيس، فقد كنت أقرأ في شخصيتها دائمًا شيئًا من قصة والدتها المسكينة، ولذلك أقول

ما قلته لكما الليلة ونحن الثلاثة مجتمعين مجددًا بعد كل هذه التغيرات التي حدثت، وها قد قلت كل شيء».

أضفى رأسه المحني ووجهها الملائكي وحبها له معاني أكثر تأثيرًا وأعمق مما أدركته عنهما يومًا. أما إن رغبت في شيء أميز به هذه الليلة التي ائتلف فيها الشمل من جديد، لكان هو وحده أفضل ما يميزها.

نهضت أجنيس من جلستها الطويلة إلى جانب والدها، وذهبت بهدوء إلى البيانو وعزفت بعض المقطوعات القديمة التي اعتدنا سماعها كثيرًا في هذا المكان.

سألتني أجنيس وأنا واقف بالقرب منها: «هل تنتوي السفر مجددًا؟».

قلت: «وما رأي أختي العزيزة في ذلك؟».

«أرجو ألا تسافر».

«إذن لا أنتوي السفر يا أجنيس».

قالت بلطف: «أظن أنك لا تنوي ذلك حقًّا يا تروتوود، ما دمت قد سألتني عن رأيي في سفرك. إن شهرتك ونجاحك المتزايدين يدعمان قدرتك على أن تسلك المسار الأصلح، ولو بوسعي أن أستغني عن أخي العزيز...»، وجهت عينيها نحوي بينما أكملت قائلة: «لعل الزمن لا يقدر على الاستغناء عنه».

قلت: «يجدر بكِ أن تعرفي أنكِ صنعتِ ما أنا عليه اليوم يا أجنيس».

«أأنا من صنعك يا تروتوود؟».

قلت بعد أن انحنيت صوبها: «نعم يا أجنيس، يا فتاتي العزيزة، لقد حاولت أن أخبركِ عندما التقينا اليوم شيئًا ظل يراود عقلي منذ أن ماتت دورا. أتذكرين يا أجنيس عندما نزلتِ إليَّ في غرفتنا الصغيرة وأشرتِ لي إلى أعلى؟».

عاودت الحديث وقد امتلأت عيناها بالدموع: «آه يا تروتوود، لقد كانت محبة للغاية، وحسنة الظن بشدة، وفي ريعان الشباب، فهل بوسعي أن أنسى ذلك؟».

قلت: «لم أزل أفكر فيكِ بالصورة ذاتها، فأنتِ بالنسبة لي كما كنتِ بالأمس يا أختي العزيزة، فأراكِ دائمًا تشيرين إلى أعلى يا أجنيس، فترشدينني دومًا إلى الأفضل والأسمى».

اكتفت أجنيس بالإيماءة برأسها، وقد أبصرت خلف دموعها ابتسامتها الهادئة الحزينة ذاتها.

قلت: «إنني شديد الامتنان لكِ يا أجنيس ومدين لكِ إلى درجة لا يمكنني معها التعبير عما يشعر به قلبي تجاهكِ. أريدكِ أن تعرفي، ولا أعرف كيف أخبركِ بهذه المحبة حتى الآن، أني سأظل أعتني بكِ طوال حياتي وأسترشد بكِ كما استرشدت بكِ في أحلك الأيام التي مررت بها، ومهما حدث بعد ذلك، أو أيًا ما كانت علاقاتكِ الجديدة، أو مهما حدث من تغيرات بيننا، فإنني سأظل على استرشادي بكِ وسأبقي على حبي لكِ كما هو حبي لكِ الآن، وكما أحببتكِ دومًا طوال الوقت. ستظلين طوال العمر مصدر قوتي وسلواني كما كنتِ دائمًا، وسأظل دائمًا أراكِ أمام وجهي تشيرين إلى أعلى حتى آخر العمر يا أعز أخت».

وضعت يدها في يدي، وأخبرتني كم هي فخورة بي وبكل ما قلته لها على الرغم من أنها ترى أني تجاوزت في مديحها بما يفوق ما تستحقه، ثم بدأت تعزف برقة، ولكن من دون أن تنحِّي عينيها عني.

قلت لها: «أتعرفين يا أجنيس أن ما سمعته الليلة يبدو لي بصورة غريبة جزءًا من شعوري الذي أحسسته حين رأيتكِ لأول مرة، ويشبه الشعور الذي راودني عندما جلست بجانبكِ في أيام دراستي القاسية؟».

أجابت بابتسامة: «لقد عرفتَ أنني يتيمة الأم، فشعرت بالعطف تجاهي».

قلت: «كان الأمر أكبر من ذلك يا أجنيس، لقد بدا الأمر حينها كما لو أني عرفت هذه القصة برمتها، ومن ثَم أدركت أن شيئًا ما رقيقًا وناعمًا على نحو يتعذر تفسيره يحيط بكِ؛ شيئًا قد يكون باعثًا على الأسى في أي إنسانة أخرى سواكِ، أما الآن، فإنني أستطيع أن أفهم حقيقة هذا الشعور».

واصلت العزف برقة وهي لا تزال تنظر إليَّ.

قلت: «هل تسخرين من تعلقي بمثل هذه الخيالات يا أجنيس؟».

«كلا».

«وهل ستسخرين من قولي بأنني أصدق فعلًا أني شعرت حينها أنكِ ستبقين على المحبة بإخلاص لي وسط كل ما واجهته من إحباط، وأنكِ لن تتوقفي أبدًا عن محبتي كذلك طوال حياتكِ؟ هل ستسخرين من حلم كهذا؟».

«كلا أبدًا... مطلقًا».

ارتسم على وجهها للحظة ظل حزين، لكنه سرعان ما تلاشى، ثم واصلت العزف وهي تنظر إليَّ بابتسامتها الهادئة.

كنت في طريق عودتي في ليل موحش، بينما تهب الريح عليَّ كما الذكرى المضطربة، فرحت أفكر فيما وقع وخشيت ألا تكون أجنيس سعيدة، لأنني لم أكن سعيدًا كذلك، ولكني كنت بحديثي قد وضعت ختمًا على الماضي، فتمثلتها أمامي مشيرة إلى أعلى، وتخيلت أنها تشير إلى أقدار السماء المنبسطة أعلى رأسي، فلعلي أحبها حبًّا لا تدرك الأرض سره، ولعلي مخبرها يومًا بهذا الصراع الذي اعتمل داخلي عندما أحببتها.





# الفصل الواحد والستون

## نادمان يستحقان الشفقة

استقررت في منزل عمتي في دوفر لفترة من الزمن، حتى أنتهي من كتابي الذي سيستغرق عدة أشهر، فتابعت هناك مهمتي بهدوء، جالسًا عند النافذة التي نظرت منها إلى القمر المنطبع على صفحة المياه، فتذكرت صورته نفسها التي رأيتها حين آواني سقف هذا المنزل أول مرة.

لقد التزمت بما قررته فلم أُشر إلى أعمالي الأدبية إلا حين ارتبطت عرضًا بمسار أحداث حكايتي، ولن أتطرق هنا إلى طموحاتي وأفراحي ومخاوفي وانتصاراتي في مجال الفن، فقد قلت قبل ذلك إني كرست نفسي بحق لهذا العمل وبأقصى ما يكون من جدية، فوهبته طاقة روحي كلها، وإذا كانت ثمة قيمة للكتب التي ألفتها فيما مضى، فسأجد قيمة فيما سأكتبه في المستقبل، وإن انعدمت القيمة فإن ما أكتبه مهدرًا، ولن يلتفت إليه إنسان.

كنت أذهب إلى لندن من حين لآخر، لأترك نفسي هائمًا في دوامة الحياة فيها، أو لأستشير ترادلز في أمر يتعلق بالعمل، وكان في غيابي يُدبر أموري على أفضل وجه، كما صارت أعمالي في ازدهار. كان من مساوئ شهرتي أنها جلبت لي كمية هائلة من الخطابات من أناس لا تربطني بهم أي علاقة، بل كان محتوى الخطابات في الأغلب فارغًا، وتصعب الإجابة عنه، ومن ثَم اتفقت مع ترادلز على أن يعلق اسمي على بابه، مما جعله يستلم من ساعي بريد المنطقة أكوامًا من الخطابات باسمي، ورحت على فترات متقطعة أنكب على فحصها كما لو أنني مدين لأعمال بالوزارة، ولكن من دون أي أجر.

كانت تصلني بين الحين والآخر وسط هذه المراسلات مقترحات من كثير من الدخلاء ممن يتربصون بي في مجلس العموم، فيعرضون عليَّ أن يتدربوا في سلك المحاماة تحت غطاء مستعار مستغلين اسمي، مع الوضع في الاعتبار أن آخذ الخطوات اللازمة المتعلقة بتقييد الأسماء في سجلات الوكلاء، في مقابل حصولي على نسبة من الأرباح، فما كان مني إلا أن رفضت هذه العروض، لأنني كنت واعيًا بوجود كثيرين من هؤلاء المتدربين المنتحلين، وأن حال مجلس العموم صار مزريًا فلا حاجة لاقتراف مزيد من السوء.

عادت الفتيات إلى منزل والدهن بعد أن اشتهر اسمي على باب ترادلز، وظل الفتى حاد الملامح متواريًا طوال اليوم، كما لو أنه لم يسمع قَطُّ عن صوفي، فانزوى في غرفة خلفية، خافضًا عينيه عن عمله، ناظرًا إلى شريط قاتم صغير من الحديقة يحوي مضخة. كنت أجد صوفي

في صورة ربة المنزل المشرقة دومًا، وإذا بها تدندن طوال الوقت أغاني ديفونشير حينما لا تتناهى إلى أذنيها أصوات أقدام غريبة تصعد السلم، فتُهدِّئ بعذوبةِ صوتِها هذا الفتى حاد الملامح المنزوي في غرفته.

تعجبت في بداية الأمر حين كنت أرى صوفي تكتب في أحد الدفاتر أحيانًا، واندهشت حين لاحظت أنها تغلق الدفتر دائمًا حين تشعر بوجودي ثم تسرع إلى مواراته في الدرج، لكن سرعان ما عرفت السر، فقد عاد ترادلز ذات يوم من المحكمة إلى المنزل وسط قطرات المطر المنهمرة الباردة، ثم أخرج من مكتبه ورقة، وسألني عن رأيي في هذا الخط. صاحت صوفي، وقد كانت تجفف نعلي ترادلز أمام المدفأة: «آه، لا تفعل ذلك يا توم».

قال توم مبتهجًا: «ولمَ لا يا عزيزتي؟»، ثم التفت إليَّ مستطردًا: «ما رأيك في هذا الخط يا كوبرفيلد؟».

قلت: «إنه خط منمق وبديع وغير تقليدي، ولا أحسب أني رأيت خطًّا بهذه الدقة من قبل».

قال ترادلز: «وهل يبدو الخط لامرأة؟».

كررت: «أتقصد أنه خط امرأة؟ إن خطوط النساء لا تكون إلا أشبه بالطوب والقذائف».

انخرط ترادلز في نوبة ضحك مجلجلة، وأخبرني أنه خط صوفي، وأنها أقسمت وأعلنت أنه سيحتاج إلى ناسخ قريبًا وأنها ستصير هذا الموظف، وأنها أتقنت هذا الخط بعد تقليد إحدى العينات، وأنها سوف

تنتهي بسرعة من نسخ... لقد نسيت عدد الأوراق التي قالت إنها سوف تنجزها في الساعة. كانت صوفي مرتبكة جدًّا بعد أن أخبرني ترادلز بالأمر كله، وقالت إنها لم تكن مستعدة للإعلان عن هذا الأمر لولا أن توم قد عين نفسه قاضيًا، إلا أن توم عارضها مؤكدًا أنه سيفخر دائمًا بها في مختلف الظروف والمناسبات.

قلت ضاحكًا بعدما انصرفت صوفي: «يا لها من زوجة صالحة وفاتنة بكل معنى الكلمة يا عزيزي ترادلز!».

قال ترادلز: «يا عزيزي كوبرفيلد، إنها أعز فتاة بلا استثناء. ويا لطريقتها البارعة التي تدير بها هذا المكان، ودقتها ومعرفتها بوسائل إدارة المعيشة واقتصادها وترتيبها ومرحها... آه يا كوبرفيلد».

قلت: «معك كل الحق في كل ما مدحتها به. ويا لك من رجل سعيد محظوظ به، وإنني على يقين من أنكما ستسعدان معًا، وسيحرص كل منكما على أن يصير الآخر أسعد إنسان في هذا العالم».

أردف ترادلز قائلًا: «إنني على يقين من أننا اثنان من أسعد الناس، وإنني لأعترف بذلك في كل الظروف. كم أشعر بالغبطة كلما رأيتها تنهض حاملة الشمعة في تلك الصباحات الغائمة، منشغلة بتلبية احتياجات اليوم، فتذهب إلى السوق قبل حضور الموظفين إلى مكاتبهم، غير مبالية بسوء الطقس، كما أنها تبتكر وجبات العشاء الصغيرة من أبسط المكونات، فتصنع الحلوى وتعد الفطائر، وتضع كل شيء في مكانه الصحيح، كما تحافظ على أناقتها وزينتها دائمًا، وتنهض ليلًا معي مهما كان الوقت متأخرًا، فإذا بها مبتهجة ومشجعة دومًا! فلا

أستطيع أحيانًا أن أصدق أنها تفعل كل هذا لأجلي أنا يا كوبرفيلد».

لاح مسرورًا بينما ارتدى نعليه اللذين كانت تُدفِّئهما أمام المدفأة، وقد مد ساقه ليسندهما إلى سياج المدفأة باستمتاع بالغ.

قال ترادلز: «لا أستطيع أحيانًا أن أصدق ما حدث فعلًا، فيا لها من ملذات أسعدتنا! إن سعادتنا لا تكلفنا ثمنًا باهظًا يا عزيزي، لكنها مدهشة ورائعة، فحين نكون هنا في المنزل في المساء فنغلق الباب الخارجي ونسدل هذه الستائر التي خاطتها بنفسها، فأي مكان آخر سوى منزلنا ننعم فيه براحتنا وسكينتنا؟ أما حين يصفو الجو فإننا نخرج للمشي معًا في المساء، فنجد الشوارع تفيض بالمتعة والبهجة لوجودنا. ننظر عبر واجهات المتاجر الزجاجية الراقية التي تبيع المجوهرات، فأسأل صوفي أيًا من الحيَّات ذات الأعين الماسية الملتفة حول نفسها، وقد ثبتت فوق حامل من حرير أبيض، تحب اقتناءها إذا كنت سأشتريها لها؟! تريني صوفي الساعات الذهبية ذات الغطاء المرصع بالجواهر، ذات العقارب التي تدور آليًا، فتسألني أيًا منها أحب أن تشتريها لي إذا ما استطاعت شراءها؟! نختار مختلف الأغراض من ملاعق وشوك وأدوات السمك وسكاكين الزبدة وملاقط السكر التي نفضلها معًا، فنتصرف كما لو أن بوسعنا تحمل كلفتها، ونتخيل أننا اشترينا كل ما اخترناه فعلًا! نمشي في الميادين والشوارع الرئيسة فنرى منزلًا معروضًا للبيع فنلقي عليه نظرة أحيانًا، ونتساءل كيف سنُقسِّم ذاك المنزل لو أنني صرت قاضيًا، ثم نشرع في تقسيمه بالفعل، فهذه الغرف ستكون للبنات وتلك لفلان وهكذا، إلخ، حتى نتوصل إلى ما إن كان منزلًا كهذا

سيرضينا أم لا. نشتري تذاكر مخفضة أحيانًا فنجلس في صحن المسرح الذي تنبعث منه الروائح، إلا أننا نستمتع حقًّا بمشاهدة المسرحية، حتى تتأثر صوفي بالمسرحية مصدقة كل كلمة فيها، كما أصدقها تمامًا. أما في طريق عودتنا إلى المنزل فإننا قد نشتري شيئًا قليلًا من أحد المطاعم أو بعض المحار من بائع السمك فنعد هنا عشاءً شهيًّا رائعًا، ونتحدث عما شاهدناه في رحلتنا. يمكنك الآن أن ترى يا كوبرفيلد أنني لو كنت رئيسًا للوزراء لما استطعت فعل ذلك كله».

قلت في نفسي: «بل كنت ستفعل ما تريد أينما كنت يا عزيزي ترادلز». ثم قلت له في صوت مرتفع: «يا للطفك كم أنت ممتع، هل ترسم الهياكل العظمية حتى الآن يا ترادلز؟».

قال ترادلز ضاحكًا وقد احمر وجهه: «لا يمكنني أن أنكر أني لم أزل أرسمها إلى الآن يا عزيزي كوبرفيلد. فقد جلست في أحد المقاعد الخلفية منذ بضعة أيام في محكمة الملك، ممسكًا بقلم في يدي، فوددت أن أجرب إذا ما كنت محتفظًا بهذه المقدرة أم لا، وأخشى أن يكون قد خيل إليَّ أنني أبصر هيكلًا عظميًّا ذا شعر مستعار على حافة منصة القضاء».

ضحكنا بصدق من قلوبنا، ثم نظر ترادلز نحو نار المدفأة مبتسمًا وقد لاح عليه التأثر، بينما يردد بتسامحه المعتاد: «آه يا كريكل العجوز».

لم أستطع قَطُّ مسامحة هذا الرجل على الطريقة التي كان يضرب بها ترادلز وإن رأيت ترادلز مستعدًّا لمسامحته، فقلت: «لقد وصلني خطاب من هذا النذل العجوز».

تساءل ترادلز: «أتقصد رسالة من الناظر كريكل؟ أحقًّا ما تقول؟».

قلت له بينما أقلِّب في رسائلي: «إنه واحد من الناس الذين انجذبوا إليَّ بعدما ارتفع شأني وزادت شهرتي وذاع صيتي، واكتشفوا أنهم كانوا دائمًا منجذبين لي بشدة. إنه لم يعد الآن ناظرًا يا ترادلز، بل تقاعد، وإنه الآن قاضٍ في مقاطعة ميدلسكس».

كنت أحسب أن ترادلز سيتفاجأ من سماع هذه الأنباء، لكنه لم يُبدِ أي اندهاش مطلقًا.

قلت: «كيف تظن أنه وصل إلى هذا المركز؟».

أجاب ترادلز: «يا للعجب! كم من الصعب أن أجيب عن هذا السؤال، إذ لعله انتخب واحدًا من أعضاء البرلمان هناك، أو أقرض شخصًا ما مالًا، أو اشترى شيئًا من أحد، أو لعله قدم خدمة إلى شخص ممن له قرابة بالمحافظ في هذه المقاطعة، فرشحه لهذا المنصب».

قلت: «في كل الأحوال لقد صار في هذا المنصب، وقد كتب إليَّ هنا أنه سيسعد لو أراني على أرض الواقع نظامه الفعال الوحيد للانضباط داخل السجن، وطريقته الفريدة غير القابلة للتحدي للإصلاح والتهذيب، وهي كما تعرف طريقة الحبس الانفرادي. فما رأيك؟».

قال ترادلز وقد بدت عليه الشجاعة: «أتقصد رأيي في هذا النظام؟».

«كلا، بل أقصد رأيك في قبول العرض. هل ترغب في الذهاب معي؟».

قال ترادلز: «لا مانع عندي».

«سأعلمه بالموافقة على دعوته إذن، لكنني لا أريد أن يشوب اتفاقنا شيء، فأود أن أتأكد من أنك لم تزل تذكر أنه كريكل ذاته الذي طرد ابنه من بيته، وتصور أنه قد اعتاد فعل الأمر نفسه مع زوجته وابنته».

قال ترادلز: «نعم أتذكره تمامًا».

قلت: «إنك إن قرأت خطابه، فستجده أرق الناس في معاملته للسجناء ممن أدينوا بمختلف أنواع الجرائم، لكنني لا أستطيع أن أتلمس رقته على أي صنف آخر من المخلوقات».

هز ترادلز كتفيه، ولم يبدُ متفاجئًا على الإطلاق، لم أكن أتوقع منه أن يندهش، بل إنني لم أتفاجأ مطلقًا، وإلا كانت ملاحظتي لأمور أخرى ساخرة في الحياة أمرًا هزيلًا وغير كافٍ. رتبنا موعد الزيارة، ثم كتبت إلى السيد كريكل في تلك الليلة لأعلمه بالموعد.

انطلقنا في اليوم المحدد -وأظن أنه كان اليوم التالي مباشرة، وهذه تفصيلة غير مهمة- فذهبت أنا وترادلز إلى السجن الذي كانت للسيد كريكل فيه مكانة وسلطة. كان السجن عبارة عن بناية هائلة وصلبة تكلف بناؤها مبلغًا كبيرًا. ما إن اقتربنا من البوابة، حتى لم أستطع منع نفسي من التفكير في الضجة الهائلة التي قد تحدث في البلدة إذا اقترح إنسان إنفاق نصف المبلغ الذي أنفق على تشييد هذا البناء، في تشييد مدرسة صناعية للشباب أو ملجأ للعجزة المحتاجين.

التقينا بمعلمنا القديم في مكتب تم تصميمه على نطاق واسع، يصلح لأن يكون أحد مكاتب الدور الأرضي ببرج بابل. وقد لاح

معلمنا القديم وسط مجموعة مؤلَّفة من رجلين أو ثلاثة رجال من أنشط المأمورين بالسجن، بالإضافة إلى بعض الزوار الذين أحضروهم أمامه. استقبلني السيد كريكل استقبال من له الفضل في تشكُّل عقلي في السنين الماضية، كما لو أنه طالما أحبني أو عاملني بلطف دائم. قدمت له ترادلز، فتصرف السيد كريكل معه بطريقة مشابهة ولكن بدرجة أقل، فتعامل كما لو أنه المعلم الأبدي، والفيلسوف المرشد. كان معلمنا الموقر قد شاخ وتقدم به العمر فلم يتحسن مظهره، بل كان وجهه متقدًا كما عهدناه دائمًا، وعيناه صغيرتين ضيقتين، بل قد صارتا غائرتين أكثر من أي وقت مضى، أما رأسه الأشيب الندي الهزيل فظل كما أتذكره تقريبًا، إلا أن الأوردة الدموية السميكة في رأسه الأصلع قد لاحت أشد قبحًا من ذي قبل.

بدأنا جولتنا الاستكشافية بعد أن تبادل هؤلاء السادة بعض الأحاديث، والتي قد تشي بأنه لا يوجد في هذا العالم ما يمكن أن يؤخذ بعين الاعتبار سوى توفير الراحة القصوى للسجناء بأي ثمن، وأنه ما من شيء على هذه الأرض الواسعة يمكن فعله خارج أبواب هذا السجن.

بدأت جولتنا مع موعد تناول العشاء، فاتجهنا أولًا إلى المطبخ الكبير حيث يحصل كل سجين على طعامه في زنزانته الانفرادية، بكل دقة وانضباط كما عقارب الساعة. تنحيت بترادلز جانبًا وقلت له إنني لأعجب! هل شعر أي إنسان هنا بالتناقض الصارخ بين هذه الوجبات الوفيرة المختارة بعناية وبين وجبات العشاء التي تُقدَّم، لن أقول للمحتاجين، بل للجنود والبحارة والعمال وأغلب أطياف المجتمع من

العمال الأمناء، ممن لا نجد فيهم واحدًا من وسط خمسمائة يستطيع أن ينال مثل هذا العشاء الطيب. أدركت باختصار أن هذا النظام قد ترسخ في عقلية الناس، بعد أن بدد جميع الشكوك حوله وسد ذرائع أغلب العيوب، كما لم يتصور أي إنسان إمكانية تحقيق أي نظام سواه.

رحنا نتجول في بعض الممرات الفخمة، فسألت السيد كريكل وأصدقاءه عن الميزات الرئيسة المرجوة من هذا النظام الشامل والمحكم. عرفت منهم أن الميزة الرئيسة هي العزل الكامل للسجناء، بحيث لا يعرف أحد منهم هنا شيئًا عن الآخر، وتحويل السجناء إلى حالة عقلية سليمة تفضي بهم إلى الندم والتوبة الخالصة.

صُعِقت حين بدأنا زيارة بعض الأفراد في محبسهم. رحنا نجتاز الممرات التي تفضي إلى هذه الزنازين، وقد أوضحوا لنا أن الذهاب إلى الكنيسة أو ما إلى ذلك قد يوفر احتمالية قوية لأن يتعرف كل سجين على الآخر، وأن يؤدي الأمر إلى قدر كبير من التواصل بينهم. وإلى الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات الآن، فقد ثبت أن الأمر على هذا النحو، ولكن بما أن التلميح بأمور تتعلق بذهاب السجناء إلى الكنيسة قد يكون بمثابة تجديف على قداسة النظام، فإنني منعت نفسي عن خوض الحديث في الأمر، وأقررت إذن بإمكانية التوبة بجدية.

راودتني هنا مجددًا شكوك عظيمة، فقد وجدت أشكالًا سائدة من التوبة تبدو كأزياء على آخر صيحة يتركها المرء بالخارج سواء كانت معطفًا أو صدرية كالمعروضة في واجهات متاجر الأزياء، كما وجدت هنا قدرًا هائلًا من الاعترافات بلا اختلاف حقيقي بين أشكالها إلا بنزر

يسير، بل ليس ثمة فوارق بينها إلا في مسمياتها -وهو أمر مريب للغاية- كما عاينت كثيرًا من الثعالب التي تفسد الكروم، خاصة إن تعذر الوصول إلى ثمارها[1]، لكني وجدت عددًا قليلاً من الثعالب يجدر بالمرء أن يثق بها ضمن هذه المجموعة. وعلاوة على ذلك وجدت أن أكثر السجناء اعترافًا بخطاياهم، هم أكثرهم إثارة للاهتمام، إذ كان خداعهم وخيلاؤهم وحاجتهم إلى الإثارة وحبهم للخداع -وهي صفات شائعة في أغلبهم بما يفوق الخيال- صفات مكتسبة تلقنوها إثر الاعتراف، وصاروا جميعًا سعداء بالتحلي بها.

سمعت أقوالًا شتى في أثناء جولتنا في المكان عن السجين رقم سبعة وعشرين، فقد كان أفضل السجناء، وقد بدا فعلًا أنه يمثل السجين النموذجي، إلا أنني قررت أن أرجئ حكمي عليه حتى أراه. وعلمت أيضًا أن السجين رقم ثمانية وعشرين نجم ساطع هو الآخر، ولكن من سوء حظه أن خفتت أمجاده بعض الشيء بعد حضور السجين رقم سبعة وعشرين، صاحب الوهج غير الاعتيادي. هكذا سمعت حكايات كثيرة للغاية عن السجين رقم سبعة وعشرين وعن مدى ورعه ونصائحه التي يسديها إلى كل من حوله، وعن خطاباته البديعة التي يكتبها باستمرار لوالدته، والتي بدا أنه ينظر إليها بعين السوء، حتى إني لم أعد أطيق صبرًا على رؤيته.

كان عليَّ أن ألجم نفسي فأتحلى بالصبر لبعض الوقت، لأنهم

(١) صورة مستقاة من سفر نشيد الأنشاد: «خُذُوا لَنَا الثَّعَالِبَ، الثَّعَالِبَ الصِّغَارَ الْمُفْسِدَةَ الْكُرُوم، لأَنَّ كُرُومَنَا قَدْ أَقْعَلَتْ» (٢:١٥). وهي إشارة إلى إفساد التوبة بالشر.

ادخروا مقابلتي للسجين رقم سبعة وعشرين إلى ختام جولتي، ومن ثَم وصلنا في نهاية المطاف إلى باب زنزانته، راقبه السيد كريكل عبر ثقب صغير في الباب، ثم قال لنا بنبرة إعجاب شديد إن السجين يرنم من كتاب التراتيل.

تدافعت الرؤوس على الفور لترى السجين رقم سبعة وعشرين بينما يرنم من كتاب التراتيل، حتى انسد الثقب الصغير تمامًا بتدافع ستة رؤوس أو سبعة. تطلب علاج هذه المشكلة، بإعطاء الفرصة لنا للتحدث مع السجين رقم سبعة وعشرين وهو في كامل خشوعه، ومن ثَم أمر السيد كريكل بفتح الباب ودعوة السجين رقم سبعة وعشرين إلى الخروج إلى هنا حيث هذه الردهة. نفذت الأوامر، وكم كانت دهشتنا الشديدة أنا وترادلز إذ لم يكن السجين رقم سبعة وعشرين سوى يورايا هيب!

عرفناه على الفور، وإذا به يقول بينما يقترب منا ملتويًا بطريقته القديمة ذاتها: «كيف حالك يا سيد كوبرفيلد؟ وكيف حالك يا سيد ترادلز؟».

أثارت معرفته بنا إعجابًا عامًّا وسط الحاضرين، بل إني ظننت أن جميعهم قد دهشوا إذ لم يتحلَّ هذا السجين أمامهم بكبريائه المعتادة بل كان هو من توجه إلينا أولًا.

قال السيد كريكل وهو يغالب دموعه من فرط إعجابه بالسجين: «حسنًا يا سبعة وعشرون، كيف حالك اليوم؟».

أجاب يورايا هيب: «إنني متضع للغاية يا سيدي».

قال السيد كريكل: «إنك لمتواضع دومًا».

وهنا سأل سيد آخر بقلق بالغ: «هل تشعر بالراحة الكافية؟».

قال يورايا هيب ناظرًا تجاهه: «نعم، شكرًا لك يا سيدي، بل إني أشعر هنا براحة تفوق ما شعرت به في الخارج، وبوسعي أن أدرك حماقات ارتكبتها يا سيدي، وهذا ما يُشعرني الآن بالراحة».

تأثر الحاضرون من إجابته، وسرعان ما شق شخص ثالث طريقه إلى الأمام وسأل بانفعال مفرط: «ما رأيك في طعم اللحم هنا؟».

أجاب يورايا هيب ناظرًا إلى الاتجاه الجديد الذي أتاه الصوت منه: «شكرًا لك يا سيدي. كانت قطعة اللحم بالأمس أصلب مما وددت، ولكن من واجبي أن أتحمل». استطرد يورايا هيب كلامه ناظرًا إلى من حوله وقد اعتلت وجهه ابتسامة خانعة: «لقد ارتكبت حماقات أيها السادة، وعليَّ أن أتحمل العواقب من دون تذمر». صدرت همهمة من الحاضرين بسبب شعورهم بالرضا عن حالة الصفاء الملائكية التي وصل إليها السجين رقم سبعة وعشرين، وكذلك بسبب سخطهم على المتعهد الذي تسبب في شكوى السجين، وهي ملاحظة أدلى بها السيد كريكل على الفور لتؤخذ بعين الاعتبار. وقف السجين رقم سبعة وعشرين وسطنا كما لو أنه شعر بأنه هدف له جدارة العرض وسط متحف للمواهب الغالية. ونظرًا لأننا نحن المبتدئين قد نعاني من فرط نور الإيمان الذي يشرق عليهم فجأة، فقد أصدر السيد كريكل أوامره بإحضار السجين رقم ثمانية وعشرين.

انتابتني دهشة عارمة في بداية الأمر، ثم شعرت بنوع من الاستسلام العجيب حينما ظهرت المفاجأة الثانية، حيث تقدم السيد ليتيمر بينما يتلو شيئًا من كتاب الصالحين.

تحدث سيد يرتدي نظارة لم يكن قد شارك في الحديث من قبل، فقال: «يا ثمانية وعشرون، لقد شكوت في الأسبوع الماضي يا صديقي الطيب من مشروب الكاكاو، فكيف صارت الأمور بعد شكواك؟».

قال السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. لقد تحسن مذاقه للأفضل بالفعل. ولو تسمح لي يا سيدي بأن أقول إنني أظن أن اللبن المغلي به مغشوش، لكني أعلم جيدًا يا سيدي أن عمليات غش اللبن في لندن واسعة النطاق، ومن الصعب توفير لبن سليم تمامًا».

بدا لي أن السيد ذا النظارات يدعم السجين رقم ثمانية وعشرين، وأنه ضد السجين رقم سبعة وعشرين المفضل عند السيد كريكل، فقد راح كل فريق منهما يولي عنايته بسجينه.

قال الرجل ذو النظارات: «كيف حال مزاجك اليوم يا ثمانية وعشرون؟».

أجاب السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. صرت أدرك الحماقات التي ارتكبتها، وأشعر بانزعاج بالغ حينما أفكر في خطايا رفاقي السابقين، لكني واثق بأنهم قد يهتدون إلى سبيل التوبة والغفران».

قال الرجل بينما يومئ برأسه مشجعًا ومؤيدًا لما قاله ليتيمر: «أرى أنك قد صرت راضيًا عن نفسك سعيدًا بها. أليس كذلك؟».

أجاب السيد ليتيمر قائلًا: «إنني ممتن لك يا سيدي، بل إني في أتم الرضا والسعادة».

قال السائل: «هل تراود ذهنك أي أفكار الآن؟ وإن كان ثمة أفكار فلتصرح بها لنا يا رقم ثمانية وعشرين».

قال السيد ليتيمر من دون أن يرفع بصره نحونا: «يا سيدي، إن لم تكن عيناي تخدعانني، فإن بينكم شخصًا حاضرًا كنت على معرفة به في حياتي الماضية. وقد يكون من المفيد لهذا السيد أن يعرف أنني أعزو حماقاتي السابقة بكاملها إلى أني عشت حياة طائشة في خدمة الشباب، وأني سمحت لنفسي أن أنجرف خلفهم بضعف إلى شهوات لم يكن بمقدوري حينها أن أقاومها. وأرجو أن يتعظ هذا السيد من قصتي، وخير له ألا يستاء من صراحتي. إنني واعٍ بحماقاتي وذنوبي السابقة، وإنني لأرجو له التوبة عن كل الشرور والخطايا التي كان طرفًا فيها».

لاحظت أن كثيرًا من الحاضرين قد ظللوا أعينهم بيد واحدة، كما لو أنهم قد دخلوا لتوِّهم إلى جوف الكنيسة.

راح الرجل ذو النظارة يسأل من جديد: «يا لها من نصيحة جميلة تجلب إليك المديح يا ثمانية وعشرون. وكان عليَّ أن أتوقع هذا منك. فهل تفكر في شيء آخر؟».

عاود السيد ليتيمر حديثه رافعًا حاجبيه لا عينيه، قليلًا: «يا سيدي، لقد عرفت شابة كانت قد انخرطت في دوائر فاجرة، وحاولت أن أنقذها لكنني لم أستطع. وإنني لأتوسل إلى هذا السيد إذا كان الأمر بيده أن

يُبلغ هذه الشابة أنني أسامحها على سلوكها السيئ تجاهي، وأنني أدعوها إلى التوبة. وإنني لأرجو أن يتكرم فيبلغها قولي».

أجابه الرجل ذو النظارة: «ليس لديَّ شك يا ثمانية وعشرون من أن السيد الذي تشير إليه قد تأثر بقوة -كما تأثرنا جميعًا- بما قلته بصدق. لن نؤخرك بيننا الآن».

قال السيد ليتيمر: «شكرًا لك يا سيدي. أتمنى لكم يومًا طيبًا أيها السادة، كما أتمنى لكم ولأسركم أن تعاينوا شروركم وخطاياكم فتصلحوها».

عاد السجين رقم ثمانية وعشرين بعد أن أنهى هذه الكلمات وقد تبادل نظرة خاطفة مع يورايا، كما لو أن كلًّا منهما يجهل من يكون الآخر بطريقة أو بأخرى، وسرت همهمة بين الواقفين بعدما انغلق الباب من خلفه، مفادها أنه رجل محترم وأنه يُمثل حالة جميلة وسط السجناء.

أتيحت الفرصة للسيد كريكل للصعود إلى المسرح مع رجله المفضل، فإذا به يقول: «أما الآن يا رقم سبعة وعشرين، هل يستطيع أي رجل منا تقديم شيء لك؟ ولو أنك تريد شيئًا فاذكره!».

عاود يورايا الحديث بإيماءة من رأسه المليء بالضغينة: «إني أرجو في تواضع شديد يا سيدي أن تسمحوا لي بالكتابة إلى أمي مجددًا».

قال السيد كريكل: «بالتأكيد سأسمح لك بمراسلتها».

«شكرًا لك يا سيدي. إنني أشعر بالقلق عليها، وأخشى ألا تكون آمنة».

اندفع أحد الحاضرين بسؤال فقال: «من أي شيء تخاف عليه؟»، لكن سرعان ما تعالت همهمات غاضبة قائلة: «هششش!».

التفت يورايا إلى مصدر الصوت ثم أجابه قائلًا: «إنني أود لو تصير أمي في أمان إلى الأبد، فتنضم إلى حالتي. لم أكن قَطُّ لأصير في مثل هذه الحالة لو لم آتي إلى هذا المكان، وإنني لأتمنى لو جاءت إليَّ أمي كذلك، بل إنه لصلاح لكل إنسان لو أُخذ من يده فأُحضِر إلى هنا».

أحسب أن هذا التصريح قد أثار مشاعر من الرضا منقطعة النظير، فلا يضاهيه شيء مما سبق حتى هذه اللحظة.

اختلس يورايا النظر إلينا، كما لو أنه يتمنى لو يستطيع أن يحطم العالم الخارجي الذي ننتمي إليه، ثم تحدث إلينا قائلًا: «لقد استسلمت لحماقاتي كاملها قبل أن آتي إلى هنا، إلا أنني صرت الآن واعيًا بما اقترفته من آثام، كما أدركت أن العالم مكتظ بالخطايا، كما أحيطت أمي بها، فلا شيء غير الخطية في كل مكان عدا هنا».

قال السيد كريكل: «هل تغيرت روحك تمامًا؟».

صاح هذا التائب المتأمل: «يا إلهي، بالطبع يا سيدي».

سأل أحد الحاضرين: «ألن ترتد عن توبتك إذا ما خرجت إلى العالم الخارجي؟».

«يا إلهي، كلا يا سيدي».

قال السيد كريكل: «حسنًا، كم يبدو هذا الحديث مُرضيًا ممتعًا!

لقد كنت تتحدث إلى السيد كوبرفيلد يا سبعة وعشرون، فهل تود أن تقول له شيئًا آخر؟».

التفت يورايا هيب إليَّ بنظرة أشد خبثًا، لم أرَ من قبل أبشع منها على وجهه قَطُّ، ثم قال: «لقد عرفتني قبل مجيئي إلى هنا بفترة طويلة، لكني تغيرت يا سيد كوبرفيلد. لقد عرفتني حين كنت واحدًا من هؤلاء الذين يتيهون فخرًا بحماقاتهم على الرغم من ضعتي، ومكثت خانعًا وسط من يتصفون بالبطش، بل لقد كنت عنيفًا أيضًا في معاملتك لي يا سيد كوبرفيلد. وإنك لتذكر أنك صفعتني ذات مرة على وجهي».

توجهت الأنظار الساخطة نحوي وهي تحمل نوعًا من الشفقة والمواساة له بشكل عام.

التفت يورايا وقد جعل من طبيعته المتسامحة موضوعًا لمقارنة هي أفظع وأسوأ مقارنة أترفع عن أن أذكرها هنا، فقال: «إلا أنني أسامحك يا سيد كوبرفيلد، بل أسامح الجميع، لأنني سأشق على نفسي لو أنني تركت للضغينة موضعًا تستقر به في داخلي. إنني أسامحك تمامًا، وأرجو لو تستطيع أن تتحكم في انفعالاتك في المستقبل. أتمنى أن يعلن السيد واو والآنسة ابنته عن توبتهما، وكذلك فلتفعل بقية الجماعة الآثمة. لقد حل عليك بلاء عظيم، فأرجو أن يسدي إليك نصحًا، ولكنني أرى أنه حري بك أن تأتي إلى هنا، ويجدر بالسيد واو والآنسة ابنته أن يأتيا إلى هنا. إنه أفضل ما يمكن أن أتمناه لك يا سيد كوبرفيلد، كما أتمنى الشيء نفسه لكل السادة، فخير لكم أن تساقوا إلى هنا. وإنني حين أفكر في حماقاتي التي ارتكبتها في الماضي وفي حالتي الآن، أتيقن من أن هذا

الموضع هو أفضل موضع لكم، بل إنني لأشفق على كل من لم يأتوا إلى هنا».

تراجع منسلًّا إلى زنزانته مجددًا وسط جوقة صغيرة من الاستحسان، وقد شعرت أنا وترادلز براحة عظيمة حينما أغلقوا عليه الأبواب.

بدت هذه التوبة مميزة للغاية، مما جعلني أتخلى عن سؤالي عما فعلاه هذان الرجلان حتى يساق بهما إلى السجن، فقد بدا لي أن سبب مجيئهما هو آخر شيء يمكن أن يحدثوني عنه. إلا أنني أقدمت على الحديث مع أحد الحارسين بعد أن أحسست من بعض التعبيرات التي لاحت على ملامح وجهه أنه يعرف جيدًا ما سبب هذه الضجة كلها.

قلت بينما أسير على مهل في الممر: «ما الجريمة الأخيرة التي ارتكبها السجين رقم سبعة وعشرين؟».

كانت إجابته أن الجريمة تتعلق بأحد البنوك.

فسألته: «هل هي عملية نصب على بنك إنجلترا؟».

قال: «نعم يا سيدي. إنها جريمة نصب وتزوير وتآمر، وقد ارتكب جريمته بصحبة أناس آخرين، وكان هو العقل المدبر. كانت مؤامرة كبيرة تهدف إلى الاستيلاء على مبلغ ضخم، وقد حُكِم عليه بالسجن مدى الحياة. لقد كان رقم سبعة وعشرين أذكى مجموعته، وكان على وشك أن ينجو بفعلته لكنه لم يستطع، بعد أن قُبض عليه في البنك في اللحظة الأخيرة».

سألته: «وهل تعرف جريمة السجين رقم ثمانية وعشرين؟».

تحدث الحارس إليَّ بصوت منخفض، ناظرًا من فوق كتفه في أثناء سيرنا في الممر ليتأكد من أن كريكل ومن معه لن يسمعوا مثل هذه الأشياء المجرمة التي يقولها عن هؤلاء الأطهار: «لقد حكم على السجين رقم ثمانية وعشرين بالسجن مدى الحياة أيضًا؛ لأنه قد سرق مائتين وخمسين جنيهًا ومقتنيات أخرى ثمينة من شاب كان يخدمه، وقد سرقه في الليلة التي سبقت سفره إلى الخارج، وإنني لأتذكر هذه القضية بالتحديد لأن التي قبضت عليه امرأة قزمة».

«ما اسمها؟».

«إنها امرأة من الأقزام لكنني نسيت اسمها».

«هل تدعى ماوتشر؟».

«نعم، إنه اسمها، كان قد أفلت من المطاردة، وصار في طريقه إلى أمريكا متنكرًا بشعر مستعار من الكتان وشارب، وقد أتقن تنكره بالكامل وبهيئة لن تراها طوال حياتك. التقت به هذه السيدة الصغيرة سائرًا في شارع ساوث هامبتون، التقطته نظرتها الحادة فورًا فركضت خلفه وعرقلت ساقيه، ثم ألقت بنفسها عليه كالموت المروع».

صحت قائلًا: «يا لكِ من رائعة يا آنسة ماوتشر!».

قال صديقي: «كنت ستندهش بها لو أنك رأيتها واقفة فوق مقعد الشهود في المحكمة كما رأيتها أنا. كان السجين قد أصابها بجرح في وجهها وسحقها بأبشع الطرق حين أمسكت به، ومع ذلك فإنها لم تفلته من بين يدها حتى جاءت الشرطة وقبضت عليه. وفي الحقيقة لقد

ظلت ممسكة به بقوة، حتى وجد الضباط أنفسهم مضطرين إلى التحفظ عليهما معًا. لقد شهدت بشجاعة وحسن بيان، فأثنت عليها المحكمة أشد الثناء، ثم صحبتها الهتافات حتى وصلت إلى منزلها. كما أنها قالت في المحكمة إنها كانت ستقبض عليه بمفردها لكثرة ما عرفته عنه، حتى لو كانت قوته تعادل قوة شمشون الجبار. وأظن أنها كانت لتفعل ذلك حقًّا!».

وإنني حسبت أنها فاعلة ذلك أيضًا، وقد احترمت السيدة ماوتشر تقديرًا لما فعلته.

لقد رأينا حتى هذه اللحظة كل ما يمكن رؤيته، ولن يجدي الأمر نفعًا لو أننا قلنا لرجل مبجل مثل السيد كريكل إن السجينين سبعة وعشرين وثمانية وعشرين لم يتغيرا في شيء على الإطلاق، فقد ظلا على حالهما كما كانا دومًا، فهذان الوغدان المنافقان ملائمان تمامًا للعب دور التوبة في مثل هذا المكان، لأنهما يدركان القيمة التسويقية لاعترافهما -أو على الأقل بالقدر الذي نفهمه- ومن ثَم يحاولان الاستفادة منه في هذا المكان طوال نفيهما عن العالم. باختصار، إنهما يمارسان عملًا قذرًا خادعًا بدرجة مؤلمة. تركناهما لهذا النظام ولأنفسهما وعدنا إلى المنزل متعجبين.

قلت: «لعل من الخير يا ترادلز أن تكبح موهبة شريرة فتقضي عليها».

قال ترادلز: «أرجو أن يتحقق ذلك».






# الفصل الثاني والستون

## نور يضيء طريقي

اقترب وقت الاحتفال بعيد الميلاد، وكنت مقيمًا في موطني منذ ما يقرب من شهرين، فاستطعت رؤية أجنيس كثيرًا، ومهما علت أصوات العالم من حولي لتشجيعي، وأيًّا ما كانت قوة العواطف والمساعي التي أثارتني، فقد كان أقل مديح من أجنيس يغنيني عن سماع أي كلمة من إنسان سواها.

كنت أذهب إليها ممتطيًا حصانًا مرة في كل أسبوع على الأقل، وأحيانًا أكثر، فأقضي معها المساء ثم أعود إلى منزلي ليلًا. تملكني الإحساس القديم بالتعاسة الذي كان يحوم حولي - إذا به يزداد حين أفارقها. كنت أسعد باستيقاظي ثم خروجي بدلًا من وضعي المتذبذب بين الانغماس في الماضي وأنا في يقظة منهكة أو النوم واستقبال أحلامي البائسة. لقد عانيت الشطر الأكبر من هذه الليالي الموحشة البائسة، وأنا في طريق عودتي إلى منزلي ممتطيًا حصاني، وقد أحيت ذاكرتي أفكارًا طالما شغلتني في غيابي الطويل.

لعل من الأحرى أن أصف حالتي الحقيقية فأقول إني أنصَتُّ إلى أصداء هذه الأفكار، فقد خاطبتني هذه الأفكار من بعيد، إذ أبقيتها على مسافة مني، وقبلت بمكانتي التي لا مفر منها. كنت أقرأ لأجنيس ما كتبته، فإذا بي أبصر ملامحها المنصتة، قد تأثرت فأبدت ابتسامة أو علامات البكاء، كما سمعت صوتها الحاني الوقور معلقًا على المجاز المضمر في عالمي الإبداعي الذي عشت فيه، فإذا بي أفكر في المصير الذي قد أنتهي إليه، لكن الأمر لم يزد عن مجرد تفكير فيما كنت آمله بعد زواجي بدورا، فأتصور صفات المرأة التي حلمت أن تصير زوجتي.

حتم عليَّ واجبي نحو أجنيس التي أحبتني ألا أزعجها وإلا فإنني سأقابل حبها بنوع من الأنانية والسوء، ولعلي لا أستطيع استعادته يومًا. كنت على يقين من أنني سيد قراري، وأنني ربحت ما نشده قلبي فلا يحق لي التذمر، بل عليَّ أن أتحمل بما تعلمته واكتسبته من خبرات. إلا أنني أحببتها، بل وقد وجدت عزائي في تصوري الغامض بأنني سأقوى يومًا على الاعتراف بحبي لها دون لوم أو عتاب، وعندما ينتهي صراعي كله سأقول: «يا أجنيس، ها هي حالتي منذ عودتي إلى الوطن، وحتى هذه اللحظة التي صرت فيها كهلًا فلم أشعر بحب مثل حبي لكِ».

لم ألحظ على أجنيس أي تغيير، بل ظلت كعهدها معي من دون أن تتبدل.

دار بيني وعمتي شيئًا متعلقًا بهذا السياق منذ الليلة التي عدت فيها إلى الوطن، ولا يمكنني أن أدعو ما وقع بيننا تحفظًا، أو تجنبًا للموضوع، بقدر ما أصفه بأنه اتفاق ضمني بأننا نفكر في الأمر معًا، لكن أفكارنا لم

تتشكل بعد في صورة كلمات. كنا نجلس كعادتنا القديمة أمام المدفأة في الليل، مستغرقين في التفكير في الأمر ذاته، وبوعي متبادل؛ كما لو أننا تصارحنا من دون تحفظ. التزم كل منا بصمته، إلا أنني على يقين من أنها قرأت أفكاري في تلك الليلة، أو على الأقل أدركت شطرًا منها، وأنها استوعبت تمامًا السبب الذي جعلني لا أعبِّر عن مكنوني بوضوح.

هكذا حان احتفال عيد الميلاد، ولم تكاشفني أجنيس بسر جديد، مما أثار شكوكي حول ما راودني من تصورات مرات عديدة - من أنها أدركت الحالة المعتملة داخلي ثم قيدها الخوف من أن تجلب لي ألمًا، فلم تصارحني بشيء - وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن تضحيتي أمست هباءً، ولن أكون قد وفيت بأبسط واجباتي تجاهها، بل سأرتد عن كل فعل بائس اقترفته حتى تلك اللحظة. عقدت العزم على وضع الأمر في نصابه الصحيح، فأزيل عن كل الشكوك، ولأحطم ما بيننا من حواجز، ولأضرب بيد العزم والإقدام.

مر بنا يوم قارس عنيف -ويا له من يوم يدفعني دومًا إلى تذكره!- من أيام الشتاء الباردة، وكان الجليد قد تساقط منذ عدة ساعات، فكوَّن طبقة ليست كثيفة ولكنها متجمدة وقد غطت سطح الأرض. أبصرت الرياح من نافذتي، وهي تهب من ناحية الشمال في اهتياج، فرحت أفكر في مسيرها بينما تكتسح أكوامًا من الثلوج في سويسرا في تلك البقعة التي يتعذر على إنسان أن يخطو فوق أرضها، وأتأمل أي الأمرين أشد وحشة، أهي تلك البقاع النائية أم ذاك المحيط المهجور؟

قالت عمتي وقد أطلت برأسها من الباب: «هل ستخرج اليوم ممتطيًا حصانك يا تروت؟».

قلت لها: «نعم، سأذهب إلى كانتربري. إنه يوم ملائم للتنزه على ظهر الجواد».

قالت عمتي: «آمل أن يكون هذا هو رأي الجواد كذلك، لأنني رأيته للتوِّ مطأطئًا رأسه وأذنيه، واقفًا أمام الباب، كما لو أنه يفضل المكوث في الإسطبل».

يمكنني أن ألاحظ أن عمتي سمحت للحصان أن يطأ الأرض المحرمة، لكنها لم تسمح بذلك للحمير.

قلت: «سيكون قد نال ما يكفيه من الراحة».

قالت عمتي وهي تلقي نظرة على الورق الموضوع على طاولتي: «في كل الأحوال سينفع الحصان صاحبه. آه يا بني، إنك تقضي ساعات نافعة هنا. لقد اعتدت على قراءة الكتب، ولم أفكر يومًا في المجهود الذي تتطلبه كتابتها».

قلت: «وأحيانًا تصير القراءة عملية مجهدة في حد ذاتها، أما الكتابة فإنها لفتنة يا عمتي».

قالت عمتي: «آه، أستطيع أن أرى هذه الفتنة في الطموح وحب الثناء والتعاطف وأمور أخرى، أليس كذلك؟ حسنًا، هيا انطلق في طريقك».

وقفت أمامها في هدوء، وقد ربتت على كتفي ثم جلست على

مقعدها، وقلت: «هل عرفتِ أي شيء جديد عن ارتباط أجنيس برجل ما؟».

نظرت إلى وجهي قليلًا قبل أن تجيب قائلة: «أحسب ذلك يا تروت».

سألتها: «هل أنتِ على يقين مما عرفتِه عن الأمر؟».

أجابت: «أحسب ذلك يا تروت».

نظرت إليَّ نظرة شديدة الثبات يشوبها نوع من الشك أو الشفقة أو القلق، حتى استجمعت كل قوتي لأظهر لها وجهًا مرحًا مطمئنًّا.

قالت عمتي: «وإنني متيقنة مما هو أكثر من ذلك يا تروت».

«وما الجديد؟».

«أظن أن أجنيس ستتزوج».

قلت بمرح: «فليباركها الله».

قالت عمتي: «فليباركها الله، وليبارك زوجها أيضًا».

رددت كلمات عمتي ثم ودعتها، وهبطت درجات السلم بخفة وامتطيت الحصان وانطلقت، وقد تعاظمت الأسباب التي تدفعني إلى الإقدام على ما اعتزمت فعله.

وكم أتذكر هذه الرحلة الباردة على ظهر الحصان! أتذكر جيدًا كيف انتزعت الريح كتل الثلج الصغيرة المتجمدة على أوراق النبات، وألقت بها على وجهي. أتذكر صلصلة حوافر الحصان تعزف لحنًا

بدبيب خطاها على الأرض، كما أتذكر جيدًا التربة الصلبة، والثلج الذي ساقته الريح بخفة وشكَّل دوامات عند محجر الطباشير، وقد جعدته الرياح باندفاعها المتتالي، وعددًا من الرجال ينفثون الدخان من أنفاسهم محملين عرباتهم القديمة بالتبن، يتوقفون ليلتقطوا أنفاسهم على قمة التل، ويهزون أجراس دوابهم بصورة موسيقية، كما أتذكر المنحدرات البيضاء والأفق الملبد بالغيوم القاتمة، كما لو أنها لوحة مرتسمة على لوح ضخم.

وجدت أجنيس بمفردها، فقد عادت الفتيات الصغيرات إلى منازلهن، فجلست حينها وحدها أمام المدفأة مستغرقة في القراءة. ما إن رأتني مقبلًا إليها حتى تركت الكتاب عن يدها، لتستقبلني وترحب بي كعادتها، ثم تناولت سلة أدوات الحياكة، وجلست بالقرب من إحدى النوافذ قديمة الطراز لتشتغل بأعمال الإبرة.

جلست إلى جانبها على الكرسي القريب من النافذة، وتحدثنا عما أكتبه، ومتى سأنتهي من الكتابة، وعن التقدم الذي أحرزته في زيارتي الأخيرة. كانت أجنيس سعيدة للغاية، حتى إنها ضحكت متنبئة بأنني سأصير من الشهرة بحيث يصعب أن تجد فرصة للتحدث معي في هذه الأمور.

قالت أجنيس: «لذلك فإنني أنتهز الفرصة السانحة أمامي الآن وأتحدث إليك في هذا الوقت المتاح».

نظرت إلى وجهها الجميل متأملًا انهماكها في عملها، فإذا بها ترفع عينيها الصافيتين اللطيفتين نحوي بعد أن لاحظت أنني أحدق بها.

قالت: «تبدو مستغرقًا في التفكير اليوم يا تروتوود».

قلت: «يا أجنيس، هل يمكنني أن أخبركِ بما جئت لأقوله اليوم لكِ؟».

نحَّت أعمال الحياكة جانبًا، كما اعتادت أن تفعل عندما نناقش أي شيء بجدية، وأعارتني كامل انتباهها.

قلت: «يا عزيزتي أجنيس، هل يراودكِ أي شك في إخلاصي لكِ؟».

أجابت والدهشة ترتسم على وجهها: «كلا».

«وهل تشكين في أنني أحفظ لكِ مكانتكِ عندي؟».

كانت إجابتها كما قالت من قبل: «كلا».

قلت: «هل تتذكرين يا عزيزتي أجنيس أني حاولت بعد عودتي إلى الوطن أن أخبركِ بمقدار العرفان الذي أدين به لكِ، وكيف كان شعوري متوهجًا حيالكِ؟».

قالت بلطف: «أتذكر جيدًا».

قلت: «إنكِ تكتمين سرًّا، فدعيني أشاركِ إياه يا أجنيس».

خفضت عينيها وارتعشت.

قلت: «إنني لا أعجز عن معرفة أن إنسانًا قد منحته كنز حبكِ، حتى لو لم أسمع عن الأمر من شفتيكِ بل من شفاه غريبة، وهو ما يبدو لي غريبًا. لا تحجبي عني شيئًا يتعلق بسعادتكِ! إذا كان بوسعكِ أن تثقي بي كما تقولين -وأنا أعرف أنكِ تثقين بي- فدعيني أكن صديقكِ وأخاكِ في هذه المسألة دون سواها».

نهضت من مكانها بالقرب من النافذة، بنظرة فاتنة تكاد تكون مؤنبة، وراحت تهرول بين أرجاء الغرفة كما لو أنها لا تعرف وجهتها، ثم وضعت يدها على وجهها وانفجرت باكية في مشهد اعتصر قلبي وآلمه بشدة.

أيقظت هذه الدموع شيئًا في أعماقي، وقد أعادت إلى قلبي شيئًا فقده، ومن دون أن أدرك سببًا، أبصرت دموعها وقد تحالفت مع ابتسامة هادئة حزينة مثل ابتسامتها المنطبعة تمامًا في ذاكرتي، فبعثت في قلبي الأمل وفاقت مشاعر الخوف أو الأسى.

قلت: «يا أجنيس، يا أختي، يا أعز الناس، ما الذي فعلته؟».

«دعني أنصرف يا تروتوود لأنني لست بخير. إنني لست على طبيعتي، وسأتحدث معك قريبًا في وقت لاحق. سأكتب إليك، فلا تحدثني الآن. لا تكلمني، لا تفعل».

حاولت أن أسترجع ما قلته لها في تلك الليلة؛ عندما تحدثت عن عاطفتها فقلت إن محبتها لا تنتظر أي مقابل، وبدا لي أنني في عالم زاخر، يتوجب عليَّ أن أبحث فيه عن لحظة بعينها، فتحدثت إليها قائلًا: «يا أجنيس، لا يمكنني أن أتحمل أن أراكِ في هذه الحال، وأن أكون أنا السبب فيها. يا أعز الفتيات، يا أغلى من أي شيء في الحياة، إذا كنتِ تعيسة، فدعيني أشاركِ هذه التعاسة، وإذا كنتِ في حاجة إلى العون أو المشورة، فدعيني أحاول أن أقدمهما إليكِ. إن كنتِ تتحملين عبئًا جاثمًا فوق قلبكِ، فدعيني أحاول أن أخفف وطأته. لمن أحيا اليوم يا أجنيس إن لم أكن أحيا من أجلكِ أنتِ؟!».

كان كل ما أستطيع تذكره هي عبارتها: «آه، دعني أنصرف. إنني لست بخير. إنني لست على طبيعتي».

هل هو خطأ أناني كان يقودني بعيدًا؟ هل تبدلت بادرة أملي لتكشف لي شيئًا لم أجرؤ على التفكير فيه؟

قلت: «إنني أود أن أكمل الحديث، فأنا لا أستطيع أن أدعكِ على هذه الحال. فبحق السماء يا أجنيس، دعينا لا نسيء فهم بعضنا بعد كل هذه الأعوام وكل ما جاء فيها وراح. يجب أن أصارحكِ بمكنون صدري، فإن راودكِ شك مفاده أنني قد أحسدكِ على إسعاد رجل اخترته، أو أنني لن أتخلى عنكِ لرجل أعز على قلبكِ مني فيتعهد برعايتكِ لأنه محل اختياركِ، أو أنني قد لا أستطيع أن أصير شاهدًا قانعًا بفرحتكِ من موضعي الذي أزيل من تحت قدمي، فإنني أرجو أن تزيلي هذه الفكرة من ذهنكِ لأنني لا أستحقها! إنني لم أعانِ هباء، ولا يجب أن يضيع تعليمكِ لي عبثًا. وما أشعر به تجاهكِ لا تخالطه أنانية».

هدأت الآن، ثم حولت وجهها بعد فترة قصيرة نحوي، وقالت بصوت منخفض متقطع لكنه واضح: «إنني أدين لصداقتك النقية يا تروتوود، مما يجعلني لا أتردد في أن أقول لك إنك مخطئ، ولا يمكنني البوح بأي شيء آخر. وإذا كنت قد احتجت على مدار السنوات الماضية إلى عون أو مشورة في بعض الأحيان، فإنني قد نلتهما. ولو أنني شعرت بالتعاسة في بعض الأحيان، فقد انقضى عني هذا الشعور. وإن كان قلبي قد احتمل يومًا عبئًا، فقد خفت وطأته. ولو أنني أكن أسرارًا، فإن سري

ليس جديدًا وهو ليس الذي تظنه، ولا يمكنني أن أكشفه أو أشاركك إياه. لقد احتفظت بسري لأعوام طويلة، ويجب أن يظل كذلك».

«يا أجنيس، انتظري لحظة».

كانت على وشك الانصراف، لكني حلت بينها وبين الابتعاد عني، فشبكت ذراعي حول خصرها، وقلت: «أتقولين لأعوام طويلة؟! أتقولين إن سركِ ليس جديدًا؟». راحت الأفكار والظنون الجديدة تدور في خاطري كدوامة، وقد تغيرت أمامي كل ألوان حياتي.

قلت: «يا أجنيس، يا أعز الناس، يا أجنيس، يا من أحترمها وأبجلها وأحبها حبًّا جمًّا، عندما أتيت إلى هنا اليوم ظننت ألا شيء بوسعه أن ينتزع مني هذا الاعتراف، وأنني سأبقي عليه محفوظًا في أعماقي طوال حياتنا حتى نشيخ. ولكن أملًا جديدًا قد وُلِد بداخلي يا أجنيس، أملًا في أن أدعوكِ بشيء آخر غير «الأخت»، بل أدعوكِ باسم مختلف كل الاختلاف عنه».

انهمرت منها دموع عزيزة متسارعة، لكنها لم تشبه الدموع التي ذرفتها قبل ذلك، بل رأيت أملي يزداد مع هذه الدموع.

«أجنيس، يا مرشدتي وعوني وسندي، إذا كنتِ قد أوليتِ نفسكِ اهتمامًا أكبر، وأوليتِني اهتمامًا أقل عندما تربينا هنا معًا، لما شرد خيالي الغافل ولم يكن ليبتعد عنكِ قَطُّ. لقد كنتِ أفضل مني كثيرًا، فأسديتِ نصحكِ ودعمكِ لي في كل أمل من آمالي، وفي كل خيبة صبيانية اقترفتها، حتى أصبحتِ ملجأ سريًّا واعتمدت عليكِ في كل شيء، ومن

ثَم تنامت عندي طبيعة ثانية، وقد حلت محل شعوري الأول والأعظم بكِ، والذي هو حبي لكِ كما أحبكِ الآن».

ظلت تبكي، ولكن هذه المرة لم تكن تبكي بحزن، بل بفرح. تشبثت بذراعي ومكثت بأحضاني كما لم تفعل من قبل، وبصورة لم أتصورها قَطُّ.

قلت: «عندما أحببت دورا وافتتنت بها يا أجنيس، كما تعرفين...».

صاحت بنبرة جادة: «نعم... يسعدني أني أعرف ذلك».

قلت: «عندما أحببتها، لم يكن لحبي أن يكتمل حينها من دون عطفكِ. لقد نعمت بعطفكِ فاكتمل حبي، وعندما فقدتها يا أجنيس، فماذا كان ليصيبني لولا وجودكِ معي».

صارت أقرب إليَّ من ذراعي إلى قلبي، وإذا بيدها المرتعشة فوق كتفي، وعيناها الحلوتان تشعان من خلف دموعها متطلعتان نحوي.

«لقد مضيت بعيدًا يا عزيزتي أجنيس وأنا أحبكِ، وبقيت بعيدًا وأنا أحبكِ أيضًا، وعدت وأنا أحبكِ».

حاولت أن أخبرها بعد ذلك عن الصراع الذي خضته، والاستنتاج الذي توصلت إليه، وحاولت أن أبْسِط أمامها أفكاري بصدق وبصورة كاملة، وكشفت لها كيف أملت أن أتوصل إلى معرفة أفضل بنفسي وبها، وكيف استسلمت لنتائج هذه المعرفة الجديدة. شرحت لها كيف أتيت إلى هنا، في ذلك اليوم من إدراكي لمعارفي الجديدة، مخلصًا لها، فقلت لها إذا كانت تحبني وتقبلني زوجًا لها، فلتفعل، وإني أقر بأنني لست مستحقًّا

لها، لكنني أقر بصدق حبي، وبأن المتاعب قد أنضجتني حتى كشفت في النهاية مقدار حبي لها. آه يا أجنيس، لقد أطلت من عينيك الصادقتين حينها روح زوجتي الطفلة، فقالت إنها راضية بما أراه خيرًا لي، فإذا بي أسترجع عن طريقكِ ألطف ذكريات تلك الزهرة التي ذبلت قبل تفتحها!

قالت أجنيس: «إنني فرحة للغاية يا تروتوود، وقد فاض قلبي بأكثر مما يحتمل، ولكن ثمة شيء آخر لا بد أن أقوله لك».

«ما هو يا أعز الناس؟».

وضعت يديها اللطيفتين على كتفَي ونظرت بهدوء إلى وجهي.

قالت: «ألا تعرف ما هو؟».

قلت: «إنني أخشى تخمينه. فأخبريني يا عزيزتي ما الأمر؟».

«لقد أحببتك طوال حياتي».

كم كنا سعيدين! كم صرنا سعيدين! ولم نبكِ بسبب التجارب التي مررنا بها -مع الوضع في الاعتبار أن دموعها فاقت دموعي- بل رحنا نبكي من النشوة التي لفتنا بعد أن تكاشفنا وأدركنا أن شيئًا لن يُفرِّق بيننا.

تمشينا معًا في هذه الأمسية الشتوية بين الحقول، وبدا لنا أن الهواء البارد قد شارك الهدوء المبارك الذي أحاط بنا. وراحت النجوم والكواكب تتلألأ بينما نسير على مهل ناظرين إليها، وشاكرين الله الذي أفضى بنا إلى هذا الصفاء.

وقفنا معًا عند النافذة ذاتها قديمة الطراز، بينما حل علينا الليل وتألق القمر مضويًا. رفعت أجنيس عينيها الهادئتين صوبه وأنا أتبع نظرتها،

فانكشفت أميال طويلة من الطرقات أمام خاطري، فتمثلت صورتي صبيًّا كالحًا يرتدي أسمالًا، منبوذًا ومهملًا، فإذا به الآن يلبي نداء قلبه، ويخفق له قلب ملتصق به.

كان الوقت في اليوم التالي قد شارف موعد تناول العشاء تقريبًا، حين مثلت أنا وأجنيس أمام عمتي، بعد أن قالت لنا بيجوتي إنها تنتظرنا في المكتب، حيث كانت تفخر بكونها مستعدة ومتأهبة لفعل أي شيء لي. وجدنا عمتي ترتدي نظارتها جالسة بجانب المدفأة. وقد قالت وهي تحدق نحونا عبر الغسق: «يا إلهي، من الذي جلبته معك إلى المنزل؟».

قلت: «إنها أجنيس».

كنا قد اتفقنا على ألا نقول شيئًا في البداية، لذا شعرت عمتي بنوع من الارتباك، ورمقتني بنظرة آملة حين قلت لها «إنها أجنيس»، ولكن عندما رأت أني أبدو على حالتي المعتادة، خلعت نظارتها في يأس وحكت بها أنفها.

إلا أنها حيَّت أجنيس بحرارة، وسرعان ما جلسنا في غرفة الطعام بالدور الأرضي لتناول العشاء. ارتدت عمتي نظارتها مرتين أو ثلاث لتلقي عليَّ نظرة أخرى، لكنها خلعتها مرة أخرى شاعرة بالإحباط، وحكت بها أنفها، مما أربك السيد دك لأنه يعرف أن هذه الحركة تعبر عن استياء.

قلتُ بعد العشاء: «بالمناسبة يا عمتي، كنت أتحدث مع أجنيس عما أخبرتني إياه».

قالت عمتي وقد احمر وجهها: «حسنًا يا تروت. لقد ارتكبتَ خطأ وحنثت بوعدك».

قلت: «أرجو ألا تكوني غضبى يا عمتي، إنني على يقين من أنكِ لن تثوري إذا ما عرفتِ أن أجنيس لم تتعس نفسها بالارتباط بأي إنسان».

قالت عمتي: «هراء».

لاح الغضب على عمتي، ومن ثَم أحسست أنه من الأفضل أن أختصر هذا الضيق، فتناولت يد أجنيس ووقفنا خلف مقعد عمتي ثم انحنينا عليها في وقت واحد. بصفقة واحدة بيديها ونظرة واحدة من خلف نظارتها صارت عمتي فورًا في حالة فرح هستيري للمرة الأولى والوحيدة طوال مدة معرفتي بها.

أقبلت بيجوتي عليها وهي في هذه الحالة الهستيرية، وفي اللحظة التي هدأت فيها عمتي اندفعت صوب بيجوتي وقد أطلقت عليها «المخلوقة العجوز السخيفة»، وعانقتها بكل قوتها. عانقت بعد ذلك السيد دك الذي تشرف كثيرًا بهذا العناق لكنه بدا في دهشة عارمة، فأخبرتهما عمتي بعد ذلك عن السبب، فطوقتنا جميعًا سعادة عارمة.

لم أستطع أن أكتشف ما إذا كانت عمتي في حديثها الأخير القصير معي قد خدعتني بحسن نية منها، أم أنها أخطأت فعلًا فهم حالتي. لكن حسبي أنها قالت لي إن أجنيس سوف تتزوج، وإني بت الآن أعرف دون سواي مدى صحة ما أخبرتني به.

تزوجنا في غضون أسبوعين. اقتصر الضيوف في حفل زفافنا

الهادئ على ترادلز وصوفي والطبيب والسيدة سترونج. تركناهم في قمة الفرح، وسافرنا معًا. ظلت أجنيس متشبثة بذراعي، فأحسست أني أحمل مصدر كل شيء طمحت إليه، وشعرت أنها مركز وجودي ودائرة حياتي وكياني وزوجتي وحبي الذي تأسس على الصخر.

قالت أجنيس: «يا زوجي العزيز، أما الآن وقد دعوتك بهذا الاسم، فإني أريد أن أخبرك بشيء».

قلت: «أسمعيني إياه يا حبيبتي».

«لقد لاح لي هذا الاسم في الليلة التي ماتت فيها دورا، لأنها أرسلتك إليَّ».

«فعلت ذلك حقًّا».

«لقد أخبرتني أنها قد تركت لي شيئًا. هل يمكنك أن تتوقع ما هو؟».

ظننت أنني أستطيع توقع الأمر، فأدنيت مني زوجتي التي أحبتني حبًّا جمًّا منذ عهد طويل وقربتها إليَّ أكثر.

قالت أجنيس: «لقد أخبرتني أنها تريد أن تطلب مني طلبًا أخيرًا، وأنها تركت لي مهمة أخيرة».

«وماذا كانت...؟».

«أن أشغل هذا المكان الخالي».

أراحت أجنيس رأسها على صدري وبكت. بكيت معها وإن كنا في غاية السعادة.

# الفصل الثالث والستون

## زائر

ما فكرت في تسجيله قد أوشك على الانتهاء، ولكن لا تزال هناك حادثة واحدة تستدعيها ذاكرتي ببهجة، وفي غياب هذا الخيط عن الشبكة التي نسجتها، يمكن للنسيج كله أن ينحل.

لقد تقدمت في الشهرة وحققت سعة من المال، واكتملت سعادتي الأسرية، وقضيت عشرة أعوام هانئة من الزواج، وذات ليلة ربيعية جلست أنا وأجنيس أمام النار نستدفئ في منزلنا في لندن، يلعب حولنا ثلاثة من أطفالنا؛ حين أخبروني أن زائرًا غريبًا يود لقائي.

سألوه عما إذا كان يريدني في أمر يتعلق بالعمل، إلا أنه أجاب بالنفي. قال إنه أراد أن يحظى بمتعة رؤيتي، وأنه قطع طريقًا طويلًا إليَّ. قال الخادم إنه رجل عجوز أقرب شبهًا بالمزارعين.

بدا هذا الأمر غريبًا على الأطفال، وبدا كما لو أنه بداية القصة المفضلة التي اعتادت أجنيس قصها عليهم، حيث تستهل القصة أحداثها

بوصول جنية عجوز شريرة ترتدي عباءة، وتكره الجميع، ولهذا فقد أثار هذا النبأ شعورهم بالإثارة. خبأ أحد أطفالنا رأسه في حجر أمه ليحمي نفسه من الأذى، أما أجنيس الصغيرة -وهي أكبر أطفالنا- فقد تركت دميتها على مقعد لتنوب عنها، كما دست رأسها وضفائرها الذهبية الصغيرة وسط الستائر لتتابع ما سيحدث. قلت: «دعوه يأتي إلى هنا».

سرعان ما ظهر عند المدخل المعتم رجل عجوز أشيب الشعر. جذبت نظراته أجنيس الصغيرة، فركضت صوبه لتُدخله، ولم أكن قد تبينت الوجه بعد بوضوح حين وجدت زوجتي تقفز من جلستها وتسرع نحوه صائحة في حماسة من فرط البهجة، قائلة إنه السيد بيجوتي.

لقد كان هو السيد بيجوتي نفسه، وقد صار الآن شيخًا عجوزًا، لكنه ظل متورد الوجه، حسن المنظر، قوي البنية. ما إن زال انفعالنا الأول برؤيته، وجلس أمام النار والأطفال على ركبتيه، ولهيب النار ينعكس على وجهه، بدا لي عجوزًا نشيطًا وقويًا، وعلاوة على ذلك قد بدا وسيمًا أكثر من أي وقت مضى.

قال: «يا سيد ديفي»، وقع الاسم القديم باللهجة القديمة طيبًا محببًا على مسامعي. قال: «يا سيد ديفي، إنه وقت رائع لأني أراك فيه مجددًا. وأتمنى لك عمرًا مديدًا بصحبة زوجتك المخلصة».

صحت قائلًا: «إنه وقت رائع بالفعل يا صديقي القديم».

قال السيد بيجوتي: «ما أجمل هؤلاء الصغار! انظر إلى هذه الزهور الجميلة، يا للعجب! لقد رأيتك يا سيد ديفي لأول مرة وأنت في طول

أصغر هؤلاء الأطفال، ولم تكن إيميلي حينها أكبر منك، ولم يكن ابننا الفقيد أكثر من مجرد صبي صغير».

قلت: «لقد غيرني الزمن أكثر مما غيرك خلال هذه الفترة. فلتدع هؤلاء المحتالين الأعزاء يذهبون إلى فراشهم. ولن يكون في إنجلترا منزل يجب أن تبقى فيه غير هذا المنزل، قُل لي أين أمتعتك لأرسل في طلبها، وإني أتساءل ما إذا كانت حقيبتك السوداء القديمة وسط هذه الأمتعة أم لا، ثم دعنا نشرب كأسًا من النبيذ اليارموثي ونعرف ماذا حدث طوال عشرة أعوام».

قالت أجنيس: «هل أنت وحدك؟».

قال مُقبِّلًا يدها: «نعم يا سيدتي، إنني وحدي تمامًا».

أجلسناه بيننا، ولم نعرف كيف يمكننا أن نرحب به بما يكفي، وما إن أصغيت إلى صوته القديم المألوف، حتى استطعت أن أتخيله وهو لا يزال يتابع رحلته الطويلة بحثًا عن ابنة أخيه العزيزة.

قال السيد بيجوتي: «يا لنداء البحر الهائج! لقد عبرته لأبقى فترة لا تتجاوز أربعة أسابيع. إلا أن الماء -خاصة المالح- قد صار شيئًا طبيعيًّا بالنسبة لي، ولمن مثلي من الأصدقاء الأعزاء، وها أنا هنا بعد عناء. يا لها من قافية، على الرغم من أنني لم أتعمد هذه الكلمات».

سألته أجنيس: «هل ستعود كل هذه المسافة من آلاف الأميال بعد وقت قصير جدًّا؟».

عاود حديثه قائلًا: «نعم يا سيدتي. لقد وعدت إيميلي قبل سفري أن أعود سريعًا. إن الأعوام تمر ولم أعد شابًّا، ولو لم أكن من المبحرين منذ زمن مضى، ما استطعت أن أقدم على الإبحار فيه للتوِّ، ومنذ فترة طويلة وأنا أفكر في أن عليَّ أن آتي لزيارة السيد ديفي، كما وددت أن أراكِ أنتِ أيضًا أيتها الزهرة المتفتحة، فأطمئن أنكما تنعمان في حياتكما الزوجية قبل أن أشيخ».

نظر إلينا كما لو أنه لا يستطيع أن يُملِّي عينيه منا بدرجة كافية. أزاحت أجنيس ضاحكة بعض خصلات شعره المتناثرة إلى الخلف حتى يتمكن من رؤيتنا بشكل أفضل.

قلتُ: «والآن أخبرنا بكل شيء عن أعمالكم».

وسرعان ما قال لنا: «إن قصة أعمالنا ليست بالطويلة يا سيد ديفي. لم نحقق إنجازًا باهرًا، لكننا نجحنا في تحسين معيشتنا. لقد عملنا بدأب وجهد، وتكبدنا العناء في البداية، لكننا نجحنا. عملنا على رعي الأغنام، وتربية الماشية، وقمنا بشيء هنا وآخر هناك، وأتقنا أيضًا أعمالنا، وهكذا انصلحت حالنا».

أمال السيد بيجوتي رأسه بوقار ثم استطرد قائلًا: «إننا لم نفعل شيئًا سوى أن نجحنا في أعمالنا، هذا إن نظرنا إلى الأمر على مدار فترة زمنية طويلة، فلولا عمل الأمس لم يكن اليوم، ولولا عمل اليوم، فلن يأتي الغد».

قلت أنا وأجنيس في صوت واحد: «وماذا عن إيميلي؟».

قال: «أما إيميلي يا سيدتي -إنني قد سمعت صلاتها في جوف الليل، تدعو خلف حائل جانبي صنعناه من الخيش بعد أن استقر المقام بنا في الغابة، وقد انتبهت لاسمكِ تذكره في صلاتها- ما إن افتقدنا أنا وهي رؤية السيد ديفي، في ذاك الغروب المشتعل، حتى صارت بائسة في البداية، ولو أنها عرفت حينها ما حجبه عنها السيد ديفي، لكان هذا في رأيي كفيلًا بأن ينهي حياتها. ظهر على متن السفينة بعض الفقراء ممن يعانون من الأمراض، فاعتنت بهم، وكذلك قامت على رعاية الأطفال الموجودين معنا. هكذا ظلت إيميلي مشغولة، تقوم بأعمال الخير وقد ساعدها هذا الانشغال في تجاوز حالتها».

سألته: «ومتى علمت بالأمر أول مرة؟».

قال السيد بيجوتي: «لقد أخفيت الخبر عنها بعدما سمعته طوال عام تقريبًا، وكنا نعيش آنذاك في مكان منعزل، بين أجمل الأشجار، وكانت الورود تغطي بيتنا حتى السطح. وكنت ذات يوم أعمل في الأرض، وما إن عدت حتى علمت أن رجلًا مسافرًا من نورفولك أو سوفولك في إنجلترا (لا أهتم بالاسم) جاء إلينا، وبالطبع استقبلناه وقدمنا له الطعام والشراب ورحبنا به -جميع من في هذه المستعمرة يفعل الشيء نفسه- كانت معه صحيفة قديمة، وبعض التقارير الأخرى المطبوعة عن العاصفة. وهكذا عرفت بالأمر. ما إن عدت إلى المنزل ليلًا، حتى وجدت أنها عرفته».

أخفض صوته وهو يقول هذه الكلمات، وأتذكر جيدًا الوقار الذي ارتسم على وجهه حينها. سألناه: «وهل غيَّرها هذا الخبر كثيرًا؟».

أومأ برأسه ثم أجاب قائلًا: «نعم، غيرها للأفضل على مدار فترة طويلة، إذا لم يكن الأمر قد امتد حتى الآن. أعتقد أن العزلة أسدت إليها خيرًا. لقد شغلت ذهنها بتربية الدواجن ورعايتها».

استغرق في التفكير ساهمًا ثم قال: «أتساءل الآن ما إذا كنت تستطيع التعرف على إيميلي يا سيد ديفي إذا تسنى لك أن تراها الآن».

سألته: «هل تغيرت كثيرًا؟».

قال السيد بيجوتي، وهو ينظر إلى النار ساهمًا: «لا أعرف. إنني أراها كل يوم فلا أعرف. لكنها بدت غريبة في بعض الأوقات الغريبة، هزيلة الهيئة، ذات عينين زرقاوين حزينتين وناعستين. صار وجهها نحيفًا ورأسها منحنيًا يميل قليلًا إلى أسفل، أما صوتها فهادئ في غاية الخجل. وهذه هي إيميلي».

راقبناه في صمت وهو جالس مستغرق النظر إلى النار.

قال: «يحسب بعض الناس أن حبها كان لرجل شرير، ويقول آخرون إن الموت هو ما حال دون زواجها، ولا أحد يعرف الحقيقة. لعلها كانت تستطيع أن تتزوج وقد أتيحت لها فرصًا للزواج عدة مرات، لكنها كانت تقول لي: «يا عمي، لقد انقضى هذا الأمر إلى الأبد». إنها مرحة معي، منزوية أمام الآخرين، وهي مغرمة بقطع أي مسافة في سبيل تعليم طفل، أو رعاية إنسان مريض، أو تقديم أي مساعدة قبل زفاف أي فتاة - وقد فعلت الكثير، لكنها لم تحضر حفل زفاف من قبل - إنها لمحبة لعمها باعتزاز، وصبورة يحبها الصغار والكبار، يهرع إليها كل من يواجه أي مشكلة. هذه هي إيميلي».

وضع يده على وجهه، ونظر إلى النار وهو يحاول منع نفسه من التنهد.

سألته: «هل لم تزل مارثا معكم؟».

أجاب: «إن مارثا قد تزوجت يا سيد ديفي في السنة الثانية من مقابلتها. تزوجت من شاب عامل في مزرعة، كان يمر علينا في طريقه إلى السوق حاملًا محصوله، في رحلة تزيد على خمسمائة ميل ذهابًا وإيابًا، وقد أراد أن يتزوجها، والزوجات قليلات في تلك المناطق، ومن ثَم يقيمان في الغابة. طلبت مني أن أخبره بقصتها المثيرة، وقد فعلت. لقد تزوجا، وإنهما يعيشان على بعد مئات الأميال، بعيدًا عن أي أصوات عدا صوتيهما وزقزقة الطيور المغردة».

قلت: «وكيف حال السيدة جامدج؟».

كان سؤالي مثل ملامسة وتر ممتع، فقد انفجر السيد بيجوتي فجأة في هدير من الضحك، وأخذ يرفع يديه لأعلى ثم يضرب بهما على ساقيه، كما اعتاد أن يفعل حين يستمتع بشيء في ذاك القارب الغارق منذ فترة طويلة.

قال: «هل ستصدق ما أقول؟! لقد عرض رجل الزواج منها، إذ إن طاهيًا على إحدى السفن جاء يا سيد ديفي ليستوطن هناك، وقد عرض الزواج من السيدة جامدج، ولا أستطيع أن أقول ما هو أكثر صدقًا من ذلك».

لم أرَ أجنيس تضحك يومًا مثلما ضحكت ساعتها، لقد كانت هذه النشوة المفاجئة من السيد بيجوتي مبهجة أشد ما يكون من بهجة لها، حتى إنها لم تستطع الامتناع عن الضحك المتواصل، بل حثتني ضحكاتها على مواصلة الضحك أيضًا، وزادت نشوة السيد بيجوتي، وزادت ضرباته لساقيه.

سألته حين تمالكت نفسي: «وماذا قالت السيدة جامدج؟».

رد السيد بيجوتي: «هلا تصدقني لو أنني قلت لك إن السيدة جامدج، بدلًا من أن تقول له «شكرًا لك، إنني ممتنة لك للغاية، لكنني لن أغير معيشتي في مثل هذا العمر». لقد رفعت دلوًا مليئًا بالماء كان قريبًا منها، وكبته فوق رأس طاهي السفينة حتى استغاث، فأتيت إليه وساعدته».

انفجر السيد بيجوتي في ضجيج من الضحك، واشتركت أنا وأجنيس معه.

مسح السيد بيجوتي وجهه بعد أن أنهكنا الضحك تمامًا، ثم قال: «لكن يجب أن أقول شيئًا من أجل هذه المرأة الطيبة الصالحة، لقد أوفت بكل ما قالته وأكثر. إنها المرأة الأكثر حرصًا على راحتنا، والأصدق في المساعدة يا سيد ديفي، كما أنني لم أشهدها يائسة من وحدتها ولو لدقيقة واحدة، حتى حين نزلنا إلى المستعمرة في البداية. أما التفكير في «الراحل» فإنه شيء وأؤكد لك حقًّا أنها لم تفعله منذ أن غادرت إنجلترا».

قلت: «أما الآن، أخيرًا وليس آخرًا، كيف حال السيد ميكوبر؟ لقد سدد كل ما تكبده هنا -وسدد دينه لترادلز، كما تتذكرين يا عزيزتي أجنيس- وبالتالي نحسبه في حال طيبة. ولكن ما هي آخر أخباره؟».

وضع السيد بيجوتي يده في جيب صدره، وابتسم ثم أخرج رزمة مطوية من الورق، فأخرج منها بعناية شديدة، ورقة صغيرة ذات مظهر غريب.

قال: «اعلم يا سيد ديفي أننا تركنا الغابة الآن، بعد أن تيسرت لنا السبل للقيام بذلك، وذهبنا على الفور إلى ميناء ميدلباي، حيث ما نسميه المدينة».

قلت: «وهل كان السيد ميكوبر يعيش في الغابة بالقرب منك؟».

قال السيد بيجوتي: «بارك الله فيك، نعم، وقد عمل بقوة إرادة منه، ولا أحسب أنني سأقابل من هو أشد منه إرادة. لقد رأيت رأسه الأصلع يتصبب عرقًا تحت أشعة الشمس يا سيد ديفي، حتى ظننت أنه سيذوب. لقد صار الآن قاضيًا صالحًا».

قلت: «ماذا؟ أتقول قاضيًا؟!».

أشار السيد بيجوتي إلى فقرة معينة في الصحيفة، حيث قرأت بصوت عالٍ ما يلي، من صحيفة «بورت مدلباي تايمز»:

«أقيمت أمس مأدبة العشاء العامة على شرف زميلنا في المستعمرة ورجل المدينة الموقر السيد «ويلكنز ميكوبر» قاضي مقاطعة بورت ميدلباي، حيث حضر أمس في القاعة الكبيرة بالفندق، والتي ازدحمت

بالمدعوين. تشير التقديرات إلى أن ما لا يقل عن سبعة وأربعين شخصًا أقدموا على تناول العشاء في وقت واحد، هذا بالإضافة إلى عدد من الواقفين في الممر أو على درجات السلم. جمع الحفل بين الجمال والأزياء الخاصة بميناء ميدلباي. أقيم الاحتفال لتكريم رجل محترم موهوب عن جدارة، يتمتع بشعبية واسعة النطاق. ترأس الدكتور ميل (من مدرسة سالم هاوس الابتدائية في بورت ميدلباي) وجلس عن يمينه الضيف المميز. وبعد إزالة الستار، أنشد المغنون «لَيْسَ لَنَا»[1] (بألحان مميزة ونغمات رنانة وصوت رخيم من المغني الموهوب السيد ويلكنز ميكوبر الصغير وفرقته). قدم المشروب الوطني التقليدي وسط استقبال بهيج، ثم اقترح الدكتور ميل في خطاب مفعم بالمشاعر شرب نخب «ضيفنا المميز زخر مدينتنا، الذي آمل ألا يتركنا إلا لما هو خير له، ولعل نجاحه بيننا يجعل تولي مثل هذه المناصب لغيره أمرًا مستحيلًا»، كان الهتاف الذي سبق هذا النخب عصيًّا على الوصف، وقد راحت الكؤوس تعلو وتهبط مرات مثل أمواج المحيط. ساد الصمت أخيرًا، وتقدم السيد المحترم ويلكنز ميكوبر ليشكر القائمين على الاحتفال. وإننا نعجز هنا عن سرد ما قاله مواطننا المبجل في خطابه المتدفق والسلس مصقول العبارات. ويكفي أن نشير إلى أن خطابه كان تحفة بلاغية، وأن تلك المقاطع التي تتبع فيها مسيرته المهنية الناجحة قد حدد فيها أسباب تقدمه، وحذر الشباب من

---

(١) عنوان افتتاحي وتقليدي لترنيمة لاتينية قصيرة تُستخدم كصلاة شكر وتعبير عن التواضع، مستمدة من المزمور (١١٥ : ١).

الانغماس في مياه ضحلة وتكبد التزامات مالية لا يقدرون على الوفاء بها. وقد جلب هذا الخطاب دموعًا في عين أكثر الحاضرين رجولة وصلابة، كما طلب شرب نخب الدكتور ميل، ونخب السيدة ميكوبر (التي انحنى رأسها برشاقة امتنانًا، بينما هي واقفة عند الباب الجانبي، فنهضت الفتيات الجميلات من مقاعدهن في الحال للنظر إلى هذا المشهد البديع وقد تزين بالجمال) كما شرب نخب السيدة ريدجر بجز (الآنسة ميكوبر سابقًا)، ونخب السيدة ميل والسيد ويلكنز ميكوبر الصغير (الذي اهتزت له الجمعية تصفيقًا بعد إدلائه بملاحظة فكاهية وقد وجد نفسه غير قادر على رد الشكر في خطاب، لكنه سيقدم شكره في أغنية)، كذلك شرب نخب عائلة السيدة ميكوبر (العائلة معروفة، وغني عن التعريف بها في بلدنا الأم)... وفي ختام الجلسات، رفعت الموائد كما لو أن الأمر سحر يمهد لفن الرقص، ومن بين متقني الرقص، ممن اندمجت أرواحهم حتى النهاية، كان السيد المحترم ويلكنز ميكوبر الصغير، والآنسة الجميلة هيلينا، الابنة الرابعة للدكتور ميل، وقد كانا رائعين مميزين».

كنت أنظر إلى اسم دكتور ميل، فأسعد بتذكره في هذه الظروف المرحة، إنه السيد ميل، المعلم الفقير سابقًا، الذي صار قاضيًا في مدلسكس، وقد أشار السيد بيجوتي إلى جزء آخر من الصحيفة، فاستقرت عيناي على اسمي، وقرأت التالي:

«إلى السيد المبجل ديفيد كوبرفيلد،

المؤلف المرموق،

سيدي العزيز،

مرت سنوات منذ أن أتيحت لي الفرصة لإلقاء نظرة متأملة على اللمحات المعروفة الآن لجزء كبير من مثقفي العالم المتحضر.

لكنني يا سيدي العزيز، وعلى الرغم من اغترابي -بسبب ظروف قاهرة خارجة عن إرادتي- وابتعادي عن مقابلة صديقي ورفيق شبابي، فإنني حرصت كل الحرص على متابعة رحلته المحلقة في سماء الشهرة. «وعلى الرغم من أن البحار بيننا تجديف هكتار»[1] (برنز) وقد حالت بيننا والمشاركة في الاحتفاء الفكري بما نشرها أمامنا.

لذلك فإنني لا أسمح لنفسي يا سيدي العزيز بترك هذا الموضع حيث الحديث عن رجل نحترمه ونبجله من دون أن أغتنم الفرصة لشكرك بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن سكان بورت ميدلباي بكامله، والذي قدمت له كل ما يرضيه.

هيا تقدم يا سيدي العزيز، فإنك لست مجهولًا هنا، بل محل تقدير وتبجيل. وعلى الرغم من أننا «بعيدون»، فإننا لسنا «بكارهين» أو «تعساء» أو (قد أضيف) «متخاذلين». هيا سيدي العزيز، فلتحلق في مسارك كالنسر، فإن سكان بورت ميدلباي على الأقل يتطلعون إلى رؤيتك محلقًا فرحًا.

---

(١) من نشيد الوداع للشاعر الاسكتلندي روبرت برنز.

ومن بين الأعين المتطلعة نحوك في هذا الجزء من الكرة الأرضية، ستجد عينًا بما بها من نور وحياة تتطلع نحوك؛

إنها عين

ويلكنز ميكوبر

القاضي».

ألقيت نظرة خاطفة على ما تبقى من محتويات الصحيفة، فاكتشفت أن السيد ميكوبر كان مراسلًا مجتهدًا وله مكانة عالية في هذه المجلة، حيث وجدت رسالة أخرى منه في الورقة نفسها حول إنشاء جسر، وإعلان عن مجموعة من الرسائل المماثلة، مما سيتم إعادة نشرها قريبًا في مجلد أنيق، «مع إضافات كثيرة»، وما لم أكن مخطئًا، فإن المادة الرئيسية لرسائله، كانت خاصة به أيضًا.

تحدثنا كثيرًا عن السيد ميكوبر في أمسيات عديدة أخرى طوال فترة بقاء السيد بيجوتي معنا. لقد عاش معنا طوال فترة وجوده هنا -والتي أعتقد أنها كانت أقل من شهر- ثم جاءت أخته وعمتي إلى لندن لرؤيته. ودعناه أنا وأجنيس على متن السفينة عندما أبحر؛ ولن نودعه على الأرض مرة أخرى.

لكنه قبل أن يغادر، ذهب معي إلى يارموث، ليرى لوحًا صغيرًا كنت قد وضعته في باحة الكنيسة تخليدًا لذكرى هام، وبينما كنت أنسخ له ما كتب على النقش البسيط بناءً على طلبه، رأيته ينحني ويجمع فتيلًا من العشب وقليلًا من تراب هذا القبر.

قال وهو يضع ما جمعه في جيب صدريته: «إنه من أجل إيميلي، لقد وعدتها بذلك يا سيد ديفي».






# الفصل الرابع والستون

## مراجعة أخيرة

تنتهي الآن قصتي المكتوبة. أنظر إلى الماضي مجددًا -للمرة الأخيرة- قبل أن أطوي هذه الصفحات. أنظر إلى نفسي، وأرى أجنيس إلى جانبي، نمضي قدمًا في طريق الحياة، وأرى أبناءنا وأصدقاءنا يحيطون بنا، وأسمع صخب أصوات عديدة لا يمكنني تجاهلها في رحلتي وطريقي. أي وجوه وسط هذا الحشد العابر تلوح أكثر جلاء لعيني؟ عجبًا! لقد التفتت الأوجه جميعها نحوي بينما أطرح هذا السؤال على نفسي.

ها هي عمتي ترتدي نظارتها الغليظة، تبدو عجوزًا في الثمانين من عمرها أو أكثر، لكنها لا تزال منتصبة القامة، قادرة على قطع ستة أميال بخطوات ثابتة في برد الشتاء.

يرافقها دومًا وجه بيجوتي؛ مربيتي العجوز الطيبة، ترتدي هي الأخرى نظارتها، وقد اعتادت على الحياكة في المساء، فتجلس بالقرب من المصباح، لكنها لا تجلس للعمل أبدًا من دون قطعة من

الشمع ومازورة قياس في حافظتها الصغيرة وصندوق أدوات الحياكة الذي تغطي غطاءه صورة كنيسة القديس بولس. تبدو وجنتا وذراعا بيجوتي، بارزة العظام مجعدة البشرة، بينما كانت تلوح لي مشدودة حمراء في أيام طفولتي، وكنت أعجب حينها كيف لا تنقرها الطيور وتفضلها عن التفاح، أما الآن فقد صارت ذابلة. أما العينان اللتان اعتادتا أن تلقيا بظلالهما على ملامح وجهها، فقد صارتا الآن أضعف بصرًا، وإن ظلتا تتألقان بريقًا. أبقت سبابتها الخشنة التي تشبه مبشرة جوزة الطيب على حالها، وعندما أرى طفلتي الصغيرة تلتقطها وهي تسير مترنحة من عمتي إليها، أتذكر غرفة جلوسنا الصغيرة في بيتنا القديم حينما كنت أحاول السير بخطواتي الأولى. ها قد انقشع استياء عمتي القديم، فقد صارت جدة حقيقية لبيتسي تروتوود، وتقول دورا -الابنة الثانية بين أطفالي- إنها تفسدها بتدليلها لها.

يظهر شيء ضخم في جيب بيجوتي، وهو لا يبدو أقل حجمًا من كتاب التماسيح، وقد صارت حالته الآن متداعية، وتمزق الكثير من أوراقه وبلت خيوطه، لكن بيجوتي لا تزال تعرضه على الأطفال كما لو أنه من الآثار الثمينة. ويا للعجب إذ أجد وجه طفولتي مطلًّا متطلعًا إليَّ من بين قصص التماسيح، يُذكرني بصديقي القديم بروكس أوف شيفيلد.

أرى في العطلة الصيفة رجلًا عجوزًا وسط أطفالي يصنع طائرات ورقية عملاقة، ويحدق فيها محلقة في الهواء، بفرحة تعجز الكلمات عن وصفها. يحييني بحماسة بالغة، ويهمس لي بعد إيماءات وغمزات

عديدة فيقول: «يا تروتوود، ستسعد عندما تعرف أني سأنهي كتابة المذكرات حين لا أجد شيئًا آخر لأفعله، وأن عمتك هي أكثر النساء روعة في العالم يا سيدي».

مَن هذه السيدة مقوسة الظهر التي تستند إلى عصا، وتُظهر لي وجهًا لا يزال يحتفظ ببقايا كبرياء وجمال قديمين، يحاولان بضعف أن يواجها شرود ذهن وشيئًا من النكد والغضب؟ إني أراها في الحديقة، تقف بالقرب منها امرأة حادة الملامح سمراء هزيلة الجيد بندبة بيضاء. اسمحوا لي أن أنصت إلى حديثهما:

«روزا، لقد نسيت اسم هذا السيد».

تنحني روزا نحوها وتقول لها: «السيد كوبرفيلد».

«إنني سعيدة برؤيتك يا سيدي. يؤسفني أن أراك في ثوب الحداد. أرجو أن تصير بحال أفضل بمرور الوقت».

وبَّختها مرافقتها بضجر، قائلة لها إنني لست في ثوب حداد، وحثتها على النظر لي مجددًا، محاولة تنبيهها.

تقول السيدة العجوز: «لقد رأيتَ ابني يا سيدي، هل تصالحت معه؟».

نظرت إليَّ بثبات، ثم وضعت يدها على جبهتها، وتأوهت. أجدها تبكي فجأة بصوت مريع صائحة: «يا روزا، تعالي إليَّ، لقد مات». تنحني روزا عند قدميها، فتلاطفها ثم تتشاجر معها، ثم تصيح بحدة قائلة: «لقد أحببته أكثر مما أحببته أنتِ». ثم تلاطفها من جديد حتى

تنام على صدرها كطفل مريض. هكذا أتركهما، وهكذا أجدهما دائمًا، وهكذا تقضيان وقتهما بعيدًا عامًا بعد عام.

أي سفينة تبحر قادمة من الهند، وأي سيدة إنجليزية قادمة على متنها وقد تزوجت من اسكتلندي عجوز ترفرف أذناه المتدليتان؟ أيمكن أن تكون هذه السيدة هي جوليا ميلز؟

إنها جوليا ميلز بالفعل، بشموخها وروعتها، بصحبة رجل أسمر يحمل إليها بطاقات ورسائل على صينية من الذهب، وامرأة ببشرة نحاسية ترتدي ثوبًا كتانيًّا ووشاحًا مشرق اللون حول رأسها؛ تقدم إليها الغداء في حجرة ارتداء الثياب. إلا أن جوليا لا تدون يومياتها في هذه الآونة، ولا تغني للغرام أبدًا، وتتشاجر دائمًا مع الاسكتلندي العجوز كرويسيوس الذي يبدو كدب أصفر ذي فراء مصبوغ. صارت جوليا غارقة في المال حتى أذنيها، فلا تفكر في شيء سواه. أما أنا فكنت أحبها أكثر في أيام الصحراء الكبرى.

لعل هذه هي الصحراء الكبرى! إن جوليا تملك منزلًا فخمًا ومعارف من علية القوم وتحظى بمآدب عشاء فاخرة كل يوم، إلا أنني لا أرى نباتًا يانعًا ينمو بالقرب منها، ولا أرى شيئًا قد يثمر أو يزهر. أما ما تصفه جوليا بأنه «مجتمع» ومن بينهم السيد جاك مولدن قادمًا من مقر براءة الاختراعات، ساخرًا من اليد التي منحته إياها، متحدثًا عن الدكتور باعتباره «تحفة ساحرة من الزمن الغابر». ولكن عندما يكون المجتمع هو الاسم الذي يُطلق على مثل هذه الصحبة التافهة من السادة والسيدات يا جوليا، وعندما يعلن عن لا مبالاته المزعومة تجاه كل

شيء من شأنه أن يفضي بالبشرية إلى التقدم أو يؤخرها عن التخلف، فإنني أتصور أننا نكون قد أضعنا أنفسنا في الصحراء الكبرى، ويجدر بنا حينها أن نجد سبيلًا للخروج.

ها هو الدكتور، لم يزل صديقنا الطيب دائمًا، ولا يزال يعمل في قاموسه -اقترب فيه من حرف الدال- وهو سعيد في منزله مع زوجته. كما أرى أيضًا الجندي العجوز قد قل شأنها إلى حد كبير، ولم تعد مؤثرة بأي حال من الأحوال على عكس ما كانته في الأيام الخوالي.

ألتقي في وقت لاحق بصديقي العجوز ترادلز، وهو منهمك في العمل في منزله، وشعره -أو ما تبقى من شعره في أرجاء صلعته- قد لاح أكثر هوجائية من قبل نتيجة احتكاكه الدائم بضفائر الشعر المستعار للمحامين. أما طاولته فمغطاة بأكوام مكدسة من الورق، فأقول عندما أنظر حولي: «لو كانت صوفي موظفة تنسخ لك الآن يا ترادلز، لوجدت الكثير من العمل لتقوم به».

يجيب قائلًا: «عندك حق فيما تقول يا عزيزي كوبرفيلد. لكن ألم تكن تلك الأيام التي عشناها في هلبورن كورت عظيمة؟».

«حين قالت لك إنك ستصير قاضيًا؟ ولكن لم يكن ذلك هو حديث البلدة حينها».

يقول ترادلز: «على أي حال، إذا كتب لي أن أكون يومًا قاضيًا...».

«عجبًا، إنك تعرف أنك ستصير يومًا واحدًا منهم».

«حسنًا يا عزيزي كوبرفيلد، عندما أصير واحدًا منهم سأخبرهم بالقصص التي وعدتك بأن أحكيها».

نمضي بعيدًا، متشابكي الأذرع. أمضي لتناول عشاءً أسريًّا مع ترادلز، احتفالًا بعيد ميلاد صوفي، وفي طريقنا يحدثني ترادلز عن الحظ الجيد الذي تمتع به.

يقول ترادلز: «لقد استطعت فعلًا يا عزيزي كوبرفيلد أن أحقق كل ما أردته من كل قلبي. ها قد ترقَّى القس المبجل هوراس حتى صار يتحصل على أربعمائة وخمسين جنيهًا سنويًّا، وها هما ولدانا الكبيران يتلقيان أفضل تعليم، يمتازان بالإقدام على طلب العلم ويتمتعان بطيب الخلق، كما تزوجت ثلاثة بنات فإذا بهن ينعمن بزواج سعيد، وثمة ثلاث بنات أخريات يعشن معنا، وثلاثة أيضًا يتولين شؤون المنزل من أجل المبجل هوراس منذ قضت السيدة كرولر نحبها، وجميعهن سعيدات».

قلت متوقعًا: «عدا؟».

يقول ترادلز: «عدا الجميلة. كان من سوء حظها الشديد أن تزوجت أفَّاقًا. كان محاطًا بهالة من البريق الزائف الذي تميز به وهو ما جذبها إليه. لكنها تعيش الآن آمنة في منزلنا، وقد تخلصت منه، وعلينا أن نبعث في قلبها البهجة مجددًا».

كان منزل ترادلز أحد المنازل التي اعتاد هو وصوفي المرور بها في نزهاتهما المسائية، وقد تمنيا المقام فيه. إنه منزل كبير، لكن ترادلز

يُبقي أوراقه في حجرة الثياب، ويُبقي حذاءه بصحبة أوراقه، بينما يحشر نفسه هو وصوفي في الغرف العلوية، ويحفظ الغرف الأفضل للجميلة والبنات. ليس في المنزل غرف يمكن الاستغناء عنها، لأن البنات يتوافدن إلى هنا دائمًا بمقتضى صدفة ما أو لأسباب ما لا يمكنني تعدادها. ما إن ندخل هذا المنزل حتى نجد حشدًا منهن يهرعن إلى الباب، ويستأذن ترادلز كي يسمح لهن بأن يُقبلنه، وينخرطن في تقبيله حتى تنقطع أنفاسه. تقيم الجميلة المسكينة هنا في هذا المنزل، وقد صارت أرملة لها ابنة صغيرة. وهنا على مائدة العشاء في عيد ميلاد صوفي توجد الفتيات الثلاث المتزوجات بصحبة أزواجهن، بالإضافة إلى شقيق أحد الأزواج وابن عم آخر وشقيقة ثالث، وهي تبدو لي أنها على وشك أن تتم خطبتها لابن عم الزوج الثاني. لا يزال ترادلز كعادته الرجل البسيط ذاته، صادقًا على فطرته كما كان دائمًا، يجلس على رأس الطاولة الكبيرة كالقائد، تتألق نحوه عينا صوفي من الطرف الآخر للمائدة، فتضفيان عليه بريقًا مبهجًا، لكنه لا يضاهي بالتأكيد بريق معدن بريطانيا.

والآن عندما أنتهي من مهمتي، وقد نجحت في كبح جماح رغبتي في الاستزادة، تتلاشى هذه الوجوه من حولي. لكن وجهًا واحدًا يشرق مطلًّا عليَّ كنور سماوي أرى من خلاله كل شيء آخر، وهو أعلى وأسمى مما سواه، وهو الباقي.

ألتفت إليه فأراه، إنه الصفاء الجميل الموجود بجانبي.

يخفت ضوء مصباحي، وقد استغرقت في الكتابة طوال الليل، ولكن الحضور اللطيف الذي أنا من دونه لا شيء يؤنسني.

آه يا أجنيس، آه يا روحي. عسى أن يظل وجهكِ بجانبي عندما يحين أجلي، وعسى أن تظلي بجانبي حين تنسل مني الحقائق كالظلال التي أصرفها الآن عني، فأجدكِ بالقرب مني، مشيرة إلى أعلى.









تشارلز ديكنز

# ديفيد كوبرفيلد

---

يصعب عليّ الابتعاد عن هذا الكتاب أو تحمل إحساس الانتهاء منه، ولا يسعني سوى أن أشير إليه برباطة جأش بهذا العنوان الرسمي الذي يتطلبه، إذ لم يزل أثره يلازمني وقد أوليته اهتمامًا بالغًا، بل لم يزل خاطري منقسمًا بين اللذة والندم؛ حيث لذة إنجاز عمل طويل، وندم فراق الأصدقاء. وإني لأخشى أن أثقل على القارئ العزيز بمشاعري وسرائر وجداني. أما ما يمكنني أن أقوله عن القصة لأي غرض، فقد ضمنته بين كلماتها.

قد يهتم عدد يسير من القراء بمعرفة مبلغ حزن الكاتب حين يزيح قلمه في نهاية عمل إبداعي عايشه طيلة عامين، وأي شعور يلفه بعد أن يفرغ من عمل إبداعي انسابت فيه أفكاره؛ كأنما انتزع جزءًا من روحه وقذف به في عالم الغموض. ولا يسعني أن أزيد القول إلا بأن أعترف اعترافا هو علي هين مفاده أنه ليس بوسع قارئ أن يصدق هذه الرواية، بما يفوق إيماني بها حين سطرتها.

تشارلز ديكنز


ISBN 978-977-765-332-9

